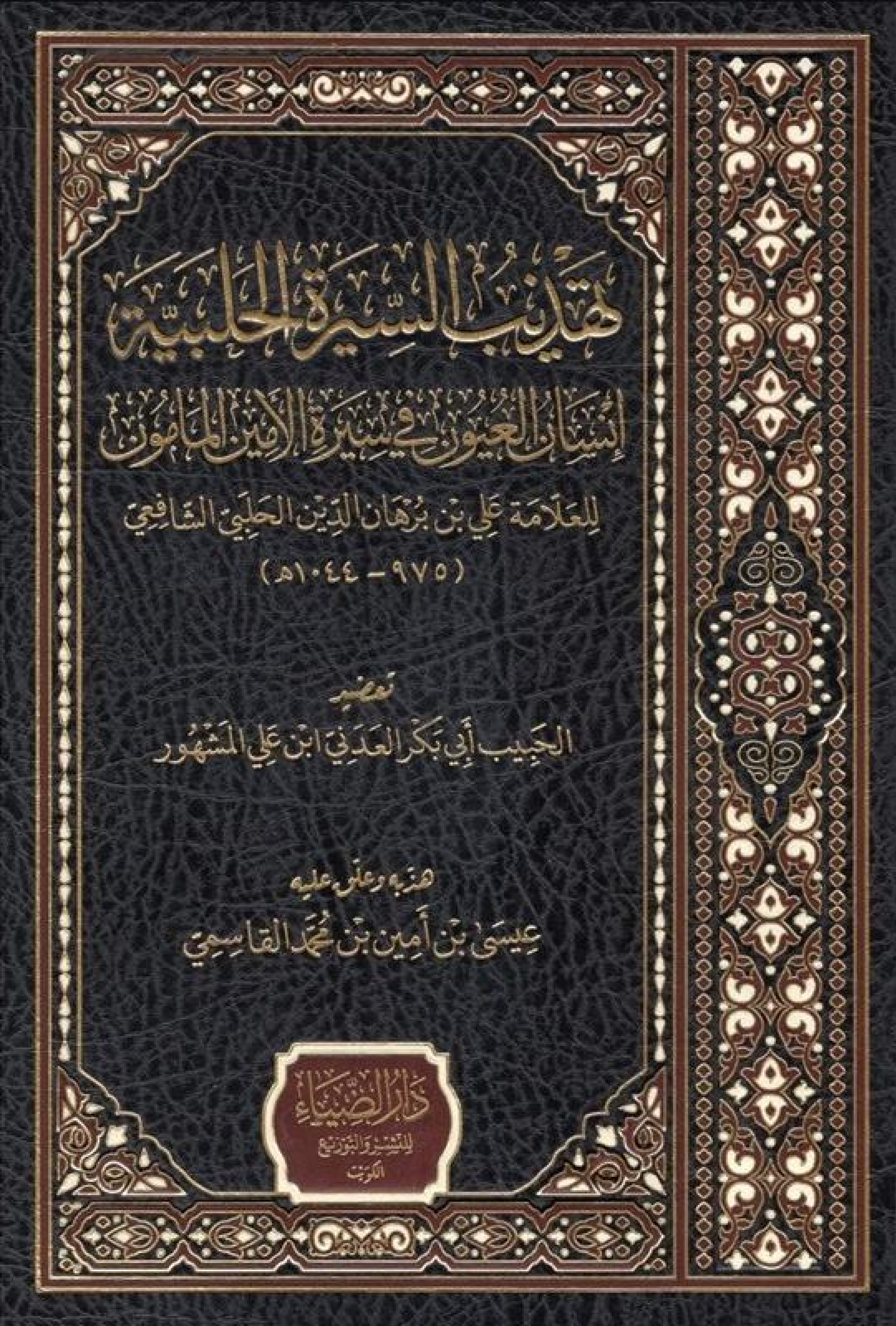

تهذيب السيرة الحلبية
إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون
للعلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي
(٩٧٥ - ١٠٤٤هـ)
تقديم
الحبيب أبي بكر العدني ابن علي المشهور
هذبه وعلق عليه
عيسى بن أمين بن محمد القاسمي
دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت

الطَّبعَةُ الأُولَى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

التَّجْلِيدُ الفَنِّي
شركة فؤاد البعينو للتجليد ش.م.م
بَيرُوت - لُبنَان

www.daraldeyaa.net
info@daraldeyaa.net





دار الضياء
للنشر والتوزيع

الكويت - حولي - شارع الحسن البصري
ص.ب. ١٣٤٦ حولي
الرمز البريدي: ٣٢٠١٤
تلفاكس: ٠٠٩٦٥٢٢٦٥٨١٨٠
نقال: ٠٠٩٦٥٥٠٤٠٩٩٢١

Dar_aldheyaa2@yahoo.com
Abdou20201@hotmail.com



الموزعون المعتمدون

دولة الكويت:
دار الضياء للنشر والتوزيع - حولي — تليفاكس: ٢٢٦٥٨١٨٠ — نقال: ٥٠٤٠٩٩٢١

جمهورية مصر العربيَّة:
محمول: ٠٠٢٠١٠٠٠٣٧٣٩٤٨
دار الأصالة للنشر والتوزيع - المنصورة — محمول: ٠٠٢٠١٠٩٨٣٢٥٨٣٢

المملكة العربية السعودية:
مكتبة الرشد - الرياض — هاتف: ٤٣٢٩٣٣٢ - ٢٠٥١٥٠٠
دار التدمرية للنشر والتوزيع - الرياض — هاتف: ٤٩٢٥١٩٢ — فاكس: ٤٩٣٧١٣٠
دار المنهاج للنشر والتوزيع - جدة — هاتف: ٦٣١١٧١٠
مكتبة المتنبي - الدمام — هاتف: ٨٣٤٤٩٤٦ — فاكس: ٨٤٣٢٧٩٤

المملكة المغربية:
دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء — هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٢٧٤٨١٧

الجمهورية التركية:
مكتبة الإرشاد - إسطنبول — هاتف: ٠٢١٢٦٣٨١٦٣٣/٣٤ فاكس: ٠٢١٢٦٣٨١٧٠٠

جمهورية داغستان
مكتبة ضياء الإسلام — هاتف: ٠٠٧٩٨٨٣٠٣١١١١ - ٠٠٧٩٨٨٧٧٣٠٣٠٦
مكتبة الشام - خاسافيورت — هاتف: ‎+٧٩٢٨٨٧٢٩٥٠٥ - ‎+٧٩٢٨٨٦٦١٤٧٤

الجمهورية اللبنانيَة:
دار إحياء التراث العربي - بيروت — هاتف: ٥٤٠٠٠٠ — فاكس: ٨٥٠٧١٧

الجمهورية العربية السوريَّة:
دار الفجر - دمشق - حلبوني — هاتف: ٢٢٢٨٣١٦ — فاكس: ٢٤٥٣١٩٣

الجمهورية السودانية:
مكتبة الروضة الندية-الخرطوم- شارع المطار هاتف: ٠٠٢٤٩٩٩٠٠٤٣٥٧٩

المملكة الأردنية الهاشمية:
دار الرازي - عمان - العبدلي — تلفاكس: ٤٦٤٦١١٦
دار محمد دنديس للنشر والتوزيع - عمان — هاتف: ٦٤٦٥٣٣٩٠ — تلفاكس: ٦٤٦٥٣٣٨٠

الجمهورية اليمنيَة:
مكتبة تريم الحديثة - تريم — هاتف: ٤١٧١٣٠ — فاكس: ٤١٨١٣٠

دولة ليبيا:
مكتبة الوحدة - طرابلس — هاتف: ٠٩١٣٧٠٦٩٩٩ - ٠٢١٣٣٣٨٢٣٨
شارع عمرو ابن العاص



تهذيب السيرة الحلبية

إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون

للعلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي

(٩٧٥ - ١٠٤٤هـ)

تعضيد

الحبيب أبي بكر العدني ابن علي المشهور

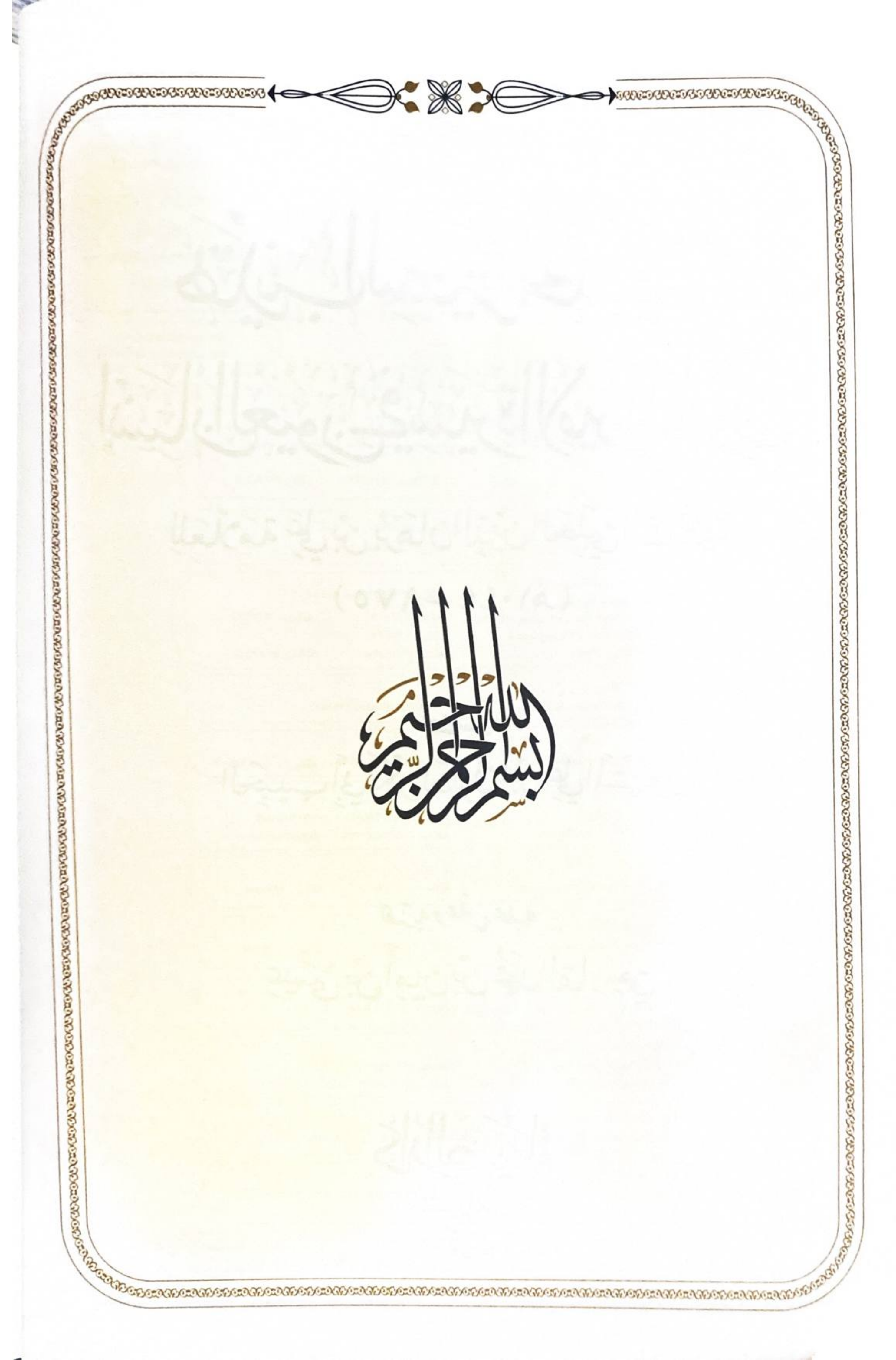
هذبه وعلق عليه

عيسى بن أمين بن محمد القاسمي

دار الضياء

للنشر والتوزيع

الكويت


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

السّيرةُ النبويّةُ منهاج الرّشادِ والإرشاد، والسّبيلُ الأعظمُ لمعرفةِ سُلوكِ خيرِ العباد؛ سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم، الذي أزالَ الظُّلَمَ وهَدَى الأُمَمَ، بمعجزاتٍ شهيرةٍ باهرة، ودلالاتٍ واضحةٍ ظاهرة، كان منها ما تركه للإنسانيّة من حياةٍ كاملةٍ في شتّى وكافّة جَوَانِبِ الحياة المعيشيّة، تجسَّدَتْ فيها كُلُّ صِفاتِ القدوةِ وتجلّتْ منها جُلّ معاني الأسوة، فصارَ القدوةَ في أخلاقِه ومعامَلته، وصبرِه وشجاعتِه، وصِدْقِه وأمانتِه، وتعليمه وتفهيمه، ورأفته بجميع الخلق وأسلوبه في قول الحقّ، والدّليلَ الذي يُعطي البشريةَ مثالاً أعْلَى وأَجْلَى ونموذجاً أسمى وأرقى، يتمسّك به ويحذو حذوَه كلّ إنسان؛ مَن كان قائداً حاكماً، أو عالماً إماماً.

فالسّيرةُ النبويّةُ هي الشّمسُ النيّرة على وجهِ الحقيقة، التي تشعّ وتنبثقُ منها أنوارُ المبادِئ الإسلامية والأخلاق السّامية، وهي الإكسيرُ الذي به يُفْهَمُ كِتابُ الله تعالى وتُعرفُ مقاصِدُه، إذْ أَنَّ كثيراً منَ الآياتِ القرآنيّة لا يتجَلّي تفسيرُها إلا بمعرفة الأحداث النبوية، فالرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم هو التّرجمَانُ الجليُّ والتفسيرُ العَمَلِيُّ لكل ما ورد في القرآن، من توجيهاتٍ إرشاديّة وأوامر ونواهٍ ربانيّة، وحُقّ للسّيدةِ عائشة بنتِ الصّديق أنْ تقولَ في هذا المقام ـ وقد سُئِلَتْ رضي الله عنها عَن خُلُقِه عليه الصلاة والسلام ـ: (كانَ خُلُقُهُ القُرْآن). كما أنَّ القرآنَ الكريم أيضاً هو المصدرُ الأوّل



لمعرفةِ السيرة ، حيث قد أجمل كثيراً من أحداثها وأوضح جملة من وقائعها ، كما يتجلى مثال ذلك في سورة الأنفال التي تحدثت عن غزوة بدر ، فأبانت أسباب العزّة والنصر ، وأَتتْ بزُبْدَةِ القول وخُلاصة الخبر .

إنّ الدّارسَ للسّيرةِ النّبويّةِ والمتعَمِّق فيها يجدُ مُتعَةً رُوحيّةً حقيقية ؛ لأنّها مِنْ عالم الحقيقةِ لا الخيال ، وتأمّلٌ في الواقِع لا ضَرْبٌ مِن ضُروبِ الأمثال ، فهيَ من أنجَع وأنجَح وسَائل التّعليمِ والتّربيةِ ، والسّبيلُ الأقوى والأقومُ لاكتسابِ الصّفاتِ النبيلةِ والأخلاقِ الفضيلة ، فالدّارس لها يصْطَحِبُ معَه الرّسولَ الكريمَ صلى الله عليه وآله وسلم ، وصحابتَه الذين هم أشرفُ جِيلٍ شهِدَتْهُ البَشَرِيّة وعرفَتْهُ الإنسانيّة ، والذين يُفْتَخَرُ بشجاعتِهم ، ويُتَعلّمُ منهم دروساً كثيرة ؛ في الصّبرِ والثّبات ، والبذْلِ والأخوّة والمواساة . . ، ولذلك بذلتِ الأمّةُ جهداً ليسَ له نظير في تدوين هذه السيرة الجليلة ، وفي الاعتناء بها ، على مدى القرون .

وبين أيدينا أصحّ سِيرةٍ لحياةِ نبيٍّ مُرسل ، وصلَت إلينا بأصحّ الطّرق العلمية وأقواها ثبوتاً ، فهيَ الجزءُ المهمّ الموثّق من تاريخِ الإنسانية ، ولذا فإنّ دِرَاسَتَها مهمّة لمعرفة مناهج الإصلاح والتغيير ، والخروج من الأزماتِ الخانقةِ ، والنّجاة من الفِتَنِ المُتلَاحِقةِ ، التي يقِفُ وراءَها أعداءُ الإسلام ورُعاةُ الشرّ من عُتاةِ الأنام ، لِيُرْبَطَ حاضِرُ الأمّةِ بماضِيها ، فتَسْتَخْلِصَ الأمّة مِنَ الدّروسِ النّبويّةِ ما به تَسْتَضِيءُ في مَسِيرَتِها ، وتخرُجَ بهِ مِن الظّلماتِ المتراكمةِ فوقَ بعضِها ، إذْ مَا مِن مُشكلة حاصلة إلا ولها في السّيرة النبويّة حوادث مماثلة .

لَقَدْ أُلِّفَ في السّيرةِ النّبويّة كتبٌ كثيرةٌ وكبيرةٌ تليقُ بجَنَابِ الحبيبِ الأعظم سيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتُؤَدّي بعضَ الحقِّ الذي له على أُمّتِه ؛ مِنْ حِفْظِ سِيرتهِ

ومعرفةِ شمائلِه، وكانَ مِنْ تلك الكتبِ العظيمة كتاب (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) الذي اشتهرَ باسم (السّيرة الحلبية)، للإمام العلّامة علي بن برهان الدين الحلَبي رَحِمَهُ اللهُ تعَالى، ولكِنّ ضخامة حجم الكتاب، وما حصَل فيه مِنَ الاستطرادات والإطْناب قلّلَ منَ الانتفاع به، وقلّصَ من المُطالعة فيه عند طلابِ العلم المتفرّغين لتَحْصِيلِه فضْلاً عن غيرِهم.

فَانبَرَى الباحثُ عيسى بن أمين بن محمد القاسمي ـ حفظهُ اللهُ تعالى ورعاه وأطال في خير وعافية بقاه ـ لتهذيبه وترتيبه، بأسلوبٍ مُبَسّطٍ واضحٍ، وطريقةٍ محبّبةٍ شيّقة، تميل لها النّفوس بطبعها، وتنجذبُ إليها العقول بأسرها؛ لأنّ الأسلوبَ الذي سَلكَه يَسهُل فهْمُه، ويتيسّرُ استيعابُه وتعلّمُه، وفوق هذا فقد زَيَّن الكتاب بتعليقات مفيدة ومعلومات سديدة، أضْفَتْ على الكتاب رَوْنقاً وحُسْناً، وجودة وإتقانا؛ ليتَحقّق بهذا التهذيبِ الأمَلُ المرجو والبُغيةُ المنشودة التي طالما أَملّها كثيرٌ من شُيُوخ وطلاب العلم الشريف حيث كانوا يرجون أنْ يُهَذّبَ كتاب (السيرة الحلبية)؛ ليَعمَّ ويُسهلَ الانتفاعُ به على أوسَع نِطاق.

وإنّنا إذْ نزُفّ للأمّةِ الإسلاميّة هذا الكتاب بحُلّته القَشِيبة ومعلوماته العجيبة، نُنبِّه إلى أنه لا يعرف قيمة هذا الكتاب والجهد المبذول فيه إلا من قرأه وتأمّله؛ لأنّ العبارات لا تفي بالبيان كما أنّ الخبر ليس كالعيان، وننبه إلى أنه لا يغني كتاب عن كتاب.. فهذا التهذيبُ لا يغني عن أصلِه بالجُمْلَة كما أنَّ مَن يمتلك الأصل لا يزال إلى هذا التهذيب في حاجة.

الناشر

الإهداء

يَـا سَـيِّداً شَـرَّفَ الـدُّنْيَا بِطَلْعَتِـهِ ... وَأَشْـرَقَ الكَـونُ مِـنْ أَنْـوَارِ بَهْجَتِـهِ

يَا خَـاتَمَ الرُّسْلِ يَـا خَيْـرَ العِبَـادِ وَيَـا ... دَاعِـي البَرَايَـا لِيَحْيَـوا فِـي مَعَزَّتِـهِ

يَـا مَـنْ تَنَـزَّهَ عَـنْ نِـدٍّ يُشَـابِهُهُ ... فِي الخُلْقِ مِنْهُ وَفِي أَوْصَـافِ خِلْقَتِهِ

أُهْدِيكَ يَـا سِيِّدِي هَـذَا الكِتَـابَ بِمَـا ... فِيـهِ مِـنَ السِّـيرَةِ العُظْمَـى بِحَوْزَتِـهِ

أَطْـوَارُ مَحْيَـاكَ فِـي دُنْيَائِنَـا حَتَّـى ... لَحِقْـتَ بِـالمَلأِ الأَعْلَـى وَجِيرَتِـهِ

هَذَّبْتُـهُ فَغَـدَا كَالشَّـمْسِ فِـي كَبِـدٍ ... حُسْـناً وَكَالعِقْـدِ نظمـاً فِـي صِنَاعَتِهِ

مِنْ سِيرَةِ الحَلَبِي اسْتَخْلَصْتُ جَوْهَرَهُ ... طَرَّزْتُـهُ فَبَـدَا يَزْهُـو بِنُضْـرَتِهِ

قَـدْ كُلِّلَـتْ بِحُـرُوفِ النُّـورِ أَسْطُرُهُ ... أَقْوَالُـكَ الغُـرُّ أَبْدَتْـهُ بِزِينَتِـهِ

وَجُـلُّ قَصْـدِيَ أَنْ أُحْظَـى بِنَظْـرَتِكُمْ ... يَـا خَيْـرَ مَـنْ مُتِّعَـتْ عَـينٌ بِرُؤْيَتِـهِ

فَجُـدْ بِمَـأْمُولِ نَجْـلِ القَاسِمِي كَرَماً ... فَأَنْـتَ أَكْـرَمُ مَـنْ يَرْجُـو لِشِـدَّتِهِ

صَـلَاحَ أَمْـرِيَ فِـي الـدُّنْيَا وَآخِرَتِـي ... أَرْجُـو وَوَصْـلاً بِمَـنْ أَرْقَـى بِصُحْبَتِهِ

فَاقْبَـلْ فَـدَيْتُكَ يَـا مَـوْلَايَ مَـا رَقَمَـتْ ... إِلَيْـكَ مِنْـكَ يَـدِي أَنْعِـمْ بِعَوْدَتِـهِ

بُشْـرَايَ إِنْ قُبِلَـتْ مِنِّـي الهَدِيَّـةُ قَـدْ ... حُـزْتُ المُنَـى كُلَّـهُ مِـنْ فَـيضِ نِعْمَتِـهِ

وَمِـنْ جَنَـابِ رَسُـولِ اللهِ أَبْـرِزُهُ ... لِأُمَّـةٍ بُلِيَـتْ فِـي طُـولِ جَفْوتِـهِ

يَــا أُمَّــةً طَالَمَــا قَلَّــتْ عِنَايَتُهَــا ... بِــدِينِ طَــهَ وَبِاسْــتِقْرَاءِ سِــيرَتِهِ
هَــاكِ كِتَابــاً بِــهِ أَخْبَــارُ قُــدْوَتِنَا ... فَمَتِّعِــي الطَّــرْفَ فِــي تَــذْكَارِ مِنَّتِــهِ
وَفِـي شَـمَائِلِ مَـنْ لَـوْلَاهُ مَا طَلَعَـتْ ... شَـمْسُ الهِدَايَـةِ مِـنْ أَسْـرَارِ دَعْوَتِـهِ
إِنْ كَـانَ يَـا أُمَّتِي مِنْكِ الحَنِينُ إِلَى ... مَـنْ حَـنَّ شَـوْقاً إِلَيـهِ جِـذْعُ رَوْضَـتِهِ
فَلْتَقْرَئِـي سِـيرَةَ النُّـورِ الَّـذِي لَـولَا ... دُعَــاؤُه بَقِــيَ العَبْــدُ بِشِــقْوَتِهِ
وَلْتَقْتَفِــي نَهْجَــهُ فَــالخَيْرُ أَجْمَعُــهُ ... فِي هَدْيِـهِ فَاعْكِفِي فِي بَـابِ حَضْرَتِـهِ
وَشَــنِّفِي كُــلَّ سَــمْعٍ مِــنْ مَدَائِحِــهِ ... لَا تَمْلَئِــي القَلْــبَ إِلَّا مِــنْ مَحَبَّتِــهِ
بُثِّــي شَــمَائِلَهُ فِــي كُــلِّ نَاحِيَــةٍ ... وَأَسْـمِعِي العَــالَمَ المَكْسُـو بِظُلْمَتِـهِ
أَخْبَــارَهُ عَلَّهُــمْ إِنْ يَرْقُبُــوا فَرَجــاً ... يَــؤُمُّ جَمْعُهُــمُ لِشَــطْرِ قِبْلَتِــهِ
فَلَــيسَ لِلْعَــالَمِ المَنْكُــوبِ تَرْقِيَــةٌ ... كَـلَّا وَلَا مَخْـرَجٌ مِـنْ ضِـيقِ أَزْمَتِـهِ
إِلَّا بِعَوْدَتِــهِ لِــنَهْجِ مَــنْ عَظُمَــتْ ... مِنْــهُ العَطَايَــا لِمَــنْ يَــدْنُو لِحَوْمَتِــهِ
هُــوَ النَّبِــيُّ الـذِي عَمَّـتْ رِسَـالَتُهُ ... وَالخَـتْمُ لِلْـوَحْيِ حَقّـاً فِـي نُبُوَّتِـهِ
مُحَمَّـدٌ مَـا بَـرَى الخَـلَّاقُ مِـنْ أَحَـدٍ ... كَمِثْلِـهِ قَــطُّ فِــي شَــتَّى بَرِيَّتِــهِ
وَأَفْضَــلُ الخَلْـقِ طُـرّاً لَـنْ يُدَانِيَـهُ ... مِـنَ الخَلَائِـقِ فَـرْدٌ فِـي مَكَانَتِـهِ
لَــهُ السِّــيَادَةُ إِطْلَاقــاً، وَخَالِقُنَــا ... أَوْحَـى لَنَـا أَنَّـهُ مِـنْ عَـيْنِ رَحْمَتِـهِ
اللهُ جَمَّلَــــهُ حُسْــــناً وَقَدَّمَــــهُ ... فَضْـلاً وَتَوَّجَـهُ مِـنْ تَـاجِ عِصْـمَتِهِ
مُكَمَّلُ الوَصْفِ فِي الحَالَاتِ أَجْمَعِهَا ... وَالحِلْـمُ وَالجُـودُ كَانَـا مِـنْ جِبِلَّتِـهِ

كَمْ مِنْ مَدَائِـحَ لَا نُحْصِي لَها عَـدَداً ... لِكِنَّهَـا قَطْـرَةٌ فِـي بَحْـرِ لُجَّتِـهِ

فَمَـا سَعَى الخَلْقُ بَحْثاً فِي شَمَائِلِهِ ... وَأُجْهِـدُوا فِـي تَقَصِّـي كُنْـهِ حِلْيَتِـهِ

إِلَّا وَلَاحَ لَهُـمْ مِـنْ سِـرِّهِ عَجَـبٌ ... فَـأَيْقَنُوا عَجْـزَهُمْ عَـنْ فَهْـمِ رُتْبَتِـهِ

يَـا رَبِّ صَـلِّ عَلَيـهِ دَائِمـاً أَبَـداً ... وَاجْعَـلْ سَـلَامَكَ يَتْـرَى فَـوْقَ قُبَّتِـهِ

وَابْلِغْـهُ عَنَّـا سَـلَاماً لَـيسَ يَحْصُـرُهُ ... عَـدٌّ وَيُعْجَـزُ عَـنْ إِحْصَـاءِ كَثْرَتِـهِ

وَاشْـمَلْ بِهِ الآلَ وَالأَصْـحَابَ قَاطِبَةً ... وَالتَّـابِعِينَ لَهُـمْ مِـنْ أَهْـلِ مِلَّتِـهِ

١٣/ رجب الحرام/ ١٤٣٩هـ

تَعْضِيد

للدّاعيَة والمفكر الإسلامي الحبيب العَلامَة

أَبِي بَكْرٍ العَدَنِي ابْن عَلِي المَشْهُور

عميد كلية الوسطية الشرعية للعلوم الإسلامية والموجه العام
لأربطة التربية الإسلامية ومراكزها التعليمية والمهنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَكْرِمْ بِهَا مِنْ سِيرَةٍ لِلْحَلَبِي ... ضَمَّنَهَا سِيرَةَ خَيْرِ العَرَبِ
أَفَاضَ فِيهَا مَا أَفَاضَ وَبَنَى ... جِدَارَ أَخْلَاقِ النَّبِيِّ اليَثْرِبِي
قَدْ عُرِفَتْ مُنْذُ القَدِيمِ أَنَّهَا ... مِنْ أَفْضَلِ التَّصْنِيفِ بَينَ الكُتُبِ
إِنْسَانُ عَيْنِ الزَّمَنِ الزَّاهِي بِهِ ... صَلَّى عَلَيهِ اللهُ طولَ الحِقَبِ
إِنْ شِئْتَ تَدْرِي سِرَّ أَيَّامِ العَطَا ... فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ المُحَبَّبِ
فَاعْكِفْ عَلَيهَا واصْطَبِرْ تَلْقَى بِهَا ... مَا أَنْتَ تَرْجُو مِنْ عَظِيمِ المَكْسَبِ
وَمَنْ أَرَادَ الاخْتِصَارَ رَاغِبَاً ... فِي مُجْمَلِ التَّأْلِيفِ دُونَ تَعَبِ
فَلْيَنْظُرِ التَّهْذِيبَ هَذَا فَبِهِ ... يَسْتَوْعِبُ الطَّالِبُ لُبَّ المَطْلَبِ
هَذَّبَهُ عِيسَى الأَمِينُ القَاسِمِي ... وَمُهْدِياً تَهْذِيبَهُ إِلَى النَّبِي
لَعَلَّ أَنْ يَحْظَى بِمَا يَأْمَلُهُ ... فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَفِي المُنْقَلَبِ

فَقَدْ أَجَادَ الاخْتِصَارَ وَبَنَى   أَسَاسَهُ عَلَى الْتِزَامِ المُوجِبِ
مِمَّا لَهُ عَلَاقَةٌ لَصِيقَةٌ   بِسِيرَةِ المُخْتَارِ بَينَ الكُتُبِ
أَمَّا الَّذِي اسْتَطْرَدَهُ فِي شَرْحِهِ   مَكَانُهُ الأَصْلُ لِذِي تَشَعُّبِ
فَمَنْ يُرِدْ تَوَسُّعاً مُفَصَّلاً   يَلْقَاهُ فِي نَصِّ الكِتَابِ الحَلَبِي
سَأَلْتُ رَبِّي النَّفْعَ فِيمَا صَاغَهُ   لِطَالِبٍ وَذَاهِبٍ وَآيِبِ
فَالْعِلْمُ بَحْرٌ وَاسِعٌ لِسَابِحٍ   وَسِيرَةُ المُخْتَارِ خَيْرُ مَرْكَبِ
تُعْطِي الفَتَى سِرَّ العُلُومِ كُلِّهَا   مِنْ أَوَّلٍ وَآخِرٍ مُكْتَتَبِ
لِأَنَّهَا سِيْرَةُ مَنْ لَا غَيْرُهُ   يَنْطِقُ بِالحَقِّ السَّدِيْدِ الطَّيِّبِ
صَلَّى عَلَيهِ اللهُ مَا نَجْمٌ سَرَى   وَآلِهِ وَالصَّحْبِ خَيرِ مَنْ حُبِي

الحَبِيب أَبِي بَكْر العَدَنِيّ ابْن عَلِي المَشْهُور

١٥/ جمادى الأول/ ١٤٣٩هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله الذي جعلَ في السّماءِ برُوجاً، وجعل فيها سراجاً وقمراً مُنِيراً، والصّلاة والسّلام على مَن أرسلَه اللهُ تعالى بالهُدى ودِينِ الحقِّ للعالمين بشيراً ونذيراً، فبلّغ الرّسالةَ بأحسَنِ بلاغٍ حتّى هدى اللهُ به بشراً كثيراً، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه ما اهتدى مُهْتَدٍ بسِيرتِه العَطِرَةِ فازْدَادَ قلبُه تنويراً، وعلى من تَبِعَهم بإحسَانٍ إلى يوم الدين وسلّمَ تسليماً كثيراً.

أما بعـدُ:

فقد كان فضلُ الله تعالى على البشرية عظيماً، ومَنُّهُ عليهم كبيراً جسيماً، حيثُ أوجدَهم من العَدَم، وعمَّهم بصُنُوفِ الإحسَان والكرَم، سخّرَ لهم ما شَاءَ من الكائنات وفضلهم على كثير من المخلوقات، وشرّفَهم بأعْظَم تشريف، وحلّاهُم بوسام التكْلِيف، واصطفى منهم صفوةً جعلهم أفضلَ خلقِه لديه وأكرمَهم عليه، وهم الذين أرسلهم من الأنبياء والمرسلين، وقد جَعَلَ اللهُ تعالى الإيمان بهم واجِباً على كافّة الخلق أجمعين، واتّباع نهجِهم حَتْماً لازِماً على ممرّ الأيام والسّنين، فلزم بذلك معرفة سيرتهم وهديهم ليَتأتّى لمن بعدهم متابعتُهم والاقتداءُ بهم، فنشأَ بذلك علمُ السّيرة والشّمائل، وقد خَلّد القرآنُ



الكريم من سِيَرِ الأنبياءِ الكثير.

وإنّ أعظمَ سيرةٍ على الإطلاق، وأحبّها إلى الكريم الخلّاق؛ سيرةُ سيّدنا ومولانا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ لأنه إمامُ الأنبياء وخاتمهم وعَلَمُ الأصفياء وقدوتُهم، فكانت سِيرتُه أوْلَى السِّيَر اهتماماً وأعلاها اقتداءً والتزاماً، ولذا لقِيَتْ مِنَ الأمّةِ اهتماماً لم تنله سِيرةُ نبيٍّ من الأنبياء السّابقين، ودُونت منذُ العصورِ الأولى التي دُوِّنَتْ فيها علوم الدين، فلم تحفظْ أمّةٌ من الأمم لنبيِّها مثل ما حفظته أمتُنا لنبيّنا محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من الأحوال، ولم يُنْقَلْ عن نبيٍّ من الأنبياءِ صلواتُ الله وسَلامُه عليهم مثل الذي نُقِلَ عن نبيّنا محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من الأقوال والأفعال، فلقدِ اعْتَنى المسلمُون بسيرتِه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حديثاً وقديما، وبلغت التصانيف فيها مبلغاً عظيما.

والسّيرة في اللّغة: تعني السّنة والطريقة، والحالة التي يكون عليها الإنسان أو غيره، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]. وأما السّيرة النّبويّة اصطلاحًا: فتعني مجمُوع ما ورد لنا من وقائع حياة النبيِّ محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما ورد إلينا من صفاته الخُلُقِيّة والخَلْقِيّة، مضافاً إلى ذلك غزواته وسرَاياه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وحصل الاهتمام البالغ من الأمة المحمدية بسيرته صلى الله عليه وآله وسلم لأنه القدوةُ لكلّ مسلم في كلِّ شِدّة ورَخاء، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولا سبيل إلى فهم شخصية الرّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا من خلال معرفة حياته وظروفه

التي عاش فيها في السّلم والحرْبِ ، والسّرّاء والضرّاء ، والمنع والإعطاء ، ليعلم المسلمُ أنه صلى الله عليه وسلم لم يكُنْ مجرّدَ عَبْقَرِيٍّ سَمَتْ به عبقريتُه ، ولا قائِداً محنكاً أبرَزَه ذكاؤُه وحِنْكَتُه ، كما يقتصر على ذلك من يريدُ تجريدَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم من خصوصيته ومزيته ، وإنّما كانَ رسولٌ من عند الله تعالى ، أبرَزه على أتمِّ الأخْلاق والصِّفات ، وأيّدَهُ بالوَحْي والمعجزات ، ليَتِمّ يَقِينُ مَن آمَنَ به واتبع هُدَاه ، ولتقومَ به حُجّةُ الله تعالى على من جَحَدَه وعصَاه.

ولا يعلمُ حجْمَ أهميّةِ السِّيرةِ النّبويّةِ وفائدتِها إلّا اللهُ تعالى ، فإنه لما كانَ سيّدنا محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتمَ الأنبياء والمرسلين ورسولاً إلى كافة الخلق أجمعين ، وانقطع بموته الخبرُ عن السّماء ، وغابَ جسَدُه الشّريف عن أتباعه ، جَعَلَ اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ معجزتَه الباقية ، وسُنّته الموعظةَ الشّافية ، تهتدي بهما الأمَمُ والشّعوبُ على ممرّ الأعصار ، وفيهما الدلالةُ النّافِعةُ الكامِلةُ لجميع البَشر في سَائِر الأقطار ، فكأنّ الوحيَ لم ينقطعْ ما دامَ القرآنُ فينا ، وكأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يَغِبْ ما دامَتْ سيرتُه وسُنّته بين ظهرانينا.

إنه مهما بَقِيَتْ سيرتُه صلى الله عليه وسلم مُسَطّرةً في بطُون الكتُب ، ومجسّدةً في الكُمَّل مِن وَرَثَتِه الأكرمين ، فإنّ القُدْوةَ الحسَنةَ تبقى بارِزةً لعَامّةِ المسلمين ، ويَقِلّ بذلك انحرافُهم من الدّين ، ومن أَجْلِ تغييب القدوةِ الحسَنة عن أفراد الأمّة المحمديّة حاولَ أعداءُ الإسلام ومَن انْسَاقَ وراءَهُم ابتكارَ الشّبُهات حول السّيرة النبويّة ، وهم لا يَألون جُهْداً في إثارة ما يقدح في صِحّتها ؛ بُغْيَةَ صَرْفِ الأمّة عن سيرةِ نبيّها ، التّي تعد منهجَ حياةٍ يستفيدُ منه الداعيةُ والمُرْشدُ والمعلّم ، والقائدُ

العَسْكريّ والحاكم، فقد كان الرّسولُ ﷺ مُعلّماً ناجحاً ومُربّياً فاضِلاً، يختارُ أجْدَى الطّرق الصّالحة في التربية والتعليم، وأوضح الأساليب في الإرشاد والتّفهيم، ولقد رَسّخَ مبادِئَ الأخوّة والائتلاف، ووَسِعَتْ أخلاقُه الأعرابَ الأجْلاف، الذين كانوا يَرون في كثير من الأحيان أنّ الإساءةَ عينُ الإحسَان، والكمالَ عينُ القصُور والنّقْصان، وأمّا قيادَتُه ﷺ العسْكرية، وخُطَطُه القِتاليّة، فقد أَصْبَحتْ محلّ اهتمامٍ لدَى الكفار فضلاً عن المسلمين، ومصدرَ إلهام لدَى القادة والمفكرين، ومنها يستمدون نجاحاتهم في كافّة الأَصْعِدَةِ والأحَايين.

ومع هذا وذاك.. فلا تزالُ هذا الأمّة تعاني عِبْءَ الجاهلين بسيرة نبيّهم ممّن هم محسوبون عليها، وتلك المعاناة لا تقل عن المعاناة ممّن عاداها، ونشرَ الشّبُهات فيما بينها، وما أشبه هؤلاء بمَن يحجبُ الشمسَ بيديه؛ ظنّا منه أنه بِذَلك قد حجبها عن أعْيُنِ النّاظِرين!.

إننا نؤمنُ أنّ عِدَاءَ الباطل للحَقّ لا ينتهي، وأنّ الحقّ مهما حُورِب فإنّه لا يَبِيدُ ولا يختفي، فقد كُتِبَتْ سِيرةُ النّبيِّ ﷺ كاملةً، بحيثُ لم يكتبْ لأحدٍ من البشر مثل ما كُتبَ له، ودافع علماءُ الأمّةِ وجهابذتُها ودحَظوا عنه كل شبهة باطلة، فصار زَعْمُ الواهمين كسَرابٍ بقِيعة، وتلاشَتْ خيوط العنكبوت التي بذلوا في نَسْجِها أوقاتهم الغالية.

ولقد بلغت المؤلفات في السيرة النبوية آلافاً مُؤَلّفة، بِلُغَاتٍ شتّى وأحجام متَفَاوتة، وبلغ المُتَرْجَمُ منها لغير العربية الآلاف كذلك..، ولكنّ الجبينَ يندى، والقلبَ يدمى ويعْتَصرُ من الأسى؛ للحال التي وصلنا إليها، والواقع الذي رُمِينَا

به، وهو أننا أصبحنا أشبه بالمعادين للسيرة النبوية، وبعنا سيرة نبيِّنا محمد ﷺ بأثمانٍ بخْسَةٍ عظيمةِ الخُسْران وعديمة الفائدة، فكم أصبح في أمّتنا المكْلُومَة مَن لا يعرف حتّى نسَبَ النبيِّ ﷺ، والمُخْجِل أنّ كثيراً منهم يعرف من أسماءِ الممثلين والفنّانين الكثيرَ الجَم!.

فينبغي الاهتمامُ بالسيرة وتدريسها للنّشْءِ بطريقةٍ جذّابة، وإبرازُ ما فيها من معانٍ لطيفة وأخلاقٍ شريفة، واستنباط العِظات والعبر من مواقفها؛ حتى يَرْتبطَ هذا الجيلِ اللّاحق بالجيل السّابق، ويتّخذَ الأولادُ من الصحابةِ القدوةَ الحسَنة، ويعرفوا مناقبهم وتلْهجَ بذكرهم الألسنة، خيرٌ لهم وأشرف مما يحفظونه من أسماء الفنانين والفنانات!.

فالسّيرة النبويّة هي النموذج الأمثل للإنسان الكامل الّذي يجب أن يُتأسَّى به، ويُقْتَدَى بهديِه ومنهجه وبدراستها نزداد محبّةً لصاحبها عليه أفضل الصّلاة والسّلام، حين نقفُ على كريم شمائله وعظيم سجاياه، وفيها فوائدُ لا تحصَى ودروسٌ لا تحصرُ ولا تستقصى في شتّى جوانب الحياة السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والأدبية.

إننا نُلاحظُ كثرةً في وسَائِل الإعلام، ولكِنّ الكثيرَ منها يعملُ لصَالح أعدَاءِ الإسلام؛ الذين لهم العمل الدّؤُوب المُنَظّم في بَثِّ شُبَهاتِهم وحَبْكِ ضلالاتهم، ولسْنا قلقين منهم بقدر قَلَقِنا من إعراضِ كثيرٍ من المسلمين عَن قراءَةِ سيرةِ نبيِّنا وسَيّدنا محمد ﷺ، لأنهم بذلك قد قاموا بما يريده منا الأعداء، دون أن يبذلوا في سبيل تركنا لذلك أدنى عناء، وأَدْهَى من ذلك وأَمَرّ حين يقومُ من يَهْرِفُ بما لا يعرف من المسلمين بمنع كثير من مجالس السّيرة النّبويّة، بحُجّة

محاربة المنكر والبدعة ومنع نشر الأحاديث الضعيفة، فهذه هيَ الطّامّة الكبرى والدّاهية العُظمى، فكيفَ سَيَقْرأُ المسلمون سيرةَ نَبِيّهم إذا سادَ هذا الخَبَل العقليّ فيهم، وانْحَرَفتْ مفاهيمُهم، وتباينت في هذا الأمرِ وُجْهاتُ نظرِهم!؟.

ولهذا السّببِ وأسبابٍ أُخَر تقَلّصَتْ مادةُ السّيرةِ النبوية من المناهج الدراسية التي تُدْرَسُ في المدارس الأكاديمية، ولمْ يَعُدْ يتَلقّى الدّارسُون في السّيرةِ إلا وُرَيْقاتٍ بسِيطة، نَتجَ عن هذا جهلٌ شنيع بالسيرة النبوية في شباب المسلمين، حتى أنّ كثيراً منهم لا يعرف الاسم الثّلاثِي لسيدنا محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا أمرٌ ليس هيّناً، بل هو مُشْعِرٌ بعمُومِ الجهْل في الدّين، وقد عَاب اللهُ تعالى هذا النّوع من الجهل في كتابه المبين، مع أنّ ذلك الجهل كان المعنيُّ به الكفارَ والمشركين، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

إنّه لجَدِيرٌ بكلّ مُسلمٍ حريصٍ على رضوانِ الله تعالى أنْ يَبْذُلَ خالصَ أوقاته، وجُهدَه وغاية طاقاته في التّعرُّف على سيرةِ نبيّنا محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، أفضلِ مخلوقٍ أوجَده اللهُ تعالى في هذا العالم، لَا أَنْ يُهْدِرَ الأوقاتَ في مُسَلْسَلاتٍ مُضْنِيَة وبُطولاتٍ وَهْمِيَّة، ليست ذات قَدْرٍ ولا أَهَمِّيَّة، مما لا ثمرة له في هذه الحياة إلا ضياع الوقت والعناء في الدنيا والعقاب الأليم بعد الممات، ولا يبعد أَنْ تَسُوءَ خاتمةُ مَن اُبْتُلي بذلك، ولا سيما إنْ تعلقَ قلبُه بمَن لا يؤمنُ بالله تعالى، هذا إن لم يتدارك نفسه قبل الوفاة، ويندم على ما ضاع عليه من الخير وفات.

ولقَدْ مَنّ اللهُ تعالى ـ وهو صاحبُ المَنِّ العظيم ـ عليَّ بأنْ يَسّرَ لي السّبيلَ إلى طلبِ العلم في مدينة تريم، وتلك مِنّةٌ لم نَبْذُلْ في سبيل تحصيلِها كثيراً ولا

قليلاً ولم نكنْ لها أَهلاً ؛ لولا فضل الله تعالى ذي العطاء الجزيل ، وقد انتهينا في سُلّم الموادِ الدراسية في فنّ السّيرة إلى كتاب السيرة الحلبية ، المسمّى: "**إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**". للإمام أبي الفَرَج نور الدين علي ابن برهان الدين إبراهيم بن أحمد الحلبي ، المؤرخ والأديب ، أصله من حلب وولد بمصر سنة (٩٧٥) هـ ، وتوفي بها سنة (١٠٤٤) هـ. له تصانيف كثيرة منها: "إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون" المعروف بالسيرة الحلبية وهو الذي نتكلم عنه ، وله "زهْر المزهر" اختصر فيه كتاب "المزْهِر" للسّيوطي ، و"مطالع البدور" في قواعد العربية ، و"غاية الإحسان في من لقيته من أبناء الزمان" ، و"أعلام الطراز المنقوش في محاسن الحبوش" ، وهو كتاب مخطوط ، و"حاشية على شرح المنهج" في فقه الشافعية وهو كتاب مخطوط ، و"فرائد العقود العلوية في حَلِّ ألفاظِ شرح الأزهرية" في النحو ، وهو كتاب مخطوط ، و"النصيحة العلوية" في الطريقة الأحمدية وهو مخطوط ، و"عقد المرجان فيما يتعلق بالجان" ، وهو مخطوط ، و"مُلَح الشَّيْخ الأَكْبَر" ، و"النّفحة العلوية" ، وحاشِية على شرْح الوَرَقات للجَلال المحَلي ، وغير ذَلِكَ[١].

ويُعَدُّ كتابُ السيرة الحلبية من الكتب المشهورة في السيرة النبوية ، جمعه مؤلفُه من كتاب: "عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير" ، لابن سَيّد الناس ، وهو مِن أحسن ما أُلِّفَ في السِّيرة ، فاختصر منه الأسانيد ، وأتى منه بالجيّد المُفيد ، وأخذه كذلك من سيرة الشّمس الشّاميِّ المسماة: "سُبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" ، لمحمد بن يوسف الصالحي ، الذي جمعَ كتابه ذلك من ألفِ كتابٍ في السّيرة ، ونقلَ كثيراً من كتاب: "السيرة النبوية" لابن

(١) انظر ترجمته في كتاب: [الأعلام للزركلي (٤/٢٥١)] ، وكتاب: [معجم المؤلفين لكحالة (٧/٣)].

هشام، ولم يقتصرِ الإمامُ على هذه الكتُبِ فحَسْب بل نقلَ من كتبٍ يندرُ وجودُها، ومن كتبٍ لم تصل إلينا، ويَدلّ ذلك على سعة اطلّاع المؤلف رَحِمَهُ اللهُ تعالى، ومن الكتب النّادرة التي كرَّرَ النقلَ عنها: "سِفْرُ السّعادة"، و"النّور"، و"يَنْبُوعُ الحياة"، و"أُنْسُ الجليل"، و"النّطقُ المفهوم"، و"بحرُ العلوم"، و"مُثِيرُ الغرَام"، و"بهجةُ الأنوار"، و"العَرَائس"، و"ربيع الأبرار"، و"المناهج الزّهية والمباهج المرضية". وغيرها الكثير، وكل هذا يدل على الجهد العظيم الذي بذله هذا الإمام؛ ليجمع لنا أطيب الفوائد ويتحفنا بأفضل الشّوَارد.

وقد حاول الإمام الحلبي رَحِمَهُ اللهُ تعالى تنقية كتابه من الرِّوايات الموضُوعة، وحلَّى كتابه بأبياتٍ شعرية فوزّع عليه أبياتًا كثيرةً من همزية البوصيري بحسب أحداث السيرة مع شرحٍ موجز عليها، كما يذكر شيئاً من أبياتِ تائِيّة السُّبْكِيّ، وأبيات لابن سيّد الناس، من ديوانه: "بُشْرى اللّبيب بذكرى الحبيب"، وكثيراً ما ينسبُ النقولَ إلى قائليها أو إلى كتبهم، ويعزو الأحاديثَ إلى مخرجيها أحياناً، وقد يحكم عليها في النّادر، وتَطرّقَ في آخرِ الكتاب إلى ذكر شيءٍ مِن شمائِل النّبيِّ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، وخصائصه وصفاته الخَلْقِيّة والخُلُقِيّة، وما يتّصل به من القَرَابات والموَالي والمُمْتَلكات.

ولمّا شرَعنا في دراسة هذا الكتاب وجدناه كتابًا ماتعًا نافعًا، وعلى مباحث السّيرة مُشتملاً جَامعاً، بحيث يُعطي للقارئ نبْذَةً عظِيمةً نَافعَةً عن حياةِ نبيِّنا محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جمع ما تفرق في كثير من كتب السيرة، وتطرق إلى مواضيع ذات أهمية كبيرة، ويمتاز الكتاب باعتنائه بشرح الكلمات الغريبة، وضبطها في أغلب الأحيان.



أمّا مؤلفه الإمام الحلبي رَحِمَهُ اللهُ تعالى فقد أبهرني بحسن استحضاره الدّائم لما احتواه الكتاب، ويظهرُ ذلك عندما يقول عقب التفاصيل البسيطة وفي المسائل الدقيقة: (كما سبق)، أو (كما سيأتي). وقد بذل جُهدًا عظيمًا في حُسْنِ الجمع في كثيرٍ من المواضع وإنْ كان يَتكَلّفُ ذلك في أكثر الأحيَان، فيستطردُ في ذكر الأقوال الضعيفة أو المتعارضة في الواقعة الواحدة، ثم يحاول الجمع بينها وبين ما صَحّ على افتراض صِحّة الأقوال كلّها، وهو أسلوبٌ قد يُؤَدّي إلى مَلل الطالب المُبتدئ، ويُشَتّتُ ذِهْنَ القارئ حتى لربما غاب عن ذهنه البَاب الذي يقرأه.

ومن أمثلة استطراداته في الأقوال والجمع بينها ما صنعه في باب ذكر سفر النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مع عمه إلى الشّام، حيث أطال الكلام إلى نحو خمس صفحات، حول مَن عادَ به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ من بُصْرَى إلى مكّة، هل هو عمه أبو طالب، أم هو أبو بكر الصديق، أم بلال بن رباح؟!، مع أنه قد صحَ واشتهر لدى علماء السير أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أصغرُ مِنَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ بسنتين، وأما بلال رضي الله عنه فلم يُولد بعد في ذلك الوقت، والحاصل أنّ عمَّه أَرْجَعَه عندما أخبره بَحِيرَا الرّاهبُ بأنْ يرجعَ به خوفَ اليهود..، ولحِرْصِهِ رَحِمَهُ اللهُ تعالى على الجمْعِ فإنّه إذا لم يجمعْ بين الأقوال ذكرَها وألقى بالإشكال فيها، ثم يقول: فليُتأمّل الجمْع..!.

أمّا الاستطرادات في الأبواب فهيَ أكثرُ شيءٍ يمكن أن يكون عائقاً أمام القُرّاء من أرْبَابِ الهِمَمِ القَاصِرة أمثالنا، وذلك أنه قد يخرجُ من سياق الباب إلى مواضيع ليس لها تعلق بالباب إلا مِن وجْه بعيد، حتّى أنَّ القارئ قد ينسى

موضوع الباب الذي هو فيه، وقد رأيتُ من الاستطراد في بعض الأبواب والمباحثِ ما لو اسْتُلّ من الكِتَاب لصَارَ بحثاً مُسْتَقِلًّا بِرُمَّتِه، كما فعل ذلك في باب الكلام على بناءِ قريش للكعبة المشرّفة، فإنه اسْتَرْسَلَ فيه إلى نحوٍ من مائة صفحة، ومثله في باب الكلام على الإسراء والمعراج، وهذا ليس أمراً معيباً ولا شنيعاً، بلْ أَنّ مِن الإنصافِ أنْ نقولَ: أنّ هذه الاستطرادات تُنبئُ عن جُهْدٍ مبذول في خِدْمَة السّيرة، إلا أنها قد تقف عائقًا أمام الطالب المبتدئ، ولا يُمْكِن الاستفادة من تلك الاستطرادات ولا المناقشات إلا لمن له اشتغال بالبحث والتحقيق في السيرة النبوية، وهذا أمر يفهمه من سبق له أنْ قرأ كتاب السيرة الحلبية، أو قرأ أشباهها من الكتب.

وهذا الأمرُ هو السّبب الأوّل الذي دعاني إلى تهذيب هذا الكتاب، ولم أَكُنْ لِأُقْدِمَ على ذلك، لأنني أعلمُ من نفسي أني لستُ أهلاً لقراءَة الكتاب فضلاً عَن أنْ يخطرَ على بالي كوني جَدِيراً بتهذيبِه، إلا أنّي لما رأيتُ ما فيه من التَّشَعُّبِ والتّعْقيدِ اسْتَشَرْتُ بعضَ مشايخي في عمل تهذيبٍ لهذا الكتاب، يكونُ معينًا لي ولإخواني الطّلاب وكذا من سَئِمَ قِراءَةَ هذا الكتاب على استذكار السيرة النبوية من دون الاستطرادات المُذْهِبَةِ للاستيعاب، وقد كان منهم التشجيع والتّوجيه لهذا العمل العظيم، وأَبْدَوا لذلك سرورَهم فجزاهم عني خيراً ربُّنا الكريم.

فبادَرْتُ إلى ذلك مُسْتعينًا بالله ﷻ، ومُسْتَرْشِدًا بمُلاحَظَاتِهم، ومُعَوّلًا على حُسْنِ أنظارِهم وصَالح دعواتهم، فحذفْتُ الاستطرادات البعيدة، والأحاديث التي لا أصل لها في المراجع المعتمدة، وحَرِصْتُ على تَسَلْسُلِ المواضيع وترابُطِها حسب التيسير، مُسْتخدِماً أحياناً في ذلك التّقديمَ والتأخير، والإضافةَ

أو التّصرُّفَ اليسير، وضبطتُ الكلمات الغريبة، والأحاديث النبوية، وعلّقت على ما رَأيتُ الحاجةَ للتّعليق عليه، أو على ما كان التعليق عليه مُهمّا، ولم أتكلفِ العزوَ في كلّ شيءٍ، فإنّ المؤلفَ قد ذكرَ في خطبة كتابه الكُتبَ التي اعتمد عليها ونقل منها، ثمّ إنّه إذا نقل من غيرها فالغالب أنه يذكر من أين نقل ذلك.

وقد جاء بحمد الله تعالى كتابًا حافلاً بأهمِّ مواضيع السّيرة، بأساليب مبَسّطة ويسيرة، ثمّ إنني لما رأيتُ ثناءَ الشّيوخ وطلبة العلم الشّريف على ما وُفِّقْتُ له من الترتيب، ورغبتهم في إبداء هذا التهذيب؛ لأنّ كتابَ السّيرةِ الحلبيّة من أَجْمَعِ كتُبِ السِّيَر، وكونه يَبرزُ بأسلوبٍ مختصر يكون الانتفاع به أجْدَر، والإقبال عليه أكثر، فهَيّئتُه للطّباعة، بعد أنْ تكرمَ بمُراجَعتِه أفذَاذٌ أطوَاد، وبِطِبَاعتِه كِرَامٌ أجوَاد؛ لأنّ المقصودَ منَ التأليفِ نفعُ الأمّة ومحوُ الجهْل والغُمّة.

مع العلم أنّ أصلَ هذا الكتاب قد اختصرَه العلّامةُ أحمد بن محمد بن أحمد الدّمياطي الشهير بالبناء (ت: ١١١٧) في مجلد، وهو مخطوط في المكتبة الأزهرية، ومنه نسخة بالمكتبة العبدلية بجامع الزيتونة، ونسخة بدار الكتب الوطنية بتونس. واختَصره مصطفى افندي (كان حيا في سنة: ١١٧٤هـ) ومختصره مخطوط بدار الكتب المصرية. واختصره تاج الدين موفق القابسي في مجلّدٍ أسماه "إتحاف البرية بمنتقى السيرة الحلبية"، وفرَغ منه في سنة (١١٥٥) هـ. واختصره مفتي عَكّا العلامة أحمد بن بكر بن أحمد بن محمد بطحيش العكي الحنفي، وسمّاه "خلاصة الأثر في سيرة سيد البشر"، مخطوط بمكتبة الدولة بمدينة برلين بألمانيا. واختصره العلامة أحمد بن أحمد الحنفي، الحاتمي تحت عنوان "الأخبار المرضية في سيرة خير البرية"، وهو مخطوط في مركز الملك فيصل للبحوث بالسعودية. وهناك مختصر لمُؤلِّفٍ اسمه مجهول، وهو مخطوط

بالمكتبة الوطنية بمدينة باريس بفرنسا. وقد كان الفقيه أبو بكر بن أبي بكر بن أبي الفضل العمري الدمشقي، المعروف بأبي بكر الصفوري، نظمه في جزء ولم يُتِمَّه.

ولم أقف على شيءٍ من هذه المختصرات سوى ما ذُكِرَ من هذِهِ المعلومات في الموسوعات التي تهْتمّ بذكرِ المخطوطات، ويبدو أنّها لم تُطبَعْ ولم تُنْشر، وحيثُ قد يسّر اللهُ تعالى النّشرَ لهذا التهذيب والمختصر فأسألُه تعالى أنْ يجعلَه لي وسيلةً مقبولةً لديه، ووُصْلَةً بيني وبين حبيبه محمّدٍ صَلَّى اللهُ وسَلّمَ عليه، وأَنْ يجعلَ به النفعَ وله القبولَ، بجاهِ سيدنا الرَّسول سيدنا محمد صَلَّى اللهُ وسلم وبارك عليه وعلى آله الكرام وأصحابه الفحول، والحمد لله ربّ العالمين.

كاتبه

عِيسَىٰ بْنُ أَمِينِ بْنِ مُحَمَّدٍ القَاسِمِيّ

دار المصطفى بتريم للدّراسات الإسلامية

٢١ شَوّال ١٤٣٨هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمداً لمنْ نَضَّرَ وجُوهَ أَهلِ الحَدِيْث، وصَلاةً وسَلاماً على مَنْ نَزَل عَليه أَحسَنُ الحَدِيْث، وعَلى آله وأصحابه أهل التَّقَدُّم في القَدِيم والحَدِيْث، صَلاةً وسَلاماً دَائمَينِ ما سَارت الأَئِمَّة في جمع سِيَرِ المُصْطَفَى السَّير الحثِيث.

وبَعْدُ: فَيقولُ أَحْوَجُ المفْتَقِرِينَ لِعَفْوِ ذِي الفَضْل وَالطَّوْل المتِين، علي بن برهان الدين الحلبي: إنَّ سيرةَ المُصْطَفَى عليه أفضلُ الصَّلَاة وَالسَّلَام من أهمِّ ما اهتمَّ به العلماءُ الأَعْلَام، وحُفَّاظُ مِلّة الإِسْلَام؛ كيف لا وهو الحَامِلُ عَلى التَّخَلُّق بِالأَخْلَاق العِظَام، وَلِذَا قَالَ الزُّهْرِيُّ ﷺ: (في عِلْمِ المغَازِي خَيْرُ الدّنْيَا وَالآخِرَةِ)[1]، وهو أوَّلُ مَن أَلّفَ في السِّيَر[2].

(١) أخرجه الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" [٤/٣٣٠]، برقم: (١٦٠٠)، وذكره الحافظ ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية ـ (٣/٢٤٢)".

(٢) اخْتُلِفَ في تعيين أوّل مَن أَلَّفَ في السيرة النبوية، فقيل: إنّ أوّلَ من أَلّفَ في السِّيَر عروة بن الزبير بن العوام المتوفى سنة (٩٣) هـ. وقيل: سعيد بن أَبَان بن عُثمان بن عفَّان القرشي المتوفي سنة (١٠٥) هـ، وهو من كبار التابعين وثقاتهم، وأحَدُ رواة الحديث. وقيل: أنه وهب بن منبه، صاحب الأخبار والقصص المتوفى سنة (١١٦) هـ، صنف كتاباً في الملوك المتوَّجة من حِمْيَر وأخبارهم وقصصهم وأشعارهم. ثم وضع بعد ذلك الإمام مُحَمَّد بن مسلم المعروف بابن شهاب الزهري المتوفى سنة (١٢٤) هـ، كتاباً في المغازي، فكانَ أوّل من دوّنها. وكتب بعده مُحَمَّد بن إسحاق المتوفى سنة (١٥١) كتابه الشهير في السيرة، وعدُّوه أوّل من ألّف في السيرة؛ لأنه وضع كتابه للخليفة المنصور العباسي، واتسع فيه بما لم يحمل عن أحد غيره.

وعن سَعْد بن أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] أنه قال: (كان أبي يُعَلّمنا مَغَازِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسَرَاياه، فيَقُول: يا بَنِيَّ هذه شَرَفُ آبائكم، فلا تَنْسوا ذِكْرها)[2].

وأحْسَنُ مَا أُلِّفَ في ذَلِكَ وتداوَلتْهُ الأكيَاس[3] سِيْرة الحافظ أبي الفتح ابن سيِّدِ الناس[4]؛ لِمَا جَمَعَتْ من تلك الدَّرَارِي والدُّرَر[5]، وسمَّاها: "عُيُونَ الأَثَر"، غير أنه أطال بذكر الإسْناد الذِي كان للمُحَدِّثين به مزيد الاعتداد، وعليه لهم كثير الاعتماد، إذ هو من خَصَائص هَذِهِ الأُمَّة ومُفْتَخَرِ الأَئِمَّة؛ لكنَّه صَارَ

---

(١) كذا ذكر المصنّف، ولعله حصل له سهو أو حصل سقط في النسخ؛ لأن الرّواية عن إسماعيل بن مُحَمَّد بن سعد، وليس عن سعد بن أبي وقاص، ويُعرَف ذلك بالرجوع إلى أصل الروايات، كما أنه يعرف بالبديهة فإنّ والد سعد ماتَ كافراً قبل حُصول المغازي بكثير فيستحيل أن يكون سعد يحدث عن أبيه!.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في "الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع" [٣٣١/٤] برقم: (١٦٠١) عن إسماعيل بن مُحَمَّد بن سعد بن أبي وقاص. وروى أيضاً الحافظ البغدادي في كتابه المذكور بسنده [٣٣٢/٤]، برقم: (١٦٠٢)، عن عبد الله بن مُحَمَّد بن علي، عن أبيه، قال: سمعت علي بن الحسين، يقول: (كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِي النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسَرَايَاهُ كما نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ القُرْآن).

(٣) **الأَكْيَاسُ**: جمع كَيِّس، والكيِّسُ هو الرجل العاقل الحازمُ الذي لا يُؤْتى من جِهَة الغفْلَةِ فيخدع وهو لا يَفْطُنُ لذلك ولا يَشْعُرُ به. وقد يُرَاد به الرّجل الحافظ الفَطِن.

(٤) الإمام الحافظ أبو الفتح، فتح الدين مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أحمد، المعروف بـ«ابن سيد الناس»، اليعمري، مؤرخ وأديب، أصله من إشبيلية، ولد في القاهرة سنة (٦٧١) هـ وتوفي بها سنة (٧٣٤) هـ. وله تصانيف كثيرة، منها: (عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير)، ومختصره (نور العيون) وديوان (بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب)، و(تحصيل الإصابة في تفضيل الصحابة)، و(النفح الشذي في شرح جامع الترمذي) ولم يكمله، و(المقامات العلية في الكرامات الجلية). [الأعلام للزركلي ـ (٣٤/٧)].

(٥) **الدَّرارِيُّ**: هي أَفرادُ النجوم التي تطلع في آفاق السماء، سميت بذلك لِتَنَحِّيها وانفرادها من سائر النجوم. **والدُّرَر**: جمع دُرَّة وهي اللؤلؤة، وتجمع على دُرَّاتٌ. [الصحاح للجوهري] بتصرف.

الآن ـ لقصور الهمم ـ لا تَقْبَلهُ الطِّبَاع، وأما سِيرَة الشَّمْس الشَّامِي[١] فهو وإن أتى بما يعد في الصَّحَائف حسَنات؛ لكنه أتى بما هو في أسمَاع ذوي الأفهَام كالمُعَادَات. ولا يخفَى أنّ السِّيَر تجمَعُ الصَّحيحَ والسَّقيم، والضَّعيفَ والبَلَاغ، والمرْسَل والمنقطع والمعضَل، دونَ الموضُوع، ومِنْ ثَمَّ قال الزَّيْنُ العِرَاقي ﷺ:

وَلْـيَعْلَمِ الطَّالِـبُ أنَّ السِّـيَرَا ... تَجمَعُ مَا صَحَّ وَمَا قَدْ أُنْكِرَا

وقد قال الإمامُ أحمدُ بن حنبل وغيره من الأَئِمَّة: (إذا رَوَيْنَا في الحَلال والحرَام شدَّدنا، وإذا رَوَينَا في الفضَائل ونَحوِها تسَاهَلْنَا)[٢]. والذِي ذهب إليه كثير من أهل العلم التَّرَخُّص في الرَّقَائق ومالا حُكْم فيه، من أخبار المغازي وما يجري مجرى ذَلِكَ، وأنه يقبل منها مالا يقبل في الحلال والحرام؛ لعدم تعلق الأحكام بها. فلما رأيت السِّيَرَتين المذكورَتين على الوَجه الذي لا يكاد يُنْظَر إليه لما اشتملتا عليه، عَنَّ لِي[٣] أنْ أُلَخِّصَ من تَيْنِك السِّيرتين أُنْمُوذجاً لطِيفاً يَرُوقُ الأحْدَاق، ويحلو للأذْوَاق، يُقرأ ـ مع ما أَضُمُّه إليه ـ بين يَدي المشَايخ

---

(١) الإمام المحدث شمس الدين مُحَمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف، الشامي، المعروف بـ«الصالحي»، عالم بالتاريخ والسِّيَر، ومن فقهاء الشافعية. ولد في صالحية دمشق وسكن البَرْقُوقِيَة بصحراء القاهرة إلى أن توفي بها سنة (٩٤٢) هـ. من مصنفاته: (سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد) طبع في اثني عشر مجلداً، ويعرف بالسيرة الشّامية، جمعه من ألف كتاب، و(عقود الجمان) في مناقب أبي حنيفة، و(عين الإصابة في معرفة الصحابة)، و(مرشد السالك إلى ألفية ابن مالك)، و(إتحاف الراغب الواعي) في ترجمة الأوزاعي، و(الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة). يُنْظَرُ في: [الأعلام للزركلي ـ (٧ /١٥٥)].

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه [القول المسدد في الذَّبِّ عن مسند أحمد، صفحة: (١٠)].

(٣) عَنَّ: أي بَدَا لي، أو ظهَر لي.

على غَاية الإنْسِجَام ونِهَايةِ الإنتِظَام، مُعْتَمِداً في ذَلِكَ على مَنْ يُبَلِّغُ كُلَّ مُؤَمِّلٍ أَمَلَه، ولم يخيبْ من قَصَدَه وأمَّلَه، وقد يسر الله تَعَالَى ذَلِكَ، على أسلوبٍ لطيف، ومَسْلَكٍ شريف، لا تملّهُ الأسماع، ولا تَنْفِرُ منه الطبَاع.

وقد يكون من الزيادة ما أقول: وفي السيرة الهِشَامية[1]، ثم عَنَّ لي أنْ أذكرَ من أبيات القصيدة الهمزية المنسُوبةِ لِعَالم الشُّعرَاء، الشيخ شَرَف الدين البُوصِيري ناظم القصيدة المعروفة بـ"البُرْدَة"، وما تضمنته تلك الأبيات، وأشارت إليه من ذَلِكَ السياق، وربما أَحُلُّ ذَلِكَ النظمَ بما يوضح معناه ويظهر تركيب مبناه، وربما أذكر أيضا من أبيات تَائِيّة الإمام السُّبْكِيِّ ما يناسب المقام، وربما أذكر أيضا بعض أبيات من كلام صاحب الأصل من قصائده النبوية المجموعة بديوانه المسمى بـ: "بُشْرَى اللّبيب بِذِكْرَى الحبِيْب"، وقد سميت مجموع ذَلِكَ "**إنْسَانَ العُيون في سِيرَةِ الأَمِين المأْمُون**"، وأسأل من لا مسئول إلا إيَّاه أنْ يجعلَ ذَلِكَ وسيلة لرِضَاه آمين.

(١) يعني كتاب "السِّيرة النَّبويَّة" المعروف بـ"سيرة ابن هشام"، للإمام جمال الدين أبي مُحَمَّد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، المتوفى سنة (٢١٣) هـ وهو أشهر كتبه، ورواه عن ابن إسحاق.

بَابُ
نَسَبِهِ الشَّرِيف

هو سيدنا مُحَمَّدٌ (ابنُ عبد الله)، ومعنى عبد الله: الخاضع الذليل له تَعَالَى، وقد جاء: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى الله عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»[1] وجاء: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى الله مَا تُعُبِّدَ بِهِ»[2]، وقد سُمِّيَ بعبد الله في القرآن، قال تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وعبد الله هذا هو (ابنُ عبدِ المطّلب)، ويُدْعَى شيبةُ الحمد؛ لكثرة حمدِ النّاس له؛ ولأنه كان مَفْزَعَ قريش في النَّوائب وملجَأهم في الأمور، فكان شريف قريش وسيّدها كمالاً وفعالاً من غير مُدافع. وقيل له شيبة الحمد؛ لأنه وُلِدَ وكَان وسَطُ رأسِه أبيَض، أو سمّي بذَلِكَ تفاؤلاً بأنه سيبلغ سِنَّ الشّيبِ، وقد عاش مائةً وأربعينَ سنة، وكان ممن حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية، وكان مجاب الدعوَة، وكان يقال له: (الفَيَّاض)؛ لكثرة جوده، و(مطعم طير السماء)؛ لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال.

وكان من حُلَمَاءِ قريش وحكمائها، وكان نديمه[3] حَرْبُ بنُ أميّة وَالِد أبي

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه [٥/٢٦٣]، برقم: (٢٥٩٠٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط [١/١٦٩]، برقم: (٦٩٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) النديم هو الرفيق والجليس الذي تكثر مجالسته والمُنَادِم على شرب الخمر مأخوذٌ من المدامنة لأنه يُدمن شرب الخمر مع نديمه. والمراد هنا الجليس؛ لأن عبدالمطلب ممن حرم الخمر على نفسه كما ذكره المصنف.

سُفْيَان، وكان في جوار عبد المطلب يهودي أغلظَ القولَ على حَرْب، فأغْرَى عليه حربٌ مَنْ قتلَه، فلمّا علمَ عبد المطلب بذَلِكَ ترك مُنَادَمَة حرْب، ولم يُفَارقه حتّى أخذَ منه مائةَ ناقة ودفعها لابن عم اليهودي حفظاً لجواره، ثم نادم عبدَ الله بن جُدْعَان.

وقيل: إنما قيل له عبد المطلب؛ لأنَّ عمَّهُ المطّلب لما جَاءَ به صَغِيراً من المدينة، فأردفه خلفه، وكان بهَيئةٍ رَثّة وثيابٍ خَلِقَة، فصَار كلُّ مَن يسألُ عنه ويقول: من هذا؟، يقول له: عَبْدِي، حياءً أنْ يقولَ: ابن أخِي، فلما دخل مكة أحْسَنَ من حَالِه، وأظهر أنه ابن أخيه، وصار يقول لمن يقول له عبد المطلب: ويحكم إنما هو شيبة ابن أخي هاشم. لكن غلب عليه الوصف المذكور فقيل له: عبد المطلب. وقيل: لأنه تربى في حجر عمه المطلب، وكان عادة العرب أن تقول لليتيم الذي يتربّى في حِجْرِ أحَدٍ: هوَ عبْدُه.

وكان عبد المطلب يأمر أولادَه بترك الظلم، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور، وكان يقول: (لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى يُنْتَقَمَ منهُ وتُصِيبُهُ عقوبة). إلى أنْ هَلَكَ رَجلٌ ظَلُومٌ من أهل الشَّام لم تُصِبْه عقوبةٌ، فقيل له في ذَلِكَ، فقال: (والله إن ورَاء هذه الدَّار داراً يُجزَى فيها المحسن بإحسَانه، ويعاقب المسِيءُ بإسَاءته)، ورفضَ عبادة الأصنام، ووَحَّدَ الله تَعَالَى، وتؤثر عنه سَنَنٌ جَاءَ القُرآن والسنة بها، منها: الوفاء بالنذر وقطع يَد السَّارق، وأنْ لا يَطُوف بالبيت عُرْيَان، والمنع من: نكَاح المحَارم والزنا وشرب الخمر ووَأْدِ البَنَات[1].

---

(١) الوَأْدُ: هو دَفْنُ البنات الصِّغَار في القبور وهُنّ أحْيَاء، كان الرجل من أهل الجاهلية إذا وُلِدَت له=

وعَبد المطّلب (ابن هَاشِم) واسمه عَمْرُو العُلَا ؛ لِعُلُوِّ مَرْتبته ، وهو أخو عبدشمس ، وكانا تَوْأَمِين ، وكانت رِجْلُ هاشم ملصَقَة بجبهةِ عبد شمس ، ولم يُمكنْ نَزْعُها إلا بِسَيَلَان دمٍ ، فكانوا يقولون: سيكون بينهما دَمٌ! فكان بين ولديهما ، بين بني العباس وبين بني أمية ، ووقعت العداوة بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس ؛ لأنَّ هاشماً لما سَاد قومه بعد أبيه عبد مناف ، حَسَدَهُ أمية ابن أخيه فتكلف أن يصنع كما يصنع هاشم فعجز ، فَعَيَّرَتْهُ قريشٌ ، وقالوا له: أَتَتَشَبَّهُ بهاشِم! ؟ ، فَدعا هاشماً للمُنَافَرَة[1] ، فأبَى هاشمٌ ذَلِكَ لِعُلُوِّ قَدْرِه ، فلم تدعه قريشٌ ، فقال هاشم لأمية: أُنَافِرُك عَلى خَمْسِينَ نَاقَةٍ سُودِ الحَدَقِ تُنْحر بمكة ، والجلاء عن مكة عشر سنين ، فرَضِيَ أمية بذَلِكَ ، وجعلا بينهما الكَاهِن الخُزاعِي وكان بعُسْفَانَ ، فخَرَجَ كلٌّ منهمَا في نفرٍ ، فنزلوا على الكَاهن ، فقال قبل أن يخبروه خبرهم: (والقمرِ البَاهر ، والكوكب الزَّاهر ، والغمَام الماطِر ، وما بالجوِّ من طائر ، وما اهتدى بِعَلَمٍ مُسَافر مِن مُنْجِدٍ وغَائِر ، لقد سَبقَ هاشِمٌ أميّةَ إلى المفَاخر). فنُصِرَ هاشمٌ على أُمَيّة ، فعادَ هاشمٌ إلى مكّةَ ونحرَ الإبل ، وأطعم الناس ، وخرجَ أُمَيّة إلى الشّام فأقام بها عشر سنين ، فكانت هذه أوّل عداوةٍ وقعت بين هاشم وأميّة ، وتوارث ذَلِكَ بَنُوهمَا ، وكان يُقالُ لهاشمٍ وإخوته:

= بنت دفنها حَيّةً مخَافةَ العَار وخَشْيةَ الإِقْتَار ، واشتهر ذلك في قبيلة كِنْدَة ، وكان زيد بن عمرو بن نفيل ممن يقوم بإحياء المؤءُودَة ، حيث كان يقول ـ للرّجُل إذا أراد أن يَئِدَ ابنته ـ: لا تفعل ؛ أنا أكفيك مُؤونتها ، فيَأخذها ، ويقوم على تربيتها ، فإذا كَبُرَت وتَرَعْرَعَت: قال لأبيها: إنْ شئتَ دفعتُها إليك ، وإن شئت كفيتك مؤونتها.

(١) المُنافَرَةُ: أي المفاخرة والمحاكمة في الحَسَبِ ، وهي أن يفتخر الرَّجُلان كل واحد منهما على صاحبه ثم يُحَكِّما بينهما رجلاً ، يقال: نافَرَ فُلَانٌ فلاناً الشاعِرَ ، أي تَفاخَرا أيُّهما أَجْوَدُ شِعْراً ، وجاءت المُنافَرَةُ في أوّل ما اسْتُعْمِلَتْ لأنهم كانوا يسألون الحاكم أيُّنا أعَزُّ نَفَراً. [لسان العرب لابن منظور ـ (٥/٢٢٦)].

المجِيْرُون ؛ لكرَمِهم وسيادتهم على سَائر العرب.

ولا يعرف بَنُو أَبٍ تَبَاينُوا في محَالِّ موتِهم مثلَهم ، فإنّ هاشماً مات بغَزَّة ، وعبد شمس مات بمكة وقبره بأَجْيَاد ، ونوفلاً ماتَ بالعراق ، والمطَّلب مات ببُرَعَاء[1] من أرْضِ اليمن. وقيل له هاشم ؛ لأنه أوّلُ من هَشَمَ الثَّرِيْدَ بعد جدِّه إبرَاهيم ، فإنَّ إبراهيمَ أول من ثرد الثريد ثُمّ أطعمه المساكين. وفي الإمتاع[2]:

(١) لم أجد من ذكر اسم هذا الموضع ، ولا من ذَكَرَ أن المطّلب مَات فيه. وفي الرّوض الأنف للحافظ السهيلي [٥٨/٢] ، والسيرة النبوية لابن هشام [١٣٨/١]: أنَّ المطلب مات بـ(رَدْمَان) من أرض اليمن. وهذا الذي ذكره عامة المؤرخين وأصحاب السِّيَر ، ويدل على ذلك ما جاء في مرثية مطرود بن كعب الخزاعي لهم ، وهي في كتاب "المنمّق في أخبار قريش" لابن حبيب الهاشمي ، ص: (١٨) ، قال مَطْرُود:

إنَّ المغيرَاتِ وأبناءَهم ... لَخَيرُ أَحْيَاءٍ وأموَاتِ

أربعةٌ كلّهم سيّدٌ ... أبنَاءُ ساداتٍ لسَادَاتِ

أخلصُهم عبدُ مَنافٍ فهم ... من لَومِ من لَامَ بِمنجَاتِ

قَبْرٌ بِرَدْمَانَ وقبرٌ بسَلْـ ... ـمَان وقبرٌ عندَ غَزَّاتِ

وَمَيِّتٌ مات قَريباً لَدَى الـ ... ـحجُون من شَرْقِ البَنِيَّاتِ

ولا تزال منطقة (رَدْمَان) إحدى المُدِيريَّات بمحافظة البيضاء حالياً ، كان فيها حصن وعلَان وحِصْن سَرْو ، وهيَ من أشهر حصُون مملكة حِمْيَر. ولعلّها هي التي ذُكِرَت في الحديث الذي رواه أحمَد في [مسنده برقم: (١٩٤٤٣)]: عن عمْرو بن عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ ﷺ قال: (صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ عَلَى السَّكُونِ وَالسَّكَاسِكِ وَعَلَى خَوْلَانَ الْعَالِيَةِ وَعَلَى الْأَمْلُوكِ أَمْلُوكِ رَدْمَانِ). وفي كتاب: [النسبة إلى المواضع والبلدان ـ (٣٣٧/١)] ، للعَلّامَة جمال الدين عبدالله بامخرمة: (رَدْمَان) جهة باليمن ، فيها مدن ، وقُرَى وحُصُون ، ومن حصُونِها (المِعْسَال). وقال أيضاً: ورَدْمَان حِصْنٌ من بِلَاد اليمن ، قُرْب ثُلَا. قال في كتاب الخميس: أنّ فيه قبر المطّلب جَدِّ النّبيّ ﷺ ، وهو الآن مشهور عليه قُبّةٌ وعِمَارة. اهـ.

(٢) يكثر العَزْوُ من المصنّف لهذا الكِتَاب ، واسمه: "إمْتَاع الأسمَاع بما للنبي ﷺ من الأحوال=

وقُصيّ أول من ثرد الثريد وأطعمه بمكة. وفيه أيضاً هاشِمٌ عمرُو العُلَا أوّل من أطعمَ الثريدَ بمكة، وقيل: أنَّ أول من فعل ذَلِكَ عمْرُو بن لُحَيّ. ويقال: لا منافاة لأنّ الأولية في ذَلِكَ إضافية، فأولية قصيّ لكونه من قريش، وأولية عمرو بن لُحَيّ لكونه من خُزَاعَة، وأولية هاشم باعتبار شِدّة مجاعةٍ حصَلت لقريش.

وإلى ذَلِكَ يُشير صَاحبُ الأصْل بقوله:

عَمْرُو العُلَا ذو النَّدَى مَن لا يُسَابقهُ ... مَرُّ السَّحَابِ ولَا رِيْحٌ تجَارِيـهِ

جِفَانُـه كَـالجوَابِي لِلْوُفودِ إذَا ... لبُّواْ بمَكَّةَ نَادَاهُمْ مُنَادِيـهِ

أوْ أَمْحَلُواْ أَخْصَبُوا مِنهَا وقَدْ مُلِئَتْ ... قُوتاً لحَاضِرِهِ مِنْهمْ وَبَادِيـهِ

وقد قيل فيه:

قُلْ للذِي طلَبَ السَّمَاحةَ والنَّدَى ... هَلَّا مَرَرْتَ بِآلِ عَبدِ مَنَافِ

الرَّائِشُونَ وَليسَ يُوجَدُ رَائِشٌ[1] ... وَالقَائِلُونَ هَلُمَّ لِلأَضْيَافِ

وعن بَعضِ الصَّحَابة قال: رأيتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه على باب بني شيبة، فمرَّ رَجُلٌ وهو يقول:

= والأمْوَال والحفَدَة والمتَاع"، للإمام تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن مُحَمَّد المقْريزي رَحِمَهُ اللهُ تعالى، المتوفى سنة (٨٤٥) هـ، وهو كتاب قَيِّمٌ ضَخْمٌ، حافل بالسيرة النبوية، يقع في خمسة عشر مجلدا، طبعته دار الكتب العلمية، ببيروت، عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، بتحقيق مُحَمَّد عبد الحميد النميسي.

(١) يقال: رَأشَ السَّهمَ إذا وضع عليه الريش، ورَأشَ الطائرُ: إذا نبَتَ ريشُه، ورَجلٌ رَائِشٌ: أي كثير المال والكسْوة. ورَأشَ الرجلُ صَديقَهُ: إذا أطعمه وسقاه وكساه. بتصرف من [لسان العرب لابن منظور].

يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ المحَوِّلُ رَحْلَـهُ ... أَلَا نَـزَلْـتَ بِـآلِ عَـبْـدِ الـدَّارِ
هَبَلَتْـكَ أُمُّـكَ، لَوْ نَزَلْـتَ بِرَحْلِهِمْ ... مَـنَـعُـوكَ مِـنْ عُـدْمٍ وَمِـنْ إِقْـتَـارِ

فالتفتَ رسُولُ الله ﷺ إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقال: «أَهَكَذَا قَالَ الشَّاعِرُ»؟، قال: لا وَالذي بعثك بالحق، ولكنّه قال:

يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ المحَوِّلُ رَحْلَـهُ ... أَلَا نَـزَلْـتَ بِـآلِ عَـبْـدِ مَـنَـافِ
هَبَلَتْـكَ أُمُّـكَ، لَوْ نَزَلْـتَ بِرَحْلِهِمْ ... مَـنَـعُـوكَ مِـنْ عُـدْمٍ وَمِـنْ إِقْـرَافِ
الـخَـالِطِـيـنَ غَنِيَّـهِـمْ بِـفَـقِـيـرِهِـمْ ... حَتَّى يَعُودَ فَقِيرُهُمْ كَـالكَـافِي(١)

فتبسّمَ رسولُ الله ﷺ، وقال: «هَكَذَا سَمِعْتُ الرُّوَاةَ يُنْشِدُونَه»(٢).

وكان هاشِمٌ بعد أبيه عبد مناف على السّقاية والرّفادة، فكان يعْمَلُ الطّعام للحجّاج، يأكل منه من لم يكن له سَعَةٌ ولا زَاد، ويقال لذَلِكَ: الرِّفادة. واتّفَق أنه أصَابَ الناس سنة جَدْب شَديد، فخرج هاشمٌ إلى الشّام، فاشترَى دقِيقاً وكَعْكاً، وقدم به مكة في الموسم فهشم الخبزَ والكعكَ ونحَر الجُزُر وجعله ثريداً، وأطعمَ النَّاس حتى أشبعهم، فَسُمِّيَ بذَلِكَ هاشماً. ويقال له: أبو البطحاء وسيد البطحاء. ولم تزل مائدته منصوبة لا ترفع في السّرّاء والضّرّاء.

---

(١) الأبيات لمطرود بن كعب الخزاعي وهي في ديوانه ص: (١٠)، وفي سيرة ابن هشام [١/١٧٨]، وهي جُزْءٌ من مَرْثِيَةٍ يَبكِي فيها عبدَ المطلب، ويمدح فيها بني عبد مناف، وله فيهم قصائد كثيرة، وكان يَمْدحُ عبدَالمطلب كثيراً على وَجْهِ الخصُوص، وذلك لأنه خلّصَهُ من أَسْرِ بني تميم له، وافتَداهُ منهم بمَالٍ جزيل.

(٢) أخرجه الإمامُ أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادى في أماليه [ص: (١١٥)]، بسنده عن المطّلب بن المطّلب بن أبي وَدَاعَة عن جَدّه. و(هَبَلَتْكَ أُمُّكَ): بمعنى ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وهو دُعاءٌ بالهَلَاكِ!.

وكان هاشم يحملُ ابن السبيل، ويُؤَمِّنُ الخائفَ. وذُكِرَ أنه كان إذا هَلَّ هِلَال ذي الحجة قام صَبِيحَته وأسندَ ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب يقول في خطبته: (يا معشر قريش إنكم سادةُ العرب، أحسنها وجوهاً، وأعظمها أحلاماً، وأوسط العرب، وأقرب العرب بالعرب أرحاماً، يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله، أكرمكم الله تَعَالَى بولايَته، وخصَّكم بجواره دون بني إسماعيل، وإنه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته، فهم أضيافه وأحق من أكرَم أضْيَافَ الله أنتم، فأكرموا ضَيْفَه وزُوَّارَه، فإنهم يأتون شُعْثاً غُبْراً من كلِّ بَلدٍ، عَلى ضَوَامِرَ كَالقِدَاح، فأكرمُوا ضَيْفَه وزُوَّارَ بيته، فورَبِّ هَذِهِ البَنِيَّةِ لو كان لي مال يحتمل ذَلِكَ لكَفَيْتُكُمُوه، وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم يُقْطَعْ فيه رحم، ولم يُؤخذْ بظلم، ولم يدخلْ فيهِ حرَام، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذَلِكَ فَعَل، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يُخرِج رجل منكم من ماله لكرامة زُوار بيت الله وتقويتهم إلا طيّباً، لم يُؤخَذْ ظلماً، ولم يُقْطَع فيه رَحِمٌ، ولم يُؤخَذ غصباً). فكانوا يجتهدون في ذَلِكَ، ويخرجونه من أموالهم فيضعونه في دار الندوة.

وحُكِيَ أن هاشماً خرج تَاجراً إلى الشام، فنزل على شخصٍ من بني النجار بالمدينة، وتزوّج بنته على شَرْط أنّها لا تلدُ ولداً إلا في أهْلِها، فبنى بها في أهلها ثم ارتحل بها إلى مكة، فلما أثقلت بالحمل خرج بها فوضعها عند أهلها بالمدينة ومضى إلى الشّام فمَات بغزّة، وعمره حينئذ خمس وعشرون سنة. وولدت شَيْبَةَ الحمْد فمكث بالمدينة سبع سنين، فمرَّ رجلٌ على غلمانٍ يَنْتَضِلُون بالسِّهَام، وإذا غلامٌ فيهم إذا أصابَ قال: أنا ابنُ سَيِّدِ البَطْحاء. فقال له الرّجل: ممّن أنتَ يا غلام؟، فقال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف. فلما قَدِمَ الرّجلُ مكّةَ وجدَ المطَّلِب جالساً بالحجر فقصّ عليه ما رأى، فذهب إلى المدينة، فلما رَآهُ عرَف

شَبَهَ أَبِيهِ فِيهِ ففَاضَت عَيْناهُ، وقال لمن كان يلعب معه: أَهَذا ابن هاشم؟، فقالوا: نعم، فَعَرَّفَهُم أنَّه عمُّه، فقالوا له: إنْ كنتَ تُريدُ أخْذَه فَخُذْهُ في هذه السَّاعةَ، قبلَ أنْ تعلمَ بذَلِك أمُّه، فإنّها إنْ علِمَتْ بك لم تدعْكَ وحَالتْ بينك وبينه. فدعَاه المطلب، وقال: يا ابن أخي أنَا عمُّك، وقد أردت الذّهابَ بك إلى قومِك، وأناخَ ناقتَه فجلسَ على عجز الناقة، فانطلق به ولم تعلم به أمه حتّى كان الليل فقامت تدعوه، فأخبرت أنّ عمَّه قد ذهبَ به، ثم قَدِمَ به مكّة.

وهاشِم (بن عبد مناف) واسمه المغيرة، وكان يُقَال له: قَمَرُ البَطْحَاء؛ لحُسْنِه وجمَالِه، وهذا هو الجدّ الثالثُ لرسُولِ الله ﷺ، وهو الجدّ الرّابع لعثمان بن عفان، والجد التّاسع لإمامنا الشَّافِعي ﷺ. ووُجدَ كِتَابٌ في حِجْرِ إسماعيل مَكتُوبٌ فيه: (أنا المغِيرَة بن قصي، أُوصِي قُرَيشاً بتقوى الله ﷻ، وصِلَة الرَّحِم).

وعبدمناف (بن قصي) ويُسَمّى قُصَي زيداً. وعن إمامنا الشافعي ﷺ أنَّ اسمَه يزيد، وقيل له: قُصَيّ؛ لأنه قَصِيَ، أي بعد عن عشِيرَتِه، لأنّه بَعُدَ مع أُمِّهِ إلى الشام، لأنَّ أمَّه تزَوَّجت بعد موت أبيه وهو فَطِيمٌ بشخصٍ يُقال له: ربيعة بن حِزَام. وقيل: حِزَام بن ربيعة العُذْرِيّ، فرحلَ بها إلى الشّام وكان قصيٌّ لا يَعْرِفُ له أباً إلا زوج أمّه المذكور، فلما كَبُر وقع بينه وبين آل زَوجِ أمه شَرٌّ، فإنه نَاضَلَ[1] رَجُلاً منهم فنَضَلهُ قصيٌّ، أي غَلَبَهُ، فغضب ذَلِكَ الرّجل وعَيَّر قُصَيّاً بالغُربة، وقَال له: ألا تلحقُ بقومك وببلادك فإنك لستَ منّا.

فلما قيل له ذَلِكَ، قال: ممن أنا؟، فقيل له: سَلْ أمَّك، فشكا ذَلِكَ إلى

---

(١) نَاضَل: أي بَارَاه وسَابقَه بالنَّضل، أو بالرَّمي بالسّهَام.

أمه، فَقَالَتْ له: بلادُكَ خيرٌ من بلادهم، وقومُك خيرٌ من قومهم، أنت أكرَمُ أباً منهم، أنت ابنُ كِلَابِ بن مُرَّة، وقومُك بمَكَّة عند البَيت الحَرَام تَفِد إلِيهِ العَرَب، وقد قالَت لي كَاهِنةٌ رَأتكَ صَغِيراً: إنكَ تَلِي أَمْراً جَلِيلاً، فقدمَ مكَّةَ على قومِه مع حُجَّاج قُضَاعة، فعرفوا له فضْلَه وشرَفَه فأكرمُوه وقدّموه عليهم، فسَادَ فيهم، ثم تزَوّج بنتَ حُلَيْلِ الخُزَاعِي، وكان أمرُ مكّةَ والبيت إليه، وهو آخِرُ مَن وَلِيَ أَمْرَ البيت والحُكْم بمكّةَ مِن خُزَاعَة، فجاءَ منها بأولادِهِ الآتي ذكرهم. فلما انتَشرَ ولدُه، وكثُرَ ماله وعُلِمَ شرفه مَات حُلَيل، فرَأى قُصَي أنه أولى بأمر مكة من خُزَاعَة، لأنَّ قريشاً أقرب إلى إسماعيل من خُزَاعَة، فدعَا قريشاً وبني كِنَانة إلى إخرَاج خُزَاعَة من مكة فأجابوه إلى ذَلِكَ. وقيل: إنَّ حُلَيلاً أوصى بذَلِكَ لأَبي غُبْشَان بعدَ أنْ أوصَى به لابنته زَوج قُصي، فَقَالَتْ له: لا قدْرَةَ لي على فتح البيت وإغلاقه، وَأَنّ قُصَيّاً أخذَ ذَلِكَ منه بزِقِّ خمرٍ، فَقَالَتْ العَربُ: أَخْسَرُ صَفْقَةٍ من أبي غُبْشَان!.

ثُمَّ جمعَ قُصَيٌّ قريشاً بعد تفرّقها، وجعلها اثنتي عشرة قبيلة، ومِنْ ثَمَّ قيل له: مُجَمِّعٌ. وإلى ذَلِكَ يشير قولُ الشّاعر:

قُصَــيٌّ لَعَمْرِي كَانَ يُدْعَى مُجَمِّعاً ... بِـهِ جَمَعَ الله القَبَـائِـلَ مِنْ فِهْرِ

وصَار قُصيٌّ رَئيساً لِقُرَيش على الإطلاق حينَ أَزَاحَ يدَ خُزَاعَة عن البيت، وأجْلَاهُم عن مكّة، بعد أنْ لم يُسَلِّمُوا لِقُصي في وِلَايةِ أمرِ البيت.

وكانت جُرْهُمُ ولاة البيت، لا ينازعهم ولَدُ إسمَاعيل في ذَلِكَ لخُؤُولِهم، وإعظاماً لأَنْ يكونَ بمَكّة بَغْيٌ. ثمَّ إنَّ جُرْهُماً بغوا بمَكّة، وظلموا مَن يدخلها من غير أهلها، وأكَلُوا مال الكعبة الذي يُهْدَى لها، حتّى إنَّ الرَّجُلَ منهم كَان إذا أراد

أنْ يَزْني ولم يجدْ مكاناً دخلَ البيت فزَنَى فيه، فأجمعَتْ خُزَاعَة لحرْبِهم وإخرَاجِهم من مكّةَ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ بعد أن سَلَّطَ الله تَعَالَى على جُرْهُمٍ دَوَابّاً تُشْبهُ النَّغَفَ، وهو دُودٌ يكون في أنوف الإبل والغنم، فهلك به منهم ثمانون كَهْلاً في ليلة واحدة سِوَى الشَّبَاب. وقيل: سَلّط الله عليهم الرُّعَافَ فأفْنَى غَالبَهُم، وذهبَ مَن بَقِيَ منهم إلى اليمن مع عَمْرو بن الحَارِث الجُرْهُمِي، آخر من ملك أمرَ مكّة من جُرْهُمٍ، وحَزِنَت جُرْهُمٌ على ما فَارَقُوا من أمرِ مكّة وملْكِها حزَناً شديداً، وقال عمرٌو أبياتاً منها:

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ إِلَى الصّفَا ... أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكّةَ سَامِرُ

وَكُنّا وُلَاةَ الْبَيْتِ مِنْ بَعْدِ نَابِتٍ ... نَطُوفُ بِذَاكَ الْبَيْتِ وَالْخَيْرُ ظَاهِرُ

بَلَى نَحْنُ كُنّا أَهْلَهَا، فَأَزَالَنَا ... صُرُوفُ اللّيَالِي وَالدُّهُورُ البَوَاتِرُ(١)

وصَارَت خُزَاعَةُ بعد جُرْهُمٍ ولَاة البيت والحكّام بمكّةَ، وكان كبيرُ خُزَاعَة عمرو بنُ لُحَيٍّ، وقد كان بلغَ في العرَبِ مِن الشّرفِ ما لم يبلغْه عَرَبيٌّ قبلَه ولا بعدَه في الجاهليّة فهو أوّل من أطْعَمَ الحَجِيج بمكّة سَدَائفَ الإبل ولحمَانَها على الثريد. والسَّدَائف: جمع سَدِيف، وهو شَحْمُ السّنَام، وذَهَبَ شَرَفُه في العرب كلَّ مذْهَب، حتّى صارَ قولُه ديناً متبعاً لا يُخَالف.

وفي كلام بعضِهم: صَار عمرٌو للعَرَب رَبّاً، لا يَبْتَدِعُ لهم بِدْعَةً إلا اتخذُوهَا شِرْعَةً، لأنه كان يطعم الناس ويكسُوهم في الموسِم، وربّما نحرَ لهم في الموسم عَشَرة آلاف بدنة، وكَسَاهم بعَشرة آلاف حُلَّة.

---

(١) الأبيات في سيرة ابن هشام [١١٤/١]، والشطر الأخير فيها (.. صروفُ الليالى، والجدُود العَوَاثر).

وهوَ أوّلُ مَن غيَّرَ دِينَ إبراهيمَ، فقد تَضافَرَتْ نصُوصُ العُلماءِ على أنَّ العربَ من عهد إبراهيم استمرّت على دينِه، إلى زمن عَمْرو بن لُحَيِّ [بن قَمَعَة بنِ جُنْدُبٍ]، فهو أوّل من غيّر دينَ إبراهيم وشرع للعرب الضَّلالات، فعبَدَ الأصْنَام وسَيَّبَ السَّائِبَةَ وبَحَّرَ البَحِيرَة، ووَصَلَ الوَصِيْلَة، وحَمَى الحَامِي[1]، ونصَبَ الأصْنَام حَول الكَعْبَةِ، وأتى بِهُبَل من أرض الجزيرة ونصَبه في بطْنِ الكعبة، وأوّل مَن أدخل الشّرْك في التّلبيَة، فإنه كان يُلَبي بتلبية إبراهيم الخليل عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ، وهي: «لبَّيْكَ اللَّهُمَّ لبَّيْكَ، لبَّيْكَ لا شَريكَ لكَ لبَّيْكَ» فتمثل له الشيطان في صورة شيخ يُلَبِّي، فلمّا قال عمرو: لبيك لا شريك لك، قال له: إلا شَرِيْكاً هو لك. فأنكرعَمرٌو ذَلِكَ، فقال له: تملكه وما ملك وهذا لا بأس به. فقاله عمرٌو فتبِعَتْهُ العَرَبُ على ذَلِكَ، قال تَعَالَى توبيخاً لهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وهو أوّل مَن أحلَّ أكلَ الميتةَ، فإنّ كُلَّ القبائل مِن ولدِ إسماعيل لم تَزَلْ تحرِّمُ أكلَ الميتة حتى جاء عمرو بن لُحَيٍّ فزَعَم أنّ الله تَعَالَى لا يَرْضَى تحريمَ أكلِ الميتة، وقال لهم: كيف لا تأكلون ما قتل الله وتأكلون ما قتلتم؟!.

ورُوِيَ أنّ رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا،

---

(١) السَّائِبَةُ: النّاقةُ إذَا وَلَدَتْ عَشْرَةَ أَبْطُن، كُلُّهنَّ إناثٌ، سُيِّبَتْ فَلَمْ تُرْكَبْ، ولم يَشْرَبْ لَبَنَها إلّا وَلَدُها أَو الضَّيْفُ حَتّى تَمُوتَ، فإذَا مَاتتْ أَكَلَها الرِّجَالُ والنِّساءُ جَميعاً. والبَحِيرَةُ: النّاقةُ إذا نُتِجَتْ خَمْسَةَ أَبطُن وكَان آخرُها ذَكَراً، شَقُّواْ أُذنَها، وأَعْفَوا ظَهْرَهَا مِنَ الرّكُوب والحَمْل والذّبح، ولا تُمنَعُ مِنْ مَرْعَى وَلَا مِنْ مَاءٍ تَرِدُه، وإذا لَقِيَهَا المُعْيِي المُنْقَطَعُ به لم يَركبْها. والوَصِيْلَةُ: هي الشّاةُ تَلِدُ سَبعةَ أبطُنٍ عَناقَيْنِ عَناقَيْنِ، فإن ولَدَت الثّامنةَ جَدْياً ذبحُوه لآلهتهم، وإنْ ولدَتْ جَدْياً وعَناقاً، قالوا: وَصَلَتْ أَخاها. فلا يذبحُونَ أخاها من أجْلها، ولا يَشْربُ لبَنَها سِوَى الرِّجَال. والحَامِي: الفَحْل مِنَ الإبل إذَا طَال مُكْثُه عَنْدَهُم حمَوا ظهرَه.

ورَأَيْتُ عَمْرَاً يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ»[1]، وفي رواية: «أَمْعَاءَهُ»، وهيَ المُرادُ بالقُصْب، ويقال للأمعاء: (الأقتاب)، ومن ذَلِكَ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّار»[2]، والانْدِلَاقُ: الخروجُ بسرعة.

وقَال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَكْثَم بنِ الْجَوْنِ الخُزَاعِيِّ: «يَا أَكْثَم رَأيتُ عمرَو بنَ لُحَيٍّ يجُرُّ قُصْبه فِي النَّارِ، فمَا رَأَيْتُ رَجُلاً أشبَهَ مِنْ رَجُلٍ مِنْكَ بهِ وَلَا بِكَ مِنْهُ»، فقال أَكْثَمُ: فعسَى أن يَضُرَّني شبهُهُ يا رسولَ الله، قال: «لَا، إنكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ، إِنَّه أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيْل فَنَصَبَ الأَوْثَان»[3]. ودينُ إسماعيل هو دين إبراهيم عليهما الصَّلَاة وَالسَّلَام، فإنّ العرَب من عهد إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ استمرت على دينه لم يغيّره أحَدٌ إلى عهْدِ عمرو بن لحي، فإنّه خرجَ مِن مكّةَ إلى الشام فرَأى بأرضِ البَلْقَاءِ العَمالِيقَ ولدَ عِمْلَاق بِن لَاوِذ بن سَام بن نوح، ورآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه؟، قالوا: هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب؟، فأعطوه صنماً يقال له: (هُبَل)، فقدم به مكة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، فكان الرّجل إذا قدم من سفره بدأ به قبل أهلِه.

وكان عند هُبَل سبعُ قِدَاح: قِدْحٌ فيه مكتوب (الغُفْل)[4] إذا اختلفوا فيمن يحمله منهم ضربوا به، فعلى من خرج حمَله. وقدح مكتوب فيه (نَعَمْ). وقدح

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه [٦/٥٥]، حديث رقم: (٤٦٢٤)، عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه الإمام البخاري [٢/٢٨١]، حديث رقم: (٣٢٦٧)، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام ابن أبي عاصم الشيباني في كتاب الأوائل، ص: (٢٦)، قال: وإسناده حسن.

(٤) التي لَيْسَ لها فُرُوضٌ ولَا أَنْصِبَاء إنما تثقَّل بها القِدَاح كراهِيَة التُّهَمَة. [لِسَان العَرَب، (٤/٢٤١٢)].

مكتوب فيه (لَا)، وذَلِكَ للأمر الذي يريدونه. وقدح فيه (مِنكُم). وقدح فيه (مُلْصَقٌ مِن غَيرِكم) إذا اختلفوا في ولد هل هو منهم أو لا. وقدح فيه (بهَا). وقدح فيه (ما بهَا)، إذا أرادوا أرضاً يحفرونها للماء. وعاش عمرُو بن لحيٍّ هذا ثلاثمائة وأربعين سنة، وقيل: أنه لم يمت حتّى رأى من ولده وولد ولده ألف مقاتل، ومكث هو وولده من بعده في ولاية البيت خمسمائة سنة، وكان آخرهم حُلَيل الذي تزَوَّجَ قُصيٌّ ابنتَه كما تقدم.

وقيل: كان لعَمرو تابعٌ من الجنِّ، فقال له: اذهب إلى جدة وائت منها بالآلهة التي كانت تُعْبَدَ في زمَن نوح وإدريس عليهما الصَّلَاة وَالسَّلَام، وهي وُدٌّ وسُوَاعٌ ويَغوثُ ويَعوقُ ونَسْرٌ، فذهب وأتى بها إلى مكة ودعا إلى عبادتها، فانتشرت عبادةُ الأصنام في العرَب، فكان وُدٌّ لقبيلة كَلْب، وسُوَاع لقبائل همدَان، ويَغُوثُ لمَذْحِج قبيلة من اليمن، ويَعُوقُ لمُرَاد، ونَسْرٌ لقبائل حمير. وكانوا هؤلاء على صُورِ عُبَّادٍ ماتواْ، فحزن أهلُ عصرِهم عليهم، فصوّر لهم إبليس اللعين أمثالهم من صفْر ونُحاس ليستأنسوا بهم، فجعلوها في مؤخر المسْجِد، فلما هلك أهل ذَلِكَ العصر، قال اللعين لأولادهم: هذه آلهة آبائكم تعبدونها، ثم إن الطوفان دفنها في ساحل جدة فأخرجها اللّعين.

وكان في زَمانِ جُرْهُمٍ رَجُلٌ فاجرٌ يقال له: إسَاف، فَجَرَ بامرأةٍ يقالُ لها: نَائِلَة في جوف الكَعْبَة، أي قَبَّلهَا في الكَعْبَة، كما جاءَ في تاريخ الأزرقي[1]. وقيل: زنى بها فَمُسِخَا حَجَرين، فأُخْرِجَا منها ونُصِبَا على الصَّفا والمروة ليكونا

---

(١) واسم الكتاب: «أخبار مكة» للإمام الأزرقي [١٥٦/١]، وفيه أن اسم الرجل إساف بن بغاء، والمرأة نائلة بنت ذئب. وفي موضع آخر ذكر أن اسم الرجل إساف بن عمرو، والمرأة نائلة بنت سهيل.

عِبرةً، فجاء عمرو بن لُحَي ونصبهما حول الكعبة، وصار مَنْ يطوف يتمسح بهما، وكانت قريش تذبحُ ذبائحها عندهما.

وقصيٌّ هو الذِي أمر قريشاً أن يبنوا بيوتهم دَاخل الحرَم حول البيت، وقال لهم: إن فعلتم ذَلِكَ هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم. فبَنُوا حول البيت من جهاته الأربع وجعلوا أبواب بيوتهم جهته لكل بطن منهم باب ينسب الآن إليه، كباب بني شَيْبَة، وباب بني سَهْم، وباب بني مَخْزُوم، وباب بَنِي جُمَح، وتركوا قدر الطواف بالبيت، فبَنَى قُصَيٌّ دارَ النّدوة وهي أول دار بنيت بمكة، واستمر الأمر على أنه ليس حول الكعبة إلا قدر المطاف، وليس حوله جِدَار زَمَنَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزَمَنَ ولاية الصِّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فلمَّا كان زمن ولاية عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اشترى تلك الدور من أهلها وهَدَمها وبنى المسجد المحيط بها، ثم لما كان زمن ولاية عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اشترى دُوراً أُخرَى وغالى في ثمنها، وهدمها وزاد في سعة المسجد، ثم إنَّ ابن الزُّبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا زاد في المسجد زيادة كثيرة، ثم إن عبد الملك بن مروان رفع جدارَه وسقفَه بالسّاج وعمره عِمَارةً حسَنة ولم يَزِدْ فيه شيئاً، ثم إن الوليد بن عبد الملك وسَّعَ المسْجدَ وحمل إليه أعْمِدَةَ الرُّخَام، ثم زاد فيه المهدي والد الرشيد مرَّتين.

وكانت قريش تحترم الحرَمَ، ولا تبيت فيه ليلاً، وإذا أراد أحدهم قضاءَ حَاجةِ الإنسان خَرج إلى الحِلّ. وجاء أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان بمكة إذا أَراد حاجةَ الإنسان خرَج إلى المغَمِّسِ[1]، وهَابت قُريشٌ قطعَ شجَرِ الحرَمِ التي في منازلهم

(١) المُغَمِّسُ: بضم الميم وفتح الغين المعجمة بعدها ميم مشددة مكسورة فسين مهملة، كذا ضبطها ابن هشام والصَّالحي في سُبل الهدى والرشاد. وذكر المصنف أن فيها لغتين الفتح والكسر فلعلها بتثليث الميم. والمُغَمَّسُ: هو اسم لمكان معروف حتى الآن شرقي الحرم، يُشرف عليه من الشرق=

التي بنوها، وشكوا في ذَلِكَ إلى قصي فأمرهم بقطعها، فهابوا ذَلِكَ وقالوا: نكره أن ترى العرب أنا استخففنا بحرمنا، فقال: إنما تقطعونه لمنازلكم وما تريدون به فساداً، بَهْلَةُ الله: ـ أي لَعْنَتُه ـ على من أراد فَساداً، فقطعها قصيٌّ بيدِه وبِيَدِ أعْوَانه، وأنزل القبائل من قريش في نواحي مكة بطاحها وظواهرها، ومن ثم قيل لمن سكن البطاح: قريش البطاح، ولمن سكن الظواهر: قريش الظواهر، والأولى أشرف من الثانية، ومن الأولى: بنو هاشم، وإلى ذَلِكَ يشير صاحب الأصل في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله:

من بني هَاشِمِ بنِ عبدِ مَنَافِ وبنو هاشمٍ بحَارُ الحياءِ
من قريشِ البِطَاح من عرَفَ النَّا سُ لهمْ فَضْلَهم بِغَيرِ امْتِرَاءِ

وكان قصيٌّ أوّلَ مَن أصاب مُلْكاً من بني كنانة، ولما حضرَ الحج قَال لقُريش: (قد حضرَ الحج، وقد سمعت العَرَبُ بما صنعتم، وهم لكم معظمون، ولا أعلمُ مَكْرُمةً عندَ العرب أعظم من الطّعَام، فليُخْرِجْ كلّ إنسانٍ منكم من ماله خَرْجاً)، ففعلوا، فجَمَعَ مِن ذَلِكَ شيئاً كثيراً، فلما جاء أوائل الحجّ نحرَ على كل طريق من طرق مكة جَزُوراً، ونحرَ بمكّةَ وجعل الثّريدَ واللّحمَ، وسقى الحجيجَ الماءَ المُحَلّى بالزّبيبِ وسَقاهم اللّبَنَ. وهو أوّلُ من أَوْقَدَ النارَ بمُزْدَلِفَةَ ليَرَاها الناسُ من عَرَفَةَ ليلةَ النَّفْرِ. ومما يُؤثر عن قُصَيٌّ قولُه: (مَن أكرَم لئيماً أشْرَكَهُ في لُؤْمِه، ومن اسْتَحْسَنَ قَبِيحاً نزَل إلى قُبْحِهِ، ومَن لم تُصْلِحُهُ الكَرَامةُ أَصْلَحَهُ الهوَان، ومَنْ طَلَبَ فوقَ قدْرِهِ استَحَقَّ الحرْمَان، والحسود العدو الخفي).
وقد حاز قُصّيٌّ شرَفَ مكّة كلّه، فكان بيدِه: السّقايةُ، والرِّفَادةُ، والحِجَابةُ،

= جبل كَبْكَبٍ، والطريق من مكة إلى الطائف المارة بنخلة اليمانية تمر بطرف المُغَمّسُ من الشمال، وعرفة نهاية المُغَمّسُ من الجنوب.




والنَّدْوَةُ، واللِّوَاءُ، والقِيَادَةُ.

وكان عَبدُ الدّار أكبرَ أولاد قُصَي، وعبد مناف أشرَفَهم؛ لأنه شرف في زمان أبيه قصيّ، وذهب شرفه كل مذهب، وكان يليه في الشرف أخوه المطلب، كان يقال لهما: البدران، وكانت قريش تسمي عبد مناف (الفَيَّاض)؛ لكثرة جوده، فأعطى قصيٌّ ولدَه عبدَ الدار السّقايةَ، والرِّفَادةَ، والحِجَابةَ، ودارَ النَّدْوةِ، واللواءَ، والقيَادةَ. وقال له: أمَا والله يا بني لأُلْحِقَنَّكَ بالقوم يعني أخويه عبد مناف والمطلب، وإن كانوا قد شرفوا عليك، فَلَا يَدخُل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، أي بسببِ الحجابة للبيت، ولا يَعِقْدُ لقُريش لوَاءً لحربها إلا أنت بيدك، ولا يشربُ رَجلٌ بمكةَ إلا من سقايَتِكَ، ولا يأكل أحدٌ من أهل الموسم إلا من طعامِك ـ وهذا هو المُرَادُ بالرِّفادة ـ ولا تقطعُ قريشٌ أمراً من أمورِها إلّا في دارك ـ يعني دار الندوة ـ ولا يكونُ أحدٌ قائدَ القَوم إلّا أنت. وذَلِكَ بسبب القيادة.

فلما مَات عبد الدار وعبد مناف أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا تلك الوَظَائف من بني عبد الدار وأجمعوا على الحَرب، فأخرج بنو عبد مناف جَفْنَةً مملوءَةً طِيباً فوضَعُوها لأحْلَافِهم في المسجد عند باب الكعبة، ثُمّ غمَسَ القومُ أيديَهم فيها، وتعاقدوا هُمْ وحُلَفَاؤُهم ومَسَحوا الكعبةَ بأيديهم توكيداً على أنفسهم فَسُمُّوا: المطَيَّبِينَ. أخْرَجَتْهَا لهم أمُّ حكيم بنت عبد المطلب عمة النَّبِيّ ﷺ تَوأَمَة أبيه ووضعتها في الحجر، وقالت: من تطيب بهذا فهو منّا، فتطيب منها مع بني عبد مناف بنو زُهْرَة، وبنو أسد بن عبد العُزّى، وبنو تميم بن مُرّةَ، وبنو الحارث بن فهر. وتعاقد بنو عبد الدار وأحلافهم، وهم: بنو مخزُوم، وبنو سَهْم،



وبنُو جُمَح، وبنو عَدِيّ بن كَعب، على أن لا يَتَخَاذَلُوا ولا يُسْلِمْ بَعضُهم بعضاً، فَسُمُّوا الأَحْلَاف لِتَحَالُفِهم، بعد أن أخرَجوا جَفْنَةً مملوءَة دَمَاً من دَمِ جَزُور نحَرُوها، ثم قالوا: من أدخل يده في دمها فَلَعَقَ منه فهوَ منّا، وصاروا يضعون أيديهم فيها ويلعقونها، فَسُمُّوا بذلكَ: لَعَقَةَ الدَّم. ثُمّ إنهم اصْطَلحوا بعد ذلك على أَنْ تكونَ السِّقَايةُ والرِّفادةُ والقِيادةُ لبني عبدِ مناف، والحجابةُ واللواءُ لبني عبد الدار، ودارُ النّدوة بينهم بالاشتراك، وتحالفوا على ذَلِكَ.

والسِّقَاية كانت حِيَاضَاً من أُدُمٍ تُوضَعُ بفناءِ الكعبة، وينقل إليها الماء، وربّما قُذِفَ فيها التّمْرُ والزَّبيبُ للسَّقْيِ أيام الموسم، وهذه السّقاية قام بها وبالرّفادة بعد عبد مناف ولدُه هاشم، وبعده ولده عبد المطلب، ولما حَفَرَ زمزمَ صار ينقل الماء منها لتلك الأحواض ويقذفُ فيها التمْرَ والزبيبَ، ثم بعده قام بها ولده أبو طالب، ثم إن أبا طالب افتقرَ في بعض السّنين، فاسْتَدَانَ من العبّاسِ عشرةَ آلافِ دِرْهم إلى الموسم الآخر، ثم صَرَفها أبو طالب في الحَجِيج عَامَه ذَلِكَ فيما يَتَعَلَّقُ بالسِّقاية، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء، فقال لأخيه العبّاس: أسلفني أربعة عشر ألفاً أيضاً إلى العام المقْبِل لأعطيك جميعَ مالِك. فقال العباس: بشَرْطِ إِنْ لمْ تعطِني تَتْرُكُ السِّقَايةَ لأكْفُلَها!، فقال: نعم، فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبي طالب ما يعطيه لأخيه العباس فترك له السقاية، فصارت للعباس، ثم لولده عبد الله بن عباس، واستمر ذَلِكَ في بني العباس إلى زمن السَّفَّاح، ثم ترك بنو العباس ذَلِكَ.

والرِّفَادَةُ إطعام الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا، فإن قريشاً كانت على زمن قُصيّ تخرجه من أموالها في كل موسم فتدفعه إلى قُصيّ، فيصنع به طعاماً

للحاج يأكل منه من لم يكن معه سَعَةُ ولا زَادٌ، حتى قام بها بعده ولده عبد الدار كما تقدّم بيانه، ثم بعده ابن أخيه هاشم بن عبد مناف، ثم بعد هاشم ولده عبد المطلب، ثم ولده أبو طالب، وقيل: ولده العباس، ثم استمر ذَلِكَ إلى زمنِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزمن الخلفاء بعده، ثم استمر ذَلِكَ في الخلفاء.

و**القِيَادَةُ** هي إمارةُ الرَّكْب، قام بها بعد عبد الدّار ابنُ أخيه عبد شمس، ثم كانت لابنه أمية، ثم بعد أمية لابنه حرب، وبعده لابنه أبي سُفْيَان، فكان يقود الناس في غزواتهم.

و**دَارُ النَّدْوَةِ** كانت قريش تجتمع فيها للمشَاورة في أمورها، ولا يدخلُها إلا مَن بلغَ الأربعين، ولا زَالت في يدِ بني عبد الدار، إلى أن صارت إلى حكيم بن حزام، فباعها في الإِسْلَام بمائة ألف درهم، فلامَه عبدُ الله بنُ الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقال: أتبيعُ مَكْرُمَةَ آبائك وشرفهم؟. فقال حكيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ذهبَتِ المكارمُ إلا التّقوى، والله لقدِ اشْتَرَيْتُها في الجاهلية بِزِقِّ خمْرٍ، وقد بِعْتُها بمِائةِ ألفٍ، وأُشْهِدُكم أنّ ثمنَها في سَبيل الله، فأيُّنا المغبُون؟.

وقصيُّ بنُ (**كِلَاب**) واسمُه حكيم، ولُقِّبَ بكلابٍ لأنه كان يحبُّ الصيدَ وأكثرُ صيدِه بالكلاب، وهو الجدّ الثالث لآمنة أمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه يجتمع نسب أبيه وأمه.

وكِلَاب ابن (**مُرَّة**)، وهو الجد السّادس لأبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه، والإمام مالك رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه يجتمع معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الجد الذي هو مُرَّةُ.

ومُرَّةُ ابنُ (كَعْبٍ)، وهو الجد الثامن لعمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه، وكان كعب يجمع قومَه يَوم العُرُوبَةِ، الذي هو يوم الجمعة، فكانت قريشٌ تجتمع إليه فيعظهم ويذكرهم بمبعث النَّبِيِّ ﷺ، ويعلمهم بأنه من ولدِه، ويأمرُهم باتّباعه، ويقول: سيأتي لحرَمِكم نبأ عظيمٌ، وسيخرج منه نبيٌّ كريمٌ، وينشد أبياتاً، يقول في آخرِها:

عَلَى غَفْلَـةٍ يَـأْتِي النَّبِيّ مُحَمَّـد ... فَيُخْبِرُ أَخْبَـارَاً صَـــدُوقٌ خَبِيرُهَـا

وينشد أيضا:

يَـا لَيْتَنِي شَـــاهِـدٌ فَحْوَاءَ دَعْوَتِـهِ ... حِيْنَ العَشِـــيْرَةُ تَبْغِي الحقَّ خَذْلَانا

وكان بينه وبين مبعثه ﷺ خمسمائة وستون سنة. وقيل: إن كعباً أوّل من قال: «أمّا بعد»، فكان يقول: (أما بعد: فاسمعوا وافهموا، وتعلموا واعلموا، ليل داج، ونهار صاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجبال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، فَصِلُوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم، وثمروا أموالكم، الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون). وقيل له: (كعب) لعلوّه وارتفاعه، ولعلوه وارتفاع شأنه أرَّخُوا بموته حتى كان عام الفيل أرخوا به، ثم أرخوا بعده بموت عبد المطلب.

وكعبُ بنُ (لُؤَيّ بنِ غَالبِ بنِ فِهْرٍ)، سَمّاه أبوه فِهْرا، وقيل: هو لَقَبٌ واسمُه قُرَيشٌ، والمناسب أن يكون لقباً لقولِهم: إنّما سُمِّيَ قريشاً لأنه كان يُقَرِّش، أي يُفَتِّشُ على حاجَةِ المُحْتَاج فَيَسُدُّها بِمَالِه، وكان بنُوه يقرّشون أهلَ الموسِم عَن حَوَائِجِهم فَيَرْفِدُونَهم، فسمّوا بذَلِكَ قريشا. وهو جِمَاعُ قريشٍ عند الأكثر. وقال الزُّبيرُ بنُ بكّار: (أجمَعَ النّسّابونَ مِن قريشٍ وغيرِهم على أنّ قُرَيشاً إنما

تفرّقت عن فِهْرٍ). ولما جاء حسّان بنُ عبد كلال من اليمن في حِمْيَر وغيرهم لأخذِ أحجَار الكعبة إلى اليمن ليبني بها بيتاً، ويجعلُ حَجَّ الناسِ إليه ونَزَل بنَخْلة، خرج فِهْرٌ إلى مقاتلَتِه بعد أنْ جمعَ قبائلَ العَرَب، فقاتله وأسرَه، وانهزَمَتْ حِمْيَرُ ومَن انضَمَّ إليهم، فهَابَتِ العَرَبُ فِهْراً وعظّمُوه وعلا أمرُه. ومما يؤثر عن فهرٍ قوله لولده غالب: (قليل ما في يديك أغنى لك من كثير ما أَخْلَقَ وجهك وإن صَار إليك).

وفهرٌ ابنُ (**مالكٍ**) قيل له ذَلِكَ لأنه ملك العرب. وهو ابنُ (**النَّضْرِ**)، ولقب به لنضارته وحسنه وجماله، واسمه قيس. والنّضرُ بنُ (**كِنَانَةَ**) قيل له كنانة، لأنه يستر على قومِه ويحفظ أسرارهم، وكان شيخا حسنا عظيم القدر تَحجُّ إليه العرب لعلمه وفضله. وكان يقول: (قد آنَ خروجُ نبيٍّ مِن مكّةَ، يُدعى أحمد، يدعو إلى الله، وإلى البر والإحسان، ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفاً وعِزّاً إلى عِزّكم، ولا تَعْتَدُوا أو تُكَذّبُوا ما جاء به فهو الحقّ). وكِنَانةُ بنُ (**خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة**) واسمه عمرو، قيل له مدركة لأنه أدرَك كل عزّ وفخر كان في آبائه.

ومُدْرِكَةُ بنُ (**إلِيَاسَ**) سُمّي بذَلِكَ؛ لأنّ أبَاه كانَ قد كبر سِنُّه ولم يُولد له ولدٌ فولد له هذا الولد فسمّاه إلياسَ، وعَظُمَ أمرُه عند العرَب حتى كانت تدعوه بكبير قومِه وسيّد عشيرتِه، وكانت لا تقضي أمراً دونه. وهو أوّلُ مَن أَهْدَى البُدْن إلى البيتِ الحرَام وأوّلُ مَن ظَفِرَ بمقَام إبراهيم لما غَرِقَ البيتُ في بعض الأزمنة فوضعه في زاوية البيت. وجاء في الحديث: «لا تَسُبُّوا إِليَاسَ فَإنّه كَانَ مُؤْمِناً»[1]. وكَان يُسْمَعُ مِنْ صُلْبه تَلبِيَةَ النَّبيِّ ﷺ المعروفة في الحَجِّ. وكان في العرب

(١) ذكره الحافظ بدر الدين العيني في كتابه عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣١/٣٥٠).

مثل لُقْمَان الحكِيم في قومه. ولما مَاتَ حَزِنت عليه زوجتُه خِنْدِفُ حُزْناً شَدِيداً ولم يُظلّها سَقْفٌ بعد موته حتى ماتت. ومِنْ ثَمَّ قِيْلَ: أحْزَنُ مِنْ خِنْدِفَ!.

وإلِيَاسُ بنُ (مُضَرَ)، قيل: هو جماع قريش، فلا يقال لأولادِ مَن فوقَ مُضَر قَرشيّ. ففي جِمَاعِ قُرَيشٍ خمْسَةُ أقوال: فقيل: قُصيّ، وقيل: فِهْر، وقيل: النَّضْر، وقيل: إليَاس، وقيل: مضر. ويقال له: مُضَرُ الحمْرَاء، قيل: لأنه لمّا اقتسم هو وأخوه ربيعة مالَ والدهمَا نزار، أخذَ مُضَرُ الذهب فقيل له: مُضَرُ الحمراء، وأخذ ربيعة الخيل ومِنْ ثَمَّ قيل له: ربيعة الفَرَس. ومما حفظ عنه: (مَن يَزْرَعْ شَرًّا يحصُدْ نَدَامَة). وجاء في الحديث: «لَا تَسُبُّوا رَبِيعَةَ وَلَا مُضَرَ، فَإِنَّهُمَا كَانَا مُؤْمِنَينِ»[1]. وحُكِيَ عن أبي عُبَيدةَ البَكْرِي: أنّ قبرَ مُضرَ بالرَّوحَاء يُزارُ. وكان مُضَرُ هَذا مِن أحْسَنِ النّاس صوتاً، وهو أوّلُ مَن حَدَا للإبل، فإنَّه وقع فانكسرَتْ يَدُه فصَار يقولُ: (يا يداه.. يا يداه)، فجاءت إليه الإبل من المرعى؛ لأن الحداء مما يُنَشّطُ الإبلَ، فإنها تمُدّ أعناقَها وتُصْغِي للحَادي حِينَ يَحْدُو، وتُسْرِعُ في سَيرِها وتستَخِفّ الأحمالَ الثقيلةَ، فربّما قطعتِ المسَافةَ البعيدةَ في زَمَنٍ قصير، وربّما أخذت مسيرةَ ثلاثةِ أيّام في يوم واحد.

ومضرُ بنُ (نِزَارٍ) كان يُرَى نُورُ النّبِيّ ﷺ بين عينيه. وهو أوّل من كتب الكتاب العربي على الصحيح، وأحمد بن حنبل يجتمع معه ﷺ في هذا الجدّ.

ونزارٌ بن (مَعَدِّ بنِ عَدْنَانَ)، وهذا هو النسب المُجْمَعُ عليه في نَسَبِه ﷺ عند العلماء بالأنسَاب، وقيل له: مَعَدٌّ؛ لأنه كان صاحب حروب

(١) أخرجه الحافظ الديلمي في مسنده (١٤/٥)، رقم: (٧٣٠٣)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وغارات على بني إسرائيل، ولم يحارب أحداً إلا رجعَ بالنّصر والظَّفَر. ولا يخرج عربي في الأنساب عن عدنانَ وقحطانَ، وولد عدنان يقال لهم: (قيس)، وولد قحطان يقال لهم: (يَمَن).

ولا خلاف في أنّ عدنانَ من ولدِ إِسْمَاعِيْل نبي الله تَعَالَى، أرسله اللهُ تَعَالَى إلى جُرْهُمٍ وإلى العماليق وإلى قبائل اليمن في زمن أبيه إبراهيم، وكذلك بُعِثَ أخوه إسحاقُ إلى أهل الشام، وبعثُ ولده يعقوبُ إلى الكنعانيين، فكانوا أنبياءَ على عهدِ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وإِسْمَاعِيْل أوّل من تسمّى بهذا الاسم من بني آدم، ومعناه بالعبرانية مطيع الله. وهو أول من تكلم بالعربية البينة الفصيحة، فقد تعلم أصل العربية من جُرْهُمٍ، ثمّ ألهمه اللهُ تعالى العربية الفصيحة البينة فنطق بها. وفي الحَدِيْث: «أَوّلُ مَنْ فَتَقَ لِسَانَهُ بِالعَرَبِيَّةِ البَيِّنَةِ إِسْمَاعِيْلُ وَهُوَ ابنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةٍ»[1]. فأوّلُ مَن تكلّمَ بالعربية المحْضَةِ، وهي عربيّة قريشٍ التي بها نَزَلَ القرْآنُ هو إِسْمَاعِيْلُ. وأما عربية قحطانَ وحِمْيَر فكانت قبل إِسْمَاعِيْل، ويقال لمن يتكلم بلُغَةِ هؤلاءِ: (العَرَبُ العَارِبَةُ)، ويقال لمن يتكلم بلغة إِسْمَاعِيْل: (العَرَبُ المُسْتَعْرِبَة)، وهي لغة الحجاز وما والاها. وإِسْمَاعِيْل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أوّلُ مَن رَكِبَ الخيلَ، وكانت وحُوشاً ومن ثم قيل لها: (العِرَاب). وأعطى الله إِسْمَاعِيْلَ القَوسَ العربية، فكانَ لا يَرمِي شَيئاً إلّا أصَابه. وفي الحَدِيْث: «ارْمُوا يَا بَنِي إِسْمَاعِيلَ، ارْمُوا فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًا»[2].

---

(١) أخرجه الحافظ الديلمي في مسنده (٣٠/١)، رقم: (٤٨)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره الحافظ السيوطي في الجامع الكبير (٩٩٩٤/١)، برقم: (٨٠٠٦)، وعزاه للطبراني في الأوائل.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، باب: التحريض على الرّمي، برقم: (٢٧٤٣)، عن سلمة بن الأكوع.

وجَاءَ أنّ النَّبِيَّ ﷺ انْتَسَبَ حتّى بلغَ كِنَانَةَ، ثُمّ قَال: «فَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ كَذَب»[1]، أي ممّا زَاد على ذَلِكَ، وإطْلَاقُ الكَذب عَلى مَنْ زادَ على كِنَانة إلى عَدنان يخالفُ ما سَبَقَ مِنْ أَنَّ المجْمَع عليه إلى عدنان، إلا أنْ يُقالَ: يَجُوزُ أنْ يكونَ الرّاويْ لم يَسمع ما زاد على كِنَانة هُنَا مَع ذِكْرِه ﷺ له وسَمِعَهُ غيرُه. وانْتَسَبَ ﷺ فقال: «أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله بنُ عَبْدِ المطَّلِبِ»، إلى أن قال: «ابن مُضَر بن نِزَار»[2]. هذا الترتيب المألوف، وهو الابتداء بالأب ثم بالجد ثم بأبي الجد وهَكَذا. وقد جاء في القرآنِ على خَلافِهِ في قوله تَعَالَى حكايةً عن سيدنا يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٣٨]. والحكمة في ذَلِكَ أنه لم يرد مجرد ذكر الآباء، وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التي اتبعها، فبدأ بصَاحب الملّة ثم بمَن أخذَها عنه أولاً فأولا على الترتيب.

وكَان ابنُ مسعود إذا قرأ قول الله تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] قال: كذَب النّسَّابونَ ـ يعني الذين يدعون علم الأنساب ـ ونفى اللهُ تَعَالَى علمَها عن العباد. قال بعضُهم: اختلفَ الناسُ فيما بين عدنان وإِسْمَاعِيْل من الآباء، فقيل: سبعة، وقيل: تسعة، وقيل: خمسة عشر، وقيل: أربعون، واللهُ أعْلَمُ. قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، أي لا يكاد يحاط بها، وسببُ الاختلاف فيما بين عدنان وآدم أنّ قُدَماءَ العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون إليها، وإنما كانوا يرجعون إلى حفظِ بعضِهم من بعض.

---

(١) أخرجه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة (١/٩٦)، رقم: (٨١)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٢٣)، عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه.

شَرَف نَسَبِهِ ﷺ

يَدَلُّ عَلى شَرَف هَذا النَّسَب ما جَاء عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، قال: قيل: يا رسُولَ الله، قُتِلَ فُلَانٌ، فقَال: «أَبْعَدَهُ الله، إِنَّهُ كَانَ يُبْغِضُ قُرَيْشاً»(١). وفي الجامع الصغير: «قُرَيْشٌ صَلَاحُ النَّاسِ، وَلَا يَصْلُحُ النّاسُ إِلَّا بِهِمْ، كَمَا أَنّ الطَّعَامَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِالْمِلْحِ.. قُرَيْشٌ خَالِصَةُ الله تَعَالَى، فَمَنْ نَصَبَ لهَا حَرْباً سُلِبَ، وَمَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ خَزِيَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»(٢). وعن سعد بن أبي وقّاص، أنّ رسولَ الله ﷺ، قال: «مَنْ يُرِدْ هَوَانَ قُرَيْشٍ أَهَانَهُ الله تَعَالَى»(٣). وعن أنس رَضِيَ اللهُ تَعالَى عنه مرفوعًا: «حُبُّ قُرَيْشٍ إِيمَانٌ وَبُغْضُهُم كُفْرٌ»(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعُه: «النَّاسُ تَبَعٌ لِقُرَيْشٍ؛ فَمُسْلِمُهُمْ تَبَعٌ لِمُسْلِمِهِمْ، وَكَافِرُهُمْ تَبَعٌ لِكَافِرِهِمْ»(٥)، وقال ﷺ: «الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ»(٦)، وجمع

---

(١) أخرجه البزار في مسنده [٢١٠/١] ـ حديث رقم (١١٨٣). وابن أبي شيبة في مصنفه [٤٠٣/٦] ـ حديث رقم (٣٢٣٩٩).

(٢) الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي [٢٥٤/٣]، برقم: (٦١١٨).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٨٤/٤)، برقم: (٦٩٥٦). وقال الذهبي في التعليق: صحيح.

(٤) أخرجه الإمام الطبراني في المعجم الأوسط (٧٦/٣)، حديث رقم: (٢٥٣٧).

(٥) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه [١٢٨٨/٣]، في باب مناقب قريش، حديث رقم: (٣٣٠٥). وأخرجه مسلم في صحيحه [١٤٥١/٣] في باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش، رقم: (١٨١٨).

(٦) أخرجه الإمام النسائي في السنن الكبرى [٤٦٧/٣]، باب: الأئمة من قريش، برقم: (٥٩٤٢)،=

الحافظ ابن حجر طرق هذا الحَدِيث في كتاب سماه: "لذّة العَيش في طُرُق حَديث: الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ"(١). وفي الحَدِيث: «لَا تَسُبُّواْ قُرَيْشًا فَإِنَّ عَالِمهَا يَمْلأُ الأَرْضَ عِلْمًا»(٢). قال الإمام أحمد رحمه الله: هذا العالم هو الإمام الشّافعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه؛ لأنه لم ينْتَشِر في طباق الأرض من عِلْم عالم قرشيٍّ من الصّحَابة وغيرهم ما انتشر من عِلم الإمام الشّافعي. وذكر السُّبْكِيّ أنَّ مِن خَوَاص الشافعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه من بين الأَئِمَّة أن من تعرض إليه أو إلى مذهبه بسوء أو نقص هلك قريباً، وأخذوا ذَلِكَ من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَهَان قُرَيْشًا أَهَانَهُ اللهُ»(٣).

قال الطّحَاوي: حدثنا المُـزَنِيّ قال: حدثنا الشافعي رضي الله عنه، أن قتادة بن النعمان وقع بقريش، وكأنه نال منهم، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْلاً يا قَتَادَةُ، لَا تَشْتُم قُرَيشاً، فإنكَ لعَلّكَ تَرَى منْهُم رِجَالاً إذَا رَأَيْتَهُمْ عَجِبْتَ بِهِمْ، وَلَوْلَا أنْ

= وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى [٣٩٦/٢]، باب: الأئمة من قريش، برقم: (١٦٩٨٢)، بلفظ: «الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَلِي عَلَيْكُمْ حَقٌّ عَظِيمٌ، وَلَهُمْ مِثْلُهُ مَا فَعَلُوا ثَلَاثًا: إِذَا اسْتُرْحِمُوا رَحِمُوا وَحَكَمُوا فَعَدَلُوا وَعَاهَدُوا فَوَفَوْا، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْهُمْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

(١) هو كتابٌ لطيف الحجْم جَمُّ النفع والفَائدة، صنّفه الحافظ ردّا على من زَعَم أن هذا الحديث ليس متواتر وأنه لا يفيد العلم ولا يجب على الأمّة العمل به، فأثبت الحافظ رَحِمَهُ اللهُ تعالى في هذا الكتاب أن الحديث متواتراً، وأنه محل اتفاق عند أهل السنة والجماعة، وأنه يلزم العمل بمقتضاه في اختيار الخليفة، حيث يرويه أربعون صحابياً، وبلغت مجموع طرقه مائة وسبعة وستين رواية.

(٢) أخرجه الإمام البيهقي في معرفة السنن والآثار [١٢٠/١]، حديث رقم: (٩٧).

(٣) أخرجه الحافظ المقدسي في الأحاديث المختارة [١٦/٢]، برقم: (١٠٣٠)، وقال: اسناده صحيح.

تَطْغَى قُرَيشٌ لأَخْبَرتُها بالذِي لها عِندَ الله تَعَالَى»[1].

ومما يَدُلُّ على شَرَفِ هذا النَّسَبِ أيضاً ما جاءَ عن وَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَع رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه قال: سَمِعْتُ رسُولَ الله ﷺ يقُولُ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ آدَمَ إبْرَاهِيْمَ ﷺ، وَاتَّخَذَهُ خَلِيْلاً، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إبرَاهيمَ إِسْمَاعِيْلَ، ثُمّ اصْطفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيْلَ نِزَاراً، ثُمّ اصْطَفَى مِنْ ولدِ نِزَارٍ مُضَرَ، ثُمَّ اصْطفَى مِن ولَدِ مُضَرَ كِنَانَةَ، ثُمّ اصْطَفَى مِن كِنَانَةَ قُرَيشاً، ثمّ اصْطَفَى مِنْ قُرَيشٍ بني هَاشِمٍ، ثمّ اصْطفَى مِنْ بَنِي هَاشمٍ بنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، ثُمَّ اصْطَفَانِي مِنْ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ»[2]. وفي الوَفَاء: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما في قوله تَعالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال: ليسَ من العَرَب قَبِيْلةٌ إلّا وَلَدَت النَّبِيَّ ﷺ، مُضَرِيَّهَا ورَبِيعِيَّها ويمانيَّها[3].

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خَلَقَ الخلْقَ، فاخْتَارَ مِنَ الخَلْقِ بَنِي آدَمَ، واخْتَارَ مِن بَنِي آدَمَ العَرَبَ، واخْتَارَ مِنَ العَرَبِ مُضَرَ، وَاخْتَار مِن مُضَرَ قُرَيشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْش بني هَاشِم، واخْتَارَني مِن بَنِي هَاشِم،

---

(١) أخرجه الإمام الشافعي في مسنده [٢٧٨/١]، برقم: (١٣٥٦).

(٢) حديث صحيح، أخرجه الترمذي في سننه [٥٨٣/٥]، باب فضل النبي ﷺ، برقم: (٣٦٠٥)، بلفظ: «إنّ الله اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إبْرَاهِيمَ إسمَاعِيلَ، واصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إسمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، واصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً، واصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِم». وأخرجه مسلم بنحوه في صحيحه، باب فضل نسب النبي ﷺ، برقم: (٢٢٧٦).

(٣) "الوفا بتعريف فضائل المصطفى" لابن الجوزي، ص: (٤١/١). وهذا كتابٌ في السيرة النبوية والشمائل المُحَمَّدية، أورد مصنِّفُه كلَّ ما يتعلق بالذات المُحَمَّدية منذ خلق آدم إلى يوم القيامة، من الناحية التاريخية كالنشأة والبعثة والهجرة، وناحية المآثر والمناقب، كالمعجزات، والصفات الخلقية والأخلاقية.

فَأَنَا خِيَارٌ مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَار»[1]. وعن أبي هُرَيْرَة يَرْفَعُهُ: «إِنَّ اللهَ حِيْنَ خَلَقَ الخلْقَ بَعَثَ جِبْرِيلَ، فَقَسَّمَ النَّاسَ قِسْمَينِ: قَسَّمَ العَرَبَ قِسْماً، وَقَسَّمَ العَجَمَ قِسْماً، وَكَانَتْ خِيرَةُ اللهِ فِي العَرَبِ. ثُمَّ قَسَّمَ العَرَبَ إِلَى قِسْمَينِ: فَقَسَّمَ اليَمَنَ قِسْماً، وَقَسَّمَ مُضَرَ قِسْماً، وَكَانَتْ خِيْرَةُ اللهِ فِي مُضَرَ، وَقَسَّمَ مُضَرَ قِسْمَينِ: فَكَانَتْ قُرَيشٌ قِسْماً، وَكَانَتْ خِيْرَةُ اللهِ فِي قُرَيشٍ، ثُمَّ أَخْرَجَنِي مِنْ خِيَارِ مَنْ أَنَا فِيْهِ»[2].

وما جاء في فضل قريش فهو ثابتٌ لبني هاشم والمطّلب، لأنّهم أَخَصُّ، وما ثبتَ للأَعَمِّ يثبت للأخصّ، ولا عكس. وإلى شرَف هذا النسب يشيرُ صَاحِبُ الهَمْزِيّة رحمه الله بقوله:

وبَدَا للوجُود منكَ كَرِيمٌ	مِنْ كَرِيمِ آبَاؤُهُ كُرَمَاءُ
نَسَبٌ تَحْسِبُ العُلَا بِحُلَاه	قَلَّدَتهَا نجُومهَا الجوْزَاءُ
حبَّذَا عِقْدُ سُودَدٍ وفَخَارٍ	أَنتَ فِيهِ اليتِيمَةُ العَصْمَاءُ

أيْ: ظهرَ لهذا العَالَم منك كَريمٌ جَامعٌ لكلّ صِفَةٍ كمال، ظهرَ من أَبٍ كَريم سَالم من نقص الجاهلية، آباؤه جميعهم كرماء سالمون مما يُعَدُّ في الإِسْلَام نقصا من أوصاف الجاهلية، وهذا نسَبٌ لا أَجَلّ منه. قال الماوَرْدِي في كتاب "أعلام النبوة": (وإذا خَبَرْتَ حَالَ نسَبِه ﷺ وعَرَفْتَ طهَارَة مَوْلِده ﷺ، علمتَ أنّه سُلَالة آباءٍ كرَام، ليس فيهم مُسْتَرْذَلٌ، بل كلّهُم سَادَةٌ قَادَةٌ، وشَرَفُ النّسَبِ وطهَارَةُ المؤلِدِ مِن شُرُوطِ النّبوّة) اهـ[3].

---

(١) أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك (٤/١٢٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/٣٤٦).

(٢) أخرجه الإمام الطبراني في المعجم الأوسط (٤/١٣٥) برقم: (٨٣٠٢).

(٣) "أعلام النبوة"، ص: (١٣٧).

ومن كلام عمّه أبي طالب فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إذا اجتَمَعَتْ يوماً قُرَيشٌ لِمَفخَرٍ ... فَعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا

فَإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرَافُ عَبْدِ مَنَافِهَا ... فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمُهَا

وَإِنْ فَخَرَتْ يَوْمَاً فَإِنَّ مُحَمَّداً ... هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمُهَا

وسِرّ القَوم: وسَطُهم، فأشْرَفُ القوم قومه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأشرَفُ القبائل قبيلته، وأشرَفُ الأَفْخَاذ فَخْذُه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ العَرَبَ فبِحُبّي أحَبَّهُم، ومَنْ أبغَضَ العَرَبَ فبِبُغْضِي أبْغَضَهُم»(١). وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: قال لي رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا سَلْمَانُ لَا تُبْغِضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ»، قلتُ: يا رسولَ الله، كيفَ أبغضكَ وبكَ هَدَاني الله تَعَالَى؟ قال: «تُبْغِضُ الْعَرَبَ فَتُبْغِضُنِي»(٢). وعن عَليٍّ رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يُبْغِضُ الْعَرَبَ إِلَّا مُنَافِقٌ»(٣). وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ غَشَّ الْعَرَبَ لَمْ يَدْخُلْ فِي شَفَاعَتِي، وَلَمْ تَنَلْهُ مَوَدَّتِي»(٤). وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحِبُّوا العَرَبَ لِثَلَاثٍ: لِأَنّي عَرَبيٌّ، وَالقُرْآنُ عَرَبيٌّ، وكَلَامُ أَهْلِ الجنَّةِ عَرَبيٌّ»(٥). وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ لِوَاءَ الحَمْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ بِيَدِي، وإنَّ أقرَبَ الخلْقِ مِنْ لِوائِيْ

(١) أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك (٤/١٢٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١١/٣٤٦).

(٢) أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك (٦/٤٣)، برقم: (٦٩٩٥)، وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد ابن حنبل في مسنده (٢/٥١)، برقم: (٦١٤).

(٤) أخرجه الإمام أحمد ابن حنبل في مسنده (١/٥٤٢)، برقم: (٥١٩).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه [٧/٣٤٢]، والطبراني في المعجم الأوسط [٥/٣٦٩]، برقم: (٥٥٨٣).

يَوْمَئِذٍ العَرَبُ»[1] وقال ﷺ: «إِذَا ذَلَّتِ الْعَرَبُ ذَلَّ الإِسْلَامُ»[2]، وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الله ﷻ يومَ خَلَقَ الخَلْقَ جَعَلَنِي في خَيْرِهِم، ثُمَّ حِينَ فَرَقَهُم جَعَلَنِي في خَيْرِ الفَرِيقَيْن، ثمَّ حِينَ جَعَلَ القَبَائِلَ جَعَلَنِي في خَيرِ قَبِيلَةٍ، ثُمَّ حِينَ جَعَلَ البُيوتَ جَعَلَنِي مِنْ خَيرِ بُيُوتِهم، فَأَنا خَيْرُهُم بَيْتاً، وَخَيْرُهُم نَفْساً»[3]. ولم يُرِدْ رسولُ الله ﷺ بهذه الأحاديث ونحوها الفخرَ، وإنّما أرادَ ﷺ التعريف بما يجب اعتقاده على المسلمين في جنابه الشريف، والإشارة إلى نعمة الله تَعَالَى عليه، فهو من باب التحدث بالنعمة.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما قال: إِنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ نُورًا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ ﷺ بِأَلْفَيْ عَامٍ، يُسَبِّحُ ذَلِكَ النُّورُ فَتُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِهِ، فَلَمَّا خَلَقَ الله آدَمَ جَعَلَ ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَأَهْبَطَهُ الله الأَرْضَ فِي صُلْبِ آدَمَ، فَجُعِلَ فِي صُلْبِ نُوحٍ فِي السَّفِينَةِ، وَقُذِفَ فِي النَّارِ فِي صُلْبِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يَزَلْ يَنْقُلُنِي مِنْ أَصْلَابِ الْكِرَامِ إِلَى الأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ، حَتَّى أَخْرَجَنِي مِنْ بَيْنِ أَبَوَيَّ، لَمْ يَلْتَقِيَا عَلَى سِفَاحٍ قَطُّ»[4].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان [١٦٢/٣]، باب فضل الصلاة على النبي برقم: (١٤٩٩).

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده [٣٧٣/٤]، برقم: (١٤٩٩)، عن جابر بن عبدالله الأنصاري ﷺ.

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد [٣٩٧/٨]، برقم: (١٣٨٢٤) وقال: رجاله رجال الصحيح. وذكره السيوطي في جامع الأحاديث [٣٣/٧]، برقم: (٥٧٣٣)، وعزاه لأحمد، والترمذي، والطبراني.

(٤) ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية، برقم: (٤٢٥٦). وذكره الإمام الصالحي في [سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ـ (٢٣٧/١)]، وقال: رواه ابن أبي عمر العدني في مسنده.

وعن علي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه أن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كُنْتُ نُوراً بَيْنَ يَدَي رَبِّي قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفِ عَام»[1].

فلما خلق الله تعالى آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جعل ذَلِكَ النور في ظهرِه، فكان يلْمَعُ في جبينه، ثم انتقل منه إلى ولده شيث، وأوصاه أن يوصي من انتقل إليه ذَلِكَ النور من ولده أنه لا يضع ذَلِكَ النور إلا في المطهرة من النساء، ولم تزل هذه الوصية معمولاً بها في القرون الماضية، إلى أن وصل ذَلِكَ النور إلى عبد المطلب، ومنه إلى عبد الله والدِ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا السياق يدل على أن ذَلِكَ النور كان ظاهرا فيمن ينتقل إليه من آبائه.

(١) ذكره الإمام العجلوني في [كشف الخفا ـ (٣١٢/١)]، وعزاه للحافظ ابن القطان في الأحكام.

بَابُ
تَزْوِيج عبدِ اللهِ بآمِنة

خرجَ عبدُ المطلب ومعه ولدُه عبد الله، وكان أحسنَ رجُلٍ في قريش خَلْقاً وخُلُقاً، وكان نورُ النَّبِيِّ ﷺ بيّناً في وجْهِه، وكانَ أكمَلَ بنِي أبيهِ، وأحْسَنَهُم وأعَفَّهُم، وأحبَّهم إلى قُرَيشٍ، وقَد هَدَى الله تَعالَى والدَه فسمّاه بأحبِّ الأسماء إلى الله تَعالَى. ففي الحَدِيْث: «أَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى الله تَعالَى عَبْدُ الله وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»[1]. وهو الذبيح، ولُقِّبَ بذَلِكَ حين أُمِرَ أبُوه في النّوم بحَفْرِ زَمْزَمَ وكانت جُرْهُمٌ قد دَفَنَتْها، فإنَّ جُرْهُماً لما استخفتْ بأمر البيتِ الحَرَام، وارتكبوا الأمورَ العظام، قام فيهم مِضَاضُ بنُ عمرو خطيباً، ووعظهم فلم يرعووا، فلما رأى ذَلِكَ منهم عمد إلى غزالتين من ذهب كانتا في الكعبة، وما وجد فيها من الأموال التي كانت تهدى إلى الكعبة، فحفر بالليل وأعمق الحفرَ ودفَنَ فيها ذَلِكَ، ودفنَ الحجَرَ الأسْوَدَ أيضًا كما قيل، وطَمَّ البئرَ، واعتزَل قومَه فسلَّطَ الله تَعالَى عليهم خُزَاعَة، فأخرَجَتْهم من الحَرَم، كما تقدم، ثم لا زالت زمزمُ مَطْمُومَةً لا يُعرَفُ محلّها مُدّةَ خُزَاعَة وقُصَيٍّ، إلى زمن عبد المطلب ورؤياه التي أمر فيها بحفرها. وتلك المدّةُ خمسمائة سنة.

قال عبد المطلب: إني لنائِمٌ في الحِجْرِ إذْ أتاني آتٍ، فقال: اِحْفِرْ طَيبةَ،

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى [٢/٢٠٣]، في باب ما يستحب أن يُسمى به الولد، رقم: (١٩٧٨٥).

فقلتُ: ومَا طَيبةُ؟، فذهبَ وتركني، فلما كان الغد رجعت إلى مَضجَعِي فنمتُ فيه، فجاءَني، فقال: اِحْفِرْ بَرَّةَ، فقلتُ: وما بَرّةُ؟، فذهبَ وتركني، فلما كان الغَدُ جاءَني، وقال: اِحْفِرِ المَضْنُونَةَ، فقلتُ: وما المَضْنُونَةُ؟، فذهبَ وتركني، فلما كان الغَدُ جاءَني، فقال: اِحْفِرْ زَمْزَمَ، فقلتُ: وَمَا زَمْزَمُ؟، قال: لا تَنْزِفُ، وَلَا تُذَم، تسقي الحجيجَ الأعظَم، وهيَ بينَ الفَرْثِ والدّم، عند نقرةِ الغُرَابِ الأَعْصَم، عند قريةِ النّمْل. وقوله: لا تَنْزِفُ: أي لا يفرغ ماؤُها، ولا يُلْحَقُ قَعْرُها. ولا تُذَم: لا توجد قليلة الماء، وقيل لها: طيبة؛ لأنها للطّيبين والطّيبات، وقيل لها: برّة؛ لأنها فاضت للأبرار، وقيل لها: المضنونة؛ لأنها ضُنَّ بها على غيرِ المؤمنين، فلا يَتَضَلَّعُ منها مُنافقٌ.

فلما كان الغدُ ذهبَ عبدُ المطلب لِيَحْفِرَ، فقامتْ إليه قريشٌ، فقالوا: والله لا نترُكُكَ تَحفِرُ بينَ وثَنَيْنَا اللّذَينِ نَنحَرُ عندهما، فقال عبدُ المطلب لولده الحارث: ذُدْ عنّي حتّى أَحْفِرَ، فو الله لأَمْضِيَنَّ لما أُمِرْتُ به، فلما رَأوهُ غيرَ نَازِعٍ كَفّوا عنه، فلمْ يَحْفِرْ إلّا يسيراً حتّى بَدا له طيُّ البئْرِ فكَبّرَ، وقال: هذا طيُّ إِسْمَاعِيْل عليه السلام، فعرفَتْ قريشٌ أنه أَصَابَ حاجتَه، فقاموا إليه، وقالوا: والله يا عبدَ المطلب إِنّها بِئْرُ أبينا إِسْمَاعِيْلَ، وإنّ لنا فيها حقاً فأشركنا معك، فقال: ما أنا بفاعل، إنّ هذا الأمرَ قد خُصِصْتُ به دونكم، فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكِمُكم إليه، قالوا: كاهِنَةُ بني سَعْدٍ وكانت بأعالي الشام، فرَكِبَ عبدُ المطّلبِ وَرَكِبَ مَعَه نَفَرٌ مِن بني عبدِ منَافٍ، ورَكِبَ مِن كلّ قبيلةٍ من قريش نَفَرٌ، وكان إِذْ ذاكَ ما بين الحجاز والشام مَفَازاتٌ لا ماءَ بها، فلمّا كان عبدُ المطلب ببعضِ تلك المفَاوِزِ فَنِيَ ماؤُهُ وماءُ أصحابِه، فظَمِؤُوا ظمأً شديداً حتى أيقنوا بالهلَكَة، فاستقوا من معهم من قبائل قريش فأَبَوا، فتقدّم عبد المطّلب إلى راحلَتِه فرَكِبَها،

فلما انبعَثَتْ انفجَرَتْ من تحتِ خُفّها عينُ ماءٍ عذْبٍ، فكَبّر عبدُ المطلب وكَبّر أصحابُه، فشَرِبَ وشَرِبَ أصحابُه، وملأوا أسقيَتَهُم، ثُمّ دعا القبائلَ، فقال: هَلُمُّوا إلى الماء، فقد سقانا الله فاشربوا، فجاؤوا فشَرِبُوا، ثم قالوا لعبدِ المطلب: قَدْ والله قُضِيَ لكَ علينا، والله لا نُخَاصِمُك في زَمْزَمَ أبدا، إنّ الذي سقاكَ الماءَ بهذِه الفَلَاةِ لهوَ الذِي سَقاكَ زَمْزَمَ، فارجعْ إلى سِقَايَتِكَ رَاشداً، فرجعوا ولم يصلوا إلى الكاهنة، فجاءَ وأَخَذَ يُواصِلُ الحَفْرَ، ووَجَدَ فيها الغزالتين من الذّهب اللتين دفنتهما جُرْهُمٌ، ووجد فيها أسيافاً وأَدْرَاعاً، فَقَالَتْ له قريش: يا عبد المطلب لنا معك في هذا شِرْكٌ، فقال: لا، ولكن نضرب عليها بالقداح، فأَجْعَلُ للكعبةِ قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج قدحاه على شيءٍ كان له، ومن تخلّفَ قدحاه فلا شيءَ له، فقالوا: أنْصَفْتَ، فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش، ثم جعلوا الغزالتين قسماً والأسياف والأدراع قسماً آخر، وقام عبدالمطلب يدعو ربّه، فضربَ صاحبُ القِدَاحِ، فخرَجَ الأصفران على الغزالتين، وخرج الأسودان على الأسيافِ والأدرَاع، وتخلّف قدَحَا قريشٍ، فضربَ عبدُ المطلب الأسيافَ باباً للكعبة، وضربَ في البابِ الغزالتين، فكانَ أوّل ذهبٍ حُلّيتْ به الكَعْبة.

وكان الناسُ قبل ظهورِ زَمْزَمَ تشربُ مِن آبارٍ حُفِرَتْ بمَكّة، وكان الماءُ العَذبُ بمكّةَ قليلاً، فلمّا حفَرَ عبدُ المطلب زمزمَ بنى عليها حوضاً، وصار هو وولده يملآنه، فيكسرُه قومٌ من قريش ليلاً حسَداً فيُصْلِحُه نهاراً، فلمّا أكثروا من ذَلِكَ وجاءَ شخصٌ واغتَسلَ بهِ غَضِبَ عبدُ المطلب غضباً شديداً، فَأُرِيَ في المنام أَنْ قُل: اللّهُمَّ إنّي لَا أُحِلّهَا لِمُغْتَسِلٍ، وهِيَ لشَارِبٍ حِلّ وَبَلّ ـ أي حَلال مُباح ـ، فَإنْ قُلتَ ذَلك كُفِيْتَهُم. فقام عبد المطلب حين اجتمعت قريشٌ في

المسجد ونادى بذَلِكَ، فلم يكن يفسدُ حوضَه أحَدٌ، أو يَغتسلُ إلّا رُمِيَ في جَسَدِهِ بِدَاءٍ.

وكان عبد المطّلب لما قال لولدِه الحارث: ذُدْ عني حتّى أَحْفِرَ، وعلمَ أنه لا قدرةَ له على ذَلِكَ، نَذَرَ إنْ رُزِقَ عَشَرةً من الولدِ الذّكور يمنعونه ممن يتَعَالَى عليه ليذبحنَّ أحدَهم عند الكعبة. فلما صارُوا عشرةً أُمِرَ بالوفاءِ بنذْرِه بعد أَنْ نَسِيَ ذَلِكَ، وقد قيل له قبل ذَلِكَ: أَوفِ بنَذْرِكَ، فذَبحَ كَبْشاً وأَطْعَمَهُ الفُقَرَاء، ثُمَّ قِيلَ له في النوم: قَرِّبْ ما هوَ أكبرُ مِن ذَلِكَ، فذَبحَ ثوراً، ثمّ قيل له: قَرِّبْ ما هو أكبرُ من ذَلِكَ فذبحَ جملاً، ثم قيل له: قَرِّبْ ما هو أكبرُ من ذَلِكَ فقال: وما هو أكبرُ من ذَلِكَ؟ فقيل له: قَرِّبْ أحَدَ أولادِكَ الذي نذَرْتَ ذبْحَه، فضربَ القِدَاحَ على أولادِه بعد أَنْ جمعَهم وأخبرَهم بنذْرِه، ودعاهُم إلى الوَفاءِ، فَأطاعوه، وأوّل مَن أطاعَه عبدُ الله، فكتب اسم كل واحدٍ على قِدْحٍ، ودُفِعَتْ تلك القِدَاحُ للسَّادِنِ، فضرَبَ القِداحَ، فخرجت على عبد الله، وكان أصغرَ ولدِه، وأحبّهم إليه مع ما تقدم من أوصافِه، فأخذه عبد المطلب وأخذَ الشّفْرَةَ بيدِه، ثمّ ألقاه على الأرض، فمنعه أخوالُه بنو مخزُوم من ذلك، وقالوا له: والله ما أحسَنْتَ عِشْرَةَ أُمِّه.. وقالوا له: أَرْضِ رَبَّكَ، وَافْدِ ابْنَكَ.

وقامتْ سادةُ قريش من أنديتها إليه، ومنعوه من ذَلِكَ، وقالوا له: والله لا تفعل حتّى تستفتي فيه فلانةَ الكاهنة، لعلّك تعذرُ فيه إلى ربّك، لئِنْ فعلتَ هذا لا يزالُ الرّجُلُ يأتي بابنه حتى يذبحه، فتكونُ سنّة، وقال له بعض عظماءِ قريش: لا تفعل، فَإِنْ كان فداؤُه بأموالنا فديناه. وتلك الكاهنة كانت بخَيبَر، فأتاها مع بعضُ قومِه، وفيهم جماعة من أخوالِ عبد الله، فسألها وقصّ عليها القِصّة فَقالَتْ:

ارجعوا عنّي اليوم حتى يأتي تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها، ثم غدوا عليها، فَقَالَتْ لهم: قد جاءني الخبرُ..، كم الدّية فيكم؟، فقالوا: عشَرَةٌ من الإبل، فَقَالَتْ: تُخْرَجُ عَشَرَةٌ مِن الإبل وتُقْدَحُ، وكلّما وقعَتْ عليه يُزَادُ الإبلُ، حتى تخرج القِداحُ عليها، فضربَ على عشرةٍ، فخرجت عليه، فما زال يزيد عشرةً عشرةً حتى بلغت مائةً، فخرجتْ القِداحُ عليها، فَقَالَتْ قريش ومن حضرَه: قدِ انتَهَى رِضَا ربِّكَ، فقال لهم عبد المطلب: لا والله حتّى أضرِبَ عليها ثلاثَ مرّاتٍ، ففعل ذَلِكَ، وذبحَ الإبلَ عند الكعبة لا يُصَدُّ عنها أحَدٌ، أي من آدمي ووحشٍ وطير. قال الزُّهْرِيّ: فكان عبدُ المطلب أوّل من سَنّ دِيَةَ النّفسِ مائةً مِن الإبل بعد أن كانت عشرة، وأقرها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي الكشّاف أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَنَا ابْنُ الذَّبِيْحَيْن»[1] أي: عبد الله وإِسْمَاعِيْل. قال بعضُهم: لما أحبَّ إبراهيمُ ولدَه إِسْمَاعِيْلَ عليهما الصّلاةُ والسّلامُ بطبع البشريّة، أمرَه الله تعالى بذبحِه؛ ليَخْلُصَ سِرُّه من حُبّ غيرِه بأبلغ الأسباب الذي هو الذبح للولد، فلما امتثل وخَلُصَ سرّه له ورجع عن عادة الطبع فَدَاه بِذِبْحٍ عَظِيم؛ لأن مَقَام الخُلَّةِ يَقْتَضِي توحيد المحبُوب بالمحبّة، فلما خَلُصَتْ الخلّة من شائبة المشاركة لم يبق في الذبح مصلحة فنسخ الأمر وفدى هذا. وإِسْمَاعِيْل هو الذبيح على القول الصّواب عند علماءِ الصّحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاقُ فمردودٌ بأكثرِ من عشرين وجهاً، ولو كان الذبيح

(١) الحديث بهذا اللفظ لا أصل له. وهو في [الكشّاف عن حقائق التنزيل ووجوه التأويل ـ (٤/٥٨)]، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري. كما ذكر المصنف. وأخرجه أبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة [١٧/٣٣١]، برقم: (٥٤٨١)، بلفظ: أن أعرابيا قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا ابن الذبيحين. فتبسم، ولم ينكر عليه. وأخرجه الحاكم في المستدرك [٢/٥٥١]، وسكت عليه، وتعقبه الذهبي بقوله: إسناده وَاهٍ.



بالشّام كما يزعم أهل الكتاب لكان النّحر بالشّام لا بمكّة.

ولما خرجَ عبد الله مع أبيه ليزوّجه آمنةَ بنتِ وهْب بنِ عبدِ مناف بن زُهْرَة، وكان عمرُه نحو ثماني عشرة سنة، مرَّ على امرأةٍ من بني أسد يقال لها (قُتيلَة)، وهي أخت ورَقةَ بنِ نوفل، وكانت تسمع من أخيها ورقة أنه كائنٌ في هَذِهِ الأُمَّة نبيٌّ، وأنّ من دلائلِه أنْ يكونَ في وجه أبيه نورٌ، أو أنها أُلهِمَتْ ذَلِكَ، فَقَالَتْ لعبد الله وقد رأت نور النبوة في غرته: أينَ تذهبُ يا عبدَ الله؟، قال: مع أبي، قالت: لك مثل الإبل التي نُحِرَتْ عنكَ وَقَعْ عليَّ الآنَ، فأنشد:

أَمَّـا الـحَـرَامُ فَـالـمَمَـاتُ دُونَـهُ ... وَالحِـلُّ لَا حِـلَّ فَـأَسْـتَـبِينَـهُ
فَكَيفَ بِـالأَمْرِ الـذِي تَبْغِينَـهُ ... يَحْمِي الكَرِيمُ عِرْضَـهُ وَدِينَـهُ

ومن شِعْرِ عبدِ الله والده ﷺ كما في تذكرة الصَّلاحِ الصَّفَديّ:

لقَـدْ حَكَمَ البَـادُونَ في كُـلّ بلـدَةٍ ... بِأَنّ لنا فَضْـلًا على سَـادَةِ الأَرْضِ
وأَنَّ أبي ذُو المجْدِ والسُّـؤْدَدِ الذِي ... يُشَـارُ بِهِ مَا بَين نَشْـزٍ إِلَى خَفْضِ

وقيل: أنّ عبدَ المطلب لما خرج بابنه عبدِ الله ليزوِّجَه، مرَّ به على امرأةٍ كاهِنَة من أهل تُبالَة ـ بلدة باليَمن ـ قد قرأتِ الكتبَ يُقال لها: فاطمةُ بنتُ مُرٍّ الخثْعَمِيّة، فرَأتْ نورَ النبوّة في وجه عبد الله، فَقَالَتْ له: يا فتى هل لك أن تَقَعَ عليَّ الآن، وأعطيك مائةً من الإبل؟ فقال لها ما تقدم. قال الكلبي: كانت تلك الكاهنة من أجمل النساء وأعفِّهنَّ، فدعتْهُ إلى نكاحِها فأبى. وإنما أرادتْ بقولها: قَعْ عليَّ الآنَ، أي بعدَ النكاح، وفَهِمَ عبدُ الله أنها تريدُ الأمرَ مِن غيرِ سَبْقِ نكاحٍ، فأنشدَ الشّعرَ المتقدمَ الدّالَّ على طهارَتِه وعِفَّتِه، وهذا بناءً على اتّحادِ الوَاقِعَة.

فأتى عبدُ المطلب عمَّ آمنةَ وهيبَ بنَ عبدِ مناف، وهو يومئذٍ سيّد بني زهرة، وكانت في حجرِه لموتِ أبيها وهبٍ. وقيل أتى عبدُ المطلب إلى وهبِ بنِ عبدِ مناف فزوّجَها لعبدِ الله وهي يومئذٍ أفضلُ امرأةٍ في قريش نسباً وموضعاً، فدخل بها عبدُ الله حين أَمْلَكَ عليها مكانه، فحملَتْ برَسولِ الله ﷺ وانتقلَ النور إليها. وأقام عندها ثلاثةَ أيام، ثم خرجَ من عندِها، فأتى المرأةَ التي عرضَتْ عليه ما عرَضَتْ، فقال لها: ما لك لا تعرضين عليّ اليومَ ما عرَضْتِ بالأمس؟، فَقَالَتْ له: مَن أنت؟، قال: أنا فلان، قالت له: ما أنت هو، لقد رأيت بين عينيك نوراً ما أراه الآن، ما صنعتَ بعدي؟، فأخبرها، فَقَالَتْ: والله ما أنا بصاحبة رِيبَةٍ، ولكنْ رأيتُ في وجهك نوراً فأردتُ أن يكونَ فيَّ، وأبى الله إلا أنْ يجعلَه حيث أرادَ، اذهبْ فأخبرْها أنها حملت بخيرِ أهلِ الأرض. وغيرُ خافٍ أنّ عرضَ عبدِ الله نفسَه على المرأةِ لم يكن لِرِيبَةٍ؛ بل ليَسْتَبِينَ الأمرَ الذي دعاها إلى بذْلِ القَدْرِ الكثيرِ من الإبل في مقابلة هذا الشيء على خلافِ عادة النّساء مع الرّجال.

وعن الكَلبيِّ أنه قال: كتبتُ للنبيِّ ﷺ خمسمائةَ أُمٍّ مِنْ قِبَلِ أمِّهِ وأبيهِ، فما وجدتُ فيهنَّ سِفَاحاً.

وقدِ افتخرَ رسولُ الله ﷺ بجَدّاتِه، وتحدّثَ بنعْمَةِ رَبِّه، قاصِداً به التّنبيهَ على شَرَفِ هؤلاءِ النّسْوَةِ، وفضْلِهنّ على غيرِهِنَّ، فقال في يوم حُنَين: «أَنَا ابْنُ الْعَوَاتِكِ»(١). والعاتكة: هي المتلطخة بالطيب، أو الطاهرة. وعن بعض الطّالبيين: أنّ رسولَ الله ﷺ قال في يوم أحد: «أَنَا ابْنُ الْفَوَاطِمِ»(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير [١٦٨/٧]، برقم: (٦٧٢٤) عن سيابة بن عاصم السلمي. وأورده الهيثمي في الزوائد ومنبع الفوائد [٤٠٢/٨]، (١٣٨٣٦)، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠٨/٣).

واختلفُ الناسُ في عددِ العَواتك من جدّاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمِن مُكْثرٍ ومِنْ مُقِلٍّ، ونقل الحافظُ ابن عساكر: أنّ العواتكَ من جدّاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعُ عشرة، وأَوَّلُهنَّ أمُّ لؤَيِّ بنِ غالب، واللواتي من بني سليم، منهن عاتكة بنت هلال أم عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال أم هاشم، وعاتكة بنت مرة بن هلال أمّ أبي أمّه وَهْب[1]. وقيل: أرادَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعَواتك من سُلَيم ثلاثةً من بني سليم أرْضَعْنَه، وكلّ واحدةٍ منهُنَّ تسمّى عاتكة. وعن سَعدٍ: أنّ الفواطمَ من جَدّاته عشرة. ولم أقف على مَنِ اسمُها فاطمةُ مِن جدّاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جهة أبيه إلا على اثنتين: فاطمةُ أمُّ عبدِ الله، وفاطمةُ أمُّ قُصي، إلا أنْ يكونَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُرِدِ الأمّهاتَ التي في عمودِ نسَبِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل أرادَ الأعَمَّ حتّى يشملَ فاطمةَ أمَّ أسَدِ بنِ هاشم، وفاطمةَ بنت أسَد التي هي أمُّ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة أمّها.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما عن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «خَرَجْتُ مِنْ نِكَاحٍ غَيْرِ سِفَاحٍ»[2]، أي غير زِنا. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا وَلَدَني بِغِيٌّ قَطُّ مُنْذُ خَرَجْتُ مِنْ صُلْبِ آدَمَ، وَلَمْ تَزَلْ تُنَازِعُنِي الأُمَمُ كَابراً عَنْ كَابِرٍ، حَتَّى خَرَجْتُ مِنْ أَفْضَلِ حَيَّيْنِ مِنَ العَرَبِ: هَاشِمٍ، وَزُهْرَةَ»[3].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ تعالى عنه قال: قرأ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، بفتح الفَاء، وقال: «أَنَا أَنْفَسُكُمْ نَسَباً

---

(١) ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/١١١).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى [٧/١٩٠]، في نكاح أهل الشرك وطلاقهم، برقم: (١٤٤٥٧).

(٣) ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/٤٠١).

وَصِهْراً وَحَسَباً، لَيسَ فِي آبَائِي مِنْ لَدُنْ آدَمَ سِفَاحٌ، كُلُّهَا نِكَاحٌ»(١). وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا وَلَدَنِي مِنْ سِفَاحِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ شَيْءٌ، مَا وَلَدَنِي إِلَّا نِكَاحٌ كَنِكَاحِ الْإِسْلَامِ»(٢). أي يخطب الرجل إلى الرجل موليته فيصدقها ثم يعقد عليها.

قال الإمامُ السُّبْكِيّ: الأنكحةُ التي في نسبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه إلى آدم كلّها مُسْتَجْمِعَةٌ شروطَ الصّحة كأنكِحَةِ الإِسْلَام، ولم يقع في نسبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه إلى آدم إلا نكاح صحيح مُسْتَجْمِعٌ لِشَرائطَ الصّحة كنكاح الإِسْلَام الموجود اليوم، فاعتقد هذا بقلبك وتمسك به ولا تَزِلْ عنه فتخسرَ الدّنيا والآخرة. اهـ. وقد كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء: نكاح كنكاح الناس اليوم بإيجاب وقبول، ونكاح البغايا، ونكاح الاسْتِبْضَاع، ونكاح الجمْع. ومن أنكحتهم: نكاحُ زوجة الأب لأكبر أولاده. والجمع بين الأختين، وليس في نسبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نكاح زوجة الأب، ولا الجمع بين الأختين، ولا نكاح البغايا، وهو أن يطأ البَغِيَّ جماعةٌ متفرقين واحداً بعدَ واحدٍ، فإذا حمَلت وولدت أُلْحِقَ الولدُ بمَن غلبَ عليه شبَهُه منهم، ولا الاسْتِبْضَاع، وذَلِكَ أنّ المرأةَ كانت في الجاهليّة إذا طهرت من حيضِها يقول لها زوجُها: أرسلي إلى فلانٍ اسْتَبْضِعِي منه، ويَعْتَزِلُها زَوجُها، ولا يمسّها أبدا حتى يتبيّنَ حملُها من ذَلِكَ الرجل الذي اسْتَبْضَعَتْ منه، فإذا تبيّن حملُها أصابَها زوجُها إذا أحبَّ، وليسَ فيه نكاحُ الجمع، وهو أن تجتمع جماعة دون العشرة، ويدخلون على امرأةٍ من البغايا ذوات الرّايات كلهم يَطَؤُهَا، فإذا حمَلت

(١) ذكره الحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى [٦٧/١]، وعزاه لابن مردويه.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى [١٩٠/٧]، في نكاح أهل الشرك وطلاقهم، برقم: (١٤٤٥٦).

ووضَعَتْ ومَرَّ عليها لَيَالٍ بعد أَنْ تَضَعَ حملَها أَرْسَلَتْ إليهم ، فلَمْ يستطعْ رجلٌ أَنْ يَمْتَنِعَ حتّى يجتمعُوا عندها ، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد وَلَدْتُ ، فهو ابنك يا فلان. وتُسَمِّي مَن أَحَبَّتْ منهم ، فيُلْحَقُ بهِ ولدُها ، ولا يستطيعُ أَنْ يمتنعَ منه الرجلُ وإنْ لم يغلبْ شبَهُه عليه.

وقد جاء أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَمْ أَزَل أُنْقَلُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إلى أَرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ»[١] ، وفيه دليل على أنّ آباءَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر ، لأنّ الكافر لا يوصف بأنّه طاهرٌ. قال صاحبُ الهمزية مشيرا إلى ذلك:

لمْ تَزَلْ في ضَمَائِرِ الكَونِ تُختَا رُ لَكَ الأُمَّهَاتُ وَالآبَاءُ

وسببُ تزويجِ عبدِ الله بآمنةَ أَنَّ عبدَ المطلب كانَ يأتي اليمنَ وكان ينزلُ فيها على عظيمٍ من عُظمائِهم ، فنزل عنده مرّةً فإذا عنده رَجُل ممّن قرأ الكتُبَ ، فقال له: ائْذَن لي أَنْ أفتّشَ منْخَرَكَ ، فقال دونك فانظرْ ، فقال: أرى نُبُوَّةً ومُلْكاً ، وأَرَاهما في المنَافَينِ عبدِ مناف بن قُصيٍّ وعبدِ مناف بن زُهْرَة ، فلما انصرفَ عبدُ المطلب انطلقَ بابنه عبد الله فتزوّج عبدُ المطلب هالةَ بنت وهيب فولدت له حمزةَ ، وزوَّجَ ابنه عبدَ الله آمنةَ فولَدتْ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) ذكره الفخر الرازي في تفسيره [٦/٣٣٧] ، والصالحي في سبل الهدى والرشاد [١/٢٥٦].



بَابُ
ذكرِ حَمْل أمِّه بِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قال الزُّهْرِيّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى: قالت آمنة: لقد علقت به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمَا وجدت له مشقّةً حتى وضعْتُهُ، وما شَعَرْتُ بأني حملتُ به، ولا وجدتُ له ثِقَلًا كما تجد النساء، إلا أني أنكرتُ رَفعَ حيضَتِي، وأتاني آتٍ وأنا بين النّائمة واليَقظانة، فقال: هل شعرت بأنّكِ قد حملتِ بسيّد هَذِهِ الأُمَّة ونبيها؟، وأمهلني حتّى دَنت ولادَتي، أتاني، فقال: قولي إذا ولدتيه: أُعِيذُه بالوَاحِد مِنْ شَرِّ كلِّ حَاسِد، ثم سَمِّيهِ مُحَمَّدا فإنَّ اسمه في التوراة والإنجيل أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض[1]. وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: كان من دلالةِ حمْلِ آمنةَ برسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ كُلّ دابّةٍ لقريشٍ نطقَتْ تلك الليلةَ، وقالت: حُمِلَ برَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَبِّ الكَعبَة، ولم يبقَ سَرِيرٌ لملكٍ من مُلوكِ الدّنيا إلا أَصْبَحَ مَنْكُوساً[2].

وعن كعب الأحبار رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه أنّ في صبيحةِ تلك الليلة أصبحت أصنامُ الدنيا منكوسَةً. ولعل ذَلِكَ كان من علامةِ حمل أُمِّه في الكتب القديمة، وقولُ الصَّادقِ لا يتَخَلّف، وسيأتي أن عند ولادته تنكست الأصنام، ولا مانع من التعدد.

---

(١) أخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (٨٣/٣) باب: مولد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة [١٨٤/٢]، حديث رقم: (٥٣٨).

ورَوَى الحاكمُ وصحّحه: أنّ أصحابَ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: يا رسولَ الله أخبرنا عن نفسِكَ، فقال: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى أَخِي عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْ بِي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ، أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بُصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ»(١). وسيأتي أنها رأت النور خرج منها عند الولادة، وهو أولى لكون طرقه متصلة، ويجوز أنْ يكونَ خرجَ منها النّور مرتين: مرةً حين حملت به، ومرةً حين وضعته، ولا مانع من ذَلِكَ.

ووقع الاختلافُ في مُدّة حمله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَن ابن عَايذ: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَقِيَ في بطْنِ أُمِّهِ تسعةَ أشْهُر كُمَّلًا، لا تشكو وَجَعًا ولا مَغصًا ولا رِيحًا، ولا ما يعرضُ لذَوَاتِ الحَمْل مِنَ النّسَاء. وروى ابنُ حِبّان رَحِمَهُ اللهُ عن حليمةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها، عن آمنةَ أمِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها قالت: «إِنَّ لابْنِي هَذَا شَأْنًا، إِنِّي حَمَلْتُ بِهِ، فَلَمْ أَحْمِلْ حَمْلا قَطُّ كَانَ أَخَفَّ وَلا أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْهُ»(٢). وكان يقال للسّنة التي حُمِلَ فيها برسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنة الفتح والابتهاج، فإنّ قريشاً كانت قبل ذَلِكَ في جَدْبٍ وضِيْقٍ عَظيم، فاخْضَرَّتْ بِوِلَادَتِه الأَرْضُ، وحمَلتِ الأَشْجَار، وأتاهم الرَّغَدُ من كلِّ جَانبٍ، وأَذِنَ الله تلك السّنة لِنسَاء الدّنيا أَنْ يَحْمِلنَ ذكوراً كَرَامَةً لرسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعن شدّاد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينا نحن جلوسٌ مع رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ أقبل شيخٌ كبيرٌ من بني عامر، يتوكأُ على عصا، فمثل بين يدي النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونسَبه إلى جَدّهِ، فقال: يا ابنَ عبدِ المطّلب، إنّي أُنبِئْتُ أنكَ تزعمُ

---

(١) المستدرك [٢/٦٥٦]، برقم: (٤١٧٤)، وأخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (١/١٧٠). وقد قال ابن الجوزي: وممن روى عن أمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر هذا الحديث.

(٢) صحيح ابنُ حبّان بترتيب ابنِ بلبان [١٤/٢٤٣]، برقم: (٦٣٣٥).

أنكَ رسولُ الله إلى الناس، أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وغيرهم من الأنبياء، ألا أنك فُهْتَ بعظيم، وإنما كانت الأنبياء في بيتين من بني إسرائيل، وأنت ممّن يعبدُ هذه الحجارة والأوثان، فما لك وللنُّبُوَّةِ؟، ولكِنْ لكلّ حَقٍّ حقيقة.. فأنبِئْني بحقيقةِ قولِكَ وبَدْءِ شَأنِك؟، قال: فأُعْجِبَ النَّبيُّ ﷺ بمسألتِه، ثم قال: «يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ، إِنَّ لِهَذَا الحَدِيْثِ الذِي سَأَلْتَنِي عَنْهُ نَبَأً وَمَجْلِساً فَاجْلِس»، فثَنّى رجليه، وبرك كما يبرك البعير، فاستقبله النَّبيُّ ﷺ بالحَدِيْثِ، فقال: «يَا أَخَا بَنِي عَامِرٍ، إِنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِي وَبَدْءَ شَأْنِي أَنِّي دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قِيلَ لَهُ: قَدِ اسْتُجِيبَ لَكَ، وَهُوَ كَائِنٌ فِي آخِرِ الزَّمَان»[1].

وقال في "ينبوع الحياة": (أجمعوا على أنّ الرسُولَ المذكور هَهنا هو مُحَمَّدٌ ﷺ). وفيه أنّ جبريلَ ﷺ أعْلَمَ إبراهيمَ ﷺ قبل ذَلِكَ بأنه يوجد نبيّ من العرب من ذرية ولده إِسْمَاعِيْل. فقد جاء أن إبراهيم لما أمر بإخراج هاجر أم ولده إِسْمَاعِيْل ﷺ حُمِلَ هو وهيَ وولدُها على البراق، فلما أتى مكة قال له جبريل: انزل فقال: حيث لا زرع ولا ضرع قال: نعم ههنا يخرجُ النَّبِيّ الأمي من ذرية ولدك ـ يعني إِسْمَاعِيْل ﷺ ـ الذي تتم به الكلمة العليا. إلا أن يقال: الغرض من دعائه ﷺ بذَلِكَ تحقيق حصوله، وتقدم أن أم إِسْمَاعِيْل قالت لإبراهيم ما قاله لجبريل، واللهُ أعْلَمُ.

---

(١) أخرجه ابنُ عساكر في تاريخ دمشق (٤٦٩/٣)، وذكره ابنُ جرير الطبري في تاريخه [٥٧٥/١].



بَابٌ
وفاةِ وَالِدِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لم يلبثْ عبدُ الله بنُ عبدِ المطّلب أنْ توفيَ وأمُّ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَامِلٌ به كما عليه أكثر العلماء، وذَلِكَ من علامات نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكتب القديمة، وكان موتُ والدِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن تمّ لأمّه من حملها به شهران، وكانت وفاته بالمدينة، خرج إليها ليَمْتَارَ تمراً، أو لزيارة أخوالِ أبيه بني عدي بن النجار، وقيل: خرج إلى غَزَّة في عير لقريش، ففرغوا من تجارتهم ومروا بالمدينة وعبد الله مريض، فقال: أنا أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار، ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم أبوه عبد المطلب عنه، فقالوا خلّفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض، فبعث إليه أخاه الحارث، وهو أكبر أولاد عبد المطلب، فوجده قد توفي. ودُفِنَ في دار التّابِعَة، وهو رجل من بني عدي بن النجار، ولما هاجرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة ونظر إلى تلك الدّار عَرَفها، وقال: «هَا هُنَا نَزَلَتْ بِي أُمِّي، وَفِي هَذِهِ الدَّارُ قَبْرُ أَبِي عَبْدِ الله، وَأَحْسَنْتُ العَومَ فِي بِئْرِ بَنِي عَدِيٍّ بنِ النَّجَّارِ»[1].

وأَوْرَدَ الخطيبُ عَن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (أَنَّ اللهَ أَحْيَا لَهُ أَبَاهُ وَآمَنَ بِهِ)، وفي المواهب: (أَحْيَا اللهُ لهُ أبوَيه حتّى آمَنَا به)، وأمّا قولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجل ماتَ أبوه

---

(١) أخرجه ابن سعْدٍ في الطبقات الكبرى [١/١١٦]، عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وله شواهد أخرى، وفيه ردٌّ على مَن استبعد سباحته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، معلّلاً ذلك بكونه لم يَركبْ بحْراً ولا بالحرَمَين بحْرٌ.

مشركاً: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النّارِ»، فلم تتّفق الرواة على لفظِه، وهذه اللّفْظَة رَوَاها حمّادُ بنُ سلَمَة، وخالَفَه فيها مَعْمَرٌ، فرَوَى بدَلَ ذلك: «إِذَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ كَافِرٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ»، وقد نَصّوا على أنَّ معْمَراً أثبتُ مِن حمّادٍ، فإنّ حمّاداً تُكُلِّمَ في حفْظِه، ووقع في أحاديثه مَنَاكِيرُ، ذكروا أنّ رَبيعَةَ دَسَّهَا في كُتُبه، وكانَ حمَّادٌ لا يحْفَظُ فحَدَّثَ بها فَوَهِمَ فيها، وأمّا معْمَرٌ فلم يُتَكَلَّمْ في حِفْظِه ولا اسْتُنْكِرَ شيءٌ مِن حَديثِه. وما رواه معْمَرٌ وَرَدَ من حديث سعْد، فقد أخرَجَ البزّارُ والطّبَراني والبيهقي من طريق إبراهيم بن سعد عن الزُّهْرِي عَن عَائِذ بن سعد عَن أبيه: (أنّ أَعرَابيّاً قال لرَسُولِ الله ﷺ: أينَ أبي؟، فقال: «فِي النَّارِ»، قال: فَأَينَ أبوكَ؟، فقال: «حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ كَافِرٍ فَبَشِّرْهِ بِالنَّارِ») وهذا الإسْنادُ على شرْطِ الشيّخين فاللّفْظُ الأوّلُ مِن تصَرّفِ الرّاوي رَوَاهُ بالمعنى بحسبِ ما فَهِمَ فأخْطَأَ.

وذكر الحافظ السيوطي أنّ مِثلَ هذا وقع في الصّحيحين في روايات كثيرة، من ذلك حديث مسلم عن أنس في نَفْي قراءة البسملة، والثّابت من طريق آخر نفي سماعها، ففهم منه الرّاوي نفي قراءتها، فرَوَاه بالمعنى على ما فَهِمَهُ فأخْطَأَ.

والذي ينبغي أَنْ يُقال: قد يَكونُ ما في الصّحيح كانَ قبل أَنْ يسألَ اللهَ تعالى أُنْ يحييه له، فأَحْيَاهُ وآمَنَ به، أو أنه قالَ ذلك لمصلحةِ إيمان ذلكَ السّائل، بدليل أنه لم يتداركه إلا بعد ما قفا، فظَهَرَ له ﷺ مِن حَالِهِ أنّهُ قد تَعْرِضُ له فِتْنَةٌ، أو يَرْتَدّ عنِ الإسلام، فأتاهُ بما هو شبِيهٌ بالمشاكلة مُريداً بأبيهِ عمَّهُ أبَا طَالِبِ لا عبدَ الله؛ لأنّ العَرَبَ تُسَمِّي العَمّ أَبا.

وقَد يُقالُ: كيفَ ينفعُ الإيمانُ بعدَ الموتِ؟!، فنقولُ: قَدْ يكونُ هَذا مِنْ جُمْلَةِ خُصُوصِيَّاتِهِ ﷺ، وفي كَلَامِ القُرْطبيّ: قدْ أَحْيَا اللهُ ﷻ على يَدَيْهِ

ﷺ جماعةً من الموتى. وإذا ثبتَ ذلك فما يمنع إيمانُ أبويه بعد إحيائهما، ويكون ذلك زيادةً في كرامَتِه وفَضِيلَتِه ﷺ؟، ولو لَمْ يَكُنْ إحيَاء أبويه نافعاً لإيمانِهِمَا وتَصْدِيقِهِما لَـمَا أُحْيِيَا، كما أنّ رَدّ الشمسِ لو لم يَكُنْ نافعاً في بَقَاءِ الوَقْتِ لَمْ تُرَدْ[1]. والله أعلم.

وقَدْ ذكَرَ بعضُهُم حِكَمًا لتَرْبِيَتِهِ ﷺ يتيماً لا نُطِيلُ بذكرها[2]، ولم يَلِدْ أبوَاهُ غيرَه ﷺ، وتركَ عبدُ الله جاريتَه أمَّ أيمنَ برَكَةَ الحبشِيّة، فأعتقها ﷺ حين تزوّجَ خديجة، وزوجها عُبَيْداً الحبشي ابن زَيدٍ من بني الحَارِث فولدت له أيمن، ثم مات عنها، وزوجها ﷺ بعد النبوة مولاه زيد بن حارثة، وإنما رَغِبَ زيدٌ فيها لمَّا سَمِعَهُ ﷺ يقولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، فَلْيَتَزَوَّجْ بِأَمِّ أَيْمَنَ»[3]، فجاءَتْ بأسامة، فكان يُقال له: الحِبُّ ابنُ الحِبِّ. وترك عبدُ الله خمسَةَ جِمَالٍ وقطعةً من غَنَمٍ، فورثَه رسولُ الله ﷺ، فهو ﷺ يَرِثُ ولا يُورَثُ. قال ﷺ: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ لَا نُوْرَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»[4].

---

(١) وأهل السنة والجماعة متفقون على أنّ وَالِدَي النبيّ ﷺ ناجيان؛ لموتهما قبل البعثة والله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وهذا قول مُحكم مُتواترٌ لا يقاوم بشيء آخر دونه.

(٢) ومنها: لكي لا يكون لأحدٍ عليه مِنَّةٌ في التّربية، فتظهرَ عنايةُ الله تعالى بهِ وحُسْنُ تربيتِه له رَغْمَ يُتْمِه.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/٢٢٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق [٤/٣٠٣].

(٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرى [٤/٥٠]، باب ذكر مواريث الأنبياء، برقم: (٦٣٠٩).

بَابٌ
ذكرِ مَولدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وُلِدَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقطوعَ السُّرَّةِ، مختُونًا مَكْحُولاً نظيفاً، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ كَرَامَتِي عَلَى رَبِّي أَنِّي وُلِدْتُ مَخْتُوناً، وَلَمْ يَرَ أَحَدٌ سَوْأَتِي»(1). قال الحاكم: "تَوَاتَرَت الأخبار أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلِدَ مختوناً". وقد جاءت أحاديث كثيرة في ذَلِكَ. وقال الحافظ ابن كثير: "من الحفاظ من صححها، ومنهم من ضعفها، ومنهم من رآها من الحِسَان". وولد من الأنبياء على صورة المختون أيضاً غير نبيّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعةَ عَشَرَ نبيّا، وقد نَظَمَ الجميعَ بعضُهم فقال:

وفي الرُّسْــــلِ مَخْتُونٌ لَعَمْرُكَ خِلْقَةً ... ثَمَـانٌ وتِسْــعٌ طَيِّبُونَ أَكَـارِمُ

وَهُمْ زَكَرِيَّا شِـيتُ إِدْرِيسُ يُوسُـفٌ ... وَحَنْظَلَةٌ عِيسَـــى وَمُوسَـــى وَآدَمُ

---

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط [٦/١٨٧]، برقم: (٦١٤٨)، وأخرجه أيضًا في المعجم الصغير [٢/١٤٥]، رقم: (٩٣٦). وأبو نعيم في دلائل النبوة [١/١١٠]، برقم: (٩٢)، وفي الحلية [٣/٢٤]. قال السيوطي في [الجامع الصغير من حديث البشير النذير ـ (٢/٣٠٠)]: قال في المستدرك: (تواترت الأخبار بولادته مختونا). ولعل مراده بالتواتر الاشتهار، لا المصطلح عليه عند أهل الأثر؛ لأن الذهبي يقول: (لا أعلم صحة ذلك، فضلا عن تواتره). وقال ابن الجوزي: لا شك أنه ولد مختونا، فإن قيل: لِمَ لَمْ يولد مطهَّر القلب من حظ الشيطان، حتى شقّ صدرِه وأخرج قلبه؟، قلنا: لأنّ الله أخفى أدْوَن التّطهير الذي جَرَتِ العادَة أن تفعله القابلة، وأظهرَ أشرفهما وهو القلب، فأظهرَ أثرَ العناية بالعِصْمَةِ في طرقات الوحي.

وَنُوحٌ شُعَيبٌ سَامُ لُوطٌ وَصَالِحٌ   سُلَيْمَانُ يَحْيَى هُودُ يَاسِينُ خَاتَمُ

وليسَ هذا من خصائص الأنبياءِ عليهم الصَّلَاة وَالسَّلَام، بل غيرُهم من الناس قد يولدُ كذَلِكَ. ولما ولِدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقع على الأرض مقبُوضَةً أصابع يده، يشير بالسَّبَّابةِ كالمسَبِّح بها، وفي رواية عن أمه أنها قالت: (لما خرج من بطني نظرت إليه، فإذا هو ساجد، وقد رفع يديه كالمُتَضَرِّعِ المبتَهلِ)[1]. وفي سجوده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إشارةٌ إلى أنَّ مبدأ أمرِه على القُرب من الحضْرَة الإلَهية. وروى ابنُ سعدٍ أنّ رسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «رَأَتْ أُمِّي حِينَ وَضَعَتْنِي نُوراً سَطَعَ مِنْهَا أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بُصْرَى»، وفي رواية: أنها قالت: (لما وضعته خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، فأضاءت له قصورُ الشام وأسواقُها، حتى رأيتُ أعناقَ الإبل ببصرى)[2].

وإلى هذا النور يشيرُ عمُّه العباسُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه بقولِه في قصيدته التي امتدح بها رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند رجوعه من غزوة تبوك، وقد قال له: يا رسول الله، إني أريد أن أمتدحك، فقال له رسول الله: «قُلْ، لَا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ»، فقال قصيدة منها:

وأنْتَ لمَّا وُلِدتَّ أَشْرَقَتِ الأَرْ   ضُ وضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ

فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وفِي النُّـ   ـورِ وسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْتَرِقُ[3]

وروى السُّهيليُّ عنِ الوَاقدِيّ: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وُلِدَ تكلّمَ، فقال: «جَلَالُ

---

(١) أخرجه بطوله الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في دلائل النبوة [٢/١٨٤]، برقم: (٥٣٨).

(٢) الأثران في الطبقات الكبرى لابن سعد [١/١٠٢]، باب ذكر مولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) رواه الإمام الطبراني في المعجم الكبير [٤/٢١٣]، حديث رقم: (٤١٦٧).

رَبِّي الرَّفِيع»(١)، ورويَ أن أول ما تكلم به لما ولدته أمه حين خروجه من بطنها: «الله أَكْبَرُ كَبيراً، وَالحَمْدُ للهِ كَثِيراً، وَسُبْحَانَ الله بُكْرَةً وَأَصِيلا»(٢). وقد وقعَتْ ولادته ﷺ يوم الاثنين. وقال بعضُهم: ولا خلافَ في ذلك، فعن قتادة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه أنّ رسولَ الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين، فقال: «ذَلِكَ يَومٌ وُلِدْتُ فِيْهِ»(٣).

وذكر الزبيرُ بنُ بكّار وابنُ عساكرَ: أن ذَلِكَ كان حين طلوع الفجر، ويدلّ له قولُ جَدِّه عبدِالمطلب: ولد لي الليلة مع الصّبح مولود. وكان ذَلِكَ لمضي اثنتي عشرة ليلة من شهر ربيع الأول، في فصْل الربيع، وحُكِيَ الإجماعُ عليه. وعن عثمان بن أبي العاص عن أمه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما أنها شهدت ولادة النَّبيّ ﷺ ليلاً، قالت: (فمَا شَيءٌ أنظرُ إليه من البيت إلا نوراً، وإني لأنظرُ إلى النجوم تدنو، حتى إني لأقول لتقعن عَليَّ)(٤). ويَدلُّ لكونِ ولادته ﷺ كانت ليلا قول بعض اليهود لقريش: وُلِدَ الليلةَ نبيٌّ هَذِهِ الأُمَّة.

وولادتُه ﷺ في عام الفيل، بعد الفيل بخمسين يوماً، كما ذهب إليه جمع منهم السّهيلي. قال بعضُهم: وهو المشهور. وقيل: بخمسة وخمسين يوماً، وعليه اقتصرَ الحافظُ الدّمْيَاطي. وقيل: بأربعين يوما، وقيل: بشهر، وقيل غير

---

(١) كذا ذكر السيوطي في الشمائل الشريفة، ص: (٣٨٠) نقلا عن السهيلي، وأخرجه الحاكم في المستدرك [٤/١٢٢]، برقم: (٤٣٨٧)، عن أنس على أنه آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ عند وفاته.

(٢) ذكر الحافظ السيوطي في الشمائل الشريفة، ص: (٣٨٠)، وعزاه لا بن عائذ.

(٣) رواه مسلم في صحيحه [٢/٨١٨]، في كتاب الصيام، حديث رقم: (١١٦٢).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير [٢٥/١٨٦] رقم: (٤٥٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق [٣/٧٣].

ذلك. وكونه في عام الفيل قال الحافظ ابن كثير: هو المشهور عند الجمهور. وقال إبراهيم بن المنذر شيخ البخاري: لا يشُكّ فيه أحَدٌ من العلماء، ونقل غيرُ واحدٍ فيه الإجماع، وكل قول يخالفُه وَهْمٌ.

وفي "المواهب": المشهورُ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُلِدَ بعد الفيل، لأنّ قصة الفيل كانت توطِئَةً لنُبوَّتِه، ومقدمة لظهوره وبعثَتِه. وقال البيضاوي: إنّها من الإرهاصات، إذ رُوِيَ أنها وقعت في السنة التي ولد فيها رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقال ابنُ القيّم: إنَّ ممّا جَرَت به عادةُ الله تَعَالَى أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل لها، فمن ذَلِكَ قصّة مبعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقدمها قصة الفيل. اهـ.

وقد قيل: لما شَرَع أبرَهَةُ في الذّهاب إلى مكّةَ، وصل الفيلُ إلى أوّل الحرَم فبَرَك، فصاروا يضربون رأسَه ويدخلون الكَلالِيبَ في بطْنِه فلا يقومُ، ثم إنهم وجهوا وجْهَه إلى جِهَةِ اليمن فقام يُهَروِلُ، وكذا إلى جِهَةِ الشّام، فعلَ ذَلِكَ مرارًا، فأمرَ أبرهةُ أنْ يُسْقَى الفِيلُ الخمرَ ليذهبَ تمييزُه فسَقَوْهُ فثَبتَ على أمرِه. قال السهيلي رَحِمَهُ اللَّهُ: الفيل لا يبرك، فيحتمل أنْ يكونَ برُوكُه سُقوطَه على الأرض لِمَا جاءَهُ مِن أمرِ الله سبحانه، ويحتمل أن يكون فِعْلُ البَرْكِ، وهو الذي يلزم موضعه ولا يبرح، فَعُبِّرَ بالبُروك عن ذَلِكَ. وقيل: إنَّ في الفِيَلةِ صِنْفاً منها يبْرُكُ كما يبرك الجمَل، وعند ذَلِكَ أرسلَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم الطّيرَ الأبابيلَ أمثَالَ الخطَاطيف.

ولما هلك صَاحبُ الفيل وقومُه عَزَّتْ قريشٌ وهابَهُم النّاسُ كلّهم، وقالوا لهم: أَهْلُ الله؛ لأن الله معهم وقاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم الذي لم يكن لسائر العرب بقتاله قدرة. ثم إنّهم غَنِمُوا أموَالَ أصحابِ الفِيل، ومن حِينَئذٍ مُزِّقَتِ الحبَشَةُ كُلَّ مُمزَّق، وخَرِبَت الكَنِيسةُ التي بناها أبرهة، فلم يعمرْهَا أحَدٌ،

وَعَفَا رَسْمُها وانقطع خبرُها واندرَسَتْ آثارُها.

وكان عبدُ المطلب قد أمرَ قريشاً أنْ تَخْرُجَ مِنْ مكّةَ وأَنْ تكونَ في رُؤوسِ الجِبَال؛ خوفاً عليهم من المَعَرَّةِ، وخرج معهم بعد أن أخذ بحلقةِ بابِ الكعبة، ومعه نفر من قريش، فقال:

لَا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يَحْمِي رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلَالَكْ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ وَمَحَالُهُمْ أَبَدًا مَحَالَكْ

و(لَا هُمَّ) أَصْلُه: اللَّهُمَّ؛ لأنّ العربَ تحذِفُ الألفَ واللّامَ وتكتفي بما يبقى، و(الحِلَال): جمع حَلّة، وهي البيوت المجتمعة. و(المِحَال): القوّة والشّدّة. ويقال: إنّ عبدَ المطلب جمعَ قومَه وعقدَ رايةً وعسكرَ معهم بمنى. ويحتملُ أنه أمرَ أنْ تكونَ الذُّرِّيَّةُ في رؤوسِ الجبال، وخرج معهم تأنيساً لهم ثم رجع وجمع إليه المُقَاتِلَةَ ويُؤيدُ ذَلِكَ قولُ صاحب المَوَاهِبِ: ثُمّ إنّ أبرهَةَ أمرَ رَجُلاً مِن قومِهِ أَنْ يهزمَ الجيشَ، فلمّا وصلَ مكّةَ ونظرَ إلى وجهِ عبدِ المطلب خَضَع.

وكان مولدُه ﷺ في الدار التي صارت لمُحَمَّد بن يوسف أخي الحجاج، وكانت قبل ذَلِكَ لعقيل بن أبي طالب، وباعها أولاده لمُحَمَّد بن يوسف بمائة ألف دينار، فأدخلها في داره وسمّاها البيضاء؛ لأنها بنيت بالجص ثم طليت به فكانت بيضاء، وصارت تعرف بدار ابن يوسف. وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، عن أمه الشَّفّاء قالت: (لما ولدت آمنة رسول الله ﷺ وقع على يدي). ويطلق الدَّايَةُ على أمِّ أيمَنَ، لأنها قامت بخدمَتِه ﷺ، ومِنْ ثَمَّ قيل لها: حَاضِنَتُه، وللشَّفَّاءِ: قابِلَتُه. وفي اسم الوالدة والقابلة الأمن والشفاء،

وفي اسم الحاضنة البركة والنماء، وفي اسم مرضعته أوّلا التي هي ثويبة الثّوَاب، وفي اسم مرضعته المستقلة برضاعِه وهي حليمة السعدية الحلم والسّعد.

قالت أمُّ عبد الرحمن: (فاسْتَهَلَّ، فسمعتُ قائلاً يقول: يرحمك الله تَعَالَى، أو رَحِمَكَ ربُّك). ولهذا القول الذي لا يقال إلا عند العُطَاس حمَلَ بعضُهم الاسْتِهْلَالَ الذي هو في المشهور صياحُ المولود أوّل ما يولد على العُطَاسِ مع الاعترافِ بأنّه لَمْ يجِئْ في شيءٍ من الأحاديثِ تصريحٌ بأنه ﷺ لما ولد عَطَس. قال الحافظ السّيوطي: (لم أقف في شيءٍ من الأحاديث يدلّ على أنه ﷺ لما ولد عطس بعد مراجعة أحاديث المولد من مَظَانِّها)[1]. لكن في الجامع الصغير: «اسْتِهْلَالُ الصَّبِيِّ العُطَاسُ»[2]، وحينئذ يكون استهلال المولود له معنيان، هما: مجرد رفع الصوت، والعُطَاس، وحمل هنا على العطاس بقرينة الجواب الذي لا يقال إلا عند العطاس. وقال بعضهم: لعله ﷺ حَمِدَ الله بعدَ عُطَاسِه لِمَا اسْتَقرَّ مِن شَرْعِهِ الشّرِيفِ أَنَّهُ لا يُسَنُّ التشميت إلا لمن حمد الله تَعَالَى.

ويدل لما تَرَجَّاه ما تقدم أنه ﷺ حين خروجه من بطن أمه قال: «الحَمْدُ لله كَثِيرا». ويجوز أن يكون شُمِّتَ من غيرِ حَمْدٍ، تعظيماً لقَدْرِهِ ﷺ.

وعن أمه ﷺ أنها قالت: أخذني ما يأخذ النساء، وإني لوحيدة في

---

(١) ذكر ذلك في كتابه الحاوي للفتاوي [٢/٤٩]. ومظان أحاديث المولد النبوي: الطبقات لابن سعد، ودلائل النبوة للبيهقي ولأبي نعيم، وتاريخ ابن عساكر على بسطه واستيعابه، والمستدرك للحاكم ونحوها.

(٢) أخرجه البزار في مسنده [٢/٢٢٢]، برقم: (٥٤٠٩)، مرفوعا عن ابن عمر.

المنزل، دخل عليّ نساءٌ طوالٌ، كأنهنّ من بنات عبد المطلب، ما رأيت أضوأ منهن وجوها، وكأن واحدة من النساء تقدمت إليّ فاسْتَنَدْتُ إليها، وأخذني المخاضُ، واشْتَدّ عليّ الطلقُ، وكأنّ واحدةً منهنّ تقدّمت إليّ وناولتني شربةً مِنَ الماءِ أَشَدّ بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من الشَّهْدِ، فَقَالَتْ لي: اشربي فشربت، ثم مسحت بيدها على بطني، وقالت: بسم الله، اخرج بإذنِ الله تَعَالَى، وقُلْنَ لي: نحنُ آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وهؤلاء من الحور العين، ورأيتُ ثلاثةَ أعْلَام مَضْرُوباتٍ: علماً بالمشرق، وعلماً بالمغرب وعلماً على ظهر الكعبة[1].

ولما وُلِدَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وُضِعَت عليه جَفْنَةٌ، فانْفَلَقَتْ عنه فِلْقَتين. فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما قال: (كان في عهد الجاهلية إذا ولد لهم مولود في الليل وضعوه تحت الإناء، لا ينظرون إليه حتى يصبحوا، فلما ولدَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضعوه تحتَ بُرْمَةٍ، فلما أصبحوا أتوا البُرْمَةَ، فإذا هيَ قدِ انْفَلَقَتْ ثِنْتَين، وعيناهُ إلى السّماء، وهو يَمُصُّ إِبْهَامَه يَسِيلُ لَبَناً). اهـ.

وفي تفسير ابن مَخْلَد: (أنّ إبليسَ رَنَّ ـ أي صَوَّتَ بِحُزْنٍ وكآبة ـ أربعَ رنّات: رنّة حين لُعِنَ، ورَنّة حين أُهْبِطَ، ورَنّة حين ولد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورنّة حين أُنْزِلَتْ فاتحةُ الكتاب). وإلى رنّته حين ولادتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشارَ صاحبُ الأصل بقوله:

لِمَولِدِهِ قَدْ رَنَّ إِبْلِيسُ رَنَّةً فَسُحْقاً لَهُ مَاذَا يُفِيدُ رَنِينُهُ؟

وعن عكرمةَ: (أنّ إبليسَ لما وُلِدَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَأى تَسَاقُطَ النّجوم

---

(١) أخرجه بطوله أبو نعيم في دلائل النبوة [٢/١٨٤]، برقم: (٥٣٨)، وقد تقدم بعضه.



قال لجنوده: لقد وُلِدَ الليلة مَولودٌ يفْسِدُ علينا أمْرَنا، فقال له جنوده: لو ذهبت إليه فخَبَّلْتَهُ، فلما دنا من رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثَ الله جبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فركَضَه برجلِه رَكْضَةً وقع منها بعَدَن). ورُوِيَ: أنّ الشياطين كانت تصعدُ إلى السماء، ثم تجاوز سماء الدنيا إلى غيرها، فلما ولد عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، منعوا من مجاوزة سماء الدنيا فصاروا يسترقون السمع في سماء الدنيا، حتى ولد نبينا مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنعوا من التردد إلى السماء إلا قليلاً، فصاروا يسترقون السمع في سماء الدنيا في بعضِ الأحايين، وفي أكثر الأحايين يسترقون دونها، حتى بعث النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمنعوا أصْلاً، فصاروا لا يسترقون السّمعَ مطلقاً حتى فيما دون سَماءِ الدنيا.

وقد أخبرَتِ الأَحبَارُ والرُّهْبَانُ بليلةِ ولادَتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فعن حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (إني لَغُلامٌ يَفَعَةٌ ـ أي غلام مرتفع ابن سبع سنين أو ثمان ـ أعقل ما رأيتُ وسمعتُ، إذْ بيهودِيٍّ بيثرب يصيح ذات يوم على محل مرتفع: يا معشر يهود، فاجتمعوا إليه وأنا أسمع، فقالوا: ويلك، ما لك؟ قال: طلعَ نجمُ أحمد الذي ولد به في هذه الليلة)[1].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان يهودي يسكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال في مجلس من مجالس قريش: هل ولد فيكم الليلة مولود؟، فقال القوم: والله ما نعلمه، قال: احفظوا ما أقول لكم، ولد هذه الليلة نبيٌّ هَذِهِ الأُمَّة الأخيرة، وهو منكم معاشر قريش، على كتفه علامة، شامة فيها شعرات وهي خاتم النبوة، ولا يرضع لليلتين، وذَلِكَ في الكتب من دلائل

(١) أخرجه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة [١/٣٨]، برقم: (٢٨).



نبوته، وعدم رضاعه لتَوَعّكٍ يصيبُه. فتفرّق القومُ من مجالسِهم وهم متعجّبون من قوله، فلما صاروا إلى منازلهم أخبرَ كلّ إنسانٍ منهم أهلَه، فَقُلْنَ لهم: لقد ولد الليلة لعبد الله بن عبد المطلب غلامٌ سمّوه مُحَمَّداً، فالتقى القومُ حتى جاؤوا لليهودي وأخبروه، فقال: اذهبوا بي لأنظرَ إليه، فخرجوا حتى أدخلوه على أمه، فقال: أخرجي إلينا ابنَك، فأخرجَتْه، فكَشفَ على ظهرِه، فرَأى تلك الشّامةَ، فخرَّ مغشيّاً عليه، فلما أفاق، قالوا: ويلك مَا لكَ؟، قال: والله لقد ذهبت النبوة من بني إسرائيل، أفرحتم به يا معشر قريش؟، أما والله ليسْطُوَنَّ عليكم سَطْوَةً يخرج خبرُها من المشرق إلى المغرب[1].

وكان بمَرِّ الظَّهْرَان راهبٌ من أهل الشام يدعى عيصا، وقد كان آتاه الله علما كثيراً وكان يلزم صومعته، ويدخل مكة فيلقى الناس، ويقول: يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تَدِينُ له العربُ، ـ أي تَذِلّ وتخضَع ـ، ويملكُ العَجَمَ ـ أي أرضها وبلادها ـ وهَذَا زمانه، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته، ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته. وكان لا يُولدُ بمكة مولودٌ إلا ويسأل عنه، ويقول: ما جَاءَ بَعْد. فلما كان صبيحة اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ خرج عبد المطلب حتى أتى عيصا فوقف على أصْل صَوْمَعته فنَاداه، فقال: من هذا؟ فقال: أنا عبد المطلب، فقَال: كن أباه، فقد ولد ذَلِكَ المولود الذي كنت أحدثكم عنه، وإنَّ نجمَه طلعَ البَارِحَة، فاحفظ لسانك، ولا تذكر ما قلته لك لأحد من قومك، فإنه لم يُحْسَدْ حَسَدَه أحَدٌ، ولم يُبْغَ على أحدٍ كما يُبْغَى عليه. قال فما عمره؟، قال: إن طال عمره لم يبلغ السبعين يموت في وتْرٍ دونها، في إحدى وستين أو ثلاث وستين، وذَلِكَ جُلّ أعمار أمّته. ولا دلالة في قول

(١) ذكره الماوردي في أعلام النبوة [١١٤/١]، عن هشام بن عروة عن أبيه.

الراهب: كُنْ أباه. على أن الجائي للرّاهب عبدُ الله، لأنّ عبدَ المطلب كان يقال له: أبو النَّبيّ ﷺ، ويقال للنبي ﷺ: ابنُ عبد المطلب، وقد قال النَّبيّ ﷺ: «أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمطَّلِبِ»[1].

وعند ولادته ﷺ تنكّست أصنامُ الدنيا، كما تنكست عندَ الحمْلِ به. قال عبدُالمطلب: كنتُ في الكعبةِ فرأيتُ الأصْنَامَ سَقَطت من أماكنها وخَرَّتْ سُجَّداً، وسمعت صوتًا من جِدَارِ الكعبةِ يقول: وُلِدَ المُصْطَفَى المختار، الذي تهلك بيدِه الكفّار، ويُطَهِّرُ من عبادَةِ الأصنَام، ويَأمرُ بعبادة الملك العلام. وذُكِرَ أنّ نَفَراً من قريشٍ، منهم: وَرَقَةُ بنُ نوفَل، وزيدُ بن عمرو بن نُفَيل، وعُبيدُ الله بن جحش، كانوا يجتمعون عند صَنَم، فدخلوا عليه ليلةَ وُلِدَ رسولُ الله ﷺ فرَأَوهُ مُنكّساً على وجْهِه فأنكروا ذَلِكَ، فأخذُوه فردّوهُ إلى حَاله، فانقلبَ انقلاباً عَنيفاً فردّوه، فانقلب كذَلِكَ الثالثة، فقالوا: إنّ هذا لِأَمْرٍ حَدَث.

وفي ليلةِ ولادتِه ﷺ ارْتَجَسَ ـ أي اضْطَربَ وانشَقّ ـ إيوان كِسْرى[2] أَنُوشُرْوَان، وكان بناءً محكماً بالحجَارَة الكبَار والجِصّ، بحيث لا تعمل فيه

(١) رواه البخاري في صحيحه [٤/٤٣]، باب من صَفّ أصحابَه عند الهزيمة، برقم: (٢٩٣٠).

(٢) إيوان كسرى هو أحد قصور كِسْرى الأوّل، المعروف بـ(أَنُوشِرْوَان)، يعتبرُ من أعظم الأبنية في ذلك العصر، وله الأثر الباقي المعروف إلى الآن، يقع جنوب مدينة (بغداد) في منطقة (المدائن) محافظة (واسِط)، والأثر الموجود منه حالياً عبارة عن قاعَةٍ كبيرة مسقوفة بالآجُرِ على شكل عقد دون دعامات أو تَسْليح، ولا يزال محتفظا بأُبَّهَتِه، وفيه الحائط المشقوق الذي يدل على ما حصل في ليلة ولادته ﷺ، ويتكون الإيوان من المبنى الأساسي والقوس الذي بجانبه، ويبلغ ارتفاع القوس (٣٧) مترا، وعرضه (٢٦) مترا، وارتفاعه (٥٠) مترا. وكانت غرفة العرش فيه تزيد على (٣٠) مترا ارتفاعا، و(٢٤) مترا عرضا، و(٨٤) مترا طولاً. أخذه المسلمون في الفتوحات الإسلامية وحولوه إلى مسجد، وقد أثرت عليه السيول على مرّ القرُون فتدمّر ثلث المبنى، وتقوم دائرة الآثار في الحكومة العراقية بصيانة البناء والعناية به.

الفؤوس؟، مَكثَ في بنائه نيْفاً وعشرين سنة، وسُمِعَ لشَقِّهِ صوتٌ هَائِلٌ، وسقط من ذَلِكَ الإيوان أربعَ عشرةَ شُرْفَةً، وليسَ ذَلِكَ لخللٍ في بنائِه، وإنمّا أرادَ الله تَعَالَى أن يكون ذَلِكَ آية لنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باقيةً على وجه الأرض. وخمدت تلك الليلة نار فارس مع إيقاد خدامها لها، ولم تخمد قبل ذَلِكَ بألف عام، وغَارَتْ بحيرةُ سَاوَة[1]، فصَارت يابسةً كأن لم يَكُنْ بها شيءٌ من الماء مع شدة اتّسَاعها. ورَأى الموبِذَان، وهو رَئيسُ حُكّامِهم، وعنه يأخذون مسَائلَ شرائعهم، رَأى في نومه إبلاً صِعَاباً، تقودُ خيلاً عرَاباً، قد قطعت نهر دجلة، وانتشرت في بلاده.

وكان كسرى قد هاله وأفزعه ما رآه من ارتجَاس الإيوان، وسقوط شرافاته، فلما أصْبَح تَصَبَّر، ولم يُظْهِرِ الانْزِعَاجَ لهذا الأمر الذي رَآهُ تَشَجُّعاً، ثُمَّ رأى أنه لا يُطِيقُ ذَلِكَ، فَجَمعَ مَرَازُبَتَهُ، فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيما بعثت إليكم؟، قالوا: لا إلّا أَنْ تُخْبِرَنا، فبينما هُم كذَلِكَ، إذ ورَدَ عليه كتابٌ بخمُودِ النِّيرَان، وورَدَ عليه كتابٌ من صَاحبِ إيْليَا يخبره أن بحيرةَ سَاوةَ غاضَتْ في تلك الليلة، وورد عليه كتاب من صاحب الشام يخبره فيه أنّ وادِيَ السَّمَاوَة[2] انقطعَ تلكَ الليلة، وورد عليه كتاب صاحب طبرية يخبره بأن الماء لم يجْرِ في

---

(١) بحيرة سَاوة: بحيرةٌ مِلْحِيّة، تبعد عن مركز مدينة السَّمَاوة بـ(٣٠) كيلو متراً وتبلغ مساحتها السّطحية (١٢،٥) كيلو متراً، وطولها نحواً من (٤،٧٥) كم، وعرضها في أوسع منطقة (١،٧٥) كم، وعمقها ما بين (٢٩ ـ ٢٥٠) متر. وهي تعتبر حالياً من أغرب البُحَيرات في العالم، ومن أهم المعالم في العراق، حيث أنها تقع في الصحراء، وليس لديها مجرى مائي يغذيها بل تعتمد على تدفق مياه باطنية تأتي عبر صُدوع.

(٢) السّماوة: مدينة عراقية تقع على ضِفَاف نهر الفرات، وهي مركز محافظة «المثنى» حالياً. وفي [معجم البُلدَان ـ (١٧٩/٣)]: لم تزل مدينة سَاوة معمورة إلى سنة (٦٧١)، فجاءَها التّتَرُ الكُفّار فخربوها وقتلوا كل من فيها ولم يتركوا بها أحدا البتّة وكان بها دار كتب لم يكن في الدنيا أعظم منها فأحرقوها.

بحيرة طبرية[١]، فازداد غمّاً إلى غَمِّهِ، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله وهو ارتجاسُ الإيوان وسقوط شرافاته، فقال الموبذان: فأنا ـ أصلح الله الملك ـ قد رأيت في هذه الليلة رؤيا، ثم قصَّ عليه رؤياه في الإبل، فقال: أي شيءٍ يكونُ هذا يا مُوبِذَان؟ قال: حَدَثٌ يكون في ناحيَة العرب، فابعثْ إلى عامِلِكَ بالحِيْرَة يُوَجِّه إليكَ رَجلاً من علمائِهم، فإنهم أصحاب علْمٍ بالحدَثَان.

فكتبَ كِسْرى عند ذَلِكَ: (من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر، أما بعد: فوَجِّه إليَّ برَجُلٍ عَالم بما أريد أن أسأله عنه) فوَجَّهَ إليه عَبدَ المسِيح الغسَّاني، فلما وردَ عليه قال: أَلَكَ علمٌ بما أريدُ أنْ أسأَلَك عنه، قال: ليسألني الملك عمّا أَحَبّ، فإن كان عندي عِلمٌ منه، وإلا أخبرته بمَنْ يعلمُه، فأخبره، فقال: علم ذَلِكَ عند خالي يسكن مَشَارِفَ الشام[٢]، يقال له: سَطِيح. قال: فأته فاسأله عما سألتك عنه، ثم ائتني بتفسيره، فخرج عبدُ المسيح حتى انتهَى إلى سَطِيح وقد أشْرَف على الموت، وعمره إذ ذاك ثلاثمائة سنة، فسلم عليه عبد المسيح وكلّمه، فلم يَرُدّ عليه جَوَاباً، فأنشأ عبد المسيح يقول: (أصَمٌّ أم يسمعُ غِطْرِيفُ اليَمن)؟... إلى آخر الأبيات التي ذكرها، فلما سمع سطيحٌ شِعْرَ عبدِ المسيح رفعَ رأسَه فقَال: (عبدُ المسيح، على جمَل مُشِيح ـ أي سَرِيع ـ إلى

(١) بحيرة طبرية: هي بحيرة مُنْتِنَةٌ تقع في ناحية الأردن بأرض الشام، تكتنفها الجبال، ولا ينتفع بهذه البحيرة، ولا يتولد فيها حيوان، وقد تهيج في بعض الأعوام فيهلك أهل القرى الذين هم حولها حتى تبقى خالية مدة، ثم يأتي يسكنها من لا رغبة له في الحياة. وإن وقع في هذه البحيرة شيءٌ لا يبقى منتفعاً به، حتى الحطب إذا وقع فيها لا تعمل النار فيه البتّة، والغريق فيها لا يغوص بل يبقى طافياً، وإليها ينسب الإمام ابن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ والمصنفات الكثيرة، وطول البحيرة اثنا عشر فرسخاً في مثلها، وغورُ مائها علامة لخروج الدجال. بتصرّف من: [آثار البلاد وأخبار العباد ـ (١/٥٥)] للقزويني.

(٢) مَشَارِفَ الشَّام: أي أعاليها، وكان سطيح يسكن في منطقة يقال لها: (الجَابِيَة)، وهي مدينة معروفة.

سَطيح ، وقد وَافَى على الضَّريح ، بعثَك ملك سَاسَان ، لارْتِجَاسِ الإيوَان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رَأى إبلاً صِعَاباً ، تقود خيْلاً عِرَاباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلاده. يا عبد المسيح ، إذا كَثُرَتْ التّلاوةُ ، وظَهَر صاحبُ الهِرَاوَة ، وغاضت بحيرةُ سَاوَة ، وخمِدَتْ نارُ فارس ، فليست بابل للفرس مقاما ، ولا الشّام لسطيح شاما ، يملك منهم ملوك ومَلِكَات ، على عَددِ الشّرُفَات ، وكل ما هو آتٍ آت). ثم مات من ساعته.

وعندَ موت سطيح نهضَ عبدُ المسيح إلى راحلتِه وهو يقول شعراً منه:

شَمِّرْ فإنَّكَ مَاضِي العَزْم شِمِّيرُ	ولا يَغُرّنَّكَ تَفْرِيقٌ وَتَغْيِيرُ
والنَّاسُ أوْلَادُ عَلَّاتٍ فَمَنْ عَلِمُوا	أن قَدْ أَقَلَّ فمحقورٌ ومَهْجُورُ
وهم بَنُو الأمِّ إمَّا إنْ رَأوا نَشَباً	فَذَاكَ بِالغَيْبِ محفُوظٌ ومَسطُورُ
والخيرُ والشرُّ مَقْرُونَانِ في قَرَنٍ	فالخيرُ متبَعٌ والشرُّ محذُورُ

فلما قَدِمَ عبدُ المسيح على كِسْرَى وأخبره بما قاله سَطِيحٌ ، قال له كسرى: إلى أَنْ يَمْلِكَ منّا أربعةُ عشر ملكاً كانت أمورٌ وأُمُورٌ.. ، فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه. وكانت مُدّةُ مُلْكِ بني سَاسَان ثلاثةَ آلافٍ ومائة وأربعاً وستين سنة. وكان منهم سَابُور ذو الأكتاف ، قيل له ذَلِكَ ، لأنه كان يخلع أكتاف من ظَفِرَ به من العَرَب. ولما جاء لمنازل بني تميم وجَدَهم قد فَرُّواْ ، ووجد بها عُمَيرَ بنَ تميم وهو ابن ثلاثمائة سنة ، فقال له: أيها الملك لم تفعل فعلك هذا بالعرب؟. فقال: يزعمون أنّ مُلْكَنا يصِيرُ إليهم على يَدِ نبيٍّ يُبعثُ في آخرِ الزّمَان. فقال له عميرٌ: فأين حلم الملوك وعقلهم؟، إن يكن هذا الأمرُ باطلاً فلن يضرّك ، وإن يكُنْ حقّا أَلْفَوْكَ ولم تتّخِذ عندَهم يَداً



يكافئونَكَ عليها. فانصرفَ سَابُور وترك تعرُّضَهُ للعَرب، وأَحسَنَ إليهم بعد ذَلِكَ.

وذكر ابن إسحاق ﷺ أنّ أمَّهُ ﷺ لما ولدته أرسلت خلف جَدِّهِ عبد المطلب تقول له: إنه قد ولد لك غلام فانظر إليه، فأتاه ونظر إليه وحدثته بما رأته، فأخذه عبدالمطلب ودخل به الكعبة، وقام يدعو الله تعالى وأهله يُؤَمِّنُونَ، ويشكرُ اللهَ على ما أعطاه.

وتكلم ﷺ في المهد فقال: «الله أَكْبَرُ كَبِيرًا، والحمْدُ لله كَثِيرًا». وتقدم أنه تكلم حين خروجه من بطن أمه، ولا مانع من تكرر ذَلِكَ، حين خروجه، وحين وضعه في المهد. وقد تكلم جماعَةٌ في المهْدِ، نظمهم الجلال السّيوطي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في قوله:

تَكَلَّمَ فـي المهْـدِ النَّبِـيُّ «مُحَمَّـدٌ» … وَ«يحيَى» و«عِيسَـى» وَ«الخَلِيلُ» و«مَرْيمُ»

و«مُبْرِي جُرَيْجٍ» ثُمَّ «شَاهِدُ يُوسُفٍ» … و«طِفْـلٌ لـدَى الأُخْـدُودِ» يَرْويـهِ مُسْلِمُ

وَ«طِفْـلٌ» عَليـهِ مُـرَّ بالأَمَـةِ التِـي … يُـقَـالُ لـهَـا تَـزْنِـي وَلَا تَـتـكَـلَّـمُ

ومَاشِـــطَةٌ في عَهْدِ فِرْعَونَ «طِفْلُهَا» … وفي زَمَنِ الهـادِي «المبَـارَكُ» يُخْتَمُ

وكان ﷺ يُنَاغِي القَمَر وهو في مَهْدِهِ ـ أي يُحَدِّثُه ـ، وَعُدَّ ذَلِكَ من خصائصه. وعن العباس ﷺ قال: يا رسول الله، دعاني إلى الدخول في دينك إشارة لنبوتك، رأيتك في المهد تناغي القمر، فتشير إليه بأصبعك، فحيثما أشرت إليه مال. فقال: «كُنْتُ أُحَدِّثُهُ وَيُحَدِّثُنِي، وَيُلْهِينِي عَنِ البُكَاءِ، وَأَسْمَعُ وَجْبَتَهُ حِينَ يَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ»(١). وكان مَهْدُه ﷺ يَتَحرَّك بتحريك الملائكة، وعدَّه ابنُ سميع من خصائصه.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة [١/٤٢٠]، رقم: (٣٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق [٤/٣٦٠].

بَابُ
تَسْمِيَتِهِ ﷺ مُحَمَّداً

لا يخفَى أنَّ جَميعَ أسْمَائِهِ ﷺ مُشْتَقَّةٌ من صِفاتٍ قامتَ به توجبُ لهُ المدْحَ والكمَال، فله مِن كل وصفٍ اسمٌ، وكما أنّ لله ﷻ ألفُ اسمٍ فللنَّبِيِّ ﷺ ألفُ اسم. وعن أبي جعفر مُحَمَّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال: (أُمِرَت آمنة وهِيَ حَامِلٌ بِرَسول الله ﷺ أن تُسَمِّيه أحمد)[1]. وعن ابن إسحاق رحمه الله: (أن تُسَمِّيه مُحَمَّداً). والثاني هو المشهور في الروايات، وعلى الأول اقتصر الحافِظ الدمياطي. والمسَمِّي له بمُحَمَّد جدُّه عبدُ المطلب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما ولِدَ رسول الله ﷺ عقَّ عنه جَدُّه بكبشٍ، وسمّاه مُحَمَّدا، فقيل له: يا أبا الحَارِث ما حملك على أن تُسَمِّيه مُحَمَّدا ولم تُسَمِّه باسم آبائه)؟. وفي لفظ: (وليس من أسماء آبائك ولا قومك؟ قال: أردتُ أن يحمدَه الله في السَّماء وتحمده الناسُ في الأرض)[2].

وهذا هو الموافق لما اشتهر مِنْ أَنّ جدَّه سمّاه مُحَمَّداً بإلهام من الله تَعَالَى، وتفَاؤُلاً بأَنْ يكثَرَ حمدُ الخلقِ له؛ لكثرة خِصَاله الحميدة التي يحمد عليها، ولذَلِكَ كان أبلغ من محمود. وإلى ذَلِكَ يشير حسان رضي الله عنه بقوله:

فَشَــقَّ لَــهُ مِــنْ اسْــمِهِ لِيُجِلَّــهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّد

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/١٠٤].

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق [٤/٣٦٠].

وهذا الإلهام لا ينافي أن تكون أُمُّه قالت له: إنها أمرت أن تُسَمِّيه بذَلِكَ.

وقد حقّقَ الله رجاءَه بأنّه ﷺ تكَامَلت فيه الخِصَالُ المحمُودةُ والخِلَالُ المحْبُوبَةُ، فتكاملت له ﷺ المحبّةُ من الخالق والخَلِيقَة، فظهرَ معنى اسْمِه على الحقيقة. وفي الخَصَائِص الصُّغْرَى: وخُصَّ ﷺ باشتقَاق اسمِه من اسم الله تَعَالَى، وبأنه ﷺ سُمِّيَ أحمدُ ولم يُسَمَّ بهِ أحدٌ قبله، ولإفادَتِه الكثرةَ في معناه، لأنه لا يقال إلّا لمن حُمِدَ المرَّةَ بعدَ المرّة؛ لما يوجد فيه من المحاسِن والمناقب. وهذا السِّيَاق يَدلّ على أن تسميته ﷺ بذَلِكَ كانت في يوم العَقِيقَة، وأَنّ العَقِيقَة كانت في اليوم السَّابع من ولادته، وتقدم: (وُلِدَ اللّيلَةَ لعَبدِ الله بنِ عبدِ المطّلب غُلامٌ سمّوه مُحَمَّدا)، وهو يَدُل على أن تَسْمِيَتَهُ ﷺ بذَلِكَ كانت في ليلة ولادته أو يومها. ولا مُنَافَاة؛ لأنهُ يجوز أن يكون قوله: (وسَمَّاهُ مُحَمَّداً) معناه: أظهر تسميتَه بذَلِكَ لعموم الناس. وهناك حديثٌ (أَنّه ﷺ عَقّ عَنْ نَفْسِه بَعْدَ مَا جَاءَتْهُ النّبوّةُ)(١)، والحافظ السيوطي جعله أصلاً لعَمَل المولِدِ، قال: (لأنَّ العقيقةَ لا تُعَادُ مرَّةً ثانية، فيحمل ذَلِكَ على أن هذا الذي فعله النَّبيّ ﷺ إظهاراً للشُّكْر على إيجاد الله تَعَالَى إياه رحمة للعالمين، وتشريعاً لأمته، كما كان يصلي على نفسه، فلذَلِكَ يستحب لنا إظهار الشكر بمولده ﷺ)(٢).

ويروى: أَنَّ عبدَ المطلب إنّما سمّاه مُحَمَّدا بسبب رُؤيا رآها في منامِه، فقد جاء أنه رَأى كَأَنّ سِلْسِلةً خرَجَتْ من ظهرِه، لها طرف في السماء، وطرف في

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى [٩/٣٠٠]، باب العقيقة، حديث رقم: (١٩٠٥٦)، عن أنس.

(٢) ذكر ذلك في رسالته: (حسن المقصد في عمل المولد)، المضمنة في كتابه الحاوي للفتاوي [٢٨٣/١].

الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادتْ كأنها شجرة، على كل وَرَقَةٍ منها نورٌ، وإذا أهل المشرق وأهل المغرب يتعلقون بها، فقصَّ رُؤْيَاه فَعُبِّرَتْ له بمَوْلودٍ يكُون من صُلبِه، يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمُدُه أهلُ السّماء والأرض، فلذَلِكَ سماه مُحَمَّدا[1].

ولا يعرفُ في العَرب من تَسمّى به قبله ﷺ إلا ثلاثة، طِمَعَ آباؤُهم حين وفَدُوا على بعض الملوك وكان عنده علم من الكتاب، وأخبرهم بمبعث النَّبِيّ ﷺ، وبقرب زمنه وباسمه مُحَمَّد، وكانَ كلّ واحدٍ منهُم قد خَلّف زوجَته حاملاً فنذرَ كل واحد منهم إنْ ولدَ له ذَكَرٌ أن يسميه مُحَمَّدا، ففعلوا ذَلِكَ.

وفي "الشِّفَاء": أَنّ في هذين الاسمين مُحَمَّد وأحمد من بدائع آيات المُصْطَفَى وعجائب خصائصه أن الله تَعَالَى حماهما عَن أَنْ يُسَمَّى بهما أحد قبل زمانه وقبل شيوع وجوده. أمّا أحمدُ الذي أتى في الكتب القديمة وبَشَّرَتْ به الأنبياء عليهم الصَّلَاة وَالسَّلَام، فمنع الله تَعَالَى بحكمته أن يتسمى به أحدٌ غيرُه، ولا يُدْعَى به مَدْعُوٌّ قبله منذ خُلِقَتِ الدنيا وفي حياته. زاد الزّينُ العراقي: ولا في زَمن أصحابه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهم حتّى لا يدخل لبس أو شك على ضعيف القلب. فالتسمية به من خصائصه ﷺ على جميع الناس ممّن تقدمه. وقال الزين العراقي: وأوّل من تسمى في الإِسْلَام أحمد، والدُ الخليل بن أحمد العَرُوضِيّ. ويُشْكِلُ على هذا وعلى قوله: لم يسمَّ به أحدٌ في زَمَنِ الصّحابة. تَسْمِيَةُ وَلَدِ جَعْفَرَ بنِ أبي طالب بذَلِكَ، إلا أن يقال: لَمْ يَصِحْ ذَلِكَ عند العراقي، أو يقال: مُرَاد العراقي أصحابه الذين تخلفوا عنه بعد وفاته، فلا يَرِدُ ولَدُ جعفرَ

---

(١) ذكره الحافظ السهيلي في الروض الأنف [٩٢/٢]. والصالحي في سبل الهدى والرشاد [٣٦٠/١].



لأنّه ماتَ في حياتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولم يتسمّ بمُحَمَّد أحدٌ قبل وجوده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وميلاده إلا بعد أن شاع أن نبيّا يبعثُ اسمه مُحَمَّد بالحجاز وقَرُبَ زَمَنُه، فسمّى قومٌ قليلٌ من العرب أبناءَهم بذَلِكَ، وحمَى الله تَعَالَى هَؤُلاءِ عَن أَنْ يَدَّعِيَ أَحَدٌ منهم النّبوّةَ أو يَدَّعِيَهَا أَحَدٌ له، أو يظهرَ عليه شيءٌ من سِمَاتِها وعلامَاتِها، حتّى تحقّقت له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي دَعوَى أَنَّ الذي في الكتب القديمة إنما هو أحمدُ مخالفةٌ لما سَبَق، فلَعَلّ المرادُ بالكتبِ القديمة غالبها، فلا ينافي أَنَّ في بعضِها اسمُه مُحَمَّدٌ، وفي بعضِها اسمُه أحمدُ، وفي بعضِها الجمعُ بين مُحَمَّدٍ وأحمَدَ.

قال بعضُهم: سمعتُ مُحَمَّدَ بنَ عَدِيٍّ وقد قيلَ له: كيفَ سمَّاكَ أبوك في الجاهليّة مُحَمَّداً؟، فقال: سألتُ أبي عمّا سألتني عنه، قال: خَرَجْتُ رَابعَ أرْبَعةٍ من تميم نريدُ الشّامَ، فنزلنا غَدِيراً عِندَ دِيْرٍ، فأشرَفَ علينا الدّيْراني وقال: إنّ هذِه للغةُ قومٍ ما هِيَ لغةُ أهل هذه البلد، فقلنا له: نحن قوم من مُضَر، فقال: من أيِّ المضَائر؟ فقلنا: مِن خِنْدِفَ، فقال لنا: إنّ اللهَ سيبعثُ فيكم نبيّا وشيكاً فسارعوا إليه، وخذوا حَظّكم ترشدوا، فإنه خاتم النَّبيّين، فقلنا له: ما اسمُه؟، قال: مُحَمَّدٌ، ثم دخل دِيرَه، فو الله ما بقي أحَدٌ منا إلّا زَرَعَ قولُه في قلبِه، فأضْمَرَ كلّ واحِدٍ منّا إنْ رَزَقَهُ الله تعالى غُلاماً سمّاه مُحَمَّدا، رَغبةً فيما قاله، فلمّا انصرَفْنَا وُلِدَ لكلِّ وَاحِدٍ منّا غُلامٌ فسمّاه مُحَمَّداً؛ رجاءَ أَنْ يكونَ أحدُهم هوَ، واللهُ أَعْلَمُ حيثُ يجعلُ رِسَالَاتِه[1].

---

(١) قال الحافظ السهيلي [في الروض الأنف ـ (٢/٩٥)]: ذكرهم ابن فورك في كتاب "الفصول"، وهم: مُحَمَّد بن سفيان بن مجاشع جَدُّ جَدِّ الفرزدق، ومُحَمَّد بن أحيحة بن الجلاح، ومُحَمَّد بن حمران بن ربيعة.



وذكر ابنُ ظَفَر(١): أنّ سُفْيَانَ بنَ مجاشع نزلَ على حيٍّ من تميم، فوجدهم مجتمعين على كاهنتهم، وهي تقول: العزيزُ من وَالَاه، والذّليلُ من خَالَاه، فقال لها سُفْيَان: مَن تذكرينَ لله أبوكِ؟، فَقَالَتْ: صَاحِبُ هُدَىً وعِلْم وحَرْبٍ وسِلْم، فقال سُفْيَان: مَن هُوَ لله أبوكِ؟، فَقَالَتْ: نبيٌّ مُؤَيّد، قَدْ آنَ حِينَ يُوجَد، ودَنَا أَوَانُ يُولَد، يُبْعَثُ للأحمَر والأسْوَد اسمُه مُحَمَّد. فقال سُفْيَان: أعَرَبيٌّ أم عَجَمِيٌّ؟، فَقَالَتْ: أمَا والسَّمَاءِ ذاتِ العنَان والشَّجر ذَوَاتِ الأفْنَان، إنه لمن مَعَدِّ بن عَدْنَان، حسبك فقد أكثَرتَ يا سُفْيَان. فأَمْسَكَ عَن سُؤالِها، ومَضَى إلى أهلِه، وكانت امرأتُه حَامِلاً، فولدَت له ولداً فسمّاه مُحَمَّداً؛ رجاء منه أن يكون هو النَّبِيُّ الموصُوف. وقد عَدَّ بعضُهم ممن سُمِّيَ بمُحَمَّد سِتّة عشر، ونَظَمَهم في قوله:

إنَّ الذِينَ سُمُوا باِسْمِ مُحَمَّدٍ ... مِنْ قَبْلِ خَيْرِ الخلْقِ ضِعْفُ ثَمَانِ
ابنُ لِبَرٍّ، مُجَاشِعُ، بنُ رَبِيعَةٍ، ... ثُمَّ ابنُ مَسْلَمَ، يُحْمَدِي، حَزْمَانِي
لَيثِيٌّ، السُّلَمِيُّ، وابنُ أُسَامَةٍ، ... سَعْدِيٌّ، وابنُ سَوَادَةٍ، همَدَاني
وابنُ الجَلَاحِ، مَعَ الأُسَيْدِيْ، يَا فتى ... ثُمَّ الفُقَيْمِيْ، هَكَذَا الحُمْرَانِي(٢)

---

(١) هو الأديب الرحالة المفسر أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله أبي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن ظَفَر الصِّقِلّي المكّي، ولد في صقلية، ونشأ بمكة. وتنقل في البلاد، فدخل المغرب والأندلس، حتى استوطن "حماة"، وتوفي بها سنة (٥٦٥) هـ. له تصانيف، منها "ينبوع الحياة" في تفسير القرآن، اثنا عشر مجلدا. [الأعلام ـ (٦/٢٣٠)].

(٢) الأبيات للقاضي عبد الباسط البلقيني، كما في [سبل الهدى والرشاد ـ (١/٤١١)]، للإمام الصالحي. ومراد النّاظم رَحِمَهُ اللهُ تعالى بيان من سُمّي باسمِه ﷺ في الجاهِليّة، سواء كان قبل ولادة النبي ﷺ أم بعدها. ولتمام الفائدة نسرد بيان أسمائهم حسب ترتيبهم في الأبيات كالتالي:

١ ـ مُحَمَّد بن البَرِّ بن طَرِيف بن عتوارة البكري. ٢ ـ مُحَمَّد بن سفيان بن مجاشع. ٣ ـ مُحَمَّد=

ووقع الخلاف الشهير في أول من سُمِّي بذَلِكَ الاسم منهم، ويمكن أن يكون من زاد على أولئك الأربعة أو السبعة سمع ذَلِكَ من بعضهم فاقتدى به في ذَلِكَ طمعًا فيما طُمِعَ فيه. والذي أدرك الإِسْلَام ممن تسمى باسمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هم: مُحَمَّد بن ربيعة، ومُحَمَّد بن الحَارِث، ومُحَمَّد بن مسلمة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهم، وادَّعَى بعضُهم أنّ مُحَمَّدَ بن مسلمة ولد بعد مولد النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأكثر من خمسة عشر سنة. وذكرَ ابنُ الجوزي أنَّ أوّلَ من تَسمَّى في الإِسْلَام بمُحَمَّدٍ هو: مُحَمَّد بن حَاطِب.

وأما فضْلُ التّسْمِية بمُحَمَّد، فقد جَاءَ في أحاديث كثيرة، وأخبار شهيرة، وبالغَ بعضُهم فقال: لم يصح في فضل التسمية بمُحَمَّدٍ حديثٌ، وكل ما ورد في ذلك فهو موضوع. وقال بعض الحفاظ: ولعَلّ أقربها للصّحةِ حديث: «مِنْ وُلِدَ لَهُ مَوْلُودٌ فَسَمَّاهُ مُحَمَّداً حُبّاً لِي، وَتَبَرُّكاً بِاسْمِي كَانَ هُوَ وَمَوْلُودُهُ فِي الجَنَّةِ»(١). وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما: «مَنْ وُلِدَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ فَلَمْ يُسَمِّ أَحَدَهُمْ

= بن يزيد بن عمرو بن ربيعة. ٤ ـ مُحَمَّد بن مَسْلَمَة [ورخّمه بقوله: "مَسْلَمَ" للضّرُورة]. ٥ ـ مُحَمَّد بنُ اليُحْمَدِ الأَزَدِي. ٦ ـ مُحَمَّد بن حِرْمَاز الحارث بن مالك [كذا ضبَطه الحافظ، وخطأ من سماه حزمان]. ٧ ـ مُحَمَّد بن الحَارث بن حُدِيج. ٨ ـ مُحَمَّد بن خُزَاعِي بن عَلْقَمَة السُّلَمِي. ٩ ـ مُحَمَّد بن أسَامة بن مالك بن حبيب. ١٠ ـ مُحَمَّد بن عَدِيّ بن ربيعة السَّعْدِي. ١١ ـ مُحَمَّد بن عمر بن مُغْفِل. ١٢ ـ مُحَمَّد بن خَوْلي الهمداني. ١٣ ـ مُحَمَّد بن عُقْبة بن أحَيْحَة بن الجُلَاح. ١٤ ـ مُحَمَّد الأُسَدِيّ. ١٥ ـ مُحَمَّد الفُقَيْمِي. ١٦ ـ مُحَمَّد بن حمرَان بن ربيعة الجعْفِي.

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا [٣٩٣/٢]، وعزاه لابن عساكر عن أبي أمامة مرفوعا، وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات [١٥٧/١]، والفتني في تذكرة الموضوعات [ص: ٨٩]. وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة [٩٧/١]، وقال: هذا أمثل حديث ورد في هذا الباب وإسناده حسن. وقال في الحاوي [٧٦/٣]: أخرجه ابن بكير في فضل من أسمه مُحَمَّد من حديث أبي أمامة وسنده عندي على شرط الحسن.

مُحَمَّداً فَقَدْ جَهِلَ»، وفي رواية أخرى: «فَقَدْ جَفَانِي»[1].

وعن أبي رَافِع عن أبيهِ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إِذَا سَمَّيْتُمْ مُحَمَّدًا فَلا تَضْرِبُوهُ وَلَا تَحْرِمُوهُ»[2]، وفي رواية: «لَا تَسُبُّوهُ، وَلَا تَجْبَهُوهُ، وَلَا تُعَنِّفُوهُ، وَشَرِّفُوهُ، وَعَظِّمُوهُ، وَأَكْرِمُوهُ، وَبِرُّوا قَسَمَهُ، وَأَوْسِعُوا لَهُ فِي المَجْلِسِ، وَلَا تُقَبِّحُوا لَهُ وَجْهاً، بُورِكَ فِي مُحَمَّدٍ، وَفِي بَيْتٍ فِيهِ مُحَمَّدٌ، وَفِي مَجْلِسٍ فِيهِ مُحَمَّدٌ»[3].

وذكَرَ بعضُهم: أن من أراد أن يكون حمل زوجته ذكرا فليضعْ يدَه على بطنِها، وليقل: إنْ كان هذا الحمل ذكَراً فقد سميته مُحَمَّدا فإنه يكون ذكرا. وجاء عن عطاء أنه قال: ما سُمِّي مولودٌ في بطْنِ أمّه مُحَمَّدا إلا كان ذكراً. وعن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما قال: من كان له حمل فنوى أنْ يسميه مُحَمَّدا حوله الله تَعَالَى ذكرا وإن كان أنثى. قال بعض رواة الحَدِيْث: فنويتُ سَبْعَةً كلّهم سمّيتُهم مُحَمَّداً.

وعنه ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ ذُو بَطْنٍ فَأَجْمَعَ أَنْ يُسَمِّيهِ مُحَمَّداً رَزَقَهُ الله تَعَالَى غُلَامًا، وَمَا كَانَ اسْمُ مُحَمَّدٍ فِي بَيتٍ إِلّا جَعَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ البَيتِ بَرَكَةً». وشَكَتْ امرأةٌ إليه ﷺ بأنه لا يعيشُ لها ولَدٌ، فقال لها: «اِجْعَلِي لله عَلَيكِ

---

(١) ذكره الحافظ السيوطي في الجامع الصغير من حديث البشير النذير [٢/٣٥٢]، برقم: (٩٠٨٤)، قال: وهو ضعيف، ومعنى: "جهل": أي فعل فعلَ أهلِ الجهل، مع ما في ذلك من عظيم البركة التي فاتته.

(٢) أخرجه البزار في مسنده [٢/٧٥]، في مسند أبي رافع، برقم: (٣٨٨٣).

(٣) أخرجه الحافظ الديلمي في مسنده [١/٣٤٠]، برقم: (١٣٥٤)، وذكره الحافظ السيوطي في جامع الأحاديث [٣/٢٦٤]، برقم: (٢١٦٤)، وعزاه للديلمي.

أَنْ تُسَمِّيهِ مُحَمَّداً» ، ففعلت فعاش ولدها . وعن عَليٍّ ﷺ مرفوعًا: «لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ إِلَّا يُدْعَى بِاسْمِهِ وَلَا يُكَنَّى إِلَّا آدَمُ ﷺ فَإِنَّهُ يُدْعَى أَبَا مُحَمَّدٍ تَعْظِيماً وَتَوقِيراً لَهُ ﷺ» . وفي رواية: «لَيسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يُكَنَّى ، إِلَّا آدَمَ فَإِنَّهُ يُكَنَّى أَبَا مُحَمَّدٍ»(١) .

وفي الحلية لأبي نعيم عن وهب بن منبه قال: كان رجل عصى الله مائة سنة ـ أي في بني إسرائيل ـ ثم مات فأخذوه وألقوه في مزبلة ، فأوحى الله تَعَالَى إلى موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ أخرجْهُ فصَلِّ عليه ، قال: يا ربّ إنَّ بني إسرائيل شهدوا أنه عصَاك مائة سنة ، فأوحى الله إليه: «هَكَذَا هُوَ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ كُلَّمَا نَشَرَ التَّوْرَاةَ وَنَظَرَ إِلَى اسْمِ مُحَمَّدٍ قَبَّلَهُ وَوَضَعَهُ عَلَى عَينَيهِ ، فَشَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ ، وَغَفَرْتُ لَهُ ، وَزَوَّجْتُه سَبْعِينَ حَوْرَاء»(٢) .

ومن **الفوائد**: أنه جرت عادة كثير من الناس إذا سمعوا بذكر وضعه ﷺ أن يقوموا تعظيما له ﷺ ، وهذا القيام بدعة لا أصل لها ، لكنها بدعة حسنة ، لأنه ليس كل بدعة مذمومة . وقد قال سيدنا عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه في اجتماع الناس لصلاة التراويح: (نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ)(٣) .

قال العزُّ بنُ عبدِ السّلام: إن البدعة تعتريها الأحكام الخمسة ، وذكر أمثلة

---

(١) كل هذه الآثار ونحوها في كتاب: "فضائل التسمية بمحمد" ، للعلامة المحدث الحسين بن بكير .

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٤/٩١) .

(٣) رواه الأمام مالك في الموطأ [١/٨٣] ، برقم: (٣٠٣) . ويعني سيدنا عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه بالبدعة هنا: أمرَه باجتماع النّاس على إمام واحدٍ ، وتعَيُّن الاستجابة لأمره هذا من قبل الصحابة ومن معهم ، لكونه ولي الأمر أو صاحب الأمر والنهي ، وليست البدعة في كونهم صلوها جماعة ، ولا في كونهم صلوا وراء إمام واحد ، ولا في كونهم صلوها عشرين ركعة فكلّ ذلك قد حصل في حياة النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

يطول ذكرها. ولا ينافي ذَلِكَ قوله ﷺ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1]، ولا قوله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[2]؛ لأن هذا عام أريد به خاص.

وقال إمامُنا الشافعيُّ قدَّسَ الله سره: ما أُحْدِثَ وخالفَ كتاباً أو سُنَّةً أو إجماعاً أو أثراً فهو البدعةُ الضّلالة، وما أحدث من الخير ولم يخالف شيئاً من ذَلِكَ فهو البدعة المحمودة.

وقد وُجِدَ القِيَام عند ذكرِ اسمِه ﷺ من عَالِم الأُمّة ومُقتَدَى الأَئِمَّةِ دِيناً وَوَرعاً، الإمام الحافظ تقي الدين السُّبْكِيّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى، وتابعه على ذَلِكَ مشايخ الإِسْلَام في عصره، فقد حكَى بعضُهم: أنّ الإمامَ السُّبْكِيّ اجتمع عنده جمع كثير من علماء عصره، فأنشدَ مُنْشدٌ قولَ الصَّرْصَرِيّ في مدحه ﷺ:

قَلِيلٌ لِمَدْحِ المُصْطَفَى الخَطُّ بِالذَّهَبْ ... عَلَى وَرَقٍ مِنْ خَطِّ أَحْسَنَ مَنْ كَتَبْ

وَأَنْ تَنْهَضَ الأَشْـرَافُ عِنْدَ سَـمَاعِهِ ... قِيَامًا صُـفُوفًا أَوْ جُثِيًّا عَلَى الرُّكَبْ

فعند ذَلِكَ قام الإمام السُّبْكِيّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى وجميع من كان حاضراً معه من العلماء في ذلك المجلس، فحصَل أُنْسٌ كبير بذَلِكَ المجلس، ويكفي مثل ذَلِكَ في الاقتداء.

قال ابنُ حَجَر الهيتمي: والحاصِلُ أنّ البدعةَ الحسنةَ مُتَّفَقٌ على نَدْبِهَا، وعمل المولد واجتماع الناس له بدعة حسنة، ومن ثم قال الإمام أبو شامة شيخ

(١) حديث حسن، أخرجه الإمام البيهقي في السنن الكبرى [١١٤/١٠]، حديث رقم: (٢٠١٢٥).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه [٩٥٩/٢]، برقم: (٢٥٥٠)، والإمام مسلم برقم: (١٧١٨).

الإمام النووي: ومن أحسن ما ابْتُدِعَ في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده ﷺ، من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور، فإن ذَلِكَ مع ما فيه من الإحسان للفقراء مُشْعِرٌ بمحبّته ﷺ وتعظيمِه في قَلْب فَاعل ذَلِكَ، وشُكْرِ الله على ما من به من إيجادِ رسُولِ الله ﷺ، الذي أرسله رحمة للعالمين.

وقال السَّخاوي: لم يفعلْهُ أحَدٌ مِن السّلف في القرون الثّلاثة، وإنّما حَدَث بعد ذَلِكَ، ثُمّ لا زَال أهل الإسْلَام من سائِر الأقطار والمُدُن الكبار يعملون المولد، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصّدقات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم.

وقال ابنُ الجوزي: من خواصه أنه أمان في ذَلِكَ العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام. وأول من أحدثه من الملوك صاحب أربل وصنف له ابن دحية كتابا في المولد سماه "التنوير بمولد البشير النذير"، فأجازه بألف دينار. وقد استخرج له الحافظ ابن حجر أصلا من السنة، وكذا السيوطي، ورَدًّا على الفاكهاني في قوله: إنّ عمل المولود بدعة مذمومة.

بَابُ
رضَاعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يُقالُ أنّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْتَضَعَ مِن عشرة من النّسَاء. وأوّل مَن أرضعَ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بعد إرضاع أمّه له ـ ثويبةُ وهي جاريةٌ لعمِّه أبي لهَب، وقد أعتَقَها حينَ بشَّرَتْهُ بولادَتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجُوزِي بتَخْفِيف العَذابِ عنه يوم الاثنين، بأنْ يُسْقى مَاءً في جهنم من النّقْرةِ التي بين السّبابة والإبهام. فعَن العبّاس رَضِيَ اللهُ تَعالَى عنه قال: مَكَثْتُ حولاً بعد موتِ أبي لهب، ثمّ رَأيته في شَرِّ حَالٍ، فقلت له: ماذا لقِيتَ؟. فقال له أبو لهب: لمْ أذُقْ بعدَكم رخاءً، بل أنا بِشَرٍّ خَيبةٍ، أو قال: في النّار، إلا أنه يخفف عني كلّ ليلة اثنين، وأمصُّ من بين اصْبعيّ هاتين ماءً، وأشار برأس أصبعيه، وذَلِكَ بإعتاقي لثويبة عند ما بشرتني بولادة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإرضاعها له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أيّاماً قَلائِلَ قبل أنْ تَقْدِمَ حَليمةُ، وكان بلبن ابن لها يقال له: مَسْرُوحٌ. وكانت قد أرضعَت قبله ابنَ عمِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سُفْيَان بن الحارث بن عبد المطلب. وأرضَعَتْ ثُويبةُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عنها قبلَهما عمَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمْزةَ بنَ عبْدِ المطلب، وكان أسَنَّ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسَنتين، وقيل: بأربع سنين. وأرضعت أيضاً بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنَ عَمّتِه أبا سَلَمَةَ بنَ عبْد الأسَد.

فقد أرضعت ثويبةُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عنها أربعةً: حمزةَ، ثمّ أبا سُفْيَان ابنَ

الحارث، ثُمَّ رسُولَ الله ﷺ، ثُمّ أبا سَلمَة. وجاء أنّ أُمّه أرضعَتْهُ ﷺ تسعة أيام. وقيل: سبعة أيام. ثُمّ أرضَعَتْه ثويبةُ أياماً قلائِلَ، فكان لبنُها أوّلُ لبنٍ نزل جوفه ﷺ بعد لبن أمّه. وأرضعه ﷺ ثلاث نسوةٍ أبكار من بني سَليم، أخرجن ثديهن فوضعنها في فمه فدرّت في فِيهِ فرضَع منْهُنَّ، وهؤلاء النّسوة الأبكار كل واحدة منهن تسمّى عاتكة، وهنَّ اللّاتي عَنَاهُنّ ﷺ بقوله: «أَنَا ابْنُ الْعَوَاتِكِ»[1]. وأرضعته ﷺ أمّ فَرْوَة.

وأرضعته ﷺ حليمة بنت أبي ذؤيب السّعدية، وتُكَنّى أُمُّ كَبْشَةَ، وهي من بني سعد بن بكر بن هَوَازِن، وزوجها هو الحارث بن عبد العزى، ويُكَنّى أبا ذُؤَيبٍ كما يُكَنّى بأبي كبشة أيضاً، وقد أدركَ الإِسْلَامَ وأسلم. فقد روي أنه قدم على رسول الله ﷺ بمكة بعد نزول القرآن، فَقَالَتْ له قريش: أو تسمع يا حارث ما يقول ابنك؟، فقال: وما يقول؟ قالوا: يَزْعُمُ أنّ الله يبعثُ مَن في القبور، وأنّ لله دَارَين يُعَذّبُ في إحداهما من عصاه وهي النّار، ويكرمُ في الأخرى من أطاعَه وهي الجنّة، فقد شتّت أمرَنا، وفرّق جماعتنا، فأتاه فقال: أي بني، ما لك ولقومِك، يشكونك ويزعمون أنك تقول كذا..؟. فقال له رسول الله ﷺ: «نَعَمْ؛ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ، وَلَوْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ اليَومُ يَا أَبَتِ، فَلَآخُذَنَّ بِيَدِكَ حَتَّى أُعَرِّفَكَ حَدِيثَكَ اليَوم» فأسلم الحارث بعد ذَلِكَ وحسن إسلامه. وكان يقول حين أسلم: لو أخذ ابني بيدي فعرَّفَني ما قال لم يرسلني حتى يدخلني الجنة. وجاء: أنّ رسول الله ﷺ كان جالسًا على ثوب فأقبل أبوه من الرّضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة،

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير [١٦٨/٧]، برقم: (٦٧٢٤)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.




فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجلس بين يديه[1].

قالت حليمة: خرجتُ في نِسْوَةٍ مِن بني سَعْدِ بن بكر بن هَوَازِن، عشرة يطلبنَ الرّضَعَاء في سنة شَهْبَاء، ذاتِ جَدْبٍ وقَحْطٍ لم تُبْقِ شيئاً، على أَتَانٍ قَمْرَاء، ومعنا ناقةٌ مُسِنّةٌ، ما تَبضُّ بقطْرَةِ لَبَنٍ، وما كنا ننام ليلتنا أجمعُ من صبيّنا الذي معنا، لبُكَائِه من الجوع، وما في ثديي ما يُغْنِيه، وما في شارفنا ما يُغَذِّيه، ولكنا نرجو الغيثَ والفَرَج، فخرجتُ على أتاني تلك، فلقد حبستُ الرّكبَ بتأخري عنه لشدة عنائها وتعبها لضعفها وهُزَالِها، حتى شَقّ ذَلِكَ عليهم، حتى قدمنا مكة نَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ ـ وكان من شِيَمِ العرَبِ وأخلاقِهم إذا وُلِدَ لهم ولَدٌ يلتمسون له مرضعةً في غير قبيلتهم؛ ليكون أنجب للولد وأفصَح له ـ فما منا امرأة إلا وقد عُرِضَ عليها النّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتأباه إذا قيل لها: يَتِيمٌ، وذَلِكَ أنا إنما نَرْجُو المعروفَ من أبِ الصَّبي، فكنّا نقول: يتيمٌ ما عَسَى أنْ تَصْنعَ أمّه وجدّه؟، فما بقيت امرأةٌ معي إلا أخذتْ رضيعاً غيري، فلما عزمْنا على الانطلاق، قلتُ لصَاحبي: والله إني لأكره أَنْ أرجع من بين صَوَاحِبي ولم آخذْ رَضِيعاً، والله لأَذْهبَنَّ إلى ذَلِكَ الرّضيع فلآخذنه، فقال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبت إليه، فاستقبلني عبد المطلب، فقال: من أنت؟ فقلت: أنا امرَأة من بني سعد، قال: ما اسمُك؟ قلتُ: حليمة، فتبَسَّمَ عبد المطلب وقال: بخٍ بخٍ، حَلِمٌ وسَعْدٌ، خصلتان فيهما خَيرُ الدَّهر وعِزُّ الأَبَد، واستهَلّ وجهُه فرَحاً، فأخذني وأدخلني بيتَ آمِنةَ، فَقَالَتْ لي: أهلاً وسَهْلاً، وأدخلتني في البيتِ الذي فيه مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا هو مُدْرجٌ في ثوبِ صوف أبيضَ من اللّبَنِ، وتحتَه حريرةٌ خضراء، راقِدٌ على قَفَاه يَغِطُّ، يَفُوحُ منه رَائِحَةُ

---

(١) انظر الإصابة في تمييز الصحابة (١/٥٨٣)، للحافظ ابن حجر العسقلاني.

المسْك ، فأشفقتُ أنْ أُوقِظَهُ من نَومِه ، فوضعتُ يدي عَلى صَدرِه ، فتبسّمَ ضَاحكاً وفتحَ عينيه إليَّ ، فخرجَ من عينيه نورٌ حتّى دَخلَ خِلالَ السّماءِ ، فقبّلْتُه بين عينيه وأخذتُه ، وما حملني على أَخْذِهِ إلّا أنّي لم أجِدْ غيرَه ، فلما رجعت به ووضعته في حجري أقبل ثَدْيَاي بما شاءَ الله من لبَنٍ ، فشربَ حتّى رَوِيَ من الثَّدي الأيمَن ، وعرضت عليه الأيسرَ فأباه ، وكانت تلك حالتُه بعد ذَلِكَ ، لا يقبلُ إلا ثدياً واحداً وهو الأيمن .

وشَرِبَ معه أخوه حتى رَوِيَ ثمّ نامَ وما كنا ننام معه قبل ذَلِكَ من الجوع ، ثُمَّ إِنَّ زوجي قامَ إلى شَارِفِنَا ، فإذا هي ممتلئة الضّرع من اللّبنِ ، فحلبَ منها ما شَرِبَ وشَرِبَتُ حتّى انتهينا ريّاً وشِبَعاً ، فبِتْنا بخيرِ ليلة ، يقول صاحبي حين أصبحنا: تَعْلَمِي ، والله يا حليمةُ لقد أخذتِ نسمَةً مباركة ، قلت: والله إني لأرجو ذَلِكَ ، ثم خرجنا ، وركبت أتاني وحملته ﷺ معي عليها فو الله لقد سارت وقطعت بالرَّكْب ، وصيّرته خلفَها ما يقدرُ على مرافقتها ومصاحبتها شيءٌ من حُمُرِهنَّ وَدَوَابِهنّ ، حتّى أنّ صوَاحِبي يَقُلْنَ: يا بِنْتَ أبي ذُؤَيب ، ويحك ، ارْبِعِي ـ أي اِعْطِفِي علينا بالرّفْقِ وعدم الشِّدَّةِ في السّير ـ ، أليسَتْ هذه أتانك التي كنت خرجت عليها تَخفِضُك طوراً وترفَعُك أخرَى!؟. فقلت لهنّ: بلى والله إنها لهيَ ، فَقُلنَ: والله إن لها لشأنا. قالت حليمة فكنتُ أسمعُ أتاني تنطقُ ، وتقول: والله إن لي لشأناً ثم شَأنا ، شأني بعثني الله بعد موتي ، ورَدَّ لي سمني بعد هزَالي ، ويحكنَّ يا نساء بني سعْد إنكنَّ لفي غَفْلة ، وهل تدرين مَن على ظهري؟ ، على ظهري خيرُ النَّبيّين ، وسيّدُ المرسلين ، وخيرُ الأولين والآخرين ، وحبيبُ ربِّ العالمين. كذا ذكره في كتاب: "النّطْق المفهُوم"(١).

---

(١) كتاب "النّطْق المفهُوم من أهل الصّمْت المعلوم" ، للحافظ جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن=

وذَكَرَتْ حليمةُ: أنها لما أرادت فِرَاقَ مكّة رأتْ تلك الأُتَانَ وقد سَجَدت، أي خَفَضَتْ رأسَها نحوَ الكعبةِ ثلاثَ سجدات، ورفعت رأسها إلى السماء ثم مَشَت. قالت: قدمنا منازل بني سعد ولا أعلمُ أرضا من أراضي الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به شباعا، غزيرات اللبن، فنحلب ونشرب، ووالله ما يحلب إنسانٌ قطرة لبن ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرُ في المنازل من قومنا يقول لِرُعَاتِه: ويلكم، اسرَحُوا حيثُ يَسْرَحُ راعي بنتِ أبي ذؤيب ـ يعنونني ـ، فتروحُ أغنامهم جِيَاعاً ما تَبِضُّ بقَطْرَةِ لَبَنٍ، وتروح غنمي شِبَاعاً لَبَناً، فلم نزلْ نعرفُ من الله تَعَالَى الزّيادَةَ والخيرَ حتّى مضَت سنَتَاهُ وفصَلْتُه، وكان يَشِبُّ شباباً لا يشبه الغِلمان، فلم يقطع سنتيه حتى كان غُلاماً جفْراً. أي: صار غليظا شديدا.

وعن حليمة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها أنه ﷺ لما بلغ شهرين كان يجيء إلى كل جانب، فلما بلغ ﷺ ثمانية أشهر كان يتكلم بحيث يُسْمَعُ كلامُه، ولما بلغ تسعة أشهر كانَ يتكلم الكلامَ الفصيح، ولما بلغ عشرة أشهر كان يرمي السّهام مع الصّبيان. وإلى قصّة رضاعه ﷺ يشير صَاحب الهَمْزِيّة بقوله:

وبَـدَتْ فِي رَضَـــاعِـهِ مُعْجِزَاتٌ	لَيْس فيهـا عنِ العيون خَفَـاءُ
إذْ أَبَتْـهُ لِيُتْمِـهِ مُرْضِــعـاتٌ	قُلْنَ مـا في اليتيمِ عنَّـا غَنَـاءُ
فـأتتـهُ مـن آلِ سُــعـدٍ فَتـاةٌ	قـد أَبَتْهَـا لِفَقْرِهَـا الرُّضَــعَـاءُ

= بن علي البكري البغدادي المعروف بابن الجوزي، الفقيه الحنبلي المولود سنة (٥١٠)، وتوفي ببغداد سنة (٥٩٧) هـ، والكتاب يوجد منه نسخ في برلين. انظر: [هداية العارفين ـ (٧٧/٢)]، [معجم المطبوعات ـ (١٢٣/١)].

أَرْضَعتْهُ لِبَانَهَا فَسَقَتْهَا ... وَبنِيهَا أَلْبَانَهُنَّ الشَّاءُ

أَصْبَحَتْ شُوَّلاً عِجَافاً وأَمْسَتْ ... مَا بِهَا شَائِلٌ ولا عَجْفَاءُ

أَخْصَبَ العَيْشُ عِنْدَهَا بعدَ مَحْلٍ ... إِذْ غَدَا لِلنَّبِيِّ مِنهَا غِذَاءُ

يَا لَهَا مِنَّةً لَقَدْ ضُوعِفَ الأَجْـ ... ـرُ عَليهَا مِنْ جِنْسِهَا وَالجَزَاءُ

وإِذَا سَخَّرَ الإِلَهُ أُنَاساً ... لِسَعِيدٍ فَإِنهم سُعَدَاءُ

ولم أقفْ على رِوَايةٍ فيها أنّ حليمة أَبَتْهَا أهلُ الرّضَعَاء لفقرِها، وكَأَنَّ النّاظم رَحِمَهُ اللهُ تعالى أخذ ذَلِكَ من قولها: فما بقيَت امرأةٌ قَدِمَتْ معي إلا أخذَتْ رضيعاً غيري، وما حملني على أخذِهِ إلّا أني لم أجد غيره، ولا دَلالة في ذَلِكَ.

واسْتُفْتِيَ الحَافِظُ ابنُ حجر عن بعضِ الوُعَّاظ يذكرُ عندَ اجتماعِ النّاس للمَولدِ وقائعَ تتعلّق به ﷺ جاءت بها الأخبارُ هي مُخِلَّةٌ بالتّعظيم حتى يظهر من السامعين لها حُزْنٌ، فيَبْقَى ﷺ في حَيِّزِ مَنْ يُرْحَم لَا في حَيِّزِ مَنْ يُعَظَّم. مِن ذَلِكَ: أنهم يقولون: إنّ المَرَاضِعَ حَضَرْنَ ولَمْ يأْخُذْنَه لعَدَمِ مَالِه، ونحو ذَلِكَ، فما قولكم في ذَلِكَ؟. فأجاب بما نصُّه: ينبغي لمن يكون فطناً أن يحذف مِنَ الخبَر أو الحَدِيْث ما يوهم في المُخْبَر عَنه نقصاً، ولا يضره ذَلِك، بل يجبُ كمَا وقع لإمامِنَا الشّافعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه حيث قال في بعض نصوصه: وقَطَعَ رَسُولُ الله ﷺ امْرَأَةً لهَا شَرَفٌ فَكُلِّمَ فيها، فقال: «لَوْ سَرَقَتْ فُلَانَةُ ـ لامْرَأَةٍ شَرِيفَةٍ ـ لَقَطَعْتُهَا»[1]، وهو يعني فاطمةَ بنت النَّبيِّ ﷺ، فلم يُصرّح باسمها تأدّبا معها أنْ تُذكرَ في هَذا المعْرَض، وإنْ كانَ ﷺ ذكرها،

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه [١٧٥/٤]، باب كراهية الشفاعة في الحد، حديث رقم: (٣٤٧٥).

لأنَّ ذَلِكَ منه ﷺ حَسَنٌ دَالٌّ عَلى أنَّ الخَلْقَ عندَه في الشَّرعِ سَوَاء، وهذا من كمَالِ أدَبِ الإمَام رضي الله عنه ونفعنا ببركاته، فإذا جاز حذف بعض الحَدِيْث المُوهِمُ نقصاً في بعضِ أهل بيته، فما بالك بما يُوهِمُ النّقصَ فيه ﷺ. اهـ. وهذا من الحافظ يدل على أنَّ إباءَ المرَاضِعِ له ﷺ وَارِدٌ حيثُ أقرَّهُ ولم يُنكرْه.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما قال: كان أوّلُ كلام تكلّم به ﷺ حين فطَمَتْهُ حليمةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها، «الله أَكْبَرُ كَبِيراً، وَالحَمْدُ لله كَثِيراً، وَسُبْحَانَ الله بُكْرَةً وَأَصِيلاً»، وقد تقدم أنه ﷺ تكلم بهذا عند خروجه من بطن أمه. وفي رواية أن أول كلام تكلم ﷺ به في بعض الليالي، وهو عند حليمة: «لَا إِلَهَ إِلَّا الله قُدُّوساً قُدُّوساً، نَامَتِ العُيُونُ وَالرَّحْمَنُ لَا تأخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْم».

وكان ﷺ لا يمسّ شيئاً إلا قال: «بِسْمِ الله». وعن حليمة رضي الله عنها: لما دَخلتُ به ﷺ إلى منزلي لم يبقَ منزلٌ من منازل بني سعد إلا شمَمْنَا منه ريح المسك، وأُلْقِيَتْ محبّتُه ﷺ واعتقادُ بركَتِه في قلوبِ النّاس، حتّى إنّ أحدَهُم كان إذا نزلَ به أذىً في جسَدِه أخَذَ كفّه ﷺ فيَضَعُها على مَوضِع الأذَى فيَبْرأُ بإذِنِ الله تَعَالَى سريعاً، وكذَلِكَ إذا اعْتَلّ لهم بعِيرٌ أو شَاةٌ.

قالت حليمة: وقَدِمْنَا مكّةَ على أمّه ﷺ بعد أنْ بلغَ سنتين ونحنُ أحرصُ شَيءٍ على مُكْثِه فينا؛ لما نرى من بركته ﷺ، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركتي ابني عندي حتى يغلظ، دعينا نرجع به هذه السنة الأخرى فإني أخشَى عليه وبَاء مكة، فلم نزل بها حتى ردّته ﷺ معنا، فرجعنا به ﷺ، فو الله إنه بعد مقدمنا به ﷺ بأشْهُرٍ مع أخيه يعني من الرضاعة

في بَهْمٍ لنا ، خلف بيوتنا ، إذ أتى أخوه يَعْدُو ، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القُرَشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يدخلان يديهما في بطنه ، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائما مُنْتَقِعاً وجهه[1]. فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له: ما لك يا بني؟ ، فقال ﷺ: «جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ ـ وهما جبريل وميكائيل ـ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَهُوَ هُوَ؟ ، قَالَ: نَعَمْ ، فَأَقْبَلَا يَبْتَدِرَانِي ، فَأَخَذَانِي فَأَضْجَعَانِي ، فَشَقَّا بَطْنِي ، فَالْتَمَسَا فِيهِ شَيْئاً ، فَوَجَدَاهُ فَأَخَذَاهُ وَطَرَحَاهُ ، وَلَا أَدْرِي مَا هُوَ».

قالت حليمة: فرجعنا به ﷺ إلى خِبَائِنا ، وقال لي أبوه: يا حليمة ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أُصِيْبَ ، فألحقيه بأهلِه قبلَ أَنْ يَظْهرَ به ذَلِكَ ، واخرجي من أمانتك ، والله إنْ أصَابه ما أصَابَه إلا حَسَداً مِنْ آل فُلَان ؛ لما يرون من عظيم بركته!. قالت: فحملناه ، فقدمنا به مكة على أمه ، فَقَالَتْ: ما أَقْدَمَكِ به ولقد كنْتِ حريصةً عليه وعلى مُكْثِه عندك؟. قلت: قد بَلَغَ وَالله ، وقضيت الذي عليَّ وتخوّفت عليه الأحداث ، فأدّيته إليك كما تحبين ، فَقَالَتْ: ما هذا شأنك فاصدقيني خبرك! ، قالت: فلم تَدعْني حتى أخبرْتُها ، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قُلتُ: نعم ، قالت: كَلّا والله ما للشّيطَان عليه سَبيل ، وإن لابني شأنا ، أفلا أخبرك خبره؟. قلت: بلى ، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت له قصُورُ بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به ، فو الله ما

---

(١) في بعض الروايات: «مُنْتَقِعاً لوْنُه» ، أي متغير اللون ، قد صار لونه كلون النقع وهو الغبار. وهو صفة ألوان الموتى ، وذَلِكَ لما ناله من الفزع من رؤية الملائكة ، لا من مشقة نشأت عن ذَلِكَ الشَق ، لما جاء في بعض الروايات من قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّمَ: «فلَمْ أَجِدْ لذَلِكَ حِسّا وَلَا ألما».

علمت من حملٍ قطّ كان أخف علي ولا أيسر منه، وحينَ ولدته وقعَ وإنه لَوَاضِعٌ يدَه بالأرض رافعٌ رأسه إلى السماء.

وعنه ﷺ قال: «وَاسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ، فَبَينَمَا أَنَا مَعَ أَخٍ لِي خَلْفَ بِيُوتِنَا نَرْعَى بَهْماً لنَا، أَتَانِي رَجُلَانِ عَلَيهِمَا ثِيَابٌ بِيْضٌ، بِيَدِ أَحَدِهِمَا طِسْتٌ مِنْ ذَهَبٍ مُمْلُوءَةً ثَلْجاً فَأَخَذَانِي فَشَقّا بَطْنِي ثُمَّ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ فَاسْتَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاءَ فَطَرَحَاهَا، وَقَالَا: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ يَا حَبِيبَ الله، ثُمَّ غَسَّلَا قَلْبِي بِذَلِكَ الثَّلْج، حَتَّى أَنْقَيَاهُ وَمَلَآهُ حِكْمَةً وَإِيمَاناً، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ، فَأَتَى بِهَا فَذَرَّاهَا فِي قَلْبِي، وَجَعَلَ الخَاتَمَ بَينَ كَتِفَيَّ كَمَا هُوَ الآن». وهذا لا ينافي قوله في الرواية السابقة: «وَلَا أَدْرِي مَا هُوَ»؛ لأنّ إخباره ﷺ بهذا يحتمل أن يكون بعد أنْ عَلِمَه.

والمراد بحظِّ الشّيطان محلّ ما يُلقِيه من الأمور التي لا تَنْبَغِي، لأنّ تلك العلقة خلقها الله تَعَالَى في قلوب البشر، وهي قابلة لما يلقيه الشيطان فيها، فأزيلت من قلبه فلمْ يبقَ فيه مكانٌ لأن يلقي الشيطانُ فيه شيئاً ولم يكن للشّيطان فيه حَظٌّ. وهنا يرد السؤال وهو أنه: هل يكون قبل إزالة ذَلِكَ الحظّ كان للشيطان عليه سبيل ؟!. أجاب السُّبْكِيّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: بأنه لا يلزم من وجود القابل لما يلقيه الشيطان حصول الإلقاء بالفعل. وسئل السُّبْكِيّ أيضاً: فلمَ خلق الله ذَلِكَ القابل في الذّات الشريفة، وكان من الممكن أن لا يخلقه الله فيها؟. فأجاب: بأنه من جملة الأجزاء الإنسانية، فخُلِقَتْ تكْمِلةً للخلق الإنساني، ثم نُزِعَتْ تكْرِمَةً له ﷺ؛ وليَظْهَرَ للخَلْقِ بذَلِكَ التَّكْرِمَة ليتحقّقوا كمالَ باطِنِه كما تحققوا كمالَ ظاهِرِه، لأنه لو خُلِقَ ﷺ خالياً عنها لمْ تَظْهَرْ تلك الكرامَةُ.

ويَرِدُ على هذا ولادته ﷺ من غير قَلَفَةٍ!. وأُجِيبَ بالفَرق بينهما، بأنّ القَلَفَةَ لمّا كانت تُزَالُ، ولا بُدَّ منه لِكُلّ أحَدٍ معَ مَا يلزمُ على إزالتِها من كشف العورة، كَانَ نقصُ الخِلْقَةِ الإنسانية عنها عينَ الكمَال.

وفي روايةٍ أنه ﷺ قال: «كُنْتُ مُسْتَرضَعاً فِي بَنِي سَعْدٍ، فَبَينَا أَنَا ذَاتَ يَومٍ مُنْتَبِذًا مِنْ أَهْلِي فِي بَطْنِ وَادٍ مَعَ أَتْرَابٍ لِي فِي السِّنِّ مِنَ الصِّبْيَانِ، إِذْ أَتَى ثَلاثَةٌ مَعَهُمْ طَسْتٌ مِنْ ذَهَبٍ مَلآنٌ ثَلْجاً، فَأَخَذُونِي مِنْ بَينِ أَصْحَابِي، فَخَرَجَ أَصْحَابِي هِرَاباً حَتَّى أَتوا عَلَى شَفِيرِ الوَادِي، ثُمَّ أَقْبَلُوا عَلَيهِمْ، فَقَالُوا: مَا أَرَبُكُمْ؟، أَوْ مَا حَاجَتُكُمْ إِلَى هَذَا الغُلَامِ؟، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَّا، هَذَا ابنُ سَيِّدِ قُرَيشٍ، وَهُوَ مُرْتَضَعٌ فِينَا، يَتِيمٌ لَيْسَ لَهُ أَبٌ، فَمَا يُفِيدُكُمْ قَتْلُهُ، وَمَاذَا تُصِيبُونَ مِنْ ذَلِكَ؟، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ قَاتِلُوهُ، فَاخْتَارُوا مِنَّا مَنْ شِئْتُمْ فَلْيَأْتِكُمْ مَكَانَهُ، فَاقْتُلُوهُ، وَدَعُوا هَذَا الغُلَامَ فَإِنَّهُ يَتِيمٌ، فَلَمَّا رَأَى الصِّبْيَانُ أَنَّ القَومَ لَا يُجِيبُونَ جَوَاباً، انْطَلَقُوا هِرَاباً مُسْرِعِينَ إِلَى الحَيِّ يُؤْذِنُونَهُمْ، وَيَسْتَصْرِخُونَهُمْ عَلَى القَومِ، فَعَمَدَ أَحَدُهُمْ إِلَيَّ فَأَضْجَعَنِي عَلَى الأَرْضِ إِضْجَاعاً لَطِيفاً، ثُمَّ شَقَّ بَطْنِي مَا بَينَ مِفْرَقِ صَدْرِي إِلَى مُنْتَهَى عَانَتِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيهِ، فَلَمْ أَجِدْ لِذَلِكَ مَشَقَّةً، وَاسْتَخْرَجَ أَحْشَاءَ بَطْنِي، ثُمَّ غَسَلَهَا بِذَلِكَ الثَّلْجِ، فَأَنْعَمَ غَسْلَهَا أَوْ بَالَغَ فِي غَسْلِهَا، ثُمَّ أَعَادَهَا مَكَانَهَا، ثُمَّ قَالَ الثَّانِي مِنْهُمْ لِصَاحِبِهِ: تَنَحَّ عَنْهُ، فَنَحَّاهُ عَنِّي، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَوْفِي، فَأَخْرَجَ قَلْبِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيهِ فَصَدَّعَهُ ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْهُ مُضْغَةً سَوْدَاءَ، ثُمَّ رَمَى بِهَا، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ اليُمْنَى مِنْهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئاً، وَإِذَا بِخَاتَمٍ فِي يَدِهِ مِنْ نُورٍ يَحَارُ النَّاظِرُونَ دُونَهُ، فَخَتَمَ بِهِ قَلْبِي، فَامْتَلأَ نُوراً وَذَلِكَ نُورُ النُّبُوَّةِ وَالحِكْمَةِ، فَوَجَدْتُ بَرْدَ الخَاتَمِ فِي قَلْبِي دَهْراً، فَأَنَا السَّاعَةَ أَجِدُ بَرْدَ الخَاتَمِ فِي عُرُوقِي وَمَفَاصِلِي، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثُ لِصَاحِبِهِ: تَنَحَّ عَنْهُ،

فنَحَّاهُ عَنِّي فَأَمَرَّ يَدَهُ مَا بَينَ مِفرَقِ صَدْرِي إِلَى مُنْتَهى عَانَتِي، فَالْتَأَمَ ذَلِكَ الشَّقُّ بِإِذْنِ الله تَعَالَى، وَخَتَمَ عَلَيهِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَأَنْهَضَنِي مِنْ مَكَانِي إِنْهَاضاً لَطِيفاً، ثُمَّ قَالَ الأَوَّلُ لِلَّذِي شَقَّ صَدْرِي: زِنْهُ بِعِشْرِينَ مِنْ أُمَّتِهِ فَوزَنَنِي فَرَجَحْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: زِنْهُ بِمَائَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَوزَنَنِي فَرَجَحْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: زِنْهُ بِأَلْفٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَوزَنَنِي فَرَجَحْتُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: دَعْهُ فَلَو وَزَنْتُهُ بِأُمَّتِهِ كُلِّهِم لِرَجَحَهُمْ كُلَّهُمْ، ثُمَّ ضَمُّونِي إِلَى صُدُورِهِمْ، وَقَبَّلُوا رَأْسِي وَمَا بَينَ عَينِي، ثُمَّ قَالُوا: يَا حَبِيبَ الله لَمْ تُرَعْ، إِنَّكَ لَوْ تَدْرِي مَا يُرَادُ بِكَ مِنَ الخَيرِ لَقَرَّتْ عَيناكَ».

قال رسُولُ الله ﷺ: «وَبَينَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا بِالحَيِّ قَدْ أَقْبَلُوا بِحَذَافِيرِهِمْ ـ أي بأجمعهم ـ، وَإِذَا بِمُرْضِعَتِي أَمَامَ الحَيِّ تَهْتِفُ ـ أي تصيح بأعلى صوتها ـ، وَتَقُولُ: وَاضعِيفَاه، فَأَكَبَّ عَلَيَّ المَلائِكَةُ وَضَمُّونِي إِلَى صُدُورِهِمْ وَقَبَّلُوا رَأْسِي وَمَا بَينَ عَينَيَّ، وَقَالُوا: حَبَّذَا أَنْتَ مِنْ ضَعِيفٍ. ثُمَّ قَالَتْ: يَا وَحِيْدَاهُ، فَأَكَبُّوا عَلَيَّ فَضَمُّونِي إِلَى صُدُورِهِمْ، وَقَبَّلُوا رَأْسِي وَمَا بَينَ عَينَيَّ، وَقَالُوا: حَبَّذَا أَنْتَ مِنْ وَحِيدٍ وَمَا أَنْتَ بِوَحِيدٍ، إِنَّ اللهَ مَعَكَ وَمَلائِكَتَهُ وَالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ. ثُمَّ قَالَتْ: يَا يَتِيمَاه.. اسْتُضْعِفْتَ مِنْ بَينِ أَصْحَابِكَ فَقُتِلْتَ لِضَعْفِكَ، فَأَكَبُّوا عَلَيَّ وَضَمُّونِي إِلَى صُدُورِهِمْ، وَقَبَّلُوا رَأْسِي وَمَا بَينَ عَينَيَّ وَقَالُوا: حَبَّذَا أَنْتَ مِنْ يَتِيمٍ مَا أَكْرَمَكَ عَلَى الله، لَوْ تَعْلَمُ مَا أُرِيدَ بِكَ مِنَ الخَيرِ لَقَرَّتْ عَينُكَ. فَوَصَلَ أَهْلُ الحَيِّ إِلَى شَفِيرِ الوَادِي، فَلَمَّا أَبْصَرَتْنِي أُمِّي، قَالَتْ: لَا أَرَاكَ إِلَّا حَيّاً بَعْدُ، فَجَاءَتْ حَتَّى أَكَبَّتْ عَلَيَّ، ثُمَّ ضَمَّتْنِي إِلَى صَدْرِهَا، فَوَ الذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَفِي حِجْرِهَا قَدْ ضَمَّتْنِي إِلَيهَا وَيَدِي فِي أَيدِي المَلَائِكَةِ، وَالقَومُ لَا يُبْصِرُونَهُمْ، فَأَقْبَلَ بَعْضُ القَومِ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا الغُلَامُ قَدْ أَصَابَهُ لَمَمٌ ـ أي

طَرَفٌ مِنَ الجنُونِ أو طائفٌ من الجِنّ - فَانْطَلِقُواْ بهِ إِلَى كَاهِنٍ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَيهِ وَيُدَاوِيهِ، فَقُلتُ: يَا هَذَا مَا بِي مِمَّا تَذْكُرُ، إِنَّ أَعْضَائِي سَلِيمَةٌ، وَفُؤَادِي صَحِيحٌ، لَيسَ بِي عِلَّةٌ يُقْلَبُ بهَا إِلَى مَنْ يَنْظُرُ فِيهَا، فَقَال أَبِي: أَلَا تَرَوْنَ كَلَامَهُ صَحِيحاً، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَكُونَ بِابْنِي بَأْسٌ. ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَذْهَبُوا بِي إِلَى الكَاهِنِ، فَلَمَّا انصَرَفُوا بِي إِلَيهِ وَقَصُّوا عَلَيهِ قِصَّتِي، قَالَ: اسْكُتُوا حَتَّى أَسْمَعَ مِنَ الغُلَامِ؛ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِأَمْرِهِ مِنْكُمْ، فَسَأَلَنِي فَقَصَصْتُ عَلَيهِ أَمْرِي مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، فَوَثَبَ قَائِماً إِلَيَّ، وَضَمَّنِي إِلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ نَادَى بِأَعْلَى صَوتِهِ: يَا لِلْعَرَبِ.. يَا لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ!، اُقْتُلُوا هَذَا الغُلَامَ وَاقْتُلُونِي مَعَهُ، فَوَ اللَّاتِ وَالعُزَّى لَئِنْ تَرَكْتُمُوهُ فَأَدْرَكَ مَدْرَكَ الرِّجَالِ لَيُبَدِّلَنَّ دِينَكُمْ، وَلَيُسَفِّهَنَّ عُقُولَكُمْ وَعُقُولَ آبَائِكُمْ، وَلَيُخَالِفَنَّ أَمْرَكُمْ وَلَيَأْتِيَنَّكُمْ بِدِينٍ لَمْ تَسْمَعُوا بِمِثْلِهِ. فَعَمَدَتْ مُرْضِعَتِي وَانْتَزَعَتْنِي مِنْ حِجْرِهِ، وَقَالَتْ: لَأَنْتَ أَعْتَهُ وَأَجَنُّ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا قَولَكَ مَا أَتَيتُكَ بِهِ، فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ مَنْ يَقْتُلُكَ فَإِنَّا غَيرُ قَاتِلِي هَذَا الغُلَامِ، ثُمَّ احْتَمَلُونِي إِلَى أَهْلِهِمْ، وَأَصْبَحَ أَثَرُ الشَّقِّ مَا بَينَ صَدْرِي إِلَى مُنْتَهَى عَانَتِي كَأَنَّهُ الشِّرَاكُ»[1].

وقد شُقَّ صَدْرُه ﷺ مرتين غير هذه المرّة: مرة عند مجيءِ الوَحي، ومرّة عند المعراج: وزاد بعضُهم أنه شُقَّ عند بلوغه عشر سنين، ومرة وهو ابن عشرين سنة. أما المرّة التي كان فيها ابن عشر سنين، فقال ﷺ: «جاءَنِي رَجُلَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَضْجِعْهُ، فَأَضْجَعَنِي لِلْقَفَا، ثُمَّ شَقَّا بَطْنِي فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَخْتَلِفُ بِالمَاءِ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَالآخَرُ يَغْسِلُ جَوفِي، ثُمَّ شَقَّ قَلْبِي

---

(١) ذُكِرَتْ هذا الأحاديث ونحوها في دلائل النبوة للبيهقي [١/١٣٦ - ١٣٨]، بنحو ما هو مذكور هنا.

فَقَالَ أَخْرِجِ الغِلَّ وَالحَسَدَ مِنْهُ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ العَلَقَةَ، وَأَدْخَلَ شَيئاً كَهَيئَةِ الفِضَّةِ، ثُمَّ أَخْرَجَ ذَرُوراً كَانَ مَعَهُ فذَرَّهُ عَلَيهِ، ثُمَّ نَقَرَ إِبْهَامِي، ثُمَّ قَالَ: أُغْدُ وَاسْلَمْ». وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: يا رسولَ الله، ما أوّلُ ما رأيتَ من أمرِ النبوة؟، فاستوى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالساً وقال: «لَقَدْ سَأَلْتَ يَا أَبَا هُرَيرَةَ، إِنِّي لَفِي صَحْرَاءَ ابنُ عِشْرِينَ سَنَةٍ وَأَشْهُرٍ، إِذَا بِكَلَامٍ فوقَ رَأْسِي، وَإِذَا بِرَجُلٍ يَقُولُ لِرَجُلٍ: أَهُوَ هُوَ، فَاسْتَقْبَلَانِي بُوجُوهٍ لَمْ أَرَهَا لِخَلْقٍ قطُّ، وَثِيَابٍ لَمْ أَرَهَا عَلَى أَحَدٍ قطُّ، فَأَقْبَلَا إِلَيَّ يَمْشِيَانِ حَتَّى أَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِعَضُدِي، لَا أَجِدُ لِأَخْذِهِمَا مَسّاً، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: أَضْجِعْهُ، فَأَضْجَعَانِي بِلَا قَصْرٍ وَلَا هَصْرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: افْلِقْ صَدرَهُ، فَفَلَقَهُ فِيمَا أَرَى بِلَا دَمٍ وَلَا وَجَعٍ، فَقَالَ لَهُ: أَخْرِجِ الغِلَّ وَالحَسَدَ، فَأَخْرَجَ شَيئاً كَهَيئَةِ العَلَقَةِ ثُمَّ نَبَذَهَا فَطَرَحَهَا، فَقَالَ لَهُ: أَدْخِلِ الرَّأْفَةَ وَالرَّحْمَةَ، فَإِذَا مِثْلُ الذِي أَخْرَجَ شِبْهَ الفِضَّةِ، ثُمَّ نَقَرَ إِبْهَامَ رِجْلِي اليُمْنَى وَقَالَ: أُغْدُ وَاسْلَمْ. فَرَجَعْتُ أَغْدُو بِهَا، رَأْفَةً عَلَى الصَّغِيرِ، وَرَحْمَةً عَلَى الكَبِيرِ»[١].

وقال صلى الله عليه وسلم - في المرَّةِ التي هي عند ابتداء الوحي -: «جَاءَنِي جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، فَأَخَذَنِي جِبْرِيلُ وَأَلْقَانِي لِحَلَاوَةِ القَفَا، ثُمَّ شَقَّ عَنْ قَلْبِي فَاسْتَخْرَجَهُ، ثُمَّ اسْتَخْرَجَ مِنْهُ مَا شَاءَ الله أَنْ يَسْتَخْرِجَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ أَعَادَهُ مَكَانَهُ، ثُمَّ لَأَمَهُ بِإِمْرَارِ يَدِهِ، ثُمَّ أَكْفَأَنِي كَمَا يُكْفَأُ الإِنَاءُ، ثُمَّ خَتَمَ فِي ظَهْرِي»[٢].

وشقُّ الصَّدر والبطن غير شَقّ القلب، وشقُّ القلب وإخراج العلقة السّوداء

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده [٣٥/١٨٠]، حديث رقم: (٢١٢٦١).

(٢) رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مسنده [١/٤١٢].

التي هي حَظُّ الشيطان، ومحلّ مَغْمَزِه مما اختص به رسولُ الله ﷺ عن سَائِرِ الأنبياء صلواتُ الله تعالى وسَلامُه عليهم أجمعين.

وعن حليمة رضي الله عنها: أنّها كانت بعد رجوعها به ﷺ من مكة لا تدعه يذهب مكاناً بعيدا عنهَا، فغفلت عنه ﷺ يوماً، فخرجت تطلبه فوجدته مع أخته من الرضاعة وهيَ الشَّيْمَاء، وكانت تحضُنُه مع أمِّها، وكانت تُرَقِّصُهُ بقَولها:

هَـذَا أَخٌ لِـي لـمْ تَـلِـدْهُ أُمِّـي وَلَيْسَ مِنْ نَسْـــلِ أَبِي وَعَمِّي

فَـأَنْـمِـهِ الـلَّـهُـمَّ فِـيـمَـا تُـنْـمِـي

فَقَالَتْ لها: أَفِي هَذَا الحرِّ؟! ـ أيْ لا ينبغي أن يكون مَعَكِ في هذا الحرّ، وكان ذلك في وقتِ الظّهيرة ـ، فَقَالَتْ لها أختُه: يَا أمّه ما وجَدَ أخِي حَرّاً، رأيتُ غمامَةً تُظِلُّ عَليه، إذا وَقَفَ وقفتْ، وإذا سَارَ سَارَتْ، حتى انتهَى إلى هذا الموضِع، فجَعَلتْ تقولُ: أحَقّاً يا بُنَيَّةِ؟، قالت: إيْ وَالله، فَجَعلت حَلِيمَةُ تقول: أَعُوذُ بالله منْ شَرِّ مَا يُحْذَرُ على ابنِي.

وقَدْ وَفَدَتْ حَلِيمَةُ عليه ﷺ بعدَ تَزَوّجِهِ بخَدِيجةَ تَشْكُو إِليهِ ضِيقَ العَيْشِ، فكَلَّمَ لها خَدِيجَةَ، فأعطتها عشرينَ رأساً من غنمٍ وبكَرَات، وفي رِوَايةٍ: أربعينَ شاةً وبعيراً. وَوَفَدتْ عليه يومَ حُنَيْنٍ فبسطَ لها رِدَاءُه فجَلست عَليه.

وعن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقسِّمُ لحْماً، بالجِعِرَّانَةِ بعد رجوعهِ من حنينٍ والطّائف، وأنا غلامٌ شَابٌّ، فأقبلت امرأةٌ، فلمّا رَآها رَسُولُ الله ﷺ بسَطَ لها رِدَاءَه، فقيلَ: مَنْ هَذِه؟، قِيْلَ: أمُّهُ التي أرضعته ﷺ. وفي رِوَايةٍ: استأذنتْ امرأةٌ على النَّبِيِّ ﷺ قدْ كانَتْ

تُرْضِعُه، فلما دَخَلتْ عليه قال: «أُمِّي أُمِّي».. ، وعَمَدَ إلى رِدَائِه فبَسَطهُ لها، فقعدت عليه[١].

ومن سَعَادَةِ حَلِيمةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها توفيقُها للإسلام، هيَ وزوجُها وبنُوهَا. ومن الناس من ينكر ذَلِكَ، ولَيْسَ بشيءٍ، وقد رَدَّهُ بعضُهم فقال: إسْلامُ حَليمةَ لا شكَّ فيه عِندَ جمَاهِير العلماء، ولا يُعَوَّلُ على قولِ بعضِ المتأخِّرِينَ: إنّه لم يَثْبُت. فقد رَوَى ابنُ حبّان حديثاً صَحِيحاً يَدلُّ على إسلامِها. قال الحافظ ابن حجر ـ بعد أنْ أوردَ عِدَّةَ آثارٍ في مجيءِ أمِّه منَ الرّضَاعةِ إليه ﷺ في حُنَين ـ: (وفي تَعَدُّدِ هَذِه الطُّرُقِ ما يقتضي أنَّ لها أصْلاً أصِيْلاً، وفي اتفاق الطرق على أنها أمّه رَدٌّ عَلى من زَعمَ أنَّ التي قدمت عليه أختُه). اهـ.

وكلام المواهب يقتضي أنهما قضيتان: واحدة كانت فيها أخته، والأخرى كانت فيها أمه من الرضاعة، حيث قال: وقد روي أنّ خَيلاً له ﷺ أغارَتْ على هَوَازِن، فأخذوها ـ يعني أخته من الرّضاعة التي هي الشيماء ـ، فَقَالَتْ: أنا أختُ صَاحِبكم.. ، إلى أن قال: فبسط لها رداءه وأجلسها عليه، فأسلمَت. ثم قال: وجاءته ـ يعني أمه من الرضاعة التي هي حليمة ـ يوم حُنَين، فقام إليها وبسط رداءه لها، وجلست عليه.

وهذا يُوهِمُ أنّ الخيلَ التي أغارت على هَوَازِنَ التي كانت فيها أخته لم تكن في حنين، وأنّ أُمَّه لم تكن يوم حنين في سبي هَوَازِن مع أن القصَّةَ واحِدَة، وسَبْيُ هَوَازِن كان يوم حنين. فيلزم أن يكون جاء إليه يوم حنين كلّ من أمه وأخته من الرّضَاعة، الأولى في غير السّبي، والثانية في السّبي. وأنه فرش لكلٍّ رداءَه.

---

(١) أخرجه بنحوه الإمام ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/١١٤].

وهذا الجَمعُ تَبَعٌ لابنِ عبد البر حيثُ قال في الاستيعاب: حَلِيمةُ السَّعْدِية أمّ النَّبِيّ ﷺ من الرّضَاعة جاءَت إليه يومَ حنين، فقام لها وبسط لها رداءه فجلست عليه وروت عنه. ثم قال: وحُذَافَةُ أخْتُ النَّبِيّ ﷺ من الرّضَاعة يقال لها: الشَّيْماء، أغارتْ خَيْلُ رسُولِ الله ﷺ على هَوَازِن، فأخذُوها فيما أخذواْ من السَّبْي.. الحَدِيْث.

والذي يَتّجِهُ هو أنّ الوَافِدَةَ عليه في حُنين أختُه لا أمُّه كما يقوله الحافظ الدّمْيَاطي. وقد قال أبو الفرج بن الجوزي: (قَدِمَتْ حليمةُ عليه ﷺ بعد النبوة، فأسلمت وبايعت). وللحافظ مُغْلَطَايْ مُؤَلّفٌ في إسلام حليمة، سمّاه: "التحفة الجسيمة في إسلام حليمة". وذكر بعضهم: أنه ﷺ لم تُرْضِعْهُ مُرْضِعَةٌ إلا وَأسْلَمَتْ.




بَابُ
وَفَاةِ أُمِّهِ وكفَالَةِ جَدِّهِ لَهُ ﷺ

ذكر ابنُ إسحاق أنّ أمَّ رسولِ الله ﷺ ماتت لما بلغ ست سنين. ووفاتها كانت بـ(الأَبْوَاءِ)، وهو محلٌّ بين مكّةَ والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب، وسُمّي بذَلِكَ لأن السُّيُول تَتَبَوَّأهُ ـ أي تحلّ فيه ـ، ودُفِنَت به. وقَد جَاء أنه ﷺ لما مرَّ بالأَبْوَاءِ في عُمْرَةِ الحُدَيْبِيَّةِ قال: «إِنَّ اللهَ أَذِنَ لمُحَمَّدٍ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ»، فأتاهُ وأصلحه وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه ﷺ وقيل له في ذَلِكَ، فقال: «أَدْرَكَتْنِي رَحْمَتُهَا فَبَكَيتُ»[1].

وكانَ موتُها وهيَ راجِعَةٌ به ﷺ من المدينة، بعدَ زِيَارَةِ قبر أبيه، وأخوال جدّه عبد المطّلب، بعد أن مكثت عندهم شَهْراً، ومرِضَتْ في الطريق، ومَعها أمُّ أيمن بَرَكة الحبشية التي ورثها ﷺ من أبيه، فحَضَنَتْهُ، وجاءَت به إلى جدِّه عبدِ المطّلب بعد خمسة أيام من موتِ أمّه، فضَمَّهُ إليهِ، ورَقَّ عليه رِقّةً لم يَرِقَّهَا على وَلَدِه. وفي كلام بعضهم: أنّ النَّبيَّ ﷺ بقيَ بعد موتِ أمّه بالأَبْوَاءِ حتى جَاءَ الخبر إلى مكّة، فجاءت أمُّ أيمنَ مولاة أبيه عبد الله فَاحْتَمَلتْهُ، وذَلِكَ لخامِسَةٍ من مَوتِ أمِّه. وكوْنُ مَوتِ أمّه ﷺ كانَ في حيَاة عبدِ المطلب هو المشهور الذي لا يكادُ يعرَفُ غيرُه، وكان ﷺ يقول لأمِّ

(١) ذكره الإمام ابن سعد في الطبقات الكبرى [١/١١٧].




أيمَنَ: «أَنْتِ أُمِّي بَعْدَ أُمِّي»[1].

والذي عليه أهلُ السُّنةِ والجماعة أنَّ أهلَ الفترةِ ناجُون لأنه لا يُعَذَّبُ أَحَدٌ إلّا بعد إرسَالِ الرُّسل، ومن المقرَّر أنّ العربَ لم يُرسَل إليهم رسولٌ بعد إسْمَاعِيْل، وأنّ إسْمَاعِيْل انتهت رسالتُه بموتِه كبقيّة الرّسُل، لأنّ ثبوت الرسالة بعد الموْتِ من خصَائص نبيّنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وعَلَيهِ فأهلُ الفَتْرَةِ من العربِ لا تعذيبَ عليم، وإنْ غيّروا أو بدّلوا أو عبدوا الأصنامَ، والأحاديثُ الوارِدَةُ بتعذيبِ مَنْ غَيَّرَ أو بَدَّلَ أو عبد الأصنام مُؤَوَّلَةٌ، أو خَرَجَتْ مخْرَجَ الزَّجْرِ للحَمْل على الإِسْلَام. وبه يُعْلَمُ مَا في كلام العَلّامة ابن حجر الهيتمي: "أنّ الحقَّ الواضِحَ الذِي لا غُبار عليه أنّ أهلَ الفترة جميعهم ناجون، وهُمْ مَن لم يُرْسَلْ لهُمْ رَسُولٌ يُكَلِّفُهم بالإيمان بالله ﷻ، فالعربُ حتّى في زَمَنِ أنبياءِ بني إسرائيلَ أهلُ فَتْرَةٍ لأنّ تلك الرّسُل لم يؤمروا بدعايتهم إلى الله تَعَالَى وتعليمهم الإيمان، أما من ورد فيه حديث صحيح من أهل الفترة بأنه من أهل النار، فإن أمْكَنَ تأويلُه فذَاك..؛ لأنها أخبارُ آحَاد، فلا تُعَارِضُ القَطْعَ، أو يُقْصَرُ التّعذيبُ على ذَلِكَ الفَرْدِ بخصُوصِه حيث لا يَقْبَلُ التّأويلَ." اهـ.

وكان يوضع لعبد المطلب فِرَاشٌ في ظلّ الكعبة، لا يجلس عليه أحد من أهل بيته، ولا أحد من أشراف قريش إجلالاً له، فكان بنُوه وساداتُ قريشٍ يُحْدِقُونَ به، فكان رسولُ الله ﷺ يأتي وهو غُلامٌ حتى يجلسَ عليه، فيأخذه أعمامُه ليُؤَخِّرُوهُ عنه، فيقول عبدُ المطلب: دَعُوا ابني، فوَ الله إنَّ له لشَأناً، ثم يُجْلِسُه عليه مَعَهُ، ويمسَحُ ظهْرَه، ويَسُرُّه مَا يَرَاهُ يَصْنَعُ. وعن ابن عباس

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال [١٢/٢٢٩]، برقم: (٣٤٤١٧)، وعزاه لابن عساكر.



رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما قال: سمعت أبي يقول: كان لعبدِ المطلب مَفْرَشٌ في الحِجْرِ لا يجلس عليه غيرُه، وكان حَرْبُ بن أميّة فمَن دونه من عُظَماءِ قريش يجلسُون حوله دُونَ المفْرَش، فجاءَ رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً وهو غُلامٌ لم يبلغِ الحلمَ، فجلسَ عليه، فجَذَبَهُ رَجُلٌ فبَكَى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال عبدُ المطلب ـ وذَلِكَ بعد ما كفَّ بصرُه ـ: ما لابنِي يَبكي؟ فقَالوا له: أرادَ أنْ يجلسَ على المفْرَشِ فمَنَعُوه، فقال عبدُ المطلب: دعوا ابني يجلسُ عليه، فإنه يُحِسُّ مِنْ نفسِه بِشَرفٍ، وإنّي أرْجُو أنْ يَبلُغَ منَ الشَّرفِ ما لم يَبْلُغْه عربيٌّ قبله ولَا بعْدَه، فكَانوا بعد ذَلِكَ لا يَرُدُّونَه عنه.

وقال لعَبدِ المطلب قَومٌ من بني مُدْلج، وهم قَافةٌ عارفونَ بالآثار والعَلامات: احتفظ به، فإنا لم نرَ قَطُّ أشْبَهَ بالقَدَم التي في المقَامِ منه. وتلك القدَمُ هِيَ قدم إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أثرت قدماه في الحَجَر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت الحرام، وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه قال: (رَأيتُ في المقام أثرَ أصابع إبرَاهيم وعقبيه وأخمص قدميه، غيرَ أنَّ مسحَ الناسِ بأيديهم أذهب ذَلِكَ).

ومشابهةُ قَدَمِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقدَمِ سيّدنا إبراهيمَ تَدلّ على أن تلك الأقدام بعضُها من بعضٍ، كما في قَولِ مُجَزِّزٍ المُدْلِجيّ ـ في أسامَة وأبيه زيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وقد نامَا وغَطّيَا رؤُوسَهما وبدَت أقدامهما ـ: أَشْهَدُ أنَّ هَذِه الأقدَام بعضها من بعض، فَسُرَّ بذَلِكَ رسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن في ذَلِكَ ردا عَلى مَنْ كانَ يَطْعنُ في نسَب أسَامة بن زيد.

وذكرَ بعضُهم: أنَّ نبيّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثّرَ قدمُه في الحجر أيضاً، فقد أثّرَ في

صَخرَةِ بيتِ المقْدَسِ ليلةَ الإسْراءِ، وأن ذَلِكَ الأثر موجود إلى الآن. وذكر الجلال السّيوطي أنه لم يقفْ لتَأثيرِ قدَمِه ﷺ في الحجَر على أصْلٍ ولا سَنَد. قال: ولا رَأيتُ مَن خرَّجَه في شيءٍ من كُتُبِ الحَدِيْث. وقال مثل ذَلِكَ فيما اشتهر على الأَلسِنة مِنْ أَنّ مِرْفَقَهُ الشّريفَ ﷺ لما ألصَقَه بالحائطِ غاصَ في الحَجَرِ وأثّرَ فيه، وبه يُسَمّى ذَلِكَ المحل بمكّةَ بزُقَاقِ المرْفَق. والعَجب أنَّ الجَلال السُّيُوطي مع قولِه المذكور قال في الخَصَائِص الصُّغْرَى: (ولا وطئَ عَلى صَخْرٍ إلا وأثرَ فيه)! ؛ ولعَله ظهَرَ لهُ صِحّة ذَلِكَ بعد إنكاره.

وبينما عبدُ المطلب يوماً في الحِجْر وعنده أُسْقُفُ[1] نَجْرَان يحادثه ويقول: إنا نجد صفة نبي بقيَ من وَلدِ إسْمَاعِيْل وهَذا البلدُ مولِدُه، ومِن صِفَته كَذا وكَذا، فَأُتِيَ بِرسُولِ الله ﷺ، فنَظرَ الأسقُفُ إليه وإلى عينيه وإلى ظهْرِه وإلى قَدَمِه، وقال: هُوَ هذا ما هذا منك؟ فقال: عبد المطلب هذا ابني، قال: ما نَجِدُ أَباهُ حَيّا، قال: هو ابنُ ابني، وقد مَات أبُوه وأمُّه حُبْلَى به. قال: صَدقتَ. فقَال عبدُ المطلب لبَنيه تَحفَّظُواْ بِابن أَخِيكم، ألا تَسْمَعونَ ما يُقَالُ فيه؟!. وعَن أمّ أيمن قالت: كنتُ أحْضُنُ النَّبِيّ ﷺ، وأقوم بتربيته، فغفلت عنه يوماً، فلم أدرِ إلّا بعبدِ المطّلب قائماً على رَأسي يقول: يا بركة. قلت: لَبَّيكَ، قَال: أتدرينَ أينَ وجدتُ ابني؟ قلت: لا أدْرِي، قال: وجدتّه معَ الغِلْمان قَريباً منَ السِّدْرَة، لا تَغْفلي عن ابني؛ فإن أهلَ الكِتَابِ يَزْعُمُونَ أنهُ نبيُّ هَذهِ الأُمَّة، وأنا لَا آمَنُ عليهِ. وكان عَبدُ المطّلب لا يأكلُ طَعَاماً إلا يقول: عَليَّ بِابني أَحْضِرُوهُ، فإذَا أُتِيَ بِطَعامٍ أجْلَسَ رسولَ الله ﷺ إلى جَنْبِه، وربّما أقعدَه على فخْذِه، وَيُؤْثِرُه

(١) الأُسْقُفُ: رئيسُ النصَارى في دينهم. اشْتُقَّ مِنَ السَّقَف، وهو طولُ الانحناء؛ لأنه يُظهِرُ الخشُوع.

بأطْيَبِ طَعَامِه. وعن حَيْدَةَ بنِ مُعَاوِيَةَ العَامري وكَان منَ المعمرين، وممّن وفَدَ عَلى رسُولِ الله ﷺ وأسْلَمَ، قال: حَجَجْتُ في الجاهلية، فبينا أنا أطوفُ بالبيت، وإذا شَيخٌ يطوفُ بالبيتِ، وهو يقول:

يَـا رَبِّ رُدَّ وَلَـدِيْ مُـحَـمَّـدا ... أُرْدُدْهُ رَبِّي وَاصْـطَنِعْ عِنْدِي يَدَا

فقلتُ: من هذا؟، قالوا: هذا عبدُ المطّلب بن هاشم سَيّد قريش، لَه إبلٌ كثيرة، فإذا ضَلّ منها شيءٌ بعثَ فيها بَنيهِ يَطلبُونها، فإذا غَابواْ أو عَجَزُواْ بعثَ ابنَ ابنِهِ، وما بَعَثَه في شَيءٍ إلّا جَاءَ به، ولا حاجةٍ إلا أنْجَحَ فيها، وقد بعثَه في حاجَةٍ أعيَا عنَها بنوه، فأبْطأَ عَليه. فما بَرِحْتُ عَن مَكاني حتى جَاءَ بالإبل معَه، فقال له: يا بُنيّ حَزِنْتُ عَليك حُزْناً شَدِيداً، وجَزِعْتُ عَليكَ جَزَعاً لم أجزَعْهُ عَلى شَيءٍ قط، والله لا أَبْعَثُكَ في حَاجةٍ، ولا تفارقني بعَدَ هذا أبداً.

وعَن رَقِيْقَة بنتِ أبي صَيْفِيّ[1] قالت: تتابعت على قريش سِنُونُ قَحْطٍ وجَدْبٍ ذَهَبَتْ بالأموَال، فَسَمِعْتُ في المنَام قائلاً يقُولُ: يا معشرَ قريش إنَّ هَذا النَّبِيَّ المبعوث منكم، هَذا إبّانُ وقتِ خرُوجِه، وبه يأتيكم الحيَا والخِصْب، فانظروا رجلاً من أشْرَافِكُم نسَباً، طويلاً عظيماً أبيضَ، مقْرُونَ الحاجبين، أَهْدَبَ الأَشْفَار ـ طويلَ شعرِ الأجْفَان ـ، أَسِيلَ الخدّين، رقيقَ الأَنْفِ، فليخرجْ هوَ وجميعُ ولدِه، وليَخْرُجْ مِن كلّ بَطْنٍ رَجُلٌ، فيتطهّروا ويتطيّبوا، ثمّ استلمُوا

(١) هي: رَقِيْقَة بنتِ أبي صَيْفِيّ بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القُرَشِيّة. عدَّهَا ابنُ سعد [في الطبقات الكبرى ـ (١٤٦/٧)] في النساء المسلمات المبايعات من قريش، وقال أبو نعيم الأصبهاني [في معرفة الصحابة ـ (١٣٧/٢٣)]: رقية بنت أبي صيفي بن هاشم بن عبد مناف أم مخرمة، وكانت لِدَةَ عبدِ المطلب، ذكرها سليمان بن أحمد فيمن لها صحبة، وما أراها بقيت إلى البعثة والدعوة.

الرُّكنَ، ثمّ ارقُوا إلى رَأسِ جَبَلِ أبي قُبيس، يتقدم هذا الرّجل فيَسْتَسْقِي وتُؤمِّنُون، فإنكم تُسْقَون. فأصبَحَتْ وقصَّتْ رُؤْياها عليهم، فنَظرُوا فوجَدُوا هذه الصِّفَةَ في عبدِ المطلب فاجتمعوا عليه، وأخرَجوا من كلّ بطْنٍ رجلاً، وفعَلوا ما أمرتهم به، ثم علوا جَبَلَ أبي قُبَيس ومعهم النَّبِيّ ﷺ وهو غُلَام، فتقدّم عبدُ المطلب فقال: اللَّهُمَّ هَؤُلاء عبيدُك وبنُو عبيدك وإماؤُك وبنُو إمَائك، وقد نَزل بنا ما ترى، وتتابعت علينا هذه السِّنُون، فذهبت بالظِّلفِ والخفِّ والحافر ـ أي الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ـ، وأشرفت على الأنفس، فأَذْهِبْ عنَّا الجَدْبَ، وائتنا بالحَيَا والخِصْب، اللَّهُمَّ سَادَّ الخُلَّة، وكَاشِفَ الكُرْبَة، أنتَ عَالمٌ غيرُ مَعَلَّم، مَسْؤُولٌ غيرُ مُبَخَّلْ، وهؤُلَاءِ عبيدُك وإماؤك بفِناءِ حرَمِك، يشكونَ إليك سَنَتَهُم التي أقْحَلَتْ فأمْطِرنا اللَّهُمَّ غيثاً سَريعاً مُغْدِقاً. فما بَرحُوا حتى انفجَرَتِ السّماءُ بمائها وكَظَّ الوَادي بسَيلِه، فسمعتُ شيُوخَ قريشٍ يقولون لعبد المطلب: هنيئاً لك يا أبا البطحاء، بكَ عاش أهل البطحاء. وفي سُقْيَا النّاس بعبدِ المطلب، وأَنَّ ذَلِكَ ببركته ﷺ تقولُ رَقِيقَة:

بشَيبَةِ الحَمْدِ أَسْقَى الله بَلْدَتَنا ... وَقَدْ فَقَدْنَا الحيَا وَاجْلَوَّذَ المطَرُ[1]

فجَادَ بالماءِ جَوْنيٌّ لَهُ سَبَلٌ ... سَحّاً فَعَاشَتْ بِهِ الأَنعَامُ والشَّجَرُ

مَنّاً مِنَ الله بِالمَيْمُونِ طَائِرُهُ ... وخَيرِ مَن بُشِّرتْ يوماً بِهِ مُضَرُ

مُبارَكُ الأَمْرِ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِهِ ... مَا في الأَنَام لَهُ عِدْلٌ وَلَا خَطَرُ

ولما سُقُوا لَمْ يَصِلِ المَطَرُ إلى بلادِ قَيسٍ ومُضَرَ، فاجتمعَ عظماؤُهم،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٥٧/١٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣٩١/١)، بإسناد حسن.

وقالوا: قد أصبحنا في جَهْدٍ وجَدْبٍ وقد سَقى الله الناسَ بعبدِ المطلب، فاقصدوه لعَلّه يسألُ الله تَعَالَى فيكم فقدموا مكة، ودخلوا على عبد المطلب فحيوه، فقال لهم: أفلَحَت الوُجوه. فقَام خطيبهم، فقال: قد أصابتنا سِنُون مُجْدِبَات، وقد بَانَ لنَا أثرُك، وصَحَّ عندنا خَبرُك، فاشفعْ لنا عندَ مَنْ شَفَّعَك، وأجْرَى الغمَام لك، فقال عبدُ المطلب: سَمْعاً وطَاعةً، مَوعِدُكم غَداً عَرفَات، ثم أصْبَحَ غادِياً إليها، وَخرجَ معَه الناسُ وَوَلدُه ومعهُ رسولُ الله ﷺ، فنُصِبَ لعبدِ المطلب كرسيٌّ جَلَسَ عليه وأخذَ رسولَ الله ﷺ فوضَعَهُ في حِجْرِه وقامَ عبدُ المطّلب ورَفع يديه، ثم قَال: اللَّهُمَّ ربَّ البَرقِ الخَاطِف، والرَّعدِ القَاصِف، رَبَّ الأَربَابِ، ومُلينَ الصِّعَاب، هذِه قيسٌ ومُضَر، مِنْ خَيرِ البَشَر، قد شَعِثَتْ رُؤوسُها، وحَدِبَت ظهُورُها، تشْكُو إليكَ شِدَّةَ الهُزَال، وذَهَابَ النفُوس والأموَال، اللَّهُمَّ فأَتِحْ لهم سَحَاباً خَوَّارَة، وسماءً خَرَّارَة؛ لِتَضحَكَ أرْضُهُم ويزُولَ ضُرُّهُم. فما استتمَّ كلَامَه حتّى نشأت سَحَابةٌ، ثمَّ قصَدَت نحوَ بلادِهم، فقال عبدُ المطلب: يا معشرَ قَيسٍ ومُضَر، انصرفواْ فقد سُقِيتُم.

وفي سنةِ سَبعٍ منْ مَولده ﷺ أصَابه رَمَدٌ شديدٌ، فعُولِجَ بمكّةَ فلم يُغْنِ، فقيل لعبدِ المطلب: إنَّ في نَاحِيَةِ عُكَاظ رَاهِباً يُعالج الأعين، فركبَ إليه ومعه رسولُ الله ﷺ، فنَادَاه ودِيرُه مُغْلَقٌ فلم يُجبْهُ، فتَزَلزَل دِيرُه حتّى خَافَ أنْ يَسْقُطَ عليه، فخرج مُبادِراً، فقال: يا عبدَ المطلب إنَّ هَذا الغُلامَ نبيُّ هَذِهِ الأُمَّة ولو لم أَخْرُجْ إليك لَخرَّ عَليَّ دِيري، فَارْجعْ به، وَاحْفَظْهُ لا يقتله بعضُ أهل الكتاب. وقيل: مَكثَ أياماً يشْكُو، فقالَ قائلٌ لجدِّه عبدالمطلب: إن بينَ مكّةَ والمدينة رَاهباً يَرقِي منَ الرَّمَد، وقد شُفِيَ على يَديهِ خلقٌ كثير، فأخذه جدُّه وذهبَ به إلى ذَلِكَ الرَّاهب، فلما رآه الرّاهب دخلَ إلى صومعَتَه، فَاغْتَسَل ولَبِسَ

ثيابَه، ثمّ أخرَجَ صَحِيفَةً فجعلَ يَنظرُ إلى الصَّحِيفَةِ وإليهِ ﷺ، ثم قالَ: هو واللهِ خَاتمُ النَّبِيّين، ثم قال: يا عبدَ المطلب أَهوَ أرْمَد؟، قال: نعم، فقال له: إنَّ دَوَاءَه معه، يَا عبدَ المطلب خُذ مِن ريقِه وضَعهُ على عَيْنَيهِ، ففعل عبدُ المطلب ذلك، فبرئَ لوقْتِه، فقال الرّاهِبُ: يا عبدَ المطلب، وتاللهِ هَذا هو الذي أُقْسِمُ عَلى اللهِ بِهِ فأَبْرِأُ المرْضَى، وأشْفِي الأَعْيُن مِنَ الرَّمَد.

بَابُ
وَفَاةِ جَدِّهِ وكفَالَةِ عَمِّهِ أبي طَالِب لَهُ ﷺ

لما كان سِنُّهُ ﷺ ثمان سنين توفيَ جَدُّه عبدُ المطلب، وله من العمرِ خمسٌ وتسعونَ سنةً، وقيل: مائةٌ وعشرون. وقد قيل له ﷺ: يَا رسُول الله أتذكرُ موتَ عبدِالمطلب؟. فقال: «نَعَمْ وَأَنا يَوْمَئِذٍ ابنُ ثَمَانِ سِنِيْنَ». وعن أم أيمن أنّ رسول الله ﷺ كان يبكي خلف سَرِيْر عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين، ودُفِنَ بالحجُون عند جَدِّه قُصَي[1]. ولمْ يُبْكَ أحَدٌ بعدَ مَوتِهِ مثلما بُكِيَ عبدُ المطّلب بعدَ مَوتهِ، ولم يَقُمْ لموتهِ بمكةَ سوقٌ أيامًا كَثِيرة، ولما حَضَرتْهُ الوَفَاةُ أوْصَى بالنبيِّ ﷺ إلى عَمِّه وشَقِيق أبيهِ أبي طالب واسمُه عبد مناف، وكان ممّن حرَّم الخمرَ على نفسه في الجاهلية كأبيه عبد المطلب، وحين أوْصَى به جَدُّه لأبي طَالب أحبّه حبّاً شديداً لا يحبّه لأحدٍ من وَلدِه، فكان لا ينامُ إلّا إلى جَنبِه، وكانَ يخصُّه بأحسَنِ الطَّعام. وكفَالة جَدِّه وعمّه له ﷺ بعد موت أبيه وأمه مذكورة في الكُتُب القديمة على أنها من علامات نبوّته ﷺ.

ورُوِيَ أنَّ سَيفَ بنَ ذِي يَزَن الحِمْيَرِيّ[2] لما وُلِّيَ عَلَى الحَبَشةِ، أتاهُ وفُودُ

---

(١) الوفا بتعريف فضائل المصطفى ص: (٩١) لابن الجوزي. والطبقات الكبرى لابن سعد [١١٩/١].

(٢) سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري، من ملوك العرب اليمانيين ودهاتهم، ولد بصنعاء سنة (٥١٦) م ونشأ بها، وكان الأحباش قد ملكوا اليمن وقتلوا أكثر ملوكها من آل حمير، فنهضَ سيف وقصد ملك الروم، فشكا إليه ما أصاب اليمن،=

العَرَبِ وأشرَافُها وشُعراؤُها لِتُهَنِّئهُ بهلاكِ ملوك الحبَشَة وبولايته عَليهم؛ لأنَّ مُلْكَ اليَمن كانَ لحِمْيَر، فانتزعتْهُ الحبَشَةُ منهم وكان في يَدِ الحبَشَةِ سَبْعِين سنة، ثم إنَّ سَيفَ بن ذِي يَزَن الحِمْيَرِيّ استنقذ مُلْكَ اليَمَن منهم، واستقر فيه على عَادَةِ آبائه، وجَاءَت إليه العربُ تُهَنِّئهُ من كلِّ جَانب، وكان من جملتهم وفدُ قريش، وفيهم عبدُ المطّلب وأُمَيّة بن عبد شمس وغَالب وُجَهائِهم، وكان سَيفُ بن ذِي يَزَن في قَصْرِه بصَنعاء، فَأَذِنَ لهم فدخلوا عليه، فَوجدُوه جالساً على سَريرٍ من الذّهب، والتاج على رأسِه وسيفُه بين يديه، وملوكُ حِمْيَر عن يمينه وشماله.

فَلما استقر بهم المجلس قَام عبدُ المطلب واستأذنَ الملكَ في الكلام، فقال له: إنْ كُنْتَ ممّن يتكلمُ بين يدي الملوك فقد أذِنّا لكَ. فقال عبدُ المطلب: أيُّها الملك، إنَّ الله ﷻ أَحَلّكَ محلاً رَفيعاً شَامخاً، بَاذِخاً مَنيعاً، وأنبتك نباتاً طالت أرُومَتُه، وعَظُمَت جرْثُومَتُه، وثبَتَ أَصْلُه وبَسَقَ فرْعُه، في أطيبِ موضع وأكرَم مَعْدِن، وأنت أبَيْتَ اللّعْنَ[1]، مَلِكُ العَرَب الذِي لَه تَنْقَاد، وعمُودُها الذِي عَليه العِمَاد، وكهْفُهَا الذِي تَلْجَأ إليه العِبَاد، سَلَفُكَ خَيرُ سَلف، وأنتَ لنا فيهم خيرُ خَلَف، فلن يهلكَ ذِكرُ من أنتَ خَلَفُه، ولنْ يخملَ ذكرُ من أنتَ سَلَفُه،

= فلم يلتفت إليه، فقصد كسرى أنو شروان ملك الفرس فحدثه بأمره، فبعث معه ثمانمائة رجل ممن كانوا في سجونه، فقتلوا ملك الحبشة، ودخل الملك سيف صنعاء واتخذ "غمْدَان" قصرًا له، ووفدت عليه أمراء العرب تهنئه، فمكث في الملك نحو خمس وعشرين سنة، ثم ائتمر به بقايا الأحبَاش فقتلوه سنة (٥٧٤) م، وهو آخر من ملك اليمن من قحطان، وسيرته شهيرة، وهي في كتاب: "الملك سيف" لعلي ناصر الدين. [الأعلام للزركلي (٣ /١٤٩)].

(١) **أَبَيْتَ اللَّعْنَ**: هذا اللفظ من تَحَايَا المُلوك والدعاء لهم في الجاهلية، كان العرب إذا أراد أَحَدُهم أن يُحَيِّي المَلِك أو صاحب السيادة في قومه يقول له: (أَبَيْتَ اللَّعْنَ). ومعناه: أَبَيْتَ أَن تأْتي من الأُمور ما تُلْعَنُ عليه أو تُذَمُّ بسببه، فكأنها تحية وثناء في نفس الوقت.

ونحنُ أهل حَرَم الله وسَدَنةُ بيتِه، أشْخَصَنَا إليك الذي أبْهَجَنَا من كشْفِ الكَرْبِ الذِي فدَحَنا، فنحنُ وفدُ التَّهْنِئَةِ لَا وفدُ التّرْزِئَة.

فقال لهُ الملكُ: مَنْ أنتَ أيّهَا المتكَلّم؟، قال: عبدُ المطلب بنُ هاشم، فقال: ابن أختنا؟ ـ لأنّ أمَّ عبدالمطلب من الخزْرج وهُمْ من اليمن ـ، قال: نعم، فقال: ادْنُ، ثمَّ أقبلَ عَليه وعَلى القوم، فقال: مرحباً وأَهْلاً، ونَاقةً ورَحْلَا، ومُسْتَنَاخاً سَهْلَا، ومَلِكاً رِبْحَلاً، يُعْطِي عَطَاءً جَزْلاً، قد سَمِعَ الملكُ مقَالتكُم، وعرَفَ قرَابَتكم، وقَبِلَ وَسِيلَتكُم، فَإنكُم أَهْلُ اللّيْلِ والنّهار، ولكمُ الكرَامةُ مَا أَقَمْتُم، والحَبَاءُ إذا ظَعَنْتُم. ثُمَّ نهضُوا إلى دارِ الضّيافة والوُفُود، فأقاموا بذَلِكَ شَهْراً لا يَصِلون إليه، ولا يُؤْذَنُ لهم بالانصرَاف.

ثُمَّ إنّ الملكَ أرْسلَ إلى عبدِ المطلب فأدْنَاه، ثم قال له: يا عبدَ المطلب؛ إني مُفْضٍ إليكَ مِن سِرِّ عِلْمِي أمراً لو كان غَيرُك لم أَبُحْ له به، ولكن رأيتك معْدِنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مخبّأ حتّى يأذن الله ﷻ فيه، إني أجدُ في الكِتَاب المكنُون، والعِلم المخْزُون، الذي ادَّخَرْنَاه لأنفُسِنا واحْتَجَبْنَاه دونَ غيرنا، خبراً عَظيماً، وخَطراً جَسِيماً، فيه شَرَف الحيَاة، وفضِيلة الوَفاة، للنَّاس عَامّة، ولِرَهْطِكَ كَافّة، ولكَ خاصّة. فقال له عبدُ المطلب: مِثْلُكُ أيها الملكُ سَرَّ وَبَرَّ، فما هو فَدَاكَ أهلُ الوَبَر زُمَراً بعدَ زُمَر؟. قال: إذا وُلِدَ بتهَامةَ غُلامٌ بين كتفيهِ شَامة، كَانَت له الإمَامَة، ولَكُم به الزَّعَامَة إلى يَوم القِيَامة، وهذا حِينُه الذِي يولدُ فيه أو قد وُلِدَ، اسمُه مُحَمَّد، يمُوتُ أبُوه وأمُّه، ويَكفُله جَدّه وعمُّه، قد ولَدْنَاه مِرَاراً، والله باعثُه جِهَارا، وجَاعلٌ له منّا أنصَاراً يُعِزُّ بهم أوليَاءَه ويُذِلُّ بهم أعدَاءَه، ويَضرِبُ بهِمُ الناسَ عَن عَرض، ويستفتح بهم كَرَائم الأرض، يعبدُ الرَّحمَن،

ويدْحَضُ الشّيطان، ويخمدُ النيران، ويكسرُ الأوثان، قوله فصْل، وحكمه عَدْل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبدُ المطلب: جَدّ جِدُّك، ودَامَ مُلكُك، وعَلَا كعْبُك، فهَل الملك سَارِّيّ بإفْصَاح، فقد وضَحَ لي بَعْضُ الإيضَاح. قال: والبيتِ ذِي الحجُب، والعَلامَات على النُّقُب، إنكَ لجدُّه يا عبدَ المطلب غيرُ كَذِب. فَخَرّ عبدُ المطلب سَاجِدًا، فقال: له ارفع رَأسَك، ثَلِجَ صَدْرُكَ، وعلا كعبُك، هل أَحْسَسْتَ بشيءٍ مما ذكرتُ لك؟. قال: نعم أيها الملك، إنه كان لي ابنٌ، وكنتُ به مُعْجَباً وعَليهِ رَقِيقاً، وإني زَوَّجْتُه كريمةً مِن كرَائم قَومِي، فجَاءَت بغُلام، فسَمَّيْتُه مُحَمَّداً، مَاتَ أبُوه وَأُمُّه، وكفَلتُه أنا وَعَمُّه، بينَ كَتِفَيهِ شَامَة، وفيه كلّ مَا ذكرْتَ مِنْ عَلَامة.

فقال له: إنّ الذِي قلتُ لك كما قلتُ، فاحتفظْ على ابنِك، واحذرْ عليه من اليهودِ فإنهم له أعداءٌ، ولن يجعَلَ اللهُ لهمْ عَليه سَبِيلاً، واطْوِ مَا ذكرتُه لك عن هَؤُلاء الرَّهْط الذِينَ مَعَك، فإني لسْتُ آمنُ أنْ تُدَاخِلَهُم النَّفَاسَة مِنْ أنْ تكونَ لهُ الرِّيَاسَة، فينصبُونَ له الحبَائِل، ويَبْغُون له الغَوَائِل، وهمْ فَاعلونَ ذَلِكَ، أو أبناؤُهم مِنْ غَيرِ شَكّ، ولَوْلا عِلمِي أنّ الموتَ مُجْتَاحِي قبلَ مَبعثه، لسِرتُ بخيلي ورَجْلِي حتّى أصِيرُ بِيَثْرب دَارَ مُلكِه، فإني أجد في الكتَاب النّاطق، والعِلْم السّابق أنّ يثربَ دارُ ملكِه، واسْتِحْكَامُ أَمْرِه، وموضعُ قَبْرِه، ولولا أني أُقيّد الآفات، وأَحْذَرُ عليه العَاهَات، لأعلنتُ عَلى حَدَاثَةِ سِنّه أَمْرَه، وأَعْلَيتُ عَلى أَسْنَان العَرَبِ كَعْبَه[1]، ولكن سَأصرفُ ذَلِكَ إليك من غَير تقصِيرٍ بمَن معك.

---

(١) المراد: لقدمته في الشرف والسيادة على أشراف العرب بالرغم من حداثة سِنِّه. والكعب هنا بمعنى الشرف والمجد. قال ابن منظور في [لسان العرب ـ (٧١٧/١)]: يقال: أَعْلى الله كَعْبَه، أَي: أَعْلى جَدَّه، ويقال: أَعْلَى الله شَرَفَه، وفي حديث قَيْلَة: (والله لا يَزالُ كَعْبُك عالياً)، دُعاءٌ لها بالشَّرَف والعُلُوِّ.

ثم دعا بالقومِ، وأمرَ لكلّ وَاحِدٍ منهم بعشرةِ أَعْبُدٍ سُود، وعَشَرَة إماء سُود، وحلّتين من حلل البُرُود، وعشرةِ أَرْطَالٍ ذهباً، وعشرةِ أَرْطَالٍ فِضَّة، ومائة من الإبل، وكَرْشٍ مملُوءٍ عنبراً، وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذَلِكَ، وقال له: إذا جَاء الحوْل فأتني بخبَرِه، ومَا يكونُ من أمرِه، فماتَ الملكُ قبل أنْ يحولَ عليه الحول، وكان عبدُ المطلب كثيراً ما يقول لمن معه: لا يَغْبِطُني رَجلٌ منكم بجَزِيل عَطاءِ الملِك، ولكن يَغْبِطني بما يَبقى لي وَلعقبي ذكره وفخره، فإذا قيل له ما هو؟، قال: سَيُعْلَمُ ما أقول ولو بَعدَ حِين. اهـ[1].

وكان أبو طالب مُقِلّاً من المال، فكان عياله إذا أكلوا جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكلَ معهم النَّبِيّ ﷺ شَبعُوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يُغدّيهم أو يعشّيهم يقول لهم: اِبْقَوا كمَا أنتم حتّى يأتي ابني، فيأتي رسولُ الله ﷺ فيأكل معهم، فيُفْضِلُون من طعَامهم، وإن كان لبناً شَرِبَ رسولُ الله ﷺ أوّلهم، ثم يتناوَل العيالُ القَعْبَ فيشربون منه، فيروون عَن آخِرهم من القَعبِ الوَاحد، وإن كان أحدهم ليشرب قَعْباً واحداً. فيقول أبو طالب له: إنك لَمُبارَكٌ!.

وكان الصّبيَان يُصْبِحُون شُعثاً رُمْصاً[2]، ويُصبحُ رسولُ الله ﷺ دَهِيناً كَحِيلاً. قالت أم أيمن: ما رأيت رسول الله ﷺ يشكُو جوعاً قطّ ولا عَطَشاً،

(١) أخرجه الحافظ البيهقي في [دلائل النبوة ـ (٣٩٧/١)]، في باب ما جاء في إخبار سيف بن ذي يزن عبد المطلب بن هاشم بما يكون من أمر النبي ﷺ، حديث رقم: (٣٥٥).

(٢) الرَّمَصُ: هو القَذَى الذي يخرج من العين، فيَجِفّ عَلَى أَهْدَابِ العين ومَآقِيهَا، ويكثرُ خروجُه أثناء النوم فيُلْصِقُ الأَجْفَانَ بعضَها بِبعْضٍ، حتّى يعسُر فتحها أحيانًا إلا بعد غسلها بالماء، ويكون في الصِّبيان غالبًا، وفي كبار السّنّ، وفيمن يكثر البُكاء.

لا في صغره ولا في كبره، وكانَ ﷺ يَغْدو إذا أَصْبَحَ فيَشربُ من ماءِ زَمْزَم شربةً، فربّما عرضنَا عليه الغَداء، فيقول: أنا شبعَان. وكَانَ لأبي طَالبٍ وسَادةٌ يجلسُ عليها، فجاءَ النَّبيُّ ﷺ فجلسَ عليها، فقالَ: إنّ ابنَ أخي ليُحسُّ بشَرفٍ عَظِيم.

بَابُ
سَفَرِهِ ﷺ مع عَمِّهِ أبِي طَالِب إلى الشام

لما تَهيأ أبو طالب للرَّحِيل إلى الشَّام لَزِمَهُ رسُولُ الله ﷺ وقَبَضَ عَليه، فرَقّ له أبو طالب، وقال: والله لأَخْرُجَنَّ به معي، ولا يفارِقُني ولا أفارِقُه أبدا. وفي رِوَايةٍ أنه ﷺ مَسَك بِزمَام ناقةِ أبي طالب، وقال: «يَا عَمِّ إِلَى مَنْ تَكِلُنِي وَلَا أَبَ لِي وَلَا أُمّ»؟. فأرْدَفه خلفه، وكان سِنُّه ﷺ تسع سنين. وقيل: كان سِنُّه اثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام. فسَاروا حتى نزلوا على صَاحبِ دِيْرٍ، فقال صَاحب الدّير: ما هذا الغلام منك؟. قال: ابني، قال: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون له أبٌ حيٌّ، هذا النَّبِيّ المنتظر!. فقال أبو طالب لصاحب الدّير: وما النَّبِيّ؟ قال: الذي يأتي إليه الخبر من السماء فينبئ أهل الأرض. فقال أبو طالب: الله أجلّ مما تقول. قال: اتّقِ عليه اليهود. ثم خرج حتى نزل براهبٍ أيضًا صاحب دِير، فقال له: ما هذا الغلام منك، قال ابني، قال: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون له أبٌ حيٌّ. قال: ولِمَ؟. قال: لأنّ وجهه وجه نبي وعينه عين نبي، أي: النَّبِيّ الذي يبعث لهَذِهِ الأُمَّة الأخيرة، لأن ما تم ذكره هو علامته في الكتب القديمة. فقال له أبو طالب: سبحان الله!، الله أجلّ مما تقول. ثم قال أبو طالب للنبي ﷺ: يا ابن أخي ألَا تَسْمعُ ما يقول؟، قال: «أَيْ عَمِّ لَا تُنْكِرْ، لله قُدْرَةٌ».

فلما نَزلَ الرّكْبُ مدينة بُصْرَى وبها رَاهبٌ يقال له: بَحِيرَا أو جِرْجِيس، كان قد انتهى إليه علم النصرانية، وكانت الصَّوْمَعة التي هو فيها لمن ينتهي إليه علم النصرانية يَتَوَارثُونها كابراً عن كابر، عن أوصياء عيسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكانت قريش كثيراً ما تمرُّ على بَحِيرَا فلا يُكَلّمُهم، حتى كان ذَلِكَ العام صنع لهم طعاما كثيرا، وكان قد رَأى وهو بصَومعته رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرّكب حين أقبلوا وغمامَةٌ تُظِلّه من بين القَوم، ثم لما نزلوا في ظلّ شَجَرَةٍ نظر إلى الغمامة قد أظلت الشجرة، ومالت أغصان الشجرة على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسل إليهم: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، وأحبَّ أن تحضروا كلّكم، صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم. فقال له رجل منهم: يا بَحِيرَا إنّ لك اليوم لشأناً، ما كنت تصنع هذا بنا، وكنا نمرّ عليك كثيرا فما شأنك اليوم؟ فقال له بَحِيرَا: صدقت، قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببتُ أنْ أكرمكم وأصنع لكم طعاما، فتأكلون منه كلكم، فاجتمعوا إليه، وتخلّفَ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين القوم لحَدَاثةِ سِنِّهِ، فلما نظرَ بَحِيرَا في القوم ولم يرَ رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: يا معشرَ قريش لا يتخلّف أَحَدٌ منكم عن طَعامي. فقالوا: يا بَحِيرَا ما تخلّف عن طعامِك أحَدٌ ينبغي له أن يأتيك، إلّا غلامٌ هو أَحْدَثُ القوم سِنّاً. فقال: لا تفعلوا، ادْعُوهُ فلْيَحْضُرْ هذا الغلام معكم، فما أقبَحَ أن تحضرُوا ويتخلّف رجلٌ واحدٌ، مع أني أَرَاه مِنْ أَنفسكم. فقال القوم: هُوَ واللهِ أَوسَطنا نسَباً، وقال الحارثُ بنُ عبدِ المطّلب: واللّاتِ والعُزّى إنْ كانَ لَلُؤْماً بنا أَنْ يتخَلّفَ ابنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطّلب عن طعامٍ مِنْ بيننا، ثم قام فجَاء به وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بَحِيرَا جعلَ يلحَظُه لحظاً شَدِيداً وينظرُ إلى أَشياءَ من جَسَدِه قد كان يجدُها عنده من صفته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتّى إذا فرَغ القوم من طعامِهم وتفرّقوا

قام بَحِيرَا إليه ﷺ، فقال له: أسألك بِحَقّ اللّات والعُزّى إلا مَا أخْبَرتَنِي عمّا أسْألك عنه. فقال له رسولُ الله ﷺ: «لَا تَسْألْنِي بِاللّاتِ وَالعُزّى شَيئاً، فَوَالله مَا أَبْغَضُ شَيئاً قَطُّ بُغْضَهُمَا»، فقال بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له ﷺ: «سَلْنِي عَمَّا بَدَا لَكَ». فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره ويخبرُه رسولُ الله ﷺ، فيوافِقُ ذَلِكَ ما عندَ بَحِيرَا من صفة النَّبِيّ المبعوثِ آخرَ الزّمان التي عنده، ثم كشفَ عن ظهرِه، فرأى خاتم النّبوّة على الصِّفة التي عنده، فقبّلَ موضعَ الخاتم، فَقَالَتْ قريش: إنّ لمُحَمَّد عند هذا الرّاهب لقَدْراً!. فلما فرَغ أقبل على عمِّه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلامُ منك؟، قال ابني، قال: ما هو ابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أنْ يكونَ أبوه حيّاً، قال: فإنّه ابنُ أخِي، قال: فما فعَل أبوه؟ قال: ماتَ وأُمُّه حُبْلى به، قال: صَدقتَ، فما فعلت أمه؟، قال: توفّيت قريباً، قال: صدقتَ، فارجع بابن أخيك إلى بلادِهِ واحذَرْ عليه اليهودَ، فو الله لَئِنْ رَأوهُ وعرَفوا منه ما عَرَفْتُ لتَبْغِينَهُ شَرّاً، فإنّه كائنٌ لابنِ أخِيكَ هَذا شأنٌ عظيم، نَجِدُه في كتُبنَا ورَوَيناه عَن آبائنا، واعلَمْ أَنّي قد أَدَّيتُ إليكَ النّصِيحةَ، فأَسْرِعْ بهِ إلى بَلَدِه. فرَجَعَ بهِ.

بَابُ
حِفْظِ اللهِ تَعَالَى لَهُ ﷺ فِي صِغَرِهِ مِنْ أُمُورِ الجَاهِلِيَّةِ

حَفِظَ اللهُ تَعَالَى النَّبيَّ ﷺ من أَقْذَار أهل الجَاهِلِيَّة ومَعَايبهم، بحسب ما آلَ إليه شَرعُه، لما يريد الله تَعَالَى به من كرامته، حتى صار أحسنَهم خُلُقاً، وأصدقَهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفُحْشِ والأخلاق التي تُدَنِّسُ الرجال تنزيهاً وتكريماً، حتى كان ﷺ أفضلَ قومِه مُرُوءةً، وأكرمهم مخالطةً، وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانةً حتى سمّوه الأمين لما جمع الله عزّوَجَلّ فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفِعَال السّديدة، من الحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والجود، والشجاعة والحياء.

وَقدْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُحدّثُ عمّا كَانَ الله يَحْفَظُهُ بِهِ فِي صِغَرِهِ حيثُ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتنِي فِي غِلْمَانِ قُرَيْش، نَنْقُلُ حِجَارَةً لِبَعْضِ مَا يَلْعَبُ بِهِ الْغِلْمَانُ، كُلّنا قَدْ تعَرّى، وَأَخَذَ إِزَارَهُ فَجَعَلَهُ عَلَى رَقَبَتِهِ يَحْمِلُ عَلَيْهِ الْحِجَارَةَ، فَإِنّي لأُقْبِلُ مَعَهُمْ كَذَلِكَ وَأُدْبِرُ، إِذْ لَكَمَنِي لَاكِمٌ مَا أَرَاهَا لَكْمَةً وَجِيعَةً، ثُمّ قَالَ: شُدّ عَلَيْك إِزَارَك. فَأَخَذْتُهُ وَشَدَدْتُهُ عَلَيّ، ثُمّ جَعَلْت أَحْمِلُ الْحِجَارَةَ عَلَى رَقَبَتِي وَإِزَارِي عَلَيّ مِنْ بَيْنِ أَصْحَابِي»[1]. وفي الخَصَائِص الصُّغْرَى: نُهِيَ ﷺ

---

(١) ذكره ابن هشام في سيرته ـ (١/١٨٣).

عن التَعرِّي وكشف العَوْرَةِ من قبْل أنْ يُبْعَث بِخَمْس سنين.

وجاء عن عليٍّ ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «مَا هَمَمْتُ بِقَبِيحِ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَهِمُّونَ بِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ مِنَ الدَّهْرِ، كِلْتَيْهِمَا يَعْصِمُنِي الله مِنْهُمَا، قُلْتُ لَيْلَةً لِفَتًى مَعِي مِنْ قُرَيْشٍ بِأَعْلَى مَكَّةَ فِي أَغْنَامٍ لأَهْلِنَا يَرْعَاهَا: انْصَرِفْ إِلَى غَنَمِي حَتَّى أَسْمُرَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِمَكَّةَ كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ، قَالَ: نَعَمْ، فَخَرَجْتُ فَجِئْتُ أَدْنَى دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ، سَمِعْتُ غِنَاءً وَطَرَبَ دُفُوفٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: فُلَانٌ يُزَوِّجُ فُلَانَةَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَهَوْتُ بِذَلِكَ الصَّوْتِ، حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فقَالَ: مَا فَعَلْتَ فَأَخْبَرْتُهُ، ثُمَّ قُلْتُ لَيْلَةً أُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ فَفَعَلَ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَهَوْتُ بِمَا سَمِعْتُ حَتَّى غَلَبَتْنِي عَيْنِي، فَمَا أَيْقَظَنِي إِلَّا مَسُّ الشَّمْسِ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ، قُلْتُ: مَا فَعَلْتُ شَيْئًا»، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَوَالله مَا هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بِسُوءٍ مِمَّا يَعْمَلُ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ حَتَّى أَكْرَمَنِي الله بِنُبُوَّتِهِ»[1].

وعن أم أيمن ﷺ قالت: (كان بُوَانَةُ صنماً تحضره قُرِيشٌ، وتعظِّمُه وتنسُكُ وتذبح له وتحلِقُ عنده، وتعكفُ عليه يوماً إلى اللّيل في كلّ سنَة، فكان أبو طالب يحضرُ مع قومِه ويكلّمُ رسولَ الله ﷺ أنْ يحضرَ ذَلِكَ العيد معه فيَأبى ذَلِكَ، حتى رأيتُ أبا طالب غَضِبَ عليه، ورَأَيتُ عمّاته غَضِبنَ عليه يومئذٍ أشدَّ الغَضَب، وجَعَلْنَ يَقُلْنَ: إنّا لنَخافُ عليك مما تصْنَعُ من اجتنابِ آلهتِنا،

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٦٩/١٤)، برقم: (٦٢٧٢)، وإسناده حسن.

ويَقُلنَ: ما تريدُ يا مُحَمَّدُ أنْ تحضرَ لقومِك عيداً ولا تُكَثّرُ لهم جمعاً! ، فلم يَزالوا به حتّى ذَهب ، فغَابَ عنهم ما شَاءَ الله ، ثم رَجعَ مَرْعُوباً فَزِعاً ، فَقُلنَ: ما دَهَاك ؟ ، قال: إني أخشَى أنْ يَكُونَ بي لممٌ ، فَقُلنَ: ما كان الله ﷻ ليَبْتَليكَ بالشّيطان وفيكَ من خِصَال الخير ما فيك ، فما الذي رأيتَ ؟. قال: «إنِّي كُلَّمَا دَنُوتُ مِنْ صَنَم مِنْ تِلْكَ الأَصْنَامِ تَمَثَّلَ لِي رَجُلٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ ، يَصِيحُ بِي: وَرَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ لَا تَمَسَّهُ». فمَا عادَ إلى عيدٍ لهمْ حتّى تنبأ ﷺ)[1].

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها ، قالت: سمعتُ رسُولَ الله ﷺ يقول: «سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بنِ نُفَيلٍ يَعِيبُ كُلَّ مَا ذُبحَ لِغَيرِ الله تَعَالَى ، فكَانَ يَقُولُ لِقُرَيشٍ: الشَّاةُ خَلَقَهَا الله ﷻ ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ المَاءَ ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ الكَلَأَ ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيرِ اسْمِ الله! . فَمَا ذُقْتُ شَيئاً ذُبحَ عَلَى النُّصُبِ ، حَتَّى أَكْرَمَنِي الله تَعَالَى بِرِسَالَتِهِ»[2].

وعن عَليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه قال: قيل للنبي ﷺ: هل عبدتَ وثناً قطُّ ؟ ، قال: «لَا» ، قالوا: هل شربت خمرا قط ؟ ، قال: «لَا ، وَمَا زِلْتُ أَعْرِفُ أَنَّ الذِي هُمْ عَلَيهِ كُفْرٌ ، وَمَا كُنْتُ أَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ»[3].

---

(١) ذكره في عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ـ (٧٢/١)، وعزاه للواقدي.

(٢) ذكره الحافظ جلال الدين السيوطي في الجامع الكبير (٢٩٣/١٣) رقم: (١٣١٤٥) وعزاه للديلمي.

(٣) ذكره السيوطي في [الجامع الكبير ـ (٢٨٥/٣١)] ، برقم: (٣٤٢٢٨)، وعزاه لأبي نعيم في الدلائل.

بَابُ
رَعْيِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْغَنَم

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه قال: قال رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَعَثَ الله نَبِيّاً إلا رَعَى الْغَنَمَ». فَقَالَ له أَصْحَابُهُ: وأنْتَ؟، قَالَ: «نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ»(١). ووقع الافتِخَار بين أصحَاب الإبل وأصحاب الغنم عند النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاسْتَطالَ أصحابُ الإبل على أصَحابِ الغَنَم، فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُعِثَ مُوسَى وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبُعِثَ دَاوُد وَهُوَ رَاعِي غَنَمٍ، وَبُعِثْتُ وَأَنَا رَاعِي غَنَمِ أَهْلِي بِجِيَادٍ»(٢). وأجْيَاد: موضع بأسفل مكة من شِعَابها. والقراريط: هي أجزاء من الدراهم والدنانير التي يُشْتَرى بها الحوَائج الحقيرة، وكان يرعى كلَّ شَاةٍ بقيراط. وقيل: القَراريط موضِعٌ بمكة، ورد بأن أهل مكة لا يعرفون بها محلا يقال له: القراريط(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٨٩/٢)، في باب رعي الغنم على قراريط، برقم: (٢١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٠٢/١)، باب الإبل عز لأهلها، برقم: (٥٧٧) بإسناد صحيح.

(٣) إنما أوّل بعضُهم كلمةَ (القراريط) باسم موضع لاسْتبعَادِهم منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يرعى لأهلِه بأجرة؛ لأنّ ذلك خلافُ العَادة، وقد جمَع الحافظُ ابنُ حجر بين الحديثين بأنّه كان يرعى لأقاربه بغَيرِ أُجْرَةٍ، ولغيرهم بأُجْرَةٍ. وهنا نُوجِّه تنبيهًا لمن يَسْتَبْعدُ كونَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَعى الغنمَ، بغَضّ النّظر عن السَّبب الدّافع لاستبعادِه...، ونقولُ: قد ثَبَتَ ذلك في الأحاديث الصّحيحة التي لم ينكرها أحدٌ مِن الأئمة، ثُمَّ إنَّ الرّعْيَ ليسَ نقصاً في حَقِّ الأنبياءِ ففي القرآن أن موسى عليه السلام استُؤجِرَ للرّعي عشر سنوات.

ومن حِكْمَةِ الله ﷻ في ذَلِكَ أن الرّجُلَ إذا اسْتُرْعِيَ الغَنَم التي هي أضعف البهائم سكنَ قلبَه الرّأفةُ واللّطفُ تعطّفاً، فإذا انتقل من ذَلِكَ إلى رعاية الخلق كان قد هُذِّبَ أولاً من الحدّةِ الطبيعية والظّلم الغَريزي، فيكون في أعدَلِ الأحوَال. ولا ينبغي لأحد إِذَا عُيِّرَ بِرعَايَةِ الغَنَم أَنْ يَقُول: كان النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرعى الغَنَمَ، فإن قال ذَلِكَ أُدِّبَ، لأَنَّ ذَلِكَ كما عُلِمَ في حقِّ الأنبياء عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دون غيرِهم، فلا ينبغي الاحْتِجَاج به، ويجرى ذَلِكَ في كل ما يكون كمالاً في حقّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دُونَ غَيْرِهِ كَالأميّة، فمن قيل له: أنت أمي!، فقال: كان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمياً، فإنّه يُؤَدَّب.

بَابُ
حُضُورِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرْبَ الفِجَار

وقد ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الحرب، فقال: «قَدْ حَضَرْتُهُ مَعَ عُمُومَتِي، وَرَمَيْتُ فِيهِ بِأَسْهُمٍ، وَمَا أُحِبُّ أَنِّي لَمْ أَكُنْ فَعَلْتُ»(١). وكان له من العمر إِذْ ذاك أربَع عشرة سنة، وهذا الفِجَار الرّابع. وأما الفِجَار الأول فكان وعمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين. وظاهر كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لم يحضر إلا في الفِجَار الرّابع.

وسببُ الفِجَارِ الأوَّل: أن بَدرَ بن مَعْشَر الغِفَاري كان له مجلسٌ يجلسُ فيه بسُوق عُكَاظ، ويفتخرُ فيه على الناس، فبَسَط يوماً رِجْلَه، وقال: أنا أَعَزُّ العَرَب، فمَن زَعم أنّه أعَزّ مني فليَضْرِبْها بالسَّيفِ، فوَثب رجُلٌ فضَرَبَه بالسّيفِ على رُكْبَتِه فأسقطَها، فاقتَتَلُوا لذلك.

وسببُ الفِجَارِ الثّاني: أنّ امرَأةً من بني عَامر كانت جالسة بسوق عُكاظ فأطافَ بها شَابٌّ من بني كنانة، فسألها أنْ تكشفَ له وجْهَهَا فأبَتْ، فجلس خلفَها وهيَ لا تشعرُ، وعقد ذيْلَهَا بشَوْكةٍ، فلمّا قامَت انكشَفَ دُبُرُها، فضَحِكَ النّاس، فنادَتِ المرْأةُ: يَا آلَ عَامر، فثَارُوا بالسِّلاح، ونادَى الشّابُ: يا بني كِنَانة، فاقتتلوا. وفيه أنّ نسَاء الجاهليّة كُنّ لا يكْشِفنَ عَنْ وجُوهِهنّ!.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/١٢٨).



وسببُ الفِجَارِ الثّالث: أنه كان لرَجُل من بني عامر دَيْنٌ على رجل من بني كنانة فمَاطَلَهُ به، فجرَت بينهما مُخاصَمة، فاقتتل الحيّان لِذَلِكَ، ثُمّ إنّ عبدَ الله بن جُدْعَان تحمَّلَ ذَلِكَ الدّين مِن ماله، فكان ذَلِكَ سَبباً لانقضَاء الحرْب.

وسببُ الفِجَارِ الرّابع: ويُسَمّى فِجَارُ البَرَّاض، أَنَّ عُرْوَةَ الرَّحَّال أجَارَ لَطِيْمَةً للنّعمان بن المنْذر ملك الحِيْرَة. واللّطِيْمَةُ: هي العِيْر التِي تحمل الطيب والبَزّ للتّجَارة. فإنّ المنذر كان يرسلُ تلكَ اللّطِيْمَةَ لِتُبَاعَ في سُوقِ عُكَاظ، ويُشْتَرَى له بثَمَنِ ذَلِكَ أُدُمٌ مِن أَدُمِ الطّائِفِ، وكانَ يُرسِلُها في جِوَارِ رَجُلٍ من أَشرَافِ العَرَبِ، فلمَّا جَهّزَ اللّطِيْمَةَ كانَ عندَه جمَاعةٌ من العَرَبِ، وفيهم البَرَّاضُ من بني كِنَانة، وعُرْوَةُ الرَّحَّال من هَوَازِنَ، فقال البَرَّاضُ: أنا أجيرُها على بني كِنَانة، فقال له النعمان: ما أُرِيدُ إلّا مَن يجيرُها على أهل نَجْدٍ وتهَامة، فقال له عُرْوَةُ الرَّحَّال: أنا أجيرُهَا لكَ، فقال له البَرَّاضُ: أَتُجيرُهَا عَلى كِنَانَةَ؟، فقال: نَعَمْ؛ وعلى أَهْل الشِّيْحِ والقَيْصُوم، ونَالَ مِنَ البَرَّاضِ، فلما خرَجَ عُرْوَةُ الرَّحَّال مُسَافراً خرَج البَرَّاضُ خلفَه يَطلُبُ غفلتَه، فلما اسْتَغْفَلَه وثَبَ عَليه فقتَله. فأتى آتٍ كِنَانةَ وهُمْ بِعُكَاظ معَ هَوَازِن، فقال لكنانة: إنّ البَرَّاضَ قد قتل عُرْوَةَ الرَّحَّال، وهو في الشّهْر الحرام، فانطلَقوا وهَوَازِنُ لا تَشْعُرُ بذلك، ثم بلغهم الخبرُ، فاتبعوهم فأدركوهم قُبَيل دخولهم الحرَم، فأمسكَتْ عنهم هَوَازِنُ، ثم التقوا بعد ذلك، وعاونت قريشٌ كِنانة، ومكثَ القتالُ بينهم ستّة أيام. وسُمِّيَتْ الفِجَار؛ لأَنَّ العَرَب فجَرَت فيه، ولأنه وقع في الشهر الحرام، وقيل: أنّ القتالَ في ذَلِكَ لم يكن في الشهر الحرام، وإنما كان سببه في الشّهر الحرام، وهو قتلُ البَرّاضِ لِعُرْوَةَ الرَّحَالِ.

وكان أبو طالب يحضرُ أيام فِجَارِ البَرَّاض، ومعه رسولُ الله ﷺ،

فإذا جاءَ هُزِمَت هَوَازِن، وإذا لم يجِئْ هُزِمَتْ كِنَانة، فقالوا له: لا تَغِبْ عنّا. ففعل، وَذُكِرَ أنه ﷺ طَعَنَ أبَا بَرَاءٍ مُلَاعِبَ الأَسِنَّةِ في تلك الحرْبِ، وأبو بَرَاءٍ هذا كان رئيسَ بني هَوَازِن يومئذٍ، وهو حَامِلُ رَايتِهم في تلك الحرْبِ، والطّعْنُ ظَاهِرٌ في الرُّمْحِ مُحتَمَلٌ في النّبْلِ، وظاهرُ كلامِهم أنه لم يُقاتل فيه بغيرِ الرّمْيِ للأَسْهُمِ على تقدير صِحّةِ تلك الرّواية بذَلِكَ، ولا يبعدُ أَنْ يكونَ رَمى ولم يُصِبْ أَحَداً، إذْ لو أَصَابَ أَحَداً لَنُقِلَ؛ لأنّه ممَّا تَوفَّرَت الدَّوَاعِي على نقلِه، إلّا أَنْ يُقَالَ بِجَوَازِ أَنْ يكونَ أصَابَ شَيئاً لم يُذْكَر.

وكان أمرُ قريشٍ وكنانةَ إلى عبدِ الله بنِ جُدْعَان. وقيل كان إلى حَرْبِ بن أمَيّة، لأنه كَان رئيسَ قريشٍ وكنانةَ يومئذٍ، وكان عُتْبَةُ بنُ رَبِيْعَة يَتيماً في حِجْرِه، فلم يخرِجْه حَرْبٌ معَه خَوفاً عليه، فخرجَ عتبةُ بغيرِ إِذْنِه وعلْمِه، فلم يَعْلَمْ به إلّا وهوَ على بَعِيرٍ بينَ الصَّفّين، وهو يُنادي: يا معشر مُضَر عَلَامَ تَفَانون؟، فَقَالَتْ له هَوَازِن: مَا الذي تَدْعو إليه؟، قال: الصُّلْحَ على أنْ ندْفَعَ لكُمْ دِيَةَ قَتْلَاكم وتَعْفُوا عَن دِمَائِنا، فقالوا: وكيفَ؟، قال: نَدفَعُ لكم رَهْناً مِنّا إلى أَنْ نُوفّي لكُم ذَلِكَ، فقالوا: ومَنْ لنَا بهذا؟، قال: أنا، فقالوا: ومَن أنت؟، قال: أَنَا عُتْبَةُ بنُ رَبِيْعَة، فرَضِيَتْ به هَوَازِنُ وكِنَانةُ وقُرَيْشٌ، ودفعوا إلى هَوَازِن أَرْبَعِينَ رَجُلاً، فلمّا رَأَتْ هَوَازِنُ الرَّهْنَ في أيديهم عَفَوا عَنِ الدّمَاءِ وأَطْلَقُوهُم، وانْقَضَتْ بذلكَ حَرْبُ الفِجَار الرّابع.

بَابُ
شُهُودِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِلْفَ الفُضُول

وهو أشرفُ حِلْفٍ في العرب، وكان عند مُنصَرفِ قريش من حَرْبِ الفِجَار، وكان ذَلِكَ في دارِ عبدِالله بن جُدْعَان التَّيْمِيّ، وكان بنو تَيْم في حياة عبدِالله بن جُدْعَان كأهل بَيْتٍ واحدٍ يَقُوتُهُم هوَ، فقد كانَ يَذبَحُ في دَارِه كُلّ يومٍ جَزُوراً، ويُنادِي مُنادِيه: مَن أرادَ الشّحْمَ واللّحْمَ فعليه بدارِ ابنِ جُدْعَان، وكان عبدُ الله بنُ جُدْعَان مِنْ جُمْلَةِ من حَرَّم الخمْرَ على نفسه في الجاهلية، وسببُ ذَلِكَ أنه سكرَ ليلةً فصار يمدُّ يدَه ويقبضُ على ضوءِ القمر ليُمْسِكَهُ، حتّى ضحكَ منه جلسَاؤُه، ثم أخبروه بذَلِكَ حينَ صَحَا، فحَلفَ أن لا يشربها أبدا.

وكان ابنُ جُدْعَان في ابتداءِ أمْرِه صُعْلوكا، شِرِّيراً فتّاكاً، يَجنِي الجِنَايَات، فيَعْقِلُ عنه أبوه وقومُه حتى أبغضَتْهُ عشيرتُه، وطرَدَه أبوه، وحَلفَ أَنْ لا يأويه أبداً، فخَرَج هَائماً في شعاب مكة يَتَمنّى الموتَ، فرأى شقّاً في جَبلٍ فدَخل، فإذا ثعبانٌ عظيم له عينان تَتّقِدَان كالسّراج، فلما قَرُبَ مِنه حملَ عليه الثّعبَانُ، فلما تأخر رَجَع عنه، فلا زَال كذَلِكَ حتى غَلبَ على ظَنّه أنه تمثالٌ، فقرَبَ منه ومَسَكَهُ بيدِه فإذا هوَ من ذَهَبٍ وعيْناهُ ياقُوتَتَان، فكسَرَه ودخل المحَلّ الذِي كان هذا الثعبان على بابِه، فوجدَ فيه أمواتاً من الملوْكِ، ووجَدَ في ذَلِكَ المحَلّ أموالاً كثيرةً من الذّهب والفِضّة، وجواهرَ كثيرةً من الياقوتِ واللؤلؤِ والزّبرْجَدِ، فأخذ منه ما أخذ، ثم عَلَّمَ على ذَلِكَ الشّقّ بعَلامَةٍ، وصارَ ينقلُ منه ذَلِكَ شَيْئاً فشيئاً،

ووجَد في الكَنْزِ لوحاً مكتُوبٌ فيه: (أنا نُفَيْلَةُ بنُ جُرْهُمِ بنِ قَحْطَانَ بنِ هُودٍ نبيِّ الله، عشت خمسمائة عام، وقطعت غَورَ الأرْضِ باطنها وظاهرها في طلبِ الثَرْوَة والمجْدِ والملكِ، فلم يكن ذَلِكَ يُنْجِي مِنَ الموت). ثمَّ إنَّ عبدَ الله بن جُدْعَان بعث إلى أبيه بالمال الذي دفعه في جِنَايَاته، ووصَل عشِيرَته كلّهم فسَادَهُم، وجَعَل ينفقُ من ذَلِكَ الكنز ويُطعِمُ الناس، ويفعل المعْرُوف.

وسُمِّيَ هذا الحلفُ بحِلفِ الفضُولِ لأنه يُشْبِهُ حِلْفًا وقع لثلاثة من جرهم، كانَ كلُّ واحدٍ منهم يقال له: الفَضْلُ، أو أنّ الداعي إليه كانَ ثلاثةٌ مِن أشرَافِهم اسمُ كلّ واحدٍ منهم فَضْلٌ، وهُم: الفَضْلُ بن فُضَالة، والفَضْلُ بن ودَاعة، والفَضْلُ بن الحارث، وهؤلاء الثلاثة تحالفوا على نصرة المظلوم على ظالمه، فالفضُولُ جمعُ الفَضْلِ. وقيل: لأنّ قُريشاً قالوا عن هؤلاء الذين تحالفوا: لقَدْ دَخَلَ هَؤلاءِ في فُضُولٍ من الأمر.

والسببُ في هذا الحِلْفِ والحاملُ عليه: أَنَّ رَجُلاً من زَبيد قَدِم مكّةَ ببضاعة، فاشتراها منه العَاصُ بنُ وَائل، وكانَ من أهل الشَّرَفِ والقَدْرِ بِمَكّةَ، فحبَس عنه حقّه، فاستدعى عليه الزّبيديُّ الأحْلَافَ، عبدَ الدّار ومخزوماً وجُمَحَ وسَهْماً وعديَّ بنَ كعب، فأبوا أن يعينوه على العَاص، وانتهرُوا الزّبيدي، فلما رَأى الزبيديُّ الشرَّ، رَقَى عَلى جَبَلِ أبي قُبَيْسٍ عندَ طلوعِ الشّمْس، وقريشٌ في أنْدِيَتِهم حَولَ الكعْبَة، فقالَ بأعلى صوتِه:

يَا آلَ فَهْرٍ لمظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ والنَّفَرِ
وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ... يَا لِلرِّجَالِ، وَبَيْنَ الحِجْرِ وَالحَجَرِ
إنَّ الحَرَامَ لِمَنْ تمَّتْ مَكَارِمُهُ ... وَلَا حَرَامٌ لِثَوبِ الفَاجِرِ الغُدَرِ



والحرامُ هنا بمعنى الاحترام، فقام في ذَلِكَ الزبيرُ بنُ عبدِ المطلب مع عبدِ الله بن جُدْعَان، واجتمع إليهما بنُو هاشم، وبنُو زُهْرَة، وبنُو أسد بن عبد العُزّى، فتعاقدوا وتعاهدوا ليكونُنَّ يَداً واحدةً مع المظلوم على الظّالم، حتى يُؤَدّى إليهِ حَقُّهُ، شريفاً كانَ أو وَضِيعاً، مَا بَلَّ بَحْرٌ صُوْفَة، ومَا رَسَا حِرَاءُ وثَبِيرٌ مَكانَيهِمَا. ومرادُهم من ذلك الأبد، ثم مشوا إلى العَاص بن وائل فانتزعوا منه سِلْعَةَ الزبيدي فدفعوها إليه. وكان معهم في ذَلِكَ الحِلْفِ رسُولُ الله ﷺ، حيثُ قَالَ ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ الله بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلَامِ لأَجَبْتُ»[1].

وذكر السّهَيلي: أنّ رَجُلاً من خَثْعم قِدَم مَكّة مُعتمرا، ومعه بنتٌ له مِن أَضْوَأ النِّسَاءِ، فاغتصبَها منه نَبِيْهُ بن الحجّاج، فقيلَ له: عَلَيْكَ بحِلفِ الفضُولِ، فوقفَ عندَ الكعبةِ ونادى: يا لِحلْفِ الفضُولِ، فأقبلوا إليه من كلّ جانب، وقد جَرّدُوا أسيافَهم، يقولون: جاءَكَ الغَوثُ فما لك؟، فقال: إنّ نَبِيْهاً ظَلَمَنِي في ابنتي، فانتزعها مني قسْراً، فساروا إليه، حتّى وقفوا على بابِ داره، فخرج إليهم، فقالوا له: أَخرِج الجاريةَ ويحك، فقد علمتَ مَن نحنُ وما تعاهَدنا عليه، فقال: أفعلُ، ولكن مَتّعُوني بها اللّيلة. فقالوا: لا والله.. فأخرَجَها إليهم.

---

(١) أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي في السنن الكبرى [٢/٢٠٤]، حديث رقم: (١٣٤٦١).

بَابُ
سَفَرِهِ ﷺ إِلَى الشام ثانياً

لما بلغَ رسولُ الله ﷺ خمسًا وعشرين سنة، وليس له ﷺ اسمٌ بمكّة إلّا الأمين، لِمَا تكامل فيه من خصال الخير. قال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي أنا رَجُلٌ لا مَالَ لي، وقد اشْتَدَّ الزّمَانُ، وأقبلت علينا سنُونَ مُنكرَةٌ، وليس لنا مَادّة ولا تِجارَة، وهذه عِيرُ قومك، قد حضرَ خرُوجُها إلى الشّام، وخديجةُ بنت خويلد تبعثُ رجالاً من قومِك في عيرِها، فيَتّجِرُون لها في مالها ويصِيبُون مَنَافِعَ، فلو جئتها فوضَعْتَ نفسَك عليها لأسرَعَتْ إليك وفضَّلتْكَ على غَيرِك؛ لما يبلغُها عنك من طهارتِك، وإنْ كنتُ لأكرَهُ أَنْ تأتيَ الشّامَ وأخافُ عليك من يهودِها، ولكِنْ لا أجدُ لك من ذَلِكَ بُدّاً. فقال له رسولُ الله ﷺ: «فَلَعَلَّهَا أَنْ تُرْسِلَ إِليَّ فِي ذَلِكَ». فقال أبو طالب: إني أخافُ أنْ تُوَلّي غيرَك، فتطلبُ أمراً مُدْبراً. ثم افترقَا. فبلغ خديجةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها ما كانَ من محاوَرةِ عمِّهِ أبي طالب له. فَقَالَتْ: ما علمتُ أنه يُرِيدُ هذا، ثُمَّ أرسَلَتْ إليهِ ﷺ فَقَالَتْ: إنه قد دَعَاني إلى البَعْثِ إليكَ ما بلغَني مِن صِدْقِ حَدِيثِكَ، وعِظَمِ أَمَانَتِك، وكرَمِ أخْلَاقِك. وأنا أعطيكَ ضِعْفَ ما أُعْطِي رَجُلاً من قومِك، فوافقَ رسولُ الله ﷺ، ولقيَ عمَّه أبا طالبٍ فذكرَ له ذَلِكَ، فقال: إنّ هذا لَرِزْقٌ سَاقَه الله إليك.

فخرج ﷺ مع غلامِها مَيْسَرَة، وقالت خديجةُ لمَيْسَرَة: لا تعْصِ لهُ

أمراً، ولا تخالفْ له رَأيا، وجَعلَ عمُومَته يوصُونَ به أهْلَ العِيرِ، وفي سَيْرِه ﷺ أَظَلّتْهُ الغمامَةُ، فلما قَدِمَ ﷺ الشَّامَ نزلَ في ظلّ شَجَرَةٍ قريبةٍ من صَومعةِ رَاهبٍ يقال له: نَسْطُورَا، فاطّلعَ الرّاهبُ إلى مَيْسَرَة، وكان يعرفُه، فقال: يا مَيْسَرَةُ، مَن هذا الذي نزل تحتَ الشّجرة؟، فقال مَيْسَرَة: رجلٌ من قُرَيشٍ من أهْلِ الحَرَم. فقال له الرَّاهِبُ: ما نزلَ تحتَ هذِه الشّجَرَةِ إلا نَبِيٌّ، ثم قال له: أفي عينيه حمرة؟، قال مَيْسَرَةُ: نعم؛ لَا تُفَارِقُه، فقال الرّاهبُ: هوَ آخرُ الأنبيَاء، ويَا ليْتَ أنّي أدْرِكُه حينَ يُؤْمَرُ بالخرُوج. فوعَى ذَلِكَ مَيْسَرَة.

ولا يخفى أنّ بقاءَ تلك الشّجرة هذا الزّمن قبل عيسى وبعدَه إلى زَمَن نبيّنا ﷺ، وصَرْفَ غيرِ الأنبياء عنِ النّزول تحتها، وكذا صرفَ الأنبياء الذين وُجِدُوا بعد عيسى كما دَلّتِ عليه الرِّوَاية ممكنٌ، وإنْ كانت الشّجرة لا تبقى في العادة هذا الزمن الطويل، ويبعدُ في العَادة أنْ تكونَ شَجرةٌ تخلو عَن أنْ ينزل تحتها أحدٌ غير الأنبياء، إلا أن هذا الأمر ممْكِنٌ؛ لأنه خارقٌ للعادة، والأنبياء لهم خَرْقُ العَوائِد سيما نبينا ﷺ.

وقبل أَنْ يصلوا إلى بُصْرَى عَيِيَ بعيرَانِ لخديجةَ، فتَخَلّفَ معهما مَيْسَرَةُ، وكانَ رسولُ الله ﷺ في أوّلِ الرّكْبِ، فخَافَ مَيْسَرَةُ على نفسِه وعلى البَعيرين، فانطلقَ يسْعَى إلى رسولِ الله ﷺ فأخبرَه بذَلِكَ، فأقبلَ رسولُ الله ﷺ إلى البعيرين، فوضع يدَه على أخْفَافِهما وعوّذَهُما فانطلقا في أوّلِ الرّكْبِ ولهُما رُغَاءٌ من سُرْعَتِهما.

وكان بينه ﷺ وبين رجلٍ اختلافٌ في سِلْعَةٍ، فقال الرّجلُ لرسولِ الله ﷺ: اِحْلِفْ باللّاتِ والعُزّى، فقال النّبيّ ﷺ: «مَا حَلَفْتُ بِهِمَا

قَطُّ»، فقال له الرَّجلُ: القولُ قولك، ثم قال الرجلُ لمَيْسَرَة وقد خلا به: يا مَيْسَرَةُ هذا نبيٌّ، والذي نفسي بيده إنه لهو الذي تجده أحبارنا منعوتاً في الكتب. فوعى مَيْسَرَةُ ذَلِكَ. ثم إنهم باعوا متاعهم، ورَبِحُوا رِبْحًا ما رَبِحُوا مثله من قبل، فقال مَيْسَرَةُ: يا مُحَمَّد، اتَّجرْنَا لخديجة من قبل، فما ربحنا ربحا قطّ أكثر من هذا الرِّبح.

ثم انصرفَ أهلُ العِير جميعًا راجعين مكّةَ، وكان مَيْسَرَةُ يرَى ملكين يُظَلِّلَانِه ﷺ من الشَّمْسِ وهو على بعيره إذا كانت الهاجرة واشتد الحرّ، وألقى الله تَعَالَى محبَّةَ رسولِ الله ﷺ في قلبِ مَيْسَرَةَ، فكان كأنه عبده، فلما كانوا بمَرِّ الظّهْرَان بين مكَّةَ وعُسْفَان، قال مَيْسَرَةُ للنبيِّ ﷺ: هل لك أَنْ تسبقني إلى خديجة، فتخبرها بالذي جَرَى، فتقدمَ النَّبِيُّ ﷺ حتّى دخلَ مكَّةَ في ساعَةِ الظّهيرة، وخديجة في غرفةٍ مع نِسَاءٍ، فرَأَتْ رسولَ الله ﷺ حين دخل وهو راكبٌ على بعيره، وملكان يُظَلّلَانِ عليه، فأرَتْهُ نساءَها فعَجِبْنَ لذَلِكَ، ودخلَ رسولُ الله ﷺ فأخبرَها بما رَبِحُوا وهو ضعفُ ما كانت تربحُ، فسُرَّتْ بذَلِكَ، وقالت: أين مَيْسَرَةُ؟، قال: «خَلَّفْتُهُ فِي البَادِيَةِ»، فَقَالَتْ: عَجِّل إليه ليُعَجِّلَ بالإقبَال. وإنما أرَادَت أنْ تعلمَ أهوَ الذي رَأَتْ أمْ غيره؟، فركبَ رسولُ الله ﷺ، وصَعدتْ خديجةُ تنظرُ، فرأته على الحالة الأولى، فاسْتَيْقَنَتْ أنه هوَ. فلما دخل عليها مَيْسَرَة أخبرَته بما رَأَتْ، فقال لها مَيْسَرَةُ: قد رأيتُ هذا مُنْذُ خرَجنا إلى الشّام. ثم إنّه أخبرها بقولِ الرَّاهِبِ نسْطُورَا، وقول الآخر الذي استَحْلَفَهُ في البيع، وقصّة البعيرين، وحِينئذٍ أعطَت خديجةُ له ﷺ ضِعْفَ ما سَمَّتْهُ له، وكانت قد سَمَّتْ له ضِعْفَ ما تُعطِيه لرَجُلٍ من قومه، أي أنها أعطته أربعَ بَكَرَات. وفي الإمتاع: أنه ﷺ أجَّرَ نفسَه مِن



خديجة سَفرتين بقَلُوْصَين.

وفي السَّفْرَةِ الأولى أرسلتْهُ مع عبْدِها مَيْسَرَة إلى سوق حُبَاشَة، وهو مكانٌ بأرضِ اليَمن بينه وبين مكّة سِتُّ لَيال كانوا يبتاعون فيه ثلاثة أيام، في أوّل رَجَب من كلِّ عام، فابتاعَا منه بَزّاً ورجعا إلى مكّة، فربحَا ربحاً حسناً. وفي السَّفْرَةِ الثانية أرسلته مع عبدِها مَيْسَرَةَ أيضاً إلى الشام. وعن جابر رضي الله عنه: (أنّ خَديجةَ استأجرته ﷺ سَفرتين إلى جُرَش ـ موضع باليمن ـ كل سَفْرَةٍ بقَلُوْص)[1]. والقَلُوْصُ: هي الشَّابّةُ من الإِبل. وهذا يفيد أنه ﷺ سَافرَ ثلاث سَفَرَاتٍ بناءاً على أنَّ سُوق حُبَاشَة هو سُوقُ جُرَش، وإلا لَزِمَ أنْ يكونَ ﷺ سافرَ أربعَ سَفَرَات: ثلاثة إلى اليمن، وواحدة إلى الشام.

ثم إنّ خديجةَ ذكرت ما رَأته من الآيات، وما حدّثها به غلامُها مَيْسَرَةُ لابن عمها ورَقَة بن نَوْفل، وكان قد تتبّعَ الكتب، فقال لها: إنْ كانَ هذا حقّاً يا خديجةُ فَإِنّ مُحَمَّداً نبيّ هَذِهِ الأُمَّة، وقد عرفتُ أنه كائن لهَذِهِ الأُمَّة نبيٌّ منتظرٌ، وهذا زمانه.

وكان ﷺ يتَّجِرُ قبل النُّبُوَّةِ قبلَ أنْ يَتَّجِرَ لخديجةَ، وكان شريكاً للسّائبِ بن أبي السّائب. ولما قدم عليه السّائب يوم فتح مكة قال له: «مَرْحَباً بأخِي وَشَرِيْكِي، كَانَ لَا يُدَارِي وَلَا يُمارِي»[2]. وقد قال فقهاؤنا: الأصل في الشركة خبر السائب بن يزيد، لأنه كان شريكا للنبيِّ ﷺ قبل البعثة، وقد افتخر بشركته بعد البعثة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك [٢٩٤/٤]، برقم: (٤٨٣٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه الحافظ النسائي في السنن الكبرى [٨٦/١]، حديث رقم: (١٠١٤٤).

وقيل: أنَّ حكيمَ بنَ حِزَام اشترى منه ﷺ بَزّاً من بَزِّ تهامة بسُوقِ حُبَاشَة، وقَدِمَ به مكّة، فكان ذَلِكَ سَبباً لإرسَالِ خديجةَ له ﷺ مع عبدِها مَيْسَرَة إلى سُوقِ حُبَاشَة ليَشْتَرِيَا لها بَزّاً. وقد وقعَ منه ﷺ أنه باع واشْتَرى، إلا أنه بعد الوَحْيِ وقبلَ الهجْرة كانَ شِرَاؤُه أكثر من البيع، وبعد الهجرة لم يَبِعْ إلا ثلاثَ مَرّات، وأما شراؤه فكثير، وآجر واستأجر، والاستئجار أغلب، ووَكّلَ وتَوَكّل، وكان توكُّلُه أكثر.

بَابُ
تَزَوّجِه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بخَدِيْجَة

وهيَ خديجةُ بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصَيّ. فهي تجتمع معه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في قصي، وهي من أقرب نسائه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إليه في النسب، ولم يتزوج من ذرية قُصَيٍّ غيرها إلا أمّ حبيبة. وعن نَفِيْسَةَ بنْتِ مُنَبِّه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها قالت: (كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة قوية شريفة، مع ما أراد الله تَعَالَى لها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظَمهم شَرَفاً، وأكثرهم مالا، وأحسنهم جمالا، وكانت تُدْعَى في الجاهلية بالطّاهرة، كان يقال لها: سيدة قريش، وكلّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو قَدَرَ على ذَلِكَ، وقد طلبوها وذكروا لها الأموالَ فلم تقبلْ، فأرسلتني خُفْيَةً إلى مُحَمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعد أن رَجَع في عِيْرها من الشام، فقلت: يا مُحَمَّد ما يَمْنَعُك أن تتزوج؟، فقال: ما بيدي ما أتزوَّج به. قلت: فإن كفيت ذَلِكَ ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية، ألا تجيب؟، قال: فمن هي؟، قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذَلِك؟، قلت: أنا أفعل، فذهبتُ فأخبرتها، فأَرْسَلَتْ إليه: أنِ ائْتِ لِسَاعَةِ كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمْرو بن أسد ليُزَوِّجَها فحَضر، ودخلَ رسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في عمُومَتِه، فزَوَّجَه أحدُهم وهو أبو طالب).

وعن الزُّهْرِيّ: أنَّ المزَوِّجَ لها أبوها خُوَيْلِد بن أَسَد، وكان سَكراناً من

الخمْرِ، فألقَتْ عليه خَدِيجةُ حُلّةً، وضَمَّخَتْهُ بِطِيبٍ، فلمّا صَحَا من سُكْرِه قال: ما هذه الحُلّةُ والطيب؟، فقيل له: لأنكَ أنكَحْتَ مُحَمَّداً خَديجةَ، وقد بنى بهَا، فأنكرَ ذَلِكَ، ثمَّ رَضِيَهُ وأمْضَاه؛ وذَلِكَ لأنّ خديجةَ اسْتَشْعَرَتْ من أبيهَا أنه يَرْغَبُ عَن أنْ يزوِّجَها له، فصنعت له طعاماً وشرَاباً، ودعَتْ أباها ونفَراً من قُرَيش، فطَعِمُوا وشَرِبُوا، فلما سَكِرَ أبوهَا قالت له: إنّ مُحَمَّدَ بنَ عبدِ الله يخطُبُني فزَوِّجْنِي إيَّاه، فزوجها، فخَلَّقَتْهُ وأَلبَسَتْهُ؛ لأَنَّ إلبَاسَ الحُلّةِ وجعلَ الخلوقِ به كان عادتُهم أنْ يُفْعَلَ بالأَبِ ذَلِكَ إذَا زوَّجَ بنتَه، فلما صَحَا من سُكره، قال: ما هذا؟، فَقَالَتْ له خديجة: زوَّجْتَنِي مِنْ مُحَمَّد بن عبد الله، قال: أنا أزوِّجُ يتيمَ أبي طالب!؟، لَا لعَمْرِي، فَقَالَتْ له خديجة: ألا تَسْتَحِي، تُريد أنْ تُسَفِّهَ نَفْسَكَ عندَ قُرَيْش، تخبرُهم أنك كُنْتَ سَكرَاناً؟!، فلم تزلْ به حتّى رَضِيَ. وفي رواية: أنها عرضت نفسها عليه، فَقَالَتْ: يا ابن عَم إني قد رَغِبْتُ فيك لقَرَابتِكَ، وأمانتِك وحُسْن خُلُقِكَ، وصِدْق حَديثِكَ، فذَكرَ ﷺ ذَلِكَ لأعمَامِه، فخرجَ معه عَمُّه حمزَةُ بنُ عبدِ المطلب رضي الله عنه، حتّى دخل على خُوَيْلِدِ بن أَسَدٍ، فخطبها إليه فزَوَّجَها. وعَلى كون المزَوِّج له عمُّه حمزَة اقتصرَ ابنُ هشام في سيرتِه.

وفي كونِ المزَوِّج لها أبوها خُوَيْلِدٌ أو كونه حضر تزويجها نَظرٌ؛ لأنَّ المحفوظُ عن أهل العلم أن خُوَيْلِدَ بنَ أسَدٍ مات قبل حَرب الفِجَار، وهو الذي نَازَعَ تُبَّعًا حِينَ أرَادَ أخْذَ الحَجَر الأسوَد إلى اليمن، فقام في ذَلِكَ خُوَيْلِدٌ، وقامَ معه جماعةٌ من قريشٍ، ثم رأى تُبَّعٌ في منامه ما رَدعَه عن ذَلِكَ، فترك الحجَرَ الأسْوَدَ مكانه.

وذُكِرَ أنّ رسُولَ الله ﷺ أصْدَقَهَا عشرين بكْرَةً، وأنه لما ذَكَرَ ذَلِكَ

لأَعْمَامِهِ خرج معَهُ حمزَة بن عبد المطلب، وحضرَ أبو طالب، ورُؤَساءُ مُضَر، فخطبَ أبو طالب فقال: الحمدُ لله الذي جعلنا من ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ، وزَرْع إِسْمَاعِيْل، وضِئْضِيءِ مَعَدٍّ، وعنصرِ مُضَرَ، وجعلنا حَضَنَةَ بَيتِه، وسُوَّاسَ حَرَمِه، وجَعَلَهُ لنا بَيْتاً محجُوجاً، وحَرَماً آمِناً، وجعلنا حكَّام الناسِ...، ثم إنّ ابنَ أخِي هَذا مُحَمَّد بن عبد الله لا يُوزَنُ بِهِ رَجُلٌ إلا رَجَحَ بِه شَرَفاً ونُبلاً وفَضْلاً وعَقْلا، وإنْ كان في المال قِلٌّ، فإنَّ المالَ ظِلٌّ زَائِلٌ، وأمرٌ حَائِل، وعَارِيَةٌ مُسْتَرْجَعَة، وهوَ والله بعدَ هَذا لهُ نبأ عَظِيم، وخَطَرٌ جَلِيل، وقد خطب إليكم رَغْبَةً في كَرِيْمَتِكِمْ خَدِيجة، وقد بَذَل لها مِنَ الصَّدَاقِ مَا عَاجِلُه وَآجِلُه اثْنَتَيْ عَشرةَ أوقِيَةً وَنَشّاً.

والنَّشُّ: عشرُون درهماً، والأوقية: أربعُون درهماً، فيكون جملة الصَّدَاق خمسمائة دِرهم، وقال المحِبُّ الطَّبَرِي: كانت الأواقي والنَّشُّ من ذَهَبٍ. وقد تقدم أنه ﷺ أصْدَقَهَا عِشْرِينَ بَكْرَةً، ولامُنَافَاة في ذلك لجَوَاز أنْ تكونَ البَكَرَات عِوَضاً عن الصَّدَاق المذكور. أو أنَّ أبا طَالِب أصْدَقَهَا مَا ذَكَرَ، وزَادَ ﷺ من عِنْدِه تلكَ البَكَرَات.

وبَعْدَ أنْ خَطَبَ أبو طالب، خَطَبَ وَرَقَةُ بنُ نَوْفَل، فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرْتَ، وفضَّلنا على مَا عَدَدْتَ، فنَحنُ سَادَةُ العرَبِ وقادتُها، وأنتم أهْلُ ذَلِكَ كُلِّه، لا ينكرُ العرَبُ فضْلَكم، ولا يَرُدُّ أحدٌ منَ النّاسِ فخرَكم وشرَفكُم، وَرَغْبَتُنَا في الاتِّصال بحَبْلِكُم وشَرَفِكُم، فاشهَدُوا عليَّ مَعَاشِرَ قُرَيشٍ أنّي زَوَّجتُ خديجةَ بنتَ خُوَيْلد مِنْ مُحَمَّد بن عبد الله. ثمّ ذَكر المهْرَ. فقال أبو طالب: قد أحْبَبْتُ أنْ يَشْرَكَكَ عمُّهَا، فقَال عمُّهَا: اشهدوا عَليَّ مَعَاشِرَ قُرَيش أنّي قد أنكَحْتُ مُحَمَّد بنَ عَبد الله خَدِيجةَ بنت خُوَيْلِد. وَأَوْلَمَ عليها ﷺ، فنحرَ جَزُوراً،



وقيل جَزُورَين، وأطعمَ النَّاسَ، وأمَرَتْ خَديجةُ جَوَارِيهَا أنْ يَرْقُصْنَ ويَضْرِبْنَ الدُّفُوفَ، وفَرِحَ أبو طالب فَرحاً شَدِيداً، وقَال: الحمدُ لله الذي أذْهَبَ عنّا الكرْبَ، ودفعَ عنّا الغُمُومَ. وهيَ أوَّل ولِيْمَةٍ أوْلَمَهَا رسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

عَن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ عِنْد أبي طَالب، فأسْتَاذَنه أنْ يتَوَجَّه إلَى خَدِيجَة، ـ وذَلِكَ بعد أن طلبتْ منه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الحضورَ إليها، وقبلَ أنْ يتزوجها ـ فَأذن لَهُ، وَبعث بعدَه جَارِيَةً لَهُ يُقَال لَهَا نَبْعَة، فَقَالَ لَهَا: انظري مَا تَقول لَهُ خَدِيجَة، قَالَت نَبْعَة: فخَرجَت خَلفهُ، فَرَأَيْت عَجَباً، ما هوَ إِلَّا أَن سَمِعت بِهِ خَدِيجَة، فَخرجت إِلَى الْبَاب، فَأخذَتْ بِيَدِهِ فضَمَّتْهَا إِلَى صَدْرهَا ونَحْرِهَا، ثمَّ قَالَت: بِأبي وَأمِّي، وَالله مَا أفعل هَذَا الشَّيْء، وَلَكِنِّي أَرْجُو أَن تكونَ أَنْت النَّبِيَّ الَّذِي سَيُبْعَثُ، فَإِن تكن هُوَ فأعْرِف حَقِّي، ومنزلتي، وادعُ الْإِلَه الَّذِي سَيَبْعَثك لي. فقَالَ لها: «وَالله لَئِنْ كُنْتُ أَنا هُوَ قَدِ اصْطَنَعْتِ عِنْدِي مَالَا أُضَيِّعُهُ أَبَداً، وَإِنْ يَكُنْ غَيْرِي فَإِنَّ الإِلَهَ الَّذِي تَصْنَعِينَ هَذَا لِأَجْلِهِ لَا يُضَيِّعكِ أَبَداً»[1].

وكان تزْوِيجهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بخديجةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بعد مجيئه من الشّام بشهرين، أو بخمسة عشر يوماً، وعمرُه إذ ذاك خمس وعشرون سَنةً على الصحيح الذي عليه الجمهور. وتزوجها رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهي يومئذ بنت أربعين سنة. وقيل: ثلاثين، وقيل: خمس وثلاثين، وقيل: ثمان وعشرين، وقيل: خمس وعشرين. وتزوَّجتْ قبله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ برَجُلين. أوّلهما: عَتِيق بن عَابد، فولدت له بنتاً اسمها هند، وهيَ أم مُحَمَّد بن صيفي المخزومي. وثانيهما: أبو هالة، واسمه هند، فولدت له ولداً اسمُه هَالة، وولداً اسمُه هند، وكان هندٌ هذا يقول: أنا أكرم الناس

(١) ذكره الإمام الفاكهي في [أخبار مكة ـ (٢٠٦/٥)]، برقم: (١٥٧).

أباً وأمّاً وأخاً وأُخْتاً، أبي رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لأنه زوْجُ أمّه ـ وأمّي خديجةُ، وأخي القَاسِمُ، وأختي فاطمة. وقد قُتِلَ هِنْدٌ مع عَليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه يومَ الجمَل. وقيل: ماتَ بالطّاعُون بالبصرة، وكان قد مات في ذَلِكَ اليوم نحوٌ من سبعين ألفاً، فشُغِلَ النّاسُ بجنائِزهِم عن جَنَازَتِه، فلم يُوجَدْ من يحمِلُهَا، فصَاحَتْ نادِبَتُه: وَاهِنْدَاهُ بنُ هِنْدَاهُ، وَارَبِيبَ رَسُولِ الله. فلَمْ تبقَ جنازَةٌ إلّا تُرِكَتْ، وَاحْتُمِلَتْ جَنَازَتُه على أَطرَافِ الأَصَابعِ، إعظاماً لرَبِيْبِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بَابُ
بُنْيَان الكَعْبةِ شَرَّفَهَا الله

لما بلغَ رسولُ الله ﷺ خمساً وثلاثينَ سنةً على الصّحيح، جاءَ سَيْلٌ حتى أتى مِن فوقِ الرَّدْمِ الذي صَنعُوه لمنع السَّيل، فَدَخَلها وصَدَّعَ جُدْرَانَها، فخافوا أنْ تُفْسِدَها السّيولُ وتذهِبَها بالمرَّةِ، وكان ارتفاعُ البيتِ تسعةَ أَذْرُعٍ، ولم يكُنْ لها سَقفٌ، وكان الناس يُلقون الحُليَّ والطيبَ الذي يُهدَى للكعبة في بئرٍ دَاخلها، عند بابها على يمين الداخل منه، أعدت لذَلِكَ يقال لها: (خِزَانَةُ الكعبة). فأراد شخصٌ في أيام جُرْهَمٍ أَنْ يَسْرِقَ من ذَلِكَ شيئاً فوقعَ على رأسِه وانْهَارَ البئرُ عليه، وقيل: سقط عليه حَجَرٌ فحبسه في تلك البئرِ حتى أُخْرِجَ منها وانتزع المال منه، وعند تَكَرُّر السّرقة بعثَ الله حيّةً بيضَاءَ، سوداءَ الرّأسِ والذّنبِ رأسُها كرَأس الجَدْي، فأسكنها تلك البئر لحفظ تلك الأمتعة، وكانت قد تخْرُجُ، فتَبْرُزُ للشّمسِ على جَدار الكعبة، فيُبرِقُ لونُها، وربما التَفّتْ عليه، فتُصَيِّرُ رَأسَها عندَ ذنبِها، فلا يدنو منها أحدٌ إلا صَوّتَتْ وفتَحَتْ فَاها، فحَرَسَت خِزَانةَ البيتِ الحَرَام خمسمائةِ عام، لا يقربُه أحَدٌ إلّا أهلكَتْهُ، واستَمرّتْ حتى الزَّمن الذي أرادتْ فيه قريشٌ بناء الكعبة.

فلما وُجِدَ هذا السّيل، أرَادُوا هدمَ الكعبة وإعادَةَ بنائِها، وأَنْ يُشَيِّدُوا بنيانها، ويرفعوا بابَها، حتى لا يدخلها إلا من شاؤوا، واجتمعت القبائل من قريش تجمع الحجارة كل قبيلة تجمع على حِدَة، وأعدوا لذَلِكَ نفقة طيبة، ليسَ

فيها مَهْر بَغِيٍّ ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ، وذلك بعد أن قام أبو وهب عمرو بن عابد ، خَال عبد الله أبي النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان شريفاً في قومه ، فتناول منها حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال عند ذَلِكَ: يا مَعْشر قريش ، لا تدخلوا في بنيانها من كسْبكم إلا طيّبا. ولما رأوا ذلك منه هابوا هدمَها ، وخافوا من أن يحصُلَ لهم بسببه بلاءٌ. فقال الوليدُ بن المغيرة لهم: أتريدون بهدمها الإصلاحَ أم الإساءة؟ ، فقالوا: بل نريدُ الإصلاحَ ، قال: فإنّ الله لا يهلك المُصْلِحِين ، فقالوا: فمَن الذي يعلوها فيهدمها ، فقال: أنا أعلوها ، وأنا أبدؤكم في هدمِها ، فأخذَ المعولَ ، ثم قام عليها ، وهو يقول: اللَّهُمَّ لم نَزُغْ عن دينِكَ. ثم هدَمَ من ناحية الرُّكنَين ، فتربَّص النّاسُ تلك الليلة ، وقالوا: ننظرُ ، فإنْ أصيبَ لمْ نَهْدِمْ منها شيئاً ، ورَدَدْناهَا كما كانت ، وإنْ لم يُصِبْهُ شيءٌ هدمناها ، فقد رَضِيَ اللهُ ما صنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غادياً إلى عمله ، فهدم وهدم الناسُ معه ، حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس ، وأفضوا إلى حجارة خُضْر كالأسنمة في العِظَم ، آخِذٌ بعضُها ببعضٍ ، فأدخل رَجُلٌ ممّن كَان يهْدِمُ عَتَلَتَهُ بين حَجرين منهما ليقلع بها بعضها ، فلما تحرك الحجَرُ انْتَفَضَتْ مَكّةُ وتحرّكت بأسرِهَا ، وأبصرَ القَومُ برْقَةً خرَجَتْ مِن تحتِ الحجَر كادَت تخطَفُ بصرَ الرَّجُل ، فانتهوا عَن ذَلِكَ الأَسَاس.

وقيل: أنهم هابُوا هدمها من أجل تلك الحيّة العظيمة ، وأنهم كانوا كلّما أرادوا القُربَ من البيتِ ليهدمُوه بدَت لهم تلكَ الحيّةُ فاتحة فاها ، فاجتمعوا عند المقام ، وعجُّوا إلى الله تَعَالَى ، وقالو: ربنا لن نُرَاع ، أردنا تشريفَ بيتك وتزيينه ، فإن كنت تَرْضَى بذَلِكَ فأتمّه ، واشغلْ عنّا هذا الثعبان ، وإلا فما بدا لك فافعل.

فبينما هيَ تُشْرِفُ على جدار الكعبة كما كانت تصنع إِذْ بعثَ الله طائراً أعظمَ من النّسْر، فاختطفها وألقاها في الحجون، فالتَقَمَتْها الأرضُ، فَقَالَتْ قريشٌ عند ذَلِكَ: إنا لنَرْجُو أَنْ يكونَ الله تَعَالَى قد رَضِيَ ما أَرَدْنا، وشرَعُوا في الهدْم.

وكان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقلُ الحجارة مع قريش، وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما، قال: (لما بُنِيَت الكعبة ذهبَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والعبّاسُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه ينقلان الحجارةَ، فقال العباسُ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة كبقية القوم ـ فإنهم كانوا يضعون أزرهم على عوَاتقهم، ويحملون الحجارة ـ، ففعل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخرَّ إلى الأرض، فَطَمَحَت عيناهُ إلى السماء، ونُودِيَ: عَوْرَتك، فشَدّ عليه إزَاره)[1]. ولا يتنافى هذا مع ما ذُكِرَ أَنَّ من خصَائصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّه لم تُرَ عورته قَطّ، وأنه لو رآها أحَدٌ طُمِسَتْ عَيَناه؛ لأنه لا يلزم من كشف عورته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَتُها، كما لم يلزمْ ذَلِكَ من حَضَانَتِه وتَرْبِيَتِه ومُجامَعَةِ زَوْجَاتِه. وقد جاء عن عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها أنها قالت: (مَا رَأيتُ مِنْهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[2].

وكان لقيصر ملك الرّوم سفينةٌ يُحْمَلُ له فيها الرُّخَام والخشَب والحديد، سَرَّحَها مَع بَاقُوْم إلى الكنيسة التي حَرَّقَها الفُرْسُ بالحبَشَة، فلما بلغَتْ مرسَاها من جُدّة، بعثَ الله تَعَالَى عليها ريحاً فحَطّمَتها، فخرج الوليدُ بن المغيرة في نَفَرٍ من قريش إلى السّفينة فابتاعوا خَشَبَها، وأعدوه لسَقْفِ الكَعْبة، وكان بَاقُوْم

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك [١٩٩/٤]، برقم: (٧٣٥٧)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وليُعْلَم: أنّ كلَّ ما ورَدَ فيه ذكر انكشاف عورته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من مثل هذا الخبر، فإن المقصود به إنكشاف ما دون السوأتين؛ لأن الله ﷻ تولى حفظه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم يَرَ أحدٌ عورته.

(٢) ذكره الحافظ السيوطي في الجامع الصغير من حديث البشير النذير [١٤٢/١]، برقم: (١٧١٨).

الرّومي الذي كَان بالسّفينة نَجَّاراً بَانِياً، فجَاؤُوا به معهم إلى مكّةَ فكان هو البانِي للكعبة. ولما أرادوا بنيانها تَجزَّأَتْهَا قريشٌ أربعة أرباع، فكان شِقُّ الباب لبني عبد مناف وبني زهرة، وكان ما بين الرُّكنين الأسود واليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهرُ الكعبة لبني جمح وبني سهم ابني عمرو، وكان الجانب الذي فيه الحِجْرُ الآنَ لبني عبد الدار ولبني أسد ولبني عدي، ثم لما بنوها زادوا فيها تسعة أَذْرُعٍ، فكانَ ارتفاعُها ثمانية عشر ذراعا، ورفعوا بابها من الأرض، فكان لا يُصْعَدُ إليها إلا في دَرَجٍ، وضاقت بهم النّفقةُ عن بنيانها على تلك القواعد، فأخرجوا من عرضها أذْرُعاً من الحِجْرِ، وبنوا عليه جِداراً قصيراً علامةً على أنه مِنَ الكعبة.

ولما بلغَ البنيانُ موضعَ الحجَرِ الأسودِ اختصموا فيه، كُلُّ قَبِيلةٍ تريدُ أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى أعَدّوا للقتال، ومكثَ النِّزاعُ بينهم خمسَ ليَالٍ، ثم اجتمعوا في المسجد الحرام، وكان أبو أمية بن المغيرة، أَسَنَّ رَجُل في قُرَيش كلها يومئذٍ، وهو والد أمِّ المؤمنين أمّ سَلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وأحدُ أجوَاد قريش المشهورين بالكرَم، وكان يُعرَفُ بِزاد الرَّاكب؛ لأنه يكفي كلّ مَنْ سَافَر معه الزَّادَ. فقال: يا معشرَ قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول مَن يدخلُ مِن بابِ هذا المسجد يقضي بينكم. فكان أوَّلَ دَاخِلٍ منه رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمينُ هذا مُحمَّد، رضينا، وكانوا يتحاكمون إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجاهلية، لأنه كان لا يُدَارِي وَلا يُمارِي، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبرَ، وضع رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِداءَه على الأرض، ثم أخذَ الحجَرَ الأسودَ، فوضعه فيه بيَدِه الشّريفة، ثم قال: «لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ

جَمِيعاً» ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضِعَه وضَعَهُ هوَ ﷺ بيَدِه الشّريفة في مكانه .

ولما وضعَ رسولُ الله ﷺ الحجَرَ الأسودَ ذهب رجُلٌ مِن أهْلِ نَجْدٍ لِيُناوِلَ النَّبيَّ ﷺ حَجَراً يَشُدّ به الرُّكْنَ ، فقال له العباس: لا ، ونَاولَ العَبّاسُ رسولَ الله ﷺ ما شَدّ به الرّكنَ ، فغَضِبَ النَّجْدِي ، وقال: واعَجَباً لقومٍ أهلُ شَرَفٍ وعُقُولٍ وأَمْوَالٍ ، عَمَدوا إلى رَجُلٍ أَصْغَرهم سِنّاً وأقلّهُم مَالاً ، فرَأسُوه عَليهم في مَكْرُمَتِهم كأنّهُم خَدَمٌ له ، أمَا والله ليُفَرِّقَنّهم شِيَعاً. فكَادَ يُثِيرُ شَرّاً فيمَا بينهم ، وَلعَلّ هَذا النّجْدِي هو إبليسُ ؛ فقد ذكر السهيلي: أنّ إبليسَ تمثّل في صُورَةِ شيخ نجْدِي حين حَكّمُوا رسولَ الله ﷺ في أمرِ الرُّكن من يرفعه؟ ، فصَاح: يا معشر قريش ، أرضِيتُم أنْ يَلِيَ هذا الغُلامُ دُوْنَ أشْرَافِكُم؟. ولما فرغوا من بنائِها كسَاها زعماؤهم أرديتهم ، ولم يَكْسُها أحدٌ بعد ذَلِكَ حتى كسَاها رسُولُ الله ﷺ الحِبَرَات في حَجّة الوَداع .

وهذه هي المرّة الرابعة من بناءِ الكعبة ، بناءً على أن أوّل من بناها الملائكة . وفي بعض الآثار أنّ الله ﷻ قبل أنْ يخلقَ السماوات والأرض كانَ عرشُه على الماء ، فلما اضطربَ العرشُ كتبَ عليه: (لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله ﷺ) ، فسكن ، فلما أراد أن يخلق السماوات والأرض أرسل الريحَ على ذَلِكَ الماء فتَمَوَّجَ فعَلاهُ دُخَانٌ ، فخلق من ذَلِكَ الدخان السماوات ، ثم أزال ذَلِكَ الماء عن موضع الكعبة فيبس ، وبسط الله ﷻ من ذَلِكَ الموضع جميع الأرض طولها والعرض ، ولما ماجت الأرض وضع عليها الجبال ، فكانَ أوّلُ جبَلٍ وُضِعَ عليها هو جبَلُ أبي قبيس.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما قال: (أصلُ طينةِ رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سُرَّةِ الأرض بمَكّة). ولعل تلك الطينة لما تمَوَّجَ الماء رُمِيَ بها مِن مَكّة إلى محل تربته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَدْفَنِه بالمدينة، وبهذا يندفع ما يُقَال: مُقْتَضى كونِ أصْل طينته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة أنْ يكونَ مدفنه بها، لأنّ تربةَ الشّخصِ تكونُ في محَلّ مَدْفَنِهِ، ثم عُجِنَتْ تلك الطينة بطينة آدم، ولعَلّ هذه الطينة هي المعبر عنها بالنّور في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قال له جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا رسولَ الله أخبرني عن أوّلِ شيءٍ خلقه الله تَعَالَى قبل الأشْيَاء، فقال: «يَا جَابِرُ، إِنّ اللهَ خَلَقَ قَبْلَ الأَشْيَاءِ نُورَ نَبِيِّكَ مِنْ نُورِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ لَا سَمَاءٌ وَلَا أَرْضٌ وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ وَلَا لَوْحٌ وَلَا قَلَمٌ»[1]، إذْ كيف يَتَأَتّى ذَلِكَ مع قول كعب الأحبار: (أمرَ الله جبريلَ أنْ يأتيَه بالطّينة التي هيَ قلبُ الأرض..) إلى آخره؟، ومع قول ابن عباس: (أصلُ طينَةِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سُرَّةِ الأرض)؟، إلا أنْ يقالَ: بأَنّ ذَلِكَ النّور بعد إيجادِهِ أُودِعَ في تلك الطّينة التي هيَ قلبُ الأرض وسرّتها.

وعن كعب الأحبار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (لما أراد الله تَعَالَى أن يخلق مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَ جبريلَ أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤُها ونورُها، فَقَبَضَ قَبْضَةَ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من موضِع قبرِه الشّريف، وهيَ بيضاءُ منيرة،

---

(١) هذا جزء من حديث ذكره بطوله الإمام الجراحي في كتابه [كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس ـ (١/٢٦٥)]، برقم: (٨٢٧)، وعزاه للمَوَاهب، وذكر أن عبد الرزاق رواه بسنده عن جابر بن عبدالله. وذكر نقلاً عن الشّبراملسي أنه قال: ليس المرادُ بقوله: «مِنْ نُوْرِه» ظاهرَه وأن الله تعالى له نور قائم بذاته لاستحالته عليه؛ لأن النور لا يقوم إلا بالأجسام، وإنما المراد خلق من نور مخلوق له قبل نور مُحَمَّد وأضافه إليه تعالى لكونه تَوَلّى خلقه، أو أنه تعالى تعلقت إرادته بإيجاد نور بلا توسّط شئ في وجوده، وهذا نظير ما ذكره البيضاوي في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]، أنه أضافه إلى نفسِه تَشْريفاً.

لها شعاع عظيم). وحينئذ لا يخالف ذَلِكَ ما جاء أن الله خلق آدم من طين العِزَّةِ من نورِ مُحَمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجنس العالي لجميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس.

ثم لما نُفِخَت الرّوحُ في آدم صَارَ ذَلِكَ النّور في ظهر آدم، فصَارتِ الملائكةُ تَقِفُ صُفوفاً خلفَ آدم، يتعجّبُون من ظهورِ ذَلِكَ النّور، فقال آدم: يا رب، ما بَالُ هَؤلاءِ ينظرون إلى ظهري؟، فقال له: «يَنْظُرُونَ إِلَى نُورِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ الذِي أُخْرِجُهُ مِنْ ظَهْرِكَ»، فسأل الله تَعَالَى أن يجعله في مقدمه لتستقبله الملائكة، فجعله الله في جبهته، ثم سألَ الله تَعَالَى أن يجعله في مَحَلٍّ يرَاه، فكان في سَبَّابَتِه، فلما أُهْبِطَ آدمُ إلى الأرض، عاد ذَلِكَ النّورُ إلى ظهره، ثم انتقل ذَلِكَ النورُ من آدم إلى ولده شيث، ثم لم يزل ينتقل في الأصلاب حتى وصَل إلى صُلْبِ عبدِ الله بن عبد المطلب والدِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما قالَ اللهُ تَعَالَى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، ويعنون بذلك الجنَّ الذين أفسدوا فيها وسفكوا الدماء. ولما عَلِمَتِ الملائكة أَنّ ما قالوه رَدّاً على ربِّهم قد يُغْضِبُه عليهم، فلاذوا بالعَرشِ وطافوا به سبعَ مرّاتٍ يسْتَرْضُونَ رَبّهُم فرَضِي عليهم، وعند ذَلِكَ قال لهم: «ابنُوا لِي بَيتاً فِي الأَرْضِ يَعُوذُ بِهِ مَنْ سَخِطْتُ عَلَيهِ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَيَطُوفُونَ حَولَهُ كَمَا فَعَلْتُمْ بِعَرْشِي فَأَرْضَى عَنْهُمْ»، فبنوا الكعبة.

وقيل: أنهم خافوا أن يكونَ الله تَعَالَى قد غضبَ عليهم لاعتراضهم، فطافوا بالعرش سبعاً يسترضونه، ويتضرعون إليه، فأمرهم أن يبنوا البيتَ المعمورَ في السماء السابعة، وأن يجعلوا طوافهم به، فكان ذَلِكَ أهون عليهم من الطّواف

بالعرش، ثم أمرَهم أن يبنوا في كل سماءٍ بيتاً، وفي كلّ أرضٍ بيتاً، فهي أربعة عشر بيتا متقابلة، لو سَقطَ بيت منها لسقطَ على مقابِله، والبيتُ المعمور في السماء السابعة، وله حُرْمَةٌ كَحُرْمَةِ مكّةَ في الأرض، واسمُ البيت الذي في السماء الدنيا بيتُ العِزّة، ففي كل سَماءٍ بيتٌ تعمُره الملائكةُ بالعبادةِ كما يعمرُ أهلُ الأرضِ البيتَ العتيقَ بالحجِّ في كلّ عام، والاعتمارِ في كلّ وَقْتٍ، والطّوَافِ في كُلّ أوَان.

وقال بعضُهم: إنّ ما تقدم من الأثرين الدّالين على أن أول من بناها الملائكة لم يصح. وإذا لم يَصِحْ أَنّ الملائكةَ بنَتِ الكَعْبَةَ فتكونُ هذِه المَرَّةُ مِن بناءِ قريشٍ هِيَ المرّةُ الثّالِثَةُ، بناءً على أَنّ أوّلَ من بناها آدمُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت قبل بناءِ آدم لها خَيمَةً من يَاقُوتَةٍ حمْرَاء، أنزلت لآدم من الجنة لها بابان: بابٌ من زمرّد أخضر شرقي، وباب غربي من ذهب، منظومان من دُرِّ الجنّة، فكان آدم يطوفُ بها ويأنس إليها، وأنزلَ عليه الحَجَرَ الأسْوَدَ وهو يتلألأُ كأنه لؤلؤةٌ بيضَاء، فأخذه آدم فضَمَّه إليه اسْتِئْنَاساً به.

وجاءَ أنّ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نزل من الجنّة ومعه الحجرُ الأسود تحْتَ إِبْطِه، وهو ياقوتة من يواقيت الجنّة، ولولا أنّ الله تَعالَى طَمَسَ ضوءَه ما استطاع أحدٌ أَنْ ينظرَ إليه، وأنّ آدمَ أتى البيتَ المعمور ألفَ مَرَّة من الهِنْدِ مَاشِياً، من ذَلِكَ ثلاثمائة حجّة وسبعمائة عُمْرة، وأول حجة حجها جاءه جبريل وهو واقف بعرفة فقال له: يا آدم بِرَّ نُسُكَك، أمَا إنّا قد طُفْنَا بهذا البيتِ قبل أَنْ تخلق بخَمْسِين ألف سنة. وفي رواية: لما حَجّ آدمُ استَقْبلتْهُ الملائكةُ، فقالوا: بِرَّ حَجَّك يا آدمُ، قد حَجَجْنا هذا البيتَ قبلك بألفِ عام. فقال آدم للملائكة: فَمَا كُنْتُم تَقُولونَ

حَولَه؟، قالوا: كنّا نقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. فقال آدم: زيدوا فيها: ولا حول ولا قوة إلا بالله. وكان آدم إذا طاف يقول ذلك، ولما فرغ من الطّواف صلى ركعتين تجاه بابِ الكعبة، ثم أتى محلّ الملتزم فقال: اللّهُمَّ إنّكَ تَعْلَمُ سَرِيرَتي وعَلانِيّتي، فاقبَلْ مَعْذِرَتِي، وتَعْلَمُ ما في نَفْسِي وما عندي فاغفر لي ذنبي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي.

وجاءَ أنّ جبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعثه الله تَعَالَى إلى آدمَ وحوّاء عليهما الصَّلَاة وَالسَّلَام، فقال لهما: إنّ الله تَعَالَى يقول لكما: «ابْنِيَا لِي بَيتاً». فخَطّ لهما جبريلُ، فجعل آدمُ يحفِرُ وحوّاء تنقلُ التّرابَ، حتى نُودِيَ: حسبُكَ يا آدمُ. ثم قَذَفَتِ الملائِكةُ الصّخر في ذلك الحفْرِ، ما يطيق الصّخْرَةَ ثلاثون رجلاً. وفي بعضِ الروايات: أنّ آدمَ وحوّاء عليهما الصَّلَاة وَالسَّلَام لما أسَّسَاه، نزلَ البيتُ مِن السّماءِ مِن ذهبٍ أحمَرَ وُكِّلَ به مِن الملائكةِ سَبعونَ ألف ملك فوضعوه على أساس آدم، ونزل الرّكن فوُضِعَ موضِعَه من البيتِ اليوم، فطافَ به آدمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما كان يطوفُ به قبل ذَلِكَ. وبهذا تجتمع الروايات. وحينئذٍ لا مانع مِن أنْ يُنْسَبَ بناءُ هذا الأساسِ الذي وضعَتِ الملائكةُ عليه تلك الخَيمَةَ لآدم، ولَا أَنْ يُنْسَبَ للملائكة. أما نسبته للملائكة فواضح. وأما نسبته لآدَمَ فلأنه السّببُ فيه، أو لأنه شاركَ مع الملائكة في إلقاءِ الصّخر، ووَضْع بعْضِه على بعْضٍ، وعلى نسبةِ بناءِ ذَلِكَ الأساس للملائكة ولآدم يُحتَمَلُ القولُ: بأنّ أوّلَ مَن بنى الكعبةَ الملائكةُ، والقولُ: بأنّ أوّلَ مَن بنى الكَعْبَةَ آدمُ.

واستمر ذَلِكَ البيت الذي هو الخيمة إلى زمن نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلما كان الغَرَقُ بعث الله تَعَالَى سبعينَ ألف ملك فرفعوه إلى السماء، وبقيت قواعِدُه التي

هي الأساس، ثم إنّ السفينةَ طافت بأهلِها الأرضَ كلّها في ستة أشهر لا تستقرُّ على شيءٍ، حتى أتت الحرَم فلم تدخله ودارَتْ به أسبوعاً، وقد رفعَ الله البيتَ الذي كان يحجه آدم صيانة له من الغرق. وجاء: أنّ نوحاً قال لأهل السفينة وهي تطوف بالبيت العتيق: إنكم في حَرَم الله وحَولَ بيتِه، لا يَمَسُّ أحَدٌ امرَأةً، وجعل بينهم وبين النساء حَاجِزاً. ويُذْكَرُ أنّ ولَدَهُ حَاماً تعَدَّى وَوَطِئَ زَوْجَتَه، فدعَا عليه بِأنْ يُسَوِّدَ الله لونَ بَنِيهِ، فأجابَ الله دعاءَه في أولاده، فجاءَ ولدُه أسْوَد.

ولما أراد إبراهيمُ بناءَ الكعبةِ مع ابنِه إسماعيلَ عليهما الصَّلَاة وَالسَّلَام بأمر من الله تعالى، جاءَ جبريلُ عليه السلام فضربَ بجناحِه الأرضَ، فأبرزَ عن أسَاسٍ ثابتٍ على الأرض، ثمّ بناها إبراهيمُ الخليل عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على ذَلِكَ الأساس، ويقال له: (القواعد)، وهذا الأساس كما علمت لآدم أو للملائكة، وإنّما قيل له أساس إبراهيم وقواعد إبراهيم لأنه بَنَى على ذَلِكَ ولم ينْقضْه. ومما يَدلّ لذلك ما جاء في بعض الروايات: «أَنَّ مَكَانَ البَيتِ دَرَسَ أَوْ دَثِرَ بَينَ نُوحٍ وإِبْرَاهِيمَ عَلَيهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَانَ مَوْضِعُهُ أَكَمَةً حمْرَاءَ، وَكَانَ يَأْتِيهِ المَظْلُومُ وَالمتَعَوِّذُ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ، وَمَا دَعَا عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ»[1].

ثم لما ارتفع البناءُ جاءَ بالمقام وهو الحَجَر المعروف، فقام إبراهيمُ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه وهو يبني، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وصار كلما ارتفع البناء ارتفع به المقام في الهواء حتّى أثر

(١) ذكر بعضه الحافظ السيوطي في [جامع الأحاديث - (٤٤١/١٢)]، برقم: (١٢٢٥٨)، بلفظ: «دثر مكان البيت فلم يحجه هود ولا صالح حتى بوأه الله لإبراهيم». عن عائشة رضي الله عنها. وعزاه للديلمي [٢/٢٢٠]، برقم: (٣٠٧٢). ولابن عدي [٢٥١/١]، في ترجمة ٧٩ - إبراهيم بن مُحَمَّد.



قدم إبراهيم في ذَلِكَ الحَجَر. وجعل ارتفاع البيت تسعة أذرع، وعرضه ثلاثين ذراعا، ولم يجعل له سقفا ولا بناه بمَدرٍ، وإنما رَصّهُ رَصّاً، وجعل لها باباً لاصِقًا بالأرضِ غير مرتفع عنها، ولم ينصب عليه باباً يُقْفَلُ، وحفر له بئراً داخِله عند بابه على يمين الداخل منه، يلقى فيها ما يهدي إليه، وكان يقال لها: (خزانة الكعبة)، كما تقدّم. ولما أراد أن يجعل حَجَراً يَجْعَلُه عَلَماً للنّاس يَبْتَدِئونَ الطوَافَ منه ويختمون به، ذهب إِسْمَاعِيْلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إلى الوادِي يطلبُ حَجَراً، فنزل جبريلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالحجرِ الأَسْوَدِ من الجنّةِ يتلألأ نوراً، فكان نورُه يُضِيءُ إلى منتهى أبوابِ الحرم من كل ناحِيَة، وإنّما اسْوَدَّ لمّا لمسَته النساءُ الحُيَّضُ في الجاهِلِيّة، وجَاءَ: أنّ خطايا بني آدمَ هِيَ التي سَوَّدَتْهُ.

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما، أنه قال عند المقام: أشهدُ بالله لسمعت رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «الرُّكْنُ وَالْمقَامُ يَاقُوتَتَانِ مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ، طَمَسَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نُورَهُمَا، وَلَوْلَا أَنَّ الله طَمَسَ نُورَهُمَا لَأَضَاءَتَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمغْرِبِ»[1]، وجاء: «أنّهمَا يَقِفَان يومَ القِيَامَةِ وهمَا في العِظَمِ مِثْلُ جبل أبي قُبَيْس، يَشْهَدَانِ لِمَنْ وَافَاهُمَا بِالوَفَاءِ»[2]. وعَنِ ابنِ عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَيْسَ فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا الرُّكْنَ وَالْمقَامَ، وَإِنَّهُمَا جَوْهَرَتَانِ مِنْ جَوْهَرِ الْجَنَّةِ، وَلَوْلَا مَا مَسَّهُمَا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ مَا مَسَّهُمَا ذُو عَاهَةٍ إِلَّا شَفَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ»[3].

وعن جعفر الصّادق رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه قال: لما خلقَ الله الخلقَ، قال

---

(١) أخرجه الإمام البيهقي في السنن الصغرى ـ [٤/٤١]، برقم: (١٢٨٧).

(٢) أخرجه الإمام أبو القاسم الطبراني في المعجم الأوسط ـ [٣/١١٩]، برقم: (٢٦٦٥) عن ابن عباس.

(٣) أخرجه الإمام الفاكهي في [أخبار مكة ـ (١/٤٤٣)]، برقم: (٩٦٨).

لبني آدم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فكتبَ القلمُ إقرارَهم، ثُمّ أَلْقَمَ ذَلِكَ الكِتَابَ الحَجَرَ، فهذا الاستلام له إنما هو بيعة على إقرارِهم الذي كانوا أقرّوا به. وقال رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه: كان أبي علي رضي الله عنه إذا استلم الحجرَ يقول: اللَّهُمَّ أمانتي أديتها، وميثاقي وفّيْتُ به؛ ليشهدَ لي عندك بالوفاء. وفي كلام السهيلي: إنّ العهد الذي أخذه الله تَعَالَى على ذرية آدم، حين مسح ظهره، أن لا يشركوا به شيئا، كتبه في صَكٍّ وألقمَه الحجَرَ الأسود، ولذَلِكَ يقول المستلم: اللَّهُمَّ إيماناً بك، ووفاءً بعهدِك. وقد جاء: «الحَجَرُ الأَسْوَدُ يَمِينُ الله في الأَرْضِ»[١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه لما دخلَ المطاف، قام عند الحَجَر، وقال: والله إني لأعلم أنك حَجَرٌ لا تضُرُّ ولَا تنْفَعُ، ولولا أني رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يُقَبِّلُكَ مَا قَبّلْتُكَ. فقال له علي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه: بلى يا أميرَ المؤمنين، هو يضرُّ وينفعُ. قال: ولمَ؟، فقال: ذاكَ في كتابِ الله، قال: وأين ذَلِكَ من كتاب الله؟، فقال: قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، الآية. كتَبَ ذَلِكَ في رَقّ، وكانَ هذا الحَجَر له عينان ولسَان، فقال له: افتح فاك فألقمه ذَلِكَ الرّق، وجعله في هذا الموضع، وقال له: تَشْهدُ لمن وَافاكَ بالموافاة يوم القيامة. فقال عمر رضي الله عنه: (أعوذ بالله مِنَ العَيشِ فِي قَومٍ لَسْتَ فيهم يَا أبا الحَسَن)[٢].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما: أنّ إبراهيمَ صلى الله عليه وسلم لما فرَغَ من

---

(١) أخرجه الإمام الحاكم في المستدرك [٦٢٧/١]، برقم: (١٦٨١) عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه بطوله الإمام البيهقي في شعب الإيمان ـ [٤٨٠/٥]، برقم: (٣٧٤٩)، وأصله في الصحيح.

بناءِ البيتِ، قال: يا ربّ قد فرغتُ، قال: أذِّنْ في الناس بالحجِّ، قال: أي رَبِّ ومَن يبلغُ صوتي؟، فقالَ اللهُ جل ثناؤه: أذِّنْ وعَليَّ البَلاغُ، قال: أي رَبِّ كيف أقول؟، قال: قل: يَا أَيُّها النّاسُ كُتِبَ عَليكُمُ الحَجُّ إِلَى البيتِ العتيق فأجيبوا ربّكُم ﷻ، فوقفَ على المقام وارتفعَ به حتى كان أطْوَل الجبال، فنادى وأدخل أصْبَعَيهِ في أذنيه، وأقبل بوجْهِه شَرْقاً وغرباً ينادي بذَلِكَ ثلاث مرات، وزُوِيَتْ الأرضُ له يومئذٍ سهلها وجبلها وبحرها وبرها وإنسها وجنها حتى أسمعهم جميعاً، فقالوا: لبيك اللَّهُمَّ لبيك، وبَدَأ بشِقّ اليَمَنِ، فكان أوّلَ مَن أجَابَ أهْلُ اليَمن، أو كَانَ أهل اليمن أكثرُ إجَابَةً. ومِن ثَمَّ جَاءَ في الحَدِيْث: «الإِيْمَانُ يَمَانٍ»(١).

وفي رواية: أنّ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نادى: (إِنَّ رَبَّكُمْ قَدِ اتَّخَذَ بَيتاً وَطَلَبَ مِنْكُمْ أَنْ تَحُجُّوهُ فَأَجِيبُوا رَبَّكُمْ)، كرر ذَلِكَ ثلاث مرات، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة: (لبيك اللَّهُمَّ لبيك)، فليس حاج يحج إلى أن تقوم الساعة إلا ممن كان أجاب إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ومن لبّى تلبية واحِدَةً حَجَّ حجّةً واحِدةً، ومن لبّى مرّتين حجَّ حجتين، وهكذا(٢).

ولما فرغ من نِدَائِهِ ذهب به جبريل، فأَرَاه الصَّفا والمرْوَة وحدود الحرم، وأمرَه أن ينصب عليها الحجارة، ففعل وعلمه المناسك مع إِسْمَاعِيْل عليهما الصَّلَاة وَالسَّلَام.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [١٥٩٤/٤]، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن برقم: (٤١٢٧).

(٢) ذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة [٤١/١] وقال: هو من نسخة محمد بن الأشعث وعامتها مناكير.

ثم بنى البيتَ الحرَام العَمالِيق، وهُم مِن ولَدِ عِمَلاق بن لَاوِذ بن سَام بن نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، قدِمُوا مكةَ لما قَدِمَ وفْدُ عَاد للاستسقاء بالبيت. ثم بنته جُرْهُم، ثم بناه قُصَيٌّ جدّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم بنته قريشٌ كما تقدم.

ثم بناه بعد قريش عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عنهما، وسَببُ بناءِ عبدِ الله بن الزبير للكعبة أنّ يزيدَ بنَ معاوية وجّه إليه جيشاً قَوَامُه عشرون ألف فارس وسبعة آلاف راجل، بقيادة الحصين بن نمير، لأنه امتنع من المبايعة له، وذلك أنه لما قتلَ الحسينَ رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عنه قام ابنُ الزبير في النّاس يُعَظِّمُ قتلَ الحسَين رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عنه، وجعلَ يُظاهِرُ بعَيبِ يزيدَ ويَذْكرُ شربَه للخَمْر وغير ذَلِكَ، ويُثبّطُ الناسَ عن بيعةِ يزيدٍ، فلما فعل يزيدُ ما فعله في وقْعَةِ الحرَّةِ، دعا ابنُ الزُّبيرِ النّاسَ لمبايعته، فاجتمعَ عليه أهل الحِجَازِ ولحقَ به مَنِ انْهَزَم مِن أهل المدينة، فجَاءَ جيشُ يزيد إلى مكّة وحاصرَ ابن الزبير، ونصَبَ المنجنيق على جبل أبي قُبَيْس فأصابَ الكعبةَ من نَارِه ما أحرَق ثيابها وسَقفها وجُدرانها؛ لأنّها كانت في زَمِنِ قريش مبنية مِدْمَاكًا[1] مِنْ خَشَبِ السَّاج ومِدْمَاكًا من حِجَارة، وانصدعَ الحِجْرُ من تلك النّار من ثلاثة أماكن، وعند محاصرة الجيش جاء الخبرُ إلى ابنِ الزّبير بموتِ يزيد، فنادى: يا أهلَ الشّام قد أهلك الله طاغيتَكم يزيد، فمن أحبَّ أنْ يدخلَ فيما دخلَ فيه الناسُ فعَل، ومن أحَبَّ أنْ يرجعَ فلْيَرْجعْ، فبايعه جمَاعَةٌ منهم بالخِلَافةِ ودخل في مبايعته جميعُ أهل البلدان ما عدا مصر والشام.

ويُقالُ: أنّ سببَ بناءِ عبدِ الله بن الزّبير رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عنه للكعبة أنه جاءَ

---

(١) **المِدْمَاكُ**: هو الصَّفُّ أو السطر من اللَّبِنِ والحِجَارَة في البناء، وهذا عند أهل الحجاز، أما أهل العراق فيسمونه: السَّاف. بتصرف من كتاب [تاج العروس ـ (٦٦٩٨/١)].

سَيلٌ فطبَّقَها، فكانَ عبدالله ﷺ يطوفُ بها سِبَاحةً. ولا مانع من وجودِ الأمرين الحريقُ والسَّيلُ، فلما رأى عبدُ الله ما وقع في الكعبة، شاورَ من حَضَرَه في هَدمها، وكان منهم عبدُ الله بن عباس ﷺ، فهابوا هدمها، وقالوا: نرى أن يُصْلَحَ ما وَهَى ولا تُهْدَمُ، فقال: لو أَنّ بيتَ أحدِكُم أُحْرِقَ لم يَرْضَ له إلا بأكمَل إصْلَاحٍ، ولا يَكْمُلُ إصلاحها إلا بهدمِها.

وقد حدّثته خالتُه عائِشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها عن رسُولِ الله ﷺ أنه قالَ لها: «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ، لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ وَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ، وَجَعَلَتْ لَهَا بَابَيْنِ، بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، وَلَزِدْتُ سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ فِي الْبَيْتِ، إِنَّ قُرَيْشًا اسْتَقْصَرَتْهُ لَمَّا بَنَتِ الْبَيْتَ»[1]. فقال له عبدُ الله بن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنهما: دع بِنَاءً وأَحْجَاراً أَسْلَمَ عليها المسْلمُونَ وبُعِثَ عليها النَّبِيُّ ﷺ، فإنّه يوشكُ أَنْ يَأْتِيَ بعدَكَ مَن يهدِمُها، فَلا يَزَالُ يُهْدَمُ ويُبْنَى، فيتهَاوَنُ النّاسُ بحُرْمَتِها، ولكِنْ رَمّمْهَا، فقال عبد الله: إني مُسْتَخِيرٌ رَبّي ثَلاثاً، ثُمّ عَازِمٌ على أَمْرِي، فلما مضى الثلاثُ أجمعَ أَمْرَه على أَنْ يَنْقُضَهَا، فتحَامَاها الناسُ، وخشوا أَنْ ينزلَ بأوّلِ مَن يقْصِدُها مِن النّاس أمرٌ منَ السّماء، حتى صَعَدها رجلٌ فألقى منها حِجَارةً فلمْ يرَ الناسُ شيئاً أصابَه فتابعوه. وقيل: أنّ أوّلَ من فعل ذَلِكَ هُوَ عبدُ الله بن الزّبير ﷺ بنفسِه، وخرج ناسٌ كثيرون من مكّة إلى مِنًى، ومنهم ابن عبّاس ﷺ، فأقاموا بها ثلاثا مخافَةَ أَنْ يُصِيبَهم عذابٌ بسببِ هَدمِها.

فهدمَها عبدُ الله إلى أَنِ انتَهى إِلَى القَوَاعِدِ التي هيَ الأَسَاسُ فجعلَ عليها سُتُوراً، فطَافَ النّاسُ بتلكَ الستور حتى بنيت، وارتفع البناء وزاد في ارتفاعِها

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه [١٨١/٢]، باب ما جاء في كسرالكعبة، برقم: (٨٧٦).

على ما كانت عليه في بناء قريش تسعة أَذْرُعٍ، فكانت سبعاً وعشرين ذراعاً، وبناها على مقتضى ما حدّثَتْهُ به خالتُه عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنها، فأدخلَ فيها الحِجْرَ، وجعل لها باباً من خلفِها وألصَقه بالأساسِ مقابل البابِ الأوّل، ولما ارتفعَ البناءُ إلى مكان الحجر الأسود وكان قد تصَدَّعَ بسببِ الحريق فشَدّهُ بالفضّة، ثم جعله في ديباجة، وأدخلَه في تابوتٍ وأقفلَ عليه، وأدخله دارَ النّدوة، فحين وصلَ البناءُ إلى محلّه أمرَ ابنَه حمزةَ وشخصاً آخرَ أنْ يحمِلَاهُ ويضَعَاهُ محلّهُ، وقال: إذا وضعتماهُ وفَرَغْتُما فكَبّرا حتى أسمَعَكُما فأُخَفِّفَ صَلاتي. فَإِنّه صَلّى بالناس بالمسجد اغتناماً لشَغْلِهِم عَن وَضْعِه لمّا أَحَسَّ منهم أَنّ كُلّ وَاحِدٍ يريدُ أنْ يضَعَه وخافَ الخلافَ، فلمّا فرغَ من بنائِها ضَمَّخَها بالطِّيبِ والزَّعْفَرَان، ثم كساها بالديباج، وجعل مَفَاتيحها مِنَ الذّهب.

وأوّلُ مَن كسَا الكعبةَ تُبَّعٌ الحِمْيَرِيّ، كساها الوصائل، وهي برودٌ حمرٌ فيها خطوطٌ خضر تُعْمَلُ باليمن، وكان تبعُ الحِمْيَرِيّ مؤمناً، وأما قومُه فكافرين، ولذَلِكَ ذَمّ الله قومَه ولم يذمّه. وكانت قريشٌ تشترِكُ في كِسْوَةِ الكعبةِ، وكانت كسوتها لا تنزع، فكانت كلما تجدَّدَ لها كسْوَةٌ تجعل فوق، واستمر ذَلِكَ إلى زمنِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمّ كساها النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثيابَ اليَمانيّة، ثم استمرت كذلك أزمنة الخلفاء بعده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم كساها المأمونُ الديباجَ الأحمرَ والأبيضَ، وهكذا كانت تُكْسَى حتّى زَمَنِ النَّاصرِ العبَّاسي فكُسِيَت بالسواد من الحرير، واستمر ذَلِكَ إلى الآن، وكسوتها من غَلَّةِ قريتين من قُرَى القاهرة، وقَفَهُمَا على ذَلِكَ الملكُ الصَّالحُ إسماعيلُ. وأوّلُ مَن حَلّى بابَها بالذّهبِ عبدُ المطلب جَدُّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما فرغ عبدُ الله بن الزبير من بناء الكعبةِ قال: مَن كان لي عليه طاعةٌ فلْيَخْرُجْ فلْيَعْتَمِرْ مِن التّنعيم، ومن قَدَرَ أَنْ ينحرَ بدَنةً فليفعل، فإنْ لمْ يقدرْ فشاةٌ، ومن لم يقدرْ فليتصدقْ بما تَيسّرَ، ثم أَخْرَج مائةَ بدَنةٍ فنحرَها، فلم تزل الكعبةُ على بناء عبد الله بن الزبير تُسْتَلمُ أركانها الأربعة؛ لأنها على قواعد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويُدْخَلُ إليها من بابٍ ويُخْرَجُ من بابٍ، حتى قُتِلَ وهو بالمسجدِ الحرام، قتلَه الحَجَّاجُ وكان أميراً على جيشِ عبد الملك بن مروان الذي أرسله لقتالِه، فكتبَ عبدُ الملك إلى الحجّاج: أنِ اهْدِمْ مَا زَادَه ابنُ الزبير في الكعبة، ورُدَّها إلى ما كانت عليه زَمَنَ قريش، وسُدَّ البابَ الذي فُتِحَ، وارْفَعِ البابَ الأصلي إلى ما كان عليه زَمَنَ قريش. فكتبَ الحَجَّاجُ إلى عبد الملك يخبره: بأنّ ابنَ الزبيرِ وضعَ البناءَ على أساسٍ نظرَ إليه العُدُول مِن أهلِ مَكّةَ، وهم خمْسُونَ رَجلاً من وجوهِ النّاس وأشرَافِهم. فكتب إليه: لَسْنَا مِن تَخْبيطِ ابنِ الزّبيرِ في شيءٍ!. فنقضَ الحَجَّاجُ ما أُدْخِلَ مِن الحِجْرِ، وسَدّ البابَ الثاني، ورفع البابَ الأوّل خمسة أذرع كما كان عليه في زمن قريش، وكان بناءُ الحَجَّاجِ في السنة التي قُتِلَ فيها عبدُ الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه، وهي سنة ثلاث وسبعين.

ولما وَلِيَ أبو جعفر المنصور الخلافةَ أرادَ أنْ يبنيَ الكعبةَ على ما بناها ابنُ الزبير، وشاورَ الناسَ في ذَلِكَ، فقال له الإمامُ مالكُ بنُ أنس: أَنْشُدَكَ اللهَ يا أميرَ المؤمنين أنْ لا تجعلَ هذا البيتَ مَلْعَبةً للمُلوك، لا يشاءُ أحدٌ منهم أنْ يُغيّره إلا غيّره، فتذهب هيبتُه من قلوبِ النّاس، فصرَفه عن رَأيِهِ فيه. وفي شعبان سنة تسع وثلاثين وألف جاءَ سَيلٌ عظيمٌ بعد صلاة العصر، يوم الخميس لعشرين من الشهر المذكور، فهَدم مُعْظَمَ الكعبة، وسقطَ به الجِدَار الشّامي بوجْهَيهِ، وانحدَرَ

معه في الجِدَار الشرقي إلى حَدِّ الباب، ومن الجِدَارِ الغربي من الوجهين نحو السّدس، وهدم أكثر بيوت مكة، وأُغْرِقَ في المسجد جُمْلَةٌ من النّاس خصوصاً الأطفال، وارتفعَ الماءُ إلى أنْ سدَّ الأبوابَ، وعند مجيءِ الخبر بذَلِكَ إلى مصر جمع مُتَوَلّيها الوزيرُ مُحَمَّدُ باشا جَمْعاً من العلماء ـ كنتُ مِن جُملَتِهم ـ، ووقعتِ الإشارَةُ بالمبادرة للعمارة.

بَابُ
مَا جَاءَ مِنْ أَمْرِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَلْسِنَةِ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَالكُهَّانِ وَالجَانِّ

كانتِ الأحبارُ من اليهودِ، والرُّهْبَانُ من النّصارى، والكهانُ من العرَبِ، قد تحدّثوا بأمر رَسُوْلِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل مبعثه، لمَّا تقَاربَ زمَانُه. أمَّا الأحبَارُ والرُّهْبَان فَلِمَا وجدوا في كتبهم من صِفَتِه وصِفَةِ زمانه، وأمّا الكُهَّانُ فمِنَ الشّياطين التي تَسترقُ السّمْعَ، إذْ كانت لا تحجبُ عن ذلك كما حُجِبَت عند الولادةِ والمَبْعَث، وفي هذا تَصْرِيحٌ بأنّ الملائكةَ كانت تذكرُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السّماء قبل وجودِه.

فأمّا أخبار الأحبار من اليهود فمنها: ما جَاءَ عن سَلَمَة بن سُلامَة قال: كان لنا جَارٌ من يهود بني عبد الأشْهَل، فذكر القيامةَ والبعثَ والحِسَاب والجنّةَ والنارَ عند قوم من أصحاب الأوثَان، فقالوا له: ويحك، أوَ تَرَى هذا كائنًا؟، قال: نعم، والذي يحلف به، وليَودُّ الشَّخْصُ أنْ ينجوَ من تلك النّار غدًا، فقالوا له: وما آية ذلك؟، قال: نبيٌّ يبعثُ من نحوِ هذه البلاد، وأشارَ بيدِه إلى مَكَّةَ واليمن، قالوا: ومَن يَراه؟، فنظرَ إليَّ وأنَا مِن أَحْدَثِهم سِنًّا، فقالَ: إنْ يَسْتَكْمِلَ هذا الغلامُ عمرَه يدركه. قال سلمة: فوالله ما ذهب اللّيلُ والنهارُ حتّى بعثَ الله مُحَمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك اليهودي بين أَظْهُرِنا، فآمَنَّا به، وكفرَ بغياً وحسَداً، فقلنا له: ويْلَكَ يا فُلان؛ ألستَ الذِي قُلْتَ لنا فيه مَا قُلْتَ؟، فقال: بلى، ولكِنْ ليسَ به[1].

(١) أخرجه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة [١/١٣١].

ومن ذلك: ما جاء عن عَمْرِو بن عَبَسَةَ السَّلَمِي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: رَغِبْتُ عن آلهة قومِي في الجاهلية، فلقيت رَجُلاً من أهل الكتابِ، فقُلْتُ: إني امرؤٌ ممن يعبدُ الحِجَارةَ، فيَنْزِلُ الحيَّ مَنْ ليسَ معَهُ إِلَه فيخرجُ الرَجُلُ منهم فيأتي بأربعةِ أحْجَارٍ، فيُعَيِّنُ ثَلَاثَةً لِقَذَرِهِ يَسْتَنْجِي بها، ويجعلُ أحسنها إلهاً يعبدُه، ثمّ لعله يجدُ ما هو أَحْسَنُ منه شكلاً فيتركه ويأخذ غيرَه، وإذا نزلَ منزلاً سواه ورَأى ما هو أَحْسَنُ منه تركه وأخذ ذلك الأحْسَنَ، فرأيتُ أنّه إلَهٌ باطل لا ينفعُ ولا يَضرُّ، فَدُلَّنِي على خَيرٍ من هذا، فقال: يخرجُ من مَكَّةَ رَجُلٌ يَرْغَبُ عَن آلِهَةِ قومِه، ويدعو إلى غيرِها، فإذا رأيتَ ذلك فاتّبعه، فإنه يأتي بأفضل الدين. فلم يكن لي همّة مُنْذَ قال لي ذلك إلا مَكَّةَ، آتي فأسألُ: هل حَدَثَ حَدَثٌ؟ فيُقَالُ: لا، ثم قَدِمَتُ مرَّةً فَسَأَلْتُ، فَقِيْلَ لي: حَدَثَ رَجُلٌ يرغبُ عَنْ آلهةِ قومِهِ ويدعو إلى غيرِها، فشَدَدْتُ راحلَتي ثُمّ قَدِمَتُ منزلي الذي كنتُ أنزِلُه بمَكَّةَ، فَسَأَلْتُ عنه فوجَدْتُه مُسْتَخْفِيًا، ووَجَدْتُ قُرَيْشاً عليه أَشِدَّاءَ، فتَلطَّفتُ له حتى دخلت عليه فَسَأَلْتُه: أيُّ شيءٍ أنتَ؟، قال: «نَبِيٌّ». قُلْتُ: مَنَ نَبَّأَكَ؟، قال: «الله». قُلْتُ: وبم أرْسَلكَ؟، قال: «بِعِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وبِحَقْنِ الدِّمَاءِ، وبِكَسْرِ الأَوْثَان، وصِلَةِ الرَّحِمِ، وَأَمَانِ السَّبِيل»، فقُلْتُ: نِعْمَ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ، قَدْ آمَنْتُ بِكَ وصَدَّقْتُكَ، أتأمرني أنْ أمكثَ مَعَكَ أو أنصرفَ؟، فقال: «أَلَا تَرَى كَرَاهَةَ النَّاسِ مَا جِئْتُ به، فَلَا تَسْتَطِيْعُ أَنْ تَمكُثَ، كُنْ في أَهْلِكَ، فإذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ خَرَجْتُ مَخْرَجًا فَاتْبَعْنِي»، فكنتُ في أهلي، حتى خرج رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المَدِيْنَة، فسرت إليه، فقَدِمَت المَدِيْنَة، فقُلْتُ: يا نبي الله أتعرفني؟، قال: «نَعَم، أَنْتَ السُّلَمِيُّ الذِي أَتَيْتَنِي بِمَكَّةَ»[1].

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه [١/٥٦٩]، باب إسلام عمرو بن عبسة، حديث رقم: (٨٣٢).

ومن ذلك: ما حدث به عاصم بن عمرو عن رجال من قومه قالوا: إنما دعانا إلى الإسلام ـ مع رحمة الله تعالى لنا وهداه ـ ما كنا نسمع من أحبار اليهود وكنّا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمان نبيٍّ يبعثُ الآنَ يقتلكم قتلَ عَادٍ وإِرَم. وكثيراً ما نسمعُ ذلك منهم، فلما بعثَ الله رَسُوْلَه مُحَمَّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجبْنَاه حين دعانا إلى الله ﷻ وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنّا به وكفروا، ففي ذلك نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩](١).

ومن ذلك: ما حدَّثَ به شيخٌ من بني قُرَيْظَة: أَنَّ رَجُلًا من يهودِ الشَّام يُقَالُ له: ابنُ الهَيِّبان، قَدِمَ المَدِيْنَة قبل الإسلام بسنين، فحلَ بين أَظْهُرِنَا، فكنّا إذا احتبسَ المَطَرُ قلنا له: اخرجْ يا ابن الهَيِّبان فاسْتَسْقِ لنا، فيقول: لا والله حتى تُقَدِّمُوا بين يَدَي نجْوَاكم صَدَقة، فنقول له: كم؟، فيقول: صاعا من تمر ومدين من شعير. فنخرجها، ثُمّ يخرجُ بنا إلى ظاهر حَرَّتِنَا فيَسْتَسْقِي لنا، فو الله ما يبرحُ من محلّه حتى يمرُّ السحابُ ونُسْقَى، وقد فعل ذلك غيرَ مرَّة، ثم حضرته الوفاةُ عندنا، فلما عرَفَ أنه مَيِّتٌ، قال: يا معشرَ يهود ما ترونه أخرجني من أهلي إلى أرضِ البُؤسِ والجوع؟!، فقلنا: أنتَ أعلمُ، قال: فإنما قَدِمَتُ هذه الأرضَ أَتوَكَّفُ وأتوقعُ خروجَ نبيٍّ قد أظلَ زمانُه، وهذا البلد مُهَاجَرُه، وكنت أرجو أن يُبعثَ فاتّبِعَهُ، فقد أظلّكم زمانُه، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشرَ اليهود(٢).

---

(١) مذكور بنحوه في دلائل النبوة للبيهقي [٢/٤٠٩]، وفي تفسير ابن أبي حاتم [٣/٤٩١].

(٢) رواه الإمام ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/١٦٠).

وأما أخبار الرهبان من النصارى، فمنها: خبرُ طلحة بن عُبيد الله رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قال: حَضَرتُ سُوقَ بُصْرَى، فإذا رَاهِبٌ في صومعتِه يقولُ: سَلوا أهل هذا الموسم هل فيكم أحَدٌ من أهل الحرَم؟، فقُلْتُ له: نعم أنا. فقال: هل ظهر أحمدُ؟، قُلْتُ: ومن أحمَد؟ قال: ابن عبدِ الله بن عبد المطلب، هذا شَهْرُهُ الذي يخرجُ فيه، وهو آخرُ الأنبياء، فإيَّاك أَنْ تُسْبَقَ إليه. قال طلحةُ: فوقعَ في قلبي ما قالَهُ الرَّاهِبُ، فلما قَدِمَتُ مَكَّةَ حدّثتُ أبا بكرٍ بذلك، فخرجَ حتّى دخلَ على رَسُوْلِ الله ﷺ فأخبره، فَسُرَّ بذلك، وأسلمَ طلحةُ[1].

ومنها: ما حَدَّثَ به سَعِيْدُ بن العَاص، قال: لما قتل أبي العَاص يومَ بدرٍ كنتُ في حِجْرِ عَمِّي أَبَانِ بنِ سَعِيْدٍ، وكان يكثرُ السَّبَّ لرَسُوْلِ الله ﷺ، فخرجَ تاجراً إلى الشام ثُمّ قَدِمَ، فأوَّلُ شيءٍ سألَ عنه قال: ما فعلَ محمّدٌ؟، فقال له عمي عبد الله بن سَعِيْد: هو والله أعزّ ما كَان وأَعْلاه، فسَكتَ ولم يَسُبّه كمَا كَانَ يسُبُّه، ثمّ صنعَ طعامًا وأرسَلَ إلى أشرَافِ بني أميّة، فقالَ لهُم: إنّي كنتُ بقريَةٍ فرأيتُ بها رَاهِبًا يُقَالُ له: بَكّاءُ، لمْ يَنْزل من صومعته إلى الأرضِ منذُ أربعينَ سَنَة، فنزلَ يوماً، فاجتَمعُوا ينظرُون إليه، فجئتُ، فقُلْتُ: إنّ لي حَاجَةً، فقالَ: ممّنِ الرَّجُلُ؟، فقُلْتُ: إني من قُرَيْشٍ، وإنّ رَجُلاً هناك خرجَ يزعمُ أنَّ اللهَ أرسَلَهُ، قال: مَا اسمُه؟ فقُلْتُ: محمَّد، قالَ: ألَا أَصِفُهُ لكَ؟ قُلْتُ: بَلَى، فَوَصَفَهُ، فما أخْطَأَ في صِفَتِه شَيئًا، ثُمّ قال: هو والله نبيُّ هذِه الأمّة، والله ليَظْهَرَنَّ، ثُمَّ دخلَ صَومَعَتَه وقال لي: اِقرَأْ عليه السّلامَ[2].

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٥/٤٧١]، برقم: (٥٥٨٦)، والبيهقي في دلائل النبوة [٢/٤٠٩].

(٢) ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق [٦/١٢٩]، والحافظ ابن حجر في الإصابة [١/٣٤٨].

ومنها: ما حَدّثَ به حَكِيْمُ بنُ حِزَام رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: دخلنا الشّامَ لتجارَةٍ قبل أنْ أُسْلِمَ ورَسُوْلُ الله ﷺ بمَكّةَ، فأرسلَ إلينا ملكُ الرّومِ فجِئْناه، فقال: مِن أيِّ العَرَبِ أنتم؟، أَمِن هذا الرَّجُل الذي يزعُم أنه نَبِيّ؟، قال حَكِيمٌ: فقُلْتُ: يجمَعُني وإيَّاهُ الأَبُ الخامِسُ، فقال: فهَل أنتم صَادِقِيّ فيما أسألكم عنه؟، فقلنا: نعم، فقال: أنتم ممّن اتبعه أم ممّن رَدّ عليه؟، فقلنا: ممّن رَدَّ عليه وعادَاه، فسَأَلَنا عَن أشَيَاءَ مما جاءَ بهَا رَسُوْلُ الله ﷺ فأخْبَرْنَاه، ثُمّ نهَضَ واسْتَنْهَضَنا معَهُ، فأتى محَلّا في قَصْرِهِ وأمرَ بفتحِه، وجاءَ إلى سِتْرٍ فأمرَ بكشفِه، فإذا صُورةُ رَجُلٍ، فقال: أتعرفونَ صُورةُ مَن هذِه؟، قلنا: لا، قال: هذه صورةُ آدم، ثم تتبع أبوابها ففتحها، وجَعَل يَكشِفُ عن صُوَرِ الأنبياء، ويقول: أمَا هَذا صَاحِبُكُم؟ فنقول له: لا، فيقول لنا: هذه صُورةُ فُلان، حتّى فتح باباً وكشَفَ عَن صُورَةٍ، فقال: أتعرفون هذا؟، قلنا: نعم، هذه صورةُ محمَّدِ بنِ عبدِ الله صاحبِنا، قال: أتدرون متى صُوّرت هذه الصّور؟، فقلنا: لا، قال: صُوّرَتْ منذُ أكثر من ألفِ سَنة، وإنّ صَاحبَكُم لنَبِيٌّ مُرْسَلٌ فاتّبِعُوه، ولوَدِدتّ أني عبدَه فأشربَ ما يَغْسِلُ مِنْ قَدَمَيه(١).

ومنها: ما حدث به سلمان الفارسي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: كنت رَجُلا فارسيًّا من أهل أصبهان، وكان أبي كبير أهل قريته، وكنتُ أحبَّ خلق الله تَعالى إليه، ولحبِّه إيَّايَ حبسني في بيتٍ كما تُحْبَسُ الجارية، واجتهدت في المجُوسِيّة حتى كنتُ خادِمَ النّار الذي يوقِدُها ولا يتركُها تَطْفَأُ ساعةً، وكانت لِأَبي ضَيْعَةٌ عَظِيمَةٌ فشُغِلَ في بُنْيَانٍ له يومًا، فقال لي: يا بني إنّي قد شُغِلْتُ في بُنْيَانِ هذا اليوم، فاذهبْ إليها، وأمرني فيها ببعض ما يُرِيدُ، ثمّ قال لي: لا تحتَبِسْ عني،

(١) ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق [١٧/٢١٠] بنحوِ ما ذُكِرَ هنا.

فإنْ احتبستَ عنّي كُنْتَ أَهَمَّ إليَّ من ضَيْعَتِي ، وشَغَلتني عَن كلّ شَيءٍ مِنْ أَمْرِي.

فخَرَجْتُ أريدُ ضَيعَتَهُ التي بعثني إليها، فمَرَرتُ بكنيسةٍ من كنائس النّصارى ، فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يصلّون ، وكنت لا أدري ما أمرُ الناس ؛ لحبس أبي إيَّايَ في بيته ، فلما سمعتُ أصواتَهم دخلتُ عليهم أَنظرُ ماذا يصنعون ؟ ، فلمّا رأيتهم أعجبتني صلاتَهم ورَغِبْتُ في أمرِهم ، وقُلْتُ: والله هذا خيرٌ من الذِي نحن عليه ، فو الله ما برحتهم حتى غرَبَتِ الشّمسُ ، وتركت ضيعةَ أبي فلم آتِها ، ثم قُلْتُ لهم: أينَ أهلُ هذا الدين ؟ ، فقالوا لي: بالشّام. فرجعتُ إلى أبي وقد بعثَ في طلبي وشَغَلْتُه عَن عَمَلِه كلّهِ ، فلمّا جئته قال: أي بني أين كنتَ ؟ ألم أكن عَهِدْتُ إليك ما عَهِدْتُ ؟ ، فقُلْتُ له: يا أبت مَرَرْتُ بالنّاس يصلّون في كنيسةٍ لهم ، فأعجبني ما رأيت من دينِهم ، فو الله ما زِلْتُ عندَهم حتّى غرَبَتِ الشمسُ ، فقال: أي بني ليسَ في ذلك الدّين خيرٌ ، دينُك ودينُ آبائِك خيرٌ منه ، فقُلْتُ له: كلّا ، والله إنه لخيرٌ من ديننا ، فخافَ مني أَنْ أهربَ ، فجعلَ في رَجْلي قيدًا ثم حبسني في بيتِه ، فبعثتُ إلى النّصارى ، فقُلْتُ لهم: إذا قَدِمَ عليكم رَكْبٌ مِنَ الشّام فأخبرُوني بهم ، فقَدِمَ عليهم تجّارٌ من النّصارى فأخبرُوني ، فقُلْتُ لهم: إذا قضوا حوائِجَهم وأرادُوا الرّجعةَ فأخبروني بهم.

فلما أخبروني برحيلهم ألقيتُ الحديدَ من رِجْلِي ، ثم قَدِمْتُ معهُم إلى الشّام ، فلمّا قَدِمْتُها قُلْتُ: مَنْ أَجَلُّ أَهْلِ هَذَا الدِّين عِلْمًا ؟ ، فقالوا: الأسقفُ في الكنيسة ، فجئتُه فقُلْتُ له: إني قد رَغِبْتُ في هذا الدّين ، وأحبَبْتُ أَنْ أكونَ مَعَكَ ، فأخدِمَك في كنيستِكَ ، وأتعلم منك ، وأُصَلّي مَعَكَ ، فقال: ادخل ، فدخلت معه ، فكَانَ رَجُلَ سُوءٍ ، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه أشياءَ منها

اكْتَنَزَهَا لنَفْسِه، ولمْ يُعْطِها المسَاكِينَ حتّى جمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِن الذَّهَبِ، فأبْغَضْتُه بُغضًا شَدِيدًا، فلمَّا ماتَ اجتمعتِ النّصارى ليَدْفِنُوه، فقُلْتُ لهم: إنّ هذا كانَ رَجُلَ سُوءٍ، يأمُرُكُم بالصّدقةِ ويُرَغِّبُكم فيها، فإذا جئتموهُ بها اكْتَنَزَهَا لنفسِه، ولم يُعْطِ المساكين منها شيئًا، فقَالوا لي: وما أَعْلَمَك بذلك؟ فقُلْتُ: أنا أدُلكُم عَلَى كَنْزِه، فأَرَيْتُهم مَوضِعَه، فلما رأوه قالوا: والله لا نَدْفِنُه أبداً، فصَلبُوه ورَمُوهُ بالحِجَارَةِ، ولم يُصَلّوا عليه صَلاتَهم.

ثُمَّ إنهم جاؤوا برَجُلٍ آخَرَ فجعلوه مكانه، فما رَأيتُ رَجُلاً أَزْهَدَ في الدُّنيا ولَا أَرْغَبَ في الآخرةِ منه، فأحبَبْتُه حبًّا شديدًا، وأقمتُ معه زمَاناً حتّى حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ، فقُلْتُ له: يا فلانُ إني كنت مَعَكَ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى مَن توصِني؟، قال: أي بُنَي، والله ما أعلمُ أحدًا على ما كنتُ عليه إلّا رَجُلاً بالموْصِل، وهو فلانٌ. فلمّا ماتَ ودُفِنَ لحِقْتُ بصَاحبِ الموصِل، فأخبرته بما أمرَني به صاحبي، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أَمْرِ صَاحبِه، فأقمتُ مع خيرِ رَجُلٍ، فلمّا احْتُضِرَ، قُلْتُ له: إن فلانا أوصى بي إليك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي، وبِمَ تأمرني؟، قال: يا بني؛ والله ما أعلم رَجُلًا على ما كنتُ عليه إلا رَجُلاً بنَصِيبِينَ وهو فلانٌ، فالحقْ به.

فلما ماتَ لحقتُ بصَاحبِ نَصِيبِينَ، فأخبرتُه خبري، وما أمرني به صاحبي، فقال: أقم عندي، فأقمتُ عنده، فوجدته على أمر صَاحِبَيهِ، فأقمت معه، فما لَبِثَ أَنْ نَزَلَ به الموتُ، فقُلْتُ له: يا فلانُ، إنَّ فلانًا أوصى بي إليكَ، فإلى من تُوصِي بي؟، قال: يا بني والله ما أعلم أحدًا بقيَ على أمرنا إلا رَجُلاً بِعَمُّورِيَّة

من أرْضِ الرُّومِ، فإن أحبَبْتَ فأتِه. فلما مَاتَ لحقتُ بصاحب عَمُّورِيَّةَ[١]، وأخبرتُه خبري، فقال: أقم عندي، فأقمتُ عنده عَلى هَدْي أصْحَابه وأمْرِهم، فلمّا احْتُضِرَ قُلْتُ له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك، فإلى مَن توصي بي، وبم تأمرني؟، فقال: والله ما أعلمُ أحداً من النّاس على ما كُنّا عليه فآمرك أنْ تأتيَه، ولكنّهُ قد أَظَلَّ زَمانُ نبيٍّ مَبعُوثٍ بدينِ إبراهيمَ يخرُجُ بأرضِ العَرَب، مُهَاجَرُه إلى أرْضٍ بينَ حَرَّتَين[٢] بينهما نخل، بِهِ عَلَامَاتٌ، منها: أنه يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة. فإن استطعتَ أنْ تلحقَ بتلك البلاد فافعل، ثمّ إنه مات.

فَمَرَّ بي نَفَرٌ مِنْ كَلْب[٣] تُجّار، فقُلْتُ لهم: احملوني إلى أرضِ العَرَب،

---

(١) **عَمُّورِيَّة**: كانت مدينة عظيمة للروم تقع في هضبة الأناضول وسط تركيا بالقرب من محافظة (أفيون) حالياً، فتحها الخليفةُ المعتصم سنة (٢٢٣) هـ، وفتح معها مدينة (أَنْقَرَة)، وكان فتحها من أعظم الفتوحات الإسلامية، وسببُه أنّ امرأةً عَلويَّةً يقال لها: (شُرَاةُ)، أسرَها الرّومُ فضربوها، فنادت: "وامُعْتَصِمَاه"، فقالوا لها اسْتِهْزَاءًا: ناديه لعَلّه يأتي على خيلِه الأبْلَق لنجدتك. فَأُخْبِرَ المعتصمُ بذلك، فقال: لبّيكِ، وكان في يده كأسًا، فقال: والله لا أشربه إلّا بعد فَكّ هذه الشريفة من الأسر. وجهز جيشًا عظيمًا، وأمر العسكر أن لا يخرجَ أحدٌ منهم إلا على خَيلٍ أَبْلَق، فخرجوا معه في سبعين ألف فرس أبلق، فحاصر المدينة وكانت حصينة فلما فتحها قَتَلَ المقاتلةَ وسَبَى النساءَ والذّرِّية، ثم خَرّبها، فهي حتّى اليوم خَرَابٌ ولم يبقَ منها سوى الآثار.

(٢) **الحَرَّةُ**: أرضٌ غليظة خارج المدينة تكسوها حجارةٌ سَوداء، وإليها تنسبُ وقعة الحرّة التي استباح بهَا يزيد المدينة، وأعْمَلَ جَيشُه السّيفَ في أهلها ثلاثة أيام، فقتلوا سبعين صحابيًا وأربعة آلاف من عَامّة الناس، وبقروا بطون النساء، ونهبوا الأموال، واستحلوا الحُرَمَ، وفعلوا طامّات كثيرة ذكَرَها المؤرِّخُون.

(٣) **كَلْبٌ**: قبيلة عَربيّة، يرجع نسبها إلى كلب بن وَبْرَة، وهو ينتهي نسبه إلى حِمْيَرَ بن سَبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُبَ بن قحطانَ، وكانت هذه القبيلة من أقوى القبائل، كثيرة العَدَد وشديدة البأس، وتسيطر على بادية السّمَاوة لا يخالطهم فيها أحدٌ من القبائل العربية، ولهم انتشار في أصقاع أخرى، وأرسلَ لهم النبيُّ ﷺ سَرِيّةً وأمّر عليها عبد الرحمن بن عوف في السنة السادسة من=

وأعطِيكُم بَقَرَاتي وغَنَمي هذه، فقالوا لي: نعم، فأعطيتُهم إيّاها، وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا بي وادِي القُرَى ظلمُوني، فباعوني إلى رَجُلٍ يَهُوديّ، فمكثتُ عنده، فرأيتُ النّخلَ، فرجَوتُ أن تكون البلدةُ التي وصَفَها لي صَاحبي، ولم أتحقّق ذلك، فبينا أنا عنده إذ قَدِمَ عليه ابنُ عمٍّ له من بني قُرَيظَةَ مِنَ المَدِيْنَةِ، فابْتَاعَنِي مِنْهُ فحَمَلَنِي إِلَى المَدِيْنَة، فوَ الله مَا هو إلّا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمتُ بها، وَبُعِثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقام بمَكَّةَ ما أقام لا أسْمَعُ له بذكر؛ لما أنا فيه من شُغْلِ الرِّقّ، ثم إنه هاجرَ إلى المَدِيْنَة، فوَ الله إني لَفي رأسِ نخْلٍ لسَيّدي أعمَل له فيه بعضَ العمل، وسيّدي جالسٌ تحتي، إذ أقبلَ ابنُ عمٍّ له حتّى وقفَ عليه، فقال: يا فلانُ، قاتلَ الله بني قَيْلَةَ ـ يعني الأوسَ والخزْرَجَ ـ، والله إنهم الآنَ لمجْتَمِعُون بِقُبَاء على رَجُلٍ قَدِمَ من مَكَّةَ اليَومَ يزعمون أنه نبيٌّ، فلما سمعته أخذتني الحُمَّى والرُّعْدَةُ، حتّى ظننتُ أني سَاقطٌ على سَيّدي، فنزلتُ عَن النّخلة، فقُلْتُ لابن عمِّه: ما تقولُ؟، فغضِبَ سيّدي، ولكَمَني لكْمَةً شدِيدةً، ثم قال: ما لكَ ولهذا؟، أقبلْ على عمَلِك.

وقد كان عِنْدِي شَيءٌ جمعته، فلمّا أمْسِيتُ أخَذتُه فذهبتُ به إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بقباء، فقُلْتُ له: قد بلغني أنك رَجُلٌ صَالِحٌ ومَعَكَ أصحَابٌ غُرَبَاءٌ ذوُو حَاجة، وهذا شيء كان عندي للصَّدقة، فرأيتكُم أحقّ به من غيركم، فقربته إليه، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِه: «كُلُوا»، وأمسك يده، فلم يأكلْ، فقُلْتُ في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفتُ، فجمعتُ شيئاً، وتحوَّلَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المَدِيْنَةِ، فجئتُه فقُلْتُ: إني رَأَيْتُكَ لَا تَأكُل الصدقة،

= الهجرة، وأمَرَه إنْ ظفرَ بهم أن يتزوج ابنة سيدهم، وهي تماضر بنت الاصبغ بن عمرو، فأسلموا، وشاركوا في الفتوحات الإسلامية.

وهذه هديّةٌ أكرمْتُك بها، فأكلَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقُلْتُ في نفسي: هاتان ثنتان، ثم جئتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بِبَقِيع الغَرْقَد، قد تَبِعَ جنازةَ رَجُلٍ من أَصْحَابِه، وكانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه شَمْلَتَان، وهو جالسٌ في أَصْحَابِه، فابْتَدَرْتُ أنظرُ إلى ظَهْرِه هل أرَى الخاتمَ الذي وُصِفَ لِي؟، فألقى الرِّدَاءَ عَن ظَهْرِه، فنظرتُ إلى الخَاتَم فعرفتُه، فأكبَبْتُ عَلَيه أُقَبّلُه وأَبْكِي، فقال لي رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَحَوَّلْ»، فتحوّلْتُ بين يديه فقصَصْتُ عليه حديثي، فأعجبَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال لي: «كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ»، فكاتبتُ سيّدي على ثلاثمائة نخلة، وعلى أربعين أوقية من ذهب، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعِينُوا أَخَاكُمْ»، فأعانوني بالنّخل حتّى اجتَمَعتْ، فجئتُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرتُه، فخرجَ معي فغَرَسَها بيدِه، ثُمّ أُتِيَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمثل بيضَةِ الدّجَاجَةِ من الذّهب فقال: «خُذْ هَذِهِ فأدِّهَا ممّا عَلَيكَ يَا سَلْمَانُ». فأوفيتهم حقهم، وبقي عندي مثل ما أعطيتهم[(١)].

ومنها: خبرُ عمرو بن مَعْدِ يَكْرِب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: والله لقد علمتُ أن مُحَمَّدًا رَسُوْلُ الله قبل أنْ يُبْعَثَ، فَقِيْلَ له: وكيفَ ذاك؟ قال: فزعنا إلى كاهنٍ لنا في أمرٍ نزل بنا، فقال الكاهنُ: أُقْسِمُ بالسَّماءِ ذَاتِ الأَبْرَاج، والأرضِ ذاتِ الأدْرَاج، والرّيحِ ذاتِ العُجَاج، إنّ هذا لا مَرَاج، لعَلّه من أَجِيجِ النّار، ولِقَاح ذِي نِتَاج، قالوا: وما نتاجه؟، قال: نتاجه ظهورُ نبيٍّ صادق، بكتاب ناطق، وحُسَام فالِق، قالوا: وأين يظهرُ وإلى ماذا يدعو؟ قال: يظهر بصلاح، ويدعو إلى فلاح، ويُعَطِّلُ القِدَاح، وينهى عن الرَّاح والسِّفَاح، وعن كل أمرٍ قباح، قالوا:

(١) انظر كتاب البدء والتأريخ [١/٤٤٠]، للمطهر بن طاهر المقدسي.

ممن هو؟، قال: من ولد الشيخ الأكرم، حَافر زمْزَم، عِزّهُ سَرْمَد، وخَصْمُه مُكْمَد[1].

ومنها: خبرُ قُسِّ بنِ سَاعِدَة الإيَادِي، فعن ابن عبّاس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما قال: قَدِمَ وفدُ عبد القَيس على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «أَيُّكُمْ يَعْرِفُ القُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ الإِيَادِي»؟، فقالوا: كلنا نعرفه يا رَسُوْلَ الله، قال: «فَمَا فَعَلَ»؟، قالوا: هَلك، قال: «مَا أَنْسَاهُ بِعُكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَراً، وَإِنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَراً، مِهَادٌ مَوضُوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ، وَنُجُومٌ تَمُورُ، وَبِحَارٌ لَا تَغُورُ، أَقْسَمَ قُسٌّ قَسَماً حَاتِمًا لَئِنْ كَانَ فِي الأَمْرِ رِضاً لَيَكُونَنَّ سَخَطاً، إِنّ لله دِيناً هُوَ أَحَبُّ إِلَيهِ مِنْ دِينِكُمْ الذِي أَنْتُمْ عَلَيهِ، مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ، أَرَضُوا بِالمُقَامِ فَقَامُوا، أَمْ تُرِكُوا هَنَاكَ فَنَامُوا»؟.

وفي رواية: فقال النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ أَوْرَقَ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مَا أَظُنُّ أَنِّي أَحْفَظُهُ»، فقال أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه: يا رَسُوْلَ الله، إني أحفظه، كنت حاضرا ذلك اليوم بسوق عكاظ، فقال في خطبته: يا أيها الناس اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات، جمع وأشتات، وآيات بعد آيات، إن في السماء لخبرا، وإن

---

(١) ذكره الصالحي في [سبل الهدى والرشاد (٢/١٩٢)]، وعزاه لابن ظفر. وكلمة **الأَبْرَاج**: تطلق على درجات الشمس، ومنازل القمر، والأفلاك التي تدور فيها الكواكب. **والأَدْرَاج**: جمع درج وهي الطريق، ويقال لها: فِجَاجٌ أيضا. **والعُجَاج**: الغبار الذي تثيره الرياح. **والمِرَاج**: الكَذِب. **والرَّاح**: الخمر.

في الأرض لعبرا، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا؟، أقسم قس قسما حاتما، لا حانثًا فيه ولا آثما إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ونبيّا قد حان حينه، وأظلّكم زمانُه، فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه فعصاه، تبًّا لأرْبابِ الغفلة من الأمم الخالية، والقرون الماضية، يا معشر إياد: أينَ الآباءُ والأجداد؟، وأين المريضُ والعُوَّاد؟، وأينَ الفَرَاعِنَةُ الشّداد؟، أين من بنى وشَيّد، وزَخْرَفَ ونَجَّد، وغَرَّه المال والولد؟، أين من بغى وطغى، وجمع فأوعى، وقال: أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا، وأطول آجالا؟، طحنهم التراب بكَلْكَلِه، ومزّقهم بتطاوله، فتلك عظامهم بالِيَة، وبيوتهم خاوية، عمرتها الذئاب العَاوِيَة، كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود. فقال ﷺ: «رَحِمَ الله قُسّا إني لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ أَمَّة وَحْدَه»(١).

وأما أخبار الكهان على ألسنة الجَان؛ فمنها: خبرُ سَوَادِ بنِ قَارِب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وكان شاعرًا يتكهّنُ في الجاهلية، ثم أسلم. فعن محمد بن كعب القُرَظِي قال: بينما عمر بنُ الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ذات يوم جَالساً إذ مرّ به رَجُلٌ، فَقِيْلَ له: يا أمير المؤمنين أتعْرِفُ هذا؟، قال: ومن هذا؟، فقالوا: سَوَادُ بنُ قارِب الذي أتاهُ رِئِيُّهُ - أي تَابِعُه من الجنّ الذي يَتَراءَى له -، أتاه بظهور النَّبيِّ ﷺ، فقال عمرُ لسَوَاد: أخبرني ما نَبأ رِئِيّكَ بظهورِ رَسُوْلِ الله ﷺ؟، قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان: إذ أتاني رئِيِّي، فضربني برِجْلِه وقال: قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي،

(١) أخرجه الإمام البيهقي في دلائل النبوة (٤٨٧/١).

واعقلْ إنْ كنتَ تعقلُ، إنه قد بُعِثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من لؤي بن غالب، يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتِطْلَابِهَا ... وَشَدِّهَا العِيْسَ بِأَقْتَابِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... مَا صَادِقُ الجِنِّ كَكَذَّابِهَا
فَارْحَل إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... لَيْسَ قُدَامَاهَا كَأَذْنَابِهَا

فقُلْتُ: دَعْنِي أَنامُ، فإنّي أمسَيتُ ناعسًا، فلما كانت الليلة الثّانية أتاني، فضَربني برِجْلِهِ، وقال: قم يا سوادُ بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رَسُوْلٌ من لُؤَيّ بن غالب يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وَإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وَتِخْبَارِهَا ... وَشَدِّهَا العِيْسَ بِأَكْوَارِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... مَا مُؤْمِنُ الجِنِّ كَكُفَّارِهَا
فَارْحَل إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... بَيْنَ رَوَابِيْهَا وَأَحْجَارِهَا

فقُلْتُ: دعني أنام فإني أمسيت ناعسًا، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني، فضربني برِجْله، وقال: قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رَسُوْلٌ من لؤي بن غالب، يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وإلى عبادته ثم أنشأ يقول:

عَجِبْتُ لِلْجِنِّ وتِحْسَاسِهَا ... وَشَدِّهَا العِيْسَ بِأَحْلَاسِهَا
تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الهُدَى ... مَا خَيِّرُ الجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا
فَارْحَلْ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ ... وَارْمِ بِعَيْنَيْكَ فِي رَأْسِهَا

فقمتُ فقُلْتُ: قد امتحنَ الله قلبي، فرَحَّلْتُ ناقتي، ثم أتيتُ مَكَّةَ فإذا رَسُوْلُ الله ﷺ وأصْحَابُه حَوْلَه، فلما رآني قال: «مَرْحَباً بِكَ يَا سَوَادُ بنَ قَارِبٍ، قَدْ عَلِمْنَا مَا جَاءَ بِكَ»، قُلْتُ: يا رَسُوْل الله قد قُلْتُ شِعْرًا، فاسمع مقالتي، فقَال: «هَات» فأنشأت أقول:

أَتَاني رَئِيّي بعْدَ لَيلٍ وهَجْعَةٍ ... ولم يَكُ فِيمَا قَدْ بَلَوتُ بِكَاذِبِ

ثَلاثُ لَيَالٍ قَولُهُ كُلَّ لَيلَةٍ: ... أَتَاكَ رَسُوْلٌ مِنْ لُؤَيّ بنِ غَالِبِ

فَشَمَّرْتُ مِن ذَيْلِ الإِزَارِ وَوَسَّطَتْ ... بيَ الذِّعْلُبُ الوَجْنَاءُ بَينَ السَّبَاسِبِ

فَأَشْهَدُ أنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيرُه ... وَأَنَّكَ مَأمُونٌ على كُلِّ غَائِبِ

وَأَنَّكَ أَدْنَى المرْسَلِينَ وَسِيلَةً ... إِلَى اللهِ يَا بنَ الأَكْرَمِينَ الأَطَايِبِ

فَمُرْنَا بِمَا يَأْتِيكَ يَا خَيرَ مُرْسَلٍ ... وإِنْ كَانَ فِيمَا جَاءَ شَيْبُ الذَّوَائِبِ

وكُنْ لِي شَفِيعًا يومَ لَا ذُو شَفَاعَةٍ ... سِوَاكَ بِمُغْنٍ عَنْ سَوَادِ بنِ قَارِبِ

فَفَرِحَ النَّبِيُّ ﷺ وأصحابُه بمقالتي فرحاً شديداً، حتى رُئِيَ الفَرَحُ في وجُوهِهِم، وضَحِكَ رَسُوْلُ الله ﷺ حتى بدتْ نواجِذُه، وقال: «أفْلَحتَ يَا سَوَاد»، فالتزمَ عمرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ سواداً، وقال: لقد كنتُ أشتهي أنْ أسمعَ هذا الحديثَ منك، فهل يأتيك رَئِيّك اليوم؟، فقال: أمّا منذُ قرأتُ القرآن فَلا[1].

وأما ما سمع من جوف الأصْنام؛ فمن ذلك: خبرُ العَبَّاس بن مِرْدَاس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وذلك أنه كان لمِرْدَاسٍ السّلميّ وَثَنٌ يعبُده، يُقَالُ له: ضِمَار، فلمّا

---

(١) ذكره الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام (١/١٩٧). **والذِّعْلُبُ الوَجْنَاءُ:** هي الناقة السريعة الخفيفة.

حَضَرت مِرْدَاسًا الوَفَاةُ قال لولدِه العباس: أيْ بني اعبُدْ ضِمارًا فإنه ينفعُك ويضرّك. فبينا العَبّاسُ يومًا بين لِقَاحٍ لَه في نصْفِ النهار، إذْ طلعَ عَليه رَاكِبٌ وعليه ثيابٌ بيض، فقال له: يا عبّاس؛ ألم ترَ أنّ السماءَ قد حَفَّتْ أَحْرَاسُها، وأنّ الجِنَّ قَد جَزِعَتْ أنْفَاسُها، والخَيلَ قد وُضِعَت أحَلَاسُها، وأنّ الذِي نزلَ عليه البِرُّ والتّقْوَى صَاحِبُ النّاقةِ القُصْوَاء؟، قال عبّاس: فرَاعَنِي ذلك، فجئتُ إِلَى ضِمَار، فكَنَسْتُ ما حَوله، ثم تمسَّحْتُ به، فإذا صَائِحٌ يَصِيحُ مِنْ جَوفِه، يقول:

قُـلْ لِلقَبـائِـلِ مِنْ قُرَيْشٍ كلِّهَـا ... هَلَك الضِّـمَارُ وَفَازَ أَهْلُ المسْـجِدِ
هَلَـكَ الضِّـمَـارُ وكَـانَ يُعْبَـدُ مُـدَّةً ... قَبْـلَ الصَّـلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ مُحمَّـدِ
إنَّ الـذِي وَرِثَ الـنُّبُـوَّةَ وَالـهُـدَى ... بَعْـدَ ابنِ مَرْيَمَ مِنْ قُرَيْشٍ مُهْتَـدِ

قال عبّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فخرَجتُ مع قومي بني حارثة إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمَدِيْنَة، فدخلتُ المسجدَ، فلما رآني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبسم، وقال: «يَا عَبَّاسُ كَيفَ إِسْلَامُكَ»؟ فقصَصَتُ عليه القِصّةَ، فقال: «صَدَقْتَ»، وأسلَمْتُ أنَا وقَومِي[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: أن قومًا من خَثْعَمَ كَانوا جُلوسًا عِنْدَ صَنمٍ لهم، وكانوا يتحاكمون إلى أصْنامِهم، فبينا هم عند الصَّنَم إذ سَمِعُوا هَاتِفًا يهتفُ، ويقول:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ ذَوُو الأَجْسَام ... وَمُسْنِدُو الحكْمَ إِلَى الأَصْنَامِ
أَمَـا تَرَونَ مَـا أَرَى أَمَـامِي ... مِنْ سَاطِعٍ يَجْلُو دُجَى الظَّلَامِ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه [هواتف الجان ـ (٧٣/١)]، برقم: (٩٦).

ذَاكَ نَبِيٌّ سَــيِّـدُ الأَنَــامِ   مِنْ هَاشِــمٍ فِي ذَرْوَةِ السَّــنَامِ
مُسْــتَعْلِنٌ بِـالبَلَـدِ الحَرَامِ   جَاءَ يَهُدُّ الكُفْرَ بِالإِسْــلَامِ

قال أبو هريرة: فأمسَكوا سَاعةً حتّى حَفِظوا ذلك، ثُمّ تفرّقوا، فلمْ يمْضِ بهم ثالثُهم حتى فجَأهُم خَبرُ رَسُوْلِ الله ﷺ أنه قد ظهرَ بمَكَّةَ، فأسلموا بعد ذلك[1].

وعن تميم بن أوْسٍ الدَّاري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: كنتُ بالشام حين بعث رَسُوْلُ الله ﷺ، فخرجتُ إلى بعض حاجاتي فأدركني الليلُ، فقُلْتُ: أنا في جِوَار عَظِيم هَذَا الوادِي، فإذا مُنَادٍ يُنَادِي ولا أراه، يقول: عُذْ بالله، فَإِنَّ الجنَّ لا تجيرُ أحداً على الله. فقُلْتُ: ما تقولُ؟. فقال: قد خَرَجَ رَسُوْلُ الأمّيّين رَسُوْلُ الله ﷺ، ولقد صَلّينا خلفَه بالحجُون، وأسلمْنا واتّبعناه، وذهبَ كيدُ الجِنّ، ورُمِيَتْ بالشُّهُبِ، فانطلق إلى محمّدٍ ﷺ فأسْلِمْ. قال تميمٌ: فلما أصبحتُ ذهبتُ إلى دِيرِ أيّوب، فَسَأَلْتُ رَاهِبَه وأخبرتُه، فقال: صَدَقُوك، نجدُه يخرجُ مِن مَكَّةَ، ومهاجره المَدِيْنَة، وهو خيرُ الأنبياء، فلا تُسْبَق إليه. قال تميم: فجئتُ رَسُوْلَ الله ﷺ، ثم أسلمت[2].

وعن وَائل بن حُجْرٍ الحضْرَمِيِّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، قال: كانَ سببُ وفُودِي على رَسُوْلِ الله ﷺ أنه كان لي صنم من العَقِيق، فبينما أنا نائمٌ في الظهيرة، إذا سمعتُ صوتًا مُنكراً من المخْدَع الذِي فيه الصَّنَمُ، فأتيتُ الصَّنَمَ وسَجدتُ بين يديه وإذا قائِلٌ يقولُ:

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في [دلائل النبوة ـ (٧٦/١)]، برقم: (٦٤).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٧٣/١١).

وَا عَجبًا لِوَائِلِ بنِ حُجْرِ يَخَالُ يَدْرِي وَهُوَ لَيْسَ يَدْرِي
مَاذَا يُرَجِّي مِنْ نَحِيتِ صَخْرِ لَيْسَ بِذِي نَفْعٍ وَلَا ذِي ضُرِّ
لَوْ كَانَ ذَا حِجْرٍ أَطَاعَ أَمْرِي

قال: فقُلْتُ: أسمَعْتَ أيها الهاتِفُ النّاصِح، فماذا تأمرني؟، فقال:

ارْحَلْ إِلَى يَثْرِبَ ذَاتِ النَّخْلِ تَدِينُ دِينَ الصَّائِمِ المُصَلِّي
مُحَمَّدِ النَّبِيِّ خَيْرِ الرُّسْلِ

ثم خَرَّ الصَّنمُ لوَجْهِهِ، فاندقّتْ عنقُه، فقمت إليه فجعلته رُفاتًا، ثم سِرْتُ مُسْرِعًا، حتى أتيتُ المَدِيْنَةَ، فدخلتُ المسجدَ، فلما رآني رَسُوْلُ الله ﷺ أدْنَانِي وبسطَ لي رداءَهُ فجَلسْتُ عليه، ثم صَعِدَ المنبرَ فأقامني بينَ يديه، وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا وَائِلُ بنُ حُجْرٍ أَتَاكُمْ مِنْ حَضْرَمَوتَ رَاغِباً فِي الإِسْلَامِ»، فقلت: يا رسول الله، بلغنِي ظهُورُك وأنَا في مُلكٍ عظيم فرفَضْتُه وآثرتُ دينَ الله، قال: «صَدَقْتَ، اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي وَائِلِ بنِ حُجْرٍ وَوَلَدِهِ»[1].

وعن سَعِيْد بن جبير رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أن رَجُلاً من بني تميم حَدَّثَ عن بَدءِ إسلامه فقال: إني لأسير برَمْلٍ عَالِجٍ ذاتَ ليلة، إذ غلبني النومُ، فنزلتُ عن راحلتي، وأنختها ونمتُ وتعَوّذْتُ قبلَ نومِي، فقُلْتُ: أعوذُ بعظيمِ هذا الوادي مِن الجِنِّ، فرأيتُ في منامي رَجُلا بيده حرْبةٌ يريدُ أن يضَعَها في نَحْرِ نَاقتِي، فانتبهتُ فَزِعًا فنظرت يميناً وشمالاً فلم أرَ شيئاً، فقُلْتُ: هذا حلمٌ، ثم عُدت فتعوّذْتُ، فرأيت مثل ذلك، وإذا بناقتي تَرْعُدُ، ثم غفوتُ، فرأيت مثل ذلك،

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٨/١٧٥)، برقم: (٢٦٠٧). والعقيلي في الضعفاء (٤/٥٣).

فانتبهت، فرأيتُ ناقتي تضْطَرِبُ، فالتَفَتُّ فإذا أنا برَجُلٍ شَابٍّ كالذي رأيته في منامي، وبيدِه حرْبةٌ ورَجُلٌ شيخ يُمْسِكُ بيدِه يرُدّه عن ناقتي، وبينهما نِزاع، فبينما هما يتنازعان إذْ طلعت ثَلاثَةُ أثوَارٍ من الوَحْشِ، فقال الشّيخُ للفتَى: قُمْ فخُذْ أيَّها شِئتَ فِدَاءً لنَاقةِ جاري الإنسِيّ، فقام الفتى وأخذ منها ثوراً وانصَرَفَ، ثمّ التفتَ الشيخُ إليَّ وقَال: يا فتى إذا نزلتَ وادِياً مِنَ الأوْدِيَةِ فخِفْتَ هَوْلَهُ، فَقُل: أَعُوذُ بِالله رَبِّ مُحَمَّدٍ مِنْ هَوْلِ هذا الوادي، ولا تَعُذْ بأحَدٍ من الجِنِّ فقد بَطَل أمرُهُم. فقُلْتُ له: ومَنْ مُحَمَّدٌ؟، قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي. فقُلْتُ: أينَ مَسْكَنُه؟، قال: يَثْرِبُ ذَاتُ النّخل، فركبتُ ناقتي وأتيتُ المَدِيْنَةَ، فرأيتُ رَسُوْلَ الله ﷺ، فحدّثني قبلَ أنْ أذكرَ له منه شيئاً، ودعاني إلى الإسلام فأسلمْتُ[1].

وأمّا مَا سُمِعَ مِنَ الوحُوش، فمنه: ما حدث به أبو سَعِيْد الخدري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: بينا رَاعٍ يَرعَى بالجزيرةِ، إذْ عرَضَ الذّئْبُ لِشَاةٍ من شِيَاهِهِ، فحَالَ الرَّاعِي بينَ الذِّئبِ وبينَ الشّاةِ، فأقْعَى الذّئبُ على ذَنَبِه، فقال: ألا تتقي الله تحول بيني وبين رِزْقٍ سَاقه الله إليّ، فقال الرّاعي: أعْجبُ من ذئبٍ يكلمني بكَلام الإنس!، فقال الذئبُ: ألا أخبرك بأَعْجَبَ منّي، رَسُوْلُ الله ﷺ بِيَثْرِب، يحدّثُ الناسَ بأنباءِ ما قد مضى وما هو كَائن بعدكم، وأنت على غنمِك، وما بينك وبينه إلا هذا الشِّعب، فقال له الراعي: مَنْ لي بغنمِي، فقال الذّئْبُ: أنا أرْعَاها حتّى ترجع، فأَسْلَمَ إليهِ غَنَمَه ومضَى، فأتَى المَدِيْنَةَ، فغَدَا لِرَسُوْلِ الله ﷺ، فحَدّثَهُ بما قاله الذئبُ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «صَدَقَ الرَّاعِي، عُدْ إِلَى غَنَمِكَ تَجِدْهَا بِوَفْرِهَا» فرَجع فوجدها كذلك، وذبحَ للذّئبِ شاةً منها[2].

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٣٤٣)، بزيادة مفيدة، وعزاه للخرائطي.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٢)، وأبو نعيم في الدلائل برقم: (٢٧١) باختلاف يسير، =

وأمّا عن تسَاقُطِ النجوم ومنع اسْترَاقِ السّمع: فإنّه لما تقاربَ أمرُ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحضرَ مبعثُه حُجبَتِ الشّياطينُ عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد تلك التي كانت تقعد فيها فرموا بالنجوم، فعرف الجن أن ذلك لأمرٍ حَدَثَ من الله في العِبَاد، يقولُ الله تعالى لنبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينَ بعثَه يَقُصُّ عليه خبرَهم إذْ حُجِبُوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ٩]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، أي: من يخطفُ الخَطْفَةَ منهم بخِفَّةِ حرَكتِه يتبَعُه شِهَابٌ ثاقِبُ، يقتله أو يَحْرِقُ وجهَهُ أو يُخْبِلُه قبل أَنْ يُلْقِيَها إلى الكَاهنِ، وذلك لئلا يلتبسُ أمر الوحي بشيء من أخبار الشياطين في مُدَّةِ نزوله وبعد انقضَائِه وموتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لئلا تَدخل الشّبهةُ على ضُعفاءِ العقول، فربّما توهموا عَودَ الكَهَانَةِ التي سببها استراق السمع، وأَنَّ أمرَ رسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تم فاقتضتِ الحكمةُ الرّبانيّةُ حِرَاسَةَ السَّماءِ في حياتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد موته.

وعن لُهَيْبِ بن مَالك اللِّهْبِيِّ، قال: حضرتُ مع رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذُكِرَتْ عِنْدَه الكهانةُ، فقُلْتُ له: بِأبي وأمّي يا رَسُوْلَ الله، نحنُ أوّلُ من عَرَف حِرَاسَةَ السماء، ومَنْعَ الجنِّ مِن استراق السّمع، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهنٍ يُقَالُ له: خَطَرٌ، وكان شيخاً كبيراً قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة، وكان من أعْلَمِ كُهَّانِنَا، فقلنا له: يا خَطَرُ؛ هل عندك عِلْمٌ من هذه النجوم التي يُرْمَى بها؟، فإنا قد فَزِعْنَا لها، وخفنا سُوءَ عاقبَتِها، فقال: ائتوني بسَحَرٍ، أُخْبِركُم الخَبَر،

= ونقله ابن كثير في البداية والنهاية (٦/١٤٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/٣٧٦)، من طريق ابن حوشب.

أَلِخَيْرٍ أمْ ضَرَر، أمْ لِأَمْنٍ أَوْ حَذَر؟. فانصرفنا عنه، فلمّا كانَ السَّحَرُ أتيْنَاه، فإذا هو قائِمٌ على قَدِمَيه، شَاخِصٌ إلى السّماءِ بعَينَيه، فنادينَاه: يا خَطَرُ يا خَطَرُ، فأومَأ إلينا أنْ أمسِكُوا، فَأَمْسَكْنَا، فانقضَّ نَجْمٌ عَظِيمٌ منَ السَّماءِ، وصرَخَ الكَاهِنُ رافعاً صوتَه فقال: أَصَابَه إِصَابة، خَامَرَهُ عِقَابُه، عَاجَلَهُ عَذَابُه، أَحرَقَهُ شِهَابُه، زَايَلَهُ جَوَابُه، يَا وَيْلَهُ مَا حَالُه، بَلْبَلَهُ بِلْبَالُه، عَاوَدَهُ خَبَالُه، تَقَطَّعَتْ حِبَالُه، وَغُيِّرَتْ أَحْوَالُه. ثم أَمْسَكَ طَوِيْلًا، ثم نظرَ إلينا فقال: يا معشرَ بني قحْطَان، أخبرُكم بالحقَّ والبَيَان، أقسِمُ بالكعبةِ والأركَان، والبلدِ المؤتمنِ السُّدَّان، لقد مُنِعَ السَّمعَ عُتَاةُ الجَان، بثَاقِبٍ ذَي سُلطَان، من أجْلِ مَبْعُوثٍ عَظِيم الشّأن، يبعثُ بالتَّنزِيل والفُرْقَان، وبالهُدَى وفَاضِل القُرْآن، تَبْطُلُ بِهِ عِبَادَةُ الأوْثَان، فقلنا له: ويلك؛ إنك لتذكرُ أمراً عظيماً، فما ترَى لقومك؟، فقال:

أَرَى لِقَومِي مَا أرَى لِنَفْسِي ... أَنْ يَتْبَعُوا خَيْرَ نَبِيِّ الإِنْسِ
بُرْهَانُه مِثْلُ شُعَاعِ الشَّمْسِ ... يُبْعَثُ فِي مَكَّةَ دَارِ الحُمْسِ
بمُحْكَمِ التَّنْزِيل غَيرِ اللَّبْسِ

فقلنا له: يا خطرُ ومَن هوَ؟، فقال: والحياةِ والعَيش، إنه لمِنْ قُرَيْش، ما في حُكْمِهِ طَيْش، ولا في خَلْقِهِ هَيْش، يكونُ في جَيش، وأيُّ جَيش؟، من آل قَحْطَانَ، وآلِ أَيش[1]، فقلنا له: بَيِّنْ لنَا مِنْ أَيِّ قُرَيْش؟، فقال: والبيت ذي

(١) قال الحافظ السهيلي في [الروض الأنف ـ (١٣٨/١)]: وقوله: "من آل قحطان وآل أيش"، يعني بآل قحطان الأنصار لأنهم من قحطان، وأما آل أيش فيحتمل أن تكون قبيلة من الجنّ المؤمنين منسوبون إلى أيش. فإن يكن هذا وإلا فله معنى في المدح غريب تقول: فلان أيش هو وابن أيش هو؟، ومعناه: أي شيءٍ عظيم؟!، فكأنّه قال: من قحطان ومن المهاجرين الذين يقال فيهم مثل هذا كما يقال: هم وما هم وزيد وما زيد، وأيش في معنى: أيّ شيءٍ، كما يقال: ويلمه، في معنى=

الدَّعَائِم، والرّكن والأَحَائِم، لهو نجْلُ هَاشِم، من مَعْشرٍ أكَارِم، يبعثُ بالمَلَاحِم، وقتلِ كُلِّ ظَالم. ثم قال: هذا هو البَيان، أخبَرني به رَئِيسُ الجَان. ثم قال: الله أكبر، جاءَ الحقّ وظَهَر، وانقطعَ عنِ الجنِّ الخبَر، ثم سَكنَ وأغْمِيَ عليه، فما أفاق إلا بعدَ ثلاثة أيام، فلما أفاقَ قال: لَا إله إلا الله. فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «سُبْحَانَ الله؛ لَقَدْ نَطقَ عَنْ مِثْلِ النّبُوَّةِ، وَإِنَّهُ لَيُبْعَثُ يَومَ القِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ»[1].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما: أنّ نفرًا من الأنصار قالوا: بينا نحن جلوس مع رَسُوْل الله ﷺ إذْ رُمِيَ بِنَجْمٍ فاستنار، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَا كُنْتُم تَقُولُونَ فِي هَذِهِ النُّجُومِ الَّتِي يُرْمَى بِهَا في الجَاهِلِيَّةِ»؟، قالوا: يا رَسُوْلَ الله؛ كنّا نقولُ إذا رأيناه: مَاتَ مَلِكٌ، أو هَلَكَ مَلِكٌ، أو وُلِدَ مَوْلُودٌ، فقالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الله إِذَا قَضَى فِي خَلْقِهِ أَمْرًا سَمِعَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ فَسَبَّحُوا؛ فَسَبَّحَ مَنْ تَحْتَهُمْ بِتَسْبِيحِهِمْ، فَسَبَّحَ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَزَلِ التَّسْبِيحُ يَهْبِطُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسَبِّحُونَ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مِمَّ سَبَّحْتُمْ؟، فَيَقُولُونَ: سَبَّحَ مَنْ فَوْقَنَا، فَسَبَّحْنَا بِتَسْبِيحِهِمْ، فَيَقُولُونَ: أَفَلَا تَسْأَلُونَ مَنْ فَوْقَكُمْ مِمَّ سَبَّحُوا؟، فَيَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهُونَ إِلَى حَمَلَةِ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مِمَّ سَبَّحْتُمْ؟، فَيَقُولُونَ: قَضَى الله فِي خَلْقِهِ كَذَا وَكَذَا، فَيَهْبِطُ الْخَبَرُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، حَتَّى يَنْتَهُونَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَتَحَدَّثُونَ بِهِ، فَيَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ بِالسَّمْعِ عَلَى قَوْلِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ، ثُمَّ يَأْتُونَ الْكُهَّانَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ

= ويل أمّه على الحذف لكثرة الاستعمال.

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (٥/٦٩٠)، في ترجمة لُهَيبٍ: (٧٥٦٨)، ونقل كلام ابن عبد البر فيه فقال: قال أبو عمر: إسناده ضعيف، ولو كان فيه حكم لما ذكرته؛ لأن رواته مجهولون، ولكنه في علم من أعلام النبوة، والأصول لا تدفعه بل تشهد له وتصححه.

فَيُحَدِّثُونَهُمْ بِهِ فَيُخْطِئُونَ وَيُصِيبُونَ، فَيَتَحَدَّثُ بِهِ الْكُهَّانُ فَيُصِيبُونَ بَعْضًا، ثُمَّ إِنَّ اللهَ حَجَبَ الشَّيَاطِينَ بِهَذِهِ النُّجُومِ الَّتِي يُقْذَفُونَ بِهَا، فَانْقَطَعَتِ الْكِهَانَةُ فَلَا كِهَانَةَ»(١).

وأما ذكره ﷺ **في الكتب السابقة**: فقيل أنّ اسمَه ﷺ في التَّوْرَاة أَحْيَدٌ، لأنه يمنعُ النارَ عن أمته، واسمُه فيها أيضًا طَابَ طَابَ: أي طَيّبٌ، واسمُه فيها محمد حبيب الرحمن، ووصف بالضّحوك: أي طيّب النفس، وفيها: محمد بن عبد الله مولده بمَكَّةَ، ومهاجره إلى طابة، وملكه بالشام. وعن سهل مولى خيثمة، قال: كنتُ يتيماً في حجر عمِّي فأخذتُ الإنجيلَ فقرأته حتى مرَّت لي وَرَقَةٌ مُلْصَقَةٌ بِغِرَاءٍ، فَفَتَقْتُهَا فوجدتُ فيها وصفَ محمّدٍ ﷺ، فجاءَ عَمّي، فلما رَأى الوَرَقَةَ ضربني، وقال: ما لَكَ وَفَتْحَ هذِه الوَرَقَةِ وقراءَتِها، فَقُلْتُ: فيها وصفُ النَّبِيِّ أحمدَ، فقال: إنه لم يأتِ بَعْدُ!.

وعن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فَقُلْتُ: أخبرني عن صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ في التَّوْرَاة، فقال: (والله إنه لموصُوف في التَّوْرَاةِ ببعضِ صِفَتِهِ في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وحِرْزاً للأُمِّيِّينَ، أنت عبدي ورَسُوْلي، سمّيتك بالمتوكل، ليسَ بِفَظٍّ ولا غَلِيظٍ، ولا صَخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيمَ به الملّةَ العوجاءَ، يفتح به أعينًا عميًا، وآذانا صمًّا، وقلوبًا غلفًا). قال عطاء: ثم لقيت كعب الأحبار رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب [العرش وما روي فيه ـ (١/٣٥٧)] عن طريق ابن شهاب الزهري.

فَسَأَلْتُه فما أخطأ في حَرْفٍ مما ذكره عبد الله بن عمرو بن العاص[١].

وفي التَّوْرَاةِ وصْفُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه يَسْبِقُ حِلْمُهُ جَهْلَهُ، ولا يزيدُه شِدَّةُ الجَهْلِ عليه إلا حِلْماً. وعن بعض الأحبار قال: جميعُ ما وُصِفَ به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التَّوْرَاة وقفتُ عليه إلا هذين الوصفين، وكنت أشتهي الوقوف عليهما، فجاءَه شخصٌ يطلبُ منه ما يستعين به، وَذُكِرَ لي أنه لم يَكُنْ عندَه ما يعينه به، فَجِئْتُهُ فقُلْتُ: هذه دنانير تدفعها له، وتكون على كذا من التّمْرِ ليوم كذا، ثمّ جِئتُه قبلَ الأجَلِ بثلاثةِ أيّام، فأخذتُ بمَجَامِع قَمِيصِهِ ورِدَائِه، ونظرتُ إليه بوَجْهٍ غليظٍ وقُلْتُ: ألا تَقْضِيني يا محمَّدُ حَقِّي؟، إنكم يا بني عبد المطّلب مُطْلٌ، فقال لي عمر: أيْ عَدوّ الله، تقول لِرَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أسْمَع، وَهَمَّ بي، فنظرَ إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سُكُونٍ وتُوءَدَةٍ، وتَبَسَّمَ، ثمَّ قَال: «يَا عُمَرُ، أَنَا وَهُوَ أَحْوَجُ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِنْكَ، أَنْ تَأْمُرَنِي بِحُسْنِ الْأَدَاءِ، وَتَأْمُرَهُ بِحُسْنِ النِّدَاءِ، اذْهَبْ بِهِ يَا عُمَرُ فَاقْضِهِ حَقَّهُ، وَزِدْهُ عِشْرِينَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ مَكَانَ مَا رُعْتَهُ»، فأسْلَمَ اليَهُودِي وذكرَ قصَّةَ إسلامِه[٢].

وعن النعمانِ السَّبَئِي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وكان من أحبار يَهودٍ باليمن قال: لمّا سَمعتُ بذكر النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَت عليه وسَألته عن أشْياءَ، ثم قُلْتُ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه [٦/١٣٥]، باب: «إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا»، رقم: (٤٨٣٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في معرفة الصحابة [٢/٣٦٧]. وهذا الحَبْرُ هو زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ، وتكمِلَةُ قصّتِهِ بتصرُّفٍ: أنّ عمرَ لما زَاده عشرينَ صاعًا، قال: ما هذه الزّيادة؟، فقال: أمرَني رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ أزيدَك مكانَ ما رُعْتُكَ. فقال زيد: كلّ علامات النّبوّة قد عرفتها في وجهِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا اثنتين: يسبق حلمه جهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، وقد علمتهما، فاشْهَدْ أنّي قد رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيا، وأنّ شطرَ مالي صَدقةٌ على أمّةِ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

له: إنّ أبي كان يختم على سِفْرٍ ويقول: لا تقرأه على يهودٍ حتى تسمع بنبيٍّ قد خرج بيثرب فإذا سمعت به فافتحه. فلما سَمِعْتُ بكَ فتحتُ السِّفْرَ، فإذَا فيه صِفَتُكَ كما أَرَاكَ السَّاعة، وفيه ما تُحِلُّ وما تُحَرِّمُ، وفيه أنك خيرُ الأنبياء، وأمتك خير الأمم، وأنّ اسمَك أحمدُ، وأمتك الحمّادون، يحمدون الله في السراء والضراء، قربانهم دماؤهم ـ أي: يتقربون إلى الله تعالى بإراقة دمائهم في الجهاد ـ، وأناجيلهم في صدورهم ـ أي: يحفظون كتابهم ـ، ولا يحضرون قتالاً إلا وجبريلُ معهم، يتحنن الله تعالى عليهم كتَحَنُنِ الطّير على فراخِه. وكان أبي قد قال لي: إذا سمعتَ به فاخرج إليه وآمِنْ به وصَدّقه. فكَان النَّبيُّ ﷺ يحبُّ أن يُسْمِعَ أصحَابَه حَدِيثَه، فأتاه يوماً، فقال له النَّبيّ ﷺ: «يَا نُعْمَانُ حَدّثْنَا»، فابتدأ النعمان الحديثَ مِن أوّلِه، فَرُئِيَ رَسُوْلُ الله ﷺ يَبْتَسِمُ، ثمّ قال: «أَشْهَدُ أَنّي رَسُوْلُ الله»[1].

وعن مقاتل بن سليمان قال: وجدت مكتوبًا في زبُورِ داود: (إني أنَا الله لا إله إلا أنا ومحمد رَسُوْلي، يُقَوّي الضّعيفَ، ويَرحَمُ المسَاكين، ويُبَارَكُ عليه، ويدومُ ذكرُه إلى الأبد). وفيها: (يا داود سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد، صادقا لا أغضب عليه أبدا، ولا يعصيني أبدا، وقد غفرت له ما تَقَدَّم من ذنبه وما تأخر، وأمته مرحومة، يأتون يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء). وفي بعض الكتب المنزلة: (إني باعث رَسُوْلا من الأميين، أسدده بكل جميل، أهب له كل خلق كريم، وأجعل الحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو

---

(١) ذكره ابن سيد الناس في كتابه [عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ـ (١/٩٧)]، وعزاه للواقدي. وذكر: أنه يقال: إنّ النعمان هذا قتله الأسود العنسي، بعد أنْ قطعه عضوًا عضوًا، ثم حرّقه بالنار، وهو يقول: أشهدُ أن محمّداً رسولَ الله وأنك كذّاب مُفْتَرٍ على الله ﷻ.

والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والإسلام ملته، أرفع به من الوضيعة، وأهدي به من الضَّلالة، وأؤلِّف به بين قلوب متفرقة وأهواء مختلفة، وأجعل أمته خير الأمم).

ومن الألفاظ التي رَضِيَها النّصارى لأنفسهم وترجموها على اختيارهم: أنّ المسيح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: (إني أسأل الله أن يبعثَ إليكم بَارَقْلِيطَ[١] آخر يكون مَعَكَم إلى الأبد، وهو يعلمكم كلَّ شيءٍ، ويفسر لكم الأسرَار، وهو يشهد لي كما شهدت له، ويكون خاتم النَّبيّين). ولم يَشهد له بالبرَاءَةِ والصّدق في النبوةَ بعدَه أحَدٌ إلا محمّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما ما وُجِدَ مَكْتُوبًا في الأحجار والنبات والحيوان بقلم القدرة فكثير؛ فمن ذلك: ما جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: قال رَسُوْل الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَانَ نَقْشُ خَاتَمِ سُلَيمَانَ بنِ دَاوُدَ عَلَيهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ الله»[٢]. وَوُجِدَ عَلى بعضِ الحِجَارَةِ القَدِيمة مَكتوباً: (محمد

---

(١) كلمة (**بَارَقْلِيط**): باليونانية تأتي بمعنى: المعزي والمعين والوكيل. وبمعنىً قريب من محمد وأحمد. وفي اليونانية القديمة معناها: الذي له حمد كثير. وهناك خلاف بين المسلمين والنصارى في الأصل اليوناني لهذه الكلمة، ولعل هناك تحريفاً قام به النصارى لإخفاء دلالة الكلمة على اسمه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومثل هذا التحريف لا يستغرب وقوعه في كتبهم، ففيها من الطوام مما يجعل تحريف هذه الكلمة من السهل الهين، ووقوع التّصْحِيف كثير عند الترجمة بين اللغات، وكلمة (البَارَقْلِيط) مترجمة عن السّريانية فلا يبعد وقوع التحريف عند الترجمة. بتصرف من [المختصر القويم في دلائل نبوة الرسول الكريم، ص: (٦١)].

(٢) رواه العقيلي في "الضعفاء"، برقم: (١٨٥)، وأخرجه ابن عدي [٤/٤٧]، ترجمة: (٩٠٧) شيخ ابن أبي خالد، وأخرجه ابن عساكر [٢٢/٢٥٢]، من طريق شيخ بن أبي خالد البصري، قال الذهبي في الميزان [٣/٣٩٢] في ترجمة شيخ: متهم بالوضع وهذا الحديث من أباطيله. وأورده ابن الجوزي في الموضوعات.

تقي مصلح، وسيد أمين). وفي جامع مدينة قُرْطُبَة بالمغرب عمود أحمر، مكتوب فيه بقلم القدرة: (محمّد).

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «لمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الخَطِيئَةَ قَالَ: يَا رَبِّ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا غَفَرْتَ لِي، فَقَالَ: وَكَيفَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا؟، قَالَ: لِأَنَّكَ لمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ، وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ، رَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيتُ عَلَى قَوَائِمِ العَرْشِ مَكْتُوباً: لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ الله، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلَّا أَحَبَّ الخَلْقِ إِلَيكَ، قَالَ: صَدَقْتَ يَا آدَمُ، وَلَولَا مُحَمَّدٌ لمَا خَلَقْتُكَ»(١).

وعن ميسرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: قُلْتُ: يا رَسُوْلَ الله متى كنت نبيا؟، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «لمَّا خَلَقَ الله تَعَالَى الأَرْضَ، وَاسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَخَلَقَ العَرْشَ، كَتَبَ عَلَى سَاقِ العَرْشِ: مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ الله خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَخَلَقَ الله الجَنَّةَ التِي أَسْكَنَهَا آدَمَ وَحَوَّاءَ، وَكَتَبَ اسْمِي عَلَى الأَبْوَابِ وَالأَوْرَاقِ وَالقِبَابِ وَالخِيَامِ، وَآدَمُ بَينَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ، فَلَمَّا أَحْيَاهُ الله نَظَرَ إِلَى العَرْشِ، فَرَأَى اسْمِي، فَأَخْبَرَهُ الله تَعَالَى أَنَّهُ سَيِّدُ وَلَدِكَ، فَلَمَّا غَرَّهُمَا الشَّيْطَانُ تَابَا وَاسْتَشْفَعَا بِاسْمِي إِلَيهِ»(٢). وهذا يفيد أنّ رَسُوْلَ الله ﷺ قد

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل [٦/١١٨]، والحاكم في المستدرك [٤/٢٢٩]، وقال: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك [٢/٦٦٥]، برقم: (٤٢٠٩)، مختصرًا، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي في تعليقه على التلخيص: صحيح. ورواه الطبراني في المعجم الكبير [٢٠/٣٥٣]، برقم: (٨٣٣). والراوي يقال له: ميسرة الفجر، واسمه عبد الله بن أبي الجدعاء العقيلي، ومَيسَرة لقب له.

وُصِفَ بالنّبوَّةِ قبل وجودِ آدمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال السيوطي في الخصائص الكبرى: ومن خصائصه ﷺ كتابة اسمه الشريف مع اسم الله تعالى على العرش، ولقد خلقَ الله تعالى العرشَ على الماء فاضطرب، فكتبَ عليه: (لا إله إلا الله محمد رَسُوْل الله)، فسكن، ومكتوبٌ اسمُه ﷺ على سائر ما في الملكوت من السماوات والجنان وما فيهنّ.

ومن ذلك: ما حَدَّثَ به بعضُهم قال: غَزَونا الهند فوقعتُ في غَيْضَةٍ، فإذا فيها شَجَرٌ عليه ورَقٌ أحمرُ مكتوب عليه بالبياض: (لا إله إلا الله محمد رَسُوْل الله). وعن بعضِهم: رأيتُ في جزيرةٍ شجرةً عظيمةً لها ورق كبير طيّب الرائحة، مكتوباً عليه بالحمرة والبياض في الخضرة كتابة بينة واضحة خِلْقَةً، ابتدعها الله تعالى بقدرته، في الورقة ثلاثة أسطر: الأول: لا إله إلا الله، والثاني: محمد رَسُوْل الله، والثالث: إنّ الدينَ عند الله الإسلام.

ومن ذلك: ما نُقِلَ عن بعضِهم، قال: عصَفَتْ بنا ريحٌ، ونحن في لجَجِ بحْرِ الهند، فأرسينا في جزيرةٍ، فرأينا فيها ورْداً أحمرَ ذكِيَّ الرائحة، مكتوباً عليه بالأصفر: (براءة من الرّحمن الرحيم إلى جنّات النعيم، لا إله إلا الله محمَّدٌ رَسُوْلُ الله). وحُكِيَ عن بعضِهم قال: رأيتُ في بلاد الهنْد شجرةً تحملُ ثمراً يُشْبِهُ اللّوز له قشران، فإذا كُسِرَ خرج منه ورقة خضراء مطويّة، مكتوباً عليها بالحُمْرَةِ: (لا إله إلا الله محمد رَسُوْل الله)، كتابة جليّة، وهم يتبركون بتلك الشجرة، ويستسقون بها إذا منعوا الغيث.

ومن ذلك: ما ذكره بعضُهم أنه اصطادَ سَمَكَةً مكتوباً على جنبها الأيمن:

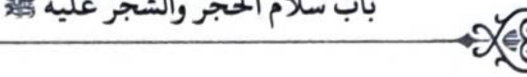
(لا إله إلا الله)، وعلى جنبها الأيسر: (محمد رَسُوْل الله)، قال: فلما رأيتها ألقيتها في النّهْرِ احترامًا لها. وقال آخر: ركبتُ بحرَ العرب، ومعنا غلامٌ معه سنارة فأدْلَاها في البحر فاصطاد سمَكَةً قدر شبر بيضاء، فنظرنا فإذا مكتوباً بالأسود على أذنها الواحدة: (لا إله إلا الله)، وفي قفاها خلف أذنها الأخرى: (محمد رَسُوْل الله)، فقَذَفْناها في البَحر.

ومن ذلك: ما حكاه بعضُهم أنه كان بِطَبَرِسْتَانَ قومٌ يقولون: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا يقرّونَ لمحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرّسالة، وحصَل منهم افْتِتَانٌ، وفي يومٍ شديد الحرِّ، ظهرَت سحابةٌ شديدةُ البياض، فلم تزل تنشأ حتى أخذت ما بين الخافقين، وأحالت بين السماء والبلد، فلما كان وقت الزَّوَال ظهر في السحابة بخَطٍّ واضح: لا إله إلا الله محمَّدٌ رسولُ الله، فلم تزل كذلك إلى وقت العصر، فتابَ كلّ مَن كان افْتُتِنَ، وأسلمَ أكثرُ من كان بالبلدِ من اليهود والنّصارى.

ومن ذلك: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، أنّ ذلك الكنزَ كان لوحًا من ذهب، مكتوباً فيه: (عجبًا لمن أيقن بالموت كيف يفرح!، عجبا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل!، عجبًا لمن أيقن بالقضاء والقدر كيف يحزن!، عجبًا لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟!، لا إله إلا الله محمد رسول الله)[١].

---

(١) أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان [١/٣٨٦]، برقم: (٢٠٨).



بَابُ
سَلَام الحَجَر والشّجَرِ عَلَيهِ ﷺ

عن جابر بن سَمُرَة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، وَإِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ»(١). وهو الذي في زقاق بمَكَّةَ يُعْرَف بزُقَاق الحَجَر. ورُوِيَ: أن رَسُوْل الله ﷺ حين أراد الله تعالى كرامته بالنبوة، كان إذا خرج لحاجة أي لحاجة الإنسان أبعد حتى لا يرى ببناء، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: الصلاة والسلام عليك يا رَسُوْل الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً.

وعن علي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: (كنتُ مع النَّبِيِّ ﷺ بمَكَّةَ، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله). وعن عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا قالت: قال رَسُوْل الله ﷺ: «لَمَّا أُوحِيَ إِلَيَّ جَعَلْتُ لَا أَمُرُّ بِحَجَرٍ وَلَا شَجَرٍ إِلَّا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه [١٧٨٢/٤]، في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، حديث رقم: (٢٢٧٧). قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم [٣٦/١٥]: وفيه معجزة له ﷺ، وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجمادات.

(٢) حديث علي رواه الترمذي [٥٩٣/٥]. وحديث عائشة أخرجه الفاكهي في أخبار مكة [٢٠٨/٦].

وقد خُصَّ ﷺ بتسليم الحجر، وبكلام الشجر، وبشهادتهما له بالنبوة، وإجابتهما دعوته. وبعض العقلاء يقولون عن الجمادات: لا تعقل، فوقفوا عند بصرهم، فإذا جاءهم عن نبيٍّ أو وَليٍّ أنّ حجرًا كلمَه مثلا يقولون: خلق الله فيه العلم والحياة في ذلك الوقت. والأمر ليس كذلك بل سِرّ الحياة سارٍ في جميع العالم، وقد ورد: «أَنَّ كُلَّ شَيءٍ سَمِعَ صَوتَ المُؤَذِّنِ مِنْ رَطْبٍ وَيَابِسٍ يَشْهَدُ لَهُ»[1]، ولا يشهد إلا من علم، وكذلك اندكاك الجبل لما وقع التجلي إنما كان ذلك منه لمعرفته بعظمة الله ﷻ، ولولا ما عنده من العظمة لما تدكدك، وقد أخذ الله بأبصار الإنس والجن عن إدراك حياة الجماد إلا من شاء الله تعالى.

(١) أخرجه الإمام النسائي في المجتبى من السنن [٢١٠/١]، باب الأذان، حديث رقم: (٦٤٦).

بَابُ
بَيَان حِين المَبْعث وعُمُوم البِعْثة

لما بلغَ رَسُوْلُ الله ﷺ أربعينَ سنة بعثَه الله رحمة للعالمين والناس أجمعين، وكان الله تَعَالَى قد أخذ له الميثاق على كل نبيٍّ بعثه قبله بالإيمان به والتّصديق له والنّصرة على من خالفه، وأن يؤدوا ذلك إلى كلّ مَن آمنَ بهم وصَدَّقَهم، وكُونُ رَسُوْلِ الله ﷺ بُعِثَ على رأسِ الأربعين هو المشهور بين الجمهور من أهل السِّيَرِ، وأهلِ العلم بالأثر، والأربعون هي سِنُّ الكمال، ونهايةُ بَعْثِ الرُّسُل، وليس بلوغ الأربعين شرطًا للنبوّة، ويدلّ على ذلك نبوّةُ يحيى وعيسى عليهما الصَّلاة والسَّلام.

وقد ثبتَ بالتواتر أنه ﷺ رَسُوْلُ الله لكلِّ النّاس، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]؛ لأنه لا يَدلُّ على اقتصار رسالته عليهم، بل على كونِه متكلمًا بلغتهم ليفهمُوا عنه أولًا، ثم يُبَلِّغُ الشّاهِدُ الغَائِبَ، ويحصُل الإفهام لغير أهل تلك اللغة من الأعاجم بتراجم الذين أُرْسلُواْ إليهم، فهو ﷺ مبعوثٌ إلى الكَافَّةِ وإنْ كان هو وكتابه عَرَبِيَّان كمَا أنَّ موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام مبعوثان لبني إسرائيل بكتابيهما؛ العَبْرَاني: وهو التَّوْرَاة، والسّرَيَاني: وهو الإنجيل، مع أنّ مِنْ جُمْلَتِهم جماعة لا يفهمون بالعبرانية ولا بالسَّريَانية كالأَزْوَام[1] فإنّ لغتهم اليونانية.

(١) الأَزْوَام: طائفة من اليونانيين، لهم انتشار واسع في بلاد الروم ومسكنهم الأصلي في بلاد الأناضول.

وقال النبيُّ ﷺ: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُوراً وَمَسْجِداً، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كافَّةً»[1]. والخلق يشمل: الإنس والجن والملائكة والحيوانات والنباتات والأحجار. قال السيوطي: "والقول بإرساله للملائكة رَجَّحْتُه في كتاب الخصائص، وقد رَجَّحَهُ قبلي الشيخُ تقي الدين السّبكي، وزاد أنه مرسل لجميع الأنبياء والأمم السابقة من لَدُن آدم إلى قيام الساعة، ورجحه أيضا البَارِزي، وزاد أنه مرسل إلى جميع الحيوانات والجمادات، وأزيد على ذلك أنه أرسل إلى نفسه" اهـ.

وذهب جمعٌ إلى أنه ﷺ لم يُرْسَل للملائكة، منهم: الحافظ العراقي في نكته على ابن الصلاح، والجلال المحلي في شرح جمع الجوامع، وحكى الفخر الرازي في تفسيره، والبرهان النسفي في تفسيره الإجماعَ فيه، وعليه فيكون قوله ﷺ: «أُرْسِلْتُ للخَلْقِ كافَّةً»، من العام المخصوص، أو الذي أريد به الخصوص، ولا يشكل عليه حديث سَلْمَان: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ بِأَرْضٍ فَيُؤَذِّنُ بِحَضْرَةِ الصَّلَاةِ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ فَيُصَلِّي إِلَّا صَفَّ خَلْفَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَا لَا يُرَى طَرَفَاهُ، يَرْكَعُونَ بِرُكُوعِهِ، وَيَسْجُدُونَ بِسُجُودِهِ، وَيُؤَمِّنُونَ عَلَى دُعَائِهِ»[2]؛ لأنه يجوز أن لا يكون ذلك صادرا عن بعثته إليهم.

وَاسْتُدِلَّ للقولِ بأنه ﷺ أُرْسِلَ للملائكةِ بقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، فإنّ هذا إنذارٌ للملائكة على لِسانِه ﷺ، في القرآن العظيم الذي أنزل عليه،

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه [١/٣٧١]، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم: (٥٢٣).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى [١/٤٠٦]، في باب سنة الأذان والإقامة، برقم: (١٩٨٣).



فثبت بذلك إرساله إليهم، ودعوى الإجماع منازع فيها، فهي دعوى غير مسموعة.

فعُلِمَ أنه ﷺ مرسَلٌ لجميع الأنبياءِ وأُمَمِهم على تقْدِيرِ وجودِه في زَمَنهم، لأنّ الله تعالى أخذ عليهم وعلى أممهم الميثاق على الإيمان به ونصرته، مع بقائهم على نبوتهم ورسالتهم إلى أُمَمِهم، فنبوته ورسالته أعمّ وأشمَل، وتكون شريعته في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياؤهم، لأن الأحكام والشرائع تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات كما قاله السبكي. فجميعُ الأنبياء وأَمَمِهم من جُملة أمته ﷺ، فقد قال ﷺ لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَا أَنْ يَتَّبِعَنِي»[1]. وعن عبد الله بن ثابت رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، قال: جاء عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ إلى رَسُوْل الله ﷺ فقال: يا رَسُوْل الله إني مررت بأخٍ لي من قريظة، فكتبَ لي جوامع من التَّوْرَاة، ألَا أعرضُها عليك؟، فتغيّر وجهُ رَسُوْلِ الله ﷺ، فقال عمر: رَضِينَا بالله رَبًّا، وبالإسْلَام دِينًا، وبمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُوْلا، فَسُرِّيَ عَن رَسُوْلِ الله ﷺ، ثم قال له: «وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنْ الْأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنْ النَّبِيِّينَ»[2].

وفي "النّهر"[3] لأبي حيَّان: أن عبدَ الله بنَ سَلام استأذن رَسُوْلَ الله ﷺ أنْ يُقِيمَ على السَّبْت، وأنْ يقرأ من التَّوْرَاةِ في صَلَاتِه من اللّيل، فلم

(١) أخرجه أحمد في مسنده [٢٣/٣٤٩]، في مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، برقم: (١٥١٥٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده [٣٠/٢٨٠]، في مسند عبد الله بن ثابت رضي الله عنه، برقم: (١٨٣٣٥).

(٣) هو كتاب للعلامة أبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي النحوي، المتوفى سنة (٧٤٥) هـ، اختصر به كتابه المشهور (البحر المحيط) في تفسير القرآن الكريم، المطبوع في ثمانية مجلدات.

يأذن له. وبِعْثَتُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمةً، حتى للكفار بتأخير العذاب عنهم، ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة، حتّى للملائكة، لذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقد ذُكِرَ في الشّفاء: أنّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هَل أَصَابَكَ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ شَيءٌ»؟ قال: نعم، كنت أخشى العاقبة، فأَمِنْتُ لِثَناءِ الله عليَّ في القرآن بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]. قال السيوطي: "هذا الحديث لم نقف له على إسناد".

وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضَلُ من سائر المرسلين وجميع الملائكة المقربين. قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ كَانَ لِي لِوَاءُ الحَمْدِ، وَكُنْتُ إِمَامَ المرْسَلِينَ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِم، أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ الله وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حِلَقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ الله لِي فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ وَلَا فَخْرَ»[١].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهُ، قال: قال رَسُوْل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَمِعَ بِي مِنْ يَهُوْدِي، أَوْ نَصْرَانِي، ثُمَّ لَمْ يُسْلِمْ دَخَلَ النَّارَ»[٢]، وفي رواية أخرى: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»[٣]. أي أنه

---

(١) رواه الترمذي في السنن [٥/٥٨٧]، في باب فضل النبي صلى الله عليه وسلم، برقم: (٣٦١٦).

(٢) ذكره السيوطي في جامع الأحاديث [٢٠/٤١١]، برقم: (٢٢٤٨٩)، وعزاه للدارقطني في الأفراد.

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه [١/١٣٤]، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ=

ﷺ أرسل إلى الخلق كافة لا لخصُوصِ العَرب، وإنما خَصَّ اليهودَ والنّصارى بالذكر تنبيهًا على غيرهما؛ لأنه إذا كان هذا حالهما مع أنَّ لهم كتابا فغيرهم مما لا كتابَ له كالمجوسي أولى.

= إلى جميع الناس ونسخ الملل بمِلّته، حديث رقم: (١٥٣).



بَاب
بَدْءِ الوَحْيِ وَبَيَانِ حَالَاتِهِ

عن عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا قالت: (أَولُ ما ابتُدئَ بهِ رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن النّبوَّةِ، حين أرادَ الله كرامَتَهُ ورَحْمَةَ العِبَادِ بهِ، الرُّؤْيَا الصَّالحة، فكَان لا يَرَى رُؤْيَا إلّا جاءَتْ كَفَلَقِ الصُّبْحِ)[1]. وإنما ابْتُدِئَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرؤيا؛ لئلا يَفْجَأه الملَكُ بالنبوَّةِ، فلا تَتَحَمَّلُها القُوَى البشَرية، فكَانت الرُّؤيا تَأْنيسًا لهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وعن علقمة بن قيس عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَ أنه قال: (إنّ أوّلَ ما يُؤتَى به الأنبياءُ في المنام، ـ أي ما يكون في المنام ـ حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزلُ الوحيُ) اهـ.

ورُؤيا الأنبياء وحْيٌ وصِدْقٌ وحَقٌّ، لا أَضْغَاثُ أحْلَام، ولا تَخْيِيلٌ من الشيطان، إذ لا سبيل له عليهم، لأن قلوبهم نورانية، فما يرونه في المنام له حكم اليقظة، فجميع ما ينطبع في عالم مثالهم لا يكون إلا حقّا، ومن ثم جاء: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنبيَاءِ تَنَامُ أَعْيُنُنا وَلَا تَنَامُ قُلُوبُنَا»[2]. وذكر بعضهم: أن مدة الرؤيا ستة أشهر. فيكون ابتداءُ الرّؤيا حصَل في شهر ربيع الأوّل، وهو مولده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم أوحَى الله إليهِ في اليَقظة في رمضان. وجاء في الحديث: «الرُّؤْيَا

(١) رواه الترمذي في سننه [٥/٢٥٦]، حديث رقم: (٣٧١١).
(٢) رواه الترمذي في سننه [٥/٢٥٦]، حديث رقم: (٣٧١١).

الحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النّبُوَّةِ»[1]. ومعناه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِين بُعِثَ أقام بمَكَّةَ ثلاث عشرة سنة وبالمَدِيْنَة عشر سنين يوحى إليه، ومدة الوحي إليه في اليقظة ثلاث وعشرون سنة، ومُدّةُ الوَحْي إليهِ في المنام التي هيَ الرّؤيا سِتّة أشهر، فالمراد خصوص رؤيته وخصوص نبوته ﷺ.

وجاء في الحديث: «ذَهَبَتْ النّبوَّةُ وبَقِيَتِ المبَشِّرَاتُ»[2]. وجاء أبو قتادة الأنصاري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَ إلى النَّبِيِّ ﷺ، فقال: يا رَسُوْل الله، إني أرَى في المنام الرُّؤيَا تمرضني، فقال لهُ النَّبِيُّ ﷺ: «الرُّؤيَا الحسَنَةُ مِنَ الله، والسَّيِّئَةُ مِنَ الشَّيْطَان، فإذَا رَأيتَ الرُّؤيَا تكرَهُهَا فاسْتَعِذْ بالله مِنَ الشَّيْطَانِ، واتْفُلْ عَنْ يَسَارِكَ ثَلاثَ مَرَّات، فإنَّهَا لَا تَضُرُّك»[3]. وجاء في الحديث أيضًا: «إذَا رَأى أَحَدُكُم مَا يكرَهُ فليَعُذْ بالله مِنْ شَرِّها، ومِنَ الشيطان، ـ كأن يقول: أعوذ بالله من شرِّ ما رأيتُ ومن شرِّ الشيطانِ ـ، وليَتْفُل ثَلَاثًا، وَلَا يُحَدِّثُ بِهَا أَحَداً فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّه»[4]، وجاء: «إذَا رَأى أَحَدُكُمْ الرُّؤْيَا يحبُّهَا فَإِنّما هِيَ مِنَ الله فَلْيَحْمَدِ الله عَلَيهَا وَليُحَدِّثُ بهَا مَن يُحِبُّ، وإذَا رَأى غيرَ ذَلك ممّا يكرَه فإنَّما

---

(١) رواه البخاري في صحيحه [٣٠/٦]، في باب رؤيا الصالحين، حديث رقم: (٦٩٨٣).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، برقم: (٦٠٤٧)، والدارمي في سننه [١٦٦/٢]، برقم: (٢١٣٨).

(٣) أخرجه النسائي السنن الكبرى [٢٠٤/٦]، حديث رقم: (١٠٧٣٠). ورواه الطبراني في الأوسط [٢٨٩/٣]، حديث رقم: (٣١٨٠)، عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد مسنده برقم: (٢٢٦٣٦)، ومسلم في صحيحه برقم: (٢٢٦١)، وابن حبان في صحيحه [٤٢٢/١٣]، برقم: (٦٠٥٨)، والبيهقي في شعب الإيمان [١٨٧/٤]، برقم: (٤٧٥٩)، ورواه أبو داود في سننه [٤٦٤/٤]، برقم: (٥٠٢٤)، بزيادة: «ويتحوّل عن جَنْبِهِ الذي كان عليه».




هِيَ مِنَ الشَّيطان»[1].

وذكر الفخر الرازي: أنّ الرّؤيا الرَّدِيئة يظهرُ تعبيرُها وأثرها عَن قريب، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين. والسبب في ذلك: أن حكمة الله تعالى تقتضي أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزْن والغمّ أقل، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متَقَدّما على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذكر الخير أكثر، وهذا جَرْيٌ على الغالب، وإلا فقد قيل لجعفر الصادق: كم تتأخر الرّؤيا؟، فقال: (رأى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منامه كأنّ كلبا أبقع يَلِغُ في دَمِهِ، فكَان ذلك الكلب الأبقع شمّرًا قاتل الحسين وكان أبرصًا، وكَان بعد الرّؤيا بخمسين سنة).

وجاء: (أنَّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لخديجة: «إِذَا خَلَوتُ سَمِعْتُ نِدَاءً: يَا مُحَمَّدُ يَا مُحَمَّدُ..، وَالله مَا أَبْغَضْتُ بُغْضَ هَذِهِ الأَصْنَامِ وَالكُهَّانِ شَيئاً قَطُّ، وَإِنِّي لَأَخْشَى أَنْ أَكُونَ كَاهِناً»، فَقَالَتْ: كلا يا بن عم، ما كان الله ليفعل ذلك بك، فو الله إنك لتُؤَدِّي الأمانة، وتصلُ الرحمَ، وتصدقُ الحديث، إنّ خُلُقَكَ لكَرِيمٌ، فلا يكون للشيطان عليك سبيل). وقدِ استدلّتْ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا بما فيه من الصِّفَات العَليّةِ، والأخلاقِ السَّنِيَّة، على أنه لا يُفعَلُ به إلا خيرًا، لأنّ مَن كان كذلك لا يُجزَى إلا خيرًا. وبعد ذلك حَبَّبَ الله إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخلوة التي يكون بها فراغ القلب، والانقطاع عن الخلق، فهي تُفَرِّغُ القلبَ عن أشغال الدنيا لدَوَام ذِكْرِ الله تعالى، فيصْفُو وتشرق عليه أنوار المعرفة، فلم يكن شيء

(١) رواه البخاري في صحيحه [٩/٤٣]، باب إذا رأى ما يكره فلا يخبر بها ولا يذكرها، رقم: (٧٠٤٥).

أحب إليه من أن يخلو وحده، وكان يخلو بغار حِرَاء ويتعبد به الليالي ذوات العدد ـ أي مع أيامها ـ، وإنما غَلّبَ الليالي لأنها أنسَبُ بالخلوة، وأبهَمَ العدد لاختلافه، فتارةً كان ثلاث ليال، وتارة سبع ليال، وتارة شهر رمضان كله، أو شهر غيره، ولم يصح أنه ﷺ اختلى أكثر من شهر. وكان ﷺ في تلك الليالي إذا فرغ زاده يرجع إلى خديجة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا فيتزود، وكانت زِوَادَتُه ﷺ الكعك والزيت. وفي هذا دلالة أنّ الكَعْك والزيت يبقى المدة الطويلة.

وأما كيفية تعبّده ﷺ فقال سراج الدين البلقيني في شرح البخاري: "لم يجئْ في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ". وقيل: كان تعبده ﷺ التفكر مع الانقطاع عن الناس؛ لأنهم كانوا على باطل، ولأن في الخلوة يخشعُ القلبَ وينسَى المألوف مِن مخالطةِ أبناءِ الجنس المؤثرة في البِنْيَة البشرية، والتفكر بذلك المحل أتمّ من التفكر في غيره؛ لعدم وجود شاغل به، ومن ثم قيل: (الخلوة صَفْوَةُ الصَّفْوَة). وقيل كان تعبده ﷺ بالذكر، وقيل بغير ذلك.

وكان ﷺ إذا قضى جواره من شهره ذلك وانصرف فإن أول ما يبدأ به أنه يدخل الكعبة فيطوف بها قبل أن يدخل بيته، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته ﷺ، خرجَ رَسُوْلُ الله ﷺ إلى حِرَاء كما كان يخرج من قبل، فأتاه جبريل عليه السلام في سَحَرِ ليلةِ الاثنين، لسبع عشرة ليلة خَلت من رمضان، قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «فجَاءَني بنَمَطٍ مِن دِيبَاجٍ، فِيهِ كِتَابَةٌ، فَقَالَ: اِقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَقْرَأُ، فَغَطَّنِي بِذَلِكَ النَّمَطِ

حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ المَوتُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اِقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَاذَا أَقْرَأُ؟، ـ وَمَا أَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا افْتِدَاءً مِنْهُ أَنْ يَعُودَ لِي بِمِثْلِ مَا صَنَعَ عِنْدَ النَّفْيِ ـ، فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، فَقَرَأْتُهَا، فَانْصَرَفَ عَنِّي، فَكَأَنَّمَا كُتِبَ فِي قَلْبِي كِتَاباً».

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَخَرَجْتُ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي شَطِّ الجَبَلِ، سَمِعْتُ صَوتاً مِنَ السَّمَاءِ، يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُوْلُ اللهِ وَأَنَا جِبْرِيلُ، فَوَقَفْتُ أَنْظُرُ إِلَيهِ، فَإِذَا جِبْرِيلُ عَلَى صُورَةِ رَجُلٍ صَافٍّ قَدَمَيهِ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُوْلُ اللهِ وَأَنَا جِبْرِيلُ، فَوَقَفْتُ أَنْظُرُ إِلَيهِ، فَمَا أَتَقَدَّمُ وَمَا أَتَأَخَّرُ، وَجَعَلْتُ أَصْرِفُ وَجْهِي عَنْهُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَلَا أَنْظُرُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا إِلَّا رَأَيْتُهُ كَذَلِكَ، فَمَا زِلْتُ وَاقِفاً، مَا أَتَقَدَّمُ أَمَامِي وَمَا أَرْجِعُ وَرَائِي، حَتَّى بَعَثَتْ خَدِيجَةُ رُسُلَهَا فِي طَلَبِي وَرَجَعُوا إِلَيهَا وَأَنَا وَاقِفٌ فِي مَكَانِي ذَلِكَ، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِّي وَانْصَرَفْتُ رَاجِعاً حَتَّى أَتَيتُ خَدِيجَةَ، فَجَلَسْتُ مُسْتَنِداً إِلَيهَا، فَقَالَتْ: يَا أَبَا القَاسِمِ أَينَ كُنْتَ؟ فَوَ اللهِ لَقَدْ بَعَثْتُ رُسُلِي فِي طَلَبِكَ، فَحَدَّثْتُهَا بِالذِي رَأَيتُ». فَقَالَتْ له خديجة: أبشر يا ابن عمّي، واثبُتْ، فو الذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فانطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها به رَسُوْلُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه رأى وسمعَ جبريل يقول له: أنت رَسُوْلُ الله وأنا جبريل، فقال ورَقَةُ: قدُّوسٌ قدُّوسٌ، والذي نفسي بيده لئن كُنْتِ صَدَقْتِ يا خديجةُ، لقد جاءَه النّاموسُ الأكبر الذي يأتي موسى، وإنه لنبيٌّ هذه الأمة، فقولي له: يثبت.

فرجعتْ خديجةُ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرتْهُ بقولِ ورَقَة بن نوفل، فلما قضى رَسُوْلُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِوارَه بحِرَاء وانصرف، بدأ بالكعبة فطاف بها،

فلقيه ورقةُ بن نوفل وهو يَطُوف بالكعبةِ، فقال له: يا ابن أخي أخبرني بما رَأيتَ وسمعتَ، فأخبره رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاءَ موسى، ولَتُكَذَّبَنَّهْ ولَتُؤْذَيَنَّهْ، ولَتُقَاتَلَنَّه وَلَتُخْرَجَنَّهْ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصرًا يعلمه، ثم دَنى ورقةُ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبّلَ رأسَه، وانصرفَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منزله.

وكرَّرَ جبريلُ الغَطّ ثلاثًا للمُبالَغَةِ، ومنه أخذَ بعضُ التّابعين وهو القاضي شُرَيح أنَ المعلم لا يضربُ الصّبيَّ على تعليم القرآن أكثرَ مِن ثلاثِ ضَرَبات. وأورد الحافظ السيوطي عن الكامل لابن عدي بسندٍ ضعيف، عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما: (أنّ النَّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهَى أَنْ يَضْرِبَ المؤَدِّبُ الصَّبيَّ فوقَ ثلاثِ ضَرَبَات). وذكر السهيلي: أن في الغَطِّ ثلاثاً إشارةٌ إلى أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحصل له شدائد ثلاث ثم يحصل له الفرج بعد ذلك، **فكَانت الأولى**: إدخال قُرَيْش له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الشِّعْبِ والتّضييق عليه. **والثانية**: اتفاقهم على الاجتماع على قتله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. **والثالثة**: خروجه من أحب البلاد إليه.

وعُلِمَ أنَّ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ نزلت من غير بسملة، وقد صرح بذلك الإمامُ البخاري، وما ورَد عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما: بأن أوَّل ما نزلَ جبريل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (يا محمد استعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾). قال الحافظ ابن كثير: هذا الأثر غريب، في إسناده ضعف وانقطاع، فلا يدل للقول بأنّ أوَّل ما نزل بسم الله الرحمن الرحيم. حكاه ابن النقيب في مقَدِمَة تفسيره.



وبه يرد على الجلال السيوطي حيث قال: "وعندي فيه أن هذا لا يعد قولاً برأسه، فإن من ضرورة السورة نزول البسملة معها فهي أوّل آية نزلت على الإطلاق".

ولما قرأ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الآيات رجع بها تَرْجُفُ بَوَادِرُه[1]، حتى دخل على خديجة، فقال: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ، ثم أخبرَها الخبر، وقال: «لقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَقَالَتْ له خديجة رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا: كلا أَبْشِرْ، فو الله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقتْ به حتى أتت به ورقة بن نوفل فَقَالَتْ: أي عمّ؛ اسمع من ابن أخيك. قال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى: فأخبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما رأى، فقال ورقة: هذا النّاموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني أكون حيّا حين يخرجك قومُك، قال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أو مُخْرِجِيَّ هُمْ»؟، فقال: نعم؛ لم يأت رَجُلٌ بما جئت به إلا عُودِي، وإن أدركتُ يومك أنصرك نصرًا مُؤَزّرا. ثم قال لخديجة: إنّ ابنَ عمّك لصَادق، وإنه لنبي هذه الأمة. ثم لم يلبث وَرَقَة أن توفي، ودُفِنَ بالحجُون، وفي وَرَقَة يقول رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي الجَنَّةِ وَعَلَيهِ ثِيَابُ الحَرِيرِ»، وفي رواية: «لَا تَسَبُّوا وَرَقَةَ فَإِنِّي رَأَيتُ لَهُ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَين لِأَنَّهُ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي»[2]، وجَزَم ابنُ كثير بإسْلَامِه.

---

(١) **البَادِرَةُ**: هي اللّحْمَةُ التِي بين المنكِبِ والعُنُقِ تتحرّك عندَ الفَزَع، ويُقَالُ لها الفَرِيصَة وجمعها: فَرَائِص.

(٢) أخرجه الحاكم المستدرك [٢/٦٦٦]، برقم: (٤٢١١)، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين.

وعن يحيى بن بكير قال: سألت جابر بن عبد الله، عن ابتداء الوحي، فقال: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رَسُوْل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «جَاوَرْتُ بِحِرَاءَ، فَلَمَّا قَضَيتُ جِوَارِي هَبَطْتُ فَنُودِيتُ فَنظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيئاً، فَنَظَرْتُ عَنْ يَسَارِي فَلَمْ أَرَ شَيئاً فَنظَرْتُ مِنْ خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيئاً، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا المَلَكُ الذِي جَاءَنِي بحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ مُتَرَبِّعاً عَلَيهِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ، فَأَتَيتُ خَدِيجَةَ، فَقُلْتُ: دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي» وفي رواية: «زَمِّلُونِي زَمِّلُوني، فَدَثَّرُونِي، وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِداً، فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر: ٢ ـ ٣]».

وعن إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير: أنه حَدَّثَ عن خديجةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا أنها قالت لرَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أتستطيعُ أنْ تخبرَني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟، قال: «نَعَم»، فجاءَه جبريلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال لها رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا خديجة، هذا جبريلُ قد جاءني»، فَقَالَتْ: قم فاجلس على فخذِي، فجلس على فخذها، فَقَالَتْ: هل تراه؟، قال: «نعم»، قالت: تحوَّلْ فاجلس في حِجْرِي، فتحول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجلس في حِجْرِهَا، قالت: هل تراه؟، قال: «نعم»، فألقَتْ خمارَها ورَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسٌ في حِجْرِها، ثم قالت: هل تراه؟، قال: «لا»، فَقَالَتْ: يابن عمي اثبت وأبشر، فو الله إنه لملَك، ما هذا بشيطان. وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله:

وَأَتَاهُ فِي بَيْتِهَا جَبْرَئِيلٌ ... وَلِذِي اللّبِّ فِي الأُمُورِ ارْتِيَاءُ
فَأَمَاطَتْ عَنْهَا الخِمَارَ لِتَدْرِي ... أَهُوَ الوَحْيُ أَمْ هُوَ الإِغْمَاءُ
فَاخْتَفَى عِنْدَ كَشْفِهَا الرَّأْسَ جِبْرِيـ ... ـلُ فَمَا عَادَ أَوْ أُعِيدَ الغِطَاءُ
فَاسْتَبَانَتْ خَدِيجَةٌ أَنَّهُ الكَنْـ ... ـزُ الذِي حَاوَلَتْهُ وَالكِيمْيَاءُ

فإنْ قِيل: بهذه الأمور عَلِمَ ﷺ أنّ جبريلَ مَلَكٌ لا جِنّيٌّ، فمِن أينَ عَلِمَ أنه يتكَلّمُ عَنِ الله تعالى؟. **أُجِيبَ**: بأنّ الله تعالى خَلقَ فيه ﷺ علمًا ضروريًّا أنّ ذلكَ جبريل، وأنه يتكلم عن الله تعالى، كما خلقَ في جبريل علمًا ضروريًّا بأنَّ الموحِي إليه هَوَ الله تعالى. **وإنْ قيلَ**: إذا جاءَ جبريلُ عليه السلام على صورة الآدمي - دِحْيَة الكَلْبِيّ أو غيره - هل هيَ الرّوح تتشكل بذلك الشكل، أم الجسد؟. **أُجِيبَ**: بأن الجائي يجوزُ أن يكون الجسد؛ لأنه يجوز أن الله تعالى جعل في الملائكة قدرة على التطور والتشكل بأي شكل أرادوه كالجن، فيكون الجسد واحدًا، ومن ثَمّ قال الحافظُ بنُ حجر: "إن تمثل الملك رَجُلا ليس معناه أن ذاته انقلبت رَجُلا، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيسا لمن يخاطبه". ولعل مجيءَ جبريل على صورةِ دِحْيَة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ كان في المَدِيْنَة بعد إسْلام دِحْيَة، وكانَ إسلامُه بعد بدرٍ، فإنه لم يشهدها، وشهد المشاهد بعدها، إذ يبعد مجيئه على صورة دِحْيَة قبل إسلامه، وكان دِحْيَةُ أجمل أهل زمانه وأحسنهم صورة، وكان إذا أتاه بالوعد والبشارة أتاه على صورة دِحْيَة.

والرّاجِح أنّ المنزل في الوحي اللفظ، والمعنى تَلَقَّفَهُ جبريلُ من الله تعالى تَلَقُّفًا روحانيا، أو أنّ الله تعالى خلق تلك الألفاظ أو الأصوات الدالة عليها في الجو وأسمعها جبريل، وخلق فيه علما ضروريا أنها دالة على ذلك المعنى القديم القائم بذاته تعالى، ثم أوحاهُ إليه ﷺ كذلك، أو حفظه جبريلُ من اللّوحِ المحفُوظ ونزلَ به.

وأما حالات الوحي: فقد كان منها: النَّفْثُ، والنفث: النّفْخُ اللطيف الذي لا ريق معه. أي أنه كان ينفث في روعه الكلام نفثًا، ومن أمثلة ذلك قوله ﷺ:

«إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي إِنَّ نَفْساً لَنْ تموتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَها، وتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا، فَأَجْمِلوا في الطَّلَبِ؛ وَلا يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمْ اسْتِبْطاءُ شيْءٍ من الرِّزْقِ، أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيةِ الله؛ فإِنَّ الله تَعالى لا يُنَالُ ما عِنْدَهُ إلا بِطاعَتِه»[١].

ومن **حالات الوحي**: أنه كان يأتيه في مثل صَلْصَلةِ الجرَس، وهيَ أشدّ الأحوَال عليه ﷺ، لما قيل: إنه كان يأتيه في هذه الحالة بالوعيد والنذارة. وعن عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا: أن الحارثَ بن هشام رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، سألَ رَسُوْلَ الله ﷺ كيف يأتيك الوحي؟، فقال ﷺ: «أحْيَانًا يأتيني مثل صَلْصَلَةِ الجَرَسِ وهو أشَدُّه عليَّ، فَيَفْصِمُ - أي يُقْلِعُ - عنِّي وَقَدْ وعَيتُ مَا قَال»، وفي رواية: «يَأتيني أَحْيَانًا لَهُ صَلْصَلَةٌ كَصَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لي الملَكُ رَجُلًا فيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُول»[٢].

وكان ﷺ يجدُ ثقلا عند نزول الوحي، ويتَحدّر جبينُه عَرَقًا في البرْدِ كأنه الجُمان[٣]، وربما غط كغطيط البَكْر محمرة عيناه. وعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: (كان إذا نزل الوحي على رَسُوْلِ الله ﷺ ثَقُلَ لذلك، ومَرّةً وقَعَ فخْذُه عَلى فخذِي، فوَ الله ما وجَدْتُ شَيئًا أثقَلَ مِن فخْذِ رَسُوْلِ الله ﷺ، ورُبّما أوحِي إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينفصم وربما بَرَكَتْ). وجاء: (أنه لما نزلت سورة المائدة عليه ﷺ كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله، فنَزلَ عنها). وفي رواية: (فاندق كتف راحلته العضباء من ثقل السورة)، وجاء: «مَا مِنْ مَرَّةٍ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسِي تُقْبَضُ مِنْهُ»،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه [٧/٧٩]، برقم: (٣٤٣٣٢)، والبغوي في شرح السنة [٧/٢٤٣].

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه [١/٤]، باب كيف كان بدء الوحي، برقم: (٢).

(٣) **الجُمانُ**: حَبّاتٌ من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار، وواحدها: جُمانة.

وعن أسماء بنت عميس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا قالت: كان رَسُوْل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نَزَلَ عليه الوحي يكاد يغشى عليه.

فإن قيل: ما كان يجري عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من البُرَحَاءِ[1] حين نزول الوحي هل ينتقض وضوؤه؟. **فالجواب**: لا؛ لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان محفوظا في منامه، تنام عيناه ولا ينام قلبه، فإذا كان النوم الذي يسقط فيه الوكاء لا ينقض وضوءه، فالحالة التي أكرم فيها بالمسارّة وإلقاء الهدى إلى قلبه أولى، لكون طباعه فيها معصُومة مِن الأذَى.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: (كان رَسُوْل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي). وعن زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: (كان إذا نزل على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة، وإذا أنزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها). وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: (كان إذا نزل على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل).

ومن حالات الوحي: أنّ جبريل كان يأتيه على صورته التي خلقه الله تعالى عليها، له ستمائة جناح. وجاء عن عائشة وابن مسعود رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما: أن النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرَ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على صورته التي خلقه الله تعالى عليها إلا مرتين: مرة حين سأله أن يريه نفسه، فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَدِدْتُ أَنِّي رَأَيْتُكَ فِي صُورَتِكَ»، وذلك بحِرَاء أوائل البعثة بعد فترة الوحي بالأفق الأعلى من الأرض،

---

(١) البُرَحَاءُ: تطلق على الشِّدَّة والمشَقَّة، وعلى شدّة الحُمَّى، والمراد بها هنا: شدّةُ الكَرْبِ من ثِقَلِ الوَحْيِ.

وهي المرة المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، وذلك أن جبريل عليه السلام طلع من المشرق، فسد الأفق إلى المغرب، فخر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه، فنزل جبريل عليه السلام في صورة الآدميين، وضَمَّهُ إلى نفسِه، وجعَل يمسح الغبار عن وجهه. والمرة الأخرى في ليلة الإِسْرَاء، وهي المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٤].

ومن حالات الوحي: أن الله تعالى أوحى إليه صلى الله عليه وسلم بلا واسطة ملك، يقظة من وراء حجاب، أو من غير حجاب كفاحا، كما في ليلة المِعْرَاج، ويحتمل أن النوعين وقع كل منهما ليلة الإِسْرَاء، ويحتمل أن يكونا نوعا واحدا، والأول: بناء على القول بعدم الرؤية. والثاني: بناء على القول بالرؤية. وعلى الأول جاء قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

ومن حالات الوحي: ما أوحاه الله تعالى إليه صلى الله عليه وسلم، وهو فوق السماوات من فرض الصلوات وغيرها، لأن ذلك إنما هو ليلة المِعْرَاج بغير واسطة ملك، وهذا محتمل لأن يكون من غير حِجَاب، وأن يكون من وراء الحجاب.

ومن حالات الوحي: كلام الله تعالى منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم موسى من وراء حجاب، وحينئذ يكون كلمه صلى الله عليه وسلم في ليلة المِعْرَاج بواسطة الملك، وكلمه بغير واسطة الملك من وراء حجاب، ومشافهة من غير حجاب. قال الحافظ السيوطي: "وليس في القرآن من هذا النوع شيء فيما أعلم، ـ أي مما شَافه الحق تعالى به نبيَّه صلى الله عليه وسلم من غير حجاب ـ، نعم يمكن أن يعد منه آخر سورة البقرة؛ لأنها نزلت بقاب قوسين، ونزل في ذلك الموطن بعض

سورة الضحى وبعض سورة الشرح، قال ﷺ: «سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً وَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَأَلْتُهُ، سَأَلْتُ رَبِّي، فَقُلْتُ: اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَيْتُكَ؟، أَلَمْ أَجِدْكَ ضَالاًّ فَهَدَيْتُكَ؟، أَلَمْ أَجِدْكَ عَائِلاً فَأَغْنَيْتُكَ؟، أَلَمْ أَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْتُ عَنْكَ وِزْرَكَ، وَرَفَعْتُ لَكَ ذِكْرَكَ، فَلَا أُذْكَرُ إِلَّا وَتُذْكَرُ مَعِي؟، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَبِّ»[1]" اهـ.

وقد قال رجلٌ للنَّبيِّ ﷺ: يا رَسُوْل الله أيّ آيَةٍ في كتَاب الله تُحِبُّ أَنْ تُصِيبَكَ وَأُمَّتَكَ؟، قَالَ: «خَاتِمَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّهَا مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَةِ الله، مِنْ تَحْتِ عَرْشِهِ، أَعْطَاهَا هَذِهِ الأُمَّةَ، لَمْ تَتْرُكْ خَيْراً مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِلَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ»[2].

ومن حالات الوحي: أنه أوحي إليه ﷺ بلا واسطة ملك. وذلك مناما، كما في حديث معاذ رضي الله عنه، أنه ﷺ قال: «أَتَانِي رَبِّي»، وفي لفظ: «رَأَيْتُ رَبِّى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى؟، فَقُلْتُ: أَنْتَ أَعْلَمُ يَا رَبِّ، فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»[3].

ومن حالات الوحي: رؤيا النّوم، لقوله ﷺ: «رُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ».

ومن حالات الوحي: العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبه عند الاجتهاد في

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير [٤٥٥/١١] برقم: (١٢٢٨٩) وفي المعجم الأوسط برقم: (٣٦٥١)، دون قوله: «ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا وتذكر معي»، ورواه بطوله البيهقي في الدلائل [٢٧٥/٢].

(٢) رواه الدارمي في سننه [٤٥٢/٢]، باب في فضل سورة البقرة، حديث رقم: (٣٤٤٣).

(٣) رواه الدارمي في سننه [١٧٠/٢]، برقم: (٢١٤٩)، والترمذي [٣٦٧/٥] برقم: (٣٢٣٤).



الأحكام، بناءً على ثبوته، لا بواسطة ملك، وبذلك فارَقَ النّفث في الرَّوع.

وفي "ينبوع الحياة"[1] عن ابن جرير قال: "ما نزل جبريل بوحي قط إلا وينزل معه من الملائكة حفظة يحيطون به وبالنَّبِيِّ ﷺ الذي يوحي إليه، يطردون الشياطين عنهما، لئلا يسمعوا ما يبلغه جبريل إلى النَّبِيِّ ﷺ، من الغيب الذي يوحيه إليه، فيلقوه إلى أوليائهم".

ورأيت في "الإتقان" أنه ذكر أنّ من القرآن ما نزل معه الملائكة مع جبريل عليه السلام تُشَيّعه، من ذلك: سورة الأنعام، شيعها سبعون ألف ملك، وفاتحة الكتاب شيعها ثمانون ألف ملك، وآية الكرسي شيعها ثمانون ألف ملك، وسورة يس شيعها ثلاثون ألف ملك. ولعل هذا لا ينافي ما تَقَدَّم من أنّ الغرض من تساقط النجوم عند البعثة حراسة السماء من استراق الشياطين لما يوحى، لجواز أن يكون هذا لحفظ ما يوحى من استراقه في الأرض، وبين السماء والأرض.

ومكث النَّبِيُّ ﷺ مدّةً لا يرى جبريل، وإنما كان كذلك ليذهب ما كان يجده من الرعب، وليحصل له التشوف إلى العود، ومن ثم حزن لذلك حزنا شديدا حتى غدا مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما وافى بذروة كي يلقي نفسه منها تبدى له جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد إنك رَسُوْل الله حقا، فيسكن لذلك قلبه وتقر نفسه ويرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا وافى ذروة جبل تبدى له مثل ذلك، وكانت تلك المدة أربعين يوما. وقيل غير ذلك. وفي "فتح الباري": "ليس المراد بفترة الوحي عدم مجيء جبريل إليه، بل تأخر نزول القرآن عليه فقط".

---

(١) كتاب مشهور لابن ظفر المكي، في تفسير القرآن الكريم، يقع في اثني عشر مجلدا.

بَابُ
ذِكْرِ صَلَاتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ البِعْثَةِ

رُوِيَ أنّ جبريلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بدَى له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحسَن صُورة وأطيب رائحة، فقال له: يا محمَّد إن الله تعالى يقرئك السلام، ويقول لك: أنت رَسُوْلُ الله إلى الجنّ والإنس، فادعهم إلى قول: لا إله إلا الله، ثم ضربَ برِجْلِه الأرضَ فنبعتْ عينُ ماءٍ، فتوضّأ منها جبريل، ثُمّ أمرَه أن يتوضأ، وقام جبريلُ يصَلّي، وأمره أنْ يُصَلِيَّ معه، فعلمه الوضوءَ والصّلاةَ. وعن ابن إسحاق قال: حدثني بعض أهل العلم أن الصلاة حين افترضت على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الإِسْرَاء، أتاهُ جبريلُ وهو بأعلى مَكَّةَ فَهَمَزَ له بعقبِه في ناحيَة الوادِي، فانفَجرَتْ منه عينٌ فتوضّأ جبريلُ ورَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظرُ ليريه كيف الطهور للصّلاة، فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، ومسح برأسه، وغسل رِجْلَيْهِ إلى الكعبين. وفي رواية: فغسل كفيه ثلاثا، ثم تمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه، ثم غسل يديه إلى المرفقين، ثم مسح رأسه، ثم غسل رِجْلَيْهِ ثلاثًا ثلاثًا، ثم أمرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتوضأ مثل وضوئه، ثم قام جبريلُ فصلّى به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركعتين.

ولـمّا صلى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصلاة جبريلَ، قال جبريلُ: هكذا الصلاة يا محمد، ثم انصرف جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاءَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خديجة وأخبرها، ففرحت بذلك فرحاً شديداً، فتوضأ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهَا ليُرِيَها كيفَ الطّهُورُ للصّلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت هيَ كما توضأ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم

صلى بها رَسُوْلُ الله ﷺ كما صلى به جبرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ورُوِيَ أن جبريلَ ﷺ لما توضأ بالماء أخذ كفًا من ماءٍ ورشّه في ثيابِه التي تُحاذِي موضع الفَرْجِ، وقال ﷺ: «عَلَّمَنِي جِبْرِيلُ الوُضُوءَ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَنْضَحَ تَحْتَ ثَوبِي بَعْدَ الوُضُوءِ»، وبذلك استدل أئمتنا على أنه يستحب لمن استنجى بالماء أن يأخذ كفا من ماء ويرشه في ثيابه التي تحاذي موضع الفرج، حتى إذا خُيِّلَ له أن شيئا خرج أو أن هناك بَلَلًا قدَّرَ أنه من ذلك الماء، دفعا لتَوَهُّمِ خُروجِ شَيءٍ من البول بعد الوضوء. ولذا فقد كان ابن عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما ينضح سراويله حتى يَبُلَّها.

والقولُ بأنّ الوضوءَ شُرِعَ بمكّةَ مخالفٌ لقولِ ابن حَزْم: "لم يُشرع الوضُوء إلا بالمَدِيْنَة".

ويَرُدّ ما قاله ابن حزم نقلُ ابنِ عبدِ البَرّ اتفاقَ أهلِ السِّيَرِ على أنه لم يُصَلِّ ﷺ قَطُّ إلا بُوضوء، قال: "وهذا مما لا يجهله عالم". إلا أن يُقَالُ: أنّ مرادَ ابن حَزْم أنه لم يشرع وجوباً إلا في المَدِيْنَة، وهو الموافق لقول بعضِ المالكِيّة: أنَّه كان قبل الهجرة مندوباً، وإنما وجب بالمَدِيْنَة بقول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]. ويَرُدُّ هذا ما جاءَ في "الإتقان": أنّ هذه الآية مما تأخّرَ نزولُه عن حُكْمِه، فالآية مَدنيّةٌ إِجماعاً، ولكنَّ فَرْضَ الوضوءِ كان بمَكَّةَ مع فَرْضِ الصَّلاة.

وذكر بعضُهم: أنّ الغرضَ من نزولِ آية المائدة بيانُ أنّ مَن لم يقدرْ على

الوضوءِ والغسل لمرضٍ أو لعدمِ الماء يُبَاحُ له التيمم، ففرضية الوضوءِ والغسل سابقةٌ على نزولها ويُؤَيِّد ذلك قولُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا في سبب نزول الآية: (فأنزل الله تعالى آية التيمم)، ولم تَقُلْ: آية الوضوء؛ لأنّ الوضوءَ كان مفروضاً قبل نزول الآية، ويوافقه ما ذكره ابن عبد البر من اتفاق أهل السير على أن الغسل من الجنابة فرض عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بمَكَّةَ.

وجاء عن ابن عمر رضي الله عنهما ما يقتضي أنّ فرض الغسل كان مع فرض الصّلوات ليلة الإِسْرَاء، حيث قال: (كانت الصلاة خمسين، والغسل من الجنابة سبع مرات، فلم يزل رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألُ، حتى جعل الصلاة خمساً، والغسل من الجنابة مرّةً). وجاء: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتوضأ لكل صلاة، عملا بظاهر الآية، فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد، فقال له سيدنا عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: فعلت شيئا لم تكن تفعله، فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَمْدًا فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ»[1].

وعن مُقَاتل بن سليمانَ: أنّ الله تعالى فرضَ في أوّل الإسلام الصَّلاةَ ركعتين بالغَدَاة، وركعتين بالعشيّ. وفي "الإمتاع": "كان رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخرجُ إلى الكعبة أوّلَ النهار، فيصلي صلاةَ الضّحى، وكانت صلاةً لا تنكرها قُرَيْش، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه إذا جاءَ وقتُ العصر تفرقوا في الشِّعَابِ، فُرَادَى ومَثْنَى، فيُصَلّونَ صَلاةَ العشي، وكانوا يصلون الضحى والعصر، ثم نزلت الصلوات الخمس"اهـ.

---

(١) رواه الإمام النسائي في المجتبى من السنن [٨٦/١] باب الوضوء لكل صلاة، حديث رقم: (١٣٣).

وذهبَ جَمْعٌ إلى أنه لم يَكُنْ قبلَ الإِسْرَاءِ صَلاةٌ مفروضَةٌ، لا عليه ﷺ ولا على أُمَّتِه، إلا ما وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد. وقد نُسِخَ قيامُ الليل بالصلوات الخمس ليلة الإِسْرَاء، ولم يذكر أئمتُنا وجوبَ صلاة الرّكعتين عليه ﷺ، بل قالوا: "أوّل ما فُرِضَ عليه الإنذار والدّعاء إلى التوحيد، ثم فرض عليه قيام الليل المذكور في أول سورة المزمل، ثم نسخ بما في آخرها، ثم نسخ بالصلوات الخمس".

وفي كلام ابن حجر الهيتمي: "لم يُكَلّفِ الناسُ إلا بالتّوحيد فقط، ثم استمرّ على ذلك مُدّةً مديدة، ثم فُرِضَ عليهم من الصلاة ما ذكر في سورة المزّمل، ثم نسخ ذلك كله بالصلوات الخمس، ثم لم تكثر الفرائض وتتابع إلا بالمَدِيْنَة، ولما ظهر الإسلام وتمكن في القلوب، وكان كلما زاد ظهوراً وتمكّنَ ازدادتْ الفرائضُ وتتابعت" اهـ.

ولم أقف على ما كان ﷺ يقرأ في صلاة الركعتين، قبل فترة الوحي، وبعدها، وقبل نزول الفاتحة، بناءً على تأخر نزولها عن ذلك كما هو الراجح، ثم رأيت في "الإتقان"، ذكرَ: "أنّ جبريلَ حين حولت القبلة أخبرَ رَسُوْلَ الله ﷺ أن الفاتحةَ رُكنٌ في الصّلاة كما كانت بمَكَّةَ" اهـ.

بَابُ
ذِكْرِ أَوَّلِ النَّاس إِيْمَانًا بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لا يخفى أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما بُعِثَ أخفى أمرَه وجعل يدعو إلى الله سرًا، واتبعه نَاسٌ عَامَّتُهُم ضُعَفَاء، وإلى هذا الإشارة بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»[1]. ولا يخفى أنّ أهلَ الأثرِ وعُلماءَ السِّيَر نصُّوا عَلى أنّ أوَّلَ الناس إيمانا به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإطلاق خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. ونَقَلَ الثعلبيُّ[2] اتفاق العُلَمَاء عليه. قال النووي: "إنه الصَّوَابُ عند جماعةٍ من المحققين". وقال ابن الأثير: "خديجة أوَّل خلق الله تعالى إسلامًا بإجماع المسلمين، لم يتَقَدَّمها رَجُل ولا امرأة". وفيه أن بناته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأربع كُنَّ مُوجُودَات عند البعثة، ويبعد تأخر إيمانهن، إلا أنْ يُقَالَ: خديجة تَقَدَّمَ لها إشْرَاك بخَلافِهِنَّ فلم يسبق لهُنَّ أن أشرَكنَ بالله ﷻ. وجاء عن ابن إسحاق: "أن خديجة كانت أوَّلَ مَن آمن بالله ورَسُوْله، وصدقت بما جاء به عَن الله تعالى، وكان لا يَسْمَعُ شيئًا يكرَهُه من قومه إلا فرَّجَ الله عنه بها إذا رجع إليها وأخبرها به".

ثم أسلمَ سيِّدُنا عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وجاء أنه أوَّلُ الناس إسْلَامًا فعن سلمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ وُرُودًا

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير [٦/١٦٤] برقم: (٥٨٦٧). وفي الأوسط [٣/٢٥٠]، برقم: (٣٠٥٦).

(٢) المفسر والمؤرخ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، توفي سنة: (٤٢٧) هـ.

عَلَى الحَوْضِ أَوَّلُهَا إِسْلامًا عَلِيُّ بن أَبِي طَالِبٍ»[1]، وجاء: أنه ﷺ لما زَوَّجَ ابنته فاطمة بعليٍّ رضي الله عنهما، قال لها: «زَوَّجْتُكِ سَيِّدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنَّهُ لَأَوَّلُ أَصْحَابي إِسْلَامًا، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا، وَأَعْظَمُهُمْ حِلْمًا»[2]، وكان لم يَبلغ الحُلُم كما حُكِيَ الإجماعُ عليه، كان سِنُّه ثمان سنين، وكان عند النَّبيِّ ﷺ قبلَ أنْ يُوحَى إليه يُطْعِمُه ويقومُ بأمْرِهِ، لأنَّ قُرَيْشًا كانَ أصابهُم قَحطٌ شَدِيدٌ، وكان أبو طالب كثير العيال، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ لعمِّهِ العَبَّاس: «إِنَّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ العِيَالِ، وَالنَّاسُ فِيمَا تَرَى مِنَ الشِّدَّةِ، فَانْطَلِقْ بِنَا إِلَيهِ فَلْنُخَفِّفْ مِنْ عِيَالِهِ، تَأْخُذُ وَاحِداً وَأَنَا وَاحِداً»، فجاءَا إليه، وقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذَا تَركْتُما لي عَقِيلًا وطالبا فاصنعَا مَا شئتما، فأخذ رَسُوْلُ الله ﷺ عليًّا فضمَّهُ إليه، وأخذ العَبَّاسُ جعفرَ فضمه إليه وتركا عقيلا وطالبا، ثم بقيَ عليٌّ مع رَسُوْلِ الله ﷺ.

وكان علي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أصغر إخوته، كَان بينه وبين أخيه جعفر عشر سنين، وبين جعفر وأخيه عقيل كذلك، وبين عقيل وأخيه طالب مثل ذلك أيضا، فكلٌّ أكبر من الذي بعده بعشر سنين، فأكبرهم طالب، ثم عقيل، ثم جعفر، ثم علي، وكلهم أسلموا إلا طالبا فاختطفه الجنّ فذهب ولم يُعْلَم إسْلَامُه. وجاء أنه ﷺ قال لعَقِيلٍ لمّا أسلم: «يَا أَبَا يَزِيدَ إِنِّي أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ: حُبّاً لِقَرَابَتِكَ مِنِّي، وَحُبّاً لِمَا كُنْتُ أَعْلَمُ مِنْ حُبِّ عَمِّي إِيَّاكَ».

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه [١٢/٧٦]، برقم: (٣٢٧٧٥)، والطبراني في المعجم الكبير [٦/٢٦٥].

(٢) أخرجه أحمد [٥/٢٦]، حديث رقم: (٢٠٣٢٢)، والطبراني [٢٠/٢٢٩]، برقم: (٥٣٨).

وسبب إسلام عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه دخل على النَّبِيِّ ﷺ ومعه خديجة وهما يُصَلِّيَان سِرًّا، فقال: مَا هَذا؟، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «دِينُ اللهِ الذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، فَأَدْعُوكَ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِلَى عِبَادَتِهِ، وَإِلَى الكُفْرِ بِاللَّاتِ وَالعُزَّى»، فقال علي: هذا أَمْرٌ لم أسمع به قبلَ اليوم، فلسْتُ بِقَاضٍ أمرًا حتى أُحَدِّثَ أبا طالب، وكرِهَ رَسُوْلُ الله ﷺ أنْ يُفْشِيَ عليهِ سِرَّهُ قبلَ أنْ يَسْتَعْلِنَ أمرُه، فقال له: «يَا عَلِيُّ إِذَا لَمْ تُسْلِمْ فَاكْتُمْ هَذَا»، فمكث ليلته، ثم إن الله ﷻ هداه للإسلام، فأصبح غاديا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فأسلم، وفي أسد الغابة: "أن أبا طالب رأى النَّبِيَّ ﷺ وعليًّا يُصَلِّيان وعَليٌّ عَلى يمينهِ، فقَال لجعْفرَ رضي الله عنه: صِلْ جناحَ ابنِ عمِّكَ فَصَلِّ عَنْ يَسَارِهِ". وكان إسْلامُ جعفرَ بعد إسلام عَليٍّ بقليل.

ويشكل على ما تَقَدَّم ما جاء في "الإمتاع" من قوله: وأما عليُّ بن أبي طالب فلم يكن مشركاً بالله أبداً، لأنه كانَ مع رَسُوْلِ الله ﷺ في كفالته كأحد أولاده، يتبعه في جميع أموره، فلم يَحتَجْ أنْ يُدْعَى لِلإسْلَام، فَيُقَالُ: أَسْلَمَ! ". اهـ. ويدل لما في "الإمتاع"، حديث: «ثَلَاثَةٌ مَا كَفَرُوا بِاللهِ قَطُّ: مُؤْمِنُ آلِ يَس، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعُونَ».

وروي أنه ﷺ قال: «سُبَّاقُ الأُمَمِ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَكْفُروا بِالله طَرْفَةَ عَينٍ: حِزْقِيلُ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعُونَ، وَحَبِيبُ النَّجَّارُ، وَعَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنهم، وَهُوَ أَفْضَلُهُمْ».

وفي كلام الحافظ ابن كثير: "الظاهر أنَّ أهلَ بيتِهِ ﷺ آمنوا قبل كلّ أحد، خديجةُ وزيد وأمُّ أيمنَ وعليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُم". اهـ. وقال ابنُ إسحاق:

"أما بناته ﷺ فكُلُّهُنَّ أَدْرَكْنَ الإسلامَ فأسلمْنَ". اهـ. وذُكِرَ أنَّ أبا طالب قال لعَليٍّ: "أيْ بني، ما هذا الذي أنت عليه؟، فقال: يا أبت آمنت بالله ورَسُوْله، وصَدّقتُ ما جاء به، ودخلتُ معه واتّبعْتُه، فقال له: أما إنه لم يدعك إلّا إلى خير فالْزَمْهُ". ويذكر عنه أنه كان يقول: "إني لأعلم أن ما يقوله ابن أخي لحق، ولولا أني أخاف أن تعيرني نساء قُرَيْش لَاتّبَعْتُه".

ثُمَّ أسلمَ زيدُ بنُ حَارثةَ بن شُرَحْبِيل رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، مولى رَسُوْلِ الله ﷺ وهبته له خديجة لما تزوجها ﷺ، وكان اشتراه لها ابن أخيها حَكِيْمُ بن حِزَام، وكانت خديجة أمرته أن يَبْتَاعَ لَهَا غلاماً عربياً فقَدِمَ سوق عكاظ فوجد زيداً يباع وعمره ثمان سنين، وكانت أُمُّه خرجت به تُزَيِّرُهُ أهلَهَا، فأصابته خَيلٌ فباعوه فاشتراه ممن سَبَاهُ، وقيل اشتَرَاه من سوق حُبَاشَة بأربعمائة دِرْهم، فلما رَأته خديجةُ أعجبَها فأخذتْهُ، فلما تزوجها ﷺ وهَبَتْهُ لهُ، فأعتقه رَسُوْلُ الله ﷺ، وتَبَنَّاهُ قَبْلَ الوَحْي.

وقد رُوِيَ أنَّ ناساً من قوم زَيد حَجُّوا، فرأوه فعرفوه وعرفهم، فانطلقوا وأعلموا أباه، فجاء أبوه وعمّه إلى النَّبِيِّ ﷺ فقالوا: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون الأسير العاني، وتطعمون الجائع، جِئنَاكَ في وَلَدِنَا عندك، فامنن علينا وأحسن فإنا سندفع لك في فدائه، فقال: «أوَ غَيرُ ذَلِكَ»؟، قالوا: وما هو؟، قال: «اِدْعُوهُ فَخَيِّرُوهُ، فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ مِنْ غيرِ فِدَاءٍ، وَإِنِ اخْتَارَنِي فَوَ الله مَا أَنَا بِالذِي أَخْتَارُ عَلَى الذِي اخْتَارَنِي فِدَاءً»، فقالوا: زِدتَّنَا عَلَى النَّصفِ وأَحْسَنْتَ، فدعاه ﷺ، فقال له: «أَتعْرِفُ هَؤُلَاءِ»؟، قال: نعم أبي وعمّي، فقال: «أَنَا مَنْ عَلِمْتَ، وَقَدْ رَأَيتَ صُحْبَتِي لَكَ

فَاخْتَرْنِي أَوِ اخْتَرْهُمَا»، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدا، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد تختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم ما أنا بالذي أختار عليه أحدا، فلما رأى ﷺ منه ذلك أخرجه إلى الحِجْرِ فقال: «إِنَّ زَيْداً ابْنِي أَرِثُهُ وَيَرِثُنِي»، فطابت أنفسهما وانصرفا. ولما تبنى ﷺ زيداً كان يُقَالُ له زيد بن محمد، ولم يذكر في القرآن من الصحابة أحد باسمه إلا هو. وقد أبدى السهيلي حكمةً لذلك، وهي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥]، وصار يُقَالُ له: زيد بن حارثة، ولا يُقَالُ له: زيد بن محمد، ونزع منه هذا التشريف شرفه الله بذكر اسمه في القرآن دون غيره من الصحابة، فصار اسمه يتلى في المحَارِيب.

ثم أسلمَ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وكان صَدِيقًا لرَسُوْلِ الله ﷺ، يكثر محادثته والمجيء إلى منزِله، وسببُ إسلامه أنه كان مع حَكِيْم بن حِزَام في بعض الأيام، إذ جاءت مولاةٌ لحكيم، فَقَالَتْ له: إن عَمَّتكَ خَدِيجة تزْعُمُ في هَذا اليَوم أنّ زَوْجَهَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ مثل موسى، فانْسَلّ أبو بكرٍ حتى أتى رَسُوْلَ الله ﷺ فسأله عن خبرِه، فقصَّ عليه مجيءَ الوَحْي إليه بالرسالة، فقال: صدقت، بأبي أنت وأمي وأهلُ الصِّدق أنت، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رَسُوْل الله. فَيُقَالُ إنه ﷺ سَمّاهُ يومَئِذٍ بالصّديق. وكان أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ صَدْرًا مُعَظّمًا في قُرَيْش على سَعَةٍ مِن المال وكَرَم الأخلاق، مِن رؤساء قُرَيْش ومحطّ مَشُورتهم، وكان من أعفّ الناس، رئيسًا مُكَرّمًا سَخِيًا، محببا في قومه، وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا، وبأنساب العرب. قال ﷺ: «مَا دَعَوتُ أَحَداً إِلَى الإِسْلَامِ، إِلَّا كَانَتْ عِنْدَهُ كَبْوَةٌ ـ أي وقفة وتأخر

وتردد ـ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ». وفي رواية: «مَا كَلَّمْتُ أَحَداً فِي الإِسْلَامِ إِلَّا أَبَى عَلَيَّ وَرَاجَعَنِي فِي الكَلَامِ، إِلَّا ابنَ أَبِي قُحَافَةَ فَإِنِّي لَمْ أُكَلِّمْهُ فِي شَيْءٍ إِلَّا قَبِلَهُ وَاسْتَقَامَ عَلَيهِ»[1]، وسبب مبادرته إلى التصديق ما عَلِمَه مِن دَلائل نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبراهين صدق دعوته قبل دعوته.

وقولُ بعضِ الحفَّاظ: أنّ أبا بكر أول الناس إسلاما، وهو المشهور عند جمهور أهل السنة. لا ينافي ما تَقدَّم؛ مِنْ أنّ عليًّا أوّلُ النّاس إسلاماً بعد خديجة، ثم زيد بن حارثة، لأن المراد أول رَجُل بَالِغ ليسَ من الموالي أسْلمَ أبو بكر. قال ابنُ الصَّلَاح: "والأَورعُ أنْ يُقَالُ: أوّلُ مَن أسلم من الرّجال الأحرَار أبو بكر، ومن الصّبيان عليّ، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة"، ومراد مَن قال: إن أبا بكر سبق عليّا في الإسلام، أي في إظهار الإسلام لأنه حين أسلمَ أظهرَ إسلامَه بخلافِ عَليٍّ، فقد جاءَ عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أنه قال: إِنّ أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سبقني إلى أربع: وعدّ منها: إظهارَ الإسلام، وقال: وأنا أخفيته. ولا ينافي ذلك ما جاء بسندٍ حسن: أنّ أوّلَ من جهرَ بالإسلام عمرُ بنُ الخطاب. لأنّ ذلك كانَ عند اختفائِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وأصحابه في دار الأرقم، فالأوّليّة في إظهار الإسلام إضَافية.

وأوّلُ من أسلم من النّساء بعد خديجة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا أمُّ أيمنَ، وأمُّ الفضْلِ زوجة العَبَّاس، وأسماءُ بنت أبي بكر، وأمُّ جميل فاطمةُ بنتُ الخطاب أخت عمر بن الخطاب.

وحين أسلم أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ دعا إلى الله تعالى ورَسُوْله

(١) أخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/٢٩٧). وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/٤٤).

ﷺ من وثق به من قومه، فأسلم على يده ستة من العشرة المبشرين بالجنة، وهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عُبَيدالله التيمي، وأبو عبيدة ابن الجراح رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُم، ثم دخل الناس في الإسلام أرْسَالًا مِن الرِّجَالِ والنساء. وكان من السابقين للإسلام أيضاً: عبد الله بن مسعود، وأبو ذر الغفاري، واسمه جُندب بن جُنَادة وخالد بن سَعِيْد بن العاص، وعمرو بن سَعِيْد بن العاص، وأبان بن سَعِيْد بن العاص، والحكم بن سَعِيْد بن العاص رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُم أجمعين.

ومن السّابقين للإسلام: صُهَيب الرومي، كان أبوه عاملا لكسرى، فأغارت الروم عليهم فسَبَتْ صُهَيبًا، ثم ابتاعه جماعةٌ من العرب وجاؤوا به إلى سوق عكاظ، فابتاعه منهم عبد الله ابن جُدْعَان، فمرَّ صُهيبٌ مع عمار بن ياسر، فدَخَلا على رَسُوْلِ الله ﷺ، فعرض عليهما الإسلام، وتلا عليهما شيئًا من القرآن، فتشهدا ثم خرجا مُسْتَخْفِيين، فَدَخل عمّار على أمه وأبيه، فسألاه أين كان؟، فأخبرهما بإسلامِه، وعرض عليهما الإسلامَ، وقرأ عليهما ما حفظه من القرآن، فأعجبهما، فأسلما على يده.

وأسلمَ عِمْرانُ بن حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما، وأسلمَ والدُه حُصَينٌ بعده، وكانت قُرَيْش تُعَظّمُه وتجلّه، فقالوا له: كلّم هذا الرَّجُل، فإنه يذكرُ آلهتنا ويسبّها، وجاؤوا معه حتى جلسُوا قريباً من بابِ النَّبيِّ ﷺ، ودَخَل حُصَينٌ، فلما رآه النَّبيُّ ﷺ قال: «أَوْسِعُوا لِلشَّيخِ»، وعمران ولده في الصّحابة، فقال حُصينٌ: ما هذا الذي بلغنا عنكَ أنك تشتم آلهتنا؟، فقال: «يَا حُصَينِ كَمْ تَعْبُدُ مِن إِلَهٍ»؟ قال: سبعةً في الأرضِ وواحداً في السماء، فقال: «فَإِذَا أَصَابَكَ

الضُّرُّ مَنْ تَدْعُو»؟ قال: الذي في السماء، قال: «فإذَا هَلَكَ المَالُ مِنَ تَدْعُو»؟ قال: الذي في السماء، قال: «فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ وَتُشْرِكُ مَعَهُ!، يَا حُصَينُ أَسْلِمْ»، فأسلم، فقام إليه ولدُه عمرانُ فقبّلَ رأسَه ويديه ورِجْلَيْهِ، فبكَى ﷺ وقال: «دَخَلَ حُصَينٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَلَمْ يَقُمْ إِلَيهِ عِمْرَانُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ نَاحِيَتَهُ، فَلَمَّا أَسْلَمَ وَفَّى حَقَّهُ فَدَخَلَنِي مِنْ ذَلِكَ الرِّقَّةُ»، فلما أراد حصين الخروج قال رَسُوْلُ الله ﷺ لأصحابه: «شَيِّعُوهُ إِلَى مَنْزِلِهِ»، فلما خَرَجَ رَأتهُ قُرَيْش، فقالوا: قد صَبَأَ، وتَفَرّقُوا عنه.




بَابُ
اسْتِخْفَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَهْرِهِ بِالإِسلَام وَمَا نَالَهُ هُوَ وَأَصْحَابُه مِن الأَذَى

كانت المدة التي دعا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها الناسَ خُفْيَةً ثلاث سنين، وكَان من أسلم إذا أراد الصَّلاةَ يذهب إلى الشِّعَاب يستخفي بصلاته من المشركين، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من الصحابة في شعب من شعاب مَكَّةَ، إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضربَ سعدُ بن أبي وقاص رَجُلًا منهم بلَحْي بَعِيرٍ فَشَجَّهُ، فكانَ أوَّل دَم أهْرِيق في الإسلام، ثم دخل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه بعد هذه الوَاقعة مُسْتَخْفِين في دَار الأرقم، فكَانوا يقيمون الصلاة، ويعبدون الله تعالى فيها، إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين والدعوة إليه في السّنة الرابعة، بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وبقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ولما نَزلت على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية اشتد الأمرُ عليه فمَكَثَ شهرًا ونحوه جالسًا في بيته حتى ظنَّ عمّاته أنه مَريض، فدخلنَ عليه عائدات، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا اشْتَكَيتُ شَيئاً وَلَكِنَّ الله أَمَرَنِي بِقَولِهِ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فَأُرِيدُ أَنْ أَجْمَعَ بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ لِأَدْعُوَهُمْ إِلَى الله تَعَالَى»، فقلنَ

له: ادعُهم ولا تجعل عبد العزى فيهم، ـ يعنينَ أبا لهب ـ، فإنه غيرُ مجيبك إلى ما تدعوه إليه، فلما أصبحَ رَسُوْلُ الله ﷺ بعثَ إلى بني عبد المطلب فحضروا وكان فيهم أبو لهب، فلما أخبرهم بما أنزل الله عليه أسمعَه ما يكرَه، وقال: تبا لك، ألهذا جمعتنا؟ وأخذ حجرًا ليرميه به، وقال له: ما رَأيتُ أحدًا قطّ جاء بني أبيه وقومه بأشرّ ممّا جئتهم به، إنه ليس لقومك بالعرب طاقة، وإنّ أحقّ من أخذَكَ وحبسَك أسرتُك وبنو أبيك إن أقمت على أمرك، فهو أيسر عليك من أن تَثِبَ عليك بطونُ قُرَيْش وتمدّها العربُ، فاترك الصَّبَأة. فسَكتَ رَسُوْلُ الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس، وأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] إلى آخر السورة.

وفي الصحيحين: أنه ﷺ دعا قُرَيْشا فاجتمعوا، فخصَّ وعَمَّ، فقال: «يَا بَنِي كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي زُهْرَةَ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةُ مُحَمَّدٍ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيئاً»، وفي لفظ: «لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَنْفَعَةً وَلَا مِنَ الآخِرَةِ نَصِيباً، إِلَّا أَنْ تَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، غيرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِها». وذِكْرُ فاطمَةَ ابنته هُنَا في بعضِ الرّوايات مِن خَلْطِ بعضِ الرُّواة، فإنَ المُراد بالإنقاذِ من النّار الإتيان بالإسلام، بدليل قولِه ﷺ: «إِلَّا أَنْ تَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله»، مع أنه تَقَدَّمَ أنَّ بناته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يكنَّ كفّارًا.

ثم مكث ﷺ أياماً، فنزل عليه جبريل وأمره بإمضاءِ أمر الله تعالى، فجمعهم رَسُوْلُ الله ﷺ ثانياً وخطبهم، فقال: «إِنَّ الرَّائِدَ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَاللهِ لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعاً مَا كَذَبْتُكُمْ، وَلَوْ غَرَرْتُ النَّاسَ جَمِيعاً مَا غَرَرْتُكُمْ، وَاللهِ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنِّي لرَسُوْلُ الله إِلَيكُمْ خَاصَّةً وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَاللهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيقِظُونَ، وَلَتُحَاسَبُنَّ بِمَا تَعْمَلُونَ، وَلَتُجْزَوُنَّ بِالإِحْسَانِ إِحْسَاناً، وَبِالسُّوءِ سُوءاً، وَإِنَّهَا الجَنَّةُ أَبَداً أَوِ النَّارُ أَبَداً، وَاللهِ يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ مَا أَعْلَمُ شَابّاً جَاءَ قَومَهُ بِأَفْضَلَ مِمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ، إِنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخيرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»، فتكلّم القوم كلاماً ليّنا، غير أبي لهب، فإنه قال: يا بني عبد المطلب هذه والله السَّوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم، فإن أسْلَمْتُمُوه حينئذٍ ذَلَلْتُم، وإن مَنَعْتُمُوه قُتِلْتُم، فَقَالَتْ له صَفِيَّةُ: أيْ أَخِي، أَيَحْسُنُ بِكَ خُذْلَانُ ابن أَخِيْك، فو الله ما زَال العُلَمَاء يخبّرون أنه يخرجُ من عبد المطلب نبي فهُوَ هُوَ. فقال: هذا والله الباطل والأماني وكلامُ النسَاء في الحِجَال، إذا قامَتْ بطونُ قُرَيْش وقامتْ معها العَرَبُ فمَا قوّتنا بهم؟، فوَ الله ما نحنُ عندهم إلا أكلة رَأس!. فقال أبو طالب: والله لَنَمْنَعَنَّهُ ما بَقِينَا.

ثم دعَا النَّبِيُّ ﷺ جميعَ قُرَيْش، وهو قَائِم عَلى الصَّفا، وقال: «إِنْ أَخبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيكُمْ، أَكُنْتُمْ تُكَذِّبُونِي»؟، فقالوا: ما جَرَّبْنَا عليك كذبًا، فقال لهم ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَنقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيئاً، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ بَينَ يَدَيَّ عَذَابٌ شَدِيدٌ، وَإِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُكُم كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى العَدُوَّ فَانطَلَقَ يُرِيدُ أَهْلَهُ فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهُ..




يَا صَبَاحَاهُ، أُتِيْتُم.. أُتِيتُم».

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، جمع ﷺ بني عبد المطلب في دار أبي طالب، وهم خمسة وأربعون رَجُلًا وامرأتان، فصنعَ لهم عليٌّ طعامًا، رِجْلَ شَاةٍ مع مدٍّ من البرِّ وصاعًا من لبَن، فقُدِّمَت لهم الجفْنَةُ، فقال ﷺ: «كُلُوا بِسْمِ الله»، فأكلوا حتى شبعوا، وشربوا حتى رَوَوا، وكان الرَجُلُ منهم يأكل الجَذَعَة، ويشرب العَسَّ منَ الشَّرَابِ في مقعدٍ واحد، فَبَهَرَهُم ما رَأوا مِنَ البَركة، ولما أرادَ رَسُوْلُ الله ﷺ أن يتكلم ابتدرَه أبو لهب بالكلام، فقال: لقد سَحَرَكم صَاحِبُكم سِحْراً عظيماً، فتفرقوا ولم يتكلمْ رَسُوْلُ الله ﷺ، فلما كانَ الغَدُ قال: «يَا عَليّ عُدْ لنَا بِمِثْلِ مَا صَنَعْتَ بِالأَمْسِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ»، ففعل عليٌّ، ثم جمعَهُم، فأكلوا حتى شبعوا، وشربوا حتى نهلوا، ثم قال ﷺ: «يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَنِي إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَبَعَثَنِي إِلَيكُمْ خَاصَّةً، وَأَنَا أَدْعُوكُم إِلَى كَلِمَتَينِ خَفِيفَتَينِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَينِ فِي المِيزَانِ، شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنِّي رَسُوْلُ الله، فَمَنْ يُجَاوِبُنِي إِلَى هَذَا الأَمْرِ وَيُؤَازِرُنِي عَلَى القِيَامِ بِهِ»؟، فقال علي: أنا يا رَسُوْلَ الله، وسَكَتَ القومُ.

وفي رواية: أنّ رَسُوْلَ الله ﷺ أمرَ خديجةَ فصنعتْ له طعامًا، ولا مانع من تكرر فعل ذلك، ولعل جمعهم هذا كان متأخرًا عن جمعهم مع غيرهم المتَقَدَّم ذكره، ويشهد له السِّياق، وفعل ﷺ ذلك حرصاً على إسلام أهل بيته، وكان كفّار قُرَيْش غير منكرين لما يقولُ فكَان ﷺ إذ مَرّ عليهم في مجالسِهم يشيرون إليه يقولون: إنّ غلامَ بني عبدِ المطلب ليُكَلّمُ مِنَ السَّمَاء.

وكان ذلك دَأْبُهم حتّى عابَ آلهتهم، وسَفَّه عُقولهُم وضَلّل آباءَهُم، حتّى أنه مرَّ يوماً وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام، فقال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ وَاللهِ لَقَدْ خَالَفْتُم مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ»، فقالوا: إنّما نعبد الأصنام حبّاً لله لتقربنا إلى الله. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] الآية، فأجمعوا خلافَه وعداوتَه إلا من عَصَمَ الله منهم، وجاؤوا إلى أبي طالب، وقالوا: يا أبا طالب؛ إنّ ابنَ أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعابَ ديننا، وسَفَّه أحلامَنا وعقولَنا، ينسبنا إلى قلّة العقل، وضلّل آباءَنا، فإمّا أن تكفَّه عنّا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافِه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ورَدّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رَسُوْلُ الله ﷺ يظهرُ دينَ الله ويدعو إليه لا يردّه عن ذلك شيءٌ، وجاء أنَ جبريل تبدّى لهُ ﷺ في أحسَنِ صُورةٍ وأطيَبِ رَائحَةٍ، وقال له: «يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: أَنْتَ رَسُوْلُ اللهِ إِلَى الجِنِّ وَالإِنْسِ، فَادْعُهُمْ إِلَى قَولِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

فدعاهم ﷺ، والحالُ أنّ في أهل الكُفْرِ قُوَّةً تَامَّةً وامتناعاً عنِ اتّباعِه، اختلطَ الكفرُ بقلوبهم وتمكّنَ فيها حبُّه حتى صارت لا تقبل غيرَه، وصار داءُ الضّلال فيهم عُضَالاً يُعْيِي الأطباءَ مُداواته وحصول شفائه، ثم كثر وتزايد وانتشر بينهم وبينه حتى تباعد الرِّجَال، وأضمروا العداوةَ والحِقدَ وأكثرتْ قُرَيْشٌ ذكرَ رَسُوْلِ الله ﷺ بينها وتَذامَرُوا عليه، وحَضّ بعضُهم بعضاً على حربِه وعداوتِه ومقاطعتِه، ثمّ إنهم مشوا إلى أبي طالب مرّة أخرى، فقالوا: يا أبا طالب إن لك سِنّاً وشَرَفاً ومنزلةً فينا، وإنا قد طلبنا منك أن تَنْهَى ابنَ أخيك فلم تَنْهَهُ عنا، وإنا والله لا نصبرُ على شتم آبائِنا وتسفيه أحلامِنا، ولا عيبِ آلهتنا حتى تكُفَّه عنّا، أو ننازله وإيّاك في ذلك، حتى يهلك أحدُ الفريقين، ثم انصرفوا عنه.

فعَظُمَ على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم، ولم يطبْ نفساً أنْ يخذلَ رَسُوْلَ الله ﷺ، فقال له: يا ابنَ أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبْقِ عَليَّ وعَلَى نفْسِك ولا تحملني من الأمرِ ما لا أطيقُ، فظنَّ رَسُوْلُ الله ﷺ أنَّ عمَّه خَاذِلُه وأنه ضَعُفَ عَن نُصْرَتِه والقيام معه، فقالَ: «يَا عَمِّ وَالله لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِيني وَالقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ الله تَعَالَى أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ»، وبكى النبيُّ ﷺ، فقال أبو طالب: قل ما أحببت، فو الله لا أَسَلِّمُكَ. وأنشد أبياتا منها:

وَالله لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ ... حَتَّى أُوَسَّدَ في التُرَابِ دَفِينَا

فلما عرفَتْ قُرَيْشٌ أنّ أبا طالبٍ قد أبى خُذْلانَ رَسُوْلِ الله ﷺ مشوا إليه بعُمارَةَ بنِ الوليد بن المغيرة، فقالو له: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة أشدّ وأقوَى فتىً في قُرَيْش، فخذْهُ لك ولداً تَتَبَنَّاه وأَسْلِمْ إلينا ابنَ أخيك الذي خالفَ دينك ودين آبائك، وفرّق جماعَة قومك نُقْتُلُه، فإنّما هو رَجُلٌ كرَجُلٍ، فقال أبو طالب: والله لبئسَ ما تَسُومُونَنِي، أتعطوني ابنكم أغْذُوهُ لكُم، وأعْطِيكم ابنِي تَقْتُلونَه؟، والله إنَّ هذا لا يكون أبداً، أرأيتم ناقةً تَحِنُّ إلى غيرِ فَصِيلِهَا؟!. فقال له المُطْعِم بن عَدِيّ: والله يا أبا طالب لَقَدْ أنصَفَكَ قومُك، وجهدوا على التّخلص مما تكره، فما أراك تريدُ أنْ تقبلَ منهم شيئا، فقال له أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكنْ قد أَجْمَعْتَ وقصَدْتَ خذلاني، ومظاهرة القوم عَليَّ فاصنعْ ما بدا لك.

وعند عدم قبول أبي طالب ما أرادوه اشتد الأمر. فلما رأى أبو طالب من قُرَيْش ما رَأى دعَا بني هاشم، وبني المطلب إلى ما هو عليه من مَنعِ رَسُوْلِ الله ﷺ

والقِيَام دُونَه، فأجابوه إلى ذلك غير أبي لهب فَإنه كَان من المجَاهِرينَ بالظّلم لرَسُوْلِ الله ﷺ ولكلِّ مَن آمَنَ به، وتوالى الأذى من قُرَيْش على رَسُوْلِ الله ﷺ وعَلى مَنْ أَسْلَمَ مَعَه. ووقع لرَسُوْلِ الله ﷺ من الأَذِيَّةِ مَا حَدَّث به عمُّه العَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: كنت يوما في المسجد فأقبل أبو جهل فقال: لله عليَّ إن رأيتُ مُحَمَّدًا سَاجِدًا أنْ أطأ عنقه، فخرجت إلى رَسُوْل الله ﷺ، فأخبرته بقول أبي جهل، فخرج غضبان حتى دخل المسجد، فَعَجِلَ أنْ يَدخُلَ مِن الباب فاقْتَحَم من الحَائِط، وقرأ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ ـ ٢] حتى بلغ شَأنَ أبي جهل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] إلى أن بلغ آخر السورة سجد، فجاء إنسانٌ فقال لأبي جهل: يا أبا الحكم، هذا محمد قد سجد، فأقبل إليه، ثم نَكَصَ رَاجِعًا، فَقِيْلَ له في ذلك، فقال لهم أبو جهل: ألا ترون ما أرى!، لقد سَدَّ أُفُقَ السّماء عَليَّ، ورأيتُ بيني وبينه خندقًا من نار.

وذُكِرَ أنّ أبا جهل قال يوما لقُرَيْش: يا معشر قُرَيْش إن مُحَمَّدًا قد أتى إلى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسبِّ آبائكم، إني أعاهد الله لأُجَلِّ له غَدًا بحجرٍ لا أطِيقُ حملَه، فإذا سجد في صلاته رَضَخْتُ به رَأسَه، فأسلموني أو امنعوني، وليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، فقالوا: والله لا نسلمك لشيءٍ أبدا فامضِ لما تُريد، فلمّا أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصفَ، ثم جلس لرَسُوْلِ الله ﷺ ينتظره، وغدا رَسُوْلُ الله ﷺ كما كان يغدو إلى الصّلاة، وقُرَيْش جلوسٌ في أنديتهم، ينتظرون ما يفعل أبو جهل، فلما سجدَ رَسُوْلُ الله ﷺ احتملَ أبو جهلٍ الحجرَ ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رَجع مُنْهَزِمًا مُنْتَقِعًا لونه من الفَزَع، وقد يبست يداه على حجرِهِ حتّى قذفه

من يدِه، وقام إليه رجالٌ من قُرَيْش فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟، قال: قمت إليه لأفعل ما قُلْتُ لكم، فلما دنوت منه عرض لي فَحْلٌ، والله ما رأيت مثله قط، همَّ أن يأكُلَني، فلما ذُكِرَ ذلكَ لرَسُوْلِ الله ﷺ قال: «ذَاكَ جِبْرِيلُ لَو دَنَا لَأَخَذَهُ».

ولما أنزل الله تعالى قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، جاءت امرأة أبي لهَب وهيَ أم جميل، واسمها أروى بنت حرب أخت أبي سفيان، ولها وَلْوَلَة، وفي يدها فِهْر، حجر يملأ الكفَّ فيه طول يُدَقُّ به في الهَاوُن، فجَاءَت إلى النَّبِيِّ ﷺ ومعه أبو بكر، فلما رآها قال: يا رَسُوْل الله إنها امرأة بَذِيَّة، تأتي بالفحش من القول، فلو قمْت عنها لكي لا تُؤْذِيَك، فقال ﷺ: «إنَّها لَنْ تَرَاني»، فجَاءَت، فَقَالَتْ: يا أبا بكر؛ صاحبك هجاني، ما شأنُ صاحبك ينشدُ فِيَّ الشّعرَ؟، فقال: لا ورب هذا البيت ما هَجَاك، والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشعر، فَقَالَتْ: أنت عندي تَصْدُق، وانْصَرَفتْ وهيَ تقول: قد عَلِمتْ قُرَيْشٌ أني بنت سيدها، ومن كان عبد مناف أباه لا ينبغي لأحد أن يتجاسر على ذمّه، قال أبو بكر: فقُلْتُ: يا رَسُوْل الله، لِمَ لَمْ تَرَك؟، قال: «لم يَزَلْ مَلَكٌ يَسْتُرني بِجَنَاحِه».

ولما نزلت تلك السّورة في أبي لهب، قال أبو لهب لابنِه عُتْبَة: رأسي من رأسِك حَرَام إنْ لم تفارق ابنةَ محمّد، يعني رقيةَ رضي الله عنها، فإنه كان تزوجها ولم يَدْخُل بها ففارقها، وكان أخوه عُتَيْبَة متزوجًا ابنتَه ﷺ أمَّ كلثوم، فقال وقد أرادَ الذهاب إلى الشام: لآتينَّ مُحَمَّدًا فلأُوذِيَنَّه في رَبِّه، فَأَتَاهُ فشَتَمَه ثمَّ بَصَقَ في وجْهِهِ، ورَدَّ عليه ابنتَه وطَلّقَها، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ

كِلَابِك»، وكان أبو طالبٍ حاضرًا فَوَجَمَ لها، وقال: ما كَان أغنَاكَ يا ابنَ أخِي عَن هَذه الدَّعْوَة!. فرجَعَ عُتَيْبَةُ إِلَى أَبِيهِ فأخبره بذلك، ثمَّ خَرَجَا إلى الشَّام في جماعةٍ، فنزلوا منزلاً فأشرَفَ عليهم رَاهِبٌ مِن ديرٍ، فقال لهم: إنَّ هَذِه الأرْضَ مُسْبِعَةٌ ـ أي كثيرة السِّبَاع ـ، فقال أبو لهبٍ لأصْحَابه: إنكم قد عرفتم نسبي وحقي، فقالوا: أَجَلْ يا أبا لهب. قال: فأعينونا يا معشر قُرَيْش هذه اللّيلةَ، فإني أخاف على ابني دعوةَ محمَّدٍ، فأجمعُوا متاعكم إلى هذه الصَّومَعَة ثم افرشوا لابْنِي عليه ثم افرشوا حَوله، ففعلوا، ثم جمعوا جمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا بعتيبة، فجاء الأسَدُ يَتَشَمَّمُ وجُوهَهُم حتّى ضرَبَ عُتَيْبَةَ فقتله، فقال وهو بآخرِ رَمَق: ألم أقلْ لكُم إنَّ مُحَمَّدًا أَصْدَقُ النّاسِ لهْجَةً، ومَاتَ، فقال أبوه: قد عَرَفْتُ واللهِ مَا كَانَ ليُفْلِتَ مِن دَعْوَةِ محمَّد.

وممّا وقع له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأذِيَّةِ مَا حَدَّثَ به عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا مع رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد وهو يصلي، وقد نُحِرَ جَزُورٌ وبقيَ فَرْثُه، فقال أبو جهل: أَيّكُم يقومُ إلى جَزُورِ بَنِي فُلَان فيعمد إلى فرثها ودمها وسَلاها فيجيءُ به، ثم يُمْهِلُهُ حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فقام أشقَى القوم وهو عقبة بن أبي مُعَيط، وجاء بذلك الفرث، فألقاه على النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ساجد، فجعلَ بعضُهم يَمِيلُ على بعضٍ من شِدَّةِ الضَّحِك، فخِفنا أَنْ نُلقِيَه عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَا قائمٌ أنظر، ولو كانت لي مَنَعَةٌ لطرحتُه عن ظهرِه، واستمرَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساجدًا حتى جاءَت فاطمةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا فألقته عنه، ثم أقبلَتْ عليهم تَشْتُمُهُم، فقامَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمَّ لما قَضَى صَلاتَه رفع يديه فدعا عليهم، فلما سمعوا صوتَه ذهبَ منهم الضَّحِكُ، وهابُوا دعوتَه، فقال: «اللَّهُمَّ عَلَيكَ بِقُرَيْشٍ، اللَّهُمَّ



عَلَيكَ بِأَبِي الحَكَمِ بنِ هِشَامٍ، وَعُتْبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، وَعُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيطٍ، وَأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وَشَيبَةَ بنِ رَبِيعَةَ، وَالوَلِيدِ بنِ عُتْبَةَ»، فوالله لقد رأيتُ الذين سَمَّى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرْعَى يومَ بدرٍ، ثم سحبوا إلى القَلِيب.

وعنه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: ما رأيت قُرَيْشا أصابت من عداوة أحد ما أصابت من عداوةِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولقد حضرتُهم يوماً، وقد اجتمع ساداتُهم وكبراؤُهم في الحِجْرِ، فذكرُوا رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: ما صبرنا لأمرٍ قطُّ كصَبرنا لأمرِ هذا الرَجُل، سَفَّه أحلامَنا، وشتمَ آباءَنا، وعابَ ديننا، وسبَّ آلهتَنا، فبينما هم كذلك، إذ طلع عليهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقبلَ يمشي، حتّى استلم الرّكنَ ثم مرَّ طائفاً بالبيت، فلما مرَّ بهم لمزُوهُ ببعضِ القولِ، ثم مرَّ بهم الثانية فلمزوه بمثلها، ثم مرَّ بهم الثالثة فلمزوه، فوقف عليهم، وقال: «أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ»، فارْتَعَبُوا لكلمتهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما بقي رَجُل منهم إلا كأنما على رأسه طائراً، فصاروا يقولون له: يا أبا القاسم انصرف، فو الله ما كُنتَ جَهُولًا. فانصرفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما كان الغَدُ اجتمعوا في الحِجْرِ، وأنا معهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: ذكرْتُم ما بلغَ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا ناداكم بما تكرهونَ تركتُموه، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتواثبُوا إليه وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وأحاطوا به، وهم يقولون: أنتَ الذي تقول كذا وكذا، فقال: «نَعَمْ؛ أَنَا الذِي أَقُولُ ذَلِكَ»، فأخذ رَجُلٌ منهم بمَجْمَع رِدَائِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقام أبو بكر دُونَه يبكي، ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، فأطلقَه الرَّجُلُ ووَقَعَتِ الهيبةُ في قلوبهم، فكفّوا عن رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمّ



أقبلوا على أبي بكر يضربونه.

وعن فاطمةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا قالت: اجتمع مُشْرِكُو قُرَيْش في الحِجْرِ، فقالوا: إذا مَرَّ محمد فليضربْهُ كلّ واحِدٍ منّا ضَرْبَةً، فسمعتُ، فدخلتُ على أبي، فقلت له: تركتُ الملأَ من قُرَيْش قد تعاقدوا في الحِجْرِ، فحَلفُوا باللّاتِ والعُزّى ومَنَاةَ وإسَافٍ ونَائِلةَ؛ إذا هُمْ رأوكَ يقومون إليك فيضربونك بأسيافِهم فيقتلوك، فقال ﷺ: «يا بُنَيَّةِ لَا تَبْكِي»، ثم خرج ﷺ فدخل المسجد، فرفعوا رؤوسَهم، ثم نكسوا فأخذ قبضَةً من ترابٍ فرَمى بها نحْوَهم، ثم قال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»، فما أصابَ رَجُلًا منهم إلا قُتِلَ بِبَدْرٍ.

وكان بجوارِه ﷺ جماعةٌ منهم: أبو لهب، والحكم بن أبي العاص، والد مروان، وعقبة بن أبي معيط، فكَانوا يطرحُونَ عليه ﷺ الأذى، فإذا طرَحُوه عليه أخذَه وخرج به ووقف على بابه ويقول: «يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أيُّ جِوَارٍ هَذَا»!؟، ثم يُلْقِيهِ.

وهذه الأذية ليست منقصةً له ﷺ، بل هي رفعةٌ له، ودليلٌ على فَخَامَة قدرِه وعُلُوِّ مرتَبَتِه وعظيمِ رِفْعَتِه ومكانته عند رَبِّه، لكثرة صَبرِه وحلمِه واحتماله، مع علمه باستجابة دعائه، ونفوذ كلمته عند الله تعالى، وقد قال ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً الأَنْبِيَاءُ»، وذلك أنّ البلاءَ سُنّة من سُنَنِ النَّبِيِّين السَّابِقين عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

ومما وقع لأبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ من الأذية، أنّ رَسُوْل الله ﷺ لما دخل دارَ الأرْقم ليعبد الله تعالى ومن معه من أصحابه فيها سرًّا

ألحَّ أبو بكر عليه في الظهُورِ والخروج إلى المسجد، فقال ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّا قَلِيلٌ»، فلم يزل به حتى خرج رَسُوْلُ الله ﷺ ومَن مَعَهُ إلى المسجد، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورَسُوْلُ الله ﷺ جالسٌ، فثارَ المشركونَ على المسلمين، فضربوهم ضرباً شديداً، وَوُطِئَ أبو بكرٍ بالأرْجُلِ وضُرِبَ ضَرْباً شديداً، وصَارَ عتبةُ بنُ رَبيعةَ يضربُه بنعلين مخصُوفَتين في وجهِه حتى صَارَ لا يُعْرَفُ أنفُه، فجاءَ بنو تَيْم فأجلوا المشركين عن أبي بكرٍ، وحملوه في ثوبٍ إلى أنْ أدخلوه منزلَه، وهُمْ لا يشُكُّونَ في موتِه، ثم رَجَعُوا فدخَلُوا المسْجِد، فقالوا: والله لَئِنْ مَاتَ أَبو بكرٍ لنَقْتُلَنَّ عُتْبَةَ، ثم رجعوا إلى أبي بكرٍ فجعلوا يكلّمُونَه وهو لا يجيبُ، حتّى إذا كان آخرُ النهار تكلم، فقال: ما فعلَ رَسُوْلُ الله ﷺ؟، فَعَذَلُوهُ، فصارَ يكرّرُ ذلك، فَقَالَتْ أمُّه: والله ما لي عِلمٌ بصاحبِك، فقال: اذهبي إلى أمّ جميل بنتِ الخطاب، فأسأليها عنه، فخرَجَت إليها، وقالت لها: إن أبا بكر يسألُ عن محمد، فَقَالَتْ: لا أعْرِفُ مُحَمَّدًا ولا أبا بكرٍ، وكانت قد أسلمت ولكنها تخفي إسلامها خوفاً، ثم قالت لها: أتريدين أنْ أخرج مَعَكَ؟، قالت: نعم، فجاءَت أبا بكرٍ فوجدته صريعاً، فصَاحَتْ، وقالت: إنّ قوماً نالوا هذا منك لأهْلُ فِسْق، وإني لأرجُو أنْ يَنْتَقِمَ الله منهم، فقال لها أبو بكر: ما فعلَ رَسُوْلُ الله ﷺ؟، فَقَالَتْ: هذِه أمّكَ تَسْمَعُ. فقال: لا عَينَ عليكِ منها، إنَّها لا تُفْشِي سِرَّك، فَقَالَتْ: هو سَالمٌ، قال: أينَ هو؟، فَقَالَتْ: في دارِ الأرقم، فقال: والله لا أذوق طعاماً ولا أَشرَبُ شراباً حتى آتي رَسُوْلَ الله ﷺ، قالت أمه: فأمهلناه حتى إذا هدأتِ الرِّجَالُ وسَكنَ الناسُ خرجنا به يتكئُ عليَّ حتّى دخلَ على رَسُوْلِ الله ﷺ، فرَقَّ له رِقَّةً شديدةً، وأكبَّ عليه يقبِّلُه، وأَكَبَّ عليه المسلمونَ كذلك، فقال: بأبي وأمي أنتَ يا رَسُوْلَ الله، ما بي مِن بأسٍ إلّا ما

نال النّاسُ من وجهي، وهذه أمي بَرَّةٌ بِوَلَدِهَا، فعَسَى الله أن ينقذهَا بكَ مِن النار، فدعا لي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم دَعَاهَا للإسلام فأَسْلَمَتْ.

ووقع لابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ من الأذية أنَّ أصحابَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمعوا يومًا، فقالوا: والله ما سَمِعَتْ قُرَيْشٌ القرآنَ جهراً إلّا مِنْ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمَن فيكم يُسْمِعُهُم القرآنَ جَهْرًا؟ فقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: أنا، فقالوا: نخشى عليك منهم، إنّما نريدُ رَجُلاً له عَشِيرةٌ يمنعونَهُ من القَوم، فقال: دعوني فإنّ الله سيمنعني منهم. ثم إنه قام عند المقام وقتَ الشّمسِ وقُرَيْشٌ في أنْدِيَتِهم، فقرأ من أوَّلِ سُورة الرّحمن واستمرَّ فيها، فتأمَّلَتْهُ قُرَيْشٌ فقالوا: ما بَالُ ابنُ أمِّ عَبْدٍ؟، قال بعضُهم: يتلو بعضَ ما جاءَ به محمّدٌ، ثمّ قاموا إليه يضربون وجهه، وهو مستمر في قراءَته حتى قرأ غالبَ السّورة، ثم انصرفَ إلى أصحابِه وقد أَدْمَتْ قُرَيْشٌ وجْهَهُ، فقال له أصحابه: هذا الذي خَشينا عليكَ منه فقال: والله ما رَأيتُ أعداءَ الله أهْوَنَ عليَّ مثل اليوم ولو شِئْتُم لأَتَيتُهم غداً.

ومما وقع له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأذِيَّة أنَّ أبا جهلٍ مرَّ به عند الصّفا، فآذاهُ وشتمه ونالَ منه ما يكرهه، فلمْ يكلمْهُ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَولاةٌ لعبدِ الله بن جُدْعَان في سكن لها تسمعُ ذلك وتُبْصِرُه، ثمّ انصرفَ أبو جهل إلى نَادِي قُرَيْش فجلسَ معهم، فلم يلبثْ حمزَةُ أنْ أقبلَ مُتَوَشِّحًا سيفَه راجعاً من الصّيد، وكان من عادته إذا رجع من قنصِه لا يدخلُ إلى أهله إلا بعد أن يطوف بالبيت، فمَرَّ على تلك المَوْلَاة، فَقَالَتْ له: يا أبا عُمَارة، لو رأيتَ ما لقيَ ابنُ أخيك آنفًا من أبي الحكم بن هشام، وجدَه هَهُنا جالساً فآذاه، وسَبّه وبلغَ منه ما يكرَه، فاحتملَ

حمزةَ الغضَبُ ودخل المسجد، فرأى أبا جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوَه حتى قام على رأسه، ثم رفع القوس وضربه فشجَّه شجَّةً منكرة، ثم قال: أتشتُمُه وأنا على دينِه أقول ما يقول؟، فَرُدَّ عليَّ ذلك إنِ استطعت، فصارَ أبو جهل يتَضرّعُ إليه، ويقول: سفَّه عقولَنا وسَبَّ آلهتنا، وخَالفَ آباءَنا. فقال حمزَة: ومَنْ أسْفَهُ مِنكُم؟ تعبدون الحجارة من دونِ الله، أَشهَدُ أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أن مُحَمَّدًا رَسُوْل الله. فقام رجالٌ من بني مخزوم إلى حمزةَ لينصرُوا أبا جهل، وقالوا: ما نَرَاك إلا قد صَبَأتَ، فقال حمزةُ: وما يمنعني وقد استبَان لي منه، أنا أشهد أنه رَسُوْلُ الله وأنّ الذي يقوله حَقّ، والله لا أَنْزِعُ فامنعوني إن كنتم صادقين، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإنّي والله لقَدْ أسمَعْتُ ابنَ أخيه شيئاً قبيحاً.

واستمرَّ حمزةُ على إسلامِه، وغدا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي إني قد وقعتُ في أمرٍ لا أعرفُ المخرجَ منه، وإقامَة مثلي على ما لا أَدْرِي أَرُشْدٌ هوَ أمْ غيٌّ شديدٌ؟، فأقبل عليه رَسُوْلُ الله ﷺ، فذَكَّرَهُ ووَعَظَهُ وخوَّفه وبَشَّرَه، فألقى الله تعالى في قلبه الإيمان بما قاله رَسُوْلُ الله ﷺ، فقال: أشهد إنّك لصَادق، فأظهر يا ابنَ أخي دينَك، وسُرَّ رَسُوْلُ الله ﷺ بإسلام حمْزَة سروراً كبيراً؛ لأنه كان أعزَّ فتى في قُرَيْش، وكان أعظمَهم في عِزَّةِ النّفسِ وشَهَامَتِها.

ولما عرفت قُرَيْش بأنّ رَسُوْلَ الله ﷺ قد عَزَّ كَفُّوا عَن بَعضِ مَا كانوا ينالونَ منه ﷺ، وأقبلوا على بعضِ أصحابه بالأذيّة، سيما المستضعفين منهم، الذين لا ناصر لهم، وغدت كلّ قبيلةٍ على مَن أسلم منها، تفتنه عن دينه

بالحبْس والـضرب ، والجوع والعطش ، حتى أنّ الواحدَ منهم ما يقدر أن يستوي جالساً من شدّة الـضرب الذي به ، وكان أبو جهل يحرِّضُهم على ذلك ، وكان إذا سمعَ بأنّ رَجُلاً أسلمَ وله شرف ومنعة جاء إليه وَوَبَّخَه ، وقال له: ليُغْلَبنَّ رأيك وليَضْعُفنَّ شرَفُك ، وإن كان تاجراً قال له: والله لتَكْسَدَنَّ تِجَارَتُك وَيَهْلِكَ مَالُك ، وإن كان ضعيفاً أَغْرَى به ، حتى أن منهم من فُتِنَ عن دينِه ورجعَ إلى الشّركِ ، كالحارث بن ربيعة بن الأسود ، وأبي قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلي بن أمية بن خلف ، والعاص بن مُنَبِّهِ بن الحَجَّاج ، وكل هؤلاء قتلوا على كفرهم يوم بَدْرٍ.

وممّن فُتِنَ عَن دينه فثبتَ عليه بلالٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ، وكان مملوكاً لأميّة بن خَلَف ، فكان يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصبيان يلعبون به ويطوفون به في شعاب مَكَّةَ ، وهو يقول: "أَحَدٌ ، أَحَدٌ" ، إشارة منه لعدم الإشراك حتّى أثر الحبل في عُنُقِه. وكان أميّة بن خلف يخرجُ بلالاً إذا حَمِيَتِ الظَّهِيرةُ بعد أَنْ يُجِيعَه ويُعْطِشَه يوماً وليلةً فيطرَحُه على ظهرِه في الرَّمْل إذا اشتدت حرارته ، بحيث لو وضعت عليه قطعة لحم لَنَضِجَت ، ثم يأمُرُ بالصّخرة العظيمة فتوضع على صَدره ، ثم يقول له: لا تزال هكذا ، حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللّات والعزى ، فيقول: "أَحَدٌ ، أَحَدٌ" ، أنا لا أشرك بالله شيئا ، أنا كافرٌ باللّات والعزّى.

وقيل: كان بلالٌ لعبدِ الله بن جُدْعَان التيمي ، وكان من جملة مائة مملوك مُوَلّدة له ، فلما بعثَ الله تعالى نبيه ﷺ أمر بهم فأخرجوا من مَكَّةَ خوفَ إسلامِهم ، إلا بلالاً فإنه كان يرعى غَنَمَه ، فأسلمَ بلالٌ وكتمَ إسلامَه ، فَسَلحَ بلالٌ يوماً على الأَصْنَام التي حول الكعبة ، وصارَ يبصُقُ عليها ويقولُ: خابَ وخَسِرَ

مَن عَبَدَكنَّ ، فشَعُرَتْ به قُرَيْشٌ فشَكوهُ إلى ابنِ جُدْعَان ، وقالوا له: أَصَبَأتَ؟ ، فقال: أَمثلي يُقَالُ له هذا؟ ، فقالوا له: إنَّ أسْوَدَك صَنعَ كذا وكذا ، فأعطاهم مائةً مِن الإبل ينْحَرونَها للأصنام ، ومَكّنهُم مِن تَعذِيبِ بِلَالٍ ، ولعَلّهُ مَلّكَهُ لأميّةَ بنِ خَلَف ، فكان أميّةُ يَتَوَلّى تعذِيبَه ، فكَان بلالٌ بقوله: "أَحَدٌ أَحَدٌ" يمزج مرارةَ العذاب بحلاوةِ الإيمان. ومرَّ به أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وهو مُلقىً على ظهره في الرَّمْضَاء ، وعلى ظهره صَخْرَةٌ ، فقال لأميّة: ألا تتقي الله في هذا المسكين حتّى مَتَى تعذّبه؟ ، قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ، فقال أبو بكر: عندي غلامٌ أسَوَدُ أجلَدُ منه وأقوى على دينِك ، أعطيكه به؟ ، قال: قبلت ، فقال: هو لك ، فأعطاه أبو بكر غلامَه ذلك ، وأخذ بلالاً فأعتقه.

وقد اشترى أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ جماعةً آخرين ممّن كانوا يعذّبون في الله ، منهم: حَمَامَةُ أمّ بلال ، وعامرُ بنُ فُهَيْرَةَ ، فإنه كان يعذب في الله تعالى حتى لا يدري ما يقول ، ومنهم أبو فكِيهَةَ كان عبداً لصفوان بن أمية ، أسلم حين أسلم بلال ، فمَرّ به أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وقد أخذَه أميّةُ أبو صفوان ، وأخرجه نصف النهار ، في شدَّةِ الحرّ مقيداً إلى الرمضاء ، فوضع على بطنه صخرةً ، فخرجَ منها لِسَانُه ، وأخو أميّة يقول له: زِدْهُ عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسِحْرِه. فاشتراه أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ، ومنهم: زِنِّيرَةُ وهي امرأةٌ عُذِّبت في الله حتى عَمِيَت ، فقال لها أبو جهل: إنّ اللّات والعُزّى فعلا بك ما ترين ، فَقَالَتْ له: كلّا والله لا تملك اللّات والعُزّى نفعاً ولا ضَرًّا ، هذا أمرٌ من السماء ، ورَبي قادر على أَنْ يَرُدَّ عليَّ بصري ، فأصبحَتْ تلك الليلة وقد رَدَّ الله تعالى عليها بصرَها ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: إنَّ هذا مِن سِحْرِ مُحَمَّدٍ. فاشتراها أبو بكر

رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وأعتقها، وكذا ابنتها أمّ عُنَيس أمَة لبني زهرة، وكان الأسودُ بن عبد يغوث يعذّبها، فاشتراها أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وأعتقها، وكذا النّهْدِيّةُ وابنتها، وكانتا للوليد بن المغيرة، وكذا امرأةٌ يُقَالُ لها: لَطِيفَةُ، وأختُ عامر بن فُهَيْرَةَ، وكانت لِعُمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، وكان يعذّبُها قبل أَنْ يُسْلِمَ.

ومن فُتِنَ عن دينه فثبتَ عليه: خَبَّابُ بنُ الأَرتِّ رضي الله عنه، فإنَّه سُبِيَ في الجاهلية، فاشترته أمُّ أَنْمارٍ وكان حَدّادًا، وكان رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم يَألفُه ويأتِيه، فلمّا أسْلمَ وأُخْبِرَت بذلك مَوْلاَتُه صَارتْ تَأخُذ الحدِيدَةَ وقدْ أَحمتْهَا بالنّار فتَضعُها على رأسِه، فشكا ذلكَ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: «اللَّهُمَّ انْصُرْ خَبَّابًا»، فاشتكت مولاتُه رأسَها فكَانت تعْوِي كالكِلَاب، فَقِيْلَ لها: اكتَوِي، فكَان خبابُ يأخذ الحديدةَ وقد أحماها فيَكْوِي رَأْسَها.

وعن خَبّاب بنِ الأَرتِّ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وَهُوَ متَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ في ظلِّ الكَعْبَةِ، وقد لقينا من المشركين شِدّة شديدة، فقُلْتُ: ألا تَدْعُو لَنا؟، فَقَالَ: «قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نصفَينِ، وَيُمْشَطُ بأمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمُوتَ لا يَخَافُ إلا اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ»[1].

ومن فُتِنَ عن دينه فثبتَ: عمار بن ياسر رضي الله عنه، كان يعذب بالنار، وكان صلى الله عليه وسلم يمرُّ به وهو يعذب بالنار فيمر يده على رأسه، ويقول: «يَا نَارُ كُونِي

(١) أخرجه أبو نعيم في أخبار أصبهان (٢/٢٩٧). وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/٤٤).

بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى عَمَّارٍ كَمَا كُنْتِ عَلَى إِبْرَاهِيْم». وعن أم هانئ أنّ عمارَ بن ياسر وأباه ياسرًا وأخاه عبد الله، وسمية أمّ عمار رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُم كانوا يعذبون في الله تعالى، فمرَّ بهم رَسُوْلُ الله ﷺ فقال: «صَبْراً آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الجَنَّة»، فمات ياسر في العذاب، وأما سمية فطعنها أبو جهل في قُبُلِها حتى قتلها، وقال لها: إنْ آمنتِ بمحمد إلا لأنك عشقتيه لجماله. فهيَ أوّلُ شهيدةٍ في الإسلام، وكان أبو جهل يجعل لعمار درعًا من حَديدٍ في اليَوم الصَّائفِ، ونزل قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]. وجاءَ أن عمارَ بن ياسر قال لرَسُوْلِ الله ﷺ: لقد بلغ منّا العَذَابُ كلَّ مبلغ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «صَبْراً أَبَا اليَقْظَان، اللَّهُمَّ لَا تُعَذِّبْ أَحَداً مِن آلِ عَمَّارٍ بِالنَّارِ».

بَابُ
عَرض قريش عَلَيهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكَف عَنِ الدَّعْوَةِ ومَا رَأَوهُ مِنْهُ مِن الخَوَارِق

رُوِيَ أَنَّ نَفَراً من أَشْرَافِ قُرَيْش اجْتَمَعُوا، فقالوا: انظروا أعلمَكُم بالسِّحرِ والكَهانة والشعر، فَلْيَأتِ هذا الرَجُل الذي فرَّقَ جماعتنا، وشتّتَ أمرنا وعابَ ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يريد، فقالوا: لا نعلم أحَداً غير عتبة بن ربيعة، فقام عتبة فَجَلَسَ إِلَى رَسُوْلِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسَب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقْتَ به جماعَتَهم وسَفَّهْتَ به أحلامَهُم، وعِبْتَ به آلهتَهُم، وكَفَّرْتَ بهِ مَنْ مَضى من آبائهم، أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟، إنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ خيرٌ منك فقد عبدوا الآلهة التي عِبْتَ، وإنْ كُنتَ تزعمُ أنك خيرٌ منهم فقل يسمع لقولك، فقد فضَحْتَنا في العَرَبِ، وطَارَ فيهم أَنَّ في قُرَيْشٍ سَاحِراً، وأنّ في قُرَيْش كَاهِنًا، ما تريد إلا أنْ يقومَ بعضُنا لبعضٍ بالسُّيُوفِ حَتّى نَتَفَانَى، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُلْ يَا أَبَا الوَلِيدِ أَسْمَعُ»، فقال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنَا من أموالنا، حتى تكونَ أكثرنا مالًا، وإنْ كُنْتَ تُرِيدُ شرفًا سَوَّدْنَاك علينا، ولا نقطع أمرًا دونك، وإن كُنْتَ تُرِيدُ مُلكًا مَلّكْنَاك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْيًا من الجن تَرَاهُ ولا تستطيع ردَّهُ عن

نفسِكَ طلبنا لك الطبَّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئَكَ منه.

فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ»؟ قال: نعم، فقال: «فَاسْمَعْ مِنِّي» ثُمّ قرأ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٤]، ومضى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القراءة عليه، وقد أنصت عُتْبَةُ لها وألقى يَدَيهِ خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فأمسك عتبة عَلى فَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونَاشَدَهُ بالله والرَّحِمِ أنْ يَكُفَّ عن ذلك، فقال له: «قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ، فَأَنْتَ وَذَاكَ».

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟، قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعتُ مثلَه قطُّ، والله ما هو بالشّعر ولا بالسّحر ولا بالكهانة، يا معشر قُرَيْش أَطِيعُوني، وخَلُّوا بينَ هذا الرَجُل وبَينَ مَا هُوَ فيه فاعتزلوه، فو الله ليَكُونَنَّ لقولِه الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يَظهر على العرب فمُلكُه ملككم وعِزُّه عِزُّكم، وكنتم أسعد الناس به، فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بَدا لكم، فقالوا: فما قال لك؟ قال: والذي نصب الكعبة ما فهمت شيئا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل عاد وثمود، فأمسكت بفيه فأنَشَدتُّه الرَّحِم أنْ يَكُفَّ، وعلمت أنَّ مُحَمَّدًا إذا قال لم يكذِبْ فخفتُ أن ينزلَ عليكم العَذَابُ، فقالوا: ويلك يُكَلِّمُكَ بالعربية لا تدري ما قال!.

ورُوِيَ أنّ الوليدَ بنَ المغيرةِ أتى منزلَ أبي طالب ومعه أربعون رَجُلًا من سادات قريش وسألوه أن يحضر لهم رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن يَأمرَه أن يجيبَهُم إلى أمرٍ فيه الألفة، فلمَّا دُعِيَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءَهم مسرعًا طمعًا في هدايتهم، فجلسَ إليهم وعرضُوا عليه الأموالَ والشرّفَ والمُلْكَ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا جِئْتُ بِمَا جِئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ، وَلَا الشَّرَفَ فِيكُمْ، وَلَا المُلْكَ عَلَيكُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيكُمْ رَسُوْلاً، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَاباً، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيراً وَنَذِيراً، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسالَاتِ رَبِّي، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، وَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَينِي وَبَيْنَكُمْ».

ورُوِيَ أنهم قالوا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارجع إلى دينِنا، واعبدْ آلهتَنا، واتركْ ما أنت عليه ونحنُ نتكفّل لك بكلّ ما تحتاجُ إليه، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلةً لك فيها صلاح، قال: «وَمَا هِيَ»؟، قالوا: تعبد آلهتنا اللّات والعُزَّى سنة ونعبد إلهك سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبده خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا منه بحظّنا، وإن كان ما نعبدُ خيراً مما تعبد كنت أخذتَ منه بحظّك. فنزلَ قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٣] إلى آخر السورة. وقولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، فقالَ لهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ القُرْآنَ لِمَا كَرِهْتُمُوهُ»، فقالوا: ائت بقرآنٍ غيرِ هذا أو بَدِّلْهُ.

وعن ابن عباس: أنّ المشركين اجتمعوا بمِنَى إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، وفيهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، فقالوا: إن كنت صادقا فشق لنا القمر فرقتين، وكانت ليلة أربعة عشر، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنْ فَعَلْتُ أَتُؤْمِنُوا»؟ قالوا: نعم، فسأل رَسُوْلُ الله ﷺ ربَّه أنْ يعطيَه ما سَألوا، فانشقَّ القمرُ، نصفاً فوق جبل أبي قبيس، ونصفاً دونه، فقالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «اشْهَدُوا اشْهَدُوا»، فقال كفار قُرَيْش عند ذلك: سَحرَكم ابنُ أبي كَبْشَة. فقال رَجُل منهم: إنْ كانَ مُحَمَّدٌ سَحرَنا فإنّه لا يبلغُ سِحرُه أنْ يسحرَ أهلَ الأرض كلّهم، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر، هل رأوا هذا؟، فسألوا المسافرين الذين قَدِمَوا عليهم من أهل الآفاق، فأخبروهم أنهم رأوه منشقا، فقالوا عند ذلك: هذا سحر مُسْتَمِر، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ ـ ٢].

وانشقاقُ القمر نُقِلَ نقْلاً مُسْتَفِيضاً يُفِيدُ القطع به، ولا يخفى أنه لم يختص برؤية القمر منشقا أهل مَكَّةَ، بل جميع أهل الآفاق، وعدمُ اشتراك أهل الأرضِ كلهم في رؤيته لأنه انشقّ في جنح الليل ومعظم الناس نيام، فإن قُرَيشاً ائتمروا فيما بينهم، واتفقوا على أن يقترحوا على رَسُوْلِ الله ﷺ أن يريهم انشقاق القمر الذي هو بعيد وفي غَاية الامتناع.

ومما سألوه ﷺ من الآيات أنهم قالوا له: سَلْ ربَّكَ يُسَيِّر عنّا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، ويَبسُط لنا بلادَنا، وليَخرِقْ فيها أنهاراً كأنهارِ الشَّام والعِرَاق، وليبعث لنا مَن مَضى من آبائِنا، وليَكُنْ فيمَن يُبْعَثُ لنا قُصَيُّ بنُ كلاب،

فإنه كان شيخَ صِدْق، فنسأله عما تقول، أحق هو أم باطل؟، فإن صَدَّقُوك، وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك إلينا رَسُوْلا كما تقول، فقال لهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بِهَذَا بُعِثتُ لَكُمْ، إِنَّمَا جِئْتُكُمْ مِنَ الله بِمَا بَعَثَنِي بِهِ».

ومما قالوا له: سَلْ ربَّك يبعث مَعَكَ مَلَكًا يصدقك فيما تقول ويراجعنا عنك، وقالوا له: لِمَ لا تنزّل علينا الملائكة، فتخبرنا بأنّ الله أرسلك، أو نرى ربنا فيخبرنا بأنه أرسلك، فنؤمن حينئذ بك. وقال له بعضهم: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا، واسأله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه. وقالوا: إن مُحَمَّدًا يأكل الطعام كما نحن نأكل، ويمشي في الأسواق، ويلتمس المعاش كما نلتمس نحن، فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة. فقال لهم رَسُوْل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَنَا بِالذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا»، وأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

وجعلوا يقولون له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الله أعظمُ مِن أنْ يكونَ رَسُوْلُه بشراً منّا، فأسقطِ السّماء علينا كِسَفاً كما زعمتَ أنَّ ربك إن شاء فعل، وقد بلغنا أنك إنما يعلمُك رَجُلٌ باليمامة يُقَالُ له: الرَّحْمَن، وإنا والله لنْ نؤمن بالرَّحمَن أبدا. يعنون بالرحمن مسيلمة، وقيل عنوا كاهنًا كان لليهود باليمامة، وعند ذلك قامَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزينًا آسفاً على ما فاته من هدايتهم التي طمع فيها، وقال له بعضُهم: يا محمّدُ قد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل، ثم سألوك أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل بعض ما

تخوّفُهم به من العذاب فلم تفعل، والله لن نؤمن بك أبدًا حتى تَتَّخِذَ إلى السماء سُلّمًا، ثمّ ترْقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ثم تأتي مَعَكَ بِصَكٍّ مَعَهُ أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول، وايمُ الله إنك لو فعلت ذلك، ما ظننت أني أصَدّقُك!.

وقد أنزل الله تعالى عليه ﷺ آيات في سورة الإِسْرَاء فيها شرح هذه المقالات، وفيها الإشارة إلى أنه تعالى خيره بين أن يعطيه جميع ما سَألوا، وأنهم إن كفروا بعد ذلك استأصلهم بالعذاب كالأمم السابقة، أو أن يفتح لهم باب الرحمة والتوبة يتوبون ويرجعون، فاختارَ ﷺ الثاني؛ لأنه يعلم منهم العِنادَ، وأنهم لا يؤمنون، وإن حصلَ ما سألوا فسَيُسْتَأصَلوا بالعذاب. وقد جاء أنهم أقسموا للنبيِّ ﷺ بالله أنهم يؤمنون به إذا صارَ الصَّفا ذهبًا، فقام يدعو الله تعالى أن يعطيهم ما سألوه فأتاه جبريل فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: «إِنْ شِئْتَ أَنْ يُصْبِحَ لَهُمْ الصَّفَا ذَهَباً، فَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا أَنْزَلْتُ عَلَيهِمُ العَذَابَ، عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ لَا تَصِيرَ ذَهَباً وَأَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ الرَّحْمَةِ وَالتَّوبَةِ»، فقال: «لَا بَلْ أَنْ تَفْتَحَ لَهُمْ بَابَ الرَّحْمَةِ وَالتَّوبَةِ» وذلك لأنهم لم يسألوا ما سألوا من تلك الآيات إلا تَعَنُّتا واسْتِهْزَاءً، لا على جهة الاسترشاد ودفع الشك، فقد قال الوليد بن المغيرة: أينزلُ القرآنُ على محمد، وأُتْرَكُ أنا وأنا كبير قُرَيْش وسيدها، ويترك أبو مَسْعُود الثقفي سيد ثقيف ونحنُ عُظَمَاءُ القريتين، يعني مَكَّةَ والطائف؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣١ ـ ٣٢].

وجاء أنّ كفارَ قُرَيْش بعثوا النضرَ بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود المَدِيْنَة وقالوا لهما: إسألاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا، فخرجا، حتى قَدِمَا المَدِيْنَة فقالا لهم: أتيناكم لأمر حدَث فينا، منّا غلام يتيم يقولُ قولاً عظيماً، يزعمُ أنه رَسُوْلُ الرَّحمَن، قالوا: صِفُوا لنَا صِفَتَه، فوَصَفُوه، قالوا: فمَن يَتّبعُه منكم؟، قالوا: سَفَلَتُنا، فقالوا: هذا النَّبِيُّ الذي نجدُ نعتَه ونجدُ قومَه أَشَدَّ النَّاسِ له عداوة، فَسَلوهُ عن ثلاثٍ، فإنْ أخبركم بهن فهو نبيٌّ مُرْسَل، وإنْ لم يفعلْ فالرَّجُل مُتَقَوِّلٌ، سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدّهر الأوّل، ما كان مِن أمرِهم؟، وسلوه عن رَجُلٍ طَوَّافٍ قد بلغَ مَشَارِقَ الأرض ومغاربَها، ما كان نَبَؤُه؟ وسلوه عن الرُّوحِ ما هيَ؟، فإذا أخبركم بحقِيقَةِ الأوَّلَين، وبِأنَّ الثالثَ من أمرِ الله فاتبعوه فإنّه نبيٌّ، فرجعَ النَّضْرُ وعقبةُ إلى قُرَيْش وقالا لهم: قد جئناكم بفصْلِ مَا بينكم وبين محمد وأخبراهم الخبر، فجاؤوا إلى النَّبِيِّ ﷺ، وسألوه عن ذلك، فقال لهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أُخْبِرُكُمْ غداً»، ولم يَسْتَثْنِ، أي لم يقل: إن شاءَ الله تعالى، ثم انصرفوا، فمكثَ ﷺ خمسَ عشرةَ يوماً لا يأتيه الوحيُ، فقالوا: إنّ مُحَمَّدًا قَلَاهُ رَبُّه وتَرَكَهُ، وشقَّ ذلك عليه ﷺ، ثم جَاءَه جبريلُ بسورةِ الكَهف وفيها خبر الفتية الذين ذهبوا وهم أهل الكهف، وخبر الرَّجُلِ الطَّوَّاف وهو ذو القرنين، وأمرَهُ فيهَا أنْ يَسْتَثْنِي في فِعْلِه ويَأتي بالمشِيئَةِ، وجاءَه بالجواب عن الرّوح المذكور في سورة الإِسْرَاء، وهو أنّ الروح من أمرِ الله تعالى، ومع ذلك لمْ يُسْلِمُوا.

وبينا رَسُوْلُ الله ﷺ جالسٌ في المسجدِ ومعه بعضُ الصحابة إذا رَجُلٌ من زبيد يطوفُ على حلقِ قُرَيْش حلقةً بعد أخرى، ويقول: يا معشر قُرَيْش

كيف تدخلُ عليكم المارَّةُ أو يُجْلَبُ إليكم جَلَبٌ، أو يَحُلُّ بِسَاحَتِكم تَاجِرٌ وأنتم تظلمون من دَخَل حَرَمكم؟، حتى انتهى إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فقال له: «وَمَنْ ظَلَمَكَ»؟، فذكر له أنه قَدِمَ بثلاثة أجمَال هيَ خِيرَةُ إبلِهِ وأحسنها فسَامَه بِهَا أبو جهل بثُلثِ أثمانها، ثم لم يَسُمْهُ بها لأَجْلِهِ سَائِمٌ، قال: أَكْسَدَ عَليَّ سِلعَتِي فَظَلَمَنِي، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «وأيْنَ جِمَالُكَ»؟، قال: هيَ بالحَزْورَةِ، فقامَ رَسُوْلُ الله ﷺ وأصحابُه فنظروا الجِمَالَ فرَأى جِمَالاً حِسَاناً، فسَاوَمَ رَسُوْلُ الله ﷺ ذلكَ الرَّجُلَ حتّى رَضِيَ، وأبو جهل في ناحية من السُّوقِ لم يتكلّم، فأقبلَ إليه رَسُوْلُ الله ﷺ، فقال له: «إِيَّاكَ يَا عَمْرُو أَنْ تَعُودَ لِمِثْلِ مَا صَنَعْتَ بِهَذَا الرَّجُلِ فَتَرَى مِنِّي مَا تَكْرَهُ»، فجعل يقول: لا أعودُ يا محمّد لا أعودُ يا محمد، فانصرف رَسُوْلُ الله ﷺ، وأقبل القومُ على أبي جهل فقالوا له: ذَلَلتَ في يَدِ مُحمَّد، فإما أن تكونَ تُرِيد أن تتبعه، وإمّا رُعبٌ دَخلكَ منه، فقال لهم: لا أتبعه أبدًا، إني رأيتُ معه رجالًا عن يمينه وشماله معهم رِمَاحٌ يُشْرِعُونَها إليّ، لو خالفته لأتوا على نفسي.

وابْتَاعَ أبو جهل من شَخْصٍ يُقَالُ له: الإرَاشِيّ أَجْمَالًا فمَطَلَهُ بِأَثْمَانِهَا، فوَقفَ عَلى نَادِي قُرَيْشٍ فقال: يا معشر قُرَيْشٍ؛ مَن رَجُلٌ يعينني على أبي الحكم بن هشام، فإني غريبٌ وابنُ سبيل، وقد غلبني على حقّي، فدَلّتْهُ قُرَيْشٌ على النَّبِيِّ ﷺ لِيُنْصِفَه من أبي جَهْل اسْتِهْزَاءً منهم برَسُوْلِ الله ﷺ، لِعِلْمِهم أنّه لا قُدرَةَ لهُ عَليه، فجاءَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فقال له: إنَّ أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حقٍّ لي قِبَلَهُ، وأنا غَريبٌ وابنُ سَبِيل، وقد سألتُ هؤلاءِ القَوم عن رَجُلٍ يأخذُ لي بحقّي منه، فأشاروا إليك، فخُذْ حَقّي منه يرحمُك الله، فخرجَ النَّبيُّ ﷺ مع الرَّجُل إلى أبي جَهْل فضربَ بابَه، فقال: مَن

هذا؟، قال: مُحَمَّدٌ، فخرج إليه وقد انْتَقَعَ لونُه، فقال له: «أَعْطِ هَذَا حَقَّهُ»، قال: نعم؛ لا تبرح حتّى أعطيَه، فدفعَ إليه الذِي لَه، ثم إنَّ الرَّجُلَ أقبَلَ حتّى وقفَ على مجلس القوم، فقال: جزاه الله خيراً ـ يعني النَّبِيَّ ﷺ ـ فقد والله أخذَ لي بحَقِّي، وكانوا قد أرسلوا رَجُلاً ممن كان معهم خَلفَ النَّبِيِّ ﷺ، وقالوا له انظر ماذا يصنع، فقالوا للرَّجُل: ماذا رأيت؟، قال: رأيت عجباً، والله ما هو إلا أنْ ضربَ عليه بابه فخرج إليه وما مَعَه رُوحُهُ فزعاً فقال له: «أَعْطِ هَذَا حَقَّهُ»، فقال: نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إليه، فعند ذلك قالوا لأبي جهل: ويلك ما رأينا مثلَ ما صنعت، قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب بابي وسمعت صوته، فَمُلِئْتُ رُعْباً، ثم خرجتُ إليه وإنّ فوقَ رأسِه فَحْلاً ما رأيت مثله، لو أبيتُ أو تأخّرْتُ لأكلني.

وكانَ مِن أكثر المُستهزئين به ﷺ أبو جهل، وأبو لهب، وعقبة بن أبي معيط، والحكم بن العاص بن أمية، والعاص بن وائل، وكان من استهزاءِ أبي لهب أنه كان يطرَحُ القذر على بابِ رَسُوْلِ الله ﷺ فمرَّ يوماً بالقَذَرِ فرآه حمزةُ رضي الله عنه قد فعلَ ذلك، فأخذَه وطرحَه على رأسِه، فجعل أبو لهب ينفضُ رأسَه ويقول: صَابئٌ أحمَقٌ. وكان من استهزاءِ عقبةَ بن أبي معيط أنه كان يُلْقِي القذرَ أيضاً على بابه ﷺ وبصقَ في وجْهِ النَّبِيِّ ﷺ مَرّةً فعادَ بُصَاقُه على وجهِه وصَار أبْرَصَ.

ومن استهزاءِ الحكم بن العاص أنه ﷺ كان يمشي ذات يوم وهو خلفه يخْلِجُ بفمِه وأنفِه ـ أي يحرِّكُهما ـ، يَسْخَرُ بالنَّبِيِّ ﷺ، فالتفتَ إليه ﷺ فقال له: «كُنْ كَذَلِكَ فَكَانَ كَذَلِك»، فاسْتَمَرَّ الحكَمُ يَخْلِجُ بأنْفِه وفَمِه

حتّى مات، أسلم يوم فَتْحِ مَكّةَ وكان في إسلامه شَيءٌ، واستأذنَ مرّةً على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعرفَ صَوته، فقال: «ائْذَنُوا لَهُ، لَعَنَهُ الله وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِهِ إِلَّا المُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، ذَوُو مَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ، يُعْطَونَ الدُّنْيَا وَمَا لَهُمْ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ»، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْلٌ لِأُمَّتِي ممَّا فِي صُلْبِ هَذَا»، واطلّع مرّةً على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بابِ بيته، وهو عندَ بعضِ نِسَائِه بالمَدِيْنَةِ، فخَرَجَ إليهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعَنَزَةِ، وقال: «مَن عَذِيرِي مِنْ هَذِهِ الوَزَغَةِ، لَوْ أَدْرَكْتُهُ لَفَقَأْتُ عَيْنَه»، وَلَعَنه ومَا وَلَد، وغَرَّبَهُ عنِ المَدِيْنَةِ إلى الطّائف، وبقيَ بها حتّى وليَ عُثْمانُ رضي الله عنه الخلافَةَ، فَدخَلَ المَدِيْنَة، فَنَقِمَ الصَّحابةُ على عثمانَ بسَببِ ذلك، فقال: كُنتُ شَفَعْتُ فيه إِلَى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوعَدني بِرَدِّهِ.

وكان من استهزاءِ العاص بن وائل أنه كان يقول: غَرَّ محمدٌ نفسَه وأصحابَه أنْ وعَدَهم أن يحيوا بعد الموت، ما يهلكنا إلا الدّهرُ ومرُورُ الأيام والأحداث. ومن استهزائه: أن خَبّابَ ابن الأرت رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ كان حدّاداً يعمل السيوف، فباع للعَاص سيوفاً فجاءَه يتقاضَى ثمنها، فقال له: أليسَ يزعمُ محمّدٌ أنّ في الجنة ما ابْتَغَى أهلُها مِن ذَهَبٍ أو فضة؟، قال خبّابٌ: بلى، قال: فأنظرني يا خَبَّاب حتى أرجعَ إلى تلك الدّار فأقضيَك حقّكَ هناك، والله لا تكونَنَّ أنتَ وصاحبُك آثرَ عند الله منّي، ولا أعظمَ حظًّا في ذلك.

وكان من المستهزئين: الحارثُ بنُ عَيْطَلَةَ، والأسودُ بنُ يَغُوث، والنّضرُ بن الحارث، والأسودُ بن عبد المطلب، والوليدُ بن المغيرة، فهلك غَالبهم قُبَيْلَ الهِجْرة بِضُروبٍ من البَلاء، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، وقد كان الوليدُ بنُ المغيرة من عظماء قُرَيْش، وكان في سَعةٍ من العَيشِ

ومُكْنَةٍ من السِّيَادة، كان يطعمُ الناسَ أيام منى حَيْسًا، وينهى أن توقد نارٌ لأجلِ طعام غير نَاره، وينفقُ على الحاج نفقةً واسعةً، وكانت الأعرَاب تثني عليه، وكانت له البساتين من مَكَّةَ إلى الطائف، فبإيذائه للنبيِّ ﷺ أصابته الجوَائحُ والآفاتُ في أموالِه حتى ذهبَتْ بأسرِها، ولم يبقَ له في أيَّام الحجِّ ذِكْرٌ، وكانَ المُقَدَّمُ في قُرَيْش فصَاحَةً، وكان يُقَالُ له: رَيحانَةُ قُرَيْش، والوحِيدُ في الشَّرَف والسُّؤْدَد والجاه والرِّيَاسة، فصارَ وحيداً في الكُفْرِ والخُبْثِ والعِنَاد.

واقتصرَ القاضي البيضاوي على ذكرِ خمسةٍ من المستهزئين لما يُرْوَى: أنّ جبريلَ أتى النَّبيَّ ﷺ وهو يطوفُ بالبيت وقال له: أُمِرْتُ أَنْ أَكْفِيَكَهُم، فلما مَرَّ الوليد بن المغيرة، قال له: يا محمد كيف تجد هذا؟، فقال: «بِئْسَ عَبْدٌ لله»، فَأَوْمَأَ إلى سَاق الوَليد، وقال: كُفِيْتَهُ، ثم مرَّ العاصُ بن وائل، فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟، قَالَ: «عَبْدَ سُوءٍ»، فَأَشَارَ إلى أخمُصِهِ، وقَالَ: كُفِيْتَهُ، ثم مرَّ الأسودُ بنُ المطّلِب، فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟، قَالَ: «عَبْدَ سُوءٍ» فَأَوْمَأَ إلى عينه، وقَالَ: كُفِيْتَهُ، ثم مرَّ الأسودُ بن عبد يَغُوث، فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟، قَالَ: «عَبْدَ سُوءٍ» فَأَوْمَأَ إلى رأسه، وقَالَ: كُفِيْتَهُ، ثم مرَّ الحارثُ بن عيطلة، فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟، قَالَ: «عَبْدَ سُوءٍ»، فَأَوْمَأَ إلى بطنه، وقَالَ: كُفِيْتَهُ.

فرُوِيَ أنّ الأسْوَدَ بن عبدِ يَغُوث خرجَ من عند أهلِه فأصابته السَّمُومُ فاسْوَدَّ وجهُه، فأتى أهلَه فلم يعرفوه، وأقفَلُوا دونَه البابَ، وسُلِّطَ عليه العَطشُ، فلا زالَ يشربُ الماء حتى انشقَّ بطنُه، وهذا لا يناسب كون جبريل أشار إلى رأسِه، والمناسب ما ذكره بعضُهم أنه امْتَخَضَ رَأسُه قَيْحاً، ثمَّ لم يزلْ يَضْرِبُ برأسِه

أصلَ شَجرةٍ حتّى ماتَ. وأمّا الحارثُ بن عيطلة فأكلَ حوتاً مُمَلّحاً فلم يزلْ يشربُ عليه الماء حتى انْقَدَّ بطنُه. وأما الأسود بن المطلب فخَرَجَ لِيَسْتَقْبِلَ ولدَه وقد قَدِمَ من الشَّام، وفي الطريق جلس في ظل شجرة، فَضَرَبَه جبريلُ بِغُصْنٍ فيه شَوك فَسَالَتْ حَدَقَتَاهُ فَعَمِيَ، وجَعلَ يَسْتَغِيثُ بغُلامِه، ويقول: هَا هُوَ ذَا طعَنَ بالشّوكِ في عيني، فَقَالَ لَهُ غُلَامُه: ما أرَى شَيئاً، وقيل أتى شجرةً فجعل ينطح رأسه بها حتى خرجت عيناهُ، وكان يقول: دَعَا عليَّ محمَّدُ بالعَمَى فاسْتُجِيبَ له. وأما الوليد بن المغيرة فمَرَّ بشخصٍ يَعْمَلُ النّبلَ، فتَعَلّقَ بثوبِه سَهمٌ فلم يَنْقَلِبْ لِيُنَحِّيهِ تَعَاظُمًا، فعَدا فأصابَ السَّهمُ عِرْقاً في سَاقِه فقطعَهُ فمَاتَ. وأما العَاصُ بنُ وَائِل، فدخَلتْ شَوكةٌ في أخْمُصِهِ فانْتَفَخَتْ رِجْلُهُ حتّى صارتْ كالرَّحَا ومات. وجاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما: أنّ هؤلاء الخمسة هلكوا في ليلة واحدة، فَعُلِمَ أنّهُم المرَادُون بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥].

والمستهزئون غيرُ منحصرين في هؤلاء بَل عُدَّ منهم مُنَبِّه ونَبِيْه ابنا الحَجَّاج، فقد كانا ممن يؤذي رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يلقيانه فيقولان له: أما وَجد الله من يبعثه غيرك؟، إنَّ هاهنا مَن هو أسنّ منك وأيسر، فإن كنت صادقا فأتنا بملك ليشهد لك ويكون مَعَكَ. وعُدَّ أبو جَهل وغيرُه منهم كما تَقَدَّم، ومن استهزاء أبي جهل أنه قالَ يومًا لقُرَيْش: يا معشر قُرَيْش يزعمُ محمَّدٌ أنّ جنودَ الله الذين يقذفونكم في النار، ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدَدًا، أفيعجز كلُّ مائةِ رَجُلٍ منكم عن واحد منهم؟. وكان في قُرَيْشٍ رَجُلٌ شَديدٌ قويُّ البَأسِ، بلغَ من شدته أنه كان يقف على جلدِ البقرة ويجَاذِبُه عشرةٌ لِيَنْزِعُوهُ من تحت قَدَمِه فيَتَمَزَّقُ الجلدُ ولا يَتَزَحْزَحُ عنه، فقال له: أنا أكفيك سبعة عشر،

واكفوني أنتم اثنين. ويُقَالُ: إنَّ هذا الرَّجُلَ دعَا النَّبيَّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المُصَارَعَةِ، وقَالَ له: يا محمَّدُ إن صرعتني آمنت بك، فصَرَعهُ النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِرَارًا فلم يُؤْمِنْ.

وكَانَ رَسُوْلُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جلسَ مجلسًا يُحَدِّثُ فيهِ قَومَهُ، ويحذِّرُهم ما أصَابَ مَن قبلَهم من الأمَمِ من نِقْمَةِ الله تعالى، خَلَفَهُ النّضرُ بن الحارث في مجْلِسِهِ ذلك ويقول لقُرَيْش: هَلمُّوا فإني والله يا معشرَ قُرَيْشٍ أحسَنُ حديثًا منه ما حديث محمد إلا أساطير الأولين ثم يحدثهم عن ملوك فارس، لأنه كان يَعْلَمُ أحاديثهم؛ لأنه ذهب إلى الحِيرَةِ واشترى منها أحاديثَ الأعاجم، ثم قَدِمَ بها مَكَّةَ فكَان يحدِّثُ بهَا، ويقول: هذه كأحَادِيثِ محمَّدٍ عَن عَادٍ وثمود. وكلما تلا عليهم رَسُوْلُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبأ الأوَّلين قال النضر بن الحارث ما حكاه الله عنه بقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، فأنزل الله تعالى تكذيبا له: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسْراء: ٨٨].

وجاءَ أنّ جماعةً من بني مخزوم، منهم أبو جهل، والوليد بن المغيرة، تواصوا على قتله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبينما النَّبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائمًا يصلّي، فسمعوا قراءته، فأرسلوا الوليدَ ليقتله، فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلي فيه، فجعل يسمع قراءته ولا يرَاه، فانصرفَ إليهم وأعلمهم بذلك فأتوه، فلما سمعوا قراءته قصدوا الصّوت، فإذا الصّوتُ من خلفهم، فذهبوا إليه فسمعوه من أمامهم، ولا زالوا كذلك حتى انصرفوا خائبين.

بَابُ
الهِجْرَةِ الأُولَى إِلَى أَرْضِ الحَبَشَة

لما رَأى رَسُوْلُ الله ﷺ ما نزلَ بالمسلمين من الأذى مع عَدم قُدرتِه على انقاذهم مما هم فيه، قال لهم: «تَفَرَّقُوا في الأَرْضِ، فإنّ الله تَعَالى سَيَجْمَعُكَم»، فقالوا: إلى أين نذهب؟، قال لهم: «أُخْرُجُوا إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلِكاً لَا يُظْلَمُ عِنْدَه أَحَدٌ»، فهاجر إليها نحو ثمانين، مخافةَ الفتنةِ، وفِرَارًا إلى الله تعالى بدينهم، فمنهم من هَاجرَ بأهلِه، ومنهم من هاجرَ بنفسِه، فممّن هاجرَ بأهله عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، هاجرَ ومعه زوجته رُقَيَّةُ بنتُ النَّبِيِّ ﷺ، وكانَ أوَّل خارج فقالَ ﷺ: «إِنَّ عُثْمَانَ لَأَوَّلُ مَنْ هَاجَرَ بأهلِهِ بَعْدَ لُوْطٍ»، وكان مع رقية أمّ أيمن حاضنته ﷺ.

وهاجر أبو سلمة ومعه زوجته أم سلمة، وعامر بن ربيعة هاجر ومعه امرأته لَيْلَى، وعنها رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا قالت: كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ مِن أشدِّ الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبتُ بعيري أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة إذا بعمر بن الخطاب، فقال لي: إلى أين يا أم عبد الله؟، فقُلْتُ: قد آذيتمونا في ديننا، نذهب حيثُ لا نُؤْذَى، فقال: صَحِبَكُم الله، ثم ذهبَ، فجاء زوجي عامر فأخبرته بما رأيت من رِقَّةِ عمر، فقال: أَتَرْجِينَ أنْ يُسْلِمَ عمرُ؟، والله لا يسلم حتى يُسْلِمَ حِمَارُ الخطّاب، استبعاداً لِمَا كانَ يَرَى من قسْوَتِه وشِدَّتِه

على أَهْلِ الإِسْلام. وممن هاجر أبو سَبْرَة، أخو أبي سلمة لأمه، هاجر ومعه امرأته أم كلثوم. وممن هاجر بنفسه عبد الرّحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وسهيل بن البيضاء، والزبير بن العوام، وعبد الله بن مسعود، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُم أجمعين.

فخرجوا سِرًّا مُتَسَلِّلِينَ، منهم الرّاكب ومنهم الماشي حتى انتهوا إلى البحر، فوَفَّقَ الله تعالى لهم سَفينتين للتُّجَّار، فحملوهم فيهما بنصْفِ دينار، وكان مخرجهم في رَجَب من السَّنةِ الخامسة من النبوة، فخرَجت قُرَيْش في آثارهم، حتّى جاؤوا إلى البحر، فلم يجدوا أحداً منهم، فلما وصَلوا إلى أرضِ الحبشة نزلوا بخير دارٍ عند خير جَار، فمكثوا في أرض الحبشة بقية رجب وشعبان إلى رمضان، فلمَّا كان شهر رمضان قرأَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المشركين سُورة النجم وقد أنزلت عليه في ذاك الوقت، فقرأها عليهم حتى بلغَ السَّجْدَةَ فسجدَ وسجدَ القومُ جميعاً، المسلمون والمشركون، فعجبَ المسلمون من سُجودِ المشركين معهم من غير إيمانٍ، وفشَا أمرُ تلك السّجدة في الناس، حتى بلغ أرض الحبشة أن أهل مَكَّةَ قد سجدوا وأسلموا، حتّى الوليد بن المغيرة، وسَعِيْد بن العاص، فقال المهاجرون بها: مَنْ بَقِيَ بمَكَّةَ إذا أَسْلَمَ هؤلاء؟، عشائرنا أحبُّ إلينا، فخرَجَ جماعةٌ منهم من أرض الحبشة راجعين إلى مَكَّةَ، وكانوا ثلاثةً وثلاثين رَجُلًا، منهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام وعثمان بن مظعون، وذلك في شوال، حتى إذا كانوا دونَ مَكَّةَ لقوا ركبًا فسألوهم عن قُرَيْش، فقال الرّكبُ: عادَ محمَّدٌ لشتم آلهتهم وعادوا له بالشَّرِّ، وتركناهم على ذلك، فائتَمَرَ القومُ في الرجوع إلى الحبشة، ثم قالوا: قد بلغنا مَكَّةَ ندخلُ فننظرُ ما فيه قُرَيْش ثم نرجع، فدخل بعضُهم مَكَّةَ بِجِوَارٍ، وبعضُهم مستخفيا، إلا عبد الله بن مسعود

فإنه رجع إلى أرض الحبشة، ولما دخَلُوا لقوا من المشركين أشدَّ مما عَهِدُوا من قبل.

وكان ممّن دخل بجوارٍ: عثمان بن مظعون، دخلَ في جوارِ الوليد بن المغيرة، فلما رَأى ما يُفْعَلُ بالمسلمينَ من الأذى قال: والله إنَّ غُدُوِّي ورَوَاحِي آمنًا بجِوَارِ رَجُلٍ مِن أَهْلِ الشِّرك وأصحابي يَلقَونَ من الأذى في الله ما لا يصيبني لنَقصٌ كبير، فمشى إلى الوليد، فقال: يا أبا عبد شمس؛ وفَتْ ذِمَّتُكَ، وقد رَددتُ إليك جوارك، قال له: يا ابن أخي لعَلّه آذاك أحَدٌ مِنَ قَومِي وأنتَ في ذمتي فأكفيك ذلك؟، قال: لا والله ما اعترض لي أحدٌ ولا آذاني، ولكِنْ أرضى بجِوَارِ الله ﷻ، وأريدُ أن لا أستجيرَ بغيره، قال: انطلق إلى المسجد فأرْدُدْ إليَّ جِوَارِي عَلانيةً كما أَجَرْتُكَ عَلَانِيَةً، فانطلقا حتى أتيا المسجد فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد عليَّ جِوَارِي، فقال عثمان: صَدَق، وقدْ وجَدتهُ وفيًّا كَرِيمَ الجِوَار، ولكِنّي لَا أَسْتَجِيرُ بِغَيرِ الله ﷻ، قد رَدَدت عليه جِوَارَه، فقالَ الوليد: أشهِدُكُم أنّي بَرِيءٌ مِن جِوَارِه إلّا أَنْ يَشَاء، وكانَ لَبيدُ بنُ رَبيعَةَ في مجلسِ قُرَيْش ينشدُهم قبلَ إسْلَامِه، فجَلسَ عثمانُ معَهُم، فقال لَبِيدُ: "ألَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا الله بَاطِلُ"، فقال عُثمان: صَدقتَ، فقال لبيدُ: "وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ"، فقال عثمان: كَذَبتَ، إنَّ نَعِيمَ الجنَّةِ لَا يَزُول، فقال لبيدُ: يا معشر قُرَيْش ما كان يُؤْذَى جَلِيسُكم، فمتى حَدثَ هَذَا فيكم؟! فقال رَجُلٌ من القَوم: إن هذا سَفِيهٌ، ومن سَفَاهَتِهِ فَارَق ديننا، فلا تَجِدَنَّ في نَفْسِكَ مِنْ قَولِه، فرَدَّ عليه عثمانُ، فقامَ ذلك الرَّجُلُ فَلطَمَ عَيْنَه والوليدُ بن المغيرة قريبٌ يَرَى مَا بَلغَ مِنْ عُثمانَ، فقال: أما وَالله يا بن أخِي كانت عينك عمّا أصابها لغنية، ولقد كُنتَ في ذِمّةٍ مَنِيعةٍ فخَرَجْتَ منها، وكُنْتَ عَنِ الذِي لَقِيتَ غَنيًّا، فقال عثمان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: بل كُنْتُ

إِلَى الذِي لَقِيتُ فقيرًا، والله إنَّ عيني الصَّحِيحَةَ لفقيرةٌ إلى مثل ما أصَاب أختها في الله ﷻ، ولي فيمَن هو أحبُّ إلي منكم أسْوَةٌ، وإني لفِي جِوَارِ مَنْ هوَ أعزُّ منك.

وَلما أُخْبِرَ عمرُ بن الخطاب أنّ أختَه أمَّ جميل أسْلمَت هيَ وزوجُها سَعِيْدُ بن زيد بن عمرو بن نفيل غَضِبَ، فجاء حتى قرعَ الباب، فَقِيْلَ: من بالباب؟ قال: ابن الخطاب، وكانوا جُلوسًا يقرؤُونَ صَحِيفةً معهم، فلما سمعوا صوته تبادروا، واستخفوا ونسوا الصَّحِيفةَ، فقامت أختُه ففتَحَتْ، فقَالَ لها: يا عدُوَّةَ نفسِها قد بلغني أنك قد صَبَأتِ وضربَها بشيءٍ كان في يدِهِ فسَالَ الدَّمُ، فلما رَأت الدَّمَ بكتْ، وقالت: يا ابن الخطاب ما كُنْتَ فاعِلًا فافعل، فقد أسلمتُ، فدخل وجَلسَ عَلى السّرير، فنظر فإذا بالصحيفة في ناحية من البيت، فقَالَ: ما هذا الكتاب؟ أعْطِنِيه، فَقَالَتْ: لا أعْطِيكَهُ حتى تغتسل، هذا لا يَمسّه إلا المطهّرُون، وأنت لسْتَ من أهله، فلما اغْتَسَلَ دفعَتْهَا له وقد طَمِعَتْ في إسْلامِه، فأخذها فقرَأ ما فيها من القُرآن، ثم قَالَ: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنّ مُحَمَّدًا رَسُوْلُ الله ﷺ، فخرجَ القوم يَتَبادَرُونَ بالتكْبيرِ اسْتِبْشَارًا بما سَمِعُوا منه، وحمدوا الله ﷻ، وقالوا: يا بن الخطاب أبشرْ فإنّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا، فقال: «اللَّهُمَّ أَعِزَّ الإِسْلَامَ بأحَبِّ هَذَين الرَّجُلَين إِلَيْكَ، بعُمَرَ بنِ الخطّابِ، أَوْ بِأبي جَهْلِ بنِ هِشَام»[1]، ولما عَرَفوا منه الصدق أخبروه بمكَانِ رَسُوْلِ الله ﷺ، وأنه في بيتٍ بأسفل الصّفا، ووصفوها له، وهي دار الأرقم، فخَرج إليها.

قال عمر بنُ الخطاب: فلما قرعتُ الباب، قِيلَ: مَن هَذا؟، قُلْتُ:

---

(١) رواه الترمذي في سننه [٥/٣٨٩]، في باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، برقم: (٣٦٨١).

ابنُ الخطاب، فمَا اجْتَرَأ أحدٌ أنْ يَفْتَحَ لي البابَ لما عَرَفُوه من شِدّتي على رَسُوْلِ الله ﷺ، ولم يَعْلَمُوا إسْلَامي، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «اِفْتَحُوا لَهُ، فَإنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيراً يَهْدِهِ»، ففَتَحُوا لي، وأخذ رَجُلان بعَضُدَيَّ، حتى دنَوتُ من النَّبِيِّ ﷺ، فقال: «أرْسِلُوهُ»، فأرْسَلُوني، فجَلَسْتُ بينَ يديهِ ﷺ، فأخَذَ بمَجَامِعِ قَمِيصِي، فجَذَبني إليه، وقال لي: «أَسْلِمْ يَا بْنَ الخَطَّاب»، ثم قال: «اللَّهُمَّ اهْدِهِ»، فقُلْتُ: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنك رَسُوْلُ الله، فكَبَّرَ المسلمونَ تكبيرةً سُمِعَت بِطَرَفِ مَكَّةَ.

قال عمر: فلما أسلمتُ أحببتُ أن يظهرَ إسلامي وأن يصيبني ما يصيبُ مَن أسْلَمَ من الضَّررِ والإِهَانة، فتذكرتُ أشدَّ أهل مَكَّةَ لرَسُوْلِ الله ﷺ عَدَاوةً حتى آتيه فأُخْبِرُهُ أني قد أسلمتُ، فذكرتُ خَالي أبا جهل، فجئت إليه فدققت عليه الباب، فقال: من؟ قُلْتُ: عمر، فخرجَ إليَّ، فقال: مرحباً وأهلاً يا بن أختي، ما جاءَ بك؟، قُلْتُ: جئت لأبشّرك ببشارة، قال: وما هيَ يا ابن أختي؟، فقُلْتُ: إني قد آمنت بالله وبرَسُوْلِهِ محمَّدٍ ﷺ وصدّقتُ ما جاءَ به، فأغلقَ البابَ في وجهي، وقال: قبّحَكَ الله وقبَّحَ ما جئتَ به، ثم جئت رَجُلاً آخرَ مِن عُظَمَاءِ قُرَيْش وأَعْلمتُه أني أسْلَمْتُ فلم يصبني منه شيء، فقال لي رَجُلٌ: أتُحِبُّ أنْ يُعْلَمَ إسْلامُكَ؟ قُلْتُ: نعم، قال: إذا جلس الناس في الحِجْرِ واجتمعوا، فائْتِ جَمِيلَ بنَ مَعْمَر فإنّهُ رَجُلٌ لا يكْتُمُ السِّرَّ فَقُلْ له فيما بينك وبينه: إني قد صَبَأْتُ، فدنوت منه وأخبرْتُه، فرفع الرَّجُلُ صَوتَه بأعْلَاه، فقال: ألا إنَّ عمرَ بنَ الخطّاب قد صَبَأ، فما زال الناس يضربوني وأضربُهم، فقام أبو جهل على الحِجْرِ فأشَارَ بِكُمِّهِ وقال: ألا إنّي أجَرْتُ ابنَ أخْتِي، فانكشَفَ الناسُ عني، وصِرْتُ لا أضْرَبُ، فقُلْتُ: ما هذا بشيءٍ حتى يُصِيبَنِي مَا يُصِيبُ المسلمين،

فلمّا جلسَ الناس في الحِجْرِ وَصَلْتُ إلى خَالي، وقُلْتُ له: جِوَارُك عَلَيكَ رَدٌّ، فقَال: لا تَفْعَل يا بنَ أخْتِي، فقُلْتُ: بل هو ذَاك، فما زِلْتُ أُضْرَبُ وَأَضْرِبُ.. حَتّى أعزَّ الله الإِسْلامَ.

ولما أسلمَ عمرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال المشركون: لقد انتصف القوم منا. وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: لما أسلمَ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نزل جِبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ على النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «يَا مُحَمَّدُ اسْتَبْشَرَ أَهْلُ السَّمَاءِ بِإِسْلَامِ عُمَر». وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: "ما زلنا أعِزَّةً مُنذُ أسلمَ عمر".

وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "لما أسلمت والنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه مخْتَفُونَ، قُلْتُ: يا رَسُوْل الله؛ ألسنا على الحق إنْ متنا وإن حيينا؟، قال: «بَلَى، وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ عَلَى الحَقِّ إِنْ مُتُّمْ وَإِنْ حَيِيتُمْ»، فقُلْتُ: فَفِيمَ الاخْتِفَاء؟، والذي بعثك بالحق ما بقيَ مجلسٌ كنت أجلسُ فيه بالكُفْرِ إلّا أظهرتُ فيه الإسلام غير هَائِبٍ ولا خَائِفٍ، والذي بعثك بالحق لنَخْرُجَنَّ، فخرَجنا في صَفّين، حمزة في أحدهما وأنا في الآخر، حتى دخلنا المسجد، فنظَرَت قُرَيْش إليَّ وإلى حمْزَة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فطافَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبيت وصلّى، ثم رجع ومَن معَهُ إلى دارِ الأرقم، فسمّاني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذٍ: «الفَارُوق»، فَرَّقَ الله تعالى بي بينَ الحقِّ والباطل.

بَاب
مُنَابذَةِ المُشركينَ لِبَنِي هَاشِم وَبَنِي المُطّلِب

اجتمَعَ كفّارُ قُرَيْش على قتلِ رَسُوْلِ الله ﷺ، وقالوا: أفسَدَ علينا أبناءَنا ونساءنا، وقالوا لقومِه: خذوا منّا دِيَةً مُضَاعَفَةً ويقتله رَجُلٌ مِن قُرَيْش وتريحونا وتريحون أنفسكم، فأبى قومُه، فعند ذلك اجتمعَ رأيُهم على مُنَابذَةِ بني هاشم وبني المطلب، وإخراجهم من مَكَّةَ إلى شعبِ أبي طالب، والتّضْييقِ عليهم بمنع حضُورِ الأسوَاق، وأن لا يناكحوهم، وأن لا يقبلوا لهم صلحا أبدا، ولا تأخذهم بهم رَأفةٌ حتى يُسْلِمُوا رَسُوْلَ الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في الكعبة، توكيدًا على أنفسِهم.

فدخل بنو هاشم وبنو المطلب مُؤمنُهم وكافرُهم الشعبَ، إلا أبا لهب فإنه ظاهر عليهم قُرَيْشًا، وكان سِنُّه ﷺ حينَ دخَل الشّعبَ ستة وأربعين سنة، فجَهِدُوا في الشعب حتى كانوا يأكلون الخبَطَ وَوَرَقَ الشجر، وكانوا إذا قَدِمَت العِيرُ مَكَّةَ يأتي أحدُهم السُّوقَ لِيَشْتريَ شيئًا من الطعام يقتَاتُه، فيقومُ أبو لهب، فيقول: يا معشرالتُّجَّار؛ غَالوا على أصحابِ محمد حتّى لا يدركوا شيئًا مَعَكَم، فقد علمتم مَالي، ووفاء ذِمّتِي، فيزيدون عليهم في السلعة أضعَافَ قيمتها، حتى يرجع إلى أطفالِه وهم يتضَاغَون من الجوع، وليس في يدِه شيءٌ يُعَلّلُهُم به، فيغدُو التجار على أبي لهب فيُربِحُهم.

وكان دخولهم الشعب في هلالِ المحَرَّم سنة سَبعٍ من النبوَّةِ، وأمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ مَن كانَ بمَكَّةَ من المسلمين أن يخرجُوا إلى الحبَشة؛ لأنّ الأذى اشتد عليهم، ولما رَأى أبو طالب اجتماعَ رأي المشركين على أن يقتلوا النَّبِيَّ ﷺ عَلانيةً، جمعَ بني هاشم والمطلب مؤمنهم وكافرهم، وأمرهم أن يدخلوا برَسُوْلِ الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الشعبَ ويمنعُوه ففعَلوا، فبنو هاشم وبنو المطلب كانوا شيئا واحدا لم يفترقوا، وانْخَذَل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته:

جَزَى الله عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ ونَوفَلا ... عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلًا غَيرَ آجِلِ




بَابُ
الهِجْرَة الثانِيةِ إِلَى الحَبَشة

لما وَقَعَ ما ذُكِرَ مِنَ المُنَابَذَةِ انطلق إلى الحبشَةِ عَامّةُ مَن آمنَ بالله ورَسُوْلِه، فكَانوا عند النَّجَاشِيّ ثلاثةً وثمانينَ رَجُلاً وثماني عشرة امرَأة، وكان من الرِّجَالِ جعفرُ بن أبي طالب ومعه زوجته أسماء بنت عميس، والمقداد بن الأسود، وعبد الله بن مسعود، وعُبِيدِ الله بن جحش ومعه أمّ حبيبة بنت أبي سفيان، فتنصَّرَ بها، ومات على النصرانية، وبقيت أمّ حبيبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا على إسلامها، حتى تزوجها رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد الهجرة إلى المدينة.

فأقاموا بخيرِ دارٍ عند خيرِ جَارٍ، فبعثَتْ قُرَيْشٌ خلفَهم عمرَو بن العاص، بهديّةٍ إلى النَّجَاشِيِّ، ليَرُدَّ مَن جَاءَ إليه من المسلمين، والهدية فرَسٌ وجبّةُ ديباجٍ، وأهدوا لعظماءِ الحبشة هَدايا، ولما دخَل عليه سَجَد له، فقبلَ هديته، فقال: إن نفراً من بني عمِّنَا نزَلُوا أرْضَك فرَغِبُوا عنّا وعَن آلهتنا، ولم يدخلوا في دينكم، بل جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعَثَني أشْرَافُ قُرَيْشٍ إلى الملِكِ لتَرُدَّهم إليهم، فقال: أين هم؟، قال: بأرضِكَ، وقال له عظماء الحبشة: ادفعهم إليه فهمَ أعرَفُ بحَالِهم، فقال: لا والله حتّى أعلَمَ على أيِّ شيءٍ هم؟، وأرسل في طلبهم، فقال له عمرو: هم لا يَسْجُدونَ لِلمَلكِ، ولا يُحَيُّونك بما يحيِّيكَ به الناسُ إذا دخلوا عليك رَغبَةً عن سُنّتِكم ودِينِكم، فلما جاؤوا، قال لهم جعفر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: أنا خَطِيبُكم، ودعا النَّجَاشِيُّ أسَاقِفَته، فلما جاءَ

جعفرُ وأصحابُه صَاحَ وقال: جعفرُ بالباب يستأذن ومَعَهُ حِزْبُ الله، فقال النَّجَاشِيّ: نعم، يَدْخُلُ بِأَمَانِ الله وذِمَّتِه، فدخل عليه، ودخلوا خلفه، فسَلّمَ، فَقَالَ عَمْروٌ للنّجَاشِيِّ: أَلَا تَرَى أيها الملكُ أنهم مستكبرون لم يحيوك بتحيتك، فقال النَّجَاشِيّ: ما منعكم أن لا تسجدوا وتحيوني بالتحيتة التي أُحَيَّى بِهَا، فقال جعفرُ: إنا لا نسجد إلا لله ﷻ، قال: ولِمَ ذَلِك؟ قال: لأنّ الله تعالى أرسل فينا رَسُوْلاً، وأمرنا أن لا نَسْجُدَ إلّا لله ﷻ، وأخبرنا أنّ تحية أهْلِ الجنَّةِ السَّلَام، فحيَّيْنَاك بالذي يُحَيِّي بِهِ بعضُنا بعضاً، وعرَف النَّجَاشِيّ ذلك، لأنه في الإنجيل كما قال. فَقَالَ عَمْروٌ للنّجَاشِيِّ: إنهم يخالفونَكَ في ابنِ مَرْيَم، ولا يقولون إنه ابن الله ﷻ وعَلَا. قال: فما تقولون في ابن مريم وأمه؟، قالوا: نقول كما قالَ اللهُ ﷻ: روح الله وكلمته ألقاها إلى مَريم العَذْرَاء البتول، التي لم يمسها بشر، ولم يخرج منها ولد غير عيسى صَلَّى اللهُ على نبينا وعليه وسلم، فقال النَّجَاشِيُّ: يا معشر القِسِّيسِينَ والرُّهبَان ما يزيدون على ما تقولون؟، أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيّاً مُرْسَلاً صِفَتُه ما ذَكَرَ هؤُلاء؟ فقالوا: اللَّهُمَّ نعم، قد بشرنا به عيسى، فقال: من آمن به فقد آمن بي، ومن كفر به فقد كفر بي. فقال النَّجَاشِيُّ: أشهدُ أنَّهُ رَسُوْلُ الله، وأنه الذِي بشّرَ به عيسى في الإنجيل، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته فأكونَ أنا الذي أحملُ نعلَه وأغسِلُ يديه، ثم قال للمسلمين: انزلوا حِيثُ شِئْتِم آمنون بأرضي، وأمَرَ لهم بما يُصْلِحُهم من الرِّزْقِ، ثم قال: من نظرَ إلى هَؤلاءِ الرَّهطِ نظرةً تُؤذِيهم فقد عَصَاني. وقال: ما أحِبُّ أن يكون لي دِيرٌ من ذهب وأنّ أوذي رَجُلاً منكم، ثمَّ أمرَ بِهَديةِ عَمرٍو ورفاقِه فرُدَّت عَليهم، وقال: لا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله تعالى مني الرّشْوَة حين رَدَّ عليَّ مُلكِي فآخذُ الرّشْوَةَ، وما أطاعَ




الناسَ فيَّ فَأطيعهم فيه.

وفي روايةأنَّ النَّجَاشِيَّ قَال لهم: ما هذا الدّين الذِي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من الملل؟، فقال جعفر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحشَ، ونقطع الأرحام، ونُسِيءُ الجوار، ويأكلُ القويُّ منَّا الضعيفَ، فكنا على ذلك حتى بعثَ الله لنا رَسُوْلاً كما بعثَ الرُّسلَ إلى مَن قبلنا، وذلك الرَسُوْلُ منا، نعرفُ نسبَه وصدقَه وأمانتَه وعفافَه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده، ونخلعُ ما كان يعبد آباؤُنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدّماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّورِ، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعدا علينا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام، واستحلال الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورَجونا أَنْ لا نُظْلم عندك أيها الملك. فقال النَّجَاشِيّ لجعفر: هل عندك مما جاء به شيء؟، فقَال: نعم. قال: فاقرَأهُ عليَّ، فقرأ عليه صَدرًا من سورة مريم، فبكى النَّجَاشِيُّ حتّى اخْضَلّتْ لحيتُه وبكتْ أساقِفَتُه، وقالوا: زِدْنا يا جعفر من هذا الحديث الطيب، فقرأ عليهم سورة الكهف، فقال النَّجَاشِيّ: والله إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، والله ما زاد هذا على ما في الإنجيل إلا هذا العود لعود كان في يده. فقال جعفرُ للنّجَاشيِّ: سَلْهُ أعبيدٌ نحنُ أم أحرار؟، فإن كنا عبيدا أبَقْنَا مِنْ أرْبَابِنَا فارْدُدنا إليهم، فقال عمرو: بل أحرارٌ، فقال جعفر: سَلْهُ هل أهْرَقْنَا دِمَاءً بغير حقّ فيُقْتَصَّ مِنّا؟، هل أخذنا أموالَ الناس

بغير حقّ فعَلينا قَضَاؤه؟، فقال عمرو: لا، فقال النَّجَاشِيّ لعمرو: هل لكَ عليهم دين؟، قال: لا، فقال: انطلق، فو الله لا أسلمهم إليك أبدًا.

ومكثَ بنو هاشم في الشّعب ثلاث سنين، فمِن قُرَيْشٍ من سَرَّه ذلك، ومنهم مَن ساءَه، وصارَ لا يقدرُ أحدٌ أن يوصلَ إليهم طعامًا، حتى أنّ أبا جهل لقيَ حَكِيْمَ بن حِزَام ومعه غلامٌ يحملُ قمحًا يُريدُ عمَّته خديجةَ زوجِ النَّبِيِّ ﷺ، وهِيَ مَعَه في الشِّعْبِ، فتعلق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تذهب لا أنت ولا طعامك حتى أفْضَحَكَ بمَكَّةَ، فقال له أبو البَخْتَرِيّ بن هِشَام: ما لك وما له؟، فقال أبو جهل: إنما يحمل الطعام لبني هَاشم، فقال أبو البَخْتَرِيِّ: طعامٌ كانَ لعمَّتِه عندَه أفتمنعه أن يأتيها؟، خَلِّ سَبيل الرَّجُل، فأبى أبو جهل، فأخذ أبو البَخْتَرِيِّ لحيَ بعيرٍ فضَرَبه فشَجَّهُ وَوطِئَهُ وطئاً شَدِيداً.

وأدخل هاشم بن عمرو العامري في ليلة ثَلاثَة أجمَال طعاماً، فعملت قُرَيْش، فمشوا إليه حين أصبح وكلّمُوه في ذلك، فقال: إنّي غيرُ عائدٍ لشيء، ثم أدخل جملاً أو جمَلين، فعلمت به قُرَيْش فأغلظتْ له وهمَّتْ به، فقال أبو سفيان بن حرْبٍ: دعوه يَصِلْ رحمَه، أما إنّي أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا، وكان أبو طالب في كل ليلة يأمرُ رَسُوْلَ الله ﷺ أن يأتي فراشه ويضْطجع به، فإذا نامَ النّاسُ أقامه وأمرَ أحدَ بنيه أن يضطجع مكانه خوفاً عليه أن يغتاله أحد ممن يريد به السّوء، وفي الشِّعب وُلِدَ عبد الله بن العباس.

ثمّ أطْلعَ الله رَسُوْلَه ﷺ على أنَّ الأرَضَةَ أكلَت ما في الصّحيفة من مِيثَاق وعَهْدٍ، فأتَتْ عَلى الألفَاظ المتَضَمِّنة للظلم وقطيعة الرّحم، ولم تدع فيها

اسما لله تعالى إلا أثبتته فيها، فذكر ذلك لعَمِّهِ أبي طَالب، فقال له عمه: والثّواقب ما كَذَبْتَنِي فيما حَدَّثْتَنِي قَطّ، أَرَبُّك أَخبَرَك بهذا الخبَر؟، قال: «نعَم»، فانطلق أبو طَالب في جماعة من بني هاشم وبني المطلب، فلبسوا أحسَن ثيابهم، وخرجوا إلى قُرَيْشٍ في المسجد، فلما رأتهم قُرَيْش ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليُسْلِمُوا رَسُوْلَ الله ﷺ للقَتْل، فقال أبو طالب: إنّ صحيفتكم هذه صحيفة إثم وقطيعة رَحِم، وإنَّ ابنَ أخِي أخبرني ولم يَكْذِبْنِي قط: أَنّ الله تعالى سلّطَ عليها الأَرَضَةَ، فلم تَدعْ ممّا كتبتم شيئاً إلا باسْمِكَ اللَّهُمَّ، فإنْ كان الحديثُ كما يقول فأفيقوا عن سوءِ رأيكم، وإنْ لم ترجعوا فو الله لا نُسْلِمُه حتى نموتَ عَن آخِرنا، وإنْ كانَ الذي يقولُ باطلاً دفعناه إليكم فقَتَلتُم أو اسْتَحْيَيتُم، فقالوا: قد رضينا بالذي تقول، ففتحوا الصحيفة فوجدوا أنّ الأمر كما أخبر به ﷺ، فلمّا رأتْ قُرَيْشٌ صِدقَه قال أكثرهم: هذا سِحْرُ ابن أخيك، وزادهم ذلك بغياً وعدواناً، ونَدِمَ بعضُهم فقال: هذا بغيٌ على إخواننا وظلمٌ. فقال أبو طالب: يا معشر قُرَيْش علام نُحْصَرُ ونُحْبَسُ، وقد بانَ الأمرُ وتبيّن أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة؟، ودخلوا بين أستار الكعبة وقالوا: اللَّهُمَّ انصرنا على من ظلمنا، وقطعَ أرحامنا واستحَلّ ما يحرُم عليه منا، ثم انصرفوا إلى الشّعب.

وعند ذلك مشَى طائفةٌ من قُرَيشٍ في نقضِ ما تَضَمَّنَتْهُ الصّحِيفة، وهم: هشام بن عمرو بن الحارث، وزُهير بن أميّة، والمُطعِم بن عَدِيّ، وأبو البَخْتَرِيِّ بن هشام، وزمعة بن الأسود. فمشى هشام بن عمرو إلى زُهَيرِ بن أمية، فقال: يا زهيرُ أرضيت أن تأكل الطعام، وأخوَالك لا يُبَاعُونَ ولَا يَبْتَاعُون؟، فقال: ماذا أصنع؟، إنما أنا رَجُلٌ واحد، قال: أنا معك، فقال: ابغنا رَجُلًا ثالثًا، فذهب إلى المُطعِم بن عَدِيّ، فقال: أرَضِيتَ أنْ يهلك بَطْنَان مِن بَنِي عَبدِ مناف، وأنت

شاهدٌ على ذلك ؟ ، فقال: ماذا أصنعُ ؟ إنما أنا رَجُل واحد ، قال: أنا وزُهَير معك ، فقال: ابغنا رابعًا ، فذهب إلى أبي البَخْتَرِيِّ ، فقال له نحوَ ما قاله للمطعم ، فقال: ابغنا خامساً ، فذهب إلى زمعة بن الأسود فكلّمَه ، فقال: وهل من أحدٍ يعين على ذلك ، فسمى له القوم.

ثمّ إنّ هؤلاء اجتمعوا ليلاً عند الحجُون ، وأجمعوا أمرَهم وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ؛ وغدا زهير ، وعليه حلة فطاف بالبيت ، ثم أقبل على الناس ، فقال: يا أهل مَكَّةَ أنأكلُ الطعامَ ونلبسُ الثيابَ وبنو هاشم والمطلب هَلكَى ؟ ، لا يُباعُونَ ولا يُبْتَاعُ منهم ، والله لا أقعدُ حتى تُشَقَّ هذِه الصحيفة القاطعة الظالمة ، فقال أبو جهل: كذبتَ والله لا تُشُقَّ ، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكْذَب ، ما رضينا كتابتها حينَ كُتِبَت ، وقال أبو البَخْتَرِيِّ: صدق زمعة ، وقال المطعم: صدقتما وكَذَبَ مَن قال غيرَ ذلك ، نَبْرَأُ إلى الله تعالى منها ومما كُتِبَ فيها ، وقال هشام بن عمرو: نحوًا من ذلك ، فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قُضِيَ بالليل. فقام المُطْعِم بن عَدِيّ إلى الصحيفة فشَقَّهَا ، ثم قام هؤلاءِ الخمسة ومعهم جماعةٌ ، ولبسُوا السِّلاح ، ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب ، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ، ففعلوا.

بَابُ
ذِكْرِ خَبَرِ وَفْدِ نَجْرَان

قَدِمَ عليه ﷺ وفدُ نجْرَان وهو بمَكَّةَ، وهم قومٌ من النصارى، ونجران بلدة بين مَكَّةَ واليمن، على نحو سبع مراحل من مَكَّةَ، كانت منزلًا للنصارى، وكانوا نحو عشرين رَجُلًا، وكان خبرُه بلغَهم ممن هاجرَ من المسلمين إلى الحبشة، فوجدوه ﷺ في المسجد، فجلسوا إليه، وسألوه وكلموه، ورجالٌ من قُرَيْش في أنديتهم حول الكعبة ينظرون إليهم، فلما فرَغوا من مسألةِ رَسُوْلِ الله ﷺ كمَا أرادُوا، دعاهم رَسُوْلُ الله ﷺ إلى الله تعالى وتَلا عليهمُ القرآن، فلما سمعُوه فاضَتْ أعينُهم من الدَّمْعِ، ثم استجابوا له وآمنوا به، وعرَفُوا منه ما هو مَوصُوفٌ به في كتابهم.

فلما قاموا عنه اعترضَهم أبو جهل في نفرٍ من قُرَيْش، فقالوا لهم: خَيَّبَكُم الله مِن رَكْبٍ، بعثَكُم من ورَاءَكم مِن أهل دِينكم تَرْتَادُونَ الأَخْبَار لهم وتأتوهم بِخَبر الرَّجُلِ، فلم تطمَئِنَّ مجالسُكم عنده حتّى فارقتم دينكم فصدّقتموه بما قال، لا نعلمُ ركباً أحمقَ منكم، فقالوا لهم: سَلامٌ عليكم، لا نُجَاهِلُكُم لنا ما نحنُ عليه ولكم ما أنتم عليه، ويُقَالُ نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة ٨٣].

ووَفَدَ عليه ﷺ ضِمَادُ الأَزْدِيّ، وكان من أزْدِ شَنُوءَة، قَدِمَ مَكَّةَ،

وكان يرقي من الريح، فسمعَ السُّفَهاءَ مِن أهل مَكَّةَ يقولون: إن مُحَمَّدًا مجنُون، فقال: لو أني رَأيتُ هذا الرَّجُل لعلّ الله أنْ يشفيَه عَلى يدي، فأتى إليه ﷺ فقَال: يا محمّد إني أرْقي من الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهَل لكَ؟، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمُدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُوْلُهُ»، فقال ضِماد: أعِدْ علي كلماتك هؤلاء، فأعادَهُنَّ عليه ثلاثَ مَرَّات فقال: لقد سمعتُ قولَ الكهَنَةِ والسّحَرَةِ والشعراء، فما سمعتُ مثل كلماتك هؤلاء، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه، وقال له رَسُوْل الله ﷺ: «وَعَلَى قومِكَ»؟، فقال: وعلى قومي.




بَابُ
وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ وخَدِيجة رضي الله عنها

كانت وفاةُ زوجته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا، وعمّه أبي طالب في عام واحدٍ، بعد خروج بني هاشم والمطلب من الشعب بثمانية وعشرين يومًا، وذلك قبل الهجرة إلى المَدِيْنَة بثلاث سِنين، بعد مضي عشر سنين من بعثتهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانت وفاة خديجة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا بعد أبي طالب بثلاثة أيام، وقيل: قبله بخمس وثلاثين ليلة، ودفنت بالحجون، ونزل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حفرتها، ولها من العمر خمس وستون سنة ولم تكن الصلاة على الجنازة قد شرعت. وكان رَسُوْلُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَمِّي ذلك العَام عام الحزن، ولزم فيه بيته، وكانت مدة إقامتها معه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمسًا وعشرين سنة.

وبعد موتِ خديجة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا بأيام تزَوَّجَ رَسُوْلُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَودَةَ بنتَ زَمْعَة، وكانَت قبْله عندَ ابن عمِّها السّكرَان، وهاجرَ بها إلى أرض الحبشة الهجرةَ الثانية، ثم رجع بها إلى مَكَّةَ فمات عنها، فلما انقضَت عدّتها تزوَّجَها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصدقَها أربعمائة دِرْهم، وكانت قد رأت في نومها أنّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطئَ عنقها فأخبرَت زَوْجَها، فقال: إنْ صَدَقتْ رُؤْياكِ أمُوتُ أنا ويتزوّجك رَسُوْلُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم إنها رأت في ليلة أخرى أن قمرًا انقَضَّ عليها من السماء، فأخبرت زوجها، فقال: لا ألبثُ حتّى أموت، فمات من يومه ذلك.

وعقدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عائشة رضي الله عنها وهيَ بنت سبع سنين في شوال، فعن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، قالت: قُلْتُ لما ماتت خديجة: يا رَسُوْلَ الله ألا تتزوج؟، قال: «مَن»؟ قُلْتُ: إن شِئْتَ بِكْرًا، وإن شئت ثَيِّبًا، قال: «مَنِ البِكْر»؟ قُلْتُ: بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما، قال: «وَمَنِ الثَّيِّبُ»؟، قُلْتُ: سَودَة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول، فقال: «فَاذْهَبي فَاذْكُرِيهِمَا لِي»، قالت: فدخلت على سودة بنت زمعة فقُلْتُ لها: ماذا أدخَلَ الله عليكِ مِنَ الخيرِ والبركة؟، قالت: وما ذاك؟، قُلتُ: أرسلني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخطبُك له، قالت: وَدِدتُّ، ادخلي على أبي فاذكري ذلك له، وكان شيخاً كبيراً، فدَخَلْتُ عليه وحَيَّيتُه بتحيّةِ الجاهلية، فقال: من هذه؟، قُلْتُ: خَولة بنت حكيم، قال: فما شأنك؟، قُلْتُ: أرسَلنِي محمَّدُ بن عبد الله أخطب له سودة، فقال: كفءٌ كريم، فما تقول صاحبتك؟، قُلتُ: تحب ذلك، قال: ادعيها إليّ، فدعوتها، قال: أي بنية إنّ هذه تزعمُ أنَّ محمَّدَ بن عبد الله قد أرسل يخطبك وهو كُفْءٌ كريم، أتحبين أنْ أزوّجك منه؟، فَقَالَتْ: نعم، فقال: ادعيه لي، فجاء رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فزَوَّجَه إيّاها، ولما قَدِمَ أخُوهَا عَبْدُ بنُ زمعة بلغه ذلك فصَار يحثُو التُّرابَ على رأسه، ولمّا أسلمَ قال: لقد كَذَّنِي السَّفَهُ يومَ كنتُ أحْثُو عَلى رَأسي الترابَ إذْ تزوَّجَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أختي سَودَة.

ثمّ ذهبت خولة إلى أمِّ رُومَان أمِّ عائشة، فَقَالَتْ لها: ماذا أدخل الله عليكم من البركة والخير؟، قد أرسلني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخطبُ له عائشةَ، قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر، فقُلْتُ له: يا أبا بكر ماذا أدخلَ الله عليكم من الخير والبركة؟ قال: وما ذاك؟، قُلْتُ: قد أرسلني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخطبُ عليه عائشة، قال: وهل تصلح له؟، إنما هي بنت أخيه، فرجعتُ إلى

رَسُوْل الله ﷺ، فذكرت له ذلك، فقال: «ارْجِعِي إِلَيهِ، فَقُولِي لَهُ: أَنَا أَخُوكَ وَأَنتَ أَخِي فِي الإِسْلَامِ، وَابْنَتُكَ تَصْلُحُ لِي»، فرجعت فذكرت ذلك له، فقالَتْ أم رومان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا: إنّ مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه جُبير، ووعده، والله ما وَعَدَ أبو بكرٍ وعداً فأخلَفه قَطّ، فدخَلَ أبو بكرٍ على المطعمِ وعندَه امرأته أمُّ ابنهِ المذكور، فقال له أبو بكر: ما تقولُ في أمرِ هَذِهِ الجارِيَة؟، فأقبل المطعم على امرأته، ثم قال لها: ما تقولين يا هذه؟، فأقبلت على أبي بكرٍ، وقالت له: لعلنا إنْ أنكَحْنَا هذا الفتى إليكم تُدخله في دينك الذي أنت عليه، فأقبل أبو بكرٍ على المطعم وقال له: ماذا تقول أنت؟ فقال: إنها لتقول ما تسمع، فقام أبو بكر وليس في نفسِه من الوَعدِ شيءٌ، فرَجعَ، فقال لخولة: ادعي لي رَسُوْلَ الله ﷺ، فدعته، فزَوَّجَه إياها.

ولما مَرِضَ أبو طالب وبلغَ قُرَيْشاً اشتدادُ المرضِ به، قال بعضُهم لبعضٍ: إنَّ حمزَةَ وعمرَ قد أسلما، وقد فشَا أمرُ محمد في قبائل قُرَيْش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا، فإنا والله ما نأمن أن يَبْتَزُّوا أمرَنَا ويَسْلُبُونَه، فدخلوا عليه، فقالوا له: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا، وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك، وعلمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادْعُه وخُذْ له منّا وخُذْ لنَا مِنْه، لينكف عنا وننكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعثَ أبو طالب إليه ﷺ فجاءَه، فقال أبو طالب للنّبِيِّ ﷺ: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك، وقد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، فأعطِ قومك ما سَأَلوكَ، فقد أنصَفُوك أن تَكُفَّ عَن شَتم آلهتهم ويَدَعُوكَ وإلهك، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَرَأَيتُكُمْ إِنْ أَعْطَيتُكُمْ مَا سَأَلتُمْ، هَلْ تُعْطُونِي كَلِمَةً وَاحِدَةً تَمْلِكُونَ بِهَا العَرَبَ وَتَدِينَ لَكُمْ بِهَا العَجَمُ»؟، فقال أبو جهل: نعم، لنُعْطِيكهَا

وعشراً معها، فما هي؟، قال: «تَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلّا الله، وَتُقْلِعُونَ عَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ»، فصَفَّقُوا بأيديهم، ثم قالوا: يا محمد أتريدُ أن تجعلَ الآلهةَ إلهاً واحداً؟، إنّ أمركَ لعَجَب، فقال أبو طالب: يا بن أخي هل من كلمةٍ غيرها، فإنّ قومك قد كَرِهُوهَا، قال: «مَا أَنَا بِالذِي يَقُولُ غَيرَهَا»، فقال بعضهم لبعض: والله ما هذا الرَّجُل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضُوا على دِين آبائكم.

فقال أبو طالب لرَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والله يا بن أخي ما رأيتكَ سألتهم أمراً بعيداً، فلمّا قال ذلك طَمِعَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إسلامِه، فجعلَ يقول: «فَقُلْهَا أَنْتَ يَا عَمِّ أَسْتَحِلُّ لَكَ بِهَا الشَّفَاعَةَ يَومَ القِيَامَةِ»، فلمّا رأى حِرْصَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: والله يا ابنَ أخي لولا مخافةُ السّبَّةِ، وأنْ تظنَّ قُرَيْشٌ أني إنما قُلْتُها جَزَعاً لَقُلْتُهَا، ولأقرَرْتُ بها عينَك لما أرى من شِدّة وجْدِكَ، ولكنّي أموتُ عَلى مِلّةِ الأشيَاخ: عبدِ المطلب، وهاشم، وعبد مناف، فأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِى مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦] الآية.

وكان من حكمَةِ أحكم الحاكمين بقاءُ أبي طالب على دين قومه؛ لما في ذلك من المصالح التي تبدو لمن تأملها، وكذلك الحكمة في كثيرٍ من أقربائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي بني عمه، منهم من لم يُسْلِم، ومن أسلم منهم تأخر إسلامه، ولو كان أسلم أبو طالب وبادر أقرباؤه وبنو عمه إلى الإيمان به؛ لقِيلَ: قومٌ أرَادوا الفخرَ برَجُلٍ منهم وتعصبوا له، لكِنْ لما بادر إليه الأباعدُ قبل الأقاربِ، وقاتلوا على حُبّه مَن كان منهم، حتّى أن الشخصَ منهم يقتُلُ أباهُ وأخاه، فَعُلِمَ أنَّ ذلك إنّما هوَ عَنْ بَصِيرةٍ صَادِقة ويقينٍ ثابت.

وذُكِرَ أنَّ أبا طالب لما حضرته الوفاة جمَعَ إليه وجهاء قُرَيْش فأوصاهم،

وكان من وصيته أن قال: يا معشر قُرَيْش أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم المطاع، وفيكم المُقَدَّمُ الشُّجَاع، لم تتركوا للعرب في المآثر نصِيباً إلا أحْرَزْتمُوه، ولا شرَفاً إلا أدركتمُوه، فلكم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة، صِلوا أرحَامَكم ولا تقطعوها، فإن في صِلة الرَّحِم مَنْسَأة في الأجل، وزيادة في العدد، واتركوا البغي والعقوق ففيهما هلكت القرون قبلكم، أجيبوا الدّاعِي، وأعطوا السائل، فإنَّ فيهمَا شرَفَ الحياة والممات، وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام، وإني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قُرَيْش، وهو الصِّدِّيقُ في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قَبِلَهُ الجَنَان، وأنكَرَه اللّسَان مخافة الشّنآن، وأيمُ الله كأني أنظرُ إلى صَعَاليك العَرَب، وأهلِ البَرِّ في الأطرافِ والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاضَ بهم غمَرَات الموت، فصَارت رُؤَسَاءُ قُرَيْش وصَنادِيدُها أذنابًا، ودُورُها خرَابًا، وضعفاؤُها أرْبَاباً، وإذَا أعظَمُهم عليه أحْوَجُهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد مَحَضَتْهُ العربُ وِدَادَها، وأعطتهُ قِيادَها، دونكم يا معشرَ قُرَيْش، كونوا له وُلَاةً، ولحزْبِه حُمَاةً، والله لا يسلكُ أحدٌ منكم سَبِيلَه إلّا رَشَدَ، ولَا يأخذُ أحدٌ بهدْيِه إلّا سَعِدَ.

وعن العَبَّاس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: قُلْتُ يا رَسُوْل الله، إنَّ أبا طالب كان يحوطُك وينصرك، فهل ينفعه ذلك؟، قال: «نَعَم؛ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ، وَلَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»[1]. وعُدَّ أنّ من خصائص

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده [٢٠٦/١]، برقم: (١٧٦٣)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

النبيِّ ﷺ قَبُولُ شفاعته في عمّه أبي طالب، لكي لا يشكل عليه قول الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقيل: أن المراد بالآية لا تنفعهم شفاعة الشافعين في الإخراج من النار بالكلية. وجاء عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما، أنّ رَسُوْلَ الله ﷺ قال: «إنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النّارِ عَذاباً أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»[1].

ولما مات أبو طالب نالت قُرَيْشٌ منَ النَّبِيِّ ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياةِ أبي طالب، حتى أن بعض سفهاء قُرَيْش نثرَ على رأسِ النَّبِيِّ ﷺ الترابَ، فدخل ﷺ بيتَه والترابُ على رأسِه، فقامت إليه بعضُ بناته، وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي، ورَسُوْلُ الله ﷺ يقول لها: «لَا تَبْكِي، لَا تَبْكِي يَا بُنَيَّةُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى مَانِعٌ أَبَاكِ»، وكان رَسُوْلُ الله ﷺ يقول: «مَا نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنِّي شَيئاً أَكْرَهُهُ حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ».

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه [١/١٩٦]، باب أهون أهل النار عذابا، حديث رقم: (٢١٢).




بَابُ
خُرُوجِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الطّائِف

لما مات أبو طالب ونالت قُرَيْش من النَّبِيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم تكن تناله منه في حياته، خرج إلى الطائف وهو مكروبٌ مُشَوشُ الخاطر ممّا لقيَ مِن قُرَيْش وقرابته وعترته، خصوصا من أبي لهب وزوجته أم جميل حمالة الحطب من الهجو والسَّبِّ والتكذيب. وعن علي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قال: (لقد رأيتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موت أبي طالب أخذته قُرَيْش تتجاذبه وهم يقولون له: أنت الذي جعلت الآلهة إلها واحدا؟، فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ فصَار يضربُ هذا ويدفعُ هذا، وهو يقول: ويْلَكُم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨])[1].

وكان خروجُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف في شوال سنةَ عشرٍ من النبوة، وكان معه مولاه زيد بن حارثة، فكان يلتمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا، وأن يناصروه على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فلما انتهى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطائف عمدَ إلى سادات ثقيف وأشرافهم، وكانوا إخوة ثلاثة: عَبْدُ يَالَيْل، ومسعود، وحبيب، أولاد عمرو بن عمير بن عوف الثقفي، فجلسَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم وكلمهم فيما جاءهم به، وما يرجوه منهم من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: أقطعُ ثيابَ الكعبة إنْ كانَ الله

(١) أخرجه الإمام البزار في مسنده، برقم: (٧٦١).

أرسلك. وقال له الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟!. وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، لئن كنت رَسُوْلَ الله كما تقول لأنت أعظمُ خطرًا من أن أرُدَّ عليك الكَلام، ولئن كنتَ تكْذِب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عندهم وقد أيسَ مِن خَيرِ ثَقِيف وقال لهم: «اُكْتُمُوا عَلَيَّ»، وكره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يبلغَ قومَه ذلك فيَشْتدَّ أمرُهم عليه، فقالوا له: اخْرُج مِن بَلدِنا، وأغْرَوا بِهِ سُفَهَاءَهم وعبيدَهم يَسُبّونه ويصِيحُون به، حتّى اجتمعَ عليه الناس وقعدوا له صفين على طريقِه، فلمّا مرَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الصَّفَّين جَعلَ لا يرفعُ رِجْلَيْهِ ولا يضعهما إلا رَضَخُوهمَا بالحجارة، حتى أدموا رِجْلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واخْتَضَبَتْ نعْلَاهُ بالدِّمَاء، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أَزْلَقَتْهُ الحِجَارة وَوَجَد ألمها قعَد إلى الأَرض، فيأخذون بِعَضُدَيه فيقيمونه، فإذا مَشَى رجمُوه وهم يضْحَكُون، كل ذلك وزيدُ بن حارثة يَقِيهِ بنفسِه، حتى لقد شُجَّ رَأْسُه شُجَاجًا، فلمّا خَلَصَ منهم ورِجْلَاهُ تَسِيلَانِ دمًا عمَد إلى بُسْتَانٍ من بسَاتِينِهِم، فاسْتَظلَّ فيه وهو مكرُوبٌ مُوجعٌ، فدعا بدعاءٍ منه: «اللَّهُمَّ إلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟، إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي»(١).

---

(١) أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء [٣٢٤/١]، وتكملة هذا الدعاء العظيم أنه قال: «.. إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟، إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟، أَمْ إلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟، إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ». وقد اشتهر هذا الدعاء بـ(دعاء الطائف)، وهو مجَرَّبٌ في زوالِ الكَرْب وحصُولِ النّصْرِ، وفيه تعليم للمظلومين من أبناء الإسلام والمستضعفين منهم؛ كيف يكون التّضَرّع عند ضعْفِ الحيلة وفقْدِ الوسيلة ونزول البلاء.

وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة في ذلك البستان، وقد رأيَا ما لقيَه ﷺ من سفهاءِ أهلِ الطائف، فلما رَآهما كرِهَ مكانهما؛ لما يعلم من عداوتهما لله ولرَسُوْله، فلما رأياه وما لقيَ تحرّكت له رحمُهما، فدعوَا غلامًا لهما نصرَانيًا يُقَالُ له: عَدَّاس، فقالا: خذ قطفًا من العنب ثم اذهب به إلى ذلك الرَجُل فقل له: يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يديه ﷺ، ثم قال له: كلْ، فلما وضعَ رَسُوْلُ الله ﷺ فيه يدَه الشريفةَ قال: «بسم الله»، ثم أكلَ، فنظرَ عَدّاس في وجْهِهِ وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهلُ هذِه البلاد، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «مِن أَيِّ البِلَادِ أَنتَ، وَمَا دِينُك يَا عَدّاسُ»؟، قال: أنا نصراني، من أهل نِينَوَى، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «مِنْ أَهْلِ قَرِيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونسَ بنِ مَتّى»، فقال عدّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فإني والله لقد خرجت من نِينَوَى وما فيها عشرةٌ يعرفون ما مَتّى، فمن أين عرفت ابنَ مَتّى وأنتَ أُمِّيٌّ وفي أمّةٍ أمِّيَّة؟، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «ذَاكَ أَخِي كَانَ نبيّاً وَأَنَا نَبِيٌّ»، فأكبَّ عَدَّاس على رَسُوْلِ الله ﷺ يُقَبِّلُ رأسَه ويَدَيهِ وقَدَمَيه، فقال شيبةُ لعتبة: أمّا غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عدَّاس قال له عتبة: ويلك لمَ تُقبِّل هذا الرَّجُلَ؟ قال: يا سيدي ما في الأرض خيرٌ من هذا، لقد أعلمني بأمْرٍ لا يعلمه إلا نبيّ، فقال: يا عدَّاس لا يصرفنك عن دينك، ولا يفتننك عن نصرانيتك، فإنه رَجُلٌ خَدّاعٌ، ودينك خير من دينه.

وعن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت للنَّبيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟، فقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيْلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأنا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ،

فَرَفَعْتُ رَأْسِي، وَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبريلُ عليه السلام، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إنَّ اللهَ قَدْ سَمِع قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأنا مَلَكُ الجِبال، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبِّي إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أطْبَقْتُ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ، فَقُلْتُ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»(١).

وعند منصرفه صلى الله عليه وسلم من الطائف نَزَل نَخْلَة وهي محلّةٌ بين مَكَّةَ والطائف، فمرَّ به تسعةُ نفر من جِنِّ نَصِيبين، وهي مدينة بالشام وقيل باليمن، وقد كان رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم قامَ مِن جوفِ الليل يُصَلي ويقرأ القرآن، فاسْتَمَعُوا للقراءة، فآمنوا به، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، ثم رجعوا إلى قومهم، فقالوا ما حكى الله تعالى عنهم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ ـ ٢]. وقد جعلهم رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم رُسُلًا ومُنذِرينَ إلى قومهم، وقد ذُكِرَ أنّه بَقِيَ أيامًا بنخلة.

ولما أرادَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الدخولَ إلى مَكَّةَ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخلُ على قُرَيْشٍ وقد كانُوا سَبباً في خروجِك، وخرجتَ تستنصرُ فلم تنصر؟ فقال: «يَا زَيدُ إنَّ اللهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرَى فَرَجاً وَمَخْرَجاً، وَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِينَهُ وَمُظْهِرٌ نَبِيَّهُ»، وسارَ صلى الله عليه وسلم إلى حِرَاء، ثم بعثَ إلى الأخنَس بن شُرَيق لِيَدْخُلَ مَكَّةَ في جِوَارِه، فقال: أنا حَلِيفٌ والحليفُ لا يجير. فبعث صلى الله عليه وسلم إلى سهيل بن

(١) أخرجه البخاري [٤/١٣٩]، حديث رقم: (٣٢٣١)، ومسلم [٥/١٨١]، حديث رقم: (١٧٩٥).

عمرو، فقال: إن بني عَامر لا تُجِيرُ على بني كعب. فبعث ﷺ إلى المُطْعِمِ بن عَدِيّ فقال له: «إنِّي دَاخِلٌ مَكَّةَ فِي جِوَارِكَ»، فأجابه إلى ذلك، ثُمّ تَسَلَّحَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيّ وأهلُ بيتِه وخرَجُوا حتّى أتوا المسجدَ، فقامَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيّ على رَاحلَتِه فنادَى: يا معشر قُرَيْش، إني قد أجرْتُ مُحَمَّدًا فلا يُؤْذِه أحَدٌ مِنكم، ثم بعثَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ أنْ ادْخُل، فَدَخَلَ رَسُوْلُ الله ﷺ المسجد وطافَ بالبيتِ وصَلّى، ثُمَّ انْصَرفَ إلى منزله، والمُطْعِمُ بنُ عَدِيّ وولده مُطِيفُونَ به، وذُكِرَ أنّه ﷺ باتَ عندَه تلكَ الليلة، فلما أصْبَحَ خَرَج المُطْعِمُ وقد لَبِسَ سَلاحَه هوَ وبنُوه، وكانوا سَبعَةً، وقالوا لرَسُوْلِ الله ﷺ: طُفْ، واحْتَبوا بِحَمائِل سيوفِهم في المطَافِ مُدّةَ طوافِه ﷺ، فأقبلَ أبو سفيان على المُطْعِمِ، فقال: أمُجِيرٌ أم تَابعٌ؟، فقال: بل مُجِيرٌ، فقال: إذَنْ لَا تُخْفَر، قدْ أجَرْنَا مَن أجَرْتَ.

ولما انصرفَ أهلُ نَصِيبين من بَطْنِ نَخْلَة إلى قومِهم منذرين، جاؤوا مع قومهم وافدين إلى رَسُوْلِ الله ﷺ وهو بمَكَّةَ وهم ثلاثمائة فانتهوا إلى الحجُون، وجاءَ واحدٌ من أولئكَ النّفَر إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فقال: إن قومنا قد حضَرُوا ليلقونك، فوعدَه رَسُوْلُ الله ﷺ ساعةً من الليل بالحجُون.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، قال: أتانا رَسُوْلُ الله ﷺ، فقال: «إنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَى إِخْوَانِكُم مِنَ الجِنِّ، فَلْيَقُمْ مَعِي رَجُلٌ مِنْكُمْ، وَلَا يَقُمْ رَجُلٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْر»، فقمتُ معه، وخطَّ لي خَطًّا برِجْلِهِ وقال: «لَا تَخْرُجْ، فَإِنَّكَ إِنْ خَرَجْتَ لَمْ تَرَنِي وَلَمْ أَرَكَ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيئاً حَتَّى آتِيكَ، وَلَا يَرُوعُنَّكَ وَلَا يَهُولُنَّكَ، وَلَا يَعْظُمْ عَلَيكَ شَيءٌ تَرَاهُ»،

ثم جلس رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا رجالٌ قد كادوا يكونون عليه لِبَدًا لازدِحامِهم، حِرْصًا على سماع القرآنِ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأردتُّ أنْ أقومَ فأذبَّ عنه، فذكرتُ عهدَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمكثتُ، ثم تفرقوا عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسمعتُهُم يقولونَ: يا رَسُوْلَ الله إنَّ أرضنَا التي نذهب إليها بعيدة، ونحن منطلقون، فزَوِّدْنا لأنفسِنا ودَوَابِّنا، فقالَ: «كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ الله عَليهِ يَقَعُ في يَدِ أَحَدِكُمْ أَوْفَرَ مَا كَانَ لَحمًا، وَكُلُّ بَعَرٍ عَلَفُ دَوَابِّكُم».

فلما ولوا قُلْتُ: يا رَسُوْل الله، مَنْ هَؤُلاءِ؟، قال: «هؤلاءِ جِنُّ نَصِيبين»، فقُلْتُ: لقد هممتُ مِرَارًا أن أستغيثَ لما تَرَاكمُوا عليك، وسمعتُ منهم لغطًا شديدًا حتى خِفتُ عليك، إلى أنْ سَمِعتُك تقْرَعُهم بعصَاك، وتقول: «اِجْلِسُوا»، فما سَبَبُ اللّغَطِ الذي كان منهم، فقال: «إِنَّ الجِنَّ تَدَاعَتْ فِي قَتِيلٍ، فَحَكَمْتُ بَينَهُمْ بِالحَقِّ».

بَابُ
خَبَرِ الطّفَيل بْنِ عَمْرٍو الدّوْسِي وَإِسلَامِه

كان الطفيلُ بن عمرو الدوسيِّ شريفًا في قومه شاعرًا نبيلا ، فقَدِمَ مَكَّةَ فَقَالَتْ له قُرَيْش: إنّك قَدِمَت بلادنا ، وهذا الرَجُل بين أظْهُرِنَا قَد أعْضَلَ أمرُه بنا ، وفرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسِّحرِ ، يفرِّقُ به بين المرء وأخيه ، وبين الرَّجُل وزوجته ، وإنا نخشَى عليك وعلى قومك ما دخل علينا ، فلا تكلمه ولا تسمع منه . قال الطفيل: فو الله ما زَالوا بي حَتّى عزَمتُ على أنْ لا أسمعَ منه شيئًا ولا أُكَلّمَه ، وحشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد قُطْنًا ، خوفًا مِن أنْ يبلغني شيءٌ من قولِه ، فغدوتُ إلى المسجد ، فإذا رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم يصلي عند الكعبة ، فقمتُ قريبًا منه فأبى الله إلا أنْ أسمعَ بعضَ قوله ، فسمعتُ كلامًا حسنا ، فقُلْتُ في نفسي: أنا ما يخفى عليَّ الحسَنُ من القَبِيح ، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرَجُل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلت ، وإن كان قبيحا تركت ، فمكثت حتى انصرف إلى بيته ، فقُلْتُ: يا محمد ؛ إن قومك قالوا لي كذا وكذا ، حتى سددت أذني بِكُرْسُفٍ حتّى لا أسمع قولك ، فاعرض عليَّ أمرك ، فعرض صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَليهِ الإِسْلَامَ ، وتلا عليه القرآن ، قال: والله ما سمعت قط قولا أحسن من هذا ، ولا أمرًا أعْدَل مِنهُ فأسلمت ، فقُلْتُ: يا نبي الله إني امرؤٌ مطاعٌ في قومي ، وأنا راجع إليهم أدعُوهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يكون لي عونا عليهم ، فقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً» ، فخرجت حتى إذا كنت بثنية

تُطْلِعُني على قومي وكان ذلك في ليلة مظلمة وقع نورٌ بين عيني مثل المصباح، فقُلْتُ: اللَّهُمَّ في غيرِ وجهي فإني أخشى أن يظنوه مُثْلَةً، فتحول في رَأسِ سَوطِي، فجعل الناس يتراؤون ذلك النورَ كالقنديل المعلق، فأتاني أبي، فقُلْتُ: إليكَ عَنّي يا أبتِ، لسْتَ مِنّي ولسْتُ مِنْكَ، فقال: لمْ يا بني؟ قُلْتُ: قد أَسْلَمْتُ، فقال: أَيْ بُنَي دِينِي دينُك، فأَسْلَم، وأتتني زوجتي فذكرت لها مثل ذلك فأسلمت، ودعَوتُ دَوْسًا فأبطؤوا، فجئت النَّبِيَّ ﷺ، فقُلْتُ: يا رَسُوْلَ الله، غَلَبَتْنِي دَوْسٌ فادْعُ الله عليهم، فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْساً وَأْتِ بِهِمْ»، فلم أزَل أدعُوهم إلى الإسلام حتى هَاجرَ النَّبِيُّ ﷺ إلى المَدِيْنَةِ، فَأَسْلمُوا، فقَدِمْتُ بثَمانِينَ بيتًا ممَن أسلمَ منهم عليه ﷺ وهو بِخَيبَر، ومنهم أبو هريرة، فأسْهَمَ لنَا ولمْ نَحْضُر قِتَالاً.

بَابُ
الإِسْرَاءِ والمِعْرَاج وفَرْض الصَّلَوَات

لا خِلَافَ في الإِسْرَاءِ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ هُوَ نَصُّ القرآنِ على سبيل الإجمال، وقَد جَاءَتْ بِتَفْصِيلِهِ وشَرحِ أعَاجِيبِهِ أحَادِيثُ كثيرةٌ عَن نحوِ ثلاثين من الصَّحَابة، واتَّفَقَ العُلَمَاءُ على أنَّ الإِسْرَاءَ كان بعدَ البِعْثة، وأنه كان في اليَقَظة بجسدِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانَ كلٌّ مِنَ الإِسْرَاء والمِعْرَاج ليلةَ سَبعٍ وعِشرينَ خَلَت من شهر رَجَب، قبل الهجرة بسنة، بعد أنْ خرَجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الطّائف، واخْتُلِفَ في اليوم الذي يُسْفِرُ عن ليلتهما، فقيل: الجمعة. وقال ابنُ دِحْيَة: يوم الاثنين؛ لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولد يوم الاثنين، وبُعِثَ يوم الاثنين، وخرج من مَكَّةَ يوم الاثنين، ودخل المَدِيْنَة يوم الاثنين، ومات يوم الاثنين.

وكان رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الليلة التي أراد الله تعالى فيها تشريفَه نائماً في بيت أمِّ هَانِئ وبيتها بشِعْبِ أبي طالب، فانْفَرَجَ سَقفُ البيتِ، ونَزَلَ الملَكُ فأخرجَه إلى المسجد فأضْجَعه فيه عند الحِجْر، وأتاهُ جبريلُ وميكائيلُ ومعهما ملَكٌ آخر، فتَوَلّاه جِبْرِيل، فشقَّ صدرَه، ثم قال جبريل لميكائيل: ائتني بِطسْتٍ من ماءِ زمزم كيما أطهِّرَ قلبه، وأشرحَ صدرَه، فاستخرجَ قلبَه فشَقّه، فغسله ثلاثَ مرّات ونزع ما كان فيه من أذى، ثم أتى بطست من ذهب مُمْتَلِئ حكمةً وإيماناً فأفرغه في قلبه، ثم أخذَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بيدِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخَرَجَ به إلى بابِ المسجد، وإذا بالبراق مُسْرَجاً مُلجَماً، وهو دابّةٌ فوق الحِمَار ودون البَغْل، طويل

الأذنين، له وجْهٌ كوَجْهِ الإنسان، وجسدُه كجَسدِ الفَرَس، وله جناحان كجناح النّسْر، لا يوصفُ بأنه ذكر ولا أنثى، يضعُ حافرَه حيث ينتهي بصره، وإذا أخذ في هبوطٍ طالت يداه وقصُرَت رِجْلاهُ، وإذا أخذ في صعودٍ طالت رِجْلاهُ وقصُرَت يداه.

فلما دنا منه النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَصْعَبَ ومَنَعَ ظهرَه أَنْ يُرْكَبَ، فقال له جبريل: اسْكُنْ، فما ركِبَك أحدٌ أكرمُ على الله من محمّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فاستحْيَى حتّى ارْفَضَّ عرقاً، وَقَرَّ حتّى رَكِبَه، ثم سَارَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجبريل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ معه لا يفارقُه، حتّى انتهَى إلى بيتِ المقدس، فربطَ البُرَاقَ بالحلقةِ التي في الباب، ودخل المسجد. وأنكرَ حُذيفة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ رواية رَبْطِ البُرَاقِ، وقال: لم يَفِرَّ منه، وَقَدْ سَخَّرَهُ له عَالِمُ الغَيبِ والشَّهادَة. ورُدَّ عليه بأنّ الأخذَ بالحزْمِ لا يُنافي صِحَّةَ التّوَكُّل، وقد كانَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتزَوَّدُ في أسفارِه، ويُعِدُّ السَّلاحَ في حُرُوبِه، حتّى لقَدْ ظاهرَ بينَ درعين في غزوةِ أُحُدٍ.

وفي حديث أبي سفيان قبل إسْلَامِه: أنّه أرَادَ أَنْ يَحُطَّ من قدرِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لقَيْصَرَ: ألا أخبرُكَ أيّها الملك عنه خبراً تعلم منه أنه يَكْذِب؟، فقال: وما هو؟، قال: إنّه يزعمُ أنه خرَج من أرضِ الحرَم فجَاء مسجدَكم هذا، ورجع إلينا في ليلةٍ واحدةٍ، فقال: بِطْرِيقٌ: أنا أعرفُ تلك الليلة، فقال له قيصر: ما عِلْمُكَ بها؟، قال: إني كنتُ لا أَبِيْتُ حتّى أُغْلِقَ أبوابَ المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقتُ الأبوابَ كلّها غيرَ بابٍ واحدٍ غلبني، فاستعنتُ عليه بعُمَّالي ومن يحضُرُني، فلم نَقْدِرْ، فقالوا: لعَلّ البِنَاءَ قد نَزلَ عليه، فاتركوه إلى الغَدِ، حتّى يأتيَ النّجَّارُ فيُصلحه، فتركْتُه مفتوحاً، فلمّا أصبحْتُ، غدوت فإذا الحَجَرُ الذي

من زاويةِ الباب مَثْقُوبٌ ، وإذا فيه أَثَرُ مَرْبَطِ الدَّابَّةِ ، ولم أَجِدْ بالبابِ ما يَمْنَعُه من الإغلاق ، فعلمتُ أنه إنمّا امتنعَ لأجْلِ ما كنتُ أجِدُه في العِلْمِ القَدِيم ؛ مِنْ أَنَّ نبيّاً يصْعَدُ مِن بَيتِ المقْدِسِ إِلَى السَّمَاءِ ، وعند ذلك قُلْتُ لأصحابي: مَا حَبَسَ هذا البابَ اللّيلةَ إلّا هذا الأمرُ.

ثمّ صَلّى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وجبريلُ كلّ واحِدٍ ركعتين ، فلم يلبثا إلا يسيراً حتى اجتمع ناسٌ كثيرٌ ، فعرَفَ أنّهم النَّبيّون ، وهم ما بين قائم وراكع وساجد ، ثم أذّنَ مُؤذّنٌ وأقيمَت الصَّلاةُ ، فقاموا صفوفاً ينتظرون مَن يَؤُمُّهم ، فأخذَ جبريلُ بيدِ النَّبيِّ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدَّمَهُ يَؤُمُّهم ، فصَلّى بهم ركْعَتين ، فلمّا انصرفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صَلاته ، قال له جبريلُ: يا محمد لقد صلّى خلفَك كلُّ نبيٍّ بعثَه الله تعالى. وقد تظافرتِ الرّوايات بصلاتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام ببيتِ المقدس. وأُتِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة أُسْرِيَ به بقَدَحين من خمر ولبَن ، فنظر إليهما ، فأخذَ اللبّن ، فقال له جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة ، لو أخذت الخمرة لغوت أمتك ولم يتبعك منهم إلا القليل.

وفي روايةٍ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَخَذَنِي العَطَشُ أَشَدُّ مَا أَخَذَنِي ، فَأُتِيتُ بِإِنَاءَينِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الآخَرِ عَسَلٌ ، فَهَدَانِي الله تَعَالَى ، فَأَخَذْتُ اللّبَنَ فَشَرِبْتُ» ، وفي روايةٍ أنه قال: «لمّا خَرَجْتُ مِنَ المَسْجِدِ جَاءَنِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الفِطْرَةَ» ، وروي أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بثلاثِ آنيةٍ مُغطّاةٍ أفواهها ، في أحدها لبن ، وفي الثاني ماء ، وفي الثالث خمر ، فشرب إناء اللبن كلّه ، وأما الذي فيه ماءٌ فشربَ منه قليلا ، وأما الخمر فلم يشرب منه شيئاً ، فَقِيْلَ له: اشرب ، فقال: «لَا أُرِيدُهُ فَقَدْ رَوِيتُ» ،

فقال له جبريل: «إِنَّهُ سَيُحَرَّمُ عَلَى أُمَّتِكَ، وَلَوْ شَرِبْتَهُ لَغَوِيَتْ أُمَّتُكَ وَلَمْ تَتَّبِعْكَ».

وجاء أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قبلَ وصولِه إلى بيتِ المقدس سارَ حتّى بلغَ أرضاً ذاتَ نَخْلٍ، فقال له جبريلُ: انْزِلْ فصَلِّ هنا، ففعل، ثم رَكِبَ، فقال: أتدري أينَ صليت؟، قال: «لا»، قال: صليت بطيبة وإليها المهاجرة، ثم انطلق البراق يهوي، يضع حافره حيثُ أدركَ طَرْفُه، حتى إذا بلغ أرضاً، فقال له جبريل: انزل فصلِّ ههنا، ففعل ثم ركبَ، فقال له جبريل: أتدري أين صليت؟، قال: «لا»، قال: صلّيت بمدين عند شجرة موسى، ثم رَكِب، فانطلق البراق يهوي به، ثم قال له جبريل: انزلْ فَصَلِّ، ففعل ثم رَكِبَ، فقال له: أتدري أين صليت؟، قال: «لا»، قال: صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ومرّ ﷺ على موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر، ومر على قبرِ إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فقال له جبريل: انزل فصَلِّ ركعتين.

وبينا هو ﷺ يسيرُ على البراق إذْ رأى عفريتاً من الجِنِّ يطلبُه بِشُعْلَةٍ من نارٍ كلمّا التفتَ رَآهُ، فقال جبريل: أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ تَقُولُهُنَّ، إِذَا قُلْتَهُنَّ طَفِئَتْ شُعْلَتُهُ وَخَرَّ لِفِيهِ؟، فقال ﷺ: «بَلَى»، فقال: قُلْ: «أَعوذُ بِوَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ، وَبِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَمِنْ فِتَنِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ، وَمِنْ طَوَارِقِ اللّيلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيرٍ يَا رَحْمَنُ». فقال ذلك فانكَبَّ العفريتُ وطفِئَتْ شعلتُه.

ورأى ﷺ حالَ المجاهدين في سبيل الله، فرأى قوما يزرعون في يوم، ويحصدونه في يوم، كلما حصدوا عادَ كما كان، فقال: «يَا جِبْرِيلُ مَا

هَذَا» ؟، قال: هَؤُلَاءِ المُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله تُضَاعَفُ لَهُمُ الحَسَنَةُ بِسَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَا أَنْفَقُوا مِنْ خَيرٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ. ووجدَ ﷺ ريحَ مَاشِطَةِ بنتِ فرعون. ورأى عن يمينه داعيًا يقول: يا محمد انظرني أسألك، فلم يجبه، فقال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ» ، فقال: داعي اليهود، أما إنك لو أجبته لتهودت أمّتُك، ورأى عن يساره داعياً يقول: يا محمد انظرني أسألك، فلم يجبه، فقال: «مَا هَذَا يَا جِبرِيلُ» ؟، قال: هذا داعي النصارى، أما إنك لو أجبته لتنصّرَت أمتُك. ورأى النبيُّ ﷺ حالَ الدنيا، فرأى امرأةً حاسرةً عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى، فَقَالَتْ: يا محمّد انظرني أسألك، فلم يَلْتَفِتْ إليها، فقال: «مَنْ هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ» ؟، قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة، ورأى عجُوزًا على جانب الطريق، فَقَالَتْ: يا محمد انظرني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: «مَنْ هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ» ؟، فقال: إنه لم يبقَ من عمر الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز.

وكُشِفَ له ﷺ عن حال من يقبل الأمانة مع عجزه عن حفظها، فرأى رَجُلًا قد جمع حُزْمَةَ حَطَبٍ عظيمة، لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها، فقال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ» ؟ قال: هذا الرَجُل من أمتك تكون عنده أمانات الناس لا يقدر على أدائها ويريد أن يتحمل عليها. وكشف له ﷺ عن حال من يترك الصّلاة المفروضة، فَأتى على قوم تُرْضَخُ رُؤُوسُهم، كلما رُضِخَت عادت كما كانت، ولا يفترُ عنهم من ذلك شيء فقال: «يَا جِبْرِيلُ مَا هَؤُلَاءِ» ؟، قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسُهم عن الصلاة المكتوبة. وكشف له ﷺ عن حال من يترك الزكاة الواجبة، فأتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم، ويأكلون الضَّرِيع والزّقوم، فقال ﷺ:

«مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ»؟، قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم المفروضة عليهم.

وكُشِفَ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حَال الزُّنَاة، فأتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نَضِيجٌ ولحمٌ نيِّءٌ خَبِيثٌ، فجعلوا يأكلون من ذلك النيِّءِ الخبيثِ ويدعون النَّضِيجَ الطَّيِّب، فقال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ»؟، قال: هذا الرَجُل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا فتأتي رَجُلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح. وكُشِفَ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حال من يقطع الطريق، فأتى على خشبة لا يمر بها ثوب ولا شيء إلا خرقته، فقال: «مَا هَذِهِ يَا جِبْرِيلُ»؟، قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه. وكشف له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حال آكل الربا، فرأى رَجُلًا يسبح في نهر من دم يلقم الحجارة، فقال له: «مَنْ هَذَا»؟، قال: آكل الربا. وكشف له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حال من يَعِظُ ولا يَتَّعِظُ، فأتي على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد، كلما قُرِضَتْ عادت، لا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: «مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ»؟، فقال: هؤلاء خطباء الفتنة، يقولون ما لا يفعلون.

وكُشِفَ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حال المُغْتَابِينَ، فمر على قوم لهم أظفار من نحاس يخدشون وجوهَهم وصدورَهم، فقال: «مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ»؟، فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم. وكشف له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حال من يتكلم بالفحش، فأتى على جُحْرٍ صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث يخرج فلا يستطيع، فقال: «مَا هَذَا الرَّجُلُ يَا جِبْرِيلُ»؟، فقال: هذا الرَجُل من أمتك يتكلم الكلمة العظيمة ثم يندم عليها،

فلا يستطيع أن يردها. وكشف له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن حال الجنة، فأتى على وادٍ فوجدَ ريحًا طيّبة باردةً كريحِ المسْكِ، وسمع صوتًا حسنًا، فقال: «يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا»؟، قال: هذا صوت الجنة، تقول: يا رب ائتني بما وعدتني. ثم كشف له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن حال النار، فأتى على وادٍ فسمعَ صوتًا منكرا، ووجد ريحًا خبيثة، فقال: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ»؟، قال: هذا صوت جهنم، تقول: يا رب ائتني بما وعدتني.

ورأى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تلك الليلة الدَّجَّالَ شَبيهاً بعبدِ العُزّى بن قطن، ومرّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شخصٍ متنحياً على الطريق، يقول: هلم يا محمد، فقال له: جبريل: سِرْ يا محمد، قال: «مَنْ هَذَا»؟، فقال: هذا عدو الله إبليس، أراد أن تميل إليه.

ثم كان المعراج بعد الإسراء، وفي كلام بعضهم: أنه لم يختلف أحدٌ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرِجَ به من عند القُبّة التي يُقَالُ لها قبلة المِعْرَاج، من عند يمين الصخرة. قال الإمام أبو بكر بن العربي في شرحه لموطأ مالك: صخرة بيت المقدس من عجائب الله تعالى فإنها صخرة قائمة في وسط المسجد الأقصى، لا يمسكها إلا الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، في أعلاها من جهة الجنوب قَدَمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد مالت من تلك الجهة لهيبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي الجهة الأُخْرَى أَصَابعُ الملائكة التي أمْسَكتْهَا لما مَالَتْ، ومن تحتها المغَارة التي انفصَلت من كل جهة، فهي معلقة بين السماء والأرض، وامْتَنَعْتُ لهيبَتِها من أنْ أدْخُلَ تحتها، ثم بعدَ مُدّة دخلتُها فرأيتُ العجَبَ، ومن يمشي في جوانبها يراها منفصلة عن الأرض، وبعض الجهات أشد انفصالا من بعض.

فعُرِجَ به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّماء، على المِعْرَاج الذي تعرج أرواح بني آدم

فيه، وهو سُلّمٌ له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب مُنَضَّدٌ باللّؤْلؤِ، لم ير الخلائق أحسن منه، وعن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة، فصعدَ هوَ وجبريلُ عليهما الصلاة والسلام، حتى انتهى إلى بابٍ من أبوابِ سَماءِ الدنيا، يُقَالُ له: بابُ الحَفَظَة، وعليه ملك من الملائكة يُقَالُ له: إسماعيلُ، فاستفتح جبريلُ، فَقِيْلَ: من أنت؟، قال: جبريل، فَقِيْلَ: ومن مَعَكَ؟، قال: محمّد، فقيل: وقد بُعِثَ إِلَيه؟، قال: قد بعث إليه، فَفَتَحَ لهما، فإذا فيها آدم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو كيوم خلقه الله تعالى، على غايةٍ من الحُسْن والجمَال، وإذا عن يمينه أَسْوِدَةٌ، وبابٌ تخرج منه ريحٌ طيبة، وعن شماله أَسْوِدَةٌ، وبابٌ تخرُج منه ريحٌ خبيثة، فإذا نظر عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر عن شماله حزن وبكى، فسلّمَ عليه رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: مرحباً بالابن الصَّالِح والنَّبِيِّ الصَّالح، فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل: «مَنْ هَذَا»؟، فقال: هذا أبوك آدم، وهذِه الأسْوِدَةُ نَسَمُ بَنِيهِ، فأهل اليمين أهل الجنة، وأهل الشمال أهل النار؛ فإذا نظر عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر عن شماله حزن وبكى.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّمَاءِ الثانية، فاستفتحَ جبريلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقِيْلَ: من أنت؟، قال: جبريلُ، فقيل: ومن مَعَكَ؟، قال: محمّد، فقيل: وقد بعث إليه؟، قال: نعم، فَفُتِحَ لهما، فإذا رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بابني الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا صلوات الله وسلامه على نبيّنا وعليهما، وأحدُهما شبيهٌ بصاحبه، في ثيابهما وشعرهما، ومعهما نفرٌ من قومهما، فرحَّبا به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعوَا له بخير.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّمَاءِ الثالثة، فاستفتحَ جبريلُ، فَقِيْلَ: من هذا؟،

قال: جبريل، فقيل: ومن مَعَكَ؟، قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟، قال: نعم؛ قد بعث إليه، ففتح لهما، فإذا فيها يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعه نفر من قومه، وإذا هو قد أعطي شطرَ الحسن، فرحَّبَ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعا له بخير.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّمَاءِ الرابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن مَعَكَ؟ قال محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بعث إليه ففتح لهما، فإذا فيها إدريسُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال: مرحبا بالأخ الصّالح والنَّبِيِّ الصالح ودعا له بخير.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّمَاءِ الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟، قال: جبريل، فقيل: ومن مَعَكَ؟، قال: محمد، فقيل: وقد بُعث إليه؟، قال: قد بُعث إليه، ففتح لهما، فإذا بها هارونُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء، تكاد تضرب إلى سرته من طولها، وحوله قوم من بني إسرائيل وهو يقص عليهم، فرحَّبَ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعا له بخير، فقال: «يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَذَا»؟، قال: هذا الرَّجُل المحبّب في قومه هارون بن عمران؛ لأنه كانَ ألينَ لهم من موسى عليهما الصلاة والسلام.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّمَاءِ السّادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟، قال: جبريل، فقيل: ومن مَعَكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟، قال: قد بعث إليه، ففتح لهما، فإذا فيها موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرحَّبَ به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعا له بخير.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى السَّمَاءِ السابعة، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: من

هذا؟، قال: جبريل، فقيل ومن مَعَكَ؟، قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟، قال: نعم قد بعث إليه، ففتح لهما، فإذا فيها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهو جالس عند باب الجنة على كرسيٍّ ومسندٌ ظهرَه إلى البيت المعمور، وعنده أطفال، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ لجبريل: «مَنْ هَؤُلَاء»؟، قال: هؤلاء أولاد المؤمنين الذين يموتون صغارًا، فرحبَّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالنبيِّ ﷺ، وقال له: «يا نبيَّ الله، إنك مُلاقٍ ربَّكَ الليلة، وَإنّ أمتك آخرُ الأمم وأضعفها، فإنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ حَاجَتُكَ فِي أُمَّتِكَ فَافْعَلْ»، وقال له: «أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنّةَ طَيِّبَةَ التُّرْبَةِ عَذْبَةَ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيْعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَها: سُبْحَانَ الله، والحَمْدُ لِله، ولا إِلهَ إِلّا الله، والله أَكْبَرُ».

ثم ذهبَ جبريلُ به ﷺ إلى سِدْرَةِ المنْتَهى، وإذا أوراقها كآذان الفيلة، وثمرها كالقلال، فلما غشيها مِن أمرِ الله ﷻ ما غشيها تغيّرت، وصارَ لها حالة من الحسْنِ غير تلك الحالة التي كانت عليها، فما أحد من خلق الله ﷻ يستطيع أن ينعتها من حسنها؛ لأنّ رؤية الحسن تدهش الرّائي، ويخرج من أصل هذه الشجرة أربعة أنهار: نهران باطنان، يغيبان في الجنة بعد خروجهما من أصل تلك الشجرة، ونهران ظاهران، يظهران بعد خروجهما من أصل تلك الشجرة فيجاوزان الجنة: فقال ﷺ: «مَا هَذِهِ، الأَنْهَارُ يَا جِبْرِيلُ»؟، فقال له: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. وعن مقاتل: أن النهران الباطنان هما: السلسبيل والكوثر. ومعنى كونهما باطنين أنهما لم يخرجا من الجنة أصلا، ومعنى كون النيل والفرات ظاهرين أنهما يخرجان منها.

ثمَّ أُدْخِلَ رسولُ الله ﷺ الجنّةَ، فإذا فيها قباب اللؤلؤ، وإذا ترابها

المسك، ورمانها كالدِّلَاء، وطيرُها كالبُخْتِ، وفي الحديث: «مَا فِي الدُّنْيَا ثَمَرَةٌ حُلْوَةٌ ولا مُرَّةٌ إلّا وَهِيَ في الجنَّةِ حتَّى الحنْظَل، والذِي نفسُ محمَّدٍ بيَدِه لا يَقْطِفُ رَجُلٌ ثمرَةً من الجنَّةِ فتَصِلَ إلى فِيهِ حَتّى يُبَدِّلَ الله مَكَانَهَا خيراً مِنها». قال رسول الله ﷺ: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى نَهْرٍ عَلَيهِ خِيَامُ اليَاقُوتِ وَاللُّؤْلُؤِ وَالزَّبَرْجَدِ، وَعَلَيهِ طَيْرٌ خُضْرٌ؛ نِعْمَ الطَّيرُ رَأَيتُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا الكَوثَرُ الذِي أَعْطَاكَ الله، فَإِذَا فِيهِ آنِيَةُ الذَّهَبِ وِالفِضَّةِ، يَجْرِي عَلَى رُضَاضٍ مِنَ اليَاقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ، وَمَاؤُهُ أَشَدُّ بيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، فَأَخَذْتُ مِنْ آنِيَتِهِ وَاغْتَرَفْتُ مِنْ ذَلِكَ فَشَرِبْتُ، فَإِذَا هُوَ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَشَدُّ رَائِحَةً مِنَ المِسْكِ».

ورَأى رسُولُ الله ﷺ جبريلَ عند تلك السِّدْرَةِ على الصُّورَةِ التي خلقه الله ﷻ عليها، له سِتمّائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، وغشيت تلك السدرة سحابة، فتأخر جبريلُ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ ﷺ في تلك السَّحابة، حتّى بلغ إلى مستوى سمع فيه صَرِيفَ الأَقْلَام.

ويرْوَى: أنَّ جبريلَ لما وصَل إلى مقامه وهو سدرة المنتهى، قال للنبيِّ ﷺ: ها أنت وربك، هذا مقامِي لا أتعَدَّاه، تَقَدَّم يا محمَّدُ، فقال له ﷺ: «في مِثْلِ هَذَا المقَام يَتْرُكُ الخَلِيلُ خَلِيلَهُ»؟، فقال جبريلُ: إنْ تجاوزت احترقتُ بالنار، فتَقَدَّم النبيُّ ﷺ حتى انتهى إلى الرَّفْرَف، وهو سَريرٌ من ذهب عليه فراش من حرير الجنة، وناداه جبريلُ من خلفه: يا محمد إنّ الله يُثني عليك، فاسمع وأطع ولا يهولنك كلامه. ثم زُجَّ بِهِ ﷺ في النُّورِ، فخَرَقَ من الحُجُب سَبعينَ ألف حِجَاب، ليس فيها حجابٌ يشبه حجاباً، غلظ كل حجاب خمسمائة عام، وانقطع عنه حِسُّ كلّ مَلَك، فإذا النداء من قبل العلي

الأعلى، يقول: «ادْنُ يَا خَيرَ البَرِيَّة، ادْنُ يَا أَحْمَدُ، ادْنُ يَا مُحَمَّدُ»، فأدناه ربه، حتّى كان كما قال ﷻ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨ ـ ٩].

وفي الخصائص الصغرى: وخُصَّ ﷺ بالإِسْرَاء وما تضمّنه من اختراق السماوات السبع، والعلو إلى قاب قوسين، ووطئه مكاناً ما وطئه نبيٌّ مرسل، ولا ملك مقرّب. ومعلوم أنّ معنى الدنو والتدلي الواقعين من الله ﷻ، كمعنى النّزُول منه ﷻ المذكور في الحديث الصحيح: «يَنْزِلُ رَبُّنا ﷻ إِلَى سَمَاءِ الدُّنيا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللّيلِ الأَخِير..»، وذلك عند أهل الحقائق مقام التنزل؛ بمعنى أن الله تعالى يتلطف بعباده ويتنزل في خطابه لهم، فيطلق على نفسه ما يطلقونه على أنفسهم، فهو في حقهم حقيقة، وفي حقه ﷻ مجاز. وذكر بعضهم: أن فاعل «دَنَا» محمد ﷺ، أي سَجَدَ لرَبِّه ﷻ شكرا على ما أُعْطِيَ مِنَ الزُّلْفَى.

قال ﷺ: «وَسَأَلَنِي رَبِّي، فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُجِيبَهُ ﷻ، فَوَضَعَ يَدَهُ ﷻ بَينَ كَتِفَيَّ بِلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَحْدِيدٍ، فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا، فَأَوْرَثَنِي عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَعَلَّمَنِي عُلُوماً شَتَّى، فَعِلْمٌ أَخَذَ عَلَيَّ كِتْمَانَهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهِ غَيرِي، وَعِلْمٌ خَيَّرَنِي فِيهِ، وَعِلْمٌ أَمَرَنِي بِتَبْلِيغِهِ إِلَى العَامِ وَالخَاصّ مِنْ أُمَّتِي، وَهُمُ الإِنْسُ وَالجِنُّ».

ولما رأى النَّبِيُّ ﷺ الحقَّ ﷻ خَرَّ سَاجدًا، قال ﷺ: «فأوحى الله ﷻ إليَّ مَا أَوْحَى». وقد ذُكِرَ أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ ما أوحَى الله تعالى إليه: «أَنّ الجَنَّةَ حَرَامٌ عَلَى الأَنْبِيَاءِ حَتّى تَدْخُلَهَا يَا مُحَمَّدُ، وَحَرَامٌ عَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُكَ،

وَخَصَصْتُكَ بِحَوضِ الكَوثَرِ، فكُلّ أَهْلِ الجَنَّةِ أَضْيَافُكَ بِالمَاءِ، وَلَهُمُ الخَمْرُ وَاللَّبَنُ وَالعَسَلُ»، ومن جُمْلَةِ مَا أوحِيَ إليه ﷺ في هذا الموطن من القرآن الكريم: خواتيم سورة البقرة، وبعض سورة الضحى، وبعض ألم نشرح، وفرض عليه ﷺ وعلى أمته خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

ثم رجَعَ ﷺ، وعند وصوله إلى سدرة المنتهى في المحل الذي وقف فيه جبريل، أخذ جبريل بيده فانصرفَ سريعاً، فأتى على إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فلم يقل له شيئا، ثم أتى على موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال له: «مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيكَ»؟، قال: «خَمْسِينَ صَلَاة»، قال: «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِنِّي وَالله قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالجْتُ بني إِسْرَائيلَ أَشَدَّ المُعَالجَةِ، فَإِنَّهُ فُرِضَ عَلَيهِمْ صَلَاتَانِ فَمَا قَامُوا بِهِمَا، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ»، فرجع ﷺ فانتهى إلى الشجرة فغشيته السحابة، وخر سَاجداً، فقَال: «يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي»، فحطَّ عنه خمساً، فرجعَ إلى موسى فقَال: «حَطَّ عنِّي خَمْسًا»، قال: «إنّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ وَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ»، قال ﷺ: «فَلَمْ أَزَلْ أَرجِعُ بَينَ رَبِّي ﷻ وَبَينَ مُوسَى ﷺ، حَتَّى قالَ اللهُ تَعَالَى: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُنَّ خَمسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَومٍ وَلَيلَةٍ، كُلُّ صَلَاةٍ بَعَشْرٍ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُ لَهُ عَشراً، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُ عَلَيهِ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»، قال ﷺ: «فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهيتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فقال: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيتُ مِنْهُ».

عاد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستوى على ظهر البراق، فما كان أَسْرَعَ مَا إِنْ أَشْرَفَ به على مَكَّةَ ومعه جبريل، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأم هانئ بعد أن أخبرها بما جرى: «أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى قُرَيْشٍ فَأُخْبِرُهُمْ بِمَا رَأَيْتُ»، قالت أم هانئ: فَعَلِقْتُ بردائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقُلْتُ: أنشدك الله يا بن عم لا تحدث بهذا قُرَيْشًا فيكذبك من صَدقك، إني أذكرك الله أنْ لا تأتي قوماً يكذّبونك وينكرون مقالتك، وأخاف أن يسطوا بك، فضرب بيده الشريفة على ردائه، فانتزعه من يدي، ثم انتهى إلى نفر من قُرَيْش في الحطيم، فيهم المُطْعِم بن عَدِيّ وفيهم أبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي صَلَّيتُ اللَّيلَةَ العِشَاءَ فِي هَذَا المَسْجِدِ، وَصَلَّيتُ بِهِ الغَدَاةَ، وَأَتَيتُ فِيمَا بَينَ ذَلِكَ بَيتَ المَقْدِس».

وجاء أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دخل المسجد وعرَفَ أَنَّ الناسَ سَيُكَذّبونه، ومَا أَحَبَّ أن يكتُمَ ما هو دليل على قدرةِ الله تعالى، وما هو دليلٌ على علوِّ مقامِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الباعث على اتباعه، فقعد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزينًا، فمرَّ به عدوُّ الله أبو جهل، فجاءَ حتى جلس إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال مُسْتَهْزِأً: هل كَانَ مِن شَيءٍ؟، فقال: «نَعَمْ، أُسْرِيَ بِي اللّيلَةَ إِلَى بَيتِ المَقْدِس»، قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! فقال: «نعم»، فلم يُرِدْ أبو جهل أن يُكذّبه مخافةَ أن يجْحَدَهُ الحديثَ إنْ دعَا قومَه إليه، فقال له: أرَأيتَ إنْ دعوتُ قومَك أَتُحدّثهم بما حدثْتَني؟، قال: «نعم»، قال: يا معشر بني كعب بن لؤي، فانْفَضّت إليه المجَالسُ وجَاؤوا حتى جلسوا إليهما، فقال: حَدِّث قومَكَ بمَا حَدّثتني به، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُسْرِيَ بِي اللَّيلَةَ إِلَى بَيتِ المَقْدِسِ، فَنُشِرَ لي رَهْطٌ مِنَ الأَنْبيَاءِ مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَصَلّيتُ بِهِمْ وَكَلَّمْتُهُمْ»، فقال له أبو جهل

كالمُسْتَهْزِئ: صِفْهُم لي، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَفوقَ الرَّبْعَةِ وَدُونَ الطَّوِيلَ، عَرِيضَ الصَّدْرِ، يَعْلُوهُ حُمْرَةٌ، جَاعِدُ الشَّعْرِ، كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيّ، وَأَمَّا مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَضَخْمٌ آدَمُ، طَوِيلٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَة[1]، كَثِيرُ الشَّعْرِ، غَائِرُ العَينَينِ، مُتَرَاكِمُ الأَسْنَانِ، مُقَلَّصُ الشَّفَتِينِ، خَارِجُ اللَّثَّةِ، عَابِسُ الفَمِ، وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَوَ الله إِنَّهُ لَأَشْبَهُ النَّاسِ بِي خَلْقًا وَخُلُقًا، لَمْ أَرَ رَجُلاً أَشْبَهَ بِصَاحِبِكُمْ وَلَا صَاحِبُكُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنْهُ». فَضَجُّوا، وأَعْظَمُوا ذلك، وصَار بعضُهم يُصَفِّقُ، وبعضهم يضع يده على رأسه تعَجُّبا، وقال المُطْعِم بن عَدِيّ: إن أمرك قبل اليوم كان يسيرًا غير قولك اليوم، وأنا أشهدُ أنك كَاذِب، نحنُ نَضْرِبُ أكبَادَ الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهرا ومنحدَرًا شهرا، أتزعم أنك أتيته في ليلة واحدة؟، واللات والعزى لا أصدقك، وما كان هذا الذي تقول قط. وارتد ناسٌ كانوا قد أسلموا.

ثُمّ إنّ رجالاً من المشركين سعوا إلى أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، فقالوا له: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس، فقال: أو قد قال ذلك؟، قالوا: نعم، فقال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟، فقال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة وروحة. فمن يَومئذٍ سَمَّى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكرٍ بـ«الصِّدِّيق».

ثم قال المطعمُ: يا محمد صِفْ لنا بيت المقدس، وأراد بذلك إظهارَ

(١) رِجَالُ شَنُوءَة: هم طائفة من اليمن، ينسبون إلى شنوءة، وهو عبد الله بن كعب من أولاد الأزدِ، لُقِّبَ بذلك لشنئآن كان بينه وبين أهله. وقيل: لأنه كان فيه شنوءَة، والمراد بها: التَّبَاعدُ من الأدْنَاس.

أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْذِبُ. فقال: «دَخَلْتُه لَيْلاً، وخَرَجْتُ مِنْهُ لَيْلاً»، فأتاه جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فصَوَّرَهُ في جَناحِه، فجعل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: بابٌ منه كذا في موضع كذا، وبابٌ منه كذا في موضع كذا، وأبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ يقول: صدقت، أشهدُ أنك رَسُوْلُ الله حتى أتى على أوصَافه، وكلُّ مَن ذهبَ بيتَ المقدس من قُرَيْش يصَدّق على ذلك. ومن ثَمَّ قيل إن حكمَة تخصيص الإِسْرَاء إلى المسجد الأقصى أَنّ قُرَيْشا تعْرِفُه، فيسألونه عنه فيخبرهم بما يعرفونه، مع علمهم أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يدخل بيت المقدس قطّ فتقومُ الحُجَّةُ عليهم.

ورُوِيَ: أنّ كفارَ قُرَيْش قالوا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنا لم نسمع بمثل هذا قط، فهل رأيت في مَسْرَاك وطرِيقكَ ما نَسْتَدِلّ بوجودِه على صدقك لأنّ وصفك لبيت المقدس يحتمل أن تكون حفظته عمَّن ذهب إليه، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «آيَةُ ذَلِكَ أَنّي مَرَرْتُ بِعِيرِ بني فُلانٍ، بِوَادِي كذا فأَنْفَرَهُم حِسُّ البُرَاقِ فَنَدَّ لَهُمْ بَعِيرٌ، فَدَلَلْتُهم عَلَيهِ وَأَنا مُتَوَجِّهٌ إِلَى الشَّام، ثُمَّ أَقْبَلْتُ حتى إِذَا كنْتُ بمَحَلّ كذا مرَرْتُ بعِيرِ بني فُلَانٍ فوجَدْتُ القَومَ نِيَاماً، ولهُمْ إِنَاءٌ فيه ماءٌ قد غَطّوا علَيهِ بِشَيءٍ فكَشَفْتُ غِطَاءَه، وشَرِبْتُ ما فيهِ، ثُمَّ غَطّيتُ عليه كمَا كانَ، وآيةُ ذلك أَنّ عِيرَهُم الآنَ تصُوبُ مِن الثّنيّة يقْدَمُها جملٌ أوْرَقُ، عَلَيهِ غِرَارَتَان إِحِدَاهما سَوْدَاء وَالأُخرَى بَرْقَاء»، فابتدر القومُ الثنيةَ، فأوّلُ ما لقيهم الجمل الأورق عليه الغرارتان، فسألوهم عن الإناء، وعن نفار العير، وعن ندِّ البعير، وعن الشَّخْص الذي دلهم عليه فصَدَّقُوا قَوْلَه.

وفي رواية: أنهم قالوا: يا مطعمُ؛ دعنا نسأله عما هو أغنى لنا عن بيت المقدس، يا محمد أخبرنا عن عِيرِنا، هل لقيت منها شيئا؟، فقال: «نَعَمْ أَتَيتُ علَى عِيرِ بَنِي فُلَانٍ بالرَّوحَاءِ، قَدْ أَضَلّوا نَاقَةً لهُم فَانْطَلَقُوا فِي طَلَبِهَا، فَانْتَهَيتُ

إِلَى رِحَالِهِم لَيسَ بِهَا مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَإِذَا قَدَحُ مَاءٍ فَشَرِبْتُ مِنْهُ فَاسْأَلُوهُم عَنْ ذَلِكَ»، فقالوا: هذه واللّاتِ والعُزَّى آية، فمتى تجيء العير؟، قال لهم: «يَأْتُوكُمْ يَومَ كَذَا وَكَذَا، يَقْدَمُهُمْ جَمَلٌ أَوْرَقُ عَلَيهِ غِرَارَتان»، فلما كان ذلك اليوم أشرفَتْ قُرَيْشٌ ينتظرون ذلك وقد ولي النهار ولم تجيء حتى كادت الشمس أن تغرب، فدعا الله تعالى فحبس الشمس عن الغروب، حتى قَدِمَت العير كما وصف صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالوا: صدق الوليد قوله: إنه سَاحر. وأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإِسْرَاء: ٦٠]، وهذا يدل على أن المراد رُؤيا الإِسْرَاء، وأنها رؤيا بالعين، إذْ لو كان الإِسْرَاء رؤيا منامية لما أُنْكِرَ عليه في ذلك.

واختلف في رؤية النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لرَبه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في تلك الليلة. فأكثر العُلَمَاء على وقوع ذلك، وأنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رآه ربَّه عَزَّوَجَلَّ بعيني رأسه. وقيل: رآه بفؤاده لا بعيني رأسه، وذهب إلى ذلك أكثر الصَّحَابة، وكثيرٌ من المحدثين والمتكلمين، وأنكرَت الرؤيةَ عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا، وقالت: (من زَعَمَ أنَّ مُحَمَّدًا رَأى ربَّه ـ أي بعيني رأسه ـ فقد أَعْظَمَ الفِرْيَةَ على الله عَزَّوَجَلَّ)، ووافقها على ذلك من الصحابة ابن مسعود وأبو هريرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما وجمعٌ من العُلَمَاء. واحتجّت عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وأجيب عما احتجت به عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا من الآية بأنه لا يلزم من الرؤية الإدراك الذي هو الإحاطة، فالنور إنما يمنع من الإحاطة به، ولا يمنع من أصل الرؤية. وقد قال بعضُهم للإمام أحمد: بأي معنى تدفع قول عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا: (من زعم أن مُحَمَّدًا رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى

الفرية)؟ فقال: يُدفعُ بقولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «رَأَيتُ رَبّي»، وقولُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكبر من قولها.

والرّاجح عند أكثر العُلَمَاء أن رَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربَّه بعينِي رأسِه. ونُقِلَ عن جماعةٍ من المحققين القول بالوقف في هذه المسألة، لأنه ليس لها دليل قاطع، وغاية ما استدل به الفريقان ظواهر متعارضة قابلة للتأويل، قال بعضهم: قد صحت الأحاديث عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُما في إثبات الرؤية، وحينئذ يجب المصير إلى إثباتها، ولا يَجْتَرِأُ أحدٌ أن يظن في ابن عباس أنَّه يتكلم في هذه المسألة بالظنِّ والاجتهاد.

ولا يخفى أنّ الإِسْرَاءَ إلى بيت المقدس والمِعْرَاج إلى السماء كانا في ليلة واحدة، وأن كلا من الإِسْرَاء والمِعْرَاج كان يقظةً بجسده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروحه، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، لأنّ العَبْدَ حقيقة هو الرّوح والجسد، ولو كان الإِسْرَاء منامًا لقال: بروح عبده، ولأنّ البراق لا يحمل الأرواح، وإنما يحمل الأجساد. واسْتُدِلّ أيضا بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]؛ لأن وصف البصر بعدم الإزاغة يقتضي أن ذلك يقظة، ولو كانت الرؤية قلبية لقال: ما زَاغ قلبه.

وفي صبيحة ليلة الإسرَاءِ والمِعْرَاج كان نزولُ جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإمامته بالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليُعَلِّمَهُ أوقاتَ الصلوات وكيفيتها، فأمرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنُودِيَ بأصحابه: «الصَّلَاةُ جَامِعَة»، فاجتمعوا وصَلّى بهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الظهر، ورَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي النّاس، وجبريلُ بين يدي رَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقتدي الناسُ برَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقتدي رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجبريلَ، ثم

صلى كذلك في بقية الصلوات، وأَمَّ جبريلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرتين: مرة أول الوقت، ومرة آخر الوقت، ليعلمه أن الوقت الاختياري للصلوات ما بين هذين الوقتين، ثم نُسِخَ قيامُ الليل بفرض الصَّلوَات الخمس، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا استقبل بيت المقدس يجعل الكعبة بينه وبينه، فيصلي بين الركن اليماني وركن الحجر الأسود، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل ذلك أدبًا منه لا وجوبا، وكان يحب أن تتحول القبلة إلى الكعبة.

بَابُ
عَرْض الإسْلَام عَلَى القَبَائِل وَإِسْلَام الأَنْصَار

عرَضَ رَسُولُ الله ﷺ نفسَه على القبائل من العَربِ؛ ليَحْمُوه ويُنَاصِرُوه على ما جاء به من الحقِّ، وكان قد أَخْفَى رسالتَه ﷺ ثلاث سنين، ثم أعلنَ بها في السنة الرابعة من البعثة، وبقيَ عشرَ سنين يدعو الناسَ إلى الإسْلام، ويُوافي الموسمَ كلّ عام، يتبع الحجاج في منازلهم بمنى والموقف، فيسألُ عَن القبائلِ قبيلةً قبيلةً، ويسأل عن منازلهم، ويأتي إليهم في أسْوَاق الموَاسم، وهي: عُكَاظُ، ومَجنَّة، وذُو المجَاز، وكانت العرب إذا حجَّتْ تُقِيمُ بعُكَاظ شهرَ شَوَّال، ثم تجيءُ إلى سُوق مَجنَّة تقيم فيه عشرين يوما، ثم تجيء سوق ذِي المجَاز فتقيم به إلى أيام الحجّ، فكان رَسُولُ الله ﷺ يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يُبلّغَ رسَالات رَبِّه ﷺ.

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: كان النَّبِيُّ ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموقف، ويقول: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي ﷻ»(١)، وعن بعضهم قال: رَأَيتُ رَسُولَ الله ﷺ يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ بِمِنًى، فِي مَنَازِلِهِمْ، قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمدِينَةِ، يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ ﷻ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً»، قَالَ: وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ يَقُولُ: هَذَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَدَعُوا دِينَ آبَائِكُمْ، فَسَأَلْتُ مَنْ هَذَا الرَّجُلُ؟،

(١) رواه الإمام النسائي في السنن الكبرى [٤/٣٦٦]، حديث رقم: (٧٧٢٧).

فَقِيلَ: هَذَا عَمُّه أَبُو لَهَبٍ[1]. وعن أبي طارق رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: رأيتُ رَسُولَ الله ﷺ بسُوقِ ذِي المجَاز يعْرِضُ نفْسَه على القَبَائِل، ويقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، تُفْلِحُوا»، وَرَجُلٌ يُتْبِعُهُ بِالْحِجَارَةِ، قَدْ أَدْمَى كَعْبَيْهِ وَعُرْقُوبَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُطِيعُوهُ فَإِنَّهُ كَذَّابٌ. فقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟، قَالُوا: غُلَامٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمطَّلِبِ، فقُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي يُتْبِعُهُ يَرْمِيهِ بالحجارة؟، قَالُوا: هَذَا عَمُّهُ عَبْدُ الْعُزَّى أَبُو لَهَبٍ[2].

وعن بعضِهم قال: إِنِّي لرَجُلٌ شَابٌّ مَعَ أَبِي بمِنَى، وأَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يَتْبَعُ الْقَبَائِلَ، يَقِفُ عَلَى الْقَبِيلَةِ، فَيَقُولُ: «يَا بَنِي فُلَانٍ، إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ، آمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تُصَدِّقُونِي حَتَّى أُنْفِذَ عَنِ الله مَا بَعَثَنِي بِهِ»، وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ أَحْوَلُ، وَضِيءٌ، ذُو جُمَّةٍ، فَإِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ مَقَالَتِهِ، قَالَ مِنْ خَلْفِهِ: يَا بَنِي فُلَانٍ، إِنَّ هَذَا يُرِيدُ مِنْكُمْ أَنْ تَسْلُخُوا اللَّاتَ وَالْعُزَّى، إِلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ، فَلَا تَسْمَعُوا لَهُ، وَلَا تَتَّبِعُوهُ، فَقُلْتُ لأَبِي: مَنْ هَذَا؟، قَالَ: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ[3].

وعَرَضَ ﷺ نفسَه على قبيلتي: كِنْدَة وكَلْب، وجاء إلى بَطْنٍ منهم

---

(١) أخرَجَهُ الحاكم في المستدرك [٢٣/١]، عن رَبِيعَةَ بْنَ عبادٍ الدِّيلِيّ، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرَجَهُ ابن حبان في صحيحه [٥١٧/١٤]، حديث رقم: (٦٥٦٢). والكَعْبُ: هو العظم الناتئ عند ملتقى الساق والقدم. والعُرْقوبُ: العصب الغليظ المُوَتَّرُ فوق عَقِبِ الإنسان.

(٣) أخرَجَهُ أحمد في المسند [٤٠٧/٢٥]، رقم: (١٦٠٢٥)، والطبراني في الكبير [٤٥/٥]، برقم: (٤٥٨٩).

يقال لهم: بنُو عبد الله، فقال لهم: «إنَّ اللهَ قَدْ أَحْسَنَ اسْمَ أَبِيْكِمْ»[1]، وعَرَضَ عليهم الإسلامَ فلم يقبلوا منه، وعَرَضَ على بني حنيفة، وبني عامر بن صعصعة، فقال له رجل منهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظفرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟، فقال: «الأَمْرُ إِلَى الله يَضَعُهُ حَيثُ شَاءَ»، فقال له: أفنقاتل العرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟، لا حاجة لنا بأمرك. وأبوا عليه، وكان في بني عامر شيخ أدركه السّن حتّى أنه لم يقدر أن يوافي معهم الموسم، فلما قدموا عليه سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريشٍ من بني عبد المطلب، يزعم أنه نَبِيٌّ يدعونا إلى أن نَمْنَعَه ونقوم معه، ونَخْرُجَ به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يده على رَأسِه، وقال: يا بني عامر هل لها من تَلَافٍ أو تدارك؟، والذي نفسي بيدِه ما يَدَّعِي النُّبوَّةَ كاذبًا أحدٌ من بني إسماعيل وإنها لحقٌّ، إنَّ رأيَكُم غابَ عنكم.

وأتى ﷺ بني عَبْسٍ، وبني سليم، وغسَّان، وبني محارب، وفزارة، وبني مُرّة، وعذرة، والحضَارِمَة، فكانوا يردونَ عليه ﷺ بأقبحِ الرّدِّ، ويقولون له: أسْرَتُك وعَشِيرَتُك أعَلَمُ بكَ حَيثُ لَمْ يَتّبِعُوك. ولم يكن أحدٌ من العَرَب أقبح رَدًّا على النبيِّ ﷺ من بني حَنِيفَة، وهم أهل اليمامة قومُ مسيلمة الكذاب.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما خَرَجَ النبيُّ ﷺ يَعْرِضُ نفسَه عَلَى قَبَائلِ العَرب، خَرَجتُ وأبو بكرٍ معه، فدفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر، وكان رجلاً نسَّابة، فقال: ممّن القوم؟، فقالوا: من

---

(١) أخرَجَهُ البيهقي في دلائل النبوة [٢/٢٩٠]، حديث رقم: (٦٩٢).

ربيعة، قال: أمن هَامِها أم من لهَازِمِها؟، قالوا: بل من هامتها العُظْمى، فقال: وأيّ هامتها العظمى أنتم؟، قالوا: ذهلٌ الأكبر، قال: أمنكم عَوف الذي كان يقال: لا حرَّ بوادِي عَوفٍ؟، قالوا: لا، قال: أمنكم بسطامٌ ذو اللوَاء ومنتهى الأحياء؟، قالوا: لا، قال: أمنكم الحوْفِزَان قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟، قالوا: لا، قال: أمنكم المزْدَلف صاحب العمامة الفرْدة؟، قالوا: لا. قال: أفأنتم أخوال الملوك من كندة؟، قالوا: لا، قال: أفأنتم أصهار الملوك من لخمٍ؟، قالوا: لا، قال: فلسْتُم ذُهلاً الأكبر؛ أنتم ذهْلٌ الأصغر. فقام إليه غلامٌ من بني شَيبان يقال له: دغْفلٌ، فقال:

إنَّ عَلَى سِـــائِلِنَـا أنْ نَســـأَلَـه وَالْعِـبْءُ لَا تَـعْرِفُـهُ أوْ تَـحْـمِـلَـهْ

ثم قال له: يا هذا إنك سألتنا فلم نكتُمك شيئاً، فمَن الرَّجُل أنت؟، قال: رجل من قريش، فقال: بَخٍ بَخٍ؛ أهلُ الشرف والرِّيَاسَة، فمنْ أي قريش أنت؟، قال: من تيمِ بن مرة، قال: مكَّنْتَ والله الرَّامي من صَفاء الثّغرة، أمنكم قُصَيُّ بن كلاب الذي جمع القبَائل من فِهْر فكان يُدعى مجمّعاً؟، قال: لا. قال: أمنكم هاشِم الذي قال فيه الشاعر:

عَمْرُو الـذِي هَشَـــمَ الثّرِيْـدَ لِقَومِـهِ ورِجَـالُ مَكّـةَ مُسْــنِتُونَ عِجَـافُ

قال: لا. قال: أمنكم شيبة الحمد، مطعم طير السماء، الذي كان وجهه قمَراً يُضيء ليلَ الظلام الدّاجِي؟، قال: لا، قال: أفمن المفضِين بالنَّاس أنتَ؟، قال: لا، قال: أفمِن أهلِ الحجَابة أنت؟، قال: لا، قال: أفَمِن أهْل السِّقاية أنت؟، قال: لا، قال: فاجْتَذَبَ أبُو بكرٍ زمامَ ناقتِه، فرجع إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له الغلام دغْفلٌ:

صَــــادَفَ دَرْءُ السَّــــيلِ دَرْءًا يَدْفَعُهْ يُهِيضُــــهُ طَوراً وطَوراً يَصْــــدَعُـهْ

أما والله لو ثبَتّ لأخبرتك أنك من زَمعَات قريش أو مَا أنا بدغفل. فتبسّم رسولُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فقلت لأبي بكر: لقد وقعت من الأعرابي على باقِعَةٍ. قال: أجل؛ إن لكلِّ طَامّةٍ طامّة، وإنَّ البَلاءَ مُوَكلٌ بالمنْطِق(١).

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما: أنّ رَسُولَ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقيَ جماعَةً من بني شَيبان بن ثعلبة، وكان معه أبو بكر وعليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، فسألهم أبو بكر ممّن القوم؟، فقالوا: من شَيبان بن ثعلبة، فالتفتَ أبو بكر إلى رَسُولِ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: بِأبي أنتَ وَأمّي، هؤلاءِ غُرَرٌ في قومِهم، وفيهم مَفْرُوق بن عمرو، وهَانئ بن قَبِيصَة، والمثنّى بن حَارثة، والنّعمان بن شريك، وكان مفروق أدنى القوم مجلساً من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأحسنهم جمَالاً ولسَاناً، فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟، قال مَفْرُوق: إنا لنزيد على الألفِ، ولنْ تُغْلبَ الألفُ من قِلّة، فقال أبو بكر: كيفَ المنَعَةُ فيكم؟ قال: علينا الجهد، ولكل قوم جِدّ، فقال: فكيفَ الحرْبُ بينكم وبينَ عَدوّكم؟، قال: إنّا لأشدّ ما نكونُ غضباً حينَ نلقَى، وإنا لأشدّ ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجيَادَ على الأولادِ، والسِّلاحَ على اللّقَاح، والنصرُ من عند الله تعَالى، يُدِيلُنا مَرَّةً، ويُدِيلُ علينا مَرَّةً، لعلك من قُرَيش، فقال أبو بكر: أوَقَدْ بلغَكُم أنّ رَسُولَ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، قال: بلغنا أنه يَذكرُ ذلك، فإلَامَ تدعو يا أخا قريش؟، فتقدّمَ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «أَدْعُو إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

---

(١) "السيرة النبوية "، لابن حبان، ص: (٣٤)، و"أمثال الحديث" لأبي الشيخ الأصفهاني، ص: (١٨).

لَهُ وَأَنِّي رَسُولُ الله ، وَأَنْ تُؤْوُونِي وَتَنْصُرُونِي ، فَإِنّ قُرِيشاً قَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ الله وَكَذَّبتْ رَسُولَه ، وَاسْتَغْنَتْ بِالبَاطِلِ عَنِ الحقِّ ، وَالله هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ».

قال: وإلامَ تدعو أيضًا يا أخا قريش؟، فقال رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، قال مفروق: ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم عرفناه، وإلَامَ تدعو أيضًا يا أخَا قُريش، فتلا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآىِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال مفروق: دعوتَ والله إلى مكَارم الأخْلاق، وإلى محاسِن الأعمال، ولقد أَفِكَ قَومٌ كذّبوك وظاهروا عليك، ثم قال: هذا هَانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعنا مقالتك يا أخَا قريش، وإني أرى أنَّ تَرْكَنا دِينَنا، واتباعنا إيّاك على دينك بمجلسٍ جلسْتَه إلينا، ليسَ له أوّلٌ ولا آخرٌ؛ لزَلّةٌ في الرَّأي وقِلّةُ نَظَرٍ في العاقبة، وإنّما تكون الزّلةُ مع العَجَلة، ومِنْ ورَائِنا قومٌ نكرَهُ أنْ نَعْقِدَ عَليهم عقداً، ولكنْ نرجعُ وترجعُ ونَنْظُر وتَنْظُر، ثمّ قال: وهذا المثنى بن حارثة شَيخنا وصَاحِبُ حرْبِنا، فقال المثنّى: قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، والجوَاب هو جوابُ هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا واتباعنا دينك، وإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي ميَاهَ العربِ دونَ ما يلي أنهار كسرى فعلنا،

فإنا إنّما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى: أن لا نُحْدِثَ حَدَثاً، وأن لا نُؤْوِي مُحْدِثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه أنت هُوَ مما تكرهُه الملوك، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ، إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ دِينَ الله ﷻ لَنْ يَنْصُرَهُ إلّا مَن أَحَاطَ بِهِ مِن جَمِيعِ جَوَانِبِه، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى يُورِثَكُمُ الله أَرْضَهُمْ وَأَمْوَالَهُم، وَيُغْرِسَكُمْ نِسَاءَهُم تُسَبِّحُونَ اللهَ وَتُقَدِّسُونَه»؟. فقال له النعمان: اللَّهُمَّ لك ذَا؟، فتلا رَسُولُ الله ﷺ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧]. ثمّ نهضَ من عندهم[1].

وهؤلاء لم أقفٍ على إسلام أحَدٍ منهم، إلا أنّ في الصحابة شخصًا يُقال له: المثنى بن حارثة الشيباني، وكان فارس قومه، وسيدهم، والمطاع فيهم، وقائدا في الفتوحات الإسلامية في بلاد فارس، ولعله هو هذا، لقول هانيء بن قبيصة فيه: شَيخنا وصَاحِبُ حَرْبنا.

ولما قَدِمَت قبيلةُ بَكْرِ بن وائل مكّةَ للحجّ قال رَسُولُ الله ﷺ لأبي بكر: «ائْتِهِمْ فاعْرِضْنِي عَلَيهم»، فأتاهم فعرَض عليهم، فقال لهم: كيف العدد فيكم، قالوا: كثير مثل الثّرى، قال: فكيفَ المنْعَةُ؟ قالوا: لا مَنعة، جاوَرْنَا فَارِسَ فنحنُ لا نمنعُ منهم ولا نُجيرُ عليهم، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَفتَجْعَلُونَ لله عَلَيكُمْ إِنْ هُوَ أبقَاكُم حَتّى تَنْزِلُوا مَنَازِلَهُم، وَتَسْتَنكِحُوا نِسَاءَهم، وتَسْتَعْبِدُوا

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم [١/٢٥٠]، برقم: (٢٠٩). ودلائل النبوة للبيهقي [٢/٢٩٧]، برقم: (٦٩٥).

أبنَاءَهُم ، أنْ تُسَبِّحُوا الله ثلاثاً وَثَلَاثِينَ ، وَتَحْمَدُوهُ ثَلاثاً وثَلاثِينَ ، وَتُكَبِّرُوهُ ثَلاثاً وَثَلَاثِينَ» ؟ قالوا: ومن أنت ؟ ، قال: «أَنَا رَسُولُ الله» ، ثُمّ مَرَّ بهم أبو لهَب ، فقالوا له: هل تَعرِفُ هَذَا الرَّجُل ؟ ، قال: نعم ، فأخبروه بما دعاهم إليه ، وقالوا له: إنه زَعَمَ أنه رَسُولُ الله ﷺ ، فقال لهم: لا ترفعوا بقولِهِ رأساً ، فإنه مجنُونٌ يَهْذِي مِنْ أُمِّ رَأسِهِ ، فقالوا: لقد رَأينا ذلك حيثُ ذَكَرَ مِنْ أَمْرِ فَارِس مَا ذكرَ.

وفي رواية: أنه لما سألهم قالوا له: حتى يجيء شيخُنا حارثةُ ، فلما جاء قال: إنّا بيننا وبين قومٍ مِنَ الفُرْسِ حَرباً ، فإذا فرَغنا عمّا بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول ، فلما التقوا مع الفُرسِ قال شيخُهم: ما اسمُ الرّجُل الذي دعَاكم إليه ؟ ، قالوا: محمَّدٌ ، قال: فهُوَ شِعَارُكم ، فنصروا على الفرس ، فقال رَسُول الله ﷺ: «بِي نُصِرُوا» ، أي نصروا بذكرهم اسمه ﷺ. ثم لا زال ﷺ يعرِضُ نفسَه على القبائل في كلّ موسم ، ويقول: «لَا أُكْرِهُ أحَداً على شَيءٍ ، مَنْ رَضِيَ الذِي أدعُوهُ إِليهِ فَذلك ، ومَن كَرِهَ لم أُكْرِهْهُ ، إِنَّما أَرِيدُ مَنْعِي مِنَ القَتْلِ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبّي» ، فلم يقبله أحدٌ من تلكَ القبائل ، ويقولون: قومُ الرّجُل أعلم به ، أترون أنَّ رجلاً يُصْلِحُنا وقد أفسَدَ قومَه!؟.

ولمّا أرادَ الله تعالى إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ﷺ ، وإنجاز وعده له خرج رَسُولُ الله ﷺ في الموسم ، يعرضُ نفسَه على قبائل العرَب كما كان يصنعُ في كل موسم ، فبينا هو عند العقبة التي تُضَاف إليها الجمرة ، فيقال: جمرة العقبة ، إذْ لقيَ بها رهطاً من الخَزرَجِ ، فقال لهم: «مَنْ أَنْتُمْ» ؟ ، قالوا: نحن نفرٌ من الخزرج ، فقال: «أَفَلَا تجْلِسُونَ أُكَلِّمُكُم» ؟ قالوا: بلى ، فجلسُوا معه ﷺ ، فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم الإسلامَ ، ولما رَأوا أمَارَات

الصِّدقِ عليه ﷺ لائِحَةٌ، قال بعضُهم لبعض: تعلمون والله إنه للنّبيُّ الذي يَتَوَعَّدُكُم به اليهودُ، فلا تَسْبِقَنّكُم إليه، ثم أجابوه وصَدّقُوهُ وأسلموا، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشَّرِّ ما بينهم، فإنْ يجمعهم الله عليك فلا رَجُلٌ أَعَزَّ منك، وإنّا نشيرُ عليك أن تمكثَ على حالِك حتّى نرجعَ إلى قومنا، فنذكرُ لهم شأنَك، وندعوهم إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ، لعلّ الله يصلحُ ذاتَ بينهم ونواعدك الموسم من العام المقبل. فرضِيَ رَسُولُ الله ﷺ بذلك، وانصرفَ أولئك الرَّهْطُ من الخزرج راجعين إلى بلادهم، فلم يقع لهؤلاءِ الثمَانية مبايعةٌ، ويُسَمَّى هذا (**ابتداءُ الإسلام للأنصار**)، وربَّما سَمَّاهُ بعضهم: (**بيعة العقبة الأولى**).

فلمّا كانَ العامُ المقبل قَدِمَ مِن الأوسِ والخزْرَج اثنا عَشَر رَجُلاً، عشرةٌ من الخزرج واثنان من الأوس، فاجتمع ﷺ بهم عند العقبة وبايعهم فقال ﷺ: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُم وَأَبْنَاءَكُم»، فبايعُوه على ذلك، وعلى أن يرحلَ إليهم هو وأصحابُه، فلما انصَرَفُوا رَاجِعِينَ إلى بِلَادِهم بعثَ رَسُولُ الله ﷺ معهم مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مَكْتُوم رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، يُعلّمان من أسلمَ منهم القرآنَ الكريم، ويُعلّمان مَن أرادَ أنْ يُسلمَ الإسْلامَ، ويُفَقّهَانِهم في الدين، ويدعوان من لم يسلم منهم إلى الإسلام، فجعلا يُقرِئان الناس القرآن.

ولما قَدِمَ مصعب المدينةَ نزَل على أبي أمامة أسعدَ بن زُرَارَة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وكان سالم مولى أبي حذيفة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يَؤُمُّ المهاجرينَ بقباء، قبل أن يقْدمَ رَسُولُ الله ﷺ، وكانَ مصعب يَؤُمُّ الأوسَ والخزرجَ،

لأنّ الأوسَ والخزرجَ كَرِهَ بعضُهم أنْ يَؤُمَّهُ بعضٌ لما سبق بينهم من العداوة قبل الإسلام، وجمعَ بهم أوّلَ جمعةٍ جُمِعَتْ في الإسلام قبلَ قُدومِهِ ﷺ المدينة، وقبل نزولِ سورةِ الجمعة الآمرة بها. وكانت تسمية الأنصار ليوم الجمعة بهذا الاسم لاجتماعهم فيه وهداية الله تعالى لهم، وإلا فقد كانت تسمى في الجاهلية بيوم العروبة، وكان النَّبيُّ ﷺ قد أَذِنَ لهم قبل الهجرة في إقامة الجمعة، فلم يفعلوها باجتهاد، بل بإذنه ﷺ؛ لأنه لم يتمكن من فعلها بمكة.

وأسلمَ سعدُ بن معاذ، ثمّ أسلمَ ابنُ عمِّه أسيد بن حضير رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، على يد مصعب بن عمير رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وكان ذلك حين خرج أسعدُ بن زرارة بمصعب بن عمير إلى بستان من بساتين بني ظفر، فجلسا فيه واجتمع إليهما رِجالٌ ممّن أسلمَ، وكان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذٍ سيّدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك؛ ائتِ أسعدَ بن زرارة فازْجُرْهُ؛ ليكفَّ عنا ما نكره، فإنه بلغني أنه قد جاء بهذا الرّجل الغريب يُسَفِّهُ سُفهاءَنا وضعفاءَنا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت لكفيتك ذلك، فإنه ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أسيد بن حضير حربَته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه قد جاءَك فاصْدُقِ اللهَ فيه، فقال مصعب: إنْ يجلس كلّمته.

فجاء أسيد بن حضير فوقف عليهما مُتَشَتِّماً، وقال: يا أسعد ما لنا ولك؟، تأتينا بهذا الرجل الغريب الطريد، يُسَفِّهُ سفهاءنا وضعفاءنا بالباطل ويدعوهم

إليه. فقال له مصعب: أوَ تجلسُ فتَسْمَعَ؟، فإنْ رَضِيتَ أمراً قَبِلْتَه، وإن كرهته كُفَّ عَنْكَ ما تكرَهُ، قال: أنصفت، ثم رَكَزَ حَرْبَته وجلس، فكلّمه مصعب بالإسلام، ثم قرأ عليه من القرآن، فقال: ما أحسَنَ هذَا وأجمَلَه!، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟، قال: تغتسل وتتطهر وتغسل ثوبك ثم تشهد بشهادة الحقّ ثُمّ تُصلّي، فقام واغتسل وطهّرَ ثوبَه وشهد بشهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إنِ اتَّبَعَكُما لم يتخلّفْ عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، وهو سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، ثم أخذ حربته وانصرف.

فلما رجع أُسَيدٌ إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، نظر إليه سعد فقال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلمّا وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟، قال: كلّمْتُ الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحْبَبْتَ. وقد حُدِّثْتُ أنّ بني حارثة خرجوا إلى أسْعَد بن زُرَارَة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابنُ خالتك ليَخْفِرُوك، فقام سعدٌ مُغْضباً مبادِراً فأخذ الحربة من يدِه، وقال: والله ما أراك أغْنَيتَ شَيئاً، ثم خَرَجَ إليهما، ولما أقبل سعد قال أسْعَد لمصعب: لقد جاءك والله سَيِّدُ مَنْ وَرَاءَه مِنْ قَومِه، إنْ يَتّبِعكَ لا يتخلّف عنك منهم اثنان، فلما رآهما سعدٌ مطمئنين عرَف سعدٌ أنَ أُسَيْداً إنّما أرادَ منه أن يسمعَ منهما، فوقف عليهما مُتَشَتِّماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ مِنّي هذا، هذا يغشانا في دارنا بما نكره، فقال له مصعب: أوَ تَقْعَدُ فتَسمعَ؟، فإنْ رَضِيتَ أمراً قَبِلْتَه، وإن كرهت عَزْلنَا عنك ما تكره، فقال سعد: أنْصَفتَ، ثم رَكزَ الحربةَ وجلس، فعرض عليه الإسلام وعرض عليه القرآن،

فقال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟، فقال: تغتسل وتتطهر وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تركع ركعتين، فقام سعد فاغتسل وطهر ثوبه، ثم شهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه.

فلما رآه قومُه مُقبلاً عليهم ومعه أسيد بن حضير، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمْرِي فيكم؟، قالوا سيدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمَنُنا وأبرَكُنا نَقِيبَةً ـ أي نفساً وأمْراً ـ؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حَرَامٌ حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى في قبيلة بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأةٌ إلا مسلماً أو مسلمة، وكان ذلك بعد العقبة الأولى، وقبل العقبة الثانية، فأسلموا كلهم في يوم واحد، إلا الأصيرم وهو عمرو بن ثابت فإن إسلامَه تأخَّرَ إلى يوم أحد واستشهد فيها ولم يسجد لله سجدة، وأخبرَ ﷺ أنه من أهل الجنة.

ثم رجع مصعب إلى دار أسعد بن زرارة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساءٌ مسلمون، إلا ما كان من سكان عوالي المدينة وقُرَاها من جِهَةِ نجْدٍ، ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة مع من خرج من المسلمين من الأنصار إلى الموسم، مع حجّاج قومِهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، وقد أخبرَ النَّبِيَّ ﷺ بمن أسلم منهم فَسُرَّ بذلك. وكان فيمن قدم من الأنصار مُسلماً كعب بن مالك، والبَرَاء بن مَعْرُور، فواعدوا رَسُولَ الله ﷺ أن يوافوه في الشعب

الأيمن، إذا انحدروا مِن مِنَى أسْفَلَ العقبة، حيث بُنِيَ فيه بعد ذلك المسجد الذي يقال له اليوم: (مسجد البيعة)، وأمرهم رَسُولُ الله ﷺ أن لا يُنَبِّهُوا نائماً ولا يَنْتَظِرُوا غَائباً، وذلك في ليلة اليوم الذي هو يوم النَّفْر الأول.

قال كعب بن مالك: فلما فرغنا من الحجّ وكانت الليلة التي واعدَنا رَسُولُ الله ﷺ لها، وكُنّا نكتمُ مَن معنا مِن قومِنا من المشركين أمرَنا، فمكثنا تلك الليلة مع قومنا في رِحَالِنَا حتّى إذا مضى ثلثُ الليل خرجنا من رحالنا لميعادِ رَسُولِ الله ﷺ، بعدَ هَدْأَةِ الليل، يَتَسَلّل الرّجُلُ منّا كتسَلّلِ القَطَا مُسْتَخْفِياً، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحنُ ثلاثة وسبعون رجلًا وامرَأتان، فلا زلنا ننتظر رَسُولَ الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمُّه العباس، وهو يومئذٍ على دين قومه إلا أنه أحبَّ أن يحضرَ أمرَ ابنِ أخيه ويتوثق به، فأوقفَ العبّاسُ عليّاً على فم الشعب عيناً له، ثم أوقف أبا بكر على فم الطريق الآخر عيناً، فلما جلسُوا كان العباسُ أوّلَ مَن تكلّم فقال: يا معشرَ الأوس والخزرج إنّ محمَّداً منا حيثُ قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رَأينا، فهو في عِزٍّ مِنْ قَومِهِ ومَنَعَةٍ في بَلَدِه، وقد أبى إلا الانْحِيَازَ إليكم واللّحوقَ بكم، فإن كنتم ترون أنكم وَافُونَ له، بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خَالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإنْ كنتُم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخَاذِلُوه بعد الخرُوج به إليكم فمِنَ الآن تدعونه، فإنّه في عِزٍّ ومَنَعَةٍ في قَومِهِ وبَلَدِه.

فقال البراءُ بن معرور: إنا والله لو كان في أنفسنا غَيرُ ما ننطق به لقلنَاه ولكنا نُرِيدُ الوَفَاءَ والصّدق، وبذلَ مُهَجِ أنفُسِنا دُونَ الرَسُولِ ﷺ. فقال العباس: إنْ كنتم أهل قوّة وجَلَدٍ وبَصَرٍ بالحَرْبِ، واسْتِقْلَالٍ بِعَدَاوةِ العَرَبِ قاطبة

ترميكم عن قوسٍ واحِدَةٍ فأرُوا رأيكم وائتمروا بينكم، ولا تَتَفَرَّقُوا إلا عن مَلأٍ منكم واجتماع، فإنَّ أحسَنَ الحديثِ أصْدَقُه.

فقالوا له: قد سمعنا مقالتك، فتكَلَّمْ يا رسولَ الله، وخُذْ لنفسِكَ واشترط لرَبِّكَ مَا أحْبَبتَ. فقال النَّبِيُّ ﷺ: «أَشْتَرِطُ لِرَبِّي ﷻ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً، وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَكُمْ»، فقال ابن رواحة: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟، فقال ﷺ: «لَكُمُ الجَنَّة»، فقالوا: رَبِحَ البيعُ، لا نقيل ولا نستقيل. وأخذ البراءُ بن معرور بيدِه ﷺ، ثم قال: نعم والذي بعثَكَ بالحقّ لنَمْنَعَنّك مما نَمْنَعُ به نساءنا وأنفسنا، فنحن والله أهلُ الحَرْبِ وأهْلُ الحَلَقَة والسلاح، ورثناه كابراً عن كابر. وقال أبو الهيثم بن التَّيِّهان: نقبله على مُصِيبَةِ المال وقَتْلِ الأَشْرَاف. فقال العباس: اخْفُوا صَوتَكم، فإن علينَا عيوناً، ثم قال أبو الهيثم: يا رسول الله إن بيننا وبين اليهودِ عهوداً، وإنا قَاطِعُوها، فهلْ عَسَيتَ إنْ نَحْنُ فعلنا ذلك ثم أظهرَكَ الله أَنْ ترجعَ إلى قومِك وتدَعْنا؟، فتبسّمَ رَسُولُ الله ﷺ، ثم قال لهم: «دَمِي دَمُكُمْ، وَذِمَّتِي ذِمَّتُكُمْ، وَرِحْلَتِي مَعَ رِحْلَتِكُم، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمتُم».

فقال لهم العباسُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه عند ذلك: عليكم بما ذكرتم، ذمة الله مع ذمتكم، وعهد الله مع عهدكم، في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام، يد الله فوق أيديكم لتَجِدُّنَّ في نُصْرتِه ولتَشُدُّنَّ من أَزْرِه. فقالوا جميعا: نعم، فقال العباس: اللَّهُمَّ إنك سامعٌ شاهد، وإن ابن أخي قد استرعاهم ذمّتَه واستحفظهم نفسَه، اللَّهُمَّ كن لابن أخي عليهم شهيداً. ثم قال رَسُولُ الله ﷺ: «أَخْرِجُوا

إِلَيَّ مِنْكُمْ اثْنَي عَشَرَ نَقِيباً يَكُونُونَ عَلَى قَومِهِمْ بِمَا فِيهِمْ» ، فأخرجوا تسعة من الخزرج ، وثلاثةً من الأوس ، وهم: سعد بن عبادة ، وأسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وسعد بن أبي خيثمة ، والمنذر بن عمرو ، وعبد الله بن رواحة ، والبراء بن معرور ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وأسيد بن حضير ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت ، ورافع بن مالك ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم أجمعين ، وكلّ واحدٍ على قبيلة. فقال رَسُولُ الله ﷺ لأولئك النقباء: «أَنْتُمْ كُفَلَاءُ عَلَى غَيرِكُمْ ، كَكَفَالَةِ الحَوَارِيِّينَ لِعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ، وَأَنَا كَفِيلٌ عَلَى قَومِي يَعْنِي المُهَاجِرِينَ».

وقيل: إن الذي تولى الكلامَ من الأنصار أسعدُ بن زرارة ، فإنه أخذ بيد النَّبيِّ ﷺ ، وقال: رويداً يا أهل يثرب إنّا لنْ نضربَ إليه أكباد الإبل إلا ونحنُ نعلم أنه رَسُولُ الله ﷺ ، وإنّ إخراجَه اليوم مفارقةٌ لجميعِ العرَبِ ، وقتل خيارِكم ، فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مَسَّتْكُم بقتل خياركم ومفارقة العرب كافّة ، فخذوه وأجركم على الله تعالى ، وإمّا أنتم تخافون من أنفسِكم خيفةً فذرُوه ، فهو عُذرٌ لكم عند الله ﷻ ، فقالوا: يا أسعد أمِطْ عنّا يَدك ، فو الله لا نَذَرُ هذه البيعة ولا نَسْتَقِيلُها. وقالوا: يا رسول الله ؛ ما لنا بذلك إنْ نحنُ قضينا ؟ ، قال: «رِضْوَانُ الله وَالجَنَّة». فقالوا: رضينا ، ابسط يدك فبسط يدَه ﷺ فبايعوه ، وأول من بايعه ﷺ البراءُ بنُ معرور ، ثم بايعه السبعون كلهم ، وبايعه المرأتان المذكورتان من غير مُصَافَحَة.

فلما انتهت البيعة ، صَرَخَ الشيطانُ من رَأسِ العَقبَة بأشد صوتٍ وأبعده ، فقال: يا أهل الأخَاشِب هل لكم في مُذَمَّمٍ والصّباةُ معه. فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَيْ عَدُوَّ الله ، أَمَا وَالله لأَفْرُغَنَّ لَكَ» ، فَفَزِعَ الأنصَارُ عندَ ذلك ، فقال

رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَرُوعْكُمْ هَذَا الصَّوتُ فَإِنَّمَا هُوَ عَدُوُّ الله إِبْلِيس، وَلَيسَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُون». ثم قال لهم: «انْفَضُّوا إِلَى رِحَالِكُم». ثم إن الحديث نَما، وسَمِعَ به المشركون من قريش، وعند فُشُوِّ الخبرِ جاءَ أشرافُهم حتى دخلوا شِعْبَ الأنصار، فقالوا لهم: يا معشر الأوس والخزرج، بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا لتُخْرِجُوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حَرْبِنا، والله مَا مِن حَيٍّ أبغض إلينا أنَ تَنْشِبَ الحرْبُ بيننا وبينه منكم، فصَارَ مشركو الأوس والخزرج يحلفون لهم ما كان من هذا شيء وما علموا به، حتى أنّ ابنَ أُبَيّ بنِ سَلُول جعَل يقول: هذا باطل، وما كان قومي لِيَفْتَاتُوا عَليَّ بمثل هذا، ولو كنتُ بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني به.

فلمّا نفرَ النّاسُ من مِنَى وبحثَت قريشٌ عن خَبرِ الأنصَار فوجدوه حقًّا، فلمّا تحَقَّقُوا الخبرَ اقتفوا آثارَهم فلم يدركوا إلا سعدَ بن عبادة والمنذرَ بن عمرو، فأما سعدٌ فأُمْسِكَ وعُذِّبَ في الله، وأما المنذر فأَفْلَتَ، ثم أنقذ الله سعداً من أيدي المشركين، ونقل عنه أنه قال: لما ظفروا بي ربطوا يدي في عنقي، فلا زالوا يلطمُوني على وجهي ويجذبوني بجُمَّتِي، حتى أدخلوني مكة، فأومَأَ إليّ أبو الْبَخْتَرِيِّ بن هشام، وقال: ويحك؛ أمَا بينَك وبين أحَدٍ من قريش جوارٌ ولا عهد؟، فقلت: بلى، قد كنت أُجِيرُ للجُبَيرِ بن مُطْعِم، وللحارث بن حرْبِ بن أميّة تجارةً، وأمنعهما ممّن أرادَ ظلمهما ببلادي، فقال: ويحك؛ فاهتف باسم الرجلين، ففعلت، فخَرَج إليهما فوجَدَهُما في المسجد، فقال لهما: إنّ رَجُلاً مِنَ الخزرج يضرب بالأبطح، يهتف باسمكما، فقالا: مَن هو؟، قال: يقول: إنه سعد بن عبادة، فجاءآ فخَلّصاني من أيديهم.

فلما قَدِمَ الأنصارُ المدينةَ أظهروا الإسلامَ إظهاراً كُلّيًا، وكان عمرو بن الجموح رَجُلاً من سادات بني سَلمَة، ولم يكن قد أسلم، وكان ممّن أسلمَ ولدُه معاذ، وكان لعمرٍو في داره صَنَمٌ من خَشَب، وكان يُعَظِّمُه، فكان فِتْيَانُ قومِه ممّن أسلمَ كمعاذ بن جبل، وولدِه معاذ بن عمرو، يُدْلِجُونَ بالليل على ذلك الصّنم فيطرحونه مُنَكَّساً في بعض الحُفَرِ التي فيها خُرْءُ النّاس، فإذا أصبح عمرو قال: ويحكم من عدا على إلهِنَا هذه الليلة؟، ثم يَلْتَمِسُه؛ حتى إذا وجده غَسلَه، فإذا أمسى عَدَوا عليه، وفعلوا به مثل ذلك، إلى أَنْ غسله وطيّبه وحمَاه بسَيفٍ علّقه في عنقه، ثم قال له: ما أعلم مَن يَصْنَعُ بك هذا، فإن كان فيك خَيرٌ فامْتَنِع، فهذا السيفُ معك، فلما أمسى عدوا عليه، وأخذوا السَّيفَ من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميّتا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئرٍ من آبار بني سلمة فيها خُرْءُ النّاس، فلما أصبح عمرو غَدا إليه فلم يجده، ثم تَطَلّبَهُ إلى أَنْ وجدَه في تلك البِئر، فلما رآه كذلك رَجَع إلى عقلِه، ثم أنشدَ أبياتا منها:

والله لَوْ كُنْتَ إِلَهاً لَمْ تَكُنْ أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسْطَ بِئْرٍ فِي قَرَنْ

ثم كلّمَه مَن أسلمَ مِن قومِه في الإسلام، فأسلم وحسن إسلامه.

وأمرَ ﷺ من كان معه من المسلمين بالهجرة إلى المدينة، وذلك لأنَّ قريشاً لما علمت أنه ﷺ اسْتَنَدَ إلى قوم أهل حربٍ وتحَمُّل ضَيَّقُوا على أصحابه، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالونه من قبل من الشتم والأذى، وجعل البَلاءُ يشتد عليهم، وصاروا ما بين مفتون في دينه، وما بين معذب في أيديهم، وما بين هاربٍ في البلاد، فشكوا إليه ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فمكثَ أيامًا لا يأذن لهم، ثم قال لهم: «أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُم، أُرِيتُ سَبْخَةً ذاتَ نخْلٍ،

بَينَ لَابَتَينِ، وَهِيَ يَثْرِبُ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ فَلْيَخْرُجْ إِلَيهَا»، فَخَرَجُوا إليها أَرْسَالًا متتابعين، وهم يُخْفُون ذلك.

وكان أول من هاجر المدينة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، فإنه لما قدم من الحبشة إلى مكة آذاه أهلُها، فلما أراد الرجوع إلى الحبشة، بلغه إسلامُ من أسلم من الأنصار، الذين بايعوا البيعة الأولى، فعزم على الرحيل إليهم، ولما رَحَلَ بعيرَه وحمل عليه ابنَه سلمة وزوجته أم سلمة، وخرج يقودُ البعيرَ، رَآهُ رجال من قوم أم سلمة فقاموا إليه، وقالوا: يا أبا سلمة قد غلبتنا على نفسِك، فعلام نتركك تسير بصاحبتنا هذه في البلاد؟، ثم نزعوا خطام البعير منه، فجاء رجال من قوم أبي سلمة، وقالوا: إنّ ابننا معها إذا نزعتموها من صاحبنا ننزع ولَدَنا منها، ثم تجاذبوه حتى خلعوا يده، وأخذه قومُ أبيه، فَفُرِّقَ بينَها وبينَ زوجِها وولدها، فكانت تخرج كلّ غَدَاة بالأبطح فتبكي حتى المسَاء مُدّة سنة، فمَرّ بها رَجُلٌ من بني عمها، فرأى ما بها فَرَحِمَها، وقال لقومها: أما ترحمون هذه المسكينة؟، فرقتم بينها وبين ولدها وزوجها، فقالوا لها: الحقي بزوجك، فلما بلغ ذلك قومُ أبي سَلمَة رَدّوا عليهَا ولدَها، فارْتَحَلَتْ بعيراً، وجعلت ولدها في حجرها، وخرجت تريد المدينةَ وما معها أحد من خلقِ الله تعالى، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمانُ بنُ طلحةَ صاحب مفتاح الكعبة، وكان يومئذٍ مشركاً، قالت أم سلمة: فلما رآني قال: إلى أين؟، قلت: إلى زوجي، قال: أو ما معك أحَدٌ؟، قلتُ: لا، ما معي إلا الله، وابني هذا، فقال: والله لا أتركك، ثم أخذَ بخطام البعير، وسار معي، فكان إذا وصلنا المنزل أَنَاخَ بي، ثم اسْتَأْخَرَ، فإذا نزلتُ، جاء وأخذ بعيري فحطّ عنه، ثم قيّده في الشّجرة، ثم أتى إلى شجرةٍ فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّوَاحُ قام إلى بعيري فرَحَله وقدمه،

ثم استأخر عني، وقال: اركبي، فإذا ركبتُ أخذَ بخطامه فقادني، فسارَ بي حتّى إذا وافى عَلى قُبَاء، فقال: زوجُك هنا، ثم انصرفَ، فما رأيتُ صاحباً أكرم من عثمان بن طلحة. فكانت أمُّ سلمة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها أوّلَ ظعينةٍ دخلت من المهاجرين المدينة، ثم قَدِمَ بعد أمِّ سلمة عامرُ بنُ ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة.

ثم قَدِمَ أصحابُ رَسُولِ الله ﷺ أرسَالاً، فنزلوا على الأنصار في دورهم فآووهم وَوَاسوهم، ثم قدم عمرُ بن الخطاب وعَيَّاشُ بن أبي ربيعة في عشرين راكباً، وكان هشامُ بن العاص قد واعدَ عمرَ بن الخطاب أن يهاجرَ معه فقال: تجدني عِنْدَ محَلّ كذَا، فتَفَطّن بهشَام قومُه فحبَسُوه عن الهجرة، فلمّا هَمَّ عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بالهجرة، تَقَلّدَ سيفَه، وتَنكَّبَ قوسَه، وانْتَضَى في يديه أَسْهُماً، واخْتَصَرَ عَنَزَتَهُ، ومضى قِبَلَ الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصَلّى ركعتين، ثم وقفَ على الحِلَقِ واحدةً واحدة، فقال: شَاهَت الوجُوه، لا يُرْغِمُ الله إلا هَذِه الأنوف، مَن أَرَادَ أَنْ تثكَلَه أمُّه، أو يُوتَمَ ولدُه، أو تُرَمَّلَ زوجَتُه فيلقني ورَاءَ هذا الوادِي، ثم مضى، فما تبعه منهم أحد.

ثم إنّ أبا جهل وشقيقَه الحارثَ بنَ هشام قَدِمَا المدينةَ والنَّبِيُّ ﷺ لم يَزَلْ بمَكّة لم يُهاجرْ بَعْدُ، وكلّما عَيَّاشَ بنَ أبي ربيعة وكان أخاهما لأمهما وابن عمِّهِمَا، وكان أصغرَ ولدِ أمه، فأخبراه أنَّ أمَّه قد نذرَتْ أَنْ لا تَغْسِلَ رأسَها، ولا يمَسّ رأسَها مشطٌ، ولا تستظلّ من شمسٍ حتّى ترَاه، وقَالَا له: أنتَ أحبُّ ولدِ أمِّك إليها، وأنتَ في دِينٍ مِنْهُ برُّ الوَالدين، فارجع إلى مكّةَ فاعبُدْ ربّك كما

تعبده بالمدينة. فرَقّتْ نفسُه وصدّقهما، بعد أنْ أخذَ عليهما المواثيق أنْ لا يَغْشَيَاهُ بسُوءٍ، فقال له عمرُ: إن يُرِيدَا إلّا فِتْنَتَك عن دينِك؛ فاحذرهما، والله لو آذَى أُمَّكَ القَملُ لامْتَشَطَتْ، ولو اشتدّ عليها حرُّ مكة لاسْتَظَلّتْ، فقال عَيّاشُ: أَبَرُّ أمي ولي مالٌ هناك آخذُه، فقال عمر: خُذْ نِصْفَ مَالي ولا تذهبْ معهما، فأبى إلا ذلك، فقال له عمر: فحيثُ صَمَّمْتَ فخُذ ناقتي هذه فإنّها نجيبة ذلول فالزم ظهرَها، فإن رابَك منهما رَيْبٌ فانجُ عليها، فأبى ذلك، وخَرَج راجعاً معهما إلى مكّة، فلما خَرَجَا من المدينة عَدَوَا عليه فشَدّا يَدَيه إلى خَلْفٍ، وأوثَقَاهُ رِباطاً، وجلداه نحواً من مائةِ جلدة، ودخلا به مكة نهاراً مُوثقاً، وقالا: يا أهل مكّة، هكذا فافعلوا بسُفهائِكم كما فعلنا بسفيهنا، ولما جِيءَ به إلى أمّه حلفت أن لا يُحَلَّ عنه وثاقه حتى يرجع عن دينِه، فحُبِسَ بمكّة مع هشام بن العاص، وجُعِلَ في القيد، وكان الذي يَتَوَلّى تعذيبه رَجُلٌ من بني كنانة يقال له: الحارث بن يزيد، وحلف عَيّاش ليقتلنه إنْ قدرَ عليه، فلم يزلْ محبوساً حتّى يومِ فتحِ مكّة، فخرجَ عَيَّاش فلقي ذلك الرجل الكناني، وكان قد أسلم وعياش لا يعلم بإسلامه، فقتله وأُعْلِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء: ٩٢].. الآية، فقرأها النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال لعياش: «قُمْ فَحَرِّرْ»، أي: أعتق رقبةً.

وقيل: أنّ الوليدَ كان سبباً لتخليص عياش بن أبي ربيعة وهشام بن أبي العاص بعد أن تخلصّ هو من الحبس وهاجر إلى المدينة، وذلك أن الوَليد كان قد أسر ببدر، ثم افتداه أخواه خالد وهشام ابنا الوليد بن المغيرة وذهبا به إلى مكة، فأسلم وأراد الهجرة فحبساه بمكة، فقيل له: هلا أسلمت قبل أن تُفْدَى؟،

فقال: كرهت أن يُظَنَّ فِيَّ أني إنما جَزعتُ من الأسر، ثم إنه نجا من الحبس وتَوَصَّل إلى المدينة، ورجع إلى مكة مُسْتَخْفِياً، فخَلّص عِيَاشاً وهِشَاماً وجاء بهما إلى المدينة، فَسُرَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وشكر صنيعَه.

ولما أرادَ صهيبٌ الهجرةَ إلى المدِينة أخذَ سيفَه وكنانته وقوسَه، فتبعه نفرٌ من قريش، فنزل عن راحلته، ثم قال: يا معشر قريش، قد علمتم أني من أرْمَاكم رَجُلاً، وأيمُ الله لا تصلون إليَّ حتّى أرمِي بكلّ سهم في كنانتي، ثم أضربُ بسيفي ما بقي في يدي منه شيءٌ، ثم افعلوا ما شئتم، فقال له كفّار قريش: أتيتنا صعلوكاً فقيراً فكثر مالك عندنا ثم تريد أن تخرج بمالك؟، لا والله لا يكون ذلك، فقال لهم: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟، فقالوا: نعم، فقال: فإني جعلته لكم، فبلغَ ذلك رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «رَبِحَ صُهَيبٌ». فلما قدم صهيبٌ قال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَبِحَ البيعُ يا أبا يحيى» ثلاثاً، ونزلَ فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ومكثَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن هاجرَ أصحابه، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلّف معه إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، أو من كان محبوسا أو مريضا أو عاجزا عن الخروج، وكان أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه كثيرًا ما يستأذن رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة، فيقول له: «لَا تَعْجَلْ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَجْعَلَ لَكَ صَاحِباً»، فيطمع أبو بكر أن يكون هوَ، فحبس نفسَهُ على رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليصْحبَه.

فلما رأت قريشٌ أنّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صارَ له أنصارٌ وأصحابٌ بالمدينة، ورأوا خروج أصحابه إليهم، وأنهم أصابوا مَنَعَةً؛ لأنّ الأنصارَ قومٌ أهل سلاح

وبَأس، فخافوا أن يخرج رَسُولُ الله ﷺ، وأن يُجْمِعَ على حربهم، فاجتمعوا في دار النّدْوَةِ يتشَاورُون فيما يصنعون في أمر رَسُولِ الله ﷺ، وكانت محلّ مشورتهم لا يقطعون أمرا إلا فيها، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الرّحمة، لأنه اجتمع فيه أشرافُ بني عبد شمس، وبني نوفل، وبني عبد الدار، وبني أسد، وبني مخزوم، وبني سَهْم، وبني جُمَح، وغيرهم ممّن لا يُعدّ من قريش، ولم يتخلف من أهل الرأي والحِجَا أحدٌ، ثم إنّ إبليسَ جاء إليهم في صورة شيخ نجدي عليه طيلسَان من خَزّ، ووقف على الباب، فقالوا: مَن الشيخ؟، قال: شيخ من أهل نجد، سمع بالذي اجتمعتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونُصحاً، فأدخلوه معهم. وإنما قال لهم: من أهل نجد؛ لأنّهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحدٌ مِن أهلِ تهامة، لأن هواهم مع محمد ﷺ.

وعند المشُورة قال بعضُهم: إنّ محمَّداً قد كان من أمره ما قد رأيتم، وإنا والله لا نأمن وُثُوبَه علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأيا. فقال أبو البَخْتَرِيِّ بن هشام: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصَاب أشباهَهُ من الشُّعرَاء، حتى يصيبه ما أصابهم من هذا الموت، فقال الشّيخُ النّجْدي: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه كما تقولون ليَثِبَنَّ عليكم أصحابه فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا برأي، فانظروا رَأياً غيره، فقال الأسود بن ربيعة بن عُمَير: نخرجه من بين أظهرنا فنَنْفِيه مِن بِلَادِنا، فإذا خَرَج عنّا فوَالله ما نبالي أينَ يذهب، فقال الشيخ النّجْدِيّ: والله ما هذا برأي، ألم تَروا حُسْنَ حَدِيثِه، وحَلَاوَةَ مَنْطِقِه، وغَلَبَتِه على قلوب الرّجال بما يأتي الله به؟، والله لو فعلتم ذلك ما أمِنْتُم أن ينزل عَلى حَيٍّ مِنَ

العَرَب، فيَغْلِبَ بحديثه عليهم حتى يبايعوه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم بهم، فيأخذوا أمرَكم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غيرَ هذا، فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأيا ما أرَاكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟، قال: الرّأي أنْ تأخذُوا من كل قبيلة شابّا جَلْداً قويًا، حَسِيباً في قومه نَسِيباً، ثم يُعْطَي كُلّ فتىً منهم سيفاً صَارِماً، ثم يغدون إليه فيضربونه ضربةَ رجُل واحدٍ، فيقتلونه ونستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دَمُه في القبائل جميعاً، فلم تقدر بنو عبد مناف على حَرْبِ قومهم جميعاً، فيرضَوا منّا بالدِّية فندفعها لهم. فقال النّجْدِيّ: القول ما قال هذا الرَّجُل، هذا هو الرأي ولا أرى غيرَه، ثم تفرق القوم على ذلك.

فأتى جبريلُ رَسُولَ الله ﷺ فقال: لا تَبت هذه الليلة في فراشك، وأخبره بمكر القوم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فلما كان الثلث الأول من الليل اجتمعوا على باب رَسُولِ الله ﷺ يرصُدُونَه حتّى يَنام فيَثِبُوا عليه، وكانوا مائة، فلما علمَ رَسُولُ الله ﷺ مكانَهم، أمرَ عليَّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه أنْ يَنام على فِرَاشِه وأن يَتَغطّى بِردَائه، وقال له: «إِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيكَ شَيءٌ تَكْرَهُه مِنْهُم».

وأمَرَ النبيُّ ﷺ عليّا أن يَتَخَلَّفَ بعدَه حتى يُؤَدِّيَ عنه الودائعَ التي كانت عند رَسُولِ الله ﷺ للناس، لأنه لم يكن بمكة أحدٌ عنده شيء يخشى عليه إلا وضَعه عنده ﷺ لما يعلمون من أمانته ووفائه.

وكان في القوم: الحكم بن أبي العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وأبو لهب، وأبو جهل، فخرجَ

رَسُولُ الله ﷺ عليهم، وتلا صدر سورة يس إلى قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، فأخذ الله تعالى أبصارَهم عنه فلم يروه، ثم أخذَ ﷺ حَفْنَةً من تُرابٍ، فجعل ينثرُ الترابَ على رؤوسهم، فلم يبقَ رجلٌ إلا وضعَ على رأسه تراباً، ثم انصَرَف إلى حيث أرَاد، فأتاهم آتٍ، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟، قالوا: محمدا، فقال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رَجُلاً إلا وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب، فجعلوا يَطّلِعُون، فيرون عليّاً نائما على الفراش مُسَجّى بِبُرْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فيقولون: والله إنَّ هذا محمَّدٌ نائما عليه بُرْدُه، فلم يزالوا كذلك، حتى أصْبَحُوا واتّضَحَ النّهَارُ، فقام عليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه عَن الفِرَاش، فقالوا: والله لقد صدقنا الذي كانَ حدثنا، ثم إنهم سألوا عليّاً رضي الله عنه عن رَسُولِ الله ﷺ، فقال: لا علم لي به. وكانَ ﷺ قد أتى أبا بكر فانطلقا ليلاً مستخفيين إلى جبل ثور، حتى أتيا الغار الذي بجبل ثور فتواريا فيه. وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما أنّ النبيَّ ﷺ قال عندَ خروجه مِن مَكَّةَ: «وَالله إِنِّي لَأَخْرُجُ مِنْكِ وَأَنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكِ أَحَبُّ بِلَادِ الله إِلَى الله وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله، وَلَولَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[١].

ولمّا جاءَ رَسُولُ الله ﷺ أبا بكر، قال له أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله خذ إحدى رَاحِلَتيّ هاتين، فإني أعددتهما للخروج، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «بل بالثّمَن»، وذلك لتكون هجرتُه ﷺ إلى الله تعالى بنفسه وماله، وإلا فقد أنفق أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه أكثر ماله عليه ﷺ، ومِنْ

(١) أخرجه الأزرقي أخبار مكة [٤٣/٣]، برقم: (٨٥٩).

ثَمَّ قال ﷺ: «إنّ مِنْ أَمَنِّ الناسِ عَليَّ في صُحبتِه ومَاله أبَا بكرٍ»[1]. وتلك الناقةُ هيَ القصواء، وقد عاشت بعده ﷺ، وماتت في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وكان الثّمَنُ أربعمائة درهم، لأن الناقتين اشتراهما أبو بكر بثمانمائة درهم.

واستأجرَ رَسُولُ الله ﷺ رَجُلاً من بَنِي الدِّيلِ، وهو عبدُ الله بن أُرَيْقِط، لِيَدُلّهمَا على الطريق للمدينة، وكان على دين قريش، فدفعا إليه رَاحِلتَيهما، وواعداه على جبل ثور بعدَ ثلاث ليَال، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها: فجهزناهما بما يُحتَاجُ إليه في السَّفَر، ووضعنا لهما زاداً في جِرَاب، وما وجدنا شيئاً نربط به الجراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قِطْعَةً من نطاقها فربطت به على فَمِ الجِرَاب، وأبقت قطعةً أخرى نطاقاً لها، فَلُقِّبَتْ بذات النطاقين، والنطاق: ما تشد به المرأة وسطها لئلا تَعْثُر في ذيلها. ثم يُلْقَى أعْلى الثوبِ على أسفله، حتى يصل إلى ما فوق الركبة.

ثم لَحِقَ رَسُولُ الله ﷺ بالغار، وجعلَ أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يمشي مرّة أمام النّبيِّ ﷺ ومرّةً خلفه ومرةً عن يمينه ومرةً عن شماله، فسأله رَسُول الله ﷺ عن ذلك، فقال: يا رسول الله، أذكر الرّصَد فأكون أمامك، وأذكر الطَّلَب فأكون خلفك، ومرة عن يمينك، ومرة عن يسارك لا آمن عليك. ومشى ﷺ ليلته على أطراف أصابعه لئلا يظهر أثر رجليه على الأرض حتى حَفِيَت رِجْلَاه، ولم يُصِب الغَارَ حتّى قَطَرَتْ قَدَمَاه دمًا، ولعل ذلك من خشونة الجبَل، وإلا فَبُعْدُ المكان لا يحتَمِلُ ذلك، أو لعلهم ضلوا طريق الغار

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم: (٣٦٥٤)، والإمام مسلم برقم: (٢٣٨٢).

حتى بَعُدَت المسافةُ.

ولما انتهيا إلى فم الغار قال أبو بكر للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والذي بعثك بالحق لا تدخل حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، فدخل رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فجعل يلتمس بيده كلما رَأى جُحْراً قال بثوبه فشقه، ثم ألقمَه الجحرَ حتى فعل ذلك بجميع ثوبه، فبقي جُحْرٌ فوضعَ عَقِبَه عليه، ودخل رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان في ذلك الجحر حيَّة، فلمّا أحَسَّتْ بِعَقِبِ سيدنا أبي بكرٍ جعلت تَلْسَعُه، فصارت دموعُه تتحدّر، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضع رأسه في حجر أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ونَام، فسَقَطت دموعُ أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه على رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «مَا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»؟، قال: لُدِغْتُ؛ فداك أبي وأمي، فتفل رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على محلّ اللّدْغَة، فذهب ما يجده. وروِيَ أنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أصبح، قال لأبي بكر: «أَينَ ثَوبُكَ»؟، فأخبره الخبر، وأنه رَأى على أبي بكر وَرَماً فسأل عنه، فقال: مِن لَدْغَةِ الحيّة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَّا أَخْبَرْتَني»؟، قال: كرهت أن أوقظك فمسحَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذهب ما به. ثم إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا شَجَرةً كانت أمام الغار فأقبلت حتى وقفت على باب الغار، وبعثَ الله العنكبوتَ فنَسَجَتْ ما بين فروعها نسجًا متراكمًا بعضه على بعض كَنَسْجِ أربع سنين، وأمر الله تعالى حمامتين وحْشِيَّتين فوَقَفتا بفم الغار وباضَتا فيه.

ولما فقدَ المشركون رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شقَّ ذلك عليهم، وخافوا أن يفوتهم لحاقُه، فطلبوه بمكة أعلاها وأسفلها، وبعثوا القَافَة الذين يقصُّونَ الأثرَ في كل وَجْهٍ، يَقْفُونَ أثره، فوجدوا أثرَه ذهبَ إلى جبل ثور، فأقبل فِتْيَانُ قريش

من كلّ بطن بعصِيّهم وسُيوفِهم، فلما كانوا على أربعينَ ذراعاً من الغار تعَجَّلَ بعضُهم ينظرُ في الغار، فلم يرَ إلا حمامتين وحشيتين معَ العَنكَبُوت، فقال: ليسَ فيه أحَدٌ، فقال قائل منهم: ادخُلوا الغَارَ، فقال أمية بن خلف: وما أرَبُكم إلى الغار؟، إن عليه لعنكبوتا كانَ قبلَ ميلادِ محمَّد ﷺ، وقال أبو جهل: أما والله إني لأَحْسَبُه قَرِيباً يَرَانا، ولكنّ بعضَ سحره قد أخذ على أبصارنا، فانصرفوا. فقال القَائِفُ لقريش: والله ما جاز مطلوبُكم من هَذَا الغَار، فلما سمع أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قولَه حَزِنَ وبَكى، وقال: يا رسول الله، لو أنّ أحدهم نظر إلى تحت قدميه لأبصرنا، ووالله ما على نفسي أبكي، ولكنْ مخافةَ أنْ أرَى فِيكَ مَا أكرَه، فقال له ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ؛ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَينِ الله ثَالِثُهُمَا، لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا»، وأنزل الله تعالى سكينته على أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وأنزل عليه أمنته التي تسكن عندها القلوب.

ومكثا في الغار ثلاثَ ليَالٍ يبيت عندهما عبدُ الله بن أبي بكر وهو غلامٌ يعرف ما يُقَال، يأتيهما حين يختلطُ الظّلامُ ويُدْلِجُ من عندهما بفَجْرٍ، فيصبحُ مع قريش كبائتٍ في بيته فلا يسمع أمرًا يُكَادَانِ به إلا وعَاهُ وأخبرهما به، وكان عامر بن فُهَيْرَةَ مولى أبي بكر يروح عليهما بغنم أبي بكر، فكان يرعاها إلى حيث تذهب ساعة من العشاء ويغدو بها عليهما ثم يُغَلّسُ، فإذا خرج عبد الله من عندهما تبعَ عامرُ بن فُهَيْرَةَ أثرَه بالغنم حتى يعفوَ أثرَ قدميه، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، وذلك بإرشادٍ من أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه. وكانت أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها تأتيهما إذا أمسَتْ بما يُصْلِحُهما مِنّ الطّعَام.

وأقام رَسُولُ الله ﷺ معَ أبي بكرٍ ثلاثة أيام بلياليها في الغار، وأسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها تأتيهما ليلا بطعامهما وشرابهما، وقريش لا يدرون أين هو؟، ولما أَيِسُوا منه ﷺ أرسَلوا لأهل السَّوَاحِل: بأنَّ مَن أسَرَ أو قتلَ محمداً كان له مائة ناقة. وأمرَ أبو جهل مُنَادِياً يُنادِي في أعلى مكة وأسفلها: من جاء بمحمد أو دَلّ عليه فله مائة بعير، فلما كان بعد الثلاث جاء عبد الله بن أريقط إلى أسفل الجبل لَيْلاً، ومعه الإبل، فلما سمعَ النَّبِيُّ ﷺ رُغَاءَ الإبل نزل من الغَار هو وأبو بكر فارتَحلَا.

وأرسَلَ أبو بكر إلى ابنه عبد الله فحمَلَ إليه مالَه، وكان خمسةَ آلاف درهم، وقد كان حين أسلم أربعين ألف دينار، وذلك لأنه أنفقه على النَّبِيِّ ﷺ، قالت أسماء: فدخل علينا جَدِّي أبو قحافة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وكان قد ذهب بصرُه، فقال: والله إنّي لأرَى أبا بكر قد فجعكم بمالِه ونفسه، فقلتُ: كلّا يا أبت قد ترك لنا خيراً كثيراً، ثم أخذتُ أحجاراً فوضعتها في كُوَّةٍ في البيت كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذتُ بيَدِه، فقلت: ضَعْ يدك على هذا المال، فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إن كان ترك لكم هذا، ففي هذا بلاغٌ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئا، ولكنْ أردتُ أنْ أسَكِّنَ قلبَ الشيخ.

بَابُ
الهِجْرَةِ إلَى المَدِينَةِ وبِناء المسجِد

لما جاءَهما الدّليلُ رَكِباً، وانطلقَ بهما، انطلقَ معهما عَامرُ بنُ فُهَيْرَةَ[١] ليخدمهما، ودعا النبي ﷺ بدعاء منه: «اللَّهُمَّ اصْحَبْنِي فِي سَفَرِي، واخْلُفْنِي فِي أَهْلِي»[٢]. ثم أخذ بهم الدليلُ على طريق السَّوَاحل[٣]، وصار أبو بكر إذا سأله سائلٌ عن النَّبِيِّ ﷺ، من هذا الذي معك؟، يقول: هذا الرَّجُل يهديني الطريق. ويعني: طريقَ الخير، أو يقول: هذا هادٍ يهديني السبيل. وإنما لم يُسْألْ أبو بكر عن نفسِه، لأنَّ أبا بكرٍ كانَ معروفاً لهم، وكان يكثر المرور عليهم في التجارة إلى الشّام، فكان معروفاً لأغلَبِهم.

وكانت قريش كما تقدّم قد أرسلَتْ لأهل السّواحل: أنَّ مَن قتل أو أسرَ أبا

(١) عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر، كان مُوَلّدًا من مُوَلّدِي الأَزْد، أسلم وهو مملوك، ثم اشتراه أبو بكر الصديق واعتقه، شهد بدرا وأحُدًا، قتله عامر بن الطفيل مع السبعين الذين استشهدوا يوم بئر معونة.

(٢) أخرجه عبدالرزاق الصنعاني في مصنفه [٥/١٥٦]، برقم: (٩٢٣٤). وفيه أنه ﷺ قال: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكن شيئا مذكورا، اللَّهُمَّ أعني على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام، اللَّهُمَّ اصحبني في سفري واخلفني في أهلي، ولك فدللني وعلى خُلُقٍ صالح فقومني وإليك يا رب فحببني وإلى الناس فلا تكلني، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض وكشفت به الظلمات وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تحلل عليّ سخطك أو تنزل عليّ غضبك».

(٣) لأن طريق الناس المعتادة في الأسفار لم تكن عليها، فسلكوها لكي يختفوا عن أعين الناس.



بكر أو محمداً كان له مائة ناقة، ومن قتلهما أو أسرهما معاً كان له مائتان. وعن سُرَاقَةَ بن مَالكِ بنِ جُعْشَم المدْلجِيّ قال: جاءَنا رُسُلُ قريش يجعلون فيهما إنْ قُتِلَا أو أُسِرَا دِيَتين، فبينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدْلِج، إذ أقبل رجلٌ من القوم حتّى قامَ علينا ونحن جلوسٌ، فقال: إني رأيت أسْوِدَةً ـ أي أشخاصاً ـ بالسَّوَاحل، أراه محمدا وصَاحبه. قال سراقة: فعرفتُ أنهم هم، فقلت: إنهم ليسوا بهم، ولكنّك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيُنِنا ومعرِفَتِنا يطلبون ضَالَّةً لهم، وأوْمَأتُ إليه أنِ اسكُتْ، ثم لبثتُ في المجلس ساعةً، ثم قمت إلى مَنْزِلي، فَأمرتُ جاريتي أن تخرج فرسي خُفْيَةً إلى بَطْنِ الوَادِي وتحبسها عليَّ، وأخذتُ رمحِي، وخرجت به من ظهر البيت، فخَططتُ بِزجِّهِ في الأرض، وأمسكت بأعلاه، وجعلت أسفله في الأرض لِئَلّا يراه أحدٌ، وإنما فعلت ذلك مخافةَ أنْ يشرَكَني أحدٌ مِن قومي في الجُعْلِ المذكور.

قال: فمضيت حتى أتيت فرسي فركبتها، ثمّ بالغتُ في إجْرَائِها، فأسرَعْتُ بالسير، حتى إذا دنوت منهم عثرت بي فرسي، فوقعت لمنخريها، ثم قامت تُحَمْحِمُ[1]، فخَرَرْتُ عنها، ثم قمت فاستخرجت الأزلام، واستقسمت بها: أضُرُّهم أم لا؟، فخرج الذي أكره، وهو عدم إضرارهم، فعصيتُ الأزلام، وركبتُ فَرسي، فقربت بي حتى سمعت قراءةَ رَسُولِ الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكرٍ يكثرُ الالتفات، فسَاخَت يَدَا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، وكانت الأرض صلبة، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكَدْ تخرج يديها، فلما استوت قائمةً إذْ لِأثَرِ يديها غبارٌ ساطع في السّماء مثل الدخان، فاسْتَقْسَمْتُ بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديت بالأمان، وقلت: أنا سراقة بن

---

(١) يقال: حَمْحَمَ الفَرَسُ، إذا رَدّدَ الصّوتَ ولم يَصْهل كالمُتنحنح. والفرس يطلق على الذكر والأنثى.

مالك انظروني أكلمكم، لا أوذيكم ولا يأتيكم مني شيءٌ تكرهونه، فإني لكم نافع غير ضار، وإني لا أدري لعلّ الحيّ يفزعونَ لركوبي إنْ بلَغهم، وأنا راجع فأرُدّهم عنكم، فوقفوا، فركبتُ فرسي حتى جئتهم، فقلت لرسولِ الله ﷺ: إن قومك جعلوا فيك مائةً من الإبل لمن قتلَك أو أسرَك، ثم عرضتُ عليه الزّاد والمتَاع فلم يقبل، وقال: «اخْفِ عَنَّا»، فسألته أن يكتبَ لي كتابَ أمانٍ، لأنه وقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبْسِ عنهم أنْ سيظهرَ أمرُ الرَّسُولِ ﷺ، فقلت: يا محمد؛ إني لأعلم أنه سيظهر أمرك في العالم، وتملكُ رقابَ الناس، فعاهدني أني إذا أتيتك يوم ملكك أن تكرمني، فأمر عامر بن فُهَيْرَةَ فكتب لي كتاباً في رقْعَةٍ من أُدُم، فلما أَردتُّ الانصرافَ قال لي رَسُولُ الله ﷺ: «كَيفَ بِكَ يَا سُرَاقَةُ إِذَا تَسَوَّرْتَ بِسِوَارَي كِسْرَى»؟، فقلت: كسرى بن هُرْمُز!؟، فقال: «نَعَم».

وقد أسلم سراقة بالجِعِرَّانة. وعنه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: لما فرغَ رَسُولُ الله ﷺ من حُنين والطّائف خرجتُ ومعي الكِتَاب لألقاه، فلقيتُه بالجِعِرَّانة، فدخلت في كتيبة من خَيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرِّمَاح ويقولون: إليك، ماذا تريد؟، فدنوت من رَسُولِ الله ﷺ وهو على ناقته، فرفعتُ يدي بالكتاب وقلت: يا رسول الله هذا كتابي وأنا سراقة، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «يَومُ وَفَاءٍ وَبِشْر، أُدْنُ»، فدنوت منه وأسلمت. ولما جِيءَ لعمرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في خلافته بسِوَاري كسرى وتاجه وبساطه وكان ستين ذراعا في ستين ذراعا، منظوماً باللؤلؤ والجوَاهر الملوّنة على ألوانِ زهْرِ الرّبيع، وجيءَ له ببنات كسرى وكن ثلاثًا، وعليهن من الحلي والحلل والجواهر ما يقصر اللسان عن وصفه، فعند ذلك دعا سراقة وقال: ارفع يديك. وأُلْبِسَ السِّوَارَين، وقال له: قل: الحمد



لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز الذي كان يقول: أنا رَبُّ الناس، وألبسهما سراقة بن مالك.

ولما رجع سراقةُ صارَ يردّ عن رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّلَبَ، ولا يلقى أحداً إلا رَدّه، ويقول له: قد اختبرتُ هذه الطريق فلم أرَ أحداً. ولقيَ جماعةً من قريش كأنّهم أخبروا بمكانِ مَسِيرِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقصَدُوه، فقال لهم سراقةُ: قد عرفتم بـصَرى بهذه الطريق، وقد سِرْتُ فلم أرَ شيئاً. فرجعوا. فكان سُرَاقةُ أوّل النهار جاهداً على الرَّسُول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي آخِرِ النَّهَار سِلَاحاً له. وقال رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: خرجتُ وأنا أحبّ الناس في تحصيلهما، ورجعت وأنا أحبّ الناس في أنْ لا يَعْلَمَ بهما أحدٌ.

وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: سرنا ليلتنا كلها حتى قام قائم الظهيرة وخلا الطريقُ فلا يُرَى فيه أحَدٌ، ورُفِعَتْ لنا صَخرةٌ طويلة لها ظِلّ، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرةَ فسويت بيدي مكاناً ينامُ فيه رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ظلها، ثم بسطت له فرْوَةً، ثم قلت: يا رسول الله نَمْ وأنا أتجسَّسُ وأتعرَّفُ من تخافه، فنام صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا بِرَاع يُقْبِلُ بغنَمِه إلى الصَّخرة يريد منها الذي أردناهُ من الظل، فلقيته، فقلت له: لمن أنتَ يا غلام؟، فقال: لرَجُلٍ مِن أهلِ مَكّة وسَمّاهُ فعرفْتُه، فقلتُ: هل في غنمك من لبن؟، قال: نعم، قلت: أفتحلب لي؟، قال: نعم، فأخذ شاة فحلبَ لي في إِدَاوَةٍ كان عليها خرقة، فأتيتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكَرِهْتُ أن أوقِظَه من نومِه فوقفت حتى أستيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله اشرب من هذا اللبن، فشرب ـ لأنه جرت العادة بإباحة مثل ذلك لابن السبيل إذا احتاج إلى ذلك، فكان كل

راع مأذونا له في ذلك ـ، ثم قال النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلم يَأْنِ الرَّحِيلُ»؟، قلتُ: بلى، ثم ارتحلنا.

واجتازُوا في طريقهم بأمِّ مَعْبَد[١]، وكان منزلها بقديد، فسألوها لحماً أو تمرا أو لبناً يشْتَرُونه، فَقَالَتْ: والله لو كان عندنا شيءٌ ما أعوزناكم للشِّراء. لأنهم كانوا مُجْدِبين، فرأى رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاة خَلَّفَهَا الجهدُ والهُزَال فلم تطق اللحاق بالغنم لما بها، فقال لها: «هَلْ بهذِهِ الشَّاةِ مِن لَبَنٍ»؟، فَقَالَتْ: هيَ أَجْهَدُ من ذلك، فقال لها: «أَتأذَنِين لنَا في حَلْبِهَا»؟ قالت: والله ما ضَرَبهَا فَحْلٌ قط فشأنك بها إن رأيت منها حلبا فاحلبها، فمسح بيده ضرعَها وظهرَها وسمى الله تعالى، وقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لنَا في شَاتنا» فدَرَّت واجترت وتهيئت للحلب، فدَعا بإناء، فحلبَ فيه ثجًّا لكثرَةِ اللبن حتّى علتهُ الرَّغْوَة، ثم سقاها فَشَرِبَتْ حَتّى رَوِيَتْ، وسَقَى أصْحَابَه حتّى رووا علًّا بعدَ نَهْل، ثم شَرِبَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان آخرهم شربا، وقال: «سَاقِي القَومَ آخِرُهُم شُرْباً»[٢]، ثم حَلبَ في الإناءِ وتركه لها، وارتحل.

قالت أمّ مَعْبَد: فكُنّا نَحلِبُ تلكَ الشاة[٣] بكرَةً وعشية، ولما جاءَ أبو معبد

---

(١) اسمها عاتكة أسلمت وهاجرت هي وزوجها غير أنّ اسمَه لم يُعْرَف، وكانت أم معبد وأهلها يؤرخون بيوم نزول الرجل المبارك، ولما قيل لها: ما بال صفتك لرَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشبه به من سائر صفات من وصَفَهُ من الرِّجال؟، قالت: لأنّ نظرَ المرأةِ للرَّجُل أشْفَى من نظر الرَّجُل إلى الرَّجُل.

(٢) حديث: «سَاقِي القَومَ آخِرُهُم شُرْبًا»، رواه مسلم في صحيحه [٤٧٢/١]، حديث رقم: (٦٨١).

(٣) وهذه الشاة بقيت عند أمّ مَعْبَد إلى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ تَعَالَى عَنْه إلى السَّنة الثامنة عشرة من الهجرة، وهي تحلب معجزة له صلى الله عليه وآله سلم، وكرامة لأم معبد، حتى هلكت في تلك السنة التي أهلكت الزرع والضرع، ولهذا سميت: عام الرمادة؛ لأن في=

عندَ المسَاء يسُوق أَعْنُزًا عِجَافًا، ورأى اللَّبَن الذِي حَلَبَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِجَبَ، وقال: يا أم معبد ما هذا اللبن ولا حَلوبٌ في البيت؟، فقلت: مَرَّ بِنا رَجُلٌ مبارك، قال: صفيه لي، فقلت: (رأيتُ رجلاً ظاهرَ الوضَاءَة، مُتَبلِّجَ الوَجْهِ، حَسَنَ الخُلُق، وسِيماً قَسِيماً، أَزَجَّ الحَاجِب، شَدِيدَ سَوَادِ الشَّعْرِ، في أَشْفَارِه ـ أي الشّعر النّابت بأجفان عينيه ـ وطَفٌ ـ أي طُول ـ، وفي عَيْنَيهِ دَعَجٌ ـ أي شِدّةُ سَوادٍ في بياض ـ، وفي صَوتِهِ صَحَلٌ ـ أي بُحَّةٌ، وليسَ حادّ الصَّوت ـ، غُصْنٌ بَينَ الغُصْنَينِ، لَا تَشْنَؤُهُ مِن طُوْلٍ، ولا تَقْتَحِمُه مِن قِصَرٍ، لمْ تُعِبْهُ ثَجْلَةٌ ـ أي عِظَمُ البَطنِ وكُبرُها ـ ولمْ تُزْرِ به صَعْلَةٌ ـ أي صِغَرُ الرَّأس ـ، كَأَنَّ عُنقَهُ إِبْرِيقُ فِضَّةٍ، إذَا نَطَقَ فَعَلَيهِ البَهاءُ، وإذَا صَمَتَ فَعَلَيهِ الوَقَارُ، لَهُ كَلامٌ كَخَرَزَاتِ النَّظْم، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُم مِن بَعِيد، وَأَحْسَنُهم مِن قَرِيب، أَزْيَنُ أَصْحَابِهِ مَنْظَراً، وَأَحْسَنُهُم وَجْهاً، أَصْحَابُه يَحُفُّونَ بِهِ، إِذَا أَمَرَ ابْتَدَرُوا أَمْرَه، وَإِذَا نَهَى انْتَهوا عِنْدَ نَهْيِهِ). فقَالَ أَبو مَعْبَد: هذا وَالله صَاحِبُ قُرَيْشٍ الَّذِي ذُكِرَ لَنَا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذُكِرَ بِمَكَّةَ، ولقَد هَمَمتُ أَن أَصحبَهُ، وَلأَفْعَلَنَّ إن وَجَدتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلا.

ولا زال كفّار قريش بمكة لا يعلمون أينَ تَوَجَّهَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يعلمون أين تَوَجّه أبو بكرٍ، وما عَلمُوا أنهما توجّهَا نحو يثرب إلا لمَّا سمعوا هَاتفاً لا يَدْرُونَ مَن صَاحِبُهُ، يذكرُهما ويذكرُ أُمَّ مَعْبَدٍ في أبياتٍ، منها:

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّــاسِ خَيْرَ جَزَائِــهِ   رَفِيقَيْـنِ قَـالَا خَيْـمَتَيْ أُمِّ مَعْبَـدِ

= تلك السنة أجْدَبت الأرضُ إجدابا شديدا، حتى جعلت الوحوش تأوي إلى الإنس، وكان الرجل يذبح الشاة فيعاف أكلها لخبث لحمها، وكانت الريح إذا هبت ألقت ترابًا كالرماد، فلذلك سُمّيَ ذلك العام عام الرَّمَادة، حتى حصلت السقيا بالعباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وذلك بعد طلب عمر بن الخطاب الاسْتِسْقَاء منه كما مشهور.

هُمَا نَزَلاهَا بِالْهُدَى وَاهْتَدَتْ بِهِ ... فَقَدْ فَازَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ(1)

ولما بلغَ بُرَيدَةَ بنَ الحُصَيب الأسلمي ما جعلته قريش لمن يأخذ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَمِعَ في ذلك، فخَرَج في سبعين من قومِه، فلما رَآه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: «مَنْ أَنتَ»؟، قال: بريدة بن الحصيب، فالتفتَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، بَرُدَ أَمْرُنَا وَصَلُحَ»، ثم قال: «مِمَّنْ أَنتَ»؟ قال: من أسلم من بني سهم، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلِمْنَا، وخَرَجَ سَهْمُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»؛ لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتفاءل ولا يتطير، ثم قال بريدة للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أنت؟، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، رَسُولُ اللهِ»، فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فأسلم بريدة وكل من كان معه، وصلوا خلفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العشاء الآخرة، ثم قال بريدة: يا رَسُولَ الله؛ لا تَدْخُلِ المَدِيْنَةَ إلا وَمَعَكَ لِوَاءٌ، فحَلَّ بُرَيدَةُ عمامتَه، ثمَّ شدَّها في رُمْح، ثم مشى بين يديه، وقال له: تَنْزِلُ على مَن يا نَبِيَّ الله؟، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ نَاقَتِي هَذِهِ مَأْمُورَةٌ»، فقال: الحمد لله أنْ أَسْلَمَ بنو سَهْمٍ طائعينَ غير مُكْرَهين(2).

---

(1) أخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال ص: (٢٥٤)، حديث رقم: (٣٠)، وأخرجه بطوله الحاكم في المستدرك [١٢/٥]، برقم: (٤٢٧٥)، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وذكر أبياتا كثيرة منها:

فَيَا لَقُصَيٍّ مَا زَوَى اللهُ عَنْكُمُ ... بِهِ مِنْ فَعَالٍ لا يُجَازَى وَسُؤْدَدِ

لِيَهْنَ بَنِي كَعْبٍ مَقَامُ فَتَاتِهِمْ ... وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ

سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا ... فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ

دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ ... عَلَيْهِ صَرِيحًا ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ

(2) ذكره الحافظ ابن الجوزي في كتابه [الوفا بتعريف فضائل المصطفى - (١٩٧/١)].



ولما سمع المسلمون بالمدينةِ بخروجِ رَسُولِ الله ﷺ مِن مكَّةَ كانوا يغدون كلّ غَدَاةٍ إلى الحَرَّةِ، ينتظرونه حتى يَردّهم حَرُّ الظّهيرة، فانقَلبُوا يوماً بعد أنْ طالَ انتظارُهم وأحْرَقَتْهُم الشمسُ، وإذا رَجُلٌ من اليهود صَعدَ على مَحَلٍّ مُرتفع مِن محَالّهِم المرْتَفِعَة لأمرٍ يَنْظُر إليه، فبَصُرَ برَسُولِ الله ﷺ وأصْحَابِه، مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بهِم السَّرَابُ، فلم يملك اليهوديُّ نفسَه أنْ قال بأعلى صوته: يا مَعْشَر العَرَب؛ هذا جَدُّكم أو حَظّكُم الذي تنتظرون، فثار المسلمُون إلى السِّلاح، وخَرَجَ ما يزيدُ عَلى خمسمائة رجُلٍ، فاستقبلوا رَسُولَ الله ﷺ مع أبي بكرٍ بظاهر الحرَّة، ثم قالوا لهما: ادخلا آمنين مطمئنين. ثم إنهم نزلوا بِقُبَاء، عند بني عمرو بن عوف، وذلك في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، فدخلوا دارَ كُلْثُوم بن الهِدْم لأنه كان شيخ بني عَمْرو بن عَوف، وهم بطن من الأوس، وكان ذلك يوم الاثنين، وقد تَوَاتَرَت الأخبارُ أنّ خروجَه ﷺ من الغَارَ كان يوم الاثنين، ودخوله إلى المدينة كان يوم الاثنين.

ولما توجه ﷺ إلى المدينة قامَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بالأبطح يُنَادِي: من كان له عند رَسُولِ الله ﷺ وَدِيعَةٌ فَلْيَأتِ تُؤَدَّ إِلَيهِ أَمَانَتُه، ولما نفَذَ ذلك وَرَدَ عليه كِتَابُ رَسُولِ الله ﷺ بالشُّخُوصِ إليهِ، فابْتَاعَ رَكَائِبَ وقَدِمَ ومعه الفَوَاطِم وهُنَّ: فاطمةُ بنتُ حمْزَة، وفاطمةُ بنتُ عُتْبَة، وفاطمةُ بنت أَسَد أمُّ عَليّ، وفاطمةُ بنته ﷺ، وقَدِمَ بأمِّ أيمَن وولدِهَا أيمن، وجماعة من ضُعَفَاءِ المؤمنين.

وقيل: أنه ﷺ لما نزَل في دَارِ أبي أيوب الأنصاري بعثَ زيدَ بن حارثة وأبا رافع إلى مكة، وأعطاهما خمسمائة درهم وبعيرين؛ ليقدما عليه ببنتَيهِ

فاطمة وأم كلثوم، وسودة زوجته وأم أيمن وولدها أسامة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم أجمعين. ولا ينافي هذا ما تقدم؛ إذْ يجوز أن يكون الكتاب الذي فيه استدعاء سَيّدنا علي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه للهِجْرَةِ كان مع زَيدٍ وأبي رافع رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما وأنهما صَحِبَاه في الهجرة.

ولما قَدِمَ عَليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه من مكة كان يسير الليل ويكمن النهار حتى تَفَطّرَت وتَوَرَّمَتْ قَدَمَاه، فاعتنقه النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبكى رَحمةً لما بِقَدَمَيهِ مِنَ الوَرَم، وتَفَلَ في يَدَيهِ ثُمَّ أَمَرَّهُما عَلى قدميه فلم يَشْتَكِهما بعد ذلك، ولا مانع من وقوع ذلك من سيدنا علي رضي الله عنه مع وجود ما يركبه، لأنه يجوز أن يكون هاجر ماشيا رغبة في عظيم الأجر.

ولما حَلّ رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدَينة سَرَى السُّرورُ إلى القُلوبِ بِحُلولِه، وعن البرَاء رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، قال: (ما رَأيتُ أهلَ المدينة فَرِحُوا بِشَيءٍ فَرَحَهُم برَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). وعن أنس بن مَالك رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، قال: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ أضَاءَ منها كلُّ شَيءٍ). وقد خَرجَ الصِّبيَان وصَعَدت ذَوَاتُ الخدُورِ عَلى الأَسْطِحَةِ عندَ قُدُومِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُعْلِنَّ بقُولهنَّ:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعْ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا للهِ دَاعْ

أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا ... جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطَاعْ[1]

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة [٢/٣٦٤]، عن عائشة رَضِيَ اللهُ تعالى عنها، حديث رقم: (٧٥٢)، في باب استقبال الأنصار لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على أنّ إنشاد الصبيان لهذه الأبيات=




ولبث رَسُولُ الله ﷺ في قباء عند بني عمرو بن عوف بقية يوم الاثنين، ويوم الثلاثة ويوم الأربعاء ويوم الخميس، ثم خرج يوم الجمعة، وقيل: أقام أربعة عشر يوماً، بعد أن أسَّسَ مسجد قُباء، المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، وصلى فيه رَسُولُ الله ﷺ، وكان محلُّ مسجد قباء مِرْبَدًا يُجَفَّفُ فيه التمرُ لكلثُوم بنِ الهِدْم، وهو أول مسجد بني في الإسلام لعموم المسلمين، وأول مسجد صلوا فيه جماعة ظاهرين آمنين، وبعد تحوّله ﷺ إلى المدينة كان يأتي ذلك المسجد يوم السبت ماشيًا وراكبًا فيصلي فيه.

وبعد إقامته ﷺ المدة المذكورة بقباء ركبَ رَاحِلَته قَاصِدًا المدِينَةَ، فقال بنو عمرو بن عوف له ﷺ: يا رُسُولَ الله، أَخَرَجْتَ ملاَلًا لنا، أمْ تُرِيدُ دَارًا خيرًا مِنْ دَارِنَا؟، قال: «إني أمِرْتُ بِقَرِيَةٍ تَأكُلُ القُرَى، يَقُولونَ: يَثْرِب، وَهِيَ المدِينَة»[1]، ثم سَارَ وسَارَ الناسُ معه، وهم ما بين ماشٍ ورَاكب، ولازَالَ أحدُهم يُنَازِعُ صَاحِبَه زِمَامَ النّاقةِ حِرصاً عَلى كَرَامَةِ رَسُولِ الله ﷺ، وتعظيماً له

= كان عند مقدَمِه ﷺ من مكَّةَ إلى المدينة، وأخرجه في الدلائل أيضا [٣٥١/٥]، في باب تلقي الناس لرسول الله ﷺ حين قدم من غزوة تبوك، برقم: (٢٠١٩)، وقال: وهذا يذكره علماؤنا عند مقدمه المدينة من مكة وقد ذكرناه عنده. واستشكلَ ذلكَ ابنُ القَيّم في زَادِ المعَاد [٥٥١/٣]، وقال: إن هذا وهْمٌ ظاهرٌ من بَعضِ الرُّوَاة، لأن ثنيّاتِ الوَداع إنّما هيَ من ناحية الشام، لا يراها القادِمُ من مكة، ولا يمرُّ بها إلا إذا توجَّه إلى الشَّام. وأجيب عليه: بأنه ﷺ جاء من جهتها عند خروجه من قباء. وقيل: ما كان أحدٌ يدخل المدينةَ إلا منها، ولهذا قيل لها: ثنية الوداع؛ لأنّ المُوَدِّعَ يمشي مع المسافر إليها. ولم تُنسَب هذه الأبيات التي أنشدوها لقائلها ومُنْشِئها ابتداءً بعينه، واشتهر عندنا معها بيت آخر، وهو: (جِئْتَ شَرَّفْتَ المَدِينَةْ * مَرْحَبًا يَا خَيرَ دَاعْ)، ولم أجِدْ من ذكره من أهل السير، ولعله من زيادة المتأخرين.

(١) رواه البخاري في صحيحه [٦٦٢/٢]، برقم: (١٧٧٢)، ومسلم [١٠٠٦/٢]، برقم: (١٣٨٢).

حتّى دخَل المدينة، وصار الخدم والصبيان يقولون: الله أكبر، جاءَ رَسُولُ الله ﷺ، جاءَ محمَّدٌ ﷺ. ولَعِبَ الأَحْبَاشُ بِحِرَابِهم فرَحًا برَسُولِ الله ﷺ.

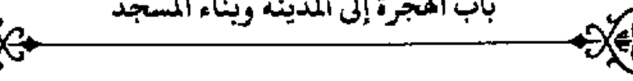
وسَارَ رَسُولُ الله ﷺ حتى أدْرَكَتْهُ صلاةُ الجمعة في بني سالم بن عوف فصَلّاها في المسجد الذي في بطن الوَادي بمن معه من المسلمين وكانوا مائة، فكانت أوّل جمعة صلاها بالمدينة، وخطبَ لها، وهيَ أوّل خطبةٍ خَطَبَ لها في الإسلام، وقال في خطبته تلك: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِيَ وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ فَإِنَّهَا تُجْزِئُ، الحَسَنَةُ بِعْشرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمائَةِ»[1]، وقال فيها: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيكُمْ الجُمُعَةَ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ غَيرِ عُذْرٍ مَعَ إِمَامٍ عَادِلٍ أَوْ إِمَامٍ جَائِرٍ فَلَا جُمِعَ لَهُ شَمْلُهُ، وَلَا بُورِكَ لَهُ فِي أَمْرِهِ، أَلَا وَلَا صَلَاةَ لَهُ وَلَا حَجَّ لَهُ، أَلَا وَلَا بَرَكَةَ لَهُ وَلَا صَدَقَةَ لَهُ»[2].

ثم ركب ﷺ رَاحِلَتَه بعدَ الجُمُعة، وقد أرْخَى زِمَامَها ولم يُحرِّكْهَا، وهي تنظرُ يميناً وشمالاً، فسأله بنو سالم منهم: عِتْبَان بن مالك، ونوفل بن عبد الله بن مالك، وعبادة بن الصَّامت، فقالوا: يا رسول الله، أقم عندنا في العَدَدِ والعِزَّةِ والمنَعَة. فتبسَّمَ النبيُّ ﷺ، وقال: «بَارَكَ الله عَلَيكُم»، ثم قال لهم: «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّها مَأْمُورَة»، فانطلقَتْ حتى ورَدَت محَلّة بني بَيَاضَة، فسأله بنُو بياضة، ومنهم: زِيَادُ بن لَبِيد، وفَرْوَةُ بن عمرو، مثل ما تقدم، فأجابهم:

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة [٢/٣٩٦]، رقم: (٧٨٠)، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط [٧/١٩٢]، حديث رقم: (٧٢٤٦).



«خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّها مَأْمُورَة»، فانطلقَتْ حتى وردت دار بني ساعدة، فسأله بنو ساعدة، ومنهم: سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وأبو دجانة، بمثل ذلك، فأجابهم: «خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّها مَأْمُورَة»، فانطلقَتْ حتى مَرَّت بِدَارِ عَدِيِّ بن النَّجَّار، وهم أخوَاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا له: نحنُ أخوالك، هَلُمَّ إلى العُدَّةِ والمنَعَةِ والعِزَّةِ مَعَ القَرَابَةِ، لا تجاوزنا إلى غَيرِنا يا رسول الله، فليسَ أحدٌ أولى بِكَ مِنَّا لقَرَابتِنا، فأجَابَهُم بأنّها مأمورة، فانطلقَتْ حتّى بَرَكت في مَحَل من محلاتِ بني النَّجَار، وذلك في محل المسجد، أو في محل المنبر الآن، عند دار بني مالك بن النجار، وعند باب أبي أيوب خالد بن زيد النجاري الخزرجي الأنصاري، فلم يَنْزِلْ عنها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَثَبَتْ، وسَارَت غَيرَ بعيدٍ، ثُمّ التفَتَتْ خلفَها ورَجعَتْ إلى مَبْرَكِهَا فَبَرَكتْ فيه، وتَجَلْجَلَتْ وَوَضَعَتْ باطِنَ عُنقِهَا على الأَرْض، وصَوَّتَتْ مِن غيرِ أنْ تفتحَ فاها، فنزل عنها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، قال ذلك أربع مرات، ثم أخذه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كان يأخذه عند الوَحْي، وسُرِّيَ عنه فقال: «هُنَا إِنْ شَاءَ اللهُ يَكُونُ المنْزِلُ».

ثم أمرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنّ يُحطَّ رَحْلُه، فاحتملَ أبو أيوب رَحْلَه فوضَعَه في بيته، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام رَاحِلَتِه فكَانت عِندَه، وخَرَجَتْ إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُوَيرِيَّاتٍ من بني النّجار بالدّفُوفِ يَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ... يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فقال لهن رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُحِبْبْنَنِي»؟، فَقُلْنَ: نعم يا رسول الله، فقال: «اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي يُحِبُّكُنَّ»(١)، وفي هَذا دَليلٌ لِسَماع الغِنَاءِ عَلى الدُّفِّ مِنَ

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة [٢/٣٦٨]، رقم: (٧٥٦).



المَرْأةِ لِغَيرِ العُرْسِ.

وتنازع القومُ أيّهُم يَنزلُ عليهِ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزلَ عَلى أبي أيوب، وقال: «المَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ»، فذهبت هذه الكلمة مثلا، ثم قال لأبي أيوب: «اذْهَبْ فَهَيِّىءْ لنَا مَقِيلاً»، فذهبَ فهيأ ذلك، ثم جاءَ فقال: يا نبي الله، قد هيأت مقيلاً فَقُمْ عَلى بركة الله تعالى، فقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزل معه زيد بن حارثة رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه. ومكثَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببيت أبي أيوب إلى أن بني المسجد النبوي وبنى بعضَ مَسَاكنِه، وقد مكث في بناء ذلك من شهر ربيع الأول إلى شهر صفر من السنة القابلة، ومدّة ذلك نحوَ اثني عشرَ شهراً، وقيل: مكث ببيت أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه سبعة أشهر. ولما تحوَّل الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قباء إلى المدينة تحول المهَاجِرُون، فتنافس فيهم الأنصار أنْ ينزلوا عليهم، حتى لقد اقترعوا فيهم بالسِّهَام، فما نَزَل أحدٌ مِنَ المهاجرين على أحدٍ من الأنصَارِ إلا بقُرْعَةٍ بينهم، فكان المهاجرون في دور الأنصار وأموالهم.

ولما نزلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت أبي أيوب نزل في أسفل البيت، وكان أبو أيوب في العلو، فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، إني أكره وأعظم أن أكون في العلو وتكون تحتي، فأظهر أنت وكن في العلو وننزل نحن فنكون في السفل، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا أَيُّوبَ السُّفْلُ أَرْفَقُ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا»، قال أبو أيوب: فانكسرت لنا جرة كبيرة فيها ماء، فقمت أنا وأمّ أيوب بقطِيفةٍ لنا، ما لنا لحافٌ غيرها ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر منه شيءٌ على رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيؤذيه، فقلت لأم أيوب: رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحقُّ بالعلو منّا، ينتثر الترابُ عليه مِن وَطْءِ أقدامنا، وتنزل عليه الملائكة، وينزل عليه الوحي، فما بتُّ تلك الليلة لا أنا ولا أمّ أيوب، فلما أصبحت، قلت: يا رسول الله، ما بتُّ



الليلة أنا ولا أم أيوب، فقال: «وَلِمَ يَا أَبَا أَيُّوبَ»؟، فقلت: كنت أحق بالعلو منا، ينزل عليك الملائكة، وينزل عليك الوحي والذي بعثك بالحق لا أعلو سقيفة أنت تحتها أبدا، فلم أزل أتضَرَّعُ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تحوَّل في العلو.

وكان الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي في مسجدٍ لأبي أمامة أسعد بن زرارة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان أبو أمامة يصلي فيه بأصحابه، ويجمع بهم الجمعة فيه، وذلك قبل قدوم رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن سوى جدارٍ مجدَّراً ليس عليه سَقفٌ وقبلته إلى بيت المقدس، وكان أَسْعَدُ قد بَنَاهُ قبل الهجرة في بَعضِ مِرْبَدٍ للتّمرِ، لسَهْل وسُهَيل، يجفِّفُونَ فيه التّمْرَ، وكان ذلك المربد من جُملةِ المحلّ الذي بنى فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسجده بعد ذلك، ثم إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأل أسعد بن زرارة أن يبيعه تلك البقعة التي كان من جملتها مسجده ليجعلها مسجداً، وكانت تلك البقعة ليتيمين في حجر أسعد، وهما سهل وسهيل، فابتاعها رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعشرة دنانير أدّاهَا له من مالِ أبي بكر، وقد كان الغلامان قالا: نهبه لك يا رسول الله، فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما.

وكان في تلك الأرض قبورٌ لأهل الجاهلية ونَخْلٌ وخِرَبٌ، فأمرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقبورِ فنبشت، وبالخِرَبِ فَسُوِّيَت، وبالنَّخْل فَقُطِعَت ثم إن رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَ باتّخاذِ اللَّبِنِ، فَاتُّخِذَ، وشرَع في بناء المسجد، وأمرَ الناس أن يضعوا الحِجَارة فوَضعُوها، ورُفِعَ بالحِجَارَة قريبًا من ثلاثة أذرع، وبُنِيَ باللَّبِنِ ما فوقَ ذلك، وجعلت عُضَادَتَي المسجد من الحجارة وسُقِفَ بالجَرِيدِ، وجُعِلتْ عمُدُه وسَوَارِيهِ مِن جُذُوعِ النَّخْلِ، وكَانَ ارتِفَاعُ جِدَارِه سَبْعَةَ أَذْرُعٍ قدرَ قامة، فكَان إذا قام الرّجل أصابَ رأسُه السّقفَ، ولم يكن على السّقف طين كثير، فكان إذا

جاء المطر نزل منه ماء المطر المخالط للطين عليهم، بحيث يمتلىءُ المسجد طينا، فقالوا: يا رسولَ الله لو أمَرْتَ فَجُعِلَ عليه طِينٌ كثيرٌ بحيث لا ينزل علينا المطر، فقال: «لَا، مَا أُمِرْتُ بِتَشْيِيدِ المَسَاجِدِ، بَلْ عَرِيشٌ كَعَرِيشِ مُوسَى، وَظُلَّةٌ كَظُلَّةِ مُوسَى، وَالأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلك»، فقيل: وما ظلة موسى؟، قال: «كَانَ إِذَا قَامَ أَصَابَ رَأْسُهُ السَّقْفَ»، فلم يزل كذلك حتى قُبِضَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعند بناء المسجد عَمِل فيه المهاجرون والأنصار، وعَمِلَ فيه رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسِه ليُرَغِّبَ المسلمينَ في العمل فيه، وصارَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينقل اللبن في ثيابه وردائه، حتى اغبر صَدْرُه الشّريف، وصار يقول:

هَـذَا الحِمَـالُ لَا حِمَـالُ خَيْبَـر ... هَـذَا أَبَـرُّ رَبَّـنَـا وَأَطْـهَـر

أي أنّ المحمُول مِن اللّبَن أبرُّ وأطْهَرُ إلى ربِّنا ممّا يحمَلُ مِن خَيبرَ مِن التَّمرِ والزَّبِيْب، وهذا البيت لم أَقِفْ على قائله، وزعم بعضهم أنه مِن إنشَائِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس ذلك بصَحيح؛ لثبوت الأدِلّة بامتناع إنشاءِ الشِّعرِ عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل قد كان من عادته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إنشاد الشّعرِ أن لا يأتي به مَوزُوناً ولو مُتَمَثِّلاً به، إلّا ما روي عنه في النَّادِر كإنشَادِه هذا البَيت المتقدم، وكقوله في يوم بدر وقد جعل يدور بين القتلى:

نُـفَـلِّـقُ هَـامـاً مِـنْ رِجَـالٍ أَعِـزَّةٍ ... عَـلَـيْـنَـا وَهُـمْ كَـانُـوا أَعَـقَّ وَأَظْـلَـمَـا

ثم صار رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحمل معهم اللّبن، ويقول أيضًا:

الـلّـهُـمَّ إِنَّ الأَجْـرَ أَجْـرُ الآخِـرَةْ ... فَـارْحَـمِ الأَنْـصَـارَ وَالمُـهَـاجِـرَةْ[1]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه [٣/١٤٢١]، باب: هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٣٦٩٤).

وهذا البيت لامرأة مِن الأنصار، ولم يقرأهُ ﷺ موزونًا، وغيَّره كعادته في إنشاد الشعر، لأن المرأة إنما قالت: لَا هُمَّ.. إلى آخره، وتمام ما قالته بيت آخر، وهو:

وَعَافِهِمْ مِنْ حَرِّ نَارٍ سَاعِرَةْ ... فَإِنَّهَا لِكَافِرٍ وَكَافِرَةْ

ولما رأى الصَّحابةُ رَسولَ الله ﷺ ينقلُ اللّبنَ بنفسِه، قال قائلٌ منهم:

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ... لَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّلُ

فدَأبُوا في النقل وجعل كل رجل يحمل لبنة لبنة، وعمار بن ياسر يحمل لبنتين، فجعل رَسُولُ الله ﷺ ينفِضُ الترابَ عن رَأسه ويقول: «يَا عَمَّارُ أَلَا تَحْمِلُ كَمَا يَحْمِلُ أَصْحَابك»؟، فقال: إني أريدُ الأجر من الله تعالى، فمسح رَسُولُ الله ﷺ ظهرَه، وقال: «يا بنَ سمية: للنّاس أجْرٌ، ولكَ أجْرَان، وآخِرُ زَادِك مِنَ الدُّنيَا شَرْبَةٌ مِن لَبَن، وتَقْتُلكَ الفِئَةُ البَاغِية، تدعُوهم إلى الجنَّةِ، وتَدعُوكَ إلى النَّار»[1]، فقال عمار: أعوذ بالله.

وجُعِلَتْ قِبْلةُ المسجدِ إلى بيت المقدس، لأن بناءه كان قبل أن تحول القبلة، وجُعِل له ثلاثة أبواب، بابٌ في مؤخره، والباب الذي كان يقال له: باب الرحمة، والباب الذي يقال له الآن: بابُ جبريل، وهو الباب الذي كان يدخل

---

(١) هذا الحديث صحيح رواه عدد من الحفاظ منهم البخاري في صحيحه [٤/٢١]، باب مسح الغبار عن الرّأس في سبيل الله، حديث رقم: (٢٨١٢). وقد كان هذا النصّ النبوي، محلّ نظرِ كثيرٍ من الصحابة، وعندما نشَبت الفتنة بين سيدنا علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وكان كثيرٌ من الصحابة قد خرجوا في جيش سيدنا علي حين رأوا عمار بن ياسر رضي الله عنهما معه، والبعض منهم توقف حتى يرى من هي الفئة التي ستقتله، فلما قتله جيش معاوية عَلِمَ الجميعُ أن سيدنا علياً على الحق فمالوا إليه.

منه ﷺ، ويقال له: باب عثمان؛ لأنه كان يلي دار عثمان، وهو الذي يُخْرَجُ منه الآن إلى البقيع. ومكث ﷺ يصلي في المسجد بعد تمامه إلى بيت المقدس خمسة أشهر، ولما حولت القبلة سد الباب الذي كان في مُؤَخّر المسجد، ثم فُرِشَت أرضُ المسجد بالحصْبَاء، وسبب وضع الحصا فيه أن المطرَ جاءَ ذاتَ ليلةٍ فأصبحت الأرض مبتلة، فجعل الرَّجُل يأتي بالحصَا في ثوبه فيبسطه تحته ليصلي عليه، فلما قضَى رَسُولُ الله ﷺ الصلاة قال: «مَا أَحْسَنَ هَذَا»!.

وبنَى النَّبيُّ ﷺ لعائشةَ وسودة حُجرتين، بجوار المسجد ملاصقتين له على طرز بناء المسجد من لَبِن، وجعَل سقفَهما من جُذُوع النَّخْل والجرِيد، وبعد فتحِ خَيبر كَثُرَ النَّاسُ فقالوا: يا رسول الله لو زِيدَ في المسجد، فزَادَ فيه، وأدخل فيه الأرضَ التي اشتراها عثمانُ بن عفان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه من بعضِ الأنصار، بعشرةِ آلاف دِرْهم، فإنه لما اشتراها جاءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله أَتَشْتَرِي مِنّي البقعة التي اشتريتها من الأنصار؟، فاشتراها منه النَّبِيُّ ﷺ ببيتٍ في الجنة.

ولما كثرَ المهاجرون بالمدينة ولم يكن لهم زاد ولا مأوى، أنزلهم رَسُولُ الله ﷺ المسجدَ، وسمّاهم أصحابَ الصّفة؛ وكان يجالسُهم ويأنَسُ بهم، وكان إذا صلى أتاهم فوقف عليهم فقال: «لَو تَعْلَمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ الله لأَحْبَبْتُمْ أَنْ تَزْدَادُوا فَقْراً وَحَاجَةً»، وجعل في المسجد محلا مُظَلّلا يأوي إليه المساكين يُسَمّى الصُّفَّة، وكان أهلُه يُسَمَّونَ أهلَ الصُّفة، وكان ﷺ في وقت العشاء يفرقهم على أصْحَابه ويتعشى معه منهم طائفة.

وكان المسجد إذا جاءَ الليل يُوقَدُ فيه سَعَفُ النخل، فلما قدم تميم الداري المدينةَ صَحِبَ معه قناديلَ وحبالاً وزيتاً وعلّق تلك القَنادِيل بسَوَارِي المسجد وَأُوقِدَتْ، فقال له ﷺ: «نَوَّرْتَ مَسْجِدَنَا، نَوَّرَ اللهُ عَلَيك، أمَا وَاللهِ لَو كَانَ لِي ابْنَةٌ لأَنكَحْتُكَهَا».

ولما قَدِمَ ﷺ المدينةَ وجدَ أهلها من أخبَثِ النّاسِ كَيْلاً، فأنزل الله تعالى صَدْرَ سورة المطففين، فأحسنوا الكيل بعد ذلك. وكانت المدينة في الجاهلية معروفةً بالوباء، أي الحُمَّى، وكان إذا أشرف على واديها أحدٌ نهَقَ نَهِيقَ الحمَار، ويزعمون أنّ من فعل ذلك لا يَضُرُّهُ الوباءُ، ولما قدم ﷺ المدينةَ أُصِيبَ أصْحَابُه المهاجرون بالحُمَّى، واسْتَوخَمُوا هوَاءَ المدينة ولم يوافق أمْزِجَتَهم، فمرضَ كثيرٌ منهم وضعفُوا، حتى كانوا يُصَلّون قُعُوداً من شدّة ما أصابهم، فرآهم رَسُولُ الله ﷺ، فقال لهم: «إعلَمُوا أَنَّ صَلَاةَ القَاعِدِ عَلَى النّصْفِ مِنْ صَلَاةِ القَائِم»[1]، فتَجَشَّمُوا المشَقّةَ وصلّوا قياماً.

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها قالت: قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله، ولما حصلت لي الحمى قال لي رَسُولُ الله ﷺ: «مَا لِي أَرَاكِ هَكَذَا»؟ فقلت: بأبي أنت وأمي هذه الحمى، وسَبَبْتُها، فقال: «لَا تَسُبِّيهَا فَإِنَّها مَأمُورَةٌ، وَلَكِنْ أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتِيهِنَّ أَذْهَبَهَا الله تَعَالَى عَنْكِ، قُولِي: اللَّهُمَّ ارْحَمْ جِلْدِي الرَّقِيق، وَعَظْمِي الدَّقِيق، مِن شِدَّةِ الحريق؛ يَا أُمَّ مَلْدَم، إِنْ كُنْتِ آمنتِ بالله العَظِيمِ فَلَا تُصَدِّعِي الرَّأْسَ وَلَا تُنْتِنِي الفَمَ، وَلَا تَأْكُلِي اللَّحْمَ، وَلَا تَشْرَبِي

(١) أخرجه الحافظ عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه [٥/٤٢٥]، حديث رقم: (٤١١٩).

الدَّمَ، وَتَحَوَّلِي عَنِّي إِلَى مَنِ اتَّخَذَّ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ»، فقلتها، فذهَبتْ عَنِّي[1].

وأصَابت الحمّى سيدنا أبا بكر الصديق، وعامر بن فُهَيْرَة، وبلالاً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم، وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع صوته، ويقول متشوقا إلى مكة:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي اذْخِرٌ وَجَلِيلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ

وكان مراده بالوادي وادي مكة، وكان يقول: اللَّهُمَّ العَن شيبة بن ربيعة وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. ولعل هذا اللعن من بلال كان قبل النهي عن لعن المعين، لأنه لا يجوزُ لَعْنُ الشّخصِ المعين، إلا إنْ عُلِمَ موتُه على الكفر، لأنه يحتمل أن يختم له بالحُسْنَى فيموت على الإسلام، وأما اللعن عَلى الوَصْفِ فجائز، أو أنّ ذلك محمُولٌ على الإهانة، والطرد عن مواطن الكرامة، لا على الطرد عن رحمة الله الذي هو حقيقة اللعن.

وكان كلٌّ من أبي بكر وعَامر وبلال في بيت واحد، فاسْتَأذَنَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عِيَادتهم، فأذن لها، فدخلت عليهم، وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب فإذا بهم ما لا يعلمه إلا الله تعالى من شدة الوعك، فسلمت عليهم، وقالت لأبيها: يا أبتِ، كيفَ أصْبحَتَ؟، فأنشدها:

كُلُّ امرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... وَالمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

فَقَالَتْ: إنا لله..، إنّ أبي لَيَهْذِي، ثم قالت لعامر بن فُهَيْرَةَ: كيف تجدك؟، فقال:

---

(١) أخرجه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة [٦/٣٥٦]، حديث رقم: (٢٤١٨).



إِنِّي وَجَـدْتُ المَوْتَ قَبْـلَ ذَوْقِـهِ   إِنَّ الْـجَـبَـانَ حَـتْـفُـهُ مِـنْ فَـوْقِـهِ

فَقَالَتْ: هذا والله لا يَدْرِي ما يقول، ثم قالت لبلال: كيف أصبحتَ؟ فإذا هو لا يَعْقِل، فذكرَتْ حالَهم للنبيِّ ﷺ وقالت: إنهم يهْذُون ولا يَعْقِلُونَ من شِدّة الحُمَّى، وأَخْبَرَتْهُ بِقَوْلِهِم، فَنَظَرَ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ وَأَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَفِي مُدِّهَا، وَانْقُلْ وَبَاءَهَا إِلَى الْجُحْفَةِ»[1].

ونظرَ ﷺ إلى السَّماء، لأنها قبلة الدعاء، والجحْفَةُ قَرِيَةٌ قريبةٌ مِن رَابغ، وهو محلّ إحْرَام مَن يجيءُ من جِهَةِ مصر حَاجّاً، وكان سُكّانها إذْ ذَاكَ يهود. ودعاؤه ﷺ أن يحبّب إليهم المدينةَ إنما هو لما جُبِلَتْ عليه النفوس من حب الوطن والحنين إليه، ودعاؤه ﷺ بنقل الحُمَّى كان في آخر الأمر، وأما عند قدومه ﷺ المدينة، فخُيّر بين بقاء الطاعُون والحُمَّى، فاختار بقاء الحُمَّى؛ لقلة الموت بها غالباً، بخلاف الطاعون، ثم لما احْتَاجَ لِلجِهَادِ، وأُذِنَ له في القِتَال وَوَجَدَ الحُمَّى تُضْعِفُ أَجْسَاد الذين يقاتلون دعَا بنقلها من المدينة إلى الجحفة، فعادت المدينة أَصَحَّ بلادِ الله تعالى بعد ذلك، وصَارت الجحفةُ بعد أنْ نُقِلَت الحُمَّى إليها لا يدخلها أحدٌ إلا حُمَّ، حتى قيل: إن الطّائر إذَا مرَّ بها حُمَّ، واسْتَشْكَلَ بعضُهم: جعلَها ميقاتاً للإحرام، مع ما عُلِمَ مِن قواعد الشَّرعِ أنه ﷺ لا يأمر بما فيه ضرر. وأجيب: بأن الحمَّى انتقلت إليها مُدّة مقام اليهود بها، ثم زَالت بِزَوَالِهم من الحجاز، أو زَالت حِينَ صارت مِيقاتاً.

ولما شَكَى المسلمون للنبيِّ ﷺ سُرْعَةَ فناءِ طعامهم، قال لهم: «قُوتُوا

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده [٤٠/٤١٩]، حديث رقم: (٢٤٣٦٠).

طَعَامَكُمْ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ»[1]، قيل: معناه تصغير الأرْغِفَة. ثم دعا ﷺ للمدينة بقوله: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالمَدِينَةِ ضِعْفَيْ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِن الْبَرَكَةِ»[2]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: كان رسول الله ﷺ يؤتى بأوّل التّمر، فيقول: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لنَا في مَدِينَتِنا، وفي ثِمَارِهَا، وفي مُدِّنا، وفي صَاعِنَا بَرَكَةً مَعَ بَرَكَة»، ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان، ويقول ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ، بِمِثْلِ ما دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ»[3].

ثم اختطّ النبيُّ ﷺ دوراً للمُهاجرين في كلّ أرض ليست ملكاً لأحد، وفيما وهبه لهم الأنصار من خُطَطِهم، وأقام قومٌ منهم ممّن لم يمكنه البناء بِقُباء عند مَن نزلوا عليه بها، ثم بنَى ﷺ بقية الحُجَرِ التّسْع حسب الحاجة إليها، وفي كلام أئمتنا أنّ بيوتَه ﷺ كَانت مختلفة وأكثرها كَان بعيداً عن المسجد. وكانت تسعة حُجَرٍ: أربعة مَبْنِيّة باللَّبِن، وسُقُفُها مِن جَرِيد النَّخْلِ مُطَيّنٌ بالطّين، غيرَ بيتِ أمّ سَلَمة فإنها جَعَلت حُجْرَتَها بِنَاءً بالأحجار، وكان ﷺ في غَزْوَةِ دَومَةِ الجنْدَل، فلما قَدِمَ قال لها: «مَا هَذَا البُنْيَان»؟، قالت: أردت أنْ أكفّ أبصَارَ النّاس، فقال: «إنَّ شرَّ مَا ذَهبَ فيه مَالُ المرْءِ المسْلم البُنْيَان»[4]. وخمسة أبيات كُنَّ مِن جَرِيدٍ، مطينة لا حَجَر بها، وكَانت الحُجَر التي هيَ مِن الجريد

---

(١) رواه الإمام البزار في مسنده [٢/١١٣]، حديث رقم: (٤١٠٤).

(٢) رواه الإمام البخاري [٢/٦٦٦]، برقم: (١٧٨٦)، والإمام مسلم [٢/٩٩٤]، برقم: (١٣٦٩).

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢/١٠٠٠)، كتاب الحج: باب فضل المدينة، حديث رقم: (١٣٧٣).

(٤) رواه الإمام ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/١٦٨).



مُغطّاة مِن الخارج بمسُوح الشَّعر، وكان على أبواب جميع الحُجَرِ ستورٌ مِن مسُوح الشعر، ذُرِعَ السَّتْرُ فَوُجِدَ ثلاثة أذْرُعٍ في ذِرَاع. ولما هدمَ عمرُ بن عبد العزيز تلك الحُجُرَات وأدخَلَها في المسجد بأمر الوَليد بن عبد الملك، وكان ذلك بعد موت أزواجِ النبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بكى المسلمون بكاءً شديداً، وقال بعضُهم: ليتها تُرِكَت ولمْ تهدم حتّى يقصر الناس عن البناء، ويرضون ما رَضِيَ اللهُ تعالى لنَبِيِّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ مع أنّ مفاتيح خزائن الأرض بيده، فإن ذلك مما يُزَهِّد الناس في التكاثر والتفاخر في البنيان.

وبعد أن تَمّ بناءُ المسْجدِ آخَى النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بينَ المهاجرين والأنصار، فآخَى بين أبي بكر وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين أبي رُوَيم الخثعمي وبلال، وبين أسيد بن حضير وزيد بن حارثة، وبين أبي عبيدة وسعد بن معاذ، وآخى بين جعفر بن أبي طالب وهو غائب بالحبشة وبين معاذ بن جبل، وبين أبي ذر الغفاري والمنذر بن عمرو، وبين حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر، وبين مصعب بن عمير وأبي أيوب، وبين سلمان وأبي الدرداء، وآخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: يا عبد الرحمن إني من أكثر الأنصار مالاً، فأنا مُقَاسِمُك مالي، وعندي امرأتان فأنا مُطَلِّقٌ إحْدَاهُما فإذَا انقضت عِدّتُها فتزَوَّجها، فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، ومَنَعَهُ مِن أنْ يُطَلِّقَ زوجتَه.

ولما آخى رَسُولُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بينَ أصْحَابه جاء علي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه تَدْمَعُ عَيْنَاهُ، فقال: يا رَسُولَ الله آخَيْتَ بينَ أصْحَابِكَ، ولم تُؤَاخِ بيني وبينَ أحدٍ، فقال رَسُولُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَمَا تَرْضَى يَا عَلِيُّ أَنْ أَكُونَ أَخَاكَ»؟، فقال

عليٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بلى يا رسول الله، فقال له رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْتَ أَخِي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»(١).

قال بعضهم: والمؤاخاة من خصائصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يكن ذلك لنبي قبله. ولما حصلت المؤآخاة قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا قوماً أحسنَ مُواسَاة في قليل، ولا أحسنَ بذلا في كثير، مثل الأنصار حين قدمنا عليهم، كفونا المؤنة وأشركونا في المهنة، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال: «لَا ؛ مَا أَثْنَيتُمْ عَلَيهِمْ وَدَعَوتُمْ لَهُمْ»، أي أنه بثنائكم عليهم ودعائكم لهم يحصل منكم به نوع مكافأة.

وكانت المؤآخَاة بينهم على المواسَاة والحق، وأن يَتَوَارَثُوا بعدَ الموت دُونَ ذَوِي الأرحام، ثم لا زال المهاجرون والأنصار يتوارثون بذلك الإخاء دون القرابات، إلى أن نزل قول الله تعالى بعد وقعة بدر: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فنسخ ذلك، لأنه كان الغرض من المؤاخاة ذهاب وحشة الغُرْبَة، ومفارقة الأهل والعشيرة، وشد أزر بعضهم ببعض، فلما عزَّ الإسلام، واجتمع الشَّمْل، وذهبت عنهم الوحشة، بطل التوارث، ورجع كل إنسان منهم إلى نسَبه وإلى ذوي رحمه.

ومات عثمان بن مظعون رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، أخوه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرضاعة، فأمر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يُرَشَّ قبرُه بالماء، وأمر رَجُلًا أنْ يأتيه بحَجَرٍ، فأخذَ الرجُلُ حَجرًا ضَعُفَ عَن حمْلِه، فقامَ إليه رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحَسَرَ عَن ذِرَاعَيهِ،

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٥/١٧]، برقم: (٤٢٨٩). والترمذي في سننه [٥/٤٠٣]، رقم: (٣٧٢٠).



ثم حمله ووضعه عند رَأسِ القَبر، وقال: «أَتَعَلَّمُ بِهِ قَبْرَ أَخِي، وَأَدْفِنُ إِلَيهِ مَنْ مَاتَ مِن أَهْلِي»[1]، ولما مات ولدُه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ دفنه عند رجليه، وقال عند دفنه: «الْحَقْ بِسَلَفِنَا الصَّالِحِ»، وقال عند دفن بنته زينب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها: «الحقي بِسَلَفِنا الخير عثمان بن مظعون». ومات أسعد بن زرارة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وحَزِنَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه حزنًا شديدًا، وكان نقيباً لنبي النجار، فلم يجعل لهُم رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نقيبا بعده، فقالوا له: يا رَسُولَ الله، اجعل لنا رجلا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيم، فقال لهم: «أَنتُم أَخْوَالِي وَأَنَا نَقِيبُكُمْ»، وكره أن يخصّ بذلك بعضَهم دونَ بعضٍ، فكانت من مفاخرهم.

وفي شهر شَوّال من السنة الأولى مِنَ الهِجْرة أَعْرَسَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسَّيِّدة عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها. وعنها رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها قالت: (تَزَوَّجَنِي رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبَنَى بِي فِي شَوَّال، فَأَيُّ نِسَاءِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت أَحْظَى عِنْدَه مِنِّي)؟[2]. وقالت هذا لتبين أنَّ ما توَهَّمَه بعضُ النَّاس من التشاؤم بذلك، وأنه لكونه بين العيدين تحصل المفارقة بين الزوجين لا عبرة به ولا التفات إليه.

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها قالت: قال أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: يا رسول الله ما يمنعك أن تبني بأهلك؟، فقال: «الصَّدَاق»، فأعطاهُ أبو بكر اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، فبعثَ بها إلَيْنا، فأتتني أمّي وإني لفي أرجُوحَةٍ بين نَخْلَتين، مع صَوَاحب لي، فصرخت بي، فأنْزَلَتْنِي مِنَ الأرْجُوحَة، فأتيتها ما

(١) رواه الإمام أبو داود في سننه [٣/٢٠٣] باب جمع الموتى في قبر والقبر يعلم، حديث رقم: (٣٢٠٨)، والإمام البيهقي في السنن الكبرى [٣/٤١٢]، باب إعلام القبر بصخرة أو علامة، برقم: (٦٥٣٥).

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال، برقم: (١٤٢٣).

أدري ما تريد مني، فأخذت بيدي حتى وقفت بي على باب الدار، وأنا أنهج حتى سكن بعضُ نَفَسي، ومَسَحَتْ وجْهِي ورأسي بماءٍ، ثم أدخلتني الدّار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر.

فأسلمتني إليهن وأصلحن من شأني، ثم أسلمتني إلى رَسُولِ الله ﷺ ضحىً، وقالت: هَؤلاء أهلك، بارك الله لك فيهم، وبارك لهم فيك. وبنى بي رَسُولُ الله ﷺ وأنا يومئذ بنت تسع سنين، في بيتي هذا الذي أنا فيه، وهو الذي توفي به، ودفن فيه رَسُولُ الله ﷺ. ولم ينحر ﷺ عند بنائه بعائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها جَزُوراً ولم يذبح شاةً، فأرسَلَ إليه سعدُ بن عبادة بجفنتهِ التي كان يرسلُها إلى رَسُولِ الله ﷺ، وقيل: أرسل قدَحاً من لبَنٍ، فشرب منه النَّبيُّ ﷺ بعضاً، وشرِبَتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها باقيه.

ودخل رَسُولُ الله ﷺ بعائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها وهي جارية صغيرة، ولُعْبَتها معَها، وكانت تأتيها جُوَيرِيَّات يلعَبنَ معها، وربّما طلبَهُنَّ رَسُولُ الله ﷺ ليَلعبنَ معها، وقدم ﷺ من بعضِ غزواته، فهبّت رِيحٌ فكشَفَت ناحيةً من سِترٍ على صُفّةٍ في البيت، فإذا فيها لُعَبٌ مِن بَناتٍ، فقال ﷺ: «مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ»؟ فَقَالَتْ: بَنَاتي، ورأى بيْنَهُنَّ فرسًا لها جناحَان من رِقَاع، فقال: «وَمَا هَذَا الذِي أَرَى وَسَطَهُنَّ»؟، فَقَالَتْ: فرسٌ. قال: «وَمَا هَذَا الذِي عَلَيهِ»؟، فَقَالَتْ: جناحان، فقال مُتعجّبًا: «جَنَاحَانِ»!، فَقَالَتْ: أما سمعتَ أنّه كان لسُليمانَ عليه السلام خيلاً لها أجنحة؟، فضحك رَسُولُ الله ﷺ حتى بدت نوَاجذه[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه في الأدب، باب في اللعب بالبنات، حديث رقم: (٤٩٣٢)، والنسائي في [عشرة النساء (٧٥/١)]، وابن سعد في الطبقات الكبرى [٦٢/٨] من طريق الواقدي، وإسناده صحيح.




بَابُ
بَدْءِ الأَذَانِ وَمَشْرُوعِيَّتِه

الأذان والإقامة من خصائص هذه الأمة، والمشهور الذي صححه أكثر العلماء ودلت عليه الأحاديث الصحيحة أنّ الأذان شُرع بعد الهجرة، وذلك في السنة الأولى من الهجرة، وقيل: في الثانية، وكان الناس يجتمعون للصلاة عند دخُول أوقاتها من غير دعوة، إلى أن هاجرَ رَسُولُ الله ﷺ إلَى المدِينَة، ووقع التشاور في ذلك منه ﷺ مع أصحابه كيف يجمع الناس للصلاة؟، فقيل له: انصِبْ رَايةً عندَ حضُور الصَّلاة، فإذا رَآها الناسُ أعلمَ بعضُهم بعضاً فلم يعجبه ذلك، فذُكِرَ له بُوقُ اليهود، وهو القَرْنُ الذي يدعون به لصلاتهم، ويجتمعون لها عند سماع صوته، فكرهه ﷺ وقال: «هوَ مِنْ أَمْرِ اليَهُود»، فذُكِرَ له النّاقُوسُ الذي يدعوا به النصارى لِصَلاتهم، فقال: «هُوَ مِنْ أمرِ النّصَارى»، فقالوا: نرفعُ ناراً فإذا رَآها النّاسُ أقبلوا إلى الصّلاة، قال: «ذَلِكَ لِلْمَجُوسِ»، ثمَّ قال ﷺ: «أَوَلَا تَبْعَثُونَ رَجُلاً يُنَادِي بِالصَّلَاةِ»، ففعلوا ذلك، وكان المنادي لها بلال رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فكان ينادي في الناس فيقول: الصّلَاة جامعة.

ثم إنّ عبدَ الله بن زيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه رَأى الأذانَ والإقامةَ في منامِه، فعنه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، قال: طاف بي وأنا نائم رَجُلٌ وعليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوسا في يده، فقلت: يا عبد الله، أتبيع الناقوس؟، قال: وما تصنع به؟،

فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على ما هو خيرٌ من ذلك؟، فقلت: بلى، قال: تقول: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله)، ثم اسْتَأْخَرَ عنّي غيرَ بعيدٍ، فقال: وتقول إذا قمتَ إلى الصلاة: (الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله).

وفي هذه الرواية إفراد ألفاظ الإقامة إلا لفظها، ولفظ التكبير أولا، وقد رُوِيَ برواية أخرى تثنية ألفاظ الإقامة، والإتيان بالتكبير في أولها أربعا كالأذان، مع إضافة قد قامت الصلاة مرتين. قال عبدُ الله: فلما أصبحت أتيتُ رَسُولَ الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ، فَأَلْقِ عَلَيهِ مَا رَأَيتَ، فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوتاً مِنْكَ»، ثم قال لبلال: «قُمْ، فَانْظُرْ مَا أَمَرَكَ بِهِ عَبْدُ الله بنُ زَيدٍ فَافْعَلْهُ»، فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به. فلما سمع عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أذانَ بلالٍ وهو في بيته خرج يجرُّ رِدَاءَه عَجَلاً، فقال وقد أعلم برؤيا عبد الله بن زيد: والذي بعثك بالحق يا رسول الله؛ لقد رأيت مثل ما رأى عبد الله بن زيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه. فقال رَسُول الله ﷺ: «فَلِله الحمْدُ»[1].

فأوَّلُ مؤذنيهِ ﷺ بلالٌ، وأوَّلُ مشروعية الأذان كانت في صلاة

(١) رواه ابن حبان في صحيحه [٤/٥٧٢]، برقم: (١٦٧٩)، وابن خزيمة [١/١٨٩]، برقم: (٣٦٣).

الصبح، وقد ثبت الأذانُ بحديثِ عبدِ الله بن زيدٍ بإجماع الأمّة، ولا يعرف بينهم خلاف في ذلك، إلّا ما حُكِيَ أنّ أبا العَلَاءِ قال لمحمد ابن الحنفية: إنا لنتحدث أن بدء هذا الأذان كان من رؤيا رآها رجل من الأنصار في منامه، قال: ففزع محمد لذلك فزعاً شديداً، وقال: عمدتم إلى ما هو الأصل في شرائع الإسلام، ومعالم دينكم فزعمتم أنه إنما كان من رؤيا رآها رجل من الأنصار في منامه تحتمل الصّدق والكذب، وقد تكون أضغاث أحلام، فقلت: هذا الحديث قد استفاض في الناس، قال: هذا والله هو الباطل، إنّما أخبرَني أبي أنّ جبريلَ عليه والسلام أذّنَ في بيتِ المقدس ليلة الإسراء وأقام، ثم سَمِعَه عبدُ الله بن زيد، وعمرُ بن الخطاب.

وفي هذا نظر؛ فإنه لو كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد عَلِمَ الأذانَ ليلةَ الإسراء فلمَ لمْ يؤذن به من قبل؟، ثمّ لمَ جمع الصحابة للتشاور في كيفية النداء للصلاة؟. وقيل: أن الأذان إنما ثبت بالوحي لقولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن زيد: «إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقّ»، لأنه يحتمل أن يكون الوحي جاءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك قبل أن يجيء إليه عبد الله بن زيد به، ومن ثم قال له حين أخبره بذلك كما في بعض الروايات: «قَدْ سَبَقَكَ بِذَلِكَ الوَحْيُ» فالأذان إنما ثبت بالوحي لا بمجرد رؤيا عبد الله. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨]: بأن فيها دلالة على مشروعية الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده. ورده أبو حيان: بأن هذه جملة شرطية دلت على سبق المشروعية لا على إنشائها.

وزاد بلال في أذان الصبح بعد الحيعلات (الصَّلاةُ خَيرٌ مِن النّوم) مرتين، فأقرّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يقال له: التثويب، وقد لَقَّنَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التثويبَ

مع الترجيع لأبي مَحْذُورَة عندما علَّمه الأذانَ، والترجيع هو أن يخفض صوته بالشهادتين قبل رفعه بهما، فعن أبي محذورة قال: علمني رسول الله الأذان، فقال: «تَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله تَخْفِضُ بِهَا صَوتَكَ، ثُمَّ تَرْفَعُ صَوتَكَ بِالشَّهَادَةِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله»(١)، وكان أبو محذورة يشفع الإقامة كالأذان، يكرِّرُ ألفاظها، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقنه الرواية الثانية التي تقدّمت عن عبد الله بن زيد.

وكان تعليم الأذان لأبي محذورة عند منصرفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حنين، فعن أبي محذورة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: خرجت في نفَر، فلما كنا ببعض طرق حنين، قَفَلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حُنَين، فلبثَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعضِ الطريق، فأذّن مُؤَذِّنُ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصَّلاة، فسمعنا صوتَ المؤذّن ونحنُ مُتَنكِّبُونَ عن الطريق، فصرنا نَحْكِيهِ ونَسْتَهْزِئُ به، فَسَمِعَنا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّكُمْ الذِي سَمِعْتُ صَوتَه قَدِ ارْتَفَعَ»؟ فأشار القوم كلهم إليَّ، فحَبَسَنِي عنده وأرسلهم، ثم قال: «قُمْ فَأَذِّنْ»، فقمتُ ولا شيء أكره إليَّ من النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا ممّا يأمُرني به، فقمتُ بين يدي رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فألقى عليَّ التأذينَ هوَ بنفسِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعطاني صُرَّةً فيها شيءٌ من فِضّة، ثم وضع يده على ناصيتي، ومر بها على وجهي، ثم بين يدي، ثم على كبدي حتى بلغت يده سرَّتي، ثم قال: «بَارَكَ الله فِيكَ، وَبَارَكَ عَلَيكَ»، فقلت: يا رسولَ الله مُرْني بالتَّأذِين بِمَكّة، فقال

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه [٢٨٧/١]، باب صفة الأذان، حديث رقم: (٣٧٩).

ﷺ: «قَدْ أَمَرْتُكَ بِهِ»، وذهبَ كلّ شيءٍ كان لرَسُولِ الله ﷺ من كرَاهَتِه، وعادَ ذلك كلّه محبةً لرَسُولِ الله ﷺ، فقدمت على عتّاب بن أُسَيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه عامل رَسُولِ الله ﷺ على مَكَّة فأذّنتُ بالصلاة.

وكان جملةُ المؤذنين في عَهدِ رَسُولِ الله ﷺ أربعة: بلالٌ، وابن أم مكتوم يُؤَذّنان بالمدينة، وأبو محذورة يؤذن بمكة، وسعد القرظ يؤذن بقباء، ولما مات النبيُّ ﷺ ترك بلالٌ الأذان ولحقَ بالشّام، فمكثَ زماناً، فرأى النَّبيَّ ﷺ في المنام، فقال له: «مَا هَذِهِ الجَفْوَةُ يَا بِلَالُ، أَمَا آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا»؟، فانتبه بلالٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فقصد المدينة، فلما انتهى إليها تلقاه الناس، فأتى قبرَ النَّبِيِّ ﷺ، وجعل يبكي عنده ويتَمَرَّغُ عليه، وأقبل الحسنُ والحسينُ فجعل يقبلهما ويضمهما، فطلبا منه أن يؤذن وألحا في ذلك، فصعد ليؤذن، فلما قال: الله أكبر، ارتجت المدينة، واجتمع أهلها رجالاً ونساءً، حتى خرجت العَذارى من خُدُورِهِنَّ، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ضجوا جميعا، فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله، لم يبقَ ذو روح إلا بكى وصَاح، وكان ذلك اليوم كيوم موتِ رَسُولِ الله ﷺ من كثرة البكاء ثم انصرف إلى الشام.

وفي بعض أسفاره ﷺ حضرَ وقتُ صلاةِ الصبح، فطلبوا بلالاً ليُؤَذِّن فلم يوجد؛ لتأخره في السَّير، فأذن زياد بن الحارث الصُّدَائي، بأمرِهِ ﷺ، وصداء حيٌّ من اليمن، ثم جاء بلال وقد حضرت الصَّلاة، فأرادَ أن يُقيم، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا، إِنَّمَا يُقِيمُ مَنْ أَذَّنَ»، وكان بلال يبدل الشين في "أشهد" سِينًا، فقال ﷺ: «سِينُ بِلَالٍ عِنْدَ الله شِينٌ»، وكان بلال وابن أم مكتوم يتناوبان في أذاني الصبح، يؤذن أحدهما بعد مضي نصف

الليل الأول، والثاني بعد طلوع الفجر.

والثابت في الجمعة أذانٌ واحد كان يُفْعَلُ بين يديه ﷺ إذا صعد المنبر وجلس عليه، ولما كثر المسلمون أمرَ عثمانُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بأن يُؤَذّن قبله على المنارة، ليسمع الناس فيأتوا إلى المسجد ليحصل التبكير المطلوب للجمعة، وأول ما أحدثت الصلاة والسلام على النَّبِيِّ ﷺ على الكيفية المعهودة الآن بعد تمام أذان الجمعة، في زمَن الناصر صلاح الدين الأيوبي، ولا يخفى أنّ من السُّنة مطلقَ الصَّلاةِ والسَّلامِ على النبيِّ ﷺ بعد فراغ الأذان، لقوله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُم المؤَذِّنَ فَقُولُواْ مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّواْ عَليَّ»[1]، وأول ما أُحْدِثَ التّسْبِيحُ بالأسحار في زمن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأول حدوثه في ملتنا كان بمصر، أمرَ به أميرها مَسْلَمَةُ بن مَخْلَد الصَّحابي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فإنه لما اعتكف بجامع عمرو بن العاص سمع أصوات النّوَاقِيس عاليةً، فأمر بذلك شرحبيلَ بن عامر عريف المؤذنين بجامع عمرو، ففعله.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه [٢٨٨/١]، باب استحباب القول مثل قول المؤذن، برقم: (٣٨٤).

مُعَاهَدَةُ اليَهُودِ وَبَيَانُ عَدَاوَتِهِم لِلإسلَام

بعد المؤآخاة بين المهاجرين والأنصار وبناء المسجد النبوي كتب رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابًا بينَ المهاجرين والأنصار وبين اليهود المقيمين في المدينة، فوَادَع فيه يهُودَ بني قينقاع، وبني قريظة، وبني النضير، وصالحهم على ترك الحرْبِ، وترك أذى المسلمين، وعلى أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يحاربهم ولا يؤذيهم، وأنهم لا يعينون عليه أحدًا، وأنه إنْ دَهمَه بالمدينة عَدوٌ يَنْصُرُوه، وعَاهَدَهُم، وأقرهم على دِينهم وأمْوَالهم.

وعند ظهور دين الإسلام وقوته في المدينة قامت نفوس أحبار اليهود، ونصبوا العداوة لرَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن صفية بنت حيي أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها قالت: كنتُ أحَبَّ ولدِ أبي إليه وإلى عمِّي أبي يَاسِر، وكانَا من أكبرِ اليَهُودِ وأعظَمِهم، فلمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ غدوا إليه، ثم جاءا من العَشِيِّ، فسمعتُ عمي يقول لأبي: أَهُوَ هُوَ؟، فقال: نعم والله، قال: أَتعْرِفُه وَتُثْبِتُه؟، قال: نعم، قال: فما في نفسِكَ له؟ قال: عدواته ما بقيت. فكانا أشدَّ اليهود عَداوةً لرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانا جَاهِدَين في ردِّ الناس عن الإسلام بما استطاعا.

ومن شدّةِ عداوةِ اليهودِ أنَّ لبيدَ بن الأعصم اليهودي سَحَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مُشَاطَةٍ من شَعرِ رأسِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط،

وكان أعطاها له غلام يهودي كان يخدمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجعل مثالاً من شمع كمثال رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغرَزَ فيه إبَراً ، وجعل معه وتراً عقد فيه إحدى عشرة عقدة ، ودفنَ ذلك تحت صخرة في بئر ذي أرْوَان ، ويقال لها: بئر ذَرْوَان ، وقد مسخ الله تعالى ماءَها حتى صار كنقاعة الحناء ، فكان يخيَّل إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يفعل الفعل من أمور الدنيا وهو لم يفعله ، ومكث في ذلك أربعين يوماً. ثم نزل جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وقال له: إنّ رجلاً من اليهود سَحرَك وعقد لك عقدا ودفنها بمحل كذا ، فأرسل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فاستخرجها وجاء بها ، وأنزل الله تعالى سورة الفلق وسورة الناس ، وهما إحدى عشرة آية ، فكان كلما قرأ آيةً انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها ، ووجدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك خفة حتى قام كأنما نشِطَ من عِقَال.

وكان شَاسُ بن قيس شديدَ الطعن على المسلمين ، شديدَ الحسَد لهم ، حريصاً على رَدّ الناسِ عن الإسلام ، فمر يوماً على الأنصار وهم مجتمعون يتحدثون ، فغاظَه ما رَأى من ألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة ، فقال: قد اجتمع بنو قيلة ، والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قَرار ، فأمر فتىً شَابّاً من اليهود ، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث يوم الحرب الذي كان بينهم وما كان فيه ، وأنشدهم ما كانوا يتقاولون به من الأشعار ، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، فقال أحد الحيين: قد قال شاعرنا كذا ، وقال الآخر قد قال شاعرنا كذا ، ثم تنازعوا وتواعدوا على المقاتلة ، فقالوا: تعالوا نرُدّ الحرب كما كانت ، ونادى هؤلاء: يا للأوس ، ونادى هؤلاء: يا للخزرج ، فخرجوا إليهم ، وقد أخذوا السلاح ، واصطفوا للقتال ، فبلغ ذلك رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فخرجَ إليهم فيمن

معه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، الله الله...، أَبِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ، وَأَنَا بَينَ أَظْهُرِكُمْ، بَعْدَ أَنْ هَدَاكُمُ الله إِلَى الإِسْلَامِ، وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الجَاهِلِيَّةِ، وَاسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِنَ الكُفْرِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَينكُمْ»؟، فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكَيْدٍ من عَدُوِّهم، فبكوا وعانق الرِّجَالُ من الأوس الرِّجَالَ من الخزرج، وانصرفوا جميعًا مع رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله تعالى في شاس بن قيس: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

وكان اليهود يستفتحون ويستنصرون على الأوس والخزرج برَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، يقولون: سيبعث نبي صفته كذا وكذا، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فقال لهم معاذُ بن جبل وبِشْرُ بن البَرَاء: يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شِرْك وكفر، وتخبرونا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سَلامُ بنُ مِشْكَم من عظماء يهود بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو الذي كنا نذكره لكم، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]، وقيل: إن يهود المدينة وخيبر كانوا إذا قاتلوا مشركي العرب، قبل مَبْعثِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، يقولون: اللَّهُمَّ إنا نستنصرك بحق النبيِّ الأميِّ؛ الذي وعدت أنك باعثه في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم. فينصرون.

وقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لمالك بن الصّيف وكان رئيسا على اليهود: «أَنْشُدُكَ بالذِي أَنزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى هَلْ تَجِدُ فِيهَا أَنّ الله يُبْغِضُ الحَبْرَ

السَّمِينَ، فَأَنْتَ الحَبْرُ السَّمِينُ قَدْ سَمِنْتَ مِنَ المَالِ الذِي تُطْعِمُكَ اليَهُودُ»، فضَحِكَ القَومُ، فغضب وقال: ما أنزل الله على بشرٍ مِن شَيءٍ، فَقَالَتْ له اليهود: ما هَذا الذِي بلغنَا عنك؟، فقال: إنه أَغْضَبَنِي. فنزَعُوا منه الرِّياسَةَ منه وجعلوا مكانه كعْبَ بنَ الأَشْرَف؛ لأن في قوله المذكور طعناً حتى في التّوراة. وصار اليهود يسألونَه ﷺ عن أشياء ليلبسوا الحق بالباطل، وكان من جملة ما سألوه ﷺ أنهم سألوه عن الروح؟، فأجابهم ﷺ: بأن الرُّوحَ من أمرِ الله، وسألوه ﷺ متى الساعة؟، فأجابهم: بأن علمها عند الله، فكانوا يكثرون الأسئلة له ﷺ، وهو يجيبهم في كل ذلك رجاءَ أنْ يُسْلِمُوا.

وكان من أعلم أحبار اليهود عبد الله بن سَلَام، وكان اسمه الحُصَين، فلما أسلمَ سَمّاه رَسُولُ الله ﷺ عبد الله، من ولدِ يُوسف الصديق عليه السلام، وقد أثنى الله عليه في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠].

فعنه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، قال: لما قدم رَسُولُ الله ﷺ المدينةَ أسرعَ إليه الناسُ، فكنت ممن أتاه، فلما رأيتُ وجهَهُ ﷺ عرفتُ أنه وجهٌ غيرُ كذّاب، فسمعته ﷺ يقول: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[1]، فقلت: أشهد أنك رسول الله حقًّا، وأنك جئت بحقٍّ، ثم رجعت إلى أهلي فأمرتهم أن يدخلوا في الإسلام، فأَسْلَمُوا، وكتمت إسلامي من اليهود.

ثم جئته ﷺ، وهو في بيتِ أبي أيوب، وقلت له: لقد عَلِمَتْ اليهودُ

(١) رواه الإمام الترمذي في السنن [٤/٦٥٢]، حديث رقم: (٢٤٨٥)، وقال: هذا حديث صحيح.

أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فَخَبِّئْنِي يَا رسول الله قبل أن يدخلوا عليك، ثم ادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني أسلمت، فإنهم قوم بُهْتٌ، يواجهون الإنسانَ بالباطل، وأعظمُ قوم عَضِيهَةً ـ أي كَذِباً ـ، وإنهم إنْ يعلمُوا أني قد أسلمت قالوا فيَّ مَا ليسَ فيَّ، فَخُذْ عليهم ميثاقًا أني إنْ أتبعتك وآمنتُ بكتابك، أن يؤمنوا بك وبكتابك الذي أنزل، فأرسلَ رَسُولُ الله ﷺ إليهم فجاءوا، فقال لهم رَسُول الله ﷺ: «يا مَعْشَر يَهُود وَيلَكُمْ، اِتَّقُوا اللهَ، فَوَ الله الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله حَقّاً، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ، أَسْلِمُوا»، قالوا: ما نعلم، فأعاد ذلك عليهم ثلاثاً، وهم يجيبونه كذلك، فقال: «فأيُّ رَجُلٍ فِيكُم ابنُ سَلَام»؟، قالوا: ذاك سَيِّدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال: «أَفَرَأيتُم إِنْ شَهِدَ أني رَسُولُ الله وَآمَنَ بالكتابِ الذي أنزلَ عَليَّ، تؤمِنُوا بِي»؟، قالوا: نعم، فدعاه، فقَال: «يَا ابنَ سَلَام اخْرُجْ عَلَيهِمْ»، فخرجتُ، فقلت لهم: يا معشر يهود، ويلكم اتقوا الله، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقا، وأنه جاء بالحق، وتجدون مكتوبًا عندكم في التوراة اسمه وصفته، قالوا: كذبت أنت شرنا وابن شرنا، فقلت: هذا الذي كنت أَخَافه يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بُهْت، أهلُ غدر وكذب، فخرجوا، وأظهرتُ إسْلَامِي، وأنزل الله قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾.

وقد غَيَّر اليهودُ صفتَه ﷺ التي في التوراة؛ خوفا على انقطاع نفقتهم، فإنها كانت تأتيهم من عَوَامِهم لقيامهم بشأن التوراة، فخافوا أن يُؤْمِنَ هؤلاء العامة فتنقطع عنهم النفقة، وكانوا يقولون لمن أسلم: لا تنفقوا مالكم على هؤلاء

ـ يعنون المهاجرين ـ، فإنا نخشى عليكم الفقر، وكان دَأبهم دئماً الكيد للإسلام وللرّسول ﷺ وأصحابه، واستخدموا في ذلك أنواعاً من الحِيَل، ولكنَّ الله تعالى كانَ يكشِفُ ذلك لرسُولِه ﷺ، وحفظه من جميع مكائدهم، وكان منهم مَن دَخَل في الإسلام تُقْيَةً، وخوفًا مِن القَتل، وذلك لما قهرهم الإسلام بظهوره، فكان هواهم مع اليهود في السِّر، وهم المنافقون. وقيل: أن المنافقين الذين كانوا في عَهدِه ﷺ عددهم ثلاثمائة.

وكان الجُلَاس بن سُويد بن الصّامت من المنافقين، فقال ليلةً وقد استلقى على فراشه: لئن كان ما يقوله محمد حقّا فلنحن شرٌّ من الحمير، فسمعه عُمَيرُ بن سَعد رضي الله عنه، وكانَ الجُلَاس زوجاً لأمِّ عُمَير، وكان عُمَيرٌ في حجْر الجُلَاس يتيماً لا مال له، وكان الجُلَاس يكفُلُه ويحسِنُ إليه، فقال له عميرٌ لما سمع مقالته: يا جُلَاس إنك لَمِنْ أَحَبِّ الناس وأحسنهم عندي يداً، ولقد قلتَ مقالةً لئن أنا رفعتُها عليك لأفضَحَنّك، ولئِنْ صمَتُّ عليها وسَكتُّ عنها ليَهْلِكَنَّ عليَّ ديني، ولإحداهما أيسرُ عليَّ من الأخرى، ومشَى إلى رسُولِ ﷺ فذكر له مقالةَ الجُلَاس، فأرسلَ رَسُولُ الله ﷺ إلى الجُلَاس، فحلف بالله لقد كذب عليَّ عميرٌ، وما قلتُ ما قالَ عميرٌ، فقال عميرٌ: بلى والله لقد قلته فتُبْ إلى الله، ولولا خشيةَ أنْ ينزلَ القرآنُ فيجعلني معك ما قُلْتُهُ ثم قال: اللَّهُمَّ أنزل على نبيك تكذيبَ الكاذب وتصديق الصادق، فقال النَّبِيّ ﷺ: «آمين»، فنزل قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، فاعترفَ الجُلَاسُ وتَاب، وقبل منه ﷺ توبته، وحسنت توبته، وكانت علامة حُسن توبته أنه لم ينزع عن خَيرٍ كان يصنعه مع عُمَير قبل أن يرفع أمرَه للنَّبيِّ ﷺ.

ومن المنافقين: نَبْتَلُ بن الحارث، وكان يجلس إليه ﷺ ثم ينقل حديثه للمنافقين، وهو الذي قال: إنما محمد أُذُن، مَن حَدَّثَه بِشَيء صَدّقه، وجاءَ جبريلُ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال له: يجلس إليك رجلٌ صفته كذا، نقَّالٌ للحديثِ الذِي تحدِّثُ بِه، كَبده أغْلظُ من كبدِ الحمار، ينقل حديثك إلى المنافقين فاحذره.

ومن المنافقين: عبد الله بن أبي بن سَلول، وهو رَأس المنافقين، ولاشتهاره بالنفاق لم يُعَدّ في الصَّحَابة، وكانَ مِن أعظَم أشرَاف أهل المدينة، وكانوا قبل مجيئِه ﷺ للمدينة قد نظمُوا له خرزَ التاج ليتوِّجُوه، ثم يملكوه عليهم، ولم يَبْقَ مِنَ الخرَزِ إلا خَرَزَةٌ واحِدة، وكانَ التاج عندَ شَمْعُون اليَهُودِي، فلما جاءهم الله تعالى برسُولِه ﷺ، انـصرفَ عنه قومه إلى الإسلام، فأضمر العَدَاوة لِرَسُولِ الله ﷺ لأنه رَأى أنه قد سلبه ملكاً عَظِيماً، ولما رأى قومه قد أبوا إلّا الإسلام دخل فيه كَارِهاً مُصِرّاً عَلى النِّفَاق إلى أن مات، والعِيَاذ بالله تعالى.

بَابُ
تَحْوِيلِ القِبْلَةِ

حُوِّلَتِ القِبلةُ في النصف من شهر رجب من السنة الثانية، وقيل: في نصف شعبان، وهو الذي عليه الجمهور الأعظم، والأكثرون على أن تحويلها كان في صلاة الظهر، وقيل: كان في صلاة العصر، ويدل لذلك ما في الصحيحين عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (إنّ أوَّلَ صلاةٍ صَلّاها رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للكعبةِ صَلاةُ العصر). وقيل: أنها حوّلت في صلاة الصبح، وهذا القول محمول على من كان في قباء، لأن الخبر لم يبلغهم إلا في صلاة الصبح.

وإنما حوّلت القبلة لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعجبه أن تكون قبلته الكعبة، سيما لما بلغه أنَّ اليهودَ قالوا: يخالفنا محمد ويتبع قبلتنا. وقالوا للمسلمين: لو لم نكن على هُدَى ما صليتم لقبلتنا فاقتديتم بنا فيها. فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب أن يستقبل الكعبة محبَّةً لموافقة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسّلام، وكراهة لموافقة اليهود، ولقول كفّار قريش للمسلمين: لمَ تقولون نحن على ملة إبراهيم، وأنتم تتركون قبلته، وتصلون إلى قبلة اليهود؟. ولأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما هاجر صار إذا استقبل صخرةَ بيت المقدس يستدبر الكعبة، فشَقّ ذلك عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لجبريلَ: «وَدِدْتُ أَنَّ اللَه ﷻ صَرَفَنِي عَنْ قِبْلَةِ اليَهُودِ»، فقال جبريلُ: إنما أنا عبد لا أملك لك شيئا إلا ما أمرت به، فادع الله تعالى. فكان رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو الله تعالى، ويكثر إذا صلى إلى بيت المقدس من النظر إلى السماء، وهو

ينتظر في ذلك أمر الله تعالى؛ ولأن السّماء قبلة الدّعاء. وفي رواية: أنّ رَسُولَ الله ﷺ قال لجبريل: «وَدِدْتُ أَنَّكَ سَأَلْتَ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَصْرِفَنِي إِلَى الكَعْبَة»، فقال جبريلُ: لستُ أستطيعُ أنْ أبتدئَ الله جَلَّ وعَزَّ بالمسْألةِ.

وخرجَ رَسُولُ الله ﷺ زَائِراً أمَّ بِشْر بن البَراءِ بن مَعْرُور في بني سلمة، فصَنَعَتْ لهُ طعَاماً، وحَانتْ صلاةُ الظُّهْر فصَلّى رَسُولُ الله ﷺ بأصْحَابِه في مَسجدٍ هُناك، فلما صلّى ركعتين نزل جبريلُ فأشارَ إليه ﷺ أنْ صَلِّ إلى الكعبةِ، فاستدارَ رَسُولُ الله ﷺ إلى الكَعْبَةِ، فتحَوّل مِن مُقَدّم المسجد إلى مُؤَخّرِه، لأنَّ مَن استقبلَ الكعبةَ في المدينةِ يلزمه أنْ يَسْتَدْبِرَ بيت المقدس، كما أنّ مَن يستقبل بيت المقدس يسْتَدبرُ الكعبة، وفيه أنه ﷺ لو دَارَ في مكانه لم يكن خَلفَه مكانٌ يسعُ الصُّفُوفَ التي خلفه، كما أن هذا يستدعي عملا كثيرا في الصّلاة، وهو مُفْسِدٌ لها عندنا إذا توالى، إلا أنْ يقال: لا مانع في ذلك؛ لجواز أن يكون ذلك قبل تحريم العمل الكثير في الصلاة، أو أن هذا العمل لم يكن على التّوالي. وسمّي ذلك المسجد مسجد القبلتين.

وقيل: كانت تلك الصلاة التي وقع التحول فيها صلاة الظهر، وكانت في مسجد النّبيِّ ﷺ، فخرج عَبّادُ بنُ بِشْر رَضِيَ اللهُ تعالى عنه، وكان قد صَلّى مع رَسُولِ الله ﷺ، فمَرَّ على قوم من الأنصار وهم رَاكعُون يُصَلّون صَلاةَ العَصْر، فقال: أشهدُ بالله لقَد صَلّيتُ معَ رَسُولِ الله ﷺ قِبَل الكَعْبَة.

ثم بلغ أهلَ قباء ذلك وهم ركوع في صلاة الصبح وذاك في اليوم الثاني وكانوا قد صلوا رَكْعَةً، فنَادَى منادٍ: ألَا إنَّ القبلةَ قد حُوِّلَتْ إلى الكَعْبَة، فتحولوا إليها. وجاء في البخاري: (بينا الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءَهم آتٍ،

فقال: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قد أنزل عليه الليلةَ قرآنٌ، وقد أُمِرَ أنْ يستقبلَ الكعبةَ، فاسْتَقْبِلُوهَا، فاستداروا إلى الكعبة).

ولم يُنْقَلْ أَنّهم أُمِرُوا بِقَضَاءِ العصرِ والمغربِ والعِشَاءِ، ولا إعادةَ الركعة التي صلوها من الصُّبح، وهو دليلٌ على أنَّ الناسخَ لا يلزمُ حكمُه إلا بعد العلم به وإن تقدَّمَ نزولُه. وأما كيف جازَ لهم تركُ الأمر المقطوع به، وهو استقبال بيت المقدس، إلى أمرٍ مَظْنُون، وهو استقبال الكعبة، بخبر الوَاحد؟. وأُجِيبَ عن ذلك: بأنَّ هذا الخبر احْتَفّت به قَرَائنُ أفادت القطع بصدق المُخْبِر، فتركوا الأمرَ المعلوم لأمر معلوم، كما أنه يجوز نسخ المتواتر بالآحاد.

فكان أوّلَ ما نسخه القرآن الكريم شأنُ القِبلَةِ، فاستقبلَ النبيُّ ﷺ بيتَ المقدس بمَكَّةَ والمدينة مدةً ثم صرَفه الله تعالى إلى الكعبة المشرفة، والقرآن الذي نزل في شأن تحويل القبلة هو قوله ﷻ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ولما تحول رَسُولُ الله ﷺ إلى الكعبة، جاء إليه جماعةٌ من كبار اليهود، ثم قالوا: يا محمّد ما ولاكَ عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، ومَا كُنْتَ عليه قِبْلَةُ إبراهيم؟، فارجع إلى قبلتك التي كُنتَ عليها نتّبعك ونصدّقك، وإنما أرادوا بذلك أنْ يعلمَ الناسُ أنه ﷺ في حيرَةٍ من أمرِه، وأرادوا اختبَاره كذلك؛ لما يجدون عندهم في نعتِه ﷺ

مِنْ أنه يرجع عن استقبالِ بيتِ المقْدس إلى استقبال الكعبة، ولا يرجع عن تلك القبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وأما ما كان من المشركين من أهل مَكَّةَ، فإنهم لما توَجّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الكعبة، قالوا: توجّهَ محمّدٌ بقبلتِه إليكم، وعلم أنكم كنتم أهدى منه، ويوشِكُ أنْ يدخلَ في دينكم. وقال الصحابة له: يا رسول الله، لقد ذهب منا قوم قبل التّحَوُّل، فهل يقبل منا ومنهم؟ فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]،

وفي شهر شعبان من السنة الثانية من الهجرة فرض صوم رمضان، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبله يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وهي الأيام البيض وهي: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فكان رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصومها استحباباً، وقيل: وجوباً. وكان لا يفطر فيها لا في حضر ولا سفر، وكان يحث على صيامها، وقيل: كان الواجب عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل فرض رمضان صوم عاشوراء، ثم نسخ ذلك بوجوب رمضان. والمشهور في مذهبنا ـ معاشر الشافعية ـ أنه لم يجب على هذه الأمة صوم قبل رمضان.

وكان الفرضُ صيام شهر رمضان، أو الإطعام عن كل يوم مسكينا، فكان من شاء صام ومن شاء أطعم عن كل يوم مُدّا، ثم نسخ الله تعالى ذلك التخيير بإيجاب صوم رمضان عيناً، إلا في حق من لا يستطيع صومه لكبر، أو لمرض لا يرجى زواله فَيُجْزِئُهُما الإطعام، ورُخِّصَ فيه الفطرُ للمريض وللمسافر، مع

وجوب القضاء إذا زال المرض والسفر. وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا بعد الغروب أو يدخل وقت العشاء الآخرة، فإذا ناموا أو دخل وقت العشاء الآخرة امتنع عليهم ذلك إلى الليلة القابلة، ثم نسخ الله ذلك، وأحل الأكل والشرب وإتيان النساء إلى طلوع الفجر، ولو بعد النوم ودخول وقت العشاء.

وَفِي السَّنَةِ الثانية فرضت زكاة الفطر، وكان فرض زكاة الفطر قبل العيد بيومين، فكان ﷺ يخطب قبل العيد بيومين يعلم الناس زكاة الفطر، فيأمر بإخراج تلك الزكاة قبل الخروج إلى صلاة العيد، وكان فرض زكاة الفطر قبل فرض زكاة الأموال، وكان فرض زكاة الأموال في تلك السنة الثانية أيضاً، ولكن لم أقف على الشّهر الذي وجبت فيه.

وَفِي السَّنَةِ الثانية طُلِبَتِ الأُضْحِيَةُ اسْتِحباباً، فكان النبيُّ ﷺ إذا فرغ من صلاة عيد الأضحى ومن خطبته يؤتى له بكبشَين وهو قائم في مصلاه، فيذبحهما بيده ويقول في أحدهما: «اللَّهُمَّ هَذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعاً، مَنْ شَهِدَ لَكَ بِالتَّوحِيدِ، وَشَهِدَ لِي بِالبَلَاغِ».

وكانَ رَسُولُ الله ﷺ يخطبُ الناسَ في مسْجدِه مستنداً لجذْعٍ من جذوع النخل، فلمّا كثر الناس، وأحبوا أنْ يروه جميعاً قالوا له: يا رَسُولَ الله، لو اتخذت شيئاً تقومُ عليه إذا خطبتَ حتى يراكَ الناسُ وتُسْمِعَهُم خطبَتَك. فشاورَ رَسُولُ الله ﷺ المسلمين في ذلك، فرَأوا أنْ يَتّخِذُوا له مِنْبَراً، فأرسلَ النبيُّ ﷺ إلى غُلَامٍ نَجّار من الأنصار، فقال: «اِعْمَلْ لِي أَعْوَاداً أُكَلِّمُ النَّاسَ

عَلَيهَا»، فصنع له منبراً من أثْلِ الغَابَةِ وجعله على ثلاث درجات. فلمّا عَدَل رَسُولُ الله ﷺ ليَخطُبَ عليه وجاوز ذلك الجذع سُمع له حَنِيْنٌ كحَنِيْن الوَالِه، بصوت هَائِل حتى ارتج المسْجِد، وسمعه من كان فيه من الناس، ولا زال يَحِنُّ حتّى نزلَ ﷺ فالتزمه وحضَنه، فجعل يئنُّ أَنِينَ الصَّبيِّ الذي يُسَكَّتُ فَيَسْكُتُ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الجِذْعَ يَبْكِي لِمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ، وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ أَلْتَزِمْهُ لَمْ يَزَلْ هَكَذَا يَحِنُّ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، حَزَناً عَلَى رَسُولِ الله ﷺ»، ثم قال له: «إِنْ شِئْتَ أَرُدُّكَ إِلَى الحَائِط الذِي كُنْتَ فِيهِ، تَنْبُتُ لَكَ عُرُوقُكَ وَيَكْمُلُ خَلْقُكَ وَيُجَدَّدُ لَكَ خوصٌ وَثَمَرَةٌ، وَإِنْ شِئْتَ أَغْرِسُكَ فِي الجَنَّةِ فَيَأْكُلُ أَوْلِيَاءُ الله مِنْ ثَمَرِكَ». ثم أصغى له ﷺ ليسمع ما يقول، فقال بصوت سمعه من يليه: بل تغرسني في الجنة، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «اِخْتَارَ أَنْ أَغْرِسَهُ فِي الجَنَّةِ، اِخْتَارَ دَارَ البَقَاءِ عَلَى دَارِ الفَنَاءِ، قَدْ فَعَلْتُ قَدْ فَعَلْتُ»، ثم أمر به فدفن تحت المنبر[1].

(١) حنين الجذع من عَلَامَات النُبوّة، قال عياض في الشّفا: (أمره مشهور منتشر والخبر به متواتر أخرجه أهل الصحيح). وقال البيهقي: (أمره ظاهرٌ نقَلَهُ الخلَفُ عن السّلفِ وإيرادُ الأحاديث فيه كالتكَلّف)، يعني لشَدّة شُهرَتِه. وقال ابن حجر في الفَتْح: (نُقِلَ نَقْلاً مُسْتَفِيضاً يفيد القطع عند من يطّلع على طرق الحديث). وقال المناوي: ورد من طُرُقٍ كثيرة صحيحة يفيدُ مجموعُها التواتر المعنوي. وأورده لنحو عشرين صحابي.

بَابُ
ذِكْرِ مَغَازِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ذُكِرَ أنَّ مغازِيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي غزا فيها بنفسِه تسعٌ وعشرون[1]، وهي:

غَزْوَةُ وُدَّان، ثُمَّ غزْوَةُ بُوَاط، ثُمَّ غزْوَةُ العُشَيْرَة، ثُمَّ غزْوَةُ سفْوَان، ثُمَّ غزْوَةُ بَدْرٍ الكُبْرَى، ثُمَّ غزْوَةُ بَنِي سُلَيم، ثُمَّ غزْوَةُ بَنِي قَيْنُقَاع، ثُمَّ غزْوَةُ السَّوِيق، ثُمَّ غَزْوَةُ قَرْقَرَة الْكُدْرِ، ثُمَّ غزْوَةُ غطَفَان أو ذِي أَمَر، ثُمَّ غزْوَةُ بَحْرَان، ثُمَّ غزْوَةُ أُحُد، ثُمَّ غَزْوَةُ حَمْرَاء الأَسَد، ثُمَّ غزْوَةُ بَنِي النَّضِير، ثُمَّ غزْوَةُ ذَاتِ الرِّقَاع، ثُمَّ غزْوَةُ بَدْرٍ الآخِرَة أو بَدْرِ الموعِد، ثُمَّ غزْوَةُ دَوْمَة الجَنْدَل، ثُمَّ غزْوَةُ بَنِي المُصْطَلِق أو المُرَيْسِيع، ثُمَّ غزْوَةُ الخَنْدَق أو الأَحْزَابِ، ثُمَّ غزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَة، ثُمَّ غزْوَة بَنِي لَحْيَان، ثُمَّ غزْوَة ذي قَرَدٍ أو ذَاتِ قَرَدٍ أو غزوةُ الغابةِ، ثُمَّ غزْوَةُ الحُدَيْبِيَّة، ثُمَّ غَزْوَةُ خيبرَ، ثُمَّ غزْوَةُ وَادِي القُرَى، ثُمَّ غزْوَةُ فَتْحِ مَكَّةَ، ثُمَّ غزْوَةُ حُنَيْن، ثُمَّ غزْوَةُ الطَّائِف، ثُمَّ غزْوَةُ تَبُوك.

والتي وقع فيها القِتَال من تلك الغَزَوَات تسع، وهي: غَزْوَةُ بَدْر الكُبْرَى، وغَزْوَةُ أُحُد، وغَزْوَةُ المُرَيْسِيعُ، وغَزْوَةُ الخَنْدَق، وغَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَة، وغَزْوَةُ خَيْبَر، وغَزْوَةُ فَتْح مَكَّةَ، وغَزْوَةُ حُنَيْن، وغَزْوَةُ الطَّائِف.

---

(١) وتكون مغازيه ثلاثين غزوة إذا اعتبرنا مؤتة غزوة، وهو ما جرى عليه المصنف عند التفصيل.

ولا يخفى أنَّ النبيَّ ﷺ مكثَ بِضْعَ عشرة سنة يُنذِرُ بالدّعوة بغيرِ قِتَال، صابراً على شدّة أذية العرب له ولأصحابه بمَكّة، واليهود بالمدينة، وذلك لأمر الله تعالى له بالإنذار، والصّبر على الأذى، والكفِّ عنهم، ووعده بالفتح، فقد كان يأتيه أصحابُه بمَكَّةَ ما بين مَضروب ومَشْجُوج فيقول ﷺ لهم: «اصْبرُوا، فإني لمْ أومَر بالقِتَال»، لأنهم كانوا بمَكَّةَ شِرْذِمَةً قليلةً، فلما استقرَّ أمرُه ﷺ بعد الهِجْرَةِ، وكَثُرَ أتباعه، وشأنهم أن يُقَدِّمُوا محبّتَه على محبة آبائهم وأبنائهم وأزواجهم، وأصرَّ المشركون على الكُفْرِ والتّكْذِيب، أذِنَ الله تعالى لنبيّه ﷺ ولأصحابه في القِتَالِ، وذلك في صَفَر من السنة الثّانية من الهِجْرَةِ، وكان الإذنُ بِقِتَالِ مَن قاتلهم وابتدَأَهُم بالقتال بقول الله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. وقد كانت مَشْرُوعيةُ القِتَالِ له ﷺ عِوَضاً عن العذاب الذي عُومِلَتْ بهِ الأمم السّالفة لما كذّبت بالمرسلين.

وَرُوِيَ أنّ جماعةً منهم: عبد الرّحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وقُدَامة بن مَظْعُون، وسعد بن أبي وقاص، كانوا يلقون من المشركين أذى كثيراً بمَكَّةَ، فقالوا: يا رسول الله كنّا في عزٍّ ونحنُ مُشركون، فلما آمنا صِرْنا أَذِلّة، فأذَنْ لنا في قِتَالِ هؤلاءِ، فكان ﷺ يقول لهم: «كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ، فَإِنِّي لَمْ أَوَمِرْ بِقِتَالِهم». فلمّا هاجرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة وأُمِرَ بالقِتَالِ للمشركين كَرِهَه بعضُهُم وشَقّ ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى فيهم قولَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧].. الآية.

وقد نُقِلَ إجماعُ المسلمين على أنه لم يَرْوِ أحدٌ قطّ أنه ﷺ انهزَمَ بنفسِه في موطن من المواطن، بل أثبتَتِ الأحاديثُ الصّحيحةُ إقدامَه ﷺ

وثباتَه في جميع المواطن، ولكنّه ﷺ لم يباشر القِتَال إلا في أُحُدٍ، ولم تقاتل معه الملائكة إلّا في بَدْر وفي حُنَيْن وفي أُحُد، ولم يَرْمِ ﷺ بالحصْبَاء في وجوه العدو في شيءٍ من الغَزَوَات إلا في بَدْر وحُنَيْن وأُحُد، على خلافٍ في الثالثة، ولم تُصِبْهُ جِرَاحَةٌ في غَزْوَةٍ من الغَزَوَات إلا في أُحُد، ولم يَنْصِب المِنْجَنِيق في غَزْوَةٍ من الغَزَوَات إلّا في غَزْوَة الطَّائِف، وجاء أنه نصَبَه على بَعض حُصُون خَيْبَر، ولم يَتَحَصَّن بالخَنْدَق في غَزْوَةٍ إلا في غَزْوَةِ الأحزاب.

وأوّل آيةٍ نَزَلت في شَأْنِ القِتَالِ قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ولما نزلت أخبرَ النبيُّ ﷺ أصحابه بقوله: «أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حَتّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَإِذَا قَالُوهَا، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوَالَهمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله ﷻ»، قيل: وما حَقُّها؟، قال: «زِنًى بَعْدَ إِحْصَانٍ، وَكُفْرٌ بَعْدَ إِيْمَانٍ، وَقَتْلُ نَفْسٍ»[1]. وظاهرُ هذا السِّيَاق يقتضي أنّ هذه الآية فيها الأمرُ له ﷺ بالقِتَال المذكور، وقد يُتَوَقَّف في ذلك؛ لأن الآية إنما هي ظاهرة في الإباحة، والمباح ليس مأموراً به، وحينئذٍ يكون قول الله تعالى: ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، للإباحة؛ لأنّ صيغة أفعل تأتي لها، وإن كان الأصل فيها الوجوب.

ولما رَمَتْهُمُ العرَبُ قاطبةً عن قَوسٍ واحدة، وتعرّضوا للقتال من كل جانب، كانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: تُرَى هل نعيشُ حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله؟!. فأنزل الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط [٣/٣٠٠] رقم: (٣٢٢١)، بسند حسن، وشاهده في الصحيحين.

ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

ثمّ أُبيحَ لهم الابتداء بالقِتَالِ حتى لمَنْ لم يقاتلهم، لكن في غير الأشهر الحرم، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، الآية، ثم جاء الأمرُ به وجوباً بعد فَتْح مَكَّةَ مطلقا، من غير تقييدٍ بشرطٍ ولا زَمَان، وذلك بقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

فَعُلِمَ أنّ القِتَالَ كان قبل الهِجْرَةِ وبعدها إلى صَفَر من السنة الثانية محرَّماً، لأنه ﷺ كان في ذلك مأموراً بالتبليغ، وكان الأمرُ إنذاراً بلا قتال، لأنه نهى عنه في نيفٍ وسبعين آية، ثم صار مأذوناً له فيه، بأن أبيحَ قِتال مَن قَاتل، ثم أبيح قتال مَن لم يبدأ به في غير الأشهر الحرم، ثم أمر به مطلقاً لمن قاتل، ولمن لم يقاتل، في كلّ زَمَن في الأشهر الحرم وغيرها. ثم استقرّ أمر الكفار معه ﷺ بعد نزول «بَرَاءَة» على أربعة أقسام:

القسم الأول: محاربون له ﷺ، وهؤلاء المحاربون إذا كانوا ببلادهم يجب قتالهم على الكفاية في كلّ عام مرة، ويكفي ذلك في إسقاط الحرج كإحياء الكعبة، واستدل لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقيل كان فرض عين، لقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد في غَزْوَة تَبُوك، وقيل كان فرض كفاية في حق الأنصار، وفرض عين في حق المهاجرين.

والقسم الثاني: أهل عهد، وهم المُؤَمَّنُونَ مِن غَيرِ عقد الجزية، بأن

صالحهم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه عدوهم، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم.

والقسم الثالث: أهل ذمّة، وهم من عُقِدَت لهم الجزية.

القسم الرابع: المنافقون، وهم من دخلوا في الإسلام تُقْيَةً وخوفًا من القتل، وهؤلاء أُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، فكان معرضا عنهم إلا فيما يتعلق بشعائر الإسلام الظاهرة كالصلاة ونحوها.

وفي "الخصائص الصغرى": وكان الجهاد في عهده ﷺ فرض عين، في أحد الوجهين عندنا، وكان إذا غزَا بنفسه ﷺ يجبُ على كل أحد الخروج معه، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: ١٢٠]، ومن ثَمَّ وقع لمن تخلف عنه في غَزْوَةِ تَبُوك ما وقع.

١ ـ غَزْوَةُ وَدَّان

وعندَ الإِذْنِ لهُ ﷺ في القِتَال، خَرَج لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر صفر مِنَ السّنة الثانية من الهِجْرَةِ، غازياً حتى بلغ وَدَّانَ، وهي قرية كبيرة، بينها وبين الأبْوَاء ستة أميال أو ثمانية، والأبواء: قرية كبيرة بين مَكَّةَ والمدينة، وكان خروجه ﷺ ليعترض عيراً لقريش وليُغِيرَ على بَنِي ضَمْرَة، فخرج ﷺ ومعه سبعون رجلاً من المهاجرين ليس فيهم أنصاري، واستعملَ على المدينة سعد بن عبادة.

فلم يلقَ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أحَدٍ كَيْداً، ولم يُدركْ عِيرَ قريش. فلما بلغ الأبواءَ لقيَ سيدَ بني ضَمْرَة مَجْدِي بن عُمَر الضَّمْري، فصَالحه على أنْ لا يغزوَهم ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعاً ولا يعينوا عليه عدوّاً، وكتب بينه وبينهم كتابا قال فيه: «بِسْم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ، هَذَا الكِتَابُ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله لِبَنِي ضَمْرَةَ بِأَنَّهُمْ آمِنُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّ لَهُمْ النُّصْرَةَ عَلَى مَنْ رَامَهُمْ، إلّا أَنْ يُحَارِبُوا دِينَ الله، مَا بَلّ بَحْرٌ صُوفَةً، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِذَا دَعَاهُمْ لِنَصْرِهِ أَجَابُوهُ، عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ذِمَّةُ الله وَذِمَّةُ رَسُولِه».

ثم انصرفَ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ راجعاً إلى المدينة، وكانت مدّةُ غيبته عن المدينة خمس عشرة ليلة. فكانت هذه أوّل غزواته، وكان لواؤُه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيها أَبيَضَ، وكان مع عمه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ تعالى عنه، **واللِّوَاءُ:** هو العلم الذي يحمل في الحرب يعرف به موضع أمير الجيش، وقد يحمله الأمير، ويجعل في مقدمة الجيش. وصرح جماعة من أهل اللغة بترادف اللواء والرّاية، فيطلق على كلٍّ اسم الآخر، وعن ابن إسحاق وابن سعد: أنَّ اسمَ الرَّايةِ إنما حدَث بعدَ خَيْبَر. وتسمّى هذه عند بعضهم بغزوة الأَبْوَاء.

٢ ـ غَزْوَةُ بُوَاط

ثم غزا رَسُولُ الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في شهر ربيع الأول من السنة الثانية، يريد عيراً لقُرَيش، فيها أمية بن خلف، ومائةُ رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فخرج صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مائتين من المهاجرين خاصّة، وحمل اللّوَاءَ سعدُ بن أبي وقاص، واستعمل صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على المدينة سعد بن معاذ، وقيل السَّائِب بن

مَظْعُون، فسار ﷺ حتى بلغ بُوَاط، وهي جبل اليَنْبُع، وهذا الجبل لجُهَيْنَة مِن ناحِية رَضْوَى، ثم رجع ﷺ إلى المدينة ولم يلق كَيْداً ـ أي لم يلقَ حَرْباً ـ، وأصل الكيد الاحتيال والاجتهاد، ومن ثَمَّ سُمِّيَ الحرْبُ كَيْداً، لحصول الكيد والاحتيال فيه في الغالب.

٣ ـ غَزْوَةُ العُشَيرَة

ثم غزا رَسُولُ الله ﷺ في شهرِ جمادَى الأولى من السنة الثانية، يريد عِيراً لقُرَيش مُتَوَجِّهةً إلى الشام، وكانت قريشٌ قد جمعت جميعَ أموالها في تلك العير، ولم يبق بمَكَّةَ قُرَشِيٌّ ولا قرشيّة له مثقالٌ فصَاعداً إلا بعثَ به في تلك العير، إلا حُوَيطِب بن عبد العُزّى، فكان في تلك العير خمسون ألف دينار وألف بعير، وكان أبو سُفْيَانَ بن حرب قائدها، وكان معه تسعة وثلاثون رجُلاً، منهم: مخرمة بن نوفل، وعمرو بن العاص، وهي العير التي خرج إليها رَسُولُ الله ﷺ حين رجعت من الشام، وكانت سببا لوقعة بَدْر الكُبْرَى.

فخرج رسُولُ الله ﷺ في خمسين ومائة رجل، وقيل: في مائتين من المهاجرين خاصّة حتى بلغ العُشَيْرَة، وهو موضع لبَنِي مُدْلِج بِبَطْن اليَنْبُع، واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وحمل اللّواءَ ـ وكان أبيضَ ـ عمُّه حمزة بن عبد المطلب، فخرجوا على ثلاثين بعيراً يَعْتَقِبُونَها، فوجدوا العِيرَ قد مضت قبل خروجهم بأيام، فوَادَعَ ﷺ فيها بني مُدْلِج، ورجعَ ولمْ يلْقَ حَرْباً.

٤ ـ غَزْوَةُ سَفْوَان(١)

وحينَ قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ من غَزْوَةِ العُشَيرَة لم يُقِمْ بالمدينة إلا لَيالي لم تبلغ العَشَرَةَ، حتّى بلغَه أنَّ كُرْزَ بنَ جَابِرٍ الْفِهْرِيّ أَغَارَ عَلى سَرْحِ المدينة، والسَّرْحُ: هي النَّعَم والمواشي التي تسرح للمَرْعَى بالغَداة. وكانَ ذلك مِنْ كُرْزٍ قبلَ أنْ يُسْلمَ.

فخرجَ ﷺ في طَلَبِه حتى بلغ وادياً يقال له: سَفْوَان، من ناحية بَدْر، ولذا قيل لها غَزْوَة بَدْرٍ الأُولَى، وفاتَ النبيَّ ﷺ كرْزٌ فلم يدركْه، وكانَ ﷺ قد استعملَ على المدينة زيد بن حارثة وأعطى اللّواءَ لعليٍّ رضي الله عنه.

٥ ـ غَزْوَةِ بَدْر الكُبْرَى

ويُقَالُ لها: بَدْر العُظْمى، وبَدْرُ القِتَال، وبَدْرُ الفرقان؛ لأن الله تعالى فرق فيها بين الحق والباطل. وسببُها: أنَّ العيرَ التي خرج النبيُّ ﷺ في طلبها حتّى بلغَ العُشَيْرَةَ فوجدَها قد سبقَتْهُ بأيام رجَعتْ من الشام، وقد كان مُترقّباً قُفُولَها، فلما سَمع بقفولها من الشام ندَبَ المسلمينَ ودعاهم للخروج معه فقال: «هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ، فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلّ الله يُنْفِلُكُمُوهَا»، فأجابه أناسٌ وثقلَ آخرون؛ لظَنّهم أنّ رَسُولَ الله ﷺ لنْ يلقَ حرْباً، ولم يهتمّ بها رَسُولُ الله ﷺ، بل قال: «مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ ـ أي مَا يَرْكَبُه ـ حَاضِراً فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا»، ولم ينتظر مَن كان ظهره غائباً عنه.

---

(١) كذا ورَدَ تَرْتيبُها من قِبَلِ المصَنّف للكتاب الأصل وتبع في ترتيبها ابن هشام، وللعلم فقد ذكر بعضُهم أنّ هذه الغزوة كانت في شهر ربيع الأوّل، أي أنها قبل غزوة العشرة لا بعدها بليالٍ.

وكان أبو سُفْيَانَ حين دنا بالعيرِ من أرض الحِجاز يتجَسَّسُ الأخبار، ويسألُ مَن لَقِيَ من الرُّكْبان تخوُّفاً مِن رَسُولِ الله ﷺ وأصحابِه، وذلك لأنه لَقِيَ رجلاً فأخبرَه أنّ النبيَّ مُحَمَّداً ﷺ قد كان عرضَ لِعيرِه في بداية مسيرِه، وأنه تركه مقيماً ينتظرُ رجوعَه، فخاف أبو سُفْيَانَ خوفاً شديداً، فلما بلغَه أنّ رَسُولَ الله ﷺ قد خرجَ إليه في عودتِه استأجرَ ضَمْضَمَ بنَ عمرو الغِفَارِيّ بعشيرين مثقالاً ـ مِنْ ذهبٍ ـ، على أنْ يأتِ مَكَّةَ، وأنْ يجدعَ بعيرَه وأنْ يحوِّلَ رَحْلَه ويَشُقَّ قميصَه مِن قُبُلِه ومِنْ دُبُرِهِ إذا دخلَ مَكَّةَ، ويَسْتَنْفِرَ قُرَيْشاً، ويُخبرَهم أَنّ مُحَمَّداً وأصحَابَه قد عرضَ لعِيرِهم، فخرجَ سريعاً إلى مَكَّةَ.

وقبل أن يقْدمَ ضَمْضَمُ إلى مَكَّةَ بثلاث ليالٍ رأتْ عاتكةُ بنت عبد المطلب رُؤْيَا أَفزعتْهَا، فبعَثَتْ إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، فَقَالَتْ له: يا أخي؛ والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفْظَعَتْني، وتخوَّفْتُ أنْ يدخلَ على قومِك منها شرٌّ ومصِيبة، فاكتم عنِّي مَا أُحَدِّثُك، فقال لها: ما رأيتِ؟، قالت: رأيت رَاكِباً أقبلَ على بعيرٍ له، حتّى وقف بالأَبْطَح مَا بينَ المُحَصَّبِ ومَكَّةَ، ثُمَّ صَرخَ بأعلى صَوتِه: أَلَا فانْفِرُوا يَا آلَ غُدُرٍ إلى مصارعكم في ثلاث، فاجتمع الناس إليه، ثم دخلَ المسجدَ والناسُ يتبعونه، فبينما هم حوله مَثَلَ به بَعِيرُه ـ انتصَبَ به ـ على ظهرِ الكَعْبة، ثمّ صرَخ بمثلها، ثمَّ مَثَلَ به بعيرُه على رَأس جَبَلِ أبي قُبَيس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل تكسرت، فما بقيَ بيتٌ مِن بيوتِ مَكَّةَ إلا دَخَلها منه فِلْقَةٌ، فقال لها العباس: والله إن هذه لرُؤْيَا، وأنتِ فاكتُمِيهَا ولا تذكريها لأَحَدٍ.

ثم خرج العباسُ فلقيَ الوليدَ بن عتبة، وكان صديقاً له فذَكَرَها لهُ

واسْتَكْتَمَهُ، فذكرها الوليد لأبيه عُتْبَة، فتحَدَّثَ بهَا عُتْبَةُ، ثُمَّ فشَا الحديثُ عنها. قال العبَّاسُ: فغدوتُ لأطوفَ بالبيت وأبو جهل بن هشام في رَهْطٍ من قريشٍ قُعُودٌ يتَحَدَّثُونَ برُؤيَا عَاتِكَة، فلما رآني قال: يا أبا الفضْل؛ إذَا فرغتَ مِن طوَافِك فأقبل إلينا، فلما فرغتُ أقبلتُ حتّى جلست معهم، فقال: يا بَنِي عبدَ المطلب، متَى حَدَثتْ فِيكُم هذِه النَّبِيَّة؟، قلتُ: وما ذاك؟، فقال: تلكَ الرُّؤيا التي رَأَتْ عاتكَةُ!، قلتُ: وما رَأَتْ؟، فقال: يا بني عبد المطلب، أمَا رضِيتُم أنْ يَسْتَنْبِيءَ رِجَالُكُم حتَّى تَسْتَنْبِيءَ نِسَاؤُكم؟!، قد زَعَمَتْ عاتِكَةُ في رُؤْيَاهَا أنه قال: انفرُوا في ثَلاثٍ فسَنَتَرَبَّصُ بكم هذِه الثّلاث، فإن يك حقّاً ما تقولُ فسَيكونُ، وإنْ تمضِ الثّلاثُ ولم يكن من ذلك شيءٌ نكتبُ عليكم كتاباً: أنكم أَكْذَبُ أهل بَيْتٍ في العَرَب. قلت: إنَّ الكَذِبَ فيك وفي أهل بيتك.

ولقيَ العبّاسُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه من أخته عاتكة أذىً شَديداً حينَ أفشَى حَدِيثها، قال العبّاسُ: فلمّا أمْسَيتُ لم تبق امرَأةٌ من بني عبد المطلب إلا أتتني فَقَالَتْ: أَقْرَرْتُم لهذا الفاسقِ الخبيثِ أنْ يقعَ في رجالِكم، ثمّ قد تناولَ النّساء وأنتَ تسمعُ، ثم لم يكن عندك غَيْرَةٌ لشَيءٍ ممّا سمعتَ. فقلتُ لهنَّ: وأيمُ الله لأتعرَّضَنَّ له وإنْ عادَ قَاتَلْتُه، ثمَّ غدَوْتُ لليوم الثّالث من رُؤيا عاتكَة وأنا مُغضَبٌ، أرَى أنه قد فاتني منهُ أمرٌ أحِبُّ أنْ أدْرِكَهُ منه، فدخلت المسجد فرأيتُه، فوَ الله إني لأمشي نحوَه أتعَرَّضُه ليعوَدَ إلى بعضِ مَا قالَه فأُوقِعَ به، إذَا هوَ قدْ خرجَ نحوَ بابِ المسجد يَعْدُو، فقلت في نفسي: ما له لعَنه الله؟، أَكُلُّ هَذَا فَرَقٌ مِنِّي؟، فإذا هُوَ يَسْمَعُ مَا لمْ أسْمَعُ، سمعَ صوتَ ضَمْضَم بنِ عمرِو الغِفَارِيّ، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره قد جَدَعَ بعيرَه ـ قطعَ أنفه وأذُنَيه ـ، وحوَّلَ رحلَه،

وشقّ قميصَه، ويقول: يا معشر قريش، اللّطِيمَةَ اللّطِيمَةَ ـ أي أدْرِكو اللطِيمةَ، وهيَ العيرُ التي تحملُ الطيبَ والبَزَّ ـ، أموالُكُم عَرَضَ لها محمّدٌ وأصْحَابُه، لا أرى أن تدركوها، لئن أصابها محمدٌ لم تفلحوا أبداً، الغوث الغوث.

قال العباس: فشغلني عنه وشغله عني ما جاءَ مِنَ الأمر. فتَجَهّزَ النّاسُ سِرَاعاً، وفزعُوا أشدَّ الفَزَع؛ وأشفقوا من رؤيا عاتكة، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإمّا باعث مكانه رجلاً آخر، وأعانَ قويُّهم ضعيفَهم؛ وقامَ أشرافُ قريش يحضُّون الناسَ على الخروج، وقال سهيل بن عمرو: يا آلَ غَالب، أتَارِكون أنتم مُحَمَّداً وأهلَ يثرب يأخذون أموالكم؟، من أراد مالا فهَذا مالي، ومن أرادَ قُوتاً فهَذا قوتي. ولم يتخلّف من أشرافِ قريش إلا أبو لهب، خوفاً من رُؤيا عاتكة، فإنّه كان يقول: رُؤيا عاتكة صادقة لا تتخلّف. وبعثَ العاصَ بن هشام بن المغيرة مكَانَه، استأجرَه بأربعةِ آلاف درهم كانت له عليه دَيناً أفلسَ بهَا، فقال: اخرج وديني لك، ثم إنّ هشاماً هذا قتله عمرُ بن الخطاب في هذه الغَزْوَة. وكان عتبةُ وشيبة ابنا ربيعة، وزمعة بن الأسود، وحكيمُ بن حِزام قدِ اسْتَقْسَمُوا بالأزلام، فخرج لهم القدح النَّاهي، فأجمعوا على المقام، فجاءَهم أبو جهل وأزْعَجَهُم، وأعانه في ذلك عُقبةُ بنُ أبي مُعَيطٍ، والنّضرُ بن الحارث. فخرجوا عازمين على أن يعودوا عن الجيش، ثمّ لمْ يتمَكّنُوا من الرجوع.

وأرادَ أميّةُ بنُ خَلَفٍ القعودَ، وكان شيخاً جسيماً ثقيلاً، فجاء إليه عقبةُ بن أبي معيط وهو جالس مع قومه، فوضعَ بين يديه مجمَرَةً فيها بخور وقال: اسْتَجْمِر فإنّما أنت من النساء، فقال له: قبّحك الله وقبّحَ ما جئتَ به. وأتاه أبو جهل، فقال له: يا أبا صَفْوَان، إنك سيّد أهل الوادي، ومتى يراك الناس قد تخلفت

تخلفوا معك ، فسِرْ معنا يوماً أو يومين ، فتجهزّ معهم .

وكان سَببُ تخَلّفه أنَّ سعدَ بنَ معاذ قدِمَ مَكَّةَ مُعْتمِراً ، فنزلَ عنده ؛ لأنّ أمية كانَ ينزلُ على سعدٍ بالمدينة إذا ذهبَ إلى الشّام ، فقال سعدٌ لأميّة: انظر لي ساعةَ خُلْوةٍ لأَطُوفَ بالبيت ، فخرجَ أميّةُ به في نصفِ النّهار ، فبينما سعدٌ يطوفُ إذْ أتاهُ أبو جهل فقال: مَن هذا الذي يطوفُ ؟ ، قال: أنا سعدُ بن معاذ. فقال: أتطوفُ بالكعبة آمِناً وقد آويتُم مُحَمَّداً وأصحابه ؟ ، أمَا وَالله لَوْلَا أنكَ مع أبي صَفْوان ما رَجَعْتَ سالماً. فقال سعدٌ: والله لَئِنْ منعتني هَذَا لأمنعَنّكَ ما هوَ أشدّ عليك منه ، لأمنعَنَّ طريقك على المدينة. فجعل أميّة يقول لسَعدٍ: لا ترفعْ صوتَك على أبي الحكم ؛ فإنه سيّد أهل الوادي. وجَعَلَ يُسْكِتُ سَعْدًا. فقال سعدٌ لأميّة: إليك عنّي ، فإنّي سمعتُ مُحَمَّداً ﷺ يَزْعُمُ أنه قَاتِلُك. فكادَ أميّةُ أنْ يبولَ في ثيابِهِ فزَعاً ، ورجع إلى امرأته فقال: أتعلمين ما قاله أخي اليثربي ؟ ، قالت: وما ذاك ؟ ، قال: زَعمَ أنه سِمعَ مُحَمَّداً يَزْعُمُ أنه قاتلي. فَقَالَتْ: والله مَا يَكْذِبُ محمّدٌ!. فلما جاءَ الصّريخُ وأرادَ الخروج ، قالت له امرأته: أما علمتَ ما قاله أخوك اليثربي ؟ ، فقال: إذَنْ لَا أخرجُ. وأقسم بالله أن لا يخرج من مَكَّةَ ، وصَمَّمَ على عدم الخروج فلمّا قيل له ما تقدم خرج ناوياً أنْ يرجعَ من الطريق.

ولما فرغوا من جهازهم أجمعوا السّير وكانوا خمسين وتسعمائة ، وقيل: كانوا ألفاً. وقادوا مائة فرس وعليها مائة دِرْع سِوَى دروع المشاة ، وركبوا الصَّعبَ والذّلُولِ ؛ لشدّة إسراعهم ، وكان معهم القِيَانُ يضربنَ بالدّفوفِ ويُغَنِّينَ بهجاءِ المسلمين ، وعند خروجهم ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب ، فقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا ، وكاد ذلك يَثْنِيهم عن الخروج ، فتبدّى لهم إبليس في صورة

سراقة بن مالك المدلجي ـ وكان من أشرَافِ بني كِنَانة ـ فقال لهم: أنا لكُمْ جَارٌ مِنْ أنْ تأتيَكُم كنانة من خلفكم بشيءٍ تكرهونَه، فخرجوا سِرَاعاً، وخرج معهم إبليسُ، وجعل يعدهم أن بني كنانة وراءهم قد أقبلوا لنصرهم، وقال لهم ما حكاه الله عنه: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وخرج رَسُولُ الله ﷺ في جمع من المهَاجرينَ والأنصار، ولبسَ ﷺ درْعَه ذاتَ الفضُول، وتقلّد سيفَه العَضْب، واستعملَ أبا لُبَابَة رضي الله عنه والياً على المدينة، واستعمل ابنَ أمّ مكتوم على الصّلاة بالناس في المدينة، وخَلَّفَ عاصمَ بن عَدِيٍّ على أهل قُبَاء وأهل العَالية، ودفع اللواء ـ وكان أبيض ـ إلى مصعب بن عمير، وكان أمَامَه ﷺ رايتَان سَوْدَاوَتَان، إحداهما مع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ويقال لها: العقاب، والأخرى مع سعد بن معاذ، وقد تقدم أن الرّايات إنما حدثت يوم خَيْبَر، ولعل فيه إطلاق اللواء على الراية، وقد صرَّحَ أهلُ اللغة بترادفهما.

ولما خرج رَسُولُ الله ﷺ من المدينةِ ضربَ مُعسْكَره عند بئرِ أبي عُتبَة، ثُمَّ أمرَ بأنْ يُعْرَضَ عليه مَن خرَجَ معه مِنَ المسْلِمين، فرَدّ مَن اسْتَصْغَره منهم، وكان ممن ردهم: أسامة بن زيد، ورافع بن خديج، والبراء بن عازب، وأُسَيْدُ بن ظُهَيْرٍ، وزيد بن أرْقَم، وزيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم، ورد عُمَير بن أبي وقاص فبكى فأجازه، فَقُتِلَ وكانَ عمرُه ستة عشر عاماً. وخَلّفَ النبيُّ ﷺ عثمانَ على ابنتهِ رقية وكانت مريضَةً، وقال له: «إنَّ لَكَ لأَجْرُ رَجُلٍ وَسَهْمُهُ»، فما رَجعَ رَسُولُ الله ﷺ من بَدْرٍ إلا وقد تُوُفِّيَتْ، فصَلّى على قبرِهَا. وكان أبو أمامة بن ثعلبة الأنصاري قد أجمع الخروج وكانت أمُّه

مَريضة ، فأمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمقام على أمِّه ، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعثَ طلحةَ بنَ عبيد الله وسعيدَ بنَ زيدٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما يتحسَّسان خبرَ العير ، فلم يحضرا القِتَال ، لأنهما رجعا بخبرِ العير إلى المدينة على ظنٍّ أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة فلمّا علما أنه ببَدْرٍ خرجا إليه فلقياه مُنصرفاً من بَدْرٍ ، فأسْهَمَ لكلِّ مَن تخلّف بأمرِه أو لعذرٍ من الغنيمة ، وصار كلّ مَن أسهمَ له يقول: وأَجْرِي يا رسول الله؟ ، فيقول: «وأَجْرُك».

وخرجَ مع المسلمينَ حَبِيبُ بن يِسَاف ، ولم يكن أسلم ، ولكنّه خرجَ نجدةً لقومِه من الخزرج ، وطلباً للغَنيمَة ، وكان ذا بأسٍ ونَجْدَة ، ففرح المسلمون بخروجِه معهم ، فقال له رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَصْحَبْنَا إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى دِينِنَا ، ارْجِعْ فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ» ، فتكرَّرَتْ من حبيبِ المرَاجعةُ لرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أنْ يخرجَ معهم ، وفي الثالثة قال له رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ»؟ ، فقال: نعم ، ثم أسلمَ ، فأذن له رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخروج ، فَقَاتَل قتالاً شَدِيداً.

وكان سعد بن عبادة سيد الخزرج قد تهيّأ للخروج فَلَدَغَتْهُ حَيَّةٌ قبلَ أن يخرج فأقام بالمدينة ، وضربَ له رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغنيمة بسَهْم.

وكانت إبلُ أصحابِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذٍ سَبعين بعيراً ، فأمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأجْرَاس أنْ تقطعَ مِن أعناق الإبل ، ثم اعْتَقَبُوها ، كلُّ ثلاثةٍ يَعْتَقِبُونَ بَعِيراً ، إلا ما كان مِن حمزَة ، وزيد بن حارثة ، وأبي كبشة ، وأنِيسَة مولى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنّ هؤلاء الأربعة كانوا يعتقبون بعيراً ، وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعليّ بن أبي طالب ومِرْثَدُ الغَنَوِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما يعتقبون بعيراً ، فقالَ

له رَفِيقَاهُ: يا رَسُولَ الله، اركب حتّى نمْشِي معك، فقال: «مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي عَلَى المَشْيِ، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا».

وكان أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً، وكان عبيد ابن يزيد الأنصاري، ورفاعة وخلاد ابنا رافع يعتقبون بعيراً، حتى إذا كانوا بالرَّوْحَاء برك بعيرُهم عَيّاً، فمرَّ بهم رَسُولُ الله ﷺ، فقالوا: يا رسولَ الله برك علينا بكْرُنا، فدعا رَسُولُ الله ﷺ بماءٍ، فتَمَضْمَضَ وألقاهُ في إناءٍ، ثم صبّ منه في فم البعير، وصبّ باقي ذلك عليه، ثم قال: «ارْكَبا» ومضَى فلَحقُوهُ وإنّ البعيرَ لَيَنْفِرُ بهم.

ولما جَاوزَ رَسُولُ الله ﷺ الرَّوْحَاءَ أَمَرَ بِإِحْصَاءِ مَن مَعَهُ، فإذَا هُمْ ثلاثمائة وثلاثة عشر، ففرح بذلك، وقال: «عِدَّةُ أَصْحَابِ طَالوتَ الذِينَ جَازُوا مَعَهُ النَّهْرَ»، وهذا العدد هو قول عامّة السلف، ومن زَادَ على ذلك عدَّ منهم مَن رَدَّهُ ﷺ من الرَّوْحَاء، ومَن أَسْهَمَ لهُ ولمْ يحضُر، ومنهم من عَدَّهم خمسة وثلاثمائة رجل. ولم يَكُنْ في الجيش إلا فرَسِين: فرَسٌ للمقداد بن الأسود، وفَرَسٌ للزّبير بن العوّام.

وسارَ رَسُولُ الله ﷺ بمن معه، فلما نزلوا بوَادٍ يقال له: "ذَفِرَانَ"، أتاه الخبرُ عن مسيرِ قريش ليمنعوا عِيرَهم، فاستشارَ النَّبِيُّ ﷺ أصحابَه، فقال لهم: «إِنَّ القَومَ قَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ عَلَى كُلِّ صَعْبٍ وَذَلُولٍ، فَمَا تَقُولُونَ؟، العِيرُ أَحَبُّ إِلَيكُمْ مِنَ النَّفِيرِ»؟، فقالوا: بلى، العيرُ أحبّ إلينا من لقاء العدو، وقال بعضهم: يا رسول الله، هلّا ذكرت لنا القِتَالَ حتّى نتأهَّبَ له، إنا خرَجْنَا للعيرِ، فعليك بالعِيرِ ودَعِ العَدُوَّ، فتغير وجهُ رَسُولِ الله ﷺ، وفي ذلك

نزَلَ قول الله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥]، وعند ذلك قام أبو بكر فقالَ وأَحْسَن.

ثُمّ قال ﷺ: «أَشِيرُوْا عليَّ»، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، إنها قريشٌ وعزّها، والله ما ذلت مُنْذُ عَزَّت، ولا آمنت منذُ كَفَرَت، والله لَتُقَاتِلَنَّكَ، فتَأَهَّبْ لذلك أُهْبَتَهُ وأَعِدَّ لذلك عُدَّتَه. ثم قام المقدادُ بنُ الأسود فقال: يا رسول الله امضِ لما أمرك الله فنحنُ معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ما دامت منا عين تطرف، فو الله الذي بعثك بالحق نبيا لو سِرتَ بنا إلى بَرْك الغِمَاد ـ وهي مدينة بالحَبَشَةِ ـ لجَالَدْنَا بالسِّيُوفِ معك مِن دونه حتّى نبلغه، ولو خُضْتَ بنَا بحْرًا لخُضْنَاهُ معك. فَسُرَّ بقوله ذلك رَسُولُ الله ﷺ، ثم دعا له بخير.

ثم استشارهم ﷺ ثالثاً، فقال: «أَشِيرُوْا عليَّ أيُّها النَّاسُ»، ففَهِمَتِ الأنصَارُ أنه يعنيهم، وذلك لأنهم كانوا أكثر الناس عَدَداً، وتخوّف رَسُولُ الله ﷺ أنْ لا تكون الأنصارُ ترى عليها نصرَتَه إلّا من عدوٍّ دَهَمَهُ بالمدينة، وأنه ليس عليهم أن يسيرَ بهم مِن بلادِهم إلى عَدُوٍّ، عملاً بظاهر قولهم له ﷺ حين بايعوه عند العقبة: يا رسول الله، إنّا بُرَاءُ مِن ذِمَامِك حتّى تَصِلَ إلى دَارِنا، فإذا وصلت إليها فأنت في ذمتنا، نمنعك بما نمنع به أبناءنا ونساءنا، فقام سعد بن معاذ سيد الأوس وقد فَطِنَ لذلك، فقال: لعلّك تُرِيدُنا مَعَاشِرَ الأنصار يا رسول الله، فقال: «أَجَلْ»، قال: قد آمنا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، ولعلّك

يا رسولَ الله تخشى أن تكونَ الأنصَارُ ترى عليها أن لا ينصروك إلا في ديارهم، وإني أقولُ عن الأنصار، وأجيبُ عنهم: اظْعَنْ حيثُ شِئْتَ، وصِلْ حِبَالَ مَن شِئتَ، واقطع حِبَالَ مَن شئت وسَالِمْ مَن شِئْتَ، وعَادِ مَن شِئتَ، وخُذْ مِن أمْوَالِنا مَا شئتَ، ومَا أخَذْتَ مِنَّا أحبُّ إلينا مما تركتَ، ومَا أمَرْتَ فِيهِ مِن أمْرٍ فَأمْرُنا تَبَعٌ لِأَمْرِكَ، فَامْضِ يَا رَسُولَ الله لِمَا أَرَدْتَ، فَنَحْنُ مَعَك، فَوَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَك، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ، ولَعَلَّ الله يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرّ بِهِ عَيْنُك، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله.

فَسُرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: «سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ الله تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَالله لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ»، فلما قال ﷺ هذا علم القوم أنهم ملاقون القِتَال وأنّ العيرَ لا تحصل لهم. ثم دعا لهم رَسُولُ الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّهُم حُفَاةٌ فَاحْمِلْهُم، وَعُرَاةٌ فَاكْسُهُم، وَجِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُم، وَعَالَةٌ فَأَغْنِهِمْ مِنْ فَضْلِك»، فما رجع أحدٌ منهم يريد أن يركب إلا وجدَ ظهراً، وكان للرجل منهم البعيرُ والبعيرَان، واكتسى مَن كان عارياً، وأصابوا طعاماً من أزْوَادِ المشْركين، وأصابوا أمولاً مِن فِدَاءِ الأسَارَى، فاغتنى به كلّ عَائِل.

ثم ارتحل رَسُولُ الله ﷺ من ذَفِرَان حتّى نزَل قريباً من بَدْرٍ، فركبَ رَسُولُ الله ﷺ هو وأبو بكر رضي الله عنه، فسَارَا حتّى وقفا على شيخ من العرب، فسألَه النبيُّ ﷺ عَن قُرَيشٍ وعَن محمَّدٍ وأَصْحَابِه، وما بلغه عنهم؟. فقال الشيخ: لا أخبرُكُمَا حتّى تُخْبِرَاني مَن أنتما؟، فقال له رَسُولُ الله ﷺ:

«إذا أخبرْتنَا أخبرْنَاك»، فقال الشيخ: ذَاكَ بِذَاك؟، قال: «نعم»، فقال: فإنه قد بلغني أنّ مُحَمَّداً وأصحابَه خرَجُوا يومَ كذَا وكذَا، فإنْ صَدَقَ الذي أخبرَني فهُمُ اليومَ بمكان كذا وكذا ـ وسمَّى المكان الذي نزلَ فيه رَسُولُ الله ﷺ وأَصْحَابُه ـ، وبلغنِي أنَّ قُرَيْشاً خرجُوا يوم كذا وكذا، فإن كانَ الذي أخبرَني به صَدَقَ فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ وسمَّى المكان الذي نزلت فيه قريشٌ. فلما فرَغَ مِن خبرِه قال: فَمَن أنتُما؟، فقالَ له رَسُولُ الله ﷺ: «نَحْنُ مِنْ مَاءٍ»، ثم انصرفا عنه، ففهم الشيخُ أنّ المرادَ بالماءِ حَقِيقتَه فجعل يقول: مِن مَاء!، أَمِنْ مَاءِ العِراق؟. وإنما عنى النبيُّ ﷺ الماءَ الدَّافِقْ، وهوَ المَنْي.

فلمّا أمسَى ﷺ بعثَ عليَّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص إلى بَدْر يَلْتَمِسُون الخبرَ، فأصابوا رَاوِيةً لقُريشٍ ومَعها غُلَامَان، فأتوا بهمَا ورَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يُصَلّي، فقالوا لهما: لِمَنْ أنتُما؟، وظَنُّوا أَنّهُما لِأَبِي سُفْيَانَ، فقالا: نحن سُقَاةٌ لقُرَيش بعثونا نسقيهم من الماء، فضربوهما فلما أوجعوهما ضرباً قالا: نحن لأبي سُفْيَانَ فتركوهما، فلما فرغَ رَسُولُ الله ﷺ مِن صَلَاتِه قال: «إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا وَالله، إِنّهُمَا لِقُرَيْشٍ، أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ»؟، قَالَا: هُمْ وَالله وَرَاءَ هَذَا الْكَثِيبِ الّذِي تَرَاه بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى، فَقَالَ لَهُما النبيُّ ﷺ: «كَم القَوْمُ»؟، قَالَا: كَثِيرٌ، قَالَ: «مَا عِدّتُهُمْ»؟، قَالَا: لَا نَدْرِي، قَالَ: «كَمْ يَنْحَرُونَ كُلّ يَوْمٍ»؟، قَالَا: يَوْماً تِسعاً، وَيوماً عَشْراً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «القَوْمُ فِيمَا بَيْنَ التّسعِ مِئَةٍ وَالْأَلْفِ». ثُمّ قَالَ لَهُما: «فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ»؟، قَالَا: عُتْبَةُ بنُ

رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، وَأَبو البَخْتَرِيّ بنُ هِشَامٍ، وَحَكِيمُ بنُ حِزَامٍ، وَنَوْفَلُ بنُ خُوَيْلِدٍ، وَالحَارِثُ بنُ عَامِرِ بنِ نَوْفَلٍ، وَطُعَيْمَةُ بنُ عَدِيّ بنِ نَوْفَلٍ، وَالنَّضْرُ بنِ الحَارِثِ، وَزَمَعَةُ بنُ الأَسْوَدِ، وَأَبو جَهْلِ بنُ هِشَامٍ، وَأُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ، وَنُبَيْهُ وَمُنَبّه ابنَا الحَجّاجِ، وَسُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، وَعَمْرُو بنُ عَبْدِ وُدّ. فَأَقْبَلَ ﷺ عَلَى النّاسِ فَقَالَ: «هَذِهِ مَكّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلاذَ كَبِدِهَا».

وكان مع قريش رجلٌ من بني المطّلب يقال له: جَهْمُ بنُ الصَّلْت، فَوَضَعَ رَأسَهُ فأَغْفَى، ثُمَّ قامَ فَزِعاً، فقال لأصحابِه: هل رأيتُم الفارسَ الذي وقفَ عَليَّ؟، فقالوا لا، قال: قَدْ وقفَ عليّ فارسٌ، فقال: قُتِلَ أبو جَهْل، وعتبة، وشيبة، وزمعة، وأبو البَخْتَرِيِّ، وأميّة بن خلف، وفُلانٌ وفُلان. وعَدَّ رِجَالاً مِن أشراف قريش ممن قُتِلَ يومَ بَدْرٍ، وقال: أُسِرَ سُهَيلُ بنُ عمرو، وفُلَانٌ وفُلان، وعَدَّ رِجَالاً مِمَّنْ أُسِرَ يَومَ بَدْرٍ، قال: ثُمّ رَأَيتُهُ ضَرَبَ فِي لَبَّةِ بَعِيرِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ في الْعَسْكَر، فَمَا بَقِيَ خِبَاءٌ مِن أَخْبِيَةِ الْعَسْكَرِ إلّا أَصَابَهُ نَضْحٌ مِنْ دَمِهِ. فَبَلَغَتْ الرُّؤْيَا أَبَا جَهْلٍ فَقَالَ: وَهَذَا أَيضاً نَبِيٌّ آخرُ مِن بَنِي المُطّلِبِ، سَيَعْلَمُ غداً مَن المَقْتُولُ إنْ نَحنُ التَقَينا.

وكان أبو جهل أوّلَ مَن نحرَ للمشركين حِينَ خَرَجُوا من مَكَّةَ، فإنّه نحرَ بمرِّ الظَّهْرَان عشرَ جَزَائِرَ، وكانَ بجَزورٍ مِنْهَا حَيَاةٌ بعد أنْ نُحِرَتْ، فجَالَتْ فِي العَسْكَرِ، فما بَقِيَ خِبَاءٌ مِن أَخْبِيَةِ العسكر إلا أصابَه مِن دَمِها، فرَجَع من هذا المحل بَنُو عَدِيّ تَشَاؤُماً بذلك، ثم نحر لهم سُفْيَانَ بنُ أميَّة بِعُسْفَان تِسْعَ جَزَائِرَ، ونحرَ لهُم سهيلُ بنُ عمرٍو بِقُدَيْدٍ عَشرَ جَزَائِرَ، ثم ساروا من قُدَيْدٍ حتّى وصَلُوا

الجُحْفَةَ ، فنحر لهم بها عُتْبَةُ بنُ رَبيعة عشرَ جَزَائِرَ ، فلما وصَلُوا الأَبْوَاءَ نحرَ لهم مِقْيَسُ بنُ عمرو الجُمَحِيّ تسعَ جَزَائِرَ ، ونحرَ لهم العباس بن عبد المطلب عشرَ جَزَائِرَ ، ونحرَ نَبيه ومُنَبّه ابنا الحجاج عشراً ، ونحرَ لهم الحارث بن عامر بن نوفل تسعاً ، ونحر لهم أبو البَخْتَرِيّ على ماء بَدْر عشرَ جَزَائِرَ ، ثم شَغَلَهُم الحَرْبُ فأكلوا من أزوادهم.

وكان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعثَ رجلين من الصحابة يتَحَسَّسَان من خبر عِيرِ أبي سُفْيَانَ ، فسَارَا إلى مَاءِ بَدْرٍ ، فنزلا قريباً منه عند تَلٍّ هُنَاك ، ثم أخَذَا شَنّاً لهُما ليَسْتَقِيَان فيه ، فوجدا شخصاً عَلى الماء ، وإذَا جَارِيتان يتخاصمان عَلى الماء ، وتمسِكُ إحداهما بالأخرى في حقٍّ لها ، والملْزُومَةُ تَقُولُ لِصَاحبتها: إنَّما يأتي العيرُ غداً أو بعدَ غَدٍ ، فأعمَلُ لهم وأقضيك الذي لك ، فقال لها ذلك الرّجل الذي كان على الماء: صدقَتْ ، ثم فَصَلَ بينهما ، وسَمِعَ ذلك الرّجُلان ، فانطَلَقَا حتّى أتيا رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرَاه بما سَمِعا.

فلما جاء أبو سُفْيَانَ تقدّمَ العِيرَ حَذَراً حتّى وَرَدَ الماءَ ، فَلَقِيَ ذلك الرّجُل ، فقال له: هل أحَسَسْتَ أحَداً؟ ، قال: ما رأيتُ أحداً أنكره ، إلا أني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التّل ، ثم استقيا في شَنٍّ لهما وانطلقا ، فأتى أبو سُفْيَانَ إلى مَنَاخِهِمَا فأخَذَ مِنْ أَبْعَارِ بَعِيرهِمَا فَفَتَّتَهُ ، فإذا فيه النَّوى ، فقال: هذه والله عَلَائِفُ يَثْرِب ، فرَجع إلى أصحابه سَريعاً ، ونَحّى عِيرَهُ عَن الطريق وترك بَدْراً ، وانطلق مُسْرعاً صَوبَ طريق الساحل ، فلمّا عَلِمَ أبو سُفْيَانَ أنه قدْ أحرَزَ عِيرَه ، وقد بلغه مجيءُ قُرَيش ليُحْرِزُوا العِيرَ ، فأرْسَلَ إليهم وكانوا قد وصلوا الجحفةَ ، فقال: إنكم إنّما خرجتم لتمنعوا عيرَكم ورِجَالكُم وأموَالكم ، وقد نجّاهَا الله ، فارجعوا ،

فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتّى نَرِدَ بَدْراً، فَنُقِيمُ عَلَيهِ ثَلاثة أيام، ونَنْحَرُ الجُزُر، ونُطعِمُ الطعام، ونسقي الخمرَ، وتعْزِفُ علينا القِيَانُ، وتسمعُ العرَبُ بنا وبمسيرنا فلَا يزالون يَهَابُونَنَا بعدها أبدا. ثم لم يزالوا سائرين حتى نَزَلوا بالعُدْوَةِ القُصْوَى قريباً من ماءِ بَدْرٍ.

ولما بلغَ أبا سُفْيَانَ ما قاله أبو جهل، قال: هَذا بَغْيٌ، والبغْيُ مَنْقصَة وشُؤْمٌ، وعندما بلغَ المشركين خبرُ نجاة العيرِ، أرادَ بَنُو هَاشِم الرُّجُوعَ، فاشْتَدَّ عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العِصَابة حتّى نرجع. وقام الأَخْنَسُ بنُ شَرِيق وكان قائد بني زُهْرَة، فقال: يا بني زُهْرَةَ قد نجى الله أموَالكم، وخَلّصَ صَاحِبَكم مخرَمَةَ بنَ نوفل، وإنّما نَفَرْتُم لِتَمْنَعُوه ومالَه، فارجعوا، واجعلوا بي حميّتها، فإنه لا حَاجةَ لكم بأنْ تخرجوا في غيرِ مَنْفَعَة، لا ما يقول هذا ـ أبا جهل ـ فرجع بنو زهرة وكانوا نحو المائة، وقيل: ثلاثمائة، فلم يقتل من بني زهرة أحَدٌ بِبَدْرٍ.

وكان الأَخْنَسُ بنُ شَرِيق قد قال لأبي جَهْل وقَد خَلَا بِهِ: أترى مُحَمَّداً يَكْذِب؟، فقال: ما كذَبَ قَطّ، كنّا نسميه الأمين، لكن إذا كانت في بني عبد المطلب السقاية والرفادة والمشُورة، ثم تكون فيهم النبوة فأي شيء يكون لنا؟، فانْخَنَسَ الأَخْنَسُ ورَجَعَ بِبَنِي زُهْرَة، وكان اسمه أُبَيّ، وإنّما لُقِّبَ بالأَخْنَس مِن حِين رَجعَ ببني زُهْرة، فقيل: خَنَسَ بهم، فسمي الأَخْنَس وكان حليفا لبني زُهْرَة، ومقدّماً فيهم، وقد قيل أنه أسلم يوم الفتح، وكان من المؤلفة قلوبهم.

ونزل رَسُولُ الله ﷺ والمسلمون بعيداً من الماء، بينهم وبين الماء رحلة، فظَمِئَ المسلمون وأصابهم ضِيقٌ شديدٌ، وأَجْنَبَ غالبُهم، وألقى الشيطانُ في قلوبهم الغَيظَ، وَوَسْوَسَ إليهم بقوله: تزعمون أنكم أولياءُ الله تعالى، وأنكم

على الحق وفيكم رسوله، وقد غلبَكُم المشركونَ عَلى الماء، وأنتم عِطَاشٌ، وتُصَلّونَ مُجْنِبين، ومَا يَنْتظرُ أعداؤُكم إلا أنْ يقطعَ العطشُ رقابَكم، ويُذْهِبَ قُوَاكم، فيَحْكُمُوا فيكم كيف شاؤوا، فإذا مشوا إليكم، قتلوا من أحبّوا وساقوا بقيتكم إلى مَكَّةَ. فحَزِنَ المسلمون حُزْناً شديداً وخَافوا، وكان الوادي لَيِّناً كثيرَ التُّرَاب تسيخ فيه الأقدام، فبعثَ الله السَّماء بالمطر فأطفأ الغُبَارَ، ولبَّدَ الأرضَ للنبيِّ ﷺ ولأصحابه، وطهَّرَهم به، وأذهب عنهم رِجْزَ الشيطان ووسْوَسَته، وشربوا منه، وملؤوا الأسقية، وسقوا الركائب، واغتسلوا من الجنابة، وطابت نفوسهم، فذاك قول الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]. وأصاب قُرَيْشًا منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا منه ويصلوا إلى الماء، فكانَ المطرُ نعمةً وقوّةً للمؤمنين وبلاءً ونقمةً على المشركين.

قال علي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: (أصابنا من الليل طَشٌّ مِن مَطَرٍ، فانطلقنا تحت الشجر والجحف نستظل تحتها من المطر، وباتَ رَسُولُ الله ﷺ يدعو ربه، فما كان فينا تلك الليلة قائم إلا رَسُولُ الله، كان يصلي تحت شجرة ويكثر في سجوده أن يقول: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ»). وكرر ﷺ ذلك حتى أصبح، وأصابَ المسلمين تلك الليلة نعاسٌ شديدٌ يُلْقِي الشَّخْصَ على جَنْبِه، وكان النعاسُ أَمَنَةً من الله تعالى، وكان النعاس نعاسين: نعاس يوم بَدْرٍ، وكان ليلا قبل القِتَال، ونعاس يوم أُحُدٍ، وكان وَقْتَ القِتَال، وهو دليل على الطمأنينة والسكينة، قال ابن مسعود: (النعاس في المصَافّ من الإيمان، وفي الصلاة من النفاق)، لأنّ الأول يدل على ثبات الجنان، والثاني يدل على عدم الاهتمام بأمر الصلاة.

فلما طلع الفجرُ نادَى رَسُولُ الله ﷺ: «الصَّلَاةَ عِبَادَ الله»، فجاء النَاسُ من تحت الشجر والحُجَف، فصَلَّى النبيُّ ﷺ بهم، وَحَرَّضَهم على القِتَال، في خُطبةٍ خَطَبهَا، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «.. أما بعد: فإني أَحُثُكم عَلَى مَا حثّكُم الله عليه»، إلى أن قال: «وإنّ الصَّبرَ في مَوَاطن البأسِ مما يُفَرِّجُ الله تعالى بِهِ الهَمَّ، وَيُنَجِّي بِهِ مِنَ الغَمِّ»، ثم سَارَ رَسُولُ الله ﷺ يُسَابِقُ قُرَيْشاً إِلَى الماءِ، فسبقهم إليه، حتى جاءَ أَدْنَى مَاءٍ مِن بَدْرٍ، فقال له الحُبَابُ بنُ المُنْذِرِ: يا رسولَ الله أَرَأيتَ هَذَا المنْزِلَ، أَمَنْزِلٌ أَنزَلَكَهُ الله ليسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ ولا نتأخَّرَ عنه، أمْ هُوَ الرَّأيُ والحرْبُ وَالمكِيدَةُ؟، فقال ﷺ: «بل هُوَ الرَّأيُ والحرْبُ وَالمكِيدَةُ»، قال: يا رسولَ الله، إن هذا ليسَ بِمَنْزِل، فانْهَضْ بالناس حتّى تأتيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنَ القَوم، فإني أَعْرِفُ غَزَارَةَ مَائِه وكثرته بحيثُ لا يُنْزَح، فَننْزِلَه، ثم نُغَوِّرَ مَا عَدَاهُ مِنَ الآبارِ، ثمّ نبنيَ عليه حوضاً فنملأَه ماءً فنشربَ ولا يشربون، فقال النبيُّ ﷺ: «لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ»، ونزل جبريلُ عليه السلام على النَّبيِّ ﷺ فقال: «الرَّأْيُ مَا أَشَارَ إِلَيهِ الحُبَابُ»، فنهضَ رَسُولُ الله ﷺ ومَن معه مِن النّاس، فسارَ حتى أتى أدنى ماءٍ مِنَ القوم، ثمَّ أمرَ بِالْقُلُبِ فَغُوّرَتْ وَبَنَى حَوْضاً عَلَى الْقَلِيبِ الّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً، ثُمّ قَذَفُوا فِيهِ الْآنِيَةَ، ومن يومِئذٍ قيلَ للحُبَاب: ذُو الرَّأْي.

وقال سعدُ بن معاذ: يا نبيَّ الله، ألا نَبْنِي عريشاً تكون فيه ونُعِدُّ عندك ركائِبَك، ثم نلقى عدوَّنا، فإنْ أعزَّنا الله تعالى وأظهرَنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحبَبْنا، وإن كانت الأخرى جلسْتَ على ركائبك فلحقت بمن وراءَنا، فقد تخلّفَ عنك أقوامٌ مَا نحنُ بأشدّ حبّاً لك منهم ولا أطوع لك منهم، لهم رَغبَةٌ في الجهادِ

ونِيَّةٌ، ولو ظَنّوا أنكَ تَلْقَى حَرْباً ما تَخلَّفُوا عنك، إنّما ظَنُّوا أنها العيرُ، يمنعك الله بهم ويُنَاصِحُونَك ويُجاهدُون معك، فأثنى رَسُولُ الله ﷺ عليه خيراً ودعا له بخيرٍ، وقال: «أَوْ يَقْضِي الله خَيراً مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ»، ثُمَّ بُنِيَ ذلك العريشُ لرَسُولِ الله ﷺ فوق تَلٍّ مُشْرِفٍ على أرضِ المعركة، فكان فيه، وجُعِلَ على بابِ العَريش أبو بكر الصديق، وسعدُ بن معاذ، رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما.

ثُمّ إنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ ليلةَ بَدْرٍ: «هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ ـ إِنْ شَاءَ الله ـ غَداً»، ووضعَ يدَه على الأرض «وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ هَاهُنَا، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ هَاهُنَا»، وسَمَّى عدداً ممن قُتِلوا ببَدْرٍ، فما تَنَحَّى أحدُهم عن الموضع الذِي حدَّدَه له النبيُّ ﷺ. ولما رَأى رَسُولُ الله ﷺ قُرَيْشاً وقد أقبلتْ بالدّرُوعِ السَّاترةِ، والجُمُوعِ الوَافِرَةِ، والأسلحَةِ الشَّاكِيَةِ، قال: «اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ، قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا، تُحَادّك وَتُكَذّبُ رَسُولَك، اللَّهُمَّ فَنَصْرَكَ الّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنّكَ أَنزَلْتَ عَلَيَّ الكِتَابَ، وأَمَرْتَني بِالثَّبَات، ووَعَدتّني إِحْدَى الطَّائِفَتَين، وَإِنّكَ لَا تُخْلِفُ الِميعَاد، اللَّهُمَّ أَحِنْهُمْ ـ أهلكهم ـ الغَدَاةَ، اللَّهُمَّ لَا تُفْلِتَنَّ أبَا جَهْل فِرْعَونَ هَذِهِ الأُمَّة، اللَّهُمَّ لَا تُفْلِتَنَّ زَمْعَةَ بنَ الأَسْوَد».

وكان من حِكْمَةِ الله تعالى أنّ اللهَ تعالى جعلَ المسلمين ـ قبل أن يلتحمَ القِتَالُ ـ في أعين المشركين قليلاً؛ استدراجاً لهم ليقدموا، ولما التحَم القِتَالُ جعَلهُم الله في أعين المشركين كثيراً ليَحْصُلَ لهم الرُّعبُ والوَهَنُ، وجَعَلَ اللهُ المشركين عند التحام القِتَالِ في أعين المسلمين قليلاً ليقْوَى جَأْشُهُم عَلى مُقَاتَلَتِهم. وجاءَ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لقد قَلّوا في أعيننا يومَ بَدْرٍ، فقلتُ

لرَجُلٍ: أتراهم سبعين؟، قال: أراهم مِائةً، وأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤].

وذُكِرَ أنّ قَبَاثَ بنَ أَشْيَمَ اللَّيْثِيَّ رضي الله عنه قال في نفسِه يوم بَدْرٍ وقد نظرَ إلى المسلمين: لو خرَجَتْ نساءُ قريش بِأَكِمَّتِهَا لرَدَّتْ مُحَمَّداً وأصحابَه. وقد أسلمَ وحَسُنَ إسلامُه بعد ذلك، وعنه أنه قال: لما كان بعدَ الخَنْدَقِ قَدِمْتُ المدينةَ، فسألتُ عن رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هو ذاك في محَلِّ المسجد، مع ملأٍ مِن أصحابه، فأتيتُه وأنا لا أعرِفُه من بينهم، فسَلّمْتُ، فقال صلى الله عليه وسلم: «يَا قَبَاث أَنْتَ الْقَائِلُ يَومَ بَدْرٍ: لَوْ خَرَجَتْ نِسَاءُ قُرَيْشٍ بِأَكِمَّتِهَا لَرَدَّتْ مُحَمَّداً وَأَصْحَابَهُ»؟، فقلت له: والذي بعثك بالحق، ما تحدث به لساني، ولا تَرَفْرَفَتْ به شَفَتَاي، ولا سمعه مّني أحَدٌ، وما هو إلا شيءٌ هَجَسَ في قلبي، أشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله، وأنّ ما جِئتَ به الحقّ.

ولما وصَلَتْ قريشٌ إلى ساحة المعركة، أرسلوا عُمَيرَ بنَ وَهْب الجُمَحِيّ رضي الله عنه ـ فإنه أسلمَ بعد ذلك، وشهدَ أُحُداً معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا: اِحْزِرْ لنَا أصحابَ محمّدٍ، فَجَال بفرَسِه حولَ معسكرِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ثمّ رجع إليهم، فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، ولكِنْ أمهلوني حتّى أنظرَ هل للقوم كمينٌ أو مَدَدٌ؟، فذهبَ في الوادِي حتّى أبْعَدَ فلمْ يرَ شيئاً، ثم رجع إليهم فقال لهم: مَا رَأيتُ شيئاً، ولكِنّي قد رأيتُ يا معشر قريش البَلايَا تَحْمِلُ المنَايَا، نَوَاضِحُ يثْرِب تحملُ الموتَ النَّاقِع، تَرونَهم خُرْساً لا يتكلّمون، يَتَلَمَّظُونَ تَلَمُّظَ الأَفَاعِي، لا يُرِيدُونَ أنْ يَنْقَلِبُوا إلى أهلِهم، كَأنَّهم الحصَا تحتَ الجُحَفِ،

ليسَ لهم مَنَعَةٌ ولَا مَلْجَأٌ إلّا سيوفهم، والله ما نرى أنْ نقتلَ منهم رجلاً حتّى يُقْتَلَ رجلٌ منكم، فإذا أصابُوا منكم أعدَادَهُم فمَا خيرُ العَيش بعد ذلك؟، فروا رأيكم.

فلمّا سِمعَ حكيمُ بنُ حِزام ذلكَ مشَى إلى عُتْبَةَ بنِ رَبيعةَ، فقال له: يا أبا الوَليد إنّك كبيرُ قريشٍ وسيِّدُها والمطاعُ فيها، فهل لك إلى أَنْ لا تزالَ تذكرُ بخيرٍ إلى آخرِ الدّهر؟، قال: ومَا ذاك يا حكيم؟، فقال: ترجعُ بالناس. فقام عتبةُ خَطِيباً، فقال: يا معشرَ قريش؛ إنكم والله ما تصنعونَ بأنْ تلقوا مُحَمَّداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبْتُموه لا يزالُ الرّجُلُ ينظرُ في وجه رجلٍ يكرَه النظرَ إليه، قتلَ ابنَ عمِّه أو ابنَ خَالِه أو رَجُلاً مِن عشيرته، فارْجِعُوا، وخلوا بين محمّدٍ وبينَ سَائِرِ العرَب، فإن أصابوه فذاك الذي أردْتُم، وإن كان غير ذلك أكْفَاكم، ولم تعرضوا منه ما تريدون، يا قوم أعصبُوها اليوم برأسي - أي: اجعلُوا عَارَهَا مُتعَلّقاً بِي فقط -، وقولوا: جَبُنَ عُتْبةُ، وأنتم تعلمون أني لستُ بِأَجْبَنِكُم. فقال حكيمُ بنُ حِزامَ لعُتْبَةَ: أَتَجِيرُ بين النّاس، وتَحْمِلُ دَمَ حَلِيفِكَ عمْرِو بنِ الحضْرَميّ - الذي هو أوّل قَتِيلٍ قتلَه المسلمون في سَرِيّة عبد الله بن جحش إلى نخلة -، وتَحْمِلُ ما أصابَ محمدٌ من تلك العير؟، فإنهم لا يطلبون مِن محمّدٍ إلا ذلك. فقال عتبة: نعم؛ قد فعلتُ، هوَ حليفي، فعليَّ ديته وما أُصِيبَ من المال، ونِعْمَ مَا قُلتَ، ونِعْمَ مَا دعوتَ إليه، ثم رَكِبَ عتبةُ جَمَلَه وصارَ يُجِيلُه في صُفُوفِ قريش، ويقول: يا قوم أطيعوني، فإنكم تطلبون دَم ابنِ الحضرميّ وما أُخِذَ مِنَ العِير، وقد تحمَّلتُ ذلك.

وقد كان ﷺ لما رأى قُرَيْشاً أقبلت مِن الكَثيب، وعتبة على جمل أحمر قال: «إِنْ يَكُنْ فِي أَحَدٍ مِنَ القَوْمِ خَيرٌ فَعِنْدَ صَاحِبِ الجَمَلِ الأَحْمَرِ، إِنْ

يُطِيعُوهُ يَرْشُدُوا». فلما رأى رَسُولُ الله ﷺ رَاكِبَ الجمَلِ الأحمر يجيلُه في صفوفِ قريش، قال: «يا عليّ نادِ حمزَةَ ـ وكَان أقربَهم إلى المشركين ـ، فقُلْ لَهُ: مَنْ صَاحِبُ الجَمَلِ الأَحْمَرِ، وَمَاذَا يَقُولُ لَهُمْ»؟، فقال: هو عتبة بن ربيعة ينهى عن القِتَال. ولما سمع أبو جهل ما قالَه عتبة غَضِبَ، وقال: انتفخَ والله سَحْرُه ـ أي رِئَتُه؛ وهي كلمة تُقالُ لِلْجَبَان ـ. ثم جاءَ إلى عتبة، فقال له: أنتَ تقولُ هذا؟، والله لو غيرُك يقول هذا لأعضَضْتُه، قد مَلأتَ جَوفَك رُعْباً، كَلَّا والله لا نرجعُ حتى يحكمَ الله بيننا وبين محمَّدٍ، ثم نادى فقال: يا معشر قريش، إنما يشيرُ عليكم عتبة بهذا لأنّ ابنَه أبا حُذيفة معَ محمّدٍ، ومحمّدٌ ابنُ عمِّه، فكرِه أنْ تقتلوا ابنَه وابنَ عمِّه. فغضبَ عتبةُ وسبَّ أبا جهل، وقال له: سَتَعْلَمُ أينا أَفسَدُ لِقَومِه؟.

وذُكِرَ أَنّ النَّبِيَّ ﷺ بعثَ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه إليهم يقول: «اِرْجِعُوا فَإِنَّهُ إِنْ يَلِي هَذَا الأَمْرَ مِنِّي غَيرُكُمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَلُوهُ مِنّي»، فقال حكيمُ بنُ حزام: قد عرضَ نصَفاً فأقبلوه، فوالله لا تنصرونَ عليه بعد ما عرضَ من النصف، فقال أبو جهل: والله لا نرجعُ بعد أنْ مَكّننا الله منهم. ثُمّ إنّ أبا جهل بعثَ إلى عَامر بنِ الحضْرَميّ أخي المقتول فقال: هذا حليفُك عتبة يُخَذّلُ الناسَ عن القِتَالِ، ويريدُ أنْ يرجعَ بهم، وقد تحمَّلَ دِيَةَ أخيك من ماله يَزْعُمُ أنك قابِلُها، ألا تستحي أنْ تقبلَ الدّية مِن مالِ عُتْبة، وقد رَأيتَ ثَأْرَكَ بعينِك، فقُمْ فَاذْكُر مَقْتلَ أَخِيك، وكان عامرٌ كأخِيه المقتول مِن حُلفاءِ عُتبة، فقام عامرُ بنُ الحضرمي، ثمّ تَكَشَّفَ، وحَثَا على نفسِه التُّرابَ، وصرخ: واعمرَاه.. واعمرَاه، فثَارت النُّفوسُ للقتال.

واشتدَّ العطشُ بالمشركين، وكان الأسودُ بن عبدِ الأسد المخزومي شَرِساً، سَيّءَ الخلق، شديدَ العَدَاوةِ لرَسُولِ الله ﷺ، وجاءَ أنه أوّلُ مَن يُعطى كتابَه بشمالِه، كما أنّ أخاه أبا سَلَمَة أوّل من يُعطَى كتابه بيمينه، فقال الأسود: أعاهدُ اللهَ لأشربَنَّ من حوضِهم، أو لأَهْدِمَنَّه، أو لأموتَنَّ دونَه، فلما خرَج إليه تلقاه حمزةُ بنُ عبد المطلب، فضربَ سَاقَه فقطعَها، فطَارت وهو دون الحوض، فوقع على ظهرِه تَشْخَبُ رجلُه دماً، ثم حبَا إلى الحوض حتى اقتحمَ فيه، وشَرِبَ مِنْهُ، ثُمَّ جعل يهدمُه برجْلِه الصحيحة يريد أن تبرَّ يمينُه، فتبعه حمزة فقتله في الحوض، وأقبل نفرٌ من قريش حتى ورَدُوا ذلك الحوض فقالَ رَسُولُ الله ﷺ لأَصْحَابِه: «دَعُوهُمْ»، فما شَرِبَ منه رجلٌ يومئذٍ إلا قُتِلَ كَافِراً، إلا حكيم بن حزام فإنه لم يقتل، ثم أسلم بعد ذلك، وكان إذا اجتهد في يمينه قال: لَا والذِي نَجَّاني يَومَ بَدْرٍ.

وقد كانَ رَسُولُ الله ﷺ يُعَدّلُ صفوفَ أصحابه بقَدَحٍ في يدِه، وهو سَهْمٌ لا نصلَ له ولا رِيش، فمَرَّ بِسَوَادِ بنِ غَزِيَّةَ وهو خارجٌ من الصَّفِّ، فطعنه ﷺ في بطنه بالقَدَحِ، وقال: «اِسْتَوِ يَا سَوَادُ»، فقال: يا رسول الله، أوجعتني وقد بعثك الله بالحقِّ والعَدْل، فَأَقِدْنِي مِن نَفْسِكَ، فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «اِسْتَقِدْ»، فقال: إنّ عَليك قَمِيصاً، وليسَ عليَّ قميصٌ، فكَشَفَ رَسُولُ الله ﷺ عَن بَطْنِه، وقال له: «اِسْتَقِد»، فاعْتَنَقَهُ، وجعلَ يُقَبّلُ بطنه الشّريفَ، فقال ﷺ: «مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَاد»؟، فقال: يا رسول الله، قد حضرَ ما ترَى، فأردتُ أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدِي جلدَكَ، فدعا له رَسُولُ الله ﷺ وسلم بخير. وقد عُلِمَ أَنَّ من خصائِصِه ﷺ أنّ النارَ لا تأكلُ شيئاً مَسَّ جسَدَه الشّريفَ.

ولما عَدَّلَ رسولُ الله ﷺ الصّفوفَ قال: «إِنْ دَنَا القَوْمُ مِنْكُمْ فَانْضَحُوهُمْ بِالنَّبْلِ، وَاسْتَبْقُوا نَبْلَكُمْ»، أي لا ترموهم على بعد، فإن الرمي مع البعد يخطئُ غالباً، فيضيع النّبلُ بلا فائدة، وقال لهم: «لَا تَسُلُّوا السُّيُوفَ حَتَّى يَغْشَوكُم». وخطبهم خطبةً حثّهم فيها على الجهادِ وعَلى المُصَابرة فيه، ورجع ﷺ إلى العريش ومعه أبو بكر، وسعد بن معاذ قائمٌ على باب العريش متوشحٌ سَيفَه ومعه نَفَرٌ من الأنصار. ثم إنّ رَسُولَ الله ﷺ صار يناشدُ اللهَ تعالى ما وعدَه مِنَ النّصر ويقول: «اللَّهُمَّ أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ الذي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةُ الْيَوْمَ لَا تُعْبَدُ»، وما زال يدعو ربَّه مَادّاً يديه، مستقبل القبلة، حتّى سقطَ رداؤُه عَن مَنكِبِه، فأخذَ أبو بكر رِدَاءَه وألقَاهُ على منكبه، ثم التزمه من ورائه، وقال: (يا نبي الله، كفَاكَ مناشدتك ربّك، فإنه سينجزُ لك ما وَعَدَك، قد ألحَحْتَ عَلى ربك). وكون وعدَ الله لا يتخلّف لا ينافي الإلحَاحَ في الدُّعَاءِ؛ لأنّ الله يحبُّ الملِحّينَ في الدّعاء وإنما قال أبو بكر ما ذُكِرَ لأنه شقَّ عليه تعبُ النَّبيِّ ﷺ في إلحاحِه بالدّعاء، وقد كان رقيقَ القلب شديدَ الإشفَاق على رَسُولِ الله ﷺ.

ثُمَّ إِنَّ عُتبَةَ بن ربيعة خَرَج ومعه أخاه شيبة، وابنُه الوليد حتّى فصَلَ مِن الصَّفِّ، ودعا للمُبارَزَةِ، فخرج إليه فِتْيَةٌ مِنَ الأنصار، ثلاثةُ إِخْوةٍ أشِقّاء، وهم: مُعَوِّذٌ، ومُعَاذٌ، وعَوْفٌ، بنو عفراء، فقالَ: مَن أنتُم؟، قالوا: رَهْطٌ من الأنصار، فقال: أكفَاءٌ كِرَام، ما لنا بكم مِن حَاجة، إنما نريد قومنا، فَأَخْرِجُوا إلينا مِن بني عمِّنا، ثم نادَى: يا محمّد أخرج إلينا أكفاءَنا من قومِنا، فقال النَّبيُّ ﷺ: «قُمْ يَا عُبَيدَةُ بنُ الحارِثِ، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ، وَقُمْ يَا عَلِيُّ»، فلما دنوا منهم قالوا لهم: مَن أنتم؟، قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال عليٌّ: عليٌّ: فقالوا:

نعم أكفَاءٌ كِرَامٌ، فبارَزَ عبيدةُ بنُ الحارث عتبةَ بنَ ربيعة، وبارز حمزةُ شيبةَ، وبارز عليٌّ الوليدَ، فأمّا حمزةُ فلم يُمْهِلْ أنْ قتلَ شيبةَ، وأما عليٌّ فلم يُمْهِلْ أنْ قتل الوليدَ، واختلفَ عبيدة وعتبة بضربتين بينهما كلاهما أثبتَ صاحبَه، ثم كرَّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافِهمَا على عتبة فقتلاه، واحتملا عُبيدةَ إلى جانبِ النبيِّ ﷺ، فأفرَشَه رَسُولُ الله ﷺ قدمَه الشّريفة فوضع خَدَّهُ عليها، فقال عبيدة: أَلسْتُ شهيداً يا رسولَ الله؟، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَشْهَدُ أَنكَ شَهِيدٌ»، فَتُوُفيَّ عند مرجع المسلمين إلى المدينة.

ثم تزاحم الناسُ، ودنا بعضُهم من بعض، فكان أول من قتل من المسلمين مِهْجَعٌ مولى عمر بن الخطاب، ومن بعده حارثة بن سراقة، وهو الذي جاءَت أمه إلى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَتْ: يا رسول الله حدثني عن ابني حارثة، فإن يكن في الجنة صبرت ولم أبكِ عليه، وإن يَكُن في النّار بكيتُ عليه ما عشتُ في دارِ الدنيا، فقال ﷺ لها: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجَنَّةٍ وَلَكِنَّهَا جَنَّاتٌ، وَإِنَّ حَارِثَةَ أَصَابَ الفِرْدَوسَ الأَعْلَى».

وحينَ رَأى المسلمُونَ القِتَالَ قد نَشَبَ عَجُّوا بالدُّعَاءِ إلى الله تعالى، فأنزل الله تعالى عند ذلك: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما قال: (أَمَدّ الله نبيَّه يومَ بَدْرٍ بألفٍ من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة، وميكائيل في خمسمائة). ثم أمدَّ الله تعالى نَبيَّه ﷺ بثلاثة آلاف من الملائكة، ألف مع جبريل، وألف مع ميكائيل، وألف مع إسرافيل، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، فإن

ذلك كان يوم بدر على ما عليه الأكثر، وقيل كان الإمداد بثلاثة آلاف يوم أحد، ثم وقَعَ الوعد بإكمالهم خمسة آلاف معلقاً على شرط، وهو: التقوى، والصبر، فلم يصبروا، ففاتهم الإمداد بما زاد على الثلاثة آلاف، قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وقال أبو حيّان: "كان المدد يوم بَدْر بألف مِنَ الملائكة، ويوم أُحُدٍ بثلاثة آلاف، ثم بخمسة آلاف لو صبروا عن أخذ الغنائم فلم يصبروا، فلم تنزل". لعدم صبرهم عن أخذ الغنائم وعدم امتثال أمره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

وأما ما كان من أمر إبليس فإنّه بقي يمشي مع المشركين في صُورةِ سُرَاقة بن مالك المُدْلِجي الكِنَاني، وبدأَ القتالُ وكانت يده في يد الحارث بن هشام أخي أبي جهل، فلما أقبل جبريلُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ورآه إبليسُ انتزع يَدَه من يدِ الحارث، ثمّ نَكَصَ على عَقِبيه، ووَلّى هارباً، فقال له الحارثُ: يا سُرَاقَةُ أتزْعُم أنكَ لَنَا جَارٌ؟، فقال له ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فلحقه الحارثُ بنُ هِشَام وتَشَبَّثَ به، وقال له: والله لا أرَى إلّا خَفَافِيشَ يَثْرِب، فضَرَبَهُ إبليسُ في صَدْره، فسقط، فلما رأى أبو جهل ذلك قال: يا معشر الناس، لا يُهِمّنكم خُذْلَانُ سُرَاقة، فإنه كان على مِيعَادٍ مِن مُحمَّدٍ، ولا يُهِمّنكم قتل عتبة وشيبة والوليد فإنهم قَد عَجِلُوا، واللّاتِ والعُزَّى لا نَرجعُ حتّى نَقْرنَ مُحَمَّداً وأصحابَه بالحبال، وصار يقول لهم: لا تقتلوهم خذوهم باليَدِ. ولمّا هَرَبَ مَنْ هَرَبَ من قُرَيشٍ إِلَى مَكَّةَ ووَجَدُوا سُرَاقَةَ بمَكَّةَ، قالوا له: يا سُرَاقة خَرَقْتَ الصَّفَّ، وأَوْقَعْتَ فِينَا الهزِيمَةَ، فقال: والله ما عَلِمْتُ بِشَيءٍ مِن أمْرِكم، وما شَهِدْتُ، ومَا عَلِمْتُ، فما صَدَّقُوه حتّى أَسْلَمُوا



وَسَمِعُوا ما أنزل الله تعالى فيه، فَعَلِمُوا أنّه إبليسُ. ومَا حَصَلت لإبليس ذِلّةٌ كَذِلّته يَومَ بَدْرٍ، ورُوِيَ: أنّه خَافَ أنْ يَخْلُصَ إليهِ القتْلُ يومَ بدْرٍ، فذهبَ حتّى سَقطَ في البحر، ورفع يديه، فقال: يا ربِّ مَوعِدُك الذِي وعدتني، اللَّهُمَّ إنّي أسألُك إنْظَارَك لي.

وإنما كانت الملائكةُ شُركاءَ لهم في بعض الفعل؛ ليكون الفعل منسوباً للنبيِّ ﷺ ولأصحابه، وإلا فجبريل قادرٌ على أن يدفع الكفار بريشة من جناحِه كما فعل بمدائن قوم لوط، وقد أهلك قوم صالح وثمود بصيحة واحدة، وليهابهم العدو بعد ذلك، حيث يعلمون أنّ الملائكةَ تُقاتل معهم. وبهذا يُرَدُّ على من قال: لم تقاتل الملائكة يوم بَدْر، وإنما كانوا يكثرون السَّوادَ، وإلا فملك واحدٌ كافٍ في إهلاك أهل الدُّنيا كلهم، وجاء: لولا أن الله حال بيننا وبين الملائكة التي نزلت يوم بَدْر لمات أهل الأرض خوفاً من شِدّة صَعقات أصواتهم.

وكان رَسُولُ الله ﷺ قد خَفَقَ بِرَأْسِهِ مِنَ النُّعَاس، ثم انتبَهَ، فقالَ: «أَبْشِرْ يَا أبا بكْر، أَتاكَ نصرُ الله، هذا جبريلُ آخِذٌ بعِنَانِ فَرَسِه يَقُودُه، على ثَنَايَاهُ النَّقْعُ، وَهُوَ يقُولُ: أتاكَ نَصْرُ الله إِذْ دَعَوتَه يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ بعثني إلَيكَ، وَأَمَرَني أَن لَا أفارقك حتّى ترْضَى»، ثم خرجَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ العَريش إلى النّاس فحَرَّضَهُم على القِتَال، وقال: «وَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَا يُقَاتِلُهُمْ اليَومَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِراً مُحْتَسِباً، مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ، إلّا أَدْخَلَهُ الله الجَنّةَ»، فقال عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ وَفِي يَدِهِ تَمَرَاتٌ يَأْكُلُهُنّ: بَخْ بَخْ؛ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الجَنّةَ إلّا أَنْ يَقْتُلَنِي هَؤُلَاءِ، ثُمّ قَذَفَ التّمَرَاتِ مِن يَدِهِ، وَأَخَذَ سَيفَهُ، فقَاتَلَ حَتّى قُتِلَ. وروي أنهُ قال: إِنْ حَييتُ حَتّى آكلَ تَمَرَاتي هَذِهِ إنّهَا لَحياةٌ طَويلَةٌ، فنَبَذَهُنّ

وَقَاتَلَ، وهو يقول:

رَكْضاً إِلَى اللهِ بِغَيْرِ زَادِ ... إِلَّا التُّقَى وَعَمَلَ المَعَادِ

وَالصَّبْرَ فِي اللهِ عَلَى الجِهَادِ ... وَخَيرَ مَا قَادَ إِلَى الرَّشَادِ

وجاء عَوْفُ بنُ الْحَارِثِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا يُضْحِكُ الرّبّ مِنْ عَبْدِهِ؟، فقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غَمْسُهُ يَدَهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِراً»، فَنَزَعَ دِرْعًا كَانَتْ عَلَيهِ، فَقَذَفَهَا، ثُمّ أَخَذَ سَيفَهُ فَقَاتَلَ حَتّى قُتِلَ. والضّحِكُ في حقِّ الله كِنَايَةٌ عَنْ غَايَةِ رِضَاهُ. وقاتلَ مَعْبَدُ بْنُ وَهْبٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في ذلك اليوم بسيفين.

ثُمّ أخذَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَفْنَةً مِنَ الحَصْبَاء أو التراب، فاستقبل قُرَيْشًا، ثمَّ قَال: «شَاهَتِ الوُجُوه، اللَّهُمَّ أَرْعِبْ قُلُوبَهم، وزَلْزِلْ أَقْدَامَهُم»، ثم رَمَاهُم بتلك الحَفْنَة، فلمْ يبقَ مِن المشركين رَجُلٌ إلا مُلِأَتْ عَينُه من ذلك التراب والحَصْبَاء، فجعل الرّجُلُ منهم لا يَدْرِي أَينَ يَتَوجّه، ولا كيفَ يُعَالِجُ التّرابَ لِينْزعَه مِن عَينَيه، فَانْهَزَمُوا، وَرَدِفَهُم المسلمون يَقْتلونَ منهم ويَأسرُون. وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

ولما انْهَزَمَ المشْرِكُون تَلَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وهَذِه الآية نَزلت بمَكّةَ وكان ذلك الجمع في يوم بَدْر. وكان عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إذا تَلَاهَا يقول: أيُّ جَمْع؟!، فلما كان يوم بَدْر وانهزَمَت قُريشٌ، ونظرَ إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آثارهم يتلو

هذه الآية عَلِمَ أنها كانت لِيوم بَدْرٍ.

وقال رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيْلاً فَلَهُ سَلَبُهُ، وَمَنْ أَسَرَ أَسِيراً فَهُوَ لَهُ»، فَوضَع المسلمون أيديَهُم يَأسِرُون، ونظرَ رَسُولُ الله ﷺ إلى سَعْدٍ فوَجَد في وَجهه الكَرَاهِيَةَ لما يصنعُ القومُ، فقال له ﷺ: «لَكَأَنَّكَ يَا سَعْدُ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ القَومُ»، قال: أَجَلْ يَا رَسولَ الله، كانت أول وقعة أوقعها الله تعالى بأهل الشرك، فكَان الإِثْخَانُ في القتل أَحَبّ إليّ مِن اسْتِبْقَاء الرِّجَال.

وكان النَّبِيُّ ﷺ قد قال لأصحابِه: «إِنَّ رِجَالاً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كُرْهاً، لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَداً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ أَبَا البَخْتَرِيّ بْنَ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبّاسَ بْنَ عَبْدِ المُطّلِبِ، فَلَا يَقْتُلْهُ فَإِنّهُ إِنّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهاً»، فقال أبو حُذَيْفَة بنُ عُتْبة رضي الله عنه: أَنَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَتَنَا وَعَشِيرَتَنَا وَنَتْرُكُ الْعَبّاسَ؟، وَالله لَئِنْ لَقِيتُهُ لَأُلْجِمَنّهُ السّيْفَ. وذلك لأنّ أباه عُتْبَة وعمَّه شيبة وأخاه الوليد أوّل من قُتِلَ من الكفّار بالمبارَزَة، فبلغت تلك المقالةُ رَسُولَ الله ﷺ، فقال لِعُمَرَ بنِ الخَطّابِ: «يَا أَبَا حَفْصٍ، أَيُضْرَبُ وَجْهُ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالسّيْفِ»؟، فقال عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله دَعْنِي فَلْأَضْرِبْ عُنُقَهُ بِالسّيْفِ فَوَالله لَقَدْ نَافَقَ. فكان أبو حذيفة يقول: مَا أَنَا بِآمِنٍ مِنْ تِلْكَ الكَلِمَةِ الّتِي قُلْتُها يَوْمَئِذٍ، وَلَا أَزَالُ مِنْهَا خَائِفاً، إلّا أَنْ تُكَفِّرَهَا عَنّي الشّهَادَةُ. فَقُتِل يومَ اليمامة شهيداً في جُمْلَةِ مَن قُتِلَ فيها من الصحابة.

ولقيَ المُجَذّرُ بْنُ زِيَادٍ الْبَلَوِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أَبَا البَخْتَرِيِّ، فقال له: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قد نهانا عن قتلِك، فقال: وزَمِيْلِي؟، وكان معه جُنَادَةُ

بنُ مُلَيْحَةَ، فقال له المُجَذّرُ: لا والله ما نحنُ بتارِكي زَمِيلَك، ما أمرنا رَسُولُ الله ﷺ إلا بك وحْدَكَ، فقال له: لا والله إذًا، لأَمُوتَنَّ أنا وَهُوَ، لا تَتَحَدَّثُ عنّي نِساءُ مَكَّةَ أني تركتُ زميلي، فأتى المُجَذّرُ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فقال: والذي بَعَثَكَ بالحقّ لقد جَهدتُ عليه أنْ يَسْتَأْسِرَ فآتيك به، فأبى إلّا أَنْ يُقَاتِلَني، فقَتَلْتُه.

وكان من جُمْلَةِ من خرج مع المشركين يوم بَدْر عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، وكان اسمُه قبل الإسلام عبد الكعبة، فسمّاه رَسُولُ الله ﷺ عبدَ الرحمن، وكان أسَنَّ ولدِ أبيه، ومن أشجع قريش وأشدّهم رمايةً، فلمَّا أسلمَ قال لأبيه: لقد أَهْدَفْتَ لِي يومَ بَدْرٍ مِراراً فَصَدَفْتُ عنك، فقال أبو بكر: لَو هَدَفْتَ لِي لمْ أَصْدِفْ عَنْك. وقتلَ أبو عبيدة بنُ الجرَّاح أباهُ وكانَ مُشركاً، فإنّ أباه قصَده ليَقْتُلَه، فولّى عنه أبو عبيدة لينكفَّ عنه، فلم ينكفَّ عنه، فرجع إليه وقتله وأنزل الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

وعن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: لَقِيتُ أميّةَ بنَ خَلف وكانَ صديقاً لي في الجاهلية، ومعه ابنُه عَليٌّ، وكانَ معي أدْرَاعٌ اسْتَلَبْتُها، فقال: هَلْ لَكَ فِيَّ؟، فَأنَا خيرٌ لك من هذه الأَدْرَاع، قلت: نعم، فطرحت الأَدْرَاع مِن يَدي وأخذت بيده وبيدِ ابنه عَليّ، وهو يقول: ما رأيت كَاليَومِ قَطّ، ثم قال لي: مَن الرَّجُل منكم المُعَلّم بريشة النَّعَامَة في صَدرِه؟، فقلت: ذاك حمْزَةُ بنُ عبْدِ المطّلب. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفَاعيل. ثم خرجت أمشي بهما، فرَآه بلالٌ مَعي، فقال: رَأسُ الكُفْرِ أُمَيَّةُ بنُ خَلَف، لا نَجوتُ إنْ نَجا. فقلتُ: يا بِلَال،

أَتَفْعَلُ ذلك بِأَسِيرَيّ؟، فصَرخَ بِأعْلَى صوته: يا أنصار الله، رَأسُ الكُفْرِ أُمَيَّةُ بنُ خَلَف، لا نَجَوتُ إنْ نَجَا. وكرر ذلك، فأحَاطُوا بنا، وأَصْلَتَ رَجُلٌ السَّيفَ، فَضَرَب رِجْلَ ابنِ أُمَيَّة فوقع، وصَاح أُمَيَّةُ صيحةً ما سَمِعتُ مثلها قطّ، فضربُوهمَا بأسيافِهم فهَبَرُوهما.

فكان عبدُ الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يقول: يَرْحَمُ الله بِلَالاً، ذَهَبَتْ أَدْرَاعِي، وفَجَعَنِي بِأَسِيرَيّ. وعليُّ بنُ أمية هذا كان ممّن أسلموا والنَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمَكَّةَ قبل أن يُهاجر، ففتنهم أقاربهم عن الإسلام، فرجعوا عنه، وماتوا على كفرهم، وهم: الحارث بن ربيعة، وأبو قيس بن الفاكه، وأبو قيس بن الوليد، والعاص بن منبّه، فلما هاجر رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة حبستهم عشريتُهم بمَكَّةَ، وفتنوهم فارْتَدّوا، وساروا إلى بَدْر، فأصيبُوا جميعاً، ونَزلَ فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

وَقَاتَلَ عُكّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيّ بِسَيْفِهِ حَتّى انْقَطَعَ فِي يَدِهِ، فَأَتَى رَسُولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُ جِذْلاً مِنْ حَطَبٍ، فَقَالَ: «قَاتِلْ بِهَذَا يَا عُكّاشَةُ»، فَلَمّا أَخَذَهُ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَزّهُ فَعَادَ فِي يَدِهِ سَيْفاً طَوِيلَ الْقَامَةِ شَدِيدَ المَتْنِ أَبْيَضَ الْحَدِيدَةِ فَقَاتَلَ بِهِ حَتّى فَتَحَ الله تَعَالَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ السّيْفُ يُسَمّى: (العَوْنَ). ثُمّ لَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يَشْهَدُ بِهِ المَشَاهِدَ حَتّى قُتِلَ فِي حُرُوبِ الرِّدّةِ وَهُوَ عِنْدَهُ قَتَلَهُ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الأَسَدِيّ.

وقاتلَ الزّبيرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يومَئذٍ قِتَالاً شَدِيداً، وجُرِحَ جِرَاحَةً بالغَةً، حتّى كان الرّجلُ

يدخل يده في الجِرَاح في ظهره وعَاتقه. وانكسرَ سَيفُ سَلَمَةَ بنِ أَسْلَم رضي الله عنه فَأَعْطَاهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قَضِيباً كانَ في يَدِهِ، وقال: «اِضْرِبْ بِهِ»، فَإِذَا هُوَ سَيْفٌ جَيِّدٌ فَلَمْ يَزَلْ عِندَه. وعن رِفَاعَةَ بنِ مَالكٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه قال: (لما كَانَ يومُ بَدْرٍ رُمِيتُ بِسَهمٍ فَفُقِئَتْ عَينِي، فبَصَقَ عَليها رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ودَعَا لي، فَمَا آذاني مِنهَا شَيءٌ).

وكان شعار المسلمين يَومَئِذٍ: "يا مَنْصُورُ أَمِتْ". وكانت علامة الأنصار التي يتعارفون بها إذا جاءَ الليلُ، أو وقعَ اختلاطٌ: "أَحَدٌ أَحَدٌ"، وعلامة المهاجرين: "يا بني عبد الرحمن". وكان على الملائكة يوم بَدْرٍ عمائمُ بيض قد أرسلوها إلى ظهورهم، إلا جبريل فإنه كان عليه عمامة صفراء، وكان بعضُهم بعمائم خضر، وبعضُهم بعمائم سود، وكانت خَيْلُهم بُلْقاً. وعن ابنِ عَبّاس رضي الله عنهما، قال: حَدَّثني رَجُلٌ مِن بني غِفَار، قال: أَقبلْتُ أنا وابنُ عمٍّ لي، حَتّى صَعَدْنا في جَبلٍ يُشْرِفُ بنا على بَدْرٍ، ونَحْنُ مُشْرِكَان يومَئذٍ، نَنْتَظِرُ الوَقْعَةَ عَلى مَنْ تكُونُ الدّبْرَةُ فَنَنْتَهِبُ مَعَ مَنْ يَنْتَهِبُ، فَبَيْنَا نَحْنُ فِي الْجَبَلِ، إِذْ دَنَتْ مِنّا سَحَابَةٌ، فَسَمِعْنَا فِيهَا حَمْحَمَةَ الخَيْلِ، فَسَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَأَمّا ابْنُ عَمّي فَانْكَشَفَ قِنَاعُ قَلْبِهِ فَمَاتَ مَكَانَهُ، وَأَمّا أَنَا فَكِدْتُ أَهْلِكَ، ثُمَّ تَمَاسَكْتُ. ثمَّ إنّي أخبرْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، وأسْلمت. و(حَيْزُومُ): اسم فَرَسِ جبريل عليه السلام.

وكان أبو جهل قد اسْتَفْتَحَ لما دَنَا القَومُ بعضُهُم مِن بَعضٍ فقال: اللَّهُمَّ أَقْطَعَنَا لِلرّحِمِ، وأتانا بِمَا لَا يُعْرَفُ فَأَحِنْهُ الغَدَاةَ - أي أَهْلِكْهُ الغَدَاة -، اللَّهُمَّ مَن كانَ أحبّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى عِنْدَكَ، فانْصُرْهُ اليوم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ

جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ١٩]، وذَكَرَ الوَاحِديّ في "أسباب النزول": أن المشركين حينَ أرادوا الخروجَ من مَكَّةَ إلى رَسُولِ الله ﷺ أخذُوا بأستارِ الكَعْبَةِ، وقالوا: اللَّهُمَّ انصُرْ أَعْلَى الجُنْدَين، وأَهْدَى الفِئَتَين، وأَكْرَمَ الحِزْبَين، وأَفْضَلَ الدِّينَين. فأنزل الله تعالى هذه الآية.

فكَانَ أبو جَهْلٍ باسْتِفْتَاحِه هَذا كَمَن حَكَمَ عَلى نَفْسِه، فقتَلَهُ الله تعالى شَرَّ قَتْلَه، وكان من خَبَرِ مقتله ما رُوِيَ عن مُعَاذِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ رَضِيَ اللهُ تَعَالى عَنْهُ قال: رأيتُ أبَا جَهْل وقَدْ أحَاطَ به قومه، وسَمِعْتُ الْقَوْمَ يَقُولُونَ: أبو الحَكَمِ لَا يُخْلَصُ إلَيْهِ. فَلَمّا سَمِعْتُ ذلكَ جَعَلْتُهُ مِنْ شَأْنِي، وَعَمَدْتُ نَحْوَهُ، فَلَمّا أَمْكَنَنِي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَضَرَبْته ضَرْبَةً أَطَنَّتْ قَدَمَهُ بِنِصْفِ سَاقِهِ، فَوَالله مَا شَبّهْتهَا حِينَ طَاحَتْ إلّا بِالنّوَاةِ تطِيحُ مِنْ تَحْتِ مِرْضَخَةِ النّوَى حِينَ يُضْرَبُ بِهَا، وَضَرَبَنِي ابْنُهُ عِكْرِمَةُ عَلَى عَاتِقِي، فطَرَح يَدِي، فَتعَلّقَتْ بِجَلْدَةٍ مِنْ جَنْبِي، وَأَجْهَضَنِي الْقِتَالُ وشَغَلَنِي عَنْهُ، فَلَقَدْ قَاتَلْتُ عَامّةَ يَوْمِي، وَإِنّي لَأَسْحَبُهَا خَلْفِي، فَلَمّا آذَتْنِي وَضَعْتُ عَلَيْهَا قَدَمِي، ثُمّ تَمَطّيْتُ بِقَدَمِي عَلَيْهَا حَتّى طَرَحْتُهَا. وقد رُوِيَ: أنه جاءَ بيدِه إلى رَسُولِ الله ﷺ فبَصَقَ عليهَا، ولصَقَهَا في مَكَانِهَا، فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ. ثُمّ مَرّ مُعَوّذٌ بِأَبِي جَهْلٍ وَهُوَ عَقِيرٌ، فَضَرَبَهُ حَتّى أَثْبَتَهُ، ثمَّ تَرَكَهُ وَبِهِ رَمَقٌ، وَقَاتَلَ مُعَوّذٌ حَتّى قُتِلَ.

وعن عبد الرحمن بن عوف قال: إني لوَاقِفٌ يوم بَدْرٍ في الصّفِّ، نظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بين غُلَامَين مِنَ الأنصار حديثة أَسنانهما،

فغمَزَني أحدُهما، فقال، يا عم هل تعرف أبا جهل؟، قلتُ: نعم، وما حَاجتُك به؟، فقال: بلغني أنه كان يَسُبّ رَسُولَ الله ﷺ، والذي نفسي بيدِه لو رأيته لمْ يُفَارِقْ سَوَادِي سَوَادَه حتّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ مِنّا، ثُمّ غمزَني الآخرُ، فقَال مِثْلَ الأوَّل، فعَجِبتُ لِحرصِ كُلٍّ مِنهُما على ذَلك، وإِخْفَائِه عَن صَاحِبه لِيكُونَ المُخْتَصّ به، فلمْ ألبَث أنْ نَظرْتُ إلى أَبي جَهل يَتحَوَّل مِن مَحلٍّ إِلى مَحَلّ، فقلتُ لهما: ألَا ترَيان؟، هَذا صَاحِبُكما الذِي تَسْأَلَانِ عنه، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيهِما، فَضَرَباه حَتّى أَشْرَفَا بهِ على القتل، فَصَيَّرَاهُ إلى حَرَكَةِ مَذْبُوح، ثُمّ انْصَرَفا إِلى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَاهُ، فقالَ: «أَيُّكُمَا قَتَلَهُ»؟، فقالَ كلُّ وَاحدٍ منهما: أنَا قَتَلْتُهُ، قال: «هَلْ مَسَحْتُما سَيْفَيْكُما»؟ قالَا: لَا، فنظرَ رَسُولُ الله ﷺ فِي السَّيْفَين، فَقَال: «كِلَاكُمَا قَتَلَهُ».

ثم أمر رَسُول الله ﷺ أنْ يُلْتَمَسَ أبو جَهْل في القَتْلَى، وقالَ: «إِنْ خَفِيَ عَلَيكُمْ، فَانْظُرُوا إِلَى أَثَرِ جُرْحٍ فِي رُكْبَتِهِ، فَإِنِّي ازْدَحَمْتُ يوماً أَنَا وَهُوَ عَلَى مَائِدَةٍ لعَبدِ الله بن جُدْعَان ونَحْنُ غُلَامَان، وكُنْتُ أَسَنَّ مِنْهُ بِيَسِير، فَدَفَعْتُه فَوَقَعَ عَلَى ركبتَيهِ فَجُحِشَ جحْشاً لَمْ يَزَلْ أَثَرُهُ بِهِ»، فقام عَبْدُ الله بنُ مَسْعُودٍ يبحثُ عَنه، قَالَ ابنُ مَسْعُودٍ: فَوَجَدْته بِآخِرِ رَمَقٍ، فَعرَفْتُهُ فَوَضَعْتُ رِجْلِي عَلَى عُنُقِهِ، فقَالَ لِي: لَقَدْ ارْتَقَيْتَ مُرْتَقًى صَعْباً يَا رُوَيْعِي الْغَنَم، فقُلْت لَهُ: هَلْ أَخْزَاك الله يَا عَدُوّ الله؟، فقَالَ: وَبِمَاذَا أَخْزَانِي؟، أَعَارٌ عَلَى رَجُلٍ قَتَلْتُمُوهُ؟، أَخْبِرْنِي لِمَنْ الدَّائِرَةُ الْيَوْمَ؟، قُلْت: لله وَلِرَسُولِهِ، ثُمَّ ضَرَبتُه بِسَيفِي فلم يُغْنِ شَيئاً، فقال: خُذْ سَيفِي فَاحْتَزّ به رَأسِي مِن أَصْلِ الرَّقَبَةِ، لِيَكُونَ أَنهَى للرَّقبة، فاحْتَزَزْتُ رَأْسَهُ وجِئْتُ بِهِ رَسُولَ الله ﷺ، فَقُلْت: يَا رَسُولَ الله هَذَا رَأْسُ عَدُوّ الله أَبِي جَهْلٍ، فَقَال

رَسُولُ الله ﷺ: «آلله الّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ»؟، قُلْت: نَعَمْ وَالله الّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ. فقال النبيُّ ﷺ: «الله أَكْبَر، الحمْدُ لله الذِي صَدَقَ وَعْدَهُ، ونَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ».

وَرُوِيَ أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الحمْدُ لله الذِي أَعَزَّ الإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ»، ثلاث مرات، وخرَّ سَاجِدًا شُكْرًا لله تعالى، وقَال ﷺ: «هَذَا كَانَ فِرعُونَ هَذِه الأُمّة، وَرَأْسَ قَاعِدَةِ الكُفْرِ»، وعن قتادة رضي الله عنه أنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «إنَّ لِكُلّ أُمّةٍ فِرْعَوناً، وَإِنَّ فِرْعَونَ هَذِه الأُمّة أَبو جَهْل، قَتَلَهُ الله شَرَّ قتْلَة». وقضى رَسُولُ الله ﷺ بِسَلَبِه مَا عَدَا سيفه لمعاذ ومعوذ ابني عمرو بن الجموح، وقيل لمعاذ فقط؛ لأن معوذ اسْتُشْهِدَ في المعركة، وأمّا سَيفُهُ فنَفَلَه لعبد الله بن مسعود.

وقد كان ابنُ مسعودٍ لما وقفَ على جسدِ أبي جهل نظر إليه، فرأى أَوْرَاماً في عنقه ويديه وكتفيه كآثار السياط، ورأى آثاراً سَوْدَاءَ كَوَسْمِ النّار، فأخبرَ النَّبيَّ ﷺ بذلك، فقال: «ذَاكَ ضَرْبُ الملَائِكَةِ»، وقد جاء أنّ الملائكةَ عليهم السّلام كانوا لا يعلمون كيفية قتل الآدميين، فعلمهم الله تعالى ذلكَ بقولِه سبحانه: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فكان المسلمُونَ يعرفون قتلى الملائكة من قتلاهم بآثارِ سَوداء كسِمَةِ النار. وَرُوِيَ عن سهل بن حنيف عن أبيه رضي الله عنه قال: "لقد رَأيتنا يوم بَدْرٍ وإنّ أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف". ويمكن الجمع بين هذا وما قبله بأنّ ضرب الملائكة في الأعناق تارة يفصلها وتارة لا يفصلها، وفي الحالتين يُرى أَثَرُ ذلك سَوَاداً في العُنق ونحوه؛ لِيُسْتَدَلَّ بهِ على أنهُ مِنْ فِعْلِ الملَائِكَة.

ثم أمرَ رَسُولُ الله ﷺ بالقتلى من المشركين أن ينقلوا من مصارعهم، وأن يُطرحُوا في القَلِيْبِ، فطرحوا فيه جميعاً إلا أُمَيَّةَ بن خلف فإنه انتفخَ في درعه فملأه، فذهبوا ليحركوه فتقطّعَتْ أَوْصَالُه، فَأَقَرُّوهُ في مكانه وألقوا عليه مِن التّراب والحجارة مَا غَيَّبَهُ. وقد كان من سُنّته ﷺ في مغازيه إذا مرَّ بجيفَةِ إنسانٍ أمرَ بدفنِه لا يَسْأَلُ عنه مُؤمناً كَانَ أو كَافِراً، وفي بدْرٍ كَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَشُقَّ عَلَى أَصْحَابه، بأنْ يأمُرَهُم بِدَفْنِهم لِكَثرةِ جِيَفِ الكُفّار، فكَانَ جَرُّهم إلى القَلِيبِ أَيْسَر، ولمّا أُلْقِيَ عُتبةُ في القَليب تَغيّر وجهُ ولدِه أَبي حُذيفةَ رضي الله عنه، فَفَطِنَ رَسُولُ الله ﷺ بذلك، فقال له: «يَا أَبَا حُذَيْفَةَ، لَعَلَّك قَدْ دَخَلَك مِنْ شَأْنِ أَبِيك شَيْءٌ»؟، فَقَالَ: لَا، يَا رَسُولَ الله، وَالله مَا شَكَكْتُ فِي أَبِي وَلَا فِي مَصْرَعِهِ، ولكِنّي كُنْتُ أَعْرِفُ مَنْه رَأْياً وَحِلْماً وَفَضْلاً، فَكُنْت أَرْجُو أَنْ يَهْدِيَهُ ذَلِكَ للإِسْلَامِ، فَلَمّا رَأَيْتُ مَا أَصَابَهُ، ومَا مَاتَ عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ، أَحْزَنَنِي ذَلِكَ.

ثم جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ حتّى وقفَ عَلى شفيرِ القَليب، بعد ثلاثة أيام من إلقائهم فيه، وجعل يقول: «يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ـ وعَدّ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي الْقَلِيبِ ـ، هَلْ وَجَدْتُم مَا وَعَدَ رَبّكُمْ حَقّا، فَإِنّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبّي حَقّا؟، يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ بِئْسَ العَشِيرَةُ كُنْتُمْ لِنَبِيّكُمْ، كَذّبْتُمُونِي وَصَدّقَنِي النّاسُ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النّاسُ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النّاسُ»، فَقَالَ عَمَرُ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ الله أَتُنَادِي قَوْمًا قَدْ جَيّفُوا؟، وفي روايةٍ أنه قال: يَا رَسُولَ الله، كَيفَ تُكَلّمُ أَجْسَاداً لَا أَرْوَاح فيها؟، فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ له: «مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُونِي». وفي

روايةٍ أنه قال له: «لَقَدْ سَمِعُوا مَا قُلتُ غَيرَ أَنَّهُم لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرُدُّوا شَيئاً».

ثم إن رَسُولَ الله ﷺ بعثَ عبدَ الله بنَ رَوَاحَة رضي الله عنه بشيراً لأهل العَالِيَة، وهو محلٌّ قريبٌ من المدينة على عدّة أميال، وبعثَ زيدَ بنَ حارثة رضي الله عنه بَشِيراً لِأَهْلِ السَّافِلَةِ، بِمَا فَتَحَ الله عَلى رَسُولِهِ ﷺ وعَلَى المسْلِمين، وأعْطَاهُ ناقَتَه القَصْوَى، فجعل عبد الله بن رواحة ينادي في أهل العالية: يا مَعْشَرَ الأنصار، أبشروا بِسَلامة رَسُولِ الله ﷺ، وبقَتْلِ المشركين وأسرهم، ثم نادى زيدُ بن حارثة في أهل السّافلة بمثلِ ذلك، وجعَلَ يقولان: قُتِلَ فُلان وفُلان، وأُسِرَ فُلَان وفلان، وذكرا عدداً من أشرَافِ قريش، وصارَ عَدُوُّ الله كعبُ بنُ الأشْرَف يُكَذِّبُهما، ويقول: إنْ كَانَ محمَّدٌ قتَلَ هَؤلاءِ القَوم فَبَطْنُ الأَرْض خَيرٌ مِن ظَهْرِها. وجعلَ رِجَالٌ مِن المنافقين في المدينة يُرْجِفُون ويقولون لمن بها من المسلمين: قد تَفَرَّقَ أصحَابُكُم تَفَرُّقاً لَا يَجْتَمِعُونَ بعده أبداً، وقد قُتل محمدٌ وغالبُ أصحابِه، وهَذِه ناقتُه عليها زيدُ بنُ حارثة لا يدري ما يقول مِن الرُّعْب!.

ثم أقبلَ رَسُولُ الله ﷺ رَاجِعاً إلى المدينة، فلما خَرَج مِنْ مَضِيقِ الصّفرَاء قسّم الغنيمة، وكانت مائةً وخمسين من الإبل، وعشرةَ أفْرَاس، ومتاعاً، وسِلاحاً، وأَنْطَاعاً، وثياباً وأُدُماً كثيرةً حملها المشركون للتّجَارة، وكان هذا سوى ما أُخِذَ من السَّلَبِ والأسرى، لأنّ رَسُولَ الله ﷺ كان قد نَادَى: «مَنْ قَتَلَ قَتِيْلاً فَلَهُ سَلَبُهُ، وَمَنْ أَسَرَ أَسِيراً فَهُوَ لَهُ» كما تقدم، فالمقسومُ ما بَقِيَ بعد إخراج السّلب وإخراج الأسرى، فَقُسِمَ عَلى المسلمين بالسَّوِيَّةِ، وكان ذلك بعد أنْ وقَعَ الاختلاف فيه، فَادَّعى مَن قاتلَ العدوَّ وصَدَّه أَنّهم أَحَقُّ به، وادَّعى مَنْ جَمَعَهُ

أَنّهم أَحَقُّ بِه، وَادَّعَى مَن كَانَ يَحْرُسُ رَسُولَ الله ﷺ في العريشِ أنّهم أَحَقُّ به، فأنزلَ الله تعالى في ذلك صدرَ سُورةَ الأنفال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، فجعله لرَسُولِ الله ﷺ يضعه حيث شاء، ثم نسخت هذه الآية بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]. فكان الأربعةُ الأخماس للمقاتلة، والخمس الباقي يخمس خمسة أخماس: واحد للنبيِّ ﷺ يفعل فيه ما أحب، والأربعة من ذلك الخمس لمن ذكروا في الآية.

وأمر ﷺ عليّاً كرّم الله وجهه فقتَل النّضرَ بنَ الحارث بمَضِيقِ الصّفرَاء، وكان النبيُّ ﷺ نظرَ إليه وهو أَسِيرٌ، فقال النّضرُ للذي يسير بجانبه: محمّدٌ والله قاتلي، فإنه نظر إلي بعينين فيهما الموت، فقال له: والله ما هذا منك إلا رُعْبٌ. ثم قال النّضرُ لمُصْعَب بن عُمير: أنتَ أقربُ إليَّ رَحِمًا فكَلّم صَاحِبَك أنْ يجعلني من المأسورين، هوَ والله قاتلي، فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا، وتقول في نبيِّه ﷺ كذا وكذا، وكنتَ تُعذّب أصَحَابه. ورَثَتِ النّضرَ أختُه، وقيل: بنته[1]، فَقَالَتْ:

أَمُحَمّدٌ يَا خَيْرَ ضَـنْءٍ كَرِيمَةٍ	فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرَقُ
مَا كَانَ ضَـرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا	مَنَّ الفَتَى وَهُوَ المَغِيظُ المُحْنَقُ

(١) الراجح أنها أخته، وكان اسمها قتيلة بنت الحارث، كما ذكره ابنُ إسْحَاقَ، وكان مما قالته أيضاً:

أَوْ كُنْـتَ قَـابِـلَ فِـدْيَـةٍ فَلْيُنْفَقَنْ	بِـأَعَزِّ مَـا يَغْـلُـو بِـهِ مَـا يُنْفِـقُ
فَالنَّـضْرُ أَقْرَبُ مَـنْ أَسَـرَتَ قَرَابَـةً	وَأَحَقُّـهُـمْ إِنْ كَـانَ عِتْـقٌ يُـعْـتَـقُ

ولما بلغَ رَسُولَ الله ﷺ شِعْرُها بَكَى، وقال: «لَوْ بَلَغَنِي هَذَا قَبْلَ قَتْلِهِ لَمَنَنْتُ عَلَيْه»، أي لمننت عليه لقبول شفاعتها عندي بهذا الشعر، وليس معناه الندم على فعله، لأنه ﷺ لا يفعل إلا حقاً.

ثم قتل ﷺ عقبةَ بنَ أبي مُعَيط عند عِرْق الظُّبْيَة وهي شَجَرَةٌ يُسْتَظَلُّ بها، ولما قُدِّمَ لِلقَتْلِ نَادَى: يَا مَعْشَرَ قُرَيش مَا لي أُقْتَلُ مِن بينِكُم صَبْراً وأَنَا وَاحِدٌ مِنْكُم؟، فقال: النَّبِيّ ﷺ: «بِكُفْرِكَ، وَفُجُورِكَ، وَافْتِرَائِكَ، وَعُتُوِّكَ عَلى الله ورَسُولِه»، فقال: يا محمَّد، نَاشَدتكَ اللهَ والرَّحِم، فقال له رَسُول الله ﷺ: «هَلْ أَنتَ إِلّا يَهُودِيٌّ مِنْ أَهْلِ صَفُورِيَّة»، أَيْ لَا رِحمَ بيني وبينك. وذلك لأنَّ أميّةَ جدَّ أبيه خرجَ إلى الشام لما نَافَرَ عمَّه هاشم كما تقدم، فأقام بصَفُورِيَّة، ووقع عَلى أَمَةٍ يَهودِيّة، ولها زوجٌ يهودي، فوَلَدَتْ وَالِدَ أبي مُعَيط عَلى فِرَاش اليهودي، فاسْتَلْحَقَهُ أميّةُ بحكم الجاهليّة، ثم قَدِمَ بِهِ مَكَّةَ وكنّاه بأبي عَمرو وسماه ذَكْوَان معَ أَنَّ الوَلَدَ لِلْفِرَاش. وقيل: كان عَبْداً لأميّة فَتَبَنَّاهُ.

وقد كان عُقْبَةُ يكثرُ من مجالَسَةِ النبيِّ ﷺ، واتّخَذَ ضِيَافَةً فدعا إليها رَسُولَ الله ﷺ فأبى النبيُّ ﷺ أَنْ يأكلَ مِن طعامِه حتّى ينطقَ بالشهادتين، ففعلَ، وكانَ أُبيُّ بنُ خَلَف صَديقَه، فعَاتَبَه، وقال له: صَبَأْتَ يا عُقْبَةُ، فقال: لا، ولَكِنْ أَبى أَنْ يَأْكُلَ مِن طَعَامِي وهوَ في بيتي فَاسْتَحْيَيتُ منه، فشَهِدْتُ له الشَّهادَةَ وليسَتْ فِي نَفْسِي، فقال: وجهي من وجهك حرَامٌ إنْ لم تلقى مُحَمَّداً فتطأ قفَاهُ وتَبْزُقَ فِي وَجْهِهِ وَتَلْطِمَ عَينَه، فلَقِيَ النبيَّ ﷺ فَبَزَقَ فِي وَجْهِهِ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «لَا أَلْقَاكَ خَارِجَ مَكَّةَ إلّا عَلَوتُ رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ». والقاتلُ لِعُقْبة عاصمُ بن ثابت.

ثُمَّ سارَ رَسُولُ الله ﷺ حتّى قدمَ المدينةَ قبلَ الأَسَارَى بِيَوم، فاستقبلَتْه امرأةٌ يَهودِيّة على رَأسِها جَفْنَةٌ فيها جِدْيٌ مَشْوِي، فَقَالَتْ: الحمدُ لله الذِي سَلَّمَكَ يا مُحمَّد، كنتُ نَذَرْتُ لله إِنْ قَدِمْتَ المدِينَةَ سَالِماً لأَذْبَحَنَّ هٰذَا الجِدْيَ، ولأَشْوِيَنَّه، ولأَحمِلَنَّهُ إليكَ لِتأكلَ منه، فأَنطقَ الله الجدْيَ فقال: يَا مُحمَّدُ لَا تَأْكُلْنِي فَإِنّي مَسْمُومٌ. وخرجَ المسلمونَ للقَائِهِ وتَهْنِئَتِه بما فَتحَ الله عَلَيه، فتَلَاقوا مَعَهُ بالرَّوْحَاءِ، وتَلَقَّتْهُ الجَواري بالدّفوف، يقلن:

طَلَعَ البَـدْرُ عَلَيْنَـا مِنْ ثَنِيَّـاتِ الوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّـكْرُ عَلَيْنَا مَـا دَعَـا لله دَاعْ

وتَلَقَّاهُ أسيدُ بنُ الحُضَير، فقال: الحمد لله الذي أظْفَرَكَ وَأقرَّ عينَك، فقال لهم سَلَمَةُ بنُ سُلَامَة بنِ وَقْش: ما الذي تُهنّونا به؟!، فوَ الله إِنْ لَقِينا إِلّا عَجَائِزَ صُلْعاً كَالبُدْنِ المعْقُولَة، فنَحَرْنَاها. فتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، وقال: «أُوْلَئِكَ المَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ».

وكانَ أوّلَ مَن قَدِمَ مَكَّةَ بمُصَاب قريشٍ ابنُ عَبْدِ عَمْرو[1]، فقال: قُتِلَ عُتْبةُ وشَيْبةُ وقُتِلَ أبو الحكم، وأُمَيَّة، وفُلانٌ وفلانٌ.. وعدَّدَ الذين قُتِلُوا من أشرافِ قريش، وأُسِرَ فُلَانٌ وفُلَانٌ. فقال صَفْوَانُ بنُ أمية: والله مَا يَعْقِلُ هٰذَا، فَسَلُوهُ عَنّي، فَسَأَلُوهُ، وقالوا له: ما فعل صَفْوان؟، قال: هو ذاك الجالسُ في الحِجْرِ، وقَدْ رَأَيتُ أَبَاهُ وأَخاه حِينَ قُتِلَا.

وقال أَبو رَافِع مَولى النبيِّ ﷺ: كُنْتُ غُلاماً للعَبَّاس بن عبدِ المطلب،

(١) واسمه: الحَيْسُمَانُ بنُ عبدِ الله الخُزَاعِي، وقد أسلم بعد ذلك، وحسُنَ إسلامُه.

وقد كان أسلمَ، وأسلمت زوجته أمّ الفضل، وأسلمت أنا، وكنّا نكتمُ الإسلامَ؛ لأنّ العباسَ كان يكرَهُ خِلافَ قومِهِ، لأنه كانَ ذَا مالٍ كثير، ومالُه متفرِّقٌ فيهم، فلما جاءَ الخبرُ عن مُصَاب قريش ببَدْرٍ سَرَّنَا ذَلِكَ، فوَ الله إني لَجالِسٌ إذْ أقبل أبو لهب يجرُّ رِجْليه بِشَرٍّ حتّى جَلَسَ عندنا، فبينا هو جالسٌ إذ قدم أبو سُفْيَانَ بن الحارث وكانَ مع قريش في بَدْرٍ، فقال له أبو لهب: هَلُمَّ إليَّ فعندك الخبرُ، فقال: والله مَا هوَ إلّا أَنْ لَقِينَا القَومَ فَمَنَحْنَاهُم أَكْتَافنَا يَقْتُلونَنَا كَيفَ شَاؤوا، ويَأسِرُونَنا كَيفَ شَاؤُوا، وَوَالله مَا لمتُ النّاسَ، فلقد لَقِينَا رِجَالاً على خَيلٍ بُلْق، بينَ السّماء والأرض، والله ما يقوم لهُم شَيءٌ. فقلتُ: تلكَ والله الملائكة، فرَفَعَ أَبو لهبٍ يَدَهُ فَضَربَ بها وجْهِي ضَرْبةً شَدِيدةً، فوَثَبْتُ، فَاحْتَمَلَني وَضَرَبَ بي الأَرْضَ، ثُمّ بَرَك عَليَّ يضربني، فقامَت أمُّ الفَضْل إلى عمُودٍ وضربَتْهُ به ضربةً أَحْدَثَتْ في رأسه شَجَّةً مُنكرَة، وقالت: اسْتَضْعَفْتَه أَنْ غَابَ سَيِّدُه، تعني العبّاسَ، فقَامَ مُوَلّياً ذَلِيلاً، فوَ الله مَا عَاشَ إلّا سبعَ ليالٍ حَتّى رُمِيَ بداءِ العَدَسَةِ[1]، فَقَتَلَتْهُ، فَلَمْ يَحفِرُوا له حُفْرَةً، ولكِنْ أَسْنَدُوه إلى الحَائِطِ وقَذَفُوا عليه الحجارة خلفَ الحائِط حتّى وَارُوه. وكان قد بقيَ بعد موته ثلاثة أيام لا تُقْرَبُ جنازتُه ولا يُحَاول دفنه حتى أنتن، وتباعد عنه بَنُوه، فلما خافوا سَبَّ النّاسِ لهم في تَرْكِه فعَلوا بِهِ مَا ذُكِرَ.

ولما ظهرَ الخبرُ ناحَتْ قُريشٌ على قتلاهم شهراً، وجزَّتِ النّساءُ شعورَهُنّ،

(١) العَدَسَةُ: بَثْرَةٌ صَغِيرَةٌ تَخْرُجُ بالبَدَنِ مُفَرَّقَةً كالطّاعُونِ تَقْتُلُ غالِباً، وقَلّما يسْلَم منها مصابٌ بها. أي أنها لا تذهبُ إلا بموتِ مَن أصِيب بها، وكانوا لا يَرَوْن لها دواءً، ولذا كانت العرب تتشاءم بها أشدَّ الشؤم، ويرون أنها تُعْدِي أشدّ العدوى، ويحترزون منها أشدّ مِن احترازهم من البَرَص الجذَام والطّاعون.

وكُنَّ يَأتينَ بفَرَسِ الرَّجُل أو رَاحِلَتِه وتُسْتَرُ بالسُّتُورِ، ويَخْرُجْنَ إِلى الأَزِقَّةِ، ويَنُحْنَ حَولَها، ثمَّ أُشِيرَ عَليهم أنْ لا تفعلوا هذا فيبلغ مُحَمَّداً وأصحابَه فَيَشْمَتُوا بِكُم، ولَا نَبْكِي قَتْلانا حتّى نَأْخُذَ بثأرِهم، وتواصوا على ذلك، وكان الأَسْوَدُ بنُ زَمْعَةَ بنِ عبدِ المطّلب أُصِيبَ له في بَدْرٍ ثلاثةٌ، ولَدَاهُ وولَدُ ولَدِه، وقد كان ذهبَ بصرُه بدعوةِ النَّبيِّ ﷺ لأنهُ كانَ مِن المستهزئينَ، فكان يحبُّ أنْ يبكيَ على أولادِه، ولكن قُرَيْشاً منعتْ ذلك، فسمع في ليلةٍ من اللّيالي صَوتَ بَاكِيةٍ، فقالَ لغُلَامِه انظر هَل أُحِلَّ النَّحْبُ؟، وهل بكَتْ قريشٌ على قتلاها؟، لعَلّي أَبْكِي، فَإِنَّ جَوفي قَد احْتَرقَ، فلمّا رَجَع الغُلامُ قال: إنما هيَ امرأةٌ تبكي على بعيرٍ لها أَضَلَّتْهُ، فأنشأَ يقول:

أَتَبْكِي أَنْ يَضِـلَّ لَهَا بَعِيرٌ ... وَيَمْنَعُهَا مِنَ النَّوْمِ السُّـهُودُ
فَلَا تَبْكِي عَلَى بَكْرٍ وَلَكِنْ ... عَلَى بَدْرٍ تَقَاصَرَتْ الْجُدُودُ
أَلَا قَدْ سَـادَ بَعْدَهُمْ رِجَالٌ ... وَلَوْلَا يَوْمُ بَدْرٍ لَمْ يَسُـودُوا

ثُمَّ لمّا قَدِمَ الأَسَارَى فَرَّقَهُم النبيُّ ﷺ بينَ الصَّحَابَةِ، وقال: «اسْتَوصُوا بِهِمْ خَيْراً»، واسْتَشَارَ النبيُّ ﷺ أصحابه في شَأنِ الأَسَارَى، فِيمَا هُوَ الأَصْلَحُ مِن الأَمْرَين: القَتْلِ، أو أَخْذِ الفداء؟، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هُمْ أَهلُكَ وقومُك، وقد أعطاك الله الظفرَ، ونصرك عليهم، فأرى أن تَسْتَبْقِيَهم وتأخذَ الفِدَاءَ منهم، فيكونَ ما أخذنا منهم قوةً لنا على الكفار، وعسَى الله أنْ يهدِيَهم فيكونوا لنا عَضُداً. وقال عمر بنَ الخطاب: يا رسول الله قد كَذَّبوكَ وأَخْرَجُوكَ وقَاتَلُوك، مَا أرَى مَا رَأى أبو بكر، ولَكِنْ أَرَى أَنْ تُمكِّنَنِي مِن فُلانٍ ـ قريبٍ لِعُمرَ ـ فَأَضْرِبُ عُنُقَهُ، وتُمكّنَ عَليّاً مِن أَخِيه عَقيل فَيضربُ عُنُقَه،

وتُمكّنَ حمْزَةَ مِن أَخِيهِ العَبّاس فَيضْرِبُ عنقَه، حتّى يعلموا أنهُ لَيْسَتْ في قُلوبنَا مَوَدّة للمشركين، وَهؤُلاءِ صَنَادِيدُهم وَأَئِمّتُهم وقَادتُهم. وقال ابنُ رَوَاحة: يا رسول الله، انظرْ وَادِياً كثيرَ الحطَبِ فَأَضْرِمْهُ عليهم نَاراً. وكانَ العباسُ يسمعُ فقال: قطعتَ رَحِمَك. فدخلَ النبيُّ ﷺ ولم يَرُدّ عليهم، فقال بعضُ الناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال بعضهم: يأخذ بقول ابن رواحة، ولم يقل قائلٌ: يأخذُ بقولِ عمر، فخرج ﷺ، فقال لأبي بكرٍ وعُمرَ: «لَو تَوَافَقْتُما مَا خَالَفْتُكُما، فَلَا يُفْلِتَنَّ مِنْهُم أَحَدٌ إِلّا بِفَدَاءٍ أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ».

فعفا رَسُولُ الله ﷺ عنهم، وقَبِلَ الفِدَاءَ، فلما كان الغدُ غدَا عمرُ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر يَبكِيَان، فقال: يا رسولَ الله، ما يُبْكِيكُما؟، فَإِنْ وجَدتُ بكاءً بكيتُ، وإلّا تَباكَيتُ لِبُكَائِكُما. فقال رَسُولُ الله ﷺ: «إِنْ كَادَ ليَمَسَّنَا فِي خِلَافِ ابنِ الخَطَّابِ عَذَابٌ عَظِيمٌ، لَو نَزَلَ عَذَابٌ مَا أَفْلَتَ مِنْهُ إلّا ابنُ الخطّابِ وَسَعْدُ بنُ مُعَاذ». لأنّ سعداً كَرِهَ الاسْتِئْسَارَ مِن حِين وُقوعِه في المعْركة كمَا تقدّم، وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٨].

وتَوَاصَتْ قُرَيشٌ على أن لَا يُعَجِّلَ أحَدٌ في طَلَبِ فِدَاءِ الأسرى، وذلك كما قالوا: لِئَلّا يَتَغالى محمَّدٌ وأَصْحَابُه فِي الفِدَاءِ. فَلَمْ يَلْتَفِتْ لذلك المطّلبُ بنُ أَبي وَدَاعَةَ السَّهْمِيّ، بَلْ خَرَجَ مِنَ اللّيل خُفْيَةً وقَدِمَ المدينةَ فأَخَذَ أَبَاهُ بأَرْبَعَةِ آلافِ دِرْهَم، وقَدْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ قال لأصحابه لما رَأى أَبَا وَدَاعَةَ أَسِيراً: «إِنَّ لَهُ بِمَكَّةَ ابناً كَيِّساً تَاجِراً ذَا مَالٍ، وَكَأَنكُم به قَد جَاءَ فِي طَلَبِ فِدَاءِ أَبِيه»،

فَكَانَ أَوَّلَ أَسِيرٍ فُدِيَ، وعند ذلك بعثَتْ قريشٌ في فداءِ الأسارى، وكان الفداءُ فيهم على قدر أموالهم، فكان من أربعة آلاف، إلى ثلاثة آلاف درهم، إلى ألفين، إلى ألف، ومن لم يكن معه فداءٌ وهو يحسِنُ الكتابةَ دُفِعَ إليه عَشَرةُ غِلْمانٍ مِن غِلمانِ المدينة يعلّمُهم الكتابةَ، فإذا تعلّمُوا كانَ ذلك فداءه. وجَاءَ جُبَير بنُ مُطْعِم وهو كافرٌ إلى المدينة يسألُ النَّبيَّ ﷺ في أسارى بَدْرٍ، فقال له النبيُّ ﷺ: «لَو كَانَ أَبوكَ حَيّاً فَأَتَانِي وَكَلّمَنِي فِيهِم لَتَرَكْتُهُم لَهُ»، لأنّ المطعمَ كانَ قد أجَارَ النَّبيَّ ﷺ لما قَدِمَ من الطَّائِف، وكان ممّن سعى في نقض الصحيفة.

وكان مِن جُملةِ الأسارى عمرو بن أبي سُفْيَانَ بن حرب، أسره علي بن أبي طالب، فقيل لأبي سُفْيَانَ: افْدِ ابنكَ عمراً، فقال: أَيُجْمَعُ عَليَّ دَمِي ومَالي، قَتَلُوا ابني حَنْظَلَة، وَأَفْدِي عَمْراً دعوه في أيديهم يُمْسِكُونه ما بَدا لهم. فلما وفدَ سعدُ بنُ النّعمان من المدينة مُعْتَمِراً، عَدَا عليه أبو سُفْيَانَ فحبسه بابنه عمرو، فمضى بنو عمرو بن عوف إلى رَسُولِ الله ﷺ فأخبروه خبرَ سعد بن النعمان، وسألوه أن يعطيَهم عمرَو بنَ أَبي سُفْيَانَ يفكّون به صاحبهم، ففعل رَسُولُ الله ﷺ، فبعثوا به إلى أبي سُفْيَانَ، فخَلّى سَبيلَ سَعدٍ.

وكان في الأسارى أبو العاص بن الرَّبيع زوجُ زينبَ بنتِ النَّبيِّ ﷺ، فبعثتْ زينبُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها في فِدَاءِ زوجِها أبي العَاص قِلَادةً لها كانت أمُّها خديجة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها أدخلتها بها عليه حين بنَى بها، وكانَ الجائِي بها أَخُوه عمرُو بنُ الرّبيع، فلما رَأى رَسُولُ الله ﷺ تلك القِلادة رَقَّ لها رِقّةً شديدةً، وقال للصّحابة: «إِنْ رَأَيتُم أَنْ تُطلِقُوا لها أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوا عَلَيهَا قِلَادَتَها



فَافْعَلُوا»، قالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه ورَدُّوا لها القِلَادَةَ، وشرَطَ عليه ﷺ أَنْ يُخَلِّي سَبِيلَ زَيْنَبَ لتُهَاجِرَ إلى المدينة.

وقد كان كُفَّارُ قريشٍ مَشوا إلى العاص في أن يُطلِّقَ زينبَ بنتَ رَسُولِ الله ﷺ كما فعل ولَدَا أبي لهب بِرُقيّة وأمِّ كلثوم، وقالوا له: نزوّجُك أيَّ امرأة شئتَ من قريش، فأبى ذلك، وقال: والله لَا أفَارِقُ صَاحبتي، وما أحبُّ أنّ لي بها امرأة من قريش، فشكرَ له رَسُولُ الله ﷺ ذلك، وأثنى عليه بذلك خيراً، فلمّا وصَلَ أبو العاص مَكَّةَ أمرَهَا باللّحُوقِ بِأَبيها، فخَرَجَت، وقد كان النبيُّ ﷺ أرسلَ زيدَ بنَ حارثة ورجلاً من الأنصار، وقال لهما: «تكُونَانِ بِمَحَلّ كَذا ـ لمحَلٍّ قَرِيبٍ مِن مَكَّةَ ـ حتَّى تمرَّ بِكُمَا زينبُ فتَصْحَبَاها حتّى تَأْتِيَا بِهَا»، فَقَدّمَ لها كِنَانةُ بنُ الرّبيع أخو زَوجِهَا بعِيراً فَرَكِبَتْهُ، واتّخذَ قوسَه وكنَانته، ثمّ خَرجَ بها نهاراً يقودُها في هَودَجٍ لها، وكانت حامِلاً، فتَحَدّثَ بذَلِكَ رِجَالٌ من قريش، فخرجوا في طلَبِهَا حتّى أدركُوها بذِي طُوَى، فكان أوّل مَن سَبَقَ إليها هَبَّارُ بنُ الأَسْوَدِ، فنَخَسَ البعيرَ بالرُّمح فوَقَعَتْ وألَقت حَمْلَهَا، فَبَرَك كِنَانَةُ وَأَخذَ قوسَه، وقال: والله لَا يَدْنُو رَجُلٌ إلَّا وَضَعْتُ فيه سَهْمًا، فجَاءَ إليه أبو سُفْيَانَ في رِجَالٍ من قريش، وقال له: كُفَّ عنّا نَبْلَكَ حتّى نكلّمَك، فكَفَّ، فقَال لَه: إنّكَ لمْ تُصِبْ في فِعْلِكَ، لإنّك خَرَجتَ بالمرْأَةِ جِهَاراً على رُؤُوسِ الأَشْهَاد، وقد عرَفتَ مُصِيبَتَنا التي كَانَت، ومَا دَخَل علينا مِن محمّد، فيَظُنُّ النّاسُ إذا خرَجَت زينبُ علانيةً مِن بَينِ أَظْهُرِنَا أَنَّ ذلك مِن ذُلٍّ أَصَابَنا، وأنّ ذلكَ منّا مِن ضَعْفٍ ووَهَنٍ، ولعَمْرِي مَا لَنَا بِحَبسِها عَن أَبيهَا مِن حَاجَةٍ، ولَكِنْ ارْجعْ بهَا حتّى إذا هدأت الأصواتُ، وتحدَّثَ الناسُ أَنْ قَدْ رددْنَاها فسِرْ بها سِرّاً وأَلْحِقْهَا بأبيها، ففعَل ذلك.

وكان في الأسارى سُهَيل بن عمرو العامري، وكان من أشراف قريش وخطبائِها، فقال عمر رضي الله عنه لرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: دَعْني أنزعْ ثَنِيّتَي سُهيل بن عمرو، فَلَا يَقُمْ عليكَ خَطيباً في مَوطِنٍ أَبَدًا، فقال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لَا أُمَثِّلُ بهِ فيُمَثِّلُ الله بِي وعَسَى أَنْ يَقُومَ مَقَاماً لا تَذُمُّه»، فكان ذلك لما مات رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وأرادَ أكثر أهل مَكَّةَ الرّجُوعَ عن الإسلام، فقام سُهَيلٌ رضي الله عنه خطيباً، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس من كان يعبد مُحَمَّداً فإن مُحَمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وتلا آياتٍ أُخَر، ثم قال: والله إني أعلمُ أنّ هذا الأمرَ سَيمْتَدّ امتدادَ الشّمس في طلوعها وغروبها، فلا يغرنكم هذا من أنفسكم ـ يعني أبا سُفْيَانَ ـ، فإنه ليَعْلَمُ مِنَ هذا الأمرِ مَا أعلَمُ، ولكِنَّ حَسَدَ بني هاشم قد ختمَ على صدره، فتوكلوا على ربّكم، فإن دين الله قائم وكلمته تامّة، وإن الله ناصر من نـصره ومقوٍّ دينَه، وقد جمعكم الله على خيركم ـ يعني أبا بكر ـ، وإنّ ذلك لم يَزِدِ الإسلامَ إلا قوّة، فمَن رأيناه ارْتَدّ ضربنا عنقَه. فتراجعَ الناسُ وكفّوا عما كانوا قد همّوا به.

وكان في الأَسَارى وهْبُ بنُ عُمَير، وكان أبوه عُمَيرٌ شَيطاناً من شَيَاطين قريش، فجلسَ معَ صَفْوَان بنِ أميّة في الحِجْر فتذاكرَا أصحابَ القَلِيب ومُصَابَهم ببدْرٍ، فقال صفوان: والله ما في العيشِ خيرٌ بعدهم، فقال عميرٌ: والله صَدقتَ، أما والله لوْلَا دَينٌ عَليَّ ليسَ له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لأتيتُ مُحَمَّداً حتّى أَقْتُلَه، فإنّ لي فيهم عِلّةً، وابني أسيرٌ في أيديهم، فاغْتَنَمَها صَفْوانُ، وقال له: عَليَّ دَينُك؛ أنا أقضيه عنك، وعيالُك مع عيالي أواسيهم ما بَقُوا، فقال عُمَيرٌ: إذاً فاكتم عنّي شَأني وشأنك. ثمّ إنّ عميراً أخذَ سيفه وشَحَذَهُ،

وجعلَ فيه السُّمَّ، وانطلَقَ حتّى قدِمَ المدينةَ فأناخَ راحلتَه ببابِ المسْجِدِ متوشّحاً سيفَه، فقال: عمرُ بن الخطاب: هذا عدوّ الله عميرٌ، ما جاءَ إلا بِشَرٍّ، فدخلَ على رَسُولِ الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله، هذا عدوّ الله عميرُ بن وهب، قد جاءَ مُتوشِّحاً سَيفَه، فقال ﷺ: «أَدْخِلْهُ عَلَيَّ»، فأقبل عمرُ فأخذ بحمالة سيفه في عنقه، فمسكه بها، وقال لرِجَالٍ كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسولِ الله فاجلسوا عندَه، فإنّ هذا الخبيث غير مأمون، ثم دخل به، فلمّا رَآه رَسُولُ الله ﷺ وعمرُ آخِذٌبه، قال: «أَرْسِلْهُ يَا عُمَر، اُدْنُ يَا عُمَير»، فدنا عميرٌ، وقال: أنعموا صباحاً، ـ وكانت تحيّة أهل الجاهلية ـ فقال رَسُولُ الله ﷺ: «قدْ أكرَمَنَا الله بتَحَيّةٍ خير منْ تحيّتِكَ يَا عُمَير، بالسَّلَام تحيّةِ أهْلِ الجنَّة، ما جاءَ بك يا عمير»؟، فقال: جئت لهذا الأَسِير الذي في أيديكم فأحسِنُوا فيه، قال: «فما بَالُ السّيف»؟، فقال: قبَّحَهَا الله مِنْ سُيوفٍ، وهَل أَغنَتْ عنّا شَيئاً؟، فقال ﷺ: «اُصْدُقْنِي؛ مَا الذِي جِئْتَ لَه»؟، فقال: ما جئتُ إلا لذلك، فقال له ﷺ: «بَلْ قَعَدْتَ أَنتَ وصَفْوانُ بنُ أميّة في الحِجْر فَذَكَرْتُما أَصْحَابَ القَلِيب، ثمَّ قُلْتَ: لَوْلَا عِيَالِي وَدَينٌ عَلَيَّ لَخَرَجْتُ حتَّى أَقْتُلَ مُحَمَّدًا، فتَحَمَّلَ صَفْوانُ دَيْنَكَ وَعِيَالَكَ على أنْ تَقْتُلَني لَهُ، والله حَائِلٌ بينَكَ وَبينَ ذَلِكَ»، فقال عميرٌ: أَشْهَدُ أنكَ رسولُ الله، قَد كنّا نُكَذّبكَ بما ينزلُ عليك من الوحي، وهذا أمرٌ لم يحضره أحدٌ إلا أنا وصفوان، فوَالله إنّي لا أعلم ما أتاك به إلا الله تعالى، فالحمدُ لله الذي هداني للإسلام وسَاقني هذا المساق، ثمّ شَهِدَ شهادةَ الحقّ.

فقال رَسُولُ الله ﷺ: «فَقِّهُوا أَخَاكُم في دِينِهِ، وأَقرِئُوهُ القُرْآنَ، وأَطْلِقُوا أَسِيرَهُ»، ففعلوا ذلك، ثم قال: يا رسولَ الله إني كنتُ جَاهِداً على إطفَاءِ نورِ الله، شديدَ الأذى لمن كانَ على دينِ الله، فأنا أحبُّ أنْ تأذنَ لي فَأَقْدِمَ مَكَّةَ فأدعوهم

إلى الله وإلى الإسلام لعل الله يهديهم، وإلا آذيتُهم في دِينهم كمَا كُنْتُ أوذي أصحابَك في دينهم، فأذنَ رَسُولُ الله ﷺ له، فلحقَ بمَكَّةَ، وأسْلَمَ ولدُه وهبٌ ﵁. وكان صفوان ـ حين خرج عُمَيرٌ ـ يقولُ: أبشروا بوقْعَةٍ تأتيكم تنسيكم وقعةَ بَدْرٍ. وكان يسأل عنه الرُّكْبان، حتى قدمَ رَاكِبٌ فأخبره عن إسلامه، فحلفَ أنْ لا يكلّمه وأنْ لا ينفعه بنَفْعٍ أبداً. ولما قدم عميرٌ لم يبدأ بصَفْوان، بل بدأ ببيته وأظهر الإسلام ودعا إليه، ثم إنه وقف على صفوان وناداه: أنت سيّدٌ من سادتنا، رأيتَ الذي كُنّا عليه مِن عبادةِ الحجَرِ والذبح له، أهَذا دين؟. فلم يجبه صفوان.

وكان في الأسارى أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير، قال أبو عزيز: مرّ بي أخي مصعب فقال للذي أسرني: شُدَّ يَدَكَ به؛ فإنّ أمّه ذاتُ متاع، لعلّها تفْدِيه منك، فقلت له: يا أخي، أهَذِه وِصَايتُكَ بي؟. ثمّ إنّ أمه بعثت في فدائه أربعة آلاف درهم، ففدته بها.

وكان في الأسارى العبّاسُ عمَّ النَّبِيِّ ﷺ، وكانوا قد شَدّوا وِثاقَه، فلم يأخذْهُ ﷺ نومٌ، فقيل: ما سَهَرُك يا رسولَ الله؟، قال: «لِأَنِينِ العَبّاس»، فقام رجلٌ وأرْخَى وِثَاقه، ثُمّ فعَلَ ذَلِكَ بالأَسَارَى كلّهم، والذي أسره أبو اليُسْر كعب بن عمرو، وكان صَغِيرَ الجُثَّة والعَبّاسُ جسيما طويلاً، فقِيلَ للعبّاس: لَو أخَذْتَهُ بِكَفّكَ لوَسِعَتْهُ كَفُّكَ!، فقال: مَا هوَ إلا أنْ لقِيتُه فظهرَ في عيني كالخَنْدَمَةِ ـ جبَلٌ مِن جِبَالِ مَكَّةَ ـ، وقد قال النَّبِيُّ ﷺ لكَعْبٍ: «كَيفَ أَسَرْتَ العَبَّاسَ»؟، فقال: يا رسول الله، لقَدْ أَعَانَني عليه مَلَكٌ كَرِيم. وفي رواية: أنّ العباسَ لما قيل له ما تقَدّم قال: والله مَا أَسَرَني هذا، أَسرَني رَجُلٌ أبلَجُ مِن أَحسَنِ

النّاس وَجْهاً عَلى فَرَسٍ أَبْلَقَ، ومَا أرَاهُ في القوم، فقال الذِي جَاءَ به: والله أنا الذِي أَسَرْتُه يا رسول الله، فقال: «اسْكُتْ فَقَدْ أَيّدَكَ الله بِمَلَكٍ كَرِيم».

ولما أُخِذَ العَبّاسُ أَسِيراً لم يجدوا له قميصاً، فكساه عبدُ الله بنُ أبيّ ابن سَلول قميصَه وكان رجلاً طويلاً، وجعلَ ﷺ فِداءَ العباس أربعمائة أوقية، وقال له ﷺ: «افْدِ نفسَكَ يَا عَبَّاسُ، وَابْنَي أَخِيكَ: عَقِيلَ بنَ أَبِي طَالِبٍ، وَنَوْفَلَ بنَ الحَارِثِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بنَ عَمْرٍو»، فقالَ للنبيِّ ﷺ: تركتني فقير قريش ما بقيت، فقال رَسُول الله ﷺ: «فَأَينَ المَالُ الذِي دَفَعْتَهُ لِأمِّ الفَضْل؟، وَقُلْتَ لَهَا: إنْ أُصِبْتُ فَهَذَا لِبَنِيَّ: الفَضْلِ، وَعَبْدِ الله، وَقُثَم»، فقال: والله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا شيء ما علِمَه إلا أنا وأم الفضل، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله.

وقد تقدّم عن أبي رافع أنّ العبّاسَ وزوجته أم الفضل كانا مسلمين، وقد جاء في بعض الرّوايات: أن العباسَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: عَلَامَ يَأْخُذُ مِنّا الفِدَاءَ وكنتُ مسلماً، ولكنّ القوم استكرهوني؟، فقال له النَّبِيُّ ﷺ: «الله أَعْلَمُ بما تَقُولُ، إنْ يَكُ حَقّا فإنَّ الله يجْزِيكَ؛ ولَكِنَّ ظَاهرَ أَمرِكَ أنكَ كُنْتَ عَلَينا»، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ٧٠]، وكان العبّاس بعد نزول هذه الآية يقول للنبيِّ ﷺ: وددت أنك كنت أخذت مني أضعافاً، فقد آتاني الله خيراً منها؛ مائةَ عبدٍ كلّ عبد في يده مال يَتَّجِرُ فيه، وإني لأرجو من الله المغفرة. ورويَ أنّ العباسَ كان خرَج لبَدْرٍ ومعه عشرون أوقية من ذَهبٍ يطعمُ

بها المشركين، فأُخِذَتْ منه في الحرْبِ، فكلّمَ النَّبِيَّ ﷺ أن يحسِبَ العشرين أوقية مِن فِدائه، فأبى، وقال: «أَمَّا شَيءٌ خَرَجْتَ تَسْتَعِينُ بِهِ عَلَينا فَلا نَتْرُكُهُ لَكَ».

وقد قيل: لم يُظْهِرِ النَّبِيُّ ﷺ إسلامَ العبّاس رفقاً به؛ لما تقدّم أنّ العباسَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه كان له ديُونٌ متفرقةٌ في قريش، وكان يخشى إنْ أَظْهَرَ إسلامَه ضَاعت عندهم. فلما قَهرَهُم الإسلامُ يومَ فَتْح مَكَّةَ أظهرَ إسلامَه، وكان كثيراً ما يطلبُ الهِجْرَةِ إلى رَسُولِ الله ﷺ فيكتب له: «مَقَامُكَ بِمَكَّةَ خَيرٌ لَكَ». وفي رواية: أنّ العباسَ استأذنَ النَّبِيَّ ﷺ في الهِجْرَةِ، فكتب إليه: «يا عَمِّ، أَقِمْ مَكَانَكَ الذِي أَنتَ فِيهِ، فَإِنَّ الله ﷻ يَخْتِمُ بِكَ الهِجْرَةَ كَمَا خَتَمَ بِي النُّبوَّةَ»، فكان كذلك.

وَمَنَّ رَسُولُ الله ﷺ على نفرٍ من الأسارى بغيرِ فِدَاء، منهم: أبو عَزَّة عمرو الجُمَحيُّ، وكان شَاعراً يؤذي النَّبِيَّ ﷺ والمسلمين بشعرِه، فقال: يا رسولَ الله، إني فقيرٌ، وذو عيال وحَاجَةٍ قد عَرَفْتَهَا، وإنَّ لي خمسَ بنَاتٍ ليسَ لهُنَّ شيءٌ فَامْنُنْ عَليَّ وتَصَدَّق بي عَلَيهنّ، فمنَّ عليهِ رَسُولُ الله ﷺ وأَعْتَقَه، وأَخَذَ عليه عهداً أَنْ لا يُظَاهِرَ عليه أَحداً. فلما وصل إلى مَكَّةَ قال: سحرتُ مُحَمَّداً. ولما كان يومُ أحد خرجَ مع المشركين يحرِّضُ على قتال المسلمين بشعرِه، فَأُسِرَ، وَقُتِلَ صَبْراً، كما سيأتي.

ولما بلغَ النّجَاشيَّ نُصْرَةُ رَسُولِ الله ﷺ ببَدْرٍ فرحَ فرحاً شديداً. فعن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: أنّ النجاشيَّ أرسلَ إليه وإلى أصحابه

الذين كانوا معه بالحبشة ذات يوم، فدخلوا عليه، فوجدوه جالساً على التّراب، لابساً أثوَاباً خَلِقَةً، فقالوا له: ما هَذا أيّها الملك؟، فقال: إني أبشرُكم بما يَسُرُّكُم، إنه قد جاءَني مِن نَحوِ أَرْضِكُم عَينٌ لي، فأخبرَني أنّ الله ﷻ قد نصرَ نبيَّه، وأَهلَك عدُوَّه فلاناً وفلاناً ـ وعَدّدَ جمعاً ـ التقوا بمَحَلٍّ يُقالُ له: بَدْر، كثير الأراك، كنت أرعى فيه غنماً لسَيّدي من بني ضَمْرَة، فقال له جعفر: فما بَالُكَ على التّراب، وعليك هذه الأخلاق؟، فقال: إنا نجِدُ فيما أنزَلَ الله على عيسى: أنّ حقاً على عبادِ الله أنْ يُحْدِثُوا لله ﷻ تَواضُعاً عندما يُحْدِثُ لهم نعمة، فلما أحدث الله تعالى نصرةَ نبيِّه ﷺ أحدثتُ هذا التّواضُعَ.

ولما أَوْقَعَ الله تعالى بالمشركين ما أوقعه في يومَ بَدْرٍ، واستأصلَ وجُوهَهَم، قالوا: إن ثأرنا بأرض الحبشة، فلْنُرْسِل إلى ملكها ليدفع إلينا مَن عنده من أتباع محمّدٍ، ثم نقتلُهم بمَن قتل منا. فأرسلوا عمرَو بن العاص وعبدَ الله بن أبي ربيعة إلى النجَاشيِّ ليَدْفعَ إليهما من عنده من المسلمين، وأرسلوا معهما هدايا وتُحَفاً للنجاشي، فلما وصَلَا إلى النجاشي رَدّهما خَائبَين.

وقد كتبَ رَسُولُ الله ﷺ بعد صُلح الحديبة إلى النّجَاشي كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعثَ به عمرو بن أمية الضَّمْري، فلما قُرِىءَ عليه الكتابُ أسلمَ كما سيأتي ذِكْرُ ذلك عند ذِكرِ كُتُبِهِ ﷺ، وقد كتبَ إليه رَسُولُ الله ﷺ أيضاً أَنْ يُزَوِّجَه بأمِّ حَبيبة، وأَنْ يبعثَ إليه بمن بقيَ عنده من أصحابه، ففعل، وسيأتي ذكر ذلك كلّه، ولما بلغ قومَ النجاشي إسلامُه سَخِطُوا، وقالوا له: أنت فارقتَ ديننا، وأظهروا له المخاصَمة، فأرسلَ إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه فهَيّأَ سُفناً، وقال: اركبوا فيها، وكونوا كما أنتم، فإنْ هربتُ فاذهبوا




حيثُ شِئْتُم، وإِنْ ظَفِرْتُ فأقيمُوا.

ثُمّ عمَدَ إلى كِتَابٍ فكتبَ فيه: هوَ يشهدُ أَنْ لا إله إلا الله وأنّ مُحَمَّداً عبده ورسوله، ويشهد أنّ عيسى عبده ورسوله، وروحه، وكلمته ألقَاها إلى مريم، ثم جعله في ثيابه عند منكبِهِ الأيمن، ثم خرج إلى أهل الحبشة وقد اصطفّوا له، فقال: يا معشر الحبشة ألستُ أرفق الناس بكم؟، قالوا بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟، قالوا: خيرُ سيرة، قال: فما لكم؟، قالوا: فارقْتَ ديننا، وزعمْتَ أنّ عيسى عبدٌ، قال لهم: فماذا تقولون أنتم في عيسى؟، فقالوا: نقول هو ابنُ الله، فوضع النجاشي يده على قبائه، وقال: هُوَ يَشْهَدُ أَنَّ عيسى ابنَ مريم، ولم يَزِدْ على هذا، وإنما يعني ما كتب. فرضُوا منه بذلك.

وذكر عمرو بنُ العاص رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في مبدأ إسلامِهِ قال: لما انصرفنا عن الخَنْدَق مع الأحزاب، جمعتُ رجالاً من قريش ممّن كانوا يرون مكاني ويسمعون مني، ثم قلت لهم: تعلمون والله أني لأرى أمرَ محمّد يعلو لأمور علوّاً منكراً، وإني قد رأيت رأياً؟، فقالوا: وماذا رأيت؟، قلت: رأيتُ أنْ نلحقَ بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنّا عند النجاشي، فإنا أَنْ نكون تحتَ يديه أحبّ إلينا مِن أنْ نكونَ تحت يدي محمّد، وإن ظهر قومنا فنحن ممن قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير، فقالوا: إن هذا هو الرّأي، فقلت: اجمعوا ما يهدى له وكان أحبُّ ما يهدى إليه من أرضنا الأُدُمَ، فجمعنا له أُدُماً كثيراً، ثم خرجنا إليه.

قال عمرو بن العاص: فدخلت على النّجاشي، ثم سجدت له، فقال: مرحباً بصديقي، أهديتَ لي مِن بلادِك شيئاً؟، فقلت: نعم أيها الملك، أهديتُ لكَ أُدُماً كَثِيراً، ثم قربته إليه، فأعجبه، وفرّقَ منه أشياءَ بين بَطَارِقَتِهِ، وأمرَ بسائرِهِ

فحُفِظَ له في موضعٍ، فلما رأيتُ طيبَ نفسِه، قلت: أيها الملك إني رَأيتُ رَجُلاً خَرَجَ مِن عندكَ - يعني عمرَو بنَ أميّة الضَّمْرِي -، وهو رَسُولُ عَدُوٌّ لنَا قَدْ وتَرَنَا، وقتل أشرَافَنا وخِيارَنا، فأعطه لي فَأَقْتُلُه، فغَضِبَ، ثم رفعَ يدَه فضربَ بها أنفي ضربةً ظننت أنه قد كسره، فجعلتُ أتقِي الدّمَ بِثيابي، وأَصَابني مِن الذّل مَا لو انشَقّت لي الأرضُ لدَخَلْتُ فيهَا فرَقاً منه، ثم قلت: أيها الملك لو ظننتُ أنك تكره مَا قلتُ ما سَألْتُكَهُ، فقال: يا عمرو، تسألني أَنْ أعطيَكَ رسولَ رَجُلٍ يَأتيهِ النّاموسُ الأَكبرُ الذي كان يأتي موسى وعيسى ابنَ مريم لِتَقْتُلَه؟، فقلت: وأنتَ أيّها الملكُ أتشهدُ أنه رَسُولُ الله؟، فقال: نعم؛ أشهدُ أنه رَسُولُ الله، فأطعْنِي يا عمرو واتبعه، فوَالله إنه لعَلى الحقّ. فقلت له: أفتبايعني له على الإسلام، قال: نعم، فمَدّ لي يده فبايعتُه على الإسلام، ثم خرجْت إلى أصحابي، وقد كساني، فلما رأوا كسوة الملك سرّوا بذلك وقالوا: هل مِن صاحبِك قَضَاءٌ لحاجَتِك؟، فقلت لهم: كَرِهْتُ أَنْ أكلّمَه أوّلَ مَرَّة، وقلتُ أعودُ إليه، فقالوا لي: الرأي ما رَأيت. ففارقتهم كأني أَعْمِدُ إلى حَاجَةٍ، فعمدت إلى موضع السُّفن، فوجدت سفينةً قد شُحِنَتْ، فركبتُ معهم من ساعتهم، ثم خرجتُ من السفينة فابتعت بعيراً وتوجّهت إلى المدينة، وسيأتي تفصيل قدومه إلى المدينة مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة.

وأمّا ما جاء في فضل من شَهِدَ بَدْراً: فقد ورَدَ أنّ جبريلَ ﷺ أتى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: ما تعدون أهل بَدْر فيكم؟، قال: «مَنْ أَفْضَلِ المُسْلِمِينَ»، قال جبريل ﷺ: وكذا من شهد بَدْراً من الملائكة. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: قال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِطّلَعَ الله عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتِمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، أَوْ قَالَ: «فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الجَنَّة». ومعناه: غفرتُ لكم

ما مضى وما سيقع من الذّنوب، وهو يُفِيد أَنّ ما يقع منهم من الكبائِر لا يحتاجون إلى التّوبة عنه، لأنه إذا وقعَ يقعُ مغفوراً، وعُبّرَ فيه بالماضي مبالغة في تحققه، وهذا كما لا يخفى بالنسبة للآخرة لا بالنسبة لأحكام الدنيا.

وعن أُمِّ المؤمنين حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها، قالت: سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «إِنّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَدْخَلَ النَّارَ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى أَحَدٌ شَهِدَ بَدْراً وَالحُدَيْبِيَّة».

وكان ﷺ يُكْرِمُ أهلَ بَدْرٍ ويُقَدّمُهم على غيرهم، وقد جاءَ أنّ جماعةً من أهل بَدْرٍ جاءُوا إلى النبيِّ ﷺ وهو جالس في صُفّةٍ ضَيِّقةٍ، ومعه جماعةٌ من أصحابهِ، فوقفوا بعد أنّ سلّمُوا ليفسح لهم القوم، فلم يَفْعلوا، فشَقّ قيامُهم على النّبيِّ ﷺ، فقال لمن لم يَكُنْ مِن أَهْلِ بَدْرٍ من الجالسين: «قُمْ يَا فُلَانُ، قُمْ يَا فُلَانُ»، وأقام النّبيُّ ﷺ بعَدَدِ الوَاقفين، وعرفَ رَسُولُ الله ﷺ الكَرَاهَةَ في وجْهِ من أَقَامَه، فقال ﷺ: «رَحِمَ الله رَجُلاً يَفْسَحُ لِأَخِيْهِ»، ونَزلَ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١]، فجعلَ المسلمون يقومون لهم بعد ذلك ويعرفون فضلَهم.

٦ ـ غَزْوَةُ بَنِي سُلَيْم

ولما قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المدينةَ مِن بَدْرٍ لَمْ يُقِمْ بِهَا إلّا سَبْعَ لَيَالٍ حَتّى غَزَا بِنَفْسِهِ يُرِيدُ بَنِي سُلَيْمٍ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى المَدِينَةِ سِبَاعَ بْنَ عُرْفُطَةَ الغِفَارِيَّ،

فسارَ ﷺ حتّى بَلَغَ مَاءً مِنْ مِيَاهِهِمْ يُقَالُ لَهُ: الْكُدْرُ، وكَانَ لِوَاؤُه أبيضَ، حملَه عَليُّ بنُ أبي طَالِب كرَّمَ الله وَجْهَهُ، فَأَقَامَ عَلَيْهِ ثَلاثَ لَيَالٍ وَلَمْ يَلْقَ كَيْداً، فرجعَ إلى المَدِينَةِ، فَأَقَامَ بِهَا بَقِيّةَ شَوّالٍ وَذَا الْقَعدَةِ، وَأَفْدَى فِي إقَامَتِهِ تِلْكَ جُلَّ الْأُسَارَى مِنْ قُرَيْشٍ.

وكان في هذه السَّنة التي هي الثانية من الهجرة تزويجُ عليٍّ بفاطمةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، عقد عليها في رجب، وقيل: في رَمَضَان، ودخل بها في ذي الحجة، وكان عمرُها خمس عشرة سنة، وكان سِنُّ عَليٍّ يَومئذٍ إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، وقد كان خطبها أبو بكر ثم عمر، فسكت ﷺ، فجاء أبو بكر رضي الله عنه إلى عليٍّ كرَّمَ الله وجْهَهُ يأمرُه أنْ يخطبها، قال عليٌّ: فنبّهَني لِأَمْرٍ كنتُ عنه غَافِلاً، فجئتُ النبيَّ ﷺ، فقلت: أَتُزَوّجُني فَاطِمَةَ؟، قال: «وَعِنْدَكَ شَيءٌ»؟، فقلتُ: فَرسي ودِرْعي، قال: «أَمَّا فَرَسُكَ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا، وَأَمَّا دِرْعُكَ فبِعْهَا»، فبعْتُها لعثمان بن عفان بأربعمائة وثمانين درهما، ثم إن عثمان رَدَّ الدّرْعَ، فجئت بالدرع والدّرَاهم إلى رَسُولِ الله ﷺ، فدعا النبيُّ ﷺ لعثمانَ بدعواتٍ، ثم قبضَ مِنَ الدّرَاهم قبضةً، فقال لبلال: «ابْتَغْ لَنَا بِهَا طِيباً».

ثمَّ قال النبيُّ ﷺ لِفَاطمةَ: «إنّ ابنَ عَمِّك عَليًّا يخطُبكِ، فمَاذَا تَقُولين»؟، فبكت ثمّ قالت: كأنك يا أبتِ إنّما ادَّخَرْتَني لفَقِيرِ قُرَيش، فقَال ﷺ: «وَالذِي بَعَثني بِالحَقِّ مَا تكلّمْتُ في هَذَا حَتّى أَذِنَ الله لي فيه مِنَ السَّمَاءِ»، فَقَالَتْ: رَضِيتُ بما رَضِيَ اللهُ ورسوله. وَأَوْلَم عليٌّ بكَبشٍ مِن سَعْدٍ، وآصُعٍ من ذُرَةٍ من عند جماعة من الأنصار.

ولما عَقَدَ ﷺ خطَبَ، فقال: «الحَمْدُ لله المَحْمُودِ بِنِعْمَتِهِ، المَعْبُودِ بِقُدْرَتِهِ، الذي خَلَقَ الخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ وَمَيَّزَهُمْ بِحِكْمَتِهِ، وَجَعَلَ المُصاهَرَةَ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبّكَ قَدِيراً. ثُمَّ إِنّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أزوِّجَ فَاطِمَةَ مِنْ عَلِيٍّ عَلَى أَرْبَعِمائةِ مِثْقَالِ فِضَّة»، فقال عليٌّ: الحمْدُ لله شُكْراً لِأَنْعُمِه وَأَيادِيه وَأشهدُ أن لا إله إلا الله شَهَادَةَ تبلغُه وتُرْضِيه، وهذا محمّدٌ رَسُولُ الله زَوّجني ابنتَه فاطِمةَ، فاسمعوا واشهدوا. فقالَ ﷺ: «أُشْهِدُكُمْ أَنّي زَوَّجْتُه».

٧ ـ غَزْوَة بَنِي قَيْنُقَاع

وبَنُو قَيْنُقَاع قومٌ من اليهود، وكانوا يُعَدّونَ من أشجع اليهود، وكانوا صَاغةً وصُنَّاعاً، وكانوا حلفاءَ لعبادة بن الصّامت رضي الله عنه وعبد الله بن أبي ابن سلول، فلما كانت وقعة بَدْرٍ أظهرُوا البغيَ والحسَدَ، ونبذوا العهدَ، لأنّ النبيَّ ﷺ كان قد عاهدهم وعاهدَ بَنِي قُرَيْظَة، وبَنِي النَّضِير على أنْ لا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه عدوّاً، فكانوا أوّلَ مَن غَدَرَ مِنَ اليهود، وذلكَ أنّ امرأةً قَدِمَت إلى سُوقِهم، فجَلَسَت إلى صَائِغ منهم تُصْلِحُ حُلِيّاً لها، فجعلَ جماعةٌ منهم يراودونَها عَن كشفِ وجهِها، فأبتْ، فعمدَ الصائغُ إلى طرفِ ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي لا تشعرُ، فلما قامت انكشفتْ سَوأتُها، فضحكوا عليها، فصَاحَت، فوثبَ رجلٌ من المسلمين على الصّائغ فقتَلَه، ثم شَدّت اليهودُ على المسلم فقتلوه، فاستصرخَ أهلُ المسلمِ المسلمينَ على اليهود، فغضبَ المسلمون على بَنِي قَيْنُقَاع، وقال ﷺ: «مَا عَلَى هَذَا أَقْرَرْنَاهُم»، فتبرَّأ عبادةُ بن الصامت من حِلْفِهم، وقال: يا رسولَ الله، أَتَوَلّى الله ورسولَه والمؤمنين، وأبرَأُ مِن حِلْفِ هَؤُلاءِ الكفّار.

وتَشَبَّثَ به عبدُ الله بن أبي ابن سلول فلم يَتَبرّأ من حِلفهم كما تبرّأ منه عبادةُ بنُ الصّامت رَضِيَ اللهُ تعالى عنه. فجمع رسولُ الله ﷺ يهودَ بَنِي قَيْنُقَاع، وقال: «يَا مَعْشَرَ يَهُود، اِحْذَرُوا مِنَ الله مِثْلَ مَا أَنْزَلَ بِقُرَيشٍ مِنَ النَّقْمَةِ وَأَسْلِمُوا فَإِنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي مُرْسَلٌ، تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ، وَعَهْدِ الله تَعَالَى إِلَيكُمْ»، فقالوا: يا محمد إنك تظنُّ أنا مثل قومك، لا يغرنّك أنك لقيتَ قوماً لا علمَ لهم بالحرْب فأصبت لهم فرصة، إنا والله لو حاربناك لتعلمنّ أنا نحنُ الناس، إنك لم تقاتل مثلنا. وقالوا ذلك لأنهم أشجع اليهود وأكثرهم أموَالاً وأشدّهم بغيًا.

ثمَّ إنهم تحصّنُوا في حُصُونهم، فسارَ إليهم رَسُولُ الله ﷺ في نصف شوال، وكان لواؤه بيدِ عمّه حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، واستخلف ﷺ على المدينة أبا لبابة، وحاصرهم أشدَّ الحِصَار، ثم استمر الحِصَارُ خمس عشرة ليلة، إلى هلال شهر ذي القعدة، وكانوا أربعمائة حَاسِر وثلاثمائة دَارع، فقذف الله في قلوبهم الرّعب، فسألوا رَسُولَ الله ﷺ أنْ يُخلّي سبيلَهم، وأن يُجلَوا من المدينة ويخرجوا منها، وأنّ لهم نساءَهم والذّرِّيّة، وللنبيِّ ﷺ الأموال والسلاح.

وقِيلَ: أنهم لما نزلوا على حُكْم رَسُولِ الله ﷺ، أمرَ ﷺ أنْ يُكَتَّفُوا، فكُتِّفُوا، فَأرَادَ ﷺ قتلَهم، فكلّمَه فيهم عبدُ الله بن أبي ابن سلول رأسُ المنافقين، وألَحَّ عليه فيهم، فقال: يا محمد أحسن في مَوَاليّ. فأعرضَ عنه ﷺ، فأدخلَ يدَه في جَيبِ دِرعِ رَسُولِ الله ﷺ مِن خَلْفِه، فقال رَسُولُ الله ﷺ له: «وَيْحَكْ؛ أَرْسِلْني»، وغَضِبَ رَسُولُ الله ﷺ حتّى رأوا لوجْهِه سُمْرَةً لِشِدّةِ غَضَبِهِ، فقالَ ابنُ أبيٍّ: والله لا أرْسِلُك حتّى تحسنَ في مَوَاليّ،

فإنهم عترتي، وأنا امرؤٌ أخْشَى الدّوَائِرَ، فقال النبيُّ ﷺ: «خَلّوهُم، لَعَنَهُم اللهُ، ولَعَنَهُ مَعَهُم»، ثم تركهم من القتل، وَوَكّلَ بإجلائِهم عُبادَةَ بنَ الصامت رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وأمهَلَهُم ثلاثةَ أيام، فسألوا عبادةَ بن الصّامت أن يُمْهلَهم فوقَ الثّلاث، فقال: لا؛ ولا ساعة واحدة، فجلوا منها بعد ثلاث وتولّى إخراجَهم، وذهبوا إلى أَذْرِعَاتٍ ـ بلدة بالشام ـ، ولم يَدُرِ الحولُ عليهم حتّى هلكوا أجمعون بدعوته ﷺ.

وذُكِرَ أنّ ابنَ أُبيّ جاءَ إلى منزل النبيِّ ﷺ قبلَ خروجِهم يسأله إقرَارَهم، فَحُجِبَ عنه، فَأَرَادَ الدّخولَ، فدفعه بعضُ الصّحابةِ فصَدَمَ وجْهَه بالحائطِ فَشَجّه، فانصرَفَ مُغْضَباً، فبلغ ذلك بني قَيْنُقَاع، فقالوا: لا نمكث في بلَدٍ يُفْعَلُ فيه هذا بأبي الحُبَاب ولا ناصر له. ثم تأهّبُوا للجلاء.

ولما خرجوا وجَدَ ﷺ في منازلهم سلاحاً كثيراً.

٨ ـ غَزْوَةُ السَّوِيق

لما أصاب قُرَيْشاً في بَدْرٍ ما أصابهم نذرَ أبو سُفْيَانَ أن لا يمسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة ولا يأتي النساء، حتى يغزوَ مُحَمَّداً، ثم إنه خرج في مائتي راكب من قريش لِيَبرّ بيمينه حتى نزل بمحلٍّ بينه وبين المدينة نحو بريد، ثم أتى إلى بَنِي النَّضِير في الليل، فأتى حُيَيَّ بنَ أَخْطَب، فضرب عليه بابه، فأبى أنْ يَفْتَحَ له، لأنه خَافَه، فانصرف عنه وجاءَ إلى سَلَام بنِ مِشْكَم سيد بَنِي النَّضِير، فاستأذن عليه، فأذِنَ له واجتمع به، ثم خرج إلى أصْحَابه، فبعثَ رِجَالاً من قريش فأتوا ناحيةً من المدينة فأحرقوا نخْلاً منها، ووجدوا مَعبدَ بنَ عمرو الأنصاري ورجلا

آخر حليفاً للأنصار، فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين. فعلمَ بهم رَسُولُ الله ﷺ، فخرجَ في طلبِهم في مائتين من المهاجرين والأنصار، واستعمل على المدينة بشيرَ بن عبد المنذر، وكان خروجُه لخمس خلون من ذي الحجة. وجعل أبو سُفْيَانَ وأصحابه يُلْقُونَ جِرَبَ السَّوِيقِ ليتَخَفَّفُوا في الهَرَب، والسَّوِيقُ: قَمْحٌ أو شَعِيرٌ يُقْلَى ثمَّ يُطْحَنُ لِيُسَفّ، تارةً بماء، وتارة بسمن، وتارة بعسل، وكان ذلك هوَ عَامّة أزْوَادِهم، فأَخَذَهُ المسْلِمُون، ولم يلحقوا بهم، ثم رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، وكانت غيبته خمسة أيام.

٩ ـ غَزْوَةُ قَرْقَرَة الْكُدْرِ

بلغَ رَسُولَ الله ﷺ أنّ جمعاً لبَنِي سُلَيم وغَطَفَان بقَرْقَرَةِ الْكُدْرِ يريدون الإغارةَ على المدينة، فسار ﷺ إليهم في مائتين من أصحابه، في شهر المحرم من السنة الثالثة، وحمل لواءَه علي بنُ أبي طالب، واستخلف على المدينة ابنَ أم مكتوم، فلما وصل إلى ذلك الموضع لم يجدْ به أحداً، وأرسل نفراً من أصحابه إلى أعلى الوادي، فوجدوا خمسَمائة بعيرٍ مع رُعَاةٍ، منهم غلامٌ يقال له: يسار، فحازوها ثم انحدروا بها إلى المدينة، فلما كانوا بمحل على ثلاثة أميال من المدينة خمّسها ﷺ، فأخرج خُمُسَه، ثم قسم الأربعة الأخماس على أصحابه، فخصّ كلّ رجل منهم بعيران، ووقعَ يَسَارٌ في سهمِه ﷺ، فأعتقه ﷺ لأنه رآه يُصَلّي وقد أَسْلَمَ، وتعلم الصّلاة من المسلمين بعد أسرِه، وكانت مدّة غيبته ﷺ عن المدينة خمس عشرة ليلة.



١٠ ـ غَزْوَةُ ذِي أَمْر

بلغَ رَسُولَ الله ﷺ أَنَّ رَجُلاً يُقالُ له: دُعْثُورُ بنُ الحارث الغَطَفَاني مِن بني مُحَارِب، جمع جمعاً من ثعلبة ومُحارب بذِي أَمْر ـ وهو موضع من دِيَار غَطَفَان ـ، يريدون أن يُغيرُوا على أطرَاف المدينة، فخرج إليهم رَسُولُ الله ﷺ لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول، من السنة الثالثة، في أربعمائة وخمسين رجلاً، واستخلف على المدينة عثمانَ بنَ عفّان، وأصابَ الصّحابة في طريقهم رَجُلاً منهم: يقال له: جبار، مِن بني ثعْلَبة، فَأُدْخِلَ على رَسُولِ الله ﷺ، فأخبرَه مِن خَبَرِهم، وقال له: لنْ يُلاَقُوك ولو سَمِعُوا بمسِيرِك إليهم لهرَبُوا في رؤوسِ الجبال، وأنا سائرٌ معك، فدعاهُ ﷺ للإسلام فأَسْلَمَ، وضَمَّهُ ﷺ إلى بلال، فأخذَ بهم ذلك الرّجُلُ طريقاً إلى بني ثعلبة، فلما سمعوا بمسيرِ رَسُولِ الله ﷺ هربوا إلى رؤوس الجبال، فبلغوا ماءً يقالُ له: ذو أمر، فعسكَر به ﷺ، وأصابَهم مطرٌ كثيرٌ بلَّ ثيابهم، فنزعَ رَسُولُ الله ﷺ ثوبَيه ونشرَهُما على شَجَرَةٍ لِيَجِفّا، واضطجع على مَرْأى من المشركين، واشتغلَ المسلمونَ في شؤونِهم، فبعثَ المشركون دُعْثُوراً الذِي هوَ سيِّدُ القوم وأَشجَعُهم، وهو المُجَمِّعُ لهم، فقالوا له: قدِ انْفَرَدَ محمّدٌ فعليك به. فجاء دعثورٌ ومعَه سيفُه حتّى قام على رأسِ رَسُولِ الله ﷺ، فقال: يا محمد، أَتخافُني؟، قال: «لَا»، قال مَنْ يمنعُك مني اليوم؟، فقالَ ﷺ: «الله»، فوقع السّيفُ من يدِه، فأخذ النبيُّ ﷺ السيفَ، وقال: «فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي»؟ قال: لا أحد، كن خير آخِذٍ يا محمَّد. فعفا عنه[1]. ثم رجعَ

(١) هذه قصّة مشهورة ورُوِيَت بألفَاظٍ مختلفة، واخْتُلِفَ في اسم المُشْرِك، هل هو (دُعْثُور) أو (غَوْرَث)؟، وهل أسلم أم لا؟، فرُوِيَ أنه أسلمَ ورجعَ إلى قومِه فاهتَدى به خَلْقٌ كثير. وروي=

المدينةَ ولم يَلْقَ حَرْباً وكانت مُدَّةُ غَيبتِه إحدى عشرة ليلة.

١١ ـ غَزْوَةُ بَحْرَان

لما بلغَ رسولَ الله ﷺ أنَّ بِبَحْرَان جمعاً كثيراً من بَنِي سُلَيم، خرج في ثلاثمائة من أصحابه لِسِتٍّ خَلَونَ من جمادَى الأولى من السنة الثالثة، واستخلف على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، ولم يُظْهِرْ وُجْهَةً للسّير وحَثَّ السيرَ حتى بلغ ذلك الموضع المذكور، فوجدهم قد تفرقوا في مِياههم، وكان ﷺ قبل أنْ يصل إليهم بليلة قد لقيَ رَجُلاً مِن بَنِي سُلَيم، فأخبره أنّ القومَ قدْ تفرّقوا، فحبسَه مع رَجُلٍ، وسار إلى أنْ وجدهم كذلك، فأطلق الرجل، وأقام بذلك المحلّ أياماً، ثم رجع ولم يَلْقَ حرْباً، وكانت غيبته عشر ليال.

وَفِي السَّنَةِ الثّالثة كانَ العَقدُ لعُثمانَ بنِ عفّان على أمِّ كلثوم بنتِ النبيِّ ﷺ، وكان العقد له ﷺ على حفصة بنت عمر بن الخطاب، في شعبان لما انقضت عدّتها من خُنَيس بنِ حُذَافة الذي اسْتُشْهِدَ ببَدْرٍ، بعد أنْ عرضَها عمرُ على أبي بكرٍ فلم يجبْه لشيءٍ، وعرضها على عثمانَ فلم يجِبْهِ لشيءٍ، فقال عمرُ: يا رسولَ الله قد عَرَضْتُ حفصةَ على عثمان فأعرض عنّي، فقال له ﷺ «إنّ اللهَ قَدْ زَوَّجَ عُثْمَانَ خَيْراً مِنْ ابْنَتِكَ، وَزَوَّجَ ابْنَتَكَ خَيْراً

= أنه قال: لا أسلم غير أني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فلما خَلَّى سبيلَه رجعَ إلى أصحابه فقال: جئتكم من عند خَيرِ النّاس. وهذا يُؤَكِّدُ أنّ القصّةَ تعدّدَت كمَا سَيأتي. وقال الحافظ في الفتح: وفي مراجعة الأعرابي له ﷺ في الكلام دليل أنّ الله منع نبيَّه منه وإلا فما حاجته لمراجعته مع حاجته إلى الحظوة عند قومه بقتله، ولم يعاقبه ﷺ لشدَّةِ رغبتِه في اسْتِئْلَافِ الكفّار ليدخلوا في الإسلام، وفي الحديث بيانُ فُرْطِ شجاعة النبيّ ﷺ، وقوة يقينه، وصبره على الأذى، وحلمِه عن الجُهَّال.

مِنْ عُثْمَانَ»، فتزوّجَ عثمانُ أمَّ كلثوم، وتزوج ﷺ حفصة.

وتزوج ﷺ زينبَ بنت خُزَيمة في رمضان من هذه السَّنَة، وتزوجَ زينبَ بنت جحش، وكان اسمها بَرّة فسماها ﷺ زينب، وقد كان ﷺ خطبها لمولاه زيد بن حارثة، فَقَالَتْ: لستُ بِنَاكِحَتَهُ، فقال لها: «بَلْ انْكِحِيْهِ»، فَقَالَتْ: يا رسول الله، أشاورُ نفسي فإني خير منه حسباً. وفي رواية: أنها وَهَبَتْ نفسَها للنبيِّ ﷺ، فزوّجها من زيدٍ، فسخطت هيَ وأخُوها، ثم قال: إنّما أردَنَا رَسُولَ الله ﷺ فزوّجها عبده، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فَقَالَتْ: رَضِيتُ.

وروى مقاتل: أنّ زيدَ بن حارثة لما أرادَ أنْ يتزوّج زينبَ جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ، وقال: يا رسول الله، اِخْطِبْ عَليَّ زينبَ بنتَ جحش، فقال له: «لَا أَرَاهَا تَفْعَلُ، إِنَّهَا أَكْرَمُ مِنْكَ نَسَباً»، فقال: يا رَسُول الله، إذا كلّمْتَها أنتَ، وقلتَ: زيدٌ أكرَمُ الناس عليَّ، فعَلَتْ، قال: «إِنَّهَا امْرَأَةٌ لَسْنَاء»! ، ثمَّ أرسلَ النَّبِيُّ ﷺ علياً إلى أهلِها ليكلّمَهم، فعاد وأخبره بكراهتها وكراهة أخيها لذلك، فأرسل إليهم النَّبِيُّ ﷺ، يقول: «قَدْ رَضِيتُهُ لَكُمْ، وَأَقْضِي أَنْ تُنْكِحُوهُ»، فأَنْكَحُوه، وساق إليهم رَسُولُ الله ﷺ عشرةَ دنانير، وستين درهماً، ودرعاً وخماراً ومِلْحَفَةً وإزَاراً، وخمسين مُدّاً من الطّعام، وعشرة أمداد من التمر، ثم جاء النبيُّ ﷺ بعد ذلك إلى بيتِ زَيدٍ يطلبُه، فتقدّمَت إليه زينبُ، فَقَالَتْ له: هوَ ليسَ هنا يا رسول الله، فادْخُلْ، فأَعرضَ عنها، وأبى أَنْ يدخلَ، فلما انصرفَ ﷺ سمعتْهُ زينبُ يقول: «سُبْحَانَ مُصَرِّف القُلُوب»، فلما جاء زيدٌ

أخبرَتْه الخبرَ، فجاء زيدٌ إلى النبيِّ ﷺ، وقال: يا رسول الله، لعل زينب أعجبتك أفأفارقُها لك؟، فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيكَ زَوْجَكَ».

وكان قلبُ زينبَ مَصْرُوفاً عَن زيد، وكانت تَتَمَنَّعُ عليه، وتَتَرَفَّعُ عليه بنسبِها وشرفِها، فجاءَ زيدٌ إلى النبيِّ ﷺ وقال: يا رسول الله، إنّ زينبَ قد اشتدّ عليَّ لسانُها، وأنا أريد أنْ أطلّقَها، فقال له: «اِتقِّ اللهَ؛ وَأَمْسِكْ عَلَيكَ زَوْجَك»، فقال: قد اسْتَطَالَتْ عَليّ، فأذنَ له ﷺ في طلاقِهَا، فَطَلّقَهَا. فلما انقضَت عِدّتُها، أرسلَ إليها رَسُولُ الله ﷺ زَيداً، فقال له: «اِذْهَبْ فَاذْكُرْ زَينَبَ عَلَيَّ» فانطلق، فقال: يا زينب، أَبْشِري، أرسلني رَسُولُ الله ﷺ يَذْكُرُك، فَقَالَتْ: ما أَنَا بِصَانِعةٍ شيئاً حتّى أُؤامِرَ رَبّي ـ أي أَسْتَخِيرَه ـ. فنزل الوحْيُ على النبيِّ ﷺ بأنَّ الله تعالى زَوَّجَهُ زَينَب، فذهب إليها رَسُولُ الله ﷺ، فدخل عليها بغيرِ إذْنٍ، فَقَالَتْ: يا رسولَ الله، تدخُلُ عليَّ بلا خِطْبَةٍ ولا إِشْهَاد؟!، فقال لها: «اللهُ المُزَوِّجُ، وَجِبْرِيلُ الشَّاهِدُ».

والآيَةُ التي نزلت في شأن زواجِه ﷺ من زينب هي قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وإنّما وَجّهَ الله تعالى هذا العَتْبَ لنبيِّه ﷺ لأنه كان قد أَعْلَمَهُ أنَّ زينبَ ستكونُ من أزواجِه ﷺ، فلما شكا إليه زيدٌ، قال له: «أَمْسِكْ عَلَيكَ زَوْجَكَ

وَاتَّقِ اللهَ» ، فأخفى في نفسِه ما الله مظهره ، وهو ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها ، وكان ذلك خشية من اليهود والمنافقين أن يقولوا: تزوج امرأة ابنِه. وقد جَعَلَ اللهُ تعالى طلاق زيدٍ لزينبَ وتزوج النَّبِيِّ ﷺ بها لإزالة حُرْمَةَ التَّبنِّي.

وقد أَوْلَم النبيُّ ﷺ عليها بما لم يُولِمْ به على نسَائِه ، فذبح شاة وأطعم ، فخرج الناسُ ، ويقي رجالٌ يتحدّثون في البيت بعد الطعام ، فشقَّ ذلك عَلى رَسُولِ الله ﷺ ، فجعل النَّبِيُّ ﷺ يخرجُ ثم يرجع ، وهم قعودٌ يتحدّثون ، فانطلق ﷺ إلى حجرةِ عائشةَ ، فقال: «السَّلَامُ عَلَيكُمْ أَهْلَ البَيْتِ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ» ، فَقَالَتْ له: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ، كيف وجدت أهلك بارك الله لك. ثم دخل حُجَرِ نسائِه كلّهُنّ يقولُ لهُنَّ كما قالَ لعائشة ، ويقلنَ له كما قالت عائشة. ثم رجع النَّبِيّ ﷺ فوجدَ القومَ في البيتِ يتحدّثون ، وكان النَّبِيُّ ﷺ شديدَ الحياءِ ، فخرجَ فطلبَها إِلَى حُجْرَةِ عائِشَة ، ثمّ أُخْبِرَ أَنَّ القومَ خَرجُوا ، فَرَجَعَ فَمَا أَنْ وَضَعَ رجلَه في أَسْكفَةِ بابِ البيت حتّى نَزَلَتْ آيةُ الحجاب[1]. فكانت أدباً أدَّبَ الله تعالى به الثُّقَلَاءَ.

١٢ ـ غَزْوَةُ أُحُد

كانت في شوال ، سنة ثلاثٍ باتفاق الجمهُور ، وأُحُدٌ جبلٌ من جبالِ المدينة.

---

(١) وهي قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وسببها أنَّ قُرَيْشاً لما أصابها ما أصابها يوم بَدْرٍ؛ قام عبدُ الله بنُ أبي ربيعة وعكرمةُ بنُ أبي جهلٍ وصفوانُ بنُ أمية، ورجالٌ آخرون من أشرَافِ قريش، فمشوا إلى أبي سُفْيَانَ، وإلى مَن كان له تجارة في تلك العِيرِ التي كانت سببَ وقعةِ بَدْرٍ، وكانوا قد أَوْقَفُوا تلك العِيرَ في دار الندوة ولم يعطوها لأصحابها، فقالوا: إنَّ مُحَمَّداً قد وَتَرَكم، وقتلَ خيارَ رجالكم، ولم تدركوا دماءَهم، فأعينونا بهذا المال على حَرْبِهِ لعلّنا ندركُ منه ثأْراً عمّن أصابَ منّا، فقالوا لهم: نحنُ طيّبُو النُّفُوسِ أنْ تُجَهِّزُوا بربح هذه العير جيشاً إلى محمّد، وقال أبو سُفْيَانَ: وأنا أوّل من أَجابَ وبنو عبد مناف، فجعلوا لذلك الرِّبحَ، وسُلِّمَ لأهلِ العيرِ رُؤُوسَ أموالهم وكانت خمسين ألف دينار، وأخرجوا أرباحَها وكانت خمسين ألف دينار، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وتجهّزت قريشٌ ومن والاَهم من قبائل كِنانة وتهامة، وقال صفوان بن أمية لأبي عَزّة: يا أبا عزّة، إنك رجلٌ شاعرٌ فَأَعِنَّا بلِسَانك، ولك عليَّ إنْ رَجعْتَ أَنْ أُغْنِيكَ، وإِنْ أُصِبْتَ أَجْعَلُ بناتَك مع بناتي، يصيبهنّ ما أصابهنّ من عُسْرٍ ويُسْرٍ، فقال: إنَّ مُحَمَّداً قد مَنَّ عَليَّ وأَخذَ عليَّ أَنْ لا أظاهرَ عليه أحداً حين أطلقني وأنا أسيرٌ في أسارى بَدْر، فلا أريدُ أنْ أظاهرَ عليه، قال: بلى؛ فأعِنَّا بلسَانِك. فخرج أبو عَزّة ومُسَافِعُ بْنُ عِيَاضٍ يَسْتَنْفِرَان النّاسَ بأشعارِهما، ودعا جُبَيرُ بن مُطْعم بن عدي غُلاماً له حَبَشِيّاً يُقَالُ له: وَحْشِيّ، وكَان يَقْذِفُ بِحَرْبَةٍ له قَذْفَ الحبشة، وقلّما يخطىءُ بها، فقال له: اخرجْ مع الناس، فإنْ أنتَ قتلتَ حمْزَةَ عَمَّ محمَّدٍ بعمّي طُعَيْمَةَ بْنِ عَدِيّ فأنتَ عَتيق. وقيل: أَنَّ وحشي كان غلاماً لطُعَيمَةَ، وأَنّ ابْنَةَ طُعَيْمَةَ قالت له: إنْ قتلتَ مُحَمَّداً أو حمزةَ أو علياً في أَبِي فأنتَ عَتِيقٌ؛ فإني

لا أدري في القوم كُفْؤاً له غيرهم.

ثم خرجوا وخرجت معهم النّساء بالدّفوفِ والمعازف والخمور، وكان في نساء قريش خمس عشرة امرأة خرجنَ مع أزواجهن، منهنّ: هند بنت عتبة زوجة أبي سُفْيَانَ، وأمّ حكيم بنت طارق زوجة عكرمة، وسلافة زوجة طلحة بن أبي طلحة، وكانت مُهِمّتهنّ أنْ يبكِينَ قتلى بَدْرٍ ويَنُحْنَ عليهم، ليُحَرِّضْنَ الرّجالَ على القِتَال، وعدم الهزيمة والفِرَار.

فأرسلَ العبّاسُ بنُ عبد المطلب بذلك إلى النبيِّ ﷺ. وكانوا أرادوا أَنْ يخرجَ معهم، فاعتذر إليهم بما لَحِقَهُ يومَ بَدْر، ولم يساعدْهم بشيء، وكتبَ كتاباً ثم أرسلَه مع رجل استأجرَه من بني غِفَار وشَرَطَ عليه أَنْ يأتيَ المدينة في ثلاثة أيام، ففعل كذلك، فجاء إليه ﷺ وهو بِقُباء، فلمّا جاءَهُ الكتابُ فكَّ خَتْمَهُ ودَفعَه لأُبَيِّ بن كعْب فقرأَ عليه الخبرَ، فاسْتَكْتَم ﷺ أُبَيّاً، ثُمّ نَزَلَ على سَعْدِ بنَ الربيع فأخبرَه واسْتَكْتَمَهُ.

وسَارَت قريشٌ وهم ثلاثةُ آلاف رجل، وفيهم جَمْعٌ من الأحابيش ومن حلفاء قريش، والأحابيش هم الذين حالفوا قُرَيْشاً، وهم: بنو المصطلق، وبنو الهون بن خزيمة، فاجتمعوا عند جَبَلٍ حبشي بأسفل مَكَّةَ، وتحالفوا على أنهم مع قريشٍ يَداً واحدةً على غيرهم، ما سَجَى ليلٌ ووضَحَ نهَارٌ وما رَسَا حبشيٌّ مكانَه، فسُمّوا أحابيش باسم الجبل. وقيل: إنّما سُمُّوا بذلك لتَحَبُّشِهم، أي: تَجَمُّعِهم. وكان فيهم مائتا فارس، وثلاثة آلاف بعير، وسبعمائة دارع، وخرج معهم أبو عامر الرَّاهب في سبعين فارساً من الأوس، فساروا حتى نزلوا مقابل المدينة، بذي الحُلَيفَةِ، وأَرْجَفَ اليَهودُ والمنافقون، فبعثَ النبيُّ ﷺ عيناً

له فأتاه بخبرهم.

ولما وصلَ كفّار قريش ومَن معهم إلى الأبواءِ أرادوا نبْشَ قَبرِ أُمّهِ ﷺ، وكان المُشِيرُ عليهم بذلك هند بنت عتبة زوجة أبي سُفْيَانَ، فَقَالَتْ: لو بحثْتُم قَبْرَ أُمِّ مُحَمَّدٍ، فإِنْ أَسَرَ منكم أَحَداً فَدَيتُمْ كلّ إنسَانٍ بِأَرَبٍ مِنْ آرَابِهَا ـ أَي: جُزْء من أجزائها ـ. فقال بعض المشركين من قريش: لا يُفْتَحُ هذا البابُ، وإلا نَبَشَ بنو بَكْرٍ موتَانا عند مجيئِهم.

وحُرِسَتِ المدينةُ، وباتَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، وأُسَيدُ بن حُضَير، وسعْدُ بنُ عبادة، وعليهم السّلاحُ بباب رَسُولِ الله، حتى أصبحوا. ورأى رَسُولُ الله ﷺ رُؤيا، فقال: «رَأيتُ البَارِحَةَ في مَنَامِي خَيراً، رَأَيْتُ بَقَراً تُذْبَحُ، ورَأَيْتُ فِي ذُبَابَةِ سَيْفِي ثَلْماً، وَرَأَيْتُ أَنّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ»، فقالوا: يا رَسُولَ الله، مَا أوّلتها؟، قَالَ: «أَمّا البَقَرُ فَهِيَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي يُقْتَلُونَ، وَأَمّا الثّلْمُ الّذِي رَأَيْتُ فِي ذُبَابِ سَيْفِي، فَهُوَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُقْتَلُ، وأما الدِرْعُ الحَصِينَة فَأَوّلْتُهَا المَدِينَةَ». ثم قال ﷺ لأصحابه: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِالمَدِينَةِ وَتَدَعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مُقَامٍ، وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ فِيهَا»، فكان ذلك رَأْيُ أكابر المهاجرين والأنصار، وكانوا قد شبكوا المدينة بالبُنْيَان من كل ناحية، فهيَ كالحِصْنِ، ووافق على هذا الرّأي عبد الله ابن أُبَيٍّ ابن سلول، فإنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَرسل إليه يسْتَشِيرُه، ولم يَكُنْ يَسْتَشِرْهُ قبل ذلك، فقال له: يا رسول الله، أقم بالمدينة ولا تخرجْ، فوَالله ما خرجنا منها إلى عَدُوٍّ لنَا قَطّ إلا أَصَابَ مِنّا، ولا دخلها إلا أصَبْنا منه، فَدَعْهُمْ يا رسول الله، فإنْ أقاموا أقاموا بشرِّ مجلس، وإنْ دخلوا قاتلهم الرّجال في وجوههم، ورماهم

الصّبيانُ بالحجارة من ورائهم، وإنْ رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

وقال رجالٌ ـ غَالِبُهم أَحْدَاثٌ أحبّوا لِقَاءَ العدوّ لأَسَفِهم على ما فاتَهم من مَشْهِد بَدْرٍ ـ: يا رسُولَ الله أُخْرُجْ بنا إلى أعدائنا، لا يرونا أنا جَبُنّا عَنهم وضَعفْنا، فيكون ذلك جَرَاءَةً منهم علينا، والله لا نطيع العربَ في أَنْ تدخلَ علينا منازلنا. ووافقهم على ذلك حَمْزَةُ فقال للنّبيِّ ﷺ: والذي أَنْزَلَ عليكَ الكِتَاب لَا أَطْعَمُ طعَاماً حتى أجَالدهم بسيفي خارج المدينة. كل ذلك ورَسُولُ الله ﷺ كارِهٌ للخروج، فلم يزالوا برَسُولِ الله ﷺ حتى وافق على ذلك، فصلى الجمعةَ بالناس، ثم وعظَهم، وأمرهم بالجِدّ والاجتهاد، وأخبرهم أنّ لهم النصرة ما صبروا، وأمرهم بالتّهيؤ لعَدوّهم، ففرحَ الناسُ.

ثمّ صلى رَسُولُ الله ﷺ بهم العصرَ وقد اجتمعوا وحضرَ أهلُ العَوَالي، ثم دخلَ ﷺ بيتَه، ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فعَمَّماهُ وأَلْبَسَاهُ، واصطَفَّ الناسُ ينتظرون خروجَه ﷺ، فقال لهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير: اسْتَكْرَهْتُم رَسُولَ الله ﷺ على الخرُوج، فرُدّوا الأَمْرَ إِلَيهِ، فما أمَرَكم به وما رأيتم له فيه رأياً فأطيعوه. فخرجَ ﷺ، وقد لبسَ سِلَاحَه، وظاهرَ بين درعين ـ لبسَ دِرْعاً فوقَ دِرْع ـ، وتَقَلّدَ السَّيْفَ، وألقى التّرسَ في ظهره، وتقَلّد القَوْسَ، وأخذَ قَنَاتَهُ بيدِه، ورَكِبَ فرسَه السَّكْبَ، فقالوا له: يا رَسُولَ الله، ما كان لنا أنْ نُخَالِفَك، ولا نَسْتَكْرِهَكَ على الخروج، فاصنعْ ما شِئْتَ، وإِنْ شِئْتَ فَاقْعُدْ. فَقَالَ ﷺ: «قَدْ دَعَوْتُكُم إِلَى القُعُودِ فَأَبَيْتُمْ، وَمَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضعَهَا حَتّى يُقَاتِلَ».

وعقد ﷺ ثلاثةَ أَلْوِيَة: لواءً للأوس، وكان بيد أسيد بن حضير،

ولواءً للمهاجرين وكان بيد علي بن أبي طالب، وقيل: بيد مصعب بن عمير، ولواءً للخزرج وكان بيد الحباب بن المنذر، وقيل: بيد سعد بن عبادة. وخرَج في ألفٍ، وقيل: تسعمائة، منهم مائة دَارع، واستعمل على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، وسارَ إلى أنْ وصلَ رأس الثنية، وجد عندها كتيبةً كبيرة، فقال: «مَا هَذا»؟، قالوا: هؤلاء حُلَفَاء عبد الله بن أبي ابن سلول من اليهود، فقال: «أَسْلَمُوا»؟، فقيل: لا، فقال: «إِنّا لَا نَنْتَصِرُ بِأَهْلِ الكُفْرِ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ»، وأمرَ بِرَدِّهم، ثم عَسْكَرَ ﷺ فاستعرضَ أصحابه، فَرَدَّ جمعاً من الشّبَابِ لم يرهم بلغوا خمسَ عشرة سنة، منهم: عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظُهَيْر، وأبو سعيد الخدري، وسعد بن خيثمة، وزيد بن حارثة، ورافع بن خديج، وسمرة بن جندب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم. ثم أجازَ ﷺ رافعَ بن خديج لما قيل له إنّه رَامٍ، فقال سَمُرَةُ بن جندب: أجازَ رَسُولُ الله رافعَ بنَ خديج ورَدّني وأنا أَصْرَعُه!. فقال ﷺ لهما: «تَصَارَعَا»، فصرع سَمُرَةُ بنُ جندب رافعاً فأجازه.

وممّن رَدَّهم ﷺ لِصِغَرِ سِنِّهِ: سعدَ بنَ حَبْتَة، فلما كان يوم الخَنْدَق رآه ﷺ يقاتل قتالاً شديداً، فدعاه ومسح على رأسِه، ودعا له بالبركة في ولده ونسْلِه، فكان عمّاً لأربعين، وخالاً لأربعين، وأَباً لعشرين. وما فَرَغَ العَرْضُ إلّا وقد غَابتِ الشّمسُ، فأذّنَ بلالٌ بالمغربِ، فَصَلى رَسُولُ الله ﷺ بأصْحَابِه، ثم أَذّنَ بالعشاء فصَلى بهم، ثم باتَ، واستعمل على الحَرَس لتلك الليلة محمد بن مسلمة في خمسين رجلاً يطوفون بالعسكر، ونامَ رَسُولُ الله ﷺ، وذكوان بن عبد قيس يحرُسُه ولم يفارقْه حتّى كانَ السَّحَرُ، لأنّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «مَنْ يَحْفَظُنَا اللَّيْلَة»؟.

فلما استيقظ ﷺ قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ الملائِكَةَ تَغْسِلُ حَمْزَةَ»، ثمّ أَدْلَجَ رَسُولُ الله ﷺ في السَّحَرِ، فحانت صلاةُ الصبح بِالشَّوْطِ ـ وهو موضعٌ بَيْنَ المَدِينَةِ وَأُحُدٍ ـ، ومن ذلك المكان رَجعَ عبدُ الله بن أبي ابن سلول بمَن معه من أهل النفاق، وكانوا ثلاثمائة رَجُل، وهو يقول: عَصَاني، وأَطاع الولدان ومن لا أرَى له عِلْماً، ما نَدْرِي عَلَامَ نَقْتُلُ أَنفُسَنا؟ ارجعُوا أيها الناس. فرجعوا، فتبعهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام الخزرجي رضي الله عنه، وكان في الخزْرَج كعبد الله بن أُبيّ، يقول: يا قوم، أُذكّرُكم الله أن تَخْذُلُوا قَوْمَكُم ونَبِيّكم عندما حضرَ عدوّهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أَسْلَمْنَاكُم، ولكنْ لا نَرَى أنّه يكونُ قتالٌ، وأبوا إلّا الانصراف، فقال لهم: أبعدكم الله يا أعداءَ الله، سَيُغني الله تعالى عنكم نبيَّه.

فلما رجع عبدُ الله بن أبيّ ابن سلول بمن معه، قالت طائفةٌ: نقتلُهم، وقالت طائفة أخرى: لا نقتلهم، وهمَّا أَنْ يَقْتَتِلَا، والطَّائِفَتَانِ هُمَا: بنُو حارثة من الأوس، وبنُو سلمة من الخزرج، فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، وقيل: لما رأى بنو سلمة، وبنو حارثة عبدَ الله بن أبي قد خَذَلهم، همّوا بالانصراف، وكانوا جَنَاحَين من العسكر، ثم إنّ الله تعالى عصمَهم من ذلك، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، فبقيَ مع رَسُولِ الله ﷺ سبعمائة رجل.

ثمّ قال النبيُّ ﷺ لأصحابه: «مَنْ يَخْرُجُ بِنا عَلَى القَوْمِ مِنْ كَثَبٍ

ـ طَرِيقٍ قَرِيْبٍ ـ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيهِم»؟، فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، فنفذَ بِهِ مِن حَرّةِ بني حَارِثة، وبينَ أموالِهم، حتّى دخلَ في حائطٍ لمِرْبعِ بنِ قَيْظِيّ الحَارِثي، وكان رَجُلاً ضَرِيراً، منافقاً، فَلَمَّا سَمِعَ حِسَّ رَسُولِ الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ قَامَ يَحْثِي فِي وُجُوهِهِمْ التّرَابَ، وَيَقُولُ: إنْ كُنْتَ رَسُولَ الله فَإنّي لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ حَائِطِي، وفي يَدِه حَفْنَةٌ من تُرَابٍ وقال: والله لَو أَعْلَمُ أنّي لَا أُصِيبُ بِهَا غَيرَكَ يَا محمَّدُ لَضَرَبْتُ بِهَا وَجْهَكَ، فابتدَرَهُ سعدُ بنُ زيد، فضَرَبه بالقَوسِ في رَأسِه فَشَجَّه، وأرادَ القومُ قَتْلَه، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَقْتُلُوهُ، فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصَرِ»، وغضب أُناسٌ من بني حارثة كانوا منافقين على مِثلِ رَأيه، ممّن لم يرجع مع عبد الله بن أبي، فهَمَّ بهم أسيدُ بن حضير، فأومَأ إليه رَسُولُ الله ﷺ بتركِ ذلك.

ومَضَى رَسُولُ الله ﷺ حتّى نَزَلَ الشِّعبَ مِن أُحُدٍ، فجعل ظهرَ عَسْكَرِه إلى أُحُدٍ، واسْتَقْبَلَ المدِينة، وصَفَّ المسلمين بجانبِ جبَلِ أُحُد، وباتَ به تلك الليلة، وحانت صلاةُ الصبح، فأذّنَ بلال وأقامَ، وصلى رَسُولُ الله ﷺ بأصحابه صفوفاً، والمشركون يرونهم، ثم خطبَ ﷺ بهم خطبةً حثّهُم فيها على الجهاد.

ولما أقبلَ خالدُ بنُ الوليد ومعه عكرمة بن أبي جهل على خَيل المشركين، بعثَ رَسُولُ الله ﷺ الزّبيرَ بنَ العوام في خَيلٍ فجعلَهم بِإزَائِهما، وأَمَرَ بخيلٍ أُخْرَى، فكانوا من جانبٍ آخر، وقال لهم ﷺ: «لَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُوذِنَكُمْ، وَلَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حتّى آمُرَه بِالقِتَالِ»، وكان الرّماةُ خمسين رجلاً، فأمّرَ عليهم عبدَ الله بنَ جُبير، وقال: «انْضَحِ الْخَيْلَ عَنّا بِالنّبْلِ لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، إنْ

كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَاثْبُتْ مَكَانَك لَا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكِ»، وجَعَلَ الرُّماةَ على جبَل عينين الواقع على يسار جبل أحُد، وقال لهم: «لَا تَبْرَحُوا مَكَانَكم حتّى أُرْسِلَ إِلَيْكُم، وإِنْ رَأَيتُمُونَا تَتَخَطّفُنا الطَّيرُ، وإِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَى القَومِ وَأَوْطَأْنَاهُم، فَلَا تَبْرَحُوا حَتّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرَكُونا». وفي رواية أنه قال لهم: «الْزَمُوا مَكَانَكُم لَا تَبْرَحُوا مِنْهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمُونَا نَهْزِمُهُم حَتّى نَدْخُلَ فِي عَسْكَرِهِمْ فَلَا تُفَارِقُوا مَكَانَكُم، وإِنْ رَأَيْتُمُونا نُقْتَلُ فَلَا تُغِيثُونَا وَلَا تَدْفَعُوا عَنَّا، وارْشُقُوهُم بِالنَّبْلِ فَإِنَّ الخَيْلَ لَا تُقْدِمُ عَلَى النَّبْلِ، إِنَّا لَنْ نَزَالَ غَالِبِينَ مَا مَكَثْتُم مَكَانَكُم، اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَيهِمْ».

وأخرج رَسُولُ الله ﷺ سيفاً مكتوبا في إحدَى صَفْحَتَيه:

فِي الجُبْنِ عَارٌ وَفِي الإِقْبَالِ مَكْرُمَةٌ وَالمَرْءُ بِالجُبْنِ لَا يَنْجُو مِنَ القَدَرِ

وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ»؟، فَقَامَ إِلَيْهِ رِجَالٌ، منهم: عليٌّ وعمرُ والزبيرُ، فَأَمْسَكَهُ عَنْهُمْ حَتّى قَامَ إِلَيْهِ أَبُو دُجَانَةَ سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ، فَقَالَ: وَمَا حَقُّهُ يَا رَسُولَ الله؟، قَالَ: «أَنْ تضْرِبَ بِهِ الْعَدُوَّ حَتّى يَنْحَنِيَ»، فقَالَ: أَنَا آخُذُهُ يَا رَسُولَ الله بِحَقِّهِ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَكَانَ أَبُو دُجَانَةَ رَجُلاً شُجَاعاً، يَخْتَالُ عِنْدَ الْحَرْبِ، وكَانَتْ لَهُ عِصَابَةٌ حَمْرَاءُ، إِذَا اعْتَصَبَ بِهَا عَلِمَ النّاسُ أَنَّهُ سَيُقَاتِلُ، فَلَمّا أَخذَ السَّيْفَ مِنْ يَدِ رَسُولِ الله ﷺ أَخْرَجَ عِصَابَتَهُ تِلْكَ، فَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ وَجَعَلَ يَتَبَخْتَرُ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، فقَالَ ﷺ حِينَ رَأَى أَبَا دُجَانَةَ يَتَبَخْتَرُ: «إِنّهَا لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا الله إِلّا فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ».

وعند اصْطِفَافِ القوم نادى أبو سُفْيَانَ بنُ حَرْبٍ فقال: يا معشر الأوس والخزرج خَلّوا بيننا وبين بني عمِّنا، ونَنْصَرِفُ عنكم، فشتموه أقبَحَ شَتْمٍ، ولعنوه أَشَدَّ اللّعن. وخرجَ رَجُل من المشركين على بعيرٍ له فدعا للبِرَازِ، فأَحْجَمَ عنه الناسُ حتّى دعَا ثلاثاً، فقام إليه الزبيرُ، فوَثَبَ حتّى استوى معه على بعيرِهِ ثمّ عانقه، فاقْتَتَلا فَوقَ البعير، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «الذِي يَلي حَضِيضَ الأَرْضِ مَقْتُولٌ»، فوقعَ المشركُ، ونزل عليه الزبيرُ فذبَحَه، فأثنى عليه رَسُولُ الله ﷺ، وقال: «لَو لَمْ يَبْرُزْ إِلَيهِ الزُّبَيرُ لَبَرَزْتُ إِلَيه، إِنَّ لِكُلِّ نَبيٍّ حَوارِيّاً، وَإِنَّ حَوَارِيّ الزُّبَير».

وخرج من المشركين طلْحَةُ بن أبي طلحة، من بني عبد الدّار، وكان بيده لِوَاء المشركين؛ فطلبَ المبَارَزَةَ مِراراً، فلَمْ يَخْرُج إِلَيهِ أَحَدٌ، فقال: يا أصحابَ محمّد، إنكم زعمتم أَنَّ قتلاكم إلى الجنّة، وأنَّ قتلانا إلى النّار، تزعمون أنّ اللهَ يُعَجِّلُنا بسيوفكم إلى النّار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنّة، فهل منكم أَحَدٌ يعجلني بسيفه إلى النّار، أو أعجله بسيفي إلى الجنّة؟!، كذبتم؛ واللّات والعُزّى لو تعلمون أَنّ ذلك حقّاً لخرَج إليَّ بعضُكم، فخرج إليه عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، فقتلَه. وفي رواية: أنهما التقيا بين الصّفين فبَدَرَهُ عَليٌّ فَصرعَه؛ قطعَ رِجْلَه فوقع على الأرض وبَدَتْ عورَتُه. فقال: يابنَ عمّي أَنشُدُك اللهَ والرّحِمَ، فرجع عنه ولم يُجْهِزْ عليه، فقال له بعض الصحابة: أفلا أَجْهَزْتَ عليه؟، فقال: إنه استقبلني بعورَتِه، فعطفني عليه الرّحِم، وعرَفتُ أنّ الله قد قتله، فقال له ﷺ: «اقْتُلْهُ»، فقَتَلَهُ.

ثم أخذَ لواءَ المشركين أخو طلحة عثمانُ بنُ أبي طلحة، فحمل عليه حمزَةُ

فقطعَ كَتِفَه حتّى انتهى إلى مُؤْتَزرِهِ، ورَجعَ حمزةُ وهو يقول: أنا ابنُ سَاقي الحَجِيج، ثم أخذه أخو عثمان أبو سَعيد بن أبي طلحة، فرَمَاه سَعْدُ بنُ أبي وقّاص فأصَابَ حَنْجَرَتَهُ، فقتَلَه، فحملَ اللواءَ مُسَافِعُ بنُ طلحة بن أبي طلحة، فرَمَاهُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الْأَقْلَحِ، فقتَلَه، ثُمّ حمَلَه أخوه الحَارِثُ بنُ طلحة، فرَمَاهُ عاصِمٌ فقتَله، وكانت أُمُّهُما سُلَافَةُ زوجةُ طَلْحَةَ معهما، فكانَ كُلُّ واحدٍ منهما بعدَ أَنْ رَمَاهُ عَاصِمٌ يَأتِي أُمَّهُ فَيَضَعُ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهَا، فَتَقُولُ: يَا بُنَيَّ مَنْ أَصَابَك؟، فَيَقُولُ: سَمِعْتُ رَجُلاً حِينَ رَمَانِي وَهُوَ يَقُولُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ أَبِي الْأَقْلَحِ. فَنَذَرَتْ سُلَافَةُ إنْ أَمْكَنَهَا الله مِنْ رَأْسِ عَاصِمٍ أَنْ تَشْرَبَ فِيهِ الْخَمْرَ، وجَعَلَتْ لِمَنْ جَاءَ لها بِرَأْسِه مِائَةً مِنَ الإبل.

ثم حملَ لواءَ المشركين أخو الحارثِ كلابُ بنُ طلحة فقتله الزُّبَيرُ، فحمله أخوه الْجُلَاسُ بنُ طَلْحَة، فقتله طلْحَةُ بنُ عُبَيدِ الله، ثم حمله شريحُ بنُ قَارِظ، فقُتِلَ ولم يُعرَف قاتِلُه، ثم حمله أبو زَيد بنُ عمرو بن عبد مناف بن هاشم بن عبد الدار، فقتله قُزْمَانُ، فحمله ولدٌ لِشُرَحْبيل بن هاشم، فقتله قُزْمَانُ أيضاً، ثمّ حملَه صُؤَابٌ غُلَامُ بني عبْدِ الدّار وكان حبَشِيّاً، فقاتل حتّى قُطِعَتْ يَدُهُ، ثم برك عليه فأخذَه لصَدْره وعنقِه حتّى قُتِلَ عليه، قتله قُزْمَانُ، وقيل: عَليٌّ.

وقد كان أبو سُفْيَانَ قال لأصحابِ لواء المشركين من بني عبد الدار لكي يحرّضَهم على القِتَال: يا بني عبد الدار، إنكم تركتُم لِوَاءَنا يومَ بَدْرٍ فأَصَابنا ما قَدْ رَأيتم، وإنما يُؤْتَى النّاسُ مِن قِبَلِ رَاياتهم إِذَا زَالَتْ زَالوا، فإمّا أَنْ تكفُونا لوَاءَنا، وإمّا أَنْ تُخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه، فهَمُّوا به وتَوعَّدُوه، وقالوا له: نحنُ نُسَلّم إليك لواءَنا؟!، سَتعلمُ غداً إذا التقينا كيفَ نصنعُ. وكان ذلك الذي أراده

أبو سُفْيَانَ منهم، فقد قاتل بنُو عبدِ الدار أصَحابُ لواءِ المشركين حميَّةً لذلك حتّى صُرِعوا جميعاً حولَ اللّواء، وعند وجودِ ما ذُكِرَ مِن مَقتل أصحابِ اللّوَاءِ صَارَ المشركون كتائِبَ مُتفرِّقة فجاسَ المسلمون فيهم ضرباً بالسيف حتّى أَجْهَضُوهُم، وكان شعارُ المسلمين يومئذٍ: "أَمِتْ أَمِتْ"، وكان شعارُ الكفّار: "يَا لِلْعُزَّى"، والعُزَّى صَنَمٌ لهم.

وكانت خيلُ المشركين قد حملت على المسلمين ثلاثَ مرّات في أوّلِ الأَمْرِ، ولكِنّها في كل مرّةٍ من تلك المرات تُنْضَحُ بالنَّبْلِ، فترجع مَفْلُولَةً مُتَفرِّقةً، وحَمَلَ المسلمون على المشركين فأضعفوهم قتلاً، ولمّا الْتَقَى النّاسُ وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وحمِيَت الحرْبُ، قَامَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَة فِي النّسْوَةِ اللاّتِي مَعَهَا، ثم أَخَذْنَ الدّفُوفَ يَضْرِبْنَ بِهَا خَلْفَ الرِّجَالِ، وَيُحَرّضْنَهُمْ على القِتَالِ، فَقَالَتْ هِنْدٌ فِيمَا تَقُولُ:

وَيْهَا بَنِي عَبْدِ الدّارْ　　وَيْهَا حُمَاةَ الأَدْبَارْ
ضَرْباً بِكُلّ بَتّارْ

وجعلت النّساءُ يَقُلْنَ:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ　　نَمْشِي عَلَى النّمارِقْ
وَالمِسْكُ فِي المفَارِقْ　　وَالدُّرُ فِي المخَانِقْ
إنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ　　وَنَفْرِشُ النّمَارِقْ
أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ　　فِرَاقَ غَيْرَ وَامِقْ

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سَمِعَ تحرِيضَ هِنْدٍ بما ذُكِرَ يقول: «اللّهُمَّ بِكَ أُحُولُ،



اللَّهُمَّ بِكَ أُصُولُ، اللَّهُمَّ بِكَ أُقَاتِلُ، حَسْبِيَ الله وَنِعْمَ الوَكِيل».

وقاتلَ أبو دُجَانَة يومئذٍ حتّى أمْعَنَ في النّاس. فعن الزّبير قال: وَجَدْتُ في نفسي حين سألتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السيفَ ثلاثَ مَرّاتٍ وأنا ابنُ عَمَّتِه، فمَنَعَنيهِ وَأعطَاه أبا دُجَانة، فقلت: والله لأنظرَنّ ما يَصْنعُ، فاتّبَعْتُه، فأخذَ عصابةً حمراءَ، فعصب بها رأسه، فَقَالَتِ الأنصار: أَخْرَج أبو دُجَانة عِصَابةَ الموت، وكانوا يقولون ذلك إذا تعصّب بها، فجعلَ لا يلقى أحداً إلا قتله، وكان إذا كَلَّ ذلك السيفُ يَشْحَذُه بالحِجَارَةِ، ولم يَزَلْ يَضْرِبُ به حتّى انحَنَى وصارَ كأنه مِنْجَلٌ[(١)]، وقد كان هناك رجلٌ من المشركين لا يدع لنا جريحاً إلا ذَفَّفَ عليه ـ أي أَسْرَعَ قَتْلَه ـ فدعوتُ اللهَ أنْ يجمعَ بينه وبين أبي دُجَانة، فالتَقيَا، فاختلفا ضربتين، فضربَ المشركُ أبا دجانة فاتّقَاها بِدَرْقَتِه فعَضّتِ الدَّرقةُ على سَيفِ المشرك فضربه أبو دجانة فقتله، ثمّ رأيتُه حملَ بالسّيفِ على رأس هِنْد بنت عتبة زوج أبي سُفْيَانَ، ثمّ رَدّ السيف عنها. وقال أبو دجانة: رَأَيتُ إنساناً يُحَمِّسُ النّاسَ حَمْساً شَدِيداً ـ أي: يُشَجِّعُهم ـ، فعمدت إليه، فلما حملتُ عليه بالسيف وَلْوَلَ ـ أي دعا بالوَيل، وقال: يَا وَيْلَاه ـ، فعلمتُ أنه امْرَأَةٌ، فتراجعت عنها، وأكرمتُ سيفَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَنْ أَضْرِبَ به امْرَأَةً.

وقاتل حمزةُ بنُ عبد المطلب قتالاً شديداً، ومرّ به سِبَاعُ بْنُ عَبدِ العُزّى، فقال له حمزة: هَلُمّ إليّ يَا ابنَ مُقَطّعَةِ البُظُورِ[(٢)]، أَتُحَادُّ اللهَ وَرَسُولَه؟ والتَقيَا

---

(١) **المِنْجَلُ**: حديدةٌ مُنحَنِيَةٌ ذاتُ أَسْنَانٍ حادَّةٍ، تستخدم آلةً للحَصَاد وقطع الحشيش والزّرع ونحو ذلك.

(٢) ناداه بذلك لأَنّ أُمَّه كانت تَخْتِنُ النّساءَ، ويُطْلَقُ في مَعرض الذَّمِّ وإنْ لم تَكُنْ أُمُّ مَنْ يُقَالُ له هذا خَاتِنَةً.

فضَربَهُ حمزةُ فقتله. قَالَ وَحْشِيّ: إنّي لأَنظُرُ إلَى حَمزَةَ يَهُدّ بِسَيْفِهِ النَّاسَ، مِثل الجَمَلِ الأَوْرَقِ، فتَقَدّمَنِي إليهِ سِبَاعُ بنُ عبدِ العُزّى، فَضَربَهُ حَمْزَةُ ضَرْبَةً فَمَا أَخْطَأَ رَأْسَهُ، وَهَزَزْتُ حَرْبَتِي، حَتّى إذَا رَضِيتُ مِنهَا دَفَعتُهَا عَلَيهِ، فَوَقَعَت فِي ثُنّتِهِ حَتّى خَرَجَتْ مِن بَينَ رِجْلَيهِ، فَأَقبَلَ نَحوِي، فَغُلِبَ، فَوَقَعَ، وَأَمهَلتُهُ حَتّى إذَا مَاتَ جِئتُ فَأَخَذْتُ حَرْبَتِي، ثُمّ تَنَحّيتُ عَنِ العَسْكَرِ، وَلَمْ تَكُنْ لِي بِشَيْءٍ حَاجَةٌ غَيْرَهُ.

وقد أَسْلَمَ وَحْشِيّ بعدَ ذلك، فإنّه في يوم فَتْح مَكّةَ فرّ إِلَى الطّائِف، وقد ضَاقَتْ عَليه الأرضُ بما رَحُبَتْ خوفاً، فقِيلَ له: ويحك؛ والله إنّهُ لا يَقْتُل أَحَداً مِن النّاسِ دَخَل دِينَه. فوَفَدَ مع أهل الطّائِف لما وَفَدُوا ليُسْلِمُوا، فلم يَرُعْهُ ﷺ إلّا وهو قَائِمٌ يشهدُ شهادةَ الحَقِّ، فقال له ﷺ: «أَنْتَ وَحْشِي»؟، قال: نعم. فسأله: «كَيفَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ»؟، فأخبره، فقال له النبيُّ ﷺ: «وَيحَكَ، غَيّبْ عَنّي وَجْهَكَ فَلَا أَرَاكَ».

وأقبل رَجُلٌ من المشركين مُقَنّعاً بالحَدِيدِ يقولُ: أنا ابنُ عُوَيْفٍ، فتلقّاهُ رَشِيدٌ الأنصاري، فضرَبه على عاتقه فقطعَ الدّرْعَ، وقال: خُذْهَا وأنا الغُلامُ الفَارِسيّ؛ ورَسُولُ الله ﷺ يَرَى ذلك ويَسْمَعُه، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «هَلّا قُلتَ: خُذْهَا وَأَنَا الغُلَامُ الأَنصَارِيّ»، فعَرض أَخُو ذلك المقتُول لِرَشِيد، وهُوَ يقول: أنا ابنُ عُوَيْفٍ، فضَرَبَهُ رشيدٌ على رَأسِه وعَليه المِغْفَرُ، ففَلَقَ رَأْسَهُ، وهو يقولُ: خُذْهَا وأَنا الغُلامُ الأنصَاري، فتبَسّمَ رَسُولُ الله ﷺ، وقال: «أَحْسَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ الله»، وكانَ يومَئِذٍ لَا وَلَدَ له.

وكان أبوعامر يُسَمّى في الجاهليّة (الرّاهب) فسماه النبيُّ ﷺ

(الفاسق)، وكان هو وعبد الله بن أبي ابن سلول من رؤوس أهل المدينة، ومن عظمائِها المتوّجين للرّياسة على أهلها، وكان أبو عامر من الأوس وعبد الله من الخزرج، فأمّا عبدُ الله بن أبي فنَافَقَ وأظهرَ الإسلام. وأما أبو عامر فأصرَّ على الكُفْرِ إلى أنْ مات طريداً، وقد كان الرَّسُولُ الله ﷺ دعا عليه بذلك، فخرج من المدينة مُباعِداً لرَسُولِ الله ﷺ ومعه خمسون غُلاماً من قومِه، فلَحِقَ بمَكَّةَ، وكان يَعِدُ قُرَيْشاً بأنه لو لقيَ قومَه الأوسَ لم يختلف عليه منهم رجلان، فلما جاء مع قُريشٍ نادَى: يا معشرَ الأوس، أنا أبو عامر، فقالوا له: لا أنعمَ الله بك عيناً يا فاسق، وفي لفظ: فقالوا له: لا مرحباً بك ولا أهلاً يا فاسق. فلما سمعَ ردَّهُم عليه، قال: لقد أَصَابَ قومي بعدي شَرٌّ، ثم قاتلَ قتالاً شديداً. وكان هو الذي حفرَ الحفَائرَ ليقعَ فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فكان أَنْ وقعَ في إِحدَاها رَسُولُ الله ﷺ، وكان هو أوّلَ مَن أثارَ الحرْبَ، وضربَ بِأَسْهُمٍ في وجوه المسلمين، فاستأذنَ ولدُهُ حَنْظَلَةُ رضي الله عنه رَسُولَ الله ﷺ في قَتْلِه، فنهَاه عَن قَتْلِه.

ثم قُتِلَ حَنْظَلَةُ بنُ أبي عامر الفَاسِق رضي الله عنه، وسببُ مقتلِ حَنْظَلَة أنّه ضربَ فَرَس أبي سُفْيَانَ فوقعَ على الأرض وصَاح، فعَلاه حَنْظَلَةُ رضي الله عنه يُرِيدُ ذبحَه، فرآه شَدّادُ بن الأَسْوَدِ، فحمل عليه فقتلَه، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ صَاحِبَكُم - يعني حَنْظَلَة -، لَتَغْسِلُهُ الملَائِكَةُ»، ثمَّ سُئِلَتْ زوجتُه بعد ذلك، وهيَ جَمِيلَةُ بنتُ عبدِ الله بن أبيّ ابن سلول، فَقَالَتْ: خرَجَ جُنُباً. وكان قد دخلَ عليها عروساً تلك الليلة التي في صَبِيحَتِها أُحُدٌ، وقد استأذنَ رَسُولَ الله ﷺ في الدُّخولِ بها، فلمّا صَلّى الصّبحَ غدَا يريدُ رَسُولَ الله ﷺ، فَلَزِمَتْهُ، فأَجْنَبَ مِنهَا، ونادَى مُنادِي رَسُولِ الله ﷺ بالخروج إلى العدوِّ، فعَجِلَ عن الغُسلِ إجابةً

للدَّاعِي. وقد كانت زوجتُه رَأتْ تلكَ الليلةَ أنَّ السّماءَ قد فُرِجَتْ فدَخلَ فيها حَنْظَلَةُ، ثُمّ أَطْبَقَتْ عليه، فعَلِمَت أنها سَتكونُ له الشّهادةُ في سبيلِ الله، فأشْهَدَت أربعةً مِن قومِها على أنه دخَلَ بها؛ خَشْيَةَ أنْ يكون في ذلك نزاعٌ إذا ماتَ، وعَلِقَت مِنهُ في ذلك اليوم بوَلَدِه عبدِ الله بنِ حَنْظَلَة ﷺ.

ولما قُتِلَ أصحابُ لواء المشركين واحداً بعدَ وَاحِدٍ، ولم يقْدِرْ أَحَدٌ أنْ يَدْنُوَ منه، انهزم المشركون، وولوا لا يلوونَ على شيءٍ، ونساؤُهم يدعينَ بالوَيلِ بعدَ فَرَحهنَّ، وبعد ضَرْبِهِنَّ بالدّفُوف، فألقين الدّفُوفَ، وقصَدْنَ الجبلَ يَرْفَعْنَ ثِيَابَهنَّ كَاشِفَاتٍ سِيقَانَهُنّ، وتبعَ المسلمون المشركين يضعون فيهم السّلاحَ، وينْتَهِبُونَ الغَنَائِمَ، وفارقت الرُّمَاةُ محلّهم الذِي أَمَرهم النبيُّ ﷺ أَنْ لَا يُفَارِقُوهُ، فنهاهم أميرُهم عبدُ الله بن جُبَير، فقالوا له: قَد انهَزَمَ المشركون فما مقامنا هاهنا؟، وانْطَلَقُوا يَنْتَهِبُون، فثبتَ عبدُ الله بن جُبَير مكانه وثبتَ معه دون العَشَرَة، وقال: لا أُجَاوِزُ أمرَ رَسُولِ الله ﷺ. فنظرَ خالدُ بنُ الوليد إلى خَلاءِ الجبَل مِن الرُّمَاةِ وقِلّةَ مَن بهِ مِنهُم، فكَرَّ بالخَيلِ ومَعَهُ عِكْرِمَةُ بنُ أبي جهل، فحمَلوا على مَن بقيَ من الرُّمَاة فقتلوهم معَ أميرِهم عبدِ الله بن جُبَير، ثُمّ أحاطوا بالمسلمين.

فبينما المسلمون مَشْغُولونَ بالنَّهْبِ والأَسْرِ، إذْ دَخَلَت خُيُولُ المشركين تُنَادِي فُرْسَانَها بشعارهم: "يَا لِلْعُزّى"، ووضعوا السيوفَ في المسلمين وهُم آمِنُونَ، فتفرّق المسلمون في كلّ وجْهٍ، وتركوا ما انْتَهَبُوا وخَلّوا مَنْ أَسَرُوا، وانتَقَضَتْ صُفُوفُ المسلمين، واختلطَ المسلمون، وصارَ يَضْرِبُ بعضُهم بعضاً من غيرِ شِعَار، فلم يأتوا بما كانوا ينادون به في الحرْبِ يتعارفون به في ظلمة

الليل وعند الاختلاط، وهو: "أَمِتْ أَمِتْ"، وذلك لما أصابهم من الحَيْرَة.

وكان لِوَاءُ المشركين مُلْقَىً فأخَذَتْهُ عَمْرَةُ بنتُ عَلْقَمَة ورَفَعَتْهُ لهم، فَلَاثُوا به ـ اسْتَدَارُوا به واجتمعوا عنده ـ، ونادَى ابنُ قَمِئَة: إنّ مُحَمَّداً قَد قُتِل. وقيل: نادى بذلك إبليس، وكان متمثلا بِصُورةِ جِعَالِ بنِ سُرَاقة، وكان رَجُلاً صَالِحاً ممّن أَسَلَمَ قَدِيماً، وكانَ مِن أهل الصُّفَّةِ، وقد أرادَ الصَّحَابَةُ قتلَه بعد ذلك بسببِ ذلكَ النِّدَاءِ، فتَبَرّأَ مِن ذلك القول، وشهدَ لهُ خَوّاتُ بنُ جُبَير وأبُو بُرْدَة: بأنّ جِعَالاً كان عندهما وبجَنْبِهما حينَ صرخَ ذلك الصّارخُ.

فرجعتِ الهزيمةُ على المسلمين، وقال قائل: يا عِبَادَ الله أُخْرَاكُم ـ أي احترَزوا من جِهةِ أخْرَاكم ـ، فعَطَفَ المسلمون على أخْرَاهم يقتلُ بعضُهم بعضاً وهم لا يشعرون، وانهزمت طائِفةٌ منهم إلى جِهَةِ المدينة، وقال رجالٌ من المسلمين: حيث قَدْ قُتِلَ رَسُولُ الله فَارْجِعُوا إلى قَومِكم يُؤَمّنُوكم. وقال آخرون: إنْ كان رَسُولُ الله قَدْ قُتِلَ أَفَلَا تُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِ نَبِيّكُم، وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله شهداء؟. وقال ثابتُ بنُ الدَّحْدَاح: يا معشرَ الأنصار إنْ كانَ محمَّدٌ قد قُتِلَ فَإِنّ الله حَيٌّ لَا يَمُوت، قاتلوا على دينِكم، فإنّ الله مُظْفِرُكم وناصِرُكم، فنهضَ إليه نفرٌ من الأنصَار، فحملَ بهم على كتيبةٍ فيها: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعِكْرِمةُ بن أبي جهل، وضِرَارُ بن الخطاب، فحمَل عليه خالدُ فقتله، وقتل مَن كان معه.

وقالت جماعةٌ: ليتَ لنا رَسُولاً إلى عبدِ الله بن أُبَيٍّ لِيأخذَ لنا أماناً من أبي سُفْيَانَ. وقال آخرون: يا قومُ، إن مُحَمَّداً قد قُتِلَ، فارجعوا إلى قَومِكم قبلَ أنْ يَأتوكم فيقتُلُوكم. وقال رِجَالٌ من المنافقين: لو كانَ لنا مِن الأمرِ شيءٌ ما قُتِلْنا

هَاهُنا. وقال رجالٌ آخرون منهم: لو كانَ محمَّدٌ نبيّاً ما قُتِلَ، فارجعوا إلى دينِكم الأوّل. وكانت أمُّ أيمَن في الجيش تسقي الجَرْحَى، فجعلت تحثُو الترابَ في وجوهِ المنهَزمين، وتقول: هَاكَ المِغْزَل فَاغْزِلْ به، وأَعْطِني سَيفَك!.

وألقى الله تعالى على المسلمين النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ سُبحانه، وعن الزّبير بن العوام قال: لقد رَأَيْتُنِي معَ رَسُولِ الله ﷺ يوم أحُدٍ حين اشتدَّ علينا الخوفُ، فَأُرْسِلَ علينا النوم فما منا أحدٌ إلا وذِقْنُهُ في صدرِه، فو الله إنّي لأسمعُ كالحُلُمِ قولَ مُعَتِّبِ بْنِ قُشَيْرٍ: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتِلْنَا هَاهُنا. فحَفِظْتُها، فأنزل الله تعالى في ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، الآية.

وعن كعب بن عمرو الأنصاري قال: لقد رَأَيْتُنِي يَومَئِذٍ، في أربعة عشر من قومي إلى جنب رَسُولِ الله ﷺ، وقد أصابنا النّعاس أَمَنَةً مِنْهُ، ما منهم أحدٌ إلا غَطّ غَطِيطاً، ولقد رأيتُ سيفَ بِشْرِ بنِ البَرَاءِ بن مَعْرُورٍ سقطَ من يده وما يَشْعُر. وثبَتَ رسولُ الله ﷺ لما تفرّق عنه أصحابُه، وصَارَ يقول: «إِلَيَّ يَا فُلَانُ، إِلَيَّ يَا فُلَانُ، أَنَا رَسُولُ الله»، فما يُعَرِّجُ إليه أَحَدٌ، والنّبْلُ يأتي إليه من كل ناحِيَة، والله يصرِفُه عنه. وثبَتَ مع رَسُولِ الله ﷺ جماعَةٌ من أصحابه، منهم: أبو طلحة، فإنّهُ استمرَّ بينَ يَدَي النَّبيِّ ﷺ يُدَافِعُ عنه، وكان رجلاً رَامياً شديدَ الرَّمْي، فنثر كِنَانَتَهُ بين يدي رَسُولِ الله ﷺ، وصارَ يقولُ له: نفسي لنفسِك الفِدَاء، ووجهي لوجْهِك الوِقَاء. ولم يزل يرمي حتى كسر قوسين، وكان الرجل يمرُّ بالجُعْبَةِ مِنَ النّبْلِ، فيقولُ ﷺ: «انْثُرْهَا لِأَبِي طَلْحَة»، وصَار النّبيُّ ﷺ يُشْرِفُ ينظرُ القَومَ لِيَرَى مواضع النّبْلِ، فكان أبو طلحة

يقول له: يا نبيَّ الله، بأبي أنت وأمي لا تُشرِفْ، يُصِبْكَ سَهْمٌ مِن سِهَام القوم، نحْرِي دونَ نَحْرِكَ. ويتطاول بصَدْرِهِ يَقِي النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومنهم: سعدُ بنُ أبي وقاص، فإنه كان من الرّماة المذكورين، ورمى بقوسه بجانب النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يناوِلُه النّبْلَ، ويقول: «ارْمِ فدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»، حتى إنّه ليناوله السهم وما له نَصْلٌ، فيقول: «ارْمِ بِهِ». ورويَ عنه نحو ما رُوِيَ عن أبي طلحة من قوله للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَحْرِي دُونَ نَحْرِك. وعن سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه قال: أَجْلَسَني رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمامَه، فجَعَلتُ أرمِي، وأقول: اللَّهُمَّ سَهْمَكَ فَارْمِ بهِ عَدُوَّك، ورَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ، اللَّهُمَّ سَدِّدْ رَمْيَتَهُ، وَأَجِبْ دَعْوَتَه»، فلما فَرَغَتْ كِنَانَتِي نثرَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا في كِنَانَتِه. فكان سعدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مجابَ الدّعْوةِ مِنْ يَومِئذٍ. وعن علي بن أبِي طالب كرّمَ الله وجهه، قال: ما سمعتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «فدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»، إلا لِسَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وممّن ثبَتَ مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُهَيلُ بنُ حَنيف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان مشهوراً بالرّماية. وممّن ثَبَتَ معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوجَةُ زيدِ بن عاصِمٍ أمُّ عمارة نُسَيْبَةُ المازِنِيّة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وعنها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: خرَجْتُ يومَ أُحُدٍ لأنظرَ ما يصنعُ النّاسُ، ومعي سِقَاءٌ فيه ماءٌ أسقي به الجرْحَى، فانْتَهَيتُ إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في أصحابِه والنّصرُ للمسلمين، فلمّا انهزمَ المسلمون انْحَزْتُ إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقُمْتُ أُبَاشِرُ القِتَالَ، وأَذُبُّ عنه بالسَّيفِ، وأرْمِي عَنِ القَوسِ حتّى حَصَلتْ لي جِراحَةٌ. وقد كان على عاتقها جُرْحٌ أجْوَف له غورٌ، فقيل لها: مَن أَصَابَكِ بهذا؟، فَقَالَتْ: ابنُ قَمِئَة؛ لما ولى الناس عن رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أقبلَ يقولُ: دُلّوني عَلى محمَّدٍ

فلا نجوتُ إنْ نَجَا. فاعترضت له مع مُصْعب بن عُمَير، فضَرَبني هَذِه الضَّرْبة، وضرَبْتُه ضَرَباتٍ، ولكنَّ عدوَّ الله كان عليه دِرْعَان. وقال ﷺ في حَقِّهَا: «مَا التَفَتُّ يَميناً وَلَا شِمَالاً يَومَ أُحُدٍ إلّا ورَأَيْتُهَا تُقَاتِلُ دُونِي»، وقد جُرِحَتْ ﵂ اثني عشر جُرْحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف. وكانت نُسَيْبَةُ قد خرجت يوم أحد هي وزوجها زيد بن عاصم وابناهما عبد الله وحبيب ﵃، فقال لهم رَسُولُ الله ﷺ: «بَارَكَ الله فِيكُم أَهْلَ بَيْتٍ»، فَقَالَتْ له نُسَيْبَةُ: يا رَسُولَ الله، ادْعُ الله أَنْ نُرَافِقَكَ في الجنّة، فقال: «اللَّهُمَّ اجعلْهُم رُفَقَائِي في الجنّة»، فكانت تقول بعد ذلك: ما أبالي ما أصابني من أمر الدنيا بعد هذه الدعوة.

وأُصِيبَتْ يومَ أُحُدٍ عَينُ قَتَادة بن النّعمان حتّى وقعت على وَجْنَتِه، فردّهَا له رَسُولُ الله ﷺ بيدِه الشّريفة إلى موضِعِها، وقال: «اللَّهُمَّ اكْسُهُ جَمَالاً»، فكَانت أَحْسَنَ عينيه وأحَدَّهما نظَراً، وكانت لا تَرْمَدُ أبداً وإنْ رَمِدَت الأخرَى. وعن قتادة ﵁ قال: كنتُ يوم أُحُدٍ أَتّقي السّهَامَ بوجِهي عَن وجْهِ رَسُولِ الله ﷺ، فكان آخرُهَا سَهْماً سَهْمٌ نَدَرَتْ مِنْه حَدَقَتي، فأَخَذْتُها بِيَدِي، وقلتُ: يا رسولَ الله إنّ لي امْرَأَةً أُحِبُّها وأَخشَى أنْ تَرَاني فتَقْذَرَني، فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «إنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الجنَّة، وإِنْ شِئْتَ رَدَدْتُها وَدَعَوتُ الله تَعَالى لَكَ»، فقلت: يا رسُولَ الله، إنّ الجنةَ لجزَاءٌ جَزِيل، وعطَاءٌ جليل، ولكِنْ تَرَدّها، وتَسْأل الله تعالى لي الجنّة، فرَدَّهَا ودَعَا لي بالجنة.

وجاء عن الحَارِثِ بنِ الصِّمَّةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، قال: سألني رَسُولُ الله ﷺ وهو في الشِّعبِ عَن عبدِ الرّحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، فقلتُ: رَأيته في جَنْبِ الجبَل، فقال: «الملائِكَةُ تُقَاتِلُ مَعَهُ». قال الحارث:

فرجعتُ إلى عبد الرّحمن، فإذا بين يديه سَبْعَةٌ صَرْعَى، فقلت: ظَفِرَتْ يَمِينُكَ، أَكُلُّ هَؤُلَاءِ قَتَلْتَ؟، قال: أمَا هَذَا وَهَذا فأنا قتلتُهما، وأما هؤلاء فقتَلهم مَن لمْ أرَهُ، فقلتُ: صدق الله ورسوله.

وذُكِرَ أَنّ أبا دُجَانَة رضي الله عنه تَتَرَّسَ دونَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فصَارَ يقعُ النبلُ على ظَهْرِه حتّى كَثُرَ فيه النّبْلُ. وقاتل دونه صلى الله عليه وسلم زِيَادَةُ بنُ عُمَارة حتى أثبتته الجِرَاحةُ، وأصابت مَقَاتِلَه، فقال صلى الله عليه وسلم: «ادْنُوهُ مِنِّي»، ثُمّ وَسَّدَهُ قدَمَه الشّريف، فمَاتَ رضي الله عنه وخَدُّه على قدَمِه صلى الله عليه وسلم. وقاتلَ مُصْعَبُ بنُ عُمَير رضي الله عنه دونَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم حتّى قتَلَه ابنُ قَمِئَة وهو يَظُنُّهُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم، فرجعَ إلى قُرَيشٍ، فقال: قَتَلْتُ مُحَمَّداً. وقيل: القاتلُ لِمُصْعَبٍ أُبيُّ بنُ خَلَف، فإنّه أقبلَ نحوَ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو يقولُ: أَينَ محمّدٌ؟، لا نَجَوتُ إنْ نَجَا، فاستقبَلَه مصعبُ بنُ عُمَير فقتلَ مُصْعباً، فاعترضَه رِجَالٌ من المسلمين، فأمَرَهم رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أَنْ يخلّوا طريقَه، فأقبلَ وهو يقولُ: يا كَذّابُ، أَينَ تَفِرُّ؟، فتناولَ النّبيُّ صلى الله عليه وسلم الحرْبَةَ من بعضِ أصحابه، فخَدَشَه بها في عُنُقِه خَدشاً غَيرَ كَبير، فتَقَهقَرَ ورجع إلى أصحابِه فقال: قتلني والله محمّدٌ، فقالوا: ذهبَ والله عَقْلُك، إنّك لتأخذُ السّهَامَ مِن أضْلاعِك فترمي بها، فما هَذا؟، مَا أَخْدَعَك، والله ما بكَ مِن بَأْسٍ، إنّما هو خَدْشٌ، ولو كانَ هذا الذي بك بعينِ أحدِنا ما ضَرَّه، فقال: واللّاتِ والعزّى لو كان هذا الذي بي بأهل الأرضِ لماتوا أجمعون، إنه قد كان قال لي بمَكّةَ: «أَنَا أَقْتُلُكَ»، فوالله لو بصَقَ عليَّ لقتلني.

وقد كان يقولُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم بمَكّةَ: يا محمّدُ إن عندي العُودَ ـ يعني فرَساً ـ، أَعْلِفُه في كل يومٍ فَرَقاً مِن ذُرَةٍ أَقْتُلُك عليها، فيقولُ له رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم:

«بَلْ أَنا أَقْتُلُكَ إِنْ شَاءَ الله» ، فلما جاءَ نحوَ رَسُولِ الله ﷺ أبصَرَ ﷺ تَرْقُوَتَهُ من فُرْجَةٍ صغيرة في سَابِغَةِ الدّرْع ، فطَعَنَه طَعْنَةً وقعَ منها مِرَاراً مِنْ على فرسِه ، وجعل يخُورُ كما يَخُورُ الثّورُ إذَا ذُبحَ ، فمَاتَ عَدوُّ الله وهم قَافِلُونَ به إلى مَكَّةَ ، في مَوضع يُقَالُ له: سَرِفٌ ، وقيل: مَاتَ بِبَطْنِ رَابغٍ ، وعَن عَبدِ الله بنِ عُمَرَ ﷺ قَال: إِنّي لأَسِيرُ بِبَطْنِ رَابغٍ بَعْدَ هَوِيّ مِنَ اللّيْلِ إِذَا نَارٌ تَأجّجُ فَهِبْتهَا ، وَإِذَا رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْهَا فِي سِلْسِلَةٍ يَجْتَذِبُهَا ، وهوَ يَصِيحُ: العَطَشَ ، وَإِذَا رَجُلٌ يَقُولُ: لَا تَسْقِهِ ، فَإِنّ هَذَا أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ قَتِيلُ رَسُولِ الله(١).

وقد حقّقَ الله تعالى قولَ نبيِّه ﷺ حين قال: «بَلْ أَنا أَقْتُلُكَ إِنْ شَاءَ الله» ، ولم يقتلِ النبيُّ ﷺ بيدِه الشّريفةِ أَحَدًا قطّ إلا أُبَيّ بن خَلَف لَا قَبْلَه ولا بَعْدَه. وقد جاء في الحديث: «اشْتَدَّ غَضَبُ الله تَعَالَى عَلَى مَنْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ الله فِي سَبِيلِ الله ، وَاشْتَدَّ غَضَبُ الله تَعَالَى عَلَى قَوْمٍ دَمَّوْا وَجْهَ نَبِيِّ الله ﷺ»(٢). وجاء أيضاً: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً مَنْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيّاً»(٣). لأنّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسّلامُ مأمورون باللّطفِ والشَّفقةِ على عباد الله ، فما يحمِلُ الواحدَ منهم على قتل شخص إلا أمرٌ عظيم ، وكان محمدٌ رَسُولُ الله ﷺ أكملَهم لطفاً

---

(١) أخرجه الوقدي في كتاب المغازي [٢٥٩/١] ، والبيهقي في دلائل النبوة [٢٩١/٣] برقم: (١١٢٣).

(٢) رواه البخاري في صحيحه [١٠١/٥] باب ما أصاب النبي ﷺ من الجراح يوم أحد برقم: (٤٠٧٦) ، عن عبد الله بن عباس ﷺ. وقوله: «فِي سَبِيلِ الله» اِحْتِرَازٌ ممن يقتله في حَدٍّ أو قصاص ، فإن من يقتله في سبيل الله كان قاصداً لقَتْلِ رَسُولِ الله ، و«دَمَّوْا»: جَرَحُوه حتى خرجَ منه الدّم.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده [٤١٣/٦] ، برقم: (٣٨٦٨) ، والبيهقي في شعب الإيمان [٢٨٨/١٠] ، برقم: (٧٥٠٤). ورواه الطبراني في المعجم الكبير [١٦٤/١٠] ، برقم: (١٠٤٩٧).

ورِفْقاً وسَعَةً بعبادِ الله.

ووقعَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حُفْرَةٍ من الحُفَرِ التي حفرها أبو عَامر الفاسق للمسلمين ليَقَعُوا فيها وهُم لا يعلمون، فأغْمِيَ عَلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخُدِشَتْ رُكْبَتَاه، فأخذَ عَليٌّ كرَّمَ الله وجهه بيده، ورَفعَهُ طلحةُ بنُ عُبيدِ الله حتّى استوى قائما. وضَرَبهُ ابنُ قَمِئَة بالسَّيفِ فلمْ يُؤَثِّرْ فيه السَّيفُ لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مُتَدَرِّعاً بدِرْعَين، إلّا أنَّ ثقلَ السَّيفِ أَثّرَ في عَاتِقِه الشَّرِيف، فشَكَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن تلك الـضّرْبة شهْراً كاملاً أو أكثر، وقُذِفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحِجَارَةِ حتّى وقعَ لِشِقِّه.

ورَمَاهُ عُتْبَةُ بنُ أَبِي وَقّاص بِحَجَرٍ، فكَسَر رُبَاعِيته اليُمنى السُّفْلى، وشَقَّ شَفتَهُ السُّفْلى، فَدَعَا عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «اللَّهُمَّ لَا يَحُولُ عَلَيهِ الحَوْلُ حَتَّى يَمُوتَ كَافِراً»، فاستجابَ الله تعالى ذلك، فَقَتَلَه حَاطِبُ بنُ أبي بَلْتَعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ذلك اليوم، وأَخْبَرَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلِك، فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، رَضِيَ اللهُ عَنْكَ»، وقيل: كان لا يُولدُ ولدٌ لأَولادِ عُتْبةَ بنِ أَبِي وَقّاص إلّا وَهو أَهْتَمُ أَبْخَرُ[1] لما فَعَلَه أبوهُم بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان ذلك يُعْرَفُ في عَقِبهِ.

وكُسِرَت الخَوْذَةُ التي كانت على رَأسِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشُجَّ جَبِينُه الشّريف، وكان الذِي شَجَّهُ عبد الله بن شهاب الزُّهْري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ فَإنّه أسلمَ بعدَ ذلك، وقد جَعَلَ يقول يوم أحُدٍ: دُلّوني عَلى محمَّدٍ، فَلا نَجَوتُ إنْ نَجا. وكان رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِفاً إلى جَنْبِه ومَا مَعَه أحَدٌ، فجَاوَزَه ولمْ يرَهُ، فعَاتبه صَفْوانُ بنُ أمية، وقال له: كيف تقول: دُلّوني عَلى محمَّدٍ وأنت بجانبه؟، فقَال: والله ما

(١) الأَهْتَم: هو الذّي سَقَط أو انْكَسَرَ مُقَدّمُ أسنانه، التّي هِيَ الرُّبَاعِيّات. والبَخَرُ: رَائِحَةُ الفَمِ الكَريهة.

رَأَيتُه، أَحْلِفُ بالله إنّه مِنَّا مَمْنُوعٌ.

وجُرِحَتْ وَجَنَاتُه ﷺ بسَببِ دُخُولِ حلقَتَين مِن المِغْفَر في وَجْنَتَيه، وكان ذلكَ بِضَرْبة مِن ابنِ قَمِئَة، وقال له لما ضَرَبه: خُذْهَا وَأَنا ابنُ قَمِئَة. فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «أَقْمَأَكَ الله ﷻ»، أي: أَذَلَّكَ. وقد استجابَ الله فيه دَعْوَةَ نبيِّه ﷺ، فإنه بعد وَقْعَةِ أُحُدٍ خرجَ إلى غَنَمِه، فَوَافَاها في أَعْلَى الجبَلِ، فَشَدَّ عليه كبشٌ فنَطَحَهُ حتّى أَرْدَاهُ مِن شَاهِقِ الجبَل، فتَقَطّع قِطْعَةً قِطْعَة.

ولما جُرِحَ وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ صَارَ الدَّمُ يسيلُ على وجْهِهِ الشّريف، فجَعل ﷺ يمْسَحُ الدمَ، وهو يقول: «كَيفَ يُفْلِحُ قَومٌ خَضَّبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِم، وهُوَ يَدْعُوهُم إِلَى رَبِّهِم»؟، وَامْتَصَّ مَالكُ بنُ سِنَان الخُدري رَضِيَ اللهُ تعالى عنه دَمَ رَسُولِ الله ﷺ ثمّ ازْدَرَدَهُ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ مَسَّ دَمِي دَمُهُ لَمْ تُصِبْهُ النَّارُ». وفي رواية أنه قال: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُر إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»، وأشارَ إِليه، فاسْتُشْهِدَ مالكٌ رضي الله عنه في هذِه الغَزْوَة.

وكان كعبُ بنُ مالك أَوّلَ مَن عَرفَ رَسُولَ الله ﷺ بعدَ الهزيمةِ، وبعد قولِ القائلِ: قُتِلَ رَسُولُ الله ﷺ. قال كعب بن مالك: عرَفتُ عَيْنَيهِ تُزْهِرَانِ، مِن تَحْتِ المِغْفَرِ، فَنَادَيتُ بأعْلَى صَوتي: يا مَعْشَرَ المسلمين، أَبشِرُوا، هَذَا رَسُولُ الله ﷺ، فأَشَارَ إليَّ أَنْ أَنصِتْ. وقال بعضُ الصّحابة: لما صَرخ الشيطان: قُتِلَ محمَّدٌ. لمْ نَشُكّ في أنه حَقٌّ، ومَا زِلنَا كذلك حتّى طلعَ رَسُولُ الله ﷺ بينَ السَّعْدَينِ، فعَرَفناهُ بكَتِفَيهِ لما مَشَى، فَفَرِحْنَا حتّى كَأنه لمْ يُصبْنا مَا أَصَابنا، ولمّا عَرَفَ المسلمون رَسُولَ الله ﷺ نهَضُوا به، ونَهَضَ معهم نحوَ الشِّعبِ، وفيهم: أبو بكر، وعمر، وعليّ، وطلحة، والزبير،

والحَارِثُ بنُ الصِّمَّةِ، رضي الله عنهم.

وأقبلَ عثمانُ بن عبد الله بن المغيرة على فَرَسٍ أبلَق، وعليه لأْمَةٌ كامِلَةٌ، قاصِداً رَسُولَ الله ﷺ وهوَ مُتوَجِّهٌ للشِّعْبِ، وهو يقول: لا نَجوتُ إنْ نجَا، فوقفَ رَسُولُ الله ﷺ، فعَثَر بِعُثمانَ فرَسُه في بَعْضِ الحُفَرِ فسَقَطَ، ومشى إليه الحارثُ بنُ الصِّمَّة رضي الله عنه، فاصْطَدَما بسَيفَيهما سَاعةً، ثمّ إنّ الحارثَ ضَرَبه عَلى رِجْلِه فَبرَكَ، ثمّ ذَفَّفَ عَليه، وأَخَذَ دِرْعَه ومِغْفَرَه، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «الحَمْدُ لله الذِي أَحَانَه»، أي: أَهْلَكَهُ. ثمَّ أقبلَ عُبَيدُ الله بنُ جَابر العامري يَعْدُو خَلْفَ النبيِّ ﷺ، فَضربَهُ الحارثُ على عَاتِقه فجَرَحَهُ، فاحْتَمَلَه أَصْحَابُه، فَوَثَبَ إليهم أبو دُجَانة فذَبحَ عُبَيدَ الله العامري بالسَّيفِ، ثمّ لَحِقَ برَسُولِ الله ﷺ.

ولما انتهى رَسُولُ الله ﷺ إلى فَمِ الشِّعبِ خَرجَ عَليُّ بنُ أبي طالب حتَّى مَلأَ دَرَقَتَهُ مَاءً ثم غَسَلَ الدَّمَ عَن وجهِ رَسُولِ الله ﷺ. وفي بعض الروايات: أَنَّ فاطمةَ بنتَ النَّبيِّ ﷺ رضي الله عنها كانت مع نِسَاءِ المدينة اللّاتي خَرَجْنَ مع المسلمين، فلمّا لَقِيَتْ رَسُولَ الله ﷺ اعْتَنَقَتْهُ، وجَعَلَتْ تَغْسِلُ جِرَاحَاتَه، وكان عَليُّ بن أبي طالب كرَّمَ الله وجْهَه يَسْكُبُ الماءَ، فتَزَايدَ الدمُ، فلمّا رَأَتْ فاطمةُ رضي الله عنها ذلك أَخَذَتْ شَيئاً مِن حَصِيرٍ، فأَحْرَقَتْهُ بالنّار حتى صارَ رَمَادًا، ثم أخذت ذلك الرَّمادَ وأَلصَقَته بالجُرْحِ، فاسْتَمْسَكَ الدّمُ ووقفَ النّزيفُ.

ونزَعَ أبو عُبَيدَةَ عامرُ بنُ عبدِ الله الجرَّاح رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إحْدَى الحلقَتَين مِن وَجْنَةِ رَسُولِ الله ﷺ، فسَقَطَتْ ثَنِيَّةُ أَبي عُبيدة، ثُمَّ نَزَعَ الأخرَى فسَقطتْ ثَنِيَّتُه الأخرى. ولما سقط مُقَدّمُ أسنان أبي عبيدة صارَ أَهْتَم،

قال بعضُهم: ولم يُرَ أَهْتَمُ قَطّ أحسَنَ من أبي عبيدة، لأنّ ذلك الهتَمُ حَسَّنَ فَاهُ وجَمَّلَهُ.

ولما أرادَ نَبِيُّ الله ﷺ أنْ يعلوَ الصَّخرةَ التي في الشعب، ذهبَ لينهض فلم يستطعْ، لضعفِ جسَدِه من كثرةِ مَا خرَجَ من دَمِ رَأسِه الشّريف ووَجْهِه، ولِثُقْلِ جسَدِه ﷺ لأنه كان عليه درعان، فجلسَ تحتَه طلحةُ بنُ عُبَيدِ الله، فنَهَضَ به حتّى اسْتَوَى عليها، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ»، أي: فَعَل شَيئاً اسْتوجَبَ بِهِ دخول الجنَّة حين صَنع برَسُولِ الله ﷺ ما صَنع.

وعَطِشَ رَسُولُ الله ﷺ عَطَشاً شَدِيداً، ولم يشربْ من الماء الذي جاء به عليٌّ كرم الله وجهه في دَرَقَتِهِ، لأنه وجَدَ لَه رِيحاً، فَعَافَه، فخَرَج محمّدُ بنُ مَسْلَمَة ﷺ يطلب له ماءً، فلم يجدْ، فذهب إلى مِيَاهٍ بعيدةٍ فأتى منها بماءٍ عَذْبٍ، فشربَ منه رَسُولُ الله ﷺ، ثم دعا له بخَيرٍ.

وبينَا رَسُولُ الله ﷺ في الشِّعبِ مع جماعَةٍ من أصحابِه إذْ عَلَتْ طائفةٌ من قريش الجبلَ، فقَال رَسُولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلونَا، اللَّهُمَّ لَا قُوَّةَ لنَا إلّا بِكَ»، فقاتلهم عمرُ بنُ الخطاب وجماعَةٌ من المهاجرين حتّى هبَطوا من الجبل، وقيل: أنّ النبيَّ ﷺ قال لسَعد بن أبي وقاص: «ارْدُدْهُمْ»، قال: كيف ارْدُدْهُم وحْدِي؟، فقال له: «ارْدُدْهُمْ»، قال سعد ﷺ: فأخذتُ سهماً من كنانتي فرميتُ به رَجُلاً منهم فَقَتَلْتُه، ثمَّ أخَذْتُ سهماً فإذَا هو سَهْمِي الذِي رَمَيتُ به، فرميتُ به رَجُلاً آخرَ فَقَتَلْتُه، ثمَّ أخَذْتُ سهماً آخر فإذَا هو سَهْمِي الذِي رَمَيتُ به، فرميتُ به رَجُلاً آخرَ فَقَتَلْتُه، ثمَّ أخَذْتُ سهماً

آخر فإذَا هو سَهْمِي الذِي رَمَيتُ به، فرميتُ به رَجُلاً آخرَ فَقَتَلْتُه، فهَبَطُوا مِن مَكانهم، فقلتُ: هذا سَهْمٌ مُبَارَكٌ، فكان عندي في كنانتي لا يفارق كِنَانتي. وكان ذلك السَّهمُ بعدَه عند بَنِيه. وفي رواية أنه قال: رميت بسهم فرَدَّهُ عليَّ رَسُولُ الله ﷺ، وهو سَهْمِي أَعْرِفُه، حتّى وَاليتُ بينَ ثمانية أو تِسْعة، كلّ ذلك يَردّه رَسُولُ الله ﷺ عَليَّ، فقلت: هَذَا سَهْمُ دَمٍ ـ يُصِيبُ ـ فجعلته في كنانتي لا يفارقني.

وصلى رَسُولُ الله ﷺ ظُهْرَ ذلك اليوم وهو جالسٌ من الجِراحة التي أصابتْهُ، وصلى المسلمون خلفَه قعوداً، وإنّما صلى المسلمون خلفه ﷺ قعوداً للموافقة له ﷺ، أو أنّ مَن صلّى قاعداً إنما هو لما أصابهم من الجراح، أو كان القاعدون هم الأغْلَب، فقيل: صلّى المسلمون خلفه قعوداً. فقد جاء أن عبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنه أصيبَ في فمِه فهتمَ فَمُه، وجرح عشرين جِرَاحة، وجرح في رجلِه فكان يعرج منها. وأصاب كعب بن مالك رضي الله عنه سبعة عشر جِرَاحة.

وجاءَ أنه وُجِدَ بطلحة رضي الله عنه نَيْفٌ وسبعون جِرَاحة، من طعنة، وضربة، ورمية، وقطعت أصبعه، فقال عند ذلك: حَسِّ[1]، فقال له ﷺ: «لَوْ قُلْتَ: بِسْمِ الله لَرَفَعَتْكَ المَلَائِكَةُ عَلَيهِمُ السَّلَامُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيكَ، حَتَّى تَلجَ بِكَ فِي جَوِّ السَّمَاءِ»، وقال قيسُ بنُ أبي حازم: رأيتُ يدَ طلحة بن عبيد الله شَلَّاء، وقى بها رَسُولَ الله ﷺ يوم أُحُدٍ من سَهم، فنزف به الدم حتى غُشِيَ عليه، فنضح أبو بكر الماءَ في وجهه حتى أفاق، فقال: ما فعل رَسُولُ الله ﷺ؟،

(١) حَسِّ: كلمة تعني التوجُّع والتألّم، وهي كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه ما آلمَهُ أو أحرقه غفلةً كالجَمْرةِ والضَّرْبة ونحو ذلك، وهي مثل كلمة: (أَوَّهْ) أو كلمة: (آه).

قال له أبو بكر: هو بخير، وهو الذي أرسلني إليك، فقال: الحمدُ الله كل مصيبة بعده جَلَل. وقد كان يُقَالُ لطلحة: طلحة الجود، سمّاه بذلك رَسُولُ الله ﷺ في أُحُد، لأنه أنفقَ فيها سبعمائة ألف درهم.

وقال عاصمُ بنُ عمر بن قتادة: كان عندنا رجلٌ غريبٌ يظهر الإسلام لا ندري ممّن هو، يقال له: قُزْمَانُ، وكان ذا بأسٍ وقوّة، وكان رَسُولُ الله ﷺ إذا ذُكِرَ يقول: «إِنّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّار»، فلمّا كان يوم أحدٍ قاتل قُزْمَانُ قتالاً شديداً، فكان أوّل من رمى من المسلمين بسهم، وكان يرمي النّبالَ كأنّها الرِّمَال، ثم فعل بالسّيف الأَفَاعيل، وقتل ثمانيةً أو تسعةً من المشركين، فأُخْبِرَ النبيُّ ﷺ بذلك، فقال: «إِنّهُ مِنْ أَهْلِ النَّار»، فأَعْظَمَ النَّاسُ ذلك، ثم إن الجِرَاحَةَ أَثْبَتَتْهُ بعد ذلك، فاحْتُمِلَ، وجعَلَ رِجَالٌ من المسلمين يقولون: والله لقد أَبْلَيتَ اليومَ يَا قُزْمَانُ، فَأَبْشِر، فقال: بماذَا أَبشر؟، فو الله: ما قَاتَلْتُ إلا على أَحْسَابِ قومي وشَرَفِهم، ولولا ذلكَ مَا قاتلت!. فلم يُقَاتل لإعلاءِ كلمةِ الله ورسولِه وقَهْرِ أَعْدَائِهما. وقد قال له قتادة بن النعمان: هَنِيئاً لكَ الشَّهَادَةَ يَا أَبَا الغَيْدَاق. فقال: إنّي والله ما قَاتَلْتُ على دِين، ما قاتلت إلا حِفاظاً على شَرَفِنا مِن أَنْ تسيرَ إلينا قريشٌ حتّى تَطأَ أرضَنا. ولما اشْتَدّت عليه الجراحَةُ أَخذَ سَيفَهُ فجعلَ ذُبَابَه في صَدرِه، ثم تَحَامَلَ عَليهِ حتّى قَتَلَ نَفْسَه. فجاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، وقال: أشهدُ أنكَ رَسُول الله، قال: «وَمَا ذَاكَ»؟، فقال: الرجل الذي ذكرتَ آنفاً أنه من أصحاب النار، فعَل كَذَا وكَذَا. فقال ﷺ: «إِنّ الله يُؤَيّدُ هَذَا الدّينَ بِالرّجُلِ الْفَاجِرِ». فكان قُزْمَانُ هذا من المنافقين.

وكان في بَنِي عَبدِ الأَشْهَلِ رجلٌ اسمه عَمْرُو بنُ ثَابِتِ بنِ وَقْشٍ، ويُلقَّب

بالأُصَيْرِمِ، وكَانَ يَأْبى الإسلَامَ عَلَى قَوْمِهِ، فَلَمّا كَانَ اليَوْمُ الذي خَرَجَ فيه رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُحُدٍ بَدَا لَهُ أَنْ يدخلَ فِي الإِسلَامِ، فَأَسلَمَ ثُمّ أَخذَ سَيفَهُ، ثم عَدَا حَتّى دَخلَ فِي عُرْضِ النّاسِ، فَقَاتَلَ حَتّى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ، فَبيمنا رِجَالٌ مِنْ بَنِي عَبدِ الأَشْهَلِ يَلتَمِسُونَ قَتْلَاهُم فِي المَعْرَكَةِ إِذَا هُمْ بِهِ مُلْقَى، فَقَالُوا: وَالله إِنَّ هَذَا لَلأُصَيْرِمُ، فمَا جَاءَ بِهِ؟، لَقَد تَرَكنَاهُ وَإِنّهُ لَمُنْكِرٌ لِهَذَا الأمرِ، فَسَأَلُوهُ مَا جَاءَ بِهِ، فَقَالُوا: مَا جَاءَ بِك يَا عَمرُو؟، أَحَدَباً عَلَى قَوْمِك، أَمْ رَغْبَةً فِي الإِسلَامِ؟، قَالَ: بَلْ رَغبَةً فِي الإِسلَام، آمَنْت بِالله وَبِرَسُولِهِ، وَأَسْلَمْتُ، ثُمّ أَخَذْتُ سَيفِي، فَغَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، ثُمّ قَاتَلْتُ حَتّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي، ثُمّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِم. فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «إِنّهُ لَمِنْ أَهْلِ الجَنّةِ». وكَانَ أَبو هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ يَقُولُ: حَدّثُونِي عَن رَجُلٍ دَخلَ الجَنّةَ لَمْ يُصَلّ قطّ؟!. فَإِذَا لَمْ يَعرِفْهُ النّاسُ سَأَلُوهُ، فقَالوا لَهُ: مَن هُوَ؟، فَيَقُولُ: أُصَيْرِمُ بَنِي عَبدِ الأَشْهَلِ.

وقُتِلَ عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ رضي الله عنه، وكان أعْرَجَ شَدِيدَ العَرَجِ، وكان له أربعةُ بَنِينَ مثلُ الأُسْدِ، يَشْهَدُون مع رَسُولِ الله ﷺ المشَاهِد، فلما كانَ يومُ أُحُدٍ أرادُوا حَبْسَه، وقالوا له: قد عَذَرَك الله، فأتى رَسُولَ الله ﷺ، فقال: إنَّ بَنيَّ يُريدون أنْ يحبسوني عن الخروجِ معَك، فوَ الله إني أريدُ أنْ أطأَ بِعَرَجَتِي هَذِه الجنّة، فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «أمّا أَنْتَ فقَدْ أعْذَرَك الله، فلَا جِهَادَ عَلَيكَ»، ثم قال لِبَنِيهِ: «مَا عَلَيْكُم أَنْ لَا تَمنَعُوه؛ لَعَلَّ الله يَرْزُقُه الشَّهَادَةَ»، فأخذَ سِلَاحَه وخرج، ثم أقبَلَ على القِبْلَةِ، وقال: اللَّهُمَّ ارْزُقْني الشهادةَ ولا تردّني خَائباً إلى أهلي، فقُتِلَ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «والذِي نَفْسِي بيَدِه إنَّ مِنْكُم

مَنْ لوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لأَبَرَّهُ، مِنْهُم عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ، لقَدْ رَأَيْتُهُ يَطَأُ فِي الجَنَّةِ بِعَرَجَتِه»، وفي رواية: أنه قال: يا رسول الله، أرأيتَ إنْ قَاتَلْتُ في سَبيلِ الله حَتّى أُقْتَلَ، أَمْشِي بِرِجْلِي هَذه صحيحةً في الجنّة؟، فمَرَّ عليه رَسُولُ الله ﷺ وقال: «كَأَنّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الجَنَّةِ». وقد كان عمرو بن الجموح سَادِناً للأصنام في الجاهلية، وكان في الإسلام يُولِمُ عنِ النّبيِّ ﷺ إذَا تَزَوَّجَ.

وقُتِلَ يومئذٍ أَحَدُ بني عمرو بن الجموح، وهو خَلّادٌ رضي الله عنه. وقُتِلَ أخو زَوْجته هندِ بنتِ حِزَام، وهو عبدُ الله وَالِدُ جَابِرٍ رضي الله عنه، فحمَلتهم هِنْدٌ على بعيرٍ لها تُرِيدُ أنْ تدفنهم في المدينة، فَبرَكَ بهمُ البَعيرُ، وصَار كلّما وَجَّهْته إلى المدينة يبرُكُ، وإنْ وجّهته إلى أرْضِ أُحُدٍ يمشي، فرَجعَتْ إِلَى النَّبيِّ ﷺ وَأَخْبَرَتْهُ، فقال لها: «إِنَّ الجَمَلَ مَأْمُورٌ»، ثم قبرَهم بأُحُدٍ، وقال ﷺ لهِنْدٍ: «يَا هِنْدُ، مَا زَالَتْ الملَائِكَةُ مُظِلَّةً عَلَى أَخِيْكِ مِنْ لَدُنْ قُتِلَ إِلَى السَّاعَةِ يَنْظُرُونَ أَيْنَ يُدْفَنُ»، ولعَلّ هذا كان قبل أنْ يُنَادي بِرَدّ القتلى إلى مضاجِعِهم. قال جابرٌ رضي الله عنه: كان أَبِيْ أَوَّلَ قَتِيلٍ للمسلمين، قتلَه أبو الأَعْوَر السُّلَمي.

وقد كان رَسُولُ الله ﷺ لَمّا خَرَجَ إِلَى أُحُدٍ، رَفَعَ حُسَيْلَ بْنَ جَابِرٍ، وَهُوَ الْيَمَانُ أَبو حُذَيفَةَ بنُ الْيَمَانِ، وَثَابِتَ بنَ وَقْشٍ، فجعلهم فِي الآطَامِ مَعَ النّسَاءِ وَالصّبيَانِ لأَنّهُمَا كانا شَيْخَينِ كَبِيرَينِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا أَبَا لَك، مَا تَنْتَظِرُ؟، فَوَالله لَا بَقِيَ لِوَاحِدٍ مِنّا مِنْ عُمْرِهِ إلّا ظِمْءُ حِمَارٍ[1]، إنّمَا نَحنُ هَامَةٌ

(١) الظِّمْءُ: مأخوذٌ من الظَّمَأ، وهو العَطَشُ. والعرب يقولون: ما بَقِيَ منه إلّا قَدْرُ ظِمْءِ الحِمار. أي لم يَبْقَ من عُمُره إلّا اليسيرُ. إذْ يقالُ: إنه ليسَ شيءٌ من الدّوابِّ أقْصَرَ ظِمْأً من الحِمار، أي أنه=

اليومِ أَو غدٍ، أَفَلَا نَأْخُذُ أَسْيَافَنَا، ثُمّ نَلْحق بِرَسُولِ الله ﷺ؛ لَعَلّ الله يَرْزُقُنَا شَهَادَةً مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَخَذَا أَسْيَافَهُمَا، ثُمّ خَرَجَا، حَتّى دَخَلَا فِي النّاسِ مِن جهَةِ المشركين، وَلَمْ يَعْلَمْ بِهِمَا المسلمُون، فَأَمّا ثَابِتُ بنُ وَقْشٍ فَقَتَلَهُ المُشْرِكُونَ، وَأَمّا حُسَيْلُ بنُ جَابِرٍ فَاخْتَلَفَتْ عَلَيهِ أَسْيَافُ المُسْلِمِينَ، فَقَتَلُوهُ وَهم لَا يَعْرِفُونَهُ، فَجعلَ حُذَيفَةُ يقولُ: أَبِيْ أَبِيْ، فَقَالُوا: وَالله مَا عَرَفْنَاهُ، وَصَدَقُوا، فقَالَ حُذَيْفَةُ: يَغْفِرُ الله لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ، فَأَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَدِيَهُ، فَتَصَدّقَ حُذَيْفَةُ بِدِيَتِهِ عَلَى المُسْلِمِينَ، فَزَادَهُ ذَلِكَ عِنْدَ النبيِّ ﷺ خَيْراً.

ثُمَّ إنَّ هِنداً زَوجَةَ أبي سُفْيَانَ والنّسْوةَ اللّاتي خَرَجْنَ معها صِرْنَ يُمَثّلْنَ بِقَتْلَى المسلمين، يُقَطّعْنَ مِن آذَانهم وأنوفِهم، واتخَذْنَ مِن ذلك قَلَائِدَ، وبَقَرَتْ هِنْدٌ بَطْنَ سَيّدنا حمزَةَ رضي الله عنه، وأَخْرَجَتْ كَبِدَهُ فَلَاكَتْهَا بِفِيهَا، فلم تَسْتَطع مَضْغَها، ولم تُسِغْ بَلْعَهَا، فَلَفَظَتْهَا مِن فِيهَا، وقَدْ كَانتْ نَذَرَتْ إِنْ قَدَرَت على حمزَةَ رضي الله عنه لَتَأْكُلَنَّ مِن كَبِدِهِ. ولما بلغَ رَسُولَ الله ﷺ أنّها أخرَجتْ كَبِدَ حمزة قال: «هَلْ أَكَلَتْ مِنْهُ شَيْئًا»؟، فقالوا: لا، قال: «إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ أَنْ تَذُوقَ مِنْ لَحْمِ حَمْزَةَ شَيْئاً أبداً»، أي لو أكلَت مِنْه، واستقرّ في جوفها لم تمسَّها النّار. وفي رواية: «لَوْ أُدْخَلَتْهُ بَطْنَهَا لَمْ تَمَسَّهَا النَّارُ»، لأنّ حمزة رَضِيَ اللهُ تعالى عنه أكرم على الله من أن يدخل شيءٌ من جسده النارَ.

وفي رِوَايةٍ: أنّ وَحْشِيّاً هوَ الذي بَقَرَ بَطْنَ حمزةَ رضي الله عنه وأخرَج كبدَه، وجاءَ

= أَقلّ الدّوَابِّ صَبْراً عن العَطَش، حيث يَرِدُ الماءَ كلّ يوم في الصّيف مرّتين. ومراد الصحابي أنه لم يَبْقَ من عُمرهما إلّا القليل.

بها إلى هند، وقال لها: مَاذَا لي إنْ قَتَلْتُ قَاتِلَ أبيك؟، فَقَالَتْ: سَلْنِي، فقال: هذِه كبدُ حمزة، فأعطته ثيَابهَا وَحُلِيِّهَا، فجَاءَ بها إلى مَصْرع حمزة ﷺ فجَدَعَتْ أنفَه وأذنَيه، وقطعت مَذَاكِيرَه، ثمّ جعلَت ذلك كَالسِّوَارِ في يديها، أو قَلائدَ في عُنقها، واستمرّت كذلك حتّى قدِمَتْ مَكّةَ. ثمّ إنّ هِنْداً عَلتْ على صَخرةٍ مُشْرِفَةٍ فصرَختْ بأعلى صوتِها، ثم أنشدت أبياتاً. ومَرَّ الحُلَيْسُ سيّدُ الأَحَابيش بأبي سُفْيَانَ وإذا هو يضرب بزِجِّ الرُّمْحِ في شِدْقِ حمْزَةَ رضي تعالى الله عنه، ويقول: ذُقْ عُقُوقَك ـ جَعَل إسْلاَمَه عُقُوقاً! ـ، فقال الحُلَيسُ: يا بني كِنَانة، هذا سَيِّدُ قريشٍ يفعَل بابنِ عَمِّهِ ما ترَون!، فقال أبو سُفْيَانَ: اكتُمْهَا عنّي فإنَّها زَلّة.

وحِينَ أَرَادَ أَبو سُفْيَانَ بنُ حَرْبٍ الِانصِرَافَ أَشْرَفَ عَلَى الجبَلِ، ثُمّ صَرَخَ بِأَعلَى صَوتِهِ فَقَالَ: أَفِي القَومِ مُحَمَّدٌ؟، أَفِي القَومِ مُحَمَّدٌ؟. ـ قال ذلك ثلاثاً ـ وقد نهاهم رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يجيبوه، ثُمّ قال: أَفِي القَومِ ابنُ أَبي قُحَافَة؟، ـ قالها ثلاثًا ـ. ثمّ قال: أَفِي القَومِ عُمَرُ، ـ قالها ثلاثًا ـ. ثمّ أقبلَ على أصحَابه، فقال: أمّا هَؤُلاءِ فقدْ قُتِلُوا وَقَدْ كُفِيتُمُوهم، إذْ لو كانوا أَحيَاءً لأَجَابوا. فما تَمَالَك عمَرُ رضي تعالى الله عنه نفسَه، فقال: كَذَبْتَ والله يا عَدُوَّ الله، إنَّ الذِي عَدَّدتَ لأَحْيَاءٌ كلُّهم، وقد أبقى الله لك مَا يَسُوؤُكَ.

فقَالَ أَبو سُفْيَانَ: أَنْعَمَتْ فَعَالِ، وَإِنّ الحَرْبَ سِجَالٌ، يَوْمٌ بِيَوْمٍ، أُعْلُ هُبَلُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قُمْ يَا عُمَرُ فَأَجِبْهُ، فَقُلْ: الله أَعلَى وَأَجَلّ، لَا سَوَاءَ؛ قَتلَانَا فِي الجَنّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ»، فأجَابه عُمَرُ بذلك، فقال أبو سُفْيَانَ: إنكم تَزْعُمُونَ ذلك، لقَدْ خِبْنَا إذاً وَخَسِرْنَا!، ثم قال: إنّ لنَا العُزَّى ولَا عُزَّى لكم، فقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الله مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُم»، ولَمّا أَجَابَ عُمَرُ أَبَا

سُفْيَانَ، قَالَ لَهُ أَبو سُفْيَانَ: هَلُمّ إلَيّ يَا عُمَرُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِعُمَرَ: «ائْتِهِ فَانْظُرْ مَا شَأْنُهُ»، فَجَاءَهُ فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ: أَنْشُدُكَ الله يَا عُمَرُ، أَقَتَلْنَا مُحَمّداً؟، قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ لَا، وَإِنّهُ لَيَسْمَعُ كَلَامَكَ الْآنَ، فقَالَ: أَنْتَ أَصْدَقُ عِنْدِي مِن ابنِ قَمِئَةَ وَأَبَرُّ. لأنَّ ابنَ قَمِئَةَ لما قتلَ مُصْعبَ بنَ عُمير ظنّ أنه النَّبِيُّ ﷺ، فقال: قتلتُ مُحَمَّداً. ثم نادى أبو سُفْيَانَ فقال: إنكم سَتجدُون في قتلاكم مُثْلَةً لم آمُرْ بها ولم تَسُرّني، وفي لفظ: ما أَمَرْتُ ولا نَهيتُ، ولا أَحبَبْتُ ولا كَرِهْتُ، ولا سَاءَني ولا سَرّني. ثم قال: إنَّ موعدَكم بَدْرٌ العامَ المقبل، فقال رَسُولُ الله ﷺ، لرَجُل من أصحابِه: «قُلْ: نَعَمْ، هوَ بَيننَا وَبَيْنَكُم مَوْعِدٌ إنَّ شَاءَ الله تَعَالى».

ثم بعثَ رَسُولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب كرَّمَ الله وجهَه فقال: «اخرُجْ في آثَارِ القَومِ فَانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ ومَاذَا يُرِيدُون؟، فإِنْ كَانُوا قَدْ جَنَّبوا الخيلَ وَامْتَطَوا الإِبلَ فإِنّهم يُرِيدونَ مَكَّةَ، وإِنْ رَكِبُوا الخيلَ وسَاقُوا الإِبلَ فَهُم يُريدونَ المدينةَ، والذِي نَفْسِي بِيَدِه إِنْ أَرَادُوهَا لَأَسِيرَنَّ إِلَيهِم فِيهَا ثُمَّ لَأُنَاجِزَنَّهم». قال عليٌّ كرم الله وجهه: فخَرَجْتُ في آثارهم أنظرُ ماذا يصنعون؟، فجنّبوا الخيلَ، وامتَطوا الإبلَ، وتوجهوا إلى مَكَّةَ، بعد أن تشاوروا في نهب المدينة، فقال لهم صفوان بن أمية: لا تفعلوا فإنكم لا تدرون ما يغشاكم.

ثُمَّ فَزِعَ المسلمون لقتْلاهُم، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَنْظُرُ؛ مَا فَعَلَ سَعْدُ بنُ الرَّبيع أَفِي الأَحْيَاءِ هُوَ أمْ فِي الأَمْوَات؟، فَإِنّي رَأَيتُ الأَسِنَّةَ قَدْ أُشْرِعَتْ إِلَيه». فقامَ رَجُلٌ من الأنصارِ، فقال: أَنَا أَنظُرُهُ لكَ يا رسولَ الله. فقال له

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ رَأَيتَه فَأَقْرِئْهُ مِنّي السَّلامَ، وقُلْ لَه: يقولُ لكَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيفَ تَجِدُكَ»؟. فنظرَ إليهِ فوَجَدَه جَرِيحاً وبِهِ رَمَقٌ، فقال له: إنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمرَني أَنظُرُ أَفي الأَحيَاءِ أَنتَ أمْ في الأَموَات؟، فقال: أنا في الأموَاتِ، قد طُعِنتُ اثنتَي عشرةَ طَعْنَةً، وإني قَد أُنْفِذَتْ مَقَاتِلي، فأبلغْ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنّي السَّلام وقل له: إنَّ سَعْدَ بنَ الرّبيع يقولُ لك: جَزَاكَ الله عَنّا خَيرَ مَا جَزَى نَبِيّاً عَن أمّتِه، وأَبلغْ قَومِي عنّي السَّلَام، وقلْ لهم: إن سعدَ بنَ الربيع يقولُ لكم: لَا عُذْرَ لكُم عِندَ الله أَنْ يُخلَصَ إلى نَبِيّكم وفيكم عَينٌ تَطْرِفُ. قال الرّجُلُ: ثمّ لم أبرحْ حتّى مَات، فجئتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرْتُه خبرَه. وفي رواية: أنّ محمّدَ بنَ مَسْلَمَة نادى في القتلى: يا سَعدُ بنَ الربيع، مرَّةً بعدَ أخرى، فلم يجبْهُ حتى قال: إنّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسلني أنظرُ مَا صنعت، فأجابَه بصَوتٍ ضعيفٍ بما ذُكِرَ من الحديث. فقال عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَحِمَهُ اللهُ، نَصَحَ لله وَلِرَسُوله حَيّاً وَمَيّتاً».

وكان أنسُ بنُ النّضْرِ عمُّ أنسِ بنِ مَالك خادمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد غَابَ عن وقعةِ بَدْرٍ فَشَقَّ ذلك عليه، فقال للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسولَ الله، إنّي غِبْتُ عَن أَوّل قِتَالٍ قَاتَلْتَ فيه المشركين، وَالله لَئِنْ أَشْهَدَني الله قِتَالَ المشركين لَيَرَيَنَّ الله مَا أَصْنَعُ. فلمّا كان يوم أُحُدٍ ورَأى انْهِزَامَ المسلمين قال: اللَّهُمَّ إني أَعتَذِرُ إليكَ مما صنع هؤلاء ـ يعني أصحابَه ـ، وأبرأُ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعني المشركين ـ. وجعل يُقاتِلُ، ولمّا سَمِعَ قول القائل: قُتِلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ما تَصْنَعُونَ بالحيَاة بعدَه، موتوا على ما مَاتَ عليه رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقالَ لسَعدِ بنِ مُعاذ: هَذه الجنّةُ ورَبِّ الكَعبَة، إني لأَجِدُ ريحَهَا دونَ أُحُدٍ، ثمّ

استقبلَ القومَ وقاتلَ ﷺ حتّى قُتِلَ، ووجَدوا فيه بضعاً وثمانين جراحةً، ما بين ضربةٍ بسيفٍ، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم. ولما قُتِلَ مَثَّلَ به المشركون، فما عرَفَه أَحَدٌ، فعَرفَتْهُ أختُه الرُّبَيِّعُ بِبَنانِه، وفيه وفي أشباهه نزلَ قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

ومُمّنْ مُثّل به: عبدُ الله بنُ جَحْش بِدَعَوةٍ دعَاها على نفسِه، فإنّه قال قبل أحدٍ بيوم: اللَّهُمَّ ارزقني غَداً رَجُلاً شَدِيداً بأسُه، فيقتلني ثم يأخذني فيَجْدَعُ أنفي وأذني، فإذا لَقِيتُكَ، قُلْتَ: يا عبد الله؛ فيمَ جُدِعَ أَنفُكَ وَأذنُك؟، فأَقُول: فِيكَ وَفي رُسُولِك، فتَقُول: صَدَقْتَ. فانقطعَ سَيفُه يوم أُحُدٍ، فأعطاهُ رَسُولُ الله ﷺ عُرْجُونَ نَخْلةٍ، فصارَ في يدِه سَيفاً، وكان يُسَمّى العُرْجُون بعد ذلك. وكان القاتلَ له أبو الحكَم بنُ الأَخْنَس بنِ شُرَيق، وقد قُتِلَ أبو الحكَم هَذَا كافراً يوم أُحُدٍ. ثم دُفِنَ عبدُ الله بنُ جَحْش هو وخالُه حمزةُ ﷺ في قبر وَاحد، لأنّ أمَّ عبدِ الله أُمَيْمَةَ بنتَ عبدِ المطّلب عمَّةُ رَسُولِ الله ﷺ.

وخَرَجَ رسُولُ الله ﷺ يَلْتَمِسُ عَمَّهُ حمزَةَ بنَ عبدِ المطّلب ﷺ، فوجدَه ببطنِ الوادي قد بُقِرَ بطنُه ومُثِّلَ به، فجُدِعَ أنفُه وأذناه، وقُطِعت مَذَاكيره، فلم يَنْظُرْ رسُولُ الله ﷺ إلى شَيءٍ قَطّ أوجعَ لقَلْبه منه، فقال: «لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِك، وَمَا وقَفْتُ مَوقِفاً أَغْيَظُ لِي مِنْ هَذَا، رَحْمَةُ الله عَلَيكَ، فَإِنّكَ كُنْتَ مَا عَلِمْتُكَ، فَعُولاً لِلْخَيرَاتِ، وَصُولاً لِلرّحِمِ، أَمَا وَالله لَئِنْ أَظْفَرَني الله تَعالى بِقُرَيشٍ فِي مَوْطِنٍ مِنَ الموَاطِنِ لأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ منهم مَكَانكَ»، ولما رَأى المسلمُون جَزَعَ رَسُولِ الله ﷺ على عَمِّه، قالوا: لئن أظفرَنَا الله تعالى بالمشركين يوماً مِنَ

الدّهرِ لنُمَثِلنَّ بهم مُثْلَةً لمْ يمثلْهَا أَحَدٌ مِن العرَب. ثم لما أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٧]، عَفَا رَسُولُ الله ﷺ وصَبَر، ونهى عَن المُثْلَةِ في القِتَال، وكَفَّرَ عَنْ يَمِينِه.

وعن ابنِ مَسعود رضي الله عنه قال: ما رأينا رَسُولَ الله ﷺ باكِياً أَشَدَّ من بُكَائِه على حمزةَ رضي الله عنه، وضَعَه في القِبْلَةِ ثمَّ وقفَ عَلَى جَنَازَته وانتَحَبَ وشَهقَ، حتّى بلغ به الغُشِيّ، ثم جعلَ يقول: «يَا عَمَّ رَسُولِ الله، وَأَسَدَ الله، وَأَسَدَ رَسُولِ الله، يَا حمْزَةُ يَا فَاعَلَ الخَيْرَاتِ، يَا حَمْزَةُ يَا كَاشِفَ الكُرُبَاتِ، يَا حَمْزَةُ يَا ذَابّ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ». وقال ﷺ: «جَاءَنِي جِبْرِيلُ عليه السلام، وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ حَمْزَةَ مَكْتُوبٌ فِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ السَّبعِ: حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المطّلِبِ أَسَدُ الله، وَأَسَدُ رَسُولِهِ». ثُمَّ جَاءَت صَفِيّةُ بنتُ عَبْدِ المطّلِبِ، فأمرَ النبيُّ ﷺ الزُّبَيرَ رضي الله عنه أَنْ يُرْجِعَ أُمَّه صَفِيّةَ رضي الله عنها عَنْ رُؤْيَته، خوفاً عَلَى عَقْلِها، فقال لها: يا أُمَّه؛ إنّ رَسُولَ الله ﷺ يَأمُرُكِ أَنْ تَرْجِعِي، فَدَفعَتْه في صَدْرِه، وقالت: لِمَ؟، قَدْ بلغَني أَنه مُثِّلَ بِأَخِي، وذلك في الله، فمَا أَرْضَاني بما كان في الله من ذلك، لأَحْتَسِبَنَّ، ولأَصبِرَنّ إنْ شَاء الله تعالى، فجاءَ الزّبيرُ رضي الله عنه، فأخبرَ النبيَّ ﷺ بذلك، فقال: «خَلِّ سَبِيلَهَا»، فجاءَت وجعَلَتْ تَبكِي، ثم اسْتَرْجَعَتْ واستغْفَرَتْ له، فسَجَّاهُ ﷺ بِبُرْدِه.

وكان فيمن قُتِلَ يومئذٍ مُصْعَبُ بن عُمَير رضي الله عنه، فكُفِّنَ في بُرْدَةٍ إن غُطِّيَ بها رأسُه بدت رجلاه، وإن غُطِّيَ بها رجلاه بدا رأسُه. فقال رَسُولُ الله ﷺ: «غَطُّوا۟ بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلى رِجْلَيهِ الإِذْخِر». وقد كان مصعب بن عمير هذا

قبل الإسلام فتى مَكَّةَ شباباً وجمَالاً ولِبَاساً وعِطْراً، فلما أسلَمَ تَشَعَّثَ. والأكثرون على أنّ الذين قُتِلوا يوم أُحَدٍ من المسلمين سبعون: أربعةٌ من المهاجرين، وهم: حمزة، ومصعب، وعبد الله بن جحش، وشماس بن عثمان. والآخرون من الأنصار، وقُتِلَ من المشركين ثلاثةٌ وعشرون. وفي هذا نظرٌ، وهو لا يتناسبُ معَ مَا ذكرُوه مِنْ أَنّ حمزةَ وحدَه قتلَ واحِداً وثلاثين[1].

ثم أمرَ رَسُولُ الله ﷺ بدفن شُهَدَاء أُحُدٍ بدمائهم، ولم يغسلهم، ولم يكفنهم إلا في ثيابهم التي قُتِلُوا فيها بعد أَنْ نُزِعَ عنهم الحديد والجلود، ولم يُصَلِّ عليهم، وروى بعضهم: أنّ النبيَّ ﷺ كبّر عليهم أربعًا أربعًا، وكبّر على عمه حمزة سبعين تكبيرَة، وهو خَبرٌ ضَعيفٌ، وقد قال إمامنا الشَّافعي ﷺ: "جاءت الأخبارُ كأنّها عيان من وجوهٍ متواترة؛ أنّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُصَلِّ على قتلى أحُدٍ، وما رُوِيَ أنّه صَلّى عليهم وكبَّرَ على حمزَةَ سبعين تكبيرَة فلم يصح،

---

(١) هناك اختلاف في عدد القتلى من المشركين في غزوة أُحُدٍ، والأقوال في ذلك كثيرة، فمنها: أنهم كانوا اثنين وعشرين، وقد ذكرهم الواقدي في مغازيه بأسمائِهم وذكرَ أسماءَ من تَوَلّى قتلَ كُلِّ واحِدٍ من المسلمين. ومنها: أنهم كانوا أربعة وثلاثين. ومنها: أنهم كانوا خمسة وأربعين. والقولُ الأوّل من أكثر الأقوال شُهْرَةً، إلا أنّ القول بأنّ القتلى منهم أكثر مما سبق ذكره هو الأقربُ للصَّوابِ، ويظهرُ ذلك جليّاً للمُتَتبِّع أحدَاث المعركة، فقد قُتِلَ منهم في البدءِ إحدى عشر رجلاً تحت اللّواء فقط، وقتل قُزْمَانُ وحدَه ثمانيةً، وقتلَ سَعدٌ تسعةً، وقتل عبدُ الرّحمن سبعة، وقتل عليٌّ أربعةً، وهذا غيرُ مَن قتلهم أبو دُجَانة وطلحة بن عبيد الله. فإذا انْضَافَ إلى ذلك العدَدُ الذِي ذُكِرَ أَنّ حمزَةَ قتلَهم فسَيَكُونُ القتلى أكثرُ من سِتّين رجلاً. وأما الشّهداء من المسلمين فقد نُقِلَ عَنِ الإمام مالكٍ: أنّ شهداءَ أُحُدٍ خمسة وسبعون سبعون منهم من الأنصار. ولذا رَوَى البخاري في كتاب المغازي، برقم (٤٠٧٨): عن قتادة قال: ما نَعْلَمُ حيّاً من أحياءِ العرب أكثر شهيداً أَعَزّ يوم القيامة من الأنصار، قُتِلَ منهم يوم أُحُدٍ سبعون، ويوم بئْرِ معونة سبعون، ويوم اليمامة سبعون.

وقد كان ينبغي لمن عارضَ بذلك ما رُوِيَ من الأحاديث الصحيحة أنْ يَسْتَحِيي على نفسه". وقال السُّهَيليّ ﷺ: "لم يَرِدْ عَن رَسُولِ الله ﷺ أنه صَلّى على شَهِيدٍ في شَيءٍ من مَغَازِيه إلا في هذه الرواية في أحد، ولم يُصَلّ أَحَدٌ من الأئِمّة بعده ﷺ". وأما ما رُوِيَ أَنّ رَسُولَ الله ﷺ صَلّى على قَتْلَى أُحُدٍ بعد ثمانِ سنين صَلَاتَه عَلَى الميِّت. فالمراد به أنه دعا لهم كَدُعَائِه للمَيّت، كالمودع للأحياء والأموات، وكان ذلك حين عَلِمَ قُرْبَ أَجَلِه.

وكان رَسُولُ الله ﷺ يجمعُ بين الرجلين والثلاثة في القبر الواحد، وإنّما أَرْخَصَ لهم في ذلك لِما بالمسلمين مِن الجِرَاحِ التّي يَشقّ معها أنْ يحفروا قَبْراً لكل واحدٍ. وصَار ﷺ يقول: «احْفِرُوا وَأَوْسِعُوا وَأَعْمِقُوا»، وكان ﷺ يقول: «انظُرُوا أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ جَمْعاً ـ حِفْظاً لِلْقُرْآن ـ فَقَدِّمُوهُ فِي القَبْرِ»، واحتمل أُناسٌ قَتَلَاهم إِلَى المدينة، فأمرَ رَسُولُ الله ﷺ بردِّهم لِيُدْفَنُوا حِيثُ قُتِلُوا.

وأمرَ ﷺ بدَفْنِ عبدِ الله بن عمرو والدِ جابر ﷺ مع عمرو ابن الجموح في قبرٍ وَاحِدٍ لما بينهما من الصّفاء. وعبدُ الله بن عمرو هذا أصابه جرح في وجهه فمَات ويده على جُرْحِه، فأُمِيطَتْ يدُه عَن وجهِه فَانْبَعَثَ الدَّم، فرُدّتْ يدُه إلى مكانها فسَكَنَ.

ويُقَالُ: إنّ السّيلَ حفرَ قبْرَ عبدِ الله بن عمرو وعمرو بن الجموح ﷺ، فَوُجِدَا لَمْ يَتَغَيّرا، كَأنّهما مَاتَا بالأَمْسِ، فأُزِيلَت يَدُ عمرٍو عَن جُرْحِه ثُمَّ أُرْسِلَت فَرَجعت كمَا كانت، وكان ذلك بعد وقْعَةِ أُحُدٍ بِستٍّ وأَربعينَ سنة.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: اسْتُصْرِخْنَا إلى قَتْلَانا بِأُحُدٍ، وذَلِكَ حِين

جَرَى الماءُ وسَط مَقبرة شُهداءِ أُحُدٍ، وَأُمِرَ النَّاسُ بِنَقْلِ مَوتَاهم، فأخْرَجْنَاهم رِطَاباً، تَنْثَنِي أَطْرَافُهم، وذلك على رَأسِ أربعين سنة، وأصَابت المِسْحَاةُ قَدَمَ حمْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فانبَعَثَتْ دَماً. وذكر أنه فَاحَ من قبورهم مِثْلُ ريح المسْك نحو خمسين سنة، معَ أَنَّ أرضَ المدينة سَبِخَةٌ يتغيرُ الميتُ في قبرِه مِن لَيْلَتِه، وذلك لأنَّ الأرضَ لا تأكلُ لحومَ الشُّهداء، كما لا تأكلُ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام، ولا قَارِئَ القُرآنِ، والعالم، ومُحْتَسِبَ الأَذَان.

ودُفِنَ خارجةُ بنُ زيد وسَعدُ بنُ الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قبرٍ واحد، لأنه كان ابن عمّه، وذكر أنّ خَارِجَةَ هذا أخذتْهُ الرّماحُ، فجُرح بضعة عشر جرحاً، فمرّ به صفوانُ بن أمية بن خلف، فعرفه فأجهز عليه، وقال: الآن شفيت نفسي حين قتلتُ الأماثل من أصْحَابِ محمَّدٍ، قتلتُ خارجةَ بن زيد، وقتلتُ أوسَ بن أرقم، وقتلتُ أبا نَوفل.

ولما أَشْرَفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على شهداءِ أُحُدٍ قال: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَمَا مِنْ جَرِيحٍ يُجْرَحُ في الله إلّا وَاللهُ يَبْعَثُهُ يومَ القِيَامَةِ يَدْمَى جُرْحُه، اللّونُ لَونُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ المسْك». وعَن ابنِ عَبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمّا أُصِيبَ إخْوَانُكُم بِأُحُدٍ، جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنّةِ وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلّ العَرْشِ، فَلَمّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ، وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ، قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ الله بِنَا، لِئَلّا يَزْهَدُوا فِي الجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عَنْ الحَرْبِ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أُبَلّغُهُمْ عَنْكُمْ»، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَؤُلَاءِ الآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ

ﭐللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

ولما أرادَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَوجَّهَ إلى المدينة رَكِبَ على فَرَسِهِ، وخرَجَ المسلمون حوله وعامّتُهم جَرْحى، ومعهم أربع عشرة امرأة، فلما كانوا بأَصْل جبَل أُحُدٍ قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اصْطَفُّوا حتَّى أُثْنِي عَلَى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»، فَاصْطَفَّ الرِّجَالُ خَلْفَه صُفوفاً، وخلفهم النّساءُ، فقال في دعائه: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ كُلّه، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِما بَسَطْتَ، ولَا بَاسِطَ لِما قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لمنْ أَضْلَلْتَ، ولَا مُضِلَّ لِمنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِما أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِما أَبْعَدْتَ، وَلَا مُبْعِدَ لِما قَرَّبْتَ..»، الحديث[1].

ومرَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بامْرَأةٍ من بني دينار، وقد أصيب زوجها، وأخوها، وأبوها، وابنها في يوم أحد، فلمّا نَعوهُم لها، قالت: ما فعلَ رَسُولُ الله

---

(١) الحديث أخرَجَه الإمام أحمد في مسنده [٤٢٤/٣]، برقم: (١٥٥٣١)، والبخاري في الأدب المفرد [٢٤٣/١]، برقم: (٦٩٩)، والنسائي في الكبرى [١٥٦/٦]، برقم: (١٠٤٤٥)، والطبراني في المعجم الكبير [٤٧/٥]، برقم: (٤٥٤٩)، وأبو نعيم في الحلية [١٢٧/١٠]، والحاكم في مستدركه [٢٦/٣]، برقم: (٤٣٠٨). وتكملة الحديث عندهم: «.. اللَّهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ، وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ، وَرِزْقِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ المُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ العَيْلَةِ، وَالأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللَّهُمَّ عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا، وَمِنْ شَرِّ مَا مَنَعْتَ مِنَّا، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ، اللَّهُمَّ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ، وَأَحْيِنَا مُسْلِمِينَ، وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ، اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكَفَرَةَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَهَ الْحَقِّ».

ﷺ؟، فقالوا: خَيراً يَا أمّ فُلان، هوَ بحمْدِ الله كما تُحِبّين. قالت: فأرونيه حتّى أَنظرَ إليه، فلما نظرَتْ إلى النبيِّ ﷺ قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كلّ مصيبة بعدك جَلَل. ولما وصَلَ رَسُولُ الله ﷺ إلى المدينة لقيته حَمْنَةُ بنتُ جَحْشٍ أُخْتُ زَينب بنتِ جَحْشٍ أمِّ المؤمنين رضي الله عنهما، فقال لها ﷺ: «احْتَسِبي»، قَالت: مَن يا رسول الله؟، قال: «خَالَك حَمزَة»، فَقَالَتْ: إنّا لله وَإنّا إلَيهِ رَاجِعُون، غفرَ اللهُ له، وهَنيئاً له الشّهادة. ثم قال لها: «احْتَسِبي»، فَقَالَتْ: مَنْ يَا رَسُول الله؟، قال: «زَوْجَك مُصْعبَ بنَ عُمَير»، فَقَالَتْ: وَاحُزْنَاهُ. وصَاحَت وَوَلْوَلَتْ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ زَوْجَ المرْأَةِ لَبِمَكَانٍ مَا هُوَ لِأَحَدٍ»، لما رَأى من تثبتها على أخيها وخالها، وصياحها على زوجها ثم قال لها: «لِمَ قُلْتِ هَذَا»؟، فَقَالَتْ: تذكّرْتُ يُتْمَ بَنِيهِ فَرَاعَنِي، فدعا رَسُولُ الله ﷺ لها، ثم دعا لولدها في أنْ يُحْسِنَ الله تعالى عليهم الخلَف، فتزوّجت طلحة بن عبيد الله، فكان أَوْصَلَ النّاس لولدِها، وولدت له محمد بن طلحة.

وجاءَت أمُّ سعد بن معاذ تَعْدُو نحوَ رَسُولِ الله ﷺ، وهو على فرَسِه، وسعدُ بن معاذ آخِذٌ بِلِجَامِها، فقال له سَعدٌ: يا رسول الله؛ أُمِّي، فقال ﷺ: «مَرْحَباً بِهَا»، ووَقَفَ لها، فَدَنَتْ حتّى تَأَمّلَتْ رَسُولَ الله ﷺ، فعزّاهَا النبيُّ ﷺ بابنِها عمرو بن معاذ، فَقَالَتْ: أمّا إذْ رَأَيْتُك سَالماً فقد اشْتَوت المصِيبة، فدعا رَسُولُ الله ﷺ لأَهْل مَن قُتِلَ بِأُحُدٍ، ثم قال لها: «يَا أُمَّ سَعْد، أَبْشِرِي، وبَشِّرِي أَهْلَهُم أَنَّ قَتْلَاهُم تَرَافَقُوا فِي الجنَّةِ جَمِيعاً، وَقَدْ شُفِّعُوا فِي أَهْلِهِمْ جَمِيعاً»، قالت: رَضينا يا رسول الله، ومَن يبكي عليهم بعد هذا؟!. ثم قالت: يا رسول الله، ادْعُ لِمنْ خلفوا، فقال: «اللَّهُمَّ أَذْهِبْ حُزْنَ قُلُوبِهِم، وَاجْبُرْ مُصِيبَتَهُم، وَأَحْسِنْ الخلَفَ عَلى مَنْ خَلَفُوا».

وسمع رَسُولُ الله ﷺ نسَاءَ الأنصارِ يبكينَ على أزْوَاجِهِنَّ، وأبنائِهِنَّ وإِخْوَانِهِنَّ، فَبَكَى حتّى ذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، ثُمّ قَالَ: «لَكِنّ حَمْزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ»، ولعلّه ﷺ لم يكن لهُ بالمدينة لَا زَوْجَةٌ ولَا بِنْتٌ، فأمرَ سعدُ بنُ معاذٍ نساءَه ونساءَ قومه بأنْ يَذْهَبْنَ إِلَى بيتِ رَسُولِ الله ﷺ يَبكِينَ حَمْزَةَ، وكذلك أسيدُ بنُ حُضَير أمرَ نِسَاءَهُ ونِسَاءَ قومِه أَنْ يَذْهبْنَ إلى بيتِ رَسُولِ الله ﷺ يبكينَ حمزةَ.

فلما جاء ﷺ بيتَه حمَلَه السَّعْدَان وأنزلَاه عَن فرسِه ثمّ اتّكَأَ عليهما حتّى دخلَ بيته، ثمّ أذّنَ بلالٌ لصَلَاةِ المغربِ، فخرجَ رَسُولُ الله ﷺ للصّلاة على مثل تلك الحال، يتوكأُ على السَّعْدَين، فصلَى بهم ﷺ، فلما رجع من المسجد من صَلاة المغرب سَمع البُكَاءَ، فقال: «مَا هَذَا»؟، فقيل له: نساءُ الأنصارِ يَبكِينَ حمزةَ، فقال ﷺ: «ارْجِعْنَ يَرْحَمْكُنّ الله، فَقَدْ آسَيْتُنّ بِأَنْفُسِكُنّ»، وأمرَ أنْ تردَّ النساء إلى منازلهن. وباتت وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على بابِه ﷺ يحرسونه خوفاً من قريشٍ أنْ تعودَ إلى المدينة. ونهى النبيُّ ﷺ نساء الأنصار عَنِ النَّوْحِ فقالَ له الأَنْصَارُ: يا رسول الله، بلغنا أنك نهيتَ عن النَّوحِ، وإِنَّمَا هو شَيءٌ نَنْدُبُ بِهِ مَوتَانا، ونَجِدُ فيه بعضَ الرّاحَةِ، فائْذَن لنا فيه، فقال لهم ﷺ: «إِنْ فَعَلْنَ فَلَا يَخمِشْنَ وَجْهاً، وَلَا يَلْطِمْنَ خدّاً، ولَا يَحْلِقْنَ شَعْراً، وَلَا يَشْقُقْنَ جَيْباً».

ولما وصَل رسولُ الله ﷺ إلى المدينةِ أظهرَ المنافقونَ واليهودُ الشّماتةَ والسّرورَ، وصاروا يُظْهِرُونَ أقبحَ القولِ، ومنه قولهم: ما محمّدٌ إلا طالبُ ملك، وما أصيب بمثلِ هذا نبيٌّ قَطّ؛ لقد أصيبَ في بدنِه وأصيبَ في أصحابِه. ويقولون: لو كان مَنْ قُتِلَ منكم عندنا ما قتل. فاستأذنَ عمرُ النبيَّ ﷺ في

قتل هؤلاءِ المنافقين، فقال: «أَلَيسَ يُظْهِرُونَ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنّي رَسُولُ الله»؟، قال: بلَى، ولكن تَعَوُّذاً من السيف، وقد بانَ أمرُهم، وأبدى الله تعالى أَضْغَانَهم، فقال ﷺ: «نُهِيتُ عَنْ قَتْلِ مَنْ أَظْهَرَ ذَلِكَ»، وصار ابنُ أُبَيٍّ - لعنَه الله - يُوَبِّخُ ابنه عبدَ الله رضي الله عنه وَقَدْ أَثْبَتَتْهُ الجِرَاحَةُ، فقال له ابنُه: الذي صَنَعَ الله لرسولِه والمسلمين خيرٌ. وقد كانت عادَةُ عبدِ الله بن أبي ابن سلول إذا جلسَ ﷺ يومَ الجمعة على المنبر أنْ يقومَ فيقول: أيها الناس، هذا رَسُول الله ﷺ بينَ أظهركم، أكرمَكم الله تعالى به، وأعزّكم، فانصرُوه، وعزّرُوه، واسمعوا له، وأطيعوا. ثُمّ يجلسُ، فبعدَ أُحُدٍ أراد أنْ يفعَلَ كذلك، فلما قام أخذ المسلمون بثوبِه من نواحِيه، وقالوا له: اجْلِسْ يا عدوَّ الله، والله لستَ لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت، فخَرَج يتَخَطّى رِقَابَ النّاس ويقول: كأني إنّما قلتُ هَجْراً. فقال له بعضُ الأنصار: ارْجِعْ يستغفرْ لك رَسُولُ الله ﷺ، فقال: والله ما أَبْتَغِي أَنْ يستغفرَ لي[1].

١٣ - غَزْوَةُ حَمْرَاءِ الأَسَد

ولما كان صبيحة قدومه ﷺ من أُحُدٍ أَذَّنَ مُؤَذِّنُهُ ﷺ أَنْ يخرجوا

---

(١) تنبيه: لا يُقالُ أَنّ النبيَّ عليه السلام انهَزَمَ في غزوة أُحُدٍ؛ لا ظاهراً ولا باطناً. ويمنعنا من القول بذلك أمورٌ، منها: أنّ عدد قتلى الفريقين متقاربٌ. وأنّ المسلمينَ لم يفرّوا جميعاً؛ رَغْمَ الشّدَّة. وأنه لم تَحْصُلْ لهم مُطَارَدَةٌ. ولَا أُسِرَ منهم أَحَدٌ كما حصل للمُشركين يوم بَدْرٍ. وأنّ الكفّار لم يحصلوا على شيءٍ من الغنائم. ولم يقيموا بساحة القتال كما هو شأن المنتصرين. ولم يجترئوا على الدخول إلى المدينة لنَهْبِ الذَّرَارِي والأمْوَال مع أنها كانت قريبة منهم ومفتوحة وخالية من الحِرَاسَة. وإنّما الخلاصة أنهم حصلوا فُرْصَةً نالوا فيها بعضَ الأَرَبِ، وخافوا أَنْ تَرْجعَ الكَرَّةُ عليهم فسارعوا للانسحابِ من ساحةِ المعركة قبل المسلمين.

خلفَ قريش، وأَنْ لا يخرجَ إلّا من حضرَ أُحُداً، وذلك إرهاباً للعَدوِّ، وليبلغهم أنه ﷺ خرجَ في طلبِهم ليَظُنّوا أنّ بالنبيِّ ﷺ قُوَّةٌ، وأنّ الذي أصابَهم لم يوهِنْهم ولم يُضْعِفْهم عن قتال عدوِّهم. وقيل: أنّ النبيَّ ﷺ بلغه أنّ أبا سُفْيَانَ يُرِيدُ أَنْ يرجعَ بقريشٍ إلى المدينة؛ ليستأصلوا مَن بقيَ مِن أصحابِ رَسُولِ الله ﷺ، وقد بلغه أنَّ المشركين قالوا له: لا مُحَمَّداً قَتَلْتُمْ، ولَا الكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُم، فَبِئْسَ ما صنعتم، إنكم قد قاتلتموهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم قبل أن يَجِدُوا قُوَّةً وشَوكَةً، فقَذَفَ الله في قلوبهم الرُّعْبَ.

وذُكِرَ أنّ عبدَ الله بنَ عَوفٍ جاءَ إلى النَّبِيِّ ﷺ صَبيحةَ قدومِه ﷺ من أُحُدٍ، وأخبره أنه أقبل من أهلِه، حتَى إذا كان بمَحَلّ كذا إذا قريش قد نزلوا به؛ فسمع أبا سُفْيَانَ وأصحابَه يقولون: ما صنعتم شيئاً، قد بقيَ منهم رُؤُوسٌ يجمعون لكم، فارجعوا نستأصلُ مَن بَقِيَ، وصفوانُ بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول لهم: يا قوم لا تفعلوا فإني أخافُ أنْ يجمعَ عليكم مَنْ تَخلّفَ عن الخروج، فارجعوا والدّوْلةُ لكم، فإنّي لا آمَنُ إنْ رَجَعْتُم أَنْ تكونَ الدَّوْلةُ عليكم. فقال ﷺ: «أَرْشَدَهُم صَفْوَانُ، ومَا كَانَ يُرْشِدُ»، ثم دعا رَسُولُ الله ﷺ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وذكر لهما ما أَخْبَرَ به عبدُ الله بن عوف، فقالا: يا رسول الله، اُطْلبِ العَدُوَّ، لا يقتحمون على الذّرِّيّة. فلما انصرفَ ﷺ من صَلاة الصّبح أمرَ بلالاً بأن ينادي: إنّ رَسُولَ الله ﷺ يأمرُكم بطلبِ عَدُوِّكم، ولا يَخْرُجْ إلّا مَن حَضَرَ القِتَالَ بِالأَمْسِ.

وعند تَهَيُّئِهِ ﷺ للخروج جاءَ جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما فقال: يا رسولَ الله،

إنما تخلّفْتُ عن أُحُدٍ، لأنّ أبي خلفني على سبع أخواتٍ لي، وقال: يا بني، إنه لا ينبغي لي ولا لك أَنْ نتركَ هؤلاءِ النّسْوة لا رَجُلَ فيهنّ، ولسْتُ بالذي أُؤْثِرُكَ بالجهاد مع رَسُول الله ﷺ، لعلّ الله يرزقني الشهادة فتخلف على أخواتك فاسْتُخْلِفْتُ علَيهِنَّ واستأثرَ عليَّ بالشّهادَةِ، فائذَن لي يا رسولَ الله مَعَك، فأَذِنَ له رَسُولُ الله ﷺ ولم يخرج معه أحَدٌ ممّن لم يشهدْ القِتَال بأُحُدٍ غيره. واستأذنَه رجالٌ لم يحضروا القِتَال منهم عبدُ الله بنُ أبي قال: أنا رَاكِبٌ مَعَكَ. فأبى ذلك عليهم رَسُولُ الله ﷺ.

ثم دعا رَسُولُ الله ﷺ بِلِوَائِه وهو مَعْقُودٌ لم يُحَلْ، فدفعَه لعليٍّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، واستخلفَ على المدينة ابنَ أمِّ مَكْتُوم، وركبَ رَسُولُ الله ﷺ فرسَه المسَمّى بالسَّكْبِ، ولم يكن مع أصحابِه فرَسٌ سِوَاه، وكان عليه الدّرْعُ والمِغْفِرُ، وما يُرَى إلّا عَيناه، وخرجَ ﷺ وهو مَجْرُوحٌ، وفي وجْهِه أَثَرُ الحلقتين، وجَبِينُه مشْجُوجٌ، ورباعيتُه مكسُورة، وشفته السّفلى مجروحة من باطنها، وشفته العليا مَكْلُومَةٌ من باطنها، ومنكبه الأيمن مُتَوَهِّنٌ من ضَرْبَةِ ابنِ قَمِئَة، وركبَتاهُ مجرُوحَتان من وقْعَتِه في الحفْرَة.

وخرَجَ معه ﷺ جميعُ مَن كان معه في أُحُدٍ، وخرجوا وبهم الجراحات، ولم يُعَرِّجُوا على دوَاءِ جِرَاحاتهم، فقد كان بأسيد بن حضير تسع جراحات، ومثله عقبة بن عامر، وكان خراش بن الصّمة به عشر جراحات، وكان كعب بن مالك به بضع عشرة جراحة، وكان طلحة بن عبيد الله به بضْعٌ وسَبعون جراحة، وقد قطعت أصبعه السّبّابَة، فشُلَّتْ بقِيَّةُ أصابع يدِه اليسرى. وكان عبد الرحمن بن عوف به عشرون جراحة، وجرح من بني سَلمة أربعونَ

رَجُلاً فقال النَّبِيُّ ﷺ لما رآهم: «اللَّهُمَّ ارْحَمْ بَنِي سَلمَة». وقد أنزل الله تعالى فيمن خَرَجَ معه ﷺ قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢].

وتلقّاه ﷺ طلحةُ بنُ عُبيدِ الله رضي الله عنه، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «يا طَلْحَةُ، أَينَ سِلَاحُكَ»؟، فقال: يا رَسُولَ الله، هو قَرِيبٌ. وذهبَ فأتى بسِلَاحِه، وبهِ مِنَ الجراح ما تَقَدَّمَ ذكرُه. يقولُ طلحةُ: كنْتُ أَهَمَّ بجِرَاحِ رَسُولِ الله ﷺ مِنِّي بِجِرَاحِي، فأقبلَ عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «يا طَلْحَةُ أَينَ ترى القَومَ»؟، فقلت: بالسّافِلَةِ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «ذَلِكَ الذي ظَنَنْتُ، أَمَا إِنَّهُم يا طَلْحَةُ لَنْ يَنالوا مِنَّا مِثْلَهَا، حتَّى يَفْتَحَ الله مَكَّةَ عَلَينَا». ثم قال ﷺ لعُمَرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: «يا بْنَ الخطّابِ، إنَّ قُرَيْشاً لَنْ يَنالوا مِنَّا مِثْلَ هَذَا حَتَّى نَسْتَلِمَ الرُّكْنَ». ثمّ سارَ رَسُولُ الله ﷺ، وكانَ دليلُه في السَّيرِ ثابتُ بنُ الضَّحَّاكِ، ولا زالوا سائرينَ حتى عسكروا بحَمْرَاءِ الأَسَد، وهو محَلٌّ بينه وبين المدينة ثمانية أميالٍ.

وقال رجلٌ من الأنصار: شهدت أُحُداً أنا وأخِي، فرجعنا جَرِيحين، فلمّا أذَنَ رَسُولُ الله ﷺ لنَا بالخروج في طلبِ العدُوّ، قال لي أخِي: أَتفُوتُنا غَزْوَةٌ مع رَسُولِ الله ﷺ؟، إنَّ تَرَكنَا غَزْوَةً مع رَسُولِ الله ﷺ لَفِسْقٌ، فخرَجْنا، ووالله ما لنَا مِن دَابّة نركَبُها، وكنْتُ أَيْسَرَ جِراحاً منه، فكنتُ إذا غُلِبَ حمَلْتُه عَقَبَةً، ويمشي عقبةً، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمونَ من حَمْرَاءِ الأَسَد. وكان وصولهما عند العشاء، وهم يوقدون النيران، فجاءَهما الحرسُ، وكان على حرَسِه تلك الليلة عبّاد بنُ بشْرٍ معَ طائفة، فأتَى بهما إلى رَسُولِ الله

ﷺ، فقال لهما: «مَا حَبَسَكُمَا»؟، فأخبراه بغلبتهما، فدعا لهما بخيرٍ، وقال لهما: «إِنْ طَالَتْ بِكُما مُدَّةٌ كَانَتْ لَكُما مَرَاكِبَ مِنْ خَيْلٍ وَبِغَالٍ وَإِبلٍ، وذَلِكَ لَيسَ بِخَيرٍ لَكُم»، وهذان الرَّجُلانِ هما: عبد الله ورافع ابنا سُهَيل بن رافع ﷺ، والذي ضَعُفَ عن المشْي رَافعٌ، والحامل له عبدُ الله.

وأقام المسلمون بحَمْرَاءِ الأَسَدِ ثلاثَ ليالٍ، وكانوا يوقدون في كل ليلةٍ من تلك الليالي خمسمائة نار، حتى تُرى من المكان البعيد، وذَهَبَ صوتُ مُعَسْكَرِهِم ونيرانِهم في كلّ وجْهٍ، فكَبَتَ الله تعالى عدوَّهم، وكان عَامَّةُ زادِهِم التّمرُ، وحمل سعدُ بنُ عبادة ﷺ ثلاثين بعيراً حتّى وافَتْ حَمْرَاءَ الأَسَد، وسَاقَ جُزُراً لِتُنْحَرَ، فنحَروا في يومٍ اثنتين، وفي يومٍ ثلاثاً.

ولَقِيَ كُفَّارُ قريشٍ بالرَّوْحَاءِ مَعبداً الخُزَاعيّ، وكان يومَئِذٍ مُشركاً وَقد كانَ رَأى خروجَه ﷺ خلفَ قريش، فأخبرَهم بخروجِ رَسُولِ الله ﷺ لطلَبِهم، وقد كانوا أرَادُوا الرُّجوعَ إلى المدينة فكسَرَهم خروجُه فتَمادوا إلى مَكَّةَ. فإنه لما كان النبيُّ ﷺ بحَمْرَاءِ الأَسَد لَقِيَه مَعْبَدٌ الخُزَاعِيّ، وكانت خُزَاعَةُ مُسْلِمُهم وكافرُهم تُحِبُّه ﷺ، فقال: يا محمَّدُ؛ والله لقد عزَّ علينا ما أَصَابَك في نفسِك، وما أصابك في أصحابِك، ولَوَدِدْنَا أَنَّ الله تعالى أَعْلَى كَعْبَك، وأَنَّ المصيبةَ كانت لغَيرِك. ثمّ مضَى مَعبَدٌ حتّى كان بالرَّوحاء، فلمّا رَأى أبو سُفْيَانَ مَعبداً، قال: هذا معبدٌ وعنده الخبرُ، ما وراءَك يا مَعْبَدُ؟، قال: تركتُ مُحَمَّداً وأصحابَه، قد خرجوا لطلبِكم، في جمعٍ لم أرَ مثلَه قَطّ، يَتَحَرَّقُون عليكم تَحَرُّقاً، وقد اجتمعَ معه من كان تخلّفَ عنه بالأمس من الأوس والخزرج، وتعاهدوا على أنْ لا يرجِعوا حتّى يلقوكم فيثْأَرُوا منكم، وقد غَضِبُوا لقومِهم غضباً شديداً،

ونَدِمُوا على ما فعلوا، وفيهم مِن الحَنَق شيءٌ لم أرَ مثله قطّ، قال: ويلك ما تقول؟، قال: والله ما أرَى أَنْ ترْحَلَ حتّى ترَى نَوَاصِيَ الخيل، فقال: والله لقد أَجْمَعْنا الكَرَّةَ عليهم لِنَسْتَأْصِلَ بقيّتَهم، قال: فإني أنهاكَ عن ذلك، ففزعَ أبو سُفْيَانَ وأصحابُه، وانصرفوا سِرَاعاً.

وعند انصرافِ قُرَيشٍ لقِيَ أبو سُفْيَانَ نَفَراً يُريدونَ المدينةَ، فطلبَ منهم أَنْ يخبِرُوا النبيَّ ﷺ وأصحابَه بأنهم أجمعُوا على الرَّجْعَة، فلمَّا بَلَّغُوا رَسُولَ الله ﷺ ذلك، قال: «حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيْل»، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقال لهم ﷺ: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَوَّمْتُ لهُم الحِجَارَةَ، وَلَوْ رَجَعُوا لَكَانُوا كَأَمْسِ الذَّاهِب»، ثم إنّ مَعْبَداً الخزاعي أرسلَ رَجُلاً يخبرُ رَسُولَ الله ﷺ أنّ أبا سُفْيَانَ قدِ انصرفَ هوَ ومَن معه خائفين، فانصرَف ﷺ إلى المدينة.

وفي حَمْرَاءِ الأَسَد ظَفِرَ رَسُولُ الله ﷺ بأبي عَزَّةَ الشّاعرِ الّذِي مَنَّ عليه حينَ أُسِرَ ببَدْرٍ مِن غيرِ فِدَاءٍ لأَجْلِ بناتِه، وأَخذَ عليه عهداً أَنْ لا يُقَاتِلَه، ولا يُكَثِّرَ عليه جَمعاً، ولا يُظاهرَ عليه أَحَداً، فنقَضَ العَهْدَ، وخَرَجَ مع قريشٍ إلى غزوة أُحُدٍ، وصارَ يَسْتَنْفِرُ الناسَ ويُحَرِّضُهم على قتالِ النبيِّ ﷺ بأشعَارِه. فدَعَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ لَا يُفْلِتَ مِنْهُ، فلمّا نزلَ المشركون بحَمْرَاءِ الأَسَد بعد عودتِهم من أُحُدٍ تركوه نَائِماً، فاستَمَرَّ حتّى ارْتفعَ النّهارُ، ووصلَ المسلمون إلى ذلك الموضع، فَأَسرَه عاصمُ بنُ ثابتٍ وجاءَ به إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا محمَّدُ، أَقِلْنِي وَامْنُنْ عَليَّ؛ ودَعْنِي لِبَنَاتِي، وأُعْطِيكَ عَهْداً أَنْ لَا أعودَ لمثْلِ مَا

فعلتُ، فقال ﷺ: «لَا وَاللهِ؛ لَا تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ وتَقُولُ: خَدَعْتُ مُحَمَّداً مَرَّتَين، لَا يُلْدَغُ المؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَين، اضْرِبْ عُنُقَهُ يَا زَيد».

وهذا المثل لم يُسْمَع مِن غيرِه ﷺ، ومعناه: أنه ينبغي للمرءِ أن يستعملَ الحزْمَ. ومَوْرِدُهُ: أنّ شَخصاً جرَّدَ سَيْفَه، وقصَدَ النَّبيَّ ﷺ فضَرَبَه لِيَقْتُلَه، فاخْطَأتِ الضَّرْبَةُ، فقال: كنتُ مَازِحاً يا محمَّدُ، فعفَا عنه، ثم عادَ لمثل ذلك مرَّةً أخرى، وقال مثل ذلك، فأمرَ ﷺ بقتْلِه، وقال: «لَا يُلْدَغُ المؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَين».

وأمرَ ﷺ في ذلك المحَلّ بقتْلِ مُعَاوِيَةَ بنِ المغيرة بن أبي العاص، وقد كانَ لجأ إلى ابنِ عمِّه عثمانَ بنِ عفَّان رضي الله عنه، فإنّه لما هُزِمَ الكُفَّارُ في أُحُدٍ ذهبَ على وجْهِهِ، ثُمَّ أَتى بابَ عُثمانَ فَدَقَّه، فَقَالَتْ أمُّ كلثُوم زوجةُ عثمانَ: مَن أنت؟، قال: أنا ابنُ عَمِّ عثمان، فَقَالَتْ: هو ليس هَاهنا، فقال: أرسِلي إليه، فله عندي ثَمَنُ بَعِيرٍ كنتُ اشتريته منه. فجاءَ عثمان، فلما نظر إليه قال: أهلَكْتَني وأهْلَكْتَ نفسَك، فقال: يا بنَ عمٍّ لم يَكُنْ أَحَدٌ أَمَسَّ بي رَحِماً مِنْكَ، فَأَجِرْني، فأَدْخلَه عثمانُ رضي الله عنه منزلَه، وصَيَّره في ناحيته، ثم خرَجَ عثمانُ ليأخذَ له أماناً مِن رَسُولِ الله ﷺ، وقد قال رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ مُعَاوِيَةَ بالمدِينَةِ فَاطْلُبُوهُ»، فدخلوا مَنْزِلَ عُثمانَ، فأشارَتْ إليهم أمُّ كلثوم رضي الله عنها بأنه في ذلك المكان، فأخرجوه وأتوا به إلى رَسُولِ الله ﷺ، فأَمرَ بقتْلِه، فقال عثمانُ رضي الله عنه: والذي بعثَكَ بالحقِّ مَا جِئْتُ إلا لآخذَ له أَماناً منك، فهَبْهُ لي، فوَهَبَه له، وأَجَّلَهُ ثلاثاً، وأَقْسَمَ ﷺ إنْ وَجَدَهُ بَعْدَهَا قتَلَه. ثم خرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إلى حَمْرَاءِ الأَسَدِ وأقامَ معاويةُ يَسْتَعْلِمُ أخبارَ رَسُولِ الله ﷺ

لِيَأْتِيَ بها قُرَيْشاً، فلما كان اليوم الرابع عادَ رَسُولُ الله ﷺ إلى المدينة فخرجَ معاويةُ هارباً، فأدْرَكَه زيدُ بنُ حارثة وعمّارُ بن ياسر رضي الله عنهما، فرميَاه حتّى قَتَلَاه، وقد كان ﷺ بعثهما إليه، وقال: «إِنَّكُمَا سَتَجِدَانِهِ بِمَوضِع كَذَا وَكَذَا»، وسَمَّى لهما موضعاً بينه وبين المدينة ثمانية أميال، فوجداه بذلك الموضع فقَتَلاه.

وبعد رجوع النّبيِّ ﷺ إلى المدينة جاءَه جبريلُ عليه السلام، وأخبرَه بأنّ الحارِثَ بنَ سُويدٍ في قُباء، وأَمَرَه أنْ ينْهَضَ إليه وأَنْ يَقْتَصَّ منه بمَن قتَلَه مِنَ المسلمين غَدْراً يوم أُحُدٍ، وكان قد قتلَ المُجذَّرَ بنَ زِيَادٍ، وذلكَ لِأَنّ سُويداً كان قد قتلَ زِيَاداً والِدَ المُجذّر، في الجاهِليّة، فظَفِرَ المُجذَّرُ بِسُويدٍ والدِ الحارِثِ فقَتَلَه بأَبيه، وكل ذلك كان قبل الإسلام، وكان سَبباً لِوَقْعَةِ بُعَاثٍ، فلما قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المدينةَ أَسْلَمَ الحارِثُ بنُ سُوَيدٍ، وأَسْلَمَ المُجَذَّرُ بنُ زِيادٍ، ثُمّ شَهِدَا بَدْراً، فجَعَلَ الحَارِثُ يطلبُ مُجَذَّراً لِيَقْتُلَهُ بأَبِيه، فلمْ يَقدرْ عليه، فلمّا كانَ يومُ أُحُدٍ وجَالَ المسلمون تلك الجَوْلة؛ أَتاهُ الحارِثُ مِن خَلْفِه فَضَربَ عُنقَه، وقتل معَهُ قيسَ بنَ زَيدٍ، فنَهَضَ رَسُولُ الله ﷺ إلى قُبَاءٍ، في وقتٍ لم يكن يأتيهم فيه، في شِدَّةِ الحرِّ وفي يَومٍ حَارٍّ، فخرجَ إليه الأنصارُ مِن أهل قُباءٍ، ومنهم الحارثُ بنُ سُويدٍ، فأمرَ رَسُولُ الله ﷺ عُوَيمِرَ بنَ سَاعِدَةَ بضَرْبِ عُنُقِه، وقال له: «قَدّمْ الحَارِثَ بْنَ سُوَيدٍ إِلَى بَابِ المَسْجِدِ، وَاضْرِبْ عُنُقَهُ»، فَقُدِّمَ لِتُضرَبَ عُنقُه، فقال الحارثُ: لمَ يا رسولَ الله؟، فقال: «بِقَتْلِكَ المُجَذَّرِ بنِ زِيَادٍ، وَقَيسِ بنِ زَيدٍ»، فما رَاجَعَهُ الحارِثُ بكلِمَةٍ، فضُرِبَ عُنُقُه. وفي رواية: أَنّ الحارثَ قال: قَتَلْتُهُ والله، ومَا كَانَ قَتْلي إِيّاهُ رُجوعاً عن الإسلام ولَا ارْتِيَاباً

فيه، ولَكِنْ حَمِيّة مِنْ الشّيطانِ، وإنّي أَتوبُ إلى الله ورسولِه مما عَمِلْتُ، وأُخْرِجُ دِيَته، وأَصُومُ شهرين متتابعين، وأَعْتِقُ رَقَبَةً، فلم يقبلْ منه النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلك.

وكان في هذه السَّنَةِ، وهي السَّنَةُ الثَّالِثَةُ مولدُ الحسنِ بنِ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فجاءَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقال: «أَرُونِي ابْنِي»، فجاءُوا به، فقال: «مَا سَمَّيْتُمُوهُ»؟، قال عليٌّ: سميناه حَرْباً؛ يا رسول الله، فقال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «بَلْ هُوَ حَسَنٌ»[1]، ثم حَنَّكَهُ بتَمْرٍ.

وكان في هذه السنة تحريم الخمر، وقيل: كان تحريمها في السّنة الرّابعة، وقد كان تحريم الخمر تَدْرِيجِيّاً، ثلاث مرات، فإنَّ النبيَّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَدِمَ المدينةَ وهم يشربونَ الخمْرَ، ويأكلون القِمَارَ، فسألوه عن ذلك، فنزلَت الآية الأولى وهي قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم اتّفَقَ أنّ بعضَ الصحابة صَلى بأصحابه صلاة المغرب وهو سكران فخَلط في القراءة، فنزلت الثانية وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، وجاءَ أنّ حمْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَرِبَ الخمرَ، ثم خرج فوجدَ ناقتين لعليِّ بن أبي طالب، فعلاهما بالسيف وبَقَرَ خواصرَهما، ثم أخذ من أكبادِهما، وجَبَّ سَنامَيهما. قال عليٌّ كرم الله وجهه: فنظرت إلى مَنْظرٍ أَفْظَعَنِي، فأتيت نبيَّ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعندَه زيدُ بنُ حارثة فأخبرته الخبرَ، فخرجَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومعه زَيدٌ، فانطلقت معه فدخل على حمزةَ فتَغَيَّظَ عليه، ورفَعَ حَمْزَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بصرَه، وقال: هَل أَنتُم إلّا عَبِيدٌ لِأَبي، فرجعَ النَّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ القَهْقَرَى، حتى خرَج، وكان ذلك

---

(١) رواه الإمامُ الطّبراني في المعجم الكبير [٣/٦٩]، رقم: (٢٧٧٤)، عن عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قبل تحريم الخمر، ولكَونِ السُّكْرَ مُباحاً لم يَترتّبْ على قولِ حمزة شَيءٌ؛ معَ أنَّ مَن قالَ للنّبيِّ ﷺ: أَنْتَ عَبْدِي، أو عَبْدَ أَبِي كَفَرَ. ثم نزلت الآية الثالثة بعد ذلك بالتحريم، وهي قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] فكَفَّ الناسُ عن شُرْبِها(١).

١٤ ـ غَزْوَةُ بَنِي النَّضِير

كانت هذه الغزوةُ في ربيع الأوَّل من السنة الرابعة، وبنو النّضِير قوم من اليهود بالمدينة. ذهبَ إليهم رسُولُ الله ﷺ ليستعينَ بهم في دية الرّجلين اللذين قتلهما عمرو بنُ أمية الضَّمْري عند رجوعه من بئْرِ معونة غِيلَةً، لأنه ﷺ كانَ قد أخذ العهد على اليهود أن يعاونوه في الدّيات، فسار ﷺ إليهم في نفَرٍ من أصحابه دون العشرة، وفيهم أبو بكر، وعمر، وعليّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم، فلما أخبرهم، قالوا له: نعم يا أبا القاسم، اِجلسْ حتَى تَطْعَمَ، ثمّ تَرْجعَ بحَاجَتِك، فجلسَ ﷺ إلى جَنْبِ جِدَارٍ من بيوتهم، فخلا بعضُهم ببعضٍ، وقالوا: إنكُم لنْ تَجِدُوا الرّجلَ على مثل هذه الحالة، فهل مِن رجلٍ يعلو هذا البيتَ فيُلْقِي عليه صَخْرةً فيُريحنَا منه؟، ثم نأخذُ أصحابَه أسارى إلى مَكَّةَ، فنبيعهم لقريش، فقال عمرُو بنُ جَحَّاشٍ أَحَدُ سَادَاتِهم: أنا لذلك، وقال لهم سَلَّامُ

---

(١) من رحْمَةِ الله أنّه لا يحملُ الناسَ على الأحكام دُفْعَةً، وإنّما يُعَامِلُهُم بالتّدَرّج؛ تَهْيِئَةً للنفوس وضَماناً للاستجابة للأحكام، ولا سيّما عند استئصال العادات المتوارثة كشُرْبِ الخمر، فقد كان الخمرُ مُتَعَمِّقاً في المجتمع وجُزْءاً مِن سلوك النّاس، يتفاخرون به ويتغنى به شُعَرَاؤُهم، فكان التّدَرُّجُ في تحرِيمِه عينَ الحكمة.

بنُ مُشْكِمٍ: لا تفعلوا؛ والله ليُخبَرَنَّ بما هَمَمْتُم به، وإنه لنَقْضٌ للعهدِ الذي بيننا وبينه. فلما صَعَدَ ذلك الرّجُل ليُلْقِيَ الصَّخرةَ أتى الخبرُ مِنَ السماءِ إلى رَسُولِ الله ﷺ بما أرادَه القومُ، فقامَ رَسُولُ الله ﷺ، كأنّه يقضي حاجَتَه، وترَكَ أصحابه في مجالِسِهم، ورجعَ مُسْرِعاً إلى المدينة، ولم يُعْلِمْ بذلك مَن كان معه مِن أصحابِه، فقاموا في طلبِه ﷺ لما استبطؤوا رجوعَه، فلقوا رجلاً مُقْبلاً من المدينة، فسألوه، فقال: رأيته داخلُ المدينة، فأقبل أصحابُه حتّى انتهوا إليه، فأخبرَهم ﷺ بما أرادَت بنُو النّضير.

وبينما بنو النّضِير على إرادَةِ إلقَاءِ الحَجَرِ والتّهيؤِ لإلقائِه، إذ جاءَ إليهم رجلٌ من اليهود من المدينة، فقال لهم: ما تريدون؟، فذكروا له الأمرَ، فقال لهم: والله لقد تركتُ مُحَمَّداً داخلُ المدينة، فَأُسْقِطَ في أيديهم، وقالوا: قد أُخْبِرَ بأمرِنا. فأرسلَ إليهم النّبيُّ ﷺ محمّدَ بنَ مَسْلَمَة رضي الله عنه فقال لهم: «اخْرُجُوا مِنْ بَلَدِي، فَلَا تُسَاكِنُونِي بِهَا، فَقَدْ هَمَمْتُم بِمَا هَمَمْتُمْ بِهِ مِنَ الغَدْرِ، وقَدْ أَجَّلْتُكُمْ عَشْراً، فَمَنْ رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ». وأخبرهم بما قد همُّوا به من ظهورِ عمرو بن جَحَّاش على ظهر البيت ليَطرح الصخرة، فسكتوا ولم يقولوا حَرْفاً، ثم أرسلوا في إحضَار الإبل، فأرسلَ إليهم المنافقون أَنْ: لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم، إن قُوتِلْتُم فلكُم علينا النصر، وإنْ أُخْرِجْتُم لَنْ نَتَخَلّف عنكم. وقال لهم عبدُ الله بن أبي ابن سلول: لا تخرجوا من ديارِكم وأقيمُوا في حصُونكم، فإنّ معي ألفين مِن قومِي ومن غيرِهم من العرب يَدخُلون حصُونَكُم، ويموتون عن آخرهم قبل أَنْ يُوصَلَ إليكم، وتُمِدُّكُم قُرَيظَةُ وحُلَفَاؤُكم من غَطَفَان، فطمِعَ بنو النضير فيما قاله ابن أبي، فأرسلوا إلى رَسُولِ الله ﷺ وقالوا له: إنّا لَنْ

نخرجَ مِن ديارِنا، فاصْنَعْ ما بدا لك.

فلما أُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ بقولهم أظهرَ التَّكْبِيرَ، وكَبَّر المسلمون لتكْبِيرِه، وقال: «حَارَبَتْ يَهُودُ»، ثم أمرَ ﷺ الناسَ بالتهيؤ لحربِ بَنِي النَّضِير والسّيرِ إليهم. وكان المتولي أمرَ بَنِي النَّضِير حُيِيُّ بنُ أَخْطَب، وقد نَهَاهُ سَلّامُ بنُ مُشْكِم، وقال له: مَنَّتْكَ نفسُكَ الباطلَ يَا حُيَي، فإنّ قولَ ابنِ أبي ليسَ بشيءٍ، وإنّما يُرِيدُ أنْ يُوَرّطَكَ في الهلكَةِ حتّى تحاربَ مُحَمَّدًا، فيجلس في بيتِه ويتركك؛ أَلَا ترى أنه أرسلَ إلى كعبِ بنِ أسدِ القُرَظِيّ سيدِ بَنِي قُرَيْظَة أَنْ تمدّكم بنُو قريظة، فقال له كعب: لَنْ يَنْقُضَ العَهْدَ مِنّا رَجلٌ واحِدٌ. فأَيِسَ من بَنِي قُرَيْظَة، وأيضاً قد وعدَ حُلَفَاءَه من بَنِي قَيْنُقَاع مثل ما وعدَك حتّى حاربوا ونَقَضُوا العهدَ وحَصَرَوا أنفُسَهم في حصونهم، وانتظروا ابنَ أبي فجلسَ في بيتِه وسارَ إليهم محمّدٌ حتى نزلوا على حُكمِه، فإذا كان ابنُ أبيٍّ لا ينصرُ حلفاءَه ومَن كان يمنَعُه مِنَ النّاسِ ونحنُ لم نَزَلْ نَضْرِبُه بِسُيُوفِنا معَ الأوسِ في حروبِهم فكيفَ يُقْبَلُ قولُه؟!. فقال حُيي: نأبى إلّا عَدَاوَةَ محمَّدٍ وإلّا قِتَالَه. قال سَلّام: فهوَ والله جَلاؤُنا من أرضِنا، وذهابُ أموالِنا وشَرَفِنا، وسَبْيِ ذرَارِينا، وقَتْلِ مُقَاتِلينا. فأبى حُيي إلا محاربة النبيِّ ﷺ، وقال له بنو النضير: أمْرُنَا لِأَمْرِكَ تَبَعٌ؛ لن نخالفَك، فأرسلَ إلى رَسُولِ الله ﷺ بما ذُكِرَ.

فتَهَيّأَ المسلمونَ لحربِهم وخرجَ رَسُولُ الله ﷺ بهم، واستعمل على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، وحملَ رايتَه عليٌّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وسار بالناس حتى نزل بهم، وصلّى بهم العصرَ بفنائِهم، وقد تَحصَّنُوا، وقاموا على حِصْنِهم يرمونَ بالنّبْلِ والحِجارَةِ، ووجدهم ﷺ ينوحون على كعبِ بن

الأشرفِ الآتي ذكرُ مقتَلِه في السَّرَايا، ثم قالوا له: يا محمَّدُ؛ دَاعِيَةٌ إِثْرَ دَاعِيَةٍ، وبَاكِيَةٌ إِثْرَ بَاكِيَةٍ، ذَرْنا نَبْكِي شَجْوَنا، ثُمَّ ائْتَمِرْ أَمْرَكَ، فقال ﷺ لهم: «اخْرُجُوا مِنَ المدِينَةِ»، فقالوا: الموتُ أَهْوَنُ من ذلك.

ولما جاءَ وقتُ العشاءِ، رجعَ رَسُولُ الله ﷺ إلى بيتِه، ومعه عشرةٌ من أصحابِه، وهو على فرسٍ، وعليه الدِّرْعُ، واستعملَ على العسكر عليَّ بنَ أبي طالب، وباتَ المسلمون يحاصِرونَهم، ويكبِّرونَ حتّى أصبَحوا، ثمّ أَذَّنَ بِلالٌ بالفَجْرِ، فغَدَا ﷺ في أصحابِه الذين كانوا معه فصَلّى بالنّاس، وأمرَ بِلَالاً فضَرَبَ القُبةَ، وهي قُبَّةٌ من خشَبٍ عليها مُسُوح فدخل ﷺ فيها، وكان في اليهود رَجُلٌ يُقَالُ له: غَزُولٌ، وكانَ رَامياً أَعْسَرَ ـ أي: يرمي بِشِمالِه ـ، ويبلغُ نبلُه مَا لا يبلغه نَبلُ غيره، فوصل نَبْلُهُ تلك القُبّة، فأمرَ بها فحُوِّلَتْ. وفي ليلة من الليالي فُقِدَ عَليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قُرْبَ العِشَاء، فقال النّاسُ: يا رسولَ الله، مَا نَرَى عليّاً، فقال: «دَعُوهُ، فَإِنّه فِي بَعْضِ شَأْنِكُم»، وبعد قليل جَاءَ عليٌّ برَأسِ الرّجُل الذي وَصَلَ نبْلُه قُبّتَه ﷺ، كَمَنَ له عليٌّ حِيَن خَرج يطلبُ غِرَّةً مِنَ المسلمين ومعه جماعة، فشَدّ عليه فقتَله، وفرَّ مَن كان مَعه، ثم أرسَلَ رَسُولُ الله ﷺ مع عَليٍّ أبا دُجَانة وسَهْلَ بنَ حنيف في عَشَرةٍ، فأدركوا أولئك الذين كانوا مع غَزُولٍ فقتلوهم.

وأَمرَ رَسُولُ الله ﷺ بقطعِ النّخل وبحَرْقِها بعدَ أنْ حاصَرَهم سِتّ ليال وكان سعدُ بن عبادة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في تلك المدّة يحمِلُ التّمرَ للمسلمين من عندِه. وكان من الذين استعملَهم النبيُّ ﷺ على قَطْعِ النّخْلِ أبو ليلى المازني، وعبدُ الله بنُ سَلَام، وكان أبو ليلى يقطعُ العَجْوَة، وعبدُ الله يقطعُ

اللّين، ولما قُطِعَت العجوةُ شَقَّ النِّسَاءُ الجيُوبَ، وضَرَبنَ الخدودَ، ودَعَونَ بالوَيل، وعند ذلك نادوهُ: يا أبا القاسم، قد كنتَ تنهى عن الفسَادِ وتَعِيبُهُ على مَن صَنَعَه، فما بالُ قطعِ النّخل وتحريقِها؟، ما هذا الفساد؟، وفي لفظٍ: أنهُم قالوا: يا محمَّدُ زعَمْتَ أنك تريدُ الصّلاحَ أَفَمِنْ الصّلاحِ قطعُ النّخلِ، وهل وجدْتَ فيما زعمْتَ أنه أنزل عليك الفساد في الأرض؟، وقالوا للمُؤمِنين: إنكم تكرهون الفَسَادَ، وأنتم تفْسِدُون. وحينئذٍ وقعَ في نفوسِ بعضَ المسلمين من ذلك شيءٌ، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]، ردّاً على قولِهم: إنّ هذا مِن الفساد. ولَم يَكُنْ فِي جَمِيعِ مَا قطعُوا وأَحْرَقُوا سِوَى سِتّ نَخَلاتٍ، كما قاله بعضهم.

ولا زالَ عبدُ الله بنُ أُبَيّ ابن سلول يبعثُ لبَنِي النَّضِير أَنِ اثْبُتُوا وَتَمَنَّعُوا، فإنكم إِنْ قُوتِلْتُم قاتلْنَا معكم، وإِنْ أُخْرِجْتُم خَرَجْنَا معَكم. وكان معه على ذلك جمْعٌ من قومِه، فانتظروا منه ذلك، فخذلهم ولم يحصُلْ لهم منه شيءٌ، وجعلَ سَلّامُ بنُ مُشْكِم وكِنَانَةُ بنُ صُوريا يقولانِ لحُيَيٍّ: أَينَ نَصْرُ ابنِ أُبَيٍّ الذي زَعَمْتَ؟، فيقولُ حُيَيٌّ: مَا أَصْنَعُ؟، هي مَلْحَمَةٌ كتبت علينا. ولَزِمَ النبيُّ ﷺ حصارَهم، فقذفَ الله في قلوبِهم الرُّعْبَ، وسألوا رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يُجلِيَهم، وَيَكُفَّ عَن دِمَائِهم، على أَنَّ لهُمْ ما حَمَلَتِ الإِبلُ مِن أموالِهم إلّا آلة الحَرْبِ، ففعل، فاحتملوا النساءَ والصّبيانَ، وحملوا مِن أموالِهم غير السّلاح ما اسْتَقَلّتْ بهِ الإِبلُ، وكانت ستمائة بعير، وكان الرّجل يهدم بيته ليأخذَ ما استحسنه من خشبه، فيضعه على ظهرِ بعيره وينطلقُ به، وصاروا ينقضون العُمُدَ والسّقوف، وينزعون الخشَبَ حتّى الأَوتادَ، وينقضُون الجدران حتّى لا يسكنها

المسلمون حسَداً وبُغْضاً.

ثُمّ إِنّهم خرجوا مُظْهِرين التَّجَلُّد، خَرَجَتِ النّساءُ على الهوادج وعليهن الدّيبَاجُ والحريرُ وقُطُفُ الخزِّ الأَخْضَر والأَحمر، وحُلِيُّ الذّهبِ والفِضّة، وخلفهم القِيَان بالدّفُوفِ والمزَامِير، وجعلوا يمرّونَ قطاراً في إِثْرِ قِطَارٍ وَسَطَ سوقِ المدينة، وسَلامُ بنُ أبي الحُقَيقِ رَافِعٌ جِلْدَ جَمَلٍ مَمْلُوءً حُلِيّاً، وينادي بأعلى صوتِه: هذا أعددناه لرَفْعِ الأرضِ وخَفْضِها، وَإِنْ كُنّا تركْنَا نخلاً ففي خَيْبَرَ النّخْلُ!. وهذه الحليُّ عِبَارَةٌ عن آنية كان عند آل أبي الحُقَيقِ، وكَنْزٌ كانوا يُعِيرُونَه للعَرَبِ مِن أهل مَكّةَ وغيرهم. وقد حَزِنَ المنافقون لخروجِهم أَشَدَّ الحُزْنِ.

فمنهم من سار إلى خَيْبَر، ومن جملةِ هؤلاء: حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ، وسَلامُ بنُ أبي الحُقَيقِ، وكِنَانَةُ بنُ أبي الرّبيع بن أبي الحُقَيق، ولما نزلوا خَيْبَر دَانَ لهم أهلُها. ومنهم من سارَ إلى أَذْرِعَاتٍ بالشّام. وكان فيهم جماعة من أبناءِ الأنصار، لأنَّ المرأةَ مِن الأنصارِ كانَت إذا لم يَعِشْ لها ولَدٌ تَجْعَلُ على نفسِها إِنْ عاشَ لها ولدٌ أَنْ تُهَوِّدَهُ، فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير قال آباءُ أولئك: لا ندعُ أبناءَنا معهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فهذا الآية مخصُوصَةٌ بهؤلاءِ الذين تَهَوَّدُوا قبلَ الإسلام وإلا فإكراه الكفّار الحرْبيين على الإسلام سائغ. ولم يُسْلِمْ من بَنِي النَّضِير إلا رَجُلان وهما: يَامِين بن عُمَير، وأبو سَعْد بن وَهْبٍ. قال أحدهما لصاحبِه: والله إِنَّكَ لتعلمُ أنه رَسُولُ الله ﷺ، فما نَنْتَظِرُ؟، قال: نسلمُ فنَأْمَنُ على دِمَائِنا وأَمْوَالِنا، فنَزَلَا مِن اللّيل وأَسْلَما، فَأَحْرَزَا أَمْوَالَهما. وجعل يَامِينُ لرَجُلٍ من قَيسٍ عشرَةَ دنانير جُعْلاً على

قَتْلِ عمرِو بنِ جَحَّاش الذي أراد أن يلقي الحجرَ على رَسُول الله ﷺ، فقتله غِيْلَةً، فَسُرَّ النَّبيُّ ﷺ بذَلِك، وأنزلَ الله في أمرِ بَنِي النَّضِير سورةَ الحشر، ولذلك كانَ يسمّيها ابن عباس ﷺ سورة بَنِي النَّضِير.

فخدعَهُم قولُ المنافقين أنهم يكونون معهم وينصرونهم على النَّبيِّ ﷺ، حتّى سَكَنَ الرُّعْبُ قلوبهم؛ خشيةَ انتقامِه ﷺ منهم، وسكَنَ الخرابُ بيوتَهم بجلائِهم عنها، وكان هذا هو الحشر الأوّل، والحشر الثّاني لهم كان على يَدِ عُمَرَ رضي الله عنه، حين أجلاهم في خلافَتِه من خَيْبَر إلى تيْمَاء وأَرِيحَاء.

وقد وَجَدَ ﷺ من آلةِ السّلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضَةً، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، ولم يُخَمِّسْ رَسُولُ الله ﷺ ذلك كمَا خمّسَ أمْوَالَ بَنِي قَيْنُقَاع، لأنَّ الله تعالى جعلَه له فيئاً دون المؤمنين، وكان هذا أوّلَ فَيْءٍ حصلَ لرَسُولِ الله ﷺ خاصّة. فدعا ﷺ الأنصَارَ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين، من إنزالهم في منازلهم، وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم، ثم قال لهم: «إِنَّ إِخْوَانكُم المُهَاجِرِينَ لَيسَ لَهُمْ أَمْوَالٌ، فَإِنْ شِئْتُم قَسَمْتُ هَذِهِ الأَمْوَالَ التّي أَفَاءَ الله عَلَيَّ وَخَصَّنِي بِهَا مَعَ أَمْوَالِكُم بَيْنكُم جَمِيعاً، وَإِنْ شِئْتُم أَمْسَكْتُم أَمْوَالَكُمْ، وَقَسَمْتُ هَذِهِ فِيهِمْ خَاصَّة»، فقالوا: بل اقسم هذه فيهم، واقسمْ لهم من أموالِنا ما شِئْتَ.

وفي رواية أنه ﷺ قال لهم: «إِنْ أَحْبَبْتُمْ قَسَمْتُ بَينَكُمْ وَبَينَ المُهَاجِرِينَ مَا أَفَاءَ الله عَلَيَّ مِنْ بَنِي النَّضِير، وَكَانَ المُهَاجِرُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيهِ مِنَ السُّكْنَى فِي مَنَازِلكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَعْطَيْتُهُمْ وَخَرَجُوا مِن دُورِكُم

وَأَمْوَالِكُمْ»، لأَنّ المهاجرين لما قَدِمُوا من مَكَّةَ إلى المدينة قدموا وليسَ بأيدِيهم شيءٌ، وكان الأنصارُ أهل الأرض، فآثروهم بمتاع من أشجارِهم، فمنهم من قبلها مَنِيحَةً محْضَةً ويكفُونه العمل، ومنهم من قبلها بشَرطِ أنْ يعمل في الشّجر والأرْضِ وله نِصْفُ الثّمار، ولم تَطِبْ نَفْسُه أنْ يقبَلَها مَنِيحَةً مَحْضَةً، وذلك لشَرَفِ نفوسِهم وكراهَتِهم أنْ يكونوا كَلّاً على غيرِهم. فتكلّم سعدُ بنُ عُبادَة وسعدُ بن معاذ، فقالا: يا رسول الله، بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دُورِنا كَما كانوا، بَلْ نُحِبّ أنْ تَقْسِمَ دِيَارَنا وأَمْوَالَنا على المهاجرين الذين تركوا ديارَهم وأموالَهم وعشائرهم وخرجوا حبّاً لله ولرسولِه، ونؤثرهم بالغنيمةِ ولا نشاركُهُم فيها، ونادت بقيّة الأنصار فقالوا: رَضِينا وسَلَّمْنَا يا رسولَ الله. فقال رَسُولُ الله ﷺ حِينَئِذٍ: «اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبنَاءِ الأَنصَارِ».

وقد أنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فقسم رَسُولُ الله ﷺ ذلك بين المهاجرين، ولم يُعْطِ أَحَداً من الأنصار إلّا رجلين كانا محتاجين، وهما: سَهْلُ بنُ حنيف وأبو دُجانة رضي الله عنهما.

١٥ ـ غَزْوَةُ ذَاتِ الرّقَاع

وتسمّى غَزْوَة الأعاجيب؛ لِمَا وقعَ فيها من الأمور العجيبة، وتُسَمّى بـ: غَزْوَة بني ثعلبة، وغَزْوَة مُحارب، وغَزْوَة بني أنمار. وإنما سميت غزوة ذَاتِ الرِّقَاع؛ لأنّ أقدامَ بعضِ الصحابة نَقِبَتْ، فكَانُوا يَلُفُّونَ على أرجلِهم بالخِرَقِ، وقيل: سُمّيتْ باسم شجَرَةٍ كانت في ذلك المحل يقال لها: ذَاتُ الرِّقَاع، أو

لأنهم رَقَّعُوا راياتهم. وقد أقامَ رَسُولُ الله ﷺ بعدَ غَزْوَة بَنِي النَّضِير شهرَ ربيع الأوّل، ثم غزَا نجداً يريد بني مُحارب وبني ثعلبة، حين بلغَه ﷺ أنهم جمَّعُوا الجمُوعَ مِن غَطَفَان لمحارَبَتِه، فخرَجَ رَسُولُ الله ﷺ في أربعمائةٍ من أصحابِه ﷺ، وقيل في سبعمائة، وقيل: في ثمانمائة.

واستخْلَفَ على المدينةِ عثمانَ بن عفّان ﷺ، وسارَ ﷺ حتى بلغَ نجْداً، فلم يجدْ بها أحداً، ووجد بها نِسْوَةً فأخَذَهُنّ، ثم لقِيَ جَمْعاً، فتقارب الجمْعَان ولم يَكُنْ بينهما حَرْبٌ، وقد خاف بعضُهم بعضاً وخاف المسلمون أنْ يُغِيرَ المشركون عليهم وهم غافلون، فصلّى رَسُولُ الله ﷺ بالنّاس صلاةَ الخوف، وكانت أوّلَ صلاةٍ للخَوفِ صَلّاها. وقد حانت صلاةُ الظّهْرِ فصَلّاهَا ﷺ بأصحابِه، فهَمَّ بِهم المشركون، فقال قائلهم: دعوهم فإنَّ لهم صَلاةً بعد هذه هِيَ أحَبّ إليهم من أبنائِهم. يعني صلاةَ العَصْر، فنزل جبريلُ ﷺ على رَسُولِ الله ﷺ فأخبرَه، فصَلّى صلاة العصر صَلاةَ الخوف. وكان العَدوُّ في غيرِ جِهَةِ القِبْلَةِ، ففرّقهم فرقتين: فِرْقةٌ وقفتْ في وجه العدوِّ، وفِرْقةٌ صلّى بها ركعةً، ثم عند قيامِه للثانية فارقته وأتمّت بقيّةَ صلاتِها، ثم جاءت ووقفت في وجْهِ العَدوِّ، وجاءَت تلك الفرقةُ التي كانت في وجه العدوِّ واقتدت به في ثانيته فصلّى بها ركعةً، ثم قامت وهو في جلوس التشهد، وأتمّت بقيةَ صلاتها ولَحِقَتْهُ في جلوس التّشهد وسلّم بها. وهذه الكيفية كانت في ذَاتِ الرِّقَاع رواها الشيخان، ونزل بها القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء: ١٠٢]، الآية.

وفي هذِه الغَزْوَة نزل النبيُّ ﷺ لَيْلاً في شِعْبٍ من الشّعابِ، وكانت

تلك الليلةُ ذاتَ رِيحٍ، فقال ﷺ: «مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا لَيْلَتَنَا هَذِهِ»؟، فقام عبّادُ بنُ بِشْرٍ وعمّارُ بنُ ياسر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، فقالا: نحنُ يا رسولَ الله نَكْلَؤُكُمْ، فجلسا على فَمِ الشّعْب، فقال عبّادُ بنُ بِشْرٍ لِعَمَّارِ بنِ ياسر: أنا أكفيك أوّل الليل وتكفيني آخره، فنام عمّار وقام عبّاد يُصَلِّي، وكان زوجُ بعضِ النّسوة اللاّتي أَخَذَهنَّ رَسُولُ الله ﷺ غائباً، فلما جاءَ أُخْبِرَ بالخَبَرِ، فتَتَبَّعَ الجيشَ، وحَلَفَ لا يَنْثَنِي حتَّى يُصِيبَ مُحَمَّداً أو يُرِيقَ في أَصْحَابِ محمّدٍ دَماً، فلمّا رأى سوادَ عبّاد فَوَّقَ سَهماً فوضَعَهُ فيه، فانتَزَعَه عَبَّادٌ، فرَمَاهُ بآخر فوضعه فيه، فانتزَعه، فرماه بآخر، فانتزعه، فلما غَلَبَهُ الدّمُ قال لعمَّارٍ: اجْلِسْ فَقَدْ أُتِيْتُ، فلمَّا رأى ذلك الرّجلُ عمّاراً جَلسَ عَلِمَ أَنه قد عَلِمَ به، فهَرَبَ، فقال عمّار: يا أخي؛ ما منعك أن تُوقِظَني له في أوّل سَهْم رَمى به؟، فقال: كنتُ أقرأ في سورة الكهف، فكرهت أَنْ أقطَعَها.

وجاءَ غَوْرَثُ بنُ الحارث فقال لقومِه: أَلَا أَقتلُ لكم مُحَمَّداً؟، قالوا: بلى، وكيف تقتله؟، فقال: أَفتِكُ به على غَفْلَةٍ، فجاءَ إلى النّبيِّ ﷺ وسيفُه في حِجْرِه، فقال له: يا محمّدُ، أرِني أنظرُ إلى سيفِك هذا، فأخذه من حِجْرِه فاسْتَلّه، ثم جعل يَهزّهُ، ويَهُمُّ به فيَكْبِتُه الله، ثم قال: يا محمّدُ، أَمَا تخافُني؟، قال: «لَا بَلْ يَمْنَعُنِي الله تَعَالى مِنْكَ»، ثم أخذ ﷺ السّيفَ، وقال: «مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي»؟، فقال: كنْ خَيرَ آخِذٍ، قال: «أَتَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُولُ الله»، قال: لا، ولكن أعاهدك أني لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلى النبيُّ ﷺ سبيلَه، فجاءَ إلى قومِه، فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وهذه وَاقِعَةٌ غير واقعة دُعْثُور المتقدمة في غَزْوَة ذِي أَمْر، فهما واقعتان:

أحدهما مع دعثور، والثانية مع غورث. وفي رواية: لما قفلَ رَسُولُ الله ﷺ راجعاً إلى المدينة أدركته القائلة يوماً بوادٍ كثير العِضَاة ـ وهي الأشجار العظيمة التي لها شوك ـ، وتفرّق الناس يستظلون بالشّجر، ونزل رَسُولُ الله ﷺ تحتَ شجَرَةٍ ظليلة. قال جابرٌ رضي الله عنه: فعلّقَ ﷺ سيفَه في تلك الشّجرة، ونِمْنَا نَومَةً، فإذا رَسُولُ الله ﷺ يدعونا، فجئنا إليه فوجدنا عنده أعرابيّاً جالساً، فقال: «إِنَّ هَذَا قَدْ اخْتَرَطَ سَيفِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ في يَدِه مُصْلَتاً، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنّي؟، قُلْتُ: الله»، قال ذلك ثلاثَ مرات، ولم يعاقبه ﷺ.

وفي هذه الغَزْوَةِ جاءَت امرأةٌ بدوية بابنٍ لها إلى النبي ﷺ، فَقَالَتْ له: يا رسولَ الله، هذا ابني، قد غلبني عليه الشّيطان، ففتحَ فاهُ فبزَق فيه، وقال: «اِخْسَأْ عَدُوَّ الله، أَنَا رَسُولُ الله»، ثم قال لها: «شَأْنُكِ بِابْنِكَ، لَنْ يَعُودَ إِلَيهِ شَيءٌ ممّا كَانَ يُصِيبُه»، فكان كذلك. وجاءَ رجلٌ بفَرْخِ طَائِرٍ، فأقبلَ أَحَدُ أبويه حتّى طَرَحَ نفسَه بين يدي الذي أخذَ فَرْخَه، فعَجِبَ النّاسُ من ذلك، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ هَذَا الطَّائِرِ؟، أَخَذْتُم فَرْخَهُ فَطَرَحَ نَفْسَه رَحْمَةً لِفَرْخِهِ، وَالله؛ لَرَبّكُم أَرْحَمُ بِكُمْ مِنَ هَذَا الطَّائِرِ بِفَرْخِهِ».

وفي هذه الغزوةِ جِيْءَ له ﷺ بثلاثِ بيضاتٍ من بيضِ النّعام، فقال لجابر: «دُونَكَ يَا جَابِر، اعْمَلْ هَذِهِ البَيْضَات»، قال جابر رضي الله عنه: فعَمِلْتُهُنَّ، ثم جئت بِهِنّ في قصْعَةٍ، فجعلنا نطلب خُبْزاً فلمْ نَجِدْ، فجعل ﷺ وأصحابُه يأكلون من ذلك البيض بغيرِ خُبز حتّى انتهى كُلٌّ إلى حَاجَتِه، والبيضُ في القصْعَةِ كما هو.

وفيها: جاءَ جمَلٌ يَرْفُلُ، حتى وقفَ عنده ﷺ وَأَرْغَى، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا قَالَ هَذَا الجَمَلُ؟، هَذَا جمَلٌ يَسْتَعِيذُ بِي مِنْ سَيِّدِهِ، يَزْعُمُ أَنَّهُ كَانَ يَحْرُثُ عَلَيهِ مُنْذُ سِنِينَ، وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَنْحَرَهُ، اِذْهَبْ يَا جَابِرُ إِلَى صَاحِبِهِ فَأْتِ بِهِ»، قال جابرٌ رضي الله عنه: فقلت: لا أعرفه، قال: «إِنَّهُ سَيَدُلُّكَ عَلَيهِ». قال جابر: فخَرجَ بين يَدَيّ حتّى وقفَ على صَاحِبه، فجِئْتُه بهِ، فكَلّمَه ﷺ في شأنِ الجَمَل.

وكانت مدّةُ غيبته ﷺ خمس عشرة ليلة، وبعث النبيُّ ﷺ جِعَالَ بنَ سُرَاقَةَ إلى المدينة مُبَشِّراً بسَلامَتِه وسَلاَمَةِ المسلمين. وَأَبْطَأَ جَمَلُ جابرِ بنِ عبدِ الله رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما فنَخَسَهُ ﷺ بمِحْجَنه فانطَلَقَ مُتَقَدِّماً بينَ يَدي الركب. قال جابرٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: لقد رأيتني أَكُفُّهُ عن رَسُولِ الله ﷺ حياءً منه لا يَسْبِقُهُ، وهو يُنَازِعُني خِطَامَه؛ مع أنّي كنت أرجو أن يَسْتَاق معنا. ثم قال له ﷺ: «أَتَبِيعُنِيه»؟، فقال جابرٌ: بل هو لك يا رسول الله، فقال: «بَلْ بِعْنِيه»، فابتاعه منه بخمسِ أواق، وقيل بخمسَةِ دنانير، بعد أنْ أعطاه فيه أوّلاً درهماً مُمَازِحاً له ولا زال ﷺ يزيدُه دِرْهَماً دِرْهماً، ثم قال له: «لَكَ ظَهْرُهُ إِلَى المَدِينَةِ». واستغفر ﷺ لجابرٍ رضي الله عنه سبعين مَرَّةً، ولما وصل ﷺ المدينةَ أعطاه الثّمنَ، وقال: «يَا بِلَالُ، اقْضِهِ وَزِدْهُ»، فأعطاه الدنانير وزاده قيراطا، ثم وهبَ له الجَمَل بعد ذلك.

وفي هذه السنة التي هي الرّابعة: تزوج النبيُّ ﷺ أُمَّ سَلَمَةَ هِنْدَ بنتَ أبي أُمَيّة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها، وذلك بعد موتِ زوجِها أبي سلمة بنِ عبد الأسد رضي الله عنه.




١٦ ـ غَزْوَةُ بَدْر الآخِرَة

ويقالُ لها بَدْر الموعد؛ لموعِدِ أبي سُفْيَانَ، حيثُ قال حين منصرفه من أحد: موعدُ ما بيننا وبينكم بَدْر، فقال رَسُولُ الله ﷺ لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: «قُلْ: نَعَمْ إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى». ولما قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ من غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاع أقام بقيّة جُمَادى الأولى إلى آخر رَجب، ثم خرجَ رَسُولُ الله ﷺ في شعبان، وقيل: خرج في شوّال، وقيل: في مستهل ذي القعدة، وكلّ ذلك في السّنة الرّابعة، وكان وصوله ﷺ إلى بَدْرٍ هلالَ ذِي القعدة، وهذا لا يناسب إلا القول بأن خروج النبيِّ ﷺ كان في شوّال، وكان ذلك موسماً لبَدْرٍ يحضرُه النّاسُ في كلّ سنة.

وحين خرجَ ﷺ من المدينة استخلف عليها عبدَ الله بنَ عبدِ الله بنِ أُبَيِّ ابنِ سَلُول رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقيل عبدَ الله بنَ رواحة رضي الله عنه، وخرج في ألفٍ وخمسمائةٍ من أصحابه، وكان الخيل عشرة أفراس. وعند تهيّؤِ المسلمين للخروج قَدِمَ نُعَيمُ بنُ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيّ وكان ذلك قبل إسلامِه، فأخبرَ قُرَيْشاً أَنَّ المسلمينَ قد تهيّؤُوا للخرُوج لِقِتَالِهم ببَدْرٍ، فكَرِهَ أبو سُفْيَانَ الخروج لذلك، وجعلَ لنُعَيمٍ عشرينَ بعيراً إِنْ رَجَعَ إلى المدينة وخَذّلَ المسلمينَ عن الخرُوج لبَدْرٍ، وحمله على بَعيرٍ، وقال له: إنه بَدَا لي أَنْ لا أخرج، وأكرَهُ أَنْ يخرجَ محمَّدٌ وأصحابُه ولا أخرجُ أنا، فيزيدُهم ذلك جرَاءَةً علينا، فلَأَنْ يكونَ الخلْفُ مِن قِبَلِهم أَحَبّ إليَّ مِن أنْ يكونَ مِن قِبَلي، فالحَقْ بالمدينة، وأعلِمْهم أَنَا في جَمْعٍ كَثِيرٍ، وأنه لا طاقةَ لهم بنا، ولك عندي عشرونَ من الإبل، أَدفعُها لك على يَدِ سُهَيلِ بنِ عمرو، فجاء نُعَيم إلى سهيل بن عمرو، فقال له: يا أَبا يَزِيد، أَتَضْمَنُ

لي هَذِه الإبل وانطلقْ إلى محمّدٍ وَأَثَبِّطُه؟، قال: نعم. فقَدِمَ نُعَيمٌ المدِينَةَ، وَأَرْجَفَ بِكثرةِ جُموعِ أبي سُفْيَانَ، وصارَ يطوفُ فيهم بذلك، حتى قُذِفَ الرُّعْبُ في قلوبِ المسلمين، ولم يبقَ لهم نِيّةٌ في الخروجِ، واسْتَبْشَرَ المنافقونَ واليهودُ بذلك، وجعلوا يقولون: لَنْ يُفْلِتَ محمَّدٌ مِن هذا الجَمْع.

فجاءَ أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد سمعا ما أَرْجَفَ به نُعَيمٌ، وقالا له: يا رسولَ الله، إنّ الله مظهرٌ نَبِيَّه ومُعِزٌّ دِينَه، وقد وعَدْنَا القومَ موعِداً لا نُحِبُّ أَنْ نَتَخَلَّفَ عنه، فيرون أَنَّ هذا جُبْنٌ، فِسِرْ لموعدِهم، فو الله إنّ في ذلك لخيراً. فَسُرَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، ثمّ قال: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَأَخْرُجَنَّ وَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ مَعِي أَحَدٌ»، فأذهبَ الله عن المسلمين ما كانوا يجدون، ثمّ خرجوا مع رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحملَ لواءَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليُّ بنُ أبي طالب كرّم الله وجهَه، وخرج المسلمون معهم بِتِجَارَاتٍ إلى بَدْرٍ، فربحُوا الضِّعْفَ.

وأما أبو سُفْيَانَ فإنّه قال لقُريشٍ: لقَدْ بَعَثْنا نُعَيماً لِيُخَذِّلَ أَصْحَابَ محمّدٍ عنِ الخروجِ، ولكِنْ نخرجُ نحنُ فنَسِيرُ ليلةً أو ليلتينِ ثمّ نَرْجِعُ، فإِنْ كانَ مُحمَّدٌ لم يخرجْ بلَغَه أنا خَرَجْنا فرجعنا؛ لأنه إِنْ لم يخرجْ كان هذا لنا عليه، وإِنْ خرجَ أظهَرْنَا أَنَّ هَذَا عامَ جَدْبٍ ولا يصلحنا إلا عام عُشْبٍ، فقالوا: نِعْمَ مَا رَأيت. فخرَجَ أبو سُفْيَانَ في أَلفين من قريش، ومعهم خمسُون فرساً حتّى انتهوا إلى مِجَنَّة، وهو سوق معروف من ناحية مَرِّ الظَّهْرَان، وقيل: إلى عُسْفَان، ثم قال: يا معشرَ قريش لا يُصْلِحُكم إلا عامُ خِصْبٍ، تَرعون فيه الشّجَرَ، وتشربون فيه الماء، وإنّ عامَكم هذا عامُ جَدْبٍ، وإنّي راجع فارْجِعُوا، فرَجعَ النّاسُ، فسمّاهم أَهلُ مَكَّةَ: جِيشُ السَّوِيق، وجعلوا يقولون لهم: إنّما خرجتم لِتَشْرَبُوا السَّوِيق!.

وأقام رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بَدْرٍ ثمانيةَ أيام، ينتظرُ أبا سُفْيَانَ لميعادِهِ مُدَّةَ الموسم، فإنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهى إلى بَدْرٍ في هلالِ ذي القعدة، وقَامَ السّوقُ صَبيحةَ الهلال، فأقامُوا ثمانية أيام والسُّوقُ قائِمَةٌ، وقد كان المسلمون كلّما سألوا عن قريشٍ قِيلَ لهم: قد جمعوا لكُم، فيقولون: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيْلُ. حتى أنهم لما اقْتَرَبُوا من بَدْرٍ قيل لهم: إنّها قَدِ امْتَلأَتْ من الذين مع أبي سُفْيَانَ، يُرْعِبُونَهم ويُرْهِبُونَهم بذلك، فكان المؤمنون يقولون: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيْلُ. فلما قدموا بَدْرًا وجَدُوا أَسْوَاقاً لَا يُنَازِعُهم فيهَا أَحَدٌ، فباعوا فيها، وربحوا أرْبَاحاً مُضاعَفةً، وأنزل الله تعالى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

والمرادُ بالنّاس الأَوّل: نُعَيمٌ، نُزِّلَ مَنزلَةَ الجماعة. وقال إمامُنا الشّافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنَ القائلين ذلك كانوا أربعةً. ولا مانع أنْ يكونَ هؤلاءِ الأربعة من المنافقين، وافَقُوا نُعيماً على ما قال، حتى إنّ قائلهم قال للمسلمين: إنّما أَنْتُم لهُمْ أَكْلَةُ رَأْسٍ، وإِنْ ذَهَبْتُم إِلَيهِم فلَنْ يَرْجِعَ منكم أحدٌ. وقيل: القائلون هم رَكْبٌ من عبدِ القَيس، كانوا قاصدين المدينة للميرَةِ، فجعل لهم أبو سُفْيَانَ حِمْلَ أَبْعِرَتِهم زَبِيباً إنْ هُمْ خَذَّلُوا المسلمين وأَرْجَفُوهم. ولا مانعَ من وجودِ ذلك كله. وانصرفَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينةِ، وبلغَ قُرَيْشاً خُرُوجُ المسلمين لبَدْرٍ وكَثْرَتِهم، وأَنّهم كانوا أصحابَ الموسِم، وكانَ المخبرُ لهم بذلِك مَعْبدٌ الخزَاعي، فإنه بعدَ انقضَاءِ الموسم خرَج سَريعاً إلى مَكّةَ وأخبرَهم بذلك. فقال صَفْوانُ لأبي

سُفْيَانَ: قَدْ واللهِ نَهيتُكَ يَومَئِذٍ أَنْ تَعِدَ القَومَ، وقد اجْتَرؤُوا علينا ورأوا أنّا أخْلَفْنَاهُم، وإنّما خَلّفَنا الضَّعْفُ.

١٧ ـ غَزْوَةُ دَوْمَةِ الجَنْدَل

ودَوْمَةُ الجَنْدَل بلدةٌ بقرب تَبُوك بينها وبين دمشق خمس ليال، وهي أقرب بلاد الشام إلى المدينة، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة، بلغ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن بها جمعاً كثيراً يظلمون مَن مرَّ بهم، وأنهم يريدون أَنْ يَدنُوا من المدينة، فندبَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناسَ للخروج، واستخلف على المدينة سِبَاعَ بنَ عُرْفُطَةَ الغِفَارِيَّ، ثم خرجَ في ألفٍ من المسلمين، وذلك في ربيع الأول من السنة الخامسة، ثم سارَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان يسيرُ الليلَ ويَكْمُنُ النّهارَ، ومعه دليلٌ له مِن بني عُذْرَةَ، يقال له: مَذْكُورٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فلما دنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم جاءَ إليهم الخبرُ فتفرَّقُوا، فهجَمَ على ما شِيتهم ورُعَاتهم، فأصَابَ مَن أصَابَ، وهرَبَ مَن هرَب، ونزلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسَاحَتِهم، فلم يَلْقَ بها أحَداً، وبعثَ السّرايا، فرجعتْ ولم تَلْقَ منهم أحداً، ورجعت كل سريّة بإبلٍ، وأخذَ محمّدُ بنُ مَسْلَمَةَ رجلاً منهم، وجاء به إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأله رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنهم، فقال: هربوا حيث سمعوا أنك أَخَذْتَ نَعَمَهُم، فعَرَضَ عليه الإسلامَ فأسلم، ثمّ رجعَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينةِ.

وفي رُجوعِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صالحَ عُيَيْنَةَ بنَ حِصْنٍ الفَزارِيّ على أَنْ يَرْعَى بمَحِلٍ بينَه وبينَ المدينَةِ سِتّةٌ وثلاثون مِيلاً؛ لأَنَّ أرْضَهُ كانت قد أَجْدَبَتْ، ولما سَمُنَ حَافِرُه وخُفّه، وانتقلَ إلى أَرْضِه غزَا على لِقَاحِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالغَابَةِ كما

سيأتي، فقيلَ له: بِئْسَ مَا جَزَيتَ به مُحَمَّداً ﷺ، أحلَّكَ أَرْضَهُ حتّى سَمُنَ حَافِرُكَ وخُفُّكَ، وتفعلُ معَهُ ذلك؟!. وعُيَيْنَةُ هذا أَسْلَمَ بعد الفتح وشهدَ حُنَيْناً والطَّائِفَ، وكان من المُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ.

١٨ ـ غَزْوَةُ بَنِي المُصْطَلِق

ويقال لها غَزْوَةُ المُرَيْسِيعِ، وبنو المصطلق: بَطْنٌ من خُزَاعة، وهم بنو جذيمة، وجذيمة هو المصطلق، من الصَّلَق، وهو رفع الصوت. والمُرَيْسِيعُ: اسمُ ماءٍ من مياهِهِم، وسببُها أنه ﷺ بلغَه أَنّ الحارثَ بنَ ضِرَارٍ سيِّدَ بَنِي المُصْطَلِق، جمعَ لحربِ رَسُولِ الله ﷺ مَن قَدَرَ عليه مِن قَومِه ومِنَ العَرَب، فأرسلَ ﷺ بُرَيْدَةَ ابنَ الحُصَيبِ ليَعْلَمَ عِلْمَ ذلك. فاستأذنَ بُرَيْدَةُ رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يقولَ مَا يَتَخلّصُ به مِن شَرِّهم، وإِنْ كانَ خِلافَ الوَاقِعِ، فأَذِنَ له رَسُولُ الله ﷺ، فخرجَ حتّى وردَ عليهم ورَأى جمْعَهم، فقالوا له: مَنِ الرَّجُلُ؟، فقال: رَجُلٌ مِنكُم، قَدِمْتُ لِمَا بلغَنِي مِن جَمْعِكُم لهذَا الرَّجُل، فأَسِيرُ في قومِي ومَن أَطَاعَني، فنكونُ يداً واحِدَةً حتّى نستَأصِلَهم، فقال له الحَارِثُ: فنحنُ على ذلك؛ فعَجِّلْ علينا بقومِك، قال بُرَيْدَةُ: أَرْكَبُ الآنَ فآتيكم بجَمْعٍ كثيرٍ من قومِي، فَسُرُّوا بذلك منه.

فرجعَ بُرَيْدَةُ إلى رَسُولِ الله ﷺ فأخبرَه خَبرَ القوم، فنَدَبَ رَسُولُ الله ﷺ النّاسَ إليهم، فأَسْرَعُوا في الخروج، وكان ذلك في شعبان لِلَيْلَتينِ خَلَتَا منه سنة خمس من الهِجْرَةِ، وقادُوا من الخيلَ ثلاثينَ فرساً، عشرةٌ منها للمهاجرين، وفرسان منها له ﷺ، وهما: الظَّرِبُ واللِّزَازُ، وعشرونَ منها

للأنصار، واستخلفَ ﷺ على المدينةِ زَيْدَ بنَ حَارِثَةَ رضي الله عنهما، وخرج ﷺ ومعه من نسائِه: عائشةُ، وأمُّ سَلَمَةَ رضي الله عنهما، وخرجَ معه ﷺ ناسٌ كثيرٌ مِن المنافقين لم يخرجوا في غَزْوَةٍ مثلها قَطُّ، منهم: عبدُ الله بنُ أُبَيِّ ابنِ سَلول، وزيدُ بنُ الصَّلْتِ، وليس لهم رغبة في الجهاد، وإِنَّمَا غَرَضُهم أَنْ يُصِيبُوا مِن عَرَضِ الدّنيا مع قُرْبِ المَسَافة. وسَارَ ﷺ حتّى بلغَ محلاً نزلَ به، فَأُتِيَ بِرَجُلٍ مِن عَبْدِ القَيسِ، فسلّمَ على رَسُولِ الله ﷺ، فقال له: «أَيْنَ أَهْلُكَ»؟ قال: بالرّوْحَاء، قال: «أَيْنَ تُرِيْدُ»؟، قال: إياك جِئْتُ لأومِنَ بكَ، وأشهدُ أنّ ما جئتَ به حَقٌّ وأقاتلُ معَك عدوَّك. فقال رَسُولُ الله ﷺ: «الحمْدُ لله الذِي هَدَاكَ لِلْإِسْلَامِ».

وأصابَ النبيُّ ﷺ عيناً للمُشْرِكينَ، وقد كان وجَّهَهُ الحارِثُ لِيأتيهِ بخَبرِ رَسُولِ الله ﷺ، فسَأَلَه رَسُولُ الله ﷺ عنهم، فلم يَذْكُرْ من شَأْنِهم شيئاً، فعرَضَ عليه الإِسْلامَ، فَأَبَاهُ، فأمرَ رَسُولُ الله ﷺ عُمرَ بنَ الخطاب رَضِيَ اللهُ تعالى عنه أَنْ يَضْرِبَ عُنُقَه، فضرَبَ عُنقَه، فبلغَ الحارثَ مَسِيرُ رَسُولِ الله ﷺ، وأَنه قتل عَينَه فَسِيءَ بذلِك هوَ ومَنْ كانَ معَه، وخَافوا خوفاً شَدِيداً، وتَفَرَّقَ عنه جَمْعٌ كَثِيرٌ ممَّنْ كانَ معه، وانتهى رَسُولُ الله ﷺ إلى المُرَيْسِيعِ فضُرِبتْ له ﷺ قُبَّةٌ مِن أُدُمٍ، وكان معَه فيها عائِشةُ وأمُّ سلمة رضي الله عنهما، وتَهَيَّأَ المسلمون لِلقِتَالِ، ودفعَ ﷺ رايةَ المهاجرين إلى أَبي بكرٍ رضي الله عنه، وراية الأنصارِ إلى سَعْدِ بن عُبادة رضي الله عنه، وأمرَ رَسُولُ الله ﷺ عُمَرَ ابنَ الخطّابِ رضي الله عنه أَنْ يقولَ لهم: «قُوْلُواْ: لَا إِلَهَ إِلّا الله تَمنَعُواْ بِهَا أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ»، ففعلَ عمرُ رضي الله عنه ذلكَ، فأبوا الدّخُولَ في الإِسلام، وتَرَامُوا بالنّبلِ سَاعةً.

ثمّ أَمرَ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ فحَمَلُوا عليهم حمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وكان شِعَارُ المسلمين وعلامَتُهم التي يُعْرَفُونَ بِهَا في ظلمةِ الليل وعند الاختلاط: "يا مَنْصُور"، تفاؤلاً بأَنْ يحصلَ لهم النّصْرُ بعد مَوتِ عدوِّهم، فمَا أَفْلَتَ منهم إِنْسَانٌ، وقُتِلَ منهم عشرةٌ، وأُسِرَ سَائِرُ الرِّجَالِ والنّسَاءِ والذُّرِّيَّة؛ واسْتَاقَ إِبلَهُم وشِيَاهَهُم، فكانت الإبلُ أَلفَي بعيرٍ، والشَاءُ خمْسةَ آلافِ شَاة، واستعملَ ﷺ على ذلك مَولَاه شُقْرَانَ الحَبَشِيّ رضي الله عنه، وكان السَّبْيُ مائتي بيتٍ، وقيل: كانوا أكثر من سبعمائة، وكانت بَرَّةُ بنتُ الحارثِ سَيِّدِ بَنِي المُصْطَلِق في السَّبْي. ثم أمرَ رَسُولُ الله ﷺ بالأساری فكُتِّفُوا، واستعملَ عليهم بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، ثُمَّ فرَّقَهم، فصَارَ السَّبْيُّ في أيدِي النّاس.

وبعثَ رَسُولُ الله ﷺ أَبَا ثَعْلَبَةَ الطّائِي إِلَى المدينةِ بَشِيراً من المُرَيْسِيعِ، وقد جمعَ ﷺ المتاعَ الذي وجدَه في رحالِهم والسِّلاحَ والنَّعمَ والشّاء، وعُدِّلَتْ الجزورُ بعَشَرةٍ من الغَنَمِ، ووقعت بَرَّةُ بنتُ الحارثِ في سَهْمِ ثابتِ بنِ قَيسٍ، وابنِ عمٍّ له، فجعل ثابتٌ لابنِ عَمِّه نخلات له بالمدينة في حِصّته مِن بَرّة، وكاتَبها على تِسْعِ أَوَاقٍ من ذَهَبٍ، فدخَلَت عليه ﷺ، فَقَالَتْ: يا رَسُولَ الله، إِنِّي امْرَأَةٌ مِسْلِمَةٌ أَشْهَدُ أَنْ لَا إله إلا الله وأنك رسولُ الله، وإِنّي بَرَّةُ بنتُ الحارث سَيِّدِ قومِه، أصابنا مِنَ الأمرِ مَا قد عَلِمْتَ، ووقعَتُ في سهْمِ ثَابتِ بنِ قَيس وابنِ عَمٍّ له، وخلّصَني ثابتٌ مِن ابنِ عمِّه بنَخَلَاتٍ في المدينة، وكاتبني على ما لا طاقةَ لي به، وإِنّي رجوتُكَ، فَأَعِنِّي في مُكَاتَبتي، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِك»؟، فَقَالَتْ: مَا هوَ؟، فقال: «أُؤَدِّي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وأَتَزَوَّجُكِ»، فَقَالَتْ: نعم يا رسولَ الله، قد فَعَلْتُ. فأرسلَ رَسُولُ الله ﷺ إلى ثابتِ بنِ قَيس، فطلَبها منه، فقال له ثابتُ بنُ

قَيس رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: هيَ لك بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ الله، فأدّى رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ما كان كاتبها عليه، ثم أعتقَها وتزوَّجَها، وهي ابنةُ عشرين سنة، وغيّر اسمَها فسَمَّاها جُوَيْرِيَّة.

وذكرَتْ جويرية رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أنها قبل قُدُومِ النّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عليهم بثلاثِ ليَالٍ رَأَتْ كأنّ القمرَ يسيرُ من يَثْرِبَ حتّى وقع في حجْرِها، قالت: فكَرِهْتُ أَنْ أُخْبِرَ بها أَحداً من الناس، فلمّا سُبِينَا رَجُوتُ الرّؤيا. قالت: ولما أتانا رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ونحنُ على المُرَيْسِيعِ، سمعتُ أبي يقول: أتانا ما لا قِبَلَ لنَا به. وكنتُ أرى مِن النّاسِ والخيلِ والسِّلاحِ ما لا أَصِفُهُ مِنَ الكثرةِ، فلمّا أَنْ أَسْلَمْتُ وتزوّجَني رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ورجعنا جعلتُ أَنظرُ إلى المسلمين، فليسُوا كما كنتُ أرَى، فعلمتُ أنه رُعْبٌ من الله تعالى يلقيه في قلوبِ المشركين. وكان رَجُلٌ من بَنِي المُصْطَلِق ممّن أسلمَ وحَسُنَ إِسْلَامُه يقول: لقد كُنّا نرى رِجَالاً بِيضاً على خَيْلٍ بُلقٍ، ما كنّا نراهم قبلُ ولا بعدُ. وهذا يَدُلّ على أنّ الملائكةَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا مدداً للمسلمين في هذه الغَزْوَة.

ولما رأى المسلمونَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تَزَوّجَ جُوَيْرِيَّةَ بنتَ الحارثِ قالوا في حَقِّ بَنِي المُصْطَلِق: أَصْهَارُ رَسُولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. ثُمَّ أَعْتَقُوا ما بأيدِيهم من ذلك السَّبْيِ. قالتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها: لا أَعْلَمُ امْرَأَةً أَعْظَمُ بَرَكَةً على قومِها من جُوَيْرِيَّةَ، أُعْتِقَ بتَزْوِيجهَا من رَسُولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أَهلُ مَائةِ بيتٍ.

ولما قِدَمَ رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المدينةَ أَقْبَلَ أَبوهَا في فِدَائِها، فلمّا كانَ بالعَقِيقِ نظَرَ إلى إبلِهِ التّي يَفْدِي بها ابنَتَه فرَغِبَ في بَعِيرَينِ منها كانا مِن أَفضَلِها، فعَقَبَهُما في شِعْبٍ من شِعَابِ العَقِيقِ، ثُمَّ أَقبلَ على رَسُولِ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال:

يا محمَّدُ، أصبْتُم ابنَتِي، والكَرِيمَةُ لا تُسْبَى، وهذا فِدَاؤُها، فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «فَأَينَ البَعِيرَانِ اللّذَانِ عَقَبْتَهُما بِالعَقِيقِ فِي شِعْبِ كَذَا وَكَذَا»؟ فقال الحارث: أَشْهَدُ أَنّكَ رَسُولُ الله، مَا اطّلَعَ على ذَلِكَ إلا الله. وأسلمَ، وعند ذلك أمرَه ﷺ بِأَنْ يُخيّرها، فقال: أَحْسَنْتَ وأَجْمَلْتَ، ثم قال لابنَتِه: يا بُنَيّةِ لا تفضَحِي قَومَك، فَقَالَتْ: اخْتَرْتُ اللهَ ورسُولَه.

وأَسْلَمَ بنو المُصْطَلِق بعدَها، وبعدَ إسلامِهم بعامين بعثَ إليهم رَسُولُ الله ﷺ الوليدَ بنَ عُقْبَة بنِ أبي مُعَيط لأَخْذِ الصّدَقَةِ، وكان بينَهُم وبينَه شَحْنَاءُ في الجاهلية، فخَرَجُوا للقَائِه وهم مُتَقَلِّدُونَ السُّيوفَ فرَحاً وسُرُوراً بِقُدُومِه، فتَوَهَّمَ أنهم خرَجُوا لقتالِه فَفَرَّ رَاجِعاً، وأَخبرَ رَسُولَ الله ﷺ بأنّهم ارْتَدّوا، فهَمَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقتالهم، وأكثرَ المسلمون ذِكْرَ غزوِهم، فلم يلبثوا حتّى قَدِمَ وفدُهم، وأخبروا رَسُولَ الله ﷺ بأنّهم خرجوا إليه ليُكرمُوه ويُؤَدُّوا ما عليهم من الصَّدَقةِ فَفرَّ رَاجِعاً.

وفي رواية: أَنه ﷺ أرسلَ إليهم خَالدَ بنَ الوَليد، فأَخْبَرَه الخَبَر، وعند إرسالِه قال له ﷺ: «ارْمُقْهُمْ عِنْدَ الصَّلَاةِ، فَإِنْ كَانَ القَومُ تَرَكُواْ الصَّلَاةَ فَشَأْنَكَ بِهِمْ»، فدنا منهم عند غُروبِ الشَّمْسِ، فكَمَنَ حيثُ يَسمعُ الصَّلاةَ، فإذا هو بالمؤَذّن قد قامَ حين غربت الشمسُ فأذّنَ، ثم أقام الصّلاةَ فصلّوا المغربَ، ثم لمّا غابَ الشّفقُ أَذّنَ مُؤَذِّنُهم، ثم أقام الصلاة فصلوا العشاء، ثم لما كان جوف الليل فإذا هم يتهجدون، ثم عند طلوع الفجر أَذّنَ مؤذِّنُهم، وأقام الصَّلاة فصَلّوا، فلمّا انصرفوا وأضاءَ النهارُ إذا هم بنواصي الخيل في ديارِهم، فقالوا: مَا هَذا؟، فقيل: خالدُ بنُ الوليد. فقالوا: يا خالدُ ما شأنك؟، قال: أنتم والله

شأني، أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ فقيل له: إنكم تركتم الصّلاة، وكفرتم بالله، فجَثُوا يبكونَ، وقالوا: معَاذَ الله، وإنّما الوليدُ هذا كان بيننا وبينه شحناء في الجاهلية، وإنما خرجنا بالسُّيوفِ خَشْيَةَ أَنْ يُكَافِئَنا بالذِي كان بيننا وبينَه، فرَدَّ خالدٌ الخيلَ عنهُم، ورجعَ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فأخبرَه خبرَهم، وأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ولم يُقْتَلْ في غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ مِن المسلمين إلا رَجُلٌ واحِدٌ، وهو هِشَامُ بنُ صُبَابَةَ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، قتَلَه رَجُلٌ مِنَ الأنصار خطَأً وهو يَظُنُّهُ مِنَ العَدُوِّ. فقدم أخو هذا المقتول من مَكَّةَ على رَسُولِ الله ﷺ مُظْهِراً الإسلامَ، وقال: جِئْتُ أَطْلُبُ دِيَةَ أَخِي، فأمرَ له رَسُولُ الله ﷺ بِدِيَةِ أَخِيهِ، فأَخَذَ مائةً من الإبل، وأقامَ عندَ رَسُولِ الله ﷺ غيرَ كثيرٍ، ثم إنّه عدَا على قَاتِلِ أَخِيه فقتَلَه، ثمّ خرَجَ إلى مَكَّةَ مُرْتَدّا، فأَهْدَرَ رَسُولُ الله ﷺ دَمَهُ، فَقُتِلَ في يوم فَتْح مَكَّةَ.

وبعد انقضاءِ الحرْبِ اخْتَصَمَ أَجِيرٌ لعُمرَ بنِ الخطّاب كان يقودُ فرسَه، يقال له: جَهْجَاهُ بنُ مَسْعُودٍ مع رَجُلٍ من حُلَفَاءِ الخزْرَجِ يُقَالُ له: سِنَانُ بنُ فَرْوَة، وهم على الماءِ، فضَرَبَ أَجيرُ عمرَ رضي الله عنه حليفَ الخزْرَجِ ودفعَه، فنادى حليفُ الخزرج: يا معشرَ الأنصار، ونادى أجيرُ عُمرَ: يا معشرَ المهاجرين، فأقبلَ جَمْعٌ مِنَ الجيشين، وشهرُوا السِّلاحَ حتّى كادَ أنْ تكونَ فتنةٌ عظيمةٌ، فخرجَ رَسُولُ الله ﷺ فقال: «مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّة»؟، فأُخْبِرَ بالحالِ، فقال ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنّهَا مُنْتِنَةٌ»، أي تلك الكلمة التي هي: يا لِفُلَان، مَذمُومة لأنّها من

دَعْوَى الجاهليّة، ثمّ قال ﷺ: «لِيَنْصُر الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً، إِنْ كَانَ ظَالِماً فَلْيَنْهَهُ فَإِنَّهُ نَاصِرٌ لَه، وإِنْ كَانَ مَظْلُوماً فَلْيَنْصُرْه»، أي أنْ يُزِيلَ ظُلَامَتَهُ، ثُمَّ كَلّمُوا ذلك المضروبَ، فترَكَ حَقَّهُ، فسَكَنَتِ الفِتْنَةُ، وانطَفَئَتْ ثَائِرةُ الحرْبِ.

وعند تخاصُم الرّجلين غضبَ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ بنِ سَلول، وكان عنده رَهْطٌ من قومه من الخزرج من المنافقين، وكان عندهم زَيد بنُ أرقم رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وهو غلامٌ حديثُ السِّنِّ، فقال عبدُ الله بن أبي: والله ما رأيت كاليوم مَذَلَّةً، أَوَ قَدْ فَعَلُوهَا؟، نَافرُونا، وكاثرونا في بلادِنا، وأنكرونا مِلّتنا، والله ما أَظُنّنا وهؤلاءِ المهاجرين إلا كَمَا قال الأوّل: سَمِّنْ كَلْبَك يأكلك، والله لقد ظننت أني سأمُوتُ قبل أَنْ أسمَعَ هاتفاً يهتفُ بما سِمِعْتُ، أما والله لئن رجعْنا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنهَا الأَذَلَّ. ـ ويعني بالأعَزِّ نفسَه، وبالأذلّ النَّبِيَّ ﷺ ـ، ثم أقبلَ على مَن حَضرَ من قومِه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفُسِكُم، أحْلَلْتُموهم بلادَكم، وقَاسَمْتُمُوهم أموَالَكم، أما والله لو أَمْسَكْتُم عنهم ما بأيدِيكم لتحَوَّلوا إلى غيرِ دَارِكم، ثمَّ لمْ ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسَكم أغرَاضاً للمَنَايا فَقُتِلْتُم دُونَه ـ يعني النَّبِيَّ ﷺ ـ، فأَيتَمْتُم أولادكم، وقُلِّلْتُم وكثروا، فلا تُنفِقُوا عليهم حتى ينْفَضّوا من عندِ محمَّدٍ. فسمعَ ذلك زيدُ بنُ أَرْقَمَ فمَشَى إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فأخبَرَه الخبرَ، وكانَ عندَه عمرُ بن الخطاب ونفر من المهاجرين والأنصار، فكَرِهَ رَسُولُ الله ﷺ ذلك وتغَيَّرَ وجْهُهُ، وقال له: «يَا غُلَام؛ لَعَلَّكَ غَضِبْتَ عَلَيهِ»، فقال زيدٌ: والله يا رسولَ الله لقد سَمِعْتُه منه، فقال: «لَعَلَّهُ أَخْطَأَ سَمْعُكَ»، ثم لَامَهُ من كان حَاضِراً من الأنصارِ وقالوا: عَمَدْتَ إلى سَيِّدِ قَومِكَ تقولُ عليه مَا لم يَقُلْ. قال زيدٌ: فلما كَذَّبَنِي رَسُولُ الله ﷺ

أَصَابني هَمٌّ لم يُصِبْني مثله قَطُّ، فجلسْتُ في الخِبَاءِ، وقال لي عمّي: ما أَرَدْتَ إلا أنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَقَتَكَ، فقلتُ: والله لقَدْ سَمِعْتُ ما قالَ، ولو سَمِعْتُ هذه المقالةَ من أبي لنَقَلْتُهَا إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنّي لأرجو أنْ يُنْزِلَ الله على نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يُصَدِّقُ حديثي.

وذهبَ بعضُ الأنصار الذين سَمِعُوا قولَ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وردَّه على الغُلَامِ إلى ابن أُبَيٍّ فقالوا له: يَا أَبَا الحُبَاب؛ إِنْ كُنْتَ قُلْتَ مَا نُقِلَ عنك فأخْبِرْ به النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلْيَسْتَغْفِرْ لك، ولا تجْحَدْهُ فينزلَ فيكَ ما يُكَذِّبُك، وإنْ كُنْتَ لمْ تَقُلْهُ فَائْتِ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعْتَذِرْ له، واحْلِفْ له مَا قُلْتَهُ. فحَلَفَ بالله العظيم مَا قالَ مِن ذلك شيئاً، ثمّ مَشَى إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا ابْنَ أُبَيّ؛ إنْ كَانَتْ سَبَقَتْ مِنْكَ مَقَالَةٌ فَتُبْ»، فقال: وَالذِي أَنْزَلَ عَليك الكتابَ ما قلتُ شيئاً من ذلك، وإنّ زَيداً لكَاذِب، وجَعَل يَحْلِفُ بالله ما قَالَ مَا قالَه زَيْدٌ، ومَا تَكَلَّمَ به. وقالَ بعضُ أصحابِ ابنِ أُبَيّ: يا رسولَ الله، هذا شَيخُنا وكَبيرُنا، لا يُصَدَّقُ عليه كَلَامُ غُلَام!.

وكان زيدُ بن أَرْقَم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما قال ابنُ أبي: أمَا والله لَئِن رَجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنهَا الأَذَلَّ. قال له: أنتَ والله الذّلِيلُ المُنْقَصُ في قَومِكَ، ومُحمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عزٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ وقوَّةٍ من المسلمين، فقال له ابْنُ أُبَيٍّ ـ لَعَنَهُ الله ـ: اسْكُتْ، فَإنّما كنتُ أَلْعَبُ. ولما تغيّرَ وجهُ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استأذنه عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في أنْ يَقْتلَ ابنَ أُبيّ، ثمّ التَمَسَ منه أَنْ يأمرَ غيرَه بقتلِه إذا لم يأذنْ له في ذلك، فعن عمرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جئتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في فَيْءِ شَجَرَةٍ، عِنْدَهُ غُلِيمٌ أَسْوَدُ يغْمِزُ ظهْرَه فقلتُ: يا رسُولَ الله كَأنكَ تَشْتكِي ظَهْرَك؟، فقال:

«تَقَحَّمَتْ بِيَ النَّاقَةُ اللَّيْلَةَ»، فقلتُ: يا رسول الله ائذَنْ لي أَنْ أَضْرِبَ عُنقَ ابنِ أُبيٍّ، أو مُرْ محمّدَ بنَ مَسْلَمَةَ بقتلِه، فقال ﷺ: «كَيْفَ يَا عُمَرُ إذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَه؟، وَلَكِنْ أَذِّنْ بِالرَّحِيْلِ»؟.

فجاءَه أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ رضي الله عنه، فحيّاهُ بتحيّةِ النبوّةِ، وسلّمَ عليه، فقال: السّلام عليك أيّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته، ثم قال: يا نبيَّ الله لقد رَحَلْتَ في ساعةٍ مُنكَرَةٍ، ما كنتَ تروحُ في مثلِها، فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ»، فقال: أيُّ صَاحِبٍ يا رَسُولَ الله؟، قال: «عَبْدُ الله بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُول»، قال: ومَا قَال؟، قال: «زَعَمَ أَنهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى المَدِيْنَةِ أَخْرَجَ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلّ»، فقال: أنتَ واللهِ يا رسولَ الله تخرجُه إِنْ شِئْتَ، وهوَ واللهِ الذّليل، وأنتَ العزيز، ثمّ قال: يا رسولَ الله، أُرْفُقْ به؛ فو الله لقد جاءَنا الله بك وإِنَّ قومَه لينظمونَ له الخَرَزَ لِيُتَوِّجُوه، ما بقيَتْ عليهم إلا خَرَزَةٌ واحِدَةٌ عند يُوشَع اليهودي، فإنّه ليَرى أنكَ اسْتَلَبْتَهُ مُلْكاً. ثم ارتحلَ رَسُولُ الله ﷺ في ساعةٍ لم يكن يرتحلُ فيها لشِدَّةِ الحَرِّ، لأنه ﷺ كان لا يرحلُ إلّا إِنْ بردَ الوقتُ، وارتحلَ الناسُ، وشَاع الخبرُ ولم يكن للنّاسِ حديث في ذلك اليوم إلّا حديثَ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابن سَلول، فسارَ رَسُولُ الله ﷺ بالناس سَيْراً حَثِيثاً، يومهم ذلك وليلتهم، وصَدْرَ اليَوم الثّاني حتى آذتهم الشّمس، ثمَّ نزلَ بالناسِ، فلم يلبثوا أَنْ وجَدُوا مَسَّ الأَرْضِ فوَقَعُوا نياماً، وإِنَّما فعَل ﷺ ذلك ليشتغلَ الناسُ عنْ حديثِ ابنِ أُبيٍّ.

ثُمَّ إِنّ عبدَ الله رضي الله عنه ولدَ عبدِ الله بن أبي ابن سلول ـ كان اسمُه الحُبَابُ فسمَّاه النَّبيُّ ﷺ عبدَ الله ـ بلغَهُ مقالةَ عمر بن الخطّاب من قتل أبيه، فجاء

إلى رَسُولِ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، إنه قد بلغني أنك تريدُ قتلَ عبدِ الله بن أُبيٍّ فيما بلغك عنه، فإنْ كنتَ فاعِلاً فمُرْني أَنْ أَحْمِلَ لكَ رَأْسَهُ، فو الله لأَحْمِلَنَّ إليكَ رَأسَه قبلَ أَنْ تقومَ مِن مجلسِك هذا، ووالله لقد عَلِمَتِ الخزْرَجُ ما كان بها رَجُلٌ أَبَرَّ بوالدِه منّي، وإنّي لأخشى أَنْ تَأْمُرَ به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أَنْ أنظرَ إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأكونُ قد قتلتُ مؤمناً بكافرٍ فأدخلُ النّار، فقال رَسُول الله ﷺ: «بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا». فقال: يا رسولَ الله، عفوُكَ أفضَلُ، ومِنَّتُك أَعْظَمُ، وإنَّ أَبِي كانَ أهل المدينة قد اتفقوا على أنْ يتوِّجُوه عليهم، فجاءَ الله ﷻ بك، فوضَعَه ورفعنا بك، ومعه قومٌ من المنافقين يُطِيفُونَ به، ويُذَكِّرُونَه أموراً قد غلبَ الله عليها.

وعند رجوعِ رَسُولِ الله ﷺ إلى المدينةِ أنزلَ الله تعالى عليه في الطريق سُورةَ المنافقين. قال زَيدُ بنُ أَرْقَم رضي الله عنه: رأيتُ رَسُولَ الله ﷺ تأخُذُه البُرَحَاءُ، ويعرقُ جَبِينُه الشّريف، وتَثْقُلُ يدَا رَاحِلته، فقلتُ: إنّ رَسُولَ الله ﷺ يُوحَى إليه، ورَجُوتُ أَنْ يُنْزِلَ الله تعالى تَصْدِيقي. فلمّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَخذَ بِأُذْنِي وأَنا عَلَى رَاحِلَتي يَرْفَعُها إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى ارْتَفَعْتُ عَنْ مَقْعَدِي، وهو يقول: «وَعَتْ أُذُنُكَ يا غُلامُ، وَصَدَّقَ الله حَدِيثَكَ، وَكَذَّبَ المنَافِقِينَ». وعند نزولِ سورة المنافقين صارَ قومُ عبدِ الله بن أُبيّ يعاتبونه ويعَنِّفُونَه، ولما بلغَه ﷺ بغضَ قومِه له ومُعَاتَبَتِهم له، قال ﷺ لعمرَ رضي الله عنه: «كَيفَ تَرَى يَا عُمَرُ، إنّي وَالله لَوْ قَتَلْتُهُ يومَ قُلْتَ لأَرْعَدَتْ لَهُ أُنُوفٌ لَوْ أَمَرْتُهَا اليَومَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلَتْهُ»، فقال عمرُ رضي الله عنه: قَدْ والله عَلِمْتُ لأَمْرُ رسُولِ الله أَعْظَمُ بَرَكَةً مِن أمري.

ولما نزلت سورة المنافقين وفيها تكذيبُ ابنِ أُبيّ وحكايةُ ما قاله، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٧ ـ ٨]، قال له أصحابُه: اِذهبْ إلى رَسُولِ الله ﷺ يستغفرُ لك، فلَوَى رأسَه، ثُمَّ قال: أَمَرْتُمُوني أَنْ أُومِنَ فآمَنْتُ، وأمرتموني أَنْ أُعْطِيَ زَكَاةَ أَمْوَالي فأعطيتُ، فما بقي إلّا أَنْ أسجدَ لمُحَمَّدٍ!.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

ولما كان رَسُولُ الله ﷺ بقربِ المدينةِ هاجتْ ريحٌ شديدةٌ كادَت تَدْفِنُ الرّاكِبَ، فخافَ المسلمون أنْ تكونَ هاجتْ لأمرٍ حدثَ بالمدينة على أهْلِهم، وكان ذلك حين انقضاءِ مُدَّةِ المُوَادَعَةِ التي كانت بينه ﷺ وبين عُيينة بن حِصْن، فخافوا على المدينة منه، فقال ﷺ: «لَيس عَلَيْكُمْ مِنْهُ بأس ـ يعني عيينةَ بنَ حِصْن ـ، مَا بِالمَدِينَةِ مِنْ نَقْبٍ إلّا وَمَلَكٌ يَحْرُسُهُ، وَمَا كَانَ لِيَدْخُلَهَا عَدُوٌّ حَتّى تَأْتُوهَا، وَلكِنْ تَعْصِفُ هَذِه الرّيح لِموتِ مُنَافِقٍ عَظَيمِ النِّفَاقِ بِالمَدِينَةِ»، فكان ما قاله ﷺ فقد ماتَ في ذلك اليوم زَيْدُ بن رِفَاعَة، وكان كَهْفاً للمنافقين، وكان من عُظَماءِ يهود بَنِي قَيْنُقَاع.

وفُقِدَتْ ناقَةُ رَسُولِ الله ﷺ ـ القصواء ـ مِن بين الإبل ليلاً، فجعل المسلمون يَطْلُبُونَها مِن كُلّ وَجْهٍ، فقال زَيدُ بنُ الصَّلْت وكان مُنافِقاً من بَنِي قَيْنُقَاع: لِمَ يَذْهبُ هَؤُلَاءِ في كُلّ وجْهٍ؟، فقالوا: يطلبون ناقةَ رَسُولِ الله ﷺ

لأنها ضَلَّتْ، فقال: أفلَا يخبرُه الله بمَكَانِها، كيفَ يَدّعي أنه يعلمُ الغيبَ ولا يعلمُ مكانَ ناقتِه ولا يخبرُه الذي يأتيه بالوَحي؟، فأنكرَ عليه القوم، وقالوا: قاتلك الله يا عَدُوَّ الله نَافَقْتَ، وأرَادُوا قتْلَه، فهَرَبَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مُتَعَوِّذاً به، فقال رَسُولُ الله ﷺ وهو يَسمعُ: «إِنَّ رَجُلاً مِنَ المنافِقِينَ شَمِتَ أَنْ ضَلَّتْ نَاقَةُ رَسُولِ الله ﷺ، وَقَالَ: أَلَا يُخْبِرُهُ الله بِمَكَانِهَا، وَالله قَدْ أَخْبَرَنِي بِمَكَانِهَا، وَلَا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا الله، وَإِنَّهَا فِي الشِّعْبِ مُقَابلكُم، قَدْ مَسَكَ زِمَامُهَا بِشَجَرَةٍ، فَاعْمِدُوا نَحْوَهَا»، فذهبوا فأتوا بها من حيثُ قال ﷺ، فقام ذلك الرّجل سريعاً إلى رُفَقائِه، فقالوا له: لا تَدْنُ مِنّا، فقال لهم: أنشدُكم الله، هل أتى أحَدٌ منكم مُحَمَّداً فأخبره خبري، قالوا: لا والله، ولا قُمْنَا مِن مجلسِنا، فقال: إِنِّي وجَدْتُ ما تكَلّمْتُ به عنده، فأَشْهَدُ أنّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، كأني لم أُسْلِم إلا اليَوم، فقالوا له: فاذهبْ إلى رَسُولِ الله ﷺ يَسْتَغْفِرْ لك، فذهبَ إلى النَّبيِّ ﷺ، واعترفَ له بذنبِه، فاستغفرَ له رَسُولُ الله ﷺ.

وفي هذه الغَزْوَةِ تسابقَ ﷺ مع عائشةَ رضي الله عنها فتحَزَّمَتْ بِقِبَائِها، وفعلَ رَسُولُ الله ﷺ كذلك، ثم اسْتَبَقَا، فسبَقَها رَسُولُ الله ﷺ، وقال لها: «هَذِهِ بتِلْكَ التِي كُنْتِ سَبَقْتِنِي». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرَجتُ مع رَسُولِ الله ﷺ في بعضِ أسفارِه وأنا جاريةٌ لم أَحْمِلِ اللّحْمَ، فقَالَ لِلنّاسِ: «تَقَدَّمُوْا»، فَتَقَدّموا. ثم قال: «تَعالي حَتّى أُسَابِقَكِ»، فَسَابَقْتُه، فَسَبَقْتُه، فسَكَتَ عنّي حتى حَمَلْتُ اللَّحْمَ، وخرجتُ معه في سَفْرَةٍ أُخْرَى، فقَالَ لِلنّاسِ: «تَقَدَّمُوْا»، فَتَقَدّموا. ثم قال: «تَعَالَي حَتّى أُسَابِقَكِ»، فسَابَقْتُه فسَبَقَنِي، فجَعَل يَضْحَكُ وهو يَقُول: «هَذِهِ بِتِلْكَ»[1].

---

(١) رواه أحمد في مسنده [٦/٢٦٤]، برقم: (٢٦٣٢٠)، والنّسائي في السنن الكبرى [٦/٣٢٦]،=

وأوقعَ ﷺ السّباق بين الإبل، فسابقَ بلالٌ رضي الله عنه على ناقَةِ النبيِّ ﷺ القُصْوَاء، فسبقَتْ غيرَها من الإبل، وسابَقَ أبو سعيدٍ السَّاعدي على فرسِه ﷺ الذي يقال له: الظَّرِبُ، فسبَقَ غيرَه من الخَيل. وجاءَ أن ناقته ﷺ العضْباء كانت لا تُسْبَقُ، فجاءَ أعرَابيٌّ على قَعُودٍ فسبَقَها، فشَقَّ ذلك على المسلمين، فقال ﷺ: «حَقٌّ عَلَى الله أنْ لَا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ».

وقَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المدينة هِلَالَ رمضان، فكانت غيبتُه في هذه الغزوة ثمانيةً وعشرين ليلةً. ولما انتَهَى ﷺ إلى وَادِي العَقيقِ، تقدَّمَ عبدُ الله رضي الله عنه ابنُ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلول، وجعل يتَصَفَّحُ الرَّكْبَ حتَى مَرَّ أبوه، فأناخَ بهِ، ثُمَّ وَطِيءَ على زِمَام رَاحِلَتِه، فقال أبوه: ما تُرِيدُ يا لُكَع؟!، فقال: والله لا تدخل حتّى تُقِرَّ أنكَ الذَّلِيلُ، وَأَنّ رَسُولَ الله ﷺ العَزِيزُ، وحتّى يَأْذَنَ لكَ رَسُولُ الله ﷺ، لِتَعْلَمَ اليومَ مَن هوَ الأَعَزُّ ومَن هو الأَذَلُّ، أَهُوَ أَنْتَ، أَمْ هو رَسُولُ الله ﷺ؟، فجعلَ ابنُ أُبَيٍّ يقولُ: لَأَنا أَذَلُّ مِنَ الصِّبْيَانِ، لَأَنَا أَذَلُّ مِنَ النِّسَاءِ، فلمْ يُطْلِقْهُ حتَّى جاءَ النبيُّ ﷺ، فقالَ له: «خَلِّ عَنْ أَبِيْكَ»، فخَلّى عنه. وفي روايةٍ: أنّ ابنَه رضي الله عنه قال له: لَئِنْ لمْ تُقِرَّ لله ولرَسُولِه بالعِزَّةِ لَأَضرِبَنَّ عُنقَك، فقال: ويحكَ أَفَاعِلٌ أَنْتَ؟، قال: نعم. فلما رأى منه الجِدَّ، قال: أَشْهَدُ أَنَّ العِزَّةَ لله ولِرَسُوله وللمُؤْمِنينَ، فقال رَسُولُ الله ﷺ لابنِه: «جَزَاكَ الله عَنْ رَسُولِهِ وَعَنِ المؤْمِنِينَ خيراً».

= برقم: (٨٩٤٤). وأبو داود في سننه [٣٤٦/٢]، برقم: (٢٥٧٨). وابن حبّان في صحيحه [٥٤٥/١٠]، برقم: (٤٦٩١). وقد استدلّ العلماء بهذا الحديث على إباحة المسابقة بالأَقدَام إذا لم يَكُنْ بين المتسابقين رِهَانٌ.

وذُكِرَ أَنَّ عبدَ الله بنَ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جلسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشَرِبَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له: باللهِ يا رسولَ الله، إلّا ما أَبْقيتَ فضْلَةً من شرابِك أَسْقيها أَبِي لعَلَّ الله يُطهِّر بها قلبَه، فَأَفْضَلَ له، فأتاه بها، وقال له: اِشْرَبْ، فقال: ما هذا؟، قال: هِيَ فَضْلَةٌ مِن شَرَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جِئْتكَ بها تَشْرَبهَا لعَلَّ اللهَ يُطَهِّرُ قلبكَ بها، فقال له أبوه: فهلّا جِئْتَنِي بِبَولِ أُمّكَ فَإِنّه أَطْهَر منها. فغضبَ وجاءَ إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: يا رسولَ الله، باللهِ إلّا ما أَذِنْتَ لي في قَتْلِ أَبِي، فقال له رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ تُرْفِقُ بِهِ وَتُحْسِنُ إِلَيْهِ».

وفي هذه الغَزْوَة كانت قِصّةُ الإِفْكِ، وهو الكَذِبُ على عائِشَةَ الصِّدّيقةِ المُطَهَّرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: (لما دنونَا من المدينةِ قافلين، أُذِنَ ليلةً بالرحيل، فقمتُ، وذهبتُ لأقضيَ حاجتي حتّى جاوزتُ الجيشَ، فلمّا قضيتُ شَأني أقبلتُ إِلَى رَحْلي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارٍ قَدِ انْقَطَعَ، فالتَمَسْتُ عِقْدِي، وأَقْبَلَ الرَّهْطُ الذِين كانوا يُرَحِّلُونَ لِي، فاحْتَمَلُوا هودَجِي، فَرَحَّلُوهُ على بَعِيرِي الذِي كنتُ أركبُه، وهم يحسبونَ أني فيه، وكانَ النّساءُ إِذْ ذاكَ خِفَافاً لِقِلّةِ أَكْلِهِنَّ، وسارُوا، ولم يَسْتَنْكِرِ القَومُ خِفّةَ الهَودَجِ حين رفعوه وحملوه، ثُمَّ وجدتُ عِقْدِي، فجئتُ منازلَهم وليسَ بها دَاعٍ ولا مُجِيبٌ، فأقمْتُ بمَنْزِلي الذِي كُنْتُ فيه، وظَنَنْتُ أَنَّهُم سَيفْقِدُونَي فيرجعونَ إِلَيَّ، فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلَبَتْنِي عَيْنَيَّ فنِمْتُ، وكان صَفْوَانُ السُّلَمِيّ خَلْفَ الجيش[1]، فَأَدْلَجَ ـ أَي سَارَ لَيْلاً ـ فَأَصْبَحَ عندَ مَنْزِلي، فرَأى سَوَاداً، فأتاني فعرفَني، فَاسْتَيْقَظْتُ باسْتِرْجَاعِهِ ـ أَي بقولِه: إنا لله وَإِنّا إِلَيْهِ

(١) كانتْ مُهِمَّتُه السَّيرَ في مُؤَخَّرَةِ الجيشِ ليضْمَنَ سَيْرَ الجميع ويُعِينُ المُتَعَثِّر. وقد جاءَ أنه كان كثيرَ النّوم.

رَاجِعُون ـ، فَخَمَّرْتُ وجْهِي بِجِلْبَابِي، وَالله مَا كَلَّمَنِي كَلِمةً، ومَا سَمِعْتُ مِنه كَلِمَةً، ثُمّ قرَّبَ البعيرَ، فقَال: ارْكَبِي، فَرَكِبْتُ، وانطلقَ يقودُ بي الرّاحِلَةَ حتّى أتينا الجيشَ بعد ما نزلوا، وذلك في نَحْرِ الظَّهِيرَة، فلمّا نزلنا هَلَك مَن هَلَكَ بقولِ البُهْتَان والافْتِرَاء[١].

فقَدِمْنَا المدينةَ، فاشْتكَيتُ حين قَدِمْتُ شهراً، والنّاسُ يُفِيضُونَ في قولِ أصحابِ الإفْكِ، ووصَلَ الخبرُ إلى النَّبِيِّ ﷺ وإلى أبوَيّ، ولا أَشْعُرُ بشيءٍ مِن ذلك، وكان يريبُني أني لَا أعرفُ مِن رَسُولِ الله ﷺ اللّطفَ الذي كنتُ أرى منه حينَ أَشْتكِي ـ أي حينَ أمْرَضُ ـ، إنّما يدخلُ عليَّ فيُسَلِّمُ، ثم يقول: «كَيْفَ تِيْكُمْ»، لا يزيدُ على ذلك، ثم ينصرفُ، فلذاك الذي يريبني، حتّى خرجتُ أوّل ما أفقتُ من المرض، فخرجَتْ معي أُمُّ مِسْطَحٍ إلى المَحَلّ الذي تخرج إليه النّسَاءُ ليلاً، ـ أي لقَضَاءِ حَاجَةِ الإنسَان ـ، وذلك قبل أَنْ تُتخَذَ الكُنُفُ، فلمّا فرغنا من شَأنِنا وأقبلْنا، عَثرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ في مُرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فقلتُ لها: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلاً شَهِدَ بَدْراً؟، فَقَالَتْ: أو لم تسمعي ما قال؟، قلتُ: ومَا قال؟، فَأَخْبَرَتْنِي بقولِ أَهْلِ الإفْكِ، فقلتُ: أَوَ قَدْ كَانَ هَذَا؟، قَالَتْ: نَعَمْ وَالله لَقَدْ كَانَ، فازْدَدْتُ مَرَضاً على مَرَضِي، فلمّا رجعتُ

---

(١) كان الذي تَولى كِبْرَه ومُعْظَمَ هذا الافتراء عبدُ الله بن أبي ابن سلول، فإنّه كانَ أوّل من أشاعَه في العسكر، فقد كان ينزل مع جماعةِ المنافقين مُتَبَدِّينَ مِن النّاس، فمَرَّتِ السَّيّدةُ عائشةُ رضي الله عنها، فلمّا رآها قال: مَن هذِه؟ قالوا: عائشةُ وصفوان. فقال: فَجَرَ بها ورَبِّ الكَعْبَة، والله ما نَجَتْ منه ولا نَجَا منها. وصارَ يقول: امرَأةُ نبيّكم باتتْ مع رَجُلٍ حتّى أصبحا!. ثم أَشاعَ ذلك في المدينة بعد دخُولِهم لها وصارَ يستخرجُ الحديثَ بالبَحْثِ والسُّؤالِ عنه، ويَسْتَحْكِيه من غَيرِه لِيُكثِّرَ إشَاعَتَه ويَسْلَمَ مِنْ تَبِعَتِه؛ لِشِدّةِ عداوَته للنَّبِيِّ ﷺ.

إلى بيتي مكثتُ تلك اللّيلةَ حتَى أصبحتُ، لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بنومٍ، ثُمّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، ودخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ، وقال بعدَ أَنْ سَلّمَ: «كَيْفَ تِيكُمْ»؟، فقلتُ: أتأذنُ لي أَنْ آتيَ بيتَ أَبوَيّ؟، فَأَذِنَ لي.

فجئتُ أبوَيّ، فدخلتُ الدّارَ فوجدتُ أمَّ رُومَان في السّفل وأبا بكر فوق يَقْرَأُ، فَقَالَتْ أمّي: مَا جَاءَ بكِ؟، فقُلْتُ لِأُمّي: يَغْفِرُ الله لَكِ، تَحَدّثَ النّاسُ بِمَا تَحَدّثُوا بِهِ وَلَا تَذْكُرِينَ لِي مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً، فَقَالَتْ: يا بُنَيّةُ خَفِّضِي عَلَيكِ الشَّأْنَ، فوَ الله لَقَلّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ إلّا كَثّرْنَ وَكَثّرَ النّاسُ عَلَيْهَا، فقلتُ: سُبْحَان الله!، ولقَدْ تحدَّثَ النّاسُ بهذا؟، ثُمَّ قلتُ: وقد عَلِمَ به أَبي؟، قالتْ: نعَمْ، قلتُ: ورَسُولُ الله؟، قالت: نَعَمْ، فاسْتَعْبَرْتُ وبكيتُ، فسمع أبو بكر صوتي، فنزل فقال لأمي: مَا شَأْنُها؟، فَقَالَتْ: بلغها الذي ذُكِرَ مِن شأنِها، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ، فبكيتُ تلك الليلةَ حتّى أصبحتُ لا يَرْقَأ لي دَمْعٌ، ولا اكتحلتُ بنومٍ، وفي الليلةِ الثانيةِ كذلك، ولما أَصْبحتُ أَصْبَحَ أَبوَايَ عندي يَظُنّان أنّ البكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فبينما هما جالسَان عندِي وأنا أبكي، وهما يَبكِيَان، وأهل الدّار يبكون، فاستأذنتْ عَلَيَّ امرَأَةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلسَتْ تبكِي مَعِي، فبينما نحنُ على ذلك إذْ دَخَلَ علينا رَسُولُ الله ﷺ فسَلّمَ، ثُمّ جَلَسَ، ولَمْ يجلسْ عندي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيل، وقد لَبِثَ ﷺ شَهْراً لَا يُوحَى إِليهِ في شَأْني، فتَشَهَّدَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ جلسَ. ثم قالَ: «أَمَّا بَعدُ يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمْمتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى الله تَعَالى تَابَ الله عَلَيهِ»، فلما قَضَى رَسُولُ الله ﷺ مقَالتَه قَلَصَ دِمْعِي، حتّى ما أُحِسُّ منه

بقَطْرَةٍ، فقلتُ لأبي: أَجِبْ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما قال. فقال: والله لا أدري ما أقولُ لرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، فقلت لأمي: أجيبي رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَتْ: والله ما أدري ما أقولُ لرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، فقلتُ: لقد سمعتم هذا الحديثَ حتّى استقرَّ في نفوسِكم، فلئن قلتُ لكم: إنّي بريئةٌ ـ والله يعلم إني بَريئة ـ لا تُصَدِّقُونني بذلك ولئن اعترفت لكم بأمْرٍ ـ والله يعلم أني منه بريئة ـ لتُصَدِّقُنِّي، فوَ الله لا أَجِدُ لي ولكم مَثلاً إلا قول أَبي يوسف ﷺ، إذْ يقولُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثم تحوّلْتُ فاضْطَجَعْتُ على فِرَاشِي، وما كنتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ يُنْزِلُ في شَأنِي وَحْياً يُتْلَى، ولشَأْني في نفسِي كانَ أحقرُ مِن أَنْ يتكلّمَ الله فيَّ بأمرٍ يُتْلَى، وكنتُ أرجو أنْ يَرَى رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُؤْيَا في النّومِ يُبَرِّئُنِي الله بها.

فأخذَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا كانَ يأخذُه عند نُزُولِ الوَحْيِ من شِدَّةِ الكَرْبِ، فَسُجِّيَ بِثَوبِه، وَوُضِعَتْ له وِسَادَةٌ مِن أُدُمٍ تحتَ رأسِه، فأمّا أنا حِين رأيتُ من ذلك مَا رَأيتُ، فوَ الله ما فَزِعْتُ، لأنّي قَدْ عَرَفْتُ أنّي بَرِيئَةٌ، وأَنَّ اللهَ غيرُ ظَالمي، وأمَّا أبوَايَ فوَ الذِي نَفْسُ عائشةَ بيَدِه مَا سُرِّيَ عَن رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتّى ظَنَنتُ لتَخْرُجنَّ أَنفُسُهما فَرَقاً مِن أَنْ يأتيَ مِنَ الله تحقيقُ مَا قالَ النّاسُ، فلما سُرِّيَ عَن رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُرِّيَ عنه وهوَ يَضْحَكُ، وإنَّهُ ليَنْحَدِرُ منه العَرَقُ كالجُمَانِ، فجعلَ يمسحُ العَرَقَ عن وجْهِه الكريم، فكانَ أوّلُ كلمةٍ تكلّمَ بها: «يَا عَائِشَةُ؛ أَمَا إِنَّ اللهَ قَدْ بَرَّأَكِ»، فَقَالَتْ أمّي: قومِي إليهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ: وَالله لَا أَقُومُ إِلَيه ولا أحمدُ إلّا الله، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ

مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١١]، إلى آخر الآيات العشر).

وبعد نزولِ آياتِ الإفك خرجَ رَسُولُ الله ﷺ إلى النّاسِ، وخطَبَهم، وتلا عليهم الآيات، وأمرَ بجَلْدِ أَصْحَابِ الإفكِ، وهم: عبد الله بنُ أُبَيٍّ، ومِسْطَحُ بنُ أُثَاثَة، وعُبَيدُ الله بنُ جحش، وحَمْنَةُ بنتُ جَحْش، فجلدوا الحدَّ، وهو ثمانون جلدةً. وقيل: أنّ الخبيثَ عبدَ الله بنَ أُبيّ بن سلول لم يُحَدْ، لأَنَّ الحدَّ كفَّارَةٌ وليسَ من أهلها. وقيل: لأنه لم تَقُمْ عليه البَيّنة بذلك بِخِلَافِ أولئك لأنه كانَ لا يأتي بذلك على أنه من عندِه بل على لِسَان غيرِه. وذُكِرَ أنّ صفوانَ بنَ المُعَطّل رضي الله عنه الذي كان حديث الإفك بسَبِبه ظَهَرَ أنه كانَ عِنّيناً لا يأتي النّسَاءِ، وأنه ما كشَفَ كنيفَ امرَأَةٍ قَطّ.

وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفقُ على مِسْطَح لقَرابتِه منه ولفَقرِه، فحلفَ لا ينفقُ عليه، وقال: والله لا أنفقُ على مِسْطَحٍ أبداً، ولا أنفعه بنفعٍ أبداً بعد ما قال في عائشةَ ما قال، وما أدخل علينا. وأخرَجَه مِن منزلِه، وقال له: لَا وَصَلْتُكَ بِدِرْهَمٍ، ولَا عَطَفْتُ عليك بِخيرٍ أَبداً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، وعندَ ذلك قال النّبِيُّ ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أَمَا تُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكَ»؟. قال أبو بكر رضي الله عنه: والله إِنّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ لي، فرجعَ إلى مسطح بالنّفقةِ التي كان ينفقُ عليه، وأضعفَ له في النّفقةِ التي كان يعطيه إيّاها قبل القذفِ. وقال: والله إِنِّي لا أَنْزِعُهَا عنه أبداً.

وقد كان النبيُّ ﷺ لما أبطأ عليه الوحيُ استشارَ بعضَ الصَّحابة في

شأنِ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فقال له عمرُ رضي الله عنه: مَن زَوَّجَهَا لكَ يا رسُولَ الله؟، قال: «الله تَعالَى»، فقال: أَفَتَظُنُّ أَنّ الله دَلَّسَ عليك فيها؟، سبحانك هذا بهتان عظيم. ودعا صلى الله عليه وسلم عليَّ بنَ أبي طالب كرم الله وجهه وأسامةَ بنَ زيد رضي الله عنهما ليستأمرَهما في فراقِ عَائِشَةَ، فأمّا أسامة بن زيد، فقال: أَهْلُكَ يا رسولَ الله، ولا نعلمُ إلّا خيرًا. وأما عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرّم الله وجهه فقال: يا رسولَ الله لم يُضَيِّقِ الله عليك والنِّسَاءُ سِوَاها كثيرٌ، وإنك لَتَقْدِرُ أَنْ تَسْتَخْلِفَ، قَدْ أَحَلّ الله لك، فطلّقها وأنكحْ غيرَها، وإنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. فدعا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم الجَارِيَةَ بَرِيْرَةَ، فقال: «هَلْ رَأَيتِ مِنْ شَيءٍ يُرِيبُكِ»؟، فَقَالَتْ بَرِيرَةُ: والذي بعثك بالحقِّ ما رأيت عليها أمراً أَغْمِصُه عليها أكثرَ مِن أنّها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، تنامُ عَن عجِينِ أهلِها، فتأتي الدَّاجِنُ فتأكله، والله لا أعلم عليها إلّا خيراً، والله يا رسولَ الله لَئِنْ كانت على غيرِ ذلك لَيُخْبِرُكَ الله بذلك.

وكان صلى الله عليه وسلم يسألُ أُمَّ المؤمنينَ زينبَ بنتَ جَحْشٍ عَن أَمْرِ عائشة، فيقولُ: «مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيتِ»؟، فتقول: يا رسولَ الله، أَحْمِي سَمْعِي وبَصَرِي، ما علمتُ إلّا خيراً، والله ما أُكَلِّمُها، وإنّي لمُهَاجِرَتُهَا، وما كنتُ أقولُ إلّا الحَقَّ. قالت عائشةُ: وهيَ التي كانت تُسامِيني مِن أزواجِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ـ أي تُعَادِلُنِي في المنزلةِ وَالمَحَبَّةِ عندَه صلى الله عليه وسلم ـ فعَصَمَها الله تعالى، ولمْ أَرَ امْرَأَةً قَطُّ خَيراً من زينبَ في الدّينِ، وأصدَقَ حديثاً، وأوصلَ للرّحِمِ، وأعظمَ صَدَقةً، وأَشَدَّ ابتذالاً في العمل الذي يُتَقَرَّبُ به إلى الله.

وعند اسْتِلْبَاثِ الوَحْي وتأخرِّهِ قامَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في النّاسِ وخَطَبَهُم، فحَمِدَ اللهَ وأثني عليه، ثم قال: «أَيّهَا النّاسُ مَا بَالُ رِجَالٍ يُؤْذُونَنِي فِي أَهْلِي،

وَيَقُولُونَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الحَقِّ ؟ وَاللهِ مَا عَلِمْت مِنْهُمْ إِلّا خَيْراً ، وَيَقُولُونَ ذَلِكَ لِرَجُلٍ وَاللهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ إِلّا خَيْراً ، وَمَا يَدْخُلُ بَيْتاً مِنْ بُيُوتِي إِلّا وَهُوَ مَعِي» ، ثُمَّ اسْتَعْذَرَ من عبدِ الله بن أُبَيٍّ بنِ سَلول ، فقال وهو على المنبر: «مَنْ يَعْذِرُنِي أَنْ يُنْصِفَنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي» ؟ ، فقامَ سَعدُ بن معاذ سَيّدُ الأوس ، فقال: يا رسولَ الله ؛ أنا أعذرك منه ، إنْ كان من الأوس ضربتُ عنقَه ، وإن كان من إخواننا من الخزْرَج أَمَرْتَنا ففعَلْنا أَمْرَك . فقام سَعدُ بنُ عُبادة وهو سَيِّدُ الخزرج وكان رجلاً صالحاً ، ولكِنّ احتَمَلَتْهُ الحَمِيّةُ فقال لسعدِ بنِ معاذ: كذَبْتَ لَعَمْرُ الله لا تقتلُه ولا تقدرُ على قتْلِه ، فقام أسيد بن حضير ، فقال لسعدِ بن عُبادَة: كذَبْتَ لَعَمْرُ الله لنَقْتُلَنّه وأَنْفُكَ رَاغِم ، فإنك مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عنِ المنافقين ، وثارَ الحيَّانِ الأوس والخزْرَجِ حتّى همّوا أَنْ يقتتلوا ، ورَسُولُ الله ﷺ قائمٌ على المنبر ، فلم يَزَلْ يخفضهم حتى سَكتُوا .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لم تَبْغِ امرَأَةُ نبيٍّ قَطّ . وأمَّا قولُه تعالى في حَقِّ امْرَأَةِ نوحٍ وامْرَأَةِ لوطٍ: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠] فالمراد: آذَتَاهُما . قالتِ امْرَأَةُ نُوح عليه السلام في حقه: إنّه لمجنونٌ ، وأما امرأة لوط عليه السلام فدَلّتْ على أضيافَه". وفي الخصائص الصغرى: "ومَن قَذَفَ أَزْوَاجه ﷺ فلا توبةَ له أَلْبَتَّةَ ، كما قاله ابنُ عباس وغيرُه ، ويُقْتَلُ كما نقلَه القاضي عياض وغيره. وقيل: يختص القتل بمن قذفَ عائشةَ ، ويُحَدَّ في غيرِها حَدَّين" .

وقد وقعَ أَنَّ الحسَنَ بنَ يزيدٍ الرَّاعي ، وكان من عُظماءِ أهل طَبَرِسْتَان ، وكان يرسلُ في كلّ سَنة إلى بغداد عشرين ألف دينار تُفَرَّقُ على أولادِ الصّحابة ،

فحضر عنده رجلٌ من أَشْيَاعِ العلويِّين، فذكرَ عائشةَ رضي الله عنها بالقبيح، فقال الحسَنُ لغُلامِه: يا غُلامُ، اِضْرِبْ عُنُقَ هذا. فنهَضَ إليه العلويُّونَ، وقالوا له: هذا رَجُلٌ من شِيعَتِنا. فقال: مَعاذَ الله، هذا طَعَنَ على رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]، فإنْ كانتْ عائشةُ رضي الله عنها خبيثةً فإنَّ زوجها يكونُ خبيثاً، وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك، بل هو الطَّيِّبُ الطَّاهر، وهي الطَّيِّبَةُ الطَّاهرةُ المبرَّأَةُ من السَّماء، يا غُلَامُ اِضْرِبْ عُنُقَ هذا الكافر. فضرَبَ عُنُقَه.

وفي هذِه الغَزْوَةِ وقيلَ في غيرِها فَقَدَتْ عائِشَةُ رضي الله عنها قِلَادَةً فاحتبَسُوا على طَلَبِها والتِمَاسِها وحَضَرَتْ صَلَاةُ الصّبح وكانوا على غَير ماءٍ، فجاءَ النّاسُ إلى أبي بكر رضي الله عنه وشكوا إليه ما نزلَ بهم، فجاءَ إلى عائِشَةَ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم واضعٌ رأسَه الشّريفَ على فخذِها وقد نَامَ، فقالَ لها: حَبَسْتِ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم والنّاسَ، وليسوا على ماءٍ، وليسَ معهم ماءٌ، ثم جعل يَطْعَنُ بِيَدِه في خَاصِرَتِها، ويقولُ: يا بُنَيَّةِ في كلّ سَفْرَةٍ تكونين عناءً وبلاءً. فَقَالَتْ عائِشَةُ: فلا يمنعني من التّحركِ إلا مكانُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم على فخذي. ولأنه صلى الله عليه وسلم كانَ إذا نام لا يُوقِظُهُ أَحَدٌ حتّى يكونَ هوَ الذِي يَسْتَيقِظُ، لأنهم لا يَدْرُونَ مَا يَحْدُثُ له في نومِه، فاسْتَيقَظَ صلى الله عليه وسلم، وأنزل الله تعالى الرُّخْصَةَ بالتَّيمُّم، بقولِه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: ٤٣]، فقال لها أبو بكرٍ عند ذلك: والله يا بنية إنَّكِ مُبارَكَةٌ. وقال لها صلى الله عليه وسلم: «مَا أَعْظَمَ بَرَكَةَ قِلَادَتِكِ»، وقال أُسَيدُ بنُ حُضَير: مَا هَذا بأوّلِ بركتكم يا آلَ أبي بكرٍ. وقال لها:

جَزَاكِ الله خيراً، فما نَزَلَ بكِ أمرٌ تكْرَهِينَه إلّا جَعَلَ اللهُ لكِ منه مخرجاً، وللمسلمين فيه خيراً. ولما نزلتْ آيةُ التيمم، وأرادوا الرّحيل، أثاروا البعيرَ الذي تركبُ عليه عائشةُ من مَبْرَكِهِ، فوجدوا القِلَادَةَ تَحْتَه!.

١٩ ـ غَزْوَةُ الخَنْدَق

ويُقال لها: غَزْوَةُ الأحزاب. وهي الغَزْوَة التي ابْتَلَى الله تعالى فيها عبادَه المؤمنين وثَبَّتَ الإيمانَ في قلوبِ أوليائِه المتقين، وأظهرَ ما كان يُبْطِنُه أهلُ النّفاق والشقاق والمعاندون.

وسببُها أنه لما وقعَ إِجْلَاءُ بَنِي النَّضِير من أماكنهم، سار منهم جمْعٌ من كُبَرَائِهم، منهم: حييُّ بن أخطب، وسَلّامُ بن مُشْكِم، وكِنَانة بن أبي الحُقَيق، وهَوْذَةُ بنُ قيس، وأبو عامر الفَاسق، إلى أَنْ قَدِمُوا مَكَّةَ، يدعون قريشاً، ويحرِّضُونهم على حربِ رَسُولِ الله ﷺ، وقالوا: إنا سَنكونُ معكم عَليهِ حتّى نَسْتَأصِلَه. فقال أبو سُفْيَانَ: مَرْحَباً وَأَهْلاً، أحبُّ الناسِ إلينا من أعاننا على عداوة محمّدٍ، ولكن لا نأمَنكم إلّا إنْ سَجَدتم لآلهتنا حتى نَطْمَئِنَّ إليكم. ففعلوا. فَقَالَتْ لهم قريش: يا معشرَ يهُود، إنكم أهل الكِتَاب الأوّل والعلم، فأخبرونا عمّا أصبحنا نختلفُ فيه نحنُ ومحمّدٌ، أفديننا خيرٌ، أمْ دينُ محمّدٍ؟، أنحنُ أهدَى سبيلاً أمْ محمّدٌ؟، فقالوا لهم: بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحق، وأهدى سبيلا منه، لأنكم تعظمون هذا البيت، وتقومون على السّقاية، وتنحرون البُدْنَ، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم. وقد أنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ

﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. ولما قالوا ذلك لقريش سَرَّهم ونَشَّطَهم لما دعوهم إليه من حربِ رَسُولِ الله ﷺ.

وعند ذلك خرجَ من بطون قريش خمسون رجلاً، وقد ألصقوا أكبادَهم بالكعبة متعلقين بأستارِها، وتحالفوا على: أَنْ لا يخذلَ بعضُهم بعضاً، وعلى أن يكونوا كلهم يداً واحدة على محمد ﷺ ما بقي منهم رجل. ثم جاءَ أولئك النَّفَرُ إلى غَطَفَان، ودعوهم وحرّضُوهم على حربِ رَسُولِ الله ﷺ، وقالوا لهم: إنّا سنكونُ معكم، وإنّ قُرَيْشاً قد بايعوا على ذلك، فبايعوهم على ما بايعت عليه قريش. وجعلوا لهم تمْرَ خَيْبَر مُدّةَ سنةٍ إنْ هم نصروهم، ثم تجهزّت قريشٌ وأتباعُها من القبائل، وغَطَفَانُ وأتباعُها من القبائل، وكان قائدَ قريشٍ أبو سُفْيَانَ بنُ حرب، وكانوا أربعة آلافٍ، ومعهم ثلاثمائة فَرَس، وألفُ بعيرٍ، وعُقِدَ اللّواءُ في دار الندوة، وحمله عثمانُ بنُ طلحة بن أبي طلحة المقتول والده يوم أحد.

وكان قائدَ غَطَفَانَ عُيَينَةُ بنُ حِصْن الفَزَارِيّ في بني فَزَارَةَ وهم ألفٌ، وقائدَ بني مُرّةَ الحَارِثُ بن عَوف المرّي، وكانوا أربعمائة، وقائدَ بَنِي سُلَيم سُفْيَانُ بنُ عبدِ شمس، وكانوا سبعمائة، وقائدَ بني أَشْجَعَ أبو مَسْعُود بنُ رُخَيْلَةَ، وقَائِدَ بني أَسَد طُلَيْحَةُ بنُ خُوَيلِدِ الأَسَدَيّ، وكانت أَشْجَعُ وبنُو أَسَد تَتِمّةَ العَشرة آلاف، فقد كانت الأحزاب عشرة آلاف، وكان المدبّر لأمرهم والقائم بشأنهم أبو سُفْيَانَ بنُ حرْب.

ولما تهيّأتْ قُرَيشٌ للخُروجِ أَتى رَكْبٌ من خُزَاعَةَ في أربعةِ ليَالٍ حتّى أخبروا رَسُول الله ﷺ بما أجمعوا عليه، فأَخبرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه خبرَ عدوِّهم، وشاوَرَهم في أمرِهم، فقال لهم: «هَلْ نَبْرُزُ مِنَ المدِينَةِ أَمْ نَكُونُ فِيهَا»؟،

فَأُشِيرَ عَليهِ بالخَنْدَقِ ؛ أشارَ عليه بذلك سَلْمَانُ الفَارِسيُّ رضي الله عنه . فقال: يا رسولَ الله ، إنّا كنّا بأرض فارس إذا تَخوّفْنَا الخيلَ خَنْدَقنَا علينا . فأعجبَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ذلك ، فقامَ صلى الله عليه وسلم ، وركِبَ فَرَساً له ومعه عدَدٌ من المهاجرين والأنصار ، فارْتَادَ موضعاً ينزلُ فيه ، وجعل سَلْعاً خَلفَ ظهرِه ، ثم شرعوا في حفرِ الخنْدَق ، وأمرَهم صلى الله عليه وسلم بالجِدِّ ، ووعدَهم بالنّصر إنْ هُم صَبَرُوا ، وعَمِلَ فيه رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين ، فكان يحملُ التُرابَ على ظهرِه الشريف ، ودَأَبَ المسلمون يُبَادِرُونَ قُدومَ العَدُوِّ . واستعاروا من بَنِي قُرَيْظَة آلَةً كثيرةً ؛ من مَسَاحِي ومَكَاتِل ، وغيرها .

ولما بدأ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بالحَفْرِ في الخَنْدَق قال:

«بِسْـــمِ الإِلَـهِ وَبِـهِ بَـدِينَـا   وَلَوْ عَبَـدْنَـا غَيْرَهُ شَـــقِينَـا

يَـا حَبّذَا رَبّـاً وَحَـبَّ دِيْنَـا»

وكان من جملة من يعمل في الخَنْدَق: جِعَالُ أو جُعَيلُ بنُ سراقة ، وكان رجلاً صالحاً من أصحاب الصُّفّة ، فغير صلى الله عليه وسلم اسمه وسماه عَمْراً ، فجعل المسلمون يَرْتَجِزُونَ:

سَـــمَّاهُ مِنْ بَعْدِ جُعَيْلٍ عَمْرا   وَكَـانَ لِلْبَـائِسِ يَوْمـاً ظَهْرَا

وصارَ صلى الله عليه وسلم إذا قالوا: عمرا ، قال: «عَمْرا» ، وإذا قالوا: ظهرا: قال: «ظَهْرا»! .

وحصلَ للصَّحَابةِ رضي الله عنهم تَعَبٌ وجوعٌ شديد ؛ لأنهم كانوا في زَمَنِ عُسْرَةٍ وعام مجَاعَةٍ ، فلما رأى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ما بأصحابه من النّصَبِ والجوع قال متمثلاً:

«اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةْ فَارْحَمِ الأَنْصَارَ وَالمُهَاجِرَةْ»

وقد تقدّم نحوُ هذا في بناءِ المسجد النبويّ، وزاد في "الإمتاع": أنه كان يقول:

«اللَّهُمَّ الْعَنْ عُضْلاً وَالقَارَةْ هُمْ كَلَّفُونَا نَنْقُلُ الحِجَارَةْ»

قال الحافظ ابن حجر: ولعلّ أصل الرَّجَزِ كان: «وَالْعَنْ إِلَهِيْ عُضْلاً وَالقَارَة». ثم حصل التغيير منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ـ كما حصل من التغير في: «لَا هُمَّ»، وقد تقدم بيان السبب عند ذكرِ بناء المسجدِ النبوي ـ، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم يُجبُوه بقولهم:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وكان رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ مُتَمَثِّلاً بقولِ عبدِالله بنِ رواحة: وهو ينقل التّراب، وقد وارَى الغبارُ جِلْدَ بطنِه الشّريف:

«اللَّهُمَّ لَوْلَا أنتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

وَالمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا»

وجعل رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُدّ بها صوته مُكَرّراً لها، ويقول: «أَبَيْنَا.. أَبَيْنَا».

وصار الرّجلُ من الصحابة إذا نَابَتْهُ النّائبةُ مِن الحاجَةِ التي لا بُدّ له منها؛ يذكر ذلك لرَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويستأذنُه في اللّحوقِ بها، فإذا قضى حاجتَه رجع إلى ما كان عليه من عمله رَغْبَةً في الخيرِ، وتباطَأ رِجَالٌ من المنافقين،

وصارَ الواحدُ منهم يتسلّلُ إلى أهلِه من غير استئذانٍ له ﷺ. وكان زَيدُ بنُ ثابتٍ ممن يَنْقُلُ التّرابَ وهو صغيرٌ، فقال رَسُولُ الله ﷺ في حَقِّه: «أَمَا إِنَّهُ نِعْمَ الغُلَامُ»، وغَلَبَتْهُ عَينُه وهو يحفِرُ، فنَام في الخَنْدَق، فأخذَ عُمَارةُ بنُ حَزْمٍ سِلَاحَهُ وهوَ نَائِمٌ، فلمّا قَامَ فَزِعَ على سِلَاحِه، فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «يَا بَارٌّ؛ قَدْ نِمْتَ حَتّى ذَهَبَ سِلَاحُكَ»!، ثم قال: «مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِسَلَاحِ هَذَا الغُلَامِ»؟، فقال عُمَارَةُ: أنا يا رسول الله، وهو عندي. فقال له: «رُدَّهُ عَلَيهِ»، ونهى ﷺ أَنْ يُرَوَّعَ المسلمُ، أو أَنْ يُؤْخَذَ مَتَاعُه، ولو لَعِباً ومزاحاً.

واشتدّتْ على الصّحابةِ ﷺ في حَفرِ الخَنْدَق كُدْيَةٌ، فشكوا ذلك لرَسُولِ الله ﷺ، فأخذَ المِعْوَلَ، وضربَها فصَارتْ كَثِيباً أَهْيَلَ ـ أي رَمْلاً سَائِلاً ـ.

وعن سلمان الفارسي ﷺ قال: ضربتُ في ناحية من الخَنْدَق، فغَلُظَتْ عليَّ، ورَسُولُ الله ﷺ قريبٌ مني، فلمّا رآني أضربُ، ورَأى شدّة المكان عليَّ، نزل فأخذَ المعولَ من يدي فضربَ به ضربةً لمَعَتْ تحتَ المِعْوَلِ بَرْقَةٌ، ثمّ ضربَ به أخرى فلمَعَتْ تحته بَرْقَةٌ أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت بَرْقَةٌ أخرى، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، ما هذا الذي رأيت يلمعُ تحت المعول وأنت تضرب؟، فقال لي: «أَوَ قَدْ رَأَيْتَ ذَلِكَ يَا سَلْمَان»؟!، فقلت: نعم. قال: «أَمّا الأُوْلى؛ فَإِنّ الله تعَالى فتَحَ عَليَّ بِهَا اليَمَنَ، وأمّا الثانية؛ فَإِنَّ الله تعَالى فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا الشَّامَ وَالمغرِبَ، وأَمّا الثَّالِثَةُ؛ فَإِنَّ الله تعَالى فَتَحَ عَلَيَّ بِهَا المَشْرِقَ».

ورُوِيَ: أن النبيَّ ﷺ لما أخذَ المعولَ من سلمان، قال: «بِسْمِ الله»، ثم ضَرَبَ ضربةً فكسر ثلثها، فبرقت برقة فخرج نور قبل اليمن كالمصباح في جوفِ ليل مُظلم، فكبّر رَسُولُ الله ﷺ، وقال: «أُعْطِيْتُ مَفَاتِيحَ اليَمَن، إِنّي

لَأُبْصِرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي السَّاعَةَ». ثم ضربَ الثانيةَ، فَقَطِعَ ثُلثٌ آخر، فخرج نور قبل الرّوم، فكبّر رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «أُعْطِيْتُ مَفَاتِيحَ الشام، والله إِنّي لَأُبْصِرُ قُصُورَهَا». ثم ضرب الثالثة، فقطع بقيتها، وبرقت برقة، فكبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «أُعْطِيْتُ مَفَاتِيحَ فَارِس، والله إِنّي لَأُبْصِرُ قُصُورَ الحِيرَةِ، ومَدَائِنَ كِسْرَى مِنْ مَكَانِي هَذَا»، ثم جعل يصفُ لسلمانَ أماكن فارس، وسلمانُ يقول: صدقْتَ يا رسولَ الله، هذه صفتها، أشْهَدُ أنك رسولُ الله، ثم قال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذِهِ فُتُوحٌ يَفْتَحُهَا الله بَعْدِي يَا سَلْمَان».

وعند ذلك قال جمع من المنافقين: ألا تعجبونَ من محمَّدٍ، يُمَنِّيكُم ويَعِدُكم البَاطلَ، ويخبركم أنه يبصرُ من يثرب قصورَ الحِيرَةِ ويبصرُ مدائنَ كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخَنْدَق من الفَرَق ـ أي من الخوف ـ، لا تستطيعون أن تبرزوا وتقضوا حاجتكم.

وقد ذُكِرَ أن المهاجرين والأنصار تنافسُوا في سلمانَ الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فالمهاجرون قالوا: سلمان منّا. وقالت الأنصارُ: سلمان منّا. فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْت»، وإنما وقع التّنافس في سلمانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ لأنه الذي أشارَ بحفرِ الخَنْدَقِ، ولأنه كان رجلاً قويّاً يعمل عمَل عشرة رجال في الخَنْدَقِ، فكان يحفرُ في كل يوم خمسة أذرع في عمق خمسة أذرع حتّى أُصِيبَ بالعين، قيل: أصابه بالعين قيسُ بنُ صَعْصَعَةَ، فصرع فجأة وتَعَطّلَ عَنِ العَمَل، فأُخْبِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فقال لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوهُ فَلْيَتَوَضَّأ وَلْيَغْتَسِلْ، وَيُكْفِئُ الإِنَاءَ خَلْفَ ظَهْرِهِ»، ففعل، فكأنما نشط من عقال.

ومما وقع من الآيات في مُدّةِ حَفْرِ الخَنْدَقِ: أنّ بنتَ بشير بن سعد جاءت

لأبيها وخالها عبد الله بن رواحة بحفنة من التّمر ليَتَغَذَّيَا بها، فقال لها رَسُولُ الله ﷺ: «هَاتِيه»، فصَبّته في كفَّي رَسُولِ الله ﷺ فما ملأهما، ثم أمرَ بثوبٍ فبُسِطَ له، ثم قال لإنسان عنده: «اصْرُخْ فِي أَهْلِ الخَنْدَقِ أَنْ هَلُمُّوْا إِلَى الغَدَاءِ»، فاجتمع أهلُ الخَنْدَق عليه فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صَدَرَ أهلُ الخَنْدَق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب؛ فإن أهل الخَنْدَق أصابتهم مجاعة. قال بعضُ الصّحابة: لَبِثْنا ثلاثةَ أيام لا نذوقُ زاداً، ورَبَطَ ﷺ الحجرَ على بطنِه من الجوع.

ولما عَلِمَ جابرُ بنُ عبد الله رضي الله عنهما بما به ﷺ من شدّة الجوع، صنع شُوَيْهَةً وصَاعاً من شعير. قال جابر: وإنما أريدُ أَنْ ينصرفَ رَسُولُ الله ﷺ معي وحْدَهُ. فلما أخبرْتُه أَمَرَ صارخاً فصرخ: أَنِ انْصَرِفُوا مع رَسُولِ الله ﷺ إلى بيت جابر بن عبد الله. قال جابر: فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فأقبل الناس معه، فجلس ﷺ، فسمى الله تعالى، ثم أكل، وتواردها النّاس، كلما فرغ قوم قاموا، وذهبوا إلى الخَنْدَق وجاءَ آخرون، حتى صَدَرَ أهلُ الخَنْدَق عنها وهم أَلْفٌ، فأقسمُ بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانصرفوا، وإِنَّ برمتنا لتَغِطُّ كما هي، وإِنَّ عَجِينَنا لَيُخْبَزُ كما هو.

وفي رواية: أنّ جابراً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه لما رأى ما به ﷺ من الجوع استأذن رَسُولَ الله ﷺ في الانصراف إلى بيته، فأذن له. قال جابرٌ: فجئتُ لامرأتي وقلتُ لها: إني رأيتُ برَسُولِ الله ﷺ خَمَصاً شدِيداً، أفعندكِ شيء؟، قالتْ: عندي صاعٌ من شعيرٍ وَعَنَاقٌ، فذبَحْتُ العَنَاقَ، وطَحَنَتِ الشّعيرَ، وجعلتُ اللّحمَ في بُرْمَةٍ، فلمّا أمسينا، جئتُ إلى رَسُولِ الله ﷺ

فسَارَرْتُه، وقلتُ له: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنتَ يا رسولَ الله، ورَجُلٌ أو رجلان، فشبَّكَ ﷺ أصابعَه في أصابعي، وقال: «كَمْ هُوَ»؟، فذكرتُ له، قال: «كَثِيرٌ طَيِّبٌ، لَا تَنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُم وَلَا تَخبِزُنَّ عَجِينَكُم حَتَّى أَجِيءُ»، وصاح رَسُولُ الله ﷺ: «يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إنّ جَابِراً قَدْ صَنَعَ لَكُمْ سُؤْراً ـ أَيْ ضِيَافَةً ـ فَحَيَّهَلَا بِكُمْ»، وسارَ ﷺ يَقْدُم النّاسَ، فلقيتُ من الحياءِ ما لا يعلمُه إلّا الله، وقلتُ: والله إنها لفَضِيحَةٌ، فأخرجتُ له عجيننا فبصقَ فيه وبارَكَ، ثمّ عَمَدَ ﷺ إلى بُرْمَتِنَا فبصقَ فيها وبارَك، ثُمَّ قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ادْخُلُوا عَشَرَةً عَشَرَةً»... الحديث.

وقد كان أَحَدُ جَوَانب المدينة عَوْرَةً، فاختارَ رَسُولُ الله ﷺ ذلك الجانب للخَنْدق، وكانت سائرُ جوانب المدينة مُشْتَبِكَةٌ بالبُنيان والنّخيل، لا يتمكن العدو منها، فلما تمّ حَفْرُ الخَنْدَقِ صارتِ المدينةُ كالحِصْن.

ومكثَ رَسُولُ الله ﷺ في عمَل الخَنْدَقِ قريباً مِن شهرٍ، ولما فَرَغ من حَفْرِ الخَنْدَقِ أقبلَتْ قريشٌ ومَن معَها، وكانوا عشرةَ آلافٍ كما تقدّم، فنزلتْ قُرِيشٌ بمجمع الأَسْيَال، ونزلتْ غَطَفَانُ ومن معهم إلى جانب أُحُدٍ، وكان المسلمون ثلاثةَ آلافٍ، فعسكرَ بهم ﷺ على سَفْحِ سَلْعٍ، وهو جَبَل فوق المدينة، فجعل ظهرَ عَسْكَرِهِ إلى سَلْع، والخَنْدَق بينه وبين القوم، وضُرِبَتْ له ﷺ قبّةٌ مِن أُدُمٍ، وكان ﷺ يُعْقِبُ فيها بينَ نِسَائِه، ثمّ جعلَ ﷺ سَائِرَ نسائِه في بني حارثة، وجعلَ النّساءَ والذّرارِي في الآطَام، ثم اسْتَعْرَضَ الغِلْمانَ وقد كانوا شاركوا في حَفْرِ الخَنْدَق بأجمَعِهم مَن بلغَ ومَن لم يبلغْ الكلّ كانوا يعملون فيه، فلما تَمَّ الحفْرُ أَمَرَ ﷺ مَن لم يبلغْ خمْسَ عشرة سنةً




أَنْ يرجعَ إلى أهلِه، وأجازَ مَن بلغَ خمسَ عشرة سنة.

واستخْلَفَ ﷺ على المدينةِ ابنَ أمّ مكتوم رضي الله عنه، وأرْسَلَ سُلَيطاً وسُفْيَانَ بنَ عَوْفٍ طَلِيعَةً للأَحْزَابِ، فقتَلُوهمَا، فَأُتِيَ بهما رَسُولُ الله ﷺ، فدفنهما في قبرٍ واحِدٍ، وأعطى لواءَ المهاجرين لزيدِ بنِ حارثةَ ولواءَ الأنصارِ لسَعْد بنِ عُبَادة، وبعثَ مَسْلَمَةَ بنِ أَسْلَمَ في مائتي رَجُلٍ، وزيدَ بنَ حَارِثَة في ثلاثمائةِ رُجُلٍ يحرسونَ المدينة، ويُظْهِرُونَ التّكبيرَ تَخَوُّفاً عَلَى الذَّرَارِي مِن بَنِي قُرَيْظَة لمّا بلغَه ﷺ أَنّهم نقضُوا ما بينه وبينهم من العَهْد، وأنهم يريدون الإغارةَ على المدينةِ، فإنّ حُيَيَّ بنَ أَخطَبٍ أرْسَلَ إلى قريشٍ أَنْ يأتِيَه منهم ألفُ رَجُل، وإلى غَطَفَانَ أَنْ يأتيَه منهم ألفُ رَجُلٍ أخرى ليُغِيرُوا على المدينة، وجاءَ الخبر بذلك إلى رَسُولِ الله ﷺ، فَعَظُمَ البَلَاءُ، وصارَ الخوفُ على الذَّرَارِي أَشَدّ من الخوفِ على أَهْلِ الخَنْدَق.

ولما وصلَ المشركون ونظروا إلى الخَنْدَق، قالوا: والله إنّ هذه لَمكِيدَةٌ ما كانت العربُ تكيدها!. وصار المشركون يَتَنَاوبون، فيَغْدُو أبو سُفْيَانَ في أصْحَابه يوماً، ويغدو خالدُ بنُ الوليد يوماً، ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو جُبَيرةُ بن وَهْبٍ يوماً، ويغدو عكرمةُ بنُ أبي جهل يوماً، ويغدو ضِرَارُ بنُ الخطّابِ يوماً، فلا يزالون يُجِيلُونَ خيلَهم، يَفترِقون مَرَّةً، ويجتمعون أخرى، ويُنَاوِشُونَ أصحابَ رَسُولِ الله ﷺ، ويُقَدِّمُونَ رجالَهم فيرمون، ومكثوا على ذلك مُدَّةً، ولم يَكُنْ بينهم حرْبٌ إلا الرَّمي بالنّبلِ والحصَى.

وأرسل أبو سُفْيَانَ كتاباً لرَسُولِ الله ﷺ يقول فيه: (باسمك اللّهُمَّ،

أما بعد: فإني أحلفُ باللّاتِ والعُزّى وهُبَل؛ لقد سِرْتُ إليك في جَمْعٍ، وأنا أريدُ أنْ لا أعودَ منه أبداً حتّى أستأصلَكم، فرأيتُك قد كَرِهْتَ لقاءَنا واعْتَصَمْتَ بالخَنْدَق، وتلك مَكِيدَةٌ ما كانت العربُ تعرفُها، وإنّما تعرفُ ظلّ رِماحَها وشَبَا سُيوفِها، وما فعَلْتَ هذا إلا فراراً من سيوفِنا ولقائِنا، ولك منّي يومٌ كيوم أُحُدٍ).

فأرسل له رَسُولُ الله ﷺ جواباً قال فيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إِلَى صَخْرِ بنِ حَرْبٍ، أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ، وَقَدِيماً غَرَّكَ بِالله الغَرَورُ، أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنَّكَ سِرْتَ إِلَينَا وَأَنْتَ لَا تُرِيدُ أَنْ تَعُودَ حَتَّى تَسْتَأْصِلَنَا، فَذَلِكَ أَمْرٌ يَحُولُ الله بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَيَجْعَلُ لَنَا العَاقِبَةَ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيكَ يَوْمٌ أَكْسِرُ فِيهِ اللَّاتَ وَالعُزَّى وَإِسَافاً وَنَائِلَةَ وَهُبَلَ، حَتَّى أُذَكِّرَكَ ذَلِكَ يَا سَفِيهَ بَنِي غَالِب».

وفي تلك المدّة أقبل نَوْفَلُ بنُ عبدِ الله بن المغيرة على فرَسٍ له لِيُوثِبَه الخَنْدَقَ فوقعَ مع فرسِه في الخَنْدَقِ فقتلَه الله؛ انْدَقَّتْ عنقُه وتحَطَّمَ فرَسُه، ورُمِيَ بِالحِجَارَةِ، فجعَل يقولُ: قِتْلَةً أحْسَنُ مِن هَذِه يا مَعْشَرَ العَرَبِ!، فنزلَ إليه عليٌّ كرّم الله وجهَه، فضرَبَه بالسّيفِ، فقطعَه نصْفَين، وكَبُرَ ذلك عَلى المشركين، فأرسلوا إلى رَسُولِ الله ﷺ، فقالوا له: إنّا نُعْطِيكَ الدّيةَ على أَنْ تدفعَه إلينا فنَدْفِنَه، وأعطوه في جُثّتِهِ عشرَةَ آلافِ دِرْهَم. فرَدّ عليهم رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهُ خَبِيثُ الدّيةِ، فلَعَنَهُ الله وَلَعَنَ دِيتَهُ، وَلَا نَمْنَعُكُمْ أَنْ تَدْفِنُوهُ»، وقال لأصحابِه: «ادْفَعُوهُ إِلَيْهِمْ؛ فَإِنَّهُ خَبِيثُ الجَسَدِ خَبِيثُ الدّيَةِ».

وعن عبدِ الله بن الزبير رضي الله عنهما، قال: كنتُ يومَ الأحزابِ أنا وعَمْرو بنُ أبي سَلَمَةَ مع النّسَاءِ في أُطُمِ حسَّانِ بنِ ثابتٍ، وكانَ حسَّانُ معنا، فجاءَ يهوديٌّ فجعل

يطوفُ بالحِصْنِ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ بنتُ عبدِ المطلب لحسّان: يا حسّانُ، لا آمَنُ هذا اليهوديّ أَنْ يَدُلّهم على عَورَةِ الحِصْنِ، فيأتوا إلينا، فانزلْ فاقتُلْه. فقال حسّانُ رضي الله عنه: يا بنتَ عبد المطلب قد عرَفْتِ ما أنا بصَاحبِ هذا. فلما أَيِسَتْ منه أخذت عَمُوداً ثُمّ نزلَتْ ففتَحَتْ بابَ الحِصْنِ وأَتَتْهُ مِن خَلْفِه فضَرَبَتْهُ بالعمُودِ حتى قتَلَتْهُ، وصعدت الحِصْن فَقَالَتْ: يا حسّانُ؛ اِنزلْ إليه فاسْلبْهُ، فإنّه لم يمنعني مِن سَلَبِه إلا أنه رَجُلٌ. فقال: يا بنتَ عبد المطلب، ما لي بِسَلَبِه حاجة.

وقد كان عدوُّ الله حيَيُّ بنُ أخطَبِ سيّد بَنِي النَّضِير، يقول لقريش في مسيرِه معهم: إنّ قومِي بَنِي قُرَيْظَة معكم وهم أهلُ حَلَقَةٍ وَافِرَة - أي سِلاح -، وهم سبعمائة وخمسون مقاتلاً، فقال له أبو سُفْيَانَ: ائْتِ قومَك حتّى يَنْقُضُوا العهْدَ الذِي بينهم وبين محمّدٍ، فخرجَ حيَيُّ حتَى أتى كعبَ بنَ أسَدٍ القُرَظِيّ سَيِّد بَنِي قُرَيْظَة، وَوَلِيّ عهدِهم الذي عاهدَهم عليه النبيُّ ﷺ، فدَقّ عليه بابَ حِصْنِه، فأبى أَنْ يفتحَ له، فألَحَّ عليه في ذلك، فقال له: ويحكَ يا حُيَيُّ؛ إنّك امْرُؤٌ مَشْؤُومٌ، وإنّي قد عاهَدتُ مُحَمَّداً ولسْتُ بنَاقِضٍ ما بيني وبينَه، ولم أَرَ منه إلّا وفَاءً وصِدْقاً. فقال له: ويحكَ؛ افتح لي أكلّمك، فقال: ما أنا بفاعلٍ، فأَغَاظَه بأَنْ قال له: والله مَا أغلقتَ دوني إلا تَخَوُّفاً عَلى جَشِيشَتِكَ أَنْ آكلَ معك منها. ففتح له.

فلما دخلَ قال: ويحكَ يا كعْبُ، جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ، جِئْتُكَ بقريشٍ حتّى أنزَلْتهم بمجْمَعِ الأَسْيَالِ، وبغَطَفَانَ حتّى أنزلتهم بجانب أُحُدٍ، قد عاهدوني وعاقدوني أَنْ لَا يبرَحوا حتى يسْتَأْصِلُوا مُحَمَّداً ومَن معه. فقال له كعبٌ: جِئْتَنِي وَالله بِذُلّ الدَّهْرِ، وكُلِّ مَا يُخْشَى، فإنّي لم أَرَ في محمَّدٍ إلا صِدْقاً ووَفَاءً، فدعني

وما أنا عليه. فلم يزلْ حُيَيٌّ بكَعْبٍ حتّى أَعْطَاهُ عهداً من الله وميثاقا لَئِنْ رَجَعَتْ قُرَيشٌ وغطَفَانَ ولم يَقْتُلوا مُحَمَّداً أَنْ يَكُونَ معَه في حِصْنِه ويُصِيبَه ما أصَابَه، فعند ذلك نقضَ كعبٌ العهْدَ، وبَرِئَ ممّا كان بينه وبينَ رَسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومَزَّقُوا الصَّحِيفَةَ التي كان فيها العَقْدُ، وجمعَ رؤساءَ قومِه وهم: الزُّبيرُ بنُ بَاطَا، وشَاسُ بنُ قيس، وعَزَالُ بنُ مَيمُون، وعُقْبَةُ بنُ زيد، وأعلمهم بما صنعَ من نقض العهد، وشَقَّ الكتابَ الذي كتبَه رَسُولُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فألجَمَهم هذا الأَمْرُ؛ لِمَا أَرادَ الله من هلاكِهم، وكانَ حُيَيُّ بنُ أَخْطَب في اليهودِ يُشَبَّهُ بأَبِي جَهْلٍ في قريشٍ.

فلما انتهى الخبرُ بذَلِك إلى رَسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، اشْتَدَّ الأَمْرُ وشَقَّ عليه ذلك. فَأَرْسَلَ سَعْدَ بنَ مُعاذ سَيّدَ الأوس، وسَعدَ بنَ عُبَادة سَيّدَ الخزْرَج، وأرسلَ معهما ابنَ رَوَاحَةَ وخَوَّاتَ بنَ جُبَير، وقال لهم: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا أَحَقٌّ مَا بَلَغَنَا عَنْ هَؤُلاءِ القَوم، فَإِنْ كَانَ حَقّاً فَالْحَنُوا إِلَيَّ لَحْناً أَعْرِفُهُ دُونَ القَوم، وَإِلَّا؛ فَاجْهَرُوا بِذَلِكَ بَينَ النَّاسِ». وأرادَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنْ يُكَنُّوا في كَلامِهم بما لا يفْهَمُه القومُ؛ لئلّا يحصلَ لهم الوَهَنُ والضّعفُ، فخرجوا حتى أتوا بَنِي قُرَيْظَة، فوجدوهم قد نقضُوا العَهْدَ، ونالوا من رَسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتبرَّؤُوا من عَقْدِه وعَهْدِه، وقالوا: لا عَهْدَ بينَنا وبينَ مُحمَّدٍ، فشَتَمَهم سَعدُ بنُ مُعاذٍ وكانوا حُلَفاءَه، فقال سَعْدُ بنُ عُبادة لسَعدِ بن مُعاذ: دَعْ عَنكَ مُشَاتَمتهم، فما بيننا وبينهم أَرْبَى من المُشَاتمة. ثم أقبل السَّعْدَان ومَن معهما إلى رَسُولِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكَنّوا له عن نقضهم العَهد، فقالوا: عُضَلٌ والقَارَة ـ أي: غدروا كغَدْرِ عُضَلٍ والقَارَةِ بأصْحَابِ بعثِ الرَّجِيع، وسيأتي خبر ذلك في السرايا ـ فقال رَسُول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الله أَكْبر»، ثم تَقَنَّعَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بثوبه واضْطَجَعَ، ومَكَثَ طَويلاً، فاشْتَدَّ على



النّاسِ البَلَاءُ والخوفُ حينَ رَأوهُ اضطجع، فرفعَ رأسه، وقال: «أَبْشِرُوا يَا مَعَاشِرَ المُسْلِمِينَ بِنُصْرَةِ اللهِ وَعَونِهِ».

وعَظُمَ البَلَاءُ على المسلمين لمّا وصل إليهم خبر نقض بَنِي قُرَيْظَة العهد، لأنهم رأوا أنه قد جاءَهم عدوُّهم من فوقِهم ومن أسفلَ منهم فعَظُمَ الكَرْبُ حتَّى ظَنَّ المسلمُون كُلَّ الظَنّ وأنزلَ الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١]، وظهر النّفاقُ من المنافقين حتَّى قال بعضُهم: كان محمّدٌ يَعِدُنا أَنْ نأكلَ كنوزَ كِسْرى وقيصر وأَحَدُنا اليوم لا يأمنُ على نفسِه أَنْ يذهبَ إلى الغائطِ، مَا وعدنا الله ورسولُه إلا غروراً!. قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ولمّا رَأى رَسُولُ الله ﷺ شِدّةَ الأمر، بعثَ إلى عُيينَةَ بنِ حِصْنٍ الفَزَارِي وإلى الحارثِ بنِ عَوفٍ المُرِّي، في أَنْ يُقْطِعَهما ثُلْثَ ثِمارِ المدينة على أَنْ يَرْجِعا بمَن معهما عنه. فجَاآ مُسْتَخْفِيين مِن أَبي سُفيَان فوَافَقاه على ذلك، بعدَ أَنْ طَلَبَا النِّصْفَ فأبى عليهما إلّا الثلث، فرضيا به، فلما أرادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَكْتُبَ الصُّلحَ على ذلك، بعثَ إلى سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ وسَعْدِ بنِ عُبادة رضي الله عنهما، فذكر لهما ذلك واستشارَهما فيه، فقالا: يا رسولَ الله، أَهُوَ أمرٌ تحبّه فتَصْنَعُه لنا؟، أمْ هو شَيءٌ أمرَكَ الله به لا بُدَّ لنا مِن العمل به؟. فقال رَسُولُ الله ﷺ: «لَوْ أَمَرَنِي الله مَا شَاوَرْتُكُمَا، وَالله مَا أَصْنَعُ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنِّي رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُمْ عَنْ قَوسٍ وَاحِدَةٍ، وَكَالَبُوكُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ شَوْكَتَهُمْ إِلَى أَمْرٍ

مَا». فقال له سعدُ بن معاذ: يا رسولَ الله، قد كُنّا نحنُ وهؤلاءِ القوم على الشّركِ بالله وعبادة الأوثان، لا نعبدُ اللهَ ولا نَعْرِفُه، وهم لا يطمعونَ أنْ يأكلوا منّا تمْرَةً إلّا قِرَىً أو بَيعاً، وإنْ كَانُوا لَيَأْكُلونَ العِلْهِزَ(١) في الجاهليّة من الجَهْدِ، أَفَحِينَ أَكْرَمَنا الله بالإِسْلام وهَدانا له وأعزَّنا بك وبِه نُقْطِعُهم أمْوَالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السّيفَ حتّى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَنْتَ وَذَاكَ».

ثُمّ إنَّ طائفةً من المشركين أقبلوا، وأَكْرَهوا خيولَهم على اقتحام الخَنْدَق من مَضِيقٍ كان به، وفيهم: عِكْرِمَةُ بنُ أبي جهل، وهُبَيرَةُ بنُ أبي وَهْبٍ، وضِرَارُ بنُ الخطاب، وعمرو بنُ عَبْدِ وُدٍّ. وكان عمرو بنُ عبدِ وُدٍّ عمره إذ ذاك تسعين سنة، فنادى مَن يُبارِز؟، وكان مُقنّعاً في الحديد، وكان قد حرّم الدُّهنَ على نفسِه حتى يثأرَ من محمّدٍ وأصحابِه لما أصابَه من الجِرَاحة في غزوة بَدْرٍ، ولذاك لم يَشْهَدْ غزوةَ أُحُدٍ، فقام عَليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: أنا له يا نبيَّ الله، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّهُ عَمْرٌو!، اجْلِسْ»، فنادى عمرو: أَلَا رجُلٌ؟، وجعل يُؤَنِّبُهم، ويقول: أينَ جنتكم التي كنتم تزعمون أنه من قُتِلَ منكم دخلها؟، أفلا تُبْرِزُونَ إليَّ رجُلاً؟، فقام عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: أنا يا رسولَ الله، فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْلِسْ»، فنادى عمروٌ الثالثةَ، وجعلَ يَرْتَجِزُ، فقال:

وَلَقَد بَحِحْتُ مِنَ النِّدَاءِ ... بِجَمْعِكُمْ: هَلْ مِنْ مُبَارِز؟
وَوَقَفْتُ إذْ جَبُنَ الشُّجَاع ... بِمَوقِفِ البَطَلِ المنَاجِزْ

---

(١) العِلْهِزُ: طعامٌ كانوا يتَّخذونه من الدم ووَبَرِ البعير في سِنِيّ المجَاعة. واللحمُ المُعَلْهَزُ هو الذي لم ينضج.

إلى آخر الأبيات التي ارْتَجزَ بها، فقامَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: يا رسولَ الله؛ أنا، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ عَمْرٌو»!، فقال: وإن كان عمراً، فأذن له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمشى عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إليه حتى أتاه، وهو يقول:

لا تَعْجَلَنَّ فَقَدْ أَتَاكَ ... مجيبُ صَوتِك غيرُ عاجِزْ

ذُو نِيَّةٍ وبَصِيرةٍ ... والصِّدقُ مُنْجِي كُلَّ فَائِزْ

إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَقْيم ... عَلَيكَ نَائِحَةُ الجَنَائِزْ

مِنْ ضَرْبَةٍ نَجْلاء يَبقَى ... ذِكْرُها عِنْدَ الهزَاهِزْ

فقال له عمرو: من أنت؟، قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال: دَعْ غيرك يا بنَ أَخِي، فإنّي أكرَه أنْ أريقَ دمَك، فقال له عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنّك كنتُ تقولُ: لا يدعوني أَحَدٌ إلى واحدةٍ من ثلاثٍ إلا قَبِلْتُها!، قال: أَجَل، قال عليٌّ: فإني أدعوك أَنْ تُسْلِمَ لله رَبِّ العالمين. فقال: أَخِّرْ هذا عني. قال: فترجعَ إلى بلادِك، فإِنْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ صَادِقاً كُنْتَ أَسْعَدَ النّاس به، وإِنْ غيرَ ذلك كان الذي تريدُ. فقال: هذا ما لا تَتَحَدَّثُ به نِسَاءُ قريشٍ أبداً، وقد نَذَرْتُ ما نَذَرْتُ، وحَرَّمْتُ الدّهنَ. قال: فالثالثة؛ البِرَازُ. فضحك عمرو، وقال: ما كنتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَداً مِنَ العَرَبِ يَرُومُنِي بهذِه الخصْلَة!، وإني لأكرَه أَنْ أقتلك؛ وقد كان أبوك لي نديماً، فارْجِعْ، فأنتَ غُلامٌ حَدث، فقال عليٌّ: فأنا أحبُّ أَنْ أقتُلَك. فغضبَ عمرو ونزلَ عَن فرسِه، فاستقبَله عليٌّ بضَرْبةٍ قَدَّتْ عاتِقَه، ثم تبارَزا مُبارَزَةً عَنِيفَةً، وثارَتْ بينهما غَبَرَةٌ سَتَرَتْهُما عنِ الأَنظَار، فلما سمعوا التّكبيرَ عرَفوا أَنّ عَلِيّاً قد قتلَه. ثم أقبل عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو مُتَهَلِّلٌ، فقال له عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هَلَّا سَلَبْتَهُ دِرْعَه، فَإِنَّهُ ليسَ في العَرِبِ دِرْعٌ خيرٌ منها؟، فقال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لا؛ إِنّه استقبلني بسوءَتِه حين

ضَرَبْتُه ، فاسْتَحْيَيتُ أَنْ أَسْلُبَه[١] . وَذكرَ ابنُ إسحاق أن المشركين بعثوا إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشترونَ جثّةَ عمرو بعَشَرَةِ آلافِ دِرْهم ، فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «هُوَ لَكُمْ ، وَلَا نَأْكُلُ ثَمَنَ المَوْتَى» .

وحين قُتِلَ عمروٌ رجع مَنْ وصَلَ الخَنْدَقَ من المشركين بخيلِهم هَاربين ، فتَبِعَهم الزبيرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وحملَ على هُبَيرَةَ بنِ أَبي وَهْبٍ ، فضربَ ثَغْرَ فَرَسِهِ فقطعَه ، وسقطَتْ دِرْعٌ كان قد جعلها على مُؤَخَّرِ ظَهْرِ الفَرَس ، فأخذها الزبير ، وقد كان هبيرةُ فارس قريش وشاعرها ، ثمّ حمل الزّبيرُ على عكرمةَ بنِ أبي جهل فألقى رُمْحَه وفرَّ مُنْهَزِماً. وذُكِرَ أَنّ ضِرَارَ بنَ الخطّاب لما هرَبَ تبعَه أخوه عمرُ بن الخطاب وصَار يَشْتَدُّ في أَثَرِه ، فكَرَّ ضِرَارُ رَاجِعاً ، وحملَ على عُمَرَ بالرُّمْحِ ليَطْعَنَه ، ثُمَّ أَمْسَكَ ، وقال: يا عمرُ ؛ هذه نِعمَةٌ مَشْكُورَةٌ أَثْبَتُّهَا عليك ، ويَدٌ لِي عندك غيرُ مَجْزِيٍّ بها ، فاحفظها. وقد وقع له مع عمرَ مثل ذلك في أُحُدٍ ، فإنه ضَرَبَه بالقَنَاة ، ثُمَّ رفعها عنه ، وقال: ما كنتُ لأقتلك يابنَ الخطاب ، وقد مَنَّ الله على ضِرَارٍ فأسلم بعد ذلك .

وكان شِعَارُ المسلمين: "حم لَا يُنْصَرُون" ، وخرجت طائفتانِ من المسلمين ليلاً لا يشعرُ بعضُهم ببعضٍ ، فاقتتلوا ، ولا يَظنّون إلا أنهم العدو ، فكانت بينهم جِراحَةٌ وقَتْلٌ ، ثم نادوا بشعارِ الإسلام: "حم لَا يُنْصَرُون" ، فكفَّ بعضُهم عن بعضٍ ، فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «جِرَاحُكُم فِي سَبِيلِ الله ، وَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ شَهِيدٌ» . ورُمِيَ سَعْدُ بنُ مُعاذٍ بسَهمٍ ، فقَطَعَ أَكْحَلَه ، وكان الذي رَماه ابنُ العَرِقَة ، وقال: خُذْهَا وَأَنا ابنُ العَرِقة ، فلما بلغَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك ، قال: «عَرَّقَ الله وَجْهَهُ

---

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة [٣/٣٨٦] ، وذكره ابن الجوزي في المنتظم في التاريخ [٣/١٣٤] .

فِي النَّارِ»، وقيل: أَنّ قائلَ ذلك سَعْدٌ رضي الله عنه، وعند ذلك قال سَعدٌ: اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئاً فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنّهُ لَا قَوْمَ أَحَبّ إلَيّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ مِنْ قَوْمٍ آذَوْا رَسُولَك، وَكَذّبُوهُ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ وَإِنْ كُنْت قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْعَلْهُ لِي شَهَادَةً، وَلَا تُمِتْنِي حَتّى تُقِرّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ.

وفي يومٍ اسْتَمَرّتِ المقاتلةُ من سائرِ جوانبِ الخَنْدَق إلى اللّيل، ولم يُصلِّ ﷺ، ولا أَحَدٌ من المسلمين صلاةَ الظّهرِ، والعصرِ، والمغربِ، والعِشَاءِ، وصارَ المسلمون يقولون: ما صَلّينا، فيقولُ ﷺ: «وَلَا أَنَا»، فلمّا انكشفَ القِتَالُ جاءَ ﷺ إلى قُبّته، وأمرَ بلالاً فأذّنَ وأقامَ الظّهرَ فصلّى، ثم أقام بعد كل صلاة إقامة، وصلّى النبيُّ ﷺ هوَ وأصحابُه ما فاتَهم مِن الصّلَوَات.

ورُوِيَ أَنّ عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه قال: كادَتِ الشّمْسُ أَنْ تغْرُبَ يومَ الخَنْدَقِ، فنزلنا معَ النّبيِّ ﷺ بطْنَ بُطْحَان، فتَوضّأَ للصّلاة، وتوضأنا لها، فصلّى العصر بعد ما غربتِ الشمس، ثم صلّى بعدها المغربَ. وقد دعا النّبيُّ ﷺ على المشركين بسبب ذلك، فقال: «مَلَأَ الله عَلَيْهِمْ بيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَاراً، كمَا شَغَلُونَا عَن الصّلاةِ الوُسْطَى حتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ»[1].

وكان ﷺ يَخْتَلِفُ إلى ثُلْمَةٍ في الخَنْدَق، قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: كانَ ﷺ يذهبُ إلى تلك الثّلْمَةِ، فإذا أَخَذَهُ البَرْدُ جاءَ فأَدْفَأْتُه، فإذا دَفِيءَ خَرَجَ إلى تلك الثُّلْمَةِ، ويقولُ: «مَا أَخْشَى أَنْ يُؤْتَى المسْلِمُونَ إلّا مِنْهَا»، فبينما رَسُولُ الله ﷺ في قُبّتِهِ، صَارَ يقول: «لَيْتَ رَجُلاً صَالِحاً يَحْرُسُ هَذِهِ الثّلْمَةَ

(١) رواه البخاري في صحيحه [٤/٤٣]، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، برقم: (٢٩٣١).

اللَّيْلَةَ» ، فسمع صوتَ السّلاح ، فقال ﷺ: «مَنْ هَذَا» ؟ ، قال: سَعدُ بنُ أبي وقّاص يا رسولَ الله ، أتيتك أحرُسُك ، فقال له: «عَلَيْكَ هَذِهِ الثَّلْمَة فَاحْرُسْهَا» ، ونَامَ رَسُولُ الله ﷺ حتّى غطَّ ، ثمّ قام يُصلي في قُبَّتِهِ ، وكان إذَا حَزَبَهُ أمرٌ فَزَعَ إلى الصّلاة.

ثُمّ خرجَ ﷺ من قُبّته ، فقال: «هَذِهِ خَيْلُ المشْرِكِينَ تُطِيفُ بِالخَنْدَقِ» ، ثم نادى ﷺ: «يَا عَبّادُ بن بِشْرٍ» ، فقال: لبيك ، قال: «هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ» ؟ ، فقال: نعم ؛ أنا في نَفَرٍ حَولَ قُبّتك يا رسولَ الله ، وكان عَبّادُ بنُ بِشْرٍ أَلْزَمَ النّاس لِقُبّته ﷺ يحرُسُها ، فبعثَه ﷺ يُطِيفُ بالخَنْدَق ، وأعلَمَهُ بِأَنّ خيلَ المشركين تُطِيفُ بهم. ثم قال: «اللَّهُمَّ ادْفَعْ عَنّا شَرَّهُمْ ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ ، وَاغْلِبْهُمْ لَا يَغْلِبُهُمْ غَيْرُكَ» ، وإذا أبو سُفْيَانَ في خيل يطوفون بمَضِيقٍ من الخَنْدَق ، فرَماهم المسلمون حتّى رَجعوا.

ثُمّ إنّ طائفةً مِن الأنصار خرجوا ليدفِنُوا شهيداً منهم بالمدينة ، فصَادفوا عشرين بعيراً لقُرَيشٍ ، مُحَمَّلَةً شَعيراً وتَمراً وَتِبْناً ، حملها حُيَيُّ بنُ أَخْطَبٍ تَقْوِيةً لقُرَيشٍ ، فأتوا بها رَسُولَ الله ﷺ فوَسَّعَ بِهَا على أهل الخَنْدَقِ ، ولمّا بلغ أبا سُفْيَانَ ذلك قال: إنَّ حُيَيّاً لمشؤُومٌ ، قُطِعَ بنا ، وما نَجِدُ ما نُحْمَلُ عليه إذا رجعنا.

وكرَّ خالدُ بنُ الوليد بطائفةٍ من المشركين يطلبون غِرَّةً للمسلمين ، فصادفوا أُسَيدَ بنَ حُضَيرٍ على الخَنْدَق في مائتين من المسلمين فناوشوهم ساعةً وكان في أولئك المشركين وحَشِيٌّ قاتلُ حمزةَ رضي الله عنه ، فرمَى الطّفيلَ بنَ النعمانِ فقتلَه ، وصارَ المشركون بعدَ ذلك يرسلونَ الطلائعَ باللّيل يطمَعُونَ في الإغَارَةِ واقتحامِ




الخنْدَقِ، ولَكِنَّ المسلمين يتصدّون لهم.

وأقامَ المسلمون في شِدّةٍ وخَوفٍ وفزَعٍ شَديدٍ. ودعا رَسُولُ الله ﷺ على الأحزابِ. فقال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»، ثم قام في الناس فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ العَدُوِّ، وَاسْأَلُوا الله العَافِيَةَ، فَإِذَا لقيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ»[1]. ثم دعا ﷺ بقوله: «يَا صَرِيخَ المكْرُوبِينَ، يَا مُجِيبَ المُضْطَرِّينَ، اكْشِفْ هَمِّي وَغَمِّي وَكَرْبِي، فَإِنَّكَ تَرَى مَا نَزَلَ بِي وَبِأَصْحَابِي»[2]. وقال له الصحابةُ رضوان الله عليهم: يا رسولَ الله؛ هل من شيء نقوله، فقد بلغتْ القلوبُ الحناجِرَ؟، فقال: «نَعَمْ، قُولُوا: اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا»، فأتاه جبريلُ عليه السلام فبشّره أنَّ الله سَيرسِلُ على المشركين رِيحاً وجنوداً، فأعلمَ رَسُولُ الله ﷺ أصحابَه بذلك وعُرِفَ السّرورُ في وجْهِهِ وصارَ يرفع يديه قائلاً: «شُكْراً شُكْراً». وقد جاء أنّ دعاء النبيِّ ﷺ على المشركين كان في يوم الاثنين، ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، وأنه استجيب له في يوم الأربعاء وذلك بين الظّهر والعصر، وَمِنْ ثَمَّ كانَ جابرُ رضي الله عنه يدعو في مُهِمّاتِه في ذلك اليوم وفي ذلك الوقت، ويَتَحَرَّى ذلك لِتُقْضَى حَاجَتُه.

ثُمّ إنّ نُعَيمَ بنَ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيَّ أتى رَسُولَ الله ﷺ ليلاً، فقال له: يا رسولَ الله؛ إني أسلَمْتُ، وإنّ قومي لم يَعلَمُوا بإسلامي، فمُرْني بمَا شِئْتَ. فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ،

---

(١) رواه البخاري في صحيحه [٤/٥١]، برقم: (٢٩٦٦)، ومسلم [٥/١٤٣]، برقم: (١٧٤٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده [٢/٣٠٧]، والطبراني في المعجم الأوسط [١/٥٢]، رقم: (١٤٥).

فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ» ، فقَال له نُعَيمٌ: يا رسول الله ، إني أقول ما يقتضيه الحال وإن كان خلاف الواقع. قال: «قُلْ مَا بَدَا لَكَ فَأَنْتَ فِي حِلٍّ». فخرج نُعَيمٌ رضي الله عنه حتّى أتى بَنِي قُرَيْظَة ، وكان نَدِيماً لهم. قال: فلما رأوني رَحّبوا بي ، وعرضوا عليَّ الطَّعامَ والشَّرَاب. فقلت: إِنّي لم آتِ لِشَيْءٍ مِن هَذا ، إِنّما جِئْتكم تخوّفاً عليكم لِأُشِيرَ عليكم بِرَأْيٍ ، يا بَنِي قُرَيْظَة ؛ قد عَرَفْتُم وُدِّي إِيَّاكم ، وخَاصَّةَ ما بيني وبينكم ، قالوا: صدقْتَ ، لسْتَ عندنا بِمُتّهَم. فقال لهم: اكتُمُوا عَنّي ، قالوا: نَفْعَلُ ، قال: لقد رَأيتُم ما وقعَ لبَنِي قَيْنُقَاع ولبَنِي النَّضِير من إجْلَائِهم وأَخْذِ أموَالِهم ، وإِنّ قُرَيْشاً وغَطَفَانَ ليسُوا كَأَنتم ، البَلدُ بلَدُكُم ، وبِهَا أموَالُكم ونساؤُكم وأبناؤُكم ، لا تقدرونَ على أَنْ ترحلوا منه إلى غيرِه ، وإِنّ قُرَيْشاً وغَطَفَانَ قد جاؤوا لحربِ محمَّدٍ وأصحابِه ، وقد ظَاهَرْتمُوهم عليه ، وبلدُهم وأموالُهم ونساؤُهم بغيرِه فليسُوا كأنتم ، فإِنْ رَأوا فُرْصَةً أَصَابُوها ، وإِنْ كانَ غير ذلك لَحِقُوا ببلادِهم ، وخلّوا بينكم وبينَ بلدِكم ، والرَّجُلُ ببلدِكم ، ولا طاقةَ لكم به إِنْ خَلا بكم ، فلا تقاتلوا معهم حتّى تأخذوا منهم رَهْنًا مِن أَشْرَافِهم ، سبعينَ رَجُلاً يكونون بأيديكم ثِقَةً لكم ، عَلى أَنْ يُقَاتلوا معَكم مُحَمَّدًا حتى يَقْتُلُوه. فقالوا له: لقد أَشَرْتَ بالرَّأْيِ والنُّصْحِ ، ودعوا له بخَيرٍ ، وشكروه ، وقالوا: نحْنُ فاعلون. فقال: ولكِنْ اكتُموا عنّي. قالوا: نفعل.

ثُمّ خرجَ رضي الله عنه حتّى أَتى قُرَيْشاً ، فقال لأبي سُفْيَانَ ومَن معه مِن أَشْرَافِ قريش: قد عَرفتُم وُدِّي لكم وفِرَاقِي لمُحَمَّدٍ ، وإنّه قَدْ بلغَنِي أَمْرٌ قد رَأيتُ أَنْ أبلِغْكُمُوه نُصْحاً لكم ، فاكتموا عنّي ، فقالوا: نفعل ، قال: تعلمون أَنّ معشرَ يهودِ بَنِي قُرَيْظَة قد ندموا على ما صَنعوا فيما بينهم وبين محمد من نقض عَهْدِه ، وقد

أرسلوا إليه وأنا عندَهم، فقالوا له: إنّا قَدْ نَدِمْنَا على ما فعلنا، فهَلْ يُرْضِيكَ أَنْ نأخذَ لك مِنَ القبيلتين؛ قُرَيشٍ وغَطَفَانَ، رِجَالاً مِن أشرافِهم، ثم نُعْطِيَكَهُم، فتضربَ أعناقَهم؟، وتَرُدَّ جَنَاحَنا الذِي كَسَرْتَ إلى دِيَارِنا، يعنونَ بَنِي النَّضِير، ثُمَّ نكونُ معك على مَن بَقِيَ منهم حتّى نَسْتأصِلَهم، فأرسلَ إليهم: نَعَم. فإن بعثت إليكم اليهودُ يطلبونَ منكم رَهْناً مِن رجالِكم فلا تدفعوا إليهم رَجُلاً وَاحِداً، واحذرُوهم على أَسْرَارِكم، واكتُمُوا عنّي، ولا تذكروا من هذا حرفاً. فقالوا: لن نذكره.

ثمّ خرج رضي الله عنه حتّى أَتى غَطَفَان، فقال: يا معشرَ غَطَفَان، إنّكُم أَهْلي، وعشيرَتي، وأحبُّ النّاس إليّ ولَا أراكم تَتَّهِمُونَنِي، فقالوا: صَدقْتَ، ما أنت عندنا بمُتَّهم. قال: فاكتموا عليّ، فقالوا: نعم، فقال لهم مثل ما قال لقريشٍ، ثم حَذّرَهم. فلما كانت ليلةُ السّبتِ، أرسلَ أبو سُفْيَانَ ورُؤُوسُ غَطَفَانَ إلى بَنِي قُرَيْظَةَ عِكْرمةَ بنَ أبي جهل في نَفَرٍ من قريشٍ وغَطَفَانَ، فقالوا لهم: إنا لَسْنَا بِدَارِ مُقَام، وقد هَلَكَ الخُفُّ والحَافِرُ، فاغْدُوا للقِتَالِ حتّى نُنَاجِزَ مُحَمَّداً ونفرغ ممّا بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم: إنَّ اليومَ الذي يلي هذه الليلة يومُ السّبت، وقد علمتم ما نَال مِنّا مَنْ تَعَدّى في السّبتِ، ومعَ ذلك فلا نقاتلُ معكم حتّى تعطونَا سبعينَ رَجُلاً رَهْناً، فقالوا: صَدَقَكم والله نُعَيمٌ. ولم تَرُد لهم قريشٌ جَوَاباً، فجاءَهم نُعَيمٌ وقالَ لهم: إنّي قد كنتُ عندَ أبي سُفْيَانَ، وقد جاءَه رَدّكم. فقال: لو طلبوا مِنّي عَنَاقاً ما دَفَعْتُها لهم. ثم اختلفت كلمتهم. وبعثَ الله تعالى رِيحاً عاصِفاً، في لَيَالٍ شديدةِ البَردِ، فنَقَلَتْ خِيامَهم، وقطعَتْ أطنَابَها، وكَفَأَتْ قدورَهم على أفواهِها، وصارَتِ الرّيحُ تُلْقِي الرِّجَالَ على أَمْتِعَتِهم، وأَطْفَأَتْ نِيرَانَهم، ومَلأَتْ عيونَهم تراباً، ودَامَتْ عليهم، وأَرسَلَ الله تعالى إليهم الملائكةَ فزلزلتهم، ونفَثَتْ في

رَوْعِهِم الرُّعبَ. وتلكَ الرّيحُ الشّديدةُ لم تجاوزْ عسكرَ المشركين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ﴾ [الأحزاب: ٩].

ثُمّ إنّ رَسُولَ الله ﷺ بلغَه اختلافُ كلمتِهم، وكانت تلك الليلةُ شديدة البرْدِ والرّيح، ولرِيحها أصوَاتٌ أمثال الصّواعق، وشديدة الظلمة بحيثُ لا يرى الشخصُ أصبعَه إذا مَدّها، فجعل المنافقون يستأذنونَ، ويقولون: إنّ بيوتَنا عورةٌ للعدوِّ، لأنها خارجُ المدينة، وحيطانُها قصيرةٌ يخشَى عليها السّرقة، فائذن لنا أنْ نرجعَ إلى نسائِنا وأبنائِنا وذرارينا فيأذنُ ﷺ لهم. حتّى قيلَ أنه لم يَبْقَ معه ﷺ تلكَ الليلةِ إلّا ثلاثمائة. فقال ﷺ: «مَنْ يَأْتِينا بِخَبَرِ القَومِ، وَأَسْأَلُ الله له أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الجَنَّة»؟، قال ﷺ ذلك ثلاثاً، فمَا قامَ أَحَدٌ مِن شِدّةِ الخوفِ والجوعِ والبردِ، فدعا ﷺ حُذَيفةَ بنَ اليَمان. قال حُذَيفةَ: فلمْ أَجِدْ بُدّاً مِنَ القيام حيثُ فوّهَ باسمِي، فجئتُه ﷺ، وَمَا عليَّ جُنّةٌ من العدوِّ والبرْدِ إلّا مرْطًا لامرأتي مَا يجاوزُ رُكبتي، فقال لي: «تَسْمَعُ كَلَامِي مُنْذُ اللّيلَةِ وَلَا تَقُومُ»؟، فقلت: لا والذي بعثك بالحقِّ مَا قدرتُ على ما بي من الجوع والبرْدِ والخوفِ، فقال ﷺ: «اذْهَبْ فَادْخُلْ فِي القَوْمِ، وائْتِني بِخَبرِهم؛ فَإِنّه كَائِنٌ فِي القَومِ خَبَرٌ»، فقلت: والذِي بعثك بالحقِّ ما قمتُ إلّا حياءً منك لما فيَّ مِنَ البَرْدِ، فقال لي: «لَا بَأْسَ عَلَيْكَ مِنْ حَرٍّ وَلَا بَرْدٍ حَتَّى تَرْجعَ إِلَيَّ». فقلتُ: والله ما بي أَنْ أُقْتَلَ، ولَكِنْ أخشَى أَنْ أُوسرَ، فقال: «إِنَّكَ لَنْ تُؤْسَرَ، حَفِظَكَ الله مِنْ أَمَامِكَ وَمِنْ خَلْفِكَ وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شَمَالِكَ حَتَّى تَرْجعَ إِلَيْنا»، فقمتُ مُسْتَبْشِراً بدعاء النبيِّ ﷺ، كأنّي احتَمَلْتُ احتمالاً،

فذهبَ عنّي كل ما كنت أجده؛ من الخوف والبرد، وعَهِدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليَّ أَنْ لا أُحْدِثَ حَدَثاً.

فجئتُ إليهم ودخلتُ في غمارِهم، فسمعتُ أبا سُفْيَانَ يقول: يا معشرَ قريش؛ لِيتعَرّفَ كلُّ امْرِئٍ منكم جَلِيسَه، واحذروا الجوَاسِيسَ والعيُون. فأخذتُ بيدِ جليسي على يمِيني، وقلتُ: مَن أَنتَ؟، فقال: معاويةُ بنُ أبي سُفْيَانَ، وقبضتُ يَدَ مَن على يساري، وقلت له: من أنت؟، فقال: عمرو بن العاص، وفعلتُ ذلك خَشْيَةَ أَنْ يُفْطَنَ بي. فقال أبو سُفْيَانَ: يا معشرَ قريشٍ، والله إنكم لسْتُمْ بِدَارِ مقَام، ولقد هلك الكرَاعُ والخُفُّ، وأَخْلَفَتْنا بنو قُرِيظَةَ، وبلغنا عنهم الذي نكرَهُ، ولقينا من هذه الرِّيح ما ترون، فارتحلوا فإنّي مُرْتَحِل، ووثبَ على جَمَلِه فما حلّ عِقَالَ يَدِهِ إلّا وهو قائمٌ، فقال له عِكْرِمةُ بنُ أبي جهل: إنك رأسُ القوم وقائدُهم تذهب وتترك الناس!؟. فاسْتَحْيَى أبو سُفْيَانَ وأَناخَ جمَلَه، وأَخذَ بِزِمَامِه وهو يقودُه، وقال: ارحلوا.

فجعل الناسُ يرحلون وهو قائِمٌ ينظرُ. ثمّ قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله نقيم في جَرِيدَةٍ من الخيل بإِزَاءِ مُحَمَّدٍ وأصحابِه، فإنّا لا نَأْمَنُ أَنْ نُطْلَبَ، فقال عمرو: أنا أقيمُ. وقال لخالدِ بنِ الوليد: ما ترى أبا سُليمان؟، فقال: أنا أيضاً أقيم. فأقام عمرو وخالد في مائتي فارسٍ، وسارَ جميع العسكر. قال حذيفةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولولا عهدُ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليَّ حينَ بعثني أَنْ لا أُحْدِثَ شيئاً لقَتَلْتُ أبا سُفْيَانَ بسَهْمٍ، وسَمِعَتْ غَطَفَانُ بما فعَلَتْ قريشٌ فَاشْتَدُّوا راجعين إلى بلادِهم، وهم يقولون: الرَّحيلَ الرَّحيلَ؛ لا مقَامَ لكم.

ثمّ أتيتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجدته قائماً يصلّي فأَخْبَرْتُه، فحَمِدَ الله

تعالى وأثنى عليه، وعاودَني البردُ، فجعلتُ أُقَرْقِفُ ـ أَرْتَعِدُ مِن البَردِ ـ، فأَومَأَ إِليَّ رَسُولُ الله ﷺ بيَدِه فدنوتُ منه، فأَسْدَلَ عليَّ مِن فضلِ شَمْلَتِه، فنِمْتُ، ولم أَزَلْ نَائِماً حتّى طلوع الفجر، فلما أنْ أصبحتُ، قال لي رَسُولُ الله ﷺ: «قُمْ يَا نَوْمَان». وكان يُقالُ لحذيفة رضي الله عنه: صَاحِبُ سِرِّ رَسُولِ الله ﷺ الذي لا يعلمُه غيرُه.

وذكر ابنُ ظَفَر في "ينبوع الحياة"، قال: وَهَبَّتْ ريحُ الصَّبَا ليلاً، فقَلَعَتْ الأَوْتَادَ، وأَلْقَتْ عَلَيهِمُ الأَبْنِيَةَ، وكَفَأَتِ القُدُورَ، وسَفَّتْ عَليهمُ التّرابَ، ورَمَتْهُمْ بالحَصَا، وسَمِعُوا في أَرْجَاءِ مُعَسْكَرِهِم التكْبِيرَ وَقَعْقَعَةَ السِّلاحِ مِنَ الملائكةِ، فصَار سَيِّدُ كلّ حَيٍّ يقولُ لقَومِه: يا بَنِي فُلَانَ هَلمُّوا إِلَيَّ، فإِذَا اجْتَمَعُوا قال: النَّجَاءَ النَّجَاءَ، فارْتَحلوا هِرَاباً في ليلَتِهم، وتركوا ما استَثْقَلُوه مِن مَتاعِهم. والصّبا هي الرّيحُ الشّرْقيّة.

وحينَ انجلاءِ الأحزاب قال رَسُولُ الله ﷺ: «الآنَ نَغْزُوْهُمْ وَلَا يَغْزُونَا»، ثمّ انصرفَ ﷺ لسبع ليال من ذي القعدة، بناءً على أنها كانت في ذي القعدة، وهو قول ابن سعد، والجمهور أنّها كانت في شوّال، وكان ذلك في سنة خمس.

٢٠ ـ غَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَة

ولما رَجعَ رَسُولُ الله ﷺ من الخَنْدَق وكان ذلك وقتَ الظهيرة، وقد صلى الظهر، ودخل بيتَ عائشةَ رضي الله عنها، ودعا بماءٍ، فاغتسلَ وبينما هو ﷺ يُرَجّلُ رَأْسَه، وقد رَجَّلَ أَحَدَ شِقّيه، ودعا بالمجْمَرَةِ ليتبَخّرَ، فأتى جبريلُ عليه السلام

النَّبيَّ ﷺ مُعْتَجِراً بعمامَةٍ سوداء من استبرق، مُرْخِياً منها بين كتفيه، وعليه لأْمَتُه، وهو على فَرَسٍ أَبْلَق، فقال: أَوَ قَدْ وضَعْتَ السِّلاحَ يا رسولَ الله؟، قال: «نَعَمْ»، فقال جبريلُ عليه السلام: ولكنَّ ملائكةَ الله تعالى ما وَضَعَتِ السلاحَ بعد، وإنَّ الله تعالى يأمرُك بالمسير إلى بَنِي قُرَيْظَة، فإنّي عَامِدٌ إليهم بمَن معي من الملائكة، فَمُزَلْزِلٌ بهم الحصُونَ. وأَدْبَرَ جِبريلُ عليه السلام ومعه الملائكة حتّى سطعَ لِسَيرِهِ الغُبَارُ في زُقَاقِ بني غَنَم ـ طائفةٍ من الأنصار ـ.

وأَمرَ رَسُولُ الله ﷺ بلالاً أَنْ يقومَ مُنادياً في الناس: «مَنْ كَانَ سَامِعاً مُطِيعاً فَلَا يُصَلِّينَّ العَصْرَ إِلّا بِبَنِي قُرَيْظَة». ثم سار النبيُّ ﷺ إليهم وقد لبس السلاحَ؛ الدِّرعَ والمِغْفَرَ والبَيضَةَ، وأخذَ قناةً بيدِه الشريفة، وتقلَّدَ السَّيفَ، وركِبَ فرسَه اللُّحَيفَ عُرْيَاناً، والناسُ حوله قد لبسوا السِّلاحَ وركبوا الخيلَ، وهُم ثلاثةُ آلافٍ، والخيل سِتّة وثلاثون فرساً، وله ﷺ منها ثلاثة، واستعمل على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب كرم الله وجهه بِلِوَائِه إلى بَنِي قُرَيْظَة، وكانَ اللّواءُ على حاله لمْ يُحَل مِن مرجعِه من الخَنْدَقِ، ومرَّ ﷺ بنفرٍ من بني النّجار قد لبسوا السلاح. فقال: «هَلْ مَرَّ بِكُمْ أَحَدٌ»؟، فقالوا: نعم، لقد مرَّ بنا دِحْيَةُ الكلبي على فرس أبيض عليه اللّأمَةُ، وأَمَرَنا بحَمْل السِّلَاح، وقال لنا: رَسُولُ الله ﷺ يطلع عليكم الآن، فلبسْنا سلاحَنَا واصطفَفْنا. فقال ﷺ: «ذَاكَ جِبْرِيلُ بُعِثَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَة يُزَلْزِلُ حُصُونَهم، وَيَقْذِفُ الرُّعْبَ في قُلُوبِهم».

فلما دنا عليُّ بنُ أبي طالب كرّم الله تعالى وجْهَهُ من الحصن، وكان معه نفرٌ من المهاجرين والأنصار، غَرَزَ اللّوَاءَ عند أَصْلِ الحِصْنِ وسمعَ من بَنِي قُرَيْظَة

مقالةً قبيحةً في حقِّه ﷺ وفي حَقّ أزواجِه، فسكتَ المسلمون، وقالوا: السَّيفُ بيننا وبينكم، فلمَّا رَأى عَليٌّ رَسُولَ الله ﷺ مُقْبِلاً أَمَرَ أبا قَتَادَةَ الأنصاري رضي الله عنه أَنْ يلزَمَ اللّواءَ، ورجع إليه ﷺ، فقال له: يا رسولَ الله، لا عليك أَنْ لَا تدنو من هؤلاء الأَخابث. فقال: «لَعَلَّكَ سَمِعْتَ مِنْهُم لِي أَذىً»؟، فقال: نعم يا رسول الله، قال: «لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيئاً». فلما دنا رَسُولُ الله ﷺ من حصُونِهم قال: «يَا إِخْوَانَ القِرَدَةِ، هَلْ أَخزَاكُم الله، وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَه؟، أَتَشْتُمُونِي»؟، ونادى بأعلى صوته نفراً من أشرافِهم حتّى أسمَعَهم، فجعلوا يحلفونَ، ويقولون: ما قلنا يا أبا القاسم، وما كُنْتَ جهولاً. فقال لهم أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ: يا أَعْدَاءَ الله، لا تبرحوا من حِصْنِكم حتى تموتوا جوعاً، إنّما أنتم ثعلبٌ في جحر، فقالوا: يابنَ الحُضَيرِ، نحنُ مَواليك!، وخافوا، فقالَ: لا عهد بيني وبينكم.

وكان هناك جماعة من الصحابة شغلَهم ما لم يكن لهم منه بُدٌّ عن المسير لبَنِي قُرَيْظَة ليصلوا بها العصر، فأَخَّرُوا صَلاةَ العصر إلى أَنْ جاؤوا فصلوها بعد العشاءِ الآخرة، امتثالاً لقولِه ﷺ: «فَلَا يُصَلِّينَّ العَصْرَ إِلّا بِبَنِي قُرَيْظَة». وقال بعضُهم: نصلي، ما يُرِيدُ رَسُولُ الله ﷺ منّا أَنْ ندعَ الصّلاةَ ونخرجَها عن وقتِها، إنما أرادَ الحثَّ على الإسراع، فصلّوها في أماكنِهم، ثمّ ساروا، فمَا عابَهم الله في كتابِه، ولا عَنَّفَهُم رَسُولُ الله ﷺ، لأَنَّ كلّاً مِن الفريقين تَأَوَّلَ، وكلٌّ مِنَ الفريقين مأجورٌ بقَصْدِه.

وحاصرَ رَسُولُ الله ﷺ بَنِي قُرَيْظَة خمساً وعشرين ليلة. وقد كان طعام الصحابة التمر، يرسل به إليهم سعد بن عبادة رضي الله عنه من عنده. وقال ﷺ

يومئذٍ: «نِعْمَ الطَّعَامُ التَّمْرُ»، حتى أجهدهم الحصارُ، وقذفَ الله في قلوبهم الرُّعبَ، وكان حيَيُّ بنُ أخْطَب مع بَنِي قُرَيْظَة في حصنِهم حينَ رجعَتِ الأحزابُ وفاءً لكَعْبٍ بما كان عاهدَه عليه، فلمّا أيقنوا أنّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرُ مُنْصَرِفٍ عنهم حتّى يُقاتلَهم، قال لهم كبيرُهم كعبُ بن أَسَدٍ: يا معشرَ يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنّي عارض عليكم خلالاً ثلاثاً أيّها شئتم، قالوا: وما هي؟، قال: نتابع هذا الرّجل ونصدّقه، فنأمنُ على دمائِنا وأموالِنا ونسائِنا وأبنائِنا، فو الله لقد تبَيّنَ لكم أنه نَبِيٌّ مُرْسَل، وأنه الذِي تجدونَه في كتابكم، وما منعَنا من الدّخولِ معه إلا الحسَدُ للعَرَبِ؛ حيثُ لم يكن من بني إسرائيل، ولقد كنتُ كارهاً لنقض العَهد، ولم يكنِ البَلاءُ والشّؤمُ إلا من هذا الجالس، ـ يعني حُيَيَّ بنَ أَخْطَب ـ، أتذكرونَ ما قال لكم ابنُ خِرَاشٍ حين قَدِمَ عليكم؟، إنّهُ يخرجُ بهذِهِ القرية نبيٌّ، فاتبعوه وكونوا له أنصاراً، وتكونوا آمنتم بالكتابين الأوّل والآخر، فقالوا: لا نفارقُ حكم التوراة أبَداً، ولا نَسْتَبْدِلُ به غيرَه. قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلمَّ فلْنَقْتُل أَبْناءَنا ونِسَاءَنَا، ثُمَّ نخرجُ إلى محمّدٍ وأصحابِهِ رِجالاً مُصْلِتينَ السّيوفَ، ولمْ نتركْ ورَاءَنا ثِقَلاً حتّى يحكم الله بيننا وبينَ محمَّدٍ، فإنْ نَهْلِك نَهْلِك ولم نتركْ وراءَنا نَسْلاً يُخشَى عليه، وإنْ نظفر فلعمري لنَجِدَنَّ النّساءَ والأبناءَ. فقالوا: نقتل هؤلاءِ المساكين، فما خيرُ العيش بعدهم؟!. قال: فإنْ أبيتُم عليَّ هذه، فنخْرُجُ لهم اللّيلةَ، فإنَّ الليلةَ ليلةُ السّبتِ، وعسى أنْ يكونَ محمّدٌ وأصحابُه قد أمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيبُ من محمّدٍ وأصحابِه غِرَّةً، فقالوا: نُفْسدُ سَبْتَنا، ونحدثُ فيه ما لم يُحْدِثْ فيه مَن كان قبلنا إلّا مَن قد علمتَ وأصابَه ما لم يَخْفَ عليك مِنَ المسْخِ.

فقال لهم عَمْرُو بنُ سُعْدَى القَرَظِيُّ: قد خَالفْتُم مُحَمَّداً فيما حَالَفْتُمُوه

وعاهدتموه عليه، ولم أَشْرَكْكُم في غَدْرِكم، فإنْ أبيتُم أَنْ تدخلوا معه فاثْبُتُوا على اليَهُودِيّة وأعطوا الجزْيَةَ، ووالله ما أدري يقبَلها أمْ لا؟، فقالوا: نحنُ لا نُقِرُّ للعَرَبِ بخَرَاجٍ في رِقَابِنَا يأخذونَه، القتل خيرٌ من ذلك. قال: فإنّي بريءٌ منكم، وخرج في تلك الليلة، فمرَّ بحَرَسِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعليه محمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ، فقال محمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ: مَن هَذا؟، فقال: عَمْرُو بنُ سُعْدَى، قال: اللَّهُمَّ لا تحرمني إقالة عثَرَات الكِرَام، وخلّى سبيلَه، ولم يُدْرَ بعدَ ذلك أينَ هُوَ؟، وقيل: وُجِدَتْ رِمَّتُه، وأُخْبِرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرَه، فقال: «ذَلِكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ الله بِوَفَاتِه».
وقد كان عَمْرُو بنُ سُعْدَى قال لهم قبلَ أَنْ يَقْدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحصارِهم: يا بَنِي قُرَيْظَة لقد رَأيتُ عِبَراً، رَأيتُ دارَ إِخوانِنا ـ يعني بَنِي النَّضِير ـ خاليةً، بعد ذلك العِزّ والشّرفِ والرّأي الفَاضل والعقل، تركوا أموَالَهم قد تملّكها غيرُهم، وخرجوا خروجَ ذُلّ، لا والتوراةِ ما سُلّطَ هذا على قومٍ قَطّ ولله بهم حاجَةٌ، وقد أَوْقَعَ ببَنِي قَيْنُقَاع، وكانوا أهل عدة وسلاحٍ ونَخْوَةٍ، فلم يُخْرِجْ أَحَدٌ منهم رأسَه حتى سَبَاهُم، فكُلِّمَ فيهم، فتركَهم على إجلائِهم من يثرب، يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني، وتعالوا نَتّبعْ مُحَمَّداً، فو الله إنكم لتعلمون أنه نبيٌّ، وقد بشّرَنا به علماؤُنا. ثم لا زال يخوفهم بالحرْبِ والسَّبي والجلاءِ، ثم أقبل على كعب بن أَسَد، وقال: والتوراةِ التي أنزلتْ على موسى يوم طورِ سيناء إنّه للعِزّ والشّرَفُ في الدّنيا.

فبينما هم على ذلك لمْ يَرُعْهُم إلّا مُقَدَّمَةُ جيشِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد حَلّت بساحتِهم، فقال لهم عَمْرُو بنُ سُعْدَى: هذا الذي قلتُ لكم.

ولما استمرَّ الحِصَارُ أرسلوا بِنَبَّاشِ بنِ قَيسٍ إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ

ينزِلُوا على مَا نَزَلَتْ عليه بنو النضير مِن أنَّ لهم مَا حمَلت الإبِلُ إلا السلاحَ، فأبي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَحْقِنَ دماءَهم ويُسَلِّمَ لهم نساءَهم والذُّرِّيَّةَ. فأرسلوه ثانياً بأنه لا حاجة لهم بشيءٍ مِنَ الأموَال ولا مِن غيرِها، فأبي رَسُولُ الله ﷺ إلّا أنْ يَنْزِلوا على حكمِ رَسُولِ الله ﷺ، وعادَ نَبّاشٌ إليهم بذلِك.

ثُمَّ إِنَّهُم بعثُوا إلى رَسُولِ الله ﷺ: أَنِ ابْعَثْ إلينا أَبَا لُبَابة لنَسْتَشِيرَهُ في أَمْرِنَا، واسمُه رِفَاعَةُ بنُ المنْذِر، وقد كانَ من حُلَفاءِ الأوس، وبنو قريظةَ منهم، وكان أبو لبابة مُنَاصِحاً لهم، لأنَّ مالَه وولَدَه وعِيَالَه كانت في بَنِي قُرَيْظَةَ فأرسَلَه ﷺ إليهم، فلمّا رَأوهُ قام إليه الرِّجالُ، وجَهَشَ ـ أي أسرع ـ إليه النِّسَاءُ والصبّيانُ يبكونَ في وجْهِه من شِدَّةِ المُحَاصَرَةِ وتَشْتِيتِ مَا لَهُم، فَرَقَّ لهم، فقالوا له: يا أبا لُبَابَة أَترى أَنْ نَنزِلَ على حُكْمِ محمَّدٍ؟، فقال: نَعَمْ، وأَشَارَ بِيَدِه إلى حَلقِه. أَيْ إنّه الذَّبْح. قال أبو لبابة رضي الله عنه: فو الله ما زَالتْ قدَمَايَ من مكانِهمَا حتّى عرَفْتُ أني خُنْتُ اللهَ ورَسُولَه، ـ لأنَّ في ذلك تَنْفِيراً لهم عن الانقيادِ له ﷺ ـ، فنَزَلْتُ وإِنَّ عينيَّ لتَسِيلُ مِنَ الدّمُوع. ثُمَّ انطلقَ أبو لبابة على وجْهِهِ، فلَمْ يَأتِ رَسُولَ الله ﷺ، وَارْتَبَطَ بالمسْجِدِ إلى عَمُودٍ من عُمُدِه، وهي السارية التي كانت عند بابِ أمِّ سَلمة، وكانَ أكثرُ تَنَفُّلِه ﷺ عند تلك الأُسْطُوَانَةِ، وكان ينصرفُ إليها من صلاة الصّبح، فيَسْتَبِقُ إليهَا مَنْ لَا بيتَ له إلّا المسجد من الفقراء والمساكين، فيجيءُ إليهم ﷺ ويتلو عليهم ما أنزلَ من لَيلته ويحدّثُهم ويحدّثُونَه، فارْتَبَطَ أبو لبابة بِسِلْسِلَةٍ ثَقِيلَةٍ، وقال: والله لا أذوقُ طعاماً ولا شراباً حتّى أَموتَ أو يتوبَ الله عليَّ ممّا صَنعتُ، وعاهدَ الله أن لا يطأ بَنِي قُرَيْظَة أَبَداً، ولا يُرَى في بَلَدٍ خَانَ اللهَ ورَسُولَه فيه أبداً، فلما بلغ رَسُولَ الله ﷺ خبرُه، فقال: «أَمَا لَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، وَأَمّا إِذْ فَعلَ مَا فَعَلَ، فَمَا

أَنَا بِالذِي أُطْلِقُهُ حَتَّى يَتُوبَ الله عَلَيه».

ثُمّ إنّ بَنِي قُرَيْظَة نزلوا على حكمِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَمَرَ بهم فكُتِّفُوا وجُعلوا في نَاحِيَةٍ، وكانوا سَبْعَمِائَةٍ وخَمْسِينَ مُقاتلاً، وأُخرِجَتِ النّسَاءُ والذّرَارِي مِنَ الحصُون، وجعلوا في ناحِيَةٍ أُخرَى، وكانوا أَلْفاً، واستعملَ عليهم عبدَ الله بنَ سَلَام، فتَوَاثَبَتِ الأَوسُ، وقالوا: يا رَسُولَ الله؛ مَوَالِينا وحُلَفاؤُنا، وقد فعَلْتَ في موالي إِخْوَانِنا بالأَمْسِ ما قد فعلتَ. ويعنونَ بَنِي قَيْنُقَاع، لأنّهم كانوا حُلَفاءَ الخزْرَج، وقد نزلوا على حكمِ رَسُولِ الله ﷺ، فكلّمَهُ فيهم عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابن سَلول لأنه من الخزرج، فوهبَهم له، على أَنْ يُجْلَوا كمَا تقدم، فظَنّتِ الأوسُ مِن رَسُولِ الله ﷺ أَنْ يَهَبَ لهم بَنِي قُرَيْظَة كما وهب بَنِي قَيْنُقَاع للخزرج، فلمّا كلَّمَهُ الأوسُ أبى أن يفعل ببَنِي قُرَيْظَة ما فعل ببَنِي قَيْنُقَاع. ثم قال لهم: «أَمَا تَرْضَونَ يَا مَعْشَرَ الأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنكُم»؟، فقالوا: بلى، فقال: «فَذَلِكَ إِلَى سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ»، وقيل: إنه ﷺ قال لهم: «اخْتَارُوا مَنْ شِئْتُمْ مِنْ أَصْحَابِي»، فاختاروا سَعدَ بنَ معاذ، وهو رضي الله عنه سَيّدُ الأوس حينئذٍ، فرَضِيَ بذلك رَسُولُ الله ﷺ، وكان سَعْدٌ يومئذٍ في المسجد في خَيمَةِ رُفَيدَةَ رضي الله عنها، وقد كانَ ﷺ قال لقومِ سعدِ بنِ مُعاذٍ حينَ أَصابَه السَّهْمُ بالخَنْدَق: «اجْعَلُوهُ فِي خَيمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قُرْبٍ»، لأَنّ رُفَيدَةَ رضي الله عنها كانَ لها خيمةٌ في المسجد تُداوي فيها الجرْحَى من الصّحابة ممّن لم يكنْ له مَن يقومُ عليه.

فأتاه قومُه فحملوه على حِمَارٍ، ثمّ أقبلوا به إلى رَسُولِ الله ﷺ، وهم يقولون له: يا أبا عمرو؛ أَحْسِنْ في مَوَاليك، فإنَّ رَسُولَ الله ﷺ إنّما وَلّاكَ

ذلك لِتُحْسِنَ فيهم، فأَحْسِنْ فيهم، فقدْ رأيتَ ابنَ أُبيٍّ ومَا صَنَعَ في حلفائه، وهو سَاكتٌ، فلمَّا أكثروا عليه، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقَدْ آنَ لسَعدٍ أَنْ لا تأخذَه في الله لومَةُ لائِمٍ، فقال بعضُهم: وا قَوْمَاه. فلما انتهَى سَعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى المسلمين، وهم حوله جُلوسٌ، قال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»[1]، فقاموا إليه فأنزلوه، ووقفوا صَفَّين يحيِّيه كلّ رجلٍ منهم حتّى انتهى إلى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احْكُمْ فِيهِم يَا سَعْدُ»، فقال: الله ورَسُوله أحق بالحكم. قال: «قَدْ أَمَرَكَ الله أَنْ تَحكُمَ فِيهِم»، فقال سَعْدٌ لمن في النّاحِيَةِ التي ليس فيها النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عليكم بذلِكَ عهْدُ الله وميثاقُه أَنَّ الحكمَ فيهم كمَا حَكَمْتُ. قالوا: نعم، قال: وعلى مَن هاهنا مثل ذلك؟، وأَشَارَ إلى النّاحِيَةِ التي فيها رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُعرِضٌ عَن رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إجْلَالاً لَه، فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَم»، ثم قال سعد لبَنِي قُرَيْظَة: أترْضَونَ بحكمِي، فقالوا: نعم. فأخذَ عليهم عَهْدَ الله ومِيثاقَهُ أَنّ الحكمَ ما حَكَمَ به. ثم قال سَعْدٌ: فإنّي أحكمُ فيهم؛ أَنّ تُقْتَلَ الرِّجالُ، وتُغْنَمَ الأَمْوَالُ، وتُسبَى الذّرَارِي والنّسَاءُ. وزادَ بعضُهم: وتكون الدّيارُ للمهاجرين دون الأنصار، فَقَالَتْ الأنصارُ، إخواننا المهاجرين لنا معهم، فقال: إِنّي أحبَبْتُ أَنْ يستَغْنُوا عنكم. فقال له رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ».

ثُمّ أمرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجْمَعَ مَا وُجِدَ في حصُونِهم من السّلاح وغير ذلك، فجمع، فَوُجِدَ فيها: أَلْفٌ وخمسمائةِ سيفٍ، وثلاثمائة دِرْعٍ، وأَلْفَا رُمْحٍ، وخمسمائة ترْس، ووُجِدَ أثاثٌ كثيرٌ، وآنيةٌ كَثيرةٌ، وجمالٌ نَوَاضِحَ يُسْقَى عليها الماءُ، وماشِيَة كثيرة، وخُمِّسَ ذلك مع النَّخْلِ والسَّبْي والبُيوتِ خَمْسَةَ أجزاء،

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه [٤/٦٧]، باب إذا نزل العدو على حكم رجل، رقم: (٣٠٤٣).

فَفَضَّ النَّبِيُّ ﷺ أربعةَ أَسْهُم على الناس، فجعل للفارس ثلاثةَ أسهم، وللرَّاجِل سهماً، ورَضَخَ للنّسَاءِ اللّاتي حضرنَ القِتَال، وهُنَّ: صَفِيّةُ عَمَّته ﷺ، وأمُّ عُمارَة، وأُمُّ سُلَيط، وأُمُّ العَلاء، والسَّيرَاءُ بنتُ قيس، وأُمُّ سعدِ بنِ معاذ، وكَبْشَةُ بنتُ رافع، ثُمَّ أخذَ ﷺ الخمُسَ.

وَوُجِدَ جِرَارُ خَمْرٍ فَأُهْرِيقَ، ولَمْ يُخَمَّسْ. ثمّ أمرَ رَسُولُ الله ﷺ بالأسارى أنْ يكونوا في دارِ أُسَامَةَ بنِ زيدٍ رضي الله عنهما، وبالنِّسَاءِ والذُّرِّيَّة أن يكونوا في دار ابنة الحارث النّجّارية، لأنَّ تلك الدار كانت معدودة لنزولِ الوفود من العرب. وأمرَ بالمتاع أَنْ يُحْمَلَ، وترك المواشي هناك ترعى الشَّجَرَ. ثمّ غدا ﷺ إلى المدينة، ثُمّ خرجَ إلى سُوقِ المدينةِ فخندقَ فيها خَنَادِقَ، ثمّ أَمَرَ بِقَتْلِ الأسارى، فجاؤوا بهم أَرْسَالاً، تُضْرَبُ أعناقُهم، ويلقون في تلك الخنادق. فقال بعضُهم لسَيِّدِهم كَعْبِ بنِ أَسَدٍ: يا كعبُ ما تراه يَصْنَعُ بنا؟، فقال: في كل موطن لا تعقلون، أما تَرَون أنّ من ذهب منكم لا يرجع!، هو والله القتل، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتم عَليَّ، فقالوا: ليسَ حِينَ عِتَابٍ. فلم يَزَلْ ذلك الدّأبُ، حتى فرَغَ رَسُولُ الله ﷺ منهم، ثم رَدَّ عليهم التُّرابَ في تلك الخنادق، وكان ذلك ليلاً على ضوءِ شُعَلِ السَّعفِ. وعند قتلِهم صاحَتْ نساؤُهم، وشَقَقْنَ جيوبَهُنَّ، ونَشَرْنَ شُعُورَهُنَّ، وضَرَبْنَ خُدُودَهُنَّ، ومَلأْنَ المدينةَ نُوَاحاً وبُكاءً.

وكان مِن جملةِ مَن أَتى معهم عدوُّ الله حُيَيُّ بنُ أَخْطَب مجموعة يداه إلى عنقه بحَبْلٍ، فلمَّا نظرَ إليه رَسُولُ الله ﷺ، قال: «أَلَمْ يُمَكِّنِ الله مِنْكَ يَا عَدُوَّ الله»؟، فقال: بلى، أبى الله إلا تمكينك منّي، أما والله ما لُمتُ نفسِي في

عَدَاوَتِكَ، ولكِنَّهُ مَن يَخْذُلِ الله يُخْذَل. ثم أقبل على الناس، فقال: أيّها النّاسُ إِنَّهُ لا بَأْسَ بأمرِ الله، كتابٌ وقَدَرٌ ومَلْحَمَةٌ، قِتَالٌ كَتَبَ الله على بني اسرائيل، ثُمّ جلس فَضُرِبَتْ عُنُقُه. ولما أتي بكعبِ بنِ أَسَدٍ سيِّدِ بَنِي قُرَيْظَة، قال له النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا كَعْبُ»، قال: نعم يا أبا القاسم، قال: «مَا انْتَفَعْتُمْ بِنُصْحِ ابْنِ خِرَاشٍ لَكُمْ؟، وَكَانَ مُصَدِّقًا بِي، أَمَا أَمَرَكُمْ بِاتِّبَاعِي، وَإِنْ رَأَيْتُمُونِي تُقْرِؤُونِي مِنْهُ السَّلَام». فقال: بَلى والتوراة؛ يا أبا القاسم، ولولا أنْ تُعيّرني يهودٌ بالجزَعِ مِن السّيف لاتّبعْتُك، ولكِنْ على دِينِ يَهود. فأمر رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تُضرَبَ عُنُقُهُ فَفُعِلَ بهِ ذلك. وكان المتولي لقتلِهم عليُّ بنُ أبي طالب، والزّبيرُ بنُ العوام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

ولم يُقْتَلْ من نسائِهم إلّا امرأة واحدة، يقال لها: نباتة، وقيل: مزنة، كانت طرحَتْ رحَىً على خَلَّادِ بنِ سُوَيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقتَلَتْهُ بإرْشَادِ زوجها، لِأَنهُ أَحَبَّ أَنْ لا تبقى بعده فيتزوّجها غيرُه. وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: لم يُقْتَلْ مِن نِسَاءِ بَنِي قُرَيْظَة إلّا امرأة واحدة، وكانت جاريةً حلوةً، والله إنَّها لعندي، تتحدّثُ معي، وتضحك ظهراً وبطناً، ورَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقتُلُ زوجَهَا في السُّوقِ، إذْ هَتَفَ هَاتِفٌ باسمِها، أين نباتة؟، فَقَالَتْ: أنا والله، فقلت لها: ويلك؛ ما لك؟، قالت: أُقْتَلُ، قلت: وَلِمَ؟، قالت: لِحَدَثٍ أَحْدَثْتُه، وفي لفظٍ: قَتَلَنِي زوجِي. فَقَالَتْ لها عائشة: كيف قتلك زوجك؟، قالت: أمرَني أَنْ ألقي رَحىً على أصحَابِ محمد، وكانوا تحتَ الحِصْنِ مُسْتَظِلّينَ في فَيئِة، فأدركتُ خَلّادَ بنَ سُويدٍ، فشَدَخْتُ رَأسَه، فمَاتَ، وأنا الآن أقتل به. فَانْطُلِقَ بها، فَضُرِبَتْ عُنُقُها، فكانت عائشة تقول: والله ما ألقى أعجب منها؛ لطيب نفسها وكثرةِ ضحكها وقد عرفَتْ أنّها تُقْتَلُ.

وفي لفظ آخرٍ أنها قالت: إنّي كنتُ زوجةَ رَجُلٍ من بَنِي قُرَيْظَة، وكان بيني وبينه كأشَدِّ ما يتحابّ الزَّوجَان، فلما اشتدّ أمرُ المحاصرة، قلت لزوجي: يا حسرتي على أيام الوِصَال، كادَتْ أَنْ تَنْقَضِي وتتبَدَّلَ بليالي الفِرَاق، وما أَصْنَعُ بالحياةِ بعْدَك؟، فقال زوجِي: إنْ كُنْتِ صادِقةً في دعوى المحَبّة فتعالَيْ، فإنّ جماعةً من المسلمين جالسُون في ظِلّ حِصْنٍ، فألقي عليهم حَجَرَ الرَّحا؛ لعلّه يصيبُ واحداً منهم فيقتله، فإنْ ظفروا بنا فإنّهم يقتلونك بذلك، ففَعَلْتُ. وقد أَسْهَمَ ﷺ لخلّادِ بنِ سُوَيدٍ هذا، وقال: «إنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدَين»، وأسهَمَ لسِنَانَ بنِ محصَن، وقد كان مات في زَمَن الحصار. ثم بعث رَسُولُ الله ﷺ سَعْدَ بنَ زَيدٍ الأنصاري بسبايا بَنِي قُرَيْظَة إلى نجْدٍ، فابتاع لهم بها خَيلاً وسِلَاحاً كثيراً، ثم قَسَّمَهُ رَسُولُ الله ﷺ على المسلمين.

وكان في بَنِي قُرَيْظَة الزّبير بن بَاطَا، وكان شيخاً كبيراً، وكان قد مَنَّ على ثابتِ بنِ قيسٍ في الجاهليّة يوم بُعَاث، وهي الحرب التي كانت بين الأوس والخزرج قبل قدومه ﷺ المدينة، وكان الظَّفَرُ فيها للأوس على الخزرج آخراً، فأخذه فجَزَّ ناصيته، ثم خَلّى سبيلَه، فجاء ثابتٌ رضي الله عنه للزّبيرِ، فقال: هل تعرفني؟، قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟، فقال: إنّي أردْتُ أَنْ أجزيَك بيدِك عندي، فقال: إنّ الكريمَ يجزي الكريمَ، وأحوجُ ما كُنْتُ إليك اليوم، فأتى ثابتٌ رضي الله عنه إلى رَسُولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، إنه كانَ للزّبيرِ عليَّ مِنّةٌ، وقد أحببتُ أَنْ أجزيَه بها، فهَبْ لي دَمَه، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «هُوَ لَكَ» فأتاه، فقال: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قد وهبَ لي دمَك فهو لك، فقال: شيخٌ كبيرٌ لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟!. قال ثابت: فأتيتُ رَسُولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله؛ بأبي أنتَ وأمي، هَبْ لي امرأته وولَدَه، فقال: «هُمْ لَكَ»،

فأتيتُه، فقلتُ: قد وَهَبَ لي رَسُولُ الله ﷺ أَهلَك وولدَك، فهم لك، فقال: أهلُ بَيتٍ بالحِجَازِ لا مال لهم، فما بقاؤُهم على ذلك؟، فأتيت رَسُولَ الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هَبْ لي مالَه، فقال: «هُوَ لَكَ»، فأتيته، فقلت له: قد أعطاني رَسُولُ الله ﷺ مالك، فهُوَ لك، فقال: يا ثابتٌ، أَمّا أنتَ فقد كَافَأْتني، وقد قضَيتَ الذي عليك، فأخبرني ما فُعِلَ بالذي كان وجْهُهُ مِرْآةً مُضِيئَةً تتراءى منها عذارى الحيِّ؛ كَعْبِ بنِ أَسَدٍ؟، فقلت: قُتِلَ، قال: فما فُعِلَ بسيّد الحاضر والبادي، ومن يَحْمِلُهُم في الجَدْبِ، ويُطْعِمُهم في المَحْلِ، حُيَيِّ بنِ أخْطَب؟، فقُلْتُ: قُتِلَ. قال: فما فُعِلَ بمُقَدِّمَتِنا إذا شَدَدْنَا، وحَامِينا إذا فرَرْنَا عَزَّالِ بنِ سَمُوأل؟، قُلْتُ: قُتِلَ، قال: فما فعل المجلسان ـ يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة ـ؟، فقُلْتُ: قُتِلُوا، قال: فإني أسألك يا ثابتُ بيدك عندي إلا أَلْحَقْتَنِي بالقوم، فو الله ما بالعيش بعد هؤلاءِ مِن خَير، أَأَرْجِعُ إلى دارٍ قد كانوا حلولاً فيها فأخْلُد فيها بعدهم، لا حاجة لي، فما أنا بصابرٍ إِفرَاغةَ دَلْوٍ ناضِح، فقلتُ له: ما كنتُ لأقتلك، فقال: لا أبالي مَن قتلني. فقتله الزبير بن العوام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ولما انقضى شأنُ بَنِي قُرَيْظَة، قال ﷺ: «لَنْ تَغْزُوكُمْ قُرَيْشٌ بَعْدَ عَامِكُمْ هَذَا، وَلَكِنَّكُمْ تَغْزُونَهُم». وقرَّتْ عينُ سعدِ بنِ معاذ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه بقتل بَنِي قُرَيْظَة، حيثُ استجابَ الله دعوتَه، فإنه سأل الله تعالى لما أصيب بالسهم في الخَنْدَق، وقال: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْنِي حَتّى تُقِرّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ. كما تقدم. ثم انفجرَ جُرْحُه الذي في يدِه فجعلَتِ الدّماءُ تسيلُ حتّى ماتَ منه، ولم يَعْلَمِ النبيُّ ﷺ بموتِه، فأتى جبريلُ النَّبيَّ ﷺ، فقال: يا محمَّدُ مَن هذا العبد الصّالح، الذي فُتِحَتْ أبوابُ السّماءِ لصعودِ روحِه واهتزَّ له العرشُ؟،

فقام رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَريعاً يَجُرُّ ثوبَه إلى سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ فوجدَه قد مَات. وقال سَلَمَةُ بنُ أَسْلَمَ بن حَرِيش رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: دخل رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيتَ سعدٍ، وما في البيت أَحَدٌ إلّا سَعْداً مُسَجّى، فرأيته يتَخَطّى، وَأَوْمَأَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليَّ أَنْ أَقِف، فوقَفْتُ، ورَدَدْتُ مَن ورَائِي وجَلَس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساعةً، ثُمَّ خرجَ فقلتُ: يا رَسُولَ الله، ما رأيتُ أحداً، وقد رأيتُكَ تَتخَطّى، فقال: «مَا قَدَرْتُ عَلَى مجْلِسٍ حَتَّى قَبَضَ لِي مَلَكٌ مِنَ الملاَئِكَةِ أَحَدَ جَنَاحَيْهِ».

ولما حملوا نَعْشَ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وجدوا له خِفّةً، وقد كان جَسِيماً، فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ لَهُ حَمَلَةً غيرَكُمْ، لَقَدْ نَزَلَ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ شَهِدُوا سَعْداً، وَمِنْهُم جُمْلَةٌ مَا وَطِؤُوا الأَرْضَ إِلّا يَومَهُم هَذَا». وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. قال: كنت ممّن حَفَرَ لسعدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قبرَه، فكان يفوحُ علينا المسْكُ من التّرابِ كلما حفرنا قبره. وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: لما دُفِنَ سَعدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ونحنُ مع رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَبّحَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَبّحَ النّاسُ معه، ثم كَبّرَ فكبّرَ النّاسُ معه، فقالوا: يا رسولَ الله لمَ سَبَّحْتَ وكَبَّرْتَ؟، فقال: «لَقَدْ تَضَايقَ عَلَى هَذَا العَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُه حَتَّى فَرَّجَهُ اللهُ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ نَاجِياً مِنْ ضَمَّة القَبْرِ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدٌ».

وكان حَمْلُ جنازةِ سَعْدِ بنِ مُعاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بين عمودين، ومشى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَامَ جنازته، ثم صلّى عليه، وجاءَت أُمُّه رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ونظرت إليه في اللّحْدِ، فَقَالَتْ: أَحْتَسِبُكَ عند الله، فعزَّاها رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو واقفٌ على قدميه عند القبر، فلما سَوَّى التّرَابَ على قبرِه رَشَّ عليهِ الماء، ثمّ وقَفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعا، ثمّ انصرفَ، وناحَتْ عليه أُمُّه، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ نَائِحَةٍ تَكْذِبُ؛ إِلّا نَائِحَةَ سَعْدِ

بنِ مُعَاذٍ» رضي الله عنه ؛ لِإنَّه موصوفٌ بِكُلِّ مَا يُقَالُ فيه من الأوصَافِ الحسنة ، بخلاف غيره[١].

ولمَّا بعثَ صاحبُ دَوْمَة الجَنْدَل إلى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم جُبَّةً من سُنْدُس ، وجعلَ أصحابُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ورَضِيَ عنهم يعجبونَ من تلكَ الجبَّةِ ، قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لمَنادِيلُ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ في الجنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذِهِ»[٢].

ونَزَلَتْ توبةُ أَبِي لُبَابَةَ رضي الله عنه على رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيتِ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها . وقد كانَ أَقَامَ مَرْبُوطاً سبعَ لَيَالٍ فكانت امْرَأَتُه تأتيه في وقتِ كُلِّ صَلاةٍ فَتَحُلُّهُ للصَّلاةِ وكذا إذا أرادَ قضاءَ حاجَةِ الإنسان ، ثمّ يعودُ فَتَرْبُطُهُ بالعمودِ حتى كادَ يذهبُ سمعُه وبصرُه ، قالتْ أُمُّ سَلَمَةَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم من السَّحَرِ يَضْحَكُ. فقلتُ: مِمَّ تَضْحَكُ يا رسولَ الله ؛ أَضْحَكَ الله سِنّك ؟ ، قال: «تِيْبَ عَلَى أَبِي لُبَابَة». قلت: أَفَلَا أُبشِّرهُ ؟ ، فقال: «بَلَى إِنْ شِئْتِ». فقامت أمُّ سَلَمَةَ ببابِ حُجْرَتِها ، فَقَالَتْ: يا أبا لُبَابَةَ ؛ أَبْشِرْ فَقَدْ تَابَ الله عليك ، فثارَ النّاسُ إليه لِيُطْلِقُوهُ فقال: لا والله ؛ حتى يكونَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقني بيدِهِ الشَّرِيفَة. فلمَّا مَرَّ صلى الله عليه وسلم على أبي لبابة وهو خَارِجٌ إلى صلاةِ الصُّبْحِ أَطْلَقَهُ. فقال للنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ من تمام توبتي أَنْ أَهْجُرَ دارَ قوم أصبتُ فيها الذّنْبَ ، وأَنْ انْخَلِعَ مِن مالي ، فقال له: «يَجْزِيكَ الثُّلُثُ أَنْ تَتَصَدَّقَ بِهِ».

---

(١) النُّوَاحُ: رفع الصوت بتعديد شمائل الميت ومحاسن أفعاله ، وهو حرام بالإجماع ، فإن لم يكن برفع صوت سُمِّيَ نَدْبٌ ، ولعلّ استثناءَ أمّ سَعْد خصوصية لها من الشارع ، أو لأنّ نُوَاحَها لم يَكُنْ كَنُوَاحِ بقيَّةِ النّساء.

(٢) رواه البخاري في صحيحه ، [١٦٣/٣] ، باب قبول الهدية من المشركين ، حديث رقم: (٢٦١٥).

٢١ ـ غَزْوَة بَنِي لِحْيَان

وبعد مُضِيِّ سِتّة أشْهُرٍ من غَزْوَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ غَزَا رَسُوْلُ الله ﷺ بَنِي لِحْيَان من هُذَيل يطلبهم بأصحابِ الرَّجِيعِ، وهم الذين قُتِلُوا ببئر مَعُونة كما سيأتي ذكره في السّرايا، لأنه ﷺ حزن حُزْناً شديداً على أصحابِه المقتولين بالرَّجِيع، وأرادَ أنْ ينتقمَ من هُذَيل، فأمر أصحابَه بالتّهيُّؤ، وأظهرَ أنه يريدُ الشَّام؛ لِيُدْرِكَ مِن القوم غِرَّةً، واسْتَعْمَل على المدينة ابنَ أمِّ مَكْتُوم رضي الله عنه، وخرج في مائتي رجل، ومعهم عشرون فرساً، ولما وصلَ ﷺ إلى المحَلّ الذي قُتِلَ فيه أهلُ الرَّجِيع ترَحّم عليهم ودعا لهم بالمغفرة، فسمِعَتْ به بنو لحْيان، فهَرَبوا إلى رُؤوسِ الجبال، فأرسل السَّرَايا في كل ناحية فلم يجدوا أحداً، وأقام ﷺ على ذلك يومين، فلما رأى أنه فاته ما أرادَه من غرَّتِهم، قال: «لَوْ أَنَّا هَبَطْنَا عُسْفَانَ لَرَأَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنَّا قَدْ جِئْنَا مَكَّةَ»، فخرج حتى نزل عُسْفَانَ، ثم بعثَ فارسين من أصحابِه فبلغا كُرَاعَ الغَمِيم، ثم كرَّا رَاجعين. ثم توَجَّهَ النبيُّ ﷺ إلى المدينة. قال جابر رضي الله عنه: سمعت النبيَّ ﷺ يقول حين توجه إلى المدينة: «آيِبُونَ تَائِبُونَ إِنْ شَاءَ الله لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»، قيل: ولم يُسْمَعْ هذا الدعاء منه ﷺ قبل ذلك، وكانت غيبته عن المدينة أربع عشرة ليلة.

وذكَرَ بعضُهم: أنه ﷺ لما رجع من بني لِحْيَان وقف على الأبواءِ فنظر يميناً وشمالاً، فرأى قبرَ أمِّهِ آمنة، فتوضأ ثم صلّى ركعتين، فبكى وبكى الناس لبكائِه، ثم قام فصلّى ركعتين، ثم انصَرَفَ إلى النّاس، وقال لهم ﷺ: «مَا الَّذِي أَبْكَاكُمْ»؟، فقالوا: يا رسول الله؛ بكَيتَ فبكينا، قال: «مَا ظَنَنْتُم»؟، قالوا: ظننا أنّ العذابَ نَازِلٌ علينا، قال: «لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيءٌ»،

فقالوا: ظننا أنّ أمتك كُلِّفَتْ مِنَ الأَعمالِ ما لا تُطيق، قال: «لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيءٌ، وَلَكِنّي مَرَرْتُ بِقَبْرِ أُمِّي، فَصَلَّيْتُ رَكْعَتَينِ، ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُ رَبّي ﷻ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا، فَزُجِرْتُ زَجْراً، فَأَبْكَانِي»، وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: زَارَ رَسُوْلُ الله ﷺ قبرَ أُمِّهِ، فبكى وأبكى من حوله، وقال: «اسْتَأْذَنْتُ رَبّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُورُواْ القُبُورَ فَإِنَّها تُذَكِّرُ الموتَ»[1].

٢٢ ـ غَزْوَة ذِي قَرَد

ولما قَدِمَ رَسُوْلُ الله ﷺ المدينةَ مِن غَزْوَة بني لِحْيَان لم يَقُمْ بها إلا لَيالي قَلائِل حتى أَغَارَ عُيينةُ بنُ حِصْن في خَيْلٍ من غَطَفَان على لِقَاحِ رَسُوْلِ الله ﷺ بالغَابة، وكانت عشرين لِقْحَةً، وفيها رُجُلٌ مِن بني غِفَار، وهو وَلَدُ أبي ذر الغفاري وزوجةُ أبي ذَرّ، وكان راعيها يرجع بلبنِها كلّ ليلةٍ عند المغرب إلى المدينة، فقتَلوا الرّجُلَ واحتملوا المرْأَةَ مع اللِّقَاح. وقد كان أبو ذَرٍّ رضي الله عنه استأذنَ رَسُوْلَ الله ﷺ في أنْ يكونَ في اللّقاح، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا تَأْمَنْ عُيينَةَ بنَ حِصْنٍ وَذَوِيهِ أَنْ يُغِيرُوا عَلَيْكَ»، فألحَّ عليه، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَكَأَنّي بِكَ قَدْ قُتِلَ ابنُكَ، وَأُخِذَتْ امْرَأَتُكَ، وَجِئْتَ تَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاكَ»!. فكانَ أبو ذرٍّ رضي الله عنه يقول: عَجَباً لي ورَسُوْلُ الله ﷺ يقول: «لَكَأَنّي بِكَ..»، وأنا ألح عليه، فكان والله ما قالَ رَسُوْلُ الله ﷺ، فإنّي والله لَفِي منزلنا ولقاحُ رَسُوْلِ الله ﷺ قد رَوَّحَتْ وحَلَبتْ، ونِمْنَا، فلما كان الليل أَحْدَقَ بنا عُيينةُ بنُ حِصْنٍ في أَرْبَعين فارساً، فصاحوا بنا وهم

---

(١) نُنبّه القارئَ الكريمَ هُنا إلى أنْ لا يغفلَ عمّا سَبَقَ بيانُه في بابِ وفاة أُمّ النَّبِيِّ ﷺ.

قيامٌ على رؤوسِنا، فأشرَف لهم ابنِي فقَتلُوهُ، وكان معه ثلاثةُ نَفَرٍ فنجوا، وتَنَحّيتُ عنهم، وشَغَلَهم عني إطلاقُ عُقُلِ اللِّقاح، ثمّ صاحوا في أدبارِها، فكان آخرُ العهدِ بها، ولما قَدِمْتُ المدينةَ على رَسُوْلِ الله ﷺ وأَخْبَرْتُه تَبسَّمَ.

وكان أوّل من عَلِمَ بهم سَلَمَة بن الأَكْوَع رضي الله عنه، فإنّه غدَا يُرِيدُ الغَابَةَ، مُتَوَشّحاً قوسَهُ، ومعه غُلامٌ لطَلحَةَ بنِ عُبيدِ الله، معه فرسٌ لطلحَةَ يقودُه، فلقيَ غلاماً لعبد الرحمن بنِ عوف، فأخبرَه أَنّ عيينةَ بنَ حصنٍ قد أغارَ على لقاحِ رَسُوْلِ الله ﷺ في أربعين فارساً من غَطَفَان. فقال سَلَمَة بن الأَكْوَع: اقعد على هذا الفرس، فأَخْبِرْ رَسُوْلَ الله ﷺ أَنْ قَد أُغِيرَ عَلى سَرْحِه. ثمّ إنّ سلمةَ رجعَ إلى المدينة وعلا ثَنِيّةَ الوَدَاع، فنظر إلى بعضِ خُيولهِم، فصَرخَ بأعلَى صوتِه: واصَبَاحَاه[1]. قال ذلك ثلاثَ مَرّاتٍ. ثم خرجَ يَشْتَدُّ في أَثَرِ القوم كالسّبع، وقد كان يسبقُ الفرَسَ جرْياً حتى لحق بهم، فجعلَ يَرُدُّهُمْ بالنَّبْلِ، ويقولُ إذا رَمى: (خُذْهَا وَأَنَا ابنُ الأَكْوَع، واليَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّع)، أي: يومُ هَلَاكِ اللّئَام. فكانوا إذا وجَّهُوا الخيلَ نحوه انطلقَ هارباً، وهكذا يفعل..، قال رضي الله عنه: كنت ألحقُ الرَّجُلَ منهم فأرميه بسَهْمٍ في رجلِه فيَعْقِرُه، فإذا رجعَ إليَّ فارسٌ منهم أتيت شجرةً فجلست في أصلها، ثم أرميه فأعقره فيولي عنّي، فإذا دخَلَتِ الخيلُ في بعضِ مَضَايِقِ الجبَلِ علوتُ الجبَلَ ورميتُهم بالحِجَارَةِ، قال: ولم أَزَل أرميهم حتّى ألقوا أكثرَ من ثلاثينَ رُمحاً، وأكثر من ثلاثين بُرْدَةً يسْتَخِفُّونَ بها، ولا يُلقونَ شيئاً من ذلك إلا جعلتُ عليه حِجَارَةً، وجمعته على طريق رَسُوْلِ الله ﷺ، وما زلتُ أتبعهم حتّى ما خلقَ الله تعالى مِن بَعِيرٍ لرَسُوْلِ الله ﷺ إلا خَلّوا بينَهم

(١) صَباحَاه: هي كلمة تُقَال عند استنفار من كان غافلا عن عدوه، كانت العرب تقول إذا نَذِرَتْ بغَارةٍ من الخيل تَفْجَؤُهم صَباحاً: "يا صَباحاه"، يُنْذِرونَ بذلك النداء الحَيَّ أَجْمَعَ.



وبينَه، وخَلَّفْتُه وراءَ ظَهْري.

ولما بلغ رَسُوْلَ الله ﷺ صياحُ ابنِ الأَكْوَعِ صرخ بالمدينة: «الفَزَعَ، يَا خَيْلَ الله ارْكَبِي»، فكان أوّل من انتهى إلى رَسُوْلِ الله ﷺ من الفرسان المقداد بن عمرو، ثم عباد بن بشر وسعيد بن زيد، ثم تلاحقت به الفرسان، وأمَّرَ عليهم سعيدَ بن زيد، وعقدَ ﷺ له لِوَاءً في رُمحِه. ثم قال له: «اخْرُجْ فِي طَلَبِ القَوْمِ حَتَّى أَلْحَقَكَ بِالنَّاسِ»، فخرج الفرسانُ في طلبِ القوم حتى تلاحَقُوا بهم، وكان شعارهم يومئذ: "أَمِتْ أَمِتْ"، وأوّل فارس لحق بهم مُحْرِزُ بنُ نَضْلَةَ، ويقال له: الأَخْرَمُ الأَسَدِي، فوقف لهم بين أيديهم، وقال لهم: يا معشر بني اللَّكِيْعَة ـ أي اللَّئِيمَة ـ، قفوا حتى يلحقَ بكم من وراءَكم من المهاجرين والأنصار، فحمل عليه شخصٌ من المشركين فقتَلَه.

قال سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ رضي الله عنه: ثمّ إنّ القومَ جلسوا يتغدّون، وجلستُ على رأس قَرْنِ جَبَلٍ، فقال لهم رجل أتاهم: مَن هذا؟، قالوا: لقينا من هذا البرح حتّى انتزَع كلّ شيءٍ كان في أيدينا، فقال: لِيَقُمْ إليَّ منكم أربعة، ثم توجّهوا إليَّ، فهددتهم فقلت: هل تعرفونني؟، قالوا: لا، ومَن أنت؟، قلت: أنا سَلَمَة بن الأَكْوَعِ، والذي كَرَّمَ وجْهَ محمَّدٍ ﷺ لا أطلبُ رَجُلاً منكم إلا أدركتُه، ولا يطلبني فيدركني، فقال بعضُهم: إنا نَظُنّ ذلك، ثم رجعوا، فما بَرِحْتُ مكاني حتّى رأيتُ فوارسَ رَسُوْلِ الله ﷺ يَؤُمُّهم الأَخْرَمُ الأسدي، فلما رأيتُه أَوَّلَ الفرسان، نزلتُ من الجبل وأخذتُ بعنانِ فرَسِه، وقلتُ له: احْذَرِ القَومَ، لا يَقْتَطِفُوكَ حتّى يلحقَ رَسُوْلُ الله ﷺ وأصحابُه، فقال: يا سلمة، إنْ كنتَ تؤمنُ بالله واليوم الآخر، وتعلمُ أنّ الجنة حق وأن النار حق، فلا تَحُلْ بيني وبين

الشهادة، فخَلّيت عنه، فلقِيَ عبدَ الرّحمن بن عيينة، ـ ويقال له: حَبِيب ـ، ثم إنَّ الأَخْرَمَ عقرَ فرَسَ عبدِ الرّحمن، فطعنه عبدُ الرّحمَن فقتَلَه، وتحوَّلَ على فرسِ الأَخْرَمَ، فلحقَ أبو قتَادَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عبدَ الرّحمن، فعقرَ عبدُ الرحمن فرَسَ أبي قتادة، فقتله أبو قتادة، وتحوَّلَ أبو قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على فَرَسِه. ولم يُقتَل في هذه الغزوةِ من المسلمين إلا مُحْرِزُ بنُ نَضْلَةَ الأَسَدِي، وكان قد رأى قبل ذلك بيوم أن سماء الدنيا فرجت له، فولجها، ثُمَّ ولَجَ ما بعْدَها حتّى انتهى إلى السماء السابعة، ثم انتهى إلى سدرة المنتهى، فقيل له: هذا منزلك. فعرضَها على أبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكانَ مِن أَعْلَمِ الناس بالتّعبير، فقال له: أَبْشِر بالشَّهادة.

ثُمَّ أقبلَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسلمين، وقد استعمل على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، واستعمل على حرسِ المدينة سعدَ بنَ عبادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ثلاثمائة من قومِه يحرسُون المدينةَ، وفي الطريقِ وجدوا حَبِيبَ بنَ عُيينة مُسَجّىً بِبُردِ أبي قَتَادَة، فاسْتَرْجَعَ المسلمون، وقالوا: قُتِلَ أبو قتَادَة، فقال لهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ بِأَبي قَتَادَةَ، وَلَكِنَّه قَتِيْلٌ لِأَبِي قَتَادَةَ، وَضَعَ عَلَيهِ بُرْدَهُ لِيُعْرَفَ أَنهُ صَاحِبُهُ» ـ أي القاتل له ـ، فخرج عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حتى كشفَ البُرْدَ عن وجه المُسَجَّى، فإذا هو وجه حبيب، فقال: الله أكبر، صدق الله ورسولُه، يا رسولَ الله، هذا غير أبي قتادة.

وفي روايةٍ: أَنّ أبا قتادةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اشترى فرساً فلقِيَه مَسْعَدَةُ الفَزارِيّ فتفاوضَ معه، فقال له أبو قتادة: أَمَا إِنّي أَسْأَلُ الله أنْ ألقاكَ وأنا عليها، فلمَّا أُخِذَتْ اللّقاح، رَكِبَ تلك الفرَسَ وسارَ، فلقيَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له: «اِمْضِ يَا أَبَا قَتَادَةَ، صَحِبَكَ الله»، قال أبو قتادة: فسِرْتُ حتى هَجَمْتُ على القوم، فرُمِيتُ بسَهم في

جبهتي، فنزعتُ قدَحَه وأنا أظنّ أني نزعت الحديدة، فطلع عليَّ فارِسٌ، وقال: لقد أَلْقَانِيكَ الله يا أبا قتادة، وكشفَ عن وجْهِهِ فإذا هو مَسْعَدَةُ الفَزَارِيّ، فقال: أَيَمَا أحَبُّ إليك: مجالدة، أو مطاعنة، أو مصارعة؟، فقلتُ: ذاك إليك، فقال: صِراع، فنَزل وعلَّقَ سيفَه في شجرةٍ، ثمّ نزلتُ وعلّقت سيفي في شجرة، وتَوَاثَبْنَا فرزقني الله الظَّفرَ عليه، فإذا أنا على صدرِه وإذا شيءٌ مَسَّ رأسِي، فإذا سيفُ مَسْعَدَةُ قد وصلت إليه في المعالجة، فضَربتُ بيدِي إلى سيفِه وجرَّدْتُ السَّيفَ، فلمّا رأى أَنَّ السَّيفَ وقعَ بيدِي قال: يا أبا قتادة اسْتَحْيِنِي، قلتُ: لَا والله، قال: فمَن للصِّبْيَةِ؟ قلت: النّارُ، ثم قتلْتُه، وأَدْرَجْتُه في بُردِي، ثُمّ أَخَذْتُ ثيابَه فلبِسْتُها، ثُمَّ اسْتَوَيتُ على فرسِه، فإِنَّ فرَسِي نفرَتْ حيثُ تعالجْنَا وذَهَبَتْ للقَوم فَعَرْقَبُوهَا[1]، ثم ذهبْتُ خلفَهم فحملتُ على ابنِ أَخِيهِ فدَقَقْتُ صُلْبَه، فانكشفَ مَن مَعه عن اللّقاح، فحبَسْتُ اللّقَاحَ برُمْحِي وجِئْتُ أحرُسُها، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَفْلَحَ وَجْهُكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ»، فقلتُ: ووجْهُك يا رسولَ الله، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ «أَبُو قَتَادَةَ سَيِّدُ الفُرْسَانِ، بَارَكَ الله فِيْكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ وَفِي وَلَدِكَ وَوَلَدِ وَلَدِكَ»، ثم قال لي ﷺ: «مَا هَذَا الذِي بِوَجْهِكَ»؟، قلت: سهم أصابني، فقال: «ادْنُ مِنّي»، فنزعَ السَّهْم نزعاً رفيقاً، ثم بَزَقَ فيه، ووضع راحته عليه، فو الذي أكرمه بالنُّبُوَّةِ ما ضرَبَ عليَّ ساعةً ولا قَرَحَ ولا قَاحَ عليَّ قَطُّ، ثم قال لي ﷺ: «قَتَلْتَ مَسْعَدَةَ»؟، قلتُ: نعم، فقال ﷺ ـ يدعو لأبي قتادة ـ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي شَعْرِهِ وَبَشَرِهِ»، وأعطاه فرَسَ مَسْعَدَةَ وسِلَاحَه. قيل: وقد ماتَ أبو قتادة رضي الله عنه وهو ابن سبعين سنة وكأنه ابنَ خمس

---

(١) عَرْقَبُوهَا: قطعوا عُرقوبَها، وعُرْقوبُ الدَّابةِ: العصَبُ الغَلِيظُ المُوتَّرُ في رِجْلِها، بمنزلة الرُّكْبَةِ في يَدِها.

عشرة سنة بدعاءِ النّبيِّ ﷺ له.

وسارَ رَسُوْلُ الله ﷺ حتّى نزَلَ بالجبَل مِن ذِي قَرَدٍ، بناحية خَيْبَرَ، وتلاحق به الناسُ، وقال له سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ: يا رسولَ الله، إنّ القومَ عِطَاشٌ فلو بعثْتَنِي في مائةِ رَجُلٍ اسْتَنْقَذْتُ ما بقيَ في أيديهم مِن السّرْح، وأَخَذْتُ بأعْنَاقِ القوم. فضَحِكَ ﷺ وقال: «مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ»، والمعنى: قدَرْتُ فاعْفُ. وإنّما كانوا عِطَاشاً لأَنَّ سلمةَ رضي الله عنه ذكرَ أنه تبعهم إلى قبيل غروبِ الشمس إلى أنْ عَدَلوا إلى شعبٍ فيه ماءٌ يقال له: ذُو قَرَد، فنَحَّاهم عنه ومنعَهم الشّربَ منه، وتركوا فرَسَين، فجاءَ بهما سَلَمَةُ رضي الله عنه إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، وقال له ﷺ: «القَومُ الآنَ يَغْبُقُونَ بِأَرْضِ غَطَفَان» ـ أي يشربون اللبن بالعَشِيّ وهو الغَبُوق ـ، فجاءَ رجلٌ من غَطَفَان فقال: مرّوا على فلان الغَطَفَاني فنحرَ لهم جَزُوراً، فلما أخذوا يكْشُطُون جِلْدَها رأوا غَبَرةً، فَخرَجُوا هِرَاباً.

ثمَّ نزلَ رَسُوْلُ الله ﷺ عند الماءِ الذي أَجْلَى سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ القومَ عنه، ولم تَزَلِ الخيلُ تأتي والرِّجالُ على الإبل وعلى أقدامِهم حتى انتهوا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ ومكَثَ يوماً وليلةً، ونحرَ لهم بلالٌ رضي الله عنه ناقتَه. ولما أصبحَ ﷺ قال: «خَيْرُ فُرْسَانِنَا أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرُ رِجَالَتِنَا سَلَمَةُ» رضي الله عنهما، وأعطى ﷺ سَلَمَةَ بنَ الأَكْوَعِ سهمَ الرَّاجِلِ والفارس جميعاً.

وقد كان رسولُ الله ﷺ ـ عند خروجه وتلاحُقِ بعضِ الفُرْسَان به ـ قال لأبي عيّاشٍ: «لَوْ أَعْطَيْتَ هَذَا الفَرَسَ رَجُلاً هُوَ أَفْرَسُ مِنْكَ لَلَحِقَ بِالنَّاسِ». قال أبو عيّاشٍ: فقلتُ: يا رَسُولَ الله، إنّي أَفْرَسُ النَّاس، قال أبو عَيَّاشٍ: فَوَالله ما جَرَى بي خمسينَ ذراعاً حتّى طرحني، فعجبتُ لذلك. وقَسَّمَ ﷺ في

كلّ مائةٍ من أصحابِه جَزُوراً ينحرونَها وكانوا خمسمائةٍ، وبعثَ سَعْدُ بنُ عُبَادة رضي الله عنه بأَحْمَالِ تَمْرٍ، وبعَشْرِ جَزَائِرٍ، فوافَتْ رَسُوْلَ الله صلى الله عليه وسلم بذِي قَرَدٍ، فقال صلى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ ارْحَمْ سَعْداً وَآلَ سَعْدٍ، نِعْمَ المرْءُ سَعْدُ بنُ عُبَادَة»، فقالَتْ الأنصارُ: هو سيِّدُنا وابنُ سيِّدِنا، من بيتٍ يطعمُونَ في المَحْلِ، ويحملونَ الكَلّ، ويحملونَ عَنِ العَشِيرة، فقال رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم: «خِيَارُ النَّاسِ فِي الإِسْلَامِ خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ إِذَا فَقُهُوا فِي الدِّين»[1].

ثم أقبلتِ امْرَأةُ أبي ذَرٍّ رضي الله عنهما على ناقةٍ من إبلِ رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم، كانتْ في جُمْلَةِ اللِّقَاح وهِيَ القصْوَى، أَفْلَتَتْ مِنَ القوم فطلبُوها فأَعْجَزَتْهم، فإنّها انفلتت من الوثاق ليلاً، فأتَتْ الإبلَ، فجعلت كلمّا دَنَتْ من البَعِيرِ رَغَا[2]، فتَتْرُكُهُ، حتّى انتهَتْ إلى القصوى، فلم تَرْغُ، فقعَدَتْ عليها، ثُمّ زَجَرَتْهَا، ولما علموا بها طلبوها فأعجزَتْهم، وكانت قد نَذَرَتْ لَئِنْ نجَّاها الله عز وجل لتَنْحَرَنَّها، فلما أتَتِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، قالتْ: يا رسولَ الله، قد نذرْتُ أَنْ أنحرها إِنْ نجَّانِي الله عليها، وآكل مِن كبدِها وسَنامِها، فتبسّمَ رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم وقال: «بِئْسَمَا جَزَيْتِيهَا؛ أَنْ حَمَلَكِ الله عَلَيْهَا وَنَجَّاكِ بِهَا ثُمَّ تَنْحَرِينَهَا؟!، لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ الله وَلَا فِيمَا لَا تَمْلِكِينَ، إِنَّمَا هِيَ نَاقَةٌ مِنْ إِبِلِي، ارْجِعِي إِلَى أَهْلِكِ عَلَى بَرَكَةِ الله تَعَالَى»[3].

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه [٤/١٧٨]، حديث رقم: (٣٤٩٣)، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسْلَامِ إِذَا فقهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً».

(٢) **الرُّغاءُ**: صوتُ ذَوَاتِ الخُفّ. يقال: رَغَا البعيرُ، والناقة تَرْغُو رُغاءً، إذا صوَّتت وضَجَّت.

(٣) رواه البيهقي في دلائل النبوة [٤/٢٦٣]، برقم: (١٥٣٠). وقد جاء في بعض الروايات أنّ الناقةَ هي العضباءُ، وفي بعضها أنّها الجَدْعَاءُ، وكان صلى الله عليه وسلم قال حين نُهِبَتْ: «لَئِنْ رَدَّهَا الله عز وجل عَلَيَّ=



ثم رجعَ رَسُوْلُ الله ﷺ إلى المدينةِ وهو على ناقته العَضْبَاء مُرْدِفاً سَلَمَةَ بنَ الأَكْوَعِ رضي الله عنه، وقد غابَ عن المدينة خمس ليالٍ.

٢٣ ـ غَزْوَة الحُدَيْبِيَة

وسبَبُها أَنَّ النبيَّ ﷺ رأى في النّوم أنه دخلَ مَكَّةَ هو وأصحابه آمنين، محلِّقِينَ رؤُوسَهم ومُقَصِّرين، وأنه دخلَ البيتَ وأَخَذَ مِفْتاحَه، وعَرَّفَ مع المُعَرِّفِين، وطاف هو وأصحابُه، واعتمروا، وأخبرَ بذلك أصحابَه ففرِحُوا، ثمّ أخبرَ أصحابَه أنه يريدُ الخروجَ للعمرةِ فتجهزوا للسَّفر، وخَرَجَ النبيُّ ﷺ مُعْتَمِراً مُحْرِماً؛ ليَأْمَنَ أَهلُ مَكَّةَ ومَن حولَهم من حرْبِه، وليعلموا أنه ﷺ إنما خرجَ زائِراً للبيتِ ومُعَظّما له.

وكان إِحْرَامُ النبيِّ ﷺ بالعُمرةِ من ذِي الْحُلَيْفَةِ، بعد أنْ صلّى بها ركعتين ثم انْبَعَثَتْ به راحلتُه مستقبلَ القبلة؛ فأَحْرَمَ وأحرَمَ معه غالبُ أصحابِه، ومنهم مَن لم يحرمْ إلا بالجُحْفَةِ، وكان خروجُه في ذي القعدة، وكانت تلبيتُه ﷺ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَا شَرِيْكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لَا شَرِيْكَ لَكَ».

واستعمل ﷺ على المدينة الشريفة نُمَيْلَةَ بْنَ عَبْدِ الله اللّيْثِيّ، واستخلفَ ابنَ أمِّ مَكْتُوم على الصَّلاةِ، وكان خروجُه ﷺ بعدَ أَنْ اسْتَنْفَرَ العرَبَ ومَن حولَه مِن أهل البَوَادِي من الأعرَاب، ممّن أَسْلَمَ مِن غِفَار، ومُزَيْنَة،

= لَأَشْكُرَنَّ رَبِّي»، فكانوا يظنّونَ أنه سَيُحْدِثُ صَوماً أو صَلَاةً إذا رَآها، فَلَمْ يَزِدْ على أَنْ قالَ: «الحَمْدُ لله».

وجُهَينَةَ، وأَسْلَم ـ القبيلة المعروفة ـ، خشيةً مِن قريش أَنْ يُحارِبُوه، وأَنْ يصدّوه عَنِ البيتِ، فتثاقل كثيرٌ منهم، وقالوا: أنذهبُ إلى قومٍ قد غزوه في عُقْرِ دارِه بالمدينة وقتلوا أصحابَه فنقاتِلُهم؟!، ثُمَّ تَعَلَّلُوا بالشُّغْلِ بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم مَن يقومُ بذلك، فأنزلَ الله تعالى تكذيبهم في اعتذارهم ذلك بقوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح: ١١].

وسارَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدَ أَنِ اغْتَسَلَ ببَيتِه، ولبِسَ ثوبين، وركِبَ راحلتَه القصوى من عند بابه، وخرجَ ومعه أُمُّ سَلَمَةَ وأُمُّ عُمارَةَ وأُمُّ مَنِيعٍ وأُمُّ عامِرٍ الأَشْهَلِيَّة رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ، ومعه المهاجرون والأنصار ومن لَحِقَ بهم من العَرَب بعد أن أبطأ عليه كثيرٌ منهم، وساقَ معه مِنَ الهدْي سبعينَ بدَنَة، وجَلَّلَها بذِي الْحُلَيْفَةِ بعد أَنْ صلّى بها الظّهرَ، ثم أَشْعَرَ منها عِدّةً وهُنَّ مُوَجَّهات للقبلةِ في الشّقّ الأيمن مِنْ سَنامِها، ثم أمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاجِيَةَ بنَ جُنْدُب، فأشْعَرَ مَا بَقِيَ، وقلّدَهُنَّ نعْلاً نَعْلاً، وأشعرَ المسلمون بُدْنَهُم وقلّدُوها. والإِشْعَارُ: جرْحٌ بصَفْحَةِ سَنامِها. والتّقْلِيدُ: أَنْ تُقلّدَ في عُنُقِها قِطْعَةَ جِلْدٍ أو نعْلاً بَالِيةً ليُعلمَ أنه هَدْيٌ فيَكُفَ النّاسُ عنه. وكان المسلمون الذين معه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألفاً وأربعمائة، وقيل: وخمسمائة.

ثم ساروا وليسَ معهم سِلَاحٌ إلّا السّيُوف في القُرُبِ، فقال عمرُ بنُ الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا رَسُولَ الله، أتخشَى مِن أبي سُفْيَان وأصحابِه ولم تأخذْ للحَرْبِ عدّتَها؟، فقال: «لَسْتُ أُحِبُّ أَنْ أَحْمِلَ السِّلَاحَ مُعْتَمِراً»، وكان معهم مائتا فرَس، فأقبلوا نحوَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض المحالّ، وكان بينَ يديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكْوَةٌ يتوضّأ منها،

فقال: «مَا لَكُمْ»؟، قالوا: يا رسولَ الله، ليسَ عندنا ماءٌ نشربه ولا ماءٌ نتوضأ منه إلا ما في رَكْوَتِك هذه، فوضَع رَسُوْلُ الله ﷺ يدَه في الرَّكوة فجعلَ الماءُ يفورُ من بين أصابعِه الشّريفةِ أَمْثَالَ العيون، قال جابرٌ رضي الله عنه: فشربنا وتوضّأنا، ولو كنّا مائةَ ألفٍ لكَفَانا.

فلما كانوا بعُسْفَانَ جاءَ إليه ﷺ بِشْرُ بنُ سُفْيَان العتكي، وقد كانَ النبيُّ ﷺ أرسلَه إلى مَكّةَ عيناً له، فقال له: يا رسولَ الله، هذه قريشٌ قد سمعت بخروجِك، فاسْتَنْفَرُوا مَن أطَاعَهم من الأحابيش، وأَجْلَبَت ثقيفٌ ومعهم النساءُ والصِّبيانُ، وقد لبسوا جلود النّمُر، فأظهروا العَدَاوةَ والحقد، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون اللهَ أَنْ لا تدخلها عليهم عنوةً أبداً، وهذا خالدُ بنُ الوليد في خيلهم قد قدّمُوها إلى كُرَاعِ الغَمِيم. فأمرَ ﷺ عبّادَ بنَ بِشْرٍ رضي الله عنه فتَقَدّم في خَيلِه، فقامَ بازَاءِ خيل خالدٍ وكانت مائتي فرس، وقدِ اصْطَفّتْ إلى جِهَةِ القبلةِ، واصْطَفَّ عبّادٌ بأصْحَابِه رضي الله عنهم أمامَهم.

وحانَتْ صَلاةُ الظّهْرِ، فأذّنَ بِلالٌ رضي الله عنه وأقامَ، فاستقبلَ رَسُوْلُ الله ﷺ القبلةَ وصَفّ الناسَ خلْفَه، فركعَ بهم وسَجَدَ ثُمَّ سَلَّمَ، فقالَ المشركونَ: لقد أَمْكَنَكُم محمّدٌ وأصحابُه من ظهورِهم، هَلّا شَدَدْتُمْ علَيهِم؟، فقال خالدُ بنُ الوليد: تأتي عليهم صلاة أخرى، هيَ أحبّ إليهم من أنفسِهم وأبنائِهم ـ يعني صلاة العصر ـ، فنزل جبريل عليه السلام بين الظهر والعصر بقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، فصلّى رَسُوْلُ الله ﷺ

بأصحابِه صلاةَ الخوفِ على ما ذكرَه الله تعالى، فلمّا جعلَ المسلمون يَسْجُدُ بعضُهم وبعضُهم قائمٌ ينظرُ إليهم، قال المشركونَ: لَقَدْ أُخْبِرُوا بما أَرَدْناه بهم، ولَعَلّ هذه الصّلاة هي صلاةُ عُسْفَان التي رواها مسلمٌ، لأَنَّ كُراعَ الغَمِيم بالقُرْبِ من عُسْفَان كما تقدّم.

ولمّا سَمعَ رَسُوْلُ الله ﷺ بأنّ قريشاً تريدُ منعَه عن البيتِ قال: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ؛ لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ العَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ الّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي الله عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوّةٌ فَمَا تَظُنّ قُرَيْشٌ، فَوَالله لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الّذِي بَعَثَنِي الله بِهِ حَتّى يُظْهِرَهُ الله، أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السّالِفَةُ»، ثم قال ﷺ: «أَشِيرُواْ عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، أَتُرِيْدُونَ أَنْ نَؤُمَّ البَيْتَ فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ»؟، فقال أبو بكر: يا رسولَ الله خَرَجْتَ عامِداً لهذا البيتِ لا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ ولا حَرْباً، فتوَجَّهْ له فمن صدنا عنه قاتلناه. فقال: «فَامْضُواْ عَلَى اسْمِ الله».

ثم ساروا، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ الّتِي هُمْ بِهَا»؟، فقال رجلٌ من أَسْلَمَ: أنا يا رسول الله، ويقال: إنه نَاجِيَةُ بنُ جُنْدُبٍ، فَسَلَكَ بِهِمْ طَرِيقاً وَعْراً أَجْرَلَ بَيْنَ شِعَابٍ، فَلَمّا خَرَجُوا مِنْهُ وَقَدْ شَقّ ذَلِكَ عَلَى المسْلِمِينَ، وَأَفْضَوْا إلَى أَرضٍ سَهْلَةٍ عِنْدَ مُنْقَطِعِ الوَادِي، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِلنّاسِ: «قُولُوا: نَسْتَغْفِرُ الله وَنَتُوبُ إلَيْهِ»، فقالوا ذلك، فقال ﷺ: «وَالله إنّهَا لَلْحِطَّةُ الّتِي عُرِضَتْ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ فَلَمْ يَقُولُوهَا». ثُمَّ إِنَّ خالدَ بنَ الوليد لم يشعُرْ بالمسلمين إلّا وقد نزلوا بذلك المَحَلّ، فانطلق نذيراً إلى قريش.

ثم أَمرَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النّاسَ أن يسلكوا طريقاً تخرِجُهُم على مَهْبَطِ الحُدَيْبِيَة من أسفل مَكَّةَ، فسلكوا ذلك الطّريق، فلما كانوا بالثّنِيَةِ التي يُهْبَطُ منها بَرَكَتْ ناقتُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، القَصْوَى، فقال النَّاسُ: حَلْ حَلْ، فأَلَحَّتْ، واستَمَرَّتْ على عَدَمِ القيام، فزَجَرُوهَا فَأبتْ فقالوا: خَلَأَتِ القَصْوى. فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا خَلَأَتْ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وإِنَّمَا حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيْلِ، أَمَا وَالله لا يَسْأَلونِي اليَوْمَ خُطَّةً فِيها تَعْظِيْمُ حُرُمَاتِ الله إلا أَعْطَيْتُهُم إِيَّاهَا». ثم زجَرَها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقامتْ، فوَلَّى راجعاً عَوْداً على بَدْءٍ حتى نزلَ بالناسِ بوادي الحُدَيْبِيَة، ثم قال للنَّاسِ: «انْزِلُوْا»، فقالوا: يا رسولَ الله، ما بالوَادِي ماءٌ يُنْزَلُ عليه، فأخرجَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سهماً من كنانَتِه فأعطاه نَاجِيَةَ بنَ جُنْدُب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فنزلَ في قَلِيبٍ فغرَزَه في جوفِه، فَجَاشَ ـ عَلَا وارْتَفعَ ـ الماءُ العَذْبُ، حتى رَوِيَ الناسُ ورَوِيَتْ إبلُهُم. وعن نَاجِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: دعاني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين شُكِيَ إليه قِلَّةُ الماءِ، فأخرجَ سهماً من كنانَتِه ودفعَه إليَّ، ودعا بدلوٍ مِن مَاءِ البِئْرِ فجئتُ به، فتوضّأ، ومضْمَضَ، ثم مَجَّ الماءَ في الدّلْوِ. ثم قال: «انْزِلْ بِالدَّلْوِ فِي البِئْرِ وَأَثِرْ مَاءَهَا بِالسَّهْمِ» ففعلْتُ، فو الذي بعثَه بالحقِّ ما كِدْتُ أخرج حتّى كادَ الماء يغمرني، وفَارَتْ كما يفورُ القِدْرُ حتى طمَتْ واسْتَوَتْ بشَفِيرِها، يغْتَرِفونَ من جوانِبِها حتَّى نَهَلُوا عن آخرِهم.

قال نَاجِيَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وكانَ على البِئْرِ نَفَرٌ مِنَ المُنافِقِينَ، منهم: عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول، فقال له أَوْسُ بنُ خَوْليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ويحك يا أبا الحُبَاب، أَمَا آنَ لك أَنْ تُبْصِرَ ما أنتَ عليه؟، أبعدَ هذا شيءٌ؟، فقال: إِنّي رأيتُ مثل هذا، فقال له أوسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَبَّحَكَ الله وقبّحَ رأيكَ. ثم أقبلَ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال

له ﷺ: «يَا أَبَا الحُبَاب، أَنّي رَأَيْتَ»؟!، قال: مَا رَأَيتُ مثلَه قطّ، فقال: «فَلِمَ قُلْتَ مَا قُلْتَ»؟، قال: يا رسولَ الله؛ استغفرْ لي، وقال ابنُه عبدُ الله: يا رسولَ الله؛ اسْتَغْفِرْ له، فاسْتَغْفَرَ له.

فلمّا اطمَأَنَّ رَسُوْلُ الله ﷺ أَتَاهُ بُدَيْلُ بنُ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيِّ، في رِجَالٍ من خُزَاعَة ـ وقد كانت خُزَاعة مسلمها ومشركها لا يُخْفُونَ عنه ﷺ شيئاً كان بمَكَّةَ، فيخبرونه به وهو بالمدينة، وكانت قريش رَبّما تَفْطَنُ لذلك ـ فسألوه ما الذي جاء به؟، فأخبرَهم أنه لم يأتِ يريدُ حَرْباً، وإنّما جاءَ زائراً للبيت، ومُعَظّماً لحرمَتِه. وقال ﷺ لبُدَيل ما تقدّمَ مِن قولِه: «إنَّ قُرَيْشاً قَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ..» إلى آخره، فقال بُدَيْلُ بنُ وَرْقَاءَ: سأبلغهم ما تقول. وانطلقَ حتى أتى قريشاً، فقال: إنّا جئنَاكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإنْ شئتُم أَنْ نعرضَه عليكم فعلنا، فقال سُفَهَاؤُهم: لا حاجةَ لنا أن تخبرنا عنه بشيءٍ. وقال ذو الرأي منهم: هَات ما سمعْتَه يقول، فقال: سمعته يقول كذا وكذا ثمّ إنّ بُدَيْلاً ومَن معه من خُزَاعة قالوا لقريش: يا معشر قريش، إنكم تَعْجَلُونَ على محمّدٍ، وإنَّ محمَّداً لم يأتِ لِقِتَالٍ وإنّما جاءَ زائراً لهذا البيت. فاتّهَمُوهم وقابلوهم بما يكرهون وقالوا: إنْ كان جاءَ ولا يريدُ قتالاً فو الله لا يدخلها علينا عُنْوَةً أبداً، ولا تتحدث بذلك عنا العربُ، أيريدُ محمَّدٌ أَنْ يدخلَها علينا في جنودِه مُعْتَمِراً، فتسمع العربُ أنه قد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا؟!، والله لا كانَ هذا أبداً وفينا عينٌ تَطْرِفُ.

ثم بعثوا إليه ﷺ مِكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ، فلمّا رآه رَسُوْلُ الله ﷺ مقبلاً، قال: «هَذَا الرَّجُلُ غَادِرٌ»، فلما انتهى إلى رَسُوْلِ الله ﷺ وكلّمَه قال

له رَسُوْلُ الله ﷺ نحواً مما قاله لبُدَيل، فرجع إلى قريشٍ وأخبرَهم بما قاله رَسُوْلُ الله ﷺ. ثم بعثوا إليه ﷺ الحُلَيْس بنَ عَلْقَمَةَ وكان يَومَئِذٍ سَيِّدَ الأَحَابِيشِ، فلمّا رآه رَسُوْلُ الله ﷺ قال: «إنَّ هَذَا مِنْ قَومٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَابْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتّى يَرَاهُ»، فَلَمّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيلُ عَلَيْهِ مِنْ عُرْضِ الوَادِي فِي قَلَائِدِهِ، وَقَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِن طُولِ الحَبْسِ عَن مَحِلِّهِ، ثُمَّ استقبَلَه النّاسُ يلبُّونَ قد شَعِثُوا؛ فصَاحَ، ثم قال: سُبْحَانَ الله؛ ما ينبغي لهؤلاء أنْ يُصَدّوا عن البيت، أَبى الله أَنْ يَحُجَّ لَخْمٌ وجُذَامٌ ونَهْدٌ وحِمْيَرُ، ويُمْنَعُ ابنُ عبدِ المطّلب!، هَلَكَتْ قُرَيشٌ وَرَبِّ الكعبة، إنّما القوم أتوا عُمّاراً، ثم رَجَعَ إلَى قُرَيْشٍ، وَلَمْ يَصِلْ إلَى رَسُولِ الله ﷺ إعْظَاماً لَمَا رَأَى، فلمّا قَالَ لقريشٍ ذَلِكَ، قَالُوا لَهُ: اجْلِسْ؛ فَإِنّمَا أَنْتَ أَعْرَابِيٌّ لَا عِلْمَ لَكَ ـ أي أَنَّ ما رأيتَ مَكِيدَةً من محمّدٍ ـ، فعند ذلك غَضِبَ الحُلَيسُ، وقال: يا معشرَ قريش، والله ما على هذا حالَفْنَاكم، ولا على هذا عاقَدْنَاكم، أَيُصَدُّ عن بيتِ الله مَنْ جاءَهُ مُعَظِّماً له، والذِي نفسُ الحُلَيسِ بيَدِه لتُخَلُّنَّ بينَ محمَّدٍ ومَا جاءَ له أَوْ لأَنْفِرَنَّ عَلَيكُمْ بالأَحَابيش نَفْرَةَ رَجُلٍ واحِدٍ. فقالوا: مَهْ يَا حُلَيسُ، كُفَّ عنّا حتّى نأخُذَ لأنْفُسِنَا ما نَرْضَى به.

ثم بعثوا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ عُرْوَةَ بنَ مَسْعُودٍ الثّقَفِيّ، فقال: يا معشرَ قريش إِنّي قَدْ رَأيتُ مَا يَلْقَى منكم مَن بعَثْتُمُوه إلى محمّدٍ إذا جاءَكم مِنَ التَّعْنِيفِ وسُوءِ اللّفْظِ وقَدْ عَرَفْتم أنكم والدٌ وأني ولَدٌ، فقالوا: صدقْتَ. قال: فهل تَتَّهِمُوني؟، قالوا: ما أنتَ عندنا بمُتَّهَمٍ. فخرجَ حتّى أتى رَسُوْلَ الله ﷺ فجلسَ بين يديه، ثُمَّ قال: يا محمّدُ جمعْتَ أَوْبَاشَ النّاسِ ـ أي أَخْلَاطَ النَّاس ـ وجئتَ بهم إلى بَيْضَتِكَ ـ أَصْلِكَ وعَشِيرتِك ـ، لتفضَّها بهم، إنّها قريشٌ، وقد

عَاهَدَتِ الله أَنْ لَا تَدْخُلَ عليهم عنوَةً أبداً، وأيمُ الله لكَأَنّي بهؤلاءِ قد انكَشَفُوا عنك غداً، والله لا أرى وجوهاً، وإنِّي أرى أَسْرَاباً مِنَ النَّاسِ، خَلِيقاً أنْ يفِرّوا ويَدَعُوكَ. وكان أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه جالساً خلْفَ رَسُوْلِ الله ﷺ، فقال له: اعْضُضْ بُظْرَ اللَّات، أَنَحْنُ نَنكَشِفُ عنْهُ؟!، فقال: مَن هذا يا محمَّدُ؟، فقال ﷺ: «هَذَا ابنُ أَبِي قُحَافَةَ»، فقال لأبي بكر: أما والله لولا يدٌ كانت لك عندي لَمْ أجزكَ بها لأَجَبْتُك. وتلك اليد التي كانت لأبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه عند عُرْوَةَ، هيَ أنَّ عُرْوَةَ اسْتَعَانَ في حَمْلِ دِيةٍ، فأعانَه أبو بكرٍ رضي الله عنه بعشَرةِ إبل شَوَابّ.

ثم جعلَ عروةُ يتناولُ لحيَةَ رَسُوْلِ الله ﷺ وهو يكلّمُه، وكانت هذه عادةُ العربِ، وهو أنّ الرَّجلَ يتناولُ لحيَةَ مَن يكلّمه خصوصاً عندَ المُلَاطَفة، وفي الغالبِ إنّما يصنع ذلك النّظيرُ بالنَّظير، ولكِنْ كأنه ﷺ لم يَمْنَعْهُ مِنْ ذلكَ اسْتِمَالَةً وتأْليفاً له، وكان المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ واقِفاً على رأسِ رَسُوْلِ الله ﷺ، في الحديدِ، وعليه المِغْفرُ، فجعلَ يقرعُ يدَ عُرْوَةَ بنعلِ السّيفِ إذا تناولَ لحيَةَ رَسُوْلِ الله ﷺ، ويقولُ: اكفف يدَك عَنْ مَسِّ لحيةِ رَسُوْلِ الله ﷺ فإنه لا ينبغي لمشركٍ ذلك؛ وإنما فعلَ المُغِيرةُ رضي الله عنه ذلك إجلالاً لرَسُوْلِ الله ﷺ، ولم ينظرْ لما هو عادةُ العربِ، فلما أكْثَرَ عليه، غَضِبَ عُرْوَةُ وقال: ويحكَ ما أَفظَّكَ ومَا أغلَظك، ليتَ شعري مَن هَذا الذي آذاني مِن بين أصحابِك؟، والله إني لَا أَحْسَبُ فيكم أَلْأَمَ منه ولا أَشَرَّ منزلة، فتبسّم النبيُّ ﷺ وقال: «هَذَا ابنُ أَخِيْكَ المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ»، فقال: يا غَادِرُ، والله ما غَسَلتُ غدْرَتَك بعكاظ إلا بالأمس، وقد أورثتنا العداوة من ثقيفٍ إلى آخرِ الدَّهْرِ.

وأراد عروةُ بذلك أنه الذي سَترَ غَدْرَ المغيرةِ، لأنّ المغيرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قتَلَ قبل إسلامِه ثلاثةَ عشر رجلاً من بني مالك مِن ثقيفٍ، كان قد وَفَدَ معهم مِصْرَ على المُقَوْقِسَ بهدايا، قال المغيرةُ: وكنّا سَدَنَةَ اللَّاتِ، فاسْتَشَرْتُ عمّي عُرْوَةَ في مرافقَتِهم فأشارَ عليَّ بعدم ذلك، فلم أطِعْ رأيه، وسِرْتُ معهم، فأنزلنا المُقَوْقِسُ في كنيسةٍ للضّيافة، ثم أُدْخِلْنَا عليه، فقدّموا الهَدِيّة له، فاسْتَخْبَرَ كبيرَ القَومِ عنّي، فقال: ليسَ مِنّا، وإنما هو من الأَحْلَافِ، فكنتُ أهونَ القوم على المُقَوْقِسَ، ثُمَّ إنّه أكرمَهم وقصَّرَ في حقِّي، فلما خرجوا لم يعرضْ عَلَيَّ أَحَدٌ منهم مُوَاسَاةً، فكرهتُ أَنْ يخبروا أهلَنا بإكرامِهم وازْدِرَاءِ الملك بي، فأجمعتُ قتلَهم، ونزلنا محلّاً فعصَبْتُ رَأسي، فعَرضُوا عليَّ الخمرَ، فقلتُ: رَأسي تَصَدّعَ، ولكِنْ أسقيكم فسقيتُهم وأكثرتُ لهم بغيرِ مَزْجٍ حتّى همَدُوا، فوَثَبْتُ عليهم فقتلتهم جميعاً، وأخذتُ كلّ ما مَعهم، وقَدِمْتُ على النّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسجدِه، فسلّمْتُ عليه، وقلتُ: أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلّا الله وأنّ محمداً رسولُ الله، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحَمْدُ لله الذِي هَدَاكَ لِلْإِسْلَامِ يَا مُغِيرَةُ»، فقال لي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مِن مصرَ قدِمْتَ؟، قلت: نعم، قال: فما فعل المالكيون الذين كانوا معك؟، ـ لأنهم من بني مالك ـ، فقلت: كان بيني وبينهم ما يكون بين العربِ، فقتلْتُهم، وجِئْتُ بأسْلَابِهم ليُخَمِّسَها النّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يَرَى فيها رَأيه، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا إِسْلَامُكَ فَقَبِلْتُهُ، وَلَا آخُذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ شَيْئاً وَلَا أُخَمِّسُهُ، فَإِنّهُ غَدْرٌ وَالغَدْرُ لَا خَيْرَ فِيْهِ»، فقلتُ: يا رسولَ الله؛ إنما قتلتهم وأنا على دين قومي، ثم أسلمت، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ». وبلغ ذلك ثقيفاً، فتداعوا للقتال، وشرعوا في الحرب، فسعى عروةُ في إطفاءِ نار الحرب، وصَالَحَ بني مالكٍ على ثلاث عشرة ديّة، ثم دفعَهَا عُرْوَةُ.

وعند مجيءِ عُروةَ أخبرَ ﷺ عروةَ بما أخبر به مَن تَقدّمَه ؛ مِنْ أنه لمْ يَأتِ لحرْب ، فقامَ من عندِ رَسُوْلِ الله ﷺ ، وقد رأى ما يصْنَعُ به أصحابه ، إِذْ لا يتوضّأ إلا ابْتَدَرُوا وضُوءَه ، حتى يكادوا أن يقتتلوا عليه ، ولا يبصقُ بصاقاً إلا ابتدرُوه ، ومَن وقعَ في يدِه دَلَكَ به وجْهَه وجِلْدَه ، ولا يسقطُ من شَعْرِهِ شيءٌ إلا أخذُوه ، وإذا تكلّمَ خفضُوا أصواتَهم عنده ، ولا يُحِدُّونَ النظرَ إليه تعظيماً له ﷺ ، فقال: يا معشرَ قريش ، إني جئتُ كِسْرَى في مُلْكِه ، وقيصرَ في مُلْكِه ، والنّجَاشيّ في مُلْكِه ، والله ما رأيتُ مَلِكاً في قومِه قطّ مثل محمَّدٍ في أصحابِه ، ولقد رأيتُ قوماً لا يسلمونَه لِشَيءٍ أبداً ، فروا رأيكم ؛ فإنّه عرضَ عليكم رُشْداً فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإني لكم ناصحٌ ، مع أنّي أخافُ أَنْ لا تُنْصَروا عليه ، فَقَالَتْ له قريش: لا تتكلم بهذا يا أَبا يَعْفُور ، ولكِنْ نَرُدّه عامنا هذا ، ويرجع إلى قابل ، فقال: ما أَرَاكم إلا سَتُصِيبُكُم قارعةٌ ، ثُمَّ انصَرَفَ هوَ ومَن مَعَه إلى الطّائف .

ودعا رَسُوْلُ الله ﷺ خِرَاشَ بنَ أميّة الخزَاعي رضي الله عنه ، فبعثَه إلى قريش ، وحمَلَه ﷺ على بعيرٍ له يقالُ له: الثّعْلبُ لِيُبَلّغَ أشرَافَهم عنه ما جاءَ له فعقروا جملَ رَسُوْلِ الله ﷺ ، وأرادوا قتْلَ خِرَاش فمنعَهم الأحابيشُ ، فخَلّوا سبيلَه حتّى أتى رَسُوْلَ الله ﷺ وأخبرَه بمَا لَقِي ، ثمَّ دعَا رَسُوْلُ الله ﷺ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه ليبعثَه ، فيُبَلّغَ عنه أشرافَ قريشٍ ما جاءَ له ، فقال: يا رسولَ الله إنّي أخافُ قريشاً على نفسِي ، وما بمَكّةَ من بني عدي بن كعبٍ أَحَدٌ يمنعني ، وقد عَرَفَتْ قريشٌ عداوتي إيّاها وغلظتي عليها ، ولكِنْ أدُلّك على رُجُلٍ أَعَزَّ بها منّي ؛ عثمان ابن عفّان ـ رضي الله عنه ـ فإنَّ بني عمِّه يمنعونَه . فدعا رَسُوْلُ الله ﷺ عثمانَ بن عفّان رضي الله عنه ، فبعثه إلى أشرافِ قريش ، يخبرُهم أنه

لم يأتِ لحرب، وأنه لم يأتِ إلا زائراً لهذا البيت ومُعَظّماً لحرمَتِه، وأمرَ ﷺ عُثمانَ أَنْ يأتيَ رجالاً مسلمين بمَكَّةَ ونساءً مسلماتٍ، ويدخلَ عليهم ويُبَشّرَهم بالفتح، ويخبرَهم أنّ اللهَ وشِيْكٌ أَنْ يُظْهِرَ دينَه بمَكَّةَ حتّى لا يُسْتَخْفَى فيها بالإيمان. فخرج عثمانُ بنُ عفّان رضي الله عنه لمَكَّةَ، ودَخَلَ مَكَّةَ مِنَ الصّحَابةِ عَشَرَةٌ بإذْنِ رَسُوْلِ الله ﷺ ليزورُوا أهاليهم، ولما خرجَ عثمانُ لَقِيَهُ أبانُ بنُ سعيدِ بنِ العاص قبلَ أَنْ يدخلَ مَكَّةَ، فأجارَه حتّى يُبلِّغَ رِسالةَ رَسُوْلِ الله ﷺ، وجعله بين يديه، فجاءَ إلى أبي سُفْيَان وعظماءِ قريشٍ فبلّغَهم عَن رَسُوْلِ الله ﷺ ما أرسلَه به، وهم يَرُدّونَ عليه: إنَّ محمَّداً لا يدخلُها علينا أبداً، فلمّا فرغَ عثمانُ مِن تبليغِ رسَالةِ رَسُوْلِ الله ﷺ، قالوا له: إنْ شِئْتَ أَنْ تطوفَ بالبيتِ فَطُفْ. فقال: ما كنتُ لأفعلَ حتّى يطوفَ به رَسُوْلُ الله ﷺ.

وكان المسلمون قد قالوا: خلصَ عثمانُ إلى البيتِ فطافَ به دوننا!. فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَا أَظُنُّهُ طَافَ بِالبَيْتِ وَنَحْنُ مَحْصُورُونَ»، قالوا: ما يمنعه وقد خلصَ إليه؟، قال: «ذَلِكَ ظَنِّي بِهِ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالكَعْبَةِ حَتَّى نَطُوفَ لَوْ مَكَثَ كَذَا وَكَذَا سَنَةً مَا طَافَ بِهِ حَتَّى أَطُوفَ»، فلما رجع عثمانُ، قالوا له: طُفْتَ بالبيت؟، فقال لهم: بئسما ظننتم بي، دعتني قريش إلى أَنْ أطوفَ بالبيتِ فأبيتُ، والذي نفسي بيده لو مكثتُ بها معتمراً سنةً ورَسُوْلُ الله ﷺ مُقيماً بالحُدَيْبِيَة ما طُفْتُ حتّى يطوفَ رَسُوْلُ الله ﷺ.

وكانت قريشٌ قَدِ احْتَبَسَتْ عثمانَ عندها ثلاثةَ أيام، فبلغَ رَسُوْلَ الله ﷺ أنّ عثمانَ رضي الله عنه قد قتل، وقتل معه العشرةُ الرِّجال الذين دخلوا مَكَّةَ، فقالَ ﷺ عند بلوغِه ذلك: «لَا نَبْرَحُ حَتَّى نُنَاجِزَ القَوْمَ»، ثم دعا ﷺ

النَّاسَ إلى البيعة، بعد أن قال لهم: «إِنَّ الله أَمَرَنِي بِالبَيْعَةِ». وقال سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ: بينما نحن جلوس قَائِلُون، إذ نادى مُنَادِي رَسُوْلِ الله ﷺ: أَيُّها النَّاسُ؛ البيعةَ البيعةَ، نزلَ رُوحُ القُدسِ، فاخرجوا على اسم الله. فسِرْنَا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، وهو تحتَ شجرةٍ فبايعناه، وبايعه النَّاسُ على الموتِ وعدمِ الفِرَار، وأنه إمَّا الفتحُ وإمَّا الشهادةُ، ولم يَتَخَلَّفْ مِنَّا أَحَدٌ إلّا الجَدُّ بنُ قيس، كأنِّي أنظرُ إليه لاصِقاً بإبطِ نَاقَتِه يَسْتَتِرُ بها مِنَ النّاس. وقد قيل: أَنَّ الجَدَّ هذا كان يُرمَى بالنِّفاق، وقد نزل في حقِّه في غَزْوَة تبوك من الآياتِ ما يدل على ذلك، وكان سيّد بني سَلِمَة في الجاهليّة، وقد قالَ ﷺ لبني سَلِمَةَ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ»؟، فقالوا: الجدّ بنُ قَيسٍ على بُخْلٍ فيه، قال: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ البُخْلِ؟، بَلْ سَيِّدُكُم عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ»، وفي رواية: «سَيِّدُكُم بِشْرُ بنُ البَرَاءِ بنِ مَعْرُور».

وبايعَ النَّبيُّ ﷺ عَن عثمانَ، فوَضَعَ يدَه اليُمنى على يدِه اليسرى ثم قال: «اللَّهُمَّ إِنَّ هَذِهِ عَنْ عُثْمَانَ فَإِنَّهُ فِي حَاجَتِكَ وَحَاجَةِ رَسُولِكَ»، وما ذاك إلّا لأنه ﷺ عَلِمَ بعدم صِحّة القولِ بأنَّ عثمانَ قد قُتِلَ، أو أَنَّ ذلك كانَ بعد مجيءِ الخبر له ﷺ بأنّ القولَ بِقَتْلِ عُثمانَ رضي الله عنه باطلٌ. وفيه أنه حيثُ عَلِمَ ﷺ أَنَّ عُثمانَ لم يُقْتَلْ فلا مَعْنَى للبيعةِ؛ لأنَّ سببَها كما عَلِمْتَ بلوغُه الخبر أَنّ عثمانَ قَدْ قُتِلَ. إلّا أَنْ يُقالَ: سَبَبُها مَا ذُكِرَ من قَتْلِ عُثمانَ وقتل العشرةِ من الصّحابة.

وذُكِرَ أنّ قريشاً بعثَتْ إلى عبدِ الله بن أُبَيٍّ بنِ سَلول: إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَدْخُلَ فتَطُوفَ بالبيتِ فافعل. فقال له ابنه عبدُ الله رضي الله عنه: يا أبتِ أُذَكِّرُكَ اللهَ أَنْ لَا تَفْضَحْنا

في كُلِّ مَوْطِنٍ، تَطُوفُ ولم يَطُفْ رَسُوْلُ الله ﷺ، فقالَ حينئذٍ: لا أَطُوفُ حتّى يطوفَ رسولُ الله، إنّ لي في رَسُولِ الله أُسْوَةً حَسَنَةً. فلمّا بلغَ ﷺ اِمْتِنَاعُهُ أثنى عليه بذلِك.

وكانَ محمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه على حَرَسِ رَسُوْلِ الله ﷺ، فبَعَثَتْ قريشٌ خمسينَ رَجُلاً عليهم مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ ليْلاً، رَجَاءَ أنْ يصيبوا مِنَ المسلمينَ أَحَداً أو يَجِدُوا منهم غِرَّةً، فأخذَهم محمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ إلّا مِكْرَزاً فإنّه أَفْلَتَ، وصَدَقَ فيه قولُ النبيِّ ﷺ: «هَذَا الرَّجُلُ غَادِرٌ» كما تقدَّمَ، وأُتِيَ بهم إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فحُبِسُوا، وبلغَ قريشاً حَبْسَ أَصْحَابِهم، فجاءَ جمعٌ منهم حتّى رَموا المسلمين بالنبل والحجارة، وقُتِلَ من المسلمين ابنُ زَنِيم رضي الله عنه فإنه رُمِيَ بَسَهْم. وأَسَرَ المسلمونَ مِن المشركين اثني عَشَرَ رَجُلاً. وعند ذلك بعَثَتْ قُريشٌ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ جمعاً، منهم: سُهيلُ بنُ عمرٍو، فلما رآه النبي ﷺ قال لأصحابِه: «سَهُلَ أَمْرُكُمْ».

فجاءَ سُهَيلٌ فقال: يا محمَّدُ إنّ الذي كانَ من حَبسِ أصحابِك، عثمانَ والعشرةِ الرِّجَالِ، وما كانَ مِن قِتَالِ مَن قاتَلَكَ لم يَكُنْ مِنْ رَأيِ ذَوِي رَأيِنا، بَلْ كُنّا كَارِهِينَ له حِينَ بَلَغَنا، ولم نَعْلَمْ بهِ، وكانَ مِن سُفَهَائِنَا، فابْعَثْ إلينا بأَصْحَابِنا الذِينَ أَسَرْتَ أَوَّلاً وثَانِياً، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إنّي غَيرُ مُرْسِلِهِمْ حَتّى تُرْسِلُوا أَصْحَابي»، فقالوا: نفعلُ، فبعثَ سُهيل ومَن معَه إلى قريشٍ بذلك، فبعثوا بمَن كان عندهم: وهو عثمانُ بنُ عفّان والعشرةُ الرِّجال، فأرسلَ رَسُوْلُ الله ﷺ أصحابَهم.

ولمّا عَلِمَتْ قريشٌ بأمرِ البيعة خافوا، ثمّ أشارَ أهلُ الرّأي منهم بالصُّلحِ،

على أَنْ يَرْجِعَ رَسُوْلُ الله ﷺ ويعودَ مِن قابل، فيُقِيمُ ثلاثاً، معه سلاحُ الرّاكِبِ السُّيُوفُ في القُرُب، وبعثوا سُهيلَ بن عمرو ثانياً، ومعه مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ، وحُوَيطِبُ بنُ عبدِ العُزّى إلى رَسُوْلِ الله ﷺ ليُصَالِحُوه على أَنْ يَرْجِعَ في عامِهِ هذا، لئلّا تتحدث العربُ بأنه دخل عنوةً، وأنه يعود من قابل، فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رَسُوْلُ الله ﷺ مُقْبلاً قال: «أَرَادَ القَومُ الصُّلْحَ حَيْثُ بَعَثُوا هَذَا الرَّجُلَ».

فلما انتهى سُهيلٌ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ جثا على ركبتيه بين يديه ﷺ، والمسلمون حوله جلوسٌ، وتكلّم فأطال، ثم تراجعا، ومن جملةِ ذلك: أنّ النبيَّ ﷺ قال له: «تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَينَ البَيْتِ فَنَطُوفُ بِهِ»، فقال له سهيلٌ: والله لا تتحدث العرب بنا أنا أُخِذْنَا ضُغْطَةً بالشِّدَّةِ والإكرَاه، ولكن ذلك من العام القابل، ثم الْتَأَمَ الأمرُ بينهما على الصّلح، ولم يبقَ إلا الكِتابُ بذلك.

فأمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ أَوْسَ بنَ خَوْلَةَ أَنْ يكتبَ، فقال له سهيلٌ: لا يكتبْ إلا ابنُ عمِّك عليٌّ، أو عثمانُ بنُ عفّان، فأمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ عَلِيّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه، فقال: «اكْتُبْ بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيْم»، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فكتبها لأَنّ قريشاً كانت تقولها، ثم قال ﷺ: «اكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله سُهَيلَ بنَ عَمْرٍو»، فقال له سهيل بن عمرو: لو شهدت أنكَ رسولُ الله لم أقاتلك ولم أصدّك عن البيت، ولكن اكتب باسْمِكَ واسمِ أبيك، محمد بن عبد الله. فقال رَسُوْلُ الله ﷺ لعلي كَرَّمَ الله وَجْهَه: «امْحُ رَسُولَ الله»، فقال عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه: والله لا أمحوكَ أبداً، وذُكِرَ أنَّ أُسَيدَ بنَ حُضَير وسَعْدَ بنَ عبادة رضي الله عنهما أخذا أيضاً

بيَدِ عليٍّ كَرَّم الله وَجْهَه، ومنعاه أَنْ يكتبَ إلا: (محمَّدٌ رَسُولُ الله)، قالا: وإلا فالسَّيفُ بيننا وبينهم، وضَجَّ المسلمونَ وارتفعتِ الأصواتُ، وجعلوا يقولونَ: لم نُعْطِ هذِه الدَّنِيَّة في ديننا؟، فجعل رَسُوْلُ الله ﷺ يَخْفِضُهُم، ويُومِىءُ بيدِه إليهم أَنِ اسْكُتُوا ثُمَّ قالَ لِعَليٍّ: «أَرِنِيْهِ» فَأَرَاه إيّاه فمحَاه رَسُوْلُ الله ﷺ بيدِه الشّريفة، وقال: «أَنا وَالله رَسُولُ الله وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، وَأَنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله»، ثم قال: «اكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيهِ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ الله سُهيلَ بنَ عَمْرو»، فجعلَ عليٌّ يتلكّأُ، ويأبى أَنْ لا يكتبَ إلّا مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «اكْتُبْ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَهَا، تُعْطِيهَا وَأَنْتَ مُضْطَهَدٌ». وهو إشارة منه ﷺ لما وقع بين عليٍّ ومعاوية بعد ذلك[1].

وكان الصّلحُ على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، تأمن فيه الناس ويكفُّ بعضُهم عن بعضٍ، وعلى أنّ من أتى محمّداً ﷺ من قريش ممَّنْ هو على دين محمّد بغير إذنِ وليِّه رَدَّهُ إليه، ذكراً كان أو أنثى، ومن أتى قريشاً

---

(١) كان ذلك في حرب صفين، ووقعت بينهما المصالحة على ترك القتال إلى رأس الحول، وكان القتال في صفر وقد دام مائة يوم وعشرة أيام قتل فيه سبعون ألفاً، خمسة وعشرون ألفاً من جيش علي كَرَّمَ الله وَجْهَه من جملة تسعين ألفاً، وخمسة وأربعون ألفاً من جيش معاوية من جملة مائة وعشرين ألفاً. فلما كتب الكاتب في الصلح: هذا ما صالح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب معاوية بن أبي سُفْيَان، قال عمرو بن العاص وهو أحد الحكمين: اكتب اسمه واسم أبيه، وأرسل معاوية يقول لعمرو: لا تكتب أنّ علياً أمير المؤمنين، لو كنت أعلم أنه أمير المؤمنين ما قاتلته، فبئس الرجل أنا إنْ أقررتُ أنه أمير المؤمنين ثم أقاتله، ولكن اكتب عليّ بن أبي طالب وامحُ أمير المؤمنين، فقيل لعلي: يا أمير المؤمنين؛ لا تمح إمارة اسم أمير المؤمنين، فإنك إن محوتها لا تعود إليك، فأمرَ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه بمحوها، وتذَكّر قولَ النبيِّ ﷺ له في الحُدَيْبِيَة ما تقدم، فقال: الله أكبر مثلاً بمثل، والله إني لكاتبُ رَسُوْلِ الله ﷺ يوم الحُدَيْبِيَة إذ قالوا: لست برسولِ الله، ولا نشهد لك بذلك، اكتب اسمك واسم أبيك، محمد بن عبد الله.

مُرْتَدّاً ممن كان مع محمّد ذكراً كان أو أنثى لم نردّه إليه، وعلى أنّ مَن أحَبَّ أنْ يدخلَ في عقدِ محمّد وعهْدِه دخلَ فيه، ومن أحبَّ أنْ يدخلَ في عقدِ قريشٍ وعهدِهم دخلَ فيه، وعلى أنّ بيننا وبينكم عيبةً مكفوفةً، أي صُدوراً مُنْطوِيةً على ما فيها لا تبدي عداوةً، وقيل: صُدوراً نَقِيّةً من الغِلّ والخِدَاع مُنْطَوِيَةً على الوفاء بالصّلح، وعلى أنه لا إِسْلَالَ ولَا إِغْلَال؛ أي لا سرقةَ ولا خِيانةَ، وعلى أنْ يرجعَ النّبيُّ محمّدٌ ﷺ وأصحابُه عامَهم هذا فلا يدخلون مَكّةَ، وأنه إذا كان العام القابل تخرج منها قريش فيدخلها النبيُّ ﷺ بأصحابِه، فيُقِمُونَ بها ثلاثة أيام معهم سِلَاحُ الرّاكب، السُّيوفُ في القُرُبِ، والقَوسُ، ولا يدخلونها بغيرِها. ثُمّ إنّ سُهيلاً قال: يكون هذا الكِتَابُ عندي، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «بَلْ عِنْدِي»، فأخذَه رَسُوْلُ الله ﷺ، ثُمَّ كتبَ محمّدُ بنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه لسُهَيلٍ نُسْخَةً فأخذَها عنده.

وعند كتابة شَرْطِ أَنْ يُرَدّ للمشركين مَن جاءَ مُسلماً، قال المسلمون: سُبحانَ الله!، كيف نَرُدُّ للمشركين مَن جاءَ مُسلماً؟، وعَسُرَ عليهم هذا الشّرْطُ فقالوا: يا رسولَ الله أتكتبُ هذا؟، فقال: «نَعَمْ، إِنّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ الله، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُم فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْهِمْ سَيَجْعَلَ اللهُ لَهُ فَرَجاً وَمَخْرَجاً»، فبينما رَسُوْلُ الله ﷺ وسهيل بن عمرو يكتبان الكتابَ بالشّرُوطِ المذكورة، إذ جاءَ أبو جَنْدَل بنُ سُهيل بن عمرو إلى المسلمين يمشي في قيودِه، وقد أَفْلَتَ إِلى أَنْ جَاءَ إِلى رَسُوْلِ الله ﷺ ورَمى بنفسِه بين أَظْهُرِ المسلمين، فجعل المسلمونَ يُرَحِّبُونَ به ويُهَنِّئُونَه، فلما رأى سُهيلٌ ابنَه أبا جَنْدَل، قام إليه فأَخَذَ غُصْناً من شجَرةٍ به شوكٌ، وضرَبَ به وجْهَ أبي جَنْدَلٍ ضَرْباً شديداً، حتى رَقّ عليه المسلمون وبكوا، فقال سُهيلٌ: يا محمَّدُ، هذا أول ما أقاضيك عليه أَنْ تَرُدَّه إِلَيّ، فقالَ له ﷺ:

«وَلَكِنّا لمْ نكتُبِ الكِتَابَ بَعْدُ»، فقال: لقد تمَّتِ القَضِيَّةُ بيني وبينك، قبل أنْ يأتيَك هذا، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقْتَ، فَأَجِرْهُ لِي»، فقال: مَا أَنا مُجيرٌ ذلك لك، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلَى؛ فَافْعَلْ»، فقال: ما أنا بفاعل، فقال مِكْرَز وحُوَيطِب: قد أَجَرْنَاهُ لك، لا نُعَذِّبُه.

ولما انصرفَ سُهَيلٌ جعلَ يجرّ أبا جَنْدلٍ ليَرُدّه إلى قريش، وجعل أبو جَنْدَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَصْرُخُ بأعلَى صَوتِه: يا مَعْشَرَ المسلمينَ، أُرَدُّ إِلَى المشْركين يفتنوني عن ديني؟، ألا ترونَ ما لقيتُ؟، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً، إِنّا قَدْ عَقَدْنَا بِيْنَنَا وَبَينَ القَومِ صُلْحاً وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطونَا عَهْدَ الله أَنْ لَا نَغْدِرَ بِهِمْ». فلما رأى المسلمون ذلك زادهم إلى ما بهم حزناً، فإنهم كانوا لا يشكون في دخولهم مَكَّةَ وفي طوافهم بالبيت؛ للرؤيا التي رآها رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رأوا الصُّلْحَ وما تحمَّلَ عليه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفسِه، داخلهم من ذلك أمرٌ عظيمٌ حتّى كادوا يهلكون، خصوصاً منِ اشْتِرَاطِ أَنّ يُرَدّ إلى المشركين مَنْ جاءَ مُسلماً منهم، وَرَدّ أبي جندلٍ إليهم بعدَ ضَرْبِه.

وعند ذلك وثَبَ عمرُ بنُ الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأتى أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال له: يا أبا بكر؛ أليسَ هوَ برَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟، قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟، قال: بلى؛ قال: فَعَلَامَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في ديننا؟، فقال له: أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا عمرُ، إنه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس يعصي رَبَّه، وهو ناصرُه، فاستمسك بغَرْزِه ـ أَيْ رِكَابِه ـ حتّى تموتَ، فإنِّي أشهدُ أنه رسُولُ الله. فقال عمر: وأنا أشهَدُ أنه رسُولُ الله. ثم أتى عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَسُوْلَ الله

ﷺ فقال له مثل ما قال لأبي بكر، فقال له النبيُّ ﷺ: «أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُه، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي»، فجعل عمرُ يراجعُ رَسُوْلَ الله ﷺ الكلامَ، فقال أبو عبيدة ابنُ الجرَّاح رضي الله عنه: ألا تسمعُ يا بنَ الخطاب رَسُوْلَ الله ﷺ يقولُ ما يقولُ؟، نعوذُ بالله مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم. فجعلَ يتعوَّذُ، حتّى قال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «يَا عُمَرُ؛ إِنِّي رَضِيْتُ وَتَأْبى»؟!، فكان عمرُ رضي الله عنه يقول: مازِلْتُ أصومُ وأتصَدّقُ وأُصَلّي وأعتقُ مخافةَ كلامي الذي تكلّمْتُ به حينَ رَجُوتُ أَنْ يكونَ هذا خيراً.

وعِند مجيءِ أبي جَنْدَلٍ وما حصل له قال حُوَيطبٌ لمِكْرَز: ما رأيتُ قوماً قَطّ أشَدّ حُبّاً لمن دخلَ معهم من أصحابِ محمَّدٍ، أمَا إني أقول لك: لا تأخذُ مِن محمَّدٍ نصَفاً أبداً بعدَ هذا اليوم حتّى يدخلُها عُنْوَةً، فقال مِكْرَز: وأنا أرى ذلك. ثُمَّ إنَّ عمرَ بنَ الخطّابِ رضي الله عنه مشَى إلى جَنْبِ أبي جَنْدَلٍ، وأبوه سُهَيلٌ بجَنْبِه يَدْفَعُه، فصَارَ عمرُ يقول لأبي جندل: يا أبا جندل، اصبر، فإنّما هم المشركون، وإنّما دَمُ الكافر عندَ الله كَدَمِ الكَلْب، وجعل يُدْنِي قَائِمَ السَّيفِ منه يُعَرِّضُ له بِقَتْلِ أبيه، ويقولُ: يا أبا جَنْدل إنّ الرّجلَ يَقْتُلُ أباهُ في الله، والله لو أَدْرَكْنا آباءَنا لقَتَلْنَاهُم في الله. فقال له أبو جندل: ما لَكَ لا تَقْتُلُهُ أنتَ. فقال عمرُ: نهانا رَسُوْلُ الله ﷺ عن قتْلِه، فقال أبو جندل رضي الله عنه: ما أَنتَ أَحَقُّ بطَاعَةِ رَسُوْلِ الله ﷺ مِنِّي. فكانَ عُمَرُ يقولُ: وَدِدْتُ أَنْ يأخذَ السَّيفَ فيَضْرِبَ أباهُ فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيه.

ثُمَّ إنّ خُزَاعَةَ دخلَتْ في عقْدِ النبيِّ ﷺ وعَهْدِه، ودخلَ بنو بَكْرٍ في عقْدِ قريشٍ وعهدِهم. ولمّا فرغَ رَسُوْلُ الله ﷺ من الصُّلح أشهدَ عليه رجالاً

من المسلمين، منهم: أبو بكر، وعمرُ، وعثمانُ، وعبدُ الرّحمن بن عوف، وسعدُ بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجراح، ومحمدُ بن مسلمة، ورجالاً من قريش منهم: حُوَيطبُ ومكرز، ثم قام إلى هَدْيِهِ فنَحَرَه، وكانَ مِن جُمْلَتِه جَمَلٌ لأبي جَهْلٍ وكان نَجِيباً مَهْرِيّاً، وكان في رأسِه حِلْقَةٌ مِن فِضَّة، فنحرَه ليُغِيظَ بذلك المشركين، وهو الذي غَنِمَه ﷺ يومَ بَدْرٍ، وقد كان فرَّ مِن الحُدَيْبِيَة، ودخل مَكَّةَ فانتهى إلى دَارِ أبي جهل، فخرَج في أَثَرِهِ عَمرو بنُ غَنَمَةَ الأنصاري، فأبى سُفَهاءُ مَكَّةَ أَنْ يُعْطُوه حَتّى أَمَرَهم سُهيلُ بنُ عمرو بدفعِه، وقال لهم سهيل بن عمرو: إِنْ تُرِيدُوه فاعرضوا على محمَّدٍ مائةً من الإبل، فإِنْ قبلَها فأمسكوا هذا الجمل، وإلا فلا تتعرّضُوا له، فعَرَضُوا عليه ﷺ ذلك، فأبى، وقال: «لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا الجَمَلُ لِلْهَدْيِ لَقَبِلْتُ المِائَةَ»، وفرَّقَ ﷺ لحمَ الهَدْيِ على الفقراءِ الذين حضَروا الحُدَيْبِيَة، وبعثَ إلى مَكَّةَ عشرين بدنةً مع نَاجِيَةَ حتى نُحِرَتْ بالمروةِ، وقسَّمُوا لحمَها على فقراء مَكَّةَ، ثُمَّ جلسَ ﷺ، فحلقَ رأسَه خِرَاشُ بنُ أُمَيَّةَ الخُزَاعي.

فلما رأى الناسُ رَسُوْلَ الله ﷺ قد نحَرَ وحَلَقَ رأسَه، تَوَاثَبُوا ينحرُونَ ويحلقون، وقَصَّرَ بعضُهم كعثمان وأبي قتادة. ودعا رَسُوْلُ الله ﷺ للمحلّقين ثلاثاً، وللمقصّرينَ مرّةً واحدةً، فقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ»، قالوا: والمُقَصِّرين؟، فقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ»، قالوا: والمقصرين؟، فقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ»، وقال في الرابعة: «والمُقَصِّرِينَ»، فقالوا: يا رسولَ الله؛ لمَ ظَاهَرْتَ التّرحمَ للمحلقين دونَ المقصرين؟، قال: «لِأَنَّهم لمْ يَشُكُّوا أَنْ يَطُوفُوا بالبَيتِ، بِخَلَافِ المُقَصِّرِينَ»، أي: لأنّ الظاهرَ من حالهم أنهم أخروا بقية شعورهم رَجَاء أن يحلقوها بعد طوافهم بالبيت. وأرسلَ الله ﷻ ريحاً عاصفةً

احتملت شعورَهم فألقتها في الحرَم، فاستبشروا بقبولِ عمرَتِهم.

وفي روايةٍ: أنه ﷺ بعد فراغِه من الكتاب أمرَهم بالنّحر والحلْقِ، وقال لهم ذلك ثلاث مرات فلم يَقُمْ منهم أَحَدٌ، فَغَضِبَ ﷺ غضباً شديداً فدخلَ على أمِّ سَلَمَة رضي الله عنها فاضطجعَ. فَقَالَتْ: ما لكَ يا رسولَ الله؟، وقالت له ذلك مِراراً وهو لا يجيبها، ثمّ ذكرَ لها ما لَقِيَ من الناس، وقال لها: «هَلَكَ المُسْلِمُونَ؛ أَمَرْتُهُم أَنْ يَنْحَرُوا وَيَحْلِقُوا، فَلَمْ يَفْعَلُوا، قُلتُ لهم مِرارًا، فَلَمْ يُجِبْنِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى ذَلِكَ، وَهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامِي وَيَنْظُرُونَ وَجْهِي»، فَقَالَتْ أمُّ سَلَمَة: يا رسولَ الله لا تَلُمْهُم، فإنَّهم قد دخلَهم أَمْرٌ عظيمٌ، ممَّا أدخلْتَ على نفسِكَ مِنَ المشقَّةِ في أَمْرِ الصُّلْحِ، ورجوعهم بغير فتح. ثم أشارتْ عليه ﷺ أَنْ يخرُجَ ولا يكلِّمَ أحَداً منهم، ويَنْحَرُ بُدْنَه ويَحلِقُ رأسَهُ، فأخذَ الحرْبَةَ، وقَصَدَ هَدْيَه وأَهْوَى بالحَرْبَةِ إلى البُدْنِ رَافعاً صوتَه: «بِسْمِ الله وَالله أَكْبر»، ثُمَّ دخَلَ ﷺ قبّةً له من أدم أحمر ودَعَا بِخِرَاشٍ فحَلَقَ رأسَه، ورَمَى شَعْرَه، فأخَذَه الناسُ وتحاصُوه، وأخذتْ أمُّ عمارة منه، فكانتْ تَغْسِلُه للمَريضِ وتَسْقِيه فيَبْرَأُ. ولما رأى المسلمون ذلك منه ﷺ قاموا جميعاً فنحروا وحلقوا.

ثمَّ انصرفَ ﷺ قافلاً إلى المدينة بعد أنْ أقام بالحُدَيْبِيَة تسعةَ عشر يوماً، فلما كان ﷺ بكُرَاع الغَمِيم بين مَكَّةَ والمدينة أُنْزِلَتْ عليه سُورةُ الفَتْح، فقال لعمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ سُورَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيهِ الشَّمْسُ»، وقد هَنّأَ جبريلُ عليه السلام النبيَّ ﷺ بسُورة الفتح، وهنأهُ المسلمون، وتكلّمَ بعضُ الصَّحابةِ، فقالوا: ما هذا بفتحٍ، لقد صَدّونا عن البيت

وَصُدَّ هَدْيُنا، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ لما بلغه ذلك: «بِئْسَ الكَلَامُ، بَلْ هُوَ أَعْظَمُ الفَتْحِ، لَقَدْ رَضِيَ المُشْرِكُونَ أَنْ يَدْفَعُوكُمْ بِالبُرَاحِ عَنْ بِلَادِهِمْ، وَسَأَلُوكُم القَضِيَّةَ، وَيَرْغَبُوا إِلَيْكُمْ فِي الأَمَانِ، وَقَدْ رَأَوْا مِنكُم مَا كَرِهُوا، وَأَظْفَرَكُم الله عَلَيهِم، وَرَدَّكُمْ الله تَعَالَى سَالِمينَ مَأْجُورِينَ، فَهُوَ أَعْظَمُ الفُتُوحِ، أَنَسِيتُمْ يَومَ أُحُدٍ، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وَنَسِيتُمْ يَومَ الأَحْزَابِ، ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]»، فقال المسلمون: صدقَ الله ورسولُه، فهو أعظمُ الفتوح، والله يا نبيَّ الله ما فكَّرْنا فيما فكَّرْتَ فيه، ولأنتَ أعلمُ بالله وبأمرِه منّا. وقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسولَ الله؛ ألم تقُلْ إنّك تدخلُ مَكَّةَ آمناً؟، قال: «بَلَى، أَفَقُلْتُ لَكُمْ مِنْ عَامِي هَذَا»؟، فقالوا: لا، قال: «فَهُوَ كَمَا قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: فَإِنَّكُمْ تَأْتُونَهُ وَتَطُوفُونَ بِهِ».

وحصلَ لهم مجَاعَةٌ، فقالوا: يا رسولَ الله؛ جَهِدْنا من الجوع وفي الناسِ ظَهْرٌ ـ أي إِبِلٌ ـ، فانحرْهُ لنأكلَ من لحمِه، ولنَدَّهِنَ من شحْمِه، ولنَحْتَذِي من جُلُودِه، فقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: لا تفعلْ يا رسولَ الله، فإنَّ الناسَ إِنْ يَكُن فيهم بقيّة ظَهْرٍ أَمْثَلُ، كيف بنا إذا لاقينا العدوَّ غداً جِياعاً رِجَالاً؟، ولكن إِنْ رأيتَ أَنْ تدعوَ الناسَ إلى أَنْ يجمعوا بقايا أَزْوَادِهم ثم تدعو فيها بالبركةِ، فإِنَّ اللهَ سَيُبَلِّغُهَا بدَعْوَتِك، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «ابْسُطوا أَنْطَاعَكُمْ»، ففعلوا، ثم قال: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ بَقِيَّةٌ مِنْ زَادٍ أَوْ طَعَامٍ فَلْيَنْثُرْهُ»، فجمعوا أزوادَهم على النِّطَعِ، فكان كرَبْضَةِ العَنزِ ـ أي كَقَدْرِ العَنزِ وهيَ بَارِكَةٌ ـ، فدَعَا لَهُمْ ﷺ ثمَّ قال: «قَرِّبُوا أَوْعِيَتَكُمْ»، فأخذوا ما شاء الله، وحشوا أوعيتهم، وأكلوا حتى

شبعوا، وبقي مثله، فضَحِكَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتّى بدت نواجذه، وقال: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنّي رَسُولُ الله، لَا يَلْقَى اللهَ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ بِهِمَا إِلَّا حُجِبَ مِنَ النَّارِ».

ولما قَدِمَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ هاجَرَتْ إليه أُمُّ كُلْثُوم بنتُ عُقْبَةَ بنِ أَبِي مُعَيطٍ في تلك المُدَّةِ، وكانت أَسْلَمَتْ بمَكَّةَ وبايَعَتْ قبلَ أَنْ يُهاجِرَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهِيَ أَوَّلُ مَن هاجرَ مِنَ النّساءِ بعدَ عَوْدَةِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينةِ، فإنَّها خرَجَتْ مِن مَكَّةَ وحدَها وصاحَبَتْ رَجُلاً مِن خُزاعَةَ حتّى قَدِمَتِ المدِينةَ. وقيل: إنَّهَا مَشَتْ على قَدَمَيها من مَكَّةَ إلى المدينة، وهي أختُ عثمانَ بنِ عَفّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأمِّهِ، ولما قَدِمَتِ المدينةَ دخلتْ على أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأعلمتها أنها جاءت مهاجرةً وتخوّفَتْ أَنْ يَرُدَّها رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما دَخل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمِّ سَلَمَة أعلَمَتْهُ بها، فرَحّبَ بأمِّ كلثوم رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْها، فخرجَ أخَواها عُمَارَةُ والوليد في رَدِّهَا بالعَهْدِ، فقالا: يا محمَّدُ أَوْفِ لنَا بما عاهدتنا عليه. فلم يفعلِ النّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، بعدَ أَنْ قالتْ له: يا رَسُوْلَ الله؛ أنا امرأةٌ، وحالُ النِّساءِ إلى الضَّعْفِ، فَتَرُدَّني إلى الكُفَّار يفتنوني عن ديني ولا صَبْرَ لي، فنزلَ القرآنُ بنقض ذلك العهدِ بالنسبة لمن جاءَتْ مؤمنةً من النساء، لكن بشرط امتحانهن، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] فكان الامتحانُ أَنْ تُستَحْلَفَ المرأةُ المُهاجِرَةُ أنّها ما هاجَرَتْ نَاشِزَةً، ولا هاجرتْ إلّا لله ولرسولِه.

وفي لفظٍ: كانتِ المرأةُ إذا جاءَتْ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَّفها عمرُ: بالله

ما خرجْتِ رَغْبَةً بأرْضٍ عَن أرْضٍ، وما خرجتِ مِن بُغْضِ زَوجٍ، وبالله ما خَرَجْتِ لالتماسِ دُنْيا، ولا لِرَجُلٍ مِن المسلمين، وبالله ما خرجْتِ إلّا حُبّاً لله ورَسُولِه. فإذا حَلَفَتْ لم تُرَد، وَرُدَّ صَدَاقُها إلى بَعْلِها. فَلمّا قَدِمَ الوليدُ وعُمارَةُ مَكَّةَ أخبرَا قُريشاً بذلك، فرَضُوا أنْ تَذْهبَ النِّسَاءُ، ولم يَكُنْ لِأمِّ كلثوم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زوجٌ بمَكَّةَ، فلمّا قَدِمَتْ المدينةَ تَزَوَّجَها زَيدُ بنُ حَارِثَة.

ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن البقاء على نكاح المشركات فَطَلّقَ الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم كلَّ امرأةٍ كافِرَةٍ في نكاحِهم، حتّى إنّ عُمَرَ بنَ الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان له امرأتان فطَلّقَهُما يومَئِذٍ، فتزَوّجَ إحدَاهُما معاويةُ بنُ أبي سُفْيَان والأخرى صفوانُ بنُ أميّة، فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مُدَّةِ العَهْدِ يَرُدُّ الرِّجَالَ ولا يَرُدُّ النِّسَاءَ، بعدَ امتِحَانهنّ.

وجاءَ إلى النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بالمدينة أبو بصيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان ممَّنْ حُبِسَ بمَكَّةَ، فبعثَتْ قريشٌ في طلَبِه، وقالوا للنّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قد عرفْتَ ما شارَطْنَاك عليه من رَدِّ مَن قَدِمَ عليك مِن أصحابِنا، فابعَثْ إلينا بصاحِبنا، فقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا بَصِير؛ إنّا قَدْ أَعْطَينَا هَؤُلَاءِ القَومَ مَا عَلِمْتَ وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الغَدْرُ، وَإنّ الله جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً، فَانْطَلِقْ إلَى قَوْمِكَ»، قال: يا رسولَ الله، أتردّني إلى المشركين يفتنونني عن ديني؟، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا بَصِير؛ انْطَلِقْ فإنّ الله سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً»، فانطلَقَ مع الرّجلين اللذين أرسلتهما قريشٌ، وصارَ المسلمون رَضِيَ اللهُ عَنْهُم يقولون له: الرّجل يكون خيراً من ألفِ رجل. يُغْرُونَهُ بالّذِينَ معه، فساروا حتى إذا كانوا بذِي الحُلَيْفَةِ جلسَ أبو بَصِيرٍ إلى جِدارٍ ومعه صاحباه، فقال أبو بَصِير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأحدِ صاحبيه ومعه سيفُه: أَصَارِمٌ سَيفُك هذا يا أخا بني عامر؟، قال:

نعم؛ انظرْ إليه إنْ شِئْتَ، فاسْتَلّه أبو بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم عَلاهُ به حتّى قتلَه، وهَرَبَ الآخرُ سريعاً، حتّى أتى رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو جالس في المسجد، فلما رآه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحصَى يَطِنّ تحتَ قدميه من شِدّة عَدْوِه،؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ رَأَى فَزَعاً»، فلما انتهى إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال له: «وَيْحَكَ مَا لَكَ»؟، قال: قتَلَ صَاحِبُكم صَاحِبي وأفْلَتُّ منه وإنِّي لمَقْتُولٌ، واسْتَغَاثَ برَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمّنَه؛ وإذا أبو بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أَثَرِه فأناخَ بعيرَ العامريّ ببابِ المسجد، ودخلَ مُتَوَشِّحاً السَّيفَ، فقال: يا رسولَ الله وَفَتْ ذِمَّتُكَ وَأَدّى الله عنكَ، أَسْلَمْتَني بيدِ القَوم وقَدِ امْتَنَعْتُ بديني أَنْ أُفْتَنَ فيه أو يُفْتَنَ بي، فقال له رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ»، فقال: يا رسولَ الله، هذا سَلب العامري الذي قتلته؛ رحله وسيفه فخَمِّسْهُ، فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا خَمَّسْتُه رَأَوْنِي لمْ أُوْفِ لَهُمْ بِالذِي عَاهَدتُهم عَلَيه، وَلَكِنْ شَأْنُكَ بِسَلَبِ صَاحِبِكَ».

ثم إنَّ أبا بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذهب إلى محلٍّ بطريق الشام تمرُّ به عِيرُ قريش، واجتمع إليه جمعٌ من المسلمين الذين كانوا احْتُبِسُوا بمَكَّةَ؛ فإنّه بلغهم خبرُه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حَقِّهِ: «وَيْلَ أُمِّه؛ مُسْعِرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ» فصاروا يتَسَلّلُونَ إليه، ثُمَّ انفلتَ أبو جَندل بنُ سهيل بن عمرو الذي ردَّه أبوه يوم الحُدَيْبِيَة، فخرج من مَكَّةَ في سبعينَ فارساً أسلمُوا، فلحقوا بأبي بصير، وكرهوا أن يقدموا على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في زَمَنِ الهُدْنَة؛ خوفاً أَنْ يَرُدّهم إلى أهليهم، وانْضَمَّ إليهم نَاسٌ من غِفَارٍ وَأَسْلَمَ وَجُهَينَةَ وطَوَائِفُ مِنَ العَرَب ممَّن أسلمَ حتّى بلغوا ثلاثُمائة مُقاتلٍ، فقطعوا مَادَّةَ قريشٍ، لا يظفرون بأَحَدٍ منهم إلا قَتَلُوه، ولا تَمرُّ بهم عِيرٌ إلّا أخذوها، حتى كتَبَتْ قُريشٌ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْأَلُه بالأَرْحَام إلّا

آوَاهم، فلا حَاجَةَ لهم بهم. وقالوا: إنا قد أسقطنا هذا الشرط من الشروط، فمَن جاء إليك فأمسكه من غيرِ حَرَج، فإنّهم فتحوا علينا باباً لا يَصْلُحُ إقرَارُه.

فكتب رَسُوْلُ الله ﷺ إلى أَبي جَنْدَل وإلى أبي بصير رضي الله عنهما أن يقدما عليه، وأَنَّ مَن معهما مِن المسلمين يلحقوا ببلادِهم وأَهْلِيهم، ولا يَتَعَرَّضُوا لأَحَدٍ مَرَّ بهم مِن قريشٍ ولا لعِيرِهم، فقَدِمَ كتابُ رَسُوْلِ الله ﷺ عليهما وأبو بصير رضي الله عنه قد حضرَه الموتُ، فماتَ وكتابُ رَسُوْلِ الله ﷺ في يَدِهِ يَقْرَؤُه، فدَفنَه أبو جندل رضي الله عنه مكَانه، وقَدِمَ أبو جَنْدل رضي الله عنه على رَسُوْلِ الله ﷺ مع نَاسٍ من أصحابِه، ورجعَ باقيهم إلى أهلِيهم. وَأَمِنَتْ قُرَيشٌ على عيرِهم، وعَلِمَ الصّحابَةُ رضي الله عنهم الذين عَسُرَ عليهم رَدُّ أبي جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بن عمرو أَنّ طاعةَ رَسُوْلِ الله ﷺ خيرٌ ممَّا أحبّوه، وأنّ رأيه أفضلُ من رأيهم، وعلموا أَنَّ مُصَالَحته ﷺ كانت أولى، لأنّها كانت سَبباً لِكَثْرَةِ المسلمين، فإن الكفار لما أمنوا القِتَالَ اخْتَلَطُوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام، فأسلم كثير منهم. وقد ذُكِرَ أَنّ الذين أسلموا بعد الصُّلْحِ في مُدَّةِ سَنتين، يَعدِلونَ الذين أسلمُوا قبل الصّلحِ جميعاً.

وكان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْه يقول: ما كان فَتْحٌ في الإسلام أَعْظَمُ من فَتْح الحُدَيْبِيَة، ولكِنَّ الناسَ قَصُرَ رأْيُهم عمَّا كان بينَ مُحَمَّدٍ ﷺ وبين رَبِّه، والعِبَادُ يَعْجَلُونَ، والله لَا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ العِبَادِ؛ حتّى تبلغَ الأمورُ ما أرَادَ، لقَد رأيتُ سهيلَ بنَ عمرو رضي الله عنه بعد إسلامه في حجة الوداع قائماً عند المنحرِ يُقَرِّبُ لرَسُوْلِ الله ﷺ بُدْنَهُ، ورَسُوْلُ الله ﷺ ينحرُها بيدِه، ودعا الحلّاقَ لِحَلْقِ رَأسِهِ، فأَنْظُرُ إلى سُهيلٍ كلّما يُلْفَظُ مِن شَعْرِه ﷺ يَأْخُذُه

فيضَعُه على عينَيه، وأذكر امتناعَه أَنْ يُقِرَّ يومَ الحُدَيْبِيَة بأنْ يُكْتَبَ: بسم الله الرحمن الرحيم، وأن محمدا رَسُوْل الله ﷺ، فحَمِدْتُ اللهَ تعالى الذي هداه للإسلام وشَكَرْتُه.

٢٤ ـ غَزْوَة خَيْبَرَ

ولمّا رَجعَ رَسُوْلُ الله ﷺ من الحُدَيْبِيَة أقام شهرَ ذي الحِجَّةِ من سَنةِ سِتٍّ وبعضَ شهرِ المحرّم من سَنةِ سبع، ثم خرجَ إلى خَيْبَرَ، وقد اسْتَنْفَرَ ﷺ من حولَه ممّن شهد الحُدَيْبِيَة يغزونَ معه، وجاءَه المُخَلَّفُونَ عنه في غَزْوَةِ الحُدَيْبِيَة ليخرجوا معه رجاءَ الغنيمة، فقال: «لَا تَخْرَجُوا مَعِي إِلَّا رَاغِبِينَ فِي الجِهَادِ، فَأَمَّا الغَنِيمَةُ فَلَا تُعْطَوا مِنْهَا شَيئاً»، ثُمَّ أمرَ مُنادياً يُنادِي بذلك، فنادَى به. واستخلفَ ﷺ على المدينة نُمَيلَةَ، وقيل: سِبَاعَ بنَ عُرْفُطَةَ. وخرجَتْ أمُّ سلَمَةَ رضي الله عنها معه ﷺ.

ثم سارَ ﷺ، وفي أثناء سيرة قال لعامر بن الأكوع رضي الله عنه: «انْزِلْ فَحَدِّثْنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ»، أي: من أراجيزك وأشعارك. فقال: يا رسول الله قد تولى قولي ـ أي الشعر ـ، فقال له عمر رضي الله عنه: اسْمَعْ وأَطِعْ، فنزل يرتجز بقوله رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه:

وَالله لَوْلَا الله مَـا اهْتَـدَيْنَـا ... وَلَا تَصَـــدَّقْنَا وَلَا صَــلَّينَا

إلى آخر الأبيات المذكورة، وعند إنشاده قال له النبيُّ ﷺ: «يَرْحَمُكَ رَبُّكَ»، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وَالله وَجَبَتْ، يا رسُولَ الله، هَلَّا أَمتَعْتَنا به؟، أي: هَلَّا أَخَّرْتَ الدُّعَاءَ له بذلك إلى وقتٍ آخر؛ لأنه ﷺ ما قال

ذلك لأحدٍ في مثل هذا الموطن إلا واسْتُشْهِدَ. فكان أنْ قتل بعد ذلك في هذه الغَزْوة، رجعَ إليه سيفُه فقتلَه، فإنه أرادَ أنْ يضْرِبَ به ساقَ يَهودِيّ فجاءَتْ ذبابَتُه في ركبتِه، فماتَ من ذلك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال الناسُ: قتَلَ نفسَه فليسَ بشَهِيدٍ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّه لَشَهِيْدٌ»، وجاء سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ فقال: يا رسولَ الله؛ فداكَ أبي وأمي، زعموا أنّ أخي عامراً حَبِطَ عملُه إذْ قُتِلَ بسَيفِه، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَذَبَ مَنْ قَالَهُ، وَإِنَّ لَهُ أَجْرَيْنِ ـ وجمع بين أصبعيه ـ إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ، قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ».

وكون عامر ارتجزَ لرَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحَدَا به لا ينافي ما جاءَ أَنّ البَراءَ بنَ مالكٍ كان حسَنَ الصّوت، وكان يرتجزُ لرَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أسفارِه، وكانَ البراءُ حادِي الرّجال، وأَنْجَشَةُ حادِي النِّسَاءِ، وكانَ أَنْجَشَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه عبداً أسودَ، وكان حسَنَ الصّوت بالحداءِ إذا حَدا أَعْنَقَتِ الإبلُ ـ أي سَارَتْ وأَسْرَعَتْ ـ فلما حَدَا بِأُمّهَاتِ المؤمنين قال له رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَنْجَشَةُ رُوَيْدَكَ، رِفْقاً بِالْقَوَارِيرِ».

ولما أشرَفَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خَيْبَرَ، وكان وقتُ الصّبح قال لأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: «قِفُواْ»، ثم قال لهم: «قُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرَضِينَ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا أَذْرَيْنَ، فَإِنّا نَسْأَلُك خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَنَعُوذُ بِك مِنْ شَرّهَا وَشَرّ أَهْلِهَا وَشَرّ مَا فِيهَا، أَقْدِمُوا بِسْمِ الله»، وفي لفظ: «ادْخُلُوا عَلَى بَرَكَةِ الله تَعَالَى» وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُها لكلّ قريةٍ دخَلها. وقد ذُكِرَ أنه كان بخَيبرَ عشرةُ آلاف مقاتل، فكانوا لا يظنّون أنَّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يغزُوهم، وحينَ بلغَهم أَنَّ رَسُوْلَ

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيَغْزُوهم كانوا يخرجونَ ويصْطَفّونَ صُفوفاً، ثم يقولون: محَمَّدٌ يغزونا؛ هَيْهَاتَ هَيْهَات!. وقد كان عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنِ سَلول أرسلَ إليهم يخبرُهم: بأنّ محمّداً سائرٌ إليكم، فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالَكم حصُونكم، ثم اخرجوا إلى قتالِه، ولا تخافوا منه، فإنَّ عدَدَكم كثيرٌ، وقومُ محمَّدٍ شِرْذِمَةٌ قليلونَ، عُزَّلٌ لا سِلَاحَ معهم إلا قليل.

فلما كانت اللّيلة التي نزلَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صبيحتها بساحَتِهم، لم يتَحَرّكوا تلك الليلة، ولم يَصِحْ لهم دِيْكٌ حتّى طلعتِ الشّمْسُ، فقاموا من نومِهم وأَفْئِدَتُهم تَخْفِقُ، ثُمّ فتحوا حُصُونَهم وغدوا إلى أعمالِهم ومعهم الفُؤُوسُ والمَسَاحِي والمكَاتِل، ولما أبصرَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَّالَها وقَدْ خرَجُوا بمَسَاحِيهم ومَكَاتِلِهم، قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الله أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنّا إذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرِينَ» فلما رأوا رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولّوا هاربين إلى حصُونِهم، وهم يقولون: محمَّدٌ والخميس. أي: الجيش العظيم معه، وقد قيلَ له الخميس؛ لأنه خمسَةُ أقسَامٍ، المقدّمةُ، والسّاقةُ، والميمَنةُ والميسَرَةُ وهما الجناحَان، والقلبُ.

ثم ابْتَدَأَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حصُونِهم بحصُونِ الكَتِيبَةِ، لأَنّهُم كانوا قد أدخلوا أموالَهم وعِيَالَهم في حُصُونِ الكَتِيبةِ، وجمعوا المقاتلةَ في حُصُونِ النّطَاةِ، وكان منزلُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قريباً من حصُون النّطَاة، فجاءَه الحُبابُ بنُ المنذرِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فقال: يا رَسُولَ الله؛ إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان عن أمرٍ أُمِرْتَ به فلا نتكلّم، وإن كان الرّأيُ تكلّمنا. فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُوَ الرَّأْيُ»، قال: يا رسولَ الله؛ إنّ أهلَ النّطاةِ لي بهم معرفة، ليسَ قوم أبعدُ مدَى

سَهْمٍ منهم، ولا أَعْدَلُ رَمْيَةً منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أَسْرَعُ لانحِطَاط نَبْلِهم، ولا نَأْمَنُ من بَيَاتِهِم أَنْ يدخلوا في النّخلِ المجتمع بعضُه على بعضٍ، فتحوّلْ يا رسولَ الله، فقال ﷺ: «أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ، إِذَا أَمْسَيْنَا إِنْ شَاءَ الله تَحَوَّلْنَا». ثم دعا رَسُوْلُ الله ﷺ محمّدَ بنَ مسلمة رضي الله عنه فقال: «انْظُرْ لَنَا مَنْزِلاً بَعِيداً»، فطافَ محمّدٌ رضي الله عنه، وقال: يا رسولَ الله، وجدتُ لك منزلاً، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «عَلَى بَرَكَةِ الله» وتحوّل لما أمسى، وأمرَ الناس بالتّحَول. وقيل: إنّ راحلَته ﷺ قامَتْ تَجرُّ بزمامِها، فَأُدْرِكَتْ لِتُردَّ، فقال: «دَعُوهَا فَإِنَّها مَأْمُورَةٌ»، فلما انتهت إلى موضع من الصّخْرَةِ بركت عندَها، فتحَوَّلَ رَسُوْلُ الله ﷺ إلى الصّخرةِ وتحوّلَ الناسُ إليها، واتخذوا ذلك الموضع مُعَسْكراً. وكان النّزولُ بذلك الموضع منه ﷺ ليَحُولَ بينَ أَهْلِ خَيْبَرَ وبين غَطَفَان؛ لأنهم كانوا مُظاهرين لهم على حَرْبِ رَسُوْلِ الله ﷺ.

وابْتَنَى رَسُوْلُ الله ﷺ هناك مسجداً صلى به طول مُقَامِه بخَيبر، وأمَرَ ﷺ بِقَطْعِ نَخِيلِ أَهْلِ حُصُون النّطَاةِ، فشَرعَ المسلمونَ في قطعِها حتّى قطعوا أربعَمائة نَخْلَةٍ، ثمّ نهاهم عن القطع، فمَا قُطِعَ مِن نَخِيلِ خَيْبَرَ غيرها. وقاتل ﷺ يومَه ذلك أَشَدَّ القِتَال، وكان عليه ﷺ درعان وبيضَةٌ ومِغْفَرٌ، وهو على فَرَسٍ له يُقالُ له: الظَّرِبُ، وفي يَدِهِ قَنَاةٌ وتِرْسٌ.

وقد دفعَ ﷺ لواءَه لرَجُل من المهاجرين فرجَعَ ولم يصنعْ شيئاً، فدفعَه إلى آخر من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً، وخرجَتْ كتَائِبُ اليهودِ يقدَمُهم يَاسِرٌ، فكشف الأنصارَ حتّى انتهى إلى رَسُوْلِ الله ﷺ في مَوقِفِه، فاشْتَدَّ ذلك عليه ﷺ، وفي ذلك اليوم قُتِلَ محمُودُ بنُ مَسْلَمَة رضي الله عنه برحَى

أُلْقِيَتْ عليه من ذلك الحِصْنِ، فإنّه كانَ قد حاربَ حتّى أعياهُ الحرْبُ وثُقْلُ السِّلَاحِ وكان الحرُّ شديداً، فانحازَ إلى ظِلِّ ذلك الحِصْنِ فأُلْقِيَ عليه حَجَرُ الرَّحَى، فهَشَمَ البيضَةَ على رَأسِه ونَزَلَتْ جِلْدَةُ جَبينِه على وجْهِه، ونَدَرَتْ عينُه، فأدركَه المسلمونَ، فأتوا به النبيَّ ﷺ فسَوَّى الجِلْدَةَ إلى مكَانِها وعَصَبَه بِخِرْقَةٍ فماتَ رضي الله عنه من شدة الجراحة، وجاءَ أخوه محمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فقال: إنَّ اليَهُودَ قتلوا أخي محمود، فقال ﷺ: «لَا تَتَمَنّوا لِقَاءَ العَدُوّ، وَاسْأَلُوا الله العَافِيَةَ، فَإِنكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا تُبْتَلُونَ بِهِ مِنْهُم، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُم فَقُولوا: اللَّهُمَّ أَنتَ رَبُّنا وَرَبُّهُمْ، وَنَواصِينَا وَنَوَاصِيهِمْ بِيَدِكَ، وَإِنَّما تَقْتُلُهُم أَنتَ، ثُمَّ الزَمُوا الأَرضَ جُلُوساً، فَإِذَا غَشَوكُم فانْهَضُوا وَكَبِّرُوا».

ومكثَ ﷺ سبعةَ أيام يقاتلُ أهل حصُون النّطاة، يذهب كل يوم بمُحَمّدِ بنِ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه للقتال ويخلّفُ على محلّ العسكر عُثمانَ بنَ عفّان، فإذا أمسى رجعَ ﷺ إلى ذلك المحَلّ، ومَن جُرِحَ من المسلمين يُحمَلُ إلى ذلك المحل ليُداوى جُرْحُه، وكان ﷺ يناوبُ بين أصحابِه في حِرَاسَةِ اللّيل، فلمّا كانتِ الليلة السادسة من السّبع استعملَ النبيُّ ﷺ عُمَرَ، فطافَ عمرُ رضي الله عنه بأصحابه حولَ العَسْكر وفرَّقَهم، فَأُتِيَ بِرَجلٍ من يهودِ خَيْبَرَ في جوفِ اللّيل، فأمرَ به عُمَرُ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُه، فقال: اِذْهَبْ بي إلى نَبِيّكُم حتّى أُكَلّمَه، فأمسَكَ عنه، وانتهى به إلى بابِ النّبيِّ ﷺ، فوجدَه يُصَلّي فسمعَ ﷺ كلَامَ عمرَ فسَلّم، وأدخلَه عليه، فدخلَ باليهودي، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ لليهودي: «مَا وَرَاءَكَ»؟ فقالَ: تُؤَمِّنُني يا أبا القاسم؟، فقال: «نَعَمْ»، قال: خرَجْتُ من حِصْنِ النّطاةِ من عند قوم يتسَلّلون من الحِصْن في هذه الليلة، قال:

«فَأَيْنَ يَذْهَبُونَ»؟، قال: إلى حِصْن الشّقّ، يجعلون فيه ما تَبقّى من ذَرَارِيهم، ويتَهَيَّؤُونَ للقِتال، وفي حِصْن الصَّعْبِ من حُصُونِ النّطاة بيتٌ تحتَ الأرْض، فيه مَنْجَنِيقٌ ودَبّابَاتٌ[1] ودُرُوعٌ وسِيوفٌ، فإذا دخلت الحِصْنَ غداً؛ وأنتَ تدخلُه، ـ فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «إنْ شَاءَ الله»، فقال اليهوديّ: إنْ شَاءَ الله ـ أَوقَفْتُك عليه، فإنه لا يعرفُه غيري. ثم قال: وأخرى، فقال ﷺ: «مَا هِيَ»؟، قال: يُسْتَخْرَجُ المنجَنِيق، ثُمّ يُنصَبُ على حِصْنِ الشّق، ويدخلُ الرّجالُ تحتَ الدّبّابَات، فيحفرون الحصن، فتفتحه من يومك، وكذلك تفعل بحصُون الكَثيبة، ثم قال: يا أبا القاسم؛ احْقِنْ دَمِي، فقال له ﷺ: «أَنْتَ آمِنٌ»، قال: ولي زوجة فهبها لي، فقال: «هِيَ لَكَ»، ثم دعاه النبيُّ ﷺ إلى الإسلام، فقال: أنظرني أياماً.

ثُمَّ قال ﷺ: «لَأُعْطِيَن الرّايَةَ غداً رَجُلاً يُحِبّ اللهَ وَرَسُولَهُ، يَفْتَحُ الله عَلَى يَدَيْهِ، لَيْسَ بِفَرَّارٍ»، وعند ذلك لم يكن من الصَّحابَةِ رضي الله عنهم أحدٌ له منزلةٌ عند النبيِّ ﷺ إلا رَجَا أَنْ يُعْطَاها. وقال عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه: ما أَحْبَبْتُ الإِمَارَةَ إلّا ذلك اليوم. فدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيّاً رِضْوَانُ الله عَلَيْهِ، ولما بلغَ علياً كَرَّمَ الله وَجْهَه مَقَالَتُه ﷺ في خَيْبَرَ، قال: اللَّهُمَّ لا مُعْطِي لما مَنَعْتَ، ولا مانعَ لما أعطيتَ. فبعثَ ﷺ في طلب عليٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَه، وكان أَرْمَداً شَدِيدَ الرَّمَدِ، وكان قد تَخلّفَ في المدينة ثُمَّ لَحِقَ بالقوم، فقيل له: يا رسولَ الله، إنَّه يشْتكي عينيه، فقال ﷺ: «مَنْ يَأْتِينِي بِهِ»؟ فذهبَ إليه

(١) **الدَّبَّابَةُ**: هي آلةٌ تُتَّخَذُ من جُلودٍ وخَشَبٍ، تُتخَذ للحُروبِ، يدخلُ فيها الرجالُ، ويُقَرِّبُونها من الحِصْنِ المُحاصَر لِيَنْقُبُوه، وتَقِيَهم ما يُرْمَوْنَ به من فوقِهم وهم في أَصلِ الحِصْن، سُمِّيَت بذلك لأنها تُدْفع فتَدِبُّ.

سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ رضي الله عنه، وأخذَ بيدِه يقودُه حتّى أتى به النبيَّ صلى الله عليه وسلم، وقد عَصَبَ عينيه من الرّمَدِ، فقال له صلى الله عليه وسلم: «خُذْ هَذِهِ الرّايَةَ؛ فَامْضِ بِهَا حَتّى يَفْتَحَ الله عَلَيْك»، وكانت رايةُ رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم سوداء مُرَبّعة من نَمِرَةٍ مُخَمَّلَة، يُقالُ لها: العُقَاب.

فقال عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه: يا رسولَ الله إنّي أَرْمَدُ كما ترى، لا أبصرُ موضعَ قدمي، فوضع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رأسَه في حِجْرِه، ثمّ تَفَلَ في كَفِّه وفتحَ له عينَيه فدَلَكَهُما فبَرَأَ حتّى كأنْ لم يكن بهما وجعٌ. قال علي رضي الله عنه: فما رَمِدْتُ بعدَ يومَئذٍ ولا صدّعت، وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم دعا له بقوله: «اللَّهُمَّ اكْفِهِ الحَرَّ وَالبَرْدَ»، قال علي كَرَّمَ الله وَجْهَه: فمَا وجدتُ بعد ذلك اليوم لا حَرّاً ولا بَرْداً. وكان رضي الله عنه يلبس في الحرِّ الشّديد القباءَ المحشو الثّخين، ويلبسُ في البردِ الشّديدِ الثوبَ الخفيفَ لا يُبالي بالبَرْدِ.

وفي روايةٍ: أنه صلى الله عليه وسلم ألبسَه درعَه الحديدَ، وشَدَّ سيفَه ذَا الفقار في وَسَطِه وأَعطَاهُ الرّايةَ، ووَجّهَهُ إلى الحِصْن. ولما أعطاه صلى الله عليه وسلم الرّايةَ قال له: «امْشِ وَلَا تَلْتَفِتْ»، فسار عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه شيئاً، ثم وقف ولم يلتفت، فصَرَخَ: يا رسولَ الله، عَلامَ أقاتلُ الناس؟، فقال: «قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُواْ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله تَعَالَى».

قَالَ سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ: فَخَرَجَ عليٌّ بِالرَّاية يُهَرْوِلُ هَرْوَلَةً، وَإِنّا لَخَلْفَهُ نَتْبَعُ أَثَرَهُ، حَتّى رَكَزَ رَايَتَهُ فِي رَضْمٍ مِنْ حِجَارَةٍ تَحْتَ الحِصْنِ، فَاطّلَعَ إِلَيهِ يَهُودِيٌّ مِنْ

رَأْسِ الْحِصْنِ ، فَقَالَ له: مَنْ أَنْتَ ؟ ، قَالَ: أَنَا عَلِيّ بنُ أَبِي طَالِبٍ. فقَالَ الْيَهُودِيّ: عَلَوْتُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى. فَلَمّا دَنَا عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه مِنْ الْحِصْنِ خَرَجَ إلَيْهِ أَهْلُهُ فَقَاتَلَهُمْ، وكان أوّلَ من خرج منهم إليه الحَارِثُ أخو مَرْحَب، وقد كان معروفاً بالشَّجَاعة ، فانكَشَفَ المسلمُونَ وثبتَ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه فتَضارَبا ، فقتَلَه عَليٌّ وانهَزَمَ اليهودُ إلى الحِصْن ، ثمّ خَرَجَ إليهِ مَرْحَبٌ ، فحَمَلَ مَرْحَبٌ عليهِ ، وضَرَبَهُ فَطَاحَ تُرْسُهُ مِنْ يَدِهِ ، فتَنَاوَلَ عَلِيٌّ باباً كَانَ عِنْدَ الْحِصْنِ فتَرّس بِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، فَلَمْ يَزَلْ فِي يَدِهِ وَهُوَ يُقَاتِلُ حَتّى فتَحَ الله عَلَيْهِ ، ثُمّ أَلْقَاهُ مِنْ يَدِهِ حِينَ فَرَغَ ، فَلَقَدْ رَأَيْتنِي فِي نَفَرٍ سَبْعَةٍ مَعِي ، أَنَا ثَامِنُهُمْ نَجْهَدُ عَلَى أَنْ نَقْلِبَ ذَلِكَ الْبَابَ فَمَا نُقَلّبُهُ. وفي روايةٍ: أَنَّ عليّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه لما انتهى إلى بابِ الحِصْنِ اجْتَذَبَ أَحَدَ أبوابِه فألقاهُ بالأرض ، فاجتمعَ عليه بعده سبعون رجلاً فكان جُهْداً أَنْ أعادوه مكانَه.

ووقعت مُبارَزَةٌ بين الزّبير وياسر أخي مرحب ، فإنَّ ياسراً خرَجَ وهو يَرْتَجِزُ بقوله:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنّي يَاسِـرُ شَـاكِي السِّـلَاحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ

وقد كان من مشاهير فرسان اليهود وشجعانهم، وجعل يقولُ لهم: مَن يُبارِز؟ ، فخرجَ له الزُّبيرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَتْ أُمُّه صَفِيَّة بنتُ عبد المطّلب: يا رسولَ الله إنّهُ يقتلُ ابني ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ ابْنُكِ يَقْتُلُهُ إِنْ شَاءَ الله» ، فقتلَه الزّبيرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجاءَ أَنّ مَرْحَباً لما رأى أَنّ أخَاه قد قُتِلَ خرجَ سريعاً من الحِصْن في

سِلاحِه، وقد لبسَ دِرْعَين وتَقَلَّدَ بِسَيفَين، واعْتَمّ بعِمَامَتِين، ولبسَ فوقَهُما مِغْفراً، وحَجَراً قَدْ ثقَبَه على قَدْرِ البَيضَةِ، ومَعَهُ رُمْحٌ لِسَانُه ثَلاثةُ أَسْنَان، وهو يَرْتَجِزُ ويقولُ:

قَـدْ عَلِمَـتْ خَيْبَـرُ أَنِّـي مَرْحَـبُ　　　شَـاكِي السِّـلاحِ بَطَـلٌ مُجَـرَّبُ
إِذَا الْحُـرُوبُ أَقْبَلَـتْ تَلَهَّـبُ

فَاسْتَقبَلَه سيّدنُا عَلِيٌّ رضي الله عنه، وهو يقول:

أَنَـا الَّـذِي سَـمَّتْنِي أُمِّـي حَيْـدَرَهْ　　　كَلَيْـثِ غَـابَـاتٍ كَرِيـهِ الْمَنْظَـرَهْ
أُوفِيهِـمُ بِالصَّـاعِ كَيْـلَ السَّنْـدَرَهْ

ثُمّ فَلَقَ رَأْسَ مَرْحَبٍ بِالسَّيْفِ نصفين، فإنّ عليا كَرَّمَ الله وَجْهَه لما ضَربه تَتَرَّسَ فوقعَ السّيفُ على التّرسِ فقَدَّهُ وشَقَّ المِغْفِرَ والحَجَرَ الذِي تحتَه والعِمَامَتَين، وفَلَقَ هَامَتَهُ حتّى قَدَّهُ نِصْفَين. وقد كان شعار المسلمين يومئذٍ: "يَا مَنْصُورُ أَمِتْ أَمِتْ".

وكان من جُمْلَةِ مَن قُتِلَ مِن المسلمين الأَسْوَدُ الرَّاعِي، كانَ أجيراً لرَجُلٍ من اليَهُودِ يَرْعَى غنَمَه، وكانَ عبداً حَبَشِيّاً يُسَمّى أَسْلَم، فجاءَ إلى النّبيِّ ﷺ وهو مُحَاصِرٌ خَيْبَرَ وقال: يا رسُولَ الله، اِعْرِضْ عَليَّ الإسلامَ، فعَرَضَه عليه فَأَسْلَمَ. فلمَّا أَسْلَمَ قال: يا رَسُولَ الله إنِّي كُنْتُ أَجِيراً لصَاحبِ هذه الغنَمِ، فكَيفَ أَصْنَعُ بها؟، وَإنَّها أَمَانَاتٌ للنَّاسِ الشَّاةُ والشّاتان وأكثرُ من ذلك، فقال ﷺ له: «اضْربْ فِي وَجْهِهَا فَإِنَّها سَتَرْجِعُ إِلَى رَبِّهَا»، فقامَ فأخذ حَفْنَةً من حَصْباء فرماها بها، وقال: ارجعي إلى صاحبِك، فو الله لا أصحبُك، فخَرَجَتْ مُجتَمِعَةً

كأَنَّ سائقاً يسُوقُها حتى دخَلَتِ الحِصْنَ، ثُمَّ تقدَّم رضي الله عنه إلى ذلك الحِصْنِ فقاتَلَ مع المسلمين، فأصابَه حَجَرٌ لا يُعْرَفُ رَامِيه فقتَلَه، ولمْ يَسْجُدْ لله سَجْدةً، فَأُتِيَ بهِ إلى رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم، فأعرَضَ عنه، فقالوا: يا رَسُولَ الله، لمَ أَعْرَضْتَ عنه؟، فقالَ: «إِنَّ مَعَهُ الآنَ زَوْجَتَيهِ مِنَ الحُورِ العِين، تَنْفِضَانِ التُّراب عَنْ وَجْهِهِ، وَتَقُولَانِ لَه: تَرَّبَ الله وَجْهَ مَنْ تَرَّبَ وَجْهَكَ، وَقَتَلَ مَنْ قَتَلَكَ. لَقَدْ أَكْرَمَ الله هَذا العَبْدَ وَسَاقَهُ إِلَى خَيرٍ، قَدْ كَانَ الإِسْلَامُ مِنْ نَفْسِهِ حَقّاً». ثم فتحَ الله تعالى ذلك الحصنَ الذي هو حِصْنُ نَاعِم، وهو أَوّل حِصْنٍ فُتِحَ من حُصُونِ النّطاة على يَدِ عَليٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَه.

وكانَ قد أصابَ المسلمين رضي الله عنهم مجاعةٌ، فأَرْسَلَتْ أَسْلَمُ إِلَى رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم أَسْماءَ بنَ حَارِثَة، وأَمَرَتْهُ أَنْ يَقولَ للنّبيِّ صلى الله عليه وسلم: إنّ أَسْلَمَ يُقْرِئُونَكَ السَّلَامَ، ويَقُولونَ: أَجْهَدَنَا الجوعُ، فلامَهم رَجُلٌ، وقال: مِن بَينِ العَرَبِ تَصْنَعُونَ هذا؟ فقال زَيدُ بنُ حَارِثَة أَخو أَسْمَاء: وَالله إني لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ البَعْثُ إلى رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم مفتاحُ الخير، فدعا لهم صلى الله عليه وسلم وقال: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ حَالَهُمْ، وَأَنْ لَيْسَ بِهِمْ قُوَّةٌ، وَأَنْ لَيْسَ بِيَدِي شَيءٌ أُعْطِيهِم إِيَّاه، اللَّهُمَّ افْتَحْ أَكْثَرَ الحُصُونِ طَعَاماً وَوَدَكاً».

ثُمَّ دفع صلى الله عليه وسلم اللّوَاءَ للحُبَابِ بنِ المُنْذِرِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ونَدَبَ الناسَ، وقد كانَ مَن سَلِمَ من يَهودِ حِصْنِ نَاعِم انتقلَ إلى حِصْن الصَّعْبِ مِن حُصُون النّطاة، ففتح الله تعالى لهم حِصْنَ الصّعبِ قبل أَنْ تغِيبَ الشّمسُ من ذلك اليوم، بعدَ أَنْ أقاموا على محاصَرَتِه يومَين، ومَا بِخَيبر حِصْنٌ أكثر طعاماً منه، كان فيه الشّعِيرُ والتّمرُ والسّمْنُ والزّيتُ والشّحْمُ والماشِيةُ والمتَاعُ. وكان

في هذا الحِصْن خمسمائة مقاتل، وقبل فتْحِه خرَجَ منه رَجُلٌ يُقَالُ له: يُوشَعُ، مبارزاً، فخرجَ له الحُبابُ بنُ المنذر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فقتله، وخرَج آخرُ مُبارزاً، يقال له: الدّيَال، فبرزَ له عُمَارةُ بنُ عُقْبَةَ الغفاري رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، فضربه على هامَتِه فقتَلَه، وقال له: خُذْهَا وأنا الغُلامُ الغِفَاري، فقال النّاسُ: حَبِطَ جِهَادُه، فقال ﷺ لما بلغَه ذلك: «يُؤْجَرُ وَيُحْمَدُ»، ثم حملَتِ اليهودُ حَمْلَةً مُنْكَرَةً، فانكَشَفَ المسلمون حتى انتهوا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، وهو واقفٌ قد نَزَل عَن فرسِه، فثبَتَ الحُبابُ بنُ المنذر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فحَرّضَ ﷺ المسلمينَ على الجِهَادِ، فأقبلوا وزَحَفَ بهم الحُبَابُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، فانْهَزَمَتِ اليَهودُ، وأغلقوا الحِصْنَ عليهم.

ثُمّ إنّ المسلمين اقتحموا الحِصْنَ يقتلونَ ويأسرون، فوجدوا في ذلك الحِصْنَ من الشعير والتمر والسمن والعسل والسكر والزيت والودك شيئاً كثيراً، ونادى منادي رَسُوْلِ الله ﷺ: «كُلُوا وَاعْلِفُوا وَلَا تَحْمِلُوا»، أي: لا تخرجوا به إلى بلادكم. ووجدوا في هذا الحصن من آلة الحرب: دَبَّابَاتٍ، ومَنْجَنِيقَ، ودُرُوعاً، وسُيُوفاً، كانت في بيتٍ منه تحت الأرض، ولعَلّ وجُود ذلك كان بدَلَالَةِ ذلك الرَّجُلِ المتقدّم ذكرُه عليه.

ولما فُتِحَ ذلك الحصن تحوَّلَ مَن سَلِمَ من أهلِه إلى حِصْن قُلّة، وهو حِصْنٌ بِقُلّةِ جَبَل، وسمّيَ بعد ذلك بُقَلّةِ الزّبير، لأنه صَارَ في سَهْمِ الزّبير رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه بعد ذلك، وهو آخرُ حصون النّطاة، فإن حصونَ النّطاة ثلاثة: حصْنُ ناعم، وحصْنُ الصّعب، وحصْنُ قلّة. فأقام المسلمون على حِصَار حصْنِ قلّة هذا ثلاثةَ أيام، فجاءَ رَجلٌ من اليهود، وقال للنبيِّ ﷺ: يا أبا القاسم تُؤَمِّنّي

علَى أنْ أدُلّكَ على مَا تَسْتَرِيحُ به، فإنّكَ لو مَكَثْتَ شَهْراً لا تَقْدِرُ على فَتْح هذا الحِصْن، فَإِنَّ به أنْهاراً صَغِيرَةً تحتَ الأَرض، يخرجونَ ليلاً فيشْرَبونَ منها، فإنْ قَطَعْتَ عنهم شُرْبَهم أَهْلَكْتَهُم، فأَمَّنَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسَارَ لمياههم فقطعَها، فخرجوا عند ذلك، وقاتلوا أَشَدَّ القِتَال، ثُمّ فُتِحَ ذلكَ الحصن.

ثم سَارَ المسلمون إلى حِصَار حُصُون الشّقّ، فكان أوَّلَ حِصْنٍ بُدِأَ به من حِصْنَي الشّق: حِصْنُ أُبَيّ، فقاتلَ أهلُه قِتَالاً شديداً، وخرجَ رجلٌ منهم يُقالُ له: غَزْوَال فدعا إلى البراز، فبرزَ له الحُباب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وحمَل عليه فقطع يدَه اليُمْنَى ونصْفَ الذّراع، فبادرَ راجعاً مُنْهَزِماً إلى الحِصْن، فتبِعَه الحُبابُ فقطعَ عُرقوبَه فوقع فَذَفَّفَ عليه، فخرجَ رجلٌ آخرُ مبارزاً، فخرج له رجل من المسلمين فقتَلَه ذلك الرَّجلُ وقامَ مكانَه يدعو لِلْبِرَاز، فخرجَ له أبو دجانة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فضَرَبَه أبو دُجَانة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فقطع رِجْلَه، ثُمَّ ذَفَّفَ عليه.

وعند ذلك أَحْجَمَت اليهود عن البراز، فكَبّر المسلمون وتحاملوا على الحِصْنِ، ودخلوه يقدمهم أبو دجانة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغَنماً وطعاماً، وهرَب من كانوا فيه ولَحِقُوا بحِصْنٍ يُقالُ له: حِصْنُ البَرِيء، وهو الحِصْن الثّاني من حصْنَي الشّق، فتمَنَّعوا بهِ أَشَدَّ التّمَنّع، وكانَ أهلُه أَشَدَّ رَمياً للمسلمين بالنّبل والحِجَارة، حتّى أصابَ بعضُ النّبلِ ثيابَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعَلِقَ به، فأخذَ لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفّا من حَصْبَاء فحَصَبَ به ذلك الحِصْن، فرَجَفَ بهِم الحِصْنُ، ثُمّ اقْتَحَمَه المسلمون وأخذوا مَن فيه أخذاً ذريعاً، ووجدوا في هذا الحصن آنيةً من نُحَاس وفخارٍ، كانت اليهودُ تأكل فيها وتشربُ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَخِّنُوا فِيهَا الماءَ ثُمَّ اطبخُوا بَعْدُ وَكُلُوا فِيهَا وَاشْرَبُوا». وحِكْمَةُ تسْخِين الماء

فيها لا تخفى، وهيَ أَنَّ الماءَ الحَارّ أقوى في النّظافةِ وإِخْرَاج الدّسُومَة.

ثم إنّ المسلمين لما أخذوا حصونَ النّطاة وحصُون الشّق، فرّ من سَلِمَ مِن يهودِ تلك الحصُون إلى حُصُون الكَتِيبَةِ، وهيَ ثلاثةُ حُصُونٍ: القَمُوصُ، والوَطِيحُ، والسُّلَالم، وكان أَعْظَمَ حصُونِ خَيْبَرَ القَمُوصُ، وكان منيعاً، فحاصرَه المسلمون عشرينَ ليلةً ثم فتحَه الله على يَدِ عَليٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَه، ومنه سُبِيَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ صَفِيَّةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها.

وانتهى المسلمون إلى حِصَار الوطيح، وحِصْن السُّلَالم ويُقالُ له: السُّلَالِيم، وهو حِصْنُ بني الحُقَيق، وكان آخرُ حصُون خَيْبَرَ. فمكثَ المسلمون على حصارِهما أربعةَ عشر يوماً، فلم يخرجْ أحدٌ منهما، فهَمَّ ﷺ أَنْ ينصبَ على مَن فيهما المنْجَنِيقَ، فلما أيقنوا بالهلَكَة سألوا رَسُوْلَ الله ﷺ الصُّلحَ على حَقْنِ دِمَاءِ المُقَاتِلة وتَرْكِ الذّرِّيّة لهم ويخرجونَ من خَيْبَرَ وأَرْضِها بِذَرارِيهم، وأَنْ لَا يَصْحَبَ واحِداً منهم إلّا ثَوبٌ واحِدٌ على ظهرِه، ويتركوا ما لهم مِن مَالٍ وأَرْضٍ؛ مِن الصَّفْراء والبَيضَاءِ والكُرَاع والسِّلاح، وعلَى أَنْ ذمّةَ الله ورَسُولِه بريئةٌ منهم إنْ كتَمُوهُ شيئاً مِن مَتَاعِهم يَسْأَلُهم عنه، فصَالَحهُم على ذلك.

ودخل المسلمون الحِصْنَين المذكورين، فوجدوا فيهما: مائة دِرْع، وأربعمائة سَيف، وألفَ رُمْح، وخمسمائة قوس عربية بجعَابِها، ووجدوا صَحَائِفَ مُتعَدّدة من التّوراة فجاءَتِ اليهودُ تطلبُها فأمرَ ﷺ بدَفْعِها إليهم. وغَيَّبُوا الجِلْدَ الذِي كانَ فيه حُلِيّ بني النَّضِير، وعقود الدّرّ والجوهر، وهو الذي كان سلامُ بنُ أبي الحُقَيق رافعاً له ليَراه النّاس عندما أُجْلُوا من بني النّضِير، وهو يقولُ بأعلى صوته: هَذَا أَعْدَدْنَاه لرَفْع الأرض وخَفْضِها. كما تقدّم، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ

لكنانةَ بنِ أبِي الحُقيق وأخِيه الرّبيع: «أينَ كَنْزُ بَنِي النَّضِيرِ»، فقالا: أذْهَبَتْهُ الحرُوبُ والنَّفَقاتُ، فقال ﷺ: «العَهْدُ قَرِيبٌ، وَالمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ!، إنّكُمَا إنْ كَتَمْتُمانِي شَيئاً فَاطَّلَعْتُ عَلَيهِ اسْتَحْلَلْتُ دِمَاءَكُمَا وَذَرَارِيْكُمَا»، فقالا: نعم، فأخبرَه الله بموضِع ذلك الحليِّ، فقال ﷺ لرَجُل من الأنصَار: «اذْهَبْ إلَى مَحَلِّ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ ائْتِ النَّخْلَ، فَانْظُرْ نَخْلَةً عَنْ يَمِينِكَ مَرْفُوعَةً، فَائْتِنِي بِمَا تَحْتَهَا»، فانطلقَ فجاءه به، فوجد فيه من الأساوِر والدَّمَالِج والخَلَاخِيل والأَقْرِطَةِ وخَوَاتيم الذَّهَبِ، وعقود الجوْهَر والزّمُرّد، وعقود الأظفار المُجزّع بالذّهب، ما قُوِّمَ بعشرةِ آلاف دينار، وكان ذلك بعضُ كنْزِهم، فسألهما عما بقيَ، فأبيَا أنْ يُؤَدّياه، فأمَرَ بهما فضُربَتْ أَعْنَاقُهُما، وسَبَى أَهْلَهُما.

ثمّ أمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ بجمع الغَنائم التي غُنِمَتْ قبل الصّلح فجُمِعَتْ، وجاءَ بلالٌ بصَفِيَّةَ بنت حُيَيٍّ وقد سُبِيَتْ هيَ وبنتُ عمٍّ لها، فمرَّ بهما على قتْلَى من اليهود، فلمّا رَأَتْهُم بنتُ عَمِّ صَفِيَّة صاحَتْ وصَكَّتْ وجْهَهَا، وحَثَتِ الترابَ على رأسِها، فلمّا رآهَا النّبيُّ ﷺ قال: «أَنُزِعَتْ مِنْكَ الرَّحْمَةُ يَا بِلَالُ حَتَّى تَمُرَّ بِامْرَأَتِينِ عَلَى قَتْلَى رِجَالِهِمَا»؟، وأصابَ رَسُوْلُ الله ﷺ سَبَايا، فكان منها صَفِيَّة رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْها، وهي بنتُ حُيَيٍّ بنِ أَخْطَب، مِن سِبْطِ هارون بنِ عمْرَان أخي موسى عليهما الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، فاصْطَفَاها رَسُوْلُ الله ﷺ صَفِيَّة لِنَفْسِه، وجعلَها عند أمِّ سُلَيم حتى اهْتَدَتْ وأَسْلَمَتْ، ثُمّ أَعْتَقَهَا ﷺ وتزَوَّجها، وجعَلَ عِتْقَهَا صداقَها، وذلك بعد أَنْ خَيَّرَهَا ﷺ بينَ أَنْ يُعْتِقَهَا فتَرْجعَ إِلَى مَن بَقِيَ مِن أهلِها، أو تُسْلِمَ فيَتَّخِذَها لنَفْسه، فَقَالَتْ: أَخْتَارُ اللهَ ورَسُولَه. ولما أَوْلَمَ ﷺ على صَفِيَّة رَضِيَ اللهُ تعالَى

عَنْها، قالوا: إنْ لَمْ يَحْجُبْها فَهِيَ أُمّ وَلَدٍ، وإِنْ حَجَبَها فَهِيَ امْرَأَته. فحُجِبَتْ فعَلِمُوا أَنّها امْرَأتُه.

وعن صَفِيَّة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: انتهيتُ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَا من النّاس أَحَدٌ أكرَهُ إليّ منه؛ قتلَ أَبي وزوجي وقومِي، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا صَفِيَّةُ، أَمَا إنّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكِ ممَّا صَنَعْتُ بِقَوْمِكِ، إِنَّهُم قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا..، وصَنَعُوا كَذَا وَكَذَا..»، وما زالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتذرُ إليَّ حتى ذهبَ ذلك من نفسي، فقمتُ من مقعدي وما في النّاسِ أَحَدٌ أحبّ إليَّ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولما دخل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصَفِيَّة رَأى بأعلى عينها خضرةً فقال لها: «مَا هَذِهِ الخُضْرَةُ»؟، فَقَالَتْ: كنت عروساً، وكان رَأسِي في حِجْرِ ابنِ أَبِي الحُقَيق وأنا نائِمة، فرأيت كأنَّ القمرَ وقع في حِجْرِي، فأخبرته بذلك، فلطمني وقال: والله ما تَتَمَنّينَ إلّا هذا الملك الذي نَزَلَ بنا!.

ولما قطعَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستة أَمْيَال عائداً من خَيْبَرَ أرادَ أَنْ يُعَرِّسَ بها فَأَبتْ، فوَجَدَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفْسِه، ثم سَارَ فلمّا وصلَ الصَّهْباء مَالَ إلى دَومَةٍ هناك فطَاوَعَتْهُ، فقال لها: «مَا حَمَلَكِ عَلَى إِبَائِكِ حِينَ أَرَدْتُ المنْزِلَ الأَوَّلَ»؟، فَقَالَتْ له: يا رسولَ الله؛ خَشِيتُ عليك قربَ يهود. فأقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك المحَلّ ثلاثةَ أيام، وجعلَ وَلِيمَتَهَا حَيْساً.

ولما أَعْرَسَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها، باتَ أبو أيوبَ الأنصاري تلك الليلة مُتَوَشِّحاً سيفَه يحرُسُه ويطُوفُ بتلكَ القُبَّةِ حتَّى أصبحَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرأى مكانَ أَبِي أيوبٍ، فقال له: «مَا لَكَ يَا أَبَا أَيُّوبَ»؟، قال: يا رسولَ الله، خِفْتُ عليك من هذه المرأة، قتلت أباها وزوجها وقومها وهي حديثة عهد بكفرٍ، فبِتُّ

أحفظُكَ، فقال: «اللَّهُمَّ احْفَظْ أَبا أَيُّوبَ كَما بَاتَ يَحْفَظُنِي». وكان ﷺ يضعُ لصَفِيَّةَ ركبَتَه الشَّرِيفَةَ لتَرْكَبَ، فكانت تَضَعُ رِجْلَها على رُكْبَتِه حتّى تصْعَدَ على الرّاحلةِ.

ونهى رَسُوْلُ الله ﷺ يوم خَيْبَرَ عن مُتْعَةِ النِّسَاءِ، ونهى عَن إتْيَانِ الحبَالَى مِن النّساءِ اللّاتي سُبينَ، وأَنْ لا يُصِيبَ أحدٌ امرأةً مِنَ السّبْيِ غيرَ حامِلٍ حتّى يَسْتَبْرِئَها، وبلغَه ﷺ عن رَجُلٍ أنه أَلَمَّ بامرَأةٍ مِنَ السَّبي حُبْلَى، فقالَ ﷺ: «لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَلْعَنَهُ لَعْنَةً تَدْخُلُ مَعَهُ فِي قَبْرِه».

ونَهَى ﷺ عن أكلِ الثّومِ، وقد كانَ غالِبُ اقْتِيَاتِهم في خَيْبَرَ الثّومَ والكُرَّاثَ، فلما رَاحَ الناسُ إلى المسجدِ إذا ريحُ بصَلٍ وثومٍ، فقال النبي ﷺ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الخَبِيثَةِ فَلَا يَقْرَبَنَّا»، فقال الناسُ: حَرّمَ ذَلِك، فلما بلغَه ﷺ ما قالوا، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّهُ لَيْسَ لَنَا تَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ الله، وَلَكِنّها شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا». وقد قيل: ما أكلَ نَبِيٌّ قطُّ ثوماً ولا بصَلاً.

ونَهَى ﷺ في خَيْبَرَ عن لحُوم الحُمُرِ الأَهْلِيّة، فإنّهم أصابَهم جوعٌ فوجدوا من الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ ثلاثينَ حِماراً، خرجَتْ من بعضِ الحصُونِ، فأخذها رَهْطٌ من المسلمين، وذبحُوها وجعلوا لحومَها في القُدُورِ، وجعلوا يطبخونَها للأكل، فمرَّ بهم النبيُّ ﷺ فسألهم عمَّا في القُدُورِ، فقالوا: لحومُ الحُمُرِ الإِنسِيّة، فنهاهُم ﷺ عن أكلِها، ثمّ أمرَ عبدَ الله بنَ عَوف أنْ يُنادي في النَّاسِ: إنّ لحومَ الحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ لا تَحِلّ لِمَنْ يَشْهَدُ أَنّ محمّداً رَسُولُ الله. وأَمرَ ﷺ أَنْ تُكفَأَ القُدُورُ، وأَنْ لا يأكلوا مِن لحومِ القُدُورِ شَيئاً، فَأُكْفِئَتِ القُدُورُ وهِيَ تَفُورُ.

وقَدِمَ عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَيبَرَ الأَشْعَرِيُّون، ومنهم أبو موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقد كان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال قبل قدومِهم إليه: «يَقْدَمُ عَلَيكُم قَومٌ هُمْ أَرَقُّ مِنكُمْ قُلُوباً» فقَدِمَ الأَشْعَرِيّونَ وهُمْ يَرْتَجِزُونَ ويَقُولونَ: "غداً نلقى الأَحِبَّة مُحَمَّداً وَحِزْبَه". فقالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَقِّهِم: «أَتاكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ، هُمْ أَرَقُّ قُلُوباً، وأَلْيَنُ أَفْئِدَةً، الفِقْهُ يَمَانٍ، وَالحِكْمَةُ يَمانِيَّةٌ»، وجاءَ: أَنّ أهلَ اليمنِ لما قَدِمُوا صَافَحُوا النّاسَ، فقال النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَهْلَ اليَمَنِ قَدْ سَنُّوا لَكُمْ المُصَافَحَة، وَإِنَّ مِنْ تَمَامِ مَحَبّتِكُمْ المُصَافَحَة».

وقَدِمَ أيضاً عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّوسِيُّونَ، ومنهم أبو هُرَيرة رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، فسألَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابَه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَنْ يشرِكُوهم في الغَنيمةِ، ففعلوا. وقَدِمَ عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فتحِ خَيْبَرَ جعفرُ بنُ أَبِي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقامَ إليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعْتَنَقَه وَقَبَّلَهُ بينَ عَينَيهِ، وقالَ: «وَالله مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أُسَرُّ بفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَر؟، أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي يَا جَعْفَر»، فجعلَ جعفرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَحْجِلُ[1] فرحاً.

وكان مِن جُمْلةِ مَن قَدِمَ من بلاد الحبَشَة أُمُّ حَبيبَةَ بنتُ أَبي سُفْيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا زوجِ النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد عقد عليها وهي بالحبشة لإنّها كانت ممّن هاجرَ الهجرةَ الثانية للحبشة مع زوجِها عبدِ الله بنِ جَحْش، فارْتَدّ عن الإسلام هناك، وتنَصَّرَ وماتَ على ذلك، وبَقِيَتْ هيَ على إسلامِها، فأرسلَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرَو بنَ أميّة الضَّمْرِي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في افتتاح المحرّم سنة سبع إلى النجاشي ليزوِّجَها منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) **الحَجْلُ**: هو المشي على رجل واحدة، قال العلماء: رَقَصَ سيدنا جعفر رَضِيَ اللهُ تعالى عنه من لذّة هذا الخطاب وفرحه به، ولم ينكر عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقْصَه هذا. وقد جعله بعضهم أصلاً لجوازِ رقص الصّوفية عند ما يجدونه من لذة المواجيد في مجالس الذّكر والسّماع، وفرَحاً بما يُنازلهم.

قالت أُمُّ حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: رأيتُ في المنام كأنّ قائلاً يقولُ لي: يا أمّ المؤمنين، ففَزِعْتُ من ذلك، ثم إنّي أوّلتها بأنّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَزَوّجُني، فدَخلَتْ عَلَيَّ جاريةُ النّجاشي، فَقَالَتْ: إنّ الملكَ يقولُ لك: كتبَ إليهِ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يزَوّجَك منه، فَوَكّلي مَن يزوّجُك، فقلتُ لها: بَشَّرَهُ الله بالخيرِ، ثم أرسلْتُ بالوكالةِ إلى خَالدِ بنِ سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأعطيتُ تلك الجارية سِوَارَين وخلخالين وخواتيم فضّة؛ سُروراً بما بَشَّرَتْ به، فلمّا كان العَشيّ أَمرَ النجاشيُّ جعفرَ بنَ أبي طالب ومن معه من المسلمين فحضروا، وخطبَ النّجاشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: الحمدُ لله الملك القدّوس، أشهدُ أَنْ لا إله إلا الله وأَنّ محمّداً رسولُ الله، وأنه الذي بشّرَ به عيسى ابنُ مريمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أما بعدُ: فإنّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتبَ إليَّ أَنْ أزوِّجَه أمَّ حبيبةَ بنتَ أبي سُفْيَان، فأجبنا إلى ما دعا إليه رَسُوْل الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أصدقها أربعمائة دينار، ثم سكبَ الدّنانيرَ بين يدي القوم، فقال خالدُ بنُ سعيد بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الحمدُ لله، أحمده وأستعينه وأستغفره، وأشهد أَنْ لا إله إلا الله وأَنّ محمّداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أمّا بعدُ: فقد أجبتُ إلى ما دعا إليه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزوجته أمَّ حبيبة بنت أبي سُفْيَان، فبارَكَ الله لرَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما أرادوا أَنْ يقوموا بعدَ العقد قال لهم النجاشي: اجلسوا، فإنّ مِن سُنَنِ الأنبياءِ عليهم الصّلاة والسّلام إذا تزوجوا أن يُؤْكَلَ طعامٌ على التزويج. فدعا بطعام فأكلوا، ثم تفرقوا، قالت أمّ حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلما كان من الغد جَاءَتني جاريةُ النجاشي فرَدّت عليَّ جميع ما أعطيتُها، وقالت: إنّ الملكَ عزَمَ عليَّ أَنْ لا أَرْزَأَكِ شيئاً، وقد أَمرَ نِساءَه أَنْ يبعثنَ إليكِ بكلّ ما عندهنّ مِن العطر، فجاءَت بوَرْسٍ وعَنْبَرٍ وزَبَادٍ كثيرٍ، وقالت: حاجتي إليك أن تقرئي رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مني

السَّلامَ وتعليميه أنّي قد اتبعتُ دينَه، وكانَتْ كلّما دَخلَتْ عَليَّ تقولُ لا تنسي حاجتي إليك. ولمّا دَخلْتُ على رَسُوْلِ الله ﷺ أخبرْتُه كيفَ كانتِ الخطبةُ، وما فعلَتْ معي جَارِيةُ النّجاشي، وأقرأته منها السّلام، فتبسَّمَ رَسُوْلُ الله ﷺ وقال: «وَعَلَيْهَا السَّلَامُ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُه».

ثمّ أرسلَ النجاشي أمَّ حبيبة معَ شُرَحْبِيل بنِ حَسَنَة. ولمّا رَجَعَ مهاجرة الحبشة إليه ﷺ قالَ: «أَلَا تُخْبِرُونِي بِأَعْجَبِ شَيءٍ رَأَيْتُم بِأَرْضِ الحَبَشَةِ»؟، فقالَ فِتيةٌ منهم: يا رسولَ الله؛ بينما نحنُ جلوسٌ إِذْ مَرَّتْ بنا عَجُوزٌ مِن عَجَائِزِهم وعلى رَأْسِهَا قُلّةٌ فيها ماءٌ، فمرّتْ بِصَبِيٍّ فَدَفَعَها، فوقَعَتْ على رُكبتَيها وانكَسَرَتْ قُلَّتُها، فلَمّا قامَتْ التفتت إليه فَقَالَتْ: سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمعَ الأولين والآخرين وتكلّمتِ الأيدِي والأرجلُ بما كانوا يكسبون، تعلم أمري وأمرَك عنده، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «صَدَقَتْ».

وقد كان رَسُوْلُ الله ﷺ لما أقبلَ على خَيْبَرَ ودنا منها بعث مُحَيصَةَ بنَ مسعودٍ إلى أهل فَدَك، يدعوهم إلى الإسلام، ويخوفهم. قال محيصة: فجئتهم فجعلوا يتَرَبَّصُون، ويقولون: إنّ بخيبر عشرة آلافِ مُقاتل، وفيهم: عامرٌ، وياسرٌ، والحارثُ، وسيّدُ اليهود مرْحَب، ومَا نرَى أَنّ محمّداً يقربُ إليه، فمكثْتُ عندَهم يومين، ثُمّ أَرَدْتُ الرّجوعَ، فقالوا: نحنُ نرسلُ معكَ رِجَالاً منّا يأخذون لنَا الصّلحَ. وكلّ ذلك وهُمْ يظُنّونَ أنه ﷺ لا يقدرُ على فتح خَيْبَرَ، فلمّا جاءَهم أُناسٌ مِن حصْنِ نَاعِم، وأخبرُوهم أنّ رَسُوْلَ الله ﷺ فتحَه أرسلوا رَجُلاً من رؤسَائِهم يُقالُ له: نُونُ بنُ يُوشع في نَفَرٍ، يصالحون رَسُوْلَ الله ﷺ على أَنْ يَحْقِنُ دماءَهم ويُجْلِيهم، ويخلّوا بينه وبينَ الأموَال، ففعلَ ذلك

رَسُوْلُ الله ﷺ. وقيل: تصالحوا معه على أَنْ يكونَ لهم نِصْفُ الأَرْضِ ولرَسُوْلِ الله ﷺ النّصْفُ الآخر، فكانَ ﷺ يُنْفِقُ منها، ويعودُ منها على صَغيرِ بني هاشم، ويزوِّجُ منها أَيِّمَهُم.

وكان طلبُ الصّلح من أهل فَدَك بعد أَنْ أرَادَتْ غَطَفَانُ وسيّدُهم عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ أَنْ يعينوا أَهْل خَيْبَرَ، وكانوا أربعةَ آلافٍ، فإنّ يهود خَيْبَرَ أرسلوا عندَ مجيئِه ﷺ إليهم كنَانة بنَ أَبِي الحُقَيقِ وهَوْذَةَ بنَ قيسٍ، في أرْبعةِ عشر رَجُلاً إلى غَطَفَان ليستَمِدّوا بهم، وشرطوا لهم نصفَ ثِمارِ خَيْبَرَ إِنْ غلبوا على المسلمين، فتَجَمَّعُوا، ثمّ خرجوا ليُظَاهِرُوا يهودَ خَيْبَرَ. ويُقالُ: أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ أَرْسَلَ إليهم أَنْ لا يعينُوهم على أَنْ يُعطِيَهم من خَيبرَ شيئاً سمّاه لهم، وهو نصفُ ثمارِها، فأبوا وقالوا: جِيرَانُنا وحلفاؤُنا، فلمّا ساروا قليلاً سمعوا خلفَهم حِسّاً في أموالِهم وأَهلِيهم، فظنّوا أَنّ المسلمين قد أغاروا على أهالِيهم، فَأَلْقَى الله تعالى الرُّعبَ في قلوبِهم فرجعوا مُسرعين على أعقابهم فأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلّوا بينَ رَسُوْلِ الله ﷺ وبينَ أَهْلِ خَيْبَرَ، وفي روايةٍ: أنّهم لما ساروا سَمِعُوا صوتاً يقولُ: أيّها الناسُ أهليكم؛ خولفتم إليهم. فرجعوا فلمْ يروا لذلك نَبَأً.

ثُمّ إنَّ غَطَفَانَ قدموا على النبيِّ ﷺ وهو بخَيْبَرَ وقد فتحَ حصونَها، فقال له عُيينَةُ بنُ حِصْنٍ: أعطني ممّا غَنِمْتَ من حُلَفَائِي، فإنّي امتنعتُ عنك وعَنْ قِتَالِك، فقالَ له رَسُوْلُ الله ﷺ: «كَذَبْتَ، وَلَكِنَّ الصِّيَاحَ الذِي سَمِعْتَ أَنْفَذَكَ إِلَى أَهْلِكَ، ولَكِنْ لَكَ ذُو الرّقيبَة»، فقال عُيينةُ: وما ذو الرُّقيبة؟، قال له: «الجبَلُ الذِي رَأَيْتَ فِي مَنَامِكَ أَنكَ أَخَذْتَه». وذلك أَنّ عُيينةَ بنَ حِصْن لما سمعَ

الصّوت ورجعَ إلى أهلِه لمْ يَجِدْ شيئاً، فرجع بعد ذلك بمَن معه إلى خَيْبَرَ، ولما كانوا بالقُرْبِ منها عرَّسُوا مِن اللّيل، فنامَ عيينةُ وانْتبَهَ فقال لقومِه: أبشروا فإنّي رأيتُ الليلةَ في النّوم أني أُعْطِيتُ ذَا الرّقيبة، وهو جبَلٌ بخيبر، لقَدْ والله أَخَذْتُ بِرَقَبَةِ مُحَمَّدٍ. فلما قَدِمَ خَيْبَرَ وجَدَ رَسُوْلَ الله ﷺ قد فتح خَيْبَرَ.

وقَدِمَ عليه ﷺ وهو بخيبرَ الحَجَّاجُ بنُ عِلَاطٍ السّلمي، فأسلمَ، ثم قال: يا رسُولَ الله إنّ مالي عند امْرَأتي بمَكَّةَ ومُتَفَرِّقٌ في تُجّارِ مَكَّةَ، فَأْذَنْ لي أَنْ آتي مَكَّةَ لآخذَ مالي قبلَ أَنْ يعلموا بإسلامِي، فإنهم إن علموا بذلك لا أَقْدِرُ على أَخْذِ شَيءٍ منه، فأَذِنَ رَسُوْلُ الله ﷺ له، فقال: يا رَسُولَ الله لَابُدَّ لِي مِن أَنْ أَقولَ مَا أَتوَصّلُ به إلى أخذِ مالي، قال: «قُلْ». قال الحَجَّاجُ: فخرجتُ حتى انتهيتُ إلى الحرَم، فإذا رِجالٌ مِن قُريشٍ يتشَمَّمُونَ الأخبارَ، وقد بلغَهُم أَنّ رَسُوْلَ الله ﷺ سارَ إلى خَيْبَرَ وهم أهل القوّةِ والمنَعَة، فوقعَ بينهم مِن المُرَاهَنَةِ على مِائةِ بَعِيرٍ في أَنّ النبيَّ ﷺ يَغْلِبُ أَهْلَ خَيْبَرَ أو لا، فقال حُوَيطبُ بنُ عبد العُزّى وجماعةٌ بالأوّل، وقال عبّاسُ بنُ مرْدَاسٍ وجماعةٌ بالثاني، فقالوا: حَجّاجُ عندَه والله الخبر ـ ولم يكونوا قد عِلِمُوا بإسلامي ـ، يا حَجّاجُ؛ إنه قد بلغنا أَنّ القَاطِعَ ـ يعنُونَ رَسُوْلَ الله ﷺ ـ قد سارَ إلى خَيْبَرَ، فقلتُ: عندي من الخَبَرِ ما يَسُرُّكم، فاجتَمَعُوا عَلَيَّ يقولونَ: إيهٍ يا حَجّاجُ؟، فقلتُ لهم: لم يَلْقَ مُحَمَّدٌ وأَصْحابُه قوماً يحسِنُونَ القَتْلَ غيرَ أَهْلِ خَيْبَرَ، فهُزِمَ هَزِيمَةً لم يُسْمَعْ بِمِثْلِها قَطّ، وقد أَسَرَوا محمَّداً، وقالوا: لا نقتله حتّى نبعثَ به إلى مَكَّةَ فنقتُلَه بينَ أَظْهُرِهِم، بمَن أَصابَه مِن رِجَالِهم، فصّاحوا، وقالوا لأهلِ مَكَّةَ: قد جاءَكم الخبرُ، هذا محمَّدٌ، إنما تنتظرون أَنْ يُقْدَمَ بهِ عليكم فَيُقْتَلَ بينَ أَظْهُرِكم. ثُمَّ قلتُ: لهم

أعينوني على غرمَائِي، أريدُ أَنْ أَقْدِمَ فأصيبُ مِن غنَائِم محمَّدٍ وأصحَابِه قبل أَنْ يَسْبِقَني التّجّارُ إلى ما هناك، فجمَعوا لي مالي على أحسَنِ ما يكون.

ثم فشا ذلك الخبرُ بمَكَّةَ وأظهرَ المشركون الفرَحَ والسُّرورَ، وانكسرَ مَن كانَ بمَكَّةَ من المسلمين، وسَمِعَ بذلك العبّاسُ بنُ عبدِ المطّلب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فجعلَ لا يستطيعُ أَنْ يقومَ، ثمّ بعثَ إلى حَجّاج غُلاماً، وقال: قل له: يقول لك العبّاسُ: الله أعْلَى وأَجَلّ مِنْ أَنْ يكونَ الذي جِئْتَ به حَقّاً فقال له حجّاجُ: اِقْرِىءْ أَبا الفَضْلِ السّلام وقُلْ له: لِيُخْلِ لي بعضَ بُيوتِه لآتِيَه بالخَبرِ عَلى مَا يَسُرّه، واكْتُم عَنّي، فأقبلَ الغُلامُ، فقال: أَبشِرْ أبا الفَضْل، فوَثَبَ العَبّاسُ فَرِحاً كأنْ لم يمسّه شيءٌ، فأخبرَه بذلك، فأعتَقَه العباسُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وقال: لله عَلَيَّ عِتْقَ عَشْرِ رِقَابٍ. فلما كان الظّهْرُ جاءَه حَجّاجُ فنَاشَدَه الله أنْ يكتُمَ عنه ثلاثة أيام، وقال له: إنّي أخشَى الطّلَبَ، فإذا مضَتْ ثلاثٌ، فأظْهِرْ أمْرَك، فوافَقَه العبّاسُ على ذلك فقال: إنّي قد أَسْلَمْتُ، وإنّ لي مالاً عند امرأتي ودَيْناً على النّاس، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إليّ، إنّي تركتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد فتحَ خَيْبَرَ، وجرَت سِهامُ الله وسِهامُ رسولِه فيها، وتركتُه عرُوساً بابنةِ ملكِهم حُيَيّ بنِ أَخْطَب، وقد قَتَلَ ابنَ أَبِي الحُقَيق.

فلما أمسى حَجّاجُ خرَج، وطالَتْ على العبّاس تلك الليالي الثلاث!، فلمّا مضَتِ الثّلاثُ عمَدَ العباسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى حُلّةٍ فلَبِسَها، وتخلّقَ بخَلُوقٍ وأَخذَ بيدِه قضِيباً وأقبلَ يَخْطِرُ[1] حتّى أَتَى مجَالِسَ قُرَيشٍ، فلمّا مرَّ بهم قالوا: لا يصِيبُكَ إلّا

(١) **يَخْطِرُ**: أي يَتبَخْتَرُ في مشيته؛ إذا مشَى متمايلاً ومحرِّكاً يدَيه، وهي مِشْيَةُ المُعْجَبِ بنفسِه زَهْواً وتَكبُّراً.

خَيرٌ يا أبا الفَضل، هذا والله التَّجَلّدُ بِحَرِّ المُصِيبة، فقال لهم: كلّا؛ والذي يُحْلَفُ به لَمْ يُصِبْنِي إلّا خَيرٌ بحَمْدِ الله، أخبَرَني حَجّاجٌ أَنَّ خَيْبَرَ فتحَهَا الله على يَدِ رسُولِه ﷺ، وجرَتْ فيها سِهامُ الله وسِهَامُ رسُولِه، واصْطَفى رسُولُ الله صَفِيَّةَ بنتَ مَلِكِهم حُيِيّ بن أخطب لنفسِه، وأنه ترَكَه عروساً بها، وإنما قال ما قالَه لكم ليُخَلِّصَ ماله، وإلّا فهُوَ ممّنْ أَسْلَمَ، فَرَدَّ الله الكآبَةَ التي كانت بالمسلمين على المشركين، فقال المشركون: ألَا يا عبادَ الله انفلتَ عدوُّ الله، يعنون حجّاجاً، أما والله لو علمنا لكانَ لنا وله شَأنٌ، ثُمَّ لم يَلْبَثُوا أَنْ جاءَهم الخبرُ بذلك.

ولما كانَ رَسُوْلُ الله ﷺ بخَيْبَرَ كان التّمر أخضرُ، فأكثرَ الصّحابةُ من أكلِه، فأصَابَتْهم الحُمَّى، فشكوا ذلك إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فقال: «بَرِّدُوا لهَا الماءَ في الشِّنَان، ثُمَّ صُبّوا عَلَيكُم مِنهُ بينَ أَذَاني الفَجْر، واذكُرُوا اسمَ الله عَلَيه»، ففعلوا، فذَهَبَتْ عنهم. وعن سَلَمَة بن الأَكْوَعِ: أصابتني ضَرْبَةٌ يوم خَيْبَرَ، فقال النّاس: أُصِيبَ سَلَمَةُ، فأتيتُ رَسُوْلَ الله ﷺ، فنفثَ فيها فما اشتكيتُ منها ساعةً.

وفي هذه الغَزْوَة أرادَ ﷺ أَنْ يَتَبَرَّزَ، فقال لابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: «يَا عَبْدَ الله انظُرْ هَلْ تَرى شَيئاً»؟، قال: فنظرتُ فإذا شجرةٌ واحِدَة فأخبْرتُه، فقال لي: «انْظُرْ هَلْ تَرَى شَيئاً»؟، فنظرتُ شجَرةً أخرى مُتَبَاعِدَةً مِن صَاحبَتِها، فأَخْبَرْتُه، فقال: «قُلْ لهُما إنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ يَأْمُرُكُما أَنْ تجتَمِعَا»، فقلت لهما ذلك فاجتمعا، فاسْتَتَرَ بهما، ثمّ لما قامَ ﷺ انطَلَقَتْ كلّ واحدةٍ إلى مكانها.

وفي هَذِه الغَزْوَةِ أمرَ ﷺ عند الخرُوج إليها مُنادِياً يُنَادِي: مَن كان

مُضَيَّعاً أو ضَعِيفاً أو مُصْعباً ـ أي رَاكِباً دَابّةً صَعْبَةً ـ، فلْيَرْجِعْ. فرَجَعَ نَاسٌ، وارْتَحلَ مَعَ القَومِ رجُلٌ على بكْرٍ صَعْبٍ أو نَاقَةٍ صَعْبَةٍ، فنفَرَ مَرْكُوبُهُ فصَرَعَه، فانْدَقَّتْ عُنُقُهُ، فمَاتَ، فلمّا جِيءَ بهِ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «مَا شَأْنُ صَاحِبُكُمْ»؟، فأخبروه، فقال: «يَا بِلَالُ؛ مَا كُنْتَ أَذَّنتَ فِي النّاسِ مَنْ كَانَ مُصْعَباً فَلْيَرْجع»؟، فقال: بلَى، فأَبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُصَلّيَ عليه، وأمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَالاً فنادَي في النّاس: «الجَنَّةُ لَا تَحِلُّ لِعَاصٍ»، ثلاثاً.

وفيها: ماتَ شخصٌ من الصّحابة، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»، وامتنعَ مِن الصَّلَاةِ عليه، فتَغيّرتْ وجُوه النّاسِ لذلك، فقال: «إِنَّ صَاحِبَكُم غَلَّ فِي سَبِيلِ اللهِ»، ففتشوا متاعَه فوجدوا خَرَزاً من خَرَزَ اليَهودِ لا يُساوي دِرْهمَين.

وفيها: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لرَجُلٍ من المسلمين: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّار»، فلما حضَرَ القِتالَ قاتَلَ ذاك الرّجلُ قتالاً من أَشَدِّ القِتال، فارْتَابَ بعضُ الصَّحابةِ، أنْ: كيفَ يكونُ من أهل النّار مع هذه المقاتلة الشّديدة؟!، فلما كَثُرَتِ الجِرَاحَاتُ في ذلك الرَّجل ووَجَد ألمها أخرَج سَهماً من كنانته ونحَرَ نفسَه، فأُخْبرَ بذلك رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «قُمْ يَا بِلَالُ فَأَذِّن: لَا يَدْخُلُ الجنَّةَ إلّا مُؤْمِنٌ، وَإِنَّ الله يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ، إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجنَّةِ فِيما يَبْدُو لِلنّاسِ وهُوَ مِنْ أهلِ النَّار، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فيما يَبْدُو لِلنَّاسِ وهُوَ مِنْ أَهْلِ الجنّة». وقد تقدَّمَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ مثل ذلك.

ولما فُتِحَتْ خَيْبَرُ واطْمَأَنّ النّاسُ، جاءَت زَينبُ ابنةُ الحارث، وهي امرأةُ سَلّام بنِ مُشْكم فجعلَتْ تسْأَلُ: أَيُّ الشّاةِ أَحَبُّ إِلَى مُحمَّدٍ؟، فقالوا لها: الذّراع، فعَمَدتْ إلى عَنْزَةٍ لها فذبحَتْها، ثمّ شَوَتْها، ثم عَمَدَتْ إلى سُمٍّ لا يَلْبَثُ أَنْ يَقْتُلَ

مِن سَاعَتِه، فسَمَّتِ الشّاةَ وأَكْثَرَتْ في الذِّرَاعَينِ والكَتِفِ، فلمّا غَابَتِ الشَّمْسُ، وقَد كانَ النَّبيُّ ﷺ صَلّى المغرِبَ بالنّاسِ ثُمَّ انصَرَفَ، فوَجدَها جالِسَةً عند رَحْلِه، فسَأَلَ عنها، فَقَالَتْ له: يَا أبا القَاسِم، هَدِيّةٌ أَهْدَيتُها لك، فَأَمَرَ ﷺ فأُخِذَتْ منها، ثُمَّ وُضِعَتْ بينَ يدَيهِ ﷺ وأَصْحَابُه حُضُورٌ، وفيهم بِشْرُ بنُ البَرَاءِ بنِ مَعْرُور، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «اُدْنُوا»، فقعدوا، وتَناوَلَ رَسُوْلُ الله ﷺ الذّراع فانتَهَشَ منه، فلَمّا ازْدَرَدَ رَسُوْلُ الله ﷺ لُقْمَةً اِزْدَرَدَ بِشْرٌ مَا في فِيهِ، وأَخَذَ القَومُ منها، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ لهم: «ارْفَعُوا أَيْدَيكُم، فَإِنَّ هَذِه الذّرَاعَ تُخْبِرُني أَنّها مَسْمُومَةٌ»، فقال بِشْرٌ: والذِي أكرَمَكَ لَقَدْ وجَدْتُ ذلك في لُقْمَتي التي أَكَلْتُ، فما منعني أَنْ ألفِظَها إلّا أَنْ أُنَغِّصَ عليك طَعَامَك، فلمَّا أكلتَ ما في فيكَ لم أَرْغَبْ بنَفْسِي عَن نَفْسِكَ، ورَجَوتُ أَنْ لَا تَكُونَ ازْدَرَدْتّها. فلَمْ يَقُمْ بِشْرٌ مِن مكَانه حتّى عادَ لونُه أَسْوَد كالطّيْلَسَانِ، ومَات مِن سَاعَتِه.

ثُمَّ نَهى رَسُوْلُ الله ﷺ عَن تناولِ شَيءٍ مِن تلكَ الشَّاةِ، وأَرْسَلَ إلى تلك اليَهُودِيّة، فقال: «أَسَمَمْتِ هَذِهِ الشَّاة»؟، فَقَالَتْ: مَن أَخْبَرَك؟ قال: «أَخْبَرَتْنِي هَذِه الذّرَاعُ»، قالت: نعم، قال: «مَا حَمَلَكِ عَلَى مَا صَنَعْتِ»؟، قالت: قتلْتَ أبي وعَمِّي وزوجي وبلَغْتَ من قومي ما لا يخفى عليك، فقلْتُ: إنْ كانَ مَلِكاً استرَحْنا منه، وإنْ كانَ نَبيّا فسَيُخْبرُ. فأمرَ بها فقُتِلت ببِشْرِ بنِ البَرَاءِ. وقد اخْتَلَفَتِ الآثارُ في قَتْلِها، ففي صحيح مسلم أنه لم يَقْتُلْها، وقال ابنُ إسْحَاق: أجمعَ أهلُ الحديثِ على أنه ﷺ قتلَها. وقيل: أَنّها أَسْلَمَتْ، فعَفا عنها رَسُوْلُ الله ﷺ، ثُمَّ أَمَرَ ﷺ بتلك الشّاة فأُحرِقَتْ.

وقد قَسَّمَ ﷺ غنائمَ خَيْبَرَ؛ فأعطى الرَّاجِلَ سهماً، والفارسَ ثلاثةَ أَسْهُمٍ بعد أَنْ خمَّسَها خمسةَ أجزاء، ولم يقْسِمْ ﷺ لمن غَابَ من أهلِ الحُدَيْبِيَة إلّا لجابرِ بنِ عَبدِ الله رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما. ورَضخَ ﷺ للنِّساءِ، وكُنَّ عِشرينَ امْرَأة، فيهِنّ صَفِيَّةُ عمّته ﷺ وأمّ سُلَيم وأمّ عَطِيَّة الأنصاريّة.

وعن بعضِهم أَنَّ أُمّ عَطِيَّةَ الأَنْصارِيّة قالت: أتيتُ رَسُوْلَ الله ﷺ في نسْوَةٍ، فقُلتُ: يَا رسُولَ الله، قد أَرَدْنَا الخروجَ معك نُعِينُ المسلمين ما استطعنا، فقال: «عَلَى بَرَكَةِ الله». قالت: فخرجنا معه، فلما افتتح خَيْبَرَ رضخ لنا، وأخذَ رَسُوْلُ الله ﷺ هَذِه القِلَادَةَ ووضَعَها في عُنُقِي، فو الله لا تفارقني أبداً. وكانَ في عُنُقِهَا قِلَادَةٌ أَوْصَتْ أَنْ تُدْفَنَ معها.

ثم دفَعَ ﷺ لأَهلِ خَيْبَرَ الأرضَ، لمّا قالوا له ﷺ: نحنُ أعلمُ بها منكم. فَأَعْمَرَهَا بَشَطْرِ مَا يخرُجُ منها مِن تمرٍ أو زَرْعٍ، وقال لهم: «عَلَى أَنَّا إِذَا شِئْنَا أَنْ نُخْرِجَكُمْ أَخْرَجْنَاكُم». وقد أَرْسَلَ ﷺ إليهم بعد ذلك عبدَ الله بنَ رَوَاحة رضي الله عنه خَارِصاً، يخرصُ عليهم الثّمار ثم يُضَمّنُهم الشّطرَ، فشَكوا لرَسُوْلِ الله ﷺ شِدّةَ خَرْصِه، ولما جاءَهم أرادوا أَنْ يرشُوه، فقال: يا أَعْدَاءَ الله؛ أَتُطعِمُونَنِي السُّحْتَ؟ والله لقَدْ جِئْتُكُم مِن عندِ أَحَبِّ النّاسِ إِلَيَّ، ولأنتُمْ أَبغضُ إِليَّ مِنَ القِرَدَةِ والخنازِير، ولَكِنْ لا يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُم وحُبِّي إِيَّاهُ على أَنْ لا أَعدِلَ. فقالوا له: بِهَذا قَامَتِ السّماواتُ والأرضُ. ولما اسْتُشهِدَ عبدُ الله بنُ رواحة، كان يَخْرِصُ عليهم بَعْدَه جبّارُ بنُ صَخْرٍ.

ثُمَّ إِنّ الصِّدِيقَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أقرّهُم بعدَه ﷺ، ثُمَّ أَقَرّهُم عُمرُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إِلَى أَنْ خرَجَ ولدُه عبدُ الله رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما في خِلَافَةِ

أَبيهِ إِلَى خَيْبَرَ، فاعْتَدوا عليه مِن اللَّيلِ فَجُرِحَتْ يَدَاهُ ورِجْلَاهُ، فقامَ عمرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه خَطِيباً، فقال: إِنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ كانَ عَامَلَ أَهْلَ خَيْبَرَ على أموالِهم ـ أَرْضِهِمْ ونَخْلِهِمْ ـ، وقال لهم: «نُقِرُّكُم عَلَى مَا أَقَرَّكُم الله»، وإِنَّ عبدَ الله بنَ عمرَ خرَجَ إلى مَا لَهُ هُنَاك فعُدِيَ عليه مِنَ اللَّيل، فَفُدِعَتْ يداه ورِجْلَاه، وليسَ لنا هُنَاكَ عَدُوٌّ غيرهم، وقد رأيتُ إِجْلَاءَهم. فلما أجمعَ مع الصَّحابة على ذلك، جاءَه أَحَدُ بني الحُقَيق، فقال: يا أميرَ المؤمنين أَتُخْرِجُنَا وقَدْ أَقَرَّنَا محمَّدٌ، وعامَلَنا على أموَالِنا وشَرَطَ ذلك لنا؟، فقال عُمَرُ: أَظَنَنْتَ أَنِّي نَسِيتُ قَولَ رَسُوْلِ الله ﷺ لك: «كيفَ بِكَ إِذَا أُخْرِجْتَ مِنْ خَيْبَرَ يَعْدُو بِكَ قلُوصُكَ لَيْلَةً بعدَ لَيلَة»؟، فقال: هذه كانَتْ هُزَيْلَةٌ مِن أَبِي القَاسِم، فقال له: كَذَبتَ يا عَدُوَّ الله. ثُمَّ بلَغَ عُمَر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أنه ﷺ قال: «لَا يَبْقَى دِينَانِ فِي جَزِيْرَةِ العَرَب»، وأَنَّ آخرَ ما تكلَّمَ به النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْرِجُوا اليَهُودَ مِنَ الحِجَاز». فأَجْلاهُم جميعاً.

٢٥ ـ غَزْوَة وَادِي القُرَى

ثُمَّ عنْدَ مُنْصَرَفِه ﷺ مِن خَيْبَرَ أَتى وادِي القُرَى وأَهْلُه يَهُود، فدعاهم ﷺ إلى الإِسلام فامْتَنَعوا من ذلك، وقاتلوا، فَبَرَز رَجُلٌ منهم فقتَلَه الزُّبيرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، ثمّ بَرَزَ آخر فقتله عَلِيٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه، ثم برَزَ رَجُلٌ آخر فقتَلَه أبو دُجَانَة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقاتَلَهم المسلمون إلى المسَاء، حتّى قُتِلَ منهم أَحَد عشر رجلاً، ففتحها رَسُوْلُ الله ﷺ عنْوةً، وغَنَّمَه الله أموَالَ أَهْلِها، وأَصَابَ المسلمون منهم أثاثاً ومَتَاعاً، فخَمَّسَه رَسُوْلُ الله ﷺ وترَكَ الأَرْض والنَّخيل في أَيدي من بَقِيَ مِن أَهلِها، وعامَلَهم على نحو ما عامل عليه أهل خَيْبَرَ.

ولمّا بَلَغَ أَهْلَ تيمَا ما فَعَلَ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأَهْل خَيْبَرَ وفَدَك ووَادي القُرَى صَالحوه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على الجِزْيَةِ، وأَقامُوا بِبِلادِهم وأَرْضِهم في أَيدِيهم.

وقُتِلَ عَبْدُ النّبيِّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو العَبْدُ الأَسْوَدُ الذي كانَ يُرَحِّلُ لِرَسُوْلِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ـ أَي يُصْلِحُ رَحْلَه ـ، بينما هو يَحُطُّ رَحْلَهُ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِذْ جَاءَه سَهْمٌ فقَتَلَه، فقالَ النّاس: هَنيئاً له الجنة، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كَلّا وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنّ الشَّمْلَةَ التِي أَخَذَهَا مِن خَيْبَرَ مِنَ الغَنَائِم قَبْلَ أَنْ تُقْسَمَ تَشْتَعِلُ عَلَيهِ نارًا».

ولما قَرُبَ مِنَ المدينةِ سَارَ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابُه ليلةً، فلما كان قبيل الصّبح نزل وَعَرَّسَ، ثم قال: «أَلَا رَجُلاً حَافِظًا لِعَينِهِ يَحْفَظُ عَلَينَا الفَجْرَ لعَلّنَا نَنَامُ»، فقال بلالٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: يا رَسُولَ الله أنا أَحْفظه عليك. فنَام رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأَصْحَابُه، وقامَ بِلالٌ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنه يُصَلّي مَا شَاءَ الله، ثُمَّ اسْتَنَدَ إِلَى بَعِيرٍ واسْتَقْبَل الفَجْرَ يَرْمُقُه، فغَلَبَتْهُ عَينُه فنامَ، فلَمْ يستيقظْ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولا أَحَدٌ من الصّحابةِ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهم، حتّى ضَرَبَتْهُمُ الشّمسُ، وكانَ أوّلَ مَنِ اسْتيقظَ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «مَا صَنَعْتَ يَا بِلَال»؟، فقال: يا رسولَ الله أَخَذَ بِنَفْسِي الذِي أَخَذَ بنَفْسِكَ، فتبسَّمَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وقال: «صَدَقْتَ».

فاستيقظَ القومُ وقد فَزِعوا، فأمرَهم رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنْ يركبُوا حتّى يخرجوا من ذلك الوادي وقال: «هَذَا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ»، فركبُوا حتى خرجوا من ذلك الوادي، وسارَ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالنّاس يقودُ بَعِيرَه غيرَ كَثِيرٍ، ثمّ أناخ، فتوَضّأَ وتوَضّأَ الناسُ، وأمرَ بلالاً فأقامَ الصّلاة، فلمّا فرغَ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إِذَا نَسِيتُمُ الصَّلاَةَ فَصَلّوهَا إِذَا ذَكَرْتُموهَا، فَإِنّ الله تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]» وقال: «إنّ الله قَبَضَ أرْوَاحَنا، وَلَوْ شَاءَ رَدَّهَا إلَينا فِي حِينٍ غَيرِ هَذَا، فَإذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ أَو نَسِيهَا، ثمّ فَزِعَ إلِيهَا فَلْيُصَلّها فِي وَقْتِهَا».
وقد قيلَ أنّ هذا كان عند مرجعهم من الحُدَيْبِيَة.

عُمْرَةُ القَضَاء

وَيُقَالُ لها: عُمْرَةُ القَضِيّة؛ لِأَنّ رَسُوْلَ الله ﷺ قاضَى قُريشاً وصَالحهم عليها، ومِن ثَمَّ قيل لها: عُمْرَةُ الصُّلحِ، ويُقالُ لها: عُمْرَةُ القِصَاصِ. كانت في شَهْرِ ذِي القعدة من السّنة السّابعة، وهو الشهرُ الذي صدّه فيه المشركون عن البيتِ سنة سِتٍّ، وليستْ قضاءً عن العمرةِ التي صُدَّ فيها عن البيت، فإنّ تلك لم تكُنْ فسدت بِصَدِّهم له عن البَيتِ بل هي عُمْرَةٌ تَامَّةٌ مَعْدُودةٌ في عُمَرِه ﷺ التي اعْتَمَرَها ﷺ بعد الهِجْرة، وهيَ أربعةٌ: عُمْرَةُ الحُدَيْبِيَة، وعُمْرَةُ القضاء، وعُمْرَةُ الْجِعِرّانَة لما قسم غنائم حنين، والعُمْرةُ التي قرنها مع حجه في حجة الوداع بناء على ما هو الراجح من أنه كان قارِناً، وكلّها في ذي القعدة إلا التي كانت مع حَجِّه. وقد مكَثَ ﷺ في مَكَّةَ ثلاث عشرة سنة لم يُنقل عنه أنه اعتمرَ خارجاً من مَكَّةَ إلى الحلِّ في تلك المدَّةِ أصلاً.

وهذه العمرةُ ليسَت من الغزواتِ، وإنّما ذكرها البُخاري فيها؛ لأنه ﷺ خرَجَ مُسْتَعِدّاً بالسِّلاحِ للمُقَاتَلَةِ خَشْيَةَ أَنْ يَقَعَ مِن قريشٍ غَدْرٌ، وليس من لازِم الغَزْوِ وقوع المقاتلة، ومِنْ ثَمَّ قِيلَ لها: غَزْوَةُ الأَمْنِ. فخرج رَسُوْلُ الله ﷺ قاصداً مَكَّةَ للعمرة على ما عاقد عليه قريشاً في الحُدَيْبِيَة؛ مِن أنه يدخلُ مَكَّةَ في العَام القابلِ، ومعه سِلَاحُ المسافر، ولا يقيمُ بها أكثَرَ من ثَلَاثَةِ

أيام، وأَنْ لا يُخْرِجَ مِن أهلِها أَحَداً وإِنْ أَرَادَ أَنْ يَتَّبِعَه، وَأَنْ لا يمنع مِن أَصْحَابِه أَحَداً إِنْ أَرادَ أَنْ يُقِيمَ بها.

وكان معه ﷺ من أصحابِه أَلفَان، وقد أمرَ أَنْ لا يتخَلَّفَ عنه أَحَدٌ ممّن شَهِدَ الحُدَيْبِيَةَ، فلمْ يتخلّفْ أَحَدٌ إلا مَنِ اسْتُشْهِدَ في خَيْبَرَ أَو مَن مَاتَ، وخَرَج ومَعَه جَمْعٌ ممّن لمْ يَشْهَدِ الحُدَيْبِيَةَ، واسْتَخْلَفَ على المدينةِ أَبا ذَرٍّ الغِفَارِيّ، وسَاقَ ستينَ بدَنةً وقلّدَها، ثمّ جعلَ عليها نَاجِيَةَ بنَ جُنْدِب. وحمَل رَسُوْلُ الله ﷺ الدّروعَ والرِّمَاحَ، وقَادَ مائةَ فرَسٍ، وجعل عليها مُحمَّدَ بنَ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه، وجعَلَ على السِّلَاح بَشِيرَ بنَ سَعْد.

وأَحْرَمَ ﷺ من بابِ المسجد، فلمّا انتهى إلى ذِي الْحُلَيْفَةِ قَدَّمَ الخيلَ أَمَامَه فقيل: يا رَسُولَ الله؛ حَمَلْتَ السِّلَاحَ وقَدِ اشْتَرَطُوا أَنْ لا ندخلَها عليهم بسِلَاح إلّا بسلاح المسافر؛ السيوف في القُرُبِ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا نَدْخُلُ عَلَيهِم الحَرَمَ بالسِّلَاحِ، ولَكِنْ يَكُونُ قَرِيباً منَّا، فَإِنْ هَاجَنَا هَيجٌ مِنَ القَومِ كَانَ السِّلَاحُ قَرِيباً مِنَّا»، فمضى محمّدُ بنُ مَسْلَمَةَ بالخيل، فلمَّا كانَ بمَرِّ الظَهْرَان وجَدَ نفراً من قُرِيشٍ، فسألوه، فقال لهم: هذا رَسُوْلُ الله ﷺ يُصْبِحُ بهذا المنزل غداً إِنْ شاءَ الله، فرأوا معه سلاحاً كثيراً، فخرجوا سِرَاعاً حتّى أتوا قُريشاً فأخبروهم بالذي رَأوا مِن الخيلِ والسِّلاح، ففَزِعَتْ قريشٌ، وقالوا: مَا أَحْدَثْنا حَدَثاً، وإِنّا علَى كِتَابِنا ومُدَّتِنا، فَفِيمَ يَغْزُونَا مُحمَّدٌ في أَصْحَابِه!؟.

ثُمَّ إِنّ قريشاً بعَثَتْ مِكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ في نَفَرٍ من قريشٍ إليه ﷺ، فقالوا: والله يا محمّدُ ما عُرِفْتَ صَغيراً ولا كبيراً بالغَدْرِ، أَتَدْخُلُ بالسِّلاح في الحَرَم على قومِك، وَقَدْ شَرَطْتَ عليهم أَنْ لَا تَدْخُل إلّا بسلاح المسافرِ؛ السّيوفُ

في القُرُبِ؟!، فقال ﷺ: «إنّي لَا أَدْخُلُ عَلَيْهِمْ بِسَلَاحٍ»، فقالَ مِكْرَزٌ: هو الذي تُعْرَفُ بهِ البرُّ والوَفَاء. ثمّ رجع مِكْرَزٌ إلى مَكَّةَ سَرِيعاً، وقال: إنّ محمَّداً لا يَدْخُلُ بِسِلَاحٍ، وهو على الشَّرْطِ الذِي شَرَطَ لكم.

ولمَّا وَصَلَ خَبرُ خروجِه ﷺ لِقُرَيشٍ خَرَجَ كُبَرَاؤُهم مِن مَكَّةَ حتّى لا يَرَوهُ ﷺ يطُوفُ بالبيتِ هوَ وأصحابُه؛ عَدَاوَةً وبُغْضاً، وَحَسَداً لرَسُوْلِ الله ﷺ، فدخلَ رَسُوْلُ الله ﷺ وأَصْحَابُه مَكَّةَ وكانَ رَاكِباً ناقَتهُ القصْوَى وأَصْحَابُه مُحْدِقُونَ بهِ، قَدْ تَوَشَّحُوا السُّيوفَ يُلَبُّونَ، وقَعَدَ جَمْعٌ من المشركين بجَبَلِ قَيْنُقَاع ينظرون إليه ﷺ وإلى أصحابه، وهم يطوفون بالبيت، وقالوا: يَقْدمُ عليكم قومٌ قد أَوْهَنَتْهُم حُمَّى يَثْرِب. فأطلعَ الله نبيَّه ﷺ على ما قالوه، فقال ﷺ: «رَحِمَ الله امْرَأً أَرَاهُمْ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً» فأمرَ أصحابَه أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثّلاثةَ؛ لِيُرُوا المشركين أَنّ لهم قُوَّةٌ، فعند ذلك قالَ بعضُ المشركين لبعضٍ: هؤلاء الذين زَعَمْتُم أَنّ الحمّى قد أَوْهَنَتْهُم؟، هؤلاء أَجْلَدُ مِن كَذا، إنهم لينفرون نَفْرَ الظّبي، ولم يأمرهم ﷺ بالرَّمَل في الأَشْوَاطِ كلّها رِفْقاً بهم، واضْطَبَعَ ﷺ بِرِدَائِه وكشَفَ عُضُدَه الأيمن، ففَعَلَتِ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم كذلك.

وحينَ دخولِ رَسُوْلِ الله ﷺ مَكَّةَ أخذَ عبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بزِمَامِ نَاقَتِه ﷺ، وجَعَلَ يقُودُها وهويقولُ:

خلّوا بَني الكُفَّارِ عَنْ سَبيلِهِ ... قَد أَنْزَلَ الرحمَنُ في تَنزيلِهِ

بِأَنَّ خيرَ القَتْلِ في سَـبيلِهِ ... اليَومَ نَضْـرِبكُمْ عَلَى تَنْزيلِهِ

ضَـرْباً يُزيلُ الْهَامَ عن مَقِيلِهِ ... وَيُذهِلُ الخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ

يَـارَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِـهِ   إِنِّي رَأَيـتُ الحَقَّ فِي قَبُولِـهِ

فقالَ عمرُ بنُ الخطّاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: مَهْ يا بنَ رَوَاحةَ بين يدي رَسُوْلِ الله ﷺ وفي حَرَمِ الله تَقولُ الشّعرَ؟، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «خَلِّ عَنْهُ يَا عَمُرُ، فَلَهُوَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ». ثم قال ﷺ: «إِيْهٍ، يَا بنَ رَوَاحَة؛ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ» فقالَها، وقالَها النّاسُ، وطافَ ﷺ على راحلَتِه، واسْتَلَمَ الحَجَرَ بمِحْجَنِه. ثمّ سعى ﷺ بين الصّفا والمرْوَة، وأَوْقَفَ الهَدْيَ عند المرْوَةِ، وقال: «هَذَا المنْحَرُ وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ»، فنَحَرَ عندها وحَلَق، وأمرَ ﷺ مَن تَحلّلَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى السِّلَاحِ، وأَنْ يَأْتيَ الآخرُون فيقضوا نُسُكَهَم، ففعلوا.

وأقام ﷺ وأصحابه ثلاثة أيام، فلما تمّت الثّلاثة التي هيَ أَمَدُ الصُّلح جاءَ حُوَيطبُ بنُ عبد العُزّى، ومعَه سُهيلُ بنُ عمرو رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما - فإنّهما أَسلما بعد ذلك - إلى رَسُوْلِ الله ﷺ يأمُرانِه بالخرُوج هو وأَصْحَابُه من مَكَّةَ، وقالوا: نُناشِدُكَ اللهَ والعَقْدَ إلّا مَا خَرَجْتَ مِن أَرْضِنَا فقد مَضَتِ الثّلاثُ، فخَرجَ رَسُوْلُ الله ﷺ هو وأصحابُه منها، وكان ﷺ قد تَزوّجَ ميمونَةَ بنتَ الحارثِ الهِلَاليّة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهيَ أُخْتُ أُمِّ الفَضْل زَوجِ العَبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فجعَلَتْ أمرَها إلى العبّاس بنِ عبْدِ المطّلب، فزَوّجَها العَبّاسُ، ثمَّ أصدَقَها عَنِ النّبيِّ ﷺ أربعمائة دِرْهِم، فأَرادَ ﷺ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا في مَكَّةَ، فلمْ يُمْهِلُوه أَنْ يَبنِيَ بها، فقال لهم: «مَا عَلَيكُم لَو تَرَكْتُمُونِي فَأَعْرَسْتُ بَينَ أَظْهُرِكُمْ، فَصَنَعْتُ لَكُمْ طَعَاماً»؟، فقالوا: لا حاجَةَ لنا في طعامِك، اخرجْ عنّا من أرضِنا،

هذه الثّلاثةُ قد مَضت. فغَضِبَ سَعْدُ بنُ عُبادَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِمَا رَأى مِنْ غِلَظِ كلَامِهم للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لذَاك القَائِل: كذَبْتَ لَا أُمَّ لك، ليسَتْ بِأَرْضِكَ ولَا أرْض آبائك، والله لا يبرحُ منها إلا طَائِعاً راضياً. فتبسّمَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «يَا سَعْدُ لَا تُؤْذِ قوماً زَارُونَا فِي رِحَالِنَا»، وأسكت الفريقين.

ثمّ إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمرَ أبا رَافِع رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أَنْ يُنَادِيَ بالرَّحيلِ ولا يُمْسي بها أَحَدٌ من المسلمين، وخَلّفَ أبا رافع ليأتي له بمَيمُونَةَ حينَ يُمْسي، فخَرَجَ بها، ولَقِيَتْ مَيمُونَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها من سُفَهَاءِ مَكَّةَ عناءً. فعَن أَبِي رَافِع رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: لقِينا عناءً وأَذَىً مِن أهْل مَكَّةَ، وسُفَهَاءِ المشركين بأَلْسِنَتِهم للنّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولمَيمُونَة، فقلتُ لهم: ما شَئْتُم، هَذِه والله الخيلُ والسِّلَاحُ ببَطنِ ناجح وأنتم تريدون نقض العَهْد والمدّة، فولّوا راجعين مُنكّسِين. وأقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَرِف، ودخل بمَيمُونَةَ هناك، وكان محلّ مَوتِها ودفْنِها، دُفِنَت فيه بعد ذلك، فإنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرَها بأنّها لا تَمُوتُ بمَكَّةَ، فلمّا ثَقُلَ عليها المرَضُ وهي بمَكَّةَ قالت: أخرجُوني من مَكَّةَ فإنّي لا أموتُ بها، فإنّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرَني بذلك، فحمَلوها حتّى أتوا بها ذلك الموضِع فماتت به ودفنت فيه، وهي آخرُ امْرَأَةٍ تزوّجَها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآخرُ مَن تُوفّي مِن أَزْوَاجِه.

ولما خرجَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مَكَّةَ تبعَتْهُ عُمَارَةُ بنتُ عمِّهِ حمْزَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه تنادي: يَا عَمِّ يَا عَمِّ. فتناولها عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه فأخذَ بيدِها، وقال لفاطِمَةَ: دونك ابنة عمّك، فلمّا وصلوا المدينة اختصَمّ فيها عليٌّ وأخوه جعفرُ وزيدُ بنُ حارثة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم، فقال زَيدُ بنُ حارثة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: أنا أحق بها، لأنها بنتُ أخي وأنا وصِيّه، لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخى بينَ حمزةَ

وزيدٍ، وجعل حمزة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وصيّه. وقال عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه: أنا أحقُّ بها لأنها ابنةُ عمّي وجئتُ بها مِن مَكَّةَ. وقال جعفرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: أنا أحقُّ بها لأنها بنتُ عمّي وخالتها تحتي، وهيَ أسماءُ بنتُ عُمَيسٍ، فقضى بها ﷺ لجعفرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقال: «الخَالَةُ بمَنْزِلَةِ الأُمّ».

وكانَ بعد عُمْرَةِ القَضَاءِ، إِسْلَامُ خالدِ بنِ الوَليدِ، وعمرو بنِ العَاص، وعثمانَ بنِ طَلْحَةَ الحجْبِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم. وعن خالدِ بنِ الوَليدِ رضي الله عنه قال: لما أَرَادَ الله ﷻ ما أَرَادَ بي مِن الخيرِ قَذَفَ في قلبي الإسلام، وحَضَرَ لي رُشْدِي، وقُلْتُ: قد شَهِدْتُ هذه المَوَاطِنَ كلّها على محمَّدٍ ﷺ، فليسَ موطن أشهدُه إلا انصرفَ، وأنا أرَى في نفسي أنّي مُوضَعٌ في غَيرِ شَيءٍ، وأَنَّ محمَّداً ﷺ يظهرُ، فلما جاءَ ﷺ لعُمْرَةِ القَضَاءِ تَغيّبتُ ولم أَشهَدْ دخُولَه، وكانَ أَخي الوليدُ قد دخلَ معه ﷺ، فطلَبني فلم يَجِدْنِي، فكَتَبَ إِلَيَّ كِتاباً، فإذا فيه: (بسم الله الرّحمن الرّحيم. أَمّا بعدُ: فإنّي لم أَرَ أَعْجَبَ من ذهابِ رأيكَ عن الإسلام وقلّة عقلِك، وهل مثلُ الإسلام يجْهَلُه أَحَدٌ؟، قد سألني عنْكَ رَسُوْلُ الله ﷺ، فقال: «أَيْنَ خَالِدٌ»، فقلتُ: يأتي الله به، فقال: «مَا مِثْلُهُ يَجْهَلُ الإِسْلَامَ، وَلَوْ كَانَ يَجْعَلُ نِكَايَتَهُ مَعَ المسْلِمِينَ عَلَى المشْرِكِينَ لكَانَ خَيْراً لَهُ، وَلَقَدَّمْنَاهُ عَلَى غَيرِهِ»، فاسْتَدْرِكْ يا أَخي ما فاتَك فقد فاتَتْكَ مواطن صالحة). فلما جاءَني كتابه نَشِطْتُ للخُروج، وزَادَني رغبةً في الإسلام، وسرّتْني مَقَالةُ رَسُوْلِ الله ﷺ، ورأيتُ في المنام كأنّي في بِلَادٍ ضَيّقةٍ جَدْبَة؛ فخرجتُ إلى بلادٍ خَضْرَاء واسعة.

فلما اجمَعْتُ على الخروج إلى المدينةِ لقيتُ صفْوَان، فقلتُ: يا أبا وَهْب،

أما تَرَى أَنّ محمّداً ظهرَ علَى العَرَبِ والعَجَم، فلو قَدِمْنا عليه فاتّبعْنَاه فَإِنّ شَرَفَه شَرَفٌ لنَا، قال: لَو لَمْ يَبْقَ غَيرِي ما اتّبعْتُه أبداً. فقلتُ: هذا رجلٌ قُتِلَ أبوهُ وأَخُوهُ ببدرٍ! ، فلقيتُ عِكْرِمَةَ بنَ أَبِي جَهْل فقلتُ له مثل ما قلتُ لصفوانَ، فقال لي مثل الذي قال صفوانُ، قلتُ: فاكْتُم ذِكْرَ ما قُلْتُ لكَ، فقال: لا أَذْكُرُه. ثم لقيتُ عثمانَ بنَ طَلْحَةَ، فقلتُ: هذا لي صَدِيقٌ، فأَرَدْتُ أَنْ أَذْكُرَ له ثُمَّ ذكَرْتُ مَن قُتِلَ مِنْ آبائِه وإِخْوَتِه يوم أُحُدٍ، فكرِهْتُ أَنْ أذكرَ له، ثمّ قلتُ: وما عَليَّ؛ فقلتُ له: إنّما نحنُ بمَنْزِلَةِ ثَعْلَبٍ في جُحْرٍ لو صُبَّ فيه ذَنُوبٌ مِن ماءٍ لخرَجَ، وقلتُ له: ما قلتُه لصَفْوانَ وعِكرمةَ، فأسرعَ الإجابةَ، وواعدَني إِنْ سبقني أقامَ في محلِّ كذا، وإِنْ سبَقْتُه إليه انتظرتُه، فلمْ يطلعْ الفجرُ حتّى التقينا، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدَّةِ، فنَجّدَ عمرُو بنُ العاص بها، فقال: مرْحباً بالقوم، فقلنا: وبِكَ، فقال: أينَ مسيركم؟، فقلنا: للدّخُول في الإسلام، وقلتُ له: والله لقد استقامَ المَيْسَمُ ـ أي تبين الطريق وظهرَ الأمرُ ـ، وإنَّ هَذَا الرَّجُل لَنبيٌّ فأذهبُ فَأَسْلِمُ، فحتّى متى؟، فقال عمرو: وأنا ما جِئْتُ إلا لأسلم، فاصْطَحَبنا جميعاً حتى دخلنا المدينةَ الشريفةَ.

ثُمّ أنخنا بظَهْرِ الحرَّةِ ركَائِبنا، فَأُخْبِرَ بنَا رَسُوْلُ الله ﷺ فَسُرَّ بنا، وقال: «رَمَتكُمْ مَكّةُ بِأَفْلَاذِ كَبِدِهَا»، فلبستُ من صالح ثيابي، ثم عمَدت إلى رسولِ الله ﷺ، فلقيني أخي، فقال: أسرعْ فإنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قد سُرَّ بقدومِكُم وهو ينتظرُكم، فأَسْرَعْنَا المشْيَ، فاطّلَعْتُ عليه، فمَا زَالَ ﷺ يتَبسَّمُ إليَّ حتّى وقفتُ عليه فسَلّمْتُ عليه بالنّبوّةِ، فرَدَّ عليَّ السّلامَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، فقلتُ: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنكَ رَسُوْلُ الله ﷺ، فقال: «الحَمْدُ لله

الذِي هَدَاكَ ، قَدْ كُنْتُ أَرَى لَكَ عَقْلاً رَجَوتُ أَنْ لَا يُسْلِمَكَ إِلّا إلى خَيرٍ». فقلتُ: يا رسول الله ، ادعُ الله لي أن يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك ، فقال ﷺ: «الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ» ، ثم تقدم عثمان وعمرو فأَسْلَما. ومن حين أسلم خالدٌ لم يَزَلْ ﷺ يُوَلِّيهِ أَعِنَّةَ الخَيلِ.

٢٦ ـ غَزْوَة مُؤْتَة

كانت هذ الغَزْوَةُ في جمادى الأولى سنة ثمانٍ ، وسبَبُها أَنّ رَسُوْلَ الله ﷺ بعثَ الحارِثَ بنَ عُميرٍ الأزدي بكتابٍ إلى هِرَقْلَ عظيم الرّوم بالشّام ، فلما نزلَ مُؤْتَةَ تعَرَّضَ له شُرَحْبِيلُ بنُ عمرو الغسَّاني ، وكانَ من أمرَاء قَيْصَر على الشّام ، فقال: أينَ تريدُ ، لعلّك من رُسُلِ محمّدٍ؟ ، فقال: نعم ، فأَوْثَقَهُ رَبطاً ، ثُمَّ قَدَّمَه فضَرَبَ عُنقَه ، ولم يُقتَلْ لرَسُوْلِ الله ﷺ رسُولٌ غيرُه ، فلمّا بلغَه ﷺ ذلك اشْتَدَّ الأمرُ عليه ، فجَهَّزَ جمعاً من أصحابِه ، وعدّتهم ثلاثةُ آلافٍ وبعثَهم إلى مُقَاتَلَةِ مَلِكِ الرّوم ، وأَمَّرَ عليهم زَيدَ بنَ حَارِثة وقال: «إِنْ أُصِيبَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى النَّاسِ ، وَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرُ فَعَبْدُ الله بنُ رَوَاحَةَ عَلَى النَّاسِ ، فَإِنْ أُصِيبَ ابنُ رَوَاحَةَ فَلْيَرْتَضِ المسْلِمُونَ بِرَجُلٍ مِنْهُمْ فَلْيَجْعَلُوهُ عَلَيهِم».

وقد كان حضر ذلك المجلس رجلٌ من اليهود فقال: يا أبا القاسم إِنْ كُنْتَ نبيّاً فسَيُصَابُ جميعُ مَن ذكرْتَ ؛ لأَنَّ الأنبياءَ من بني إسرائيل عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كان الواحد منهم إذا استعملَ رَجُلاً على القوم وقال: إنْ أصيبَ فلانٌ فلابُدَّ أنْ يُصَابَ ، ولو عَدَّ إلى مائةٍ لأصيبوا جميعاً. ثم صار يقول لزيدٍ: اِعْهَدْ ؛ فَلَنْ ترجعَ إلى محمّدٍ أبداً إنْ كانَ نبيّاً ، وزيدٌ يقولُ له: أَشْهَدُ أنه نبيٌّ. ثم عقد

ﷺ لواءً أبيضَ ودفعه لزيدِ بنِ حَارثة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وأوصاهم أنْ يأتوا مَقْتَلَ الحارث بن عُمَير ويدعوا مَن هُناكَ إلى الإسلام، فإنْ أَجَابوا وإلّا استعانوا عليهم بالله ﷻ وقاتلوهم. وذكرَ بعضُهم أنه ﷺ نهاهم أَنْ يأتوا مُؤْتَةَ، وأَنّهم غشيتهم ضَبَابةٌ فلم يُبْصِرُوا حتى أصبحوا على مُؤْتة.

ثم ودّعَهم النّاسُ، وقالوا لهم: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين. وخرَج رَسُوْلُ الله ﷺ مُشَيِّعاً لهم حتّى بلغَ ثَنِيّةَ الوَداع، فوقفَ ثمّ قال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَبِمَنْ مَعَكُمْ مِنَ المسْلِمينَ خيراً، اغْزُوا بِاسْمِ الله، فَقَاتِلُوا عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ بالشَّام، وَسَتَجِدُونَ فِيهَا رِجَالاً فِي الصَّوَامع مُعْتَزِلِينَ فَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهُمْ، وَلَا تَقْتُلُوا امْرَأَةً، وَلَا صَغِيراً وَلَا بَصِيراً فَانِياً، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً، وَلَا تَهْدِمُوا بِنَاءً»، فمضوا، فلمّا نزلوا بأرض الشام بلغَهم أَنَّ هرقلَ مَلِكَ الرّوم وجّهَ جيشاً فيه مائةُ ألفٍ من الرّوم، وقد انضَمَّ إليهم من قبائل العرب المنتصرة، من بني بكرٍ ولَخْمٍ وجُذَام مائةُ ألفٍ. وقيل: كانوا مائتي ألف من الرّوم، وخمسين ألفاً من العرب، ومعهم من الخيُول والسِّلاح ما ليسَ مع المسلمين، وكان المسلمون ثلاثةَ آلافٍ فقط كمَا مَرَّ، فلمّا بلغهم ذلك أقاموا في ذلك المحلّ ليلتين ينظرون في أمرِهم، هل يبعثونَ لرَسُوْلِ الله ﷺ يخبِرُونه بعدَدِ عَدوِّهم؟، فإمَّا أَنْ يُمِدَّهم برجالٍ، أو يأمرهم بأمرٍ فيمضُوا إليه، فشَجَّعَهم عبدُ الله بنُ رَوَاحة وقال لهم: يا قوم والله إنّ الذي تكرهون للذي خَرَجتم له، خرَجْتُم تطلبونَ الشّهادة، ونحنُ ما نقاتل النّاسَ بعددٍ ولا قوّةٍ ولا كثْرَةٍ، ما نُقاتلهم إلا بهذا الدّين الذي أكرمنا الله تعالى به، فإنّما هيَ إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادةٌ. فقال النّاس: صدقَ والله ابنُ رَوَاحَة، ثم مضوا إلى القتال.

ثُمَّ انْحَازَ المسلمون إلى مُؤْتَة فالتقى الجمعان عندها واقتتلوا قِتالاً شديداً، فقاتل زيدُ بنُ حارثة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ومعه رايةُ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قُتِلَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فأخذ الرّايةَ جعفرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقاتل على فرس أَشْقَر، ثمَّ نزل عنه وعَقَرَه، وهوَ أوّلُ رَجلٍ من المسلمين عقرَ فرسَه، وفرَسُه أوّل فرسٍ عُقِرَ في سبيل الله، وإنّما عقرَه خوفاً من أَنْ يأخذه الكفّار فيقاتلوا عليه المسلمين، ومِن ثَمَّ لم ينكرْ عليه أَحَدٌ من الصَّحَابة، ثمَّ إنّه قاتلَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فقطعت يمِينُه، فأَخَذَ الرّايةَ بيَسَارِه فقُطِعَتْ يسارَه فاحتَضَن الرّاية وقاتل حتى قُتِلَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فأخذَها عبدُ الله بن رَوَاحة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وتقدم بها وهو على فرسِه، وجعل يتَرَدّدُ في النّزُول عَن فرسِه، ثم نزلَ عنه وقاتَل حتّى قُتِلَ.

وحينئذٍ اختلطَ المسلمون والمشركون، وأرادَ بعضُ المسلمين الانْهِزَامَ فجعلَ عقبةُ بنُ عامر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يقولُ: يا قوم؛ يقتل الإنسان مُقْبلاً أحسَن مَن أنْ يُقْتَلُ مُدْبِراً، فأخذَ الرّايةَ ثابتُ بنُ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقال: يا معشرَ المسلمين، اصطلحوا على رجلٍ منكم، فقالوا: أنتَ، فقال: ما أنا بفاعل، فاصطلحَ النّاسُ على خالد بن الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فأخذها خالدٌ ومَانَعَ القَومَ وَثَبَتَ، ثُمّ انحازَ كلّ فريقٍ عن الآخر مِن غيرِ هزيمةٍ على أحَدِهما.

ثُمَّ إنّ خالداً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه لما أَصْبحَ جعلَ مُقَدّمةَ الجيشِ سَاقَةً وسَاقتَه مُقَدّمةً، ومَيمنتَه ميسرةً، وميسرَتَه مَيمنةً، فظنَّ المشركونَ مَجِيءَ عَدَدٍ للمسلمين، فَأُرْعِبُوا، ثمّ انْهَزَمُوا أسوأَ هزيمةٍ حتى وضَع المسلمون فيهم أسيافَهم حيثُ شاؤوا، وأَظهرَ الله المسلمين، فقتلوا منهم مَقْتَلَةً لم يقتلْها قوم، وكانت مدّة القتال سبعة أيام. وعن خالد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: اندقّتْ في يَدِي يومَ



مُؤْتَةَ تسعةُ أَسْيَافٍ، وما ثَبَتْ في يدي إلا صَفِيحَةٌ يمانية.

وأَطْلَعَ الله تعالى رَسُوْلَه ﷺ على ذلك، فأَخبرَ بهِ أصحابه، فإنّه لما اطلع على ذلك أمر مُنادياً فنادَى في النّاسِ: الصَّلاةُ جَامِعَةٌ. فلمَّا اجتمعوا صَعَدَ النّبيُّ ﷺ المنبرَ وعيناه تذرفان، فقال: «أَيُّها النَّاسُ؛ أُخْبِرُكُم عَن جَيشِكُمْ هَذَا الغَازِي، إِنَّهُم انْطَلَقُوا، فَلَقُوا العَدُوَّ، فَقُتِلَ زَيْدٌ ـ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه ـ شَهِيداً فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ ـ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه ـ، وَأَثْبَتَ قَدَمَيهِ حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُالله بنُ رَوَاحَةَ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ـ، وَأَثْبَتَ قَدَمَيهِ حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، ثُم أَخَذَ اللِّوَاءَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ـ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الأُمَرَاءِ وَلَكِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سِيُوفِ الله، سَلَّهُ الله عَلَى الكُفَّارِ وَالمنَافِقِينَ، فَآبَ بِنَصْرِهِ، وَفَتَحَ الله تَعَالَى عَلَيهِم». ومن يومئذٍ سُمِّيَ خَالِدُ بنُ الوَلِيد: سيفُ الله. وكون هذا نَصْراً وفَتْحاً واضِحٌ؛ لإِحاطة العَدوّ وتكاثرهم عليهم، فقد كانوا مائتي ألف والصّحابة ثلاثة آلاف؛ فكان مقتضى العادة أَنْ يُقْتَلُوا بالكُلِّيَّة.

وعن أسماء بنتِ عُمَيس رضي الله عنها، قالت: دخَلَ عليّ رَسُوْلُ الله ﷺ يوم أُصِيبَ جَعْفَرُ وأصحابُه، فقال: «ائْتِينِي بِبَنِي جَعْفَرَ»، فأتيته بهم فشَمَّهُم، وذَرَفَتْ عيناهُ وبكَى حتّى نقطت لحيتُه الشّرِيفَةُ، فقلتُ: يا رسُولَ الله بأبي أنتَ وأمّي ما يُبْكِيكَ؟، هل بلغَكَ عن جَعْفَرَ وأَصْحابِه شيءٌ؟، فقال: «نَعَمْ، أُصِيبُوا هَذَا اليَوم»، فقُمْتُ أصيحُ، واجتمعَ عليَّ النّساءُ وجعلَ رَسُوْلُ الله ﷺ يقولُ: «يَا أَسْمَاءُ لَا تَقُولِي هَجْراً وَلَا تَضْرِبِي خَدّاً»، وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ قَدْ قَدِمَ ـ يَعْنِي جَعْفَرَ ـ إِلَى أَحْسَنِ الثَّوَابِ فَاخْلُفْهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ بِأَحْسَنِ مَا خَلَفْتَ أَحَداً مِن

عِبَادِكَ فِي ذُرِّيَّتِهِ»، ثُمَّ خرَجَ ﷺ إلى أهله، وقال: «لَا تَغْفَلُوا عَنْ آلِ جَعْفَرَ أَنْ تَصْنَعُوا لَهُمْ طَعَاماً، فَإِنَّهُم قَدْ شَغَلَهُمْ مَا هُمْ فِيه».

وعن عبدِ الله بنِ جَعْفَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما قال: عَمَدتْ سَلْمَى مَولاةُ النبيِّ ﷺ إلى شَعيرٍ فطحَنَتْه ونَسَفَتْهُ، ثمّ طَبَخَتْه وآدَمَتْهُ بزَيتٍ، وجعلتْ عليه فلْفلاً، فأكلْتُ من ذلك الطّعام، وحبَسَنِي رَسُوْلُ الله ﷺ مع إِخْوَتي في بيته ثلاثة أيام، ندورُ معه ﷺ كلمّا صارَ في بيتِ إحدى نِسَائِه، ثم رَجَعْنا إلى بيتِنا، وقد دعا لي رَسُوْلُ الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُ فِي صَفْقَةِ يَمِينِه»، فما بِعْتُ شَيئاً ولا اشتريتُ شيئاً إلّا بُورِكَ لي فيه.

ولمّا قَدِمَ على رَسُوْلِ الله ﷺ بعضُ أصحابه بخَبرِ الجيشِ، فقال له النّبيُّ ﷺ: «إِنْ شِئْتَ فَأَخْبَرْتَنِي وَإِنْ شِئْتَ فَأَخْبَرْتُكَ»، قال: أخبرني يا رَسُولَ الله، فأخبرَه رَسُوْلُ الله ﷺ خَبَرَهم كُلَّه ووَصَفَ له، فقال: والذي بعثكَ بالحق ما تركْتَ من حديثهم حرْفاً واحِداً لم تذكرْه، وإنّ أمرَهم لكمَا ذكرْتَ، فقال ﷺ: «إِنَّ الله رَفَعَ لِي الأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مَعْرَكَتَهُمْ»، ثمّ قال ﷺ: «لَقَدْ رُفِعُوا إِلَيَّ وهُم فِي الجنَّةِ عَلَى سَرِيرٍ مِن ذَهَبٍ، فَرَأَيتُ في سَرِيرِ عَبدِ الله بنِ رَوَاحَةَ ازْوِرَاراً عَنْ سَرِيرَي صَاحِبَيه، فقلتُ: مِمَّ هَذَا؟، فَقِيلَ لِي: مَضَيَا، وَتَرَدَّدَ عَبْدُ الله بَعْضَ التَّرَدُّدِ ثُمَّ مَضَى».

ولما دَنا الجيشُ مِن المدينةِ تلَقّاهم رَسُوْلُ الله ﷺ والمسْلِمُون، وصار بعضُ المسلمين يحثون في وجوهِهِمُ التّرابَ، ويقولون لهم: يا فَرّارُون، فرَرْتُم في سَبيلِ الله، فصَارَ رَسُوْلُ الله ﷺ يقول: «بَلْ هُمْ الكَرّارُونَ». ولقيهم الصّبيانُ يُنْشِدُون، ورَسُولُ الله ﷺ مُقْبلٌ مع القَومِ على دَابَّةٍ، فقال:

«خُذُوا الصِّبْيَان فَاحْمِلُوهُم، وأَعْطُوني ابنَ جَعْفَر»، فَأُتِيَ بعبدِ الله بنِ جعفر رضي الله عنهما فأخذه فحمَله بين يديه. وعن عبدِ الله بنِ جَعْفَرَ رضي الله عنهما قال: قال لي رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم: «هَنِيئاً لَكَ، أَبُوكَ يَطِيرُ مَعَ المَلائِكَةِ فِي السَّمَاءِ»!.

ولَقِيَ بَعضُ الصّحابَةِ من أهل المدينةِ لما رَجعُوا شَرّاً، حتّى إنَّ بعضهم يجيءُ إلى أَهْلِ بيته يدقّ عليهم بابَه، فيأبونَ أَنْ يفْتَحُوا له، ويقولون له: هَلّا تَقَدَّمْتَ معَ أَصْحَابِكَ فقُتِلْتَ؟، حتّى إنّ نَفراً مِن الصَّحَابة رضي الله عنهم جلَسُوا في بيوتِهم اسْتِحْياءً، كلّما خرَجَ واحدٌ منهم صاحوا به: يا فَرّارُ. فصار رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم يرسل إليهم رَجُلاً رَجُلاً، ويقولُ: «أَنْتُمْ الكَرَّارُونَ فِي سَبِيلِ الله، إِنَّمَا انْحَزْتُمْ إِلَيَّ، أَنَا فِئَتُكُمْ وَأَنَا فِئَةُ المُسْلِمِينَ».

ويعنُون بالفُرّار مَنِ انْحَازَ مع خالدٍ رضي الله عنه حينَ انحَازَ العَدُوُّ عنهم؛ وإنّما انحازَ خالدٌ رضي الله عنه لترتيب العسكر، وقد مَدَحَ النّبيُّ صلى الله عليه وسلم خالداً على فعْلِه ذلك وأثنى عليه.

وقد قالَ رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم في حَقِّ جَعْفَرَ بنِ أَبِي طَالِبٍ: «إِنّ الله أَبدَلَ جَعْفَرَ بِيَدَيهِ جَنَاحَين يَطِيرُ بِهِمَا فِي الجنَّةِ حَيثُ شَاءَ».

قال عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: وجدنا فيما بين صدر جعفر ومنكبيه وما أقبل منه تسعينَ جِرَاحةً، ما بين ضربة بالسّيف وطعنة بالرّمح ورمية بسهم. وقال عبدُ الله بنُ عمرَ رضي الله عنهما: أتيته وهو مُسْتَلْقٍ آخر النّهار فعرضتُ عليه الماءَ، فقال: إنّي صائمٌ فضَعْه في ترسي عندَ رَأسِي، فإنْ عِشْتُ حتّى تغربَ الشّمسُ أفطَرْتُ، فمات شهيداً صَائماً قبل غروب الشمس. وكان عمره يومئذٍ إحدى وأربعين سنة.

وعن ابنِ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنّا جلوساً مع رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرفعَ رأسَه إلى السَّماء، فقال: «وَعَلَيكُم السَّلَامُ وَرَحْمةُ الله»، فقال النّاسُ: يا رسول الله، ما كنتَ تصنع هذا!، فقال: «مَرَّ بِي جَعْفَرُ بنُ أَبِي طَالِبٍ فِي مَلَأٍ مِنَ الملَائِكَةِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ».

وذكرَ السّهيلي رَحِمَهُ اللهُ تعالى كلاماً معناه: أَنَّ الجناحين عبارة عن صِفَةٍ ملكِيّة، وقوّةٍ روحانيّة أُعْطِيهما جَعْفَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقتدرُ بهما على الطّيَران، لَا أَنّهما جناحان كجناح الطّائِر كما قد يَسْبِقُ للوَهم؛ لأنّ الصّورةَ الآدميّةَ أشرَفُ الصّور، ولا يضرُّ في ذلك ما جاءَ في صِفَتِهما بأنهما من ياقوت، ولا كونهما مُضَمَّخَين بالدّم.

وفي هذه الغزوة قَتَلَ رَجُلٌ مِنَ المسلمين رَجُلاً من الرّوم، فأرادَ أَخْذَ سلبه، فمنعَه خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلمّا أَخبرَ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذَلِكَ قال لخالدٍ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيهِ سَلَبَهُ»؟، فقال: اِسْتَكْثَرْتُه عليه، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادْفَعْهُ لَهُ». وكان عوفُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد كلّمَ خالداً في أَنْ يدفعَ ذلك السَّلَبَ لذلِك الرّجل قبل أن يقدموا على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمّا مرَّ خالدٌ بعوفِ بنِ مالكٍ أطلقَ لِسَانَه في خالدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال له: أَمَا ذكرتُ لك ذلك، ونحوه؟، فغضبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي أُمَرَائِي»؟. قاله تعزيراً لعوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أطلقَ لِسَانَه في خالدٍ، وانتهَكَ حُرْمَتَه، وتطييباً لقلبِ خالدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للمَصْلَحَةِ في إكرام الأمراءِ.

وعَدُّ هَذِه غَزْوَةٌ تَبِعْتُ فيه الأَصْلَ، والحقُّ أَنّها ليسَتْ مِن الغَزَوَات، بل هِيَ من السّرَايا الآتي ذكرُها؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن فيها. واللهُ أَعْلَمُ.




٢٧ - غَزْوَةُ فَتْح مَكَّة

كان في رمضان سنة ثَمانٍ، وكان السَّبَبُ في ذلك أنه لمّا كان صُلْحُ الحُدَيْبِيَة بينَ رَسُوْلِ الله ﷺ وبينَ قُرَيشٍ كان فيه: أَنّ مَن أَحَبَّ أَنْ يَدخُلَ في عَقْدِ رَسُوْلِ الله ﷺ وعهدِه فلْيَدْخُلْ، ومَن أَحبَّ أَنْ يَدْخلَ في عَقْدِ قُريشٍ وعَهْدِهم فلْيَدْخُلْ فيه، فدخَلَتْ بنُو بكرٍ في عَهْدِ قُرَيشٍ، ودخَلَتْ خُزَاعَةُ في عَهْدِ رَسُوْلِ الله ﷺ كمَا تقدّم، وقد كان بينهما دِمَاءٌ قبل ذلك، فحَجَزَ بينهما تَشاغل النّاسُ بالإسْلام، وهُمْ على مَا هُمْ علَيهِ مِنَ العَدَاوَةِ، وكانتْ خُزاعةُ حُلَفَاءَ لعَبْدِ المطّلب جَدّ النّبيِّ ﷺ، وقد كانوا ناصرُوه على عمِّه نوفلِ بنِ عبدِ مَناف. فإنّ المُطّلب لمّا مَاتَ وَثَبَ نوفلٌ على سَاحَاتٍ وأَفْنِيَةٍ كانتْ لعَبدِ المطّلب فاغْتَصَبها، فاضْطَربَ عبدُ المطّلب لذلك، واستنهضَ قومَه، فلَمْ ينهضْ معَه أَحَدٌ منهم، وقالوا له: لا ندخلُ بينَك وبينَ عمِّك، فكتَبَ إلى أخوالِه بني النّجّار، فجاءَه منهم سَبعُونَ راكباً، فأتوا نوفلاً وقالوا له: ورَبِّ البِنْيَةِ لتَرُدَّنَ على ابنِ أُخْتِنَا مَا أَخَذْتَ وإلّا مَلأْنا مِنْكَ السّيفَ، فرَدّه، ثُمّ حالفَ خُزَاعةَ، بعْدَ أَنْ حالفَ نوفلُ بني أَخِيه عَبْدِ شمس.

وكان ﷺ يَعْلَمُ بذلِكَ الحِلْفِ، فإنّهم أوقَفُوه على كِتَابِ عبدِ المطّلب بالحُدَيْبِيَة، وقَرَأهُ عليه أُبَيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه، ونصُّ الكتاب: باسْمِكَ اللَّهُمَّ، هذا حِلْفُ عبدِ المطّلِبِ بنِ هاشِم لخُزَاعةَ إِذْ قَدِمَ عليه سَرَوَاتُهم وأَهلُ الرّأي منهم، غائِبُهم يُقِرُّ بما قَاضى عليه شَاهِدُهم؛ أَنَّ بيننا وبينكم عُهُودَ الله وميثاقَه، وما لا يُنسَى أَبَداً، اليَدُ واحِدَةٌ، والنَّصْرُ واحِدٌ، ما أَشْرَقَ ثَبِيرٌ وثبتَ حِرَاءٌ مكانَه، وما بَلَّ بحرٌ صُوفَةَ. وفي الإمتاع: أَنّ نُسْخَةَ كتابهم: (باسْمِكَ اللَّهُمَّ، هذا ما تحَالَفَ

عليه عبدُ المطّلب بنُ هاشم، ورِجَالَاتٍ من بني عمرِو بنِ رَبيعَةَ مِن خُزَاعَةَ، تحالَفوا على التَّنَاصُرِ والمُوَاسَاةِ، مَا بَلَّ بَحرٌ صُوفَةً، حِلْفاً جَامِعاً غيرَ مُفرَّقٍ، الأَشْيَاخُ على الأَشْيَاخِ، والأَصَاغِرُ على الأَصَاغِرِ، والشَّاهِدُ على الغَائِبِ، وتَعَاهَدُوا وتَعَاقَدُوا أَوْكَدَ عَهْدٍ وَأَوْثَقَ عَقْدٍ، لَا يُنْقَضُ وَلَا يُنكَثُ، مَا أَشْرَقَتْ شَمْسٌ على ثَبِير، وَحَنَّ بِفَلَاةٍ بَعِير، وما أقامَ الأَخْشَبَان، واعْتَمَرَ بمَكَّةَ إِنْسَان، حِلْفٌ أَبَد لِطُولِ أَمَد، يَزِيدُه طلوعُ الشّمسِ شَدًّا، وظَلَامُ اللّيلِ مَدًّا، وأَنَّ عبدَ المطّلب وولدَه ومَن معهم ورِجَال خزاعة مُتكافِئُونَ مُتظَاهِرُون مُتَعَاوِنُون، فعلى عبْدِ المطّلب النصرة لهم بمَن تابعَه على كلّ طالب، وعلى خُزَاعة النُّصْرة لعبدِ المطّلب وولَدِه ومَن معهم، على جميع العَرَب، في شَرْق أو غَرْب، أو حَزَنٍ أو سَهْل، وجعلوا اللهَ على ذلك كفيلاً، وكفى بالله جَميلاً). فقال لهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَعْرَفَنِي بِحَقِّكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا أَسْلَفْتُمْ عَلَيهِ مِنَ الحِلْف».

فلمّا كانتِ الهُدْنَةُ التي وقعتْ في صُلح الحُدَيْبِيَة اغتنَمَها بنو بكر فهَجَا رجُلٌ من بني بكرٍ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصَارَ يَتَغنّى به، فَسَمِعَهُ غلامٌ مِن خُزَاعَة فضَرَبه فشَجَّه، فثارَ الشّرُّ بين الحيّين؛ لِمَا قد كَانَ بينهم مِنَ العَداوة، فطلبَ بنو بكْرٍ مِن أَشْرَافِ قُرَيشٍ أَنْ يُعينُوهم بالرِّجَالِ والسِّلاح على خُزاعة، فأمَدّوهم بذلك، فَبَيَّتُوا خُزَاعةَ؛ وجاؤُوهم ليلاً بغْتَةً وهُمْ آمنُونَ، على ماءٍ لهم يُقَالُ له: الوَتِيرُ، فقتَلوا منهم عشرينَ رَجُلاً أو ثلَاثةً وعشرينَ رَجُلاً، وقاتَلَ معهم جَمْعٌ من قُرَيشٍ مُسْتَخْفِين، منهم: صَفْوانُ بنُ أميّة، وحُوَيطِبُ بنُ عبد العُزّى، وعِكْرِمَةُ بنُ أَبِي جَهْل، وشَيبَةُ بنُ عثمان، وسُهَيلُ بنُ عمرو، ولا زَالوا بهم يقتلونَهم إلى أَنْ أَدخلوهم دَارَ بُدَيْلِ بنِ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيّ بمَكَّةَ، ولم يُشَاوِرُوا في ذلك أبا سُفْيَان، وكانوا يَظُنُّونَ أنّهم لَنْ يُعْرَفوا، وأَنَّ هذا لنْ يبلغَ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلمّا ناصَرَتْ قريشٌ بني بكرٍ على خُزاعَةَ، ونقضُوا ما كان بينهم وبين رَسُوْلِ الله ﷺ من العَهْدِ والميثاق نَدِمُوا، وجاءَ الحارثُ بنُ هاشم إلى أبي سُفْيَان وأَخبرَه بما فعل القَومُ، فقال: هذا أَمرٌ لم أَشْهَدْهُ ولم أَغِبْ عنه، وإنَّه لَشَرٌّ، والله لَيَغْزُونا محمَّدٌ، ولقد حَدّثتني زوجتي هندُ بنتُ عُتبةَ أنها رَأَتْ رؤيا كَرِهَتْهَا، رَأَتْ دماً أقبل من الحجون يسِيلُ حتّى وقَفَ بالخَنْدَمَة. فكَرِهَ القومُ ذلك وتَشَاءَمُوا بهَذِهِ الرُّؤْيا.

وخرَجَ عمرو بنُ سَالم الخُزَاعي سَيِّدُ خُزاعةَ في أربعين رَاكِباً مِن خُزاعَة، فيهم بُدَيْلُ بنُ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيِّ حتّى قَدِمَ على رَسُوْلِ الله ﷺ المدينة، ودخَل المسجدَ فوقفَ على رَسُوْلِ الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجدِ بين النّاس، وقالَ مِن أبياتٍ له:

يَا رَبِّ إنّي نَاشِدٌ مُحَمَّداً ... حِلْفَ أَبينَا وأَبيهِ الأتْلَدَا

إنَّ قُرَيشاً أَخْلَفوكَ المَوعِدَا ... ونَقَضُوا مِيثَاقَكَ المُؤكَّدَا

ونَصَبوا لِي في كَدَاءٍ رَصَدَا ... وَبَيَّتُونَا بِالوَتِير هُجَّدَا

وقَتَلُونا رُكَّعاً وَسُجَّدَا ... وَزَعَموا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا

وهُمْ أَذَلُّ وأَقَلُّ عَدَدَا ... فَانْصُرْ، هَدَاكَ الله، نَصْراً أَيِدَا

وادعُ عِبادَ الله يأْتُوا مَدَدا ... فِيهم رَسُولُ الله قَدْ تجَرَّدَا

إنْ سِيمَ خَسفاً وَجهُهُ تَرَبَّدَا ... في فَيْلَقٍ كَالبَحْرِ يَجْرِي مُزبِدَا

فقال النبيُّ ﷺ: «نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بنَ سَالم»، ودمعت عينا رَسُوْلِ الله ﷺ، وقال: «لَا يَنْصُرُنِي الله إنْ لم أَنْصُرْ بَنِي كَعْبٍ ممّا أَنصُرُ بِهِ نَفْسِي». ثم مرّتْ سَحَابةٌ في السّماء وأَرْعَدَتْ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إنَّ

هَذَا السَّحَابَ لَيَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ»، وقد كان رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم قبل قدوم عمرو بن سالم على عِلْمٍ بذلك. وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رَسُوْلَ الله صلى الله عليه وسلم قال لها في صبيحةِ الوقعة: «لَقَدْ حَدَثَ فِي خُزَاعَةَ حَدَثٌ»، قالت: فقلتُ: يا رَسُولَ الله، أترَى قريشاً يَجْتَرِئُونَ على نقضِ العَهدِ الذي بينك وبينهم!؟، فقال: «يَنْقُضُونَ العَهْدَ لِأَمْرٍ يُرِيدُه الله»، فقلت: لخيرٍ أو لِشَرٍّ؟، فقال: «لِخَيرٍ». ثمّ إنّ أولئكَ الرّكْب من خزاعة رجعوا إلى بلادِهم.

ولمّا نَدِمَتْ قريشٌ على نقضِهم العَهدَ أرسلوا أبا سُفْيَان لكي يَشُدّ العقدَ ويزيدُ في المُدّةِ، وقالوا له: ما لهذا سِوَاك، فاخْرُجْ إلى محمّدٍ، ثم كلّمْهُ في تجديدِ العَهْدِ وزِيَادَةِ المدّة فيه، فخرج أبو سُفْيَان ومولى له على راحلتين فأسْرَعَ السَّيرَ، لأنه يَرَى أنه أوّل مَن خَرَجَ مِن مَكَّةَ إلى رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم للنّاسِ قبل قدوم أَبي سُفْيَان: «كَأَنَّكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُم لِيَشُدَّ العَقْدَ وَيَزِيدَ فِي المُدَّةِ، وَهُو رَاجِعٌ بِسَخَطِهِ»، وأمرَ أولئكَ الرّكب مِن خُزاعة أَنْ يَرْجِعوا، وأَنْ يتفرقوا في الأَوْدِيَة؛ لِيَخْفَى على أَبِي سُفْيَانَ مجيئَهم إلى النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فرجعوا، وتفرقوا في الأودية وطريق الساحل.

فلمّا قَدِمَ أبو سُفْيَان المدينةَ دَخَلَ على ابنتِه أمّ حبيبة زوجِ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولمّا أرادَ أَنْ يجلسَ على فِرَاشِ رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم طوَتْهُ عنه، فقال: يا بُنَيَّة؛ مَا أدري، أَرَغِبْتِ بي عَن هذا الفِرَاشِ، أَمْ رَغِبتِ به عنّي؟، فَقَالَتْ له: بل هو فراشُ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأنتَ مُشْرِكٌ نَجسٌ، فقال: والله لقد أصابَك بعدي شَرٌّ، فَقَالَتْ: بَلْ هَدَاني الله تعالى للإسلام، وأنتَ تَعْبُدُ حجَراً لا يسْمَعُ ولا يُبْصِرُ، فواعجبا منك يا أبتِ؛ وأَنْتَ مع ذلكَ سيِّدُ قريشٍ وكبيرُها!، فقال: أأَتْرُكُ مَا كانَ يعبدُ آبائي وأَتّبعُ دينَ محمَّدٍ!؟.

ثمّ خرجَ حتى أتى النّبيَّ ﷺ وقالَ له: إنّي كنتُ غائِباً عن صُلْحِ الحُدَيْبِيَة فَامْدُدِ العَهْدَ وزِدْنَا في المُدَّةِ، فقال النبيُّ ﷺ: «لِذَلِكَ جِئْتَ يَا أَبَا سُفْيَان»!؟، قال: نعم، فقال ﷺ: «هَلْ كَانَ فِيكُمْ مِنْ حَدَثٍ»؟، قال: معاذَ الله، نحنُ على عهدِنا وصُلْحِنا، لا نُغيِّرُ ولا نُبَدِّلُ، فقال له ﷺ: «فَنَحْنُ عَلَى مُدَّتِنا وَصُلْحِنَا»، فأعاد أبو سُفْيَان القولَ على رَسُوْلِ الله ﷺ، فلمْ يَرُدَّ عليه شَيئاً.

ثمّ ذهبَ إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه فكَلّمَه أَنْ يكلّمَ له رَسُوْلَ الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعلٍ، جِوَاري في جِوَارِ رَسُوْلِ الله ﷺ، والله لو وَجَدْتُ الذَرَّ تُقَاتِلُكُم لأَعَنْتُها عليكم. ثمّ أتى عمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه فكلّمه، فقال: أنا أَشْفَعُ لكم إلى رَسُوْلِ الله ﷺ؟؛ فوَ الله لو لم أَجِدْ إلّا الذَّرَّ لجاهَدْتكُم بها. فعند ذلك قال له أبو سُفْيَان: جُوزيتَ مِنْ ذِي رَحِمٍ شَرّاً. ثم جاءَ إلى عثمانَ بنِ عفّان رضي الله عنه، فقال: إنّه ليسَ في القوم أقربُ بي رَحِماً منكَ، فَزِدْ في المُدَّةِ وجَدِّدِ العَقْدَ، فإنَّ صَاحِبَكَ لا يُرُدّه عليك أبداً، فقال له عثمان: جِوَارِي في جِوارِه ﷺ. ثم جاءَ إلى عليِّ بنِ أبي طالب كَرَّمَ الله وَجْهَه وعنده فاطمة رضي الله عنها والحسَنُ رضي الله عنه غلام يَدُبُّ بين يديهما، فقال له: يا عليُّ؛ إنّك أمسُّ القوم بِي رَحِماً، وإنّي قد جئتُ في حاجةٍ فلا أَرْجِعَنَّ كما جِئْتُ خَائباً، اشْفَعْ لي إلى محمَّدٍ، فقال: ويحكَ يا أبا سُفْيَان، إذَا عَزَمَ رَسُوْلُ الله ﷺ على أَمْرٍ لا نستطيعُ أَنْ نكلِّمَه، فالتفتَ إلى فاطِمَةَ رضي الله عنها، فقال: يا ابنةَ محمَّدٍ أَجِيري بينَ النّاسِ، فَقَالَتْ: إنّما أَنا امْرَأَةٌ، قال: قد أَجَارَتْ أختُك زينبُ أبا العاص بنَ الرّبيع، فأَجَازَ محمَّدٌ ذلك، فَقَالَتْ: إنّما ذاكَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، قال: فهل لك أَنْ تأمري ابنَكِ هذا فيجيرُ بينَ النّاسِ، فيكونُ سَيِّدَ العَرَبِ إلى آخِرِ الدَّهْرِ، قالت: والله مَا يَبْلُغُ بابني أَنْ يُجِيرَ

بينَ النّاسِ، ومَا يُجِيرُ أَحَدٌ على رَسُوْلِ الله ﷺ.

ثُمّ إنَّ أبا سُفْيَان أتى أشرافَ قريشٍ والأنصار، وكلٌّ يقولُ جِوارِي في جِوَارِ رَسُوْلِ الله ﷺ. ثم جاءَ إلى عليٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَه وقال: يا أبا الحسَن إنّي أرى الأمورَ قَدِ انْسَدَّتْ عَلَيَّ، فانصَحْني، فقال له عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه: يا أبا سُفْيَان إنه ليسَ أَحَدٌ مِن أَصْحَابِ رَسُوْلِ الله ﷺ يَفْتَاتُ على رَسُوْلِ الله ﷺ بجِوَارٍ، وَوَالله لا أعلمُ لك شيئاً يُغْنِي عنك، ولكِنّكَ سِيّدُ بني كِنَانَةَ، فَقُمْ وأَجِرْ بينَ النّاسِ ثُمَّ الْحَقْ بِأَرْضِكَ. فقال: أَوَ تَرَى ذلك مُغْنِياً عنّي شَيئاً؟، فقالَ: والله ما أَظنّه؛ ولكِنْ لا أجِدُ لك غيرَ ذلك، فقام أبو سُفْيَان في المسْجِد، فقال: أَيُّها النّاس؛ إنّي قد أَجَرْتُ بينَ النّاسِ، ولا والله ما أَظُنُّ أَنْ يَخْفِرَنِي أَحَدٌ، ولَا يَرُدّ جِوَارِي. فقال ﷺ: «أَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَبَا حَنْظَلَة»!؟.

ثمّ إنّ أبا سُفْيَان ركبَ بعيرَه فانطلقَ حتى قَدِمَ على قُرَيشٍ، وقد طَالَتْ غيبتُه، واتّهَمَتْه قُرَيشٌ أنه صَبَأ واتّبعَ محمّداً سِرّاً وكتَمَ إِسْلَامَه، وقالتْ له زوجتُه: إنْ كُنْتَ مع طولِ الإقامَةِ جِئتَهم بِنُجْحٍ فأنتَ الرَّجُلُ، فلمّا أخبرَها وقَدْ دنا مِنها وجَلَسَ منها مَجْلِسَ الرَّجُلِ مِنِ امْرَأَتِه، ضَرَبَتْ برجلِها في صدرِه وقالتْ: قُبِّحْتَ مِن رَسُولِ قَومٍ، فمَا جِئْتَ بِخَيرٍ، فلما أصبحَ حلَقَ رَأسَه عِنْدَ إِسَافٍ ونَائِلَة، وذَبَحَ عندَهما البُدْنَ، ومَسَحَ رُؤُوسَهُما بالدَّمِ لِيَدْفَعَ عنه التُّهْمَةَ، فلمّا رَأَتْهُ قُرَيشٌ قالوا: مَا وَرَاءَكَ؟، هل جِئْتَ بكتابٍ من محمّد أو عَهْد؟، فقال: لا والله، لقد أبى عليٌّ، وقد تتبعتُ أصحابَه، فما رأيتُ قوماً لملِكٍ أطوعَ منهم له، لقد جئتُ محمّداً فكلّمْتُه، فما رَدّ عليَّ شيئاً، ثم جئتُ إلى ابن أبي قحافة فلم أَجِدْ فيه خيراً، ثم جئتُ إلى عمرَ بن الخطّاب فوجدته أعدى العدوّ، ثم جئتُ عليّاً

فوجدته ألينَ القوم، وقد أشارَ عَلَيَّ بشيءٍ صنعتُه فو الله لا أدري أَيُغْنِي عنّي شيئاً أَمْ لا؟، فقالوا: وبِمَ أَمَرَكَ؟، قال: قال لي: لم تَلْتَمِسْ جِوارَ النّاسِ على محمَّدٍ ولا تجيرُ أنتَ عليه وأنتَ سيّدُ قريشٍ وأكبرها وأَحَقّها أَنْ لا يُخْفَرَ جِوارُه، ففعلت، قالوا: فهل أَجَازَ محمّدٌ ذلك؟، قال: لا، وإنّما قال: «أَنْتَ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَبَا حَنْظَلَة»، ولم يَزِدْني، فقالوا له: رَضِيتَ بغَيرِ رِضاً، وجِئْتَ بما لا يُغْنِي عَنّا ولا عنك شَيئاً، ولَعَمْرُ الله ما جِوارُك بجَائِزٍ، وإِنَّ إِزالَةَ خَفارَتِكَ عليهم لَهيِّنٌ، والله ما أَرَادَ عليٌّ إلّا أَنْ يَلْعَبَ بك.

وأَمَرَ رَسُوْلُ الله ﷺ النّاسَ بالجهاز، وطوى عنهم الوجْهَةَ التي يُرِيدُها، وأَمرَ أَهلَه أَنْ يُجهِّزُوه، وأَنْ يُخْفُوا أَمْرَ التَّجْهِيز، ثُمّ إنه أعلمَ النّاسَ أنه سَائِرٌ إلى مَكَّةَ، وأمرَهم بالجِدّ والتّجْهِيز. وأرسلَ ﷺ إلى أهل البادية ومَن حَولَه مِن المسلمين في كلّ ناحيةٍ يقولُ لهم: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوم الآخِرِ فَلْيَحْضُرْ رَمَضَانَ بِالمدِينَةِ»، فقدمت إلى المدينة من قبائل العرب: أَسْلَمُ، وَغِفَارُ، ومُزَيْنَةُ، وأَشْجَعُ، وجُهَينَةُ. وقد قال ﷺ: «اللَّهُمَّ خُذِ الْعُيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتّى نَبْغتَهَا فِي بِلَادِهَا»، وأوقفَ بكلّ طريقٍ جماعةً؛ ليَعرِفَ مَن يَمُرّ بها، وقال لهم: «لَا تَدَعُوا أَحَداً يَمُرُّ بِكُمْ تُنكِرُونَهُ إِلَّا رَدَدْتُموهُ».

ولما أجمعَ ﷺ على المسِير إلى قريش وعَلِمَ بذلك النّاسُ كتبَ حَاطِبُ بنُ أبي بَلْتَعَةَ كتاباً إلى ثلاثَةٍ مِن كُبَرَاءِ قُرَيش، وهم: سهيلُ بنُ عمرو، وصفوانُ بنُ أميّة، وعكرمةُ ابنُ أبي جهل، يخبرُهم بالمَسِيرِ، ثمّ أعطاه امْرَأَةً، واسمُ تلك المرأة: سَارة، وكانت مُغَنِّيةً بمَكَّةَ، وكانت قد قَدِمَتْ على رَسُوْلِ الله ﷺ في المدينةِ وأَسْلَمَتْ، وطلبتْ منه المَيرَةَ، وشَكَتِ الحاجَةَ، فقال لها

رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَمَا كَانَ فِي غِنَائِكِ مَا يُغْنِيكِ»؟، فَقَالَتْ: إِنّ قُرِيشاً مُنْذُ قُتِلَ منهم مَن قُتِلَ بِبَدْرٍ تركوا الغِنَاءَ، فوصَلَها ﷺ، وأَوقَرَ لَهَا بعيراً طعاماً، فلما رجَعَتْ إلى قريشٍ ارْتَدّتْ عَنِ الإسلام.

وقد أعطاها حَاطِبُ بنُ أبي بَلْتَعَةَ عشرةَ دنانير، وكسَاها بُرْداً؛ على أَنْ تُبلّغَ ذلكَ الكتابَ لقُرَيشٍ، وقال لها: اِخْفِيهِ مَا اسْتَطَعْتِ، ولا تمرّي على الطّريق، فإنّ عليه حَرَساً، فسلكَتْ غَيرَ الطّريقِ، وجَعَلَتِ الكِتَابَ في ضَفَائِرِ رَأسِهَا خوفاً أَنْ يطّلعَ عليها أَحَدٌ، ثمّ خرجت به. وأتى رَسُوْلَ الله ﷺ الخبرُ من السّماء بما صنعَ حاطبٌ، فبعثَ عليّاً والمقدادَ، وقال لهما: «أَدْرِكَا امْرَأَةً بمَحَلّ كذَا، قَدْ بَعَثَ مَعَهَا حَاطِبُ بكِتَابٍ إِلَى قُرَيْشٍ يُحَذِّرُهُمْ مَا قَدْ أَجْمَعنَا لَهُ فِي أَمْرِهِمْ، فَخُذُوهُ مِنْهَا وَخَلّوا سَبِيلَهَا، فَإِنْ أَبَتْ فَاضْرِبُوا عُنُقَهَا»، فخَرَجا، فأَدْرَكَاها في ذلك المحَلّ الذي ذكره ﷺ، فقالا لها: أينَ الكتابُ؟، فحَلَفَتْ بالله ما معها من كتابٍ، فاسْتَنْزَلَاها وفتّشَاها، والتَمَسَاه في رَحْلِها فلمْ يَجِدَا شَيئاً، فقال لها عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه: إِنّي أَحْلِفُ بالله ما كَذَبَ رَسُوْلُ الله ﷺ قَطُّ، ولا كذبنا، ولتُخْرِجِنَّ هذا الكتابَ، أو لنكْشِفَنّكِ، أَو أَضْرِبُ عُنُقَكِ، فلما رَأَتِ الجِدَّ منه قالتْ: أَعْرِضْ، فأَعرَضَ، فحَلّتْ قُرُونَ رأسِها، فاستخرَجَتِ الكِتَابَ منه، ودفعته إليه.

فَأُتِيَ رَسُوْلُ الله ﷺ بذَلِك الكِتاب، فإذَا فيه: (إِنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قد توجه إليكم بجَيشٍ كَاللّيلِ، يَسِيرُ كَالسَّيل، وأقسمُ بالله لو سَار إليكم وحده لينصرَنّه الله تعالى عليكم، فإنّه مُنْجِزٌ له مَا وعَدَه فيكم، فإِنّ الله تعالى نَاصِرُه وَوَلِيّه، فعليكم الحذرُ، وقد أحببتُ أَنْ تكون لي عندكم يدٌ بكِتَابي

هذا إليكم). فدعا رَسُوْلُ الله ﷺ حَاطباً، وقال له: «أَتَعْرِفُ هَذَا الكِتَابَ»؟، قال: نعم، فقال له: «مَا حَمَلَك عَلَى هَذَا يَا حَاطِبُ»؟، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله؛ أَمَا وَالله إنّي لمُؤْمِنٌ بِالله وَرَسُولِهِ، مَا غَيّرْت وَلَا بَدّلْت، والله ما كفرْتُ مُنذُ أسلَمْتُ، ولَا غَشَشْتُ منذُ نصَحْتُ، ولَا أحبَبْتُهم مُنْذُ فارقتُهم، وَلَكِنّي كُنْتُ أَمْرأً مُلْصقاً، لَيْسَ لِي فِي الْقَوْمِ مِنْ أَصْلٍ وَلَا عَشِيرَةٍ، وَكَانَ لِي بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَلَدٌ وَأَهْلٌ فَصَانَعْتُهمْ عَلَيهِم، فإِنّ مَن مَعَكَ من المهاجرين لهم قرابة يحمُونَ أموَالَهم وأهليهم بمَكَّةَ، ولم يَكُن لي قَرابةٌ، فأحببتُ أن أتّخذَ فيهم يداً أَحمي بهَا أَهلي، وما فعلت ذلك كُفْراً بعدَ إِسْلَام، وقد علِمْتُ أنَّ الله تعالى مُنْزِلٌ بهم بَأْسَهُ، وأَنّ كتابي لا يُغْنِي عنهم شَيئاً. فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ: يَا رَسُولَ الله، دَعْنِي فَلأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ، فَإِنّ هذا الرَّجُلَ قَدْ نَافَقَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَمَا يُدْرِيك يَا عُمَرُ، لَعَلَّ الله قَدْ اطّلَعَ إِلَى أَصْحَابِ بَدْرٍ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْت لَكُمْ». ثم قال: «إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ»، وعفا عنه، وأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: ١]، إلى آخر الآيات. وفيها مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لحاطِبٍ رضي الله عنه، لأنّ فيها الشّهادةَ له بالإيمان.

ثمّ مضى رَسُوْلُ الله ﷺ نحوَ مكّةَ، واستخلفَ على المدينة أبَا رُهْمٍ كلثومَ ابنَ الحُصَين الغفاري، وكانَ خروجُه ﷺ لثمان عشرة خلَتْ من شهر رمضان في سنة ثمان، ومعه عشرةُ آلاف، ولم يَتَخَلّفْ عنه أَحَدٌ من المهاجرين والأنصار، وكانَ عددُ المهاجرين سَبْعُمائة، ومعهم ثلاثمائة فرَس، وكان الأنصارُ أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرَس، وكانتْ مُزَيْنَة ألفاً وفيها مائةُ

فَرَس، وكانت أَسْلَمُ أربعمائة ومعها ثلاثون فَرَساً، وكانت جُهَيْنَةُ ثمانمائة ومعها خمسون فرساً، وقيل: كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اثني عشرَ ألفاً.

ولما وصلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الأبوَاءِ أو قريباً منها لقيه أبو سُفْيَان ابنُ عمِّه الحَارثِ بنِ عبدِ المطّلب، ولقِيَه عبدُ الله بنُ أميَّة بنِ المغيرة، وهما يُريدانِ الإسلامَ، وقد كانا مِن أكبرِ القائمين على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومِن أشَدِّ النّاس إذَايَةً له بمَكّةَ، فلمّا جاءَا أعرَضَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنهما، فكلّمته أُمّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِيهِمَا، فَقَالَتْ: لا يكون ابنُ عمِّك، وابنُ عمَّتِكَ وَصِهْرُك، أشْقَى النّاس بك، فقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حَاجَةَ لِي بِهِمَا أَمَا ابْنُ عَمّي فَهَتَكَ عِرْضِي، وَأَمّا ابْنُ عَمّتِي وَصِهْرِي فَهُوَ الّذِي قَالَ فِيّ بِمَكّةَ مَا قَالَ»، فَلَمّا خَرَجَ الْخَبَرُ إلَيْهِمَا بِذَلِكَ، وَكان مَعَ أَبِي سُفْيَان بُنَيٌّ لَهُ، فَقَالَ: وَالله لَيَأْذَنَنَّ لِي، أَوْ لَآخُذَنّ بِيَدَيْ بُنَيَّ هَذَا، ثُمّ لَنَذْهَبَنّ فِي الْأَرْضِ حَتّى نَمُوتَ عَطَشاً وَجُوعاً، فَلَمّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَقّ لَهُمَا، ثُمّ أَذِنَ لَهُمَا بالدّخُولِ عليه، فقال عليُّ بن أبي طالب كَرَّمَ الله وَجْهَه لأَبي سُفْيَان: ائتِ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن قِبَلِ وَجْهِه، فقل له ما قال إخوةُ يوسفَ لِيوسُفَ: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]، فإنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يرضى أَنْ يكونَ أحدٌ أحسَنُ قولاً منه، فلما دخل فعل ذلك وأسلمَ، فقال لهما رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]»، وقَبِلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إسلامهما. وكان أبو سُفْيَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد ذلك لا يرفعُ رأسَه إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حياءً منه لأنه عاداهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحوَ عشرين سنة، يهجُوه ولم يتَخَلّفْ عَنْ قِتَالِه، فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك يحبّه ويشهدُ له بالجنّة، ويقولُ: «أَرْجُو أَنْ يَكُونَ خَلَفاً مِنْ حَمْزَةَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ».

وسارَ رسُولُ الله ﷺ وهو صائمٌ، وصامَ النّاسُ معه، فلمّا وصلَ إلى محلٍّ يُقَالُ له: الصَّلْصَالُ، أمرَ، مناديا فنادى: «مَنْ أحبّ أنْ يصُومَ فلْيَصُمْ، ومَنْ أَحَبَّ أنْ يُفْطِرَ فَلْيُفْطِرْ». وبَقِيَ ﷺ صائماً، حتى أنه في بعض الأيام صَبَّ الماءَ على رأسِه وعلى وجْهِه من شِدَّةِ العَطَش وشِدَّةِ الحرِّ وهو صائمٌ. وكان أكثرُ الذين معه صائمين لما يرون من فعلِه ﷺ، فلمّا بلغَ الكَدِيدَ بلغَه أنّ النّاسَ شَقَّ عليهم الصّيامُ، وأنّهم إنّما ينظرونَ فيما يفعل هو، فاستَوَى ﷺ على رَاحِلَتِه بعد العصر، ودعا بإناءٍ فيه ماءٌ فشَرِبَ، ثم ناولَه لرَجُلٍ بجَنْبِه فشَرِبَ، فقيل له بعد ذلك: إنّ بعضَ النّاسِ صَامَ، فقال: «أُولَئِكَ العُصَاةُ»، لأنّهم خالفوا أمرَه ﷺ لهم بالفطر؛ ليَقْوَوا على مُقَاتَلَةِ العَدوّ، لأنه ﷺ قال للصّحابة لما دنوا من عَدُوِّهم: «إنكُمْ قَدْ دَنَوْتُم مِنَ عَدُوِّكُم وَالفِطْرُ أَقْوَى لَكُمْ»، فلم يزلْ ﷺ يُفْطِرُ حتّى انْسَلخَ الشّهرُ.

ولما وصلَ ﷺ قُدَيْدَ، عقدَ الأَلْوِيَةَ والرَّايَاتِ، ودفعها للقبائل، ثمّ سارَ حتّى نزلَ بمَرِّ الظَّهْران، وقد أعمَى الله الأخبارَ عن قريشٍ إجابةً لدعائِه ﷺ، فلم يعلموا بوصولِه إليهم، ولم يبلُغْهُم حَرْفٌ واحِدٌ مِن مَسِيره إليهم، فأمرَ ﷺ أصحابَه أنْ يُوقِدَ كلُّ رَجلٍ منهم ناراً، فأَوْقَدُوا عَشَرَةَ آلافِ نار، وجعل على الحرَسِ عُمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه، وكانَ العبّاسُ رضي الله عنه قد خرَجَ قبل ذلك بعيالِه مُظْهِراً لِلْإِسْلَامِ ومُهَاجِراً، فلقيَ رَسُوْلَ الله ﷺ بذِي الْحُلَيْفَةِ، فرجَعَ معه إلى مَكَّةَ، وأرسلَ أَهْلَه ومَتَاعَه إلى المدينةِ، وقد قال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «هِجْرَتُكَ يَا عَمُّ آخِرُ هِجْرَةٍ كَمَا أَنَّ نُبُوَّتِي آخِرُ نُبُوَّةٍ». قال العبّاسُ رضي الله عنه: فَرَقَّتْ نفْسِي لأهل مَكَّةَ، وقلتُ: يا صَبَاحَ قُرَيشٍ، والله لَئِنْ دخلَ رَسُوْلُ

الله ﷺ مَكَّةَ عُنْوَةً قبلَ أَنْ يَأْتُوهُ فيَسْتَأْمِنُوهُ فَإِنّه لَهلاكُ قُرَيشٍ إِلَى آخِرِ الدّهر.

قال العبّاسُ رضي الله عنه: فجلسْتُ على بغلةِ رَسُوْلِ الله ﷺ البيضاء، وخرَجْتُ عليها حتّى جئتُ الأَرَاكَ، فقلتُ: لعَلّي أَجِدُ بعضَ الحَطّابَةِ أو صَاحبَ لَبَنٍ فيأتيَ مَكَّةَ يُخْبِرُهم بمكَانِ رَسُوْلِ الله ﷺ؛ ليخرجوا إليه فيَسْتَأْمِنُوهُ قبلَ أَنْ يدخلَها عُنْوَةً، فو الله إني لأسيرُ إذْ سَمِعتُ كلامَ أبي سُفْيَان وبُدَيْلِ بنِ وَرْقَاءَ الخُزَاعِيّ وهمَا يتراجعانِ، وقد خرَجا ومعهما حكيمُ بنُ حِزَام يتجَسَّسُونَ الأَخبَارَ، وينظرونَ لعلّهم يجدونَ خَبراً أو يسمعون به، فلما سمعوا صَهيلَ الخيل رَاعَهم ذلك، وجعل أبو سُفْيَان يقولُ: ما رَأيتُ كاللّيلة نِيرَاناً قَطُّ ولا عَسْكراً، هذه كنيرانِ عرَفة. وبُدَيلٌ يقولُ له: هذه والله خُزَاعَةُ حَمَشَتْهَا الحَرْبُ، فقال أبو سُفْيَان: خُزَاعَةُ أَذَلُّ وَأَقَلُّ مِن أَنْ تكُونَ هذه نيرانُها وعسْكَرُها.

فعَرَفْتُ صَوتَ أَبي سُفْيَان فقلتُ: يا أبا حَنْظَلَة، فعرفَ صوتي فقال: أبو الفضْل؟، قلتُ: نعم، قال: ما لك فداك أَبِي وَأُمِّي؟، قلتُ: والله هذا رَسُوْلُ الله ﷺ في النّاس قَدْ جَاءَكم بما لا قبلَ لكم به؛ قد جاءَكم بعشَرَة آلافٍ، فقال: واصباح قريش والله، فمَا الحِيلَةُ فداك أبي وأمّي؟، قلتُ: والله لَئِنْ ظَفِرَ بك ليَضرِبَنَّ عُنُقَك، فارْكَبْ في عَجزِ هذه البَغْلَةِ حتّى آتي بكَ رَسُوْلَ الله ﷺ فأَسْتَأْمِنَه لك، فرَكِبَ خلفي، ورجعَ صَاحِبَاه، فجئتُ به، وكلّمَا مَرَرْتُ بنارٍ من نِيرانِ المسلمين قالوا: مَن هذا؟، فإذَا رَأَوا بغلةَ رَسُوْلِ الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عمُّ رَسُوْلِ الله ﷺ على بغْلَتِه. حتَّى مرَرْتُ بنارِ عُمَرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، فقال: مَن هذا؟، وقَامَ إليّ، فلمّا رَأى أبا سُفْيَان على عجز الدّابةِ، قال: أبو سُفْيَان؛ عدوّ الله، الحمْدُ لله الذي قد أمكَنَ منكَ مِن غَيرِ عَقْدٍ ولا عَهْدٍ.

ثم خرج يَشْتَدُّ نحوَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فركضتُ البَغْلَة فسبقْتُه، ثمّ اقتحمْتُ عن البَغْلَةِ، فدَخَلْتُ على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودخلَ عليه عمرُ في أثري، فقال: يَا رسُولَ الله؛ هذا أبو سُفْيَان عدوّ الله قد أمكن الله منه من غير عَقْدٍ ولا عَهْدٍ، فدعني لِأَضرِبَ عُنُقَه، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله، إنّي قد أَجَرْتُه، ثمَّ جَلَسْتُ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخَذْتُ بِرَأْسِهِ، فقلتُ: والله لا يُنَاجِيه الليلةَ رَجُلٌ دوني، فلما أَكَّدَ عمرُ في شأنِه، قلتُ: مَهْلاً يا عمرُ، فو الله لو كان من رِجَالِ بني عديّ بنِ كعبٍ ما قلتَ مثل هذا، ولكِنّك قد عرفتَ أنه من رِجالِ بني عبدِ مناف، فقال: مَهْلاً يا عبّاسُ، فو الله لإسلامُك يومَ أَسْلَمْتَ كانَ أَحَبّ إليَّ مِن إسلامِ الخطّاب لو أَسْلَمَ، وما بي إلّا أني قد عَرَفْتُ أَنّ إسْلَامَك كانَ أَحَبّ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن إسلام الخطّابِ لو أسلمَ. فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اذْهَبْ بِهِ يَا عَبَّاسُ إِلَى رَحْلِكَ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَأْتِنِي بِهِ».

قال العَبَّاسُ: فذهبتُ به إلى رحلي، فلمّا نُودِيَ بالصَّلَاةِ وثَارَ النّاسُ فَزِعَ أبو سُفْيَان وقال لي: يا أبا الفَضْل، ما للنّاسِ؟، مَا يُرِيدُون؟، أَأُمِرُوا فِيَّ بِشَيْءٍ؟!، فقلتُ له: لا، ولكِنَّهُم قاموا إلى الصَّلَاةِ، فلمّا رأى المسلمين يتلَقّونَ وضُوءَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمّ رَآهم يركعُونَ إذا ركعَ ويَسْجُدونَ إذا سَجَدَ، قال: يا عَبّاسُ مَا يَأمرُهم بشيءٍ إلا فعَلُوه!، فقلتُ له: لو نَهَاهُم عَنِ الطّعَام والشَّرَابِ لَأَطَاعُوهُ، فقال: ما رَأَيتُ مَلِكاً مثلَ هذا، لا مَلِكَ كِسْرَى ولَا مَلِكَ قَيْصَر، ولا مَلِكَ بني الأَصْفَر، فكَلِّمْهُ في قَومِكَ هَل عِنْدَه مِنْ عَفْوٍ عَنْهُم؟، فانطلقتُ به حتّى أَدْخَلْتُه على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَان، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله»؟، فقالَ: بأبي وأُمّي أَنْتَ،

مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَوْصَلَكَ، لقَدْ ظَنَنْتُ أنه لو كان مع الله إله غيره لأَغنَى عنّي شيئاً، فقال ﷺ: «وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَان، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنّي رَسُولُ الله»؟، قال: بأبي أنتَ وأمّي، أمّا هذه فوالله إنّ في النّفسِ حتّى الآنَ منها شيئاً. فقلتُ له: ويحكَ؛ أَسْلِمْ واشْهَدْ أَنْ لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسُولُ الله، قبلَ أَنْ تُضْرَبَ عُنُقُكَ، فَشِهَدَ شَهَادَةَ الحقِّ وَأَسْلَمَ.

وذُكِرَ أنّ النّبيَّ ﷺ حِينَ عرَضَ الإسلامَ على أبي سُفْيَان، قال له: كيفَ أَصْنَعُ بِالعُزَّى؟، فسَمِعَه عُمرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فقال له: تَخرَأُ عَليها!، فقال له أبو سُفْيَان: ويحكَ يا عمرُ، إنّكَ رَجُلٌ فاحِشٌ، دعني مع ابنِ عَمّي فإيّاه أُكَلِّمُ. وكانَ في هذا تَصْدِيقُ أمَيّةَ بنِ أَبِي الصَّلْت، فإنّه كانَ يقولُ: كنتُ أَرَى في كتبي أَنّ نبيّاً يُبعَثُ في حَرَّتِنَا، فكنت أَظُنُّ بَل كنتُ لَا أَشُكُّ أَنّي أَنا هوَ، فلمّا دَارَسْتُ أَهلَ العلم إِذْ هُوَ يكونُ في بني عَبْدِ مَناف، فنظرْتُ في بني عبد مناف فلم أَجِدْ أَحَداً يصلح لهذا الأمر إلا عُتْبَةَ بنَ ربيعة فلمّا جاوزَ الأربعينَ سنة ولم يُوحَ إليه عَلِمْتُ أنه غيره. قال أبو سُفْيَان: فخَرَجْتُ في رَكْبٍ أُرِيدُ اليَمَنَ في تجارةٍ، فمَرَرْتُ بأُمَيَّةَ بنِ أَبِي الصَّلْت، فقلتُ له كالمُسْتَهْزِىءِ به: يَا أميّةُ قد خرجَ النّبيُّ الذِي قد كنتَ تَنْعَتُه، فقال: إِنّهُ حَقٌّ فاتّبِعْه، قلتُ: فما يمنعك مِن اتّباعه؟، قال: ما يَمنعني من اتّباعه إلا الاسْتِحْيَاء من بُنَيَّاتِ ثَقِيف، إنّي كُنْتُ أُحَدِّثُهنَّ أَنّي هوَ، فيرينني تابِعاً لغُلَامٍ مِن بني عبد مناف، ثم قال: كأنّي بِكَ يا أبا سُفْيَان إِنْ خَالَفْتَه رُبِطتَ كما يُرْبَطُ الجدْي فيُأْتَى بك إليه فيَحْكُمُ فيك بِمَا يُرِيدُ.

ولما أسلَمَ أبو سُفْيَان قال: يا رسُولَ الله، أَرَأَيتَ إِنِ اعْتَزَلَتْ قُرَيشٌ فكَفَّتْ أَيدِيَها آمنُونَ هُمْ؟، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «نَعَمْ، مَنْ كَفَّ يَدَهُ وَأَغْلَقَ دَارَهُ

فَهُوَ آمِنٌ»، فقال العبّاسُ: يا رسُولَ الله، إنّ أبا سُفْيَان رَجُلٌ يحبُّ الفَخْرَ فاجعل له شيئاً، قال: «نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ». فقال له أبو سُفْيَان: يا رسولَ الله، وما تَسع داري، ومَا يَسَعُ المسجد؟، فعَقَدَ ﷺ لأَبِي رُوَيْحَةَ لِوَاءً، وأَمرَهُ أَنْ يُنَادِي: «مَنْ دَخَلَ تَحْتَ لِوَاءِ أَبِي رُوَيحةَ فَهُوَ آمِنٌ»، فلمّا قالَ النّبيُّ ﷺ ذلك، قال أبو سُفْيَان: أَمّا هذِه فوَاسِعة.

ثمّ أمرَ رسولُ الله ﷺ العبّاسَ أَنْ يحبسَ أبا سُفْيَان بمضيق الوَادي حتّى تَمُرَّ بِهِ جنودُ الله فيرَاها. قال العبّاسُ: ففعلتُ ذلك، حتّى مرّتِ القبائلُ كلّها، كلمّا مرّتْ قبيلةٌ كبّرتْ ثلاثاً عند محاذاته، فمَرّتِ القبيلةُ الأولى وفيها خالدُ بنُ الوليد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فقال: يا عبّاسُ، مَن هذه؟، فقلتُ: سُلَيمٌ، فقال: ما لي ولسُلَيم، ثمّ مَرّت قبيلة آخرى، فقال: يا عبّاسُ، من هؤلاء؟، فقلت: مُزَيْنَةُ، فقال: ما لي ولمُزَيْنَة، حتّى نَفِدَتْ القبائل كلّها، ما تمرُّ قبيلةٌ إلا سألني عنها، فإذا قلت له: بنو فلان، قال: ما لي ولبني فلان. حتى مرَّ بهِ رَسُوْلُ الله ﷺ في كَتِيبَتِه الخضْرَاء، وفيها المهاجرون والأنصارُ، لا يرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، فيها أَلفَا دَارع، وعمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يقول: رُوَيْداً حتّى يلحقَ أَوَّلَكم آخرُكم. فقال: سبحانَ الله!، يا عبّاسُ، مَن هؤلاء؟، فقلتُ: هَذا رَسُوْلُ الله ﷺ في الأنصارِ، فقال: ما لأَحَدٍ بِهَؤُلَاءِ قِبَلٌ ولَا طَاقَةٌ، والله يا أبا الفَضل لقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابنِ أَخِيكَ اليومَ عَظِيماً، فقلتُ له: يا أبا سُفْيَان إِنّها النّبوةُ، فقال: نعم إِذَنْ.

وكان سعدُ بنُ عُبادةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه معه رايةُ رَسُوْلِ الله ﷺ

على الأنصار، فلما مرَّ على أبي سُفْيَان وهو واقفٌ بمضيق الوادي، قال أبو سُفْيَان: من هؤلاء؟، قال: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة معه الرّاية، فلما حاذاه سعدٌ قال: يا أبا سُفْيَان، اليوم يوم المَلْحَمَة، اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَة، اليوم تُسْتَحَلُّ الكعبة، اليوم يُذِلُّ الله قريشاً. فلمّا أقبلَ رَسُوْلُ الله ﷺ، ورأيته مع الزّبير رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، ومَرّ بأبي سُفْيَان وحاذاه، ناداه أبو سُفْيَان فقال: يا رسولَ الله، أَأَمَرْتَ بقتل قومِك؟، فإنّ سعداً ومَن معه حين مرَّ بي زَعَمَ أنه قَاتِلُنا، وقال: اليوم يوم المَلْحَمَة، اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَة، اليوم تُسْتَحَلُّ الكعبة، اليوم يُذِلُّ الله تعالى قريشاً. أنشدُكَ اللهَ يا رسولَ الله في قومِك، فأنت أَبرُّ النّاسِ وأرحمُهم وأوصلهم. فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «يا أَبَا سُفْيَان، كَذَبَ سَعْدٌ، اليَومُ يَومُ المرْحَمَةِ، اليومُ يُعَظِّمُ الله فِيهِ الكَعْبَةَ، اليَومُ تُكْسَى فِيهِ الكَعْبَةُ، اليَومُ أَعَزَّ الله فِيهِ قُرَيْشاً». ثم أرسل رَسُوْلُ الله ﷺ عليّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه إلى سعدِ بن عبادة، وأمرَه أَنْ ينزِعَ اللّواءَ منه ويدفعه لابنِه قيسِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما. ورأى سعدٌ أَنَّ اللواءَ لم يخرجْ عنه إِذْ صَار لابنِه قيس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما فدفَعَه إِليه رَاضِياً.

قال العبّاسُ: ثم قلتُ له: النَّجاءَ إلى قومِك، فانطلقَ حتى إذا جاءَهم صرَخَ بأعلى صَوتِهِ: يا معشرَ قريش، هذا محمَّدٌ قد جاءَكم بما لا قِبَلَ لكم به، فمَن دخل دارَ أبي سُفْيَان فهو آمن، فخرَجتْ إليه زوجتُه هند بنت عُتبة، فَقَالَتْ له: قُبِّحْتَ مِن طَلِيعَةِ قوم. ثم أخذَتْ بلحْيَتِه ونادَتْ: يا آلَ غالب اقتلوا هذا الشّيخ الأحمَق، وقاتلوا وادفعوا عن أنفُسِكم وبلادِكم، فقال لها: ويحكِ؛ اسكتي وادخلي بيتك. ثمّ قال للقوم: ويحكم، لا تَغُرّنكم هذِه من أنفُسِكم، فإنه قد

جاءكم ما لا قِبَلَ لكم به، مَن دخل دار أبي سُفْيَان فهو آمن. فقالوا: قَبَّحَكَ الله، وما تغني عنا دارُك؟، فقال لهم: ومَن أغلقَ عليه بابَه فهوَ آمِنٌ، ومَن دخل المسجدَ فهو آمِنٌ، ومَن ألقى سِلَاحَه فهو آمِنٌ، ومَن دخل تحتَ لواءِ أبي رُوَيحة فهو آمِنٌ، فتَفرَّقَ عنه النّاسُ إلى دُورِهم.

وأَمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد أَنْ يدخلَ مع جملةٍ من قبائل العَربِ من أسفل مَكَّةَ وأَنْ يَغْرِزَ رايتَه عند أدنى البيوت، وقال: «لَا تُقَاتِلُواْ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكُمْ»، وقد كان صفوانُ بنُ أميّة، وعكرمةُ بنُ أبي جهل، وسُهيلُ بنُ عمرو، جمعُوا ناساً عند جبل الخَنْدَمَةِ لِيُقاتِلوا، وكانَ من جُملتهم رجلٌ كان يُعِدُّ سِلاحاً، ويُصْلِحُ من شَأنِه، فتقولُ له زوجتُه ـ وكانت قد أسلمت سِرّاً ـ: لماذَا تُعِدُّ مَا أَرَى؟، فيقولُ: لمحمَّدٍ وأصحابِه، فتقولُ له: والله ما أَرَاهُ يقومُ لمحمّدٍ وأصحَابِه شَيءٌ، فقال: والله إني لأرجو أَنْ أُخْدِمَك خَادِماً من بعضِ مَن أَسْتَأسِرُهُ منهم، فَقَالَتْ له: وَالله لكأنّي بِكَ وقد رجَعْتَ تطلبُ مَخْبأً أُخَبِّئُكَ فيه لو رَأيتَ خيلَ محمَّدٍ. فلمّا لقيَهم خَالِدُ بنُ الوليد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بالمحَلّ المذكور مَنعُوه من الدّخول ورمَوهُ بالنّبل، وقالوا له: لا تدخلُها عُنْوَةً، فصَاح خَالِدٌ في أصحَابِه، فقتَلَ منهم مَن قَتَلَ وانهزمَ مَن لم يُقْتَلْ، وكانَ من جُملَةِ مَنِ انهزمَ ذلك الرّجلُ، فدخل بيتَه مُسرِعاً، وقالَ لامرأتِه: أَغْلِقي عليَّ بابي، فَقَالَتْ تَسْخَرُ به: وأَينَ ما كُنتَ تقولُ والخادِمُ الذي كنتَ وعدتني؟، فقال:

إنّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَةْ	إذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَةْ
وَأَبو يَزِيدَ قَائِمٌ كَالمُوتَمَةْ	وَاسْتَقْبَلَتْهُمْ بِالسّيُوفِ المُسْلِمَةْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَةْ	ضَرْباً فَلَا يُسْمَعُ إلّا غَمْغَمَةْ

لَهُمْ نَهِيتٌ خَلْفَنَا وَهَمْهَمَةْ   لَمْ تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَةْ

واستمرَّ خالدٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يدفعُهم، إلى أَنْ وصلَ الحَزْوَرَة، وإلى بابِ المسجدِ، وصَعَدَتْ طَائِفَةٌ منهم الجبَلَ، فتبعهم المسلمون، فرأى النبيُّ ﷺ وهو على العقبة بارِقَةَ السّيوفِ، فقال: «مَا هَذَا وَقَدْ نَهَيْتُ عَنِ القِتَالِ»؟ فقيل له: لعلَّ خالداً قُوتِلَ وبُدِىءَ بالقِتَال فلمْ يكن له بُدٌّ مِن أَنْ يُقَاتِلَ مَن يُقَاتِلُه، وما كانَ لِيُخالفَ أمرَكَ يا رسولَ الله. فقُتِلَ من المشركين يومئذٍ أربعةٌ وعشرون من قريش، وأربعةٌ من هُذَيل. وقِيلَ: قُتِلَ سَبعُون.

ووَجّه ﷺ اللّومَ على خالدِ بنِ الوليد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقال له: «لِمَ قَاتَلْتَ وَقَدْ نَهيتُ عَنِ القِتَالِ»؟، فقال: يا رسولَ الله، هم بدؤونا بالقتال، ورمونا بالنّبل، ووضَعوا فينا السّلاحَ، وقد كفَفْتُ عنهم مَا استطعتُ، ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا، حتّى إذا لم أجد بُدّاً مِن أَنْ أُقَاتِلَهم قاتَلْتُهم، فأظفَرنا الله بهم، فهَربوا من كل وَجْهٍ.

وفي رواية: أنه ﷺ قال لرَجُلٍ من الأنصار: «ائْتِ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ لَا تَقْتُلَ بِمَكَّةَ أَحَداً»، فجاءَ ذلك الأنصاري فقال: يا خالدُ، إنّ رَسُوْلَ الله ﷺ يأمرُك أنْ لا تقتلَ مَن لقيتَ مِنَ النّاس. فاندفعَ خالدٌ فقتلَ سبعينَ رَجُلاً بمكَّةَ، فجاءَ إلى النبيِّ ﷺ رَجُلٌ مِن قُرَيشٍ فقال: يا رسولَ الله، هلكَتْ قريشٌ، لا قريشَ بعد اليوم. قال: «وَلِمَ»؟، فقال: هذا خالدُ بنُ الوليد لَا يلقَى أحداً من النّاس إلا قتله، فاستَدْعَا رَسُوْلُ الله ﷺ خالداً، ثم قال له: «يَا خَالِدُ، أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ أَنْ لَا تَقْتُلَ

أَحَداً»؟، فقال: بلْ أَرْسَلتَ أَنْ اقْتُلْ مَن قدرتَ عليه!. قال ﷺ: «ادْعُ لِي الأَنْصَارِيَّ»، فدعاه له، فقال: «أَمَا أَمَرْتُكَ أَنْ تَأْمُرَ خَالِداً أَنْ لَا يَقْتُلَ أَحَداً»؟، قال: بلى؛ ولكِنّك أردتَ أمراً وأرَادَ الله غيرَه، فسكتَ رَسُوْلُ الله ﷺ، ولم يَقُلْ للأنصاري شَيئاً، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ لخالدٍ: «كُفَّ عَنِ الطَّلَبِ»، فقال: قد فعلتُ، ثم قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «قَضَى الله أَمْراً»، ثم قال: «كُفُّوْا السِّلَاحَ إِلَّا خُزَاعَةَ عَنْ بَنِي بَكْرٍ إِلَى صَلَاةِ العَصْرِ». وتلك هيَ السَّاعة التي أُحِلَّتْ لرَسُوْلِ الله ﷺ.

وهذه المُقَاتَلَةُ التي وقعتْ لخالدٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه لا تُنافي كون مَكَّةَ فتِحَتْ صُلْحاً لأنه ﷺ صالحهم بمَرِّ الظَّهْرَان قبلَ دخُولِ مَكَّةَ، وأما قوله ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ..» إلى آخره، فهو من زيادة الاحتياط لهم في الأمَان. ولذَا لم يقتل خالدٌ رضي الله عنه إلّا مَن قاتل من الكفّار، فلا حُجَّةَ في هذا لمن قال: أَنَّ مَكَّةَ فُتِحَتْ عُنْوَةً. وقيل: أعلاها فُتِحَ صُلْحاً، وهو الموضع الذي سلكه الأنصارُ لعدم المقاتلة فيه، وأسلفها فُتِحَ عُنْوَةً، وهو الذي سلكه خالدٌ لوجود المقاتلة فيه.

ثم دخلَ رَسُوْلُ الله ﷺ مَكَّةَ من كَدَاءٍ في بكرةِ يوم الجمعة في العشرين من رمضان، وعلى رأسِه المغفرُ، وقيل: وعليه عمامَةٌ سوداء، قد أرخى طرفيها بين كتفيه بغير إحرام، ورايتُه سوداء، ولواؤه أبيض، واضعاً رأسَه الشريفَ على رَحْلِه؛ تواضعاً لله تعالى، حين رأى ما رأى ما فتح الله تعالى عليه من مَكَّةَ، ورأى كثرةَ المسلمين، ثم قال: «اللَّهُمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيْشُ الآخِرَةِ»، وهو رَاكِبٌ على ناقته القصواء، مُرْدِفاً أسامةَ بنَ زيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، ثم سارَ

ﷺ والى جانِبه أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يحادِثُه، ويقرأ سورةَ الفتح، حتى جاء البيت وطافَ به سبعاً على رَاحلَتِه، ومحمّدُ بنُ مَسْلَمَة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه آخِذٌ بزِمَامِها، فاستَلمَ الحجَرَ بمِحْجَنٍ في يدِه، ثمّ أقبلَ على الأصنام فجَعل يكسرُها.

وعن ابنِ عبّاس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما قال: دخلَ رَسُوْلُ الله ﷺ مَكَّةَ يوم الفتح، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، لكلّ حيٍّ من أحياءِ العربِ صَنَمٌ، قد شَدَّ إبليسُ أقدَامَها بالرَّصَاص، فجاءَ النبيُّ ﷺ ومعه قَضِيبٌ، فما أشارَ لصَنَمٍ من ناحِيَةِ وجْهِه إلا وقعَ لِقَفَاه، ولا أشارَ لقَفَاه إلا وقعَ على وجْهِهِ من غيرِ أَنْ يمَسّه بما في يده، وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، حتى مرّ عليها كلّها.

وجاءَ النبيُّ ﷺ إلى هُبَلَ وكانَ من أعظم الأصنام التي يعبدونها، فجعل ﷺ يطعن بها في عَينَيه، ويقولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ثمّ أمرَ به ﷺ فكُسِّرَ، فقالَ الزّبيرُ بنُ العَوَّام رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه لأبي سُفْيَان: قد كسر هُبَلُ، أَمَا إنّكَ قد كنتَ في يوم أُحُدٍ في غُرُورٍ حينَ تَزْعُمُ أَنه قد أَنْعَمَ، فقال أبو سُفْيَان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: دَعْ هذا عنكَ يا ابنَ العَوَّام، ولا توبّخْني، فقَد رأيتُ أَنْ لو كانَ مع إِلَهِ محمَّدٍ ﷺ غيره لكان غير ما كان.

وألقَى رَسُوْلُ الله ﷺ الأصنامَ كلّها، وبقيَ صَنمُ خُزَاعَةَ عالياً فوق الكعْبَة، وكانَ من نُحاس. قال علي كَرَّمَ الله وَجْهَه: فقال لي رَسُوْلُ الله ﷺ:

«يَا عَلِيُّ، اصْعَدْ عَلَى مَنْكِبِي، وَاهْدِمِ الصَّنَمَ»، فقلتُ له: يا رسولَ الله، بل اصعدْ أنتَ، فإنّي أكرمُك أنْ أَعْلُوَكَ، فقال: «إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ حَمْلَ ثِقَلِ النُّبوَّةِ، فَاصْعَدْ أَنتَ»، فجلسَ النبيُّ ﷺ فصَعدْتُ على كاهِلِه، ثم نهضَ بي، فصَعدتُ فوقَ ظهرِ الكعبة، وتنحّى رَسُوْلُ الله ﷺ، وخُيِّلَ لي حينَ نَهضَ بي أَني لو شِئْتُ أَنْ أتناولَ الثُرَيَّا لفعلتُ، فقال ﷺ: «أَلْقِ صَنَمَهُمْ الأَكْبر» وكان مُوتَداً بأَوْتَادٍ من الحديد، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «عَالِجْهُ»، فعالجته، وهو يقول: «إِيْهٍ إِيْهٍ، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾»، فلم أَزَلْ أعالجُه حتّى اسْتَمْكَنْتُ منه فقَذَفْتُه، فلمّا ألقيتُ به تكَسَّرَ. وجعلَ أهل مَكَّةَ يتعجبون من ذلك، ويقولون: ما رَأينا أَسْحَرَ مِن محمَّدٍ!.

ولمّا فرَغَ رَسُولُ الله ﷺ من طوافِه أرسَلَ بلالاً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى عثمانَ بنِ طلحةَ يأتيه بمفتاح الكَعْبةِ، فجاءَ إلى عثمانَ فأخبرَه، فقال إنّه عند أمّي، فرَجع بلالٌ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فأخبرَه أَنّ المفتاحَ عندَ أمّه، فبعثَ إليها رسُولاً، فَقَالَتْ: لَا واللّات والعُزّى لا أَدْفعُه أبداً، فقالَ عثمانُ: يا رسولَ الله، أرسلني أُخَلِّصُه لكَ منها، فأَرْسَلَه، فجاءَ إليها فطلبَه منها، فَقَالَتْ: لَا واللّاتِ والعُزّى لا أوصِلُه إليك أبداً، فقال: يا أمّه؛ ادفعيه إِلَيَّ فإنّه قد جاءَ أَمرٌ غير ما كنّا عليه، وإِنْ لم تَفْعَلي قتلتُ أنا وأَخِي، ويأخذُه منك غيري، فأَدْخَلَتْه حُجْرَتَها، وقالتْ له: أَنْشُدَك اللهَ أَنْ لا يكونَ ذهابُ مأثرةِ قومِك على يَدَيك. كلّ ذلك ورَسُوْلُ الله ﷺ قائِمٌ ينتظرُ حتّى أنه ليَتَحَدَّرُ منه مثلُ الجُمانِ من العَرَق، فبينما هو يكلّمُها إِذْ سَمِعَتْ صَوتَ أَبِي بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما في الدّار، وعمرُ رضي الله عنه رافعاً صوتَه يقولُ: يا عثمانُ أُخرُجْ، فَقَالَتْ له: يا بنيّ خُذِ المفتاحَ، فَإِنْ

تأخذَه أَحَبُّ إليّ مِن أَنْ تأخذَه تَيْمٌ وعَدِيّ، فأخذَه عثمانُ، وخرجَ يمشي حتّى إذا كانَ قريباً من وجْهِ رَسُوْلِ الله ﷺ، عثَرَ عثمانُ فسَقطَ منه المفتاحُ، فقامَ رَسُوْلُ الله ﷺ إلى المِفْتَاحِ مُعَظِّماً فانحَنى إليه، ثمّ تناولَه، وفتحَ الكعبةَ.

ثمّ دَخَلَ رَسُوْلُ الله ﷺ الكَعْبَةَ، ومعه أسامةُ بنُ زيد، وبلالٌ، وعثمانُ بنُ أبي طلحة، والفضْلُ بنُ العَبّاس، فأغلقَ عثمانُ بنُ أبي طلحة عليهمُ البابَ، ووقفَ خالدُ بنُ الوليدِ على بابِ الكعبةِ يذُبُّ الناسَ فكبّر رَسُوْلُ الله ﷺ في نَواحِي البيتِ، ثمّ صلّى بها ركعتين بينَ العمودين اليمانيين المقدمين، وكان بينه وبين الجدار ثلاثة أذرع. قال ابن عمر رضي الله عنهما: فلمّا فتحوا كنتُ أوّلَ مَن وَلَجَ، فلقيت بلالاً، فسألته: هل صلّى فيه رَسُوْلُ الله ﷺ؟، فقال: نعم، وذهبَ عنّي أَنْ أسْأَلَه كَمْ صَلّى؟.

وكانتْ صلاتُه ﷺ في الكعبةِ بعدَ أَنْ محَى من جُدرَانِها الصُّورَ. فعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما، قال: دخلتُ مع النّبيِّ ﷺ في الكعبة فرَأى صُوراً، فدعا بدلوٍ مِن ماءٍ فأتيتُه بِهِ، فجعَلَ رَسُوْلُ الله ﷺ يَمْحُوها، ثمّ دَعَا بزَعْفَرَان فلَطَّخَ به موضع تلك التّماثيل والصّور. وكان في تلك الصور: صورةُ حمامَة من عِيدان، وصورةُ إبراهيمَ وإسمعيلَ عليهما الصّلاةُ والسّلامُ، وفي أيديهما الأزلام، وهما يَسْتَقْسِمَانِ بها، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «قَاتَلَ اللهُ قَوْماً يُصَوِّرُونَ مَا لَا يَخْلُقونَ، قَاتَلَهُمُ الله، لَقَدْ عَلِمُوا أَنّهما لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِالأَزْلَامِ قَطّ»، ثم قرأ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ثمّ خرجَ ﷺ فوقفَ عَلَى بَابِ الكَعْبَة، ووضعَ يدَه على عُضَادَتَي

البَاب، وقد اصْطَفّتْ قريشٌ في المسجد صُفوفاً، ينتظرونَ ما ذا سَيَأْمُرُ فيهم، فَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا كُلّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدَّعَى فَهُوَ تَحْت قَدَمَيّ هَاتَيْنِ؛ إلّا سَدَانَةَ الْبَيْتِ وَسِقَايَةَ الحَاجّ»، ثم قال: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الجَاهِلِيّةِ وَتَعظّمَهَا بِالآبَاءِ، النّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ»، ثمّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]. ثُمّ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنّي فَاعِلٌ فِيكُمْ»؟، فقَالُوا: نَقُول خَيْراً ونَظُنُّ خَيْراً، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. فقَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطّلَقَاءُ». فخرجوا، كأنما نُشِرُوا مِنَ القُبورِ، ثم دخلوا بعد ذلك في الإسلام.

وكانَ النّبيُّ ﷺ استثنى جماعةً أمرَ بقَتلهم، وإِنْ وُجِدُوا مُتَعَلِّقِينَ بأَسْتَارِ الكعبة، وهم أَحَدُ عشر رجُلاً، وأربعُ نسوة، وهم: عبدُ الله بن أبي سَرْحٍ، وعكرمةُ بنُ أبي جهل، والْحُوَيْرِثُ بْنُ نُقَيْذٍ، ومَقِيسُ بنُ صبابة، وهَبّارُ بنُ الأسود، وكعبُ بنُ زهير، والحارثُ ابنُ هشام، وزهيرُ بن أميّة، وصَفوانُ بنُ أميّة، وزهيرُ بن أبي سلمى، ووحشيُّ بنُ حَرْبٍ، وعبدُ الله بنُ خَطَلٍ، وقَينَتَاه، وهِندُ بنتُ عتبة، وسَارةُ الحاملة لكتابِ حَاطِبِ بن أبي بَلْتَعَةَ.

وإنّما أمرَ ﷺ بقتل عبدِ الله بن أبي سَرْحٍ، لأنه كانَ قد أسلمَ قبل الفتح، وكان يكتبُ لرَسُوْلِ الله ﷺ الوَحيَ، وكان ﷺ إذا أملى عليه: سميعاً بصيراً، كتب: عليماً حكيماً، وإذا أملى عليه: حكيماً، كتب: غفوراً رحيماً، وكان يفعلُ مثل هذه الخيانات، حتّى صدرَ عنه أنه قالَ: إنَّ محمَّداً لا يعلمُ ما

يقولُ ، فلمّا ظَهَرَتْ خِيانَتُه لم يستطعْ أَنْ يُقِيمَ بالمدينةِ ، فارْتَدَّ وهَرَبَ إلى مَكَّةَ . وقيل إنه لما كتب: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ، تعَجّبَ من تفْصِيل خَلْقِ الإنسانِ ، فنطقَ بقولِه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ، قبل إملائِه ، فقال له رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اكْتُبْ ذَلِكَ ، هَكَذَا أُنْزِلَتْ» ، فقالَ عبدُ الله بنُ أبي سَرْح: إنْ كانَ محمَّدٌ نبيّاً يُوحَى إليه فأَنا نبيٌّ يوحَى إليَّ ، وارْتَدّ فلَحِقَ بمَكَّةَ .

فلما كان يوم الفتح وعَلِمَ بإهْدَارِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدَمِهِ ، لجأَ إلى عثمانَ بنِ عفّان أخيه من الرّضاعة ، فقال له: يا أخي اسْتَأْمِنْ لي رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قبل أَنْ يُضْرَبَ عُنُقِي ، فغَيّبه عثمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حتّى هَدَأَ النّاسُ واطمَأَنوا ، فاسْتَأْمَنَ له ، ثمّ أتى به إلى النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأعرَضَ عنه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فصَارَ عثمانُ يقول: يا رَسُولَ الله أَمّنْتُهُ ، والنّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْرِضُ عنه ، ثمّ بَسَطَ يدَه فبايَعَهُ ، فلمّا خرجَ عثمانُ وعبدُ الله بن أبي سَرْح ، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن كان حولَه: «أَعْرَضْتُ عَنْهُ مِرَاراً ، لِيَقُومَ إِلَيهِ بَعْضُكُم فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ» ، ثم التفتَ إلى عبَّادِ بن بشْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وكانَ قد نذَرَ إنْ رَأى عبدَ الله أَنْ يَقْتُلَه ، وقد أَخَذَ بِقَائِمِ السَّيفِ ينتظرُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُشِيرَ إليه بقَتْلِه ، فقالَ له النّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْتَظَرْتُكَ أَنْ تَفِي بِنَذْرِكَ» ، قال: يا رسُولَ الله ، خِفْتُكَ ، أفلا أَوْمَضْتَ إِليَّ ، فقالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبيٍّ أَنْ يُومِضَ» ، وفي رواية: «الإِيمَاءُ خِيَانَةٌ لَيسَ لِنَبيٍّ أَنْ يُومِيءَ» . وصارَ عبدُ الله يستحِي مِن مُقَابَلَةِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعُثمانَ: «أَمَا بَايَعْتُه وَأَمّنْتُه» ؟ ، قال: بلى ، ولكِنْ يذكرُ جُرْمَه القديم فيسْتَحِي منك ، فقال: «الإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ» ، فأخبرَه عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بذلك ، ومع ذلك فقد كان إذا جاءَ جماعةٌ للنّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



يجيءُ معهم، ولا يجيءُ إليه مُنفَرِداً.

وإنّما أمرَ ﷺ بقتل ابنِ خَطَل لأنه كانَ ممّن أسلمَ، وقدمَ المدينة قبل فتح مَكَّةَ، وكان اسمُه عبدُ العُزَّى، فسمّاه رَسُوْلُ الله ﷺ عبدَ الله، وبعثَه النبيُّ ﷺ لأَخْذِ الصَّدقات من بعضِ القبائِل، وأرسلَ معه رَجُلاً مِن الأنصار يخدُمُه، فنزلَ مَنْزِلاً وأمرَه أَنْ يذْبحَ له تَيساً، ويصْنعَ له طعاماً، ثمّ نامَ، فلمّا استيقظَ ووجَدَه لم يَصْنعْ له شيئاً عَدَا على ذلك الأنصاري فقتلَه وهوَ نَائِمٌ، ثمّ ارتدَّ مشركاً إلى مَكَّةَ، وكان شاعراً يهجو رَسُوْلَ الله ﷺ في شِعْرِه، وكانت له قَينَتَانِ تُغَنّيانِهِ بهجَاءِ النبيِّ ﷺ الذى يصنَعُه لهما. فلما كانَ يوم فتح مكَّةَ ركبَ فرَسَه ولبسَ دِرْعَه وأَخذَ بيده قَناةً، وصارَ يقسِمُ لا يدخلُها محمَّدٌ عُنْوَةً، فلما رأى خيلَ الله دخلَه الرُّعبُ، فانطلقَ إلى الكَعْبَةِ، فنَزلَ عَن فَرَسِه وأَلقى سِلاَحَه، ودخل تحتَ أَسْتَارِهَا فأَخَذَ رَجُلٌ سِلاَحَه، ورَكِبَ فرَسَه، ولحقَ برَسُوْلِ الله ﷺ بالحجُون، وأخبرَه خبرَه، فأَمرَه بقَتْلِه، وقال: «إِنَّ الكَعْبَةَ لَا تُعِيذُ عَاصِياً، وَلَا تَمْنَعُ مِنْ إِقَامَةِ حَدٍّ وَاجِبٍ»، وأمرَ ﷺ بقتل قَينَتَيهِ، فقُتِلَتْ إحدَاهما واسْتُؤْمِنَ رَسُوْلُ الله ﷺ للأخرى فأَمَّنها وَأَسْلَمت.

وأَمّا الْحُوَيْرِثُ بْنُ نُقَيْذٍ، فإنّما أمرَ ﷺ بقتله لأنه كانَ يؤذِي رَسُوْلَ الله ﷺ بمَكَّةَ، ويُعْظِمُ القَولَ في أَذِيّتِهِ، ويُنْشِدُ الهِجَاءَ فيه ﷺ، وكان العبّاسُ بنُ عبد المطلب رضي الله عنه قد حمَلَ فاطمةَ وأمّ كلثوم بنتي النبيِّ ﷺ من مَكَّةَ يريد بهما المدينة فنخسَ الحوَيْرِثُ البعيرَ الحامل لهما فرمَى بهما في الأرض، فقتلَه علِيُّ بنُ أبي طالب كَرَّمَ الله وَجْهَه في ذلك اليوم وقد كان خرجَ يُرِيدُ أَنْ يهربَ.

ومِقْيَسُ بنُ صُبَابَةَ إنّما أمرَ بقتله؛ لأنه كان قد أتى النبي ﷺ مُسْلماً طالباً لدِيةِ أخيه هشام بنِ صُبَابةَ رضي الله عنه، قتله رجلٌ من الأنصار في غَزْوَة ذِي قَرَدٍ خَطأً يظنّه من العدوِّ، فدفعَ له النبيُّ ﷺ دية أخيه، ثمّ إنَّهُ عَدا على الأنصاريّ قاتل أخيه فقتلَه بعد أَنْ أخَذَ دية أخيه، ثمّ لحق بمَكَّةَ مُرْتَدّاً، فقتله نُمَيْلَةُ بنُ عبدِ الله اللّيثي، بعدَ أَنْ أُخْبِرَ نُمِيْلَةُ بأَنّ مِقْيَساً مع جماعةٍ من كبار قريش يشربون الخمرَ، فذهب إليه فقتلَه، وذلك برَدْمِ بني جُمَح، وقيل: قُتِلَ وهو مُعَلّقٌ بأَسْتَارِ الكعبة.

وأما هَبَّارُ بنُ الأَسْوَد فإنّما أمرَ ﷺ بقتله لأنه كان عرضَ لزينبَ بنتِ رَسُوْلِ الله ﷺ في سُفهاء من قريشٍ، حين بعثَ بها زوجها أبو العاص إلى المدينة، فأهوَى إليها هَبَّارُ، ونَخَسَ بعيرَها، فسقطتْ مِن عَلَى الجمَل على صَخرةٍ، وقد كانت حَاملاً فأَلْقَتْ ما في بطنِها وأَهْرَقَتِ الدِّمَاءَ، ولم يَزَلْ بِها ذلك المَرَضُ حتى ماتت، فقال النبيُّ ﷺ: «وَإِنْ لَقِيتُمْ هَبَّاراً فَأَحْرِقُوهُ»، ثُمَّ قال: «إِنَّما يُعَذِّبُ بِالنَّارِ رَبُّ النَّارِ، إِنْ ظَفِرْتُمْ بِهِ فَاقْطَعُوا يَدَهُ وَرِجْلَهُ ثُمَّ اقْتُلُوهُ»، فلمْ يُوجَدْ يومَ الفَتح، فلمّا رجَعَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ جاءَ هَبَّارٌ رَافِعاً صَوتَه، وقالَ: يا محمَّدُ، أنا جِئْتُ مُقِرّاً بالإسلام، وأنا أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله وأَنّ محمّداً عبدُه ورسُولُه. ثمّ اعتذرَ إليه ﷺ، فبعدَ أَنْ وقفَ عليه قال له: السَّلامُ عليكَ يا نبيَّ الله، لقَدْ هَرَبْتُ منك في البِلَادِ، فأَرَدْتُ اللّحوقَ بالأَعْجَام، ثُمّ ذكَرْتُ عَائِدَتَك، وفَضْلَكَ في صَفْحِكَ عمَّنْ جَهِلَ عليك، وكنّا يا نبيَّ الله أهل شركٍ فهدانا الله بك وأنقذَنا بِكَ من الهلَكَةِ، فاصفحْ عن جهلي وعمّا كان مني، فإنّي مُقِرٌّ بِسُوءِ فعلي، مُعْتَرِفٌ بذَنبي، فقال النبيُّ ﷺ: «يَا هَبَّارُ، عَفَوتُ عَنْكَ،

وَقَدْ أَحسَنَ الله إِلَيْكَ حَيْثُ هَدَاكَ إِلَى الإِسْلَامِ، وَالإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ».

وأما عِكرِمَةُ بنُ أبي جهل، فإنّ النبيَّ ﷺ أمرَ بقتله لأنه كانَ أشدّ الناس هو وأبوه أذيّةً للنبيِّ ﷺ، وكانَ أشدّ النّاسِ على المسلمين، ولما بلَغَه أنَّ النبيَّ ﷺ أهْدَرَ دَمَهُ فرَّ يريدُ الذّهابَ إلى اليمن، فتَبِعَتْهُ امرأتُه أمُّ حكيم بنتُ الحارث بن هشام بعدَ أنْ أسْلَمَتْ، فوجَدَتْه في سَاحل البَحرِ يُرِيدُ أنْ يركبَ السّفينةَ، فرَدَّته، وقالت له: يا ابنَ عمّ، جئتكَ من عندِ أوصل النّاس، وأبرّ النّاس، وخيرِ النّاس، فلا تهلكْ نفسَك، فقدِ اسْتأمَنْتُ لك، فجاءَ معها، فقال: يا محمّدُ، هذه زوجتي أخبرتني أنك أَمَّنْتني، قال ﷺ: «صَدَقَتْ، إِنَّكَ آمِنٌ»، فقال عكرمة: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله وحده لا شريك له وأنك عبدُه ورسُولُه، وطأطأ رأسَه مِنَ الحياءِ، فقال له ﷺ: «يَا عِكْرِمَةُ مَا تَسْأَلُنِي شَيْئاً أَقْدِرُ عَلَيهِ إِلَّا أَعْطَيْتُكَهُ»، قال: استغفر لي كل عداوة عاديتكها، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعِكْرِمَةَ كُلَّ عَدَاوَةٍ عَادَانِيهَا أَوْ مَنْطِقٍ تَكَلَّمَ بِهِ». وقد كان ﷺ قال لأصحابه قبلَ أنْ يقدم عليه عكرمةُ بنُ أبي جهل رضي الله عنه: «يَأْتِيكُمْ عِكْرِمَةُ مُؤْمِناً فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ المَيِّتِ يُؤْذِي الحَيَّ وَلَا يَلْحَقُ المَيِّتَ، فَلَا تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤذُوا الأَحْيَاءَ». وكان عكرمةُ رضي الله عنه بعد ذلك من فُضَلاءِ الصحابة.

وأمّا سارةُ، فإنما أمر ﷺ بقتلها، لأنها كانت مغنيةً بمَكَّةَ، وكانت تغني بهِجَائِه ﷺ، وهي التي وُجِدَ معها كتابُ حَاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعَةَ، وقد استؤمن لها رَسُوْلُ الله ﷺ فأمّنها، فأسلمَتْ وحَسُنَ إسْلَامُها.

وأمّا الحارثُ بن هشام، وزهيرُ بن أمية، فاستجارا بأمّ هَانِئٍ بنت أبي طالب

أخت عليٍّ بنِ أبي طالب كَرَّمَ الله وَجْهَه، وكانت شقيقته ولم تكنْ أسلمَتْ إذْ ذاك، فأرادَ عليٌّ قتلهما فمنعَتْه. وعنها ﵂ قالت: لما نزلَ رَسُوْلُ الله ﷺ بأَعلى مَكَّةَ فرَّ إليَّ رَجُلانِ من أَحْمَائِي مُسْتَجِيرَيْنِ بي، فأجرْتُهما، فدخلَ عليَّ أخي عِليُّ بنُ أبي طالب فقال: والله لأقتلَنّهما، وقالَ: أتجيري المشركين؟، فحُلْتُ بينه وبينهما، فخرَج، فأغلقتُ عليهما بيتي، ثم جئتُ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ بأَعلى مَكَّةَ، فوَجَدته يغتسلُ من جَفْنةٍ فيها أثرُ العجين، وفاطمةُ ابنته تَسْتُره بثوبٍ، فسَلّمْتُ عليه، فقال: «مَنْ هَذِهِ»؟، فقلتُ: أمّ هانئٍ، فقال: «مَرْحَباً بِأُمِّ هَانِيء»، فلمّا اغتسلَ، أَخَذ ثَوبَه وتَوَشَّحَ به، ثم صَلّى ثماني ركعاتٍ من الضُّحَى، ثم أقبل عليَّ، فقال: «مَا جَاءَ بِكِ»؟، فأخبرته بخَبَرِهما، فقال: «أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ، وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ، فَلَا نَقْتُلُهُما». وقد أسلَمَت أمّ هانئ في ذلك اليوم، فقال لها ﷺ: «هَلْ عِنْدَكِ مِنْ طَعَامٍ نَأْكُلُهُ»؟، قالت: ليسَ عندي إلا كِسَرٌ يابِسَةٌ، وأنا أستحي أنْ أُقَدِّمها إليك، فقال: «هَلُمِّي بِهِنَّ»، فكَسّرَهُنَّ في ماءٍ، وجاءَت بملح فقال: «هَلْ مِنْ إِدَام»، فَقَالَتْ: ما عندي يا رسولَ الله إلا شيءٌ مِن خَلٍّ، فقال: «هَلُمِّيهِ»، فَصَبَّهُ عَلَى الكِسَر، ثم أكل منه، ثم حمد الله، وقال: «نِعْمَ الإِدَامُ الخَلّ، يَا أُمَّ هَانِئٍ، لَا يَفْقَرُ بَيْتٌ فِيهِ خَلٌّ».

وعن الحارثِ بن هشام قال: لما أجارتني أمّ هانئ، وأَجَازَ رَسُوْلُ الله ﷺ جِوَارَها صارَ لا أحد يتعرّض لي، وما كنتُ أخشى إلّا من عمرَ بنِ الخطاب، فمرَّ عَليَّ وأنا جالسٌ، فلم يتعرّض لي، وكنت أستحي أَنْ يراني رَسُوْلُ الله ﷺ لما أُذَكِّرُ برُؤْيَته إِيّايَ أني كنت في كلّ موطن مع المشركين، فلقيتُه ﷺ وهو داخل المسجد، فلَقِيَني بالبِشْر، ووقفَ لي حتّى جِئتُه، فسلّمْتُ

عليه، وشَهِدتُ شهادةَ الحقّ، فقال: «الحَمْدُ لله الذِي هَدَاكَ، مَا كَانَ مِثْلُكَ يَجْهَلُ الإِسْلَامَ».

وأما صَفْوانُ بنُ أميّة فاسْتَأمنَ له عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ الجُمَحِيُّ، فإنّه قال للنبيِّ ﷺ: يا نبيّ الله، إنّ صفوانَ سيّد قومي قد هَرَبَ ليقذِفَ نفسَه في البحر، فَأَمِّنْهُ فإنّك أَمّنْتَ الأحمرَ والأسْوَدَ!، فقال ﷺ: «أَدْرِكْ ابنَ عَمِّكَ فَهُوَ آمِنٌ»، فقال: أَعطِني آيةً يعرِفُ بها أمانك، فأعطاه ﷺ عِمَامَتَهُ التي دخل بها مَكَّةَ، فلَحِقَه عُمَيرٌ وهو يريدُ أَنْ يركبَ البحرَ فرَدَّه، فقال له صَفوانُ: ابعدْ عَنّي لَا تُكَلّمْني، فقال عميرٌ: جئتكَ من عند أفضَلِ الناس، وأبرّ النّاس، وأحلَمِ النّاس، وخيرِ النّاس، وهوَ ابنُ عمِّك، وعِزُّه عِزّك، وشَرَفُه شَرَفُك، وملكه ملكك، فقال: إنّي أخافه على نفسي، قال: هو أَحلمُ من ذلك، وأَكرَمُ، فقال: لا أعودُ معك إلّا أَنْ تأتيني بعلامةٍ منه أعرفُها، فأعطاه عِمَامَةَ النبيِّ ﷺ، فرجعَ معه حتّى وقفَ على رَسُوْلِ الله ﷺ وقال: إِنَّ هَذا يزْعُمُ أنكَ أَمّنْتَني، فقال ﷺ: «صَدَقَ»، ثم عرضَ عليه الإسلامَ، فقال: يا رسولَ الله أمهلني بالخِيارِ شهرين، فقال ﷺ: «أَنْتَ بِالخِيَارِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ»، ثُمَّ خرَجَ معَ النبيِّ ﷺ إلى حُنَين، ولما فرّقَ رَسُوْلُ الله ﷺ غَنَائِمَهَا رَآه رَسُوْلُ الله ﷺ يَرْمُقُ شِعْباً مَلآناً نَعماً وشَاءً، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «يُعْجِبُكَ هَذَا»؟، قال: نعم، فقال: «هُوَ لَكَ وَمَا فِيْهِ»، فقبضَ صَفوانُ جميعَ ما في ذلك الشّعبِ، ثم قال: مَا طَابَتْ نفسُ أحَدٍ بمثلِ هَذا إلا نفسَ نَبيٍّ. ثمّ أَسْلَمَ.

وأما هند امرأة أبي سُفْيَان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما؛ فإنّها أسلمتْ بعد، وإنّما أمرَ ﷺ بقتلها لأنها مَثّلت بعَمِّه حمْزَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يوم أُحُدٍ ولَاكَتْ



قلبَه كما تقدّم.

وأمّا كعبُ بن زهير رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه فإنّه أسلم بَعْدُ، وإنّما أمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتله لأنه كان ممّن يهجو رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكذا وَحْشِيّ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه؛ فإنه أسلم بعد، وإنّما أمر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتله لأنه قتل عمه حمزة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يوم أُحُدٍ، وكانتِ الصّحابةُ أحرَص شيءٍ على قَتْله، فَفَرَّ إلى الطّائِفِ، وقد قدّمنا ذكرَ إِسْلَامِه.

وأرْسَلَ سُهَيلُ بنُ عمرو رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه ولدَه عبدَ الله ليأخذَ له أماناً منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ الله، أَتُؤَمِّنُ أَبي؟، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ، هُوَ آمِنٌ بِالله فَلْيَظْهَرْ»، ثُمَّ قال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن حوْلَه: «مَنْ لَقِيَ سُهَيلَ بْنَ عَمْرٍو فَلَا يُحِدَّ إِلَيهِ النَّظَرَ، فَلَعَمْرِي إِنَّ سُهَيلاً لَهُ عَقْلٌ وَشَرَفٌ، وَمَا مِثْلُ سُهَيلٍ يَجْهَلُ الإِسْلَامَ»، فخرجَ ابنُه عبدُ الله إليه، فأخبرَه بمَقالَةِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال سهيلٌ: كَانَ والله بَرّاً صغيراً برّاً كبيراً، وبقيَ سهيلٌ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه يُقْبِلُ ويُدْبِرُ وهوَ على شِرْكِه، ثمّ لما خرجَ إلى حُنَينٍ معَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسلمَ بالْجِعِرّانَة.

ثُمَّ إِنَّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءَ إلى مقام إبراهيم، وكان لاصقاً بالكعبةِ، فصلّى عنده ركعتين، ثم أخره على ما هو عليه اليوم، ثم انصرفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ماءِ زمزم فاطّلَعَ فيه، وقال: «لَوْلَا أَنْ تُغْلَبَ بَنُو عَبْدِ المطَّلِبِ لَنَزَعْتُ مِنْهَا دَلْواً»، فلمْ ينزعْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها؛ خشيةَ أَنْ يَغْلِبَهم النّاسُ على وظيفَتِهم وهيَ النّزعُ من زمزم، فإنّ الناسَ يقتدونَ به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، لأنّ النزعَ من وظيفةِ بني عبدِ المطّلب، فانتزعَ له العبّاسُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه دَلْواً، فشَرِبَ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وتوَضّأ، فابْتَدَرَ المسلمون؛ فلا تسقطُ قطرةٌ من وضوئِه إلّا في يدِ إنسانٍ، فإنْ كانَ قَدْرَ مَا يُشْرَبُ شَرِبَهَا، وإلا مسحَ بها جِلْدَه، فلمّا رأى المشركونَ ذلك جعلوا يقولون: ما رأينا ولا سَمِعْنَا مَلِكاً قَطُّ بلغَ هذا.

ثمّ جلسَ ﷺ في المسجد، ومفتاحُ الكعبة في يدِه أو في كُمِّه، فتطاولَ العبّاسُ رضي الله عنه يومئذٍ لأخذِ المفتاح، وكذا رجالٌ مِن بني هاشم، ومنهم عَليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه، فإنّه قامَ فقال: يا رَسُولَ الله، اجمعْ لنا الحِجَابَةَ مع السّقاية، فنزلَ عليه ﷺ قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فقالَ رَسُوْلُ الله ﷺ لهم: «إِنّما أُعْطِيكُم مَا تَبْذُلُونَ فِيْهِ أَمْوَالَكُمْ لِلنَّاسِ، لَا مَا تَأْخُذُونَ فِيهِ مِنَ النَّاسِ أَمْوَالَهُمْ»، ثُمَّ قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَيْنَ عُثْمَانُ بنَ طَلْحَةَ» فجاءَ، فقال له النّبيُّ ﷺ: «اليَومُ يَومُ بِرٍّ وَوَفَاءٍ، هَاكَ مِفْتَاحُكَ يَا عُثْمانُ، خُذُوهَا يَا بَنِي طَلْحَةَ، خَالِدَةً تَالِدَةً، لَا يِنْزِعُهَا مِنْكُم إلّا ظَالِمٌ»، وفي رواية: «إِنَّ الله رَضِيَ لَكُمْ بِهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلَامِ، وَإِنّي لم أَدْفَعْهَا إِلَيكُمْ، وَلَكِنَّ الله دَفَعهَا إِلَيْكُمْ، يَا عُثْمَانُ؛ إِنَّ اللهَ اسْتَأْمَنكُمْ عَلَى بَيتِهِ، فكُلُوا ممَّا يَصِلُ إِلَيكُمْ مِنْ هَذَا البَيْتِ بِالمَعْرُوفِ».

قال عثمانُ رضي الله عنه: فلمّا وَلّيتُ ناداني، فرجعتُ إليه، فقالَ: «أَلَمْ يَكُنْ الذِي قُلْتُ لَكَ»؟، قال عثمانُ: فذكرتُ قولَه ﷺ لي بمَكَّةَ قبل الهجرة، وقد كان أرادَ أنْ يدخلَ الكعبةَ مع النّاس، وكنّا نفتحُها في الجاهليّة يومَ الاثنين والخميس، فلمّا أقبل ليدخلَها أغلقتُ عليه، ونِلْتُ مِنْهُ، فَحَلُمَ عَليَّ، ثمّ قال: «يَا عُثْمانُ؛ لَعَلّكَ سَتَرى هَذَا المِفْتَاحَ يوماً بِيَدِي أَضَعهُ حَيثُ شِئْتُ»، فقلتُ له: قد هَلَكَتْ قريشٌ يومئذٍ وذَلّتْ، فقال ﷺ: «بلْ عَمَرَتْ وَعَزَّتْ يَوَمَئِذٍ»،

فوقَعَتْ كَلِمَتُه منّي موقعاً وظننتُ أنّ الأمرَ سيصيرُ إلى ما قاله ﷺ، فلمّا قال لي يوم الفتح ذلك، قلتُ: بَلَى أَشهدُ أنك رَسُولُ الله.

ولما جلسَ رَسُوْلُ الله ﷺ في المسجدِ والنّاس حوله، خرجَ أبو بكر من بينهم، فجاءَ بأبيه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما يَقُودُه، وقد كانَ كُفَّ بصرُه، فلما رآه ﷺ قال: «هَلّا تَرَكْتَ الشَّيخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا آتِيهِ»، فقال أبو بكر: يا رَسُولَ الله، هو أحقّ أن يَمْشي إليك مَن أنْ تمشي أنتَ إليه، ثم أجلسَه بينَ يَدَي رَسُوْلِ الله ﷺ، فمسحَ رَسُوْلُ الله ﷺ صدْرَه وقال: «أَسْلِمْ تَسْلَم»، فأسلمَ رضي الله عنه، وهنأَ رَسُوْلُ الله ﷺ أبا بكرٍ بإسلامِ أبيه رضي الله عنهما، فقال أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه للنبيِّ ﷺ: والذي بعثك بالحق لَإِسْلَامُ أبي طالبٍ كان أَقرَّ لعَيني من إسلامِ أبي قُحَافَة، وذلك لأنّ إسلامَ أبي طالب كانَ أقرَّ لعَينك، وقد كانَ رأسُ أبي قحافة ولحيته بيضاء كالثَّغَامَة ـ وهي شَجرةٌ بيضَاء يَشبَّهُ بها الشَّيب ـ، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «غَيِّروا شَيبَهُ وَجَنِّبوهُ السَّوَادَ».

ثم أتى رَسُوْلُ الله ﷺ الصَّفا، فعلاهُ بحيثُ ينظرُ إلى البيتِ، ورفعَ يديه، فجعلَ يدعو اللهَ، ويذكره بما شاءَ أَنْ يذكرَه، وكانَتِ الأنصارُ تحته، فقال بعضُهم لبَعضٍ: أَمّا رَسُوْلُ الله ﷺ فقد أَدْرَكَتْهُ رَغْبةٌ في قَرِيتِه وَرَأْفةٌ بعَشِيرَتِه، فنزلَ الوَحْيُ عليه ﷺ بما ذكرَ القومُ، فلمّا قُضِيَ الوَحيُ رفعَ ﷺ رأسَه، وقال: «يَا مَعْشَرَ الأَنصَارِ، قُلْتُم: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرِيَتِهِ وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ»؟، فقالوا: قد قلنا ذلك يا رسولَ الله، قال ﷺ: «كَلَّا ؛ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ، إِنّي عَبْدُ الله وَرَسُولُه، هَاجَرْتُ إِلَى الله وَإِلَيكُمْ، فَالمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالممَاتُ مَمَاتكُمْ»، فأقبلوا إليهِ ﷺ يبكون، ويقولون: والله ما قُلْنَا الذي

قُلْنا إلّا الضَّنَّ بالله وبرَسُولِه ﷺ، لا نَسْمَحُ أَنْ يكونَ رَسُوْلُ الله ﷺ في غيرِ بلدتنا ـ يعنون المدينةَ ـ، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «فَإِنَّ الله وَرَسُولَهُ يَعْذِرَانِكُم وَيُصَدِّقَانِكُم».

ثمّ جلسَ رَسُوْلُ الله ﷺ على الصفا يبايعُ الناسَ فجاءَه الكِبَارُ والصّغار والرّجالُ والنّساءُ يبايعُهم على الإسلام، ودخلَ النّاسُ في دين الله أفواجا أفواجاً. وجاءَه ﷺ رَجُلٌ فأخَذَتْه الرّعْدَةُ لما رأى النبيَّ ﷺ، فقال له النبيُّ ﷺ: «هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّما أَنَا مِنْ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيْدَ بِمَكَّةَ». وكان من جُمْلةِ من بايَعه النبيُّ ﷺ على الإسلام مُعَاوِيَةُ بنُ أبي سُفْيان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، وعنه رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه قال: لما كانَ عامُ الحُدَيْبِيَة وقعَ الإسْلامُ في قلبي، فذكرْتُ ذلك لِأمّي، فَقَالَتْ: إيّاك أَنْ تُخَالِفَ فيُقْطَعَ عنك القُوتُ، فأَسْلَمْتُ، وأَخْفَيتُ إِسْلَامي، فقال لي أبو سُفْيَان يوماً وكأنه شَعرَ بإسلامي: أخوكَ خيرٌ منك، هوَ على ديني. فلمّا كانَ عام الفتح أظهَرْتُ إسلامي، ولقيتُ النّبيَّ ﷺ فرَحَّبَ بي، وكَتَبْتُ له، بعدَ أنْ اسْتَشَارَ فيَّ جبريلَ عليه السلام، فقال: اسْتَكْتِبْهُ فإنّهُ أَمِينٌ.

ثُمّ قال ﷺ لعمِّه العبّاس: «أَيْنَ ابنَا أَخِيْك؛ لَا أَرَاهُمَا»؟، يعني: عُتْبَةَ، ومُعَتِّبَ ابنا أبي لهبٍ، فقال العبّاسُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه: يا رسولَ الله، قد تنحيا فيمَن تنحّى من مشركي قريش، فقال: «ائْتِنِي بِهِمَا». قال العبّاسُ: فركبتُ إليهما، فأتيت بهما، فدعاهما للإسلام، فأسلما، فَسُرَّ رَسُوْلُ الله ﷺ بإسْلَامِهما، ودعَا لهما، ثمّ قام ﷺ، وأخذ بأيديهما، وانطلقَ بهما حتى أتى الملتزم، فدعا ساعةً، ثم انصرفَ والسّرورُ يُرَى في وجْهه

صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقلتُ له: سَرَّكَ الله يا رسُولَ الله، إني أرى فيك سُروراً، فقال: «إنّي اسْتَوْهَبْتُ ابنَي عَمّي هَذَينِ مِنْ رَبّي فَوَهَبَهُما لِي». وقد شهدا معه حنيناً والطّائفَ. ولم يخرجا من مَكَّةَ، ولم يأتيا المدينة، وقُلِعَت عينُ مُعَتِّبٍ في حنين.

ولما فرغَ رَسُوْلُ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِن بيعةِ الرِّجال بايعَ النّساءَ، وكان فيهنّ هند بنت عتبة امرأةُ أبي سُفْيَان، وكانت مُتَنَقِّبَةً مُتنكّرة خوفاً من رَسُوْلِ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلما دنين من رَسُوْلِ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لهنّ: «بَايَعْنَنِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكْنَ بِالله شَيئاً، وَلَا تَسْرِقْنَ، وَلَا تَزْنِينَ، وَلَا تَقْتُلْنَ أَوْلَادكُنَّ، وَلَا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ تَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُنّ وَأَرْجُلِكُنَّ، وَلَا تَعْصِينَ فِي مَعْرُوفٍ». فَقَالَتْ بعضُ النّسْوةِ: ما هو هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أنْ نعْصِيَك فيه؟، قال: «لَا تَنُحْنَ، وَلَا تَخْمِشْنَ وَجْهاً، وَلَا تَنْشُرْنَ شَعْراً، وَلَا تَشْقُقْنَ جَيْباً، وَلَا تَدْعِينَ بِالوَيل». فَقَالَتْ هِندٌ له صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إنّكَ لتأخذُ علينا ما لا تأخذُه على الرِّجَال. لأنه صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يبايعُ الرّجالَ على الإسلام والجهاد فقط. ولما قال لهُنَّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَلَا تَسْرِقْنَ»، قالت: والله إنّي كنتُ أصيبُ مِن مالِ أبي سُفْيَان، وما كنتُ أدري أكانَ ذلك حلالاً أم لا؟، فقال أبو سُفْيَان وكان حاضراً: أمّا مَا أَصَبْتِ فيما مضى فأنتِ منه في حِلّ، عفَا الله عنكِ، فضَحِكَ النّبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وعرَفَها، فقالَ: «وَإِنَّكِ لهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ»؟، قالت: نعم، فاعْفُ عمَّا سَلَفَ، عفا الله عنك يا نبيَّ الله، فلمّا قال صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَلَا تَزْنِينَ»، قالت: أَوَ تزني الحرَّةُ يا رسولَ الله؟، ولما قال صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَلَا تَقْتُلْنَ أَوْلَادكُنَّ»، قالت: رَبّيناهُم صِغَاراً وقَتَلتُمُوهم كباراً، فتبسم صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وضحكَ عمرُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنه، ولما قال صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَلَا تَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ»، قالت: والله إنّ إتيانَ البُهتان لقبيحٌ، وما تأمرنا إلا بالرّشْدِ ومكارم

الأخلاق، ولما قال ﷺ: «وَلَا تَعْصِينَ فِي مَعْرُوفٍ»، قالت: والله ما جَلَسْنا مجْلِسَنا هذا وفي أنفُسِنا أَنْ نعصِيَك.

ثمّ إنّها أرسلَتْ إليه ﷺ بهَدِيّةٍ، وهيَ جِدْيَانِ مشْوِيّانِ، مع مَولاةٍ لها، فاستأذنَتْ، فأَذِنَ لها، فدخلَتْ عليه ﷺ، وهو بينَ نسائه أمّ سلمة، وميمونة، ونساءٍ من بني عبد المطّلب، فَقَالَتْ له: إنّ مولاتي تعتذرُ إليك وتقولُ: إنّ غنمَها اليومَ لقَليل الوَلادَة، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي غَنَمِهِمْ وَأَكْثِرْ وِلادَتَها»، قالت المولاة: فكَثَّرَ الله ذلك، حتى لقد رأينا مِن كثرةِ غنمنا وولاداتها ما لم نكن نرى قبل. ثم جاءَت إليه، وقالتْ: يا رسولَ الله، إنّ أبا سُفْيَان رجلٌ شَحِيحٌ مُمْسِكٌ، وليسَ يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذتُ منه وهو لا يعلمُ، فهَلْ عليَّ من حرَج أَنْ أُطْعِمَ مِنَ الذِي له عيَالَنا؟، فقال لها: «لَا عَلَيْكِ، خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالمعْرُوفِ».

وكانت بيعةُ رَسُوْلِ الله ﷺ للنّساءِ بالكلام من غير مُصَافَحَةٍ، وعن عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها قالت: (لم يصافحْ رَسُوْلُ الله ﷺ امرأةً قطّ، وإنما كان يُبايعُهُنّ بالكلام). وقيل: بايعهنّ وكان على يدِه ثوبٌ.

ولما جاءَ وقتُ صلاة الظّهر أمر رَسُوْلُ الله ﷺ بلالاً أنْ يُؤَذّنَ على ظَهرِ الكَعْبَةِ، فصَعدَ رضي الله عنه فأذّنَ، فأغَاظَ صُعودُه على ظَهرِ الكَعْبَةِ بعضَ مَن كانَ لازَالَ على الشِّرْك، وكانَ بفناءِ الكَعْبَةِ جمعٌ منهم جلُوسٌ، وكانَ فيهم: أبو سُفْيَان، وعَتّابُ بنُ أَسِيدٍ، والحارِثُ بنُ هشام، فقالَ عَتّابُ بْنُ أَسِيدٍ: لقَد أكرمَ الله أَسِيداً أنْ لا يسمع هذا العبدَ، فيسمع منه ما يغيظه. وقال الحارثُ: أما والله

لو أعلمُ أنه حَقّ لاتّبَعْتُه. وقال آخرُ: أما وَجَد محمّدٌ غيرَ هذا الغُرَابِ الأسود مُؤَذّناً!. وقال بعضُهم: هذا والله الحدَثُ العظيم؛ أَنْ يُصْبحَ عبدُ بَنِي جُمَحٍ يَنْهقُ على البَيت. وقال آخر: لقد أكرَمَ الله فلاناً ـ يعني أباه ـ إذْ قبضَه قبل أَنْ يرى هذا الأسودَ على ظهرِ الكعبةِ. فقال أبو سُفْيَان: أما أنا فلا أقولُ شيئاً، ولو تكلّمْتُ لأَخْبَرَتْ عنّي هَذِه الحصْبَاء، فخرجَ إليهم النبيُّ ﷺ فقال لهم: «لَقَدْ عَلِمْتُ الذِي قُلْتُم»، ثم ذكر لهم ذلك، فقال: أما أنت يا فلانُ فقد قلت كذا، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا، فقال أبو سُفْيَان: أما أنا يا رسول الله فما قلت شيئا، فضَحِكَ رسُولُ الله ﷺ، فقال الآخرون: نشهدُ أنك رَسُولُ الله، والله ما اطلع على هذا أحدٌ معنا فنقولُ أنه أَخبَرَك.

ولما اطْمَأَنَّ النّاسُ نزلَ رَسُوْلُ الله ﷺ بالحجُون، في الموضع الذي غَرَزَ به الزبير رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه رايته ﷺ، عند شِعبِ أبي طالب الذي حُصِرَتْ فيه بنو هاشم وبنو المطلب قبل الهجرة، بقُبَّةٍ مِنْ أُدُمٍ نُصِبتْ له هناك، ومعه فيها أمُّ سَلَمَة، وميمونة، زوجتاه ﷺ ورَضِيَ عنهما. وعن جابر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: لمّا رأى رَسُوْلُ الله ﷺ بيوتَ مَكَّةَ وَقَفَ، فحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم نظرَ إلى موضِعَ قُبّتِه، وقال: «هَذَا مَنْزِلُنا يَا جَابِرُ، حَيْثُ تَقَاسَمَتْ قُرَيشٌ عَلَينَا»، وقال له أُسامةُ بنُ زيدٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما: يا رسولَ الله، أَتنْزِلُ في دَارِكَ؟، فقال: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ دَارٍ»؟، فكان ﷺ يأتي المسْجِدَ مِنَ الحجون لكلّ صَلاةٍ في مُدّةَ إقامته هناك. وأقام ﷺ بمَكَّةَ بعد فتحها ثمانية عشر يوماً، يَقْصُرُ الصّلاةَ مُدّةَ إقامَتِه.

وذُكِرَ أَنّ فَضَالَةَ بنَ عُمَيْرِ بنِ المُلَوّحِ اللّيْثِيّ أَرَادَ قَتْلَ النّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ

يَطُوفُ بِالبَيْتِ في عَامَ الفَتْحِ فَلَمّا دَنا مِنْهُ، قَالَ له رَسُولُ الله ﷺ: «أَفَضَالَةُ»؟، فقَالَ فَضَالَةُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «مَاذَا كُنْت تُحَدّثُ بِهِ نَفْسَك»؟، فقَالَ: لَا شَيْءَ، كُنْت أَذْكُرُ الله، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمّ قَالَ: «اسْتَغْفِرْ الله»، ثُمّ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ فَسَكَنَ قَلْبُهُ، ثم أسلَمَ، فكَانَ فَضَالَةُ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: وَالله مَا رَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ عَنْ صَدْرِي حَتّى مَا مِنْ خَلْقِ الله شَيْءٌ أَحَبّ إلَيّ مِنْهُ.

ولما كان الغَدُ من يوم الفتح عَدَتْ خُزاعَةُ على رجُلٍ من هُذَيل فقتلوه وهو مُشْرِكٌ، فقام رَسُوْلُ الله ﷺ خَطِيباً بعد الظّهر، فأسندَ ظهرَه الشريفَ إلى الكعبةِ، وقيل: كان على راحلَتِه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أَيُّها النَّاسُ، إِنَّ الله تَعَالَى قَدْ حَرَمَ مَكَّةَ يَومَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَيَومَ خَلَقَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ، وَوَضَعَ هَذَينِ الجبَلَينِ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى يومِ القِيَامَةِ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَومِ الآخِرِ أَنْ يَسفِكَ فِيهَا دَماً، وَلَا يَعْضُدَ فِيهَا شَجَرَةً، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ يَكُونُ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةَ غَضَباً عَلَى أَهْلِهَا، أَلَا وقَدْ رَجَعَتْ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، فَلْيُبَلّغْ الشّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ، فَمَنْ قَالَ لَكُمْ: إنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ قَاتَلَ فِيهَا، فَقُولُوا: إنّ الله قَدْ أَحَلّهَا لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يُحْلِلْهَا لَكُمْ، يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ الْقَتْلِ فَلَقَدْ كَثُرَ الْقَتْلُ إنْ نَفَعَ لَقَدْ قَتَلْتُمْ قَتِيلًا لَأَدِيَنّهُ، فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النّظَرَيْنِ، إنْ شَاءُوا فَدَمُ قَاتِلِهِ، وَإِنْ شَاءُوا فَعَقْلُهُ»، ثم وَدَى رَسُولُ الله ﷺ ذَلِكَ الرّجُلَ الّذِي قَتَلَتْهُ خُزَاعَةُ.

وقال ﷺ يوم الفتح: «لَا تُغْزَى مَكَّةُ بَعْدَ اليومِ إِلَى يومِ القِيَامَةِ»، ثم

نادى مُنادِي رَسُوْلِ الله ﷺ بمَكَّةَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوم الآخِرِ فَلَا يَدَعُ في بَيْتِه صَنماً إلّا كَسَرَهُ»، فعمَدت هند بنت عتبة رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْها إلى صَنَم لها كان في بيتِها، فجعلَتْ تضرِبُه بالقَدّوم، وتقولُ: لقد كنّا منك في غرُور.

ثم بعثَ ﷺ السَّرَايا إلى كسرِ الأصنام التي حَوْل مَكَّةَ، لأنهم قد كانوا اتخذوا مع الكعبة أصناماً، وجعلوا لها بيوتاً يعظّمُونها كتعظيم الكعبة، وكانوا يُهْدُون لها كما يهدون للكعبة، ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة، فكان في كلِّ حيٍّ صَنمٌ، مِن ذلك كما تقدّم: العُزّى، وسُوَاع، ومَنَاة. وسيأتي الكلام على ذلك في السَّرَايا إن شاء الله تعالى. وترَكَ ﷺ مُعاذَ بنَ جبَل رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بمَكَّةَ معَهُ معَلّماً للنّاس السُّنَنَ والفِقْه.

واسْتَقْرَضَ ﷺ مِن ثَلاثَةِ نَفَرٍ من قريش، فأخذَ من صفوانَ بنِ أميّة خمسينَ ألفَ دِرهم. وأخذَ من عبد الله بن أبي ربيعة أربعينَ ألفَ دِرهم. وأخذَ من حُوَيطِبِ بنِ عبدِ العُزّى أربعينَ ألفَ دِرْهم، فرَّقَها ﷺ في أهل الضّعفِ من أصْحَابِه، ثم وفّاهم إيّاها مما غَنِمَه مِن هوَازِن، وقالَ: «إنّما جَزَاءُ السَّلَفِ الحمْدُ وَالأَدَاءُ».

وَولّى النبيُّ ﷺ عَتَّابَ بنَ أَسِيدٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه أَمرَ مَكَّةَ، وعمرُه إحدى وعشرون سنة، وقال له: «انْطَلِقْ، فَقَدْ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى أَهْلِ الله»، وأمرَه ﷺ أنْ يُصَلِّيَ بالنّاسِ، وهو أوّل أميرٍ صلى بمَكَّةَ بعد الفتح جمَاعةً، وكانَ ﷺ شديداً على المُرِيبِ لَيِّناً على المؤْمِن. وقال: والله لا أعلم مُتخلّفا يتخلّفُ عن الصّلاة في جمَاعةٍ إلا ضَرَبْتُ عنقه؛ فإنّه لا يتخلفُ عَنِ الصّلاةِ إلا مُنَافِقٌ.

فقال أهلُ مَكَّةَ: يا رَسُولَ الله، لقد استعملتَ على أهلِ الله عتَّابَ بنَ أَسِيدٍ؛ أَعْرَابياً جَافياً، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّي رَأيتُ فيمَا يَرَى النّائِمُ كَأَنَّ عَتَّابَ بنَ أَسِيدٍ أَتى بَابَ الجنَّةِ فَأَخَذَ بِحِلْقَةِ البَابِ فَقَلْقَلَهَا قِلْقَالاً شَدِيداً حَتَّى فُتِحَ لَهُ، فَدَخَلَهَا فَأَعَزَّ اللهُ بِهِ الإِسْلَامَ، فَنُصْرَتُه لِلْمُسْلِمينَ عَلَى مَنْ يُرِيدُ ظُلْمَهُمْ». ولما ولّاه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مَكَّةَ جعلَ له في كلّ يوم دِرْهماً، فكان رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه يقول: لا أشبعَ الله بطناً جاعَ على دِرْهم في كلّ يوم، لقد رزقني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِرْهماً في كلّ يوم، فليسَتْ لي حَاجةٌ إلى أَحَدٍ.

٢٨ ـ غَزْوَةُ حُنَين

وحُنَينٌ اسمٌ لموضع قريبٍ من الطائف، ويُقال لها: غَزْوَةُ هَوَازِن، ويُقال لها: غَزْوَةُ أَوْطَاس، باسم الموضع الذي كانت به الوقعة في آخر الأمر. وسببُ هذه الغزوَةِ: أنه لما فتح الله تعالى على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ، أطاعتْ له قبائِلُ العرب إلا هَوَازِنَ وثقيفاً، فإنّ أهلهما كانوا طُغَاةً عُتَاةً مَرَدَةً، فمشى أشْرَافُهم بعضُهم إلى بعضٍ، وقد خافوا أَنْ يغزُوَهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالوا: قد فرَغَ لنَا، فلا مانعَ له دوننا، والرّأي أَنْ نَغْزُوَه قبل أَنْ يغزوَنَا، فحشدوا وجمعوا، وبغوا فقالوا: والله إنَّ محمَّداً لاقى قوماً لا يُحْسِنُونَ القِتَالَ، فأجمعتْ هوازِنُ أمرَها، وكان جِمَاعُ أمرِهم إلى مَالكِ بنِ عَوفٍ النّصْرِي، فاجتمعَ إليه من القَبائِل جموعٌ كثيرة، وكان فيهم بنو سَعْدِ بنِ بَكْرٍ، وهم القبيلة التي كان رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَرْضَعاً فيها، وكانَ قائدَ ثَقِيفٍ ورَئيسَهم كِنَانةُ بنُ عبدِ يَالِيل، وحضَرَ معَهُم دُرَيْدُ بنُ الصَّمَّةِ، وكان رجُلاً شُجاعاً مُجرَّباً، ولكِنّه كان قد كبر وبلغَ من العمر

مائةً وعشرين سنة، وقد عَمِيَ وصار لا ينتفعُ إلا برَأيهِ ومعرفَتِه بالحرْبِ، لأنه كانَ صاحبَ رَأْيٍ وتدبيرٍ ومعْرِفَةٍ بالحروبِ، وقد كان قال لمالك: إنَّك تُقاتلُ رَجُلاً كَرِيماً قد أَوْطَأَ العَرَبَ، وخَافَتْهُ العَجَمُ، وأَجْلَى غالبَ يهُودِ الحِجَاز، إمّا قتلاً، وإما خروجا عن ذُلٍّ وصَغَار، فقال له مالكٌ: لنْ نُخَالِفَك في أمرٍ تَرَاه، وتَوَافَقَ معه على أَنْ لا يخالِفَه في أَمْرٍ.

وكانَ سِنُّ مالكِ بنِ عَوف إذْ ذَاكَ ثلاثينَ سنة، فأمرَ النّاسَ بأخْذِ جميع أموَالِهِم ونسائِهم وأبنائِهم معهم، فلمّا نَزَل بأَوْطَاس اجتمعَ إليه النّاس وفيهم دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّةِ، فقال دُرَيْدٌ للنّاس: بأيِّ وادٍ أنتُم؟، قالوا: بأَوْطَاس، قال: نِعْمَ محَلّ الخيل، لا حَزْنٌ ضِرْسٌ، ولَا سَهْلٌ دَهَسٌ، ثم قال لهم: مَا لي أَسْمَعُ رُغَاءَ البَعِير، ونُهَاقَ الحمير، ويُعَارَ الشَّاء، وخُوَارَ البَقَر، وبكاءَ الصِّغَار؟، فقالوا: سَاقَ مالكُ بنُ عَوفٍ مع النّاس أموَالَهم ونساءَهم وأبناءَهم. فقال: يا مالكُ، أما إنّك قد أصبحتَ رئيسَ قومِك، وإنّ هذا يومٌ كائِنٌ له ما بعده من الأيام، فلِمَ سُقْتَ مَع النّاس أَبناءَهم ونساءَهم وأموَالهم؟، فقال: أردتُ أنْ أجعلَ خلفَ كلّ رَجُلٍ أهلَه ومالَه ليُقاتلَ عنهم. فزَجَرَهُ دُرَيْدٌ وصَوَّتَ بلِسَانِه في فِيه، وقال له: والله إنّكَ رُوَيعِي ضَأْنٍ، ما لكَ وللْحَرْبِ؟، ثمّ أشارَ عليه بردِّ الذُّرّيّةِ والأموَال وقال: هَل يَرُدُّ المنهَزِمَ شَيءٌ؟!، إنْ كانت لك لم ينفعكَ إلا رجلٌ بسيفِه ورُمْحِه، وإنْ كانت عليكَ فُضِحْتَ في أَهلِكَ ومَالِك، ثمّ قال: ما فعلتَ كَعْبٌ وكَلْبٌ؟، فقالوا: لم يشْهَدْهَا منهم أَحَدٌ، فقال: غَابَ الحَدُّ والجِدُّ، لو كانَ يومُ عُلا ورِفْعَةٍ ما غَابَا، ثم أَشَارَ عليه بأمورٍ، فلمْ يقبلْها مالكٌ منه، وقال: والله لا أطيعُكَ، إنّك قد كَبُرْتَ وضَعُفَ رَأيك، وكرِهَ مالكٌ أنْ يكونَ لدُرَيدٍ في هذِه المعْرَكَةِ رَأيٌ أو ذِكْرٌ، فقال

دُرَيْدٌ لهَوَازِنَ: قد شرَطَ لي مالكٌ أنْ لا يخالفني، وقد خَالفني، فأنا أرْجعُ إلى أَهْلي، فمَنَعُوه، وقال لهم مالكٌ: والله لتُطِيعُنَّنِي يَا معشرَ هَوَازِنَ أو لأَتّكِئَنَّ على هذا السّيفِ، حتّى يخرجَ مِن ظهري، فقالوا له جميعاً: قد أَطَعْنَاك.

ثُمّ إنّ مالكاً صفَّ الخيْلَ، ثمّ صفَّ الرَّجَّالةَ المُقَاتِلة، ثم جعلَ النّساء صفوفاً فوق الإبل من وراءِ المقاتلة، ثم جعلَ البَقر والغَنم وراءَ ذلك، وكل ذلك لِئَلّا يَفِرّوا. ثمّ قالَ للنّاس: إذا رأيتُمُوهم فشُدّوا عليهم شَدّة رجل واحدٍ. ثم بعثَ عُيوناً له لينظروا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فأتوا وقَدْ تَفرَّقَتْ أَوْصالُهم، فقال: وَيْلَكُم ما شَأْنكم؟، قالوا: رأينا رِجَالاً بيضاً على خُيُولٍ بُلْقٍ، فوَ الله ما تمَاسَكْنا أَنْ أَصَابنا مَا ترَى، وإِنْ أَطَعْتَنا رَجعتَ بقومِك، فقال: أُفٍّ لكم، بل أنتم أَجْبَنُ من في العسكر. ولم يَرُدّه ذلك، ومضى على ما يُرِيدُه.

وقد كان رَسُوْلُ الله ﷺ لمّا سَمِعَ باجتماعهم على حَرْبِه أرسلَ إليهم عَبْدَالله بنَ أَبي حَدْرَدٍ الأَسْلَميّ، وأمرَه أَنْ يدخلَ فيهم وأَنْ يسمعَ منهم ما أجمعوا عليه، فدخلَ فيهم ومكثَ فيهم يوماً أو يومين وسَمِعَ، ثُمّ أتى رَسُوْلَ الله ﷺ، فأخبرَه الخبرَ، وأن هَوَازِنَ عَنْ بَكْرَةِ أبيهِم بظَعْنِهم ونَعَمِهم وشَائِهم قد اجتمعوا إلى حُنَينٍ، فتبسّمَ ﷺ وقال: «تِلْكَ غَنِيمَةُ المسْلِمِينَ غداً إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى». ثم أَجمعَ رَسُوْلُ الله ﷺ على السَّيرِ لِهَوَازِنَ، فَذُكِرَ له ﷺ أَنَ عندَ صَفْوَانَ بنَ أميّةَ أدراعاً وسِلَاحاً، فأرسلَ ﷺ إليه، فقال له: «يَا أَبَا أُمَيَّةَ أَعِرْنَا سِلَاحَكَ نَلْقَ بِهِ عَدُوَّنَا غداً»، فقال صَفْوانُ: أغصباً يا محمّد؟، فقال ﷺ: «بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ»، فقال: ليسَ بهذا بأس. ثم أعطَاه مائةَ درع بما يكفيها من السِّلاح. ثم اسْتَعَار

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ابنِ عَمِّهِ نَوْفَلَ بنِ الحارِثِ بنِ عَبْدِ المطَّلِبِ ثَلاثَةَ آلافِ رُمْح.

وخرجَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اثني عشر ألفاً، ألفانِ من أهل مَكَّةَ، والعشرةُ آلاف الذين فتحَ الله لنبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم مَكَّةَ، وخرج أهلُ مَكَّةَ رُكْباناً ومُشَاةً، حتّى أَنّ بعضَ النّساء يمشِينَ على غَيرِ وَهَنٍ، وهم يرجُونَ الغنائِمَ، وخرجَ معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضُ مَن لم يصدقْ في إيمانِه، وكذا خرجَ معه ثمانون من المشركين، منهم: صفوانُ بن أميّة، وسهيلُ بنُ عمرو. فلما اقتربَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من محلّ العدو صَفّهم، ووضعَ الألويةَ والرّايات مع المهاجرين والأنصار، فلِوَاءُ المهاجرين أعطَاهُ عليّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه، وأعطى سعدَ بنَ أبي وقاص رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه رَايةً، وأعطى عمرَ بنَ الخطّاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه رايةً، ولِوَاءُ الخزرجِ أعطاه الحُبابَ بنَ المنذر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، ولواءَ الأوس أعطاه أُسَيدَ بنَ حُضَيرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه. وكذلك فعل ببقيّة قبائل العرَبِ، جعلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها الألوية والرايات، ووَكّلَ بحمْلِها رِجَالاً منهم.

ثمّ رَكِبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بغْلته، ولبسَ الدّرعين؛ ذَاتَ الفُضُول، والسَّغْدِيَّة، وهيَ درع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ التي لبسها حين قتلَ جالوتَ، ولبسَ المِغْفِرَ والبَيضَةَ، ثمّ سارَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابِهِ، حتّى مرّوا بشَجَرةٍ من السِّدْرِ وقد كان المشركون يعظّمُونَها، ويسَمُّونَها: ذَاتَ أَنْوَاطٍ، لأنهم كانوا يَنُوطُونَ بها أسْلِحَتَهم، أي يعلقونها بها، فقال بعضُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم: يا رسولَ الله، اجعل لنا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الله أَكْبَرُ، هَذَا كَمَا قَالَ قَومُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ».

فلما وصلَ المسلمون حُنَيناً عند غبَشِ الصّبح، انْحَدَرُوا في الوَادِي، فخرج عليهم القوم وكانوا قد كَمَنُوا لهم في شِعَابِ الوَادِي ومَضَايِقِه، وذلك بإشَارةِ دُرَيْدِ بنِ الصّمّة، فإنّه قال لمالك: اجْعَلْ لك كَمِيناً يكونُ لك عوناً، فإنْ حمَلَ القَومُ عليك جاءَهم الكَمِينُ من خلْفِهم، وكَرَرْتَ أنتَ بمَن مَعَك عليهم، وإنْ كانتِ الحمْلَةُ لك لم يُفْلِتْ مِنَ القوم أَحَدٌ. فلمّا وصَلَ المسلمون ذلك الوادي حملوا عليهم حَمْلَةَ رُجُلٍ واحدٍ، وكانوا رُمَاةً، فاستقبلوهم بالنّبل كأنه جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ، حتّى لا يكاد يسقط لهم سهمٌ إلا على رَجُلٍ من المسلمين.

فلمّا استقبَلوهم بالسِّهَام أخذَ المسلمون رَاجعين مُنْهَزِمين، لا يلوي أَحَدٌ منهم على أَحَدٍ، وكان الطّلَقَاءُ مِن أهل مَكَّةَ أوَّلَ مَنِ انْهَزَم، وقال بعضُ مَن كان في إسْلَامِه دَخَلٌ لِبَعْض: هذا وقتُ خُذْلَانِه فاخْذُلُوه. ثم انهزَمُوا، فهُمْ أَوَّلُ مَنِ انْهَزَم، ثم تبعَهم النّاسُ. وانحازَ رَسُوْلُ الله ﷺ ذاتَ اليمين، ومعَه نفرٌ قليل، منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وابنه الفضل، وأبو سُفْيَان بنُ الحارث، وربيعة بنُ الحارث، ومُعَتِّبُ بن أبي لهب، وفُقِئَتْ عَينُه يومَئذٍ. وقد وردَ في عددِ مَن ثبت معه ﷺ روايات مختلفة، فقيل: مائة، وقيل: ثمانون، وقيل: ثلاثمائة. وصار رَسُوْلُ الله ﷺ يقول: «هَلُمُّوا إِلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ، أَنَا رُسولُ الله، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، إنّي عَبْدُ الله وَرَسُولُه». وجعلَ ﷺ يتَقدّمَ ببَغْلَتِه نحوَ الكُفَّار، والعبّاسُ آخذٌ بزمامِها يكفّها مِن أَنْ تُسْرِعَ، ورَسُوْلُ الله ﷺ عليها يقول: «أَنا النَّبِيُّ لَا كَذِب، أَنَا ابْنَ عَبْدِ المطَّلِب».

وعن العَبّاسِ رضي الله عنه قال: كنتُ آخذاً بزمام بغلةِ رَسُوْلِ الله ﷺ، وأبو سُفْيَان بنُ الحارثِ آخِذٌ بركابه ﷺ، وهو يقولُ حينَ رأى ما رَأى مِنَ

النّاس: «إِلَى أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ»؟، فلمّا رَأى النّاسَ لا يلْوُون على شَيءٍ قال ﷺ: «يَا عَبَّاسُ؛ اصْرُخْ: يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ، يَا مَعْشَرَ الأَنصَارِ، يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ»، ـ يعني الشّجرة التي كانت تحتَها بيعةُ الرّضوَان. وإنّما خصّ رَسُوْلُ الله ﷺ العباسَ بذلك، لأنه كان عظيم الصّوت، قيل: كان صوته يُسْمَعُ من ثمانيةِ أَمْيَالٍ، وكان يقفُ على جبل سَلْع فيُنادِي غِلمانَه وهم بالغابة، فيُسْمِعُهُم، وبينَ سَلْعٍ والغابة ثمانية أميال. وقيل: أَنّ خَيلاً أغارتْ على المدينةِ يوماً، فنادى: واصَباحَاه. فوضَعَتْ بعضُ الحوامل من عِظَمِ صَوتِه.

فلمّا سِمعَ النّاسُ نداءَ العباسِ، صَار الرّجلُ يلوي بعيرَه فلا يقدرُ عليه؛ لكَثْرَةِ الأعرابِ المنهزمين، فيَأخذُ دِرْعَه فيَقْذِفُها في عُنُقِه، ويأخُذُ سيفَه وترسَه، ثم يَقْتَحِمُ عَن بعيرِه، ويخلّي سبيلَه، ويَؤُمُّ الصُّوتَ، حتى ينتهي إلى رَسُولِ الله ﷺ. وقد قال بعضُهم: فما شبّهْتُ عَطْفَةَ الأنصارِ على رَسُوْلِ الله ﷺ إلا بعَطْفَةِ الإبل على أولادِها، فلَرِمَاحُهم أَخْوَفُ عندي على رَسُوْلِ الله ﷺ مِن رِمَاح الكُفّار. حتّى إذا انتهى إليه النّاسُ استقبلوا القومَ فاقتتلوا، وأَشرَفَ رَسُوْلُ الله ﷺ ينظرُ إلى القوم وهم يَجْتَلِدُون، فقال ﷺ: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ».

ثم إن رَسُوْلَ الله ﷺ قال لبَغْلَتِه: «يَا دُلْدُلُ أَلْبِدِي»، فانخَفَضتْ به بغلتُه حتّى كادَت بطنُها تمسّ الأرضَ، فقبضَ قبضَةً من التّرابِ ثُمَّ اسْتَقبَلَ بِهَا وجوهَ الكفّار فقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»، ثم رماهم بها، فما خلق الله منهم إنساناً إلا مَلأَتْ تلكَ القبضَةُ عينَيه وفَمَهُ تُراباً، وقال ﷺ: «انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ»، فولوا مدبرين، وقال بعضُهم بعد ذلك: ما خُيِّلَ إلينا إلّا أَنّ كلّ حَجَرٍ أو شَجَرٍ

فارِسٌ يطلبُنا. وكان أَمَامَ المشركين رجلٌ على جمل أحمر بيدِه رايةٌ سوداء، في رأس رمح طويل، وهَوَازِنُ خلفَه، فكانَ إذا أدْرَكَ طعَنَ برُمحِه، وإذا فاتَ رفعَ رُمحَه لمن وراءَه فاتَّبعُوه، فبينما هو كذلك إذْ أَهْوَى إليه عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه ورَجُلٌ من الأنصَار، فأتى عَليٌّ من خلفِه وضرَبَ عُرْقُوبَي الجمَل فوقعَ على عجزِه، ووثب الأنصاري عليه فضربَه ضربة أطَنَّ قدَمَه بنِصْفِ سَاقِه، واجْتَلَدَ النَّاسُ، فلم ترجعْ رَاجِعَةُ المسلمين من هزيمتهم حتى وجدوا الأسَارَى مُكَتَّفين عِنْدَ رَسُوْلِ الله ﷺ.

وعند القتال أنزلَ الله تعالى قولَه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦]، وذلك لأنه جاءَ أنّ بعضَ الصّحابة قالوا عندما خرجوا من مكّةَ: لنْ نُغْلبَ اليوم مِن قِلّة. وقد كان ذلك بلغَ رَسُوْلَ الله ﷺ فشقّ ذلك عليه وساءَته تلك الكلمة.

ولما انهزمَ المسلمون تكلّمَ رجالٌ من أهل مَكَّةَ بما في نفوسِهم مِن الضَّعفِ، وكان منهم: أبو سُفْيَان بن حَرْب، فقال: لَنْ تَنْتهيَ هزِيمَتُهم دونَ البحر، وقال: والله غَلَبتْ هَوَازِنُ، فقال له صَفوانُ: بفِيكَ الكَثِيبُ ـ أي الحجارة والتّراب ـ، وقَدْ وصَلتِ الهَزِيمَةُ إلى مَكَّةَ!؟. وأظهر السرورَ والشّماتَةَ بذلك قومٌ من مَكَّةَ، فقال قائل منهم: ترجعُ العرَبُ إلى دين آبائِها، وقال آخرُ: ألَا قد بَطَل اليوم سِحْرُ محمّدٍ، فقال له صَفْوانُ ـ وهو يَومَئذٍ مُشْرِكٌ ـ: اسْكُتْ فَضَّ الله فَاكَ،

والله لأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِن قُرِيشٍ، أَحَبّ إليّ مِن أنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِن هَوَازِن. ومرَّ رجلٌ آخرُ على صَفْوانَ بن أُمَيّةَ، فقال له: أبشر بهزيمة محمّدٍ وأصحابه، فو الله لا يجبرونها أبداً، فغضبَ صفوانُ، وقال: أتبشّرُني بظهورِ الأعراب؟. فقال عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه لذلك الرّجُل: وكونُهم لا يجبرونَها أبداً فهذا ليسَ بيَدِك، الأمرُ بيد الله، وليسَ إلى محمَّدٍ منه شيءٌ، إنْ أُدِيلَ عليه اليومَ فَإنّ له العَاقبةَ غَداً، فقال سُهَيلُ بنُ عمرو: والله إنّ عهْدَكَ بخِلَافِه لحدِيثٌ!، فقال له: يا أبا يَزِيد، كُنَّا على غيرِ شَيءٍ وعقُولنا ذاهِبَةٌ نعبدُ حجَراً لا يضرُّ ولا ينفعُ.

وعن شَيبةَ بنِ عثمانَ الحجبي رضي الله عنه قال: ما رأيتُ أعجبَ ممّا كنّا فيه، من لزُوم ما مضى عليه آباؤُنا من الضّلالات، فإنّه لما كان عام الفتح، ودخلَ رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ، وسارَ إلى حرْبِ هَوازِن، فقلتُ: أَسِيرُ مع قُرِيشٍ إلى هَوَازن بحُنين، فعسَى إنِ اخْتَلَطُوا أَنْ أصيبَ مِن محمَّدٍ غِرَّةً فأقتُله، فأكونُ أنا الذي قمْتُ بثأري وبثَأرِ قريشٍ كلّها من محمَّدٍ، لأنّ أبي وعمّي قُتِلَا يومَ أُحُدٍ، وكنتُ أقولُ: لو لَم يبقَ مِنَ العَربِ والعَجَم أَحَدٌ إلا اتبعَ محمداً ما اتّبعْتُه، ولا يزدادُ ذلك الأمرُ عندي إلا شِدّة، فلما اختلطَ النّاسُ ونزَلَ صلى الله عليه وسلم عن بغْلَتِه أَصْلَتُّ السَّيفَ، ثُمّ دنوتُ منه أريدُ الذي أريدُ منه، ورَفَعْتُ السَّيفَ حتّى كِدْتُ أُوقعَ به الفِعْلَ، فَرُفِعَ إِليَّ شُواظٌ مِن نَارٍ كالبرق حتى كادَ يهلكني، فوضعتُ يدي على بصَرِي خَوفاً عليه. فناداني صلى الله عليه وسلم: «يَا شَيْبَةُ ادْنُ مِنّي»، فدنوتُ منه، فالتفتَ إليّ وتبسَّمَ وعرفَ الذي أريدُ منه، فمسَحَ صَدْرِي، ثمّ قال: «اللّهُمَّ أَعْذْهُ مِنَ الشَّيطَانِ»، فو الله لقد كان تلكَ السَّاعة أَحَبَّ إليَّ من سمعي وبصري ونفسي، واذهبَ الله ما كان فيَّ، ثمّ قالَ لي صلى الله عليه وسلم: «ادْنُ فَقَاتِل»، فتقدّمْتُ أمامه

أضربُ بسيفي، والله يعلمُ إنّي أُحِبُّ أنْ أَقِيهِ ﷺ بنفسِي كلَّ شيءٍ، ولو كانَ أَبِي حَيّاً ولقيتُه تلك السّاعة لأوقعتُ به السَّيفَ، ثمّ جعلتُ أَلزَمُه فيمن لَزِمَه، حتّى تَرَاجعَ المسلمون وكرُّوا كرَّةً واحدةً، وقرَّبْتُ إليه ﷺ بغلَتَه، فاسْتَوَى عليها قَائِماً، وخرجَ في أثرِ القوم، فتفرّقوا في كلّ وجْهٍ لا يلْوِي أَحَدٌ منهم على أَحَدٍ، وأمرَ ﷺ بِقَتْلِ مَن قُدِرَ عليه، واتّبَعَهُم المسلمون يقتلونَهم، ونهاهم ﷺ عن قَتْل الذُّرِّيَّةِ، وقال: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ».

وحدّثَ أنسٌ رضي الله عنه أَنَّ أبا طَلْحَةَ رضي الله عنه استلبَ يومئذٍ واحِداً وعشرين رجلاً، قتلَهم وأَخَذَ أَسْلابَهم. وقال أبو قتادة رضي الله عنه: رَأيتُ يومَ حُنَين مسلماً ومُشركاً يقتَتِلانِ، وإذا رَجلٌ من المشركين يُريدُ إعانةَ المشرك على المسلم فأتيتُه وضرَبْتُ يدَه فقَطَعْتُها، فاعْتَنَقَني بيدِه الأخرى، فوَ الله ما أرسلني حتّى وجَدْتُ ريحَ الموتِ، ولولا أَنَّ دَمَه نزَف لقتَلني، فلما سقطَ ضرَبْتُه فقتَلْتُه، وأَجْهَضَني القِتالُ عن اسْتِلابِه، فلمّا وضَعتِ الحرْبُ أوزَارَها، قلتُ: يا رسُولَ الله، لقد قتلتُ قتيلاً ذا سَلَبٍ، وأجهضَني عنه القِتالُ، فما أَدْرِي من اسْتَلَبه، فقال رجُلٌ مِن أهلِ مَكَّةَ: صدقَ يا رسُولَ الله، فأَرْضِه عنّي من سَلبِه، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: والله لا يُرضِيه، أَتَعْمِدُ إلى أَسَدٍ لله يُقاتل عن دينِ الله فتُقَاسِمُه سَلَبَ قَتِيلِهِ!؟، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «صَدَقَ، ارْدُدْ عَلَيهِ سَلَبَهُ»، فأخذتُه منه فاشتريتُ بثَمَنِ ذلك السَّلب الذي جمعته بُسْتاناً.

وأدركَ ربيعةُ بنُ رُفيع دُرَيدَ بنَ الصَّمَّة، فأخذَ بخطام جمَلِه، وهو يظنّ أنه امرَأة، فإذا هو شيخٌ كبيرٌ أعمَى وكان لا يعرِفُه، فقال له دُرَيد: ماذا تريدُ؟، قال: أقتلُكَ، قال: ومَن أنتَ؟، قال: أنا رَبيعةُ بنُ رُفيعٍ السُّلمي، ثُمّ ضرَبه بسَيفه فلم

يُغْنِ شَيئاً، فقال له دُرَيدٌ يسخرُ به: بئسَ ما سَلّحَتْكَ أمُّك، خُذ سيفي من مُؤَخَّرَةِ الرَّحْل، ثمّ اضْرِبْ به، وارفَعْ عنِ العِظَام واخْفِضْ عنِ الدِّماغ، فإنّي كنتُ كذلك أَضرِبُ الرّجَالَ، ثمّ إذا أتيتَ أمَّك فأخبرْها أنكَ قتلتَ دُرَيدَ بنَ الصّمّة، فرُبَّ يومٍ قد مَنعْتُ فيهِ نسَاءَك، فقَتلَه. ولمّا أخبرَ ربيعة أمه بقتله، قالت له: أمَا والله لقد أَعْتَقَ ثلاثاً، ثم قالتْ له: ألا تكرَّمْتَ عن قتْلِهِ لما أخبرَك بمِنّةٍ علينا، فقال: ما كنتُ لأتكرَّم عن رِضَا الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما انهزَمَ القومُ عسكرَ بعضُهم بأوطاس، فبعثَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آثارِهم أبا عَامِرٍ الأشْعَريّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وسيأتي ذكرُه في السَّرَايا، ورجعَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مُعَسْكَرِه. قال شيبةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فدخلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خباءَهُ فدخلتُ عليه، ما دخل عليه غيري حُبّاً لرُؤْيَةِ وجْهِهِ وسُرُوراً به، فقال لي: «يَا شَيْبَةُ، الذِي أَرَادَ اللهُ خَيرٌ ممَّا أَرَدْتَ بِنَفْسِكَ»، ثُمَّ حَدَّثَنِي بكلّ ما أضمرته في نفسي ممّا لم أذكرْهُ لأَحَدٍ قطّ، فقلتُ: إنّي أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنك رسولُ الله، ثم قلتُ: استغفر لي، فقال: «غَفَرَ اللهُ لَكَ»، وقالَتْ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمُّ سُلَيم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: بأبي أنتَ وأمّي يا رَسُولَ الله، اقْتُلْ هَؤُلَاءِ الذين انهزموا عنك فإنّهم لذَلِك أَهْلٌ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ».

وعن عائذ بن عمرو، قال: أصابتني رَمْيةٌ يومَ حنين في جَبْهتي، فسَالَ الدَّمُ على وجْهِي وصدْرِي، فسَدّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدّمَ بيدِه عن وجهي وصدري إلى ترقوتي، ثم دعا لي، فصار أثرُ يدِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غُرَّةً كغُرّة الفرَس. وجُرِحَ خَالدُ بنُ الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فتفَلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جُرْحِهِ فلمْ يضُرّه. وعن بعض الصحابة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم قال: رأيتُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ما هَزمَ اللهُ الكفَّارَ، ورجع

المسلمون إلى رحالهم، يمشي في المسلمين، ويقول: «مَنْ يَدُلّنِي عَلَى رَحْلِ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ»، حتى دُلّ عليه، فوجده قد أَسْنَدَ إلى مؤخرة رحله لثُقْلِ الجراحة فتفَل ﷺ في جُرْحِه فبرِئ.

وعن جُبير بن مُطْعِم رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: لقد رأيتُ قبلَ هزيمةِ القوم والنَّاس يقتتلون شيئاً أسوَدَ أقبلَ من السّماءِ حتّى سقطَ بيننا وبين القوم، فنظرتُ فإذا نمْلُ أسود مبثوثٌ، قد ملأَ الوادي، فلمْ أشُك أنّها الملائكةُ، ولم تكُنْ إلّا هَزِيمَةُ القوم. وقال جمعٌ ممّن كانَ مع هوازن: لقد رأينا يومَ حُنَينٍ رِجالاً بيضاً على خَيل بُلْق، عليهم عمائِم حمر قد أرخوها بين أكتافهم، وهم كتَائبُ بينَ السماء والأرض، لا نستطيعُ أَنْ نقاتِلَهم مِنَ الرُّعبِ منهم.

ولما وقع النصرُ بعدَ الهزيمة أسلمَ ناسٌ من الكُفّار؛ لما رأوا نـصرَ الله لرسُولِه ﷺ. ثمّ أمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ بالسَّبي والغنائم أَنْ تُجمعَ، وكانَ السَّبْي ستة آلاف رَأس، فجُمعَ ذلك كلّه، وأُحْضِرَ إلى الْجِعِرّانَة، فكانَ بها إلى أَنِ انـصَرَفَ رَسُوْلُ الله ﷺ من غَزْوَة الطّائِفِ. وفي هذه الغَزْوَة سُمِّيَ طلحةُ بنُ عُبَيدِ الله رضي الله عنه: طلْحَةُ الجوَاد؛ لكثرة إنفاقِه على عَسْكَرِ المسلمين.

٢٩ ـ غَزْوَة الطّائِف

ولمّا عَلِمَ رَسُوْلُ الله ﷺ أَنَّ مالكَ بنَ عوفٍ وجَمْعاً مِن أَشْرَافِ قومِه لحقوا بالطّائف عندَ انهزامِهم، وأنّهم تحصَّنُوا في حِصْنٍ به، وأدخلوا فيه ما يُصْلِحُهم لسَنَةٍ، خَرجَ ﷺ مِن حُنَينٍ، وتوَجّهَ إليهم، وتركَ السّبْيَ بالْجِعِرّانة. ومرَّ ﷺ بحِصْنِ مَالِكِ بنِ عَوفٍ، فَأَمَرَ بهِ فَهُدِمَ، ومرَّ بحَائِطٍ،

لرَجُلٍ مِن ثَقِيفٍ، وقد تمنّعَ فيه، فأرسلَ إليه ﷺ يقول: «إمَّا أَنْ تَخْرُجَ، وَإِمَّا أَنْ نُخْرِبَ عَلَيكَ حَائِطَكَ»، فأبى أَنْ يخرجَ فأمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ بإحرَاقِه، ومرَّ ﷺ بقَبْرٍ، فقال: «هَذَا قَبْرُ أَبِي رِغَالٍ، وَهُوَ أَبو ثَقِيف، وَكَانَ مِنْ ثَمُودَ، وَكَانَ بِهَذَا الحَرَمِ يُدْفَعُ عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْهُ أَصَابَتْهُ النِّقْمَةُ التِي أَصَابَتْ قَومَهُ بِهَذَا المكَانِ، فَدُفِنَ فِيهِ». وقد قيل: أَنَّ أبا رِغَالٍ هذا هو الذي كانَ دليلاً لأَبْـرَهَة ليُوصِلَه إلى مَكَّةَ، فإنه لما مَرَّ أبرهةُ بالطّائفِ، تلقّاه أهلُها وأظهرُوا له الطّاعَةَ، وقالوا له: نُرسِلُ معكَ مَن يدُلّك على الطّريق، فأرسلوا أبا رِغَالٍ معه دليلاً. وقد قال ﷺ لأصحابِه حينَ مرّ به: «آيةُ ذَلِكَ أنهُ دُفِنَ مَعَهُ غُصْنٌ مِنْ ذَهَبٍ، إِنْ أَنتُمْ نَبَشْتُمْ عَنْهُ أَصَبْتُمُوهُ»، فابتدرَ الناسُ، فنبشُوه، واستخرَجُوا منه الغُصْنَ.

وقَدَّمَ ﷺ خالدَ بنَ الوليد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه على مُقَدّمتِه، فلمّا وصلَ نزلَ قريباً مِن الحصْنِ، وعسكرَ هناك، فرُمِيَ المسلمون بالنّبل رَمياً شديداً، حتّى أصيبَ ناسٌ من المسلمين بجرَاحَاتٍ. وكانَ ممّن أصيبَ أبو سُفْيَان بن حرب، أُصِيبَتْ عينُه، فأتى النّبيَّ ﷺ وعينُه في يدِه، فقال: يَا رَسُولَ الله، هذه عيني أُصِيبَتْ في سَبيلِ الله، فقال النبيُّ ﷺ: «إنْ شِئْتَ دَعَوتُ فَرُدّت عَينُكَ، وَإِنْ شِئْتَ فَالجنَّة»، فقال: بل الجنّة. ثم رمى بها مِن يَدِه، وقد قُلِعَتْ عينُه الثّانية في يوم اليَرمُوك عند مُقَاتَلَةِ الرّوم.

ومَات ممّن جُرِحَ بالطائف اثنا عشرَ رَجُلاً، فارتفعَ رَسُوْلُ الله ﷺ إلى موضِع مسجد الطّائف الآن، وكان معه ﷺ من نسائه: أمّ سَلمة، وزينبُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، فضَربَ لهما قبّتين، وكان يصلي بين القبتين

الصلاةَ مقْصُورَةً مُدَّةَ حِصَارِ الطّائف، وكانت ثمانية عشر يوماً، غير يومي الدّخول والخروج.

ودخَل ﷺ خَيمَةَ أمّ سَلمَة وعندها أخُوها عبدُ الله ومُخَنَّثٌ، وإذَا المُخَنّثُ يقولُ: يا عبدَ الله إنْ فتحَ الله عليكم الطّائفَ غداً، فعليكَ ببادِيَةَ بنتِ غَيْلَان، فإنَّها تقبلُ بأَرْبَعٍ، وتدبرُ بثمان، شَمُوعٌ نجْلَاء، كأنّها قضِيبُ بَان، مُوَرَّدَةُ الخدَّين، إذا قامَتْ تَثَنَّتْ، وإذا جَلَسَتْ تبَنَّتْ، وإذَا تكلّمَتْ تَغَنَّتْ. فلما سَمِعَه النبيُّ ﷺ قال له: «قَاتَلَكَ الله، لَقَدْ أَمْعَنْتَ النَّظَرَ»، ثم قال: «مَا كُنْتُ أَظُنُّ هَذَا الخَبِيثَ يَعْرِفُ شَيئاً مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ فَلَا يَدْخُلُ هَذَا عَلَيْكُنَّ»، وفي رواية: أَنّ رَسُوْلَ الله ﷺ لمّا سمعَ كلامَه قال: «لَقَدْ غَلْغَلْتَ النَّظَرَ يَا عَدُوَّ الله»، ثم أمر ﷺ بنفْيِه من المدينة إلى الحِمَى وقال للمسلمين: «لَا يَدْخُلُ هَذَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَائِكُم»، فقيل: يا رسولَ الله، إنّه يموتُ جوعاً!، فأذِنَ له أَنْ يدخلَ المدينةَ كلّ جُمعَةٍ يسألُ النّاسَ.

ثُمَّ إنَّ خالدَ بنَ الوليد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه نادى مَن يُبارِزْ؟، فلم يطلعْ إليه أَحَدٌ، ثم كرّرَ ذلك، فلم يطلعْ إليه أَحَدٌ، ثم ناداه عَبْدُ يَالِيل: لا ينزِلُ إليكَ منّا أَحَدٌ، ولكِنْ نقيمُ في حصنِنا، فإنّ به من الطعام ما يكفينا سنين، فإنْ أقمْتَ حتى يذهبَ هذا الطّعَامُ خرَجْنا إليكَ بأسْيَافِنا جميعاً حتّى نموتَ عن آخرِنَا. فنصَبَ النبيُّ ﷺ عليهم المنْجَنِيقَ ورمَاهم به، وهو أوّل منجَنيق رُمِيَ به في الإسْلَام، وأَرْشَدَه إليه سَلمانُ الفارسي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فإنه قال: إنّا كنّا بأرض فارس نَنْصِبُ المنجنيقات على الحصُون فنُصِيبُ من عَدوّنا، وقيل: إن سلمان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه هو الذي عَمِلَه بيدِه.

ودخَلَ نفرٌ مِنَ الصَّحابة تحتَ دبَّابةٍ من جُلُودِ البَقر، ثمّ زَحفُوا بها إلى جِدَارِ الحصْنِ ليُحْرِقُوه، فأرسَلَتْ عليهم ثقيفٌ سِكَكَ الحديد محمَّاة بالنّار فخرجوا من تحتِها فرَموهم بالنّبل وقُتِلَ منهم رِجالٌ، وأمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ بقطْع أعنَابِهم ونخِيلِهم وتحرِيقِها، فقطعَ المسلمون قطْعاً ذَريعاً، فسَألوهُ أَنْ يدعَهَا لله وللرّحم، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إنّي أَدَعُهَا لله وَللرَّحِم»، ثم نادى رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَيّما عَبْدٍ نَزَلَ مِنَ الحِصْنِ وَخَرَجَ إِلَينا فَهُوَ حُرٌّ»، فخرجَ ثلاثةٌ وعشرون رَجُلاً، فأعتقَهم رَسُوْلُ الله ﷺ ودَفَعَ كلّ رَجُلٍ منهم إلى رَجُلٍ من المسلمين يُمَوِّنُه، وشَقَّ ذلك على أهل الطّائف مَشَقّةً شديدةً، وكانَ ممّن خرَجَ نُفَيع بنُ الحارثِ الثّقفي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، تدلّى ببكْرَةٍ، فكنّاه رَسُوْلُ الله ﷺ أَبا بَكْرَة بسببِ ذلك.

وجاءَ عُيَينَةُ بنُ حِصْنٍ فاسْتأذَنَ رَسُوْلَ الله ﷺ في أَنْ يأتيَ ثقِيفاً إلى حصْنِهم ليَدْعُوَهم إلى الإِسْلَام، فأَذِنَ له في ذلك، فأتاهم، فدخلَ في حصْنِهم، وقالَ لهم: تمسّكوا في حِصْنِكُم، فوَ الله لنَحْنُ أَذَلّ مِنَ العَبيدِ، ولا تُعْطُوا بأيديكم، ولا تتأثّروا، ولا يشُقّ عليكم قطعُ هذِه الشّجر. فلمّا رجعَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ قال له: «مَا قُلْتَ لَهُم يا عُيَينَةُ»؟، فقال: أَمَرْتُهم بالإسلام ودعوتُهم إليه، وحذّرْتُهم النّارَ، ودَلَلْتُهم عَلَى الجنَّةِ، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «كَذَبْتَ، وَإِنّما قُلتَ لَهُمْ كَذَا وَكَذَا»، وقَصّ عَليهِ ما قاله لهم، فقال: صدقْتَ يا رسولَ الله، أتوبُ إلى الله وإليكَ من ذلك.

ولمْ يُؤْذَنْ لِرَسُوْلِ الله ﷺ في فتْحِ الطّائف، فَإِنّ خولةَ بنتَ حكيم، امرأة عثمان بن مَظْعُون، قالتْ له: يا رسولَ الله، ما يمنَعُك أَنْ تنهضَ إلى أهل

الطّائف؟، فقال: «لَمْ يُؤْذَنْ لَنَا الآنَ فِيهِمْ، وَمَا أَظُنُّ أَنْ نَفْتَحَهَا الآنَ»، وقال له عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْه في ذلك، فقال: «لَمْ يُؤْذَنْ لَنَا فِي قِتَالِهِم»، فقال رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْه: كَيفَ نُقْبِلُ في قوم لم يأذنِ الله فيهم؟، أَوَ أُؤَذِّنُ بالرَّحيل؟، قال: «بَلَى»، واستشارَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعضَ النّاسِ في الذّهَاب أو المقام، فقال له نَوفَلُ بنُ مُعاوية الدّيلمي: يا رسولَ الله، ثعلبٌ في جُحْرٍ إنْ أقمْتَ أَخَذْتَه، وإنْ تركتَه لم يَضُرّك، فأمرَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرَ بنَ الخطّاب رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْه فأذّن في النّاس بالرَّحيل، فقبَّحَ الناسُ ذلك وقالوا: نرحلُ ولم يُفْتَحْ علينا، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَاغْدُوا عَلَى القِتَال»، فغدوا، فأصابتهم جِرَاحَاتٌ شَدِيدَةٌ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا قَافِلُونَ إِنْ شَاءَ الله»، فسُرّوا جميعاً بذلك وأذعنُوا، وجعلوا يرحلون ورَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضْحَكُ تعَجُّباً مِن سُرعةِ تَغَيُّر رأيهم، لأنّهم رأوا أنّ رأيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبرك وأنفع من رأيهم، فرجعوا إليه، وقال لهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، فلما ارْتحَلُوا، قال: «قُولُوا: آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»، فقالوا: يا رَسُولَ الله ادْعُ على ثَقِيفٍ، فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا وَائْتِ بِهِمْ مُسْلِمِينَ».

وعند مُنْصَرَفِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الطّائِفِ، بينما هو يسيرُ ليلاً بوادٍ بقُرْبِ الطّائفِ، إذْ غَشِيَ سِدْرَةً في سَوادِ اللّيل وهو في وَسَنِ النّوم، فانْفَرجَتِ السِّدْرَةُ له نصفين، فمرَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين نصْفَيها، وبقِيَتْ مُنفَرِجةً على حالِها، وعند انحدَارِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الْجِعِرّانَة لَقِيَه سُرَاقَةُ، وهو واضعٌ الكتابَ الذي كتَبَه له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الهجرةِ بين أصبعيه، وينادي: أنا سُرَاقَةُ، وهذا كتابي، فقال

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا يَومُ وَفَاءٍ وَمَوَدَّةٍ، أَدْنُوهُ»، فأدنوه منه، فسَاق إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً من الصَّدَقةِ، وسأله سُرَاقةُ عن الضَّالّةِ من الإبل تَرِدُ حَوضَهُ الذي مَلأَهُ لإبلِه هَل له في ذلك من أَجْرٍ؟، فقال له رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ، فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَّاء أَجْرٌ»[1].

وعند وصُوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الْجِعِرّانَة أَحصَى السَّبْيَ، فكانَ سِتّة آلافِ رأسٍ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألفاً، والفضّة أربعة آلاف أوقية. فأعطى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمؤلّفة قلوبهم، ممّن أسلمَ مِن أهلِ مَكّةَ، فكان أوّلهم أبا سُفْيَان بن حرْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال له: وابني يزيد، فأعطاه كذلك، قال: وابني معاوية، فأعطاه كذلك، فأخذ أبو سُفْيَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثلاثَمائةٍ من الإبل ومائةً وعشرين أوقيةً من الفضّة. وقال: بأبي أنتَ وأمّي يا رسُولَ الله، لأنتَ كريمٌ في الحرْبِ وفي السِّلْمِ، لقد حارَبْتك، فنعمَ المحَارِبُ كنتَ، وسالمتُكَ فنعمَ المسالمُ أنتَ، هذا غايةُ الكَرَم.

وأعطى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حكيمَ بنَ حزام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مائةً من الإبل، ثمّ سأله مائةً أخرى، فأعطاه إيّاها، ثمّ سأله مائةً، فأعطاه، ثم قال له: «يَا حَكِيمُ، إنَّ هَذَا المَالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بإشرافِ نَفسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأكُلُ وَلا يَشْبَعُ، وَاليَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى». قَالَ حكيمٌ: فقلتُ: يَا رسُولَ الله، وَالّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لا أَرْزَأُ أحَداً بَعْدَكَ شَيْئاً حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكيماً لِيُعْطِيَه العَطَاء، فَيَأبى أنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئاً، ثُمَّ إنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَه، فَأَبَى أنْ يَقْبَلَهُ، فقالَ: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده [١٢٤/٢٩]، حديث رقم: (١٧٥٨٤).

أُشْهِدُكُمْ عَلَى حَكِيمٍ أنّي أعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ الَّذِي قَسَمَهُ اللهُ لَهُ في هَذَا الفَيء فَيأبى أنْ يَأخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أحَداً مِنَ النَّاسِ حَتَّى تُوُفِّي(١).

وأعطى ﷺ الأقْرَعَ بنَ حَابِس مائةً من الإبل، وأعطى عُيينَةَ مثله، وأعطى العَبّاسَ بنَ مِرْدَاس أربعين من الإبل، فقال في ذلك شِعْراً يعاتبُ النّبيَّ ﷺ به حيثُ فضَّلَ الأقرعَ بنَ حابس وعيينةَ بنَ حصْنٍ عليه، ومن ذلك قوله:

كَانَتْ نِهَابًا تَلَافَيْتُهَا ... بِكَرِّي عَلَى المُهْرِ فِي الْأَجْرَعِ

وَإِيقَاظِيَ الْقَوْمَ أَنْ يَرْقُدُوا ... إذَا هَجَعَ النَّاسُ لَمْ أَهْجَعِ

فَأَصْبَحَ نَهْبِي وَنَهْبُ الْعَبِيدِ ... بَيْنَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ

فَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ ... يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي المَجْمَعِ

وَمَا كُنْتُ دُونَ امْرِئٍ مِنْهُمَا ... وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اذْهَبُوا بِهِ، فَاقْطَعُوا عَنّي لِسَانَهُ»، فظَنَّ نَاسٌ أنه ﷺ أمرَ أنْ يُمَثَّلَ بمِرْدَاس، وفزِعَ هو أيضاً لذلك، فَأُتِيَ به إلى الغَنائِم، وقيل له: خذ منها كما شِئْتَ، فقالَ: إنّما أرادَ رَسُوْلُ الله ﷺ أَنْ يَقْطَعَ لساني بالعطاء، وكَرِهَ أَنْ يَأْخُذَ منها شَيئاً، فبعثَ إليه النّبيُّ ﷺ بِحُلَّةٍ، وأَتَمَّ له المائةَ.

وقد كانتِ المؤلفةُ على ثلاثةِ أَصْنَافٍ: صنفٌ يتألّفهم رَسُوْلُ الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه [٢/٥٣٥]، باب: الاستعفاف عن المسألة، حديث رقم: (١٤٠٣).

ليُسْلِمُوا، كصفوان بنِ أميّة، وصنفٌ ليَثْبُتَ إِسْلَامُهم كأبي سُفْيَان بن حرب، وصِنفٌ لدَفعِ شَرِّهِم، كعيينةَ بن حصن والعبّاس بن مرداس والأقرع بن حابس.

وقد رُوِيَ: أَنّ قَائِلًا قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: يَا رَسُولَ الله أَعْطَيْتَ عُيَيْنَةَ بنَ حِصْنٍ، وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِئَةً مِئَةً، وَتَرَكْتَ جُعَيْلَ بْنَ سُرَاقَةَ الضّمْرِيّ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَا وَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ لَجُعَيْلُ بْنُ سُرَاقَةَ خَيْرٌ مِنْ طِلَاعِ الْأَرْضِ كُلّهُمْ مِثْلُ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَلَكِنّي تَأَلّفْتهمَا لِيُسْلِمَا، وَوَكَلْتُ جُعَيْلَ بْنَ سُرَاقَةَ إِلَى إِسْلَامِهِ».

وقد تقدّم أنَ جُعَيلاً هذا كان من فقراءِ المسلمين، وكان رجلاً صالحاً دَمِيماً. وجاءَ عن أنس رضي الله عنه، قال: (كَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فَيُسْلِمُ لِشَيْءٍ يُعْطَاهُ مِنْ الدُّنْيَا، فَلَا يُمْسِي حَتَّى يَكُونَ الْإِسْلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَأَعَزَّ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)[1].

ثم لا زالَ ﷺ يُعْطِي الرَّجُلَ ما بين مائةٍ وخمسين من الإبل، وكانوا قد اجتمعوا إليه، وصاروا يقولون: يا رسولَ الله، اقسِمْ لنا، حتى ألجَؤُوهُ ﷺ إلى شَجَرةٍ فاخْتَطَفَتْ رداءَه، فقال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ، رُدُّوا عَلَيَّ رِدَائِي، فَوَاللهِ لَوْ أَنَّ لِي بِعَدَدِ شَجرِ تِهَامَةَ نَعماً لَقَسَمْتُهُ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ لَا تَلْقَوْنِي بَخِيلاً وَلَا جَبَاناً وَلَا كَذُوباً، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَيْسَ لِي مِنْ هذَا الْفَيْءِ شَيْءٌ، وَلَا هذِهِ الْوَبَرَةُ إِلَّا الْخُمْسُ، وَالْخُمْسُ مَرْدُودٌ فِيكُمْ، فَأَدُّوا الخِيَاطَ وَالمِخْيَطَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ عَاراً وَنَاراً وَشَنَاراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، فجاءَه أحدُ الأنصار بكبّةٍ مِن خيوطِ شَعْرٍ، وقال: يا رسولَ الله أخذتُ هذه الكبّة أعملُ بها بَرْدَعَةَ بعيرٍ لي دَبرَ،

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده [١٩/١٠٦]، حديث رقم: (١٢٠٥٠).

فقال له رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَّا نَصِيبِي مِنْهَا فَلَك»، قال الأنصاري: أما إذا بَلَغْتُ هذا فلا حاجةَ لي بها، ثمّ ألقاها[1].

وَيُرْوَى أَنّ عَقِيلاً كانَ دفعَ لامرأتِه إبرةً كان قَدْ أَخَذَها مِن الغَنيمَة، لأنّها قالَتْ له: إنّي قد علمتُ أنك قد قاتلْتَ، فماذا أصبتَ من الغَنيمَةِ؟، فقال: دونك هذه الإبرة تخيطينَ بها ثيابَك، وألقى إليها إبرةً، فلمّا سمع منادي رَسُوْلِ الله ﷺ يقولُ: مَن أَخَذَ شيئاً فليَرُدَّه، حتّى الخِيَاط والمِخْيَط، رجعَ وأخذَها منها، ثم ألقاها في الغَنَائم.

وفي كلام السُّهَيلي: أَنّ أبا جَهْم بنِ حُذيفة العَدَوِي كانَ على الأنفال يوم حُنَينٍ، فجاءَه خالدُ بنُ البَرْصَاء، وأخذَ من الأنفالِ زِمامَ شَعْرٍ فمَانَعَه أبو جَهْم، فلمَّا تمانَعا ضَرَبَه أبو جَهْم بالقَوسِ فشَجَّهُ، فاسْتَعْدَى عليه خالدٌ رَسُوْلَ الله ﷺ، فقالَ له: «خُذْ خَمْسِينَ شَاةً وَدَعْهُ»، قال: يا رَسُولَ الله أَقِدْنِي مِنْه، فقال: «خُذْ مِائَةً وَدَعْهُ»، فقال: أَقِدْنِي مِنْه، فقال: «خُذْ خَمْسِينَ وَمِائَةً وَدَعْهُ، وَلَيسَ لَكَ إلّا ذَلِكَ، وَلَا أُقِيدُكَ مِنْ وَالٍ عَلَيكَ»، فَقَوَّمَ تلك المائة والخمسين، فكانت بخمس عشرة فريضة من الإبل.

ثمّ أمرَ ﷺ زيدَ بنَ ثابتٍ بإحصَاءِ النّاس، وما بَقِيَ من الغنائم، وهيَ الأربعة الأخماس الباقية، بعدَ أنْ أعطى مَن تَقدّم مَا تقدّم، وكلّ ذلك من الخُمُسِ قسّمَه عليهم، ولما قَسَّمَ ما بَقِيَ خَصَّ كلَّ رجُلٍ بأَرْبعٍ من الإبل وبأربعين شاة، فإنْ كان فارساً أخذ اثنتي عشرة بعيراً، وعشرين ومائة شاة، وإنْ كان معه أكثر

(١) رواه ابن الجارود في المنتقى من السنن المسندة [٢٧١/١]، في باب ما جاء في التغليظ على الغال، وفي أين يوضع الخمس، حديث رقم: (١٠٨٠).

من فرس لم يسهم إلا لفَرَسٍ واحد، ومِن ثَمَّ لمْ يُعْطِ الزبيرَ ﷺ إلا لِفَرَسٍ واحِدٍ، وكان معه أفرَاسٌ.

ومع هذه القسمة؛ فقد قال بعضُ المنافقين: والله إنّ هذه القسمة ما عُدِلَ فيها، ولا أريدُ بها وجْهَ الله، فأُخْبِرَ بذلك رَسُوْلُ الله ﷺ، فغضِبَ غضباً شديداً، واحمَرّ وجهُه الشّريف حتى صَارَ كالصِّرْفِ، وقال: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ يَعْدِلِ الله وَرَسُولُهُ»؟، ثُمّ قَالَ: «يَرْحَمُ الله أَخِي مُوسَىَ ﷺ، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»[1].

والقائل: إنّ هذه القسمة ما عُدِلَ فيها، هو: ذُو الخُويْصِرَة التّميميّ، فقد جاءَ حتى وقف على رَسُوْلِ الله ﷺ، وقال: يا محمّدُ، قد رَأيتُ ما صنعْتَ في هذا اليوم، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَجَلْ، فَكَيفَ رَأَيتَ»؟، فقال: لم أرَكَ عَدَلْتَ، فغضِبَ رَسُوْلُ الله ﷺ، ثمّ قال: «وَيْحَكَ إِذَا لَمْ يَكُنِ العَدْلُ عَنْدِي فَعِنْدَ مَنْ يَكُونُ»؟، فقام إليه عمرُ ﷺ فقال: يا رسُولَ الله، أَلَا أَضرِبُ عنقَه؟، قال: «لَا»، ثمّ أدبرَ، فقام إليه خالدٌ ﷺ، فقال: يا رسُولَ الله، ألا أضربُ عنقَه؟، قال: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي»، فقال خالدٌ ﷺ: وَكَم مُصَلٍّ يقولُ بلسَانه ما ليسَ في قلْبِه، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنّي لمْ أُومَرْ أَنْ أُنَقِّبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَنْ أَشُقَّ بُطُونَهُم»، فأعادَ عمرُ ﷺ القولَ للنّبيِّ ﷺ، فقال: يا رسُولَ الله، دعْنِي فَأَقْتُلَ هَذَا المنَافِق، فقال: «مَعَاذَ الله أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، دَعْهُ فَإِنّهُ سَيَكُونُ لَهُ شِيعَةٌ يَتَعَمّقُونَ فِي الدّينِ حَتّى يَخْرُجُوا

(١) رواه مسلم في صحيحه [٢/٧٣٩]، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، برقم: (١٠٦٢)، عن عبد الله بن مسعود ﷺ. والصِّرْفُ: مادةٌ حمراء يُصبغُ بها الشُّرُكَ، والجلودَ التي يُتخذُ منها النّعَال.

مِنْهُ كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، لَا تَفْقَهُهُ قُلُوبُهم، لَيْسَ لَهُمْ حَظٌّ مِنْهُ إِلَّا تِلَاوَةُ الفَمِ، وَإِنَّهُم يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُم لَأَقْتُلَنَّهُم قَتْلَ عَادٍ وَثَمُود، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِم أَجْراً لِمَنْ قَتَلَهُم عَنْدَ الله يَومَ القِيَامَةِ»[1].

وعن أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بعثَ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه وهو باليمن بذَهْبَةٍ في تُرْبَتِها ـ أي لم تخلص من ترابها ـ، إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقسَّمَها رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ أربعةِ نفرٍ، وهم: الأقْرَعُ بنُ حَابسٍ، وعُيينَةُ بنُ بَدْرٍ، وعَلْقَمَةُ بنُ عُلَاثَةَ، وزَيدُ الخيرِ، فغضبتْ قريشٌ، وقالوا: يعطي صناديدَ نجْدٍ ويدعُنا، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنّي إنّما فعلتُ ذلك لأتألَّفَهم، فجاء إليه رَجلٌ فقال: اتّقِ اللهَ يا محمَّدُ، فغضبَ منه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال: «فَمَنْ يُطِيعُ اللهَ إِنْ عَصَيتُه؟، أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي»؟، وفي روايةٍ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحاً وَمَسَاءً، وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ»؟[2].

---

(١) الحديث بعضُه رواه الإمام البخاري في صحيحه [٤/١٣٧]، برقم: (٣٣٤٤)، وبعضُه في المصنف لعبدالرزاق الصنعاني [١٠/١٥٧]، برقم: (١٨٦٧٧). وقد كان مصداق ما قاله رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنّ ذَا الخُوَيْصرة هذا خرج منه حُرْقُوصٌ المعرُوف بِذِي الثُّدَيَّة، وقصة حمل أمه به عجيبة وهو أول من بويع من الخوارج، وخبرهم مشهور، وقد قاتلهم سيدنا علي كَرَّمَ الله وَجْهَه، والخوارج: قوم يُكَفِّرُون مُرْتِكبَ الكبيرة، ويحكمون بحبوطِ عمَل مرتكبها وتخليدِه في النّار، وأنّ دارَ الإسلام تصيرُ بظهور الكبائر فيها دار كفر، وقد كَفّوا بهذا المُعْتَقدِ عن الكفّار، وفتكوا بأهل الإسْلام؛ بالقتل والنَّهْبِ في وقائع كثيرة.

(٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه [٥/١٦٣]، برقم: (٤٣٥١)، رواه مسلم في صحيحه [٢/٧٤١]، برقم: (١٠٦٤)، وأحمد في مسنده [١٨/١٩٠]، برقم: (١١٦٤٧).

ولمّا أعطى رَسُوْلُ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مَا أعطَى مِن تلك العطايا في قريشٍ وفي قبائل العربِ، ولم يكُنْ في الأنصارِ منها شَيءٌ، فوجَدوا في أنفُسِهم، حتّى كثُرَتْ فيهم القالةُ، وقال بعضُهم: إنّ هَذا لهو العَجَبُ، يُعْطي رَسُوْلُ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قُرَيشاً، ويتركُنا وسيوفُنا تقطرُ من دِمائِهم!، إنْ كَانتْ لشَدِيدة أَنْ نُدْعَى إليهَا ويُعْطَى الغَنِيمَةَ غيرُنا، فإنْ كانَ مِن أمرِ الله صَبرنَا، وإنْ كانَ مِن أمْرِ رَسُوْلِ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ اسْتَعْتَبْناه، فدخلَ سَعْدُ بنُ عُبادَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ على رَسُوْلِ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال له: يا رسولَ الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وَجَدُوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصَبْتَه، فقد قسَّمْتَه في قومِك، وأعطيتَهم عطايا عظيمةً، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ، فقال النبيُّ صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لسَعدٍ: «فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ»؟، قال: يا رسولَ الله، ما أنا إلّا من قومي، قال: «فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الحَظِيرَةِ»، وكانت قبّة من جلدٍ.

فلما اجتمعوا له أتى سَعْدٌ إليه صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: يا رسولَ الله، قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رَسُوْلُ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال لهم: «أَفِيكُم أَحَدٌ مِنْ غَيرِكُم»؟، فقالوا: لَا؛ إلّا ابن أُخْتٍ لنا، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ ابنَ أُخْتِ القَومِ مِنْهُم»، ثُم قال توكيداً: «مَنْ كَانَ هَهُنا مِنْ غَيرِ الأَنْصَارِ فَلْيَرْجِعْ إِلَى رَحْلِهِ»، ثمّ حمدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يَا مَعْشَر الأَنْصَارِ، مَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُموهَا عَليَّ فِي أَنْفُسِكُم»؟، فقال فقهاءُ الأنصار: أما رُؤسَاؤُنا فلم يقولوا شيئاً، وأمّا ناسٌ منّا حَدِيثة أسْنَانهم، قالوا: يغفرُ الله تعالى لرَسُوْلِ الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يُعْطِي قُرَيشاً وَيَتْركنَا وسُيوفُنا تَقْطُر مِن دِمَائِهم، فقال: «أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ الله بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفرِّقِينَ فَجَمَعَكُمْ الله بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ

الله بِي» ، فجعل ﷺ كُلَّمَا قَالَ شَيْئاً قَالُوا له: الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وأفضلُ ، فقال: «يَا مَعْشَر الأَنصارِ ، أَلم يَمُن الله عَلَيكُم بالإِيمانِ وَخَصّكُم بالكَرَامَةِ ، وسَمّاكُم بِأَحْسَنِ الأَسْمَاءِ؛ أنصارِ الله ، وأنصارِ رَسُولِه»؟ ، فقالوا: بلى ، الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وأفضلُ ، قَالَ: «مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجِيبُونِي؟» ، قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ ، فَقَالَ: «لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ: أَتَيْتَنَا طَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ ، وَخَائِفًا فَأَمَّنَّاكَ ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ» ، فَقَالُوا: بَلْ لله المَنُّ عَلَيْنَا وَلِرَسُولِهِ ، وجدتنا في ظُلْمَةٍ فأخرَجنا الله تعالى بك إلى النّورِ ، ووجدتنا على شَفَا جُرُفٍ مِن النّارِ فأنقذنا الله بك ، ووجدتنا ضُلّالاً فهدانا الله بك ، فرضِينَا بِالله رَبّاً ، وبالإسلام دينا ، وبمحمّدٍ نَبيّاً ، فافعل ما شِئْتَ ، فأنتَ يا رسُولَ الله في حِلٍّ . فقَالَ: «أَمَا وَالله لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ ، فَلَصَدَقْتُمْ ، وَصُدِّقْتُمْ» ، ثمَّ قال لهم: «أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا ، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ ، أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رِحَالِكُمْ؟ ، فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا ، وَسَلَكَتِ الأَنْصارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنصارِ ، أَنْتُمْ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصارَ ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ» ، فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلَتْ لِحَاهُمْ ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ الله قِسْمًا وَحَظًّا . ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ ، وتَفَرَّقوا .

ولمّا أُسِرَتِ الشَّيماءُ أختُه ﷺ مِنَ الرضّاعةِ ، صَارت تقولُ: والله إِنّي أُخْتُ صَاحِبِكُم ، وهم لا يُصدّقونَها ، فأخذَها طائفةٌ من الأنصار ، حتّى أتوا بها رَسُوْلَ الله ﷺ ، فَقَالَتْ: يا محمّدُ إِنّي أُخْتُكَ ، فقال لها: «ارْجِعِي إِلَى

الْجِعِرَّانَةِ تَكُونِينَ مَعَ قَومِكِ، فَإِنّي أَمْضِي إِلَى الطَّائِفِ»، فرجعت إلى الْجِعِرّانَة. ثم قال لها قومها: إنّ هذا الرَّجُلَ أخوك، فلو أتيته، فسألته قومَكِ لرَجَونا أَنْ يُحَابِيَنَا، فلمّا قَدِمَ ﷺ إلى الْجِعِرّانَة جاءَته، فَقَالَتْ: يا رسولَ الله، إنّي أختُك، وأَنْشَدَتْهُ أبياتاً، فقال: «وَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ؟، فإنكِ إِنْ تَكُونَي صَادِقَةً فَإِنَّ بِكِ مِنِّي أَثَراً لَنْ يَبْلَى»، فكشفت عن عَضُدِها، وقالت: نعمْ، يا رسولَ الله، حملتُك وأنتَ صغيرٌ، فعضَضْتَنِي هذِه العَضّة، فلمَّا عرَفَ رَسُوْلُ الله ﷺ العلامَةَ، قامَ وبسطَ لها رِداءَه وأجلسَها عليه، ودمعَتْ عيناه، وسألها عن أمّهِ وأبيهِ فأخبرَتْهُ بموتِهما، فقال: «سَلِي تُعْطَي وَاشْفَعِي تُشَفَّعِي»، فاسْتوهَبَتْهُ السَّبْيَ من قومِهَا، فوهبَهم لها، فما عُرِفَتْ مَكْرُمَةٌ مثلها، ولا امرَأةٌ هيَ أيْمَنُ على قومِها من الشَّيْماء، ثم خيّرَها ﷺ وقال: «إِنْ أَحْبَبْتِ فَعِنْدِي مُحَبَّبَةٌ مُكَرَّمَةٌ، وَإِنْ أَحْبَبْتِ أَمْتَعْتُكِ وَتَرْجِعِي إِلَى قَومِكِ»، فَقَالَتْ: بلى تمتعني وتردني إلى قومي، فأعطاها ثلاثةَ أَعْبُدٍ وجَاريةً ونَعَماً وشَاءً، ثمّ رجعت.

ثُمَّ قَدِمَ عليه ﷺ وَفْدُ هَوَازِنَ، وهم أربعة عشر رجلاً مسلمين ورأسُهم زُهَيرُ بنُ صُرَدٍ، وأبو بَرْقَان وهو عمُّ رَسُوْلِ الله ﷺ من الرَّضَاعة، فقالوا له: يَا رسولَ الله، إنا أَصْلٌ وعَشِيرة، وقد أصابنا مِنَ البلاءِ ما لا يخفى عليك، وإنّ فيمن أصبتَهم الأمّهاتِ والأخواتِ والعَمّاتِ والخالاَتِ، وهُنَّ مخَازِي الأقْوَام، ونرْغَبُ إلى الله وإليكَ يا رسولَ الله، في المنِّ علينا بهن. وقال له زُهَيرُ بنُ صُرَدٍ: يَا رَسُولَ الله، إنّمَا فِي الحَظَائِرِ عَمّاتُك وَخَالاَتُكَ وَحَواضِنُكَ اللاّتِي كُنّ يَكْفُلْنَك، وَلَوْ أَنّا مَلَحْنَا لِلحَارِثِ بنِ أَبِي شِمْرٍ، أَوْ لِلنّعْمَانِ بنِ المُنْذِرِ ثُمّ نَزَلَ مِنّا بِمِثْلِ الّذِي نَزَلْت بهِ لرَجَوْنَا عَطْفَهُ وَعَائِدَتَهُ عَلَيْنَا، وَأَنتَ خَيرُ المَكْفُولِينَ. ثم

أنشَدَ أبياتاً يستعطفُ بها رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنها قوله:

امْنُنْ عَلَيْنَا رَسُولَ الله فِي كَرَمٍ ... فَإِنَّكَ المَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا ... إِذْ فُوكَ مَملُوءَةٌ مِنْ مَخْضِهَا الدِّرَرُ

إِنَّا لَنَشْكُرُ لِلنَّعْمَاءِ إِنْ كُفِرَتْ ... وَعِنْدَنَا بَعْدَ هَذَا اليَومِ مُدَّخَرُ

إِنَّا نُؤَمِّلُ عَفْواً مِنْكَ نَلْبَسُهُ ... هَدَى البَرِيَّةَ أَنْ تَعْفُو وَتَنْتَصِرُ

فَأَلْبِسِ العَفْوَ مَنْ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهُ ... مِنْ أُمَّهَاتِكَ إِنَّ العَفْوَ مُشْتَهَرُ

فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبْنَاؤُكُم وَنِسَاؤُكُم أَحَبُّ إِلَيْكُم أَمْ أَمْوَالُكُمْ»؟، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله خَيَّرْتَنَا بَيْنَ أَمْوَالِنَا وَأَحْسَابِنَا؟، بَلْ تَرُدُّ إِلَيْنَا نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَهُوَ أَحَبّ إِلَيْنَا، فَقَالَ لَهُمْ: «أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ، وَإِذَا مَا أَنَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ بِالنّاسِ فَقُومُوا فَقُولُوا: إِنّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ الله إِلَى المُسْلِمِينَ، وَبِالمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ الله، فِي أَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا، فَسَأُعْطِيكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَأَسْأَلُ لَكُمْ»، فَلَمَّا صَلّى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنّاسِ الظُّهْرَ، قَامُوا فَتَكَلَّمُوا بِالَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ». فَقَالَ المُهَاجِرُونَ: وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَالَ الأَنصارُ: وَمَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ الأَقرَعُ بنُ حَابِسٍ: أَمّا أَنا وَبَنُو تَميمٍ فَلَا. وَقَالَ عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ: وأَمَا أَنَا وَبَنُو فَزارَةَ فَلَا. وَقَالَ عَبّاسُ بنُ مِرْدَاسٍ: وأَمّا أَنا وَبَنُو سُلَيْمٍ فَلَا. فَقَالَ بَنُو سُلَيْمٍ: بَلَى، مَا كَانَ لَنَا فَهُوَ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقَالَ العَبّاسُ بنُ مِرْدَاسٍ لِبَنِي سُلَيْمٍ: وَهّنْتُمُونِي!.

فقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ إِخْوَانكُمْ هَؤُلَاءِ قَدْ جَاؤُوا تَائِبِينَ مُسْلِمِينَ،

وَقَدْ خَيَّرْتُهُمْ فَلَمْ يَعْدِلُواْ بِالأَبنَاءِ وَالنَّسَاءِ شَيئاً، وَإِنِّي قَدْ رَأَيتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ النِّسَاءِ سَبْيٌ فَطَابَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَرُدَّهُ فَلْيَرُدَّهُ، وَأَمَّا مَنْ أَبَى وَتمَسّكَ مِنْكُمْ بِحَقِّهِ مِنْ هَذَا السَّبْيِ، فَلْيَرُدَّ عَلَيهِم ذَلِكَ قَرْضاً عَلَينَا، ولَهُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ سِتُّ فَرَائِضَ مِنْ أَوّلِ سَبْيٍ أُصِيبُهُ، ممَّا يُفِيءُ الله عَلَينَا»، فقالوا: قد رضِينا وسَلّمْنَا، فَرَدّوا إلَى النّاسِ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ(١).

وَرَدّ الناسُ جميعَ السّبْي، ولم يتخلّفْ منه أَحَدٌ إلا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ هَوَازِنَ، وَهيَ التِي كانَتْ مع عُيَيْنَةَ بنِ حِصْنٍ، فَإنّهُ أَخَذَ عَجُوزاً مِنْ عَجَائِزِ هَوَازِنَ، وَقَالَ حِينَ أَخَذَهَا: أَرَى عَجُوزاً إنّي لأَحْسِبُ لَهَا فِي الْحَيّ نَسَباً، وَعَسَى أَنْ يَعْظُمَ فِدَاؤُهَا. فَلَمّا رَدّ رَسُولُ الله ﷺ السّبَايَا بِسِتّ فَرَائِضَ أَبَى أَنْ يَرُدّهَا، فَقَالَ لَهُ زُهَيْرُ بنُ صُرَدٍ: خُذْهَا عَنْك، فَوَ الله مَا فُوهَا بِبَارِدٍ، وَلَا ثَدْيُهَا بِنَاهِدٍ، وَلَا بَطْنُهَا بِوَالِدٍ، وَلَا زَوْجُهَا بِوَاجِدٍ، وَلَا دَرُّهَا بِمَاكِدٍ.

وكان رسُولُ الله ﷺ قد دعا على مَن أبى أنْ يَرُدّ مِن السّبي شَيئاً؛ بأنْ يُبْخَسَ الثّمَن، فلمَّا جاءَ وَلَدُ تلكَ العَجُوزِ إلى عُيَيْنَةَ بنِ حِصْنٍ سَاوَمَهُ فيهَا بمائةٍ من الإبل، فأبى عُيَيْنَةُ، فغَابَ عنه الوَلدُ مُدّةً، ثمّ مرَّ عليه مُعرضاً عنه، فقال عُيَيْنَةُ: خُذْهَا بالمائة، فقال: لا أدفعُ لك إلا خمسين، فأبى، فغابَ عنه مُدّةً، ثمّ مرَّ عليه مُعرضاً عنه، فقال: خُذْها بخمسين، فقال: لا أدفع لك إلا خمسةً وعشرين، فأبى، فغابَ عنه، ثم مرَّ عليه مُعرضاً عنه، فقال: خذها بالخمسةِ والعشرين، فقال: لَا آخذها إلّا بعَشَرة، فقال له: خُذْها لا بارَكَ الله لك فيها،

---

(١) رواه أحمد في مسنده [١١/٦١٢]، رقم: (٧٠٣٧)، والنسائي في المجتبى [٦/١٥٧]، رقم: (٣٦٨٨). والفَرِيضَة: هو البعيرُ الذي يؤخذ في الزكاة، سمي بذلك لأنه فرض وواجب على رَبِّ المال.

فأخذَها ولدُها، ثمّ قال لعيينة: إنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ كسَا السَّبيَ قِبْطِيةً قِبْطِيةً، فقال: لا والله، ما ذاك لها عندي، فمَا فارقَه ولدُها حتّى أخذَ لها منه ثوباً قِبْطِيّاً.

وأمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ بحبْسِ أهْلِ مالكِ بنِ عَوفٍ النَّصْرِي بمَكَّةَ عند عمَّتِهم أمِّ عبدِ الله بنِ أبي أميّة، فكلّمَه الوَفدُ في ذلك، وقالوا: يا رسولَ الله، أولئك سَادَاتنا، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إنَّما أُريدُ بِهِمْ الخيْرَ»، وَلَمْ يُجزْ أَنْ تَجْرِي السُّهُمُ في مَالِ مالكِ بن عوفٍ، وقال رَسُوْلُ الله ﷺ لوَفْدِ هَوَازِنَ: «مَا فَعَلَ مَالِكُ بنُ عَوْفٍ»؟، قالوا: يا رسولَ الله هرَبَ، فلَحِقَ بحصْنِ الطّائفِ مع ثقيفٍ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أنهُ إنْ أَتانِي مُسْلِماً رَدَدْتُ عَلَيهِ أَهْلَهُ وَمَالَهُ وَأَعْطَيْتُهُ مِائةً مِنَ الإِبِلِ»، فلما بلغ مالكاً ما صنعَ رَسُوْلُ الله ﷺ في قومِه وأنَّ مالَه وأهلَه لديه مَوفُورٌ، وأنه وعَدَه بمِائةٍ مِنَ الإِبِلِ، نزلَ من الحصن مُسْتَخْفِياً خَوفاً أَنْ تحبسَه ثقيفٌ إذا علموا الحالَ، ورَكِبَ فرَسَه وركضَه، حتّى وصَلَ الدَّهْنَاءَ، ثمَّ رَكِبَ رَاحِلَتَه ولَحِقَ برَسُوْلِ الله ﷺ، فأَدْرَكَهُ بالْجِعِرّانَة، فَأسْلَمَ، وردَّ عليه ﷺ أهلَه ومالَه، واستعْمَلَه ﷺ على من أسلمَ مِن هَوَازِنَ، فكانَ لا يَقدِرُ على سَرْحٍ لثَقِيفٍ إلا أَخَذَهُ ولا رَحْلٍ إلّا مَيَّلَه، وكان رضي الله عنه يرسِلُ بالخُمُسِ ممّا يَغنَمُ لرَسُوْلِ الله ﷺ.

وجاءَهُ ﷺ رَجُلٌ فقال: يَا رَسُولَ الله إنّ لي عندك موعداً، فقال ﷺ له: «صَدَقْتَ فَاحْتكِمْ»، فقال: أَحْتكِمُ ثمانينَ ضَائِنَةٍ ورَاعيها، فقال ﷺ: «هِيَ لَكَ، وَلَقَدْ احْتَكَمْتَ يَسِيراً، وَلَصَاحِبَةُ مُوسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام التِي دَلَّتْهُ عَلَى عِظَامِ يُوسَفَ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام كَانَتْ أَحْزَمَ وَأَجْزَلَ حُكْماً مِنْكَ، فَإِنَّها حِينَ حَكَّمَهَا مُوسَى عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلام، قَالَتْ: حُكْمِي أَنْ تَرُدَّنِي شَابَّةً، وَأَدْخُلَ مَعَكَ الجنَّة».

وَأَحْرَم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْجِعِرّانَة ودخلَ مَكَّةَ ليلاً، واستمرّ يُلبّي حتّى استلمَ الحجرَ، ثم رجع من ليلته، وأصبح بها كبائتٍ فيها، ولم يَسُقْ هَدْياً في هذه العمرة، وحلَقَ رأسَه، وكانَ الحالِقُ لرأسِه الشّريفِ أبا هِنْدٍ الحجَّام، وقيل: أبو خراش بن أميّة، الذي حلق رأسَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحُدَيْبِيَة، وأتى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأعمالِ العُمْرَةِ بعد أَنْ أقامَ بالْجِعِرّانَة ثلاثَ عشرة ليلة، وقال: «لَقَدْ اعْتَمَرَ مِنْهَا سَبْعُونَ نَبِيّا».

٣٠ ـ غَزْوَة تَبُوك

وفي شهر رجب من سنة تسع، بلغَ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الرّومَ قد جمعت له جمُوعاً كثيرةً بالشّام، وأنهم قدّموا مقدّماتهم إلى البَلْقَاء، وسببُ ذلك أنّ مُتَنَصِّرَةَ العَربِ كتبوا إلى هِرَقْل: إنّ هذا الرّجل الذي قد خرج يدّعِي النبوّة أصابَتْ أصحابَه سِنُونٌ أهلَكَتْ أموالَهم، فبعثَ رَجُلاً من عُظَمائِهم وجَهّزَ معه أربعينَ ألفاً. ولم يكُن لذلك الخبرِ حقيقة، وإنّما ذلك شيءٌ قِيلَ لِمنْ يُبلّغُه للمسلمين ليُرْجِفَ بهم، وكان ذلك في أيام عسرة في الناس وجَدْب في البلادِ، وشدّة الحرّ، وحين طابت الثّمار، والناسُ يحبّونَ المقام في ثمارِهم وظلالِهم.

وكان رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يخرجُ في غَزْوَةٍ إلا كَنّى عنها وَوَرَّى بغيرِها، إلا مَا كان مِن غَزْوَة تبوك؛ لبعدِ المشقّة، وشدّة الزّمن، وكثرَةِ العدوّ، وليأخذَ الناسُ أُهْبَتَهُم، فأمرَ النّاسَ بالجِهَاز، وبعث إلى مَكَّةَ وقبائل العرب يِستنفرُهم، وحضَّ أهلَ الغِنى على النّفقة والحمْل في سبيل الله، وأكّدَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم في طلبِ ذلك. وهي آخرُ غزواته.

وقد أنفقَ عثمانُ بنُ عفّان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه نفقةً عظيمةً، لم ينفقْ أحدٌ مثلهَا في هذه الغزوة، فإنّه جَهّزَ عشرة آلاف، أنفقَ عليهم: عشرة آلاف دينار، وتسعمائة بعير، ومائة فرس، مع الزّادِ، وما يتعلق بذلك حتى ما تُرْبَطُ به الأَسْقِيَة. وعند ذلك قال ﷺ: «مَا ضَرَّ عُثْمانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ اليوم»، وقال: «اللَّهُمَّ ارْضَ عَنْ عُثْمانَ، فَإِنّي عَنْهُ رَاضٍ».

وأنفقَ أهلُ الغِنَى مِن غَيرِ عثمان، وكان أوّل من جاءَ بالنفقة أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فإنّه جاءَ بجميع مالِه وكانَ أربعة آلاف درهم، فقال له رَسُوْل الله ﷺ: «هَلْ أَبْقَيتَ لِأَهْلِكَ شَيئاً»؟، فقال: أبقيتُ لهم الله ورَسُولَه. وجاءَ عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنه بنصْفِ ماله، فقال له ﷺ: «هَلْ أَبْقَيتَ لِأَهْلِكَ شَيئاً»؟، فقال: أبقيتُ لهم النصف. وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بمائةِ أوقية. وجاء العباس رضي الله عنه بمالٍ كثير، وكذا طلحة رضي الله عنه، وبعثت النساء رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُنّ بكلّ ما يَقْدِرْنَ عليه من حُلِيِّهِنَّ. وتصدّقَ عاصِمُ بنُ عَدِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بسَبعين وسقاً من التّمر.

وجاءَه ﷺ سَبعةٌ من فقهاءِ الصّحابة يسألونه أن يحملهم. فقال: «لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ»، فأنزل الله تعالى في شأنهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]، ويقال لهؤلاء: البَكّاؤُون، ومنهم العِرْبَاضُ بنُ سَارِيَة رضي الله عنه، وقد حمل العبّاس رضي الله عنه منهم اثنين، وحمل عثمان رضي الله عنه بعد الجيش الذي جهزه ثلاثةً، وحمل يَامِينُ بنُ عمْرو النَّضْرِي رضي الله عنه اثنين، دفع لهما ناضِحاً، وزَوّدَ كلّ واحِدٍ منهما صَاعين مِن تمر.

وعن أَبِي مُوسى ﵁، قَالَ: أَرْسَلَنِي أَصْحَابِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، أَسْأَلُهُ الْحُمْلَانَ لَهُمْ مَعَهُ فِي جَيْشِ الْعُسْرَةِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، إِنَّ أَصْحَابِي أَرْسَلونِي إِلَيْكَ لِتَحْمِلَهُمْ، فَقَالَ: «وَالله لَا أَحْمِلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ» وَوَافَقْتُهُ وَهُوَ غَضْبَانُ وَلَا أَشْعُرُ، فرَجَعْتُ حَزِيناً مِنْ مَنْعِ النَّبِيِّ ﷺ، وَمِنْ مَخَافَةِ أَنْ يَكُونَ النَّبِيُّ ﷺ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ عَلَيَّ؛ فَرَجَعْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَأَخْبَرْتُهُمُ الَّذِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا سُوَيْعَةً إِذْ سَمِعْتُ بِلَالاً يُنَادِي: يا عَبْدَ الله بنَ قَيسٍ فَأَجَبْتُهُ، فقَالَ: أَجِبْ رَسُولَ الله ﷺ يَدْعُوكَ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ، قَالَ: «خُذْ هذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ، وَهذَيْنِ الْقَرِينَيْنِ... ـ لِسِتَّةِ أَبْعِرَةٍ ابْتَاعَهُنَّ حِينَئِذٍ مِنْ سَعْدٍ ـ فَانْطَلِقْ بِهِنَّ إِلَى أَصْحَابِكَ، فَقُلْ إِنَّ الله يَحْمِلُكُمْ عَلَى هؤُلَاءِ، فَارْكَبُوهُنَّ» فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهِمْ بِهِنَّ، فَقُلْتُ: إِنَّ النبيَّ ﷺ يَحْمِلَكُمْ عَلَى هؤُلَاءِ، وَلكِنِّي، وَالله لَا أَدَعُكُمْ حَتَّى يَنْطَلِقَ مَعِي بَعْضُكُمْ إِلَى مَنْ سَمِعَ مَقَالَةَ رَسُولِ الله ﷺ، لَا تَظُنُّوا أَنِّي حَدَّثْتُكُمْ شَيْئاً لَمْ يَقُلْهُ رَسُولُ الله ﷺ؛ فَقَالُوا لِي: إِنَّكَ عِنْدَنَا لَمُصَدَّقٌ، وَلَنَفْعَلَنَّ مَا أَحْبَبْتَ، فَانْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْهُمْ حَتَّى أَتَوُا الَّذِينَ سَمِعُوا رَسُولَ الله ﷺ ومَنْعَه إِيَّاهُمْ، ثُمَّ إِعْطاءَهُمْ بَعْدُ، فَحَدَّثُوهُمْ بِمِثْلِ مَا حَدَّثْتُهُمْ بِهِ.

فلما تجهّز رَسُوْلُ الله ﷺ سارَ بالنّاس وهم ثلاثونَ ألفاً، وقيل: أربعونَ ألفاً، وقيل: سبعونَ ألفاً، وكانت الخيل عشرة آلاف فرَس، والإبل خمسة عشر ألف بعير، وخلّف ﷺ على المدينَةِ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه.

وتَخلّفَ عبدُ الله بن أبي بن سلول، وكان معه جمعٌ مِن المنافقين، بعد أنْ خرجَ وعسْكَرَ بهم أسفل ثنيّة الوَداع، وكان رَسُوْلُ الله ﷺ معسكراً في ثنيّة

الوداع. وقال بن أبي بن سلول عند تخلّفه: يَغْزُو محمّدٌ بني الأصْفَر مع جَهْد الحال والحرِّ والبَلَدِ البَعِيد، وهذا ما لا طاقةَ له به، يحسَبُ محمّدٌ أَنّ قتالَ بني الأصْفَر معه اللّعِبُ، والله لكَأنّي أنظرُ إليهم مُقَرَّنينَ في الحِبَال. وهو يقولُ ذلك إرجافاً برَسُوْلِ الله ﷺ وبأَصْحابِه.

ولما ارتحلَ رَسُوْلُ الله ﷺ عَن ثَنيّة الوداع مُتوجّهاً إلى تبوك عقدَ الألوية والرّايات، فدفعَ لواءَه الأعظم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ورايته ﷺ العُظمَى للزّبير رضي الله عنه، ودفعَ رايةَ الأوس لأسَيدِ بنِ حُضَير رضي الله عنه، وراية الخزرج إلى الحبَابِ بنِ المنذر رضي الله عنه، ودفع لكُلّ بَطْنٍ من الأنصار، ومن قبائل العرب لبعضِهم لواءً، ولبعضِهم رَايةً. وكانَ قد اجتمعَ جمْعٌ من المنافقين في بيتِ سُوَيلِمٍ اليَهُودي، فقال بعضُهم لبعضٍ: أتحسبونَ جِلَادَ بني الأصْفَر كقِتالِ العَرَبِ بعضهم بعضاً، والله لكَأنهم غداً مقرنُون في الحِبَال. يقولونُ ذلك إرْجافاً وتَرْهِيباً للمُؤمنين، فقالَ رَسُوْلُ الله ﷺ لعمّار بن ياسر رضي الله عنه: «أَدرِكْ القَومَ فَإِنّهم قَدْ احْتَرَقُوا، فَاسْألهُم عَمّا قَالُوا، فَإِنْ أَنكَروا فَقُل بَلْ قُلتُم كَذَا وَكَذا»، فانطلقَ عمّارُ بنُ ياسر إليهم، فقال ذلك لهم، فأتوا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ يعتذرونَ إليه، وقالوا: إنّما كنّا نخوضُ ونلعبُ، فأنزلَ الله تعالى فيهم قولَه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: ٦٥].

وقال رَسُولُ الله ﷺ للجَدّ بنِ قَيس: «هَلْ لَكَ فِي جِلَادِ بَنِي الأَصْفَر»، فقال: يا رسولَ الله، أَوَ تَأْذَنُ لي في التّخَلّفِ، ولا تفْتِنّي، فوَ الله لقدْ عرَفَ قومِي أنه مَا من رَجُلٍ أشدّ عجباً بالنّساء منّي، وإنّي أخشَى إنْ رأيتُ نِساءَ بني الأصفر أنْ لا أَصْبِرَ، فأعرضَ عنه رَسُوْلُ الله ﷺ، وقال: «قَدْ أَذِنتُ

لَكَ» ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩]. والفتنة التي سَقطُوا فيها هي فتنةُ التّخَلّفِ عن رَسُوْلِ الله ﷺ ، والرَّغبةِ عنه وعنِ الجهادِ في سبيل الله تعالى.

ولما قال الجَدُّ ما تقدّم، لَامَهُ عند ذلك ولدُه عبدُ الله رضي الله عنه، وقال لَه: والله ما يمنَعُكَ إلا النّفاق، وسَيُنزِلُ الله فيك قُرآناً، فأخَذَ الجدُّ نعلَه وضَرَبَ به وجْهَ ولَدِه، فلمّا نزلت الآية قال له: ألمْ أقلْ لك؟ فقالَ له: اسْكُتْ يالُكَعُ، فوَ الله لأنتَ أَشَدّ عليَّ من محمَّدٍ. وقد نزلَ في شأن غزوة تبوك قولُ الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وقد قيل في معناه: انفروا شباباً وشيوخاً، أغنياء وفقراء، أصحاب شغل، وغير ذي شغل، رُكْباناً ورَجّالةً. ولما قال بعضُ المنافقين لبعضِهم: لا تنفروا في الحرِّ، أنزل الله تعالى فيهم قولَه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، وجاء الضُّعفاءُ والمُقِلّونَ من الأعرابِ ليُؤذَنَ لهم في التّخلف فأذنَ ﷺ لهم، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر ولا إظْهَار عِلّة جَراءَةً على الله تعَالى ورسولِه ﷺ.

وتخلّفَ جمعٌ من المسلمين، منهم: كعبُ بنُ مالك، وهلالُ بنُ أميّة، ومَرَارةُ بنُ الرّبيع، من غير عذرٍ، وكانوا ممّن لا يُتّهَمُ في إسلامِه. ولما خَلّفَ ﷺ عليّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه أرْجَفَ به المنافقون، وقالوا: ما خَلّفَهُ إلا اسْتِثقالاً له، فلمّا قالوا فيه ذلك، أَخَذَ عَليٌ كَرَّمَ الله وَجْهَه سِلَاحَه، ثُمّ خرجَ حتى لَحِقَ برَسُوْلِ الله ﷺ وهُوَ نَازِلٌ بالجُرْفِ، فقالَ: يا نبيَّ الله، زعمَ المنافقونَ أنك

ما خلفتني إلا لأنك اسْتَثْقَلْتَنِي وتَخفَّفْتَ منّي، فقال ﷺ: «كَذَبُوا، وَلَكِنّنِي خَلَّفْتُكَ لِمَا تَرَكْتُ وَرَائِي، فَارْجع فَاخْلُفْنِي فِي أَهْلِي وَأَهْلِكَ، أَفلا تَرْضَى يَا عَلِيُّ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؛ إِلَّا أَنهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، وذلك لأنّ مُوسى عليه السلام حين توَجّه إلى ميقاتِ ربّه استخلفَ أخاه هارون عليه السلام في قومه، فلما سمعَ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه ذلك رَجَع إلى المدينة، ولم يتخلّفْ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه عنِ النّبيِّ ﷺ في مشهدٍ من المشَاهِدِ إلّا في هذِه الغَزْوَة.

ولمّا أَنْ سَارَ النَّبيُّ ﷺ صَارَ الرَّجُلُ يتَخَلّفُ عنه بعدَ مَسِيرِه، ثم يُقالُ: تخلّفَ فلانٌ، فيقولُ ﷺ: «دَعُوهُ، فَإِنْ يَكُ فِيهِ خَيرٌ فَسَيُلْحِقُهُ الله بِكُمْ، وَإِنْ يَكُ غيرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُمْ الله مِنْهُ». وتَبَاطَأَ جمَلُ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه لما به مِن الإِعْيَاءِ وَالتّعب، فتَخَلّفَ عَنِ الجيشِ، فأخَذَ متَاعَه وحملَه على ظهرِه، ثُمّ خرَجَ يتبعُ أثرَ رَسُوْلِ الله ﷺ مَاشِياً فأدركه نَازلاً في بعضِ المنَازل. وقد كانوا قبل مَجِيئِهِ قالوا: يَا رَسُولَ الله، تخلّفَ أبو ذَرٍّ، وأبطأَ به بعِيرُه. فقال ﷺ: «دَعُوهُ، فَإِنْ يَكُ فِيهِ خَيرٌ فَسَيُلْحِقُهُ الله بِكُمْ، وَإِنْ يَكُ غَيرَ ذَلِكَ فَقَدْ أَرَاحَكُمْ الله مِنْهُ». ولما أَشْرَفَ على ذلِكَ المنزل، نظرَهُ شخصٌ، فقال: يا رَسُولَ الله، هذا رجل يمشي على الطّرِيقِ وحْدَه. فقال ﷺ: «كُنْ أَبا ذَرٍّ»، فلمّا تَأملّه القومُ، قالوا: يا رَسُولَ الله، هو والله أبو ذر، فقال ﷺ: «رَحِمَ الله أَبا ذَرٍّ، يَمْشِي وَحْدَهُ، وَيَمُوتُ وَحْدَهُ، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ».

وقد مات رضي الله عنه وحدَه كما قال ﷺ بالرَّبَذَةِ لما أخرجه عثمان رضي الله عنه إليها. فإنه خرَجَ إلى الشَّام لمّا وَليَ عثمان رضي الله عنه الخِلَافة، فكانَ يُغْلِظُ على معاويةَ في أمُورٍ تَقَعُ منه، فشكاه معاويةُ إلى عثمانَ رضي الله عنهما، فاستدعاه من الشَّام ثم أسكنه

الرَّبَذَةِ، ولم يكن معه إلا امرأته وغُلَامُه، فوصَّاهُمَا عند موتِه: أَنْ غَسِّلَاني وكَفِّنانِي ثُمَّ اجْعَلَاني على قارعة الطَّريق، فأوّل مَن يمرّ بكم قولا له: هَذَا أبو ذَرٍّ فأعينُونا على دَفْنِه، فلما ماتَ فعَلَا به ذلك، وأقبل عبدُ الله بنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جماعة معه من أهل العراق، فقام إليهم الغلام، وقال: هَذا أبو ذَرٍّ صاحبُ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعينُونَا على دَفنِه، فاسْتَهَلّ ابنُ مسعود يبكي، ويقول: صدق رسولُ الله؛ تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك، ثمّ نزَلَ هو وأصحابُه فوَارَوهُ، ثُمَّ حَدّثهم عبدُ الله بن مسعود بخبره.

وكان ممّن تخلفَ عن مَسِيره معَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو خَيْثَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه دخلَ على أهلِه في يوم حَارٍّ ـ بعد أَنْ سارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أياماً ـ، فوجدَ امرأتين له في عريشتين لهما في حَائطٍ، وقد رَشَّتْ كلّ منهما عريشتها، وبرّدَتا فيها ماءً، وهيّأتا طعاماً، وكانَ يوماً شديدَ الحرِّ، فلما دخلَ نظرَ إلى امرأتيه وما صَنَعَتا فقال: رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحَرِّ، وأبو خَيْثَمَةَ في ظِلٍّ بَارِدٍ ومَاءٍ مُهَيّأ، وامرأةٍ حسناء!، ما هذا بالنَّصَف. ثم قال: والله لا أدخلُ عريشَ وَاحِدَةٍ منكما حتّى ألحقَ برَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهَيّئا لي زَاداً، ففَعَلَتا، ثمّ أخذَ سيفَه ورُمحَه، وقدم نَاضِحَه فارْتَحلَ، ثم خرجَ في طلبِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتّى أدركَهُ حينَ نزلَ بتبوك. وقد كان أبو خيثمةَ أدركَ عُمَيرَ بنَ وَهْبٍ في الطَّريق يطلبُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فترافقا حتّى دنوا من تبوك، فقال أبو خيثمة: إنّ لي ذَنباً فلا عليك أَنْ تَتخَلّفَ عنّي حتّى آتي رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففعل، فلما دَنَا أبو خَيْثَمَةَ قال النّاسُ: هَذا رَاكبٌ مقبلٌ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ». فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة، فلما أناخَ أقبل يسلم على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبرَه بِخَبَرِه، فدعا له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخَيرٍ.

ولما مَرَّ رَسُوْلُ الله ﷺ بالحِجْرِ دِيَارِ ثَمُودَ، سَجّى ثوبَه على رأسِه، واسْتَحَثَّ رَاحِلَته، وقال: «لَا تَدْخُلُوا بيُوتَ الذِينَ ظَلَمُوا إِلّا وَأَنْتُمْ بَاكُونَ خَوفاً أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُم»، ثم نهى الناسَ من أنْ يَشْربوا من مائِها شيئاً، أو أن يتوضؤوا به للصلاة، وأن لا يعجن به عَجين، وأن لا يحاس به حيس، ولا يطبخ به طعام، وأن العجين الذي عجن به، أو الحيسَ الذي فعل به يُعْلِفُونَه الإِبلَ، وأَنّ الطبيخَ الذي طُبِخَ به يُلْقَى، ولا يأكلوا منه شيئاً.

ثمّ لا زالَ ﷺ سائراً، حتى وقفَ على البئرِ التي كانت تشربُ منها ناقة نَبِيِّ الله صالح، فنزل هناك، وأخبرهم ﷺ أنها تَهِبُّ عليهم في اللّيل رِيحٌ شديدةٌ، وأمرَ مَن كان له بعيرٌ أن يَشُدّ عِقَالَه، ونهى النّاسَ في تلك الليلة عَنْ أَنْ يخرجَ واحدٌ منهم وحدَه؛ بل معه صاحبُه، فخَرج شَخصٌ وحدَه لحاجَتِه فخُنِقَ، وخرَج آخرُ كذلك في طلبِ بعيرٍ له نَدّ، فاحتمَلتْهُ الرّيحُ حتى ألقَتْهُ بجَبل طَيِّءٍ، فأُخْبِرَ بذَلِكَ رَسُوْلُ الله ﷺ، فقال: «أَلَمْ أَنْهكُمْ أَنْ يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنكُمْ إِلّا وَمَعَهُ صَاحِبُه»؟، ثم دعا للذي خُنِقَ فَشُفِيَ، وللذي ألقَتْهُ الريحُ بجبلِ طَيِّءٍ فجاءَ إليه ﷺ حينَ قَدِمَ المدينةَ.

وكان رَسُوْلُ الله ﷺ يَسْتَخْلِفُ على عَسْكَرِه أبا بكرٍ رضي الله عنه يُصَلّي بالناس ويَسْتَعْمِلُ على العَسْكَرِ عبّادَ بنَ بشر رضي الله عنه، وكانَ يطوف في أصحَابِه عليهم، ثم أصبحَ النّاسُ يوماً ولا ماءَ معهم، وحصل لهم مِن العطش ما كادَ يقطعُ رقابَهم، فحَمَلَهم ذلك على نَحْرِ إِبِلِهم ليشُقّوا أكرَاشَها ويشرَبُوا ماءَها. قال عمرُ رضي الله عنه: خرجنا في حَرٍّ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطَشٌ حتّى أَنّ الرّجلَ لينحرُ بعيرَه فيعصر فرثه فيشربه ويجعلُ ما بقيَ على صدرِه، فشكونا ذلك للنّبيِّ ﷺ،

وقالَ أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: يَا رسولَ الله، قد عَوَّدَك الله من الدعاء خيراً، فادعُ اللهَ لنا، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أَتُحِبُّ ذَلِكَ»؟، قال: نعم، فرفع يدَيه ودعَا، فأرسلَ الله تعالى سحابةً، فأمطرتْ حتى ارْتَوَى النّاسُ، واحتملوا ما يحتاجون إليه. وذكر أنَّ تلك السّحابة لم تتجاوزِ العَسْكَرَ، فقال أنصاريٌّ لرَجُلٍ مُتَّهَمٍ بالنّفاق: ويحكَ ألا ترى؟!، فقال: سَحَابَةٌ مَارّةٌ، وإنّما مُطِرْنَا بِنَوءِ كذا وكذا.

وعن المغيرةِ بن شُعبةَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: لما كنّا فيما بينَ الحجْرِ وتبُوك ذهبَ رَسُوْلُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لحاجَتِه، وتبعْتُه بماءٍ، فأَسفرَ النَّاسُ بصَلاةِ الفجر فقدّموا عبدَ الرحمن بنَ عوف رَضِيَٱللَّهُعَنهُ فصَلّى بهم، فانتهى صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعدَ أنْ توَضّأ ومسَحَ خُفَّيهِ وقد صَلّى عبدُ الرحمن بن عوف ركعةً، فصلّى رَسُوْلُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ معَ عبدِ الرّحمن ركعةً، وقامَ فأتى بالركعةِ الثّانية، ثم قال لهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعدَ فراغِه: «أَحْسَنْتَمْ»، أو «أَصَبْتُمْ»، ثُمَّ قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «لَمْ يُتَوَفَّ نَبِيٌّ حَتَّى يَؤُمَّهُ رَجُلٌ صَالِحٌ مِنْ أُمّتِهِ».

وفي الطّرِيقِ عَارضَتْهُم حَيّةٌ عَظِيمَةُ الخِلْقَةِ، فانحَازُ النّاسُ عنها، فأقبلتْ حتّى وَقَفتْ على رَسُوْلِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهُوَ عَلَى رَاحِلَتِه طَوِيلاً، فقامَتْ قَائِمةً والنّاسُ ينظرونَ إليها، ثم التَوتْ حتّى اعْتَزَلَتْ الطّرِيقَ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «تَدْرُونَ مَنْ هَذَا»؟، فقالوا: الله ورسولُه أعلمُ، قال: «هَذَا أَحَدُ الرَّهْطِ الثَّمَانِيَةِ مِنَ الجِنِّ الذِينَ وَفَدُوا إِليَّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ، فَرَأى عَلَيهِ مِنَ الحَقِّ حِيْنَ أَلَمّ رَسُوْلُ الله ـ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ـ بِبَلَدِهِ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيهِ، وَهَاهُوَ يُقْرِئُكُمْ السَّلَامَ»، فقالَ النّاسُ: وعليه السَّلامُ ورحمةُ الله.

وحصل لرَوَاحِلِ الجَيشِ إِعْياءٌ وتعبٌ شديدٌ بسببِ الحرِّ الشّديدِ، وبعد

المسافة فدعا لهم النبيُّ ﷺ، فعن فُضَالَةَ بنِ عُبَيدٍ: أنّ رَسُوْلَ الله ﷺ لما غَزَا غَزْوَةَ تَبُوكَ جَهِدَ الظَّهْرُ جَهْداً شَدِيداً حتّى صَارُوا يسُوقُونَه، فشكوا ذلك إليه ﷺ ورَآهم يسُوقونَه، فوقفَ ﷺ في مَضِيقٍ والنّاسُ يَمُرّونَ فيه، فقال: «اللَّهُمَّ احْمِلْ عَلَيهَا فِي سَبِيلِكَ، فَإِنَّكَ تَحْمِلُ عَلَى القَوِيِّ وَالضَّعِيفِ وَالرَّطْبِ وَاليَابِسِ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ»، فزَالَ ما بها من الإعياءِ والتّعبِ، حتى ما دخلنا المدينةَ إلّا وهي تنازِعُنا أَزِمَّتَها.

ولما نزلوا تبوكَ وجدوا عينَها قليلةَ الماءِ، فاغترَفَ رَسُوْلُ الله ﷺ بيدِه الشريفة غرْفَةً من مائِها، فمَضْمَضَ بها فَاهُ، ثم بصقه فيها، ففارَتْ عينُها حتى امتلأتْ. فعن حذيفةَ رضي الله عنه قال: بلغ رَسُوْلَ الله ﷺ أَنَّ في مَاءِ عينِ تبوك قِلَّةً، فقال لهم ﷺ: «إِنَّكُمْ تَأْتُونَ غَداً إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى عَينَ تَبُوكَ، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَنَالُوهَا حَتّى يَضْحَا النَّهَارُ، فمَنْ جَاءَهَا فَلَا يَمَسُّ مِنْ مَائِهَا شَيْئاً حَتّى آتِي»، ثم أمرَ منادياً يُنادي بذلك، فجئناها فإذا العينُ مثل الشِّرَاكِ تَبِضّ مِن مائِها، وقد سبقَ إليها رَجُلانِ من المنافقين، ومَسَّا مِن مَائِها، فسَبَّهُما رَسُوْلُ الله ﷺ لما بَلَغَه ذلك، ثُمّ إِنّهم غرَفوا من تلك العين قليلاً قليلاً، حتى اجتمعَ شيءٌ في شَنٍّ، فغسَل رَسُوْلُ الله ﷺ وَجْهَهُ ويدَيه، ومَضْمَضَ، ثم أعاده فيها، فجَرتِ العينُ بماءٍ كثيرٍ.

وفي تبُوكَ أتاه ﷺ يُحَنَّةُ بنُ رُؤْبَةَ صاحبُ أَيْلَةَ، وبصُحبَتِه أهلُ جَرْبَاء، وأَهْلُ أَذْرُحٍ، وأهل مِينَاء، وأهدَى لرَسُوْلِ الله ﷺ بغْلَةً بيضَاءَ، فكسَاه رَسُوْلُ الله ﷺ بُرْداً، وصالحه على إعطَاءِ الجزْيَةِ بعدَ أَنْ عَرَضَ عليه الإسلامَ فلمْ يُسْلِمْ، وكتبَ ﷺ له ولِأهلِ أَيلَةَ كتاباً فيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ، هَذَا أَمَنَةٌ مِنَ اللهِ وَمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ لِيُحَنَّةَ بْنِ رُؤْبَةَ وَأَهْلِ أَيْلَةَ، سُفُنِهِمْ وَسَيَّارَتِهِمْ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ، لَهُمْ ذِمَّةُ اللهِ وَمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَأَهْلِ اليَمَنِ وَأَهْلِ البَحْرِ، فَمَنْ أَحْدَثَ مِنْهُمْ حَدَثاً فَإِنَّهُ لَا يَحُولُ مَالُهُ دُونَ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ، وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يُمْنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ، وَلَا طَرِيقاً يُرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ». ثمّ كتبَ لأَهْلِ أَذْرُحٍ وَجَرْبَاءَ: «بِسْمِ اللهِ الرّحمن الرّحيم، هذا كِتَابٌ مِنْ محمَّدٍ النّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأَهْلِ أَذْرُحٍ وَجَرْبَاءَ، أَنَّهُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللهِ وَأَمَانِ مُحَمَّدٍ، وَأَنَّ عَلَيهِمْ مِائَةَ دِينَارٍ فِي كُلِّ رَجَبٍ، وَافِيَةً طَيِّبَةً وَاللهُ كَفِيلٌ بالنُّصْحِ وَالإِحْسَانِ إِلَى المسْلِمِينَ». وصَالحَ أهلَ مِينَاء على رُبْعِ ثِمَارِهم.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: رأيتُ ونحنُ بتبوكَ شعلةً من نارٍ في ناحية العسكر، فاتبعتها أنظرُ إليها، فإذا رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر وعمر، وإذا معهم عبدُ الله ذو البِجادَيْنِ المُزَني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حفرته وأبو بكر وعمر يُدَلِّيَانِهِ إِلَيهِ وهُو يقُولُ: «أَدْنِيَا إِلَيّ أَخَاكُمَا»، فَدَلَّيَاهُ إِلَيْهِ فَلَمَّا هَيَّأَهُ لِشِقِّهِ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَمْسَيْتُ رَاضِياً عَنْهُ فَارْضَ عَنْهُ»، حتى قلتُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ صَاحِبَ الحُفْرَة. وسُمِّيَ ذا البِجادَيْنِ لأنه لم يَجِدْ إلّا بِجَاداً واحِداً، والبِجَادُ: الكِسَاء الغليظ المخطط، فشَقّه نصفين فاتّزَرَ بوَاحِدٍ، وارْتَدَى بالآخرِ، ثم قَدِمَ المدينةَ فأسلمَ، وقرأ قرآنا كثيراً، وكان اسمُه عبد العُزّى فسَمّاه رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدَ الله، ولما خرجَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تبوكَ خرجَ معه وقال: يا رسُولَ الله ادع الله لي بالشَّهَادة، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ائْتِنِي بِلِحَاءِ شَجَرَةٍ»، فأتاه بذلك، فرَبَطَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عَضُدِه، وقال: «اللَّهُمَّ حَرِّمْ دَمَهُ عَلَى الكُفَّارِ»،

فقال: يا رسُولَ الله، ليسَ هذا ما أردتُ، قال: «إِنَّكَ إِذَا أَخَذَتْكَ الحُمَّى فَقَتَلَتْكَ فَأَنْتَ شَهِيدٌ»، فأخذَتْه الحمّى بتبوكَ أياماً، فماتَ بها، فلما فرغوا من جهازِه وحملوه، قال النبيُّ ﷺ: «أُرْفُقُوا بِهِ رَفَقَ الله بِكُمْ، فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَه».

وعن العرباض بن سارية ﵁، قال: كنت مع رَسُوْلِ الله ﷺ بتبوك، فقال ليلةً لبِلَالٍ: «هَلْ مِنْ عَشَاءٍ»؟، قال بلالٌ: والذي بعثَك بالحقِّ لقَدْ نفَضْنا جُرُبَنا، فقال: «انْظُرْ عَسَى أَنْ تَجِدَ شَيْئاً»، فأخذَ الجُرُبَ يَنفِضُها جِرَاباً جِرَاباً، فتقعُ التّمرةُ والتّمْرَتَان، حتّى رأيتُ في يدِه ﷺ سَبْعَ تمَرَاتٍ، ثم دعا بصَحْفَةٍ، فوضعَ التّمرَ فيها، ثم وضعَ يدَه الشّريفةَ على التَّمَرَاتِ، وقال: «كُلُواْ بِسْمِ الله»، فأكلنَا ثلاثة أنفس، وأحصَيتُ أربعاً وخَمْسِينَ تمْرةً أعدُّها عدًّا ونوَاها في يَدِي الأخْرَى، وصَاحِبَاي يصْنعانِ كذَلك، فشَبِعَا، ورفعنا أيدِيَنا، فإذا التّمرات السّبع كما هيَ، فقال ﷺ: «يَا بِلَالُ، ارْفَعْهَا فَإِنَّهُ لَا يَأْكُلُ مِنْهَا أَحَدٌ إِلّا نَهَلَ شِبَعاً»، فلما كانَ من الغدِ دعا ﷺ بلالاً بالتمراتِ، فوضعَ ﷺ يده الشريفة عَلَيهِنّ، ثم قال: «كُلُواْ بِسْمِ الله»، فأكلنا حتى شبعنا وإنا لعشرة، ثم رفعنا أيدينا وإذا بالتمرات كما هيَ، ثم قال ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَسْتَحْيِيَ مِنْ رَبّي لَأَكَلْنَا مِنْ هَذِهِ التَّمَرَاتِ حَتَّى نَرِدَ إِلَى المَدِينَةِ مِنْ آخِرِنَا»، ثم أعطاهن غلاماً.

وأقامَ النبيُّ ﷺ بِتَبُوكَ بضع عشرة ليلةً، يُصَلّي قصراً ركعتين، ولم يُجَاوِزْ تبوكَ، وقد اسْتَشَارَ ﷺ أصحابَه في مجاوَزَتِها، فقال له عمرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: إنْ كُنْتَ أُمِرْتَ بالسَّيرِ فَسِرْ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ:

«لَوْ أُمِرْتُ بِالسَّيرِ لَمْ أَسْتَشِرْكُمْ فِيهِ»، فقال عمرُ: يا رسولَ الله، إنّ للرُّوم جموعاً كثيرة، وليسَ بها أحَدٌ من أهل الإسلام، وقد دنونا، وقد أفزَعَهُم دُنُوُّكَ، فلو رجعنا هذه السّنة حتى نرَى أو يحدثَ الله أَمْراً.

وخطبَ النبيُّ ﷺ في تبوك خطبة قال فيها: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله، وَأَوْثَقُ الْعُرَى كَلِمَةُ التَّقْوَى، وَخَيْرُ المِلَلِ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَأَحْسَنُ السُّنَنِ سُنَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَحْسَنُ القَصَصِ هَذَا الكِتَابُ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ عَوَاقِبُهَا، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَشْرَفُ الْقَتْلِ قَتْلُ الشُّهَدَاءِ، وَأَعْظَمُ الضَّلَالَةِ الضَّلَالَةُ بَعْدَ الهُدَى، وَخَيْرُ العِلْمِ مَا نَفَعَ، وَخَيْرُ الْهُدَى مَا اتُّبِعَ، وَشَرُّ الْعَمَى عَمَى الْقَلْبِ، وَاليَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى، وَمَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى، وَنَفْسٌ تُنَجِّيهَا خَيْرٌ مِنْ إِمَارَةٍ لَا تُحْصِيهَا، وَشَرُّ الْعَاذِلَةِ حِينَ حُضُورِ المَوْتِ، وَشَرُّ النَّدَامَةِ نَدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ لَا يَأْتِي الْجُمُعَةَ إِلَّا دَبْراً، وَلَا يَذْكُرُ اللهَ إِلَّا مُهَاجِراً، وَخَيْرُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَرَأْسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ الله، وَخَيْرُ مَا أُلْقِيَ فِي القَلْبِ اليَقِينُ، وَالنَّوْحُ مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ، وَالغُلُولُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ، وَالْكَنْزُ كَيٌّ مِنَ النَّارِ، وَالشِّعْرُ مِنْ مَزَامِيرِ إِبْلِيسَ، وَالخَمْرُ جِمَاعُ الْإِثْمِ، وَالنِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ، وَالشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ، وَشَرُّ المَكَاسِبِ كَسْبُ الرِّبَا، وَشَرُّ المَآكِلِ أَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَالشَّقِيُّ مِنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَمِلَاكُ الْأَمْرِ خَوَاتِمُهُ، وَشَرُّ الرَّوَايَا رَوَايَا الكَذِبِ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ، وَسِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ، وَأَكْلُ لَحْمِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ الله، وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ، وَمَنْ يَتَأَلَّ عَلَى الله يُكَذِّبْهُ، وَمَنْ يَغْفِرْ يَغْفِرِ اللهُ لَهُ، وَمَنْ يَعْفُ يَعْفُ الله عَنْهُ، وَمَنْ يَكْظِمِ الغَيْظَ يَأْجُرْهُ اللهُ، وَمَنْ



يَعْرِفِ البَلَاءَ يَصْبِرْ عَلَيْهِ، وَمَنْ لَا يَعْرِفْهُ يُنْكِرْهُ، وَمَنْ يُسَمِّعْ يَسْمَعِ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يَسْتَكْبِرْ يَضَعْهُ اللهُ، وَمَنْ يُطِعِ الشَّيْطَانَ يَعْصِ اللهَ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ يُعَذِّبْهُ اللهُ»(١).

وأُهْدِيَ له ﷺ جُبْنَةٌ مِن بعضِ أَهْلِ الكِتاب، فدعَا بالسّكين، فسَمّى الله وقطعَ ثمّ أكلَ. ثم انصَرَفَ ﷺ قَافِلاً إِلَى المدينة. ولَمّا انصَرَفَ ﷺ مِن غَزْوَةِ تَبُوكَ، قَالَ حِينَ دَنَا مِنَ المَدِينَةِ: «إِنَّ بِالمَدِينَةِ لَأَقْوَاماً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِياً، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ» قَالُوا: وَهُمُ الْيَوْمَ بِالمَدِينَةِ؟!، فقَالَ: «نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ».

وكان معه ﷺ مِن المنافقين اثنا عشر رَجُلاً، وقَدِ اجْتمعَ رَأيُهم على أَنْ ينكثُوا برَسُوْلِ الله ﷺ في العَقَبَةِ التي بين تبوكَ والمدينةِ، وقالوا: إذَا وَصَلَ إلى العَقبةِ دفَعْناهُ عَنْ رَاحلَتِه في الوَادِي، فأخبرَ الله تعالى رسولَه ﷺ بذلك، فلمّا وصَل الجيشُ العَقَبَةَ نَادَى مُنَادِي رَسُوْلِ الله ﷺ: إِنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَسْلُكَ العَقَبَةَ، فلا يَسْلكْهَا أَحَدٌ، واسْلكُوا بَطْنَ الوَادِي فإنّه أَسْهَلُ لكم وأَوْسَعُ. فسلكَ الناسُ بطْنَ الوَادِي، وسَلكَ رَسُوْلُ الله ﷺ العَقَبَةَ، فلَمَّا سَمِعَ المنافقونَ بِذَلِكَ استعدّوا، وتَلَثّمُوا، ثم سَلكُوا العَقبةَ، فأَمرَ ﷺ عمَّارَ بنَ ياسرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهما أَنْ يأخذَ بِزِمَامِ النّاقةِ يَقُودُها، وأَمرَ ﷺ حُذَيفَةَ بنَ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما أَنْ يَسُوقَ مِن خَلْفِه. فبينا رَسُوْلُ الله ﷺ يسيرُ في العَقَبةِ إِذْ سَمِعَ حِسَّ القَومِ قَدْ غَشوهُ، فنَفَرَتْ نَاقةُ رَسُوْلِ الله ﷺ حتّى سقطَ منها بعضُ مَتَاعِه، فغَضِبَ رَسُوْلُ الله ﷺ، وأَمَرَ حُذَيفَةَ أَنْ يَرُدّهُم، فرَجَعَ حُذَيفَةُ إِليهم، وهُمْ مُلَثّمُون، وقد رَأى غضبَ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه [١٧٢/١٠]، ورواه الطبراني في المعجم الكبير [٨١/٨]..

رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجعَل يضْرِبُ وجوهَ رَوَاحِلِهم ، بمِحْجَنٍ كانَ معه ، وقال: إليكم إليكم يَا أعداءَ الله ، وصرخَ بهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فولّوا مُدبرين ، وعَلِمُوا أنّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اطّلعَ على مَكْرِهم بِه ، فانْحَطّوا مِنَ العَقَبةِ مُسْرِعينَ إِلَى بَطْنِ الوَادِي واخْتَلطُوا بالنّاسِ ، فرجَعَ حُذَيفةُ يسُوقُ النّاقَةَ ، فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ عَرَفْتَ أَحَداً مِنَ الرَّكْبِ الذِينَ رَدَدْتَهُمْ» ؟ ، قال: لَا ، كانوا مُلَثّمينَ واللّيلةُ مُظْلِمَةٌ ، عَرَفْتُ راحلَةَ فُلَان ورَاحِلَة فُلَان ، فقال: «هَلْ عَلِمْتَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ ، وَمَا أَرَادُوهُ» ؟ ، قال: لا ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُمْ مَكَرُواْ لِيسِيرُواْ مَعِي فِي العَقَبَةِ فَيَزَاحِمُونِي فَيَطْرَحُونِي مِنْهَا ، وإِنَّ اللهَ أَخْبَرَنِي بِهِمْ وَبِمَكْرِهِمْ ، وَسَأُخْبِرُكَ بِهِمْ فَاكْتُمْهُمْ» . وكان حذيفةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ صَاحِبَ سِرِّ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقد قال له: «إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فَلَا تَذْكُرَنَّهُ ، إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أُصَلِّي عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ» ، وَعَدَّ جَمَاعَةً مِن المنافقين ، فلمَّا تُوفيَّ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ عمرُ بنُ الخطّاب رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إذَا مَاتَ الرَّجُلُ ممَّنْ يُظَنُّ بِهِ أنهُ من أولئكَ الرَّهْط أخَذَ بيدِ حُذَيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فقادَه إلى الصَّلاةِ عليه ، فإنْ مشَى معَه حُذَيفَةُ صَلّى عليه عُمَرُ وَإِنْ انْتزَعَ يدَهُ مِن يَدِه ترَكَ الصَّلاةَ عليه .

ولما أَصْبَحَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءَ إليه أُسِيدُ بنُ حُضَير فقال: يا رَسُولَ الله ما منعكَ البارِحَةَ من سُلُوكِ الوَادِي ، فقد كانَ أَسْهَلَ مِن سُلوكِ العَقَبةِ ؟ ، فقالَ: «أَتَدْرِي مَا أَرَادَ المنافِقُونَ» ؟ ، ثم ذكر له القِصَّةَ ، فقَال: يا رسُولَ الله ، إنْ أَحْبَبْتَ بَيِّنْ لي أَسْمَاءَهم ، والذي بعثكَ بالحقِّ لا أبرحُ حتّى آتيكَ برؤُوسِهم ، فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ: إِنَّ مُحَمَّداً قَاتَلَ بِقَومٍ ؛ حَتَّى إِذَا أَظْهَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِمْ ، أَقْبَلَ عَلَيهِمْ يَقْتُلُهُمْ» ، فقال له: يَا رسولَ الله ، هَؤُلاءِ ليسُوا بأصْحَابٍ ،

فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَلَيْسَ يُظْهِرُونَ الشَّهَادَةَ»؟، ثمّ جمعَهُم رَسُوْلُ الله ﷺ وأخبرَهم بما قالوه، وما أجمعَوا عليه، فحلفوا بالله ما قالوا، ولا أَرَادُوا الذي ذَكرَه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤].

وعن أبي قَتَادَةَ رضي الله عنه قال: بينما نحنُ نسيرُ مع رَسُوْلِ الله ﷺ، وهو قافِلٌ من تبوكَ وأنا معه، إذ خَفقَ خَفْقَةً، وهو على رَاحِلَتِه فَمَالَ على شِقِّهِ، فدنوتُ منه فدَعَّمْتُه، فانْتبَهَ، فقال: «مَنْ هَذَا»؟، قلت: أبو قتادةَ يا رسُولَ الله، خِفْتُ أَنْ تَسْقُطَ فدعَمْتُكَ، فقالَ: «حَفِظَكَ الله كَمَا حَفِظْتَ رَسُولَهُ»، ثم سارَ غير كثيرٍ، ثم فعل مثلها، فدَعَّمْتُه، فانتبَهَ، قال: «يَا أَبَا قَتَادَةَ هَلْ لَكَ فِي التَّعْرِيسِ[1]»؟، فقلتُ: ما شِئْتَ يا رسُولَ الله، قال: «انْظُرْ مَنْ خَلْفَكَ»، فنظرتُ فإذا رَجُلانِ أو ثلاثةٌ، فقال: «ادْعُهُمْ»، فقلتُ لهم: أجيبوا رَسُوْلَ الله ﷺ، فجَاؤُوا، حتّى اجتمَعْنَا وكنّا خَمْسَةً برَسُوْلِ الله ﷺ، فمالَ رَسُوْلُ الله ﷺ عن الطّريقِ، ثمّ قال: «احْفَظُوا عَلَيْنَا صَلَاتَنَا»، ثُمّ كان أوّل من استيقظَ رَسُوْلُ الله ﷺ، والشَّمْسُ في ظهرِه، فقُمْنا فَزِعين. ثمّ قال: «ارْكَبُواْ»، فرَكِبنا، وسِرْنَا حتّى ارتفعتِ الشّمسُ، ثم دَعَا بميضَأَةٍ كَانتْ معي فيها شَيءٌ مِن ماءٍ، فتَوَضّأ منها، وبقيَ فيها جُرْعَةٌ مِن ماءٍ، فقال لي: «احْفَظْ عَلَينَا ميضَأَتَكَ يا أبا قتادة، فَسَيَكُونُ لهَا نَبَأٌ» ثم صلّى بنا رَسُوْلُ الله ﷺ الفَجْرَ بعدَ طُلوعِ

---

(١) **التَّعْرِيسُ**: هو النزول في آخر الليل. وقيلَ: التَّعْرِيسُ النزول في المَعْهَد أيَّ حين كان من ليل أو نهار.

الشَّمْسِ. وبعدَ أَنْ صَلّينا وركِبْنا جَعَلَ بعْضُنا يَهْمِسُ إلى بَعضٍ: مَا كَفّارةُ ما صَنَعْنا بتَفْرِيطِنَا في صَلَاتِنا؟، فقال لنا النبيُّ ﷺ: «مَا هَذَا الذِي تَهْمِسُونَ دُونِي»؟، فقلنا له: يا رسُولَ الله، بتفريطِنا في صَلاتِنا، فقال: «أَمَا لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»؟، ثم قال: «إنهُ لَيْسَ فِي النَّومِ تَفْرِيطٌ، إِنَّما التَّفْرِيطُ عَلَى مَنْ لمْ يُصَلِّ الصُّبْحَ حَتَّى يَجِيءُ وَقْتُ الأُخْرَى». ثمّ لَحِقَ ﷺ بالجيشِ، وقبلَ لحُوقِهِ ﷺ بهم، قد قال لأَصْحَابِهِ: مَا تَرونَ النَّاسَ فَعَلُوا»؟، يعني الجيشَ، قالوا: الله ورسُولُه أَعْلَمُ، فقال ﷺ: «لَوْ أَطَاعُوا أَبا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَشَدُوا»، وذلك أَنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما قد كانا أرَادَا أنْ يَنْزِلَا بالجيشِ عَلَى مَاءٍ، فأبوا ذلك عليهما، فنزَلا على الماءِ فأبوا ذلك عليهما، فسَارَا بهم حتى نَزَلَا على غيرِ مَاءٍ، بِفَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ لا ماءَ بها، وذلك عند زَوَالِ الشَّمْسِ، وقد كادَتْ أَعناقُ الخيل والرِّكابِ تَنْقَطِعُ عَطَشاً، فلما أدرَكَهُم ﷺ قال: «أَيْنَ صَاحِبُ الميضَأَةِ»؟، فجاءَه بها أبو قتادة، فوضَعَ ﷺ أَصَابِعَه الشّريفةَ عليها، فنبَعَ الماءُ من بين أَصَابِعِه، وأقبلَ النّاسُ فاستقوا، وفاضَ الماءُ حتى رَوَوا ورَوَّوا خَيلَهم ورَكَائِبَهُم، وكانَ في العسكر اثنا عشرَ ألف فرس، ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير، والنّاس ثلاثون ألفاً، وقيلَ: سَبعُونَ ألفاً.

ثمّ سَاروا أياماً، فحصَلَ للجَيشِ العَطَشُ، فأَرْسَلَ رسولُ الله ﷺ نَفَراً، يَسْتَعْرِضُونَ الطريقَ، وأعلمَهم أَنَّ عجوزاً تمرّ بهم في محلّ كذا على ناقةٍ ومعَها ماءٌ، وقال لهم ﷺ: «اشْتَرُوهُ مِنْهَا بِمَا عَزَّ وَهَانَ، أَو ائْتُوا بِهَا مَعَ المَاءِ»، فلما بلغُوا ذلكَ المكان إذا بامرأةٍ سَادِلَةٌ رجْلَيها بينَ مَزَادَتَينِ، فسَأَلوها من الماءِ، فَقَالَتْ: أنا وأهلي أَحْوَجُ إليه مِنكم، فسَألوها أَنْ تأتي رَسُوْلَ الله

ﷺ مع الماءِ، فأبتْ، وقالَتْ: من هوَ رسولُ الله؟ لعَلّهُ السَّاحرُ، الذي يُقَال له: الصَّابِىءُ، خيرُ الأشْيَاءِ أنّي لَا آتِيهِ. فشَدُّوهَا وِثَاقاً، وأَتوا بها إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فقالَ لهم: خلّوا عنْها، فقيلَ لها: أينَ الماءُ؟، قالَتْ: أَهَاه أَهَاه، بينكم وبينَ الماء مَسِيرة يوم وليلة، فقال لها رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَتَأْذَنِينَ لَنَا فِي الماءِ، وَلَتُصِيبِنَّ مَاءَكِ كَمَا جِئْتِ بِهِ»؟، فَقَالَتْ: شأنكم به، فحَلّ ﷺ السِّقَاءَ، ثم وضعَ يدَه الشّريفةَ فيه، ثم قال: «ادْنُوا فَخُذُوا»، فجعل الماءُ يفورُ ويَزِيدُ والنّاسُ يأخذون منه، حتى ما تركوا معهم إناءً إلا مَلَؤُوهُ، وروَّوا إبِلَهُم وخَيلَهم، ثمَّ أوكأَ ﷺ أَفْوَاهَ المزادَتَين، ثُمَّ قالَ لها: «تَعْلَمِي وَالله مَا رَزَأْنَا مِنْ مَائِكِ شَيْئاً، وَلَكِنَّ الله ﷻ هُوَ الذِي سَقَانَا»، فأخبرَتْهُ المرأةُ أَنَّ لها صِبْيَاناً أيتَاماً، فقال ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «هَاتُوا مَا عِنْدَكُمْ»، فجَمعوا لها بعضَ ما عندَهم مِن كِسَرٍ وتَمْرٍ، ثُمَّ قال لها: «اذْهَبِي فَأَطْعِمِي هَذَا أيتَامَكِ». فصَارَتْ المرأةُ تعجب ممّا رَأَتْ، ولمّا قَدِمَتْ على أهلِها قالوا لها: لقَدِ احْتَبَسْتِ علينا، فَقَالَتْ: حبَسَني أَنّي رَأيتُ عَجَباً مِن العَجبِ، أرأيتُم مزادَتي هاتين؟، فوَ الله لقدْ شَرِبَ منهما قريبٌ مِن سَبعين بعيراً، وأُخِذَ منها من القِرَبِ والمَزَاوِدِ والمَطَاهِرِ مَا لَا أُحْصِي، ثُمّ هُمَا الآنَ أوفر منهما يومئذٍ. ثمّ أقبلَت معَ قومِها عَلَى رَسُوْلِ الله ﷺ، فأَسْلَمُوا.

ولما رَجَعَ رَسُوْلُ الله ﷺ المدينةَ أتاهُ خبَرُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ، وأنزلَ الله تعالى فيه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، إلى آخرِ الآياتِ التي نزلتْ بشأنِ المسجد

الذي بُنِيَ لإِضْرَارِ أهل قُباء، فإنّ بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجدَ قُباءٍ حَسَدَتْهم إخوتُهم بنو غَنَم بن عوف، وقالوا: نُصَلّي في مَرْبَطِ حِمَار، لَا، لَعَمْرُ الله؛ لأنَّ موضِعَ مسجد قُباء كانَ لِامْرَأَةٍ كانت تَرْبِطُ فيه حِمَارَها، فقالوا: نبني مَسْجداً، ونرسلُ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ يُصَلّي فيه، ويُصَلّي فيه أبو عامر الرَّاهِبُ إذا قَدِمَ من الشّام، فيَثْبُتُ لنا الفَضْلُ والزِّيَادةُ على إِخوانِنا، وقد كان المسلمون في تلك النّاحية كلّهم يصَلّون في مسجدِ قُبَاءٍ جماعةً، فلما بُنِيَ هذا المسجد انصَرَفَ جماعةٌ عن مَسْجِدِ قُبَاء إليه، فكانَ بهذا تفريقٌ للمؤمنين، وكانوا يجتمعون فيه ويُعِيبُونَ النّبيَّ ﷺ ويَسْتَهْزِئُونَ به.

والحقِيقةُ أَنّ أبا عامر الرّاهِب الذي سمَّاه النبيُّ ﷺ فاسِقاً هو الآمِرُ لهم بِبنَائِه، فإنَّه قال لهم: ابنوا مَسْجِداً، واسْتَمِدّوا ما اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وسِلَاحٍ إليه فإنِّي ذَاهِبٌ إلى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّوم، فآتي بجندٍ من الرّوم، فأُخْرِجُ محمَّداً وأَصْحَابَه مِن المدينةِ. فلما فرَغوا من بنائِهم، وكان ذلك والنّبيُّ ﷺ يتَجَهّزُ إلى تبُوك، فجاءُوا إليه ﷺ وطلبوا منه أَنْ يأتيَهم ويُصَليَ فيه كما صَلّى في مسجد قباء، وقالوا: يا رَسُولَ الله، إنّا قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِداً لِذِي العِلّةِ وَالحَاجَةِ، وَاللّيْلَةِ المَطِيرَةِ، وَاللّيْلَةِ الشّاتِيَةِ، وَإنّا نُحِبّ أَنْ تَأْتِيَنَا فَتُصَلّي لَنَا فِيهِ، فَقَالَ لهم: «إنّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ، وَحَالِ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدْ قَدِمْنَا إنْ شَاءَ الله لَأَتَيْنَاكُمْ، فَصَلّيْنَا لَكُمْ فِيهِ»، فلما رجعَ ﷺ من تبوكَ وهَمَّ أنْ يَأتيَهم أنزلَ الله تعالى فيه الآيات، وقالَ اللهُ له: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ مَالِكَ بنَ الدّخْشُمِ، وَمَعْنَ بنَ عَدِيّ فَقَالَ: «انطَلِقَا إلَى

هَذَا المَسْجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمَاهُ وَحَرِّقَاهُ». فَخَرَجَا سَرِيعَيْنِ، ودَخَلَ مَالِكٌ إِلَى أَهْلِهِ فَأَخَذَ سَعَفاً مِنَ النَّخْلِ فَأَشْعَلَ فِيهِ نَاراً، ثُمَّ خَرَجَا يَشْتَدَّانِ حَتّى دَخَلَا المَسْجِدَ وَفِيهِ أَهْلُهُ، فَحَرَّقَاهُ وَهَدَّمَاهُ، وَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، وكان ذلك بين المغرب والعشاء، ووصَلَ الهدمُ إلى الأرضِ، ثمّ أمر ﷺ أنْ يُتَّخَذَ موضِعُ ذلك المسجد محَلًّا لإلقَاءِ الكُنَاسَةِ والجِيَفِ. وفِي الكَشَّافِ: أَنَّ مُجَمِّعَ بنَ حارِثَةَ كان الإِمَامُ في مسجدِ الضِّرَارِ، فكلم بنُو عمرو بنِ عَوفٍ أصحابُ مَسْجِدِ قُبَاءٍ عُمَرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه في خلافته أَنْ يأذَنَ لمُجَمِّعِ بنِ حَارِثَة أَنْ يَؤُمَّهُم في مَسْجِدِهم، فقال: لَا؛ ولَا نِعْمَة، أليسَ بإمام مسجد الضرار؟، فقال له مُجَمِّعٌ: يَا أميرَ المؤمنين، لا تَعْجَلْ عَلَيَّ، فوَ الله لقَدْ صَلَّيتُ بهم والله يَعلمُ أَنِّي لا أَعلمُ مَا أَضْمَرُوا فيه، ولو عَلِمْتُ ما صَلَّيتُ معَهم فيه، إِنّما كنتُ غُلَاماً قارِئاً للقُرْآن، وكانوا شُيوخاً لا يقرؤونَ من القُرْآن شيئاً، فعَذَرَهُ وصَدَّقه، وأَمَرَهُ بالصَّلَاةِ بِهِم.

ولما أشرَفَ رَسُوْلُ الله ﷺ على المدينة قال: «هَذِهِ طَابَةُ، أَسْكَنَنِيهَا رَبِّي، تَنْفِي خَبَثَ أَهْلِهَا كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ»، ثم نظرَ ﷺ إلى جبلَ أُحُدٍ فقال: «وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»، فلمّا قدِمَ المدِينَةَ تلَقَّاهُ النِّسَاءُ والصِّبْيَانُ يقُولون:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا لله دَاعْ
أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا ... جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطَاعْ

ولما دَنَا ﷺ من المدينة تلقَّاهُ عامّةُ الذين تخَلَّفُوا عنه، فقال ﷺ

لأصحابه: «لَا تُكَلِّمُواْ رَجُلاً مِنْهُمْ، وَلَا تُجَالِسُوهُم حَتَّى آذَنَ لَكُمْ»، فأعرضَ عنهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمسلمون، حتّى أن الرَّجُلَ لَيُعْرِضُ عن أبيهِ وأخيهِ، وقد كان تخلّفَ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَهْطٌ من المنافقين، وكانوا بضعةً وثمانينَ رَجُلاً، وتخلّفَ عنه من المؤمنين: كعبُ بنُ مالكٍ، ومرارةُ بنُ الرّبيعِ، وهِلَالُ بنُ أميّة، فأمّا المنافقون فجعلوا يحلفون ويعتذرون، فقبلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم علانِيتهم، وَوَكَلَ سَرَائِرَهم إلى الله، واستغفرَ لهم، فأنزل الله تعالى في شأنِهم: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

وأَمّا الثّلاثةُ، فرَوَى خبرَهم كعبُ بنُ مَالك الخزْرَجي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فقال: لما جِئْتُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسَلّمتُ عليه، تبسّمَ تَبَسُّمَ المغْضَبِ، ثم قال لي: «تَعَالَ»، فجئتُ حتى جلست بين يديه، فقال: «مَا خَلَّفَكَ»؟، فصَدَقْتُه، وقلتُ: يا رسولَ الله، إني والله لو جلسْتُ عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيتُ أَنْ سأخرجُ من سخطِه بعذرٍ، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلاً، ولكِني والله لقد علمتُ لئن حدّثتُك اليومَ حديثَ كَذِبٍ ترضى به عني ليُوشِكَنّ الله أنْ يسْخَطَ عَليَّ فيه، ولئِنْ حدَّثْتُك حديثَ صدقٍ تَجِدْ عليَّ فيه، إنّي لأرجو فيه عفوَ الله، والله ما كان لي من عذرٍ، والله ما كنتُ قطّ أقوَى ولا أيسَرَ منّي حين تخلّفتُ عنك، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ الله فِيْكَ»، وقال مرارةُ بنُ الربيع وهلالُ بنُ أميّة مثل قول كعب، وكَانا ممّن شَهِدَ بدراً، فقال لهما صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل ما قال لكعب.

ونهى رَسُوْلُ الله ﷺ المسلمين عن كلامِهم، فاجْتَنَبهم النّاسُ، فأمّا الرجلانِ فمكثَا في بيوتِهما يَبْكِيَان، وأما كعْبٌ فكان يشهدُ الصّلاةَ مع المسلمين، ويطوف في الأسواق، فلا يكلّمه أَحَدٌ منهم. قال كعْبٌ: ولما طالَ ذلك عَلَيَّ من جَفْوَةِ المسلمين تسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائطِ ابن عمّي أبي قتادة وهوَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فسَلَّمْتُ عليه، فوَ الله ما رَدّ عليَّ السَّلامَ، فقلتُ: يا أبا قتادة، أنشدُك اللهَ هل تعلمني أحِبُّ الله ورسولَه، فسَكتَ، فعُدْتُ إليه فنَاشَدته، فسكَتَ، فعدتُ إليه فناشدته، فقال: الله ورَسُولُه أعلم، ففَاضَتْ عينَاي، وتوَلّيتُ حتّى تسَوَّرْتُ الجِدَار، وبينما أنا أمشي بسُوقِ المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أَنبَاطِ أهل الشَّام ممَّن قَدِمَ بالطّعام يبيعُه بالمدينةِ، يقول: مَن يَدُلّني علَى كَعْبِ بن مالك، فطَفِقَ النّاسُ يشِيرُونَ له إليَّ، حتى إذا جاءَني دفعَ إليّ كتاباً من مَلِكِ غَسَّان، وكان الكِتابُ ملفُوفاً في قطْعَةٍ من الحرير، فإذا فيه: أما بُعد: فإنّه بلَغَني أنَّ صَاحِبَك قد جفَاك، ولم يَجْعَلْكَ الله بدَارِ هوَانٍ ولا مَضْيَعَةٍ، فالْحَقْ بنا نُواسِيك، فلمَّا قَرَأْته قلتُ: وهذا أيضاً مِنَ البَلاءِ، فيَمَّمْتُ به التّنورَ فسَجَرْتُه بها.

حتّى إذا مضَتْ أربعونَ ليلةً جاءَني رَسُولُ رَسُوْلِ الله ﷺ، فقال: إنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ يأمُرُكَ أَنْ تعتزلَ امرَأَتك. قلتُ: أُطَلِّقُها أمْ مَاذَا؟، قال: لا؛ بل اعتَزِلْها ولا تَقْرَبنَّها، وأَرْسَلَ إلى هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ ومرارةُ بنُ الرَّبيع بمثل ذلك، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلِك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، فجاءَتْ امرَأَةُ هلالِ بنِ أُميّة إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فَقَالَتْ: يا رسولُ الله، إنَّ هلالَ بنَ أُميّة شيخٌ ضَائعٌ، ليس له خادِمٌ، فهل تكرَه أَنْ أَخْدُمَه؟، فقال ﷺ: «لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ»، فَقَالَتْ له: والله إنّه ما بِه حرَكة إلى شَيءٍ،

ووالله ما زالَ يبكي منذ كان من أمرِه ما كان إلى يومه هذا.

قال كعْبٌ: فقال لي بعضُ أهلي: لو اسْتَأْذَنتَ رَسُوْلَ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في امرَأتِك، كما أَذِنَ لامْرَأةِ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ أَنْ تخدُمَه، فقُلْتُ: لا أَسْتَأْذِنُ فيها رَسُوْلَ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وما يُدْرِيني مَا يقولُ لي رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا اسْتَأْذَنْتُه فيها وأَنا رَجُلٌ شَابٌّ، ثُمَّ مضَى بعد ذلك عَشْرُ ليالٍ حتّى كَمُلَتْ لنَا خمسُون ليلة من حين أَنْ نهَى رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن كلامِنا، فلمّا كان صلاة الفجر صبح تلك الليلة سَمِعْتُ صَوتاً فوقَ جَبَلِ سَلْعٍ يقول بأعلى صوته: يا كعبُ بنُ مالكٍ؛ أَبشِرْ، فخَرَرْتُ سَاجِداً، وعرَفْتُ أنْ قد أَعْلَمَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بتَوبةِ الله علينا، فلما جاءني حَمْزَةُ بنُ عمرو الأوسيّ، وهو الذي سمعتُ صوتَه يبشِّرُني، نزَعْتُ له ثوبي فكَسَوتُه إيّاهُمَا ببشراه، والله ما أَمْلِكُ غيرهما يَومئذٍ.

ثم استَعَرْتُ من أبي قتادة رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْه ثوبين فلبسْتُهما، وانطَلَقْتُ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فتلقّاني النّاسُ فَوْجاً فَوْجاً، يُهَنِّئُوني بالتّوبَةِ، ويقولونَ: لِيَهْنِئْكَ توبة الله عليك حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جَالِسٌ حوله الناسُ، فقام إليَّ طلحةُ بنُ عبيدِ الله يهَرْوِلُ حتّى صافحَني وهنّانِي، والله ما قامَ إليَّ رَجُلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنسَاها لطَلْحَةَ، فلما سَلّمْتُ على رَسُوْلِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بَرَقَ وجهُه من السّرُورِ، وكان إذا سُرَّ اسْتَنارَ وجْهُه كأنه قطْعَةُ قَمَرٍ، فلما جلستُ بين يديه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «أَبْشِرْ بِخَيرِ يَومٍ يَمُرُّ عَلَيكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»، فقلتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يا رسُولَ الله، أمْ من عندِ الله عَزَّوَجَلَّ؟، فقال: «بَلْ مِنْ عِنْدِ الله»، فقلت: يا رسُولَ الله، إنّ مِن توبتي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالي صَدقةً إِلَى الله وإِلى رسُولِه، فقال: «أَمْسِكْ عَلَيكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيرٌ لَكَ».

وكان المُبَشِّرُ لهلالِ بنِ أميّة أسعدُ بنُ أسَد، وكان المُبَشِّرُ لمرارةَ بنِ الرّبيع سلامةُ بنُ وَقْشٍ. قال كعبٌ رضي الله عنه: فأنزلَ الله توبتنا على نبيِّه صلى الله عليه وسلم حينَ بقيَ الثلث الأخيرُ من اللّيل، ورَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم عندَ أمِّ سَلَمَةَ، وكانتْ أمُّ سلمة رضي الله عنها مُحْسِنَةً في شَأني مُعِينةً في أَمْرِي، فقال رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم: «يا أُمَّ سَلَمَةَ تِيْبَ عَلَى كَعْبٍ»، قالت: أفلا أرسُلُ إليهِ فأُبشِّره؟، فقالَ: «إِذَنْ يَحْطِمُكُمْ النَّاسُ فَيَمْنَعُونكُمْ النَّومَ سَائِرَ اللَّيلِ»، حتى إذا صَلّى رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الفجر أَعْلَمَ بتوبةِ الله علينا وأنزلَ الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩].

بَابُ
سَرَايَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبُعُوثِهِ

لا يخفى أنَّ ما كان فيه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقالُ له: غَزْوَةٌ، وما خَلَا عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقالُ له: سَرِيَّةٌ؛ إنْ كانَ طَائفةً اثنين فأكثر، فإنْ كانَ واحداً قِيلَ له: بعْثٌ، وربّما سَمّوا بعضَ السَّرَايا غَزْوَةً كما في مُؤْتَة، وكمَا في سَرِيّة الرَّجِيع، وسريّة ذَاتِ السَّلاسِل، وسرِيّة سِيفِ البَحْر، وربما سَمّوا الوَاحِد سَرِيةً، ورُبَّما سَمّوا الاثنين فأكثر بَعْثاً، وفي ظاهر كلامِهم أنه لا فرقَ في ذلك بين أن يكون إرسالُه لقتالٍ، أو لغيرِ قتالٍ؛ كتَجَسُّسِ الأَخبار، أو لتعليم الشَّرَائع كما في بئْرِ مَعُونَة والرَّجِيع، أو للتّجارة كما في سرية زيد بن حارثة حيث ذهبوا مَع جمْعٍ بالتّجَارَة للشّام، فلَقِيَه بنُو فزَارَةَ فضربوهم وأخذوا ما كان معهم، كما سيأتي.

والسَّرِيَّةُ: في الأَصْلِ الطّائفةُ من الجيش تخرُجُ منه، ثم تعودُ إليه، بأَنْ تخرُجَ ليلاً أو نهاراً، وقيل: السّريّةُ هيَ التي تخرج ليلاً، والسَّاريةُ هيَ التي تخرج نهاراً، وهيَ من مائةٍ إلى خمسمائة. وفي القاموس: السّريةُ من خمسَةِ أنفُسٍ إلى أربعمائة. وعليه فما دون ذلك لا يقال له سرية، وما زاد على الأربعمائة إلى ثمانمائة يقال له: مَنْسِرٌ، فإنْ زادَ على ذلك إلى أَرْبَعَةِ آلافٍ قيل له: جَيْشٌ، وقيل: الجيشُ من ألفٍ إلى أربعة آلاف، فإن زاد على ذلك قيل له: جَحْفَلٌ، أو جَيْشٌ جَرَّارٌ.

والبَعْثُ: في الأَصْلِ الطّائفةُ تخرج مِنَ السّريةِ، ثمّ تعودُ إليها، وهو من عشرةٍ إلى أربعين يُقال له: حَفيرةٌ، ومن أربعين إلى ثلاثمائة يقال له: مُعْتَقَبٌ، وما زاد على ذلك يُسَمّى: حَمْزَةَ، والكَتِيبةُ: ما اجْتَمَع ولم يَنْتَشِر. وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما أنه قال: قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «خَيْرُ الأَصْحَابِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرايا أَرْبَعُمائَةٍ، وَخَيْرُ الجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلافٍ، ولا تُهْزَمُ اثْنا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلَّةٍ إِذَا صَدَقُوا وَصَبَرُوا»(١).

وكانَتْ سَرَاياه ﷺ التي بَعَثَ بها سَبْعاً وأربعين سرِيّةً، وقال الشَّمسُ الشَّامي: "والذي وقفت عليه من السَّرَايا والبُعوث لغير الزّكاةِ يزيدُ على السّبعين" اهـ. وكان ﷺ إذا أَمّرَ أميراً على سَريةٍ أوصَاهُ في خاصّتِه بتقوى الله، وبِمَن معه من المسلمين خيراً، ثُمّ قال: «اغْزُوا بِسْمِ الله وَفِي سَبِيلِ الله، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، اغْزُوا وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تُمَثِّلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيداً، فَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاثِ خِصَالٍ، فَأَيَّتُهُمْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ إِعْطَاءَ الْجِزْيَةِ، فَإِنْ فَعَلُوا، فَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِالله وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ الله، فَلا تُنْزِلْهُمْ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ الله أَمْ لَا»(٢).

ومن جُملَةِ قولِ رَسُوْلِ الله ﷺ للسَّرايا: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا

---

(١) رواه أحمد في مسنده [١/٢٩٤]، برقم: (٢٦٨٢). والترمذي في سننه [٤/٦٥]، برقم: (١٥٥٥).

(٢) رواه أحمد في المسند [٣٨/٧٧] رقم: (٢٢٩٧٨). والبيهقي في السنن الصغرى [٣/٦٠]، (٣٨١٧).

وَلَا تُعَسِّرُوا»[١]، ولما بعث ﷺ مُعاذَ بنَ جبل، وأبا موسى رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما إلى اليمن، قال لهما: «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»[٢].

وكان ﷺ يقول: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي، وَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[٣]، وكان النبيُّ ﷺ يعتذرُ عن تخلُّفِه عن تلك السَّرَايا، ويقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنَّ رِجَالاً مِنَ المُؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ نُفُوسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُواْ عَنِّي، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيهِ، مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلَ»[٤].

١ - سَرِيَّةُ حَمْزَةَ بنِ عَبْدِ المطَّلِب

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عمَّه حمزةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في ثلاثين رَجُلاً من المهاجرين، وذلك في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة، وعقدَ له ﷺ لواءً أبيضَ، وهو أوَّلُ لواءٍ عُقِدَ في الإسلام، وحمَلَه أبو مَرْثَد حَليفُ حمزةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، ليعترض عيراً لقريش جاءَت من الشام تريد

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه [٣/١٣٥٨]، باب الأمر بالتيسير وترك التنفير، برقم: (١٧٣٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه [٤/٦٥]، باب ما يكره من التنازع في الحرب، حديث رقم: (٣٠٣٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأحكام، حديث رقم: (٦٧١٨) ورواه مسلم [٦/١٥].

(٤) رواه الإمام البخاري في صحيحه [٣ /١٠٣٠]، في باب تمني الشهادة، حديث رقم: (٢٦٤٤).

مَكَّةَ ، كان فيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل ، فَسَارَ حمزةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى أنْ وصَلَ سِيفَ البحر ـ أي سَاحِله ، وهو من ناحِيَة العيص وهي أرض من جهينة ـ ، فصادفَ العيرَ هُناك ، فلما تصَافّوا للقتال حَجز بينهم مَجْدِيّ بْنُ عَمْرٍو الْجُهَنِيّ ، وكان حليفاً للفريقين ، فأطاعوه وانصرفوا ، ولم يقعْ بينَهم قِتالٌ. ولما عاد حمزةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره أنّ مَجْدِيّاً حجزَ بينهم ، وأنهم رأوا منه نَصَفَةً فأطاعوه ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجدي: «إِنَّهُ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ» ، أي: مبارك النفس والأَمْرِ. ولم يُعْلَمْ له إِسْلامٌ ، وقد قَدِمَ قومُه بعد ذلك على النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢ ـ سَرِيَّةُ عُبَيدَةَ بنِ الحَارِث

ثم بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رأس ثمانية أشهر من الهجرة عُبيدةَ بنَ الحارث بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في ثمانين رَاكِباً من المهاجرين ، منهم سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، وعقد له لواءً أبيضَ ، وحملَه مِسْطَحُ بنُ أُثاثَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، ليعترضَ عيراً لقريشٍ ، وكان رئيسُهم أبا سُفْيَان في مَائتي رجل ، فوافوا العير بِبَطْنِ رَابغ ، ويقال له ودان ، فلم يكن بينهم إلا المُناوَشَة برمي السِّهام ، فلم يسُلّوا السيفَ ، ولم يصْطفّوا للقتال. وكان أوّل مَن رمى من المسلمين سعدُ بنُ أبي وقّاص رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، فكان سهمُه أوّل سَهم رُمِيَ به في الإسلام ، فَإِنّ سَعداً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه تقدّم أصحابَه ، ونثرَ كنانته ، وكان فيها عشرون سهماً ، وما منها سهم إلا ويجرح إنساناً أو دَابةً لو رَمَى به ، لصِدْقِ رَمْيِهِ وشِدّةِ سَاعدِهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، فانصرَفَ الفريقان لأَنّ المشركين ظنّوا أَنّ للمسلمين مدداً فخافوا وانهزموا ، ولم يتبعهم المسلمون ،

وفرَّ مِن المُشْركين: المِقْدَادُ بنُ عمرو، وعُيينَةُ بنُ غَزْوَان، فإنّهما كانا مسلمين؛ ولكنهما خرجا مع المشركين ليتوصّلا بهم إلى المسلمين.

٣ ـ سَرِيَّةُ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقّاص

ثم بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ على رأس تسعة أشهر من الهجرة، سعدَ بنَ أبي وقاص رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى الخَرَّارِ في عشرين من المهاجرين، وعقد له لواءً أبيضَ، حملَه المقدادُ بنُ عمرو، والخرَّارُ: وادٍ يُتَوَصّلُ منه إلى الجُحْفَةِ، وقد عَهِدَ ﷺ إليه أنْ لَا يجاوزه، ليعترضَ عيراً لقريش تمر بهم، فخرجوا يمشون على أقدامهم، يكْمُنُونَ النهارَ، ويسِيرون الليلَ، حتى أصبحوا في المكان المذكور، وذلك في صُبحِ خَمسٍ من خروجهم، فوجدوا العيرَ قد مرَّتْ بالأمسِ، فانقلبُوا راجعين إلى المدينة.

وقد ذكر ابنُ عبد البَرّ وابنُ حَزْم هذه السرية بعد بدر الأولى. وفي السيرة الشامية، قال: "الباب السادس في سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى الخرار". ثم ساقَ ما قد تقدم ذكره، وقال بعدَه: "الباب السابع في سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. رَوَى الإمام أحمدُ عنْهُ أنه قال: لما قَدِمَ رَسُوْلُ الله ﷺ المدِينةَ، جاءَت جُهَينَةُ، فقالوا له: إِنَّكَ قَدْ نَزَلْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَأَوْثِقْ لَنَا حَتَّى نَأْتِيَكَ وَتُؤْمِنَّا. فَأَوْثَقَ لَهُمْ فَأَسْلَمُوا. وبعَثَنَا ﷺ، ولم نكُنْ مائةً، وكان ذلك في رجب من السّنة الثانية، وأمرَنا رَسُوْلُ الله ﷺ أَنْ نُغِيرَ على حَيٍّ من كِنَانَةَ، فأغَرْنا عليهم فكانوا كثيراً فلجَأنا إلى جُهَينَةَ فمَنَعُونا، ثمَّ قالوا: لِمَ تقاتلون في الشَّهْرِ الحرام؟، فَقُلْنَا: إِنَّمَا نُقَاتِلُ مَنْ أَخْرَجَنَا مِنَ البَلَدِ الحَرَامِ!، ثمّ قال بعضُنا لبَعضٍ:

ما تَرونَ؟، فقال بعضُنا: نأتي رَسُوْلَ الله ﷺ فنخبرُه، وقال البعض الآخر: نقيمُ هَهُنا، وقلتُ أنا في أُناسٍ معي: بل نأتي عِيرَ قُريشٍ فنَقْطَعُها، فانطلقنا إلى العيرِ، وانطلقَ بعضُ أصْحَابِنا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فأخبرُوهُ الخبرَ، فقام رَسُوْلُ الله ﷺ غَضْبَانَ مُحْمَرّاً وجْهُهُ، وقال: «جِئْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ، وَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ الفُرْقَةُ، لأَبْعَثَنَّ عَلَيكُمْ رَجُلاً لَيْسَ بِخَيرِكُمْ، أَصْبَرَكُمْ عَلَى الجُوعِ وَالعَطَشِ»، فبعث علينا عبدَ الله بنَ جَحْش أميراً، فأمَّرَهُ علينا لِنَذْهَبَ إِلَى جِهَةِ نَخْلَةَ بين مَكَّةَ والطَّائِفِ".

٤ ـ سَرِيَّةُ عَبْدِ الله بْنِ جَحْش

صَلَّى رَسُوْلُ الله ﷺ العِشَاءَ الأخيرةَ فقال لعبدِ الله بنِ جَحْشٍ رضي الله عنه: «وَافِ مَعَ الصُّبحِ، مَعَكَ سِلَاحُكَ أَبْعَثُكَ وَجْهاً»، فوَافاهُ الصُّبحَ ومعَهُ قوسُه وجُعْبَتُهُ ودَرَقَتُهُ، فلمَّا انصرَفَ رَسُوْلُ الله ﷺ من صِلَاةِ الصّبح وجَدَه واقِفاً عندَ بابِهِ، فدعا رَسُوْلُ الله ﷺ أُبيَّ بنَ كَعْب، فدَخَلَ عليه، فأمَرَه فكتبَ كِتاباً، ثمَّ دعا عبدَ الله بنَ جَحْش رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فدفعَ إليهِ الكتابَ، وقال له: «قَدْ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى هَؤُلَاءِ النَّفَرِ»، وكان قبل ذلك قد بعثَ عليهم عُبيدَةَ بنَ الحارثِ بنِ عبدِ المطلب، فلمَّا ذهبَ لينطَلِقَ بكى صِبيانُه إلى النَّبيِّ ﷺ، فبعثَ عليهم عَبدَ الله، وسَمَّاهُ رَسُوْلُ الله ﷺ: أَمِيرَ المؤْمِنينَ. فهو أوّل من تَسَمَّى في الإسلامِ بأميرِ المؤمنين.

وكانَ أولئكَ النّفَر ثمانية، وقيل: اثني عشر رجلاً، من المهاجرين، يَعْتَقِبُ كلّ اثنينِ منهم بعِيراً، ومنهم سعدُ بن أبي وقاص، وعُيينةُ بنُ غَزوان، وكانَا

يعتقبانِ بعيراً، ومنهم وَاقِدُ بنُ عبد الله، وعُكَّاشَةُ بنُ محْصَن، وأمرَ ﷺ عبدَ الله أَنْ لا ينظرَ في ذلك الكِتَابِ حتّى يسِيرَ يومين قِبَلَ مَكَّةَ، ثمّ ينظرُ فيه فيَمْضي لما أَمَرَه به، وأَنْ لا يَسْتكْرِه أَحَداً مِن أصْحَابه على السَّيرِ معه، وقد عقَدَ له رَسُوْلُ الله ﷺ رَايَةً.

فلمَّا سَارَ عبدُ الله يومَين فتحَ الكِتابَ، فإذا فيه إذا نظرتَ في كتابي هذا فأْتِ حتّى تنزلَ نَخْلةَ بينَ مَكَّةَ والطَّائفِ ولا تُكْرِهْ أَحَداً من أصحَابك على السَّيرِ معَك، ولفْظُ الكتاب: «سِرْ بِسْمِ الله وَبَرَكَاتِهِ، وَلَا تُكرِهَنَّ أَحَداً مِنْ أَصْحَابِكَ عَلَى السَّيرِ مَعَكَ، وَامْضِ لِأَمْرِي حَتَّى تَأْتِيَ بَطْنَ نَخْلَةَ، فَتَرْصُدَ عِيرَ قُرَيشٍ، وَتَعْلَمَ لَنَا أَخْبَارَهُمْ»، فلمَّا قَرَأَ الكتابَ على أصحابِه قالوا: نحنُ سامعونَ مطيعونَ لله ولرسولِه ولكَ، فسِرْ على بركةِ الله تعالى.

فمضوا ولم يتَخَلَّفْ منهم أَحَدٌ، حتى إذا كانوا بِبَحْرَان، أَضَلَّ سَعْدُ بنُ وقاص وعُيينةُ بنُ غَزْوَانَ بعِيرَهُما فتَخَلَّفا في طَلَبِه، ومضى عبدُ الله ومعَه مَن عَداهما حتّى نزلَ بنَخْلَة، فمَرَّتْ عِيرٌ لِقُريشٍ، تَحْمِلُ زَبيباً وجُلوداً مِنَ الطَّائف وأَمْتِعَةً للتِّجَارَةِ، في تلك العيرِ عمرو بنُ الحضرمي، وعثمانُ بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكَمُ بن كَيْسَان، فنزلوا قريباً مِن عبدِ الله ومن أصحابِه، وتخَوَّفُوا منهم، فقال عبدُ الله بنُ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه لِأَصْحَابه: إنّ القومَ قَدْ ذُعِرُوا منكم، فاحْلِقُوا رَأْسَ رَجُلٍ منكم وليَتعَرَّضْ لهم. فحَلَقُوا رَأسَ عُكَّاشَةَ، ثمَّ أشرَفَ عليهم، وتراءَى لهم، فلمَّا رأوا رَأْسَه محْلُوقاً، قالوا: هؤلاءِ قومٌ معتمرون لا بأسَ عليكم منهم.

وكانَ ذلك آخرُ يومٍ من شهرِ رجب، فتشَاور عبدُ الله مع أصحابِه فيهم،

فقال بعضُهم لبعضٍ: إنْ تركتُمُوهم في هذه اللّيلة، دخلوا الحرَمَ، وتمنَّعُوا به منكم، وإنْ قتَلْتُمُوهم في هذا اليوم، تقتلوهم في الشَّهرِ الحرَام. وكان ذلك قبلَ أَنْ يَحِلَّ القِتَالُ في الشّهر الحرَام، لأنّ تحريمَ القتال في الأَشْهُر الحُرُم كان معمولاً به من عهْدِ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَجَعَلَ اللهُ ذلك مَصْلَحَةً لأهل مَكَّةَ، وجعلَ الأشهرَ الحرم أربعةً: ثلاثةً سَرْداً وواحداً فَرْداً وهو رجب، أما الثّلاثة فليأمن الحجّاج فيها وَارِدِينَ لمَكَّةَ وصَادِرِينَ عنها، شَهْرَ الحَجِّ، وشهراً قبل شهر الحجّ، وشهراً بعده، قدر ما يَصِلُ الرَّاكِبُ مِن أَقْصَى بلادِ العَرَبِ ثمّ يرْجعُ، وأما رجب فكان للعُمّارِ يَأمَنُون فيه مقبلين ورَاجِعين، نصفُ الشَّهْرِ للإقبال ونصْفُه للإِيَابِ، لأنَّ العمْرَةَ لا تكون من أقاصي بلادِ العرب كالحجِّ، وأقصى منازل بلاد المعتمرين خمسة عشر يوماً.

ولم يزل تحريمُ القتال في تلك الأشهر الحرم إلى صَدْرِ الإسلام، وذلك قبل نزولِ سورة براءَة، فإنّ سورةَ براءَة كان فيها نَبْذُ العَهْدِ العام، وهو أَنْ لا يُصَدَّ أحدٌ عن البيتِ جاءَه، ولا يُخَاف أَحَدٌ في الأشهرِ الحرُم وأَنْ لا يحجّ مشرك، ثُمَّ إنَّ إباحَةَ القِتَالِ في الأشهرِ الحرُم مع بَقَاءِ حُرْمَتِها، فتعظيمُ حُرْمَتها باقيةٌ لم تُنْسَخْ، وإنّما نُسِخَ حُرْمَةُ القِتَالِ فيها.

فترَدَّدَ القَومُ وهابوا الإقدَامَ، ثم شجَّعُوا أنفُسَهم عليهم، وأَجمَعوا رأْيهم على قَتْلِ مَن لم يقْدِرُوا على أَسْرِهِ، وأَخْذِ ما معهم، فقتلوا عَمْرو بنَ الحضرمي، رَمَاه وَاقِدُ بنُ عبدِ الله بسَهْمٍ، فهو أوَّلُ قَتِيلٍ قتَلَهُ المسلمون، وأسرُوا عثمانَ والحكَم، فهُما أوَّلُ أَسِيرٍ أَسَرَهُ المسلمون، وأَفْلَتَ باقي القوم، وجاءَ الخبرُ لأهل مَكَّةَ، فلم يُمْكِنْهم الطّلب، واسْتَاقَ عَبْدُ الله وأَصحَابُه العِيرَ حتّى قَدِمُوا على

رَسُوْلِ الله ﷺ، وهيَ أوّلُ غنيمةٍ غَنِمَهَا المسلمون، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ»، وأبى أنْ يستلمَ العِيرَ والأَسِيرَين، فَسُقِطَ في أَيديهم ونَدِمُوا، وعَنَّفَهُم إِخْوَانُهم مِن المسلمين.

وقالتْ قريشٌ: قد اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ وأَصْحَابُه الشَّهرَ الحرَامَ، فسفكوا فيه الدَّمَ، وأخذوا فيه الأموَال، وأسرُوا فيه الرِّجَالَ، وصارَتْ قُريشٌ تُعَيِّرُ بذلك مَن بِمَكَّةَ من المسلمين، ويقولونَ لهم: يا معشرَ الصُّبَاة، قدِ اسْتَحْلَلْتُمْ الشّهرَ الحرامَ، وقاتلتم فيه، وزادوا في التّشْنيع والتّعييرِ، وصارَتِ اليهودُ تتَفاءَلُ بذلك على رَسُوْلِ الله ﷺ، فيقولونَ: القتيل عمرو الحضرمي بِهِ عَمِرَتِ الحَرْبُ، والقَاتِلُ وَاقِدٌ بِهِ وَقَدَتِ الحَرْبُ، فكَان ذلك الفَألُ عليهم!.

وضَاقَ الأمرُ على عبدِ الله وأَصْحَابِه ﷺ، حتّى أنزلَ الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أي أنَّ عَظِيمَ الوِزْرِ في الصَّدِّ عن سبيلِ الله ومنع النّاسِ عن دينه، وفي الكُفْرِ بالله ومنعِ النّاسِ عن المسجد الحرام، وإخراج أهلِه منه، وهُمُ النّبيُّ ﷺ ومَن مَعه من المؤمنين منه، وأَنَّ الشِّرْكَ الذي عليه قريشٌ، وحملَهم مَن أسلمَ على الكُفرِ، وفِتْنَةَ مَن أَسْلَمَ بحَيثُ يَرْتَدُّ عَنِ الإسلامَ ويرجعُ إلى الكُفْرِ بالتّعْذِيبِ أَكْبَرُ مِن قَتْلِ مَنْ قَتَلْتُم مِنهُم، فَفَرِحَ عبدُ الله وأصحابُه ﷺ بهذا. وحِينَئِذٍ تَسَلَّمَ رَسُوْلُ الله ﷺ مِنهُم العِيرَ والأَسِيرَينِ،

فطَمِعُوا في حُصُولِ الأَجْرِ والثوابِ لهم، فأنزل الله تعالى فيهم قولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فأثبتَ الله تعالى لهمُ الجِهَادَ في سبيل الله. ثُمَّ إنَّ رَسُوْلَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قسَّمَ ذلك العيرَ وخمَّسَهُ، فجعلَ خُمُسَه لله وأربعةَ أخماسِه للجيش، وكانت هذه هيَ أوّلُ غَنِيمَةٍ خُمِّسَتْ في الإِسْلام.

وبَعَثَتْ قُرَيشٌ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في فِدَاءِ عثمانَ والحَكَم، فقال لهم رَسُوْلُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا نَفْدِيكُمُوهُمَا حَتَّى يَقْدِمَ صَاحِبَانَا ـ يعني: سَعْدَ بنَ أبي وقّاص وَعُيَينَةَ بنَ غَزْوَان ـ، فَإِنَّا نَخْشَاكُمْ عَلَيهِمَا، فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمَا نَقْتُلْ صَاحِبَيكُمْ»، وذلك لأنّ سعداً وعيينةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا لم يحضرا تلك الوقعة بسبب تخلفهما في التِمَاسِ بعيرِهما، وقد مكثَا في طلبه أياماً، فلمَّا قَدِمَا، أَفْدَى رَسُوْلُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الأسيرين، كلّ واحدٍ منهما بأربعين أُوقِيَة، فأمَّا الحكم فأسْلَمَ وحَسُنَ إِسْلَامُه، وأقامَ عند رَسُوْلِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتّى قُتِلَ يومَ بئرِ مَعُونَةَ شهيداً، وأمَّا عثمانُ فرجعَ إلى مكّة وماتَ بها كافراً.

٥ ـ بَعْث عُمَيرِ بنِ عَدِي الخَطْمِي

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عُمَيرَ بنَ عَدِيٍّ الخَطْمِي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ وهو أوّلُ من أسلم من بني خَطْمَة ـ، إلى قتل عَصْمَاءَ بنتِ مَرْوَان اليَهُودِيّة، وكانَتْ مُتَزَوِّجَةً في بني خَطْمَةَ، وكان زَوجُها مَرْثَد بنُ زَيدِ بنِ حُصَين الأَنْصَاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد أسلم بعد ذلك، وإنَّما أَهْدَرَ رَسُوْلُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دمَهَا لأنها كانت تَسُبُّ الإِسْلَامَ، وتؤذي النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في شِعْرٍ لها، وتُحَرِّضُ عليه، فجاءَها عميرٌ في جَوفِ

اللّيل، حتى دخلَ عليها بيتَها، وحولَها نَفَرٌ مِن ولَدِها نِيَامٌ، وعلى صَدْرِها صَبيٌّ تُرْضِعُهُ، فَنَحَّى الصّبِيَّ عن صَدرِها، ووَضَعَ سَيفَه على صَدْرِها، وتحَامَلَ عليه حتَّى أَنْفَذَهُ مِن ظَهْرِها.

ثُمَّ صَلَّى الصّبحَ معَ النبيِّ ﷺ بالمدينةِ، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَقَتَلْتَ ابْنَةَ مَرْوَان»؟، قال: نعم يا رَسُوْلَ الله، فهل عليَّ في ذلِكَ مِن شَيءٍ؟، فقال: «لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عَنْزَان»، أي أنَّ الأمرَ في قتلِها هَيِّنٌ لا يُعَارِضُ فيه مُعَارِضٌ، وهذه الكلمة من جملةِ الكلمات التي لم تُسْمَعْ إلَّا مِنَ النبيِّ ﷺ. ثم سَمَّى رَسُوْلُ الله ﷺ عُمَيراً هَذا بـ: «البَصِيرِ»، ثم قال رَسُوْلُ الله ﷺ في حَقِّهِ: «إِذَا أَحْبَبْتُمْ أَنْ تَنْظُرُوا إِلَى رَجُلٍ نَصَرَ الله وَرَسُولَهُ فَانْظُرُوا إِلَى عُمَيرٍ».

ولمّا رَجعَ عُمَيرٌ إلى منزِلِه في بني خَطْمَة وجدَ بني عَصْماءَ في جَماعةٍ يَدْفِنُونَها، فقالوا له: يا عميرُ، أأنتَ قتلتها؟، فقال لهم: نعم فكيدوني جميعاً ثمّ لا تُنْظِرُون، والذي نفسي بيدِه لو قُلْتُم بأجمعكم ما قَالَتْه لأضربَنَّكُم بسَيفي هذا حتّى أَموتَ أو أقتلَكُم، فمن يَومَئِذٍ ظَهَرَ الإسلامُ في بني خَطْمَةَ، وقد كان مَن أسلم منهم يُخفي إِسْلامَه من قبل ذلك.

وفي رِوَايةٍ: أنه ﷺ لما أَهْدَرَ دَمَ عَصْمَاءَ، نَذَرَ عُمَيرٌ إِنْ رَدَّ الله تعالى رَسُولَه ﷺ مِنْ بَدْرٍ إلى المدينة سَالماً لَيَقْتُلَنَّهَا، فلمَّا رَجَعَ رَسُوْلُ الله ﷺ من غَزْوَةِ بَدْرٍ إلى المدينة عَدَا عليها عميرٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فقَتَلَها.



٦ ـ بَعْث سَالِم بْنِ عُمَير

ثمَّ بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَالمَ بْنَ عُمَيرٍ إِلى أَبي عَفَكٍ اليهودِي. وقد كانَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال يوماً: «مَنْ لِي بِهَذَا الخَبيثِ»؟، يعني أبا عَفَكٍ، أيْ مَن يَنْتَدِبُ إلى قَتْلِه؟. وقد كانَ شيخاً كبيراً، قد بلغَ مائةً وعشرين سنة، وكان يُحَرِّضُ النّاسَ علَى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويَعِيبُه في شِعْرٍ له. فقال سالمُ بنُ عُمَيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ له: عَلَيَّ نذرٌ أنْ أقتلَ أبا عَفَك، أو أموت دونه. وسالم هذا أَحَدُ البكّائِينَ، وقد شهد بَدْراً.

فطلبَ له سالمٌ غِرَّةً، فلما كانتْ لَيلَةٌ صائِفَةٌ شديدةُ الحرِّ نام أبو عَفَك بفنَاءِ بيته، فعَلِمَ بذلِكَ سَالمٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فأقبلَ نحوه، فوضَعَ السّيفَ على كبدِه، ثمّ تَحَامَلَ عليه حتّى خَشَّ السّيفُ في الفِرَاش، وصاحَ عدو الله، فتركَه سالمٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وذهبَ، فقامَ إلى أبي عفك ناسٌ من أصحابِه فاحتملوه، وأدخلوه داخل بيته، فماتَ عدو الله من ساعتِه تلك.

٧ ـ سَرِيَّةُ محمّد بنِ مَسْلَمة

بعثَه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كَعْبِ بنِ الأَشْرَف الأَوْسِيّ اليهودي، كان أبوه قد أَصَابَ دَماً في الجاهلية، فأتى المدينةَ فحَالَفَ فيها بني النّضِير فشَرُفَ منهم، وتزَوّجَ عُقَيلَةَ بنتِ أَبِي الحُقَيق، فولَدَتْ له كعباً وكانَ طويلاً جَسِيماً ذا بَطْنٍ وهَامَةٍ، وكان شَاعراً مُجِيداً، وقد سادَ يهودَ الحِجَاز بكَثْرَةِ مالِه، وكان يُعْطِي أَحْبَارَ اليهودِ ويَصِلُهم، فلمَّا قَدِمَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ جاءَ إليهِ أَحْبَارُ اليهودِ من بني قينقاع وبَنِي قُرَيْظَةَ؛ لأخذ صِلَتِه على عادتَهم، فقال لهم: ما عندَكم

مِن أَمْرِ هَذا الرَّجل؟ ، ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ ، فقالوا: هو الذي كُنَّا نَنْتَظِرُ ، وما أنكَرْنَا مِن نُعُوتِه شَيئاً ، فقال لهم: قد حُرِمْتُم كثيراً مِنَ الخيرِ ، فارْجِعُوا إلى أَهلِيكم ، فإِنَّ الحقوقَ في مَالي كَثِيرةٌ ، ولم يُعْطِهم شَيئاً ، فرَجَعُوا عنه خائبين ، ثم إنّهم رجعُوا إليه ، وقالوا له: إنا كنَّا أَعْجَلْنَاكَ فيما أَخْبَرْنَاكَ به ، ولما اسْتَثْبَتْنَا علمْنَا أَنا غَلِطْنا ، وليسَ هوَ المنْتَظَرَ! ، فرَضِيَ عنهم وَوَصَلَهم على عادَتِه ، وجعل لكُلِّ من تابعَهم مِن الأحبَارِ شَيئاً مِن مَالِه. وهُمْ إنّما رجعوا عن قولِهمُ الحقَّ بعد إقرَارِهم به طمعاً بالمال.

ولما انتصرَ رَسُوْلُ الله ﷺ يومَ بدْرٍ ، وقَدِمَ زيدُ بنُ حارثة ، وعبدُ الله بنُ رَوَاحة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما مُبَشِّرِينَ لأهل المدينةِ بذلك ، وصَارَا يقولانِ: قُتِلَ فلانٌ وفلانٌ ، وأُسِرَ فلانٌ وفلانٌ ؛ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيشٍ ، صَارَ كعب يُكَذِّبُ في ذلك ، ويقولُ: هَؤُلَاءِ أشرَاف العَرَبِ ومُلُوكُ النّاسِ ، والله إنْ كانَ محمدٌ قتلَ هؤلاءِ القَوم فبَطْنُ الأَرْضِ خَيرٌ مِن ظَهْرِها.

ولما تَيقّنَ عدوُّ الله الخبرَ خرَجَ حتّى قَدِمَ مَكَّةَ ، وكانَ شَاعراً ، فجعلَ يهجُو فيها رَسُوْلَ الله ﷺ والمسلمين ، ويمْدَحُ عدوَّهم ويحرِّضُهم عليهم ، ويُنْشِدُ الأشعارَ ، ويبكي مَن قُتِلَ ببَدْرٍ مِن أَشرَافِ قُرِيشٍ ، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي ابنَ الأَشْرَف بِمَا شِئْتَ» ، فرجع كعبٌ إلى المدينة بعدَ أَنْ لمْ يَجِدْ مَن يُأْوِي له رَحْلَه بمَكَّةَ ؛ لأنه لما قدم مَكَّةَ وضعَ رحلَه عندَ المطّلب بنِ وَدَاعة وأكرَمَتْه زَوجَةُ المطّلبِ وهيَ عاتكةُ بنتُ أُسَيدٍ ، فدَعَا رَسُوْلُ الله ﷺ حَسَّاناً ، وأخبرَه بذلك ، فهَجَا المطّلِبَ وزوجَتَه ، فلما بلغهما هِجَاءَ حسَّانٍ أَلقَتْ رَحْلَه ، وقالت: ما لنا ولهذا اليَهُودي؟ ، وقد أسلم المطّلبُ وزوجتُه بعد ذلك ﷺ. وصار كعبٌ



كلّما تحوّلَ عند قومٍ من أَهْلِ مَكَّةَ، صَارَ حسّانُ يهجوهم، فيلقونَ رحلَه.

ويقالُ: إنّه خرجَ في سَبعين رَاكِباً من اليهودِ إلى مَكَّةَ ليُحَالِفُوا قُرَيشاً على حَرْبِ رَسُوْلِ الله ﷺ، فنزلوا على أبي سُفْيَان فقال لهم أبو سُفْيَان: إنّكم أَهْلُ كتابٍ، ومحمَّدٌ صَاحِبُ كِتَابٍ، ولَا نَأمَنُ أَنْ يكونَ هذا مَكْراً منكم، فإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَخْرُجَ معكم فاسْجُدوا لهذينِ الصَّنمين، وآمِنُوا بهما، ففَعُلوا ذلك، فحَالفهم أبو سُفْيَان عِندَ أَسْتَارِ الكَعْبَةِ على قِتَالِ المسلمين، ثمّ إنّ أبا سُفْيَان قال لكَعب: إنّكَ تَقْرَأ الكِتَابَ وتَعْلَمُ، ونَحنُ أُمِّيُّونَ لا نعلمُ، فأينا أهدى طريقاً وأقربُ إلى الحقّ، أَنحنُ أم محمّدٌ؟، فقال كعبٌ: اعرضُوا عَلَيَّ دِينكم، فقال له أبو سُفْيَان: نحْنُ نَنْحرُ للحَجِيج الكَومَاءَ، ونَسقِيهم الماءَ، ونُقْرِي الضّيفَ، ونَفُكُّ العَاني، ونَصِلُ الرَّحِمَ، ونَعْمُرُ بيتَ رَبّنا، ونطُوفُ به، ونحْنُ أهل الحَرَم، ومحمَّدٌ فارقَ دينَ آبائِه، وقَطَعَ الرَّحِمَ، وفارقَ الحَرَم، وديننا قديمٌ ودينُ محمَّدٍ حَدِيثٌ، فقال كعبٌ: أنتم والله أهدى سبيلاً ممّا هوَ عليه. ثم خَرَجَ كعبٌ من مَكَّةَ إلى المدينة، ولما وصَلَ المدينةَ صارَ يُشَبِّبُ بِنِسَاءِ المسلمين، ويتَغَزَّلُ فيهنّ، ويذكرُهُنَّ بالسُّوءِ حتّى آذاهُنَّ.

وقيل: إنّ كعبَ بنَ الأشرف صَنعَ طعاماً، ووَاطَأ جمَاعةً من اليهود على أنْ يدعُوا النبيَّ ﷺ إلى الطّعَام، فإذَا حضرَ يفْتِكُونَ به، ثم دعاهُ فجاءَ ومعه بعضُ أصحابه، فأعلَمَه جبريلُ عليه السلام بما أضمروه بعد أَنْ جَالسَه، فقامَ ﷺ، وجِبرِيلُ عليه السلام يسترُه ﷺ بجَناحِه حتّى خرجَ، فلمّا فقدوه تفرَّقوا.

فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَنْ يَقْتُلُ كَعْبَ بنَ الأَشْرَفِ؟، فَقَدْ اسْتَعْلَنَ

بِعَدَاوَتِنَا وَهِجَائِنَا» ، فقال محمَّدُ بنُ مسلمةَ الأوسيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عنه: يا رَسُولَ الله ، أنا لكَ به ، هو خَالي وأنا أَقتُلُه ، وعزَمَ على ذلك هو وأربعةٌ مِن قومِه مِنَ الأوسِ وهم: عبّادُ بنُ بِشْر ، وأبو نَائِلَة ، وكان أخاً لكَعْبٍ من الرضاعة ، والحَارِثُ بنُ عيسَى ، والحارثُ بنُ أوس.

ومكثَ محمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد قولِه لرَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما تقدّم ثلاثةَ أيام لا يأكلُ ولا يشْرَبُ إلا ما تقومُ به نفْسُه خَوفاً من عَدَم وفَائِه بما ذَكَره ، ثم قال: يا رسولَ الله ، لا بُدَّ لنا أَنْ نقولَ ، ـ أي نذكر ما نتوَصَّلُ به إليه مِنَ الحِيلة ـ ، فقال: «قُولُواْ مَا بَدَا لَكُمْ ، فَأَنْتُم فِي حِلٍّ مِنْ ذَلِكَ» ، وأباح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم الكَذِبَ لأنه مِنْ خُدَعِ الحرْبِ.

ثمّ تَقَدَّمَهم أبو نائلة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وكان يقُولُ الشِّعرَ ، فتحَدَّثَ مع كعبٍ وتنَاشَدا شِعراً سَاعةً ، ثم قال: ويحكَ يا ابنَ الأشرفِ ؛ إنِّي قد جِئتُك لحاجَةٍ أريدُ أنْ أذكرَها لك فَاكْتُم عَنّي ، قال: أَفْعَلُ ، قال: كانَ قدُومُ هذا الرَّجُلِ علينا بلَاءً من البَلاءِ ، عادَتْنا العَرَبُ ورَمَتْنا عَن قَوسٍ واحِدَة ، فقُطِعَتْ عنّا السُّبُل ، حتَّى جاعَ العِيالُ وجَهِدَتْ الأَنفُس ، وسَأَلنَا الصَّدَقَةَ ونحْنُ لَا نَجِدُ ما نَأكُلُ ، وسَائِرُ ما عندنا أَنْفَقْنَاهُ على هذا الرَّجُل وعلى أصحابِه ، فقال كعبٌ: لقد كنْتُ أخبرْتُك أَنَّ الأمرَ سَيَصِيرُ إلى ما تَقولُ ، ثم قال له كعبٌ: أصدقني ما الذي تريدون في أمره؟ ، فقال: خذلانه والتّنَحِّي عنْه ، قال: شَرٌّ تَبَيَّنَ ، آنَ لكم أَنْ تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل.

فقال له أبو نائلة: إنّي أُرِيدُ أَنْ تبيعني وأصحَابي طَعَاماً ، ونُرْهِنُكَ ونُوَثِّقُ لكَ ، قال: ارْهَنُوني نِسَاءَكم ، فقال: كيفَ نُرْهِنُكَ نِسَاءَنا؟ ، وأنتَ أجملُ العَرَب ،

لَا نَأمنُكَ عَليهِنَّ، وأَيُّ امرَأَةٍ تمْتَنِعُ مِنْكَ لجمَالِكَ؟، فإنك تعجب النساء، قال: فارهنُوني أبناءَكم، فقال: كيفَ نرْهنُك أبناءَنا فيُسَبُّ أحدُهم بأنه رُهِنَ؟، وهذَا عارٌ علينا، ولكِنّا نُرْهِنُكَ السَّلَاحَ، فَوَافَقَ على ذلك، ورَجَعَ أبو نَائِلة ومحمَّدُ بنُ مَسْلَمة إلى أصْحَابهما فأَخبرَاهم الخبرَ وأمرَاهم بأَخْذِ السِّلاحَ.

ثمّ جاؤوا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، وخرَجوا من عندِه مُتَوَجِّهين إلى كَعْبٍ، فخرجَ رَسُوْلُ الله ﷺ يمشي معهم إلى بقِيع الغَرْقَد، ثم وَجَّهَهُم، وقال لهم: «انْطَلِقُواْ عَلَى اسْمِ الله، اللَّهُمَّ أَعِنْهِم»، ثم رجعَ رَسُوْلُ الله ﷺ إلى بيته، وَأَمَّرَ عليهم محمَّدَ بنَ مسلمة، وكانت تلك الليلةُ مُقْمِرَةٌ، فأقبلوا رضي الله عنهم حتى انتهوا إلى حِصْنِ كَعْبٍ، فهَتَفَ بِه أبو نَائِلَة رضي الله عنه، وكان كَعْبٌ قريبُ عَهْدٍ بِعُرْسٍ، فوَثَبَ في مِلْحَفَتِه، فأخَذَتِ امْرَأَتُهُ بطَرَفِها، وقالتْ: إنّكَ امْرُؤٌ مُحارِبٌ، وإنَّ أَصْحَابَ الحرْبِ لَا ينزلونَ في مِثل هذِه السّاعة، فقال لها: إنّه أبو نائلة، لوْ وَجَدَني نَائِماً لما أَيقَظَنِي!، فَقَالَتْ له: والله إِنِّي لأعْرِفُ في صَوتِه الشَّرَّ، إنّي أسمعُ صَوتاً كَأنه يقطرُ منه الدّمُ، فقال: إنما هو ابنُ أُخْتِي محمَّدُ بنُ مَسْلَمة، ورَضِيعي أبو نائلة، إِنّ الكَرِيمَ لو دُعِيَ إلى طَعْنَةٍ لَأجابَ.

فنَزلَ وهوَ ينْفَحُ منه ريحٌ طَيِّبٌ، فتَحَدّثُوا معه سَاعةً ثم تماشوا، ثُمّ إِنّ أَبا نائلةَ وضعَ يدَه على رَأسِ كعبٍ ثُمَّ شَمَّ يدَه، وقال: ما رَأَيتُ طِيباً أَعْطَرَ من هذا الطِّيب. فقال كعبٌ: عندي أَعْطَرُ وأَجملُ نِساءِ العَرَبِ، فقال له: ادْنِ منّي رَأسَك أَشُمَّه وأَمْسَحُ به عيني ووَجْهِي، ثم مشَوا ساعةً، ثمّ عادَ أبو نائلة لوضْع يَدِه على رأسِه، واسْتَمْسَك به، وقال: اضربُوا عدوَّ الله، فضَرَبُوه، فاخْتَلَفْتْ أسيَافُهُم، فلم تُغْنِ شَيئاً، ولَصِقَ عَدوُّ الله بأبي نائِلةَ، وصاحَ صيحةً لم يَبْقَ حِصْنٌ إلّا وعليه

نَارٌ. قال محمّدُ بنُ مسلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فوضَعْتُ سَيفي في ثَنيَّته، ثم تَحامَلْتُ عليه حتّى بلغَ عَانَتَهُ فوَقَع، ولما صَاحَ اللّعِينُ صَاحَتْ امرَأَتُه فَقَالَتْ: يا آلَ قُرَيْظَةَ والنّضِير، مرّتين، فخرجَتِ اليهودُ فأخذوا طريقاً غيرَ طريقِ الصَّحابةِ، ففَاتُوهُم.

قال محمّدُ بنُ مسلمة: وأُصِيبَ الحارثُ بنُ أوسٍ مِن بعضِ أسيافِنا في رِجْلِه ورَأسِه، ونزَفَ به الدّمُ، فتَخَلّف عنّا، ونادَى: اقرئوا رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منّي السَّلامَ، فعَطَفْنا عليه واحْتَمَلْناهُ، فجِئْنا رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرَ اللّيل، وهو قائمٌ يصلي، فسَلّمْنا عليه، فخرَجَ إلينا، وأخبرْنَاه بقتلِ عدوِّنا، وتَفَلَ على جُرْحِ صَاحِبِنَا فلم يؤلمه.

وفي روايةٍ: أنهم حزّوا رأسَ كعب وحملوا ذلكَ الرّأسَ، ثم خرجوا يَشْتَدّون، فلما بلغوا بقيع الغَرْقَدِ كبّرُوا، وقد قامَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلّي تلك اللّيلة، فلمَّا سمعَ تكبيرَهم بالبقيع كبّرَ، وعرفَ أنهم قد قتلوا عدوَّ الله، وخرجَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بابِ المسجدِ، فجاؤوا ووجدوه واقفاً على بابِ المسجد، فقال لهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْلَحَتْ الوُجُوهُ»، قالوا: أفلحَ وَجهُك يا رسُولَ الله. وأصبحَ اليَهودُ مذعورين، فأتوا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: قُتِلَ سَيِّدُنا غيلَةً، فذكَرَ لهم أَذِيّتَهُ للمُسْلِمِينَ، فازْدَادُوا خوفاً.

٨ ـ سَرِيَّةُ عَبْدِ الله بنِ عَتِيك

كانت سَرِيّةُ عبدِ الله بن عَتِيكٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْه لقتل أبي رَافع سَلَامِ بنِ أَبي الحُقَيقِ الخزْرَجي، كان بخَيبرَ، وكانَ تاجرَ أهلِ الحِجاز. فإنّه لما قَتَلَتِ الأَوسُ كَعْبَ بنَ الأَشرَفِ، تذاكرَ الخزْرَجُ مَن يُشَابِهُ كَعْبَ بنَ الأشرفِ في العَدَاوةِ

لِرَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الخزْرَجِ؟، فذكرُوا أبا رَافِعٍ سَلَامَ بنَ أَبي الحُقَيق أَنه يُؤْذِي رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان سَلَامُ بنُ أبي الحُقَيق ممَّن أعَانَ غَطَفَانَ وغيرِهم من مُشركي العرَب؛ بالمالِ الكثيرِ على حَرْبِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهُوَ الذي حَزَّبَ الأحزَابَ يومَ الخنْدَقِ، وكانتا الأوسُ والخزرجُ يتنافَسَان فيما يُقرّبُ إلى الله ورسولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا تَفعَلُ الأوسُ شيئاً من ذلك إلا فعلَتِ الخزْرَجُ نظيرَه، وبِالعَكْسِ، فقالوا: والله لا يَذْهبُونَ بِهَذا قَتِيلاً علينا في الإسلامِ. فانْتَدَبُوا لقَتْلِه خَمْسَةً مِنَ الخزْرَجِ، منهم: عبدُ الله بنُ عتيك، وعبدُ الله بنُ أُنيسٍ، وأبو قتادة، واستأذنوا رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، وفي أنْ يتكلّمُوا بِمَا يتوَصَّلونَ به إليه مِنَ الحِيلَةِ، فأذنَ لهم، وَأَمَّرَ عليهم عبدَ الله بن عَتِيك، وأمرَهم أَنْ لَا يقْتُلوا وَلِيداً ولا امْرَأَةً، فخرَجُوا حتّى أَتوا خَيْبَرَ فتَسَوَّرُوا دَارَ أَبِي رَافع لَيْلاً، فلمْ يدعوا بيتاً في الدّارِ إلا أَغْلَقُوهُ على أهْلِه، وكانَ أبو رَافع في عِلِّيَةٍ لهَا دَرَجَةٌ، أي سُلّم مِنَ الخشَبِ مِنْ محَلٍّ يُصْعَدُ عليه إلى تلكَ العِلِّيَّةِ، فطلعوا في تلكَ الدّرَجَةِ، حتّى قامُوا على بابِ تلك العِلِّيَّةِ.

ثم اسْتَأْذَنُوا، فخرَجَتْ إليهم امْرَأَتُه، فَقَالَتْ: مَنْ أَنتُم؟، فقالوا: نَاسٌ مِن العَرَبِ نَلْتَمِسُ المِيرَة. فَقَالَتْ: ذاكُم صَاحِبُكم، فدَخلوا عليه، ولمّا دخَلوا عليه أغلقُوا عليهِم بابَ الحجرة، فوجدُوه وهو على فراشه، وما دَلَّهُم عليه في الظّلمَةِ إلا بيَاضُه، فابتدروه بأسْيَافهم، ووضَع عبدُ الله بن أُنَيسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَيفَه في بطْنِه وتحَامَلَ عليه حتّى أنفذَه، وهو يقول: قَطْنِي قَطْنِي، أي: يَكْفِينِي يكفيني، وعند ذلك صَاحت المرأةُ، ولما صاحت جعَل الرَّجُلُ منهم يَرْفَعُ علَيهَا سَيفَه، ثُمَّ يتَذكّرُ

نَهيَ رَسُوْلِ الله ﷺ، فيَكُفُّ يَدَه.

ثم خرجوا من عنده، وكان عبدُ الله بن عتيك سَيِّءَ البَصَرِ، فوقعَ من الدَّرَجَةِ، فوثَبَتْ رِجْلُه وثْباً شَدِيداً، وانكَسَرَتْ سَاقُه، فعَصَبها بعِمَامَتِه، فحَمَلُوه حتَى أتوا محَلّاً فاسْتَخْفوا فيه، وذلك المَحَلّ مِن أَفْنِيَتِهم التي يُلقونَ فيها كُنَاسَاتِهم، وفي لفظٍ: أنّهم كمَنوا في نَهْرٍ مِن عُيونِهم حتّى سَكَنَ الطّلبُ، لأَنهم أوقدوا النّيرانَ، وتفرَّقوا من كلّ وجهٍ يطلبونَهم، وخرَجَ الحارِثُ في ثلاثةِ آلافٍ في آثارِهم يطلبونهم بالنِّيران حتّى إذا أيسوا رجعوا إلى عدوِّ الله، فاكتنفوه.

فقال بعضُهم لبعضٍ: كيف نعلم أَنَّ عدوَّ الله قد مَات؟، فقال رَجُلٌ منهم: أنا أنظرُ لكم ذلك، فانطلقَ حتّى دَخَل في النّاس، قال: فوَجَدْتُ امرَأته تنْظُرُ في وَجْهِهِ وفي يَدِهَا المصْباحُ، وحَولَهُ رِجَالٌ مِن اليهودِ، وهي تحدِّثُهم، وتقولُ: أما والله لقد سَمِعتُ صوتَ ابنَ عتيك، ثمّ كَذَّبْتُ نَفْسِي، وَقُلْتُ: أَنّى لابنِ عَتِيكٍ بِهَذِهِ البِلَادِ؟، ثمّ أَقبَلَتْ تنظرُ في وجْهِه، ثم قالت: فاضَتْ رُوحُه وإِلَهِ يَهود. فمَا سَمِعْتُ كَلِمَةً كانتْ أَلَذَّ إلى نفسي من تلكَ الكلمة، ثم جئتُ إلى أصحابي وأخبرتهم، واحْتَمَلْنا عبدَ الله بنَ عَتِيكٍ، وقَدِمْنَا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ.

وكانوا يَتَناوَبُون حمْلَ عبدِ الله بنِ عَتيك، فلما قدِمُوا المدينةَ على النبيِّ ﷺ مَسَحَها فبَرِئتْ، ولما رَآهم رَسُوْلُ الله ﷺ قال: «أَفْلَحَتْ الوُجُوهُ»، فقالوا: أفلحَ وجْهُك يا رسُولَ الله، وأخبرُوه بقتْل عدوِّ الله، واختلفوا عندَه ﷺ في قتلِه كلّ مِنهم ادَّعَاه، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «هَاتُوا أَسْيَافَكُمْ» فجاؤُوه بها، فنظرَ إليها، فقالَ لسِيفِ عبدِ الله بنِ أُنيسٍ: «هَذَا قَتَلَهُ،

أَرَى فِيهِ أَثَرَ الطَّعَام».

وفي الصَّحِيح: أَنّ عبدَ الله بنَ عتيك هو الذي انْفَرَد بقَتْلِه، وأَنَّ عَدُوَّ الله كانَ بحِصْنٍ بأرض الحجاز، ولا مُنافاة لأنَّ خَيْبَرَ من الحِجْاز، فلما دنوا من خَيْبَرَ، وقد غربتِ الشّمْس، وراحَ النّاسُ بسَرْحِهم، قال عبدُ الله بنُ عتيك لأصحابه: اجلسُوا مكانكم، فإنّي مُنطلقٌ، ومُتَلَطِّفٌ لِلبَوّابِ لَعَلّي أنْ أدخلَ، فأقبلَ حتّى دَنا مِن البابِ ثمّ تقنَّعَ بثَوبِهِ كأنه يقْضي حَاجَتَه، وقد دخلَ النّاسُ، فهَتَفَ به البَوّابُ وهو يَظُنُّ أنه من أَهْلِ الحِصْنِ، فقال له: إِنْ كنْتَ تُريدُ أَنْ تَدْخُلَ فادْخُلْ، فإنّي أريدُ أَنْ أُغْلِقَ البابَ، فدخلَ وكَمَنَ، فلمَّا أغلقَ البَوّابُ البابَ علّقَ المفاتيحَ ثُمّ انصرفَ، فعَلِمَ عبدُ الله محلَّ المفتاح، ثمّ أخذَه وفتحَ الباب.

وكان أبو رَافِعٍ يسْمُرُ عنده ناسٌ، فلما ذَهَبَ عنه أَهْلُ سَمَرِه صَعَدَ إليه، قال عبدُ الله: فجعلتُ كلمَّا فتحتُ باباً أغلقْتُه عليَّ مِن دَاخِله، حتَّى انتهيتُ إليه، فإذا هُوَ في بيتٍ مُظْلم، ووسَطَ عيالِه لا أدري أينَ هو من البيت. فقلت: أبا رافع، فقال: من هذا؟، فأهويتُ نحو الصّوتِ، فضَرَبْتُه بالسَّيفِ فمَا أَغْنَتْ شيئاً وصَاح، فخَرَجْتُ من البيتِ، وعند ذلك قالت له امرأته: يا أبا رافع هذا صَوتُ عبدِ الله بنِ عَتِيك. فقال لها: ثَكِلَتْكِ أمُّكِ، وأَينَ عبدُ الله بنُ عتيك؟، ثم عُدْتُ، وقلت: ما هذا الصّوتُ يا أبا رَافع؟، فقال: إِنّ رَجُلاً في البيتِ ضَرَبنِي بالسَّيفِ. فعَمَدتُ إليه فضَربْتُه أُخْرَى، فلمْ تُغْنِ شيئاً فتَوَارِيتُ، ثمّ جِئْتُهُ كَهَيئَةِ المُغِيث، وغَيّرتُ صوتي، وإذا هو مُسْتَلقٍ على ظهرِه، فوضعتُ السَّيفَ في بطنِه، وتحاملتُ عليه حتى سمعتُ صوتَ العظم، ثمّ خرجتُ دَهِشاً فجئتُ إلى الدّرَجَةِ فوقعتُ، فانكسَرتْ رِجْلي، فعصَبتها بعمامتي، وانطلقتُ إلى أصحابي، فقلتُ: النّجَاة؛

قد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبيِّ ﷺ فحدثته، فقال: «ابْسُطْ رِجْلَكَ»، فمسحها، فكأني لم أشتكها قطّ.

٩ ـ سَرِيَّةُ زَيدِ بنِ حَارِثَة

وسببُها أَنّ قُرَيشاً لما كانت وقعتْ غزوةُ بدرٍ خَافوا من الطَّرِيقِ التي كانوا يسلكونها إلى الشام على بَدْرٍ، فسلكوا طريقاً أخرى من جِهة العِرَاق، فخَرَجَتْ عِيرٌ لهم فيها أموالٌ كثيرةٌ جِداً من تلك الطّرِيق يريدونَ الشّام، واستأجرُوا رَجُلاً يَدلّهم عَلى الطّريق، وكانَ ذلك الرَّجُل ممّن هرَب مِن أُسَارى بَدْرٍ، وفي ذلك العيرِ مِن أشرافِ قريشٍ: أبو سُفْيَان، وصفوان بن أمية، وعبد الله بن أبي ربيعة، وحُوَيطَبُ بنُ عبدِ العُزّى. فبعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ زيدَ بنَ حارثة رضي الله عنهما في مائةِ رَاكبٍ، وهي أوَّلُ سَريّةٍ لزيدِ بنِ حارثةَ خرج فيها أميراً، فسارَ رضي الله عنه حتى وصل إلى موضع به ماءٌ يُقال له: القَرَدَة، فصادفَ تلك العيرَ على ذلك الماءِ، فأصَابَ العِيرَ، وأَفلَتَ القومُ، وأَسَرُوا دَليلَهُم. وقَدِمَ زَيدٌ رضي الله عنه بتلك العيرِ على رَسُوْلِ الله ﷺ، فخمَّسَها، فبلغَ الخمس مَا قيمته عشرون ألف درهم، وأُتِيَ بذلك الأَسيرِ، فقيل له: إنْ تُسْلِمْ تُتْرَكْ، فَأَسْلَمَ، وحَسُنَ إسْلَامُه بعدَ ذلك.

١٠ ـ سَرِيَّةُ أَبِي سَلَمَة

أبو سلمة هو عبد الله بن عبد الأسد، وهو أخو النبيِّ ﷺ من الرّضَاعَةِ وابنُ عَمَّتِه بَرّة بنتِ عبدِ المطّلب، أرسلَه ﷺ إلى قَطَن، وهو جَبلٌ، وقيل: ماءٌ مِن مِيَاهِ بني أَسَد. وسبَبُها: أنه بلغَ رَسُوْلَ الله ﷺ أَنّ طُلَيحَةَ وسَلَمَةَ ابني خُوَيلِدٍ قد سَارا في قومِهما ومَن أطاعهما إلى حَرْبِ رَسُوْلِ الله ﷺ،

وكان الذي أخبرَه بذلك رَجُلٌ مِن طَيءٍ قَدِمَ المدينةَ لزيارَةِ بنْتِ أَخِيه بها، فدعا رَسُوْلُ الله ﷺ أبا سَلَمَة، وعقد له لواءً وبعثَ معه مائةً وخمسينَ رَجُلاً من المهاجرين والأنصار، وخرجَ الرَّجُل المُخْبِرُ لهُ ﷺ دَليلاً لهم، وقد قال النَّبيُّ ﷺ لأبي سَلَمَةَ: «سِرْ حَتَّى تَنْزِلَ أَرْضَ بَنِي أَسَدٍ، فَأَغِرْ عَلَيهِمْ قَبْلَ أَنْ يَتَلَاقَى عَلَيكَ جُمُوعُهُمْ»، فأَسْرَعَ السَّيرَ، وعَدَلَ عن سِيفِ الطَّرِيقِ، وسارَ بهم لَيلاً ونَهاراً لِيَسْتَبِقَ الأَخبَارَ، فانتَهى إلى ماءٍ مِن مِياهِهم، فأَغَارَ على سَرْحٍ لَهُم، وَأَسَرُوا ثلاثةً من الرُّعَاةِ وأَفْلَتَ سَائرُهم، ثم إنّه فَرّق أصحَابَه ثلاثَ فِرَقٍ: فِرْقَةً بقِيَتْ معَه، وفرْقَتَينِ أغَارَتَا في طَلَبِ النَّعَم والشَّاءِ والرِّجَال، فأَصَابوا إبِلاً وشَاءً، ولمْ يلْقَوا كيْداً، وانحدَرَ أبو سَلَمَة بذلك كلّهِ إلى المدينة. وأَخْرَجَ الخُمُسَ، ثم قَسَّمَ مَا بَقِيَ بينَ أَصْحَابِه، فأَصَابَ كُلّ إنسانٍ سَبْعَةَ أبْعِرَة.

١١ ـ بَعْثُ عَبْدِ الله بْنِ أنيس

بلغَ رَسُوْلَ الله ﷺ أَنَّ سُفْيَانَ بنَ خَالد الهُذَلِي اللِّحْيَانِي قَدْ جمَّعَ الجمُوعَ لحربِ رَسُوْلِ الله ﷺ، فبعثَ النبيُّ ﷺ له عَبْدَ الله بنَ أُنيسٍ رضي الله عنه ليقتلَه، فقال: يا رسُولَ الله، صِفْهُ لي فإنّي لا أعْرِفُه، فقال له: «إِذَا رَأَيْتَهُ هِبْتَهُ وَفَرِقْتَ مِنْهُ وَذَكَرْتَ الشَّيْطَانَ»، فقال عبدُ الله: يا رسُولَ الله، ما فَرِقْتُ من شَيءٍ قَطّ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «بَلى، إِنَّكَ سَتَجِدْ لَهُ قُشَعْرِيرَةً إِذَا رَأَيْتَهُ».

قال عبدُ الله: فاستأذنتُ رَسُوْلَ الله ﷺ أَنْ أقولَ ما أتوَصَّلُ به إليه من الحِيلَةِ، فأذِنَ لي، فَسِرْتُ حتى إذا كنتُ ببَطْن عُرَنَة، وهو وادٍ بقربِ عَرَفَة، لَقِيتُه يمشي مُتَوَكّئاً على عَصاً يَهُدّ الأَرضَ، ووَرَاءَه أَخْلاطُ النّاسِ ممّن انضَمَّ إليه،

فعرفتُه بنعتِ رَسُوْلِ الله ﷺ، لأنّي هِبْتُه، وكنتُ لا أهَابُ الرِّجَالَ، فقلتُ: صَدَقَ الله ورَسُولُه، وكانَ ذلك في وقتِ العصر، فخَشِيتُ أنْ يكونَ بيني وبينه محَاوَلَةٌ تشْغَلُني عن الصَّلاةِ، فصَلّيتُ وأنا أمشي نحوه، أومِئُ برأسِي، فلما انتهيتُ إليه، قال لي: مَنِ الرَّجُلُ؟، فقلتُ: أنا رَجلٌ مِن خُزَاعَةَ، سمعتُ بجَمْعِك لمُحَمّدٍ، فجِئْتُ لِأَكونَ معَكَ، قال: أَجَلْ، إِنّي لأَجْمَعُ له. فمَشِيتُ معه سَاعَةً وحَدّثْتُه، فَاسْتَحْلَى حَدِيثي، فقلتُ له: عَجِبْتُ لما أَحَدَثَ محمَّدٌ من هذا الدِّينِ المُحْدَثِ، فارَقَ الآباءَ، وسَفّهَ أَحْلاَمَهم. فقال لي: إنّه لم يلقَ أَحَداً يُشْبِهُني، ولَا يُحْسِنُ قِتَالَه.

فلما انتهَى إلى خِبَائِه وتفَرّقَ عنه أَصْحَابُه، قال لي: يا أَخَا خُزَاعَة هَلُمَّ، فدنَوتُ منه فقال: اجلِسْ، فجَلَسْتُ معه، حتّى إذا هَدَأ النّاسُ وناموا قتَلْتُه، ثُمَّ دَخَلتُ غاراً في الجبَلِ، وصَيَّرتِ العَنكبُوتُ عليَّ نَسْجاً، وجَاءَ الطّلَبُ فلمْ يجدوا شيئاً، فانصرَفوا راجعين، ثم خرَجْتُ، فكُنتُ أَسِيرُ اللّيلَ وأتوارَى النّهارَ، حتى قدِمْتُ المدينةَ، فوجدتُ رَسُوْلَ الله ﷺ في المسجدِ، فلمَّا رَآني قال: «قَدْ أَفْلَحَ الوَجْهُ» قلت: أفلحَ وجْهُك يا رسُولَ الله، وأخبرته خبري، فدفعَ لي عَصاً وقال: «تَخَصَّرْ بِهَذِهِ فِي الجَنَّةِ، فَإِنَّ المُتَخَصِّرِينَ فِي الجَنَّةِ قَلِيلٌ»، فكانَتْ تلك العَصَا عنده، فلما حضَرَتْهُ الوفاةُ أوْصَى أهلَه أَنْ يجعلوها بينَ جِلْدِه وكَفَنِه، ففعلوا.

١٢ - سَرِيَّةُ الرَّجِيْع

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عَشرةً، عيوناً إلى مَكَّةَ، يَتَجَسَّسُونَ أَخْبَارَ قُرِيشٍ لِيَأْتُوهُ بها، وأَمَّرَ عليهم عاصِمَ بنَ ثابتٍ الأنصاري ﷺ، ويُقَالُ له: ابنُ أبي الأَفْلَح، وقيل: أَمَّرَ عليهم مَرْثَداً الغَنَوِيّ ﷺ، قد كانَ مِرْثدٌ هذا يحمِلُ الأَسْرَى ليلاً من مَكَّةَ حتّى يأتي بهم المدينة، فوعَدَ رَجُلاً من الأَسْرَى بمَكَّةَ أنْ يحمِلَه. قال: فجئتُ بهِ حتّى انتهيتُ بهِ إلى حَائِطٍ مِن حِيطانِ مَكَّةَ في ليلةٍ مُقْمِرَةٍ، فجَاءَت عَنَاقٌ، وكانتْ مِن جُملةِ البَغَايا بمَكَّةَ، فرَأَتْ ظِلّي في جَانبِ الحَائطِ، فلمَّا انتَهَتْ إليَّ عرفتني، فَقَالَتْ: مَرْثَدٌ؟، قلتُ: مَرْثدٌ، فَقَالَتْ: مرحباً وأهلاً، هَلُمَّ تَبِتْ عِنْدَنا اللَّيلَةَ، فقلتُ: يا عَنَاقُ، إنّ الله حَرَّمَ الزِّنا، فدَلّتْ عَلَيَّ، فخرَجَ في أثري ثمانيةُ رِجَالٍ، فتواريتُ في كهْفِ الخَنْدَمَةِ، فجاؤوا حتى وقفوا على رأسي، فأعماهم الله عنّي، فلما رَجَعُوا رجعتُ لصاحِبي، فحمَلْتُه وكان رجلا ثقيلاً، حتى إذا انتهيتُ إلى محلٍّ، فَفَكَكْتُ عنه قيدَه، ثمّ جَعَلْتُ أَحْمِلُه حتّى قَدِمْتُ المدينةَ، فاسْتَشَرْتُه ﷺ أَنْ أَنكِحَ عناقا، فأمسَكَ عنّي حتّى نَزَلتْ: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣] فدعاني فتَلاها عَلَيَّ، ثمّ قال لي: «لَا تَتزَوَّجْهَا».

وقِيلَ: إنّ هؤُلاءِ العشرةَ لم يخرجوا ليأتوا بخَبرِ قُرَيش، وإنّما خرَجوا مع رَهْطٍ مِن عَضَلٍ وَالْقَارّةِ، قَدِمُوا على رَسُوْلِ الله ﷺ، وقالوا: يا رسُولَ الله، إنّ فينا إسْلاماً، فابعثْ معنا نفراً مِن أصحابِك يُفَقِّهُونَا في الدِّينِ، ويُقْرِئُونا القُرْآنَ ويُعَلِّمُونَا شَرَائعَ الإسْلام، فبعثَ النبيُّ ﷺ معهم أولئكَ النّفر، فسَاروا بهم، حتّى إذا كانوا على الرَّجِيع اسْتَصْرَخُوا عليهم هُذَيلاً، فلم يَشْعُروا إلّا

والرِّجَالُ بأيدِيهم السَّيوف قد أحاطوا بهم، فأخذوا أسيَافَهم لِيُقَاتِلوا القومَ، فقالوا لهم: والله لا نُرِيدُ قَتْلَكم، ولَكِنّا نُرِيدُ أَنْ نُصِيبَ بكم شَيئاً من أهلِ مَكَّةَ، ولكم عهدُ الله وميثَاقُه أَنْ لا نَقْتُلَكم، فأبوا عليهم.

وكانَ مِن جُمْلَةِ العَشَرةِ الذين بعثَهم رَسُوْلُ الله ﷺ: عبدُ الله بنُ طارق، وخُبَيبُ بنُ عدي، وزَيدُ بنُ الدَّثِنَّة، فخرجوا ﷺ يسيرون الليلَ ويكمنون النهارَ، حتى إذا كانوا بالرَّجِيع، وهو ماءٌ لهُذَيل، لَقِيَهم سُفْيَان بنُ خَالِدٍ الهُذَلي، الذي قتَلَه عبدُ الله بنُ أُنَيس فيما بَعْدُ كمَا تَقَدّم، فنَفَرَ إِلَيهم فيما يقربُ مِن مائة رَامٍ من بني لِحْيَان، فاقتفوا آثارَهم حتّى وجَدُوا نوَى تمرٍ أكلُوه في منزلٍ نزَلوه، فتبعُوهم إلى أَنْ وَجَدُوهم، فلمَّا أحسّوا بهم لجؤُوا إلى موضِع من جبل هناك، فصعدوا إليه، فأحاطَ بهم القومُ، وقالوا لهم: انزلوا ولكُم العَهدُ أَنْ لا نقْتُلَ منكم أَحَداً، فقال عاصِمٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: أمَّا أنا فَلا أَنْزِلُ على ذِمَّة كافر، فرموهم بالنّبل فقتَلوا عاصِماً وَسِتَّةً مِنهُم، وقد كان عاصِمٌ يرميهم بالنّبل وينشدُ أبياتاً منها:

مَـا عِلّتِي وَأَنَـا جَلْـدٌ نَـابِـلُ ... وَالْقَوْسُ فِيهَـا وَتَرٌ عُنَـابِـلُ

تَزَلُّ عَنْ صَـفْحَتِهَا المَعَابِلُ ... المَوْتُ حَقٌّ وَالْحَيَـاةُ بَـاطِـلُ

وَكُـلُّ مَـا حَـمَّ الإِلَـهُ نَـازِلُ ... بِـالمَرْءِ وَالمَرْءُ إِلَيْـهِ آيِـلُ

ولا زالَ يرميهم حتى فَنِيَتْ نَبْلُه، ثمّ طاعنَهم حتى انكسَرَتْ رمحُه، ثمّ سَلّ سَيفَه، وقال: اللَّهُمَّ إِنّي حَمَيتُ دِينَكَ صَدْرَ النَّهَارِ فاحْمِ لَحمِي آخرَه، ثمَّ قاتَلَ حتّى قُتلَ.

ولما قُتِلَ عاصِمٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، أَرَادَتْ هُذَيلٌ أخذَ رأسِه ليَبيعُوه مِنْ

سُلَافَةَ وهِيَ أمُّ مُسَافِعٍ وجُلَاس ابنَي طلحة بن أبي طلحة بن عبدِ الدّارِ ، فإنَّ عَاصِماً هذا كما تقدّم قتل يوم أُحُدٍ ولَدَيها ، كِلَاهُمَا أَشْعَرَهُ سَهماً ، وكلٌّ يأتي إليها بعدَ إصَابتِه بالسَّهْم ، ويضعُ رأسَه في حِجْرها ، فتقولُ: يا بُنيَّ مَنْ أَصَابك؟ ، فيقولُ: سَمِعْتُ رَجُلاً يقولُ حينَ رماني: خُذْهَا وأَنا ابنُ أَبِي الأَفْلَح ، فنَذَرَتْ إنْ قَدَرَتْ على رَأْسِهِ لتَشْرَبَنَّ في قحْفِهِ الخمْرَ ، وجَعَلتْ لِمَن يجيءُ برأسِه إليها مِائةَ نَاقَة ، فحَالتْ الدَّبْرُ وهِيَ الزَّنَابِيرُ بينَهم وبينَ عَاصِمٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه ، كلَّما قَدِمُوا عليهِ طَارَتْ في وجُوهِهم ولدَغَتْهُم ، فقالوا: دَعُوه حتّى يُمْسِي ثمّ نأْخُذُه ، فبعَثَ الله المطرُ حتّى سَالَ الوادِي ، فاحتملَ السَّيلُ عاصِماً فذهبَ به إلى حيثُ أرادَ الله تعالى.

وبعثَ نَاسٌ من قُرَيشٍ لما بلغَهم قَتْلَ عاصِمٍ في طَلِبِ جسَدِه أو شيءٍ منه؛ ليُمَثِّلوا به لأنه قتلَ عَظِيماً من عُظَمائِهم يومَ بَدْرٍ ، وكَأَنَّ قُريشاً لم تَشعرْ بما جرَى لهُذَيل من مَنع الزّنَابيرِ لهُم عن عاصِم ، أو شعروا بذلك ورَجوا أَنَّ الزَّنَابيرَ قد تَرَكَتْهُ ، ولم يشعروا بأنَّ السَّيلَ أَخَذَه ، وقد كان عاصمٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه دعَا الله تعالى أنْ لَا يَمَسَّ مُشْرِكاً ، ولا يمَسّه مُشْرِكٌ في حياتِه ، ودعا الله أَنْ يحمِيَ لحمَه ، فاسْتَجَابَ الله له ، فلم يحصلْ له ذلك لا في حياتِه ولا بعد موتِه.

ونزلَ إليهم ثلاثةٌ على العهدِ ، وهم: خُبَيبٌ ، وزيدٌ ، وعبدُ الله بنُ طارقٍ ﷺ ، فلمّا أمسَكوهم أطلقوا أوتارَ قِسِيِّهم ، فربطوا خُبَيباً وزَيداً وامْتَنعَ عبدُ الله ، وقَال: هَذا أَوّلُ الغَدْرِ ، والله لا أَصْحَبكم ، إنّ لي بهؤلاءِ القَتْلَى أُسْوَة ، فعالجوه ، فأبي أَنْ يصْحَبَهم ، فقتلوه.

ثمّ انطلقوا بخبيبٍ وزيدٍ، ودخلوا بهما مَكَّةَ في شهر ذي القعدة، فباعوهما بأَسِيرين من هُذَيل كانَا بمَكَّةَ، وقيل: بِيعَ كُلّ واحدٍ بخمسِين من الإبل، وقيل: بِيعَ خُبيبٌ بأَمَةٍ سوداء، فابتاع بنو الحارث بن عامر خُبَيباً، وابتاعَ صَفْوَانُ بنُ أمية زَيداً ليقتله بأبيه، ثم حبسوهما إلى أَنْ تنقضي الأَشْهُرُ الحرُمُ، واستعارَ خبيبٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وهو محبُوسٌ من بعضِ بناتِ الحارِثِ موسىً لِيَسْتَحِدَّ بها، فدَرَجَ لها ابنٌ صَغِيرٌ وهيَ غَافِلَة عنه، حتّى أتى إلى خُبَيبٍ، فأجلسَه خبيبٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه على فَخْذِه والموسى بيدِه، فلمَّا رَأتْ ابنَها علَى تلكَ الحالَةِ فَزِعَتْ فزْعَةً عرَفَهَا خُبَيبٌ، فقال: أَتَخْشَينَ أَنْ أَقْتُلَه: مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَ ذلك، إنَّا لا نَغْدِرُ.

فكانتْ بنتُ الحارِثِ تقول: والله ما رأيتُ أسيراً خيراً من خُبَيبٍ، والله لقد وجدته يوماً وقد اطّلعتُ عليه من شِقّ البابِ يأكلُ قِطْفاً مِن عِنَبٍ في يَدِه، وإنه لمُوثَقٌ بالحَدِيدِ ومَا بمَكَّةَ ثمَرَةٌ، ولا أعلمُ في أرضِ الله عِنباً يُؤْكَلُ. فلمّا انقَضَتِ الأشهرُ الحرُمُ بانقِضَاءِ المحَرَّمِ، خرجوا بخبيبٍ من الحرَم ليقتلُوه في الحِلّ، ولما قُدِّمَ لِلقَتْلِ قال لهم: دَعُوني أُصَلّي رَكعتين، فتركوه، فركعَ ركعتين، وقال لهم: والله لولا أنْ تحسَبوا أنّ مَا بِي مِن جَزَعٍ من الموتِ لَزِدْتُ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ أحْصِهم عدداً، واقتلْهم بدَداً، ولا تُبْقِ منهم أحداً. قال مُعَاويةُ بنُ أبي سُفْيَان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما: فألقَى أبو سُفْيَان بنفسِه إلى الأرض على جَنبِه خوفاً من دعوة خُبَيبٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه؛ لأنهم كانوا يقولون: إنَّ الرَّجُلَ إذا دُعِيَ عليه فاضْطَجَعَ لِجنْبِه لم تُصِبْهُ تلك الدَّعْوَةُ. وقد قُتِلَ أَكْثَرُ أولئك الذين دعا عليهم خُبَيبٌ في الخَنْدِق مُتفَرِّقين.

وذُكِرَ أنهم لما خرجوا به ليقتلوه خرج النّساءُ والصّبيانُ والعَبيدُ، فلمَّا انتهُوا

به إلى التَّنْعِيمِ أمروا بخَشَبةٍ طويلةٍ فحَفَرُوا لها، فلمّا انتهوا بخبيبٍ إليها، وبعدَ صلاتِهِ للرَّكعتين صَلبُوه على تلك الخشَبَةِ، لِيَرَاه الوَارِدُ والصَّادرُ، فيَذْهَبُوا بخَبرِهِ إلى الأَطرَافِ، بعد أَنْ قالوا له: اِرْجعْ عن الإسلام نُخَلِّ سَبِيلَك، وإِنْ لم ترجعْ لنَقْتُلَنَّك، فقال: إِنْ قتلي في سبيلِ الله لَقَلِيلٌ، اللَّهُمَّ إنه ليسَ هُنا أَحَدٌ يُبَلِّغُ رَسُولَكَ عنّي السَّلامَ، فبَلِّغْه أَنتَ عنِّي السَّلامَ وبَلِّغْه ما يُصْنَعُ بنا.

وعنْ أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما: أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ كانَ جالساً يوماً مع أصحابِهِ فأخَذَه ما كان يأخذُه عند نزولِ الوحي، ثمّ سَمِعْناه يقول: وعليهِ السَّلامُ ورَحمة الله وبركاته، فلما سُرِّي عنه ﷺ، قال لنا: «هَذَا جَبْرِئِلُ عليه السلام يُقْرِئُنِي مِنْ خُبَيبٍ السَّلَام، خُبِيبٌ قَتَلَتْهُ قُرَيْشٌ».

وقد جاء: أَنَّ المشركين دعوا أربعين وَلداً ممَّن قُتِلَ آباؤُهم يوم بَدرٍ، فأعطوا كلّ وَاحِدٍ رُمْحاً، وقالوا: هذا الذي قتَل آباءَكم، فطَعَنُوه بتلك الرِّماح حتّى قَتلوه، ووَكَّلُوا بتلْكَ الخشَبَةِ أَرْبَعِينَ رَجُلاً يحرُسُونها، فأرسَلَ رَسُوْلُ الله ﷺ المقدادَ والزُّبيرَ بنَ العَوَّام رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما في إنزالِ خُبَيبٍ عن خَشَبَتِه، وقال ﷺ: «أَيُّكُمْ يُنْزِلُ خُبَيباً عَنْ خَشَبَتِهِ وَلَهُ الجَنَّةُ»؟، فقال له الزُّبيرُ بنُ العوام رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: أنا يا رَسُولَ الله، وصَاحِبي المقدادُ بنُ الأَسْوَد، فجاءَا فوجدا عندها أربعينَ رُجُلاً لكِنّهم سُكَارى نِيَامٌ فأنزَلاه، وكانَ ذلك بعد أربعين يوماً من صَلْبِه ومَوتِه.

وحملَه الزُّبيرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه على فرَسِه، وهو رَطْبٌ لم يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيءٌ، فشَعَرَ بهما المشركون فتبعُوهما وكانوا سَبعينَ رَجُلاً، فلمّا لحقوا بهما

قَذَفَهُ الزُّبَيرُ رضي الله عنه ، فابْتَلَعَتْه الأَرْضُ ، ومِنْ ثَمَّ قِيلَ له: بَلِيعُ الأرضِ ، وكَشَفَ الزُّبيرُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه العِمَامَةَ عَن رَأسِه ، وقال لهم: أنا الزُّبيرُ بنُ العَوَّام ، وهذا صاحبي المِقْدَادُ بنُ الأَسْوَد ، أَسَدَانِ رَابِضَانِ يَذُبّان عن شِبْلِهما ، فإنْ شئتم ناضَلْتُكُم ، وإنْ شئتم نازَلتكم ، وإنْ شِئْتُم انصَرَفتُم ، فانصَرَفُوا . وقَدِمَا على رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ ، وكان عنده صلى الله عليه وسلم جبريلُ عليه السلام ، فقال له جبريلُ: يا مُحَمَّدُ ، إنَّ الملائكةَ تُباهِي بهَذَينِ الرَّجُلينِ مِن أَصْحَابِك .

ورُوِيَ أَنَّ عمرَو بنَ أميَّةَ هو الذي أنزلَ خُبيباً عن خشَبَتِهِ ، فعنه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: جئتُ إلى خَشَبةِ خُبَيبٍ ، فرَقيتُ فيها فحَلَلْتُه فوَقعَ إلى الأَرْضِ ، ثُمَّ التَفَتُّ فلمْ أَرَ خُبيباً ، قد ابتلعتْهُ الأرضُ . وهذا هو الموافقُ لما في السِّيرةِ الهِشَامِيّة ، وأَنَّ ذلك كانَ حين أَرْسَلَه النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لقتل أَبي سُفْيَان بنِ حَرْبٍ كما سيأتي ذكرُه إنْ شاءَ الله تعالى .

وقَدْ وَلّى عُمَرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه في خلافَتِه سعدَ بنَ عامرٍ رضي الله عنه علَى بعض أَجْنَادِ الشّام ، فقيل له: إنَّهُ مُصَابٌ يلحقُه غُشِيٌّ ، فاسْتَدْعَاه ، فلمَّا قَدِمَ وجدَ معه مِزْوَداً وعُكّازاً وقَدَحاً ، فقال عمرُ: ليس معك إلّا ما أرى؟ ، قال: وما أكثرُ مِن هذا يا أميرَ المؤمنين ، مِزْوَدِي أَضعُ فيه زادي ، وعكّازي أحملُ به ذلك ، وقدَحِي آكُل فيه ، فقال عمرُ: أَبِكَ لمَمٌ؟ ، قال: لا ، فقال: فما غُشِيَّةٌ بلَغَنِي أنّها تُصِيبُكَ؟ ، فقال: والله ما بي من بأسٍ ، ولكِنّي كنتُ فيمَن حضَرَ خبيبَ بنَ عَدِيٍّ حينَ قُتِلَ ، وسَمِعْتُ دعْوَتَه ، فوَ الله ما خَطَرَتْ على قلبي وأنا في مَجلِسٍ قَطّ إلا غُشِيَ عَليَّ . فزادَه ذلك عند عُمَرَ خيراً فأَرْجَعَه لعَمَلِه ، فأَبى ، ونَاشَدَه الإِعْفَاءَ ، فَأَعْفَاهُ .

وقد كان خبيبٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه هوَ الذِي سَنّ الصَّلاةَ لكلّ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبراً ؛ لأنَّ ذلك بلغَ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاسْتَحْسَنَه ، فكان سُنَّة . وهذا يَدُلّ على أنَّ واقعَةَ زَيدِ بنِ حارثةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه كانت مُتأَخّرةً عن قصَّةِ خُبَيبٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه . وقال بعضُهم: المعروفُ أنّ زَيدَ بنَ حَارِثَةَ صَلّاهما قبلَ خُبَيبٍ بزَمَنٍ طويل .

وقصَّةُ زَيدِ بنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه رواها اللّيثُ بنُ سَعْدٍ ، قال: بلغني أَنّ زيدَ بنَ حارثةَ اكْتَرى بَغْلاً من رَجُلٍ بالطّائف ، فمال بهِ ذلك الرّجلُ إلى خَرِبَةٍ ، ثم قال له: انْزِلْ ، فنَزَلَ زيدٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، فإذا في تِلكَ الخَرِبَةِ قتْلَى وجُثثٌ كثيرةٌ ، فلمَّا أرادَ أَنْ يَقْتُلَه ، قال له زيدٌ: دعني أُصَلِّي رَكْعَتَين ـ لأنه رَأى أَنَّ الصَّلاةَ خَيرُ مَا خُتِمَ به عَمَلُ العَبْدِ ـ ، فقال له: صَلِّ ما شَئْتَ فقَدْ صَلّى هَؤُلاءِ قبلَكَ فَلَمْ تَنْفَعْهُم صَلَاتُهم شَيئاً ، ـ وهذا يَدلّ على أَنّ القَتْلَى كلّهم كانوا مسلمين ـ قال زيدٌ: فلمَّا صليتُ أتاني ليَقْتُلَني ، فقلتُ: يا أَرْحَمَ الرَّاحمين ، فسَمِعَ الرَّجُلُ صَوتاً يقول: لا تَقْتُلْهُ ، فهَابَ ذلك ، وخرَجَ يَطْلُبُه ، فلَمْ يَرَ شَيئاً فرَجعَ إِلَيَّ ، فنَادَيتُ: يا أَرحَمَ الرَّاحمين ، حتّى فعلَ ذلك ثلاثاً ، فإذا بفارسٍ على فَرَسٍ ، وفي يَدِه حَرْبَةُ حَديدٍ في رَأْسِها شُعْلَةُ نارٍ فطَعَنَه بها فأنفذَها مِنْ ظَهْرِه ، فوقع مَيّتاً . ثم قال لي: لما دعوتَ الأولى كنتُ في السّماء السابعة ، فلمَّا دعوتَ الثانيةَ كنت في سَماءِ الدّنيا ، فلما دعوتَ الثّالثةَ أتيتُك .

وقد وقعَ مثلُ ذلك لرَجُلٍ من أصْحَابِ رَسُوْلِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، من الأنصار ، يكنى أبا مِعْلَقٍ ، وكان يَتَّجِرُ بمالٍ له ولغَيرِه يسافرُ به في الآفاق ، وكان ناسِكاً

ورعاً فخرجَ مرّةً في بعض أسْفَارِه، فلَقِيَه لِصٌّ مُقَنّعٌ في السِّلاحِ، فقالَ له: ضَعْ ما مَعَكَ فإِنّي قَاتِلُك، فقال: ما تريدُ مِن دَمِي؟، فشَأنك والمال، فقال: أما المال فلي، ولسْتُ أريدُ إلّا دَمك، فقال: ذرني أُصَلي أربعَ ركَعَاتٍ، فقال: صَلِّ مَا شِئْتَ. فصَلّى أربعَ ركَعَاتٍ، ثم دعا في آخرِ سَجْدَةٍ، فقال: يا وَدُودُ، يا ذَا العَرْشِ المجِيدِ، يا فَعَّالٌ لما تُرِيدُ، أَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ الذِي لَا يُرَامُ، ومُلْكِكَ الذِي لا يُضَامُ، وبنُورِكَ الذِي مَلَأَ أَرْكَانَ عَرْشِكَ أَنْ تَكْفِيَنِي شَرَّ هَذَا اللِّصِّ، يَا مُغِيثُ أَغِثْنِي. وَكَرَّرَ ذلكَ ثلاثَ مَرَّاتٍ، فإذا هو بفارسٍ قد أقبل وبيدِه حَرْبَةٌ وضَعَها مِن أَدنى فَرَسِه، فلمَّا بَصُرَ به اللِّصُّ أقبلَ نَحْوَه، فطَعَنَه الفَارسُ فقتَلَه، ثُمَّ أقبلَ إلى أبي مِعْلَقٍ، فقال: قُمْ، فقال: مَنْ أنتَ بأبي أنتَ وأُمّي فلَقَدْ أَغَاثَني الله بك، فقال: مَلَكٌ من السّماءِ الرّابعة، دعوتَ بدعائِك الأوّل فسمعتُ لأبوابِ السَّماءِ قَعْقَعَةً، ثمّ دعوتَ بدُعَائِك الثاني فسَمِعْتُ لأهل السَّمَاءِ ضَجَّةً، ثمّ دعوتَ بدُعَائِك الثّالِثِ، فقِيلَ: دُعَاءُ مَكْرُوبٍ، فسألتُ اللهَ تعالى أَنْ يُوَلِّيَنِي قَتْلَه.

وأما زَيْدُ بنُ الدَّثِنَّة فأَخْرَجَه صَفْوانُ بنُ أُمَيَّةَ إلى الحِلِّ ليَقْتُلَه، وقدِ اجْتَمعَ عند قتْلِه رَهْطٌ من قريش وفيهم أبو سُفْيَان، فلما قُدِّمَ لِلقَتْلِ، قال له أبو سُفْيَان: انشُدُكَ بالله يا زَيدُ، أتحبُّ أنّ محمَّداً الآنَ عندنا مكانَك تُضْرَبُ عُنُقُه وأنت في أهلك؟، فقال: والله ما أحبُّ أنَّ محمداً الآنَ في مَكانه الذي هو فيه تُصِيبُه شَوكةٌ تُؤْذِيهِ وإِنّي لخَالِصٌ في أَهْلِي، فقال أبو سُفْيَان: ما رأيتُ مِن الناس أحداً يحبّ أحداً كحُبِّ أصحَابِ مُحمَّدٍ محمداً. ثمَّ طعَنُوه برمح في صدره حتى نفذَ من ظهرِه، وقيلَ: رُمِيَ بالنّبلِ. وأرَادُوا فتنته عن دينه، فلم يَزْدَدْ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إلّا إيماناً.



١٣ ـ سَرِيَّةُ القُرَّاءِ

قَدِمَ على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو عامرِ بنُ مالكٍ مُلَاعِبُ الأَسِنَّةِ، ويُقالُ له: مُلَاعِبُ الرِّمَاح، ويُقَالُ له أَيضاً: أبو بَرَاءٍ، وهو رَأْسُ بني عامر. فأهدَى لِلنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترْسين ورَاحِلَتين، فقال له رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا أَقْبَلُ هَدِيَّةً مِنْ مُشْرِكٍ»، ثُمَّ عَرَضَ عليه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإِسْلَامَ ودعَاه إليه، فلمْ يُسْلِمْ ولم يَبْعُدْ عنِ الإسلام، وقال: إنّي أرَى أمرَك هذا أمراً حسَناً شَرِيفاً، ثمّ قال: يا محمدُ، لو بعثتَ رِجَالاً مِن أصْحَابِكَ إلى أَهْلِ نَجْدٍ، فدعوتَهم إلى أمرِك، فإنِّي أرجو أَنْ يستجيبوا لكَ، فقالَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي أَخْشَى أَهْلَ نَجْدٍ عَلَيهِمْ»، قال: أَنا لهمْ جَارٌ، وهم في جواري وعهدي، فابعثْهم فلْيَدْعُوا النّاسَ إلى أمْرِك. ثم خرَجَ أبو بَرَاءٍ إلى نَاحِيَة نجْدٍ، وأخبرَهم أنه قدْ أَجَارَ أَصْحَابَ محمَّدٍ، فبعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُنْذِرَ بنَ عمرٍو رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه في سَبعينَ رجلاً من أصحابِه من خِيَارِ المسلمين. وكان يقالُ لهم: القُرَّاءُ؛ لملازَمَتِهم قِرَاءَةَ القرآن، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا في ناحية المدينة يصَلّون ويتدارَسُون القرآنَ، فيظن أهلوهم أَنّهم في المسجد، ويظنُّ أهلُ المسجدِ أنهم في أهاليهم، فإِذَا كانَ الصُّبْحُ استَعْذَبُوا الماءَ واحْتَطَبوا وجاؤوا بذلك إلى حُجَرِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا يَبِيعُونَ بعضَ الحَطَبِ ويشترونَ به طعاماً لأصحابِ الصُّفّة، وكان منهم عَامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه.

فكَتبَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم كتاباً، فساروا حتّى نزلوا في بِئْرِ مَعُونَة، وهِيَ بين أرْضِ بني عامرٍ وحَرَّة بني سُلَيم، فلما نزلوها بعثوا حَرَامَ بنَ مَلْحَان بِكِتَابِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عَدُوِّ الله عامرِ بنِ الطُّفَيل، وهو رَأسُ بني سُلَيم،

وابنُ أَخِي أبي بَرَاءٍ عَامرِ بنِ مالكٍ، فلمَّا أتاهُ لم يَنْظُرْ في كِتَابه حتّى عَدَا عليهِ فقتَلَه، بعدَ أَنْ قال لهم حَرَامٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: يا أَهْلَ بئْرِ مَعُونَة، إنّي رَسُولُ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليكم، فآمنوا بالله ورسولِه. فجاءَ إليه رجلٌ من خَلفِه، فطَعنه بالرُّمح في ظَهْرِهِ حتّى نفَذَ مِن صَدْرِه، فقال حَرَامٌ: الله أكبر، فزْتُ وربِّ الكَعْبَة. وأَخَذَ الدَّمَ بكَفَّيهِ فنَضَحَه على وَجْهِه ورَأْسِه.

ثُمّ إنّ عَامرَ بنَ الطُّفَيل اسْتَصْرَخَ عليهم بني عامر، فأبوا أَنْ يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: إنّا لَنْ نَخْفِرَ بأبي بَرَاءٍ، وقد عقدَ لهم عقداً وجِوَاراً، فاسْتَصْرَخَ عليهم قبائل من سُليم، وهيَ: عُصَيَّةُ ورَعْلٌ وذَكْوَانَ، فأجَابوه إلى ذلك، ثمّ خرجوا معه حتى أحاطوا بهم في رحالهم، فلما رَأَوهُم أخذوا سيوفَهم فقاتلوهم حتّى قتلوا عن آخِرِهم، إلّا كَعْبَ بنَ زَيدٍ فإنّه بَقِيَ به رَمَقٌ، وحُمِلَ مِنَ المعْرَكة، فعاشَ بعد ذلك حتى قُتِلَ يومَ الخندق شهيداً، وأيضاً عَمْرو بنَ أمية الضَّمْرِي ورَجُلاً آخر فإنهما كانا في سَرْحِ القَوم. ولما أحَاطَ بهم القومُ قالوا: اللَّهُمَّ إنّا لا نَجِدُ مَن يبلّغُ رسُولَك عنّا السَّلام غيرك، فأقرِأهُ منّا السَّلامَ، فأخبرَه جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذلك، فقال: «وَعَلَيهِمُ السَّلَامُ». وفي لفظٍ أنّهم قالوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عنّا نبيَّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنا قد لَقيناك فرضِينا عنْكَ ورَضِيتَ عنّا. فلمّا جاءَه الخبرُ من السّماءِ قام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحَمِدَ الله وأَثْنَى عليه، ثم قال: «إنَّ إخْوَانَكُمْ قَدْ لَقُوا المُشْرِكِينَ، وَقَتَلُوهُمْ، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: رَبَّنَا بَلِّغْ قَوْمَنَا أَنَّا قَدْ لَقِينا رَبَّنَا وَرَضِينا عَنْهُ وَرَضِيَ عَنَّا رَبُّنَا، فَأَنَا رَسُولُهُمْ إِلَيْكُم، إِنَّهُمْ قَدْ رَضُوا عَنْهُ وَرَضِيَ عَنْهُمْ». وذكرَ أنسٌ أَنَّ قولَهم ذلك كان قرآناً يُتْلَى، ثُمَّ نُسِخَتْ تِلَاوَتُه.

ولما رَأى عمرُو بنُ أُمَيَّةَ والرَّجلُ الذي كان معه الطَّيرَ تحومُ على محلِّ

أَصْحَابِهما، وكانا في رِعَايَةِ إِبل القَوم، قالا: والله إِنَّ لهذا الطّيرِ لشَأناً، فأقبلا يَنْظُرَان، فإذا القومُ في دِمَائِهم، وإذا الخيلُ التي أَصَابتهم وَاقِفَة، فقال الرَّجُلُ الذي مع عمرو: ماذا ترى؟، فقال: أَرَى أَنْ نلْحَقَ برَسُوْلِ الله ﷺ فنُخْبِره الخبرَ، فقال: لكِنِّي ما كُنْتُ لِأَرْغَبَ بنفسِي عَنْ مَوْطِنٍ قُتِلَ فيه المنذرُ بنُ عمرو. فأقبلا فلَقِيا القَومَ، فقُتِل ذلك الرَّجُلُ وأُسِرَ عمرٌو، فأخبرَهم أنه مِن مُضَرَ، فأخذه عامرُ بنُ الطّفَيل وجَزَّ ناصِيَتَه، وأَعْتَقَه عَنْ رَقَبةٍ كانتْ على أُمِّهِ.

فخرج عمرو حتّى جاءَ إلى ظِلٍّ فجلسَ فيه، فأقبلَ رُجُلَانِ حتّى نزَلا به معه، فسألهما فأخبرَاه أنهما مِن بني عامرٍ، وقد كانَ معهما عهدٌ مِن رَسُوْلِ الله ﷺ ولم يعلمْ به عمرو، فأمهَلَهُما حتّى نَامَا فعَدَا عليهما فقتَلهما، وهو يَرَى بذلك أنه قد أصابَ بهما ثَأْراً من بني عامرٍ، فلما قَدِمَ عمرو على رَسُوْلِ الله ﷺ أَخْبَرَه الخبَرَ، وأخبَرهُ بقتل الرَّجُلين، فقال له: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلَينِ لَأَدِيَنَّهُما»، أي لأَدْفعَنَّ ديتهما. ثم قال له النَّبيُّ ﷺ: «هَذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاءٍ، قَدْ كُنْتُ لِهَذَا كَارِهاً مُتَخَوِّفاً».

ولما بلغَ أبا براءٍ أنّ عامرَ بنَ الطفيل ولدَ أَخِيه أزَالَ خَفَارَتَه شَقَّ عليه ذلك وشَقَّ عليه ما أَصَابَ أصحابَ رَسُوْلِ الله ﷺ بسَبَبه، فحمَل رَبيعةُ بنُ أبي بَرَاء على عامرِ بن الطفيل، فطَعَنه بالرُّمح فوقَع في فَخْذِه، وسَقطَ عن فرَسِه، فقال: إِنْ أَنا مِتُّ فَدَمِي لعَمّي أبي براء، وإِنْ أَعِشْ فسَأَرَى رَأْيِي. وقيل: أَنَّ ربيعةَ جاءَ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رَسُولَ الله، أَيَغْسِلُ عن أبي هذه الغَدْرَة أَنْ أضرِبَ عامرَ بنَ الطّفيل ضَرْبةً؟، فقال: «نعَم»، فرجعَ رَبيعةُ فضرَب عامراً ضَرْبةً أَشْوَاهُ مِنهَا، فوثبَ قومُه، فقالوا لِعَامِرٍ: اقْتَصْ، فقال: قد عَفَوتُ. وعَقِبَ ذلك

ماتَ أبو بَرَاء أَسَفاً على ما صَنع بهِ ابنُ أخيه مِن إزَالَتِه خَفَارَته، وعاشَ عامرٌ، ولم يَمُتْ من تلكَ الطَّعْنَةِ، حتّى ماتَ بالطاعون بدعائِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولما قُتِلَ عامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه رُفِعَ إلى السَّماء، فلما رَأى قاتِلُه ذلك أَسْلَمَ، وهو جَبَّارُ بنُ سَلْمَى، وجاءَ: أنّ عامرَ بنَ الطّفيل دخَلَ بعمرِو بنِ أُمَيَّةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في القَتْلَى، وصارَ يقولُ له: ما اسْمُ هذا، ما اسْمُ هذا، ما اسْمُ هذا؟، ثمَّ قال له: هل من أصحابك مَن ليسَ فيهم؟، فقال: نعم، ما رَأيتُ فيهم عامرَ بنَ فُهَيْرَةَ مولى أبي بكرٍ الصّديق، فقال له عامرٌ: أَيُّ رَجُلٍ هوَ فِيكم؟، قال: هو مِن أَفضَلِنا ومن أولى المسلمين مِن أصحابِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له عامر: لما قتل رأيتُه رُفِعَ إلى السَّماء.

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: ما رأيتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَ على أَحَدٍ مَا وَجَدَ على أَصْحابِ بِئْرِ مَعُونَةَ. ومكث صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهراً مُتَتابعاً يدعو على قاتلي أصحاب بئْرِ مَعُونَةَ، بعد الاعتدال في الصّلواتِ الخمْسِ من الرّكعة الأخيرة.

١٤ ـ سَرِيَّةُ مُحَمّدِ بنِ مَسْلَمَة

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمَّدَ بنَ مسلمةَ إلى القَرْطَاء في ثلاثين راكباً، وأمرَه أَنْ يسيرَ الليلَ ويَكْمُنَ النّهارَ، وأمره أنْ يَشُنّ عليهم الغارة، فسارَ الليلَ وكَمَنَ النهارَ، وفي طريقِه صادفَ رُكْباناً نازلين، فأرسَل إليهم رَجُلاً من أصْحَابه يسألُ مَن هُم، فذهبَ الرَّجُلُ ثمّ رجعَ إليه، فقال: قومٌ مِن مُحَارِب. فنزل قريباً منهم، ثمّ أَمْهَلَهُم حتّى بركوا بالإبل حول الماءِ، ثمَّ أغارَ عليهم، فقتلَ عشَرَةً



منهم ، وهَرَبَ سَائِرُهم ، واسْتَاقَ نَعَماً وشَاءً.

ثمَّ انطَلَقَ حتى إذا كانَ بموضع يُطْلِعُه على بني بكرٍ ، بعثَ عَابِدَ بنَ بشيرٍ إليهم ، وخرج محمَّدُ بنُ مَسْلَمَة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في أصحابِه فشَنَّ عليهِمُ الغَارَةَ ، فقتلَ منهم عَشرةً ، واستاقوا النّعَمَ والشَّاءَ ، ثمَّ انْحَدَرَ إلى المدِينةِ ، فخَمَّسَ رَسُوْلُ الله ﷺ ما جاءَ به وعَدَلَ الجَزُورَ بعَشرةٍ من الغَنَم ، وكان النَّعمُ مائة وخمسين بعيراً ، والغنم ثلاثةُ آلافِ شاة.

وفي تلكَ السّرية أخذُوا ثُمَامَةَ بنَ أُثَالٍ الحَنَفِيّ من بني حنيفة ، سَيّدَ أهل اليمامة ، وهم لا يعرفونَه ، وجِيءَ بهِ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ ، فقال لهم: «أَتَدْرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ؟ هَذَا ثُمَامَةُ بنُ أُثَالٍ الحَنَفِيّ ، فَأَحْسِنُوا إِسَارَهُ» ، فربطوه بسَاريةٍ من سَوَاري المسجد. وقد كان جاءَ من قَبْلُ إلى المدينةِ وأرَادَ اغتيالَ رَسُوْلِ الله ﷺ ، فدعا ﷺ رَبَّهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ منه ، فأُخِذَ وَجِيءَ بهِ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ ، ولما رُبطَ ثُمَامَةُ دَخَلَ ﷺ على أهلِه فأمرَهم أَنْ يجمعوا ما عندَهم مِنَ الطّعَام ، وأَنْ يبعثوا به إليه ، ثمّ أَمرَ له بنَاقةٍ يأتيه لبنُها مَسَاءً وصباحاً ، وكان ذلك لا يقعُ عند ثمامةَ موقعاً من كفايته.

ثم جَاءَ إليه رَسُوْلُ الله ﷺ ، فقال: «مَا لَكَ يَا ثُمَامُ هَلْ أَمْكَنَ اللهُ مِنْكَ»؟ فقال: قد كان ذلك يا محمَّدُ. وصَارَ رَسُوْلُ الله ﷺ يأتيه فيقول: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ»؟ ، فيقولُ: يا محمَّدُ ، عندي خيرٌ ، إنْ تقتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَم ، وإِنْ تعْفُ تعْفُ عن شَاكرٍ ، وإن كنت تريدُ المالَ فسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ. ففعل ذلك معه ثلاثةَ أيام ، وقد كان المسَاكين من أصحابِ الصُّفَّةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم

يقولون: مَا يَصْنَعُ نبيّنُا ﷺ بدَمِ ثُمَامَةَ؟، والله لأكلَةُ جَزُورٍ سَمِينَةٍ مِن فِدَائِه أَحَبُّ إلينا مِنْ دَمِ ثُمَامَة!.

ثُمَّ إنّ رَسُوْلَ الله ﷺ مَرَّ عليه في اليوم الثّالث فقال: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ، فَقَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ يَا ثُمَامَةُ»، فأطلقوه، فانطلقَ إلى ماءٍ جارٍ قريبٍ من المسجدِ فاغْتَسَل وطَهَّرَ ثِيابَه، ثم دخلَ المسجدَ، فقال: أشهدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله، وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه. ثم قال: يا رَسُوْلَ الله، والله ما كان على الأرض وجْهٌ أبغَضُ إليَّ مِن وجْهِكَ، فلقد أَصْبحَ وجهُك أحَبَّ الوجوه كلّها إليَّ، والله ما كان على الأرض مِن دِينٍ أبغض إليّ من دينك، فقد أصبحَ دينُك أحبّ الدّين كلّه إليَّ، وما كان من بلدٍ أبغضُ إليَّ من بلدِك، فقد أصبحَ بلدُك أحبُّ البلادِ إليَّ.

فلما أَمْسَى جِيءَ له بمَا كان يأتيه من الطّعَام، فلمْ يَنَلْ منه إلّا قَلِيلاً، ولم يصبْ من حلَابِ اللّقحةِ إلّا يسَيراً، فعجبَ المسلمون من ذلك، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «مِمَّ تَعْجَبُونَ؟، أَمِنْ رَجُلٍ أَكَلَ أَوَّلَ النَّهَارِ فِي مَعْيٍ كَافِرٍ، وَأَكَلَ آخِرَ النَّهَارِ فِي مَعْيٍ مُسْلِمٍ، إنَّ الكَافِرَ لَيَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ، وَإِنَّ المُسْلِمَ يَأْكُلُ فِي مَعْيٍ وَاحِدٍ». وقد وقعَ له ﷺ ذلك معَ جَهْجَاهٍ الغفاري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فإنَّه أكلَ مع النّبيِّ ﷺ وهو كافرٌ فأكثر، ثمّ أكلَ معه وقد أسلمَ فأقلّ، فقال ﷺ نحوَ قولِه هذا.

ثمّ إنّ ثمامةَ قال: يا رسُولَ الله، إني خرجتُ مُعْتَمِراً، وإن خيلك أخذتني وأنا أريدُ العمرة فماذا ترى؟، فأمرَه أَنْ يعْتَمِرَ، فلما قَدِمَ إلى بَطْنِ مَكَّةَ لَبَّى، فكانَ أَوّلَ مَن دخلَ مَكَّةَ مُلَبِّياً، فأخذتْهُ قريشٌ، وقالوا له: لقَدِ اجْتَرَأْتَ علينا، أَأَنتَ صَبوتَ يا ثُمامَةُ؟. فقال: أسلمتُ وتَبِعْتُ خَيرَ دِينٍ؛ دينَ محمَّد ﷺ،

ووالله لا يَصِلُ إليكم حبّةٌ مِن حِنْطَةٍ من اليَمامَةِ حتَّى يَأذَنَ فيها رَسُوْلُ الله ﷺ، فقدّمُوه ليَضْرِبُوا عُنقُه، فقالَ قائِلٌ منهم: دعُوهُ فإنكم تحتاجُونَ إلى اليمامَةِ، فخَلّوا سبيلَه.

فخرَجَ ثُمامةُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إلى اليمامة، فمَنعهم أَنْ يحمِلُوا إِلَى مَكَّةَ شَيئاً حَتّى أَضَرَّ بهم الجوعُ، وأكلَتْ قريشٌ العِلْهِزَ، فكَتَبتْ قُريشٌ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ: أَلَسْتَ تَزْعُمُ أنكَ بُعِثْتَ رَحمةً لِلعَالمين؟، فقد قَتلْتَ الآباءَ بالسَّيفِ والأَبناءَ بالجوعِ، إِنَّكَ تَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وإِنَّكَ قد قطعتَ أرحامَنا. فكتبَ رَسُوْلُ الله ﷺ إلى ثمامةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أن يخلّي بينهم وبين مَيْرَتِهم، ففعل. وكانَ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه مُقِيماً باليمامة، ولما ارْتَدَّ أهلُ اليمامَةِ ثبتَ ثمامةُ في قومِه على الإسلام، وكان ينهَاهُم عن اتّباع مُسَيْلمَةَ الكذّاب، ويقولُ لهم: إيّاكم وأمراً مُظْلِماً لا نُورَ فيه، وإنّهُ لشقاءٌ كتبَه الله على مَنِ اتّبَعَهُ منكم.

١٥ ـ سَرِيَّةُ عكَّاشَةِ بْنِ مِحْصَن

وَجَّهَ رَسُوْلُ الله ﷺ عكّاشةَ بنَ محصَن الأسَدِي رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه في أربعينَ رَجُلاً إلى جمْعٍ لِبَني أَسَدٍ، فخرجَ يُسْرِعُ في السّير إلى أنْ وصلَ ماءً لهم يقال له: الغَمْرُ، فوجد القومَ قد علموا بهم فهربوا، ولم يجدوا في دَارِهم أَحَداً، فبعثَ شُجَاعَ بنَ وهْبٍ طليعةً يطلبُ خبراً أو يرى أثراً، فأَخْبَرَ أنه رَأَى أثَرَ نَعَمٍ قريباً، فخرجوا فوجدوا رَجُلاً نَائِماً، فسألوه عن خَبرِ النّاس، فقال: وأَينَ النّاسُ؟!، لقد لَحِقُوا بعلّياتِ بلادِهم، فقالوا له: فالنَّعَمُ؟، قال: معهم، فضَرَبَه أحدُهم بسُوطٍ في يَدِه، فقال: تُؤَمِّنُوني على دَمِي وأُطْلِعُكم على نَعَمٍ لِبَنِي عَمٍّ لهم

لم يَعْلَمُوا بمَسِيرِكم إليهم؟، قالوا: نعم، فأمّنُوه، وانْطلقوا معَه، فأَمْعَنَ وبالغَ في الطَّلَبِ حتّى خَافوا أَنْ يكونَ ذلك غَدْراً منه. فقالوا: والله لَتَصْدُقَنّا أو لَنَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، فقال: تطلعون من هذا المحَلّ، فلما طلعوا منه وجَدوا نَعَماً رَوَاتِع، فأغارُوا عليها، فاستاقوها، فإذا هيَ مائة بعير، وشرَدَتِ الأَعْرَابُ في كلِّ وَجْهٍ، فلم يطلبوهم، ثم انحدروا إلى المدينة بتلك الإبل.

١٦ ـ سَرِيَّةُ مُحَمّدِ بن مَسْلَمَة

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمّدَ بنَ مسلمةَ في عشرة نفَرٍ إلى بني ثَعْلَبَة، وبني عَوَالٍ مَن ثعْلَبَةَ بذِي القَصَّة، فوَرَدَ محمّدٌ عليهم ليلاً، فكَمَنَ القومُ وهم مائة رجل لمُحَمَّدِ بنِ مَسْلمةَ وأصحابِه، وأمهَلُوهُم حتّى نامُوا، ثمّ أحدقوا بهم فما شعروا إلا وقَدْ خالَطَهُمُ القومُ، فوثبَ محمَّدُ بنُ مسْلَمة فصَاحَ في أَصْحَابِه: السِّلَاحَ، السِّلَاحَ، فوثَبُوا وتَرَاموا ساعةً، ثم حملَ القومُ عليهم بالرِّمَاح فقتَلوهم، ووقَعَ محمَّدُ بنُ مَسلمةَ جريحاً، فلمَّا ضربُوا كعبَه لَمْ يتَحَرَّكْ، فظنّوا مَوتَه، وجرَّدُوهُ منَ الثِّيَابِ ثُمَّ انطلقوا، ثمَّ مَرَّ بمحمدٍ وبأصحابِه رَجُلٌ من المسلمين، فلمّا رآهم اسْتَرْجَعَ، فلمَّا سَمِعَهُ محمَّدٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يسْتَرْجعُ تحَرَّكَ لَه، فأَخَذَهُ وحمَلَهُ إِلى المدينةِ. فعندَ ذلك بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عُبيدة بنَ الجرّاح في أربعينَ رَجُلاً إلى مصَارِعِهم فلَمْ يَجِدُوا أَحَداً، ووجَدوا نَعَماً وَشاءً، فانحدَرُوا بها إلى المدينة.




١٧ ـ سَرِيَّةُ أَبِي عُبَيدَة بن الجَرَّاح

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عُبيدَةَ بنَ الجراح رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه في أربعين رجلاً إلى مَن بِذِي القَصَّة، وقد بلغَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم يُرِيدُونَ أَنْ يُغِيرُوا علَى سَرْحِ المدينةِ، وهو يَرْعى يَومَئذٍ بمَحَلٍّ بينَه وبينَ المدينة سَبعَة أمْيَال، فصَلّوا المغربَ، ومشوا ليلتهم حتّى وافوا ذَا القَصَّة مَعَ عمَايَةِ الصُّبحِ، فأغاروا عليهم، فأعجزُوهم هَرَباً في الجِبَالِ، فأسروا رجلاً واحداً، وأخذوا نعماً مِن نَعَمِهم، وثياباً خَلِقَةً مِن متاعِهم، وقدموا بذلك إلى المدينة، فخَمَّسَهُ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأَسْلَمَ الرَّجُلُ الأسيرُ، فتركَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

١٨ ـ سَرِيَّةُ زَيدِ بن حَارثة

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيدَ بنَ حارثةَ إلى بني سليم، بالجَمُوح، فسارَ حتى ورد ذلك المحَلِّ، فأصَابوا امْرَأَةً مِن مُزَيْنَةَ فدَلّتهم على محلّةٍ مِن محَالّ القَوم، فأصابوا في تلكَ المحلّة إبلاً وشَاءً، وأسرُوا منها جماعةً من جُمْلَتِهم زَوجُ تلك المرأة، وانحدروا بذلك كلِّه إلى المدينة، فوهبَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتلك المرأةِ نفسَها وزَوجَها.

١٩ ـ سَرِيَّةُ زَيدِ بن حَارثة

بلغَ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عِيراً لقُرَيشٍ قد أقبلَتْ من الشَّام، فبعثَ زيدَ بنَ حارثة رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه في سبعينَ ومائةِ رَاكبٍ ليَعْتَرِضَها، فسَارَ حتى بلغَ العِيصَ، فأخذَ تلكَ العِيرَ وقَدِمَ بها المدينةَ، وكان فيها أبو العاص بنُ الرّبيع،

فاسْتَجَارَ بزوجَتِه زَينبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فأَجَارَتْهُ، ونادَتْ في النّاس حِين صَلّى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفَجْرَ فَقَالَتْ: أيّها النّاسُ إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أبا العَاص بن الرّبيع، فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للنَّاسِ: «هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْتُ»؟، فقالوا: نعم، قال: «أَمَا وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيءٍ مِنْ هَذَا»، ثمَّ انصرف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخلَ على ابنَتِه، وقال: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ».

ثُمَّ دخَلَتْ زينبُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسَأَلَتْه أَنْ يَرُدَّ على أبي العَاص ما أخذَه منه، فأجابَها إلى ذلك، وقال لها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْرِمِي مَثْوَاهُ وَلَا يَخْلُصْ إِلَيْكِ»، وبعثَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للسَّرِيَّةِ فقال لهم: «إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ أَصَبْتُمْ لَهُ مَالاً، فَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَرُدُّواْ عَلَيهِ الذِي لَهُ فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، وَإِنْ أَبَيتُم فَهُو فَيءُ الله الذِي فَاءَ عَلَيْكُم، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ»، فقالوا: يا رسولَ الله بل نَرُدّ عليه، فَرُدَّ عليه مَا أُخِذَ منه.

ثُمَّ ذهبَ أبو العَاص إِلَى أهل مَكَّةَ، فَأَدَّى لكلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّه، ثم قامَ فقالَ: يا أهلَ مَكَّةَ، هلْ بَقِيَ لأَحَدٍ منكم مَالٌ لم يَأْخُذْه، هَلْ وفيت ذمّتي؟، فقالوا: اللَّهُمَّ نعم، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفيّاً كريماً، فقال: إِنّي أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وأنّ محمَّداً عبدُه ورسُولُه، والله ما منعني عن الإسلام عنده إلا خَشْيَةَ أَنْ تَظُنُّوا أَنّي إِنَّما أَرَدْتُ أَنْ آكلَ أمْوَالكم. ثمَّ خَرَجَ حتّى قَدِمَ المدينةَ، فَرَدَّ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينبَ على النكاح الأوّل ولم يُحْدِث نِكَاحاً.



٢٠ ـ سَرِيَّةُ زَيدِ بن حَارثة

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ زيدَ بنَ حارثة إلى بني ثَعْلَبة بالطَّرِفِ ـ وهو اسمٌ لماءٍ ينزلون عنده ـ في خمسة عشر رجلاً، فأصَابَ عشرين بعيراً وشاءً، ولم يجدْ أَحَداً، لأنهم ظنّوا أنّ رَسُوْلَ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَارَ إِليهِم، فصَبَّحَ زَيدٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بالنَّعَمِ والشَّاءِ المدينةَ، وقد كانوا خرجوا في طَلَبِه فأَعْجَزَهم إِدْرَاكُه، وكانَ شِعَارُهم الذي يتعارفون به في ظُلْمَةِ اللّيل: "أَمِتْ أَمِتْ".

٢١ ـ سَرِيَّةُ زَيدِ بن حَارثة

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ زيدَ بنَ حارثة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى جُذَام، في مَحلٍّ يقالُ له: حَسْمَى، وهو موضع وَرَاء وادِي القُرَى، وسبَبُ ذلك أَنَّ دِحْيَةَ الكَلْبِيّ رَضِيَالِلَّهُعَنْهُ أقبلَ من عندِ قيْصَرَ مَلِكِ الرّوم وكان قد أَجَازَه بمَالٍ وكِسْوةٍ، فأقبلَ بذَلِكَ إلى أَنْ وصَلَ ذلك المحلّ، فلَقِيَه الهُنَيدُ وابنُه في نَاسٍ مِن جُذَام، فقطعوا عليه الطّريقَ وسَلبُوه مَا مَعَه، ولم يتركوا عليه إلا ثوباً خَلِقاً، فسَمِعَ بذلك نَفَرٌ مِن جُذَامٍ من بني الضَّبِيبِ، ممَّنْ أَسْلَمَ منهم، فنفروا إليهم، واسْتَنْقَذُوا لدِحْيَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ما أُخِذَ منه، وقَدِمَ دِحْيَةُ على رَسُوْلِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأخبرَه بذلك، فبعثَ زَيدَ بنَ حارثة في خمسمائةِ رَجُلٍ وَرَدَّ معه دِحْيَةَ.

فسارَ زيدٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بمَن معه، فكان يسيرُ باللّيلِ ويَكْمُنُ بالنَّهَارِ، وكان معه دَلِيلٌ من بني عُذْرَة، فأقبلَ حتّى هَجَمَ على الهُنَيدِ وابنِه ومَن كان مَعَهم، وكان ذلك مع الصّبحِ، فقَتَلُوا الهُنَيدَ وابنَه ومَن كان معهم، وأخذوا من النّعم أَلْفَ بَعِيرٍ، ومِنَ الشَّاءِ خمسَةَ آلافٍ، ومن السَّبي مَائةً مِن النِّسَاءِ والصِّبْيَانِ،

ولما سَمِعَ بنُو الضَّبِيبِ بمَا صَنعَ زيدٌ ركبُوا إليه، وجاؤُوا، فقال له رَجُلٌ منهم: إنّا قومٌ مسلمون، فقال له زيدٌ: اقرأ أمَّ الكتاب، فقرأها.

ثُمَّ قَدِمَ منهم جماعةٌ على رَسُوْلِ الله ﷺ وأخبرُوه الخبرَ وقالَ بعضُهم: يا رسولَ الله، لا تُحَرِّمْ علَينا حَلالاً، ولا تُحِلَّ لنَا حَراماً، فقال: «كَيفَ أَصْنَعُ بِالقَتْلَى»؟، فقال: أطلقْ لنا مَن كانَ حَيّاً، ومَن قُتِلَ فهُوَ تحتَ قَدَمِي هَاتَين، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «صَدَقَ»، فقالوا: ابعَثْ معَنا رَجُلاً لزيدٍ، فبعثَ ﷺ معهم عليَّ بنَ أَبي طالبٍ كَرَّمَ الله وَجْهَه يَأمرُ زيداً أَنْ يُخلِّيَ بينهم وبينَ حرَمِهم وأموالِهم، فقال عَليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه: يا رَسُولَ الله، إِنَّ زَيداً لنْ يُطِيعَني، فقال: «خُذْ سَيفِي هَذَا»، فأخذَه وتوَجَّه.

ولَـمَّا كان عليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه في الطريق لقيَ رجلاً كانَ زيدٌ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه قد أرسلَه مُبَشّراً إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، وهو على ناقَةٍ من إبلِ القوم، فرَدَّها عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه على القَوم، وأَرْدَفَه خَلْفَه، ولَقِيَ عَليٌّ زيداً فأبلغَه أمرَ رَسُوْلِ الله ﷺ، فطَلَبَ منه علامةً فَأَرَاهُ سَيفَه، فعرَفَ زيدٌ السّيفَ وصاحَ بالنّاسِ: مَن كان معه شيءٌ فليَرُدَّه، فهذا سيفُ رَسُوْلِ الله ﷺ، فرَدّوا كَافّة ما قد كانوا أخذوه.

٢٢ - سَرِيَّةُ أَبِي بكرٍ الصّديق

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ أبا بكر رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إلى بني فَزَارَة بوادِي القُرى. وعن سَلَمَة بن الأَكْوَع رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه قال: بعث رَسُوْلُ الله ﷺ أبا بكر إلى فَزَارَةَ، فخرجتُ معه حتى إذا صلينا الصّبح، أَمَرَنَا فشَنّينا

الغَارةَ، فورَدْنا الماءَ، فقتَلَ الجيشُ مَنْ قتَلَ، ورأيتُ طائفةً من الذَّرَاري، فخَشِيتُ أَنْ يسْبِقُوني إلى الجبَل، فأدركتهم ورَمَيتُ بسَهْمٍ بينَهم وبينَ الجبَل، فلمَّا رأوا السَّهمَ وقفوا وفيهم امرَأة يُقالُ لها: أُمَّ قِرْفَةَ، عليها فرْوَةٌ خَلِقَةٌ ومعها ابنتُها من أَحْسَنِ العَرَب، فسُقْتُهم إلى أبي بكرٍ، فنفلني ابنتَها، فلم أَكْشِفْ لها ثوباً حتّى قَدِمنا المدينة، فلَقِيَني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا سَلَمَةُ، هَبْ لِي المَرْأَةَ لله أَبُوكَ»، وقد وُصِفَ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَالُها، فقُلْتُ له: يا رسُولَ الله، هي لك، فبعثَ بها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مَكَّةَ، ففَدى بها أسْرَى للمسلمين كانوا في أيدي المشركين.

وذكرَ ابنُ إسحاق وابنُ سَعْدٍ: أَنّ أميرَ هذه السَّرِيّة، التي أَصَابت أمّ قِرْفَةَ زيد بن حارثة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهما، وأنه لَقِيَ بني فَزَارَة وأُصِيبَ بها نَاسٌ من أصحابه، وانْفَلَتَ زَيدٌ من بين القتلى، فاحْتُمِلَ جَرِيحاً وبهِ رَمَقٌ، فلمّا قَدِمَ زَيدٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه نَذَرَ أنْ لا يمسّ رأسَه غسلٌ من الجنَابة حتى يغزو بني فزَارَة، فلمَّا عُوفِيَ أرسَلَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فكَمَنُوا النّهارَ وسَاروا اللّيلَ حتّى أحاطوا بهم، وكبّروا وأخذوا أمّ قِرْفَةَ، وكانت أُمُّ قِرْفَةَ في شَرَفٍ من قومِها، وكان يُعَلّق في بيتها خمسُون سيفاً كلّهُم لها مَحْرَمٌ، وكانَ لها اثنا عشر ولداً، وكانت العربُ تَضْرِبُ بها المثل في العِزَّةِ، فتقولُ: لو كنتُ أَعَزَّ مِنْ أمّ قِرْفَةَ. فأمرَ زيدُ بنُ حارثةَ أَنْ تُقْتَلَ أُمُّ قِرْفَةَ لأَنّها كانت تَسُبُّ النّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرُبِطَ برِجْلَيها حَبلين، ثمّ رُبِطَا إلى فرسين، فركَضا فشَقَّاهَا نِصْفَين، وقِرْفَةُ هَذا الذي تُكَنّى بِهِ قُتِلَ في زَمَنِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبَقِيَّةُ أَولَادِها قُتِلُوا معَ أَهْلِ الرِّدَّةِ في خِلَافَةِ الصِّديقِ، فلا خَيرَ فيها ولا في بَنِيها.

والمذكور عندَ ابنِ سَعْدٍ أنّ زيدَ بنَ حارثة لم يكُنْ غازِياً، بلْ كانَ تَاجِراً،

وأنه لم يُرْسَلْ لبني فَزَارَةَ وإنّما اجْتَازَ بهم فقاتَلوه، ونَصُّه قال: خرَجَ زَيدُ بنُ حارثةَ في تجارَةٍ إلى الشَّامِ ومَعَه بضَائِعَ لأَصْحَابِ النبيِّ ﷺ، فلما كان دون وادي القُرَى لَقِيَه ناسٌ من فَزَارَةَ فضرَبُوه وضَرَبُوا أصحابَه، وأخذوا ما كان معهم، فلما قَدِمُوا المدينةَ، نَذَرَ زَيدٌ أَنْ لا يَمَسَّ رأسَه غُسْلٌ مِن جَنَابَةٍ حتّى يغزُو بني فَزَارَةَ، فلمَّا خَلُصَ مِن جِرَاحَتِه بعثَه رَسُوْلُ الله ﷺ في سَرِيَّةٍ وقال لهم: «اُكْمُنُوا النَّهَارَ وَسِيرُوا اللَّيلَ»، فخرج بهم دليلٌ من بني فَزَارَةَ وقد أُنْذِرَ بهم القومُ، فكانوا يجعلون له نَاظُوراً حين يُصْبِحُون، فينظرُ على جَبل يُشْرِفُ على وجْهِ الطَّريقِ الذِي يرونَ أَنَّ المسلمين يأتون منه، فينْظَرَ قدْرَ مَسِيرَةِ يومٍ، فيقولُ: اسْرَحُوا فلَا بأسَ عليكم، فإذَا أمْسوا أَشْرَفَ ذلك النّاظرُ على ذلك الجبَل فينظرُ مسيرةَ ليلَةٍ، فيقولُ: ناموا فلا بأسَ عليكم في هذه اللّيلةِ، فلمَّا كانَ زيدُ بنُ حارثةَ وأصحابُه على نحْوِ مَسِيرَةِ ليلةٍ أَخْطَأَ بِهِمُ الدّليل الفَزَارِيّ طرِيقَهم، فأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقاً أُخْرَى، حتّى أمسوا وهم علَى خَطأ، فعاينوا الحاضرَ من بني فَزَارَةَ، فحَمِدُوا خَطَأَهُم، وكَمَنُوا لهم في الليل حتى أصبحوا، فأحاطوا بهم.

٢٣ـ سَرِيَّةُ عَبْدِ الرحمَن بن عَوْف

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عبدَ الرَّحمن بنَ عوفٍ رضي الله عنه في سبعمائة، وأَمرَه أَنْ يسْريَ مِن الليل إلى دُومَةِ الجنْدَلِ، فعَسْكَرَ خَارِجَ المدينةِ ولمّا كانَ وقتُ السَّحَرِ جاءَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فقال: يا رَسُولَ الله، أحببتُ أَنْ يكونَ آخرُ عَهْدِي بك، وكانَ عليه عِمَامَةٌ غَليظَةٌ قد لَفّها على رأسِه، فنَقَضَها رَسُوْلُ الله ﷺ بيدِه، ثمَّ عمَّمه بعِمَامَةٍ سَودَاء، وأرخى بين كتفيه منها قدرَ أربع أصابع

أو نحواً من ذلك. ثم قال له: «هَكَذَا يَا بْنَ عَوْفٍ فَاعْتَمْ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ وَأَعْرَفُ». ثم أمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَالاً أنْ يدْفَعَ إليه اللّوَاءَ فدفعه إليه. وقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحَمِدَ الله، ثمّ صَلَّى على نَفْسِه، وقال: «خُذْهُ يَا بْنَ عَوْفٍ، اغْزُ بِسْمِ اللهِ وَفِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَاتِلْ مَنْ كَفَرَ بالله، وَلَا تَغُلْ، وَلَا تَغْدِرْ، وَلَا تَقْتُلْ وَلِيداً»، ثم قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «إِذَا اسْتَجَابُوا لَكَ فَتَزَوَّجْ ابنَةَ مَلِكِهِمْ». فَسَارَ حتى قَدِمَ دُومَةَ الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وهم يأبونَ، ويقولونَ: لا نُعْطِي لكُمْ إلا السَّيفَ. وفي اليوم الثّالثِ أسلمَ رَأْسُهم ومَلِكُهم الأصْبغُ بنُ عمرو الكلبي، وكان نصرانيا، وأسلمَ معه ناسٌ كثيرٌ من قومِه، وأقرَّ مَنْ أقامَ على كفْرِه بإعْطَاءِ الجزْيَةِ، وأَرسَلَ عبدُ الرَّحمن إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْلِمُه بذلك، وأنه يُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ فيهم، فكتبَ إليه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يَتزوّج ببنت الأصبغ، فتزوجها، وبنى بها عندهم، ثم قَدِمَ بها المدينة، وهِيَ أُمُّ وَلِدِه سَلَمَة، وهيَ أَوّلُ كَلْبِيَّةٍ نكحَها قُرَشيٌّ.

٢٤ ـ سَرِيَّةُ زَيدِ بن حَارثة

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيدَ بنَ حارثة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى مَدْيَنَ، وهيَ قريةُ سَيِّدِنا شُعَيبٍ صَلوَات الله وسلامه عليه، وتقَعُ في نَاحِية تَبُوك، فسارَ زيدٌ فأصابَ سَبْياً، وفرَّقوا في بَيعِهم بينَ الأُمَّهَاتِ والأَوْلَادِ، فخرَجَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم يبكون، فقال: «مَا لَهُمْ»؟، فَقِيلَ: يا رسُولَ الله، فُرِّقَ بينهم، أي: بينَ الأمّهَاتِ والأولاد، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَبِيعُوهُمْ إِلَّا جَمِيعاً».

٢٥ ـ سَرِيَّةُ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِب

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب كَرَّمَ الله وَجْهَه إلى بني سَعْدِ بنِ بكْرٍ بِفَدَك، وسببُ ذلك: أنه ﷺ بلغَه أَنّ لبني سَعدٍ جمعاً، يُريدونَ أَنْ يُمِدّوا به يهودَ خَيْبَرَ على أَنْ يجعلوا لهم مِن تَمْرِ خَيْبَرَ، فبعثَ إليهم عليّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه في مائة رَجُلٍ، فسَارَ اللّيلَ وكَمَنَ النّهارَ، إلى أَنْ نزلوا محلاً بين خَيْبَرَ وفَدَك، فوجدوا به رَجُلاً فسألوه عن القوم، فقال: لا عِلْمَ لي، فشَدّوا عليه، فأَقَرَّ أنه جَاسُوسٌ لهم، وقال لهم: أُخْبِرُكم على أَنْ تُؤَمِّنُوني، فأَمَّنُوه، فدلّهم، فأغارُوا عليهم وأخذوا خمسَمائةِ بعيرٍ وألفي شَاةٍ، وهرَبَتْ بنو سَعدٍ بالظُّعُنِ، فعَزَلَ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه لرَسُوْلِ الله ﷺ لِقَاحاً، وقَسَّمَ الباقي.

٢٦ ـ سَرِيَّةُ عَبْدِ الله بن رَوَاحة

لما قَتَلَ عبدُ الله بنُ عَتيك أبا رَافعٍ سَلامَ بنَ أبي الحُقَيق عَظيمَ يهودِ خَيْبَرَ كما تقدّمَ، أَمَّرُوا عليهم أُسَيرَ بنَ رِزَام، ولما أَمَّرُوهُ عليهم، قال: إنِّي صَانِعٌ بمحمَّدٍ ما لم يَصْنَعْه أصحابي، فقالوا له: وما عَسَيتَ أَنْ تَصْنَعَ؟، قال: أَسِيرُ في غَطَفَانَ فأجمَعُهم لحرْبِهِ، قالوا: نِعْمَ ما رَأيتَ، وكان ذلك قبلَ فتحِ خَيْبَرَ، فسَارَ في غَطَفَان وفي غَيرِهم؛ يجمَعُهم لحرْبِ رَسُوْلِ الله ﷺ، فبلغَ ذلك رَسُوْلَ الله ﷺ، فوَجَّهَ إليه عبدَ الله بنَ رَوَاحة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في ثَلاثةِ نَفَرٍ سِرّاً يَسْأَلُ عَن خَبَرِ أُسَيرٍ وغِرَّتِه، فأُخْبِرَ بذلك.

ثمَّ قَدِمَ على رَسُوْلِ الله ﷺ فأخبره، فندبَ ﷺ النَّاسَ لذلك، فانتَدَبَ له ثلاثُونَ رجُلاً، وأَمَّرَ عليهم عبدَ الله بن رواحة ﵁، فساروا حتّى قَدِمُوا

علَى أُسَيرِ، فقالوا: نحنُ آمِنُون حتّى نَعرِضَ عليك مَا جِئْنَا له؟. قالَ: نَعَم؛ ولي منكم مثل ذلك، فقالوا: نعم، ثم قالوا: إنّ رَسُوْلَ الله ﷺ بعثنَا إليك لتَخْرُجَ إلَيهِ فَيَسْتَعْمِلَك علَى خَيْبَرَ ويُحْسِنَ إليكَ، فطَمِعَ في ذلك، واسْتَشَارَ اليَهُودَ، فأشارُوا بعَدَم الخرُوج إليه، وقالوا: ما كان محمد ليستعمل رَجُلاً مِن بني إسْرَائيلَ، فقال: بلى؛ لأنه قَدْ مَلَّ الحَرْبَ.

فخَرَجَ، وخَرَجَ معه ثَلَاثُونَ رَجُلاً من اليهود، ومعَ كلِّ رَجُلٍ منهم رَدِيفٌ مِن المسلمين. قال عبدُ الله بنُ أُنَيسٍ: وَكُنْتُ رَدِيفاً لأُسَيرٍ، فكَأَنَّ أُسَيراً نَدِمَ على خُرُوجِه معَنَا، فأَهْوَى بيَدِه إلى سَيفي، فَفَطَنْتُ له وقلتُ: أَغَدْرٌ عَدُوَّ الله؟، فضَربْتُه بالسَّيفِ فأَطَحْتُ عَامَّةَ فخْذِه فسَقَطَ، وكانَ بيدِه مخْدَشٌ مِن شَوحَط، فضَربَني به علَى رَأْسِي فشَجَّنِي، ومِلْنَا على أصحابه فقتلناهم إلا رجلاً واحداً أَعْجَزَنَا جَرْياً. ثم أقبلنا على رَسُوْلِ الله ﷺ فأَخبرْنَاه الخبَرَ، فقال: «قَدْ نَجَّاكُمْ الله مِنَ القَومِ الظَّالِمينَ»، ثُمَّ بصَقَ في شُجَّتِي، فلم تَقِحْ عليَّ ولَمْ تُؤْذِني.

٢٧ ـ سَرِيَّةُ عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْري

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عمرَو بنَ أُمَيَّةَ الضَّمْري، وسَلمَةَ بنَ أَسْلَم بنِ حَرِيسٍ رضي الله عنهما إلى أَبي سُفْيَان بنِ حَرْبٍ بمَكَّةَ لِيَغْتَالاه. وسبَبُ ذلكَ أَنَّ أبا سُفْيَان قال لنَفَرٍ مِن قُرَيش: أَلَا أَحَدٌ يَغْتَالُ لنَا محمَّداً فإنَّه يمْشِي في الأَسْواقِ وحْدَه، فأَتاه رَجُلٌ مِن الأعرَابِ، وقال له ـ يعْنِي نفسَه ـ: قدْ وَجَدْتَ أَجْمَعَ الرِّجالِ قَلْباً، وأَشَدَّهم بَطْشاً، وأَسْرَعَهم عَدْواً، فإذَا أَنْتَ فَدَيْتَنِي خَرَجْتُ إلَيهِ حَتَّى أَغْتَالَه، فإنَّ مَعِي خنْجَراً كَجَنَاحِ النَّسْرِ، وإنِّي عَارِفٌ بالطَّرِيقِ، فقالَ له أَبو سُفْيَان: أنت

صاحِبُنا. فأعطاه بعيراً ونَفَقةً، وقال له: اطْوِ أَمْرَكَ.

فخرجَ لَيلاً إلى أَنْ قَدِمَ المدينةَ، ثمّ أقبلَ يَسْأَلُ عَنْ رسُولِ الله ﷺ، فدَلُّوه عليه، وكانَ ﷺ في مسجدِ بني عَبْدِ الأشْهَل، فعَقَلَ رَاحِلَته، وأَقبلَ على رَسُوْلِ الله ﷺ، فلما رآه ﷺ، قال: «إِنَّ هَذَا يُرِيدُ غَدْراً، وَاللهُ حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَينَ مَا يُرِيدُ»، فجاءَ لِيَحْنِي علَى رَسُوْلِ الله ﷺ، فجَذَبه أُسَيدُ بنُ حُضَير رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بدَاخِلَةِ إِزَارِه، فإذا بالخَنْجَرِ، فأَخَذَ أُسَيدٌ يخنُقُه خَنْقاً شَدِيداً، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «اصْدُقْنِي»، قال: وأَنا آمِنٌ؟، قال: «نَعَمْ»، فأَخْبَرَه بأَمْرِه، فخَلّى رَسُوْلُ الله ﷺ عنه، فأَسْلَمَ، وقال: يا رَسُولَ الله، والله ما كُنْتُ أَخَافُ الرِّجَالَ، فلمَّا رَأيتُكَ ذَهَبَ عَقْلي وضَعُفَتْ نفسِي، ثمَّ إِنَّك اطّلعْتَ علَى ما هَمَمْتُ به، فعَلِمْتُ أَنكَ علَى الحقِّ، فجعلَ رَسُوْلُ الله ﷺ يَبْتَسِمُ.

فعندَ ذلك بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عمرَو بنَ أميَّةَ الضَّمْرِي، ومعَه سَلَمَةُ بنُ أَسْلَم إلى أَبِي سُفْيَان بمَكَّةَ، وقد كان ذلك بعد قَتْلِ خُبَيبِ بنِ عَدِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وصَلْبه علَى الخشَبَةِ، فمضَى عمرو بن أمية رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه حتى قدِمَ مكةَ، ودخلَ يَطُوفُ بالبَيتِ لَيْلاً، فرآه مُعَاويةُ بنُ أبي سُفْيَان فعَرَفَه، فأَخْبرَ قُرَيشاً بمكَانِه، فخَافُوه، لِأَنه كانَ فَاتِكاً في الجاهِلِيَّةِ، فقالوا: لم يَأْتِ عمرو بخَيرٍ. ثمّ اشْتَدّوا جَميعاً في طَلَبِه.

وفي رِوَايةٍ: أَنّهما قدما مَكَّةَ فحَبَسَا جمَلَيهِمَا ببَعْضِ الشِّعَابِ، ودَخَلَا ليلاً، فقال سَلَمَةُ: لو طُفْنَا بالبَيتِ وصَلّينا رَكْعَتَينِ، ثُمَّ طلَبْنا أَبا سُفْيَانَ، فقال عمرو: إِني أَعْرَفُ بمَكَّةَ من الفَرَسِ الأَبْلَق، وإن القوم إذا تعشوا جلسوا على أَفْنِيَتِهم،

فقال: كلّا ؛ إنْ شاءَ الله. قال عمرو: فطُفْنا بالبيتِ وصَلّينا، وخَرَجْنَا لِطَلَبِ أَبي سُفْيان، فلَقِيَني رَجُلٌ فعَرَفَني، فأخبرَ قُرَيشاً بي، فهَرَبْتُ أنا وصَاحِبي وصَعَدْنَا الجبَلَ، وخرَجُوا في طلَبِنا، فدَخَلْنَا كهْفاً، فلمَّا أَصْبَحْنَا، غدَا رجلٌ من قريش يقودُ فرَساً، ونَحْنُ في الغَارِ، فقلتُ: إنْ رَآنا صَاحَ بنا، فخرَجتُ إليه، ومعي خَنْجَرٌ قَدْ أعدَدْتُه لِأَبِي سُفْيَان، فضَرَبْتُه على يَدِه فصَاحَ صَيْحةً أَسْمَعَ أَهلَ مَكَّةَ، فجاءَ النَّاسُ يَشْتَدُّونَ، فوجَدُوه بآخرِ رَمَقٍ، فقالوا: مَن ضَرَبك ؟ ، فقال: عمرُو بنُ أُمَيَّةَ، ثمّ غلَبَه الموتُ، فاحتَمَلوه، فقلتُ لِصَاحِبي لمّا أَمْسَينا: النّجَاءَ، فخَرَجْنا لَيلاً مِنْ مَكَّةَ نريدُ المدينةَ، فمرَرْنَا بالحرَسِ الذِينَ يحرُسُون خَشبةَ خُبَيبِ بنِ عَدِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فقال أَحَدُهم: لولَا أَنّ عمرَو بنَ أُميّةَ بالمدينةِ لقلتُ إنّه هَذا الماشِي! ، فلمّا حاذيتُ الخشَبَةَ شَدَدْتُ عليها، فحَمَلْتُها، واشْتَدَّيتُ أنا وصَاحِبي، فخرَجوا ورَاءَنا، فأَلْقَيتُ الخشَبَةَ. وقَد قتلَ عَمْرٌو رَجُلاً آخرَ سَمِعَه يقول:

وَلَسْتُ بِمُسْلِمٍ مَا دُمْتُ حَيّاً   وَلَسْتُ أَدِينُ دِينَ المُسْلِمِينَا

ولَقِيَ رَجُلَينِ كانتْ قريشٌ بعثتهما إلى المدينة يتَجَسَّسَان لها الأَخبار، فقتل أحدهما وأسرَ الآخر، ثمّ قَدِمَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه المدينةَ، وجعلَ يخبرُ رَسُوْلَ الله ﷺ بِمَا جرى له، ورَسُوْلُ الله ﷺ يستمع إليه ويضْحَك.

٢٨ ـ سَرِيَّةُ سَعِيدِ بنِ زَيد

وسببُها أنه قَدِمَ على رَسُوْلِ الله ﷺ ثمانيةُ نَفر من عُرَيْنَةَ وعُكَلٍ، فنَطَقوا بالشّهادتين، وكانوا مجْهُودِين قد كادوا يهلكونَ لِشِدَّةِ هُزَالِهم وصُفْرَةِ

أَلوَانِهم وعِظَمِ بطُونِهم، فقالوا: يا رسُولَ الله، آوِنَا وأَطْعِمْنا، فأنزَلهم ﷺ عنده بالصُّفَّةِ، فَذكرُوا له ﷺ أَنّ المدينةَ وَبِئَةٌ وَخِمَةٌ، وأنّهم أهلُ ضَرْعٍ ولم يكونوا أهل ريف، فقال لهم: «لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى ذَوْدٍ لنَا، فَشَرِبْتُمْ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا»؛ لأَنّ في لَبَنِ اللّقاحِ جَلاءً وتَلْييناً وإِدْرَاراً وتَفْتِيحاً للسُّدَدِ، فإنّ الاسْتِسْقَاءَ وعظمَ البَطْنِ إنّما يَنْشأُ عن السُّدَدِ وآفةِ الكَبِدِ، ومِنْ أَعظَمِ مَنَافِعِ الكَبِدِ لبَنُ اللّقاحِ، لا سيّما إنِ اسْتُعْمِلَ بحرَارَتِه التّي يخرجُ بها مِنَ الضَّرعِ مع البَول.

ففعلوا ذلك، ثمّ لما صَحَّتْ أجسَامُهم كفَرُوا بعدَ إسْلامِهم، وقتلوا رَاعيها، وهو يَسَارٌ مولى النبي ﷺ، ومَثّلُوا به، فقطعوا يدَيه ورجليه، وغَرَزُوا الشّوكَ في لِسَانِه وعَينيه حتّى ماتَ، ثم استاقوا اللّقاحَ. وبلغَ النبيَّ ﷺ الخبرُ، فبعثَ ﷺ في آثارِهم عِشْرِينَ فَارِساً، واستعملَ عليهم سَعِيدَ بنَ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، وأرسلَ معهم من يَقُصّ آثارَهم، فأَدْرَكُوهُم فأحَاطُوا بهم فأَسَرُوهم ودخلوا بهم المدينةَ فأمرَ بهم رَسُوْلُ الله ﷺ، فقُطِعَتْ أيديهم وأرجلُهم، ثمّ سُمِلَتْ أَعْيُنُهم بمسَاميرَ محمَّاةٍ بالنّارِ، وأُلْقُوا في الحَرَّةِ، وهيَ أرضٌ ذاتُ حِجَارَةٍ سودٍ كأَنّها أُحْرِقَتْ بالنّار، فكانوا يَسْتَسْقُون فلا يُسْقَون. قال أنسٌ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه: لقَدْ رَأَيتُ أَحدَهُم يَكْدُمُ الأَرْضَ بِفِيهِ مِن العَطَشِ؛ لِيَجِدَ برْدَها ولما يَجِدُه مِنَ شِدّةِ العَطش. حتّى ماتوا على حالِهم ذلك.

وفي لفظٍ: أنّهم لما أُسِرُوا، ربطُوهم وأَرْدَفُوهم على الخيل حتّى قدموا بهم المدينة، وكان رَسُوْلُ الله ﷺ بالغَابةِ، فخرجوا بهم نحوه، فلقوه بمَجْمَعِ السّيولِ، فأمرَ بهم فقُطِعَتْ أيديهم وأَرْجُلُهم وسُمِلَتْ أَعيُنُهم، وصُلِبُوا هنالك. وأنزلَ الله فيهم: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ

فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، ولم يسْمُلْ ﷺ عينَ أَحَدٍ بعدَهم.

٢٩ ـ سَرِيَّةُ عُمَرَ بنِ الخَطّاب

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عُمَرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً إلى طَائفةٍ من هَوَازِنَ، في محلٍّ يُقَالُ له: عَجُزٌ، وهو محلٌّ بينَه وبين مَكَّةَ أربع ليال بطريق صنعاء، وأرسلَ ﷺ معه دليلاً من بني هِلَالٍ، فكان يسِيرُ اللّيلَ ويكْمُنُ النهارَ فأتى الخبرُ لهوازنَ فهربوا، فجاءَ عمرُ بن الخطاب محَالّهم، فلم يجدْ منهم أحَداً، فانصرفَ رَاجِعاً إلى المدينةِ، فلما كان بمحلٍّ بينَه وبينَ المدينةِ ستّة أَميال قال له الدّليلُ: هل لك في جمعٍ آخر من خَثْعَم؟، فقال له عمرُ: لم يأمرْني رَسُوْلُ الله ﷺ بهم، إنّما أمرَني بقتالِ هَوَازن.

٣٠ ـ سَرِيَّةُ أَبِي بكْرٍ الصِّدّيق

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ أبا بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى بني كلابٍ.

وعن سَلَمَة بن الأَكْوَعِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ أبا بكرٍ وأَمَّرَهُ علينا، فسَبَى نَاساً مِنَ المشركين، فقَتَلْناهُم، فقَتلْتُ بيدِي سَبْعَةً مِنَ المشركين.

٣١ ـ سَرِيَّةُ بَشِيرِ بن سَعد

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ بشيرَ بنَ سَعدٍ الأنصاري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه

في ثلاثين رَجُلاً إلى بني مُرَّةَ بِفَدَكَ، فخرَجَ فلقِيَ رِعَاءَ الشَّاءِ فسأَلَ عن النَّاسِ فقيل: في بَوَادِيهم، فاسْتَاقَ النَّعَمَ والشَّاءَ، وانْحَدَرَ إِلَى المدينةِ، فخرَجَ الصَّرِيخُ إليهم فأَدْرَكَه منهم العَدَدُ الكثيرُ عند اللَّيلِ، فباتوا يَترَامَون بالنَّبلِ حتّى فَنِيَ نَبْلُ أَصْحَابِ بَشِير، فلمَّا أَصْبَحُوا حملوا على بَشِيرٍ وأَصْحَابِه، فقتلوا منهم مَن قتلوا، وَوَلّى منهم مَن وَلّى، وقاتَلَ بشير قتالاً شديداً، حتّى جُرِحَ وصارَ به رَمَقٌ، فضَربوا كَعْبَه اختباراً لحيَاتِه، فلمْ يتَحَرّك، فقيلَ: ماتَ، فرجعوا بنَعَمِهم وشِيَاهِهم، وجاءَ خبرُهم إليه ﷺ، ثُمَّ جاءَ بشيرٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى المدينةِ بعد ذلك، فإنّه اسْتَمَرَّ بينَ القَتْلى إلى اللّيلِ، فلمَّا أَمسَى تحَامَلَ حتّى انتهى إلى فَدَكَ، فأقامَ بفَدَكَ عند يهوديٍّ أياماً حتى قَوِيَ على المشي، ثمّ جاءَ إلى المدينة.

٣٢ ـ سَرِيَّةُ غَالِبٍ اللَّيْثِي

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ غَالبَ بنَ عبدِ الله اللّيثيَّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ومعه مائةٌ وثلاثون رَجُلاً، إلى بني عَوَالٍ وبني عَبْدِ بنِ ثَعْلَبَة بالميفَعَةِ، وهو اسمٌ لمحَلٍّ وَرَاءَ بطْنِ نخْلٍ، فهجَمُوا عليهم جميعاً، ووقعوا في وسط محالّهم، فقتَلوا جَمْعاً مِنْ أَشْرَافِهم واستاقوا نعَماً وشاءً، ولم يأْسِرُوا أحَداً. وفي هذه السّرية قتل أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما الرّجلَ الذي قال: لا إله إلا الله. وكان اسمُه: مِرْدَاسُ بنُ نَهِيكٍ.

وعن أُسَامَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: بعثنا رَسُوْلُ الله ﷺ، فصَبَّحْنا القَومَ فهزمْنَاهم، ولَحِقْتُ أنا ورَجُلٌ من الأنصَارِ رجلاً منهم، فلما أَغْشَيْنَاه قال: لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصَاريّ عنه، وطعَنْتُه برمحي حتّى قتَلْتُه، فلمّا قَدِمْنا على

رَسُوْلِ الله ﷺ قال لي: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله»؟، فقلتُ: يا رَسُوْلَ الله إنما قالها مُتَعَوِّذاً من القتل، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «فكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا الله إِذَا جَاءَتْ يَومَ القِيَامَةِ»؟، فما زَالَ يكرِّرُها عليَّ حتّى تمنيتُ أني لم أكن أسْلمتُ قبل ذلك اليوم. أي: تمنّيتُ أَنْ أكونَ أَسْلَمْتُ اليومَ فَيُكَفِّرُ عنّي الإسلامُ مَا صَنَعْتُ.

قال أُسَامَةُ: وقلت: يا رَسُوْلَ الله اسْتَغفِرَ لي، فاسْتَغفَرَ لي وقال: «أَعْتِقْ رَقَبَةً»، ومِنْ ثَمَّ لم يَشْهَدْ أُسَامَةُ مع علي كَرَّمَ الله وَجْهَه قتالاً، وقال له: لو أَدْخَلْتَ يَدَكَ فِي فَمِ تِنِّينٍ لَأَدْخَلتُ يَدِي مَعَهَا، ولكِنّك قَدْ سَمِعْتَ ما قاله لي رَسُوْلُ الله ﷺ حينَ قتلتُ ذلك الرّجلَ الذي قال: لا إله إلا الله، وقد أَعْطَيتُ الله عَهْداً أَنْ لا أَقتلَ رَجُلاً يقولُ: لا إله إلا الله.

٣٣ ـ سَرِيَّةُ بَشِيرِ بنِ سَعد

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ بشيرَ بنَ سَعْدٍ الأنصاري رضي الله عنه إلى يَمَن أو جَبار ـ وَادٍ قريب من خَيْبَرَ ـ، وذلك لما بلغَه ﷺ أَنَّ بهِ جمْعاً من غَطَفَانَ، وقد واعدهم عُيينَةُ بنُ حصْن ليكُونَ معهم على حرْبِ رَسُوْلِ الله ﷺ، فعقَدَ ﷺ لبَشِيرِ بنِ سَعْدٍ لِوَاءً، وبعثَ معه ثلاثَمائةِ رَجُلٍ، فساروا الليلَ وكمنوا النهارَ حتى أتوا ذلك المحَلّ فأصابوا نَعَماً كثيراً، وتفرَّق الرِّعَاءُ وذهبوا إلى القوم، وأخبرُوهم فتَفَرَّقوا ولَحِقُوا بعُلْيَا بلادِهم، فلم يُظْفَرْ بأَحَدٍ منهم إلا برَجُلين أَسَرُوهما كانا مِن جَمْعِ عُيينَة، ثم رجعوا بهما وبالنعم إلى المدينة، فأسلم الرّجُلان، فأرسَلهما ﷺ.

٣٤ ـ سَرِيَّةُ ابْنِ أَبِي العَوْجَاء

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ ابنَ أبي العَوجَاءِ السُّلَمِيّ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنه في خمسينَ رجلاً إلى بني سُلَيم، وكان لهم جاسُوسٌ بين المسلمين، فخرَجَ إليهم، وسَبَقَ المسلمين إلى قومِه فحَذَّرَهم، فجمَعُوا لهم جمْعاً كثيراً، فجاؤوا لهم وهُمْ مُعِدّون لهم فدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حَاجةَ لنا بما تدعونا إليه. فتَرَاموا بالنَّبْلِ سَاعَةً، وجَعَلَتِ الأمدادُ تأتيهم، وأحدقوا بالمسلمين مِن كلِّ نَاحِية، فقاتلَ المسلمون قتالاً شَديداً حتّى قُتِلَ عامَّتُهم، وأُصِيبَ ابنُ أبي العوجاءِ فوقعَ جَرِيحاً معَ القتلى، ثمّ تَحامَلَ حتّى أَتى رَسُوْلَ الله ﷺ.

٣٥ ـ سَرِيَّةُ غَالِبِ اللَّيْثِي

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ غالبَ بنَ عبدِ الله اللّيثيّ، في بضعةِ عشر رجلاً، وأمرَهم أنْ يَشنّوا الغَارةَ على بَنِي المُلَوِّح، فخرَجوا حتى إذا كانوا بقُدَيدٍ لَحِقُوا الحارثَ اللّيثي فأسرُوه، فقال: إنّما خَرَجْتُ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ أُرِيدُ الإِسْلامَ، فقالوا له: إنْ كُنْتَ مُسْلِماً لم يَضُرّكَ رَبْطُنا لكَ يوماً وليلةً، وإنْ كنتَ غير ذلك اسْتَوثَقْنَا منك، فشدّوهُ وِثَاقاً، وخَلّفوا عندَه سُويدَ بنَ صَخْرٍ، وقالوا له: إنْ نَازَعَكَ فاحْتَزْ رَأْسَه، وسارُوا حتّى أتوا محلّ القومِ عند غُرُوبِ الشّمسِ، فكَمنُوا في نَاحِيَةِ الوادي وأرسلوا جُنْدبَ الجُهَني جَاسُوساً لهم.

قال جُنْدُبٌ الجُهَنِيّ: فخَرَجْتُ حتى أَتيتُ تَلّا مُشْرِفاً على الحَاضرِ حَيثُ القوم المقيمون، فلمّا اسْتَويتُ على رَأْسِه انبَطَحْتُ عليه لأنظرَ، إذْ خرجَ رَجُلٌ منهم، فقال لامْرَأَتِه: إنّي لأَنظرُ على هذا الجبَل سَواداً ما رَأيته قَبْلُ، انظرِي إلَى

أَوْعِيَتِكِ لا تكونُ الكلابُ جَرَّتْ منها شيئاً. فنظَرَتْ، فَقَالَتْ: واللهِ ما فَقَدْتُ مِنْ أَوْعِيَتي شَيئاً، فقال: نَاوِلِيني قَوسِي وَنَبْلي، فنَاوَلَتْهُ قوسَه وسَهْمَين، فأَرْسَل سَهماً، فوَ اللهِ ما أَخْطَأَ بينَ عينيَّ، فانْتزَعْتُه وثبَتُّ مكاني، فأَرْسَلَ آخرَ فوضَعَه في مَنكِبي، فانْتَزَعْتُه وثَبَتُّ مكاني، فقال لامرأتِه: واللهِ لو كانَ جَاسُوساً لتحَرَّكَ، لقَدْ خالطَه سَهْمَانِ، لا أَبالَكِ، فإذا أَصْبَحْتِ فانْظُرِيهما لَا تَمْضَغْهُما الكِلابُ ثمّ دخلَ. فلمَّا اطمَأنوا ونَامُوا شَنَّينَا عليهمُ الغَارَةَ، واسْتَقْنا النّعَمَ والشّاءَ بعدَ أَنْ قَتلنا المُقَاتلَةَ وسَبَينا الذّرِّيَّةَ.

ثم مرّوا على الحارثِ اللّيثي، فاحتَمَلوه، واحْتَمَلوا صَاحِبَهم الذي تركوه عنْدَه، فخرَجَ صَرِيخُ القَومِ في قَومِهم، قال جُنْدُبٌ: فجاءَنا ما لا قِبَلَ لنا به، فصَارَ بيننا وبينهم الوَادي، فأرسلَ اللهُ سَحَاباً فأَمْطرَ الوَادِي مَطراً ما رَأينا مِثْلَه، فسَالَ الوادي بحيثُ لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يجوزَ به، فصَاروا وقوفاً ينظرون إلينا، ونحنُ مُتَوَجِّهُونَ إلى أَنْ قدِمْنا المدينةَ. وفي لفظٍ آخر: فقُلْنا القومُ ينظرونَ إلينا، إِذْ جَاءَ اللهُ بالوادي مِن حِيثُ شاءَ، يمْلأُ جَنْبَيهِ ماءً، واللهِ ما رأينا يومئذٍ سحاباً ولا مَطَراً، فجاءَ بما لا يستطيعُ أَحَدٌ أَنْ يجوزَه، فوقفوا ينظرون إلينا.

٣٦ ـ سَرِيَّةُ غَالِبِ اللّيْثِي

لما قَدِمَ غالبُ بنُ عبدِ اللهِ الليثي رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه من القُدَيدِ مؤيّداً منصوراً بعثه النبيُّ ﷺ في مائتي رَجُلٍ إلى حيث أُصِيبَ أَصْحَابُ بَشِيرِ بنِ سَعْدٍ في بني مُرَّة في فَدَكَ، وقد كان ﷺ قبل قدوم غالبٍ هيّأَ الزُّبيرَ لذلِك وعقدَ له لواءً، فلمَّا قَدِمَ غَالِبٌ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه قال ﷺ للزُّبيرِ:

«اجْلِسْ» ، فسار غَالِبٌ إلى أن صَبّحَ القومَ فأغارَ عليهم. وكان غالبٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قد أوصَى أصحابَه بعَدَمِ مُخالَفَتِهم له ، فإنّه لما دَنَا مِنَ القَومِ ليلاً ، قامَ فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ قال: أما بَعْدُ ، فإنّي أوصيكم بتقوى الله تعالى وحدَه لا شريكَ له ، وأَنْ تطيعوني ، ولا تخالفوا لي أمراً ، فإن النبيَّ ﷺ قال: «مَنْ يُطِعْ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَانِي» ، وإنكم متى تعصُوني فإنكم تعصُونَ نبيكم ﷺ ، ثمَّ ألَّفَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بينَ القوم ، فقال: يا فلانُ أنتَ وفلانٌ ، ويا فلانُ أنتَ وفلانٌ ، لا يفارقْ رَجُلٌ منكم زَمِيلَه ، فإيّاكم أَنْ يَرْجِعَ الرّجلُ منكم فأقولُ له: أينَ صاحبُك ؟ ، فيقولُ: لا أدري ، فإذا كبّرْتُ فكبّروا ، فلمَّا أحاطوا بالقوم كبّرَ غالبٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، فكبّروا معه وجرَدّوا السّيوفَ ، وخرَج الرّجَالُ فقاتلوا سَاعةً ، ووضَعَ المسلمون فيهم السّيفَ ، وكانَ شعارُ المسلمين: "أَمِتْ أَمِتْ" ، ثم إنهم استاقوا النَّعَمَ والشَّاءَ والذُّرِّيَّةَ ، فكان سَهْمُ كلّ رَجُلٍ عشرةَ أَبْعِرَة.

٣٧ ـ سَرِيَّةُ شُجَاع بن وَهْب

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ شُجاعَ بنَ وَهْبٍ الأسدي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، في أربعةٍ وعشرينَ رجلاً إلى جَمْعٍ من هَوَازِنَ ، يُقالُ لهم: بنو عامر ، وأمرَه ﷺ أن يُغِيرَ عليهم ، فكانَ يسيرُ الليل ويكْمُنُ بالنّهارِ حتى صبَّحَهم وهم غافلون ، وقد نَهى أصْحَابَه أنْ يُمْعِنُوا في الطّلَب ، فأصَابوا نعماً وشاءً ، واستاقوا ذلك حتّى قدموا المدينة ، فكانَ سَهْمَ كلّ رجل خمسةَ عشرَ بعيراً ، وعَدَّلَ البعيرَ بعَشَرةٍ من الغَنَم.



٣٨ـ سَرِية كَعْبِ بنِ عُمَير

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ كعبَ بنَ عُمَيرٍ الغِفَاري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى ذَاتِ أَطْلَاح من أرض الشَّام ورَاء وادِي القُرَى في خمسة عشر رجلاً، فوجدوا بها جمعاً كثيراً؛ لأنه لما دنا كعبُ بنُ عميرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه منهم ذَهَبَ عَينٌ لهم فأَخبرَهم بِقِلّةِ المسلمين، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يَسْتَجِيبُوا ورَشَقُوهم بالنّبل، فقاتَلَهم المسلمون أَشَدَّ القِتَالِ حتّى قُتِلُوا عَنْ آخرِهم إلّا كعباً، فإنّهم ظَنّوا قتلَه، فلمَّا أمسَى تحامَلَ حتى أتى رَسُوْلَ الله ﷺ، فشَقّ ذلك عليه، فهَمَّ بالبَعثِ إليهم، فبلَغَه أَنّهم سَاروا إلى محلٍّ آخر، فترَكَهم.

٣٩ـ سَرِيَّةُ عَمْرِو بن العَاص

وهي سَرِيّةُ ذاتِ السّلاسِل؛ لأنها كانت بأرض بها ماء يقال له: السّلاسل، وقيل: سُمِّيَ المكان بذلك؛ لأنه كان به رَمْلٌ بعضُه على بعضٍ كالسّلْسِلةِ، وتلك الأرضُ ورَاءَ وادِي القُرَى، وقيل: سُمِّيتْ السَّرِيّةُ بذلك لأنَّ المشركينَ ارْتَبطَ بعضُهم إلى بعضٍ مخافةَ أَنْ يفِرّوا.

وكان قد بلغَ رَسُوْلَ الله ﷺ أَنّ جمعاً مِن قُضَاعةَ قد تجَمَّعُوا، يريدون المدينةَ، فدعا رَسُوْلُ الله ﷺ عمرَو بنَ العاص رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وذلك بعد إسلامِه بسَنة، وعقدَ له لواءً أَبيضَ، وجعلَ معه رَايةً سَوداء، وبعثه في ثلاثمائةٍ من سُرَاة المهاجرين والأنصَار، ومعهم ثلاثونَ فرَساً، وأمرَه ﷺ أَنْ يَسْتَعِينَ بمَنْ يَمُرُّ عليهم. وعن عمرو بن العاص قال: بعثَ إليَّ رَسُوْلُ الله

ﷺ فأمَرَني أَنْ آخُذَ ثِيَابي وسِلَاحِي. فقال: «يَا عَمْرُو، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُغَنِّمَكَ الله ويُسَلِّمَكَ»، فقلتُ: رَسُوْلَ الله، إِنّي لم أُسْلِمْ رَغْبَةً في المالِ، فقال: «نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِح».

فسارَ الليلَ وكَمَنَ النّهارَ حتّى قربَ من القوم، فبلغَه أنّ لهم جمعاً كثيراً، فبعثَ رافع بن كعبٍ الجهني رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فبعثَ إليه أبا عُبيدةَ بنَ الجرَّاح في مائتينِ من سُرَاةِ المهاجرين والأنصارِ، وفيهم أبو بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم، وعقدَ له لواءً، وأَمَرَه أَنْ يلحقَ بعمرو، وأَنْ يكونَا جميعاً ولا يَخْتَلِفَا، فلَحِقَ أبو عُبيدةَ بعمرٍو.

وأراد أبو عبيدةَ أَنْ يَؤُمَّ الناسَ، فقال عمرو: إنّما قَدِمْتَ عليَّ مَدَداً وأنا الأميرُ، فقال عند ذلك جمعٌ من المهاجرين الذين مع أبي عبيدة لعمرو: أَنتَ أَمِيرُ أصحابِكَ وهو أَمِيرُ أَصْحَابِه، فقال عمرٌو: أنتم مَدَدٌ لنا، فلما رَأى أبو عُبيدة الاختلافَ، قال: يا عمرو، لِتَعْلَمَ أَنّ آخرَ شَيءٍ عهدَ إليَّ رَسُوْلُ الله ﷺ أَنْ قالَ: «إِنْ قَدِمْتَ عَلَى صَاحِبِكَ فَتطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»، وإنك والله إِنْ عصيتني لأُطِيعَنَّكَ، فقال له: إِنّي الأميرُ عليك، قال: فدونك. فكان عمرٌو يُصَلّي بالنّاسِ؛ لأنَّ أبا عُبيدةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه كانَ حَسَنَ الخُلُقِ لَيِّنَ العَرِيكَةِ.

فلما كان اللّيْلُ أَرَادُوا أَنْ يُوقِدوا نَاراً لِيَصْطَلوا عليها مِنَ البَرْدِ فمنعهم عمرٌو، وقال: كُلّ مَنْ أَوقَدَ ناراً لأَقْذِفَنَّه فيها، فشَقّ عليهم ذلك لما فِيهِم مِنْ شِدّةِ البَرْدِ، فكَلَّمَهُ بعضُ سُرَاة المهاجرين في ذلكَ فغَالَظَه عمرٌو في القَولِ، وقال له: قد أُمِرْتَ أَنْ تَسْمَعَ لي وَتُطِيع؟، فقال: نعم، قال: فافْعَلْ. ولما بلغ ذلك عمر بن

الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه غضبَ وهَمَّ أَنْ يَأْتِيَه، فمَنَعَه أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقال: إنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ لم يَسْتَعْمِلْهُ إلا لعِلْمِهِ بالحرْبِ، فسَكَتَ. وكانت تلكَ اللّيلةُ شديدةَ البَرْدِ جدّاً، فاحتلمَ عمرٌو رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فقالَ لأصحابِه: مَا تَرَونَ؟، قَدْ واللهِ احْتَلَمْتُ فإنِ اغْتَسَلْتُ مِتُّ، فدعا بماءٍ فغَسَلَ فَرْجَه ثُمَّ تَوَضَّأ وتيمَّمَ، ثُمَّ قامَ وصَلَّى بالنّاسِ، فلمَّا أصبَحُوا رأوا جمعاً كثيراً من المشركين، فحَمَلَ عليهم المسلمون فتَفَرَّقوا، وأرادَ المسلمون أَنْ يَتّبِعُوهم فمَنَعهم عمرٌو من ذلك.

ثمّ بعثَ عمرٌو عوفَ بنَ مالكٍ مُبَشّراً للنبيِّ ﷺ بقُدُومِهم وسَلامَتِهم. قال عَوفُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: جئتُ النّبيَّ ﷺ وهو يُصَلّي في بيته، فقلتُ: السلامُ عليك يا رَسُولَ الله ورحمةُ الله وبركاتُه، فقال: «عَوفُ بنُ مَالِك»؟، فقلتُ له: نعم بأبي أنت وأمّي يا رَسُولَ الله، قال: «أَخْبِرْنِي»، فأخبرته بما كان من مسيرنا، وما كان بين أبي عبيدة بن الجراح وبين عمرو، ومطاوعة أبي عبيدة لعمرو، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «يَرْحَمُ الله أَبَا عُبيدَةَ بنَ الجَرَّاح»، وأخبرْتُه بمنعِ عمرو رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه للمسلمين من اتّباعِ العَدوِّ، ومِن إيقَادِ النّارِ، وأخبرْتُه بصَلاتِه بأصحابِه وهو جُنُبٌ.

فلما قَدِمَ عليه عمرو كلّمَه ﷺ في ذلك، فقال: كَرِهْتُ أَنْ يُوقِدوا ناراً فيرَى عدوُّهم قلّتَهم، وكَرِهْتُ أَنْ يَتّبِعُوهم فيكونَ لهم مَدَدٌ فيعطفوا عليهم، فحَمِدَ النبيُّ ﷺ أمرَه. ثمّ سألَه عن صَلاتِه فقال له: «صَلّيتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ»؟، فقال عمرو رضي الله عنه: والذي بعثك بالحقِّ إنّي لو اغتسلت لمِتُّ،

لم أَجِدْ برداً قطّ مثله، وقد قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فضَحِكَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٤٠ ـ سَرِيَّةُ أَبِي عُبَيدَةَ بنِ الجَرَّاح

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا عُبيدَةَ بنَ الجرَّاح رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، إلى حَيٍّ مِن جُهَينَةَ في ساحل البحر، وقيل: ليرصُدُوا عِيراً لقُريش، فأقاموا بالسَّاحل نِصْفَ شهرٍ، فأصابَهم جوعٌ شَديدٌ حتّى أكلوا الخَبَطَ، وهو أوراق شَجَرِ السّمُر، فكانوا يَبُلّونَه بالماءِ ويأكلونه، حتّى تقرَّحَت أشدَاقُهم، وكان أبو عبيدة رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه يُعْطِي الوَاحِدَ منهم في اليوم والليلة تمرةً واحدةً، فكان أحدهم يَمُصُّها ثمَّ يصرُّها في ثوبه.

وعن الزبير رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه أنه قيل له: كيف كنتم تصنعون بالتّمرة؟، فقال: نمصُّها كما يمصُّ الصّبيُّ ثدْيَ أُمِّه، ثمّ نشربُ عليها الماءَ، فتكفينا يومنا إلى الليل. وذلك لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوَّدَهم جِرَاباً من تمْرٍ لم يجدْ لهم غيرَه، فجعل أبو عبيدة رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه يُقَوِّتُهم إيّاه، حتّى صَارَ يَعُدُّه لهم عَدّاً، حتى كان يعطي الواحدَ تمرَةً كلّ يوم فأكلوا الخبطَ.

ولما رأى قَيسُ بنُ سَعدِ بنِ عُبادَةَ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما مَا بالمسلمين مِن جهْدِ الجوع وما بهم مِن مشَقّتِه، وقال قائلهم: والله لو لقينا عَدُوّاً ما كان منّا حرَكةٌ إليه. لما بالنّاسِ من الجهْدِ، فقال قيسٌ لرجُلٍ من أهل السَّاحِلِ: أَتَشْتَرِي منِّي

تمراً أُوَفِّيهِ لك في المدينةِ بجُزُرٍ تُوَفِّيها إِليَّ هَهَنا؟، فقال له الرَّجُلُ: أنا أفعل، ولكِنْ واللهِ ما أعرُفك، فمَنْ أنتَ؟، قال: أنا قَيسُ بنُ سَعدِ بنِ عُبادَة، فقال الرَّجُلُ: مَا أَعْرَفَني بسَعَدٍ، إنّ بيني وبينَ سَعْدٍ سَيِّدِ أهل يثْرِب خُلَّةٌ، فاشترى خمسَ جزَائر، كلّ جزورٍ بِوُسْقٍ مِن تَمْرٍ، ثمّ قال له الرّجلُ: أَشْهِدْ لي، فقال: أَشْهِدْ مَنْ تُحِبّ، فأشهدَ نفراً من المهاجرين والأنصار، وكان مِن جملَتِهم عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فامتنعَ مِنْ أَنْ يَشْهَدَ وقال: هَذا يُدَانُ ولا مالَ له إِنّما المالُ مَالُ أَبِيه. فقال الرجلُ: واللهِ ما كان سَعْدٌ لِيُخَوِّنَني بابنِه ولا يُوفّي عنه ما التَزَمَه. فكانَ بينَ قَيسٍ وعمرَ كلامٌ حتى أَغْلَظَ له قيسٌ.

ثم إنّ قيساً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أخذ الجزُرَ، فنحر لهم منها ثلاثةً في ثلاثةِ أيام، وأرَادَ أنْ ينحرَ لهم في اليوم الرّابع، فنهَاه أبو عبيدة، وقال له: عَزَمْتُ عليك أَنْ لا تَنْحَرَ، أَتريدُ أَنْ تَخْفِرَ ذِمَّتك ولا مَالَ لك؟، فقال له قيسٌ: أترَى أبا ثابتٍ ـ يعني والده سعداً ـ يقضي ديونَ النّاسِ ويُطعِمُ في المجاعةِ ولا يقضي ديناً اسْتَدَانْتُه لقَومٍ مجاهدين في سَبيلِ الله؟!.

ثمّ إِنّ البحرَ ألقى لهم دَابّةً هَائِلةً يقال لها: العنبرُ، بحيث أَنّ أبا عُبيدة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه نصبَ لهم ضِلْعاً من أَضْلَاعها ومرَّ تحتَه قيسُ بنُ سَعدِ بنِ عُبادةَ وكان أطولَ رجل في القوم، ورَكِبَ على أطولِ بعيرٍ فلمْ يُطَأْطِئْ رَأْسَه. وقال جابرٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: دخلتُ أنا وفلانٌ وفلانٌ ـ وعدَّ خمسَةَ نفرٍ ـ، في عينِها، فما رَآنا أحَدٌ. وفي لفظ: ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثةَ عشرَ رجلاً فأقعَدَهم في وَقْبِ عينها. وقد أكلوا منها نحوَ شهرٍ، وكانوا ثلاثمائة.

وقال جابرٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: لما تقرَّحَتْ أشداقُنا مِنَ الخبَطِ انطَلَقْنا على ساحل البحر، فَرُفِعَ لنا كَهيئةِ الكَثيبِ الضّخْمِ، فأتيناه فإذا هيَ دابّةٌ تُدْعَى العَنبرُ، فقال أبو عبيدة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: مَيتةٌ، ثمّ قال: قد اضْطُرِرْتُم فكلوا، فأقَمْنَا عليه شَهْراً ونحنُ ثلاثمائةٍ حتى سِمِنّا، ولقد رَأيتُنا نَغْتَرِفُ من وَقْبِ عينه الدُّهْنَ بالقِلَالِ، وصَحِبْنا مِنْ لَحْمِها إلى المدينة. فلمَّا قَدِمْنَا المدينةَ ذكرنا ذلك لرَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «رِزْقٌ أَخْرَجَهُ الله تَعَالَى لَكُمْ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيءٌ فَتُطْعِمُونَا»، فأرسلنا إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها فأكلَه.

ولما بلغَ سعدَ بنَ عُبادةَ ما حصَل للمسلمين من المجاعة في خُرُوجِهم قال: إنْ يَكُنْ قَيسٌ كما أَعْهَدُ فَلَيَنْحَرَنَّ للقَومِ. فلمَّا قَدِمَ قَيسٌ قال سَعْدٌ: ما صنعت في مَجاعَةِ القَومِ؟ قال: نَحَرْتُ، قالَ: أَصَبْتَ، ثُمَّ مَاذَا؟ قالَ: نَحَرْتُ، قالَ: أَصَبْتَ، ثُمَّ مَاذَا؟، قالَ: نَحَرْتُ، قال: أَصَبْتَ، ثُمَّ مَاذَا؟، قال: نُهِيتُ، قال: ومَنْ نَهاكَ؟، قال: أبو عبيدة، قال: وَلِمَ؟، قال: زَعَمَ أَنهُ لَا مَالَ لي، فقلت: أبي يقْضِي عَن الأَباعِدِ ويَحْمِلُ الكَلَّ ويُطْعِمُ في المجَاعَةِ ولا يصنع هذا لي؟!، فَلَانَ لِي، فأبى عُمَرُ إلّا التّصْمِيمَ على المنع. قال سَعْدٌ: تلك أربعة بساتين، أدناها يتحصل منها خمسون وسقاً. ثمّ إنَّ قيساً وَفَّى الرَّجلَ صاحبَ الجزُرِ، وأعطاه ما يَرْكَبُه، وكسَاهُ، فبلغَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فعَلَ قيسٌ، فقال: «إِنّهُ فِي بَيتِ جُودٍ، إِنّ الجودَ لِمنْ شِيمَةِ أَهْلِ ذَلِكَ البَيتِ».

٤١ ـ سَرِيَّةُ أَبِي قَتادة

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا قَتادةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في خمسةَ عشرَ

رجلاً إلى غَطَفَان، وأمرَه أنْ يَشُنَّ الغارةَ عليهم، فصارَ يسيرُ الليلَ ويكْمُنُ النهارَ، حتى هجمُوا عليهم وأحاطوا بهم، وقتلوا مِن أشرَافِهم، واستاقوا الإبلَ والغنم، فكانت الإبل مائةَ بعيرٍ، والغنم ألفي شاةٍ، وسبوا سبايا كثيرة، فأصابَ كل رجل بعد إخراج الخمس اثني عشر بعيراً وعُدِّلَ البعيرُ بعشرين من الغنم، ووقعَ في سهم أبي قتادة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه جارية حسناء وضيئة، فاستوهبَها منه ﷺ، فوهبها له، ثمّ وهبهَا ﷺ لشَخْصٍ كانَ قدْ وعَدَه بجَاريةٍ من أوَّل فيءٍ يفيءُ الله تعالى عليه به.

٤٢ ـ سَرِيَّةُ عَبدِ الله بن أَبِي حَدْرَدٍ

قال عبدُ الله بنُ أبي حَدْرَدٍ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: تزَوَّجْتُ بامْرَأةٍ من قومي، فجئتُ رَسُوْلَ الله ﷺ أَسْتَعينُه على ذلك، فقال لي: «كَمْ أَصْدَقْتَ»؟، فقلتُ: مائتي دِرْهَم. فقال: «سُبْحَانَ الله؛ لَوْ كُنْتُم تَأْخُذُونَ الدَّرَاهِمَ مِنْ بَطْنِ وَادِيكُم هَذَا مَا زِدْتُمْ، وَالله مَا عِنْدِي مَا أُعِينُكَ»، فلبثتُ أياماً، فبلغَ رَسُوْلَ الله ﷺ أَنَّ رجلاً يقالُ له: رِفَاعَةُ بنُ قَيسٍ في جمعٍ عظيمٍ، قد نزَلَ بالغَابةِ يريدُ حَرْبَ رَسُوْلِ الله ﷺ، فدعاني رَسُوْلُ الله ﷺ، ورجلين من المسلمين، فقال لنا: «اخْرُجُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى تَأْتُونِي مِنْهُ بِخَبَرٍ»، ودفعَ لنا شَارِفاً عَجْفَاءَ، وقال: «تبَلّغُوا عَلَيهَا، وَاعْتَقِبُوهَا»، فركِبَها أَحَدُنا، فوَ الله ما قامَتْ به لما بِها من الضّعْفِ حتّى ضُربَت.

فخرجنا وكان معنا سِلاحُنا؛ النّبلُ والسُّيوفُ، حتى إذا جِئنا قريباً من القوم عندَ غروبِ الشّمسِ، فكنتُ في ناحيةٍ وصاحِبيّ في ناحيةٍ أخرى، فقلتُ لهما:

إذا سَمِعْتُماني قد كَبَّرتُ فكَبِّرا، فو الله إنا كذلك نَنْتَظِرُ غِرةَ القوم، إلا وَرِفَاعَةُ بنُ قَيسٍ المُجَمِّعُ للقوم خَرَجَ في طَلَبِ رَاعٍ لهم أَبطَأَ عليهم، وتَخوَّفُوا عليه، وقد قال له نفرٌ من قومِه: نحنُ نكفيك ولا تذهبْ أنتَ، فقال: والله لا يذهبُ إلّا أنا، فقالوا: فنحنُ معك، فقال: والله لا يتّبِعُني أَحَدٌ منكم، وخرَج حتّى مرَّ بي، فلمَّا أمْكَنَنِي رَمَيتُه بسَهْم، فوضَعْتُه في فُؤَادِهِ، فو الله ما تكلّمَ، ثُمّ إنّي وَثَبتُ عليه فاحتَزَزْتُ رأسَه، وشدَدتُ في ناحِيةِ العسكرِ وكَبّرتُ، وشدّ صاحباي وكبّرا، فهربَ القومُ واسْتقْنا إبلاً وغَنماً كثيرة، فجِئنا بها إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجئتُ برأسِه أحمِلُه معي، فأعانني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تلكَ الإبل بثلاثة عشر بعيراً في صداقي.

وقد جعلَ بعضُهم هذه السَّرِيَّةَ وسَرِيَّةَ أبي قتادة إلى غَطَفَان بأرض محاربٍ التي قبل هذه واحدةً؛ لأنه نُقِلَ عن عبدِ الله بنِ أبي حَدْرَدٍ قوله: طلبتُ منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإعانةَ في مهرَ زوجَتي، فقال: «مَا وَافَقْتَ عِنْدَنا شَيئًا أُعِينُكَ بهِ، وَلكِنْ قَدْ أَجْمَعْتُ أَنْ أَبْعَثَ أَبا قَتَادَةَ في سَرِيَّةٍ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَخْرُجَ فِيهَا فَإِنّي أَرْجُو أَنْ يُغَنِّمَكَ الله مَهْرَ امْرَأتِكَ»، فقلتُ: نعم، فخرجنا حتى جئنا الحاضر ـ وهم القومُ النّزولُ على ماءٍ يقيمونَ به ولا يَرْتَحِلُونَ عنه ـ، فلمَّا ذهَبَتْ فحْمَةُ العِشَاءِ خطَبنا أبو قتادة، وأوصانا بتقوى الله تعالى، وألَّفَ بين كلّ رجلين، وقال: لا يفارقْ كلّ رجلٍ زميلَه حتى يرجعَ، ولا يجيء إليّ الرّجلُ فأسالُه عن صاحبِه، فيقول: لا عِلْمَ لي به، وإذا كبّرتُ فكبّروا، وإذا حملتُ فاحملوا، ولا تُمْعِنُوا في الطّلبِ، فأَحَطْنا بالحاضر، فجَرَّدَ أبو قتادة سيفَه وكبّر، وجَرَّدْنا سيوفَنا وكبّرنا معه، وقاتَلَنا رِجَالٌ من القوم، وإذا فيهم رجلٌ طويلٌ، فأقبلَ عليَّ وقال: يا مسلمُ

هَلُمَّ إلى الجنَّةِ، يَتَهَكَّمُ بي، فمِلْتُ إليه فذَهَبَ أمامي، وصار يُقْبِلُ عَلَيَّ بوجْهِه مَرَّةً ويُدْبِرُ عنّي بوجْهِهِ مرَّةً أخرى، فتَبِعْتُه، فقال لي صاحِبي: لا تَتَّبِعْه، فقد نَهانا أَمِيرُنا أَنْ نُمْعِنَ في الطَّلَبِ، ثمّ لا زالَ كذلك، وقال: إنَّ صَاحِبَكم لذو مَكِيدَةٍ، وإنّ أمرَه هو الأمرُ، فأدركْتُه فرَمَيْتُه بسَهْم فقتَلْتُه، وأَخَذْتُ سَيفَه، وجِئتُ صاحِبي فأخبرني أنّهم جمعوا الغَنائِمَ، وأنّ أبا قتادةَ تَغَيَّظَ علينا، فجِئتُ أبا قتادةَ فلامني، فأَخْبَرْتُه الخبرَ.

ثمّ سُقْنا النّعَمَ، وحمَلنا النِّساءَ، وجُفُونُ السُّيوفِ مُعَلَّقَةٌ بالأَقْتَابِ، ثمَّ لما أَصْبَحْنا رَأيتُ في السّبي امرَأةً كأنّها ظَبْيٌ وهِيَ تكْثِرُ الالتِفَاتَ خَلْفَها وتبكِي، فقلتُ لها: أَيَّ شَيءٍ تَنظُرِينَ؟، فَقَالَتْ لي: والله أنظرُ إلى رَجُلٍ لَئِنْ كانَ حَيّاً ليَسْتَنْقِذُنا منكم، فوقع في نفسي أنه الذي قتلته، فقلت لها: والله قَدْ قَتلْتُه، وهذا والله سَيفُه مَعَلّقٌ بالقتبِ، فَقَالَتْ: فألقِ إليَّ غِمْدَه، فقلتُ: هذا غِمْدُ سيفه، فلمَّا رَأته بكَتْ بُكاءً شَديداً. ولا يخفى مِن هذا السِّيَاقِ أنه يبعدُ كونهما واحدة.

٤٣ ـ سَرِيَّةُ أَبِي قَتَادَة

لما هَمَّ رَسُوْلُ الله ﷺ بغزوِ أهل مَكَّةَ بعثَ أبا قتادةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في ثمانيةِ نفَرٍ وكان مِن جملتهم مُحَلِّمُ بنُ جَثّامَة اللّيثيُّ إلى بَطْنِ إِضَم، لِيَظُنَّ الظَانُّ أنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ تَوَجَّهَ إلى تلكَ النّاحِيةِ، ولتَنْتَشِرَ بذلك الأخبارُ، فمرَّ عليهم عامرُ بنُ الأَضْبَطِ الأَشْجَعِيِّ، فسَلّمَ عليهم بتَحِيّةِ الإسلامِ، فأمسَكَ القومُ عنه، وحمل عليه مُحَلِّمُ بنُ جَثّامَةَ فقتَلَه، لِشَيءٍ كانَ بينهما، ثمّ سَلَبَه متاعَه وبعِيرَه، وعندَ وصولِهم إلى المحَلّ المذكور رجعوا، فبلغَهم أَنّ رَسُوْلَ الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توَجَّهَ إلى مَكَّةَ، فمالوا إليه حتى لَحِقُوه.

وقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمُحَلَّم: «أَقتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: آمَنْتُ بِالله»؟، أَي: أَتى بما لَمْ يأتِ بهِ إلا مُؤْمِنٌ آمنَ بالله وكانَ مُسْلماً، فقال: يا رسولَ الله، إِنّما قالَها مُتَعَوِّذاً، قال: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ»؟، فقال: ولِمَ يا رسولَ الله؟، قال: «لِتَعْلَمَ أَصَادِقٌ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ»، فقال: يا رسولَ الله، لو شققت عَن قلبه ما كنتُ لِأَعْلَمَ ما في قلبه، فقال له: «فَلَا أَنْتَ قَبِلْتَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ، وَلَا أَنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ»!، فقال: استغفرْ لي يا رَسُولَ الله، فقال: «لَا غَفَرَ الله لَكَ»، فقام يتلَقّى دَمْعَه بِبُرْدِهِ. وأنزلَ الله تعالى فيه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [النساء: ٩٤] الآية.

وذكر ابنُ إسحاق: أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما صَلّى بِحُنَينٍ، ثمَّ عمَدَ إلى ظل شَجَرةٍ فجلسَ تحتها، قامَ إليه الأقرَعُ بنُ حَابِسٍ، وعُيَينةُ بنُ حِصْنٍ يختَصِمانِ في عَامِرِ بنِ الأَضْبَطِ، فعُيَينَةُ يطالبُ بِدَمِه، والأَقرَعُ يُدَافِعُ عَن مُحلِّمٍ، حتّى ارتفعتِ الأَصْوَاتُ، وكَثُرَتِ الخصُومَةُ، ورَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ لعُيينةَ ومَن معه: «بَلْ تَأْخُذُونَ الدِّيَةَ خَمْسِينَ فِي سَفَرِنَا هَذَا، وَخَمْسِينَ إِذَا رَجَعْنَا»، وهو يأبي عليه، فلم يزلْ به حتّى اتّفقَا على الدِّيةِ، وقالوا: بأَنّ مُحلِّماً يستغفرُ له رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقامَ محلّمٌ وهو رجلٌ آدَمٌ طويلٌ عليه حُلّةٌ قد كانَ تَهيّأَ للقَتْلِ فيها، حتّى جلسَ بين يَدِي رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعيناهُ تدمَعَانِ، فقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ»؟، قَالَ أَنَا مُحَلّمُ بنُ جَثّامَةَ، فَرفَعَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ:

«اللَّهُمَّ لَا تَغْفِرْ لِمُحَلِّمِ بنِ جَثَّامَةَ»، قالها ثلاثاً بصَوتٍ عَالٍ، فقامَ يتَلَقَّى دَمْعَه بفَضْلِ رِدَائِه.

فما مكثَ إلا سَبْعاً حتّى ماتَ فلفَظَتْه الأَرْضُ مرَّاتٍ حتّى ضَمُّوا عليه الحِجَارةَ وواروه، ولما أخبرُوا رَسُوْلَ الله ﷺ بذلك قال لهم: «وَاللهِ إنَّ الأَرْضَ لَتطَّابقُ عَلَى مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ، وَلَكِنَّ اللهَ أَرَادَ أَنْ يَعِظَكُمْ فِي حُرْمَةِ مَا بَيْنَكُمْ بِمَا أَرَاكُمْ مِنْهُ».

٤٤ ـ سَرِيَّةُ خَالِدِ بنِ الوَليد

أرْسَلَ رَسُوْلُ الله ﷺ حينَ فتح مَكَّةَ خَالدَ بنَ الوَليدِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في ثلاثين فارساً من أصحابِه إلى العُزّى، وهو صَنَمٌ كانَ لقُريشٍ، وكان مُعَظّماً جِدّاً، وكان يُهدَى إليه كما يُهْدَى إلى الكَعْبةِ؛ لأنَّ عمرَو بن لُحَيٍّ كان قد أخبرَهم أَنّ الربَّ يُشَتِّي بالطّائفِ عندَ اللّاتِ ويُصَيِّفُ عندَ العُزّى!، فلما وصَلَ خالد إلى محلِّها وكانَ بناءً على ثلاثِ سُمُرَاتٍ، قطع السَّمُرَاتِ، وهدمَ ذلك البناء، ثمَّ رجعَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فأخبرَه بذلك، فقال له النبيُّ ﷺ: «هَلْ رَأَيْتَ شَيْئاً»؟ قال: لَا، قال: «فَارْجِعْ إِليهَا»، فرجع إِليهَا خالدٌ وهو مُتَغَيِّظٌ، فجرَّدَ سيفَه، فخرَجَتْ إليهِ امرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ سَودَاءُ ثائِرَةُ الرَّأسِ، تحثُو التّرابَ على رأسِها، فجَعَلَ السَّادِنُ يصِيحُ بها، ويقولُ: يا عُزَّى عُورِيّة، يا عُزَّى خبْلِيّة، فضرَبها خالدٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه حتى قطعَها نصفين، وهو يقول:

يَا عُزُّ كَفْرَانَكِ لَا سُبْحَانَكِ ... إِنّي رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أَهَانَكِ

ثم رجعَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، وأخبرَه بذلك، فقال: «نَعَمْ، تِلْكَ العُزَّى».




٤٥ ـ سَرِيَّةُ عمرو بن العَاص

ثمَّ أرْسَلَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه في جماعةٍ من أصحابه إلى سُوَاعَ، ليكْسِرَه ويَهْدِمَ محلَّه، وكانَ لهُذَيلٍ وكان على صُورَةِ امرَأةٍ. قال عمرو رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: فانتهيتُ إلى ذلك الصَّنم وعِنْدَه سَادِنُه، فقال لي: ماذا تريدُ؟، فقلتُ: أمرني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ أَهْدِمَه، فقال: لا تَقْدِرُ، قلتُ لمَ؟، قال: تُمْنَعُ، فقلت: حتّى الآنَ وأنتَ على الباطل، ويحكَ؛ وهل يَسْمَعُ أَوْ يُبْصِرُ؟، فدنَوتُ منه فكَسَرْتُه، وهَدَمَ أصحَابي بيتَ خِزَانَتِه، فلمْ نَجِدْ فيها شيئاً، ثُمَّ قلتُ للسَّادِنِ: كيفَ رأيتَ؟ قال: أَسْلَمْتُ لله.

٤٦ ـ سَرِيَّةُ سَعْدِ بن زيد

أرسلَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَعْدَ بنَ زيدٍ الأَشْهَليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عشرين فارساً إلى مَنَاة؛ ليَهْدِمَ محلَّه، وهو صَنَمٌ كانَ للأوسِ والخزْرَجِ، فلمَّا وصلوا إلى ذلك الصَّنَم، قال السَّادنُ لسَعدٍ: ما تُريدُ؟، فقال: هَدْمَ مَنَاة، قال: أنتَ وذاك، فأقبل سعدٌ إلى ذلك الصّنَم، فخرجَتْ إليه امْرَأةٌ عُرْيَانَةٌ سَوْدَاءُ ثائِرَةُ الرَّأسِ، تَدْعُو بالوَيلِ وتَضْرِبُ على صدرِها، فقال لها السَّادِنُ: مناةُ؛ دونَكِ بعضَ عُصَاتِكِ، فضرَبها سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقتلَها، وهَدَمَ محلَّها.

٤٧ ـ سَرِيَّةُ خالدِ بن الوليد

بعث رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالدَ بنَ الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثلاثِمائةٍ وخمسينَ رجلاً من المهاجرين والأنصار ومن بني سُليم، وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقيماً بمَكَّةَ، إلى

بَنِي جُذَيْمَةَ، بناحية يَلَمْلَم يدعوهم إلى الإسلام، ولم يكُنْ ﷺ قَدْ عَلِمَ بإسلامِهِم، ولم يَأمُرْه بِمُقاتَلَتِهِم إذا لم يُسْلِمُوا. وكان بنو جُذَيْمَةَ في الجاهليّة قد قتلوا الفَاكِهَ عمَّ خالدٍ، وقتلوا أخاً للفَاكِهِ في الجاهليَّة، وكانوا مِن أشرِّ حيٍّ في الجاهِلِيَّةِ، وكانوا يُسَمَّونَ لَعَقَةَ الدَّمِ، وقد قتلوا والدَ عبدِ الرّحمن بنِ عوفٍ أيضاً، فلمَّا علمُوا بمَجِيءِ خَالِدٍ، وعَلِمُوا أنّ معه بني سُلَيم، وكانوا قد قتلوا منهم مَالِكَ بنَ الشّرِيدِ، وأخويه في مَوطِنٍ واحِدٍ، فخَافوا، ثم لَبِسُوا السّلاحَ، فلما انتهى خالدٌ إليهم تَلَقَّوهُ، فقال: أَسْلِمُوا، فقالوا: نحنُ قومٌ مسلمون. قال: فألقوا سلاحَكم وانزلوا، فقالوا: والله ما بعدَ وضْعِ السّلاح إلّا القتل، ما نحنُ بآمنينَ لك. قال خالد: فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا، فنزلت فرقة منهم فأسرَهم وتفرقت بقية القوم.

وفي روايةٍ: أنه لما انتهى خالد إلى القوم تَلَقّوه، فقال لهم: مَا أنتم؟، أَمُسْلِمُونَ أَمْ كُفَّارٌ؟، فقالوا: مسلمون، قد صَلّينا وصَدّقنا بمحمَّدٍ ﷺ، وبنينا المساجدَ في ساحَتِنا وأَذَّنّا فيها. وفي لَفْظٍ: أنّهم لم يحسِنُوا أَنْ يقولوا: أَسْلَمْنَا، فقالوا: صَبَأْنا صَبَأْنا، قال: فمَا بَالُ السِّلاح عليكم؟، فقالوا: إِنَّ بيننا وبين القوم من العربِ عداوَةً فخِفْنا أَنْ تكونوا هم فأخذنا السّلاحَ، قال: فضَعُوا السِّلاح، فوَضَعُوه، فقال: اسْتَأسِرُوا، فأمرَ بهم فكُتِّفُوا، ثُمّ فَرَّقَهم في أَصْحَابِه، فلمَّا كانَ في السَّحَرِ، نادى مُنادي خالدٍ رضي الله عنه: مَن كَان معَه أسِيرٌ فلْيقْتُلْهُ، فقتل بنُو سليم مَن كانَ معهم، وامتنع المهاجرون والأنصار رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهم، وأَرْسَلوا أسرَاهُم، فانطلقَ رَجُلٌ مِن القوم حتّى جاءَ إِلَى النّبيِّ ﷺ وأخبرَه بما فعل خالدٌ، فقال له النبيُّ ﷺ: «هَلْ أَنكرَ عَلَيهِ أَحَدٌ مَا صَنَعَ»؟ قال:

نعم، رَجُلٌ أصفرُ رَبْعَةٌ، ورجلٌ طويلٌ أحمرُ، فقال عمرُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه: يا رسُولَ الله، والله أعرِفُهما، أما الأوّل: فهو ابني فهَذِه صِفَتُه، وأما الثّاني: فهو سَالمٌ مولى أَبِي حُذَيفَةَ، فعند ذلك قال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ» قاله ثَلَاثَ مَرَّات(١).

---

(١) وقعَ من سيّدنا خالدِ بنِ الوليد في هذه السّرية ما هو أعظمُ ممّا حصَل من سيّدنا أسامة بن زيد في سرية غالبِ بن عبد الله اللّيثي؛ من قتلِه للرّجل الذي قال: لا إله إلا الله، حين أهوى عليه أسامةُ بالسّيفِ، وما حصَل مِن مُحلّم بنِ جَثّامة في سَرِيّة أبي قتادة، حينَ قتل عامرَ بنَ الأضْبَطِ، وقد قال: السّلام عليكم. ولكنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم رغْمَ إنكارِه على الجميع في هذا التّصرف لم يتعاملْ مع الثّلاثةِ تعاملاً واحداً، فقدِ استغفرَ لأسامةَ، ودعا على محلّم، وتبرّأ من فعل خالدٍ وجَبَر فعلته بما أرضي به القوم من الدية. وهو في كل ذلك يُرَسِّخُ في الأمّةِ حُرْمَةَ دَمِ المسلم ويُعَظّمُ حُرْمَتَه؛ لئَلّا يُسْفَكَ دَمُ المسلم بالظّنِّ والتّهمَة.

ونُلَاحِظُ في هذه السَّرية أربعةَ أمورٍ مُنكَرَةً على سيِّدنا خالدٍ، **الأوّل**: أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم أمره بدعوة القوم إلى الإسلام فقط، ولم يأمرْه بقتالِهم إذا لم يسلموا، فضلاً عن قِتالهم وهم مسلمون، فكيفَ قاتلهم وقد أعلنوا إسلامهم؟!. **والثاني**: أنه لم يُصَدِّقْهم حين قالوا: نحن مسلمون، صَلّينا وصَدّقنا بمحمَّدٍ ﷺ، وبنينا المساجدَ وأذَّنّا فيها. دون التّثبّت مع أنه لم تظهرْ منهم قرينة تدلّ على كَذِبهم. **والثالث**: أنه أسرَهم دون مُبرّر للأُسْرِ، فقد وضعوا سلاحهم طوعاً ولم يُظْهِرُوا له مخالفةً. **والرابع**: أنه أمرَ بقتلهم وهم أسرى، دون الرجوع للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، مع أنّ قتلَ الأسيرِ لا يُصَارُ إليه إلا إذا اشتدّ خطرُه وعَظُمَت جِنَايتُه، وكان في قتله مصلحة كبرى، وكل ذلك حسب الضرورة.

وخُلاصَةُ الجواب أَنّ سيدنا خالداً قَدْ أخطَأَ في هذا الأمر، ولكنّه إنّما أرادَ بذلك نُصْرَةَ الإسلام وأَهلِه فقد اعتقدَ أَنّهم ينتقصُون الإسلامَ بقولهم: صَبَأْنَا، ولم يَفْهمْ منهم أنّهم اسلمُوا، ولما رأى السِّلاحَ معهم ظنَّ أنّهم سَيُقاتلونَه، ولم يُصَدّقْهم ثمّ أَسَرَهم احتياطاً واحترازاً منهم، وأمرَ بقتلهم لأمرٍ بدا له، وقد كان يَغلِبُ عليه وصفُ الحزْم وشِدّةُ الاحتياطِ والعَزْم، وذاك يُحْمَدُ في المُحَارِبِ، ولذلكَ لم يَعْزِلْه صلى الله عليه وآله وسلم، بل أبقاه أميراً، وإِنْ كانَ قد تَبرّأَ منه في صَنيعِه فقد وَدَى مَنْ قتلَهُم، واعتبرَ ما فعَلَه خَطأً غير مُتَعَمّدٍ.



ثمَّ بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ كَرَّمَ الله وَجْهَه فودَى لهم قَتْلَاهُم، قال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَلِيُّ اخْرُجْ إِلَى هَؤُلَاءِ القَومِ فَانْظُرْ فِي أَمْرِهِمْ»، ودفع إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مالاً، ليَدِيَ بِهِ قتْلَاهم، وليعطيهم منه ما تَلِفَ عليهم من أموَالهم، فَوَدَى قتلاهم، وأعطاهم عِوَضَ ما تَلِفَ عليهم حتّى الإِنَاءَ التي يَشْرَبُ الكَلْبُ فيها، حتّى إذا لمْ يَبْقَ لهُم دَمٌ ولَا مَالٌ، قال: هَل بقيَ لكم دَمٌ أو مَال؟ قالوا: لا، قال: أُعْطِيكُم ما بقيَ من المالِ احتياطاً بَدَلَ مَا لا تعلمون من أموالِكم، ثمَّ رجعَ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبَرَه الخبرَ، فقال له رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَصَبْتَ وَأَحْسَنْتَ».

٤٨ ـ سَرِيَّةُ أَبِي عَامِرِ الأَشْعَرِي

لما انصرَفَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حُنَين، انهزمَ المشركونَ فعَسْكَرتْ طائفةٌ منهم بِأَوْطَاس، فبعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا عامِرِ الأَشْعَرِي وهو عَمَّ أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما في جماعةٍ فيهم أبو موسى الأشعري، فلحقوا بالقوم وتَنَاوَشُوا القِتَالَ، فتكَافَؤُوا فيه، وبارَزَ أبو عامرٍ تِسْعةً، فقتلهم واحداً بعدَ واحِدٍ، ويقالُ: إنهم كانوا إخوة. وصار كلّ مَن برَزَ له منهم يدعوه إلى الإسلام، فيأبي، فيقول: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، ثمّ يحمل عليه فيقتُله، ثمّ برَزَ له أخوهم العاشرُ فقتلَ أبا عامر، فإنّه قال له: أَسْلِمْ، فأبى، فقال: اللَّهُمَّ اشهد، فقال: اللَّهُمَّ لا تَشْهَدْ، وفرش يديه، فظنَّ أبو عامر أنه أَسْلَمَ فكَفَّ عنه، فقتَلَهُ الرَّجلُ. ثم أسلمَ وحَسُنَ إسْلَامُه، وكان إذا رآه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «هَذَا شَرِيدُ أَبِي عَامِرٍ».

ورُوِيَ خِلَافُ ذلِكَ عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، قال:

جئتُ لأَبِي عَامرٍ وفيه رَمَق، فقلتُ: يا عَمُّ، مَن رَمَاك؟، فقال: ذَاك، وأشار إلى شَخْصٍ من القَوم، فقصَدته فلحِقْتُه، فلمّا رآني وَلّى، فاتّبعْتُه، وجعلتُ أقول له: أَلَا تَسْتَحِي، أَلَا تَثْبُتْ؟، فثَبَتَ، فقتَلْتُه، ثمّ قلتُ لأبي عامر: قَدْ قتَلَ الله صاحبَك، قال: فانْزِعْ هَذَا السَّهْمَ، فنزعْتُه، فقال: يا بنَ أخي بَلِّغِ النَّبيَّ ﷺ مِنّي السَّلامَ، وقل له: يَسْتَغْفِر لي، وادْفَعْ فرَسِي وَسِلَاحِي له.

وقبل أَنْ يموتَ أبو عامر رضي الله عنه كان استخلَفَ أبا موسى ودَفَع الرَّاية له، فحمل عليهم فقاتلهم، وفتحَ الله عليهم، وانهزمَ المشركون، فظفرَ المسلمون بالغنائم والسّبايا. ولمّا رجعَ أبو موسى رضي الله عنه إلى رَسُوْلِ الله ﷺ وأخبرَه بموتِ أبي عامر، استغفرَ له رَسُوْلُ الله ﷺ وقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْ أَعْلَى أُمَّتِي فِي الجَنَّةِ»، وفي روايةٍ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يومَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ»، ودعا لأبي موسى، فقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ذَنْبَهُ وَأَدْخِلْهُ يومَ القِيَامَةِ مُدْخَلاً كَرِيماً».

٤٩ ـ سَرِيَّةُ الطُّفَيلِ بنِ عَمْرٍو الدّوسِي

لما أرادَ رَسُوْلُ الله ﷺ المسيرَ إلى الطّائفِ بعثَ الطُّفيلَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه لهَدْمِ ذِي الكَفّين، وهو صنمٌ لعمرو بنِ حُمَيمَةَ الدّوسي، وأمرَه أَنْ يَسْتَمِدَّ قومَه ويُوَافِيَهُ بالطّائفِ، فخرَجَ سريعاً إلى قومِه، فهَدَمَ ذا الكفّين، وجعل يحثي النّار في وجهه، وانحدرَ معه من قومِه أربعمائة سِرَاعاً، فوافوا رَسُوْلَ الله ﷺ بالطّائفِ بعدَ مَقْدَمِهِ بأربعةِ أيام، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الأَزْدِ، مَنْ يَحْمِلُ رَايَتَكُمْ»؟، فقال له الطفيل: مَن كان يحملها في الجاهلية؛ النعمان بن الراوية، قَال: «أَصَبْتُمْ».



٥٠ ـ سَرِيَّةُ عُيَيْنَة بنِ حِصْنٍ الفَزَارِي

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عُيينةَ بنَ حصن الفَزاري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه إلى بني تميم، وسببُ ذلك أن رَسُوْلَ الله ﷺ بعثَ بِشْرَ بنَ سُفْيَان، إلى بني كَعْب لأخذ صَدقَاتِهم، وكانوا معَ بني تَميم على مَاءٍ، فأخذَ بِشْرٌ صَدَقات بني كَعْبٍ، فقال بنو تميم وقد استكثروا ذلك: لمَ تُعْطُوهم أمْوَالكم؟، فاجتَمَعُوا، وأشهَرُوا السِّلاحَ، ومنعوا بِشْراً من أخذِ الصّدقةِ، فقال لهم بنو كعبٍ: نحنُ أسلَمْنَا ولا بدّ في ديننا من دَفْع الزّكاة، فقال بنو تميم: والله لا نَدَعُهُ يخرجُ ببعيرٍ واحِدٍ، فلمَّا رَأى بِشْرٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه ذلك ترك الصدقات لهم، وقدم المدينة، وأخبرَ النبيَّ ﷺ بذلك.

فعند ذلك بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عُيينةَ بنَ حصن الفَزارِيّ إلى بني تميم في خمَسين فارساً من العرب، وليس فيهم مُهَاجري ولا أنصاري، فكانَ يسيرُ في اللّيلِ ويكمنُ في النّهارِ حتى هجم عليهم، فأخذَ منهم أحدَ عشر رجلاً، وإحدى وعشرين امرأةً، وثلاثينَ صَبيّاً فجاءَ بهم إلى المدِينة، فأمرَ بهم رَسُوْلُ الله ﷺ فَحُبِسُوا في دَارِ رَمْلَةَ بنتِ الحارِث، فجاءَ في أثرهم جماعةٌ مِن رُؤَسَائِهم، منهم: عُطَارِدُ بنُ حَاجِب، والزِّبْرِقَانُ بنُ بدْرٍ، والأقرَعُ بنُ حَابس، وقيسُ بنُ الحارث، ونُعَيمُ بنُ سعد، وعمرو بنُ الأَهْتَم، ورِيَاحُ بنُ الحارث، فلمَّا رَأوهم بكَتْ إليهمُ النّسَاءُ والذّرَارِي.

فجاؤوا إلى بابِ النبيِّ ﷺ، بعدَ أَنْ دخلوا المسْجِدَ ووَجَدُوا بلالاً يُؤَذِّنُ بالظّهرِ، والنّاس ينتظرون خرُوجَ رَسُوْلِ الله ﷺ، فاسْتَبْطَؤُوه فجاؤوا من ورَاءِ الحجراتِ، فنَادوا بصَوتٍ عالٍ جَافٍ: يا محمَّدُ، اخرُجْ إلينا نُفاخِرْك

ونُشَاعِرْك ؛ فإن مَدْحَنا زَينٌ وذَمّنا شَينٌ ، فخرج رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقد تأذّى مِن صِيَاحِهم ، وأقامَ بلالٌ رَضِيَ اللهُ تعالَى عَنه الصَّلاة ، فتعلّقوا برَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكَلِّمُونَه ، فوقَفَ معهم ، فقالوا له: نَحْنُ ناسٌ مِن تَميم جِئنا بشَاعِرِنا وخطيبِنا نُشَاعِرُك ونُفَاخِرُك ، فقال لهُم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَا بِالشِّعْرِ بُعِثْنَا ، وَلَا بِالفَخَارِ أُمِرْنَا» ، ثم مَضى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فصَلّى الظّهرَ ، ثم جلسَ في صَحْنِ المسجد.

فأعادوا عليه ما تقدّمَ ، وقالوا له: إنّ مدْحَنا لزَينٌ ، وإنّ شَتْمَنا لشَينٌ ، نَحْنُ أَكْرَمُ العَرَبِ ، فقال لهم رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «كَذَبْتُمْ ، بَلْ مَدْحُ الله عَزَّ وَجَلَّ الزَّيْنُ ، وَشَتْمُهُ الشَّيْنُ ، وَأَكْرَمُ مَنكُمْ يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ عَلَيهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ» ، ثم قالوا له: فَائْذَنْ لخطِيبنا وشَاعِرِنا ، فقال: «أَذِنْتُ ؛ فَلْيَقُمْ». وفي لَفْظٍ: «إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ بِالشِّعْرِ ، وَلَمْ أُومَرْ بِالفَخْرِ ، وَلَكِنْ هَاتُوا» ، فقدموا عُطَارِدَ بنَ حَاجِب ، فقالوا له: اذكر فضْلَك وفَضْلَ قَومِكَ ، فتكَلّمَ وخَطَبَ ، فقال: الحَمْدُ لله الذِي لَهُ عَلَيْنَا الفَضْلُ وَالمَنُّ ، وَهُوَ أَهْلُهُ الذِي جَعَلَنَا مُلُوكاً ، وَوَهَبَ لَنَا أَمْوَالاً عِظَاماً ، نَفْعَلُ فِيهَا المَعْرُوفَ وَجَعَلَنَا أَعَزّ أَهْلِ المَشْرِقِ وَأَكْثَرَهُ عَدَداً ، وَأَيْسَرَهُ عُدَّةً فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النّاسِ؟ ، أَلَسْنَا بِرُءُوسِ النّاسِ وَأُولِي فَضْلِهِمْ؟ ، فَمَنْ فَاخَرَنَا فَلْيُعَدّدْ مِثْلَ مَا عَدّدْنَا ، وَإِنّا لَوْ نَشَاءُ لَأَكْثَرْنَا الْكَلَامَ ، وَلَكِنّا نَحْيَا مِن الإِكْثَارِ فِيمَا أَعْطَانَا ، وَإِنّا نُعْرَفُ بِذَلِكَ ، أَقُولُ هَذَا لِأَنْ تَأْتُوا بِمِثْلِ قَوْلِنَا ، أَو أَمْرٍ أَفْضَلَ مِنْ أَمْرِنَا. ثُمّ جلسَ.

فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لثَابِتِ بنِ قَيسِ بنِ الشّمّاسِ الخَزْرَجِي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه: «قُمْ ؛ فَأَجِبْ الرّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ». فقامَ ثَابِتٌ فَقَالَ: الحَمْدُ لله ، الذِي السّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ خَلْقُهُ ، قَضَى فِيهِنّ أَمْرَهُ وَوَسِعَ كُرْسِيّهُ عِلْمُهُ ، وَلَمْ يَكُ شَيْءٌ

قَطّ إلّا مِنْ فَضْلِهِ، فكَانَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَنْ جَعَلَنَا مُلُوكًا، وَاصْطَفَى مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ رَسُولاً، أَكْرَمَهُ نَسَباً، وَأَصْدَقَهُ حَدِيثاً، وَأَفْضَلَهُ حَسَباً، فَأَنزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ وَأْتَمَنَهُ عَلَى خَلْقِهِ، فكَانَ خِيرَةَ الله مِنَ العَالَمِينَ، ثُمّ دَعَا النّاسَ إِلَى الإِيمَانِ بِهِ، فَآمَنَ بِرَسُولِ الله المُهَاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ أَكْرَمُ النّاسِ حَسَباً، وَأَحْسَنُ النّاسِ وُجُوهاً، وَخَيْرُ النّاسِ فِعَالاً، ثُمّ كَانَ أَوّلَ الخَلْقِ إِجَابَةً لله تعالى حِينَ دَعَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْنُ، فَنَحْنُ أَنْصَارُ الله وَوُزَرَاءُ رَسُولِهِ، نُقَاتِلُ النّاسَ حَتّى يُؤْمِنُوا بِالله، فَمَنْ آمَنَ بِالله وَرَسُولِهِ مَنَعَ مِنّا مَالَهُ وَدَمَهُ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي الله أَبَداً، وَكَانَ قَتْلُهُ عَلَيْنَا يَسِيراً. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ الله لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ، وَالسّلَامُ عَلَيْكُمْ.

ثم قام الزّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ فقال أبياتاً يذكر فيها فضْلَه وفضلَ قومِه، منها:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَيّ يُعَادِلُنَا ... مِنّا المُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ البِيَعُ

وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الأَحْيَاءِ كُلّهِمْ ... عِنْدَ النّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزّ يُتّبَعُ

إِنّا أَبَيْنَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ ... إِنّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحسَّانَ: «قُمْ فَأَجِبْهُ»، فقال أبياتاً، منها[1]:

(١) كذا ذكر المصنف رَحِمَهُ اللهُ تعالى أنّ هذا رَدُّ حسّان على ما تقدّمه من الأبيات، وهو غير موافق للقافية، ولعلّ هذه الأبيات كانت جَواباً على شعرٍ آخر، لأنّ المفاخرةَ بينهم أخذَتْ أكثرَ من شِعْرٍ، والمُثْبَتُ عند ابن إسحاقٍ وغيرِه أبياتاً أخرى، وهي موافقةٌ لأبيات الزّبْرِقَان في الوزن والقافية، ومن تلك الأبيات قوله:

إنّ الذّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيّنُوا سُنّةً لِلنّاسِ تُتّبَعُ

يَرْضَى بِهِمْ كُلّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْوَى الْإِلَهِ وَكُلّ الْخَيْرِ يَصْطَنِعُ

قَوْمٌ إذَا حَارَبُوا ضَرّوا عَدُوّهُمْ ... أَوْ حَاوَلُوا النّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا =

نَصَـرْنَا رَسُـولَ اللهِ وَالدِّينَ عُنْوَةً ... عَلَى رَغْمِ عَاتٍ مِنْ بَعِيدٍ وَحَاضِـرِ
وَأَحْيَاؤُنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِيءَ الحَصَـا ... وَأَمْوَاتُنَـا مِنْ خَيْرِ أَهْـلِ المَقَـابِرِ

ووقعت مُفَاخَرةٌ بينَ الأقرَع بن حابس وبين حسّان بن ثابت، فقال الأقرعُ بنُ حابس: يا محمّدُ، إنّي واللهِ قد قُلْتُ شعراً فاسمَعْه، فقال له ﷺ: «هَات»، فأنشد:

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْرِفَ النَّاسُ فَضْلَنَا ... إِذَا خَالَفُونَـا عِنْـدَ ذِكْـرِ المكَـارِمِ
بِأَنَّا رُؤُوسُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ مَعْشَـرٍ ... وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الحِجَازِ كَدَارِمِ

فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «قُمْ يَا حَسَّانُ فَأَجِبْهُ»، فقال حَسَّانُ قصيدةً، منها:

بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنَّ فَخْرَكُمْ ... يَعُودُ وَبَـالاً عِنْـدَ ذِكْرِ المَكَـارِمِ

= سَـجِيَّـةٌ تِلْـكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَـةٍ ... إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعْلَمْ شَـرُّهَا الْبِدَعُ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَـبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ ... فَكُـلُّ سَـبْقٍ لِأَدْنَى سَـبْقِهِمْ تَبَعُ
إِنْ سَـابَقُوا النَّاسَ يَوْمًا فَازَ سَـبْقُهُمُ ... أَوْ وَازَنُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالنَّدَى مَتَعُوا
أَعِفَّـةٌ ذُكِرَتْ فِي الْوَحْيِ عِفَّتُهُمْ ... لَا يَطْمَعُونَ وَلَا يُرْدِيهِمُ طَمَعُ
لَا يَبْخَلُونَ عَلَى جَـارٍ بِفَضْـلِهِمُ ... وَلَا يَمَسُّـهُمُ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَعُ
لَا يَفْخَرُونَ إِذَا نَـالُوا عَـدُوَّهُـمُ ... وَإِنْ أُصِـيبُوا فَلَا خُورٌ وَلَا هُلُعُ
خُذْ مِنْهُمْ مَا أَتَى عَفْوًا إِذَا غَضِـبُوا ... وَلَا يَكُنْ هَمَّكَ الْأَمْرَ الَّذِي مَنَعُوا
فَـإِنَّ فِي حَرْبِهِمْ فَـاتْرُكْ عَـدَاوَتَهُمْ ... شَـرّاً يُخَاضُ عَلَيْهِ السُّـمُّ وَالسَّـلَعُ
أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُـولُ اللهِ شِـيعَتُهُمْ ... إِذَا تَفَـاوَتَـتْ الْأَهْوَاءُ وَالشِّـيَعُ
فَـإِنَّهُمْ أَفْضَـلُ الْأَحْيَـاءِ كُلِّهِمُ ... إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا

لَنَا خَوَلٌ مَا بَيْنَ ظِئْرٍ وَخَادِمِ(١) هَبِلْتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمُ

فقال رَسُوْلُ الله ﷺ لِلأَقْرع: «لَقَدْ كُنْتَ غَنِيًّا يَا أَخَا بَنِي دَارِمٍ أَنْ تَذْكُرَ مَا كُنْتَ تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ نَسُوهُ»، فكان هذا القول من رَسُوْلِ الله ﷺ أَشَدَّ عليهم من قولِ حسَّانَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه. ثم قَالَ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ: وَأَبِي؛ إنّ هَذَا الرَّجُلَ لَمُؤَتَّى لَهُ، لَخَطِيبُهُ أَخْطَبُ مِنْ خَطِيبِنَا، وَلَشَاعِرُهُ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا، وَلِأَصْوَاتِهِمْ أَعْلَى مِنْ أَصْوَاتِنَا. ثم دنا من النّبيِّ ﷺ فقال: أَشْهَدُ أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَذَا».

ثمّ أسلمَ القومُ، وكانوا سبعين رجلاً، وبقوا في المدينة مُدَّةً يتعلمون الدّينَ

---

(١) **الخوَلُ**: الخدم والحشم من الإماء العبيد، **والظِّئْرُ**: يطلق على مَعَانٍ عِدّة، والمراد به هنا الذّليلُ المُنْقَاد، ومُرَادُ حسّان تذكيرَهم بالعَارِ الذي لحقهم من سَبْيِ نِسَائِهم وذَرَارِيهم. وقبل هذين البيتين يقول:

هَل المَجْدُ إلّا السّودَدُ العَوْدُ وَالنَّدَى وجَاهُ المُلُوكِ وَاحْتِمَالُ العَظَائِمِ
نَصَرْنَا وَآوَيْنَا النَّبِيَّ مُحَمّدًا عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمِ
نَصَرْنَاهُ لمّا حَلَّ وَسْطَ دِيَارِنَا بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمِ
جَعَلْنَا بَنِينَا دُونَهُ وَبَنَاتَنَا وَطِبْنَا لَهُ نَفْساً بِفَيْءِ المَغَانِمِ
وَنَحْنُ ضَرَبْنَا النَّاسَ حَتّى تَتَابَعُوا عَلَى دِينِهِ بِالمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَهَا وَلَدْنَا نَبِيَّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمِ

ثم يقول بعد هذين البيتين:

فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقْنِ دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تُقْسَمُوا فِي المَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُوا لله نِدّاً وَأَسْلِمُوا وَلَا تَلْبَسُوا زِيّاً كَزِيِّ الأَعَاجِمِ

والقرآنَ، ثم أرادوا الخروج إلى قومِهم فأعطاهم النبيُّ ﷺ أسْرَاهم ونساءَهم، وأحسن جَوَائِزَهم، فأعطى كلّ واحدٍ منهم اثني عشر أوقية، وقال لهم: «أَمَا بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ»؟، وكان عمرو بن الأهتم في رِكابهم، فقال قيس بن عاصم وكان مُشَاحِناً له: لم يَبْقَ إلا غُلَامٌ في رِكابنا، وَأَزْرَى بهِ، فأعطاهُ ﷺ مثل ما أعطَاهم، وبلغَ عمراً ما قال قيسٌ في حَقّهِ، فأنشدَ أبياتاً يلومُه فيها. وأنزلَ الله في وفدِ تميم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤ ـ ٥].

٥١ ـ سَرِيَّةُ قُطْبَة بنِ عَامِر

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ قُطْبَةَ بنَ عامر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في عشرين رجلاً إلى حيٍّ مِن خَثْعَم، وأمرَه أنْ يَشُنَّ الغَارةَ عليهم، فخرجوا على عشرةِ أَبْعِرَةٍ يعْتَقِبُونَها، ثمّ أخذوا رَجُلاً فسألوه فاسْتَعْجَمَ عليهم، ولم يُعْلِمْهُم بالأَمرِ، ثمّ جعلَ يصيحُ بالقوم، فضربوا عُنقَه، ثمّ أمهلوهم حتّى ناموا، فشَنّوا الغارةَ عليهم، واقتتلوا معهم قتالاً شديداً، حتى كثر الجرْحَى في الفريقين، ثمّ ساقوا النّعَمَ والشّاءَ إلى المدينة.

٥٢ ـ سَرِيَّةُ الضَّحَّاك

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ الضَّحَّاكَ الكِلَابي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في جمع إلى بني كِلَاب، فلمّا لقوهم دعوهم إلى الإسلام، فأبوا، فقاتلوهم، فهزموهم، وكان من جُملَةِ المسلمين شخصٌ لَقِيَ أباه في جملة القوم، فدعاه إلى الإسلام فسَبَّه وسَبَّ الإسلامَ، فضربَ عرْقُوبَ فَرَسِ أبيهِ فوقع، فأمْسَكَ أباه، إلى أَنْ أتى

بعضُ المسلمين فقتلَه.

وفي روايةٍ: أنه ﷺ بعثَ لبني كِلَابٍ، وكتبَ إليهم في رِقٍّ، فلم ينقادوا للإسلام، وغسلوا الخطَّ مِن الرّقِّ، وخَاطُوهُ تحتَ دَلْوِهِم، فلمَّا بلغَ النبيَّ ﷺ ذلك، قال: «مَا لَهُمْ؟، أَذْهَبَ الله عُقُولَهُمْ»، فصار لا يوجدُ أَحَدٌ منهم إلا مُخْتَلَّ العَقل، مُختَلِطَ الكلامِ بحيثُ لا يُفْهَم كَلَامُه بدعوةِ النبيِّ ﷺ.

٥٣ ـ سَرِيَّةُ عَلْقَمَة بن مُجَزِّز

بلغَ رَسُوْلَ الله ﷺ أَنَّ ناسَاً مِنَ الحَبَشةِ تَراآهم أهلُ جُدَّة في مَرَاكِبٍ، فبعثَ إليهم عَلْقَمَةَ بنَ مُجَزِّزٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما في ثلاثمائةٍ، فخاضَ بهم البحرَ حتى أتوا إلى جزيرةٍ في البحر، فهربوا، ورجعوا ولم يلقوا كيداً. وفي أثناءِ الطّريق أَذِنَ عَلْقَمَةُ لجماعةٍ أَنْ يُعَجِّلُوا وأَمَّرَ عليهم أَحَدَهم، فنزلوا ببعض الطريق، وأوقدوا ناراً يَصْطَلُون عليها، فقال لهم أميرُهم: عزَمْتُ عليكم أنْ تَتَواثبُوا وأَنْ تَقَعُوا في هذه النّار، فقام بعضُ القوم فحَجَزُوا، حتى ظنَّ أنهم واثِبُون فيها، فقال: اجلسُوا، إنمّا كنت أضحك معكم، فلما ذكروا ذلك لرَسُوْلِ الله ﷺ قال: «مَنْ أَمَرَكُمْ بِمَعْصِيَةِ الله فَلَا تُطِيعُوهُ».

وعن عليٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَه قال: بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ سَرِيّةً، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرَهم أَنْ يسمعوا له ويطيعوا، فأغضَبُوه في شيءٍ، فقال لهم: اجمعوا لي حَطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، ثمّ قال: ألم يأمركم رَسُوْلُ الله ﷺ أنْ تسمعوا لي وتطيعوا؟، فقالوا: بلى، قال: فادْخُلوها، فنظرَ بعضُهم إلى بعضٍ وقالوا: إنّا فرَرْنَا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ

من النَّارِ. فكان كذلك حتّى سَكَن غضَبُه وطَفِئَتِ النّارُ، فلمّا رجعوا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ ذكروا له ذلك، فقال: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبداً». وقال لهم ﷺ: «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَإِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي المَعْرُوفِ». والضّميرُ في «دَخَلُوهَا» للنّار التي أوقِدَتْ، والضّمِيرُ في «مِنْهَا» لنار الآخرة، لأَنَّ الدّخولَ فيها معصيةٌ والعاصي يسْتَحِقّ النار، والمقصُودُ من ذلك الزّجْرُ.

٥٤ ـ سَرِيَّةُ عليٍّ بنِ أَبي طَالِب

بعَثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طَالبٍ كَرَّمَ الله وَجْهَه في خمسين ومائةِ رجل من الأنصار، على مائةِ بعيرٍ وخمسين فرَساً، معه رايةٌ سَوداءُ ولواءٌ أَبيضُ إلى هَدْمِ صَنَم طَيْءٍ، والغَارةِ عَليهم، وكانَ صَنَمُهم يُقالُ له: الفُلْسُ، فشَنّوا الغارةَ عليهم مع الفَجْر، فهَدمُوا الفُلْسَ وأحرَقوه، واسْتاقوا النّعَمَ والشّاءَ والسَّبْيَ، وكان في السَّبْيِ أخْتُ عَدِيٍّ بنِ حَاتِم الطّائِي، واسمُها سَفّانَة، ووجدوا في خِزَانَةِ الصَّنَم ثلاثةَ أَدْرَاع، وثلاثةَ أَسْيَافٍ، كانت معروفةً عند العرب، وهي: الرَّسُوبُ، والمِخْذَمُ، واليَماني، فصارتْ لرَسُوْلِ الله ﷺ، وَمَرَّ النّبيُّ ﷺ بأُخْتِ عَدِيٍّ، فقامَتْ إليه، وكانتِ امرَأةً ذاتَ وقارٍ وعَقْل، فكَلَّمَتْهُ ﷺ في أَنْ يَمُنّ عليها، فمَنَّ عليها، فأسلمَتْ رضي الله عنها، ثمّ خرَجَتْ إلى أَخِيهَا عَدِيٍّ فأشارَت إليه بالقدوم على رَسُوْلِ الله ﷺ.

ويُذْكَرُ أنّها قالتْ له ﷺ: يا محمّدُ، أرَأَيتَ أنْ تُخَلّي عنّا، ولا تُشْمِتْ بنا أحياءً مِن العرب، فإنّي ابنة سَيّد قومِي حَاتِمِ الطّائي، وإنّ أَبي كانَ يحمِي الذّمَارَ، ويَفُكّ العَاني، ويُشبعُ الجائِعَ، ويكسُو العَارِي، ويُقْري الضّيفَ، ويطعمُ

الطَّعَامَ، ويُفْشِي السَّلامَ، ولم يَرُدّ طالبَ حَاجةٍ قَطّ، فقال لها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا جَارِيَة، هَذِهِ صِفَةُ المؤْمِنِينَ حَقّا، لَوْ كَانَ أَبُوكِ مُسْلِماً لَتَرَحَّمْنَا عَلَيه»، ثم قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: «خَلّوا عَنْهَا فَإِنَّ أَبَاهَا كَانَ يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ، وَإِنَّ الله يُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ».

وفي روايةٍ: أنّها قالت له: يا رسولَ الله، هلك الوَالِدُ، وغَابَ الوَافِدُ، فامْنُنْ عليَّ مَنَّ الله عليك. فقال: «وَمَنْ وَفْدُكِ»؟ قالت: عَدِيّ بنُ حَاتِم، فقال: «الفَارُّ مِنَ الله وَرَسُولِهِ». قالت: ثمّ مضى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتَرَكني، حتّى إذا كان مِنَ الغَدِ قلتُ له كذلك وقال لي مثل ذلك، ففي اليوم الثالث أشارَ إليَّ رَجُلٌ خَلْفَه بِأَنْ كَلِّمِيهِ، فكَلَّمْتُه، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ فَعَلْتُ، فَلَا تَعْجَلي حَتَّى يَجِيءَ مِنْ قَومِكِ مَنْ يَكُونُ لَكِ ثِقَةً يُبَلِّغُكِ إِلَى بِلَادِكِ فَآذِنِينِي»، ثم سألتُ عن الذي أشارَ عليَّ بكلامِه، فقِيلَ لي: إنّه عَليُّ بنُ أبي طالب، فصَبَرْتُ حتى قَدِمَ عليَّ مَن أَثِقُ به، فجئتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ: قَدِمَ رَهْطٌ مِن قَومِي لي فيهم ثِقَةٌ، فكَسَاني، وحمَلني، وأعطَاني نَفَقَةً، فخرَجْتُ حتّى قَدِمْتُ على أَخِي.

٥٥ ـ سَرِيَّةُ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِب

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا كَرَّمَ الله وَجْهَه، إلى بلادِ مَذْحِج مِن أَرْضِ اليمن في ثلاثمائةِ فارسٍ، وعقدَ له لواءً، وعمَّمَه بيَدِه، وقال: «امْضِ وَلَا تَلْتَفِتْ، فَإِذَا نَزَلْتَ بِسَاحَتِهِمْ فَلَا تُقَاتِلْهُمْ حَتّى يُقَاتِلُوكَ»، فكانت أوّل خيل دَخلتْ إلى تلك البلاد، ففرَّقَ عَليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أصحابَه، فأتوا بِنَهْبٍ وغَنَائِمَ وأَطفَالٍ ونساءٍ ونَعَمٍ وشَاءٍ، وغير ذلك.

ثمّ جعلَ عليٌّ علَى الغَنائِم بُرَيدةَ بنَ الحُصَيب، ثُمّ لَقِيَ جمعَهُم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموه بالنبل والحِجَارة، فصَفّ أصحابَه، ودفعَ لواءَه إلى مَسْعُودِ بنِ سِنَان، ثمّ حمَل عليهم فقتلَ منهم عِشْرِينَ رَجُلاً، فانهزموا وتفرقوا، فكفّ عَن طلَبِهم، ثم إنّه دعَاهم إلى الإسلام، فأسرعَ إلى إجَابتِه ومُتابعتِه نفرٌ من رُؤسائهم، وقالوا: نحن على من وراءنا من قومِنا، وهذه صَدقَاتنا، فخذ منها حقّ الله تعالى. وجمعَ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه الغنَائمَ، فجَزّأهَا على خَمسَةِ أجْزَاء، فأخرَجَ أوّلَ السِّهَام سَهْمَ الخمُس، وقسَّمَ الباقي على أصحابِه، ثمّ رجعَ فوَافى النبيَّ ﷺ بمَكَّةَ حين قدمها لحجَّةِ الوَداع.

٥٦ ـ سَرِيَّةُ خَالدِ بن الوليد

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ خالدَ بنَ الوَليد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في أربعمائة وعشرين فارساً في رَجَب سنة تسع، إلى أُكَيْدِرِ بدَوْمَةِ الجَنْدَل، وقال له: «إنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيْدُ الْبَقَرَ»، فخرجَ خالدٌ حتى إذا كان من حصْنِه بمَنْظَرِ العَين، وكانت ليلةٌ مُقْمِرَةٌ صَافِيَةٌ، وهو على سطح له ومعه امرأته، فجاءَتْ البقرُ تحكّ بقرُونِها بابَ الحِصْن، فَقَالَتْ له امرَأته: هل رأيتَ مثل هذا قطّ؟، قال: لا والله، قالَتْ: فمَنْ يَتْرُكُ هذه؟، قال: لا أحَدٌ، فنزلَ فأمر بفَرسِه فأُسْرِجَ، وركبَ معَه نفرٌ من أَهلِه، فيهم أَخٌ له يقال له: حَسَّان، فتلقّتْهُم خيلُ خَالدِ فاسْتَأْسَرَ أُكَيْدِرَ، وقاتَل أخُوه حتّى قُتِلَ، وأَجَارَ خالدٌ أُكَيدِرَ من القَتل حتّى يأتيَ بهِ رَسُوْلَ الله ﷺ على أَنْ يَفْتَحَ له دَومَةَ الجَنْدَل، ثُمَّ خرَجَ خالدٌ به إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فصَالحه على الجِزْيَةِ على نفْسِه وعلى أَهْل دَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وكانتِ الجزْيَةُ ألفي بعيرٍ، وثمانمائة رأس، وأربعمائة دِرْع، وأربعمائة رُمْح، فحَقَنَ دَمَهُ وخلّى سَبيلَه.

وكتبَ لهم كتاباً فيه أمانهم وختَمَهُ يومئذٍ بظُفرِه. ثمَّ إنّ خَالِداً حاصرَه في زَمَن أبي بكرٍ الصّديق فقتَلَه لنقْضِه العَهْد.

٥٧ ـ سَرِيَّةُ أُسامَة بن زيد

لمّا كَانَ يومُ الاثنين لأَربعِ ليَالٍ بقينَ مِن صَفر سنة إحدى عشرة مِن الهجرةِ أمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ بالتّهَيُّؤ لغزوِ الرُّومِ، فلمّا كانَ من الغَدِ دعَا ﷺ أسامَةَ بنَ زيدٍ رضي الله عنهما، فقال له: «سِرْ إِلَى مَوْضِعِ قَتْلِ أَبِيْكَ فَأَوْطِئْهُمْ الخَيْلَ، فَقَدْ وَلَّيْتُكَ هَذَا الجَيْشَ، فَاغْزُ صَبَاحاً عَلَى أَهْلِ أُبْنَى، وَأَسْرِعْ السَّيْرَ لِتَسْبِقَ الأَخْبَارَ، فَإِنْ أَظْفَرَكَ الله عَلَيْهِمْ فَأَقِلَّ اللُّبْثَ فِيْهِمْ، وَخُذْ مَعَكَ الأَدِلّاءَ، وَقَدِّمِ العِيُونَ وَالطَّلَائِعَ مَعَكَ». وأُبْنَى: اسْمُ مَوضِعٍ بين عَسْقَلان والرَّمْلَة، وقيل: هي قريةٌ عند مُؤْتَة، التي قتل عندها زيد بن حارثة.

فلما كان يوم الأربعاء بدأ بهِ ﷺ وجَعُهُ، فَحُمَّ وصُدِعَ، فلمّا أصبحَ يوم الخميس عقدَ ﷺ لأُسَامَةَ لِوَاءً بِيَدِه، ثم قال: «اغزُ بِاسْمِ الله وَفِي سَبِيلِ الله، وَقَاتِلْ مَنْ كَفَرَ بِالله»، فخرجَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بلِوَائِه مَعْقُوداً، فدفعَه إلى بُرَيدَةَ، وعسْكَرَ بالجُرْفِ، فلم يبْقَ أَحَدٌ من وجُوه المهاجرين والأنصار إلا اشْتَدَّ لذلك، منهم: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم.

فتكَلّمَ قومٌ، وقالوا: يسْتَعْمِلُ هذا الغُلام على المهاجرين الأولين والأنصار!؟، لأَنّ سِنّ أُسَامةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يَومَئِذٍ كان ثمان عشرة، ولما بلغَ رسولَ الله ﷺ مقالَتُهم وطَعْنُهم في ولايتِه معَ حَدَاثَةِ سِنِّهِ غَضِبَ غضباً

شديداً، ثم خرجَ وقد عصَبَ على رأسِه عِصَابةً وعليه قطِيفَةٌ، وصَعدَ المنبرَ، فحَمِدَ اللهَ تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، أَيُّها النَّاسُ، مَا مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْ بَعْضِكُمْ فِي تَأْمِيرِي أُسَامَةَ؟، وَلَئِنْ طَعَنْتُمْ فِي تَأْمِيرِي أُسَامَةَ لَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَتِي أَبَاهُ مِنْ قَبْلِهِ، وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لَخليقاً بالإِمَارَةِ، وَإِنَّ ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ لَخليقٌ بالإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّهُما مَظَنَةٌ لِكُلِّ خيرٍ، فَاسْتَوصُوا بِهِ خيراً فَإِنَّهُ مِنْ خِيَارِكُمْ». وقد كان يُقَالُ لأسامة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: الحِبُّ ابنُ الحِبِّ. وكانَ رَسُوْلُ الله ﷺ يمْسَحُ خُشْمَهُ وهو صَغِيرٌ بثوبِه.

ثمّ نزلَ ﷺ من المنبر فدخَل بيتَه، وذلك في يوم السَّبْتِ لعشرٍ خَلونَ مِن شهرِ ربيع الأول سنة إحدى عشرة، وجاءَ المسلمون الذين يخرجون مع أسامةَ يُوَدِّعُونَ رَسُوْلَ الله ﷺ ويخرجون إلى العَسْكَرِ بالجُرْفِ، وثَقُلَ رَسُوْلُ الله ﷺ بسبب المرض، فجَعل يقولُ لهم: «أَرْسِلُوا بَعْثَ أُسَامَةَ»، واسْتَثْنَى رَسُوْلُ الله ﷺ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه؛ لأنه أمرَه بالصّلاة بالناس.

فلمّا كانَ يَومُ الأَحَدِ اشْتَدَّ على رَسُوْلِ الله ﷺ وجَعُه، فدخلَ أُسَامَةُ مِن عسْكَرِهِ والنّبيُّ ﷺ مَغْمُورٌ، فطَأْطَأَ رَأسَه فَقَبَّلَهُ، وهو ﷺ لا يتكَلّمُ، وجعَلَ يرفعُ يديه إلى السّماءِ ثمّ يضَعُهما على أسَامَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه. قال أسامةُ: فعرفتُ أنه ﷺ يدعو لي، ورجعَ أسامةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إلى مُعَسْكَرِه، ثم دَخَل عليهِ ﷺ يَومَ الاثنينِ، فقال له ﷺ: «اغْدُ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ تَعَالَى»، فوَدّعه أسامةُ، ثم خرجَ إلى مُعَسْكَرِه، وأمر النّاسَ بالرَّحِيل، فسارُوا حتى إذا بلَغَ ذِي خَشَبٍ، أرسَلَتْ إليه امرَأته فاطمةُ بنتُ قَيس، تقول له: لا تَعْجَلْ، فإنّ رَسُوْلَ الله ﷺ ثَقِيلٌ، فأَقبلَ رَاجِعاً وأقبلَ معه عُمَرُ

وأبو عبيدة بنُ الجرَّاح رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهم، فما انتهوا إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وقَد تُوفّيَ، فدخل بُرَيدَةُ بلواءِ أُسَامةَ حتّى أتى به إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغَرَزَه عند بابِه، فلمَّا أَنْ بُويعَ لأبي بكرٍ بالخِلَافَةِ أَمَرَ أبو بكرٍ بُرَيدةَ أَنْ يذْهَبَ باللّواءِ إلى أسامةَ؛ ليَمْضِيَ لما أُمِرَ به.

ولما ماتَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْتَدَّت العَرَبُ، وظَهَرَ النّفاقُ، وقَوِيَتْ نفوسُ أهل النّصرانية واليهودية، وصارَتِ المسلمون كالغَنَم المطيرة في اللّيلةِ الشَّاتِيةِ، وطَوَائِفُ من العَرَبِ قالوا: نصلي ولا ندفع الزّكاةَ، وعند ذَلك كَلّمَ جمع من الصَّحابة أبا بكرٍ في مَنْعِ أُسَامةَ من السَّفر، وقالوا له: كيف يتَوَجّه هذا الجيش إلى الرّوم وقَدِ ارْتَدَّتِ العَرَبُ حولَ المدينة؟!، فأبى، وقال لهم: والله الذي لا إله إلا هو لو جَرَّتِ الكِلَابُ أَرْجُلَ أَزْوَاجِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أَرُدُّ جَيشاً وَجَّهَهُ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا حَلَلْتُ لواءً عقَدَه، والله لأَنْ تخطفني الطّيرُ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أبدَأ بشيءٍ قبْلَ أَمْرِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فلمَّا كانَ هِلالُ شهرِ ربيع الآخر سنة إحدى عشرة خرَج أُسَامةُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه في ثلاثةِ آلافٍ، فيهم ألفُ فَرَسٍ، وَوَدَّعَه سيِّدُنا أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه بعدَ أَنْ سَارَ إلى جَنْبِه سَاعةً مَاشِياً، وأُسَامةُ رَاكبٌ، وعبدُ الرّحمن بنُ عوفٍ يقودُ بِرَاحِلَةِ الصّديق، فقال أسامةُ: يا خليفةَ رسُولِ الله إمَّا أنْ تَرْكبَ وإمَّا أنْ أَنْزِلَ، فقال: والله لَسْتَ بنازِلٍ ولسْتُ بِرَاكِبٍ، ثمّ قال له: أَسْتَودِعُ الله دينك وأمانتَك وخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ. ثمّ كلّمَه في أَنْ يأْذَنَ لعُمَرَ بالتَّخلُّفِ، ففعلَ.

ثمّ إنّ أسامةَ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه سارَ إلى أهل أُبْنَى، فشَنَّ عليهمُ الغارةَ، وفرَّقَ النّاسَ عليهم، فقتَلَ مَن قتَلَ وأَسرَ مَن أَسَرَ، وحَرَّقَ مَنازِلَهم، وحرَّقَ

أرضَهم وأزَالَ نَخْلَها، وأَجَالَ الخيلَ في عرَصَاتِها، ولم يُقْتَلْ مِنَ المسلمين أَحَدٌ. وكانَ أسامَةُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه على فَرَسِ أَبيهِ وقتَلَ قَاتِلَ أَبيهِ، وأَسْهَم للفَرَسِ سَهْمَينِ وللفَارِسِ سَهماً، وأَخَذَ لِنَفْسِه مِثْلَ ذلك، فلمَّا أَمْسَى أَمَرَ النَّاسَ بالرَّحِيلِ، وأَسرَعَ السَّيرَ، وبعثَ مُبَشِّراً إلى المدينةِ بِسَلامتِهم، فخرَجَ أبو بكرٍ في المهاجرين والأنصار ممّن لم يكن في السَّرِيَّة يتلقّون أسامةَ ومن معه، وسُرُّوا بسَلامَتِهم، ودخَلَ أسَامَةُ واللّوَاءُ بينَ يديهِ حتّى انتهى إلى بابِ المسجدِ، ثمَّ انصرَفَ إلى بيته. وقد كان في خُروجُ هذا الجيش نِعْمَةٌ عظيمةٌ؛ فإنّه كان سبباً لعَدَمِ ارْتِدَادِ كثيرٍ من طَوَائف العرَبِ، فإنّهم قالوا: لولا قُوَّةُ أصحابِ مُحمَّدٍ ﷺ ما خَرَجَ هؤلاءِ. ثمّ ثبتُوا على الإسلام.

وَفِي السَّنَةِ الثّامِنَة أَمَرَ رَسُوْلُ الله ﷺ عتّابَ بنَ أَسيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أَنْ يَحُجَّ بالنّاسِ وهوَ بمَكَّةَ، وقد كان ﷺ استَعْمَلَه عليها لما أرادَ الخروج إلى حنين، واستمرّ أَميراً على مَكَّةَ حتّى تُوفيَ رَسُوْلُ الله ﷺ، ثمَّ أَقَرّهُ الصِّديقُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إلى أن تُوفِّي، وكان ذلك الحجُّ على ما كانت عليه العرب في الجاهليّة فحَجّ الكُفّارُ مع المسلمين، لكِنْ كان المسلمون بمعْزِلٍ عنهم في الموقَف.

وفي سَنَةِ تِسْع استعملَ رَسُوْلُ الله ﷺ أبا بكرٍ الصّديق رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه على الحَجِّ، فخرَجَ في ثَلاثِمائةِ رَجُلٍ مِنَ المدينةِ، وبعثَ معه ﷺ بعشرين بَدَنَةً كانَ ﷺ قد قلّدَها وأَشْعرَها بيدِه الشّريفةِ، وساق أبو بكر خمْسَ بُدُنٍ، ثمّ تَبِعَهُ عليٌّ كَرّمَ الله وَجْهَه على ناقةِ رَسُوْلِ الله ﷺ القَصْوَاء، فقال أبو بكرٍ: اِسْتَعْمَلَكَ رَسُوْلُ الله ﷺ على الحَجِّ؟، قال: لا،

ولكن بعثني أقرأُ بَراءَةَ على النّاسِ وأَنبِذُ إلى كُلّ ذِي عَهْدٍ عَهْدَه. وكان بين رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين المشركين عهْدٌ عامٌّ وخَاصٌّ، فالعام: أَنْ لَا يُصَدَّ أَحَدٌ عَن البَيتِ جاءَه، ولا يُخَافَ أَحَدٌ في الأشهر الحرُم، والخاص: بين رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين قَبائِلِ العَرَبِ إلى آجَالٍ مُسَمَّاةٍ.

وقد كان نزولُ صَدْرِ بَرَاءَةَ بعدَ سَفَرِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فقيل له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو بعثت بها إلى أبي بكرٍ، فقال: «لَا يُؤَدِّي عَنِّي إلّا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيتِي». ثم دعَا عليّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه، فقال: «اخْرُجْ بِصَدْرِ بَرَاءَة، وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ يَومَ النَّحْرِ إِذَا اجْتَمَعُوا بِمِنَى»، فقرأ عليُّ بن أبي طالب كَرَّمَ الله وَجْهَه بَراءَةَ يوم النحر، وهو يوم الحج الأكبر عند الجمرة الأولى، وقال: لا يَحُجْ بعد هذا العام مُشركٌ، ولا يَطُفْ بالبَيتِ عُريانٌ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: أمرَني عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه أَنْ أطوفَ في المنازلِ مِن منى ببراءَةَ، فكنتُ أصيحُ حتَّى صَحِلَ حَلْقِي، فقيل له: بماذا كنتَ تُنادِي؟، فقال: بأربع: أَنْ لا يدخل الجنّةَ إلا مؤمنٌ، وأَنْ لا يحجّ بعد العام مُشركٌ، وأَنْ لا يطوفَ بالبيتِ عريانٌ، ومَن كان له عهدٌ فله عهدُ أربعةِ أشهرٍ ثمّ لا عهد له، وأوّل تلك الأربعة يوم النّحر من ذلك العام. وقد كان المشركون إذا سمعوا النداءَ ببراءة يقولون: سَتَرَونَ بعدَ الأربعةِ أَشْهُرٍ، فإنّه لا عَهْدَ بيننا وبينَ محمَّدٍ إلا الطّعْن والضّرب!.

وإنّما أمرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما ذُكِرَ، لأنّهم كانوا يحجّون مع المسلمين، ويرفعونَ أصواتَهم بقولهم: لا شريكَ لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ويطوفُ رجالٌ منهم عُرَاةٌ ليسَ على رَجُلٍ منهم ثوبٌ، فيقولُ الواحدُ منهم: أطوفُ

بالبيتِ كمَا ولدتني أمّي ليسَ عليَّ شيءٌ من الدّنيا خَالَطَه الظّلمُ، ولا مِن الثّيابِ التي قَارَفْنا فيها الذّنُوبَ!. وكان لا يطوف الواحد منهم بثوبٍ إلا بثوبٍ من ثيابِ الحُمْسِ؛ وهم قريشٌ، يَسْتَعِيرُه أو يَكْتَرِيه، وإذا طافَ بثوبٍ من ثِيَابهِ ألقاه بعدَ طوافِه فلا يمسّه؛ لا هو ولا أَحَدٌ غيرُه أبداً. وكان أحدُهم يطوفُ عرياناً ويدعُ ثيابَه ورَاءَ المسجِد، وإنْ طافَ وهيَ عليه ضُرِبَ وانْتُزِعَتْ منه، لأنّهم قالوا: لا نعبدُ اللهَ في ثيابٍ أَذْنَبْنَا فيها. وقيل: فعلوا ذلك تفاؤُلاً؛ بأنْ يعروا من الذّنوبِ كما يعرونَ من الثّياب. وكانتِ النّسَاءُ يَطُفْنَ كذلك في اللّيل، وقيلَ: كانتِ الوَاحِدةُ تلبسُ دِرْعاً مُفَرَّجاً.

وبيّنتْ براءَةُ أَنّ مَن كانَ له عَهْدٌ فعَهْدُه إلى مُدّتِه، ومَن لم يكُنْ له عَهْدٌ فأجَلُه إلى أربعةِ أشهرٍ. وإنّما أرْدَفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه بعلي كَرَّمَ الله وَجْهَه لِنَبْذِ العهودِ؛ لأنه كانَ من عَادَةِ العربِ أَنْ لَا يَنْبذَ العَهدَ إلّا المطاع أَو رَجُلٌ مِن أهل بيتِه، فلو تَلا أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ما فيه نقضُ عهدٍ عَاهَدَ عليه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَرُبَّما تعَلّلوا، وقال قائِلُهم: هَذا خِلَافُ ما نَعْرِفُ، فَأَزَاحَ الله عِلَلَهُم بكونِ ذلك على يَدِ رَجلٍ من أَقارِبِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأَدْنى إليه(١).

---

(١) من الأمور التي لاحظناها في الكلام على الغزواتِ السّرايا أنّ أسبابَها معروفةٌ غالباً، وما لم يُعْرَفْ سببُه فهو إمّا مَذكورٌ في الكُتُبِ المطوّلة، فلْيَرْجعِ القارئُ إليها، وإمَّا أنه لم يُذْكَر للجَهْل به أو بسببِ إغْفَال الرّواةِ لذِكْرِه. ولكي نعلمَ أنّ النبيَّ صلى الله عليه السلام كان مقصوده نشر الحقّ والهدى في كل غزواتِه وسَرَاياه وليس المالَ ولا سفك الدماء، فلا بدّ أنْ نعلمَ أن الجهاد نوعان: جهاد الدّفع؛ لمنع استيلاءِ الكفّار على ديار الإسلام لأنّ في اسْتِيلَائِهم تعريضَ المسلمين للفتنة في دينهم وأعراضهم وأموالهم. وجهاد الطلب؛ لنشر الهداية في العالم، حتّى لا يبقى مكانٌ فيه كُفْرٌ إلّا ويفْتحه المسلمون ويعْلُونَ فيه كلمةَ التوحيد.

بَابٌ
يُذكَرُ فِيهِ مَا يَتعَلّق بالوُفود

في السّنة التاسعة من الهجْرة تَتابَعَتِ الوُفُودُ على رَسُوْلِ الله ﷺ حتى قيل لها: سَنَةُ الوُفُود، وفي هذا الباب ذِكْرُ مَا يَتَعَلّقُ بتلك الوفودِ التي وَفَدَتْ غير مَن قَدْ تقدّم ذِكْرُهم من الوُفُودِ، فقد تقدَّمّ أنه وَفَدَ عليه ﷺ وهو في خَيْبَرَ الأَشْعَرِيّون، بصُحبة أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وصَحِبوا جعفرَ بنَ أبي طالب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه من الحبَشَة، وتقدم أنه قَدِمَ عليه ﷺ وفْدُ هَوَازِنَ بالْجِعِرّانَة، ووَفَدَ عليه بهَا مالكُ بنُ عوف النّصْري وذلك في آخر سنة ثمان، ووَفَدَ نصَارى نجْرَان، وكان ذلك قبل الهجرة، وَوَفْدُ بني تميم في سَرِيّة عُيَينة بنِ حصْن، وكان ذلك في المحرم سنة تسع.

١ ـ وَفْدُ نَصَارَى نجْرَان

وَفَدَ عليه ﷺ وَفْدُ نصَارى نجْرَان، وكان ذلك بعد الهجرة وكانوا ستين راكباً حتى دخلوا المسجد النّبوي، وكان عليهم ثيابُ الحِبَرَةِ وأَرْدِيَةُ الحرير، مختّمين بخَوَاتم الذّهب، ومعهم هَدِيّةٌ، وهي بُسُطٌ فيها تماثيل ومسُوح، فصَارَ النّاسُ ينظرون للتماثيل، فقال ﷺ: «أَمَّا هَذِهِ البُسُطُ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهَا، وَأَمَّا هَذِهِ المُسُوحُ فَإِنْ تُعْطُونِيهَا آخُذُهَا»، فقالوا: نعم، نُعْطِيكَهَا. ولما رَأى فُقَرَاءُ المسلمين ما على هَؤُلاءِ من الزّينة والزّي الحسَن تشَوّقَتْ نُفُوسُهم للدّنيا،

فأنزلَ تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥].

وأرادوا أَنْ يصَلّوا بالمسجد بعد أَنْ حَان وقتُ صلاتِهم وذلك بعد العصر، فأَرَادَ النَّاسُ منعَهم، فقال ﷺ: «دَعُوهُمْ»، فاستقبلوا المشرقَ، فصَلّوا صلاتَهم، وعرَضَ عليهم ﷺ الإسلامَ وتَلا عليهم القُرآنَ، فامْتَنَعُوا، وقالوا: قَدْ كنّا مُسلمين قبلَك، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «كَذَبْتُم، يَمْنَعُكُمْ مِنَ الإِسْلَامِ ثَلاثٌ: عِبَادَتُكُمْ الصَّلِيبَ، وَأَكْلُكُمْ لَحْمَ الخِنْزِيرِ، وَزَعْمُكُمْ أَنَّ لله وَلَداً». فقال أحدُهم للنّبيِّ ﷺ: المسِيحُ ابنُ الله؛ لأنه لا أَبَ لَه. وقال له آخرُ: المسيح هو الله لأنه أَحيَا الموتى، وأَخبرَ عن الغُيوبِ، وأَبرَأ مِن الأَدْوَاءِ كلّها، وخلقَ من الطّينِ طَيراً. وقال له رَئِيسُهم: فعَلَامَ تَشْتُمُه وَتَزْعُمُ أَنَّهُ عبدٌ؟!، فقال لهم ﷺ: «هُوَ عَبْدُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ»، فغَضِبُوا، وقالوا: إنّما يُرضِينا أَنْ تقولَ: إنّه إِلَهٌ، وقالوا له: إِنْ كنتَ صَادِقاً فأَرِنَا عبداً لله يُحْيِي الموتَى، ويَشْفِي الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ، ويخلقُ مِنَ الطّينِ طَيراً فيَنْفُخُ فيه فيَطِيرُ!؟.

فسَكَتَ ﷺ عنهم، فنزَلَ الوَحْيُ بقولِ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

فتَلَا رَسُولُ الله ﷺ هذه الآيات عَليهم، ثمّ قال لهم: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي إِنْ لَمْ تَنْقَادُوا لِلْإِسْلَامِ أَنْ أُبَاهِلَكُمْ»، أي: ندعو ونَجْتَهِدُ في الدُّعاءِ باللّعْنَةِ على الكَاذِب، فقالوا له: يا أبا القَاسم، نَرْجِعُ فننظرُ في أمرِنا ثمّ نأتيك، ثم خَلَا بعضُهم ببعضٍ، فقالَ بعضُهم: والله لقد علمتم أَنّ الرّجلَ نبيٌّ مُرْسَلٌ، وما لَاعَنَ قَومٌ قَطّ إلّا اسْتُؤْصِلُوا، وأُخِذُوا عَنْ آخِرِهم، وإِنْ أَنتُم أَبَيتُم إلّا دِينكم فوادِعُوه وصالحوه، وارجعوا إلى بلادكم، فلمَّا أصبحَ ﷺ أَقْبَلَ ومَعَهُ الحَسَنُ والحُسَين وفاطِمةُ وعليٌّ رضي الله عنهم، ثُمَّ قال: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلِي»، وعند ذلك قال لهم الأسقف: إني لأرَى وجُوها لَو سألوا اللهَ أَنْ يُزيلَ لهم جَبَلاً لأزاله لهم، فلا تُبَاهِلُوا فتَهْلَكُوا ولا يبقى على وجْهِ الأرضِ نَصْرَانِيٌّ، فقالوا: لا نُبَاهِلُكَ.

ثمَّ صالحوه ﷺ على الجِزْيَةِ، فصالحوه على أَلفِ حُلّةٍ في صَفَر، وألفٍ في رَجَب، ومعَ كلّ حُلّة أوقية من الفضّة، وكتبَ لهم كِتاباً، وقالوا له: أَرْسِل معَنا أَمِيناً، فأرسلَ معهم أبا عُبيدَةَ عامرَ بنَ الجرَّاح رضي الله عنه، وقال لهم: «هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ»، وفي روايةٍ: أنه قال: «هَذَا هُوَ القَوِيُّ الأَمِينُ»، ولذلك كان أبو عبيدة يُدْعَى في الصّحَابَة: أَمِينُ الأمّة.

ويُرْوَى عنِ النّبيِّ ﷺ أنه قالَ ـ بعدَ أَنِ امْتَنَعَ وَفْدُ نَصارَى نجْرَان عن مُبَاهَلَتِه ـ: «أَمَا وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَدَلَّى العَذَابُ عَلَى أَهْلِ نَجْرَان، وَلَوْ لَاعَنُونِي لَمُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، وَلَأُضْرِمَ الوَادِي عَلَيْهِمْ نَاراً، وَلَاسْتَأْصَلَ اللهُ تَعَالَى نَجْرَانَ وَأَهْلَهَا حَتَّى الطَّيرَ عَلَى الشَّجَرِ، وَلَا حَالَ الحَولُ عَلَى النَّصَارَى حَتَّى يَهْلَكُوا».

٢ ـ وَفْدُ الدَّارِيُّون

ووَفَدَ على النَّبِيِّ ﷺ ـ قبلَ الهِجْرَةِ ـ الدَّارِيُّون؛ أبو هِنْد الدَّاري، وتميمٌ الدَّاري، وأخوه نعيم، وأربعة آخرون، وسألوا رسولَ الله ﷺ أَنْ يعطيَهم أرضاً مِن أرضِ الشَّام، فقالَ لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «سَلُوا حِيثُ شِئْتُمْ». فقال أبو هند: فنَهَضْنَا مِن عِنْدِه نتشاورُ في أيِّ أرضٍ نأخذُ؟، فقال تميمٌ الداري رضي الله عنه: نسألُه بيتَ المَقْدِسِ وكورَتَها، فقلتُ له: هذا محَلّ مَلِكِ العَجَم، وسَيصِيرُ مَحَلّ مُلْكِ العَرَبِ، فأَخَافُ أَنْ لا يَتِمَّ لنا، فقال تميمٌ: نسْأَلُه بيتَ جَيْرُون وكَوْرَتَها، فنَهَضْنَا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فذكرْنَا له، فدعَا بقِطْعَةٍ مِن أُدُم، وكتبَ كتاباً نُسْخَتُه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ ذُكِرَ فِيهِ مَا وَهَبَ مُحمَّدٌ رَسُوْلُ الله ﷺ لِلدَّارِيِّينَ إِذَا أَعْطَاهُ الله الأَرْضَ، وَهَبَ لهُمْ بَيْتَ عَيْنُونَ وَجَيْرُونَ وَالمرْطُوم، وَبَيْتَ إِبْرَاهِيمَ عليه الصلاة والسلام إِلَى أَبَدِ الأَبَدِ»، وشَهِدَ بِذَلِكَ العَبَّاسُ بنُ عَبْدِ المطَّلِبِ، وشُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَة، ثمّ أعطانا كِتَابنا، ثمّ قال لنا: «انْصَرِفُوا حَتّى تَسْمَعُوا أَنّي قَدْ هَاجَرْتُ». قال أبو هند: فانصَرَفْنا[1].

---

(١) وفي تأريخ دمشق وغيره: أنه لما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ، ووليَ أبو بكرٍ رضي الله عنه كتبَ لهم أبو بكر كتاباً، ونسْخَتُه: "هذا كتابٌ من أبي بكرٍ أمينِ رسُولِ الله ﷺ، الذي اُسْتُخْلِفَ في الأرض بعده، كتبَه للدّاريين، أنْ لا يفسد عليهم مأثرتهم؛ قرية حبرى وبيت عينون، لمن كان يسمع ويطيع، فلا يفسد منها شيئاً، وليقم عمرو بن العاص عليهما فليمنعهما من المفسدين".
ولما وَجَّهَ الجنودَ إلى الشّام كتبَ كتاباً نُسْخَتُه: " من أبي بكرٍ الصديق إلى أبي عبيدة بن الجراح، سَلامٌ عليك فإنّي أحمدُ إليكَ الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: امنعْ مَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر من الفساد في قُرَى الدّاريين، وإنْ كان أهلُها قد جلوا عنها، وأرادَ الدّاريون أن يزرعوها فليزرعوها، فإذا رجع أهلها إليها فهيَ لهم وأحقّ بهم، والسّلام عليك". ولما اسْتُخْلِفَ عمرُ، وظهرَ على الشام جاءَ تميمٌ بكتابِ النبيِّ ﷺ، فقال له عمر رضي الله عنه: أنا شاهدٌ على ذلك، =

قال: فلمّا هاجرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، قَدِمْنَا عليه، وسألناه أَنْ يُجدّدَ لنا كتاباً آخرَ، فكتبَ كتاباً نُسْخَتُه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا أَنْطَى مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَمِيمٍ الدَّارِي وَأَصْحَابِهِ، إِنِّي أَنْطَيْتُكُم بَيْتَ عَيْنُون وَجَيْرُونَ وَالمَرْطُوم، وبيتَ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِرُمَّتِهِم وجَمِيعِ مَا فِيهِمْ نَطِيَّةَ بَتٍّ، وَنُفِّذَتْ، وَسَلَّمْتُ ذَلِكَ لهُمْ وَلِأَعْقَابِهِمْ مِن بَعْدِهِمْ أَبَدَ الأَبَدِ، فَمَنْ آذَاهُمْ آذَاهُ الله»، وشَهِدَ بذلك أبو بكر بن أبي قحافة، وعمرُ بنُ الخطاب، وعُثمانُ بنُ عفّان، وكتبه عليُّ بنُ أبي طالب وشَهِدَ.

وقد خطَبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُطْبَةً، قال فيها: «حَدَّثَنِي تَمِيمٌ الدَّارِيُّ..»، وذَكَرَ خَبرَ الجسَّاسَة، ثمّ رأى تَمِيماً فِي نَاحِيَةِ المَسْجِدِ، فَقَالَ: «يَا تَمِيمُ، حَدِّثِ النَّاسَ مَا حَدَّثْتَنِي»، وذلك لأنَّ تميماً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أخبرَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رَكِبَ البحرَ فتاهتْ به سَفينتُه شَهْراً، حتّى سقطوا إلى جزيرةٍ، فخرجوا إليها يلتمسونَ الماءَ، فلقيَ إنسَاناً يجرُّ شَعْرَه، فقالوا: مَن أنتَ؟، قال: أنا الجسَّاسَة، قالوا: فأخبرنا، قال: لا أخبرُكم، ولكِنْ عليكم بهذه الجزيرة. قال: فدَخَلْناهَا، فإذا رَجُلٌ مُقيّدٌ، فقال: مَن أنتم؟، فقلنا: ناسٌ من العرب، قال: ما فعل هذا النبيُّ الذي خرَج فيكم؟، قلنا قد آمنَ به النّاس واتّبعُوه وصَدّقوه، فقال: إنّ ذلك خيرٌ لهم، ثمّ قال: أفلا تخبرُوني عَن عَينِ ذُعْرٍ، ما فعلت؟، فأخبرناه عنها، فوَثَبَ وثْبَةً، ثمّ قال: ما فعل

= ثمّ أعطاه تلك البلاد.

وقد بقيَ الكِتابُ بأيدي الدّاريّين إلى القرنِ الثّامن وما بَعده، وتلك الضّياع الأربعة المذكورة بأيديهم إلى ذلك الوقت لا ينازعون فيها. وكان الوزيرُ فخر الدّين الخليلي، إذا نابته نائبة، أو أوذِي بوجهٍ من وجُوهِ الأذى، توسّلَ إلى الله تعالى بكتابِ نبيّه صلى الله عليه وسلم، وإذا اعتدَى عليه بعضُ الملوك، أظهرَ له كتابَ النبي صلى الله عليه وسلم، فيكُفُّ عَن طلَبِه، ويُفْرِجُ عنه.

نَخْلُ بيْسَان العرب، هل أطعم بتمر؟، فأخبرناه أنه قد أطعم، فوثَبَ مثلها، فقال: أما لو قد أُذِنَ لي في الخرُوج لَوَطِئْتُ البِلادَ كلّها غير طَيبة. وقد حَدّثَ رَسُوْلُ الله ﷺ النّاسَ، وقال: «هَذِهِ طَيْبَة وَذَاكَ الدَّجَّال». وهذا أولى ما يُذْكَرُ في روايةِ الأكابرِ عَنِ الأصَاغِرِ.

٣ ـ وُفود كَعْبِ بن زُهَير

لما فُتِحَتْ مَكَّةُ، ودَانَتْ قريشٌ له ﷺ، وعرَفتِ العرَبُ أنه لا طَاقةَ لهم بحَرْبِ رَسُوْلِ الله ﷺ ولا بِعَدَاوته؛ لأَنّ قريشاً كانت قادَة العرب، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وكَثُرَتْ الوُفودُ إليه ﷺ. والوَفْدُ: همُ القَومُ، يجتمعون ويَرِدُونَ البِلَادَ، واحِدُهم وَافِدٌ. والوَفْدُ أيضاً: رسُولُ القومِ يقدمهم، وقد يُرادُ به ما هو أعمُّ من ذلك، فيشْمَلُ مَن قَدِمَ غيرَ رَسُولٍ لقومِه ولا نائباً عنهم، وحينئذٍ يكونُ من ذلك وفودُ كعبِ بن زهير رضي الله عنه وقدومُه على رَسُوْلِ الله ﷺ.

وسبَبُ ذلك أنّ أخاه بُجَيرَ بنَ زُهَيرٍ خرجَ يوماً هو وكعبٌ في غنَم لهما، فقال لأخيه كعبٍ اثْبُتْ في الغَنَم حتّى آتي هذا الرَّجُلَ ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ فأسمَعَ كلامَه وأعرِفَ ما عنده، فأقامَ كعبٌ ومضَى بُجَيرٌ، فأتى رَسُوْلَ الله ﷺ، وسمعَ كلامَه فآمنَ به، وذلك لأنّ أباهما زُهيراً كان يُجالسُ أهلَ الكتابِ، ويسمعُ منهم أنه قد آنَ مبعث النبيِّ ﷺ، ورَأى زُهَيرٌ والدُهما في منامِه أنه قد مُدّ بسَببٍ مِنَ السّماء، وأنه مَدَّ يدَه ليتناوَلَه ففَاتَه، فأوّلَه بالنّبيِّ ﷺ الذي يُبْعَثُ في آخرِ الزّمان وأنه لا يُدْرِكُه، وأخبرَ بنيهِ بذلِكَ وأوصَاهم

إِنْ أدرَكوا النّبيَّ ﷺ أَنْ يُسْلمُوا.

ولما اتّصَلَ خَبرُ إِسْلام بُجَيرٍ بأَخِيهِ كَعْبٍ أَغْضَبه ذلك، فهَجَا رَسُوْلَ الله ﷺ، فلمّا كان منصرَفُه ﷺ من الطّائفِ كتبَ بجيرٌ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إلى أخيهِ كعبٍ يخبرُه بفَتْحِ مَكَّةَ وأنه ﷺ قد قتلَ بها رِجالاً ممّن كانوا يهجُونَه من شُعراءِ قريشٍ، وأنه ﷺ، قال: «مَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ كَعْبَ بنَ زُهَيرٍ فَلْيَقْتُلْهُ»، فإِنْ كانَ لك في نفسِكَ حَاجَة فَطِرْ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فإنّه لا يقتلُ أحَداً جاءَه تائباً، ولا يطالبُه بما تَقَدّم قبل الإسلام، وإِنْ أنتَ لم تفعل فانجُ إلى نَجَاتِك.

فلمَّا بلغَ كَعْباً الكِتابُ ضاقَتْ عليه الأرضُ بما رَحُبَتْ، وأَرْجَفَ به أعداؤُه، وصاروا يقولون: كَعْبٌ مَقْتُولٌ لا محالة، فلم يجدْ له بُدّا مِن مجيئِهِ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فعَمِلَ القَصِيدةَ التي مدَح بها رَسُوْلَ الله ﷺ، وذكَرَ فيها إِرْجَافَ أَعْدائِه به، وطمَعَه في عفوِ رَسُوْلِ الله ﷺ ومَطْلَعُها: "بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليَومَ مَتْبُولُ"، ثمّ خرجَ حتّى قَدِمَ المدينةَ، فنزلَ على رجلٍ كانَ بينه وبينه معرفةٌ، فغَدا بهِ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ حينَ صَلّى الصّبح، فأشارَ له ذلك الرّجلُ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ وقال: هذا رسُولُ الله، فقُمْ إِليهِ وَاسْتَأْمِنْهُ، فقامَ إلى أَنْ جلسَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، ووَضَعَ يَدَهُ في يَدِهِ، وكانَ رَسُوْلُ الله ﷺ ومَن حَضَرَهُ لَا يَعْرِفونه، فقال: يا رَسُولَ الله، إنّ كَعْبَ بنَ زُهيرٍ قد جاءَ لِيَسْتأمِنَ منك تَائِباً مُسلماً، فهَلْ أنتَ قابلٌ منْهُ إنْ أنا جِئْتُك به؟، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «نَعم»، فقال: يا رسُولَ الله، أنا كعبُ بنُ زُهَيرٍ، فوَثَبَ رَجُلٌ من الأنصار فقال: يا رَسُولَ الله، دعني وعدوَّ الله أَضرِبُ عُنُقَه، فقال رَسُوْلُ الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعْهُ عَنْكَ فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ تَائِباً نَازِعًا»، فلمّا أَنشَدَ تلكَ القصيدة المشهورة، مدَحَ فيها المهاجرين ولم يتَعرّضْ للأنصار. وقد قيل: حمله على ذلك ما سمِعَه مِن ذلك الأنصاريّ ممّا أَغَاظَه، ولم يسمعْ مِنَ المهاجرين شيئاً يُغِيظُه.

فلمَّا رأى رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قصيدته مُشتملةً على مدح المهاجرين دون مدح الأنصار حَضَّه على مدحِهم، وقال له: «هَلَّا ذَكَرْتَ الأَنْصَارَ بِخَيرٍ؟، فَإِنَّ الأَنْصَارَ أَهْلٌ لِذَلِكَ»، وعند ذلك غضِبَ الأَنصارُ، وأنكرَ المهاجرون قولَه، وعاتَبوه على ذلك، وقالوا له: ما مَدَحَنَا مَنْ هَجَا الأَنصَارَ، فمَدَحَهم بعد ذلك بالقصيدة التي مطلعها:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحيَاةِ فَلَا يَزَلْ ... في مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحي الأَنْصَارِ
البَاذِلِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ ... يَومَ الهِيَاجِ وقُبَّةِ الجَبَّارِ
وَرِثُوا السِّيادَةَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ... إِنَّ الكِرَامَ هُمُ بَنُو الأَخْيَارِ

ولما أنشدَ كعبُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بانَتْ سُعَادُ، وقالَ:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ الله مَسْلُولُ

ألقَى إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُرْدَةً كانت عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد اشْتَرَاها مُعاويةُ بنُ أبي سُفْيَان مِن آلِ كَعبٍ بمالٍ كثيرٍ، بعد أنْ دفعَ لكَعْبٍ فيها عشرةَ آلافٍ، فقال: ما كنتُ لِأُوثِرَ بثوبِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَداً، فلمَّا ماتَ كعبٌ أخذَها مِن ورثَتِه بعشرين ألفاً، وتوارَثَها خلفاءُ بني أميّة، ثمّ خُلفَاءُ بني العبّاس، حتى أخذها التّتار منهم في السنة التي أخذوا فيها بغداد. ثم صارَ كعبٌ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه مِن

شُعَرَائِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذِينَ يذبّونَ عَنِ الإسلامِ كعبدِ الله بنِ رواحةَ وحسّانِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما.

٤ ـ وَفْدُ ثَقِيف

لمّا قَدِمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ مِن تبُوكَ في رمضان قَدِمَ عليه في ذلك الشهر وَفْدُ ثقيف. وكانَ مِن خبرِهم أنه لما انْصَرَفَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مُحَاصَرَتهم تَبِعَ أثرَهُ عروةُ بنُ مسعودٍ الثّقفِي، حتّى أدركه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أنْ يَصِلَ إلى المدينة، ثم أسلمَ، وسألَه أنْ يَرْجِعَ إلى قومِه بالإِسْلام، فقالَ لَه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ»، فقال له عروة: يا رسولَ الله أنا أحبّ إليهم من أبكَارِهم ومِن أبصَارِهم.

فخرَجَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يدعو قومَه إلى الإسلام رجاءَ أنْ لا يخالفوه لمرْتَبتِهِ فيهم؛ لأنه كانَ فيهم محبّباً مُطاعاً، فلمَّا أشْرَفَ لهُم على عِلِّيَةٍ، ودعاهم إلى الإسلام، وأظهرَ لهم دينَه رموه بالنّبل مِن كلّ جانَبٍ فأَصَابَه سَهْمٌ فقتَله، فقيلَ له قبل أَنْ يَمُوتَ: مَا تَرَى في دَمِكَ؟، فقال رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: كَرَامَةٌ أكرمني الله بَها، وشهادةٌ ساقها الله إليَّ، فليس فيَّ إلا مَا في الشُّهداءِ الذين قتلوا مع رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلَ أَنْ يَرْتَحِلَ عنكُم، فادفنوني معهم، فدَفنُوه معَهم، فقال في حقِّهِ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنّ مَثَلَهُ فِي قَوِمِهِ كَمَثَلِ صَاحِبِ يَاسِين إِنَّهُ قَالَ لِقَومِهِ: اتَّبِعُواْ الْمُرْسَلِينَ، فَقَتَلَهُ قَومُهُ».

ثمّ إنَّ ثقيفاً أقامَتْ بعد قتلِ عُرْوَة شهراً، ثمّ إنّهم ائتَمَرُوا بينهم، ورَأوا أنّهم لا طاقةَ لهم بحَرْبِ مَن حولهم من العربِ وقد أسلموا، فأجمعوا أنْ يرسِلُوا إلى

رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً، فكلّمُوا عبدَ يَالِيل بنَ عمرو في ذلك، وكانَ في سِنّ عروة بن مسعود، فأبي أنْ يفعل؛ لأنه خَشِيَ أنْ يُفْعَلَ به كما فُعِلَ بعروةَ، وقال: لسْتُ فَاعِلاً حتّى ترسلوا معي رِجالاً، فبعثوا معه رِجَالاً من أشْرَافِهم، منهم: شُرَحْبِيلُ بنُ غيلان، وكنانةُ بنُ عبد ياليل، وعثمانُ بن أبي العاص، فلمّا قربوا من المدينة لقوا المُغِيرةَ بنَ شَعْبة الثّقفي، فذهبَ مُسْرِعاً إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُبَشِّرَهُ بقُدُومِهم عليه، فلقيَه أبو بكر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فأخبرَه، فقال له أبو بكرٍ: أقسمتُ عليك أن لا تسبقني إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتَّى أكونَ أنا أُحَدِّثه، ففعلَ، فدخلَ أبو بكرٍ على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأَخْبرَه بقدومِهم عليه.

ثمَّ خرَجَ المغيرةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وعَلَّمَهُم كيفَ يحيّونَ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأبوا إلّا تحيّةَ الجاهليّة، وهي: عِمْ صَبَاحاً، ثمّ قَدِمَ بهم على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَضَرَبَ لهم قبّةً في ناحِيَةِ المسجد؛ لِيَسمَعُوا القرآنَ، وليروا النّاسَ إذا صَلّوا، وكانوا يَغْدونَ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلّ يوم، ويُخلّفُونَ عُثمانَ بنَ أبي العاص عند أسْبَابِهم، فكانَ عثمانُ إذا رجعوا ذهبَ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسألُه عنِ الدّينِ ويَسْتَقْرِئُه القرآنَ، وإذا وجدَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نائماً ذهبَ إلى أبي بكر الصّدّيق، وكانَ يكتُمُ عن أصحابِه ذلك، فأَعْجَبَ ذلك رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأَحَبَّه.

ولذا فإنّه عندَ انصرافِهم قالوا: يا رسُولَ الله: أَمِّرْ علينا رَجُلاً يَؤُمّنا، فأَمّرَ عليهم عُثمانَ بنَ أبي العاص لما رَأى مِن حرصِه على الإسلام وقراءته للقرآن وتعَلّم الدين، ولقولِ أبي بكرٍ الصِّديقِ للنّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رَسُولَ الله، إني رأيتُ هذا الغلام مِن أَحرَصِهم على التّفَقُّهِ في الإسلام وتعلّمِ القرآن. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



لعثمانَ بنَ أبي العاص: «أَنْتَ إِمَامُهُمْ، فَإِذَا أَمَمْتَ فَأَخِفَّ بِهِمْ الصَّلَاةَ، وَاتَّخِذْ مُؤَذِّناً لَا يَأْخُذُ عَلَى أَذَانِهِ أَجْراً».

وكان خالدُ بنُ سَعيدِ بنِ العَاص هو الذي يمشي بينهم وبينَ رَسُوْلِ الله ﷺ حتّى كتبَ لهم كِتاباً، وكانَ هو الكاتبُ له، وكانوا لا يطعمونَ طعاماً يَأْتيهم مِن عندِ رَسُوْلِ الله ﷺ حتّى يأكُلَ منه خَالِدٌ؛ خوفاً مِنْ أَنْ يكونَ مَسْمُوماً، حتى أسلَمُوا. وسألوا رَسُوْلَ الله ﷺ أَنْ يَتْرَكَ لهم الصّلاةَ، فقال: «لَا خَيرَ فِي دِينٍ لَا صَلَاةَ فِيهِ»، ثمّ سألوه أنْ يتركَ لهم الزّنا والرِّبا وشُرْبَ الخمْرِ، فأبي ذلك، فسألوه أنْ يتركَ لهم الطّاغِيةَ التي هيَ صَنمُهم، وكانوا يقولون لها: الرَّبَّةُ، فطلبوا منه أنْ لا يهدمَها إلا بعد ثلاثِ سنين مِن مَقْدَمِهم عليه، فأبى رَسُوْلُ الله ﷺ ذلك، فلا زَالوا يسألونه سنةً، وهو يأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومِهم، فأبى عليهم، وكانوا أرادوا بذلك لِيَدخلَ الإسلامُ في قومِهم، وأَنْ لا يَرْتَاعَ سُفَهَاؤُهم ونِسَاؤُهم بِهَدْمِها.

وعند خُروجِهم قالَ لهم كِنانَةُ: أنا أعلَمُكُم بثَقِيفٍ، اكتُمُوا إسلامَكم وخَوِّفُوهُم الحرْبَ والقِتَالَ، وأخبروهم أَنَّ محمداً ﷺ سَألنا أموراً عظيمةً مَا أَبيناها عليه، سألنا أَنْ نَهْدِمَ الطَّاغِيَةَ، وأَنْ نَتْرُكَ الزّنا والرِّبا وشُرْبَ الخمْرِ. فلمّا جاءَتهم ثِقِيفٌ وسَألوهم، قالوا: جئنا رَجُلاً فَظّاً غَلِيظاً، قد ظهرَ بالسَّيفِ ودَانَ له النّاسُ، فعرضَ علينا أموراً شِدَاداً، وذكروا ما تَقَدّم، فقالوا: والله لا نُطِيعُه ولا نَقْبَلُ هَذا أَبداً، فقالوا لهم: فَأَصْلِحُوا السِّلاحَ، وتَهَيَّؤُوا للقِتَالِ، ورَمُّمُوا حِصْنَكُم إِذَنْ!. ومَكَثَتْ ثقيفٌ كذلك ثلاثة أيام، فألقى الله الرُّعبَ في قلوبهم وقالوا: والله ما لنا طاقَةٌ، فارجعوا إليه، وأَعْطُوهُ ما سَأَلَ، فعندَ ذلك قالوا لهم:

قد قَاضَيْنَاهُ وأَسْلَمْنَا، فقالوا لهم: لِمَ كَتَمْتُمُونا؟، قالوا: أردنا أَنْ يَنْزَعَ الله مِن قلوبكم نَخْوَةَ الشّيطان، فأسلَمُوا، ومكثوا أياماً، فَقَدِمَ عليهم رُسُلُ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد بعثَ إليهم أبا سُفْيَان بنَ حَرْب، والمغيرةَ بنَ شُعبة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما لِهَدْمِ الطّاغية.

فلمّا قَدِمُوا الطّائفَ أَرَادَ المُغيرةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أَنْ يُقَدِّمَ أبا سُفْيَان، فَأَبَى عليه ذلك أبو سُفْيَان، وقال له: أُدْخُلْ أَنتَ علَى قومِكَ، فلمَّا دَخَلَ المغيرةُ علَاها لِيَضْرِبها بالمِعْوَل، وقد قام قومُه دونَه خَشْيَةَ أَنْ يُرْمَى بسَهْمٍ كمَا رُمِيَ عُرْوَةُ، وخَرَجَتْ نِسَاءُ ثَقِيفٍ حُسَّراً، حتّى أَنَّ العَوَاتِقَ مِن الحِجَالِ خرَجْنَ يَبْكِين على الطّاغِية، وكانوا يظنّونَ أنه لا يُمْكِنُ هَدْمُها لأنّها تَمْنَعُ مِن ذلك، وقالوا: والله لا يستطيعُ هَدْمَها. وأرادَ المغيرةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه أَنْ يَسْخَرَ بِثَقِيفٍ، فقالَ لأصحابِه: لأُضْحِكَنَّكُم مِن ثَقِيفٍ، فلمَّا عَلَا عَلى الطّاغية لِيَهْدِمَها، ضَرَبَها ضَرْبةً، ثم صَاحَ وأَلقَى نفسَه، فارْتَجَّتْ الطّائفُ بالصِّيَاح سُرُوراً، وقالوا: إنّ اللّاتَ قدْ صَرَعَتِ المُغيرةَ، وأقبلوا عليه يقولون: كيفَ رَأيتَ يا مُغيرةُ؟، دونكَها إنِ اسْتطعتَ، أَلَم تعلمْ أَنَّها تُهْلِكُ مَن عادَاها؟، فقامَ المغيرةُ يَضْحَكُ منهم، ويقولُ لهم: يَا خُبَثَاءُ، والله مَا قَصَدْتُ إلا الهُزْءَ بكم، قَبَّحَكُم الله، إنّما هِيَ حِجَارَةٌ ومَدَرٌ، فاقْبَلُوا عَافِيَةَ الله واعبُدُوه، ثمَّ أَخَذَ في هَدْمِها.

فهَدَمَها بعد أنْ بدأَ بكسْرِ بابِها حتّى هدَمَ أَسَاسَها، وأَخرَجَ تُرابَها لمّا سمعَ سَادِنَها يقول: لَيَغْضَبَنَّ الأَسَاسُ فلَيَخْسِفَنَّ بهِم. ثمّ أَخذَ مالَها وحُلِيّها، فقدِمَا على رَسُوْل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهِ، فأَمرَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا سُفْيَان أنْ يَقْضِيَ دَينَ عُرْوة ودينَ الأَسْوَدِ أخيه من مالِ الطّاغية، فقَضَاه، لأنّ أبا المليح بنَ عُروةَ بنِ مسعود،

وقاربَ ابنَ عمِّه الأسود ابن مسعود سَأَلا رَسُوْلَ الله ﷺ في ذلك، وكانا قَدِمَا على رَسُوْلِ الله ﷺ مُسْلِمَين لما قَتلَتْ ثَقِيفٌ عروةَ بنَ مسعود قبلَ أن تُسْلِمَ ثَقِيفٌ كما تقدّم، وكان ﷺ قد أجابَ أبا مليح، فقال له: «نَعَمْ»، فقال ابنُ عمِّه قاربُ بنُ الأسود: يا رسُولَ الله؛ إنّ عروةَ والأسودَ أخوان لأبٍ وأمٍّ، فقال ﷺ: «إِنَّ الأَسْوَدَ مَاتَ مُشْرِكاً»، فقال: إنّما الدّينُ عَليَّ وأنا الذي أُطَالَبُ به.

٥ ـ وَفْدُ بَنِي عَامِرٍ

وَوَفَدَ عليه ﷺ بنُو عامرٍ وكان فيهم: عامرُ بنُ الطّفيل، وأَرْبَدُ بنُ قيس، وجَبّارُ بنُ سُلْمَى، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم، وكان عامر بن الطفيل سيدهم، كان مُناديه ينادي بسُوقِ عُكَاظ: هل مِن رَاجِلٍ فنَحْمِلُه، أو جائع فنُطْعِمُه، أو خَائِفٍ فنُؤَمِّنُه؟، وكان مُضْمِراً الغَدْرَ برَسُوْلِ الله ﷺ، فقال لأَرْبَدٍ: إذا قَدِمْنا على هذا الرّجل فإني شَاغِلٌ عنْكَ وجْهَه، فإذا فعلتُ ذلك فاعْلُهُ بالسَّيفِ، فقال قومُه: يا عامرُ، إنّ النّاسَ قد أسلموا، فأسلم، فقال: والله لقد كنتُ آليتُ أنْ لا أنتهي حتّى تتبع العرَبُ عقبي، فأنا أتبعُ عقبَ هذا الفَتى مِن قريشٍ!. فلمّا قدموا على رَسُوْلِ الله ﷺ قال عامرٌ: يا محمّدُ، اجعلني خليلاً وصَديقاً لك، فقال: «لَا وَالله؛ حَتّى تُؤْمِنَ بِالله وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ»، وجعل يكلّمُ النّبيَّ ﷺ وينتظرُ مِن أَرْبَدٍ ما كان أمره به، وأَرْبَدٌ لا يأتي بشيءٍ.

وفي روايةٍ: لما أتى عامر إلى النبيِّ ﷺ ألقى له وِسادَةً ليجلسَ عليها،

ثم قال له: «أَسْلِمْ يَا عَامِرْ»، فقال له عامرٌ: إنّ لي إليكَ حَاجَةً، قال: «اقْرُبْ مِنِّي»، فقرب منه حتّى حَنَا على رَسُوْلِ الله ﷺ، وجعلَ يقولُ له: أتجعلُ لي الأمرَ بعدك إنْ أسلمْتُ؟، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ له: «لَيس ذَلِكَ لَكَ وَلَا لِقَومِكَ إِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى الله يَجْعَلُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، قال: يا محمَّدُ أُسْلِمُ على أنّ لي الوَبَرَ ولك المَدَرَ، فقال: «لَا»، قال: فما لي إنْ أسلمتُ؟ فقال: «لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكَ مَا عَلَيهِمْ»، فقال: أما وَالله لأملأنّها عليك خيلاً جُرْداً ورِجَالاً مُرْداً، ولأربطنَّ بكلِّ نَخْلَةٍ فرساً، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «يَمْنَعُكَ الله ﷻ». وجعلَ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ يَضْرِبُ على رُؤُوسِهما ويقولُ لهما: أُخْرُجَا أيّها القِرْدَانِ، فقال عامرٌ: مَن أنتَ؟، قال: أسيدُ بنُ حُضَير، فقال: أَحُضَيرُ بنُ سِمَاك؟، قال: نعم، فقال: أبوك خيرٌ منك، قال: بلى أنا خيرٌ منك ومن أبي لأنّ أبي كانَ مشركاً وأنت مشركٌ.

ومكثَ ﷺ أياما يدعو الله عليهم يقول: «اللَّهُمَّ اكْفِنِي عَامِرَ بْنَ الطُّفَيلِ بِمَا شِئْتَ، وَابْعَثْ لَهُ دَاءً يَقْتُلُه»، ثمّ قال ﷺ: «وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَسْلَمَ وَأَسْلَمَتْ بَنُو عَامِرٍ؛ لَزَاحَمَتْ قُرَيشاً عَلَى مَنَابِرِهَا»، ثمّ دعاهم رَسُوْلُ الله ﷺ فقال: «يَا قَوم آمِنُوا»، فقال عامرُ بنُ الطّفَيل للنبيِّ ﷺ: أُخَيِّرُكَ بينَ ثَلاثِ خِصَالٍ: يكونُ لك أهل السّهل ولي أهل الوَبر، أو أكونُ خَلِيفَتك من بعدِك، أَو أَغْزُوكَ مِن غَطَفَان بألفِ أَشْقَرٍ وألفِ شَقْرَاء، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اهْدِ بَنِي عَامِرٍ، وَاشْغَلْ عَنِّي عَامِرَ بْنَ الطُّفَيلِ بِمَا شِئْتَ وَأَنَّي شِئْتَ».

فلمّا خرجوا راجعينَ إلى بلادِهم، قال عامرٌ لأرْبدٍ: ويلك يا أربدُ، أينَ ما كنتُ أمرْتُك به، والله ما كان على وجهِ الأرضِ مِن رَجُلٍ أخافُه على نفسي منك

أبداً، وايمُ الله لا أخافك بعد اليوم أبداً، فقال: لا أبالك، لا تَعْجَل عَليّ، والله ما هَمَمْتُ بالذِي أمرتَني به إلا دَخَلْتَ بيني وبينَ هذا الرَّجل حتّى ما أَرَى غيرَك، أَفكُنْتُ أَضْرِبُك بالسَّيفِ!؟. ثم لما كانوا ببعض الطريق بعثَ الله تعالى على عامرِ بنِ الطّفيل الطاعونَ في حَلْقِه، فأوَى إلى بيتِ امْرَأةٍ سَلولية، من بني سَلول، وكانوا موصُوفينَ باللّؤم، فصَارَ يَأْنفُ مِنْ أَنْ يكونَ موتُه ببيتها، وصارَ يمسّ الطاعونَ بيده، ويقول: ما هذا يا بني عامر؟، غُدّةٌ كَغُدّةِ البعير، وموتٌ في بيتِ امرأةٍ من بني سلول، ائتوني بفرسي، ثمّ ركبَ فرسَه وأَخذ رُمحَه، وصارَ يجُولُ حتّى وقَعَ عَن فَرَسِه مَيّتاً.

ثُمَّ قَدِمَ صاحباه على قومِهما، فقالوا لأربدٍ: ما وراءَك يا أربدُ؟، فقال: لا شيءَ، والله لقد دعانا إلى عبادةِ شيءٍ، لَوَدِدْتُ أَنّي عنده الآنَ فأرْمِيَه بالنّبْلِ حَتّى أَقْتُلَه، فخرجَ بعد مقالَته هذه بيومين، ومعَه جمَلُه يتّبعه فأرسلَ الله تعالى عليه وعلى جملِه صَاعقةً أَحْرَقَتْهُما، وذلك في يوم صَحْوٍ قَائِظٍ، وأما جَبّارُ بنُ سَلْمَى الذي هو ثالثُهم فقد أسلمَ معَ مَنْ أسلمَ من بني عامر.

٦ ـ وُفود ضِمَام بن ثَعْلَبَة

ووَفَدَ عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضِمَامُ بنُ ثَعْلَبَةَ السَّعْدِيّ. قالَ طلحةُ بنُ عُبَيدِ الله: بينما رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسٌ بين أصحابِه متكئاً، إذْ جاءَه رَجُلٌ من أهل البادية، من نجد، ثَائِر الرَّأس، نسمَعُ دَوِيَ صوتِه ولا نفقه ما يقولُ، حتّى نزل عن جمَلِه في المسجد، ثم عقَلَه، وقال: أيكم ابنُ عبدِ المطّلب، فأشَرْنا له إليه، فدَنا مِنَ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يَا مُحَمّدُ، إنِّي سَائِلُكَ، ومُشَدِّدٌ عَلَيكَ في

المَسْأَلَة ، فلَا تَجِدْ عَليَّ في نَفْسِكَ مَا لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي ، فقالَ: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ» ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ وَرَبِّ مَنْ بَعْدَكَ ، آللهُ أَرْسَلَكَ إِلَيْنَا ؟ ، فقَالَ: «اللَّهُمَّ نَعَمْ» ، قَالَ: وَأَنْشُدُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ فِي لَيْلِنَا وَنَهَارِنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ ؟ ، فقالَ: «نَعَمْ» ، قال: وَأَسْأَلُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا زَكَاتَنَا فتَرُدَّهَا عَلَى فُقَرَائِنَا ؟ ، فقال: «نَعَمْ» ، قَالَ: وأسالك بِمِثْلِ ذَلِكَ آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ شَهْراً مِنَ اثنى عَشَرَ شَهْراً ؟ ، فقَالَ: «نَعَمْ» ، قَالَ: وَأَسْأَلُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَحُجَّ هَذَا الْبَيْتَ ؟ ، فقَالَ: «نَعَمْ» ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ آمَنْتُ بِكَ وَصَدَّقْتُكَ ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي .

فلمّا أنْ وَلّى ضِمَامٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «فَقُهَ الرَّجُلُ ، لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّةَ» ، وكان عمر رضي الله عنه يقول: ما رأيتُ أحَداً أحسن مسألةً ولا أوجز من ضِمام بن ثعلبة . ولما رجع ضِمام إلى قومِه كان أوّل ما تكلّم به سَبَّه لِلّلاتِ والعُزّى ، فقال له قومُه: مَهْ يا ضِمام ، اتقّ البَرص ، اتقّ الجذام ، اتقِّ الجنُون! ، فقال لهم: ويلكم ، والله إنّهما لا يَضُرّانِ ولا يَنفَعَانِ ، إنّ الله تعالى قد بعثَ رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه . فلمْ يبقَ من القوم أحَدٌ إلا وأسلم .

٧ ـ وَفْدُ عَبْدِ القَيس

قَدِمَ على النبيِّ ﷺ وَفْدُ عَبْدِ القَيس ، وكانوا ستّة عشر ، وفيهم الجَارُودُ ، وكان نصرانياً ، وقد قرأ الكتب ، فقال أبياتاً مخاطباً بها النبيَّ ﷺ ، منها:

يَا نَبِيَّ الهُدَى أَتَتْكَ رِجَالٌ قَطَعَتْ فَدْفَداً وَآلاً فَآلَا
تَبْتَغِي دَفْعَ بَأْسِ يَومٍ عَبُوسٍ أَوْجَلَ القَلْبَ ذِكْرُهُ ثُمَّ هَالَا[1]

فعرضَ عليهم ﷺ الإسلامَ، فقال الجارودُ: يا محمَّدُ إنّي كنتُ على دين وإنّي تاركٌ ديني لدينك فتَضْمَنُ لي ذنبي؟، فقال النبيُّ ﷺ: «نَعَمْ، أَنَا ضَامِنٌ أَنْ قَدْ هَدَاكَ اللهُ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ»، فأسلمَ وأسلمَ أصحابُه، ثمّ سألوا رَسُوْلَ الله ﷺ أَنْ يَحمِلَهم، فقال: «وَاللهِ مَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ»، قال الجارودُ: يا رسُولَ الله، يُحَالُ بيننا وبينَ بِلادِنا ضَوَالّ مِنْ ضَوَالِّ النّاسِ أَفَنَتَبَلَّغُ عَلَيْهَا إِلَى بِلَادِنَا؟، فقالَ ﷺ: «لَا، إيّاكَ وَإِيّاهَا، فَإِنّمَا تِلْكَ حَرَقُ النّارِ».

وَذُكِرَ أنه ﷺ بينما هو يُحَدّثُ أصحابه، إذْ قال لهم: «سَيَطْلَعُ عَلَيكُمْ مِنْ هَهُنَا رَكْبٌ هُمْ خَيْرُ أَهْلِ المَشْرِقِ، قَدْ أَنْضُوا الرَّكَائِبَ، وَأَفْنُوا الزَّادَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ القَيس»، فقامَ عمرُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، فتَوَجّه ناحيةَ مَقْدَمِهم، فلقِيَهم فقال: ممَّن القوم؟، قالوا: من بني عبدِ القيس، فقال: إنّ النبيَّ ﷺ ذكرَكم آنفاً بخيرٍ، ثم مشى معهم حتّى أتَوا النبيَّ ﷺ، فقال: هذا صاحِبُكم الذي تريدون، فرَمى القومُ بأنفسهم عَن رَكائِبهم بباب المسْجد بثيابِ سفَرِهم، وتبادروا يقبّلونَ يدَه ﷺ ورِجْلَه، وكانَ فيهم عبدُ الله بنُ عوفٍ الأشَجُّ، وهو رَأسُهم،

---

(١) في تأريخ دمشق: أن الجارود لما أقبل مع قومِه قال: يا قوم، إنكم تدخلون على محمّدٍ سيّدِ العرب، وخيرِ ولدِ عبد المطّلب، فإذا دخلتم عليه، ووقفتم بين يديه، فأحسنوا عليهِ السَّلامَ، وأقلّوا عنده الكلامَ، فقالوا: لن نتكلّمَ إذا حضرْتَ، ولن نتَجاوزَ إذا أمرْتَ، فقل ما شئتَ فإنا سامعون، واعملْ ما شئتَ فإنا تابعون. فلما دخلوا المسجد وقال الجارود أبياته فرحَ رَسُوْلُ الله ﷺ فرحاً شديداً، وقرّبه.

وكان أَصْغَرَهم سِنّاً، فتَخلّفَ عند الرّكائبِ حتّى أناخَها وجمعَ المتاعَ، فأَخرجَ ثوبين أبيضين لبسهما، ثُمّ جاءَ يمشي حتّى أخَذَ بيدِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقبّلها، وكانَ رجُلاً دَمِيماً، ففَطِنَ لنَظَرِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى دَمامَتِه، فقال: يا رَسُول الله إِنّه لَا يُسْتَقَى في مُسُوكِ الرِّجَالِ، وإنّما يُحتَاجُ مِن الرّجُل أَصْغَرَاه: لِسَانُه وقَلْبُه. فقالَ له رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ فِيكَ خَلَّتَين يُحِبُّهُما الله وَرَسُولُهُ: الحِلْمُ وَالأَنَاةُ»، فقال: يا رسُولَ الله، أتخلّقُ بهما أَمِ الله جبَلني عليهما؟ قال: «لَا، بَلْ الله تَعالَى جَبَلَكَ عَلَيهِمَا»، قال: الحمدُ لله الذي جبلني على خلتين يحبّهما الله ورسولُه.

وفي روايةٍ: أنهم لما قدموا على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ممَّنْ القَومُ»؟، قالوا: مِن رَبيعة، فقال: «خُيْرُ رَبيعَةَ عَبْدُ القَيْسِ، مَرْحَباً بِالقَوْمِ، غَيرَ خَزَايَا، وَلَا نَدَامَى، أَنَا حَجِيجُ مَنْ ظَلَمَ عَبْدَ القَيْسِ»، فقالوا: يا رسُولَ الله، إنا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدة ـ أي من سفرٍ بعيد، وكانت مساكنُهم بالبحرين ومَا وَالاها مِن أطرافِ العراق ـ، وإنه يحولُ بيننا وبينك هذا الحيُّ مِن كفَّار مُضَر، وإنّا لا نصِلُ إليك إلا في شَهْرٍ حرَام، فأمُرْنا بأَمْرٍ فَصْلٍ، نأخُذُ به ونَأمرُ بِه مَن وراءَنَا وَندخُلُ بِهِ الجنّةَ، فَقالَ: «آمُرُكُم بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، آمُرُكُمْ: بِالْإِيمَانِ بِالله وَحْدَهُ، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِالله؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا الله وَأَنّ مُحَمّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا الْخُمُسَ مِنْ المَغْنَمِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ الدّبّاءِ وَالحَنْتَمِ، وَالنّقِيرِ، وَالمُزَفّتِ، فَاحْفَظُوهُنَّ وَادْعُوا إِلَيْهِنّ مَنْ وَرَاءَكُمْ»[1].

---

(١) **الدّبّاء**: هو القَرْعُ، **والحنتم**: جِرَارٌ مدهونة بدهان أخضر، تعمل من طين وشعر وأدم، **والنّقير**:=

فقالوا: فيمَ نشربُ يا رسُولَ الله؟، قال: «فِي أَسْقِيَةِ الأُدُمِ التِي يُلَاثُ عَلَى أَفْوَاهِهَا» قالوا: يا رسُولَ الله إنّ أرضَنا كثيرةُ الجِرْذَان، لا تبقي فيها أسقية الأدم، قال: «وَإِنْ أَكَلَهَا الجِرْذَان»، فقال له الأشجُّ: يا رسُولَ الله إنّ أَرْضَنا ثقيلةٌ وخِمَةٌ، وإنّا إذا لم نشربْ هذه الأَشْربَة عَظُمَتْ بطُونُنا، فرَخِّصْ لنَا في مثل هذِه، فأَوْمَأ ﷺ بكَفّيه وقال له: «يَا أَشَجُّ، إِنْ رَخَّصْتُ لَكَ فِي مِثْلِ هَذِهِ شَرِبْتَهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ»، وفرج بين يديه وبسطها، يعني أعظم منها، «حَتَّى إِذَا ثَمِلَ أَحَدُكُمْ مِنْ شَرَابِهِ قَامَ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ فَضَرَبَ سَاقَهُ بِالسَّيفِ ضَرْبَةً لَا يَزَالُ يَعْرَجُ مِنْهَا إِلَى يَوم القِيَامَةِ» وكانَ في القوم رَجُلٌ وقعَ له ذلك، فعَجِبُوا من عِلْمِ النبيِّ ﷺ بذلك، وإشارتِه إلى ذلك الرّجُل، فضَحِكوا، فقال لهم ﷺ: «مَا يُضْحِكُكُمْ»؟، قالوا: والله لقد شربنا في النّقير، فقام بعضُنا إلى بعضٍ بالسّيوفِ، فَضُرِبَ هذا ضربةً بالسّيفِ فهو أعرَجٌ كما ترى. ثمّ ذكرَ لهم ﷺ أنواعَ تمرِ بلدِهم، فقال رجلٌ منهم: بأبي أنتَ وأمّي يا رسُولَ الله لو كنت ولدت في جوفِ هَجَرٍ ما كنتَ بأعلمَ منك السّاعةَ، أشهدُ أنكَ رسُولُ الله، فقال لهم: «إِنّ أَرْضَكُمْ رُفِعَتْ إِلَيَّ مُنْذُ قَعَدْتُمْ، فَنَظَرْتُ مِنْ أَدْنَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا»، وقال لهم: «خَيْرُ تَمْرِكُمْ البَرْنِي، يَذْهَبُ بِالدَّاءِ، وَلَا دَاءَ مَعَهُ».

= أصل النخلة ينقرُ، **والمزفت**: ما طلي بالزّفت. والمقصود أنه نهاهم عما يُنْبَذُ في هذه الأواني من الخمر. وإنما اقتصر ﷺ في المناهي على شرب الأنبذة في الأوعية المذكورة لكثرة تعاطيهم لها. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: والنهيُ عن الانتباذ في هذه الأوعية بخصوصِها لأنه يسْرِعُ فيها الإسكار.

٨ ـ وَفْدُ بَنِي حَنِيفة

وَفَدَ بنُو حنيفةَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، ومعهم مُسَيلِمَةُ الكَذّاب، وقد كَان رَسُوْلُ الله ﷺ جالساً بين أصحابِهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم، ومعه عَسِيبٌ مِن عُسُبِ النّخْلِ، وفي رَأسِه خُويصَاتٍ، فلما انتهى مُسَيْلَمَةُ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ وهم يسْتُرونَه بالثّيابِ، كلَّمَهُ وسألَه أَنْ يُشْرِكَه مَعَهُ في النّبوَّةِ، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذَا الْعَسِيبَ مَا أَعْطَيْتُكَهُ». وقد كان بلغَه أَنَّ مُسَيلِمَةَ قال: إنْ جعلَ لِي محمَّدٌ الأمرَ بعده اتّبعْتُه. ثمّ قال ﷺ له: «إِنّي لأُرَاكَ الذِي مِنْهُ رَأَيْتُ».

ثمَّ إنهم جعلوه في رِحَالِهِم، فلمَّا أسلَمُوا منحَهَم رَسُوْلُ الله ﷺ جَوَائِزَ، فذكروا له مكانَ مُسَيْلِمَةَ، قالوا: يا رسولَ الله إنّا خَلّفْنا صاحِبَنا في رِحَالِنا يحفظُها لنا، فأمرَ له ﷺ بمثل ما أمرَ بِهِ لوَاحِدٍ من القوم، وهوَ خمسُ أوَاقٍ مِن فِضّةٍ، وقال: «أَمَا إِنّهُ لَيْسَ بِشَرّكُمْ مَكَاناً»، وإنّما قالَ لهم رَسُوْلُ الله ﷺ ذلك لِحِفْظِهِ لمتاعِهِم.

فلمّا رجعوا إلى مُسَيْلِمَةَ أعطوه جائزتَه، وأخبروه بما قال عنه ﷺ، فقال: إنّما قالَ ذلك لأنه عَرَفَ أَنّ لي الأمرَ مِنْ بعدِهِ!. فلما رجعوا وانتهوا إلى اليمامةِ، ارْتَدَّ عدوُّ الله وتَنبأ وَكَذَبَ، وادّعَى أَنّه أُشْرِكَ مع النبيِّ ﷺ في النّبوَّةِ وقال لمن وفد معه: ألم يَقُلْ لكم حينَ ذكرتُموني له: «أَمَا إِنّهُ لَيْسَ بِشَرّكُمْ مَكَانًا»، ما ذاك إلا لما كان يعلمُ أَنّي أُشْرِكْتُ معه في الأمرِ. فكان هو الذي رآه ﷺ في منامه، فإنه رَأى في المنام أَنّ في يَدِهِ سوارين من ذهب قالَ: «فَأَهَمَّنِي شَأْنُهما، فَأَوْحَى الله إِليَّ أَنِ انْفُخْهُما، فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا، فَأَوَّلْتُهُمَا كَذّابَيْنِ

يَخْرُجَانِ مِنْ بَعْدِي، صَاحِبَ الْيَمَنِ، وَصَاحِبَ الْيَمَامَةِ»، فكانا هما: الأَسْوَدُ العَنْسي صاحب اليمن، ومُسَيْلِمَةُ الكذاب صاحب اليمامة، فإنّ كلاً منهما ادّعَى النّبوّةَ.

ثم صار مُسَيْلِمَةُ يتكلّم بالهذَيان ليُضاهي به القرآنَ. فمن ذلك قوله قبّحه الله: لقد أنعمَ الله على الحُبْلى، أخرَجَ منها نسمةً تسعى، مِن بين صِفَاقٍ وحشا. ومن ذلك: والطاحنات طحْنا، والعاجنات عَجْنا، والخابزات خبْزا، والثاردات ثَرْدا، واللاقمات لَقْمَا. ووضع عن قومِه الصّلاةَ، وأحلّ لهم الخمْرَ والزّنا. وطُلِبَ منه أنْ يتفلَ في بئرٍ تَبَرّكاً ففعل، فمَلُحَ ماؤُها، ومسحَ رأسَ صَبيٍّ فصَارَ أقرعَ قرعاً فاحشاً، ودعا لرَجُل في بَنِين له بالبَرَكَةِ فيهما، فرجع الرّجل إلى منزلِه فوجدَ أحدَهما قد سقط في بئرٍ والآخرَ أكلَه الذّئْبِ، ومسحَ على عيني رَجُل للاسْتِشْفَاء بمَسْحِهِ، فابيَضَّتْ عيناه، لأنه فعلَ ذلك مُضَاهَاةً للنبيِّ ﷺ.

وكتبَ قبّحَهُ الله إلى النّبيِّ ﷺ كتاباً، فقال: من مُسَيْلِمَةَ رسولِ الله إلى محمّدٍ رسُولِ الله، أمّا بعد: فإنّي قد أُشْرِكْتُ في الأَمْرِ معكَ وإنّ لنا نصفُ الأمر، ولكِنَّ قريشاً قومٌ يعتدون. وبعثَ بذلك الكتاب مع رجلين، فقال لهُمَا النّبيُّ ﷺ: «فَمَا تَقُولَانِ أَنْتُمَا»، فقالا: إنّما نقولُ مثل ما يقول، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَمَا وَالله لَوْلَا أَنّ الرّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْت أَعْنَاقَكُمَا». ثم كتبَ إليه رَسُوْلُ الله ﷺ: «بِسْمِ الله الرّحْمَنِ الرّحِيم، مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ الله، إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذّابِ، السّلَامُ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الْهُدَى، أَمّا بَعْدُ: فَإِنّ الْأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يُشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ».

٩ ـ وَفْدُ طَيْءٍ

قدِمَ وَفْدُ طَيْءٍ عليه ﷺ، وفيهم: زَيدُ الخَيل، وقَبيصَةُ بنُ الأسْوَد، وكان سيّدهم زيدُ الخيل، وقيل له ذلك لخَمْسَةِ أفْرَاسٍ كانت له، وكان شاعراً خطيباً بليغاً جواداً، فعرضَ عليهم ﷺ الإسلامَ فأسلموا وحَسُنَ إسلامُهم. وقال ﷺ في حقّ زيدِ الخيل: «مَا ذُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنَ العَرَبِ بِفَضْلٍ ثُمَّ جَاءَنِي إِلّا رَأَيْتُهُ دُوْنَ مَا قِيْلَ فِيهِ إِلّا زَيْدَ الْخَيْلِ، فَإِنّهُ لَمْ يَبْلُغْ كُلَّ مَا كَانَ قِيلَ فِيهِ»، ثمّ سمَّاه زيدَ الخير، لإنّه صَافحَ النّبيَّ ﷺ فقال وهو لا يعْرِفُه: «الحَمْدُ لله الذِي أَتى بِكَ مِنْ سَهْلِكَ وَحَزنِكَ، وسَهَّلَ قَلْبَكَ لِلْإِيْمَانِ»، ثم قبضَ على يَدِه، فقال له: «مَنْ أَنْتَ»؟، قال: أنا زَيدُ الخيل بنُ مُهَلْهِل، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، فقال ﷺ: «بَلْ أَنْتَ زَيْدُ الخَيرِ». ثمّ قالَ له ما تقدّم مِنَ الثّناء، وأجازَ كلّ وَاحِدٍ مِنَ الوفدِ خمْسَ أَوَاقٍ، وأعطَى زيدَ الخير اثنتي عشرة أوقية ونَشّاً، ثمّ أقْطَعَه محلّين مِن أرضِه، وكتبَ له بذلك كتاباً، ولما خرَجَ مُتوجِّهاً إلى قومِه قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «أيُّ فَتى زَيْدٌ إِنْ يَنْجُو مِنَ الحُمّى»؟!، ففي أثناءِ الطريق أصابته الحمّى، فماتَ، ولما ماتَ أقامَ قبيصَةُ بنُ الأَسْودِ عليه النّياحَةَ سَنَةً، ووَجّهَ براحِلَتِه ورَحْلِه إلى امرَأتِه، وفيه كتابُ رَسُوْلِ الله ﷺ الذي أقطعَه فيه محلّين بأرضِه، فلمَّا رأتْ امرأتُه الرّاحلةَ أضرَمَتْها بالنّار، فاحترقَتْ واحترقَ الكتابُ!.



١٠ ـ وُفُودُ عَدِيِّ بنِ حَاتِمِ الطّائِي

حدّثَ عَدِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: كنتُ امرَأً شريفاً في قومي آخِذاً المرباع من الغَنائِم كما هو عادةُ سادات العرب في الجاهليّة، وهو ربْعُ الغنيمة، فلمَّا سمعتُ برَسُوْلِ الله ﷺ كرِهْتُه، حتّى ما مِنْ رَجُلٍ من العرب كَانَ أشدَّ كَرَاهةً لرَسُوْلِ الله ﷺ حينَ سَمِعَ به منّي، فقلتُ لغلام كان رَاعِياً لإبلي: اعْزِلْ مِن إبلي أَجْمَالاً ذُلُلاً سِمَاناً، فاحْتَبِسْهَا قريباً منّي، فإذا سَمِعْتَ بجَيْشٍ لمحَمَّدٍ قد وَطِئَ هذه البلاد فَآذِنّي، ففعلَ، ثمّ إنه أتاني ذاتَ يوم، فقال: يا عديّ ما كنتَ صانعاً إذَا غَشِيَكَ محمَّدٌ فاصْنَعْهُ الآن، فإنّي قد رأيتُ رَاياتٍ، فسألتُ عنها، فقالوا: هذه جِيُوش محمَّدٍ. فقلتُ له: قَرِّبْ لي أَجمَالي، فقرَّبَها فاحتملتُ أهلي وَوَلَدِي، والتحقتُ بأهْلِ ديني مِنَ النّصَارى بالشّام، وخلّفْتُ بِنتاً لحاتم في الحَاضِرِ، فأُصِيبَتْ فيمَنْ أُصِيبَ، فلمَّا قَدِمَتْ في السّبايا علَى رَسُوْلِ الله ﷺ وبلَغَه هرَبي إلى الشّام مَنَّ عليها وكسَاها، وحمَلَها، وأَعطَاها نفقةً، فخَرَجَتْ، وقَدِمَتْ علَيَّ الشّامَ.

فوَ الله إنِّي لقَاعِدٌ في أَهْلي، إذْ نظرتُ إلى ظَعِينةٍ تَؤُمُّنَا، فقلتُ: ابنةُ حَاتِمٍ، فإذا هِيَ هِيَ. فلمَّا وَقَعَتْ علَيَّ قالَتْ لي: القَاطِعُ الظّالمُ، احتمَلْتَ أهلَكَ وولدَك، وقطعْتَ بَقِيَّةَ والديك وعورتك. فقلتُ: أيْ أُخَيَّةُ، لا تقولي إلّا خيراً فو الله ما لي مِنْ عُذْرٍ، ولقد صَنَعْتُ ما ذَكَرْتِ، فنَزَلَتْ وأقَامَتْ عندي. فقلتُ لها وكانَتِ امْرَأَةً حَازِمَةً: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرَى والله أنْ تَلْحَقَ به سَرِيعاً، فإنْ يَكُنْ نَبِيّاً فللسَّابقِ إِلَيهِ فضْلُه، وإنْ يَكُنْ مَلِكاً فأَنتَ أَنتَ. فقلتُ: والله إنَّ هذا

للرّأي. ولعَلّها لم تُظْهِرْ له إسْلَامَها لِئَلّا يَنْفِرَ طبعُه مِنْ قولِها له، فَقَالَتْ له: إِنْ يَكُنْ نَبِيّاً، على الفَرْضِ والتّنَزُّل تحريضاً له على اللّحُوقِ بهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قالَ: فخرجتُ حتّى جئتُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينةِ، فقال: «مَنِ الرَّجُلُ»؟، فقلت له: عديّ بن حاتم، فقامَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانطلقَ بي إلى بيتِه، فوَ الله إنَّه لقَائِدُني إليه إذْ لَقِيَتْهُ امرأَةٌ كبيرَةٌ ضَعِيفَةٌ، فاسْتوقَفَتْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوقفَ لها طويلاً تُكَلِّمُه في حَاجَتِها، فقلتُ: ما هو بمَلِكٍ، ثمّ مضى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتّى إذا دخل بيته تناوَل وِسَادَةً بيدِهِ من أُدُمٍ محشُوَّةً ليفاً، فقَدَّمَها إليَّ وقال: «اجْلِسْ عَلى هَذِهِ»، فقلتُ: بل أنت فاجلس عليها، قال: «بَلْ أَنْتَ»، فجلستُ عليها، وجلسَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأرضِ، فقلتُ: والله ما هذا بأمْرِ مَلِك، ثمّ قال لي ما معناه: «يَا عَدِيّ أَسْلِمْ تَسْلَمْ»، فقلتُ: إنّي عَلى دِينٍ، قال: «أَنَا أَعْلَمُ بِدِيْنِكَ مِنْكَ أَلَسْتَ مِنَ الرَّكُوسِيّة»؟، فقلتُ: بلى، قال: «أَلَمْ تكُنْ تَسِيرُ فِي قَومِكَ بِالمرْبَاع»؟، فقلت: بلى، قال: «فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ»، فقلت: أَجَلْ والله، وعَرَفْتُ أنه نبيٌّ مرسَلٌ لِأنه يعلمُ ما لا يَعْلَمُه غيري.

ثمّ قال لي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَلَّكَ يَا عَدِيُّ إِنّما يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخُولِ فِي هَذَا الدِّينِ مَا تَرَى، تَقُولُ: إِنَّما اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَه، وَقَدْ رَمَتْهُمُ العَرَبُ مَعَ حَاجَتِهِمْ، فَوَ الله لَيُوشِكَنَّ المالُ أَنْ يَفِيضَ فِيهِمْ حَتَّى لَا يُوجَدَ مَنْ يَأْخُذُهُ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الدُّخُولِ فِيهِ مَا تَرَى مِنْ كَثْرَةِ عَدُوهِمْ وَقِلَّةِ عَدَدِهِمْ، أَتَعْرِفُ الحِيرَةَ»؟، فقلتُ: لمْ أَرَهَا، وَقد سَمِعْتُ بها، قال: «فَوَ الذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ مِنَ الحِيرَةِ تَطُوفُ بِالبَيْتِ مِنْ غَيرِ جِوَارِ أَحَدٍ،

وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الدّخُولِ فِيهِ أَنّكَ تَرَى أَنَّ المُلْكَ وَالسُّلْطَانَ فِي غَيرِهِمْ، وَايمُ اللهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ تَسْمَعَ بِالقُصورِ البِيضِ مِنْ أَرْضِ بَابِلَ قَدْ فُتِحَتْ عَلَيهِمْ». فأسلمَ عَدِيٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقال: لقد رأيتُ المرأةَ تخرجُ من القادسيّة على بعيرِها حتّى تحج بالبيت، وايم الله لتكونن الثانية، لَيَفِيضَنَّ المالُ حتى لا يوجدُ مَن يأخذه.

١١ ـ وُفُودُ فَرْوَةَ بنِ مُسَيكٍ المُرَادِي

وَفَدَ فَرْوَةُ بنُ مُسَيكٍ المرَادِي على رَسُوْلِ الله ﷺ مُفارقاً لملوكِ كِنْدَة، وكان بين قومِه مُرَاد وبين همدان قبل الإسلام وقْعَةٌ أَصَابتْ فيها همدانُ مِن مُرَادٍ ما أرادوا في يوم يُقالُ له: الرَّدْمُ، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ لما قدِمَ عليه: «يا فَرْوَةُ هَلْ سَاءَكَ مَا أَصَابَ قَوْمَك يَوْمَ الرّدْمِ»؟، فقال: يا رَسُولَ الله، مَنْ ذَا يُصِيبُ قَوْمَهُ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمِي يَوْمَ الرّدْمِ لَا يَسُوءُهُ ذَلِكَ؟، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَمَا إنّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدْ قَوْمَك فِي الْإِسْلَامِ إلّا خَيْراً» وَاسْتَعْمَلَهُ النّبِيُّ ﷺ عَلَى مُرَادٍ وَزُبَيْدٍ وَمَذْحِجٍ كُلّهَا، وبعثَ معه خالدَ بنَ سَعيد العّاص على الصّدقة، فكان معه في بِلادِه حتّى تُوفّيَ رَسُوْلُ الله ﷺ، وقد قال فَرْوَةُ عند تَوَجُّهِهِ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ:

لَمّا رَأَيْتُ مُلُوكَ كِنْدَةَ أَعَرَضَتْ ... كَالرِّجْلِ خَانَ الرِّجْلَ عِرْقُ نَسَائِهَا
قَرَّبْتُ رَاحِلَتِي أَؤُمُّ مُحَمَّداً ... أَرْجُو فَوَاضِلَهَا وَحُسْنَ ثَرَائِهَا

١٢ ـ وَفْدُ بَنِي زُبَيْدٍ

وفد بنو زُبَيدٍ على رَسُوْلِ الله ﷺ، وكان فيهم: عمرو بنُ مَعْدِ يَكْرِب الزّبيدي، وقد كان فارسَ العَرَب، مَشهوراً بالشّجاعة، شاعراً مُجِيداً. فقال لابنِ أخيه قيس المرادي: إنّك سيّد قومك، وقد ذُكِرَ لنا أنّ رجلاً من قريشٍ يقالُ له، محمَّدٌ، قد خرجَ بالحجاز يَقُولُ: إنّه نبيٌّ، فانطلِقْ بنا إليه حتّى نعلمَ علْمَه، فإنْ كان نبيّاً كما يقولُ فإنّه لَنْ يخفَى عليك، فإذا لقيناه اتّبعْنَاه، وإنْ كانَ غير ذلك علِمْنا عِلْمَه، فأبى عليه قيسٌ ذلك وسَفَّهَ رَأيَه، فرَكِبَ عمرو رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه حتّى قدِمَ على رَسُوْلِ الله ﷺ مع قومِه فأَسْلَمَ، فلمَّا بلغَ ذلك قيساً قال: خالَفَني وترَكَ أمري ورأيي، وتوَعَّدَه، فقال عمرو فيه أبياتاً، وبعد موتِ النبيِّ ﷺ ارْتَدّ عمرو هذا مع الأسْوَدِ العنسي، ثم إنه أسْلَمَ بعدَ ذلك وحَسُنَ إسْلَامُه، وشَهِدَ فتوحاتٍ كثيرة في أيام الصّديق وأيام عمر رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما.

١٣ ـ وَفد كِنْدَةَ

وفَدَ عليه ﷺ ثمانون من كِنْدَة، وفيهم الأشعثُ بنُ قيس، وكانَ وجِيهاً مُطاعاً في قومِه. فلما أرَادُوا الدّخُولَ عليه ﷺ رَجَّلُوا شُعُورَ رُؤُوسِهم ثُمّ تَكَحَّلوا، ولبسُوا جُبَبَ الحِبَرَةِ، وبرود اليمن المخطّطة، وقد كَفَّفُوها بالحرير، فلمّا دخلوا على رَسُوْلِ الله ﷺ قالوا: أَبَيْتَ اللّعْنَ، فقال ﷺ: «لَسْتُ مَلِكاً، أَنا مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِالله» قالوا: لا نُسَمّيك باسْمِك، قال: «أَنا أَبو القَاسِم». فقالوا: يا أبا القاسم، إنا خَبّأنا لكَ خَبْئاً فما هو؟، وقد كانوا خَبَّؤُوا له عينَ جَرادَةٍ في ظَرْفِ سَمْنٍ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «سُبْحَانَ الله، إِنّما يُفْعَلُ ذَلِك

بِالكَاهِنِ وَإِنَّ الكَاهِنَ وَالْمتكهِّنَ في النّار»، قالوا: كيف نعلم أنك رسول الله؟، فأخذ رَسُوْلُ الله ﷺ كفّاً مِن حَصْبَاء، فقال: «هَذَا يَشْهَدُ أَنّي رَسُولُ الله»، فَسَبّحَ الحصَى في يدِه، فقالوا: نشهدُ أنّكَ رَسُوْلُ الله.

فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ الله بَعَثَنِي بِالحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتاباً لَا يَأتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَينِ يَدَيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ»، قالوا: أَسْمِعْنا منه، فتَلَا: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ١ ـ ٥]، ثم سكتَ رَسُوْلُ الله ﷺ وسَكَن بحيث لا يتحرّكُ منه شيءٌ، ودموعه تجري على لحيته، فقالوا: إنّا نراك تبكي، أَمِنْ مَخافَةِ من أرْسَلَكَ تبكي؟، فقال ﷺ: «إِنَّ خَشْيَتِي مَنْهُ أَبْكَتْنِي، بَعَثَنِي عَلَى صَراطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي مِثْلِ حَدِّ السَّيفِ، إِنْ زغْتُ عَنْهُ هَلَكْتُ» ثمّ تَلَا ﷺ قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦]. ثم قال لهم ﷺ: «أَلَمْ تُسْلِمُوا»؟، فقالوا: بلى، قال: «فَمَا بَالُ هَذَا الحَرِيرِ فِي أَعْنَاقِكُم»؟. فشقوه من أعناقهم ثمّ ألقوه. وقال الأَشْعَثُ بنُ قيس له ﷺ: نحنُ بنو آكل المرّار، وأنتَ ابنُ آكل المرّار، لأنّ جدّته ﷺ أُمُّ كلاب من كندة، فقال ﷺ: «لَا، نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بنِ كِنَانَة، لَا نَقْفُو أَمّنَا وَلَا نَنْتَفِي مِنْ آبَائِنَا»، أي: لا ننتسب إلى الأمهات ونترك النسب إلى الآباء.

١٤ ـ وَفْدُ أَزْدِ شَنُوءَة

وَفَدَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ جمْعٌ مِن الأَزْدِ، وفيهم صُرَدُ بنُ عبدِ الله الأَزدِيّ، وكان أفضلَهُم، فأمّرَهُ ﷺ على مَن أَسْلَمَ مِن قومِه، ثمّ أَمَرَهُ أن

يُجَاهِدَ بِمَن أسلمَ مَن كانَ يليه مِنْ أهلِ الشّركِ مِن قَبَائِلِ اليمن، فخَرَجَ حتى نزلَ بِجُرَشَ وهي مدينة بها قبائِل من قبائِلِ اليمن، فحاصَرَها المسلمون قريباً من شهرٍ ثمّ رجعوا عنها، حتّى إذا كَانوا بجَبَل يقالُ له: شَكَرٌ، ظَنَّ أَهْلُ جُرَشَ أنَّ المسلمين إِنَّما رجعوا عنهم مُنْهَزِمِين، فخرجوا في طَلَبِهم، حَتّى إذا أدركوهم عطَفَ عليهم المسلمون، فقتلوهم قتلاً شديداً. وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رَسُوْلِ الله ﷺ بالمدينة يَنْظُرَانِ الأَخْبَار، فبينما هُمَا عِندَه إذْ قَال ﷺ: «بِأَيِّ بِلَادِ الله شَكَرٌ»؟، فقَامَ إليه الرّجُلانِ، فقالا: يا رَسُولَ الله، ببلادِنا جبَلٌ يقال له: كَشَر، فقال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِكَشَرٍ وَلَكِنَّهُ شَكَرٌ»، فقالا: فما شأنه يا رَسُولَ الله؟، فأَخْبَرَهُمَا الخبرَ، فخَرَجا مِن عندِه ﷺ فوجدا قومَهما أصيبوا في اليوم والسّاعة التي قال فيها رَسُوْلُ الله ﷺ ما قال. ثم عند إخبارهما لقومهما بذلك وَفَدَ وَفْدُ جُرَشَ على رَسُوْلِ الله ﷺ فأَسْلَمُوا، وقالَ رَسُوْلُ الله ﷺ لهم لمّا أقبلوا عليه: «مَرْحَباً بِكُمْ، أَحْسَنُ النَّاسِ وُجُوهاً، وَأَصْدَقُهُم لِقَاءً، وَأَطْيَبُهُم كَلَاماً، وَأَعْظَمُهُم أَمَانَةً، أَنْتُمْ مِنّي وَأَنَا مِنْكُمْ»، ثمّ حمَى لهم حِمَىً حولَ بَلَدِهِم.

١٥ ـ وَفْدُ رَسُول مُلوكِ حِمْيَر

وفد رسُولُ ملوكِ حِمْيَر، وحامل كتابهم إلى النبيِّ ﷺ بإسْلَامِ الحارثِ بنِ عَبْدِ كُلَال، والنّعْمان ومُعَافِر، وَهمْدَان، فكتب إليهم رَسُوْلُ الله ﷺ كتاباً قال فيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله، إِلَى الحَارِثِ بنِ عَبْدِ كُلَالٍ وَالنُّعْمَانِ وَمَعَافِرَ وَهَمْدَانَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ الله

الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وإِنَّهُ وَقَعَ رَسُولُكُمْ مُنْقَلَبَنَا مِنْ أَرْضِ الرّومِ فَلَقِيَنَا بِالمَدِينَةِ، فَبَلَّغَ مَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ وَخَبَرَ مَا قِبَلَكُمْ وَأَنْبَأَنَا بِإِسْلَامِكُمْ وَقَتْلِكُمْ المُشْرِكِينَ وَأَنَّ اللهَ قَدْ هَدَاكُمْ بِهُدَاهُ إِنْ أَصْلَحْتُمْ وَأَطَعْتُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ وَأَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ، وَأَعْطَيْتُمْ مِنْ المَغَانِمِ خُمُسَ اللهِ وَسَهْمَ الرَّسُولِ، وَمَا كُتِبَ عَلَى المُؤْمِنِينَ مِنْ الصَّدَقَةِ»، إلى آخر ما كتبه لهم، وهو كتاب طويل وقد ذُكِرَ فيه مِقْدَارُ الزّكوَات.

وكتبَ ﷺ فيه أيضاً: «إِنَّ رَسُولَ اللّهِ مُحَمّداً النّبِيَّ أَرْسَلَ إِلَى زُرْعَةَ بِنِ سَيفِ بن ذِي يَزَنٍ أَنْ إِذَا أَتَاكُمْ رُسُلِي فَأُوصِيكُمْ بِهِمْ خَيْراً: مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ زَيْدٍ، وَمَالِكُ بْنُ عُبَادَةَ، وَعُقْبَةُ بْنُ نَمِرٍ، وَمَالِكُ بْنُ مُرَّةَ، وَأَصْحَابُكُمْ، وَأَنِ اجْمَعُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنْ الصَّدَقَةِ وَالْجِزْيَةِ مِنْ مُخَالِيفِكُمْ وَأَبْلِغُوهَا رُسُلِي، وَأَنَّ أَمِيرَهُمْ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَا يَنْقَلِبَنَّ إِلَّا رَاضِياً»، إلى أنْ قال: «ثُمَّ إِنَّ مَالِكَ بْنَ مُرّةَ الرّهَاوِيّ قَدْ حَدَّثَنِي أَنّك أَسْلَمْتَ مِنْ أَوَّلِ حِمْيَرَ، وَقَتَلْتَ المُشْرِكِينَ، فَأَبْشِرْ بِخَيْرٍ، وَآمُرُك بِحِمْيَرَ خَيْراً، وَلَا تَخُونُوا وَلَا تَخَاذَلُوا، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ هُوَ وَلِيُّ غَنِيّكُمْ وَفَقِيرِكُمْ، وَأَنَّ الصّدَقَةَ لَا تَحِلّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِأَهْلِ بَيْتِهِ، إِنَّمَا هِيَ زَكَاةٌ يُزَكّى بِهَا عَلَى فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ وَابْنِ السّبِيلِ، وَأَنَّ مَالِكًا قَدْ بَلّغَ الْخَبَرَ، وَحَفِظَ الغَيْبَ وَآمُرُكُمْ بِهِ خَيْراً، وَإِنّي قَدْ أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ مِنْ صَالِحِي أَهْلِي وَأُولِي دِينِهِمْ وَأُولِي عِلْمِهِمْ وَآمُرُك بِهِمْ خَيْراً، فَإِنّهُمْ مَنْظُورٌ إِلَيْهِمْ، وَالسّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ».

١٦ ـ وَفْدُ رَسُول فَرْوَةَ بنِ عَمْرٍو الجُذَامِي

وَفَدَ رَسُولُ فَرْوَةَ بنِ عمرو الجُذَامِي إلى رسُولِ ﷺ يخبرُه بإسْلامِه، ثم أهدى له بغْلَةً بيضاءَ، وحماراً، وفرَساً وثياباً وقِبَاءً مُرَصّعاً بالذّهَب. وكان فرْوَةُ رضي الله عنه عَامِلاً للرُّومِ علَى مَا يليهم مِنَ العَرب، فبلغَ الرّومَ إسْلَامُه فأخذوه وحبَسُوه، ثم ضَرَبُوا عُنقَه وصلبوه، بعد أَنْ قال له الملكُ: اِرْجعْ عَن دِينِ محمَّدٍ، ونحنُ نعيدُكَ إلى مُلْكِكَ، فقال: لا أفارِقُ دِينَ محمَّدٍ ﷺ، وإنّك تعلم أنّ عيسى بَشَّرَ به، ولكِنّكَ تَضِنُّ بمُلْكِكَ.

١٧ ـ وَفْدُ بَنِي الحَارِث

بعَثَ رَسُوْلُ الله ﷺ خَالدَ بنَ الوَليدِ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إلى بني الحارث بن كعب بنَجْرَان، وأمرَه أن يدعوهم إلى الإسلام قبلَ أَنْ يُقَاتِلَهم، وقال له: «إِنْ اسْتَجَابُوا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَقَاتِلْهُمْ»، فخرج خالدٌ حتّى قدم عليهم، فبعَثَ الرّكبان يضربون في كلّ وَجْهٍ ويدعون إلى الإسلام ويقولون لهم: أيّها النّاسُ أسلِمُوا تَسْلَمُوا، فأَسْلمُوا، وأَقامَ خَالِدٌ يعلمهم شرائعَ الإسلام، وكتبَ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ بذلك، فكتب ﷺ يأمره بأنْ يُقْبِلَ ومعَهُ وَفْدُهم. فأقبلَ بالوفد فيهم قيس بن الحصين ذُو الغُصَّة لأنه كانَ في حَلْقِه غُصَّةٌ لا يَكادُ يبيّنُ الكلامَ منها. وحين اجتمعوا به ﷺ قال لهم: «بِمَ كُنْتُمْ تَغْلِبُونَ مَنْ قَاتَلَكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ»؟، فقالوا: كنا نجتمع ولا نتفرّق، ولا نبدأُ أَحَداً بظلم، فقال: «صَدَقْتُم». وأَمَّرَ عليهم ﷺ زيدَ بنَ الحُصَين.




١٨ ـ وُفودُ رِفَاعَةَ بنِ زَيد

وفَدَ على رَسُوْلِ الله ﷺ رِفَاعَةُ بنُ زَيدِ الخُزَاعِي، وأهْدَى لرَسُوْلِ الله ﷺ غُلَاماً، وأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُه، وكتبَ رَسُوْلُ الله ﷺ له كتاباً إلى قومه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله لِرِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ، إنِّي بَعَثْتُهُ إِلَى قَوْمِهِ عَامَّةً، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ، فَمَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ فَفِي حِزْبِ الله وَحِزْبِ رَسُولِهِ، وَمَنْ أَدْبَرَ فَلَهُ أَمَانُ شَهْرَيْنِ»، فلمَّا قَدِمَ على قومِه أجابُوا وأسلَمُوا.

١٩ ـ وَفْدُ هَمْدَان

وفدَ على رَسُوْلِ الله ﷺ جمعٌ مِن همْدَان، وفيهم مالكُ بنُ نَمَطٍ، وكان شاعراً مُجِيداً، فلقوا رَسُوْلَ الله ﷺ عند مرجعِه من تبوكَ، وعليهم مُقَطَّعَاتٌ من الحِبَرَات وبُرُودِ اليَمن، وعليهم العَمَائِم العَدَنِيَّة ـ نسبة إلى عَدَن مدينة باليمن ـ، ووَفَدُوا إليهِ ﷺ على الرَّوَاحِل المَهرِيَّة والأَرْحَبِيَّة، وصار مَالِكُ بنُ نَمَطٍ يَرْتَجِزُ:

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنىً ... صَوَادِرَ بِالرُّكْبَانِ مِنْ هَضْبِ قَرْدَدِ

بِأَنَّ رَسُولَ الله فِينَا مُصَدَّقٌ ... رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي العَرْشِ مُهْتَدِي

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا ... أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ مُحَمَّدِ

وقد كانَ رَسُوْلُ الله ﷺ بعثَ خالِدَ بنَ الوَلِيدِ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنه إلى همْدَان يدعوهم إلى الإسلام، فأقامَ سِتَّة أَشهرٍ يدعوهم إلى الإسلام، فلم

يُجِيبُوه ، فبعثَ النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إليهم عليّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه ، وأَمرَ خَالداً بالرّجُوع إليه ، وَأَنَّ مَنْ كانَ مَع خالدٍ إِنْ شَاءَ بَقِي معَ عليٍّ ، وإِنْ شَاءَ رَجَع مَع خَالدٍ ، فلما دنا من القوم خَرَجُوا إليه ، فصَفَّ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه أصحَابَه صَفّاً وَاحِداً ، ثمّ تقدم بين أيديهم وقَرَأ عليهم كتابَ رَسُوْلِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأسلَمُوا جميعاً ، وكتبَ بذلك لرَسُوْلِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فلما قَرَأ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الكِتَابَ خَرَّ سَاجِداً ، ثمّ رَفعَ رأسَه ، فقال: «السَّلامُ عَلَى هَمْدَانَ ، السَّلامُ عَلَى هَمْدَانَ» ، وقال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «نِعْمَ الحَيُّ هَمْدَانُ ، مَا أَسْرَعَهَا إِلَى النَّصْرِ ، وَأَصْبَرَهَا عَلَى الجَهْدِ ، وَفِيْهِمْ أَبْدَالٌ ، وَفِيهِمْ أَوْتَادٌ»[1].

٢٠ ـ وَفْدُ تُجِيب

وَفَدَ على رَسُوْلِ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَفْدُ تُجيب ، وَهِيَ قَبِيلَةٌ من كِنْدَة ، وكانوا ثلاثة عشر رجلاً ، وساقوا معهم صدقاتِ أموالِهم التي فرَضَ الله عليهم ، فسُرَّ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بهم وأكرَمَ مثواهم . فقالوا: يا رَسُولَ الله ، إنّا سُقْنَا إليك حقَّ الله في أموالِنا ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «رُدُّوهَا فَاقْسِمُوهَا عَلَى فُقَرَائِكُم» ، قالوا: يا رَسُولَ الله ، ما قدمنا عليك إلا بما فضَل عَن فُقَرَائِنا ، قال أبو بكر: يا رَسُولَ الله ما قَدِمَ علينا وَفْدٌ مِنَ العربِ مثل هذا الوَفْد ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إنَّ الهُدَى بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ ، فَمَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْراً شَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ» ، ثم جعلوا يسألونه عن القرآن وعنِ السّننِ ، فازْدَادَ رَسُوْلُ الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيهم رَغبةً ، ولما أرادوا الرّجوعَ إلى أهليهم ، قِيلَ: مَا يُعَجِّلُكُم؟ ، فقالوا: نرجع إلى من ورَاءَنا

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٣٤١).




فنخبرُهم بِرُؤْيَةِ رَسُوْلِ الله ﷺ وتَلاقِينا إيّاه.

ثم جاؤوا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ فوَدّعُوهُ، فأرسلَ إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يُجِيزُ به الوفودَ، ثم قال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «هَلْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ»؟، فقالوا: غلام خلّفناهُ على رِحَالِنا، وهو أحدَثنا سِنّا، قال: «فَأَرْسِلُوهُ إِلَيْنَا»، فأرسلوه، فأقبلَ الغلامُ حتّى أتى رَسُوْلَ الله ﷺ، فقال: يا رَسُول الله، أنا مِن الرَّهْطِ الذين أتوك آنفاً فقضيتَ حوائِجَهم، فاقضِ حَاجَتي، وهيَ أَنْ تَسألَ الله ﷻ أَنْ يغفرَ لي ويرحمني، ويجعلَ غِنَايَ في قَلْبي، فقالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَاجْعَلْ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ»، وأمرَ له ﷺ مثل ما أمر به لرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابه.

ثمّ إنّهم بعدَ ذلك وافوا رَسُوْلَ الله ﷺ بمِنىً في الموسِم إلّا ذلك الغُلام، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «مَا فَعَلَ الغُلَامُ الذِي أَتَانِي مَعَكُمْ»؟، فقالوا: يا رَسُولَ الله، ما رأينا مثله قطّ، ولا حُدّثْنا بِأَقنعَ منه بمَا رَزَقه الله، لو أَنّ النّاسَ اقتسموا الدّنيا ما نظرَ نحوَها ولا التفتَ إليها، فقال رَسُوْل الله ﷺ: «الحَمْدُ لله، إِنّي لَأَرْجُو أَنْ يَمُوتَ جَمِيعاً»، فقال رَجُلٌ منهم: يا رسُولَ الله، أو ليسَ يموتُ الرّجُلُ جميعاً؟، فقال النبيُّ ﷺ: «تَتَشَعَّبُ أَهْوَاءُ الرَّجُلِ وَهُمُومُهُ في أَوْدِيَةِ الدُّنْيَا، فَلَعَلّ الأَجَلَ يُدْرِكُهُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الأَوْدِيَةِ، فَلَا يُبَالِي الله ﷻ فِي أَيِّهَا هَلَكَ».

٢١ ـ وَفْدُ بَنِي ثَعْلَبَة

وفَدَ على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند مرجِعِه من الْجِعِرّانَة أَرْبَعَةٌ من بني ثعلبة، مقرّين بالإسلام، فإذَا رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خرجَ من بيته ورَأسُه يَقطرُ مَاءً قال بعضُهم: فرمَى ببصَرِه إلينا فأسْرَعْنا إليهِ وبِلالٌ يقيمُ الصَّلاةَ، فسلّمنا، وقلنا: يا رَسُولَ الله إنا رُسُلُ مَن خَلْفَنا مِنْ قَومِنا ونحنُ مقرّونَ بالإسلام، وقد قيل لنا: إنّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَا إِسْلَامَ لِمَنْ لَا هِجْرَةَ لَهُ»، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَيثُما كُنْتُمْ وَاتّقَيْتُم الله فَلَا يَضُرّكُمْ». وصَلّى النّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنا الظهر، ثمّ انصرف إلى بيته، ثم خَرَجَ إلينا، فقال: «كَيفَ بِلَادُكُمْ»؟، قلنا مخصِبُونَ، فقال: «الحَمْدُ لله»، فأقمنا عنده أياماً، وضيافتُه تجري علينا. ثمّ لما جاؤوا يُوَدّعُونَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لبلالٍ: «أَجِزْهُمْ»، فأعطى بلالٌ كلّ واحدٍ منهم خمسَ أوَاق فضّة، والأوقية تساوي أربعينَ درهماً.

٢٢ ـ وَفْدُ بَنِي سَعْدٍ

ووَفَدَ على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنو سعد. وعن النعمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قدمتُ على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَافِداً في نفرٍ من قومي وقد أَوْطَأَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البلاد واستولى عليها والنّاسُ صِنْفانِ: إمّا دَاخِلٌ في الإسلام رَاغِبٌ فيه، وإمّا خَائِفٌ السّيفَ، فنزلنا ناحيةً مِن المدينة، ثمّ خرَجنا نَؤُمّ المسجدَ، حتى انتهينا إلى بابه، فنَجِدُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلّي على جنَازَةٍ في المسْجِدِ، فقمنا في ناحيةٍ، ولم نَدْخُلْ مع النّاسِ في صَلَاتِهم، فلمّا انصَرَفَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَظَرَ إلينا، فدعا بنا، وقال: «مِمَّنْ أَنْتُمْ»؟، فقلنا: من بني سعد، فقال: «أَمُسْلِمُونَ

أَنْتُمْ»؟ قلنا: نعم، فقال: «هَلّا صَلَّيْتُم عَلَى أَخِيكُمْ»؟، قلنا: يا رسول الله، ظننا أن ذلك لا يجوزُ حتى نبايعك، فقال: «أَينما أَسْلَمْتُمْ فَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»، فبايعناه على الإسلام، ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا، فبعثَ ﷺ في طلبنا، فأُتِيَ بنا إليه، وتَقدّم صاحِبُنا فبايَعه على الإسلام. فقلنا: يا رَسُولَ الله إنّه أَصْغَرُنا، وإنّه خَادِمُنا فقال ﷺ: «سَيِّدُ القَوم خَادِمُهُمْ، بَارَكَ الله عَلَيهِ»، فكَانَ والله خيرُنا، وأَقْرَأنا للقُرْآنِ بدعائه ﷺ له، ثمّ أَمّرَهُ رَسُوْلُ الله ﷺ علينا، فكان يَؤُمّنا، ولما أردنا الانصراف أَجَازَنا بأوَاقٍ مِن فضّة.

٢٣ ـ وَفْدُ بَنِي فَزَارَة

وَفَدَ عليه ﷺ بضْعَة عشر رجلاً من بني فزَارَةَ، فيهم خَارِجَةُ بنُ حِصْنٍ أخو عُيَينَةَ بنُ حِصْنٍ، وابنُ أخيه الجدُّ بنُ قيس بن حصْن، وهو أصغرهم، مقرّينَ بالإسلام، وهم مُسْنِتُون، قد توَالى عليهم الجَدْبُ، وهم على رَكَائِبَ عِجَافٍ هِزَال، فسألهم رَسُوْلُ الله ﷺ عن بلادِهم، فقال خَارِجَةُ: أَسْنَتَتْ بلادُنا، وهلكت مواشِينا، وأَجْدَبَ ما حولنا، وجاعَتْ عِيالُنا، فادعُ لنا ربَّك يغيثنا، واشفعْ لنا إلى رَبّك، وليَشْفَعْ لنا ربُّك إليك فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «سُبْحَانَ الله، وَيْلَكَ يَا هَذَا أَنَا أَشْفَعُ إِلَى رَبِّي ﷻ، فَمَنْ ذَا الذِي يَشْفَعُ رَبُّنَا إِلَيهِ؟!، لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ».

ثمّ قالَ لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ الله لَيَضْحَكُ مِنْ جَدْبِكُمْ، وَقُرْبِ غِيَاثِكُم»، فقال الأعرابي: لنْ نعدم من رَبٍّ يضْحَكُ خيراً، فضَحِكَ رَسُوْلُ الله ﷺ مِن قولِه، وصَعِدَ ﷺ المنبرَ فتكَلّم بكلماتٍ، وكان لا يرفعُ يديه

الرَّفْعَ البالغَ في شيءٍ مِن الدّعاءِ إلّا في الاسْتِسْقَاءِ، فرفعَ ﷺ يديه حتى رُئِيَ بياضُ إبطيه، فقال: «اللَّهُمَّ اسْقِ بِلَادَكَ وَبَهَائِمَكَ، وَانْشُرْ رَحْمَتَكَ، وَأَحْيِ بَلَدَكَ الميتَ، اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثاً مُغِيثاً عَاجِلاً غَيرَ آجِلٍ، نَافِعاً غَيرَ ضَارٍّ، اللَّهُمَّ اسْقِنَا رَحْمَةً، وَلَا تَسْقِنَا عَذَاباً، وَلَا هَدْماً، وَلَا غَرَقاً، وَلَا مَحْقاً، اللَّهُمَّ اسْقِنَا الغَيْثَ، وَانْصُرْنَا عَلَى الأَعْدَاءِ».

فقام أبو لبابة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فقال: يا رسُولَ الله التّمرُ في المَرَابِدِ، وتكرَّرَ ذلك منه ثلاثَ مرّاتٍ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اسْقِنَا الغَيْثَ حَتّى يَقُومَ أَبُو لُبَابَةَ عُرْيَاناً يَسُدُّ ثَعْلَبَ مِرْبَدِهِ بِإِزَارِهِ»، فطَلَعَتْ مِنْ وراءِ سَلْعٍ سَحَابَةٌ مثل التّرسِ، فلمَّا توَسَّطَتْ في السماء انتشرَتْ ثمّ أمطرَتْ. قال بعضُ الصحابة: فو الله ما رأينا الشّمْسَ سَبْتاً ـ أي من السّبتِ إلى السّبتِ الآخر ـ، وقام أبو لبابة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه عرياناً يَسُدُّ ثعلبَ مِرْبَدِه بِإِزَارِه لِئَلّا يخرُجَ التّمرُ منه. وثعلب المرْبِد: الثّقْبُ الذي يخرجُ منه ماءُ المطر.

وفي بعضِ الرّوايات: فأمطَرَتِ السّماءُ، وصَلّى بنا رَسُوْلُ الله ﷺ، ثم طافَ الأنصارُ بأبي لبابة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم يقولون له: يا أبا لبابة إنَّ السَّماءَ والله لن تُقْلِعَ حتّى تقومَ عُرْيَاناً تسدّ ثعلبَ مِرْبَدَك بِإِزَارِكَ، كمَا قال رَسُوْلُ الله ﷺ. فقام أبو لبابة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه عُرْياناً يَسُدُّ ثَعْلَبَ مِرْبَدِه بِإِزَارِه فأقلَعَتِ السّماء.

وذُكِرَ: أنّ خارِجَةَ جاءَ، فقال: يا رسول الله، هلكَتِ الأموالُ وانقطعت السُّبُلُ، فصَعدَ رَسُوْلُ الله ﷺ المنبرَ، ثمّ قال: «اللَّهُمَّ حَوَالينَا وَلَا عَلَينَا،

اللَّهُمَّ عَلَى الإِكَامِ، وَالظِّرَابِ، وَبُطُونِ الأَوْدِيَةِ، وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ»، فانْجَابَتْ السّحابةُ عن المدينةِ انْجِيابَ الثّوب. ولعلّ هذا المطرُ كانَ عامّاً للمدينة ومَا حولها حتّى وصل إلى محلّ هؤلاءِ الوَافِدِين.

وجاءَ إليه ﷺ أعرَابيٌّ، فقال: يا رَسُولَ الله، أتيناك وما لنا بعِيرٌ يَئِطّ، ولا صَغِيرٌ يَغِطّ. ثمّ طلَبَ منه السّقْيا، وأَنشَدَ شعراً يقول فيه:

وَلَيْسَ لَنَا إِلّا إِلَيْكَ فِرَارُنَا ... وَأَيْنَ فِرَارُ النَّاسِ إِلّا إِلَى الرُّسْلِ

فقام ﷺ يجرّ رداءه فصَعِدَ المنبر ودَعا فسقيَ، وقال: «لَوْ كَانَ أَبُو طَالِبٍ حَيّاً لَقَرَّتْ عَيْنَاهُ، مَنْ يُنْشِدُنَا قَوْلَهُ»؟، فقام عليٌّ فقال: يا رسُولَ الله كأنك تريدُ قوله:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

٢٤ ـ وَفْدُ بَنِي أَسَد

وَفَدَ على رَسُوْلِ الله ﷺ رَهْطٌ من بني أَسَدٍ، وفيهم: ضِرَارُ بنُ الأَزْوَر، ووَابِصَةُ بنُ مَعْبَد، وطُلَيحَةُ الذِي ادّعَى النبوّةَ بعدَ ذلك، ثُمّ أسلمَ وحَسُنَ إِسلامُه، وفيهم: مُعَاذَةُ بنُ عبدِ الله بنِ خَلَف، وحَضْرَمِيّ بنُ عَامر، ولما قَدِمُوا كان رَسُوْلُ الله ﷺ جالساً في المسجدِ مع أصحابه، فسلّموا عليه، وقال رجلٌ منهم: يا رَسُوْل الله، أشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله، جئناك يا رسُولَ الله ولم تبعث إلينا بَعْثاً، ونحنُ لمن ورَاءَنا. وقال حضرميُّ بنُ عامرٍ: أتيناك نَتَدَرَّعُ الليلّ البَهِيمَ، في سنةٍ شهباء، ولم تبعثْ إلينا، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك العرَبُ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسۡلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

ثمّ سألوه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما كانوا يفعلونه في الجاهلية، من العيافة وهي زجر الطير، والتّخرّص على الغيب، والكهانة، وهي الأخبار عن الكائنات في المستقبل، وضرب الحصباء، فنهاهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، وأقاموا أياماً يتعلمون الفرائضَ، ثمّ جاؤوا رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوَدّعُوه وأمرَ لهم بجوائزَ، ثم انصرفوا إلى أهلِيهم.

٢٥ ـ وَفْدُ بَنِي عُذْرَةَ

وَفَدَ على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اثنا عشر رجلاً من بني عُذْرَةَ، وسلّمُوا بسَلام الجاهليّة، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ القَوْمُ»؟، فقال قائلهم: مِن بني عُذْرَةَ، أخو قُصيٍّ لأُمِّه، نحنُ الذِين عضدوا قُصَيّاً، وأزاحوا مِن بطنِ مَكَّةَ خُزَاعَةَ وبني بكرٍ، فلنا قَرَاباتٌ وأَرْحَامٌ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَرْحَباً بِكُمْ وَأَهْلاً، فَاسْتَأْنِسُوا وَلَا تَسْتَوْحِشُوا، مَا أَعْرَفَنِي بِكُمْ»، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ تَحِيَّةِ الإِسْلَامِ»؟، قالوا: يا محمّدُ، كنّا على ما كان عليه آباؤُنا، فقَدِمْنَا مُرْتَادِينَ لأنفُسِنَا ولقَومِنا، فإلَامَ تدعو؟، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ الله وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَنْ تَشْهَدُوا أَنّي رَسُولُ الله إِلَى النّاسِ كَافّةً»، قالوا: فما وراءَ ذلك؟، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصّلَوَاتُ الخَمْسُ، تُحْسِنُ طُهُورَهُنَّ وَتُصَلِّيْهِنَّ لِمَوَاقِيتِهِنَّ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ العَمَلِ»، ثم ذكر لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باقي الفرائض من الصيام والزكاة والحج، فأسلموا.

ثمّ بشَّرَهم رَسُوْلُ الله ﷺ بفتح الشّام عليهم، وَهَرَبِ هِرَقْلَ إلى مُمْتَنَعِ بلَادِه، ونهاهم ﷺ عن سُؤالِ الكَاهِنَة، فقد كانوا قالوا له: يا رسُولَ الله، إنّ فينا امرأةً كاهِنةً، وقريشٌ والعَرَبُ يتحاكمون إليها، أفنسألها عن أمورٍ؟، فقال ﷺ: «لَا تَسْأَلُوهَا عَنْ شَيءٍ». وقد نهاهم ﷺ عن الذّبائح التي كانوا يذبحونها إلى أصنامهم، فقالوا: نحنُ أعوانُك وأنصارُك، ثمّ انصرفوا وقد أُجِيزُوا.

٢٦ ـ وَفْدُ بَنِي بَلِي

وَفَدَ على رَسُوْلِ الله ﷺ وَفْدٌ مِن بَلِيٍّ وهم حَيٌّ من قضاعة، وكان منهم: أبو الضُّبَيب وهو شيخهم، فنزلوا على رُوَيْفَعِ بنِ ثابتٍ البَلَوِيّ فقدم بهم على رَسُوْلِ الله ﷺ فقال: يا رَسُوْلَ الله، هؤلاء قومي، قدموا عليك مُقِرِّينَ بالإسلام، وهُم على مَن ورَاءَهم مِن قومِهم، فقال ﷺ: «مَرْحباً بِكَ وَبِقومِكَ»، فَأَسْلَمُوا، فقال ﷺ: «الحَمْدُ لله الذِي هَدَاكُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَمَنْ مَاتَ مِنكُمْ عَلَى غَيرِ الإِسْلَامِ فَهُوَ فِي النَّارِ». فتقدّم أبو الضُّبَيبِ فجلَس بين يدي رَسُوْلِ الله ﷺ فقال: يا رسُولَ الله، إنّا وفَدْنا إليك لنُصَدِّقَك، ونشْهَدَ أنك نبيٌّ حقٌّ، ونخلعَ ما كنا نعبد وكان يعبد آباؤنا، وإنَّ لي رَغْبةً في الضّيافة، فهل لي في ذلك أجر؟، فقال: «نعَمْ، وَكُلّ مَعْرُوفٍ صَنَعْتَهُ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ فَهُوَ صَدَقَةٌ»، فقال: يا رسُولَ الله ما وقتُ الضّيافة؟، قال: «ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلّ لِلضَّيفِ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَكَ فَيُحْوِجَكَ»، قال: يا رَسُولَ الله، أرأيتَ الضّالة من الغنم أجدُها في الفَلَاة؟، قال: «هِيَ لَكَ، أَوْ لِأَخِيْكَ، أَوْ لِلذِّئْبِ». قال: فالبعيرُ؟، قال: «مَا لَكَ وَلَه؟، دَعْهُ يَجِدْهُ صَاحِبُهُ». قال رُوَيْفَع: ثم قاموا

فرجعوا إلى منزلي، فإذا رَسُوْلُ الله صَلَّىٰلِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يأتي منزلي يحمِلُ تمْراً، قال: «اسْتَعِنْ بِهَذَا»، فكانوا يأكلون منه، فأقاموا ثلاثة أيام، ثمّ وَدّعُوا رَسُوْلَ الله صَلَّىٰلِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأجازَهم، ورجعوا إلى بلادِهم.

٢٧ ـ وَفْدُ بَنِي مُرَّة

وَفَدَ عليه صَلَّىٰلِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ثلاثةَ عشرَ رجلاً من بني مرّة، رأسهم الحارثُ بن عوف، فقالَ: يا رسُولَ الله إنا قومُك وعشيرتُك، نحنُ قومٌ من بني لؤي بن غالب، فتبسَّمَ إليهم رَسُوْلُ الله صَلَّىٰلِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقال للحارث: «أَيْنَ تَرَكْتَ أَهْلَكَ»؟ فقال: بسلاح وما وَالاها، فقال: «كَيْفَ البِلَادُ»؟، فقال: والله إنا لمُسْنِتُونَ، فادعُ اللهَ لنا، فقال صَلَّىٰلِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ اسْقِهِمُ الغَيْثَ»، ثم أقاموا أياماً، وأرادوا الانصِرَافَ إلى بِلادِهم، فجاؤوا رَسُوْلِ الله صَلَّىٰلِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مُوَدِّعينَ له، فأَمرَ بلالاً أَنْ يُجَيزَهم، فأجازَهم بعشَرةِ أَوَاقٍ من فضّة، وفضّلَ الحارثَ بنَ عوفٍ فأعطاه اثني عشر أوقية، ورجعوا إلى بلادهم فوجدوا البلاد مطيرةً فسألوا قومَهم متى مُطِرْتُم؟، فأخبروهم، فإذا هو ذلك اليوم الذي دعا فيه رَسُوْلُ الله صَلَّىٰلِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأخصبتْ لهم بعد ذلك بلادُهم.

٢٨ ـ وَفْدُ خَوْلَان

وَفَدَ على رَسُوْلِ الله صَلَّىٰلِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عشرةٌ من قبيلةِ خَوْلَان من اليمن، فقالوا له: يَا رَسُولَ الله نحنُ على مَن وراءَنا من قومِنا، ونحنُ مُؤمنونَ بالله عَزَّوَجَلَّ، مُصَدِّقونَ بِرَسُولِه، وقد ضَرَبْنا إِليكَ آباطَ الإِبل، ورَكِبْنَا حُزُونَ الأرض وسُهُولَها، والمنّة لله ولَرَسُولِه عَلينا، وقدمنا زائرينَ لك. فقال صَلَّىٰلِلَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ

مَسِيرِكُمْ إِلَيَّ، فَإِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ خُطْوَةٍخطَاهَا بَعِيرُ أَحَدِكُمْ حَسَنَةٌ، وَأَمَّا قَوْلُكُمْ زَائِرِينَ لَكَ، فَإِنَّهُ مَنْ زَارَنِي بِالمَدِينَةِ كَانَ فِي جِوَارِي يَومَ القِيَامَةِ»، فقالوا: يا رسُولَ الله، هذا السَّفَرُ الذي لا تَوى عَليهِ أي لا هَلَاك.

ثمّ سأَلهم رَسُوْلُ الله ﷺ عن صَنَمِ خَولَان الذي كانوا يعبدونَه، فقالوا: أبدلَنا الله تعالى مَا جِئْتَ به، وقد بَقِيَتْ منّا بقايا؛ شَيخٌ كبيرٌ وعَجُوزٌ كبيرةٌ مُتَمَسِّكُونَ به، ولو قَدِمْنا علَيهِ هدَمْناه إِنْ شاءَ الله تعالى فقد كنّا منه في غرورٍ وفتنة، فقال لهم رَسُوْلُ الله ﷺ: «وَمَا أَعْظَمُ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ فِتْنَتِه»؟، فقالوا: لقد رَأَيْتُنَا أَسْنَتْنَا حتّى أكلَنا الرِّمَّةَ، فجمعنا ما قدَرْنَا عليه، وابْتَعْنَا مِائَةَ ثورٍ ونَحَرْنَاهَا له قُرْبَاناً في غَدَاةٍ واحِدَةٍ، وتركنَاها يَرِدُها السّباع ونحنُ أَحْوَجُ إِليهَا مِن السِّباع، فجَاءَنا الغيثُ مِن سَاعتِنا، ولقَدْ رَأَينا الغَيثَ يُوارِي الرِّحَالَ، وذكروا لرَسُوْلِ الله ﷺ ما كانوا يَقْسِمُونَ لهذا الصَّنَمِ مِنْ أَمْوَالِهم ومن نَعَمِهم وحَرْثِهم، قالوا: كنّا نتحاكم إليه فيتكلّمُ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «تِلْكَ الشَّيَاطِينُ تُكَلِّمُكُمْ»، وسألوه ﷺ عن فرائض الله تعالى فأخبرَهم بها، وأمرهم بالوفاءِ بالعهد، وأداءِ الأمانة، وحُسْنِ الجِوَارِ لمن جاوروا، وأَنْ لا يظلموا أَحَداً، فإنّ الظُّلْمَ ظلماتٌ يومَ القيامة، ثمّ وَدَّعُوهُ ﷺ بعد أيام وأجازَهم، فأعطى كل واحدٍ اثنتي عشرة أوقية ونَشّاً، ورجعوا إلى قومِهم فلم يحلّوا عُقْدَةً حتّى هَدَمُوا الصَّنَم.

٢٩ - وَفْدُ بَنِي مُحَارِب

وَفَدَ على رَسُوْلِ الله ﷺ عشرةٌ من بَنِي محارب وفيهم: خزيمة بن سواد، وقد كانوا أغلظَ العربِ وأشدَّهم على رَسُوْلِ الله ﷺ أيامَ عَرْضِه

نَفْسَه على القبائل في المَواسم يدعوهم إلى الله تعالى، فجلسوا عنده يوماً، وأَدَامَ ﷺ النَّظرَ إلى رَجُلٍ منهم وقال له: «قَدْ رَأَيْتُكَ»؟، فقال: والله لقَدْ رأيتني، وكلّمْتُك بأقبحِ الكَلام وردَدْتُك بأقبحِ الرَّدِّ بِعُكَاظ، وما كان في أصحابي أشدّ عليك يومئذٍ ولا أبعد عن الإسلام منّي، فأحمدُ الله الذي جاءَ بي حتّى صَدّقْتُ بك، ولقد ماتَ أولئك النّفر الذين كانوا معي على كفرِهم، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ القُلُوبُ بِيَدِ الله ﷻ». فقال: يا رَسُولَ الله، استغفر لي مراجعتي إياك، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنّ هَذَا الإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ»، ثم أجازَهم كما يجيز الوفود، فانصرفوا إلى أهليهم.

٣٠ ـ وَفْدُ صُدَاء

وفَدَ على رَسُوْلِ الله ﷺ خمسَةَ عشرَ رجلاً من صُدَاءٍ، وهو حَيٌّ من عَرَبِ اليمن، وسببُ ذلك أنه ﷺ كانَ قد هَيّأ بعثاً فيه أربعُمائةٍ من المسلمين، واستعملَ عليهم قيسَ بنَ سعدِ رضي الله عنهما، ودفع له لواءً أبيض وراية سوداء، وأمره أن يطأَ ناحيةً مِن اليمن كان فيها صداء، فقَدِمَ رجلٌ من صداء عليه ﷺ، وقد علم بالجيش، فقال: يا رسُولَ الله، قد جئتك وافداً على مَن ورَائي، فَارْدُدِ الجيشَ، وأنا لك بقومي، فردّ رَسُوْلُ الله ﷺ قيساً، وخرج الصُّدَائي إلى قومِه فقَدِمَ بهم، فقال سَعْدُ بنُ عبادة: يا رَسُولَ الله، دعهم ينزلون عَليَّ، فنزلوا عليه فحبَاهم وأكرَمَهم وكسَاهم، ثمّ ذهبَ بهم إلى النبيِّ ﷺ، فبايعوه على الإسلام، ورجعوا إلى قومِهم، ففشَا فيهم الإسلامُ، وَوَافَى رَسُوْلَ الله ﷺ منهم مائةُ رَجُل في حجَّةِ الوَداع.

والرّجل الذي كان سبباً في رَدِّ الجيش ومجيءِ الوَفْدِ هو زياد بن الحارث

الصدائي، وقد ذكرَ زيادٌ أنه ﷺ قال له: «يَا أَخَا صُدَاءٍ إِنَّكَ لَمُطَاعٌ فِي قَومِكَ»؟، قال: فقلتُ: بلى مِنْ مَنِّ الله ﷻ ومَنِّ رَسُولِه، فقال ﷺ: «أَفَلَا أُؤَمِّرُكَ عَلَيهِم»؟، قلت: بلى يا رسولَ الله، فكتب لي كتاباً، وكنتُ معه ﷺ في بعضِ أسفَاره، فلزمتُ رِكابَه، وجعلَ أصحابه يتفرقون عنه لمّا كان السّحَر فقال ﷺ: «أَذِّنْ يَا أَخَا صُدَاءٍ»، فأذّنتُ على راحلتي، ثم سرنا حتّى نزلنا، فذهب ﷺ لحاجته ثمّ رجع، فقال: «هَلْ مَعَكَ مَاءٌ»؟، قلت: معي شَيءٌ قليل لا يكفيك، قال: «هَاته»، فجئتُ به، فقال: «صُبْ»، فصببتُ ما في الإِدَاوَةِ في القَعْبِ، وجعل الصّحَابَة يتلاحقون، ثم وضعَ ﷺ كفّه في الإناءِ فرأيتُ بين كل أصبعين من أصابعه عيناً تفورُ، ثم قال: «يَا أَخَا صُدَاءٍ، لَوْلَا أَنِّي أَسْتَحِي مِنْ رَبِّي ﷻ لَسَقَيْنَا وَأَسْقَينَا»، ثمّ توَضّأَ، وقال: «أَذِّنْ فِي أَصْحَابِي: مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ فِي الوَضُوءِ فَلْيَرِدْ»، فورَدَ النّاسُ، ثُمَّ جاءَ بلالٌ ليقيمَ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ أَخَا صُدَاءٍ أَذَّنَ، وَمَنْ أَذَّنَ فَهُوَ يُقِيمُ»، فأقمتُ، وتقدم رَسُوْلُ الله ﷺ فصلى بنا. فلمّا سلمَ من صلاتِه قامَ رجلٌ يشكو مِن عَامِلِه، فقال: يا رسُولَ الله، إنه آخَذَنا بِذُحُولٍ كانت بيننا وبين قومِه في الجاهلية، فقال ﷺ: «لَا خَيْرَ فِي الإِمَارَةِ لِرَجُلٍ مُسْلِمٍ»، ثم قام رجلٌ آخرُ، فقال: يا رسولَ الله، أعطني من الصَّدَقَةِ، فقال ﷺ: «إِنَّ الله ﷻ لَمْ يَكِلْ قِسْمَتَهَا إِلَى مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ حَتّى جَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ، فَإِنْ كُنْتَ جُزْءاً مِنْهَا أَعْطَيْتُكَ، وَإِنْ كُنْتَ غَنِيّاً عَنْهَا فَإِنّمَا هِيَ صُدَاعٌ فِي الرَّأسِ وَدَاءٌ فِي البَطْنِ»، فقلتُ: يا رَسُولَ الله، هذا كتابك، فقال ﷺ: «وَلِمَ»؟، قلت: إني سمعتك تقول: لا خير في الإمارة لرجل مسلم، وأنا رجل مسلم، ثم تقول: من سأل الصدقة وهو عنها غني فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن، وأنا غني، فقال رَسُوْلُ الله

ﷺ: «أَمَا إِنَّ الذِي قُلْتُ كَمَا قُلْتُ»، ثم قال ﷺ: «دُلّنِي عَلَى رَجُلٍ مِنْ قَومِكَ أَسْتَعْمِلُهُ»، فدَلَلْتُه على رَجُلٍ فاستعمله. ثم قلت: يا رَسُولَ الله إن لنا بئرا إذا كان الشتاء كفانا ماؤُها، وإن كان الصّيف قلّ علينا فتَفَرَّقْنا على المياه، والإسلامُ فينا قليلٌ، ونَحْنُ نَخَافُ، فادْعُ الله ﷻ لنا في بئْرِنا، فقال ﷺ: «نَاوِلْنِي سَبْعَ حَصَيَاتٍ»، فناولته، ففَرَكَهُنّ في يَدِه الشّرِيفةِ، ودَفَعَهُنَّ إِليّ، وقال: «إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَيهَا فَأَلْقِ فِيهَا حَصَاةً حَصَاةً، وَسَمِّ الله»، ففعلتُ، فما أدركنا لها قعراً حتى السّاعة.

٣١ ـ وَفْدُ غَسّان

وفدَ على رَسُوْلِ الله ﷺ ثلاثةُ نفرٍ مِن غَسّان فأسلموا، وقالوا: لا ندري هل يَتّبِعُنا قومُنا أمْ لا؟، فإنّهم يُحِبُّونَ بقاءَ مُلْكِهِم وقربهم من قيصر، فأجازهم ﷺ بجوائزَ، وانصرفوا، فلما قدموا على قومِهم ولم يَسْتَجِيبُوا لهم كتموا عنهم إسلامَهم.

٣٢ ـ وَفْدُ سَلَامَان

وفَدَ على رَسُوْلِ الله ﷺ سبعة نفر من سلامان، فأسلموا. وفيهم خُبَيبُ بنُ عمرو السَّلَامَانِي وعنه ﵁ قال: صَادَفْنَا رَسُوْلَ الله ﷺ خارجاً من المسجد لِجَنَازةٍ، فقلنا: السّلامُ عليك يا رسولَ الله، قال: «وَعَلَيكُم السَّلَامُ، مَنْ أَنْتُمْ»؟، قلنا: نحن من سلامان قدمنا لنبايعك على الإسلام ونحن على من وراءنا من قومنا، فالتفتَ إلى ثَوبَانَ غُلَامِه فقال: «أَنْزِلْ هَؤُلَاءِ» فقلتُ: يَا رَسُولَ الله ما أفضل الأعمال؟، قال: «الصَّلَاةُ فِي وَقْتِهَا»، وصلينا معه يومئذ الظهر

والعصر، وشكونا له جدب بلادنا، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اسْقِهِمُ الغَيْثَ فِي دَارِهِمْ»، ورفع يدَيه حتَى رأيتُ بياضَ إِبطَيهِ، ثمّ أَقَمْنَا ثلاثة أيام في ضيافته ﷺ، ثم ودعناه، فأمر لنا بجوائز، فأعطانا بلال خمسَ أوَاقٍ فضّة لكلّ واحد، واعتذر إلينا وقال: ليس عندنا اليوم مال، فقلنا: ما أكثر هذا، ثمَّ رجعنا إلى بلادنا فوجَدْنَاها قَدْ مُطِرَتْ في اليوم الذي دعا فيه رَسُوْلُ الله ﷺ.

٣٣ ـ وَفْدُ بَنِي عَبْس

وفَدَ على رَسُوْلِ الله ﷺ ثلاثة من بني عبس، فقالوا: يا رسول الله، قَدِمَ علينا قُرَّاؤُنا فأخبرُونا أنه لا إسْلام لمنْ لا هجرة له، ولنا أموال ومواشٍ هيَ معاشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا مِن آخرنا، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «اتَّقُوا الله حَيْثُ كُنْتُمْ فَلَنْ يَلِتَكُمْ مِنْ أَعْمَالِكِم شَيئاً» وسألهم رَسُوْلُ الله ﷺ عن خالد بن سنان هل له عقب؟، فأخبروه أنه لا عقب له كانت له ابنة فانقرضت، فأنشأ ﷺ يُحَدِّثُ أَصْحَابَه عَن خَالِدِ بنِ سِنَانٍ، وقال: «إِنّهُ نَبِيٌّ ضَيَّعَهُ قَومُهُ».

٣٤ ـ وَفْدُ قَبيلَةِ النَّخع

وفَدَ منهم مائتا رجل من اليمن في المحَرّم سنة إحدى عشرة وهم آخرُ الوفود وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل، وفيهم زُرَارَةُ بنُ عَمْرو فقال: يا رسُولَ الله، إني رأيت في سفري رؤيا هالتني؛ رأيتُ أَتاناً ولدَتْ جَدْياً أَسْفَع أَحْوَى ـ أي: أسود مشرب بحمرة خفيف السواد ـ، فقال ﷺ له: «هَلْ تَرَكْتَ أَمَةً لَكَ مُصِرَّةً لَكَ عَلَى حَمْلٍ»؟ قال: نعم، فقال: «فَإِنَّهَا تَلِدُ غُلَاماً وَهُوَ ابْنُكَ»،

قال: فما له أسقع أحوى؟، قال: «ادْنُ مِنّي»، فدنا، فقال: «هَلْ بِكَ مِنْ بَرَصٍ تَكْتُمُهُ»؟ قال: فوَ الذي بعثك بالحقّ ما علم به أحدٌ ولا اطّلع عليه غيرك!. ثم قال: ورأيتُ النّعمانَ بنَ المنذر ملكَ العَرَب وعليه قُرْطَان، ودُمْلُجَان، فقال: «ذَلِكَ مُلْكُ العَرَبِ رَجَعَ إِلَى أَحْسَنِ زِيِّهِ وَبَهْجَتِهِ»، قال: ورأيت عَجُوزاً شَمْطَاء، قال: «تِلْكَ بَقِيّةُ الدُّنْيَا»، قال: ورَأيتُ ناراً حالت بيني وبين ابني، وهي تقول: لظى لظى، بصير وأعمى، أطعموني أكَلَكم أَهْلُكُم ومَالُكُم، فقال ﷺ: «تِلْكَ فِتْنَةٌ تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَان، يَقْتُلُ النّاسُ إِمَامَهُم وَيَشْتَجِرُونَ اشْتِجَارَ أَطْبَاقِ الرَّأسِ، يَحْسَبُ المُسِيءُ فِيهَا أَنهُ مُحْسِنٌ، وَيَكُونُ دَمُ المُؤْمِنِ عِنْدَ المُؤْمِنِ أَسْهَلَ مِنْ شُرْبِ الماءِ البَارِدِ، وَإِنْ مَاتَ ابنُكَ أَدْرَكْتَ الفِتْنَةَ وَإِنْ مِتَّ أَنْتَ أَدْرَكَهَا ابْنُكَ»، قال: يا رَسُولَ الله، ادْعُ اللهَ أَنّي لا أُدْرِكُها، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكهَا». فماتَ زُرَارَةُ وبقيَ ابنُه عمرو، فكانَ ممَّنْ شَارَك في خَلْعِ عُثْمان بنِ عفّان.

بَابُ
كُتُبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى المُلوك

لما أراد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكْتُبَ للملوك قِيلَ له: يا رسول الله، إنّهم لا يقرؤون كتاباً إلّا إذا كان مَخْتُوماً؛ لأنّ في ذلك إشعاراً بأنّ الأحوالَ المعرُوضَةَ عليهم ممّا لا يطّلعُ عليها غيرُهم، وهذا إذا كانَ الختمُ عليها بعد طَيِّ الكتاب، ويجعل عليها نحو شَمْع ويختمُ فوق ذلك، أو يكون الغرض من ذلك أَمْنَ التَّزْوير لِبُعْدِه مع الختم، فاتّخذَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتماً من فضّة، بعد أنْ اتخذَ خاتماً من ذَهَبٍ، فاقتدى به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَوُو اليَسَارِ مِن أَصْحَابه، فصَنعوا خواتيمَ من ذهبٍ، فجاءَه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من الغَدِ: بأَنّ لبسَ الذّهب حَرَامٌ على ذكور أمتك. فطرح رَسُوْلُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك الخاتم، فطرح أصحابُه خواتيمَهم، وكان نقْشُ خاتمِه الفضّة ثلاثة أسطر: محمّدٌ سطر، ورسُولٌ سطر، والله سطر.

وهذه الأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل إلى فوق، محمَّدٌ آخر الأسطر، ورسول في الوسط، والله فوق، والذي يظهرُ أنّ هذه الكتابة كانت مقلوبة حتّى إذا ختم بها يختم على الاستواء، وختم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك الخاتم الكتبَ، وكان في يدِه الشّريفة، ثمّ في يدِ أبي بكر، ثمّ في يدِ عمر، ثمّ في يدِ عثمان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهم، حتى وقعَ في بئْرِ أَرِيس في السّنة التي تُوُفّيَ فيها عثمانُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فالتمَسُوه ثلاثةَ أيامٍ فلَمْ يجدوه.

وكان خاتمه ﷺ في خنصر يدِه اليمنى، وهو قول ابن عباس وطائفة. قال الإمام النووي رحمه الله: التختم في اليمين أو اليسار كلاهما صحَّ فِعْلُه عنِ النّبيِّ ﷺ، لكنّه في اليمين أفضل، لأنه زينةٌ واليمين بها أولى. ونُقِلَ عن أبي زرْعَة: أنه كان في يمينه ﷺ أكثر منه في يساره وكان يجعل فصّه ممّا يلي كَفّه.

وعند عزْمِه ﷺ على إرسَالِ الكُتُب قال لأصحابه: «أَيّهَا النّاسُ إنّ الله قَدْ بَعَثَنِي رَحْمَةً وَكَافّةً، فَأَدُّوا عَنِّي رَحِمَكُمْ الله، وَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيّ كَمَا اخْتَلَفَ الْحَوَارِيّونَ عَلَى عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ»، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَكَيْفَ اخْتَلَفَ الحَوَارِيّونَ يَا رَسُولَ الله؟، قَالَ: «دَعَاهُمْ إِلَى الّذِي دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ فَأَمّا مَنْ بَعَثَهُ مَبْعَثًا قَرِيبًا فَرَضِيَ وَسَلَّمَ، وَأَمّا مَنْ بَعَثَهُ مَبْعَثًا بَعِيدًا فكَرِهَ وَتَثَاقَلَ، فَشَكَا ذَلِكَ عِيسَى إِلَى الله، فَأَصْبَحَ المُتَثَاقِلُونَ وَكُلّ وَاحِدٍ يَتَكَلّمُ بِلُغَةِ الْأُمّةِ الّتِي بُعِثَ إِلَيْهَا».

١ ـ كِتَابُهُ إِلَى قَيْصَر

كتبَ النبيُّ ﷺ كتاباً إلى قَيصَرَ يدعوه فيه إلى الإسلام، وقيصر هو هرقل مَلِكُ الرُّوم، وكلّ مَن مَلَكَ الرّومَ يقال له: قيصر، وبعث ﷺ بالكتاب مع دِحْيَةَ الكَلبيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وأمرَه أن يدفعه إلى قيصر، بعد أن قال ﷺ: «مَنْ يَنْطَلِقْ بِكِتَابِي هَذَا، فَيَسِيرُ إِلَى هِرَقْلَ وَلَهُ الجَنَّةُ»؟.

ولما انتهى دِحْيَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إليه، قال له قومُه: إذا رأيتَ الملِكَ فاسجدْ له، ثمّ لا ترفعْ رأسَك أبداً حتى يأذنَ لك. فقال دِحْيَةُ: لا أفعلُ هذا أبداً

ولا أسجدُ لغيرِ الله، فقالوا: إِذَنْ لا يُؤْخَذُ كِتابُك، فقال له رَجُلٌ منهم: أنا أدلّك على أَمرٍ يُؤْخذُ فيه كتابك ولا تَسْجُدُ له، فقال دِحْية رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: وما هو؟، فقال: إنّ له على كلِّ عَتَبةٍ مِنبراً يجلسُ عليه، فضَعْ صحيفتَك تجاه المنبر، فإنّ أحداً لا يحرِّكُها حتى يأخذَها هوَ، ثمّ يدعو صاحبَها، ففعل، فلما أخذَ قيصرُ الكتابَ وجدَ عليه عنوان كتاب العرب، فدعا التّرجمان الذي يقرأ بالعربية.

ثمّ قال: انظروا لنا مِن قومِه أحداً نسألُه عنه، وكان أبو سُفْيَان بن حرب بالشام، ومعه رجالٌ من قريش في تجارةٍ زمنِ هُدْنَةِ الحُدَيْبِيَة. قال أبو سُفْيَان: أتانا رسولُ قيصرَ، فانطلق بنا حتى قَدِمْنا عليه في بيتِ المقدس، فقال لترجمانه: سَلْهُم أيّهم أقرَبُ نسباً لهذا الرّجل الذي يزعمُ أنه نبيٌّ؟، فقلتُ: أنا أقربُهم نسباً إِلَيه، لأنه لم يكُنْ في الرّكبِ يومَئذٍ من بني عبد مناف غيري، فقال: ما قَرابتُك منه؟، قلتُ: هو ابنُ عمّي، فقال: ادْنُ مني، وأمرَ بأصحابي فجعلوا خلفَ ظَهْري، ثمّ قال لهم: إنّما جعلتكم خلفَ ظهْرِه لتَرُدّوا عليه الكَذِبَ إنْ قَالَه، فو الله لولا الحياء يومئذٍ أَنْ يردّوا عليَّ كَذِباً لكَذَبْتُ، ولكِنّي استحيتُ، فصَدَقْتُ وأنا كارِهٌ، ثمّ قال لي: كيفَ نسبُ هذا الرّجل فيكم؟، قلت: هو منا ذو نسب، قال: هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟، قلت: لا، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟، قلت: لا، قال: هل كان من آبائه ملك؟، قلت: لا، قال: كيف عقله ورأيه؟، قلت: لم نَعِبْ عليه عَقْلاً ولا رأياً قطّ، قال: فأشْرَافُ الناس يتبعونه أم ضُعَفاؤُهم؟، قلت: بل ضُعَفَاؤُهم، قال: فهل يزيدون أو ينقصون؟، قلت: بل يزيدون، قال: فهل يَرْتَدُّ أَحَدٌ منهم سُخْطَةً لدِينِه بعد أن يدخل فيه؟، قلت: لا، قال: فهل يغدر إذا عاهد؟، قلت: لا، ونحن الآن منه

في ذِمَّةٍ لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: فهل قَاتَلْتُمُوه؟، قلت: نعم، قال: فكيف حرْبكم وحَرْبُه؟، قلتُ: دُوَلٌ وسِجَال، قال: فما يأمركم به؟، قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده، ولا نشرك به شيئاً، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصّلاة والصدقة، والصدق والعفاف، ويأمرنا بالوفاءِ وأداء الأمانة.

فقال لترجمانه: قل له: إنّي سألتك عن نسَبِه فزعمتَ أنه فيكم ذو نسبٍ، وكذلك الرّسل تبعث في نسبِ قومها. وسألتك: هل هذا القول قاله أحدٌ منكم قبله، فزعمتَ أَنْ لا فلو كان أحدٌ منكم قال هذا القول قبله لقلتُ: هو يَأْتَمُّ بقولٍ قِيلَ قَبْلَه. وسألتك: هل كنتم تتّهمُونَه بالكَذِب قبل أَنْ يقولَ ما قال؟، فزعمتَ أنْ لا، فعرفْتُ أنه لم يَكُنْ لِيدَعَ الكَذِبَ على الناس ويكذبَ على الله تعالى. وسألتك: هل كان من آبائِه مَلِك؟، فقلت: لا فلو كان من آبائه ملك لقلتُ: رجُلٌ يطلبُ مُلْكَ أَبيه. وسألتك أشرافُ الناس يتّبعونه أمْ ضعفاؤُهم؟، فقلتَ: ضعفاؤهم، وهم أتباعُ الرّسل. وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون؟، فزعمتَ أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتّى يَتِمَّ. وسألتك: هل يرْتَدّ أحدٌ منهم سُخْطَةً لدينه بعد أَنْ يدخلَ فيه؟، فزعمتَ أنْ لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشَتُه القلوبَ لا يَسْخَطُه أَحَدٌ. وسَألتك: هل قاتلتموه؟، فقلتُ: نعم، وأنّ حرْبَكم وحرْبَه دُوَلٌ وسِجَال، وكذلك الرّسل تُبْتَلَى ثم تكون لهم العاقبة. وسألتك هل يغدر؟، فذكرْتَ أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك ماذا يأمركم به؟، فزعمتَ أنه يأمركم بالصّلاة والصّدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، فعلمت أنه نبيّ، وقد كنتُ أعلم أنه خارج، ولكِنْ لم أظنّ أنه فيكم، وإنْ كان ما حدثتني به حقاً فيوشك أَنْ يملكَ موضع قدمي هاتين، ولو أعلمُ أنّي أصل إليه لَتَجَشَّمْتُ لُقِيَّهُ ـ أي: لتكَلّفتُ لقاءه ولو مع المشقة ـ ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلت ذهب

ملكي وقتلني الروم. ثم قال: ولو كنتُ عنده لغَسَلْتُ قَدَمَيه، ولا أطلبُ منه ولايةً ولا مَنْصِباً.

ثمّ دعا بكتابِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقُرِىءَ عليه، فإذا فيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ - أي الفلاحين - ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»، فلمَّا قضى مقالتَه وفرَغَ من الكتاب وعَلَتْ أَصْواتُ الذين حوله وكَثُرَ لغَطُهُم، أمرَ بنا فأُخْرِجْنَا، فلمَّا خرَجْتُ أنا وأصحابي، قلتُ: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبي كَبْشَة، هذا ملك بني الأصفر يخافُه، فمَا زِلْتُ مُوقناً أَنْ سيظهر حتّى أدخلَ الله عليَّ الإسلامَ.

ثمّ أمرَ بإنزال دِحْيَةَ وإكرامِه، وأظهرَ ابنُ أخي قيصرَ الغَيظَ الشّديدَ وقال لعمِّه: قَدِ ابْتَدَأَ بنَفْسِهِ، أَلْقِ بالكِتَاب، فقال له: والله إنّكَ لَضَعيفُ الرَّأي، أَرْمِي بكتابِ رَجُلٍ يأتيه النّاموسُ الأكبرُ؟، هو أَحَقُّ أنْ يبدَأَ بنفسِه، ولقد صَدقَ، ثمّ وضعَ الكتابَ في قَصَبَةٍ مِن ذَهَبٍ تَعظيماً له، وأَلْصَقَ عليه خِرْقةَ حريرٍ، ولما جاءَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبرُ عَن قيصرَ قال: «ثَبَتَ مُلْكُهُ، سَيَكُونُ لَهُمْ بَقِيّة». وقد قال بعضُ ملوكِهم للمَنْصُورِ: إنّ كتابَ نَبِيِّكُم لجدِّي قيصرَ ما زِلْنَا نَتَوَارَثُه إلى الآنَ، وقد ذَكَرَ لنا آباؤُنَا عَنْ آبائِهم أنه ما دَامَ هذا الكتاب عندنا لا يزولُ الملكُ عنّا، فنحنُ نحْفَظُه غايةَ الحفظِ ونُعَظِّمُه، ونكْتُمُه عَنِ النّصارَى ليَدُومَ الملكُ فِينَا.

ثم إن هرقل رجع إلى حمص وكان له فيها قصرٌ عظيم فأغلق أبوابَه وأمرَ مُنادِياً يُنَادِي: أَلا إِنّ هِرَقلَ قَدْ آمَنَ بمُحَمّدٍ واتّبعَه. فدَخَلَتْ الأَجْنَادُ في سِلَاحِها وطَافَتْ، تُرِيدُ قَتْلَه، فأَرْسَلَ إليهم: إِنِّي أَرَدْتُ اختبارَ صَلَابتِكُم في دِينِكم، فقدْ رَضِيتُ، فرضوا عنه. وفي البُخاري: أَنّ قيصرَ لما سارَ إلى حمص أَذِنَ لعُظماءِ الرُّومِ في دَسْكَرَةٍ له، ثمّ أمرَ بأبوابِهَا فأُغْلِقَتْ، ثمّ اطّلعَ، فقال: يا مَعْشَرَ الرّوم، هل لكُمْ في الفَلَاحِ والرّشدِ، وأَنْ يَثْبُتَ ملكُكم، فتُبايُعوا هذا النّبيَّ؟، فحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأَبوَابِ، فوجَدُوها قد أُغْلِقَتْ، فقالوا له: أَتَدْعُونا أَنْ نتركَ النّصرَانيةَ ونصيرُ عَبيداً لأَعْرَابيّ؟ فلمّا رَأى قَيصرُ نفرَتَهم وآيَسَ مِن الإِيمانِ منهم، قال: إنّي قلتُ مقالتي أختبرُ بها شِدَّتكم على دِينكم، فقَدْ رَأيتُ. فسَجَدُوا له ورضُوا عنه.

وعند ذلك كتبَ كتاباً وأرسلَه مع دِحْيَةَ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول فيه: إِنِّي مُسْلِمٌ، ولكنّني مَغْلُوبٌ. وأَرْسَلَ بِهَدِيّةٍ، فلمَّا قُرِئَ الكتابُ عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كَذَبَ عَدُوُّ الله، لَيْسَ بِمُسْلِم»، وقَبِلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هديتَه، ثمّ قسّمَها بين المسلمين، ومِصْدَاقُ قولِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ قيصرَ بعدَ هذا قَاتلَ المسلمين بغَزْوَةِ مُؤْتَة.

ثمّ إنّ النّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتبَ إليه من تبوكَ يدعوه للإسلام، فقاربَ الإجابةَ، ولم يُجِبْ. قالَ الحافظُ ابنُ حَجَر رَحِمَهُ اللهُ كلاماً خُلاصَتُه: فعلى هذا يكون إطلاقُ صاحبِ الاسْتِيعَابِ أنه آمنَ، أي أنه أظهرَ التّصْدِيقَ الإسلام، ولكنّه لم يَسْتَمِرَّ عليه، ولم يعمل بمُقتضاه، بل شَحَّ بمُلْكِه، وآثرَ العَافيةَ على العَاقبةِ.

٢ ـ كِتَابُهُ إِلى كِسْرَى

بعث رَسُوْلُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ حُذَافَةَ السَّهمِي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، إلى كسرى، وبعثَ معه كتاباً مختوماً فيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيْمِ. مِن مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إلى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسٍ، سَلَامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الهُدَى وآمَنَ بالله ورَسُولِه، أدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الله، فإنِّي أنَا رَسُولُ الله إلى النَّاسِ كَافَّةً لأنْذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ويَحِقَّ القَوْلُ على الكَافِرِينَ، فأَسْلِمْ تَسْلَمْ، فإنْ أَبَيْتَ فإنَّ إثْمَ المَجُوسِ عَلَيْكَ». فسَارَ إليه عبدُ الله بنُ حُذَافَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه.

ثمّ إنّ كسرى لما أُعْلِمَ بكتابِ رَسُوْلِ الله ﷺ، أذِنَ لحامل الكِتابِ أنْ يدخلَ عليه، فلمَّا وصَل أمرَ كسرى أَنْ يُقْبضَ منه الكتاب، فقال: لا، حتّى أدفعَه إليك كما أمرَني رَسُوْلُ الله ﷺ، فقال كسرى: اُدْنُ، فدنا وناولَه الكتابَ، فدعا من يقرؤه، فقرأه فإذا فيه: «مِنْ مُحمَّدٍ رَسُوْلِ الله ﷺ إلى كسرى عَظِيمِ فَارِسٍ»، فأغضَبه حينَ بَدَأَ رَسُوْلُ الله ﷺ بنفسِه، فصاحَ ومَزَّقَ الكِتابَ قبل أَنْ يعلمَ ما فيه، وأمرَ بإخرَاجِ حامل ذلك الكتاب فَأُخْرِجَ، ولمَّا رَأى ذلك قَعَدَ على رَاحلَتِه وسَارَ، فلمَّا ذهَبَ عن كِسْرَى سَوْرَةُ غَضَبِه، بعَثَ فطَلَبَ حامل الكتاب فَلَمْ يَجِدْهُ، ولمَّا وصَل عبدُ الله إليه ﷺ وأخبرَه الخبرَ قال ﷺ: «مَزَّقَ الله مُلْكَهُ».

ثم كتبَ كسرى إلى بَاذَان عامله باليمن يقول له: بلغني أنّ رَجُلاً من قريش خرج بمَكَّةَ، يزعمُ أنه نبيٌّ، فسِرْ إليه فَاسْتَتِبْهُ، فإنْ تَابَ وإلّا فابْعَثْ إليَّ برَأسِه يكْتُبُ إليَّ هذا الكتابَ الذي بَدأَ فيه بنفْسِه وهو عبدي، فإنْ تكفيني هذا الرّجل

الذي خرَجَ بأرضِك يدعوني إلى دينه وإلّا فعلت فيك كذا وكذا - يتوَعّده -، فبعث باذانُ بكتابِ كِسْرى إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع قَهْرَمانِه، وبعثَ معه رجلاً آخرَ من الفُرسِ، وبعَثَ معهما إلى رَسُوْل الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمُرُه أَنْ ينصرِفَ معهما إلى كسرى.

فلمَّا قَدِمَا عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ قالا له: إنّ مَلِكَ الملوكِ كسرى بعثَ إلى الملك باذان يأمرُه أَنْ يبعثَ إليك مَن يَأتي بك، وقد بعثنا إليك، فَإِنْ أَبيتَ هَلَكْتَ وأَهْلَكْتَ قومَك، وخَرِبَتْ بلادُك، وكانَا على زِيّ الفُرْسِ؛ من حَلْقِ لِحَاهُم وإِعْفَاءِ شَوَارِبَهم، فكَرِهَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النّظَرَ إليهما، ثمّ قال لهما: «وَيْلَكُمَا، مَنْ أَمَرَكُمَا بِهَذَا»؟، فقالا: أَمرَنا رَبُّنا، يعنيان كسرى، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَكِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي بِإِعْفَاءِ لِحْيَتِي وَقَصِّ شَارِبِي»، ثمّ قال لهما: «ارْجِعَا حَتَّى تَأْتِيَانِي غداً»، وأتى رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخبرُ من السّماءِ بأنّ اللهَ قد سلّطَ على كسرى ابنَه يقتُلُه في شَهْرِ كَذَا في لَيْلَةِ كَذَا، فلمَّا كانَ الغَدُ دعاهما، وأخبرَهما الخبَرَ، وكتبَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى باذَان بذلك.

فلمَّا أتى الكتاب باذان توَقّفَ وقال: إنْ كانَ نَبيّاً فسيكونُ ما قال، فقتلَ الله تعالى كِسْرى في اليوم الذي قالَه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على يدِ ولدِه شِيْرَوَيْهِ. وقَدِمَ على باذان كتابُ ولدِ كسرى شِيْرَوَيْهِ، وفيه: أما بعد، فقد قتلتُ كسرى ولم أقتُلْه إلا غَضَباً لفارس، فإنّه قتلَ أشرَافَهم، فتفرّقَ النّاسُ، فإذا جاءَكَ كتابي هذا فخُذْ لي الطّاعَةَ ممّن قبلك، وأَنْظِرِ الرَّجُلَ الذي كانَ كِسْرَى كتبَ إليك فيه، فلا تُزْعِجْهُ حتى يَأتِيَكَ أَمرِي فيه. فعند ذلك بعثَ باذانُ بإِسْلَامِه وإسلامِ مَن معَه إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



٣ ـ كِتَابُهُ إِلَى النَّجَاشِي

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بنَ أميّة الضَّمْري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النّجَاشي وبعث معه كتاباً قال فيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ الله إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، أَسْلِمْ أَنْتَ، فَإِنّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ الله الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ المَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ رُوحُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى فَخَلَقَهُ الله مِنْ رُوحِهِ وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَإِنّي أَدْعُوكَ إِلَى الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتْبَعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالّذِي جَاءَنِي، فَإِنِّي رَسُولُ الله، وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْت فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الْهُدَى»، فلما وصلَ إليه الكتابُ وضعَه على عينيه ونزلَ عَنْ سَرِيرِه فجلسَ على الأرض، ثمّ أسلمَ وشَهِدَ شهادَةَ الحقِّ، ودعا بحُقٍّ مِن عَاج، وجعلَ فيه كتابَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: لَنْ تزال الحبشة بخيرٍ ما كان هذا الكتابُ بين أظْهُرِهِم.

ثمّ كتبَ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جواباً قال فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمَّدٍ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ النّجَاشي أَصْحَمَة، السّلامُ عليك يا نبيَّ الله مِنَ الله ورحمة الله وبركاته الذي لا إله إلا هو، الذي هداني للإسلام. أما بعد: فقد بلغني كتابُك يا رسولَ الله فيما ذكرت من أمر عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فورب السماء والأرض إنَّ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يزيد على ما ذكرت، وقد عرفْنَا ما بُعِثَ به إلينا، وقد قرَّبْنَا ابنَ عمِّك وأصحَابَه ـ يعني جعفرَ بنَ أبي طالب ومَن معه من المسلمين ـ، فأشهدُ أنك رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَادِقاً مُصَدّقاً، وقد بايَعْتُكَ

وبايَعْتُ ابنَ عمِّك، وأسلَمْتُ على يَدِه لله رَبِّ العالمين. فعند ذلك قال ﷺ: «اتْرَكُوا الحَبَشَةَ مَا تَرَكُوكُمْ».

٤ ـ كِتَابُهُ إِلَى المُقوقس

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ حَاطِبَ بنَ أَبي بَلْتَعَةَ ﷺ إلى المُقَوْقِس ملك القِبْطِ بمِصْرَ، وبَعثَ معه كِتاباً قال فيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَرَسُولِهِ إِلَى المُقَوْقِسِ عَظِيمِ القِبْطِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْت فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْقِبْطِ، ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

فانطلقَ حَاطِبٌ ﷺ بالكتاب حتّى دخلَ على المُقَوْقِس بالإسكندريّة فنظرَ إلى الكتابِ وقرَأه، ثمّ قال لحاطبٍ: ما منَعَه إِنْ كانَ نبيّاً أَنْ يدعوَ على مَنْ خَالَفه مِنْ قَومِه؛ الذين أخرجُوه من بلدِه إلى غيرها أَنْ يُسَلَّطَ عليهم؟. واسْتعادَ مِنه الكلامَ مرّتين ثمَّ سكت، فقال له حاطبٌ: أَلَسْتَ تشهدُ أَنّ عيسى بنَ مريم رَسُولُ الله؟، فمَا له حيثُ أخذَه قومُه فأرادوا أَنْ يقتُلوه أَنْ لا يكونَ دعَا عليهم أَنْ يُهْلِكَهمُ الله تعالى حتّى رَفعَه الله إليه؟، قال: أحسنت، أنتَ حكيمٌ جاءَ مِن عندِ حَكيم، ثمّ قال له حاطبٌ ﷺ: إنَّه كانَ قَبْلَكَ رَجُلٌ يَزْعُمُ أنه الرَّبُ الأَعْلى ـ يعني فرعون ـ فأخذَهُ الله نكَالَ الآخرة والأولى، فانتقمَ بهِ ثمّ انتقم مِنْه، فاعْتَبِرْ بغَيرِكَ ولا يَعْتَبِرْ غَيرُكَ بك، إنّ هذا النّبيّ ﷺ قد دعا النّاسَ، فكانَ أشدّهم عليه

قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بِشَارَةُ موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبِشَارَةِ عيسى بمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما دُعَاؤُنا إيَّاكَ إلى القُرْآنِ إلا كدُعَائِكَ أهل التّوراة إلى الإنجيل، وكلّ نَبِيٍّ أَدْرَكَ قوماً فَهُمْ أمّتُه، فالحقُّ عليهم أَنْ يُطِيعُوه، وأنتَ ممَّنْ أَدْرَكَ هذا النّبِيَّ، ولَسْنَا نَنْهَاكَ عَنْ دِينِ المسِيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكِنَّا نَأْمُرُكَ به. فقال: إنِّي قَدْ نظَرْتُ في أمرِ هذا النبيِّ فوجَدْتُه لا يأمرُ بمَزْهُودٍ فيه، ولا ينهى عَن مَرْغُوبٍ عنه، ولمْ أَجِدْهُ بالسَّاحِرِ الضّالِّ ولا بالكَاهِنِ الكَذّاب، وقد وَجَدْتُ معه آلةَ النّبوَّةِ؛ بإِخْرَاجِ الخَبْءِ، والإخبارِ بالنّجْوَى، وسَأَنظرُ. ثمّ إنّه أخَذَ كِتَابَ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعَلَه في حُقٍّ مِن عَاجٍ، وختَمَ عليه، ودفعَه إلى جَارِيةٍ له.

ثمَّ دعا كَاتِباً يكتبُ بالعربية فكتبَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بسم الله الرحمن الرحيم. لمُحَمَّدِ بن عبد الله من المُقَوْقِس عظيم القِبْط، سلامٌ عليك. أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمتُ ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمتُ أنّ نبيّا قَدْ بَقِيَ، وقد كنتُ أظنُّ أنه يخرجُ بالشّام، وقد أَكرَمْتُ رسُولَك، وبعثتُ لك بجاريتين لهما مكانٌ في القبطِ عظيمٌ، وهما مارية وسِيرين، وبثيابٍ من قباطي مصر، وأهديتُ إليك بغلةً لتركبها، والسَّلامُ عليك.

ثمّ دفعَ لحاطبٍ مائةَ دينارٍ وخمسةَ أثواب، وأرسلَ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمائمَ، وقباطي، وطيباً وعوداً ونَدّاً ومِسْكاً، معَ ألفِ مثقالٍ مِنَ الذّهَبِ ومعَ قَدَحٍ مِن قَوَارِيرَ، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشْرَبُ فيه، لأنه كان سألَ حاطباً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أيُّ طعامٍ أحَبُّ إلى صاحبِكم؟، قال: الدّباءُ: يعني القَرْعَ، ثمّ قال له: في أيِّ شيءٍ يشربُ؟، قال: في قَعْبٍ من خشَبٍ، وأهدَى إليه حِماراً أشْهَبَ، وفرَساً، والبغلة

دُلْدُل، وكانت شَهْباء، وأهدى له عسلاً من عسَل بِنْهَا ـ قرية من قُرى مِصْرَ ـ، وقد أُعْجِبَ به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَكَل منه، وقال: «إِنْ كَانَ عَسَلُكُمْ أَشْرَفَ فَهَذَا أَحْلَى»، ثمّ دعا في عسل بِنْهَا بالبَركة. وأهدَى إليه مربعةً يضَعُ فيها المكحلةَ، وقارورةَ الدّهنِ والمُشْطِ والمقصّ والمسْوَاكِ، ومكحلةً من عِيدانٍ شَاميّة، ومرآة ومشطاً، وأرسلَ مع الهدية طَبيباً، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للطبيبِ: «ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ نَحْنُ قَوْمٌ لَا نَأْكُلُ حَتَّى نَجُوعَ وَإِذَا أَكَلْنَا لَا نَشْبَعُ». ولم يَزِدْ على ذلك، ولم يُسْلِمْ.

وذُكِرَ: أَنّ المُقَوْقِسَ قال لحَاطِب: القِبطُ لَنْ يُطَاوِعُونِي في اتباعه، ولا أحبُّ أنْ يَعْلَمُوا بمحاورتي إيّاكَ، وأنا أَضِنُّ بمُلكِي أَنْ أُفارِقَه، وسيظهرُ على البلادِ، وَسينزلُ بسَاحَتِنا هذه أصحابُه من بعدِه، فارجع إليه، وارحلْ من عندي، ولا تُسْمِعِ القِبْطَ مِنكَ حَرْفاً. فرَحَلَ حاطبٌ من عنده، وبعثَ معه جيشاً إلى أَنْ دخلَ جزيرةَ العربِ، فوجدَ قَافِلةً تريدُ المدينةَ فرَدَّ الجيشَ وارتفقَ بها. وقال فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ضَنَّ الخَبِيثُ بِمُلْكِهِ، وَلَا بَقَاءَ لِمُلْكِهِ».

٥ ـ كِتَابُهُ إِلَى المُنذِرِ بن سَاوَى

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العَلَاءَ بنَ الحَضْرميّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، إلى المنذر بن سَاوى العَبْدِي بالبحرين، ومعه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، فأسْلَمَ، وحَسُنَ إسْلَامُه، ثم كتبَ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتاباً قال فيه: أَمّا بَعْدُ: يَا رَسُولَ الله، فَإِنّي قَرأت كِتَابَك عَلَى أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَحَبَّ الإِسْلَامَ، وَأَعْجَبَهُ وَدَخَلَ فِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَرِهَهُ، وَبِأَرْضِي مَجُوسٌ وَيَهُودُ، فَأَحْدِثْ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ أَمْرَكَ.

فبعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه كتاباً آخرَ مع العَلَاءِ بنِ الحَضْرميّ يقول فيه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى، سَلَامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أُذَكِّرُكَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَنْصَحْ فَإِنَّمَا يَنْصَحُ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ رُسُلِي وَيَتَّبِعْ أَمْرَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ نَصَحَ لَهُمْ فَقَدْ نَصَحَ لِي، وَإِنَّ رُسُلِي قَدْ أَثْنَوْا عَلَيْكَ خَيراً، وَإِنِّي قَدْ شَفَّعْتُكَ فِي قَوْمِك، فَاتْرُكْ لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، وَعَفَوْتُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَإِنَّكَ مَهْمَا تُصْلِحْ فَلَنْ نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِك، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ فَعَلَيْهِ الجِزْيَةُ».

٦ ـ كِتَابُهُ إِلَى ابْنَي الجُلَنْدِي

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بنَ العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى جَيفَرَ وعبدِ ابنَي الجُلَنْدَى مَلِكَي عُمَان، ومعه كتاباً فيه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ إِلَى جَيْفَرَ وَعَبْدٍ ابْنَي الْجُلَنْدِي، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكُمَا بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمَا تَسْلَمَا، فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَإِنَّكُمَا إِنْ أَقْرَرْتُمَا بِالْإِسْلَامِ وَلَّيْتُكُمَا، وَإِنْ أَبَيْتُمَا أَنْ تُقِرَّا بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ مُلْكَكُمَا زَائِلٌ عَنْكُمَا وَخَيْلِي تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمَا وَتَظْهَرُ نُبُوَّتِي عَلَى مُلْكِكُمَا»، وختم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكتابَ.

قال عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فعمدت إلى عَبْدٍ وكانَ أَحْلَمَ الرَّجُلين وأسهَلَهُما خُلُقاً، فقلتُ: إنّي رسول رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليك،

وإلى أخيك، فقال: أخي المقَدّمُ عليَّ بالسِّنِّ والمَلِكُ، وأنا أوصلك به حتى يقْرَأَ كتابَك، ثمَّ قال: وما تدعو إليه؟، فقلتُ له: أدعوكَ إلى الله وحدَه، وتخلع ما عُبِدَ مِن دونه، وتشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، فقال: يا عمرو إنّك ابنُ سيّدِ قومِك، فكيفَ صنع أبوك العاصُ بنُ وائل؟، فإنّ لنَا فيه قُدْوَةً، قلتُ: ماتَ ولم يُؤمنْ بمُحمّدٍ ﷺ، ووَدِدْتُ له لو كانَ آمنَ وصَدّق به، وقد كنتُ قبل على مثل رَأيِهِ حتّى هداني الله للإسلام، فقال: متَى اتّبَعْتَه؟، قلتُ: قريباً، فقال: أينَ كان إسلامُك؟، قلتُ: عند النّجاشي، وأخبَرْتُه أنّ النّجاشي قد أسلمَ، قال: فكيفَ صنعَ قومُه بمُلْكِه؟، قلت: أقرُّوهُ واتّبَعُوه قال: والأَسَاقِفَة؟، قلتُ: نعم، قال: انظر يا عمرو ما تقول، فإنّه ليسَ مِنْ خصْلَةٍ في رَجُلٍ أفضَحَ له من كَذِبٍ. فقلتُ: ما كَذَبتُ، وما نَسْتَحِلّه في ديننا، فقال: ما أَرَى هرقلَ عَلِمَ بإِسْلَامِ النّجَاشي، فقلتُ له: بلى، قال: فبأيِّ شيءٍ عَلِمْتَ ذلك يا عمرو؟، فقلتُ: كانَ النّجاشي ـ ﷺ ـ يُخْرِجُ له خَرَاجاً، فلمَّا أَسْلَمَ النّجاشيُّ قال: لا والله، ولو سألني دِرْهماً واحِداً ما أعطيتُه، فبلغَ هرقلَ قولُه، فقال له أخوه: أَتَدَعُ عبدَك لا يُخْرِجُ لك خَرَاجاً ويَدينُ دِيناً مُحْدَثاً. فقال هرقلُ: رَجُلٌ رَغِبَ في دينٍ واختارَه لنَفْسِه ما أصنعُ به؟، والله لولا الضَّنُّ بمُلكِي لصَنَعْتُ كمَا صَنَعَ، قال: أُنْظُرْ ما تقولُ يا عمرو، فقلتُ: والله صَدَقْتُكَ. فقال: أخبرني بالذي يأمرُ به وينهى عنه، قلتُ: يأمرُ بطاعةِ الله وينهى عن مَعْصِيَتِه، ويأمرُ بالبرِّ وصِلَةِ الرّحم، وينهى عن الظّلمِ، وعَنِ الزّنا وشُرْبِ الخمْرِ.

فقال: ما أَحْسَنَ هذا الذي يدعو إليه، ولو كانَ أخي يُتابِعُني لَرَكِبْنَا حتّى نؤمن بمحمّدٍ ونُصَدِّقَ به، ولكِنَّ أخي أَضَنُّ بمُلكِه مِنْ أَنْ يدَعَه ويصيرَ تَابِعاً.

فقلتُ: إنّه إنْ أَسْلَمَ مَلَّكَهُ رَسُوْلُ الله ﷺ على قَومِه، فأَخَذَ الصَّدَقَة مِنْ غنيِّهم فرَدّهَا على فقيرِهم، قال: إنّ هذَا الخُلُق حَسَنٌ، وما الصَّدَقَةُ؟، فأخبرْتُه بما فرَضَ رَسُوْلُ الله ﷺ من الصّدَقات في الأَموَال. ثمَّ إني مكَثْتُ أياماً ببابِ جَيْفَرَ وقد أوصلَ إليه أخوه خبَري، ثمَّ إنه دعاني فدخلتُ عليه، فأخَذَ أعوَانُه بعضُدِي، فقال: دَعُوه، فذهبتُ لأجلسَ فأبوا أَنْ يدعوني أَجْلِسُ، فنظرتُ إليه، فقال: تكلّمْ بحاجَتِكَ، فدفعتُ إليه كِتَاباً مختُوماً، ففَضَّ خاتَمَه، فقرَأه حتى انتهى إلى آخرِه، ثمَّ دفعَه إلى أَخِيه فقرَأه، ثمّ قال: ألا تخبرُني عَن قريشٍ كيفَ صَنَعتْ؟، فقلت: اتّبعوه، إمَّا رَاغِبٌ في الدِّين، وإما رَاهِبٌ مقهُورٌ بالسَّيفِ. قال: ومَن معه؟، فقلت: النّاسُ قد رَغِبوا في الإسلام، واختاروه على غيرِه، وعرفوا بعقولِهم مَعَ هُدَى الله إيّاهم أنّهم كانوا في ضَلالٍ مُبين، فمَا أعلمُ أحداً بَقِيَ غيرك، وأنتَ إنْ لم تُسْلِمِ اليومَ وتَتّبِعْهُ تَطَؤُكَ الخيلُ وتُبِيدُ خَضْرَاءَك، فأَسْلِمْ تَسْلَمْ ويَسْتَعْمِلُكَ على قَومِك، ولا تُدْخِلْ عليكَ الخيلَ والرِّجَالَ، فقال: دعني يومي هذا وارْجَعْ إليّ غداً. فلمّا كان الغَدُ أتيتُ إليه، فأبى أَنْ يأْذَنَ لي، فرَجَعْتُ إلى أَخِيه فأَخبرْتُه أَنّي لم أَصِلْ إليه، فأوصَلَني إليه، فقال: إنّي فكّرْتُ فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أَضْعَفُ العرَبِ إنْ مَلّكْتُ رَجُلاً مَا في يدي، وهو لا تَبلُغْ خَيله هَهُنا، وإنْ بلغَتْ خيلُه أَلْفَتْ قِتالاً ليسَ كَقِتَالِ مَن لاَقَى، فقلتُ له: وأنا خَارِجٌ غداً، فلمَّا أَيقَنَ بمخْرَجِي خَلَا بهِ أخوه، فلمَّا أَصْبَحَ أَرسلَ إليّ، ثمّ أجابَ إلى الإسلام هوَ وأخوه جميعاً، وصَدّقا، وخَلّيَا بيني وبين الصَّدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانَا لي عوناً على مَن خالَفَني.

٧ ـ كِتَابُهُ إِلَى هَوْذَةَ

بعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ سَلِيطَ بنَ عمرٍو العَامِريَّ رضي الله عنه إلى هَوْذَةَ صاحب اليمامة، وبعث معه كتاباً فيه: «بِسْمِ الله الرّحْمَنِ الرّحِيمِ مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ الله إِلَى هَوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الْهُدَى، وَاعْلَمْ أَنّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الْخُفّ وَالْحَافِرِ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَجْعَلْ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْك»، فلمَّا قَدِمَ عليه سَلِيطٌ بالكتابِ مختُوماً أنزَلَه وَحَيَّاه، وقرأ عليه الكِتابَ فرَدَّ رَدّاً دُونَ رَدٍّ، فكتبَ إلى النبيِّ ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجملَه، وأنا شَاعِرُ قومِي وخَطِيبُهم، والعربُ تهابُ مكاني فاجْعَلْ إليَّ بعضَ الأمرِ أتّبعكَ.

ثم أجازَ سَلِيطاً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه بجَائِزة، وكَسَاهُ أثواباً مِن نَسْج هَجَرٍ، فقدم بذلك كلّهِ على النبيِّ ﷺ، ثم أَخْبَرَهُ بالخبر، وقرأ النبيُّ ﷺ كتابَه، فقال: «لَوْ سَأَلَنِي سَيَابَةً مِنْ الْأَرْضِ مَا فَعَلْت، بَادَ وَبَادَ مَا فِي يَدَيْهِ».

وكان سِنّ هَوْذَةَ بنِ عليٍّ مائة وخمسين سنة، فلمّا انصَرَفَ رَسُوْلُ الله ﷺ من الفَتْحِ جاءَهُ جبريلُ عليه السلام فأخبرَه بأنَّ هَوْذَةَ قد مَات، فقال ﷺ: «أَمَا إِنَّ اليَمامَةَ سَيَخْرُجُ بِهَا كَذَّابٌ يَتَنَبَّأُ، يُقْتَلُ بَعْدِي»، فقال قَائِل: يا رسُولَ الله، مَن يَقْتُلُه؟، فقال له: «أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ»، ولعلّ القائل له ﷺ ذلك هو خالدُ بنُ الوليد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، لأنه كان أميراً على الجيش الذي أُرْسِلَ لمقاتَلَةِ مُسَيْلَمَة الكذاب.

٨ ـ كِتَابُهُ إِلَى الحَارِث

بعثَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شُجَاعَ بنَ وَهْبٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إلى الحارثِ بن أبي شِمْرٍ الغَسَّاني، وكان بغُوطَةِ دِمَشْق، وبعث معه كتاباً فيه: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ الله إِلَى الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شِمْرٍ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللهِ وَصَدَّقَ، وَإِنّي أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَبْقَى لَكَ مُلْكُكَ» وختَم الكِتابَ.

قال شُجَاعٌ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه: فخَرَجْتُ حتى انتهيتُ إلى بابِه، فأقمتُ يومين أو ثلاثة فقلتُ لحاجبه: إنّي رَسُولُ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، فقال: لا تَصِلُ إليه حتى يخرجَ يوم كذا، وجعل حَاجبُه يسألني عَن رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمّا يدعو إليه، فكنتُ أُحَدِّثُه فيرِقُّ حتّى يغلبَه البكاءُ، ويقول: إني قَرأت في الإنجيل، وأَجِدُ صِفَةَ هذا النبيِّ بعينه، وكنتُ أظنّه يخرجُ بالشّام، فأراه قد خرج بأَرْضِ القَرَظِ، فأنا أؤمنُ به وأُصدِّقُه، وأنا أخافُ من الحارثِ بن أبي شمر أن يقتلَني، فكان هذا الحاجب يُكْرِمُني ويحسِنُ ضِيَافَتي، ويخبرُني عَن الحارث باليَأسِ منه، ويقولُ لي: إنّ الحارثَ يخافُ مِنْ قَيْصَرَ.

فخرجَ الحارثُ يوماً وجلسَ وعلى رأسِه التّاج وأُذِنَ لي عليه، فدفعتُ كتابَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه فقَرَأه، ثمَّ رَمى بِه، ثُمّ قال: مَن يَنْزِعُ منّي مُلكي؟، أنا سَائرٌ إليه، ولو كانَ باليمنِ جِئْتُه، ثمَّ قال: عَليَّ بالنّاسِ، فلمْ يزلْ جَالِساً حتى اللّيل، والرِّجَالُ يعرِضُونَ عليه وأمرَ بالخيلِ أَنْ تُنْعَلَ، ثمَّ قال لي: أَخْبِرْ صَاحِبَكَ بما تَرَى، وكتبَ إلى قَيْصَرَ يخبرُه الخبرَ، وكان دِحْيَةُ الكَلبي عند قيصر، فلمَّا قرأَ قيصرُ كتابَ الحارثِ كتب إليه: أَنْ لَا تَسِرْ إليه، وَالْهَ عنْهُ.

ثمّ دعاني ، فقال: متى تريدُ أَنْ تخرجَ إلى صَاحِبك؟ ، قلت: غداً ، فأمرَ لي بمائةِ مثقال ذَهَباً ، ووَصَلَنِي حَاجِبُه بنَفَقَةٍ وكِسْوة ، وقال لي ذلك الحاجِبُ: اقرأ عَلى رَسُوْلِ الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منّي السَّلامَ ، وأخبرْهُ أنّي مُتّبعٌ دينَه ، فقدِمْتُ على النبيِّ صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، فأخبرْتُه بما كَان مِنَ الحَارِثِ ، فقال: «بَادَ مُلْكُهُ» ، ثم أَقْرَأْتُه السَّلامَ مِن الحاجبِ وأخبرْتُه بما قالَ ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «صَدَقَ» . وفي كلام بعض أهل السِّيرِ: أَنَّ الحارِثَ هذا أسلمَ ، ولكِنّه قال: أَخَافُ أَنْ أُظْهِرَ إسلامِي فيقتلَنِي قَيصرُ .

ويُقَالُ: إِنَّ شجاعَ بنَ وَهْبٍ أُرْسِلَ إلى الحارثِ ، وإلى ابنِ عمِّهِ جَبَلَةَ بْنِ الْأَيْهَمِ الغَسَّانِيِّ ، وإِنَّ شُجَاعاً قال له: يا جَبَلَةُ ، إنّ قومَك نقلوا هذا النبيَّ مِن دارِه إلى دَارِهِم ، فآووه ومنَعُوه ونصرُوه ، وإنّ هذا الدِّين الذي أنتَ عليه ليسَ بدِين آبائِكَ ، ولكِنّكَ مُلّكْتَ الشّامَ وجاورتَ الرّومَ ، ولو جَاوَرْتَ كسْرى دِنْتَ بدِين الفُرْسِ ، فإنْ أَسْلَمْتَ أطاعَتْكَ الشّامُ ، وهَابَتْكَ الرُّومُ وإِنْ لم يَفْعَلوا كانَتْ لهمُ الدّنيا ، وكانتْ لكَ الآخرةُ ، وكنتَ قَدِ اسْتَبْدَلتَ المَساجِدَ بالبِيَعِ ، والأَذَانَ بالنّاقوس ، وما عندَ الله خيرٌ وأبقَى . فقال جبَلَةُ: إنّي والله لوَدِدْتُ أَنّ الناسَ اجتمعوا على هذا النّبيِّ اجتماعَهم على مَن خَلقَ السّماواتِ والأرض ، وقد سرَّني اجتماعُ قومي له ، وقد دعاني قيصرُ إلى قتالِ أَصْحَابه فأبيتُ عليه ، ولَكِنّي لَسْتُ أرَى حَقّاً ولَا بَاطِلاً ، وسَأَنظرُ .

وقد أَسلَمَ جَبَلَةُ بنُ الأَيهَمِ هذا في أيام عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، وكتبَ إليه يخبِرُه بإِسْلَامِه ويَسْتَأْذِنُه في القُدوم عليه ، فَسُرّ عُمَرُ بذلك ، وأَذِنَ له ، فخرَجَ في خمسين ومائتين مِن أهل بيته ، فحمَلَهم على الخيل ، وقَدْ قلّدَها بقلائِد الذّهبِ والفِضّة ، وأَلبَسَها

الدِّيباجَ وسُرَفَ الحرِيرِ، ووضَعَ تَاجَه على رَأسِه، فلَمْ تبقَ بِكْرٌ ولا عَانِسٌ إلا خَرَجَتْ تنظرُ إليهِ وإلى زِيِّهِ وزِينَتِه، فلمَّا دَخَل على عُمَرَ رَحَّبَ به وأدنى مجْلِسَه، وأقامَ بالمدينةِ مُكَرّماً.

ثُمّ إنّه خرجَ حَاجّاً مع عُمَر ﷺ، وعند طوافه بالبيت وَطِيءَ رَجلٌ من فَزَارَةَ إِزَارَهُ فَانْحَلّ، فلطَمَ الفَزَارِيَّ لطْمَةً فَقَأَ بهَا عَينَه، فشَكَا الفَزَارِيُّ إلى عمرَ، فاستدعاه، وقال له: لم فقَأتَ عينَه؟، فقال: تعَمَّدَ حَلّ إِزَارِي، ولَولَا حُرْمَةُ البَيت، لضَرَبتُ عُنُقَه، فقال له عمرُ: أَمَا إِنَّكَ قَد أَقْرَرتَ، فإِمَّا أَنْ تُرْضِيَه وإِلّا أَقَدْتُه منك، فقال: أتقتصُّ له مني سَواءً وأنا ملك وهذا سوقي؟، فقال عمرُ: الإسلامُ سَوَّى بينكما، ولا فضْلَ لك عليه إلا بالتّقْوى، فقال: إنْ كُنْتُ أَنا وهَذَا الرّجُلُ سَواءٌ في الدِّينِ فأنا أتنَصَّرُ، فإنّي كنتُ أظنُّ يا أميرَ المؤمنين أنّي أكونُ في الإسلامِ أَعَزَّ منّي في الجاهليّةِ، فقال عمرُ: إذًا أَضْرِبُ عُنقَكَ، فقال: أَمْهِلْني اللّيلةَ حتّى أَنظُرَ في أمري، قال: ذلك إلى خَصْمِكَ، فقال الرَّجُلُ: أمهلته يا أمير المؤمنين، فانْصَرَفَ، ثم رَكِبَ في بني عمِّه، وهرَبَ إلى القُسْطَنْطِينيّة، فدخلَ على هرقلَ وتَنصَّرَ هُناك، فَسُرَّ بهِ هِرَقلُ، ثم زَوَّجَه بابنَتِه، وقَاسَمَه مُلْكَه، وجعَلَه مِن سُمَّارِه، وبنى له مَدِينةً بينَ طرابلس واللاّذِقيّة سمَّاها جَبَلَةَ باسمِه، وبقيَ نصرانياً حتّى ماتَ على ذلك.

بَابُ
حَجَّةِ الوَدَاع

خرَجَ رَسُوْلُ الله ﷺ يُرِيدُ الحجَّ، وأعلَمَ النّاسَ، واستعملَ على المدينةِ أَبا دُجُانة، ولم يحج مُنْذُ هاجرَ إلى المدينة غير هذه الحجّة، ويُقال لها: حَجَّةُ الوَدَاع؛ لأنه وَدَّعَ الناسَ فيها، ولم يَحُجّ بعدها، ويقال لها أيضاً: حجّةُ البّلاغ، وحجّةُ الإسلام، وقد حجّ ﷺ قبل النّبوّةِ وبعدها حجَجاً لا يُعْلَمُ عددها، قبل الهجرة، وكان ﷺ قبل النبوة يَقِفُ بعرفات ويفيضُ منها إلى مزدلفة، مُخالفاً لقريشٍ توفيقاً له من الله، فإنّهم كانوا لا يخرجون من الحَرَم، ويقولون: نحنُ بنو إبراهيم، وأهل الحرَم، وولاة البيت بمَكَّةَ، فليس لأحدٍ من العرب منزلتنا فلا تُعَظِّمُوا شيئاً من الحلّ كما تعظّمُون الحرم، فإنكم إنْ فعلْتُم ذلك اسْتَخَفّتْ العرَبُ بحَرَمِكم، فليسَ لنّا أَنْ نَخْرُجَ من الحَرَم نحنُ الحُمْسُ، فتركوا الوقوفَ بعرفة والإفاضة منه إلى المزدلفة، ويرون ذلك لسائر العرب.

وعند خروجِه ﷺ للحَجّ أصابَ النّاسَ بالمدينة جُدَرِيٌّ، منعَ كثيراً من الناس من الحجِّ معه ﷺ، ومع ذلك فكانَ معه جمُوعٌ لا يعلمُها إلا الله تعالى، فقد قيل: كانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، وقيل: كانوا أكثر من ذلك، وكان خروجُه ﷺ يوم الخميس لِستٍّ بقينَ من ذِي القعدة سَنة عَشرٍ نَهاراً، بعد أَنْ تَرَجَّلَ وَادَّهَنَ، وبعدَ أَنْ صَلّى الظهرَ بالمدينة، وصلى عصر ذلك اليوم بذِي الْحُلَيْفَةِ رَكعتين، ثمّ طافَ تلك اللّيلةَ على نسائِه فإنّهنَّ كُنَّ معه ﷺ في

الهَوَادِجِ وكُنَّ تسعاً، ثمَّ اغتسل وصَلّى الصُّبحَ، ثمّ أحرَم ﷺ، وتجرد في إِزَارِهِ ورِدَائِه، وصَلّى للإحرام ركعتين ثم أَهَلَّ حَيْثُ انْبَعَثَتْ به رَاحِلَتُه القصواء، وكان على راحلته ﷺ رَحْلٌ رَثٌّ لَا يُسَاوِي أَرْبَعَةَ دراهم، وقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ حَجّاً مَبْرُوراً لَا رِيَاءَ فِيهِ وَلَا سُمْعَةَ».

وأَحْرَم ﷺ بالحَجِّ والعُمرة معاً، فكانَ قَارِناً. وقيل: أحرَمَ بالحجّ فقط، فكان مُفْرِداً، وقيل بالعمرة فقط، ثمّ أحرم بالحجّ بعد فراغه من أعمال العمرة، فكان مُتَمَتِّعاً، قال الإمامُ النّووي: وطريقُ الجمْع بين هذه الرِّوايات: أنه أحرَمَ أوّلاً بالحجِّ، فلمَّا كانَ بالعَقِيق أَتَاهُ آتٍ مِن رَبِّهِ، فقال له: صَلِّ بهذا الوادي المبارك، وقُلْ: لبّيكَ بحَجّةٍ وعُمْرَة، معاً. فصارَ قارِناً بعدَ أَنْ كان مُفْرِداً، ومَن رَوَى القِرَانَ اعتمدَ آخرَ الأَمْرِ.

وقيل: إنّه أَحْرَمَ مُطلقاً. ودليلُ مَن قال ذلك ما رواه الإمامُ الشّافعي: أنه ﷺ، خرجَ هو وأصحابُه مُحرِمين إِحْرَاماً مُطلقاً، ينتظرونَ نزولَ الوحي لتَعْيينِ ما يصرفونَ إحرامَهم المطلق إليه؛ بإفرادٍ، أو تمتّعٍ، أو قِرانٍ، فجاءَ الوحيُ له ﷺ أَنْ يأمرَ مَن لَا هَدْيَ معه أَنْ يجعلَ إحرامَه عُمرةً فيكونَ مُتَمَتِّعاً، ومَن معه هَدْيٌ أنْ يجعلَه حجّاً فيكون مُفْرِداً، لأَنَّ مَن معه هَدْيٌ أفضلُ ممّن لا هَدْيَ معه، والحجّ أفضل من العمرة.

والصّوابُ أنه ﷺ أحرَم بالحجِّ والعُمْرة معاً، مِن حين أَنشَأَ الإحْرَامَ، فهوَ قَارِنٌ، ولم يَحِلّ حتّى حَلّ منهما جميعاً وطافَ لهما طَوَافاً وَاحِداً وسَعْياً واحِداً كمَا دَلّتْ عليه النصوصُ المسْتَفِيضَةُ التي تواترتْ تواتراً يَعْلَمُه أهلُ الحديث.

ثمّ لَبّى ﷺ بعد أنْ استقبلَ القِبلةَ، فقال: «لَبّيْكَ اللّهُمّ لَبّيْكَ، لَبّيْكَ لَا شَرِيْكَ لَكَ لَبّيْكَ، إنّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ لَا شَرِيْكَ لَكَ». وكان النّاسُ معه يَزِيدُون فيها وينقصون فلم يُنْكِرْ عليهم، وأتاه ﷺ جبريلُ عليه السلام، وأمَرَه أنْ يَأمرَ أصحابَه أنْ يرفعوا أصواتَهم بالتّلْبيةِ، فإنّها مِن شَعَائِرِ الحجّ. ففعلوا ذلك.

وكان جَمَلُ عائشةَ رضي الله عنها سَرِيعَ المشي مع خِفّةِ حَمْلِها، وجَمَلُ صَفِيّةَ بَطِيءَ المشْي مع ثِقَلِ حَمْلِها، فصَارَ الرّكبُ يتأخّرُ بسَبَبِ ذلك، فأَمرَ ﷺ أنْ يُجْعَلَ حَمْلُ صَفِيّةَ على جَمَلِ عَائِشَةَ، وحَمْلَ عائشةَ على جمَلِ صَفِيّةَ، ثمّ جاءَ ﷺ إلى عَائِشةَ رضي الله عنها يَسْتَعْطِفُ خاطِرَها، فقال لها: «يا أُمَّ عَبْدِ الله، حَمْلُكِ خَفِيفٌ وَجَمَلُكِ سَرِيْعُ المَشْيِ، وَحَمْلُ صَفِيّةَ ثَقِيلٌ وَجَمَلُهَا بطِيءٌ، فَأَبْطَأَ ذَلِكَ بِالرّكْبِ، فَنَقَلْنا حملَكِ عَلَى جَمَلِهَا، وَحَمْلَهَا عَلَى جَمَلِكِ لِيَسِيرَ الرّكْبُ»، فَقَالَتْ له: إنّك تزعمُ أنك رسُولُ الله، فقال ﷺ: «أَفِي شَكٍّ أَنّي رَسُولُ الله أَنْتِ يَا أُمَّ عَبْدِ الله»؟، قالتْ: فمَا لك لا تَعْدِلُ؟، قالت: وكَانَ أبو بكر رضي الله عنه فيه حِدّةٌ، فلطمَني عَلَى وَجْهِي، فلامَهُ رَسُولُ الله ﷺ، فقال: أمَا سَمِعْتَ ما قالتْ؟، فقال: «دَعْهَا، فَإِنَّ المَرْأَةَ الغَيْرَاءَ لَا تَعْرِفُ أَعْلَى الوَادِي مِنْ أَسْفَلِه».

ولما نزلوا بمَحَلٍّ يُقَالُ له: العَرْجُ، فُقِدَ البَعيرُ الذي عليه زادُ النبيِّ ﷺ وزادُ أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، وكان ذلك البَعِيرُ مع غُلامٍ لأبي بكرٍ، فقال أبو بكرٍ للغُلَام: أَينَ البعيرُ؟، قال: ضَلَلْتُه البَارِحة. فقال أبو بكرٍ وقَدِ اعْتَرَتْهُ حِدّةٌ: بَعِيرٌ واحِدٌ تُضِلّه؟!، وأَخَذَ يضرِبُه بالسّوطِ ورَسُولُ الله ﷺ يقولُ: «انْظُرُوا إِلَى هَذَا المُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ»؟، ويتبَسّمُ ولا يَزِيدُ على ذلك، فلمّا بلَغ

بعضَ الصّحَابةِ أَنّ زَامِلَةَ رَسُوْلِ الله ﷺ ضَلَّتْ جاءَ بحَيْسٍ ووَضَعه بينَ يدي النّبيِّ ﷺ ، فقال ﷺ لأبي بكرٍ وهو يَغْتَاظُ على الغُلَام: «هَوِّنْ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، فَإِنَّ الأَمْرَ لَيسَ لَكَ وَلَا إِلَيْنَا ، وَقَدْ كَانَ الغُلَامُ حَرِيصاً عَلَى أَنْ لَا يَضِلّ بَعِيرُهُ ، وَهَذَا غِذَاءٌ طَيِّبٌ قَدْ جَاءَ الله بِهِ ، وَهُوَ خَلَفٌ عَمَّا كَانَ مَعَهُ» ، فأكلَ ﷺ ، وأبو بكرٍ ، ومَن كان يأكلُ معهما حتّى شَبعوا ، ثمّ أقبل صَفْوانُ بنُ المعَطّل رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وكان على سَاقَةِ القَوم ، لأَنّ هَذا كان شَأنُه في السَّفَرِ مع النّبيِّ ﷺ ، فجاءَ والبعيرُ معه وعليه الزّامِلَةُ حتّى أناخَه على بابِ خيمَتِه ﷺ ، فقال ﷺ لأبي بكرٍ: «انْظُرْ هَلْ تَفْقِدُ شَيْئاً مِنْ مَتَاعِكَ» ؟ ، فقال: ما فقدتُ شيئاً إلا قَعْباً كنّا نشربُ فيه ، فقال الغُلَامُ: هذا القَعْبُ معي . ولما بلغَ سَعدَ بنَ عُبادَةَ وابنَه قيساً رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهما أَنّ زَامِلَتَهُ ﷺ ضَلّتْ ، جاءَا بزامِلَةٍ ، وقالا: يا رسُولَ الله ، بلغَنا أنّ زَامِلتَك ضَلّت الغَدَاةَ ، وهذه زَامِلةٌ مكانَها ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «قَدْ جَاءَ الله بِزَامِلَتِنَا ، فَارْجِعَا بِزَامِلَتِكُمَا ، بَارَكَ الله لَكُمَا» .

ثمّ سارَ النّبيُّ ﷺ حتّى نزلَ بِذِي طُوَى ، فباتَ بها تلك اللّيلة وصَلّى بها الصُّبحَ ، ثمّ سارَ ﷺ ، ونزَل بالمسلمين ظاهرَ مَكّةَ ، ودخلَ مَكّةَ نهاراً وقتَ الضّحى من الثّنيةِ العُليا ، التي هيَ ثَنِيّةُ كَدَاءَ ، وهيَ التي يُنْزَلُ منها إلى المعْلَاةِ مَقْبَرةِ مَكّةَ ، ويُقال لها: الحَجُون ، وقد دخل منها يوم فتح مَكّةَ ، ودخل المسجد صُبْحاً من باب بني شيبة ، المعروف بباب السّلام . وأَبْصَرَ ﷺ البيتَ فقال: «اللَّهُمَّ زِدْ هَذَا البَيْتَ تَشْرِيفاً وَتَعْظِيماً وَمَهَابَةً ، وَزِدْ مَنْ شَرَّفَهُ وَكَرَّمَهُ



مِمَّنْ حَجَّهُ أَو اعْتَمَرَهُ تَشْرِيفاً وَتَكْرِيماً وَتَعْظِيماً».

وعند دخولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسْجِدَ طَافَ بالبَيتِ سَبعاً، وعن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: دخلنا مَكَّةَ عند ارْتفاع الشمس، فأتى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بابَ المسجدِ، فأناخَ راحلتَه، ثمّ دخل المسجدَ فبدأ بالحجَرِ الأسودِ فاسْتَلَمَه، وفاضَتْ عيناه بالبكاءِ، ثم رَمَلَ ثلاثاً، ومشى أربعاً، فلمّا فرَغ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبّلَ الحجَرَ، ووضع شَفَتيه عليه طَويلاً، ثم وضعَ يديه عليه ومسح بهما وجهه، وقال: «بِسْمِ الله، وَالله أَكْبَر»، وقال بين الركن اليماني والحجر: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ولم يَثْبُتْ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيءٌ مِنَ الأذكار في غير هذا المحلّ حولَ الكَعْبَةِ، ولم يَسْتَلِمِ الرُّكْنَين المقَابِلَين للحِجْرِ، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعُمرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: «إِنَّكَ رَجُلٌ قَوِيٌّ، فَلَا تُزَاحِمْ عَلَى الحَجَرِ، إِنْ وَجَدْتَ خَلْوَةً فَاسْتَلِمْهُ، وَإِلّا فَاسْتَقْبِلْهُ وَهَلِّلْ وَكَبِّرْ».

ثمّ بعد الطّوَافِ صَلَّى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركعتين عند مقام سيِّدِنا إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فجعلَ المقام بينَه وبينَ الكعبة، وقرَأ فيهما معَ أمِّ القرآن الكافرون، والإخلاص، ودخَل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَمْزَم، فَنُزِعَ لَه دَلوٌ فشَرِب منه، ثمّ مَجَّ فيه، ثمّ أفرَغَها في زَمْزَم، ثمّ قال: «لَوْلَا أَنَّ النّاسَ يَتّخِذُونَهُ نُسكاً لَنَزَعْتُ دَلْواً»، ثمّ رجعَ إلى الحَجَرِ الأسودِ فاسْتَلمَه، ثم خرج إلى الصّفا، وقرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ثم قال: «ابْدَؤُوا بِمَا بَدَأَ الله بِهِ»، وسَعى بينَ الصَّفا والمروة سبعاً مَاشِياً وراكِباً على بعيرِه. فإنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشَى في السَّعْي أوّلاً، فلمّا كثُرَ عليه النّاسُ وازْدَحَمُوا، وصاروا يقولون: هذا محمَّدٌ، هذا محمَّدٌ، حتّى

خرَجَ العَوَاتِقُ من البيوتِ، وكان رَسُوْلُ الله ﷺ لا يَضْرِبُ النّاسَ بينَ يديه، فلمَّا كَثُرَ عليه الناس رَكِبَ. وكان ﷺ في السّعي إذا رقى الصّفا يستقبلُ الكَعْبَةَ ويُوحِّدُ الله ويُكَبِّرُه ويقولُ: «لَا إِلَهَ إِلّا الله وَالله أَكْبر، لَا إِلَهَ إِلّا الله وَحْدَهُ، أَنْجزَ وَعْدَهُ، وَنَصرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، ويفعل على المروة مثل ذلك.

ثمّ أَمرَ ﷺ مَن لا هَدْي معه بالإِحْلَال، وأَنْ يبقى كذلك إلى يوم التَّرْوِيَة، الذي هو اليوم الثّامن من ذي الحجة، فإذَا كان ذلك اليوم فليُحرِمْ بالحجّ. وأمرَ مَن معه الهدْي أَنْ يبقَى على إحْرَامِه بالحجّ قَارِناً أو مُفْرِداً، فقال بعضُ مَن لا هَدْيَ معه: كيفَ يَنطَلقُ أحَدُنا إلى مِنَى وفَرْجُهُ يَقْطُرُ مَنْياً؟. ومرَادُهم: أنّا كيفَ نُجَامِعُ النّساءَ بعد إِحرَامِنا بالحجّ، وكيفَ نَجْعَلُها عُمْرَةً بعد الإحرام بالحجّ؟، واسْتَعْظَمُوا ذلك، ولما بلغَه ﷺ تلك المقالةُ قامَ خَطِيباً فحَمِدَ الله تعالى، ثُمَّ قَال: «أَمَّا بَعْدُ، فَتَعْلَمُونَ أَيُّهَا النَّاسُ، لَأَنَا وَاللهُ أَعْلَمُكُم بِالله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، وَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا سُقْتُ هَدْياً»، فقالوا: كيفَ نجعلها عُمْرَةً وقد سمّينا الحجّ؟، فقال لهم ﷺ: «اقْبَلُواْ مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَاجْعَلُوا إِهْلَالَكُمْ بِالحَجِّ عُمْرَةً، فَلَوْلَا أَنِّي سُقْتُ الهَدْيَ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الذِي أَمَرْتُكُمْ بِه».

ففعلوا ما أمرَهم ﷺ به، وإنّما كرهوا ذلك أولاً خوفاً على فواتِ ما هو الأفضل وهذا من تمام حرصِهم على حَجِّهم. وكان مِن جُمْلَةِ من سَاق الهدْيَ: أبو بكرٍ، وعمرُ، وطلحةُ، والزبيرُ، وعليٌّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم، فإنّ عليّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه قدم إلى مَكّةَ مِن اليمن ومعه هدي، وقال حِين أحرَم في الطّريق: اللَّهُمَّ إنّي أُهِلُّ بمَا أَهَل به نبيُّك وعبدُك ورسُولُك مُحمَّدٌ، ولم يكُنْ يعلمُ بما أَهَلَّ بهِ

رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فلمَّا أَخْبَرَه أمرَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يثْبُتَ على إِحْرَامِه ، وكان الهدْيُ الذي قَدِمَ به عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه مِنَ اليَمَنِ سبعة وثلاثين بَدَنَة ، وكان الذي أتى به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة وستين بدنة. ومن جُمْلَةِ مَن لم يَسُقِ الهدْيَ: أبو موسى الأَشْعَري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، فإنّه لما قَدِمَ مِن اليَمَن وقال: أَهْلَلْتُ كإِهْلَالِ النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأمرَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يحلّ لأنه ليسَ معه هدي. وكذا أمّهات المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ لم يَسُقْنَ الهَدي فأَحْلَلْنَ ، إلا عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها فإنّها لم تَحِلّ لأنها أَدْخلَتِ الحَجَّ على العمرةِ. وممّنْ أحَلّت سيدتنا فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بنت النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأنها لم يكن معها هدي. وسأل سُرَاقةُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فقال: يا رسُولَ الله مُتْعَتُنا هذه لعَامِنا هذا أمْ للأبدِ؟ ، فشَبّكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصَابِعَه فقال: «بَلْ لِلأَبَدِ ، دَخَلَتِ العُمْرَةُ فِي الحَجِّ هَكَذَا إِلَى يَوم القِيَامَةِ».

ثمّ نهضَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونهضَ معه النّاسُ يوم التّروية إلى منى ، وأَحرَمَ بالحجّ كلّ مَن كان أَحَلّ ، فصَلّى رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمِنَى الظُّهْرَ ، والعَصْرَ والمغرِبَ ، والعشاءَ ، وباتَ بها تلك اللّيلة ، وكانت ليلة الجمعة ، وصَلّى بها الصُّبْحَ ، ثمّ نهضَ بعد طلوع الشّمس إلى عَرَفَة ، وأمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُضْرَبَ له قُبّةٌ من شَعْرٍ بنَمِرَة ، فأتى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عرَفَةَ ، ونزل تلك القبّة حتى إذا زَالَتْ الشمسُ أَمرَ بناقَتِه القَصْواء فرُحِّلَتْ ، فأتى بطْنَ الوَادِي فخَطَبَ على رَاحِلَتِه خُطبةً[1] ذكرَ فيها تحريمَ

---

(١) كان مما قاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أَنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ أَنْ قالَ: «أَيّهَا النّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي ، فَإِنّي لَا أَدْرِي لَعَلّي لَا أَلقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا بِهَذَا المَوْقِفِ أَبداً ، وإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبّكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا وَشَهْرِكُمْ هَذَا ، وَسَتَلْقَوْنَ رَبّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا. أَيّهَا النّاسُ إِنَّ الشّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا ، وَلَكِنّهُ قَدْ رَضِيَ بما تَحْقِرُونَه مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ. أَيّهَا النّاسُ=

الدِّماءِ والأَمْوَالِ والأَعْرَاض، ووضعَ رِبَا الجاهليّة، وأوّل رباً وضَعه رِبَا عمِّه العبَّاس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، ووضعَ الدّماءَ في الجاهلية، وأوّلُ دَمٍ وضعه دم ابنِ عمِّه ربيعةَ بنِ الحارث بن عبد المطلب، قتلَتْه هُذَيلٌ، وأوصَى ﷺ بالنّساءِ خيراً، وأمرَ بالاعتصَام بكتابِ الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ، وأخبرَ أنّه لا يضِلّ مَن اعتصمَ به، وأشهدَ الله ﷻ على النّاسِ أنه قد بلّغهُم ما يَلْزَمُهم، فاعترَفَ النّاسُ بذلك، وأَمرَ أَنْ يُبَلّغَ الشّاهِدُ لذلك الغَائِبَ.

وأَمرَ ﷺ مُنَادِياً صَيِّتاً، فصَار يُنادِي بكلّ مَا قالَه ﷺ مِن ذلك، فيقولُ: يا أيّها النّاسُ إنّ رَسُوْلَ الله ﷺ يقول كذا وكذا، حتّى أسمعَ جميعَ النّاسِ، وبعَثَتْ أمُّ الفَضْل إليه ﷺ لَبناً في قَدَحٍ فَشَرِبَه أمامَ النّاسِ، فعلموا أنه ﷺ لم يكن صَائِماً في ذلك اليوم الذي هو التاسع، لأنّهم كانوا قد تماروا في صيامِه ﷺ لذلك اليوم الذي هو يوم عَرَفَة.

ولمّا أَتمَّ ﷺ خُطْبَتَهُ أَمرَ بِلالاً فَأَذّنَ ثمّ أقامَ فصَلّى الظّهرَ، ثمّ أقامَ فصَلّى العصرَ ولم يُصَلِّ بينهما شيئاً، وصَلّاهُما مجموعتين في وقتِ الظّهر، بأذانٍ وَاحِدٍ وإقامتين لأنه ﷺ لم يُقِمْ بمَكّةَ إقامَة تَقْطَعُ السّفرَ، فإنّه دخلَها في اليوم الرّابع، وخرَجَ يوم الثامن، وقد صَلّى بها إحدى وعشرين صلاة من

= إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقّاً، وَلَهُنَّ عَلَيْكُم حَقّاً، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فاسْتَوْصُوا بِالنّسَاءِ خَيْراً، فَإِنّكُمْ إِنّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ الله وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَاتِ الله، فَاعْقِلُوا أَيّهَا النّاسُ قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلّغْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبداً، أَمْراً بَيّناً، كِتَابَ الله وَسُنّةَ نَبِيّهِ. اللّهُمَّ هَلْ بَلّغْتُ»؟، فقَالَ النّاسُ: اللّهُمَّ نَعَم، فقَالَ: «اللّهُمَّ اشْهَدْ». وهذه أَشْهَرُ خُطْبَةٍ له ﷺ.

أَوَّلِ ظُهْرِ يوم الرّابع إلى عَصْرِ الثامن يقْصر تلك الصّلَوات، فكانَ الجمْعُ بعَرَفَة للسّفر كما يقوله إمَامُنا الشّافعي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وكذا الجمْهُورُ، وليسَ للنّسُك كما يقولُ غيرُهم. وقد سألَ الإمَامُ مالك أبا يوسفَ وقد كان حَجَّ مع هارون الرّشيد، فقال له: ما تقولُ في صَلاةِ النبيِّ ﷺ بعرفات في يوم الجمعة، أَصَلّى جُمْعَةً أَمْ صَلَّى ظُهْراً مَقْصُورَةً؟، فقال أبو يوسف: صَلَّى جُمْعَةً، لأنه خطَبَ لها قبل الصّلاة، فقال مالك: أَخْطَأتَ، لأنه لو وَقَفَ يومَ السّبْتِ لخطَبَ قبل الصَّلاة، إنّما صَلّى الظهرَ مقصُورةً، لأنه أَسَرَّ بالقِرَاءَةِ. فصَوَّبَه هارونُ الرّشيدُ في احْتِجَاجِهِ على أبي يوسفَ.

ثُمّ رَكِبَ ﷺ راحِلتَه إلى أَنْ أتى الموقفَ، فاستقبلَ القِبْلَة، ولم يَزَلْ وَاقِفاً للدّعاء من الزّوَالِ إلى الغُروب وقال: «أَفْضَلُ الدُّعَاءِ يَومَ عَرَفَةَ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلي فِي يَومِ عَرَفَةَ، لَا إِلَهَ إِلّا الله وَحدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ». وكان مِن جُمْلَةِ دُعَائِه ﷺ في ذلك اليوم: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَوَسْوَسَةِ الصّدْرِ، وَشَتَاتِ الْأَمْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، اللَّهُمَّ إِنّكَ تَسمَعُ كَلَامِي، وَتَرَى مَكَانِي، وَتَعْلَمُ سِرِّي وَعَلَانِيَتِي، لَا يَخْفَى عَلَيْك شَيْءٌ مِنْ أَمْرِي، أَنَا الْبَائِسُ الْفَقِيرُ، الْمُسْتَغِيثُ الْمُسْتَجِيرُ، وَالْوَجِلُ الْمُشْفِقُ المُقِرُّ المُعْتَرِفُ بِذُنُوبِي، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْمِسْكِينِ، وَأَبْتَهِلُ إِلَيْكَ ابْتِهَالَ الْمُذْنِبِ الذَّلِيلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الْخَائِفِ الضّرِيرِ، مَنْ خَضَعَتْ لَكَ رَقَبَتُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَبْرَتُهُ، وَذَلَّ جَسَدُهُ، وَرَغِمَ أَنْفُهُ لَكَ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً، وَكُنْ بِي رَءُوفًا رَحِيمًا، يَا خَيْرَ المَسْئُولِينَ، وَيَا خَيْرَ المُعْطِينَ». ثُمّ اسْتَمَرَّ ﷺ كذلك حتّى غَرَبَتِ الشّمس

وذَهَبتِ الصّفرة.

وقال ﷺ: «وَقَفْتُ هَهُنَا وَعَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ»، وجاءَه ﷺ جمَاعةٌ من نَجْدٍ، فسألوه كيفَ الحجّ؟، فأمرَ مُنادياً يُنادي: «الحجُّ عرَفَةُ، مَنْ جَاءَ لَيْلَةَ جَمْعٍ فَقَدْ أَدْرَكَ الحَجَّ»، أي أنّ مَن وقَف بِعرَفَة والنّاس بمزدلفة قبل طلوعِ الفجر فقد أدرك الحجَّ، ثمّ نادَى المُنادي: «أيّامُ مِنَى ثَلاثَةٌ، ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٠٣]»، ونزَلَ عليه ﷺ قولَه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وكان ذلك في يوم الجمعة بعد العَصر والنّبيُّ ﷺ وَاقفٌ بعرفات على ناقتِه، حتى كادَ عُضد النّاقة يَنْدَقّ مِن ثِقَلِ الوَحْيِ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وقد اتّفَقَ في ذلك اليوم أربعةُ أعيَاد: عِيدٌ للمسلمين وهو يوم الجمعة، وعِيدٌ لليهود، وعِيدٌ للنصارى، وعِيدٌ للمَجُوس، ولم تَجتَمِعْ أعيادٌ لأهل المللِ في يَوم قَبْلَه ولا بَعْدَه. ولما نزَلَتْ بكى عمرُ رضي الله عنه، فقال ﷺ: «مَا يُبْكِيْكَ يَا عُمَرُ»؟ فقال: أبكاني أنا كُنّا في زِيَادة، أمّا إذَا كُمُلَ فإِنّه لا يكملُ شيءٌ إلا نقَصَ، فقال: «صَدَقْتَ». وكان في هذه الآية نَعْيٌ لرَسُوْلِ الله ﷺ؛ فإنّه لم يَعِشْ بعدها إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام. ولم يَنْزِلْ بعدها شيءٌ مِنَ الأحكام.

ثُمَّ أَرْدَفَ رَسُوْلُ الله ﷺ أُسَامةَ بنَ زَيدٍ خَلْفَه، ودَفَعَ إلى مُزْدَلِفَة، وضَمَّ زِمَامَ راحلتِه حتّى أنّ رأسَها ليُصِيبُ طرَفَ رجليه، يسِير يسيراً، حتى إذَا وجَد فُسْحَةً أسرعَ قَلِيلاً، وهو يأمرُ النّاسَ بالسّكينةِ في السّير، فلمّا كان في الطّريق عند الشِّعْبِ الأبتَرِ نَزَلَ فيه فتَوَضَّأ وضوءاً خَفِيفاً، ثمّ رَكِبَ حتى أتى المُزْدَلِفَة، وصَلّى المغربَ والعشاءَ في وقتِ العِشَاء، مجموعتين مقصورتين بأذانٍ واحِدٍ



وإقامتين، ثمَّ اضْطَجعَ، وأَذِنَ للنِّسَاءِ والضَّعَفةِ أَنْ يَرْمُوا لَيلاً بأنْ يذهبوا مِن مُزْدَلِفَةَ إلى منى بعد نصف اللّيل بسَاعة ليَرموا جَمْرةَ العقبة قبل الزَّحمة.

فلمَّا كان وقتُ الفجر قام ﷺ وصَلّى بالناس بالمُزْدَلِفَةِ الصّبحَ مغلساً، ثمّ أتى المشْعَرَ الحرَام فوقفَ وهو رَاكِبٌ ناقته، واستقبلَ القِبْلَةَ، ودعا الله، وكبّر، وهَلّلَ ووَحّدَ، ولم يَزَلْ واقِفاً حتّى أَسْفَرَ جِدّا. وجاءَ: أنه ﷺ دعا بالمغفرة لأمته يوم عرفة، فأُجِيبَ بأنه يَغْفِرُ لها ما عدا المظالم، ثمّ دعا عند المشْعَرِ الحرَام بمغفرة المظالم لأمته، فأجيب بغفرانِ المظالم، فجَعَلَ إبليسُ ـ لَعَنَهُ الله ـ يحثو الترابَ على رَأسِه، فضَحِكَ ﷺ مِن فعلِه. وقد ورَدَ أنّ المرادَ بالأمّةِ التي غُفِرَتْ لها المظالم مَن وَقفَ منهم بعَرَفة.

ثمّ إنّه ﷺ دفعَ من المشعر الحرام قبل أَنْ تَطْلُعَ الشّمسُ، وأرْدَفَ خَلْفَه الفَضْلَ بنَ العَبّاس، فجَاءَته امْرَأةٌ تَسْأَلُه، فَقَالَتْ له: يا رسُولَ الله، إنّ فَرِيضَةَ الله على عِبَاده الحجّ أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيعُ أَنْ يَثْبُتَ على الرَّاحِلَةِ، أفَأحُجّ عنه؟، فقال: «نَعَمْ»، وجعل الفَضْلُ ينظرُ إلى المرأة وتنظرُ إليه، فوضعَ ﷺ يدَه على وجهِ الفَضْل فحَوّل وجْهَه إلى الشّقِّ الآخر، فقال له العبّاسُ: يا رسُولَ الله، لَوَيْتَ عُنُقَ ابنِ عَمِّك!، فقال ﷺ: «رَأَيْتُ شَابّاً وَشَابّةً، فَلَمْ آمَنْ عَلَيهِمَا الشَّيْطَانَ».

فلمَّا وصَلَ ﷺ إلى وادِي مُحَسِّر حَرّك ناقته قليلاً، وسلك الطّريق التي تسلك إلى جمْرَةِ العَقَبةِ، فرَماها بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ، التَقطَها له عبدُ الله بنُ عبّاس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما من موقِفِه الذي رَمَى فيه، وكانت الحصَى مثل حَصَى الخَذْفِ، وأمرَ ﷺ بمثلها، ونَهى عن أكبرِ منها، وقَطَعَ ﷺ التّلْبِيةَ

عند الرَّمْي ، وصارَ يُكَبِّر عند رَمْيِ كُلِّ حَصَاة ، وهو راكبٌ ناقته ، وبِلَالٌ وأُسَامَةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما أحدهما آخِذٌ بخطامها والآخر يظله بثوبه.. لا ضَرْبَ ، ولا طَرْدَ ، ولَا إِليكَ إِليكَ..

ثمّ انصرفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المنحر بمنى فنحرَ ثلاثاً وستّين بدَنَةً ، وهي التي قدم بها من المدينة ، وذلك بيده الشّريفة. قال بعضهم. وفي ذلك إِشَارَةٌ إلى منتهى عمره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لأَنَّ عُمْرَه كان في ذلك اليوم ثلاثاً وستّين سَنةً ، فنحَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَدِه الشّريفةِ لكُلِّ سَنَةٍ بَدَنَةً ، وطُبِخَ له مِنْ لَحْمِهَا ؛ أُخِذَ مِن كُلِّ بَدَنَةٍ بِضْعَةً ، فجُعِلَ ذلك في قِدْرٍ وطُبِخَ ، فأَكَلَ مِن ذلك اللّحْمِ وشَرِبَ مِن مَرَقَتِه ، ثمّ أمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليّاً كَرَّمَ الله وَجْهَه فنحَرَ ما بقيَ وهو تمام المائة ، ولعلّها التي أتى بها عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه مِنَ اليمن. وأَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنّ مِنَى كلُّها مَنْحَرٌ ، وأَنّ فِجَاجَ مَكَّةَ كُلُّها مَنْحَرٌ.

ثُمّ حلقَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسَه الشّريفَ ، حَلَقَه معمرُ بنُ عبد الله ، وأشارَ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده إلى الجانب الأيمن ، فَبَدَأَ بشِقِّه الأيمن ، فحلقه ، ثمّ بشقّه الأيسر ، وقسّمَ شعرَه فأعطاه لأبي طَلْحَةَ الأنصاري ، وقال: «اقْسِمْهُ بَيْنَ النَّاسِ» ، فوَزَّعَه فكان الرّجلُ يُصِيبُ الشَّعْرَةَ والشّعرَتين. وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قال: رأيتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والحلّاقُ يَحْلِقُه ، وقد طَافَ بِهِ أَصْحَابُه مَا يُريدون أَنْ تقعَ شعرةٌ إلّا في يَدِ رجل. وقد سقطَتْ قَلَنْسوةُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوم اليرموك وهو في الحرْبِ فطلبَها طلباً حَثِيثاً حتى كادَ أَنْ يهلَك ، فعُوتِبَ في ذلك ، فقال: إِنّ فيها شَيئاً مِن شَعْرِ نَاصِيةِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وإنّها ما كانت معي في موقف إلا نُصِرتُ بها فيه.

ثُمّ تَطَيّبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطيبٍ فيه مِسْكٌ قبل أنْ يطوفَ طوَافَ الإِفَاضَة ، وحَلَقَ بعضُ أَصْحَابِه ، وقَصّرَ البعضُ الآخرُ ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اللّهُمّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ» ، قالوا: والمقصرين ، فأعادَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعادوا ثلاثاً ، فقال في الرّابعَةِ: «وَالمُقَصِّرِينَ» ، ثمّ نهضَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاكِباً إلى مَكّةَ فطَافَ في يومِه ذلك طوَافَ الإفاضَة قبل الظّهر وشَرِبَ من نَبيذِ السِّقَاية . وعن ابنِ عبّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: مَرَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على راحلتِه ، فاسْتَسْقَى فأتيناه بإناءٍ من نَبيذٍ من سِقاية العَبّاس ، فشربَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وسقى فضْلَهُ لأسامة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، وقال: «أَحْسَنْتُمْ وَأَجْمَلْتُمْ ، كَذَا فَاصْنَعُوا» .

ثمّ شَرِبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ماءِ زمزم بالدّلو ، قيل: وهو قائمٌ ، وقيل وهو على راحلَتِه ، وكان الذي نزَع له الدّلو عمُّه العبّاس ، ولما شَرِبَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَبَّ منه على رأسِه الشّريفِ . وسُئِلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك اليوم عمّا تَقَدّمَ بعضُه على بعضٍ مِنَ الرَّمْي ، والحَلْقِ ، والنّحْرِ ، والطّوَاف ، فكان يقول: «لَا حَرَجَ» ، أي: لا إثم .

وعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: وقفَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجّة الوَداع بمِنَى على راحلَتِه للنّاس يسألونَه ، فجاءَ رَجُلٌ فقال: يا رَسُولَ الله ، لم أَشْعُرْ أَنّ التّحَلّلَ قبل النّحْرَ فحَلَقْتُ قبلَ أَنْ أَنْحرَ ، فقال: «اذْبَحْ وَلَا حَرَجَ» ، ثمّ جاءَه رجلٌ آخر ، فقال: يا رسُولَ الله ، لم أشعر أنّ الرّمْيَ قبلَ النّحرِ ، فنحرتُ قبل أنْ أرمِي ، فقال: «ارْمِ وَلَا حَرَجَ» وجاءَه آخرُ فقال: إنّي أفضْتُ إلى البيتِ قبل أَنْ أرمي ، فقال: «ارْمِ وَلَا حَرَجَ» ، فما سُئِلَ عَن شَيءٍ قُدِّمَ ولَا أُخِّرَ إلّا قال: «افْعَلْ وَلَا حَرَجَ» .

وأقامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمِنى ثلاثة أيام ، يرمي الجِمَار ماشياً في ذهابِه وإيابِه ،

وأمرَ ﷺ شَخصاً أَنْ يُنَادِيَ في النّاسِ بمنى: إنّها أيّام أكلٍ وشُرْبٍ وبَاءَة. ورَمَى لِكُلّ جمْرَةٍ من الجمَرَات الثّلاث بعد الزّوال وقبل الصّلاة للظهر بسبع حَصَيات، يبدأ بالتي تلي مسجد مِنَى، ويقِفُ عندها للدُّعَاء، ثمّ التي تليها وهي الوسطى، ثمّ يقفُ للدّعاء، ثم جمرة العقبة، ولم يقِفْ عندها للدّعاء، وكان أزواجُه ﷺ يَرْمِينَ باللّيل.

وقد خطبَ النّبيُّ ﷺ في الحجِّ خمسَ خُطَبٍ: **الأولى**: يوم السابع من ذي الحجة بمَكَّةَ، **والثانية**: في يوم عرفة، **والثالثة**: في يوم النّحْر بمنى، **والرابعة**: يوم القَرّ بمِنَى، **والخامسة**: يوم النّفر الأوّل بمنى أيضاً. وأوصَى بالأَرْحَام خيراً في غالِبِ خُطَبِه. وقد كان عَمُّه العَبّاس رضي الله عنه استأذنَه في عَدَم المبيتِ بمِنَى في اللّيالي الثلاثِ من أجل السِّقَاية، فرَخَّصَ له في ذلك. ثمّ نهضَ ﷺ من منى في اليوم الثالث، الذي هو يوم النفر الآخر، ونفرَ معه المسلمون بعد الزَّوَالِ، وبعد الرَّمْي.

وضُرِبَتْ له ﷺ قُبَّةٌ بالمُحَصّبِ، ضَرَبَها له أبو رَافِع، وكانَ على ثقَلِه، ولم يأمُرْه ﷺ بذلك. قال أبو رَافِع رضي الله عنه: لم يأمُرني رَسُوْلُ الله ﷺ أَنْ أَنْزِلَ بالأبطح، ولكِنّي جِئْتُ فضَرَبتُ قُبّته، فجاءَ فنزلَ. وكان ﷺ قال لأسامة رضي الله عنه: «غداً نَنْزِلُ بِالمُحَصَّبِ إِنْ شَاءَ الله».

ولما نزَل ﷺ بالمُحَصّبِ صلّى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورَقَدَ رَقْدَةً، فَقَالَتْ له عائشة رضي الله عنها: يا رَسُولَ الله، أَأَرْجِعُ بحَجّةٍ ليسَ معها عُمْرَة؟، فدعا عبد الرّحمن بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما، فقال له: «اخْرُجْ بِأُخْتِكَ مِنَ الحَرَمِ، ثُمَّ افْرُغَا مِنْ طَوَافِكُمَا حَتَّى تَأْتِيَانِي هَهُنَا بالمُحَصَّبِ»، قالتْ: فاعتَمَرْنَا مِنَ التّنْعِيم مكانَ عُمْرَتي

التي فاتتني، وفَرَغْنَا مِنْ طَوَافِها في جَوفِ اللّيل، فأتيناه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمُحَصَّبِ، فقال لنا: «فَرَغْتُمَا مِنْ طَوَافِكُمَا»؟، قلنا: نعم، فأذّنَ في النّاسِ بالرَّحِيل.

وأمرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النّاسَ أنْ لا ينصرفوا إلى بلادِهم حتّى يكونَ آخرَ عَهْدِهم الطّوافُ بالبيتِ، الذي هو طواف الوَدَاع. ورَخّصَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تَرْكِ الحائِضِ لذلك، للتي قد طافَتْ طواف الإفاضَةِ قبل حيضها؛ كصَفِيَّةَ أمّ المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فإنّها حاضت بعد طوَاف الإفاضة في ليلة النّفر من منى، وقالت: ما أراني إلا حَابِسَتكم لانتظار طهري وطوَاف الوَداع، فقال لها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَ مَا كُنْتِ طُفْتِ يَومَ النَّحْرِ طَوَافَ الإِفَاضَة»؟، قالت: بلى، فقال: «لَا بَأْسَ، انْفرِي مَعَنَا يَكْفِيكِ ذَلِكَ».

ثُمّ إنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخَل مَكَّةَ في تلك اللّيلةِ، وطاف طَوَافَ الوَدَاع سَحراً، قبل صلاة الصّبح، ولما طافَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعاً وقفَ في المُلْتَزِم، بين ركن الحجر وبين باب الكعبة، فدعا الله تعالى، وألْزَقَ صَدْرَهُ الشّريف ووجهه بالملتزم. ثُمّ إنّه خرَج مِن الثّنيةِ السُّفلى ثنية كُدَى، وهي عند بابِ الشُّبَيكَة، متوجها إلى المدينة، وكان خروجُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المسجد من بَابِ الحَزْوَرَةِ، وكانت المُدّةُ من حين دخولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مَكَّةَ إلى حين خروجه منها عشرة أيام.

ولما وصَل النّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مَحلٍّ يُقال له: غَدِيرُ خُم[1]، بقُربِ رَابغ جمَع الصَّحابةَ وخطبَهم خُطْبَةً بيّنَ فيها فضْلَ عليٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَه، وبرَاءَة عِرْضِه مما تُكُلِّمَ فيه، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، يُوشِكُ أَنْ

(١) خُم: غديرُ ماء معروف، في مَحلٍّ بين مَكَّةَ والمدِينةِ قريبٍ من الجُحْفَةِ، وكان وقوف النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه بعد صلاة الظهر، تحت شجَرَةٍ عند ذاك الغدير، وذلك في اليوم الثّامن عشر من ذي الحجة.

يأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فأُجِيبَ، وَإِنّي مَسْؤُولٌ، وَإِنّكُمْ مَسْؤُولُونَ، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ»؟، قالوا: نشهد أنك قد بلّغتَ، وجاهدتَ ونصحتَ، فجزاك الله خيراً، فقال ﷺ: «أَلَيْس تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ جَنَّتَهُ حَقٌّ وَنَارَهُ حَقٌّ، وَأَنَّ البَعْثَ حَقٌّ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ»؟، قالوا: بلى نشهدُ بذلك، فقال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ». ثمّ حَضَّ على التّمسُّكِ بكتاب الله ووَصَّى بأهْلِ بيتِه، فقال: «وأَنا تَارِكٌ فِيكم ثَقَلَيْنِ، كِتابَ الله وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ، فَخُذُوا بِكِتابِ الله تَعَالى واسْتَمْسِكُوا بِهِ، وأَهْلُ بَيْتِي أَذْكِّرُكُمُ الله في أهلِ بَيْتِي أذْكِّرُكُمُ الله في أَهْلِ بَيْتِي»[1].

ثم قال النَّبِيُّ ﷺ مُبَيّناً فَضْلَ عليٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَه: «أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ»؟ كَرَّرَ عليهم ذلك ثلاثاً، وهُمْ يُجِيبُونَه ﷺ بالتّصديقِ والاعترافِ، فرَفعَ ﷺ يَدَ عَلِيٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَه، وقال: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَأَحِبَّ مَنْ أَحَبَّهُ، وَابْغِضْ مَنْ أَبْغَضَهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَأَعِنْ مَنْ أَعَانَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَأَدِرِ الحَقَّ مَعَهُ حَيْثُ دَارَ»[2].

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه [١٨٧٣/٤] باب فضائل عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه حديث رقم: (٢٤٠٨)، والإمام ابن خزيمة في صحيحه [٦٢/٢]، ورواه الإمام البيهقي في السنن الكبرى [٦٢/٢]، برقم: (٢٩٧١)، والإمام البزار في مسنده [١٣٤/٢]، برقم: (٤٣٣٦).

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى [١٣٥/٥]، برقم: (٨٤٦٤)، والحاكم في المستدرك [٢٧٤/٥]، برقم: (٦٢٧٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه، وأقرّه الذّهبي في تعليقه على التلخيص، فقال: صحيح. ورواه الطبراني في المعجم الكبير [١٩٢/٥]، برقم:=




ولما شاعَ حديثُ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»، بلغَ الحارثَ بنَ النّعمان

= (٥٠٥٩)، وأحمد في فضائل الصحابة [١/١٤]، برقم: (١٠١٦)، وعنده زيادة وهي: أنّ عمرَ لَقِيَ عليًّا بعد ذلك فقال: هنيئاً لك يا بنَ أبي طالب، أصبحْتَ وأمسَيتَ مولى كلّ مُؤمنٍ ومُؤمِنةٍ.
وقدِ افْترى وكذبَ مَن زعمَ أنّ هذا الحديثَ ليس بثابتٍ، فقد روى الإمامُ أحمد في مسنده [١/١١٩]، برقم: (٩٦١)، وأبو يعلى في مسنده [١/٤٢٨]، برقم: (٥٦٧): عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: شَهِدْتُ عَليّاً في الرَّحْبَةِ يقول: أنشدُ اللهَ مَن سَمِعَ رسُولَ الله ﷺ يقولُ يومَ غَديرِ خُم: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»، لما قام يشهد. فقام اثنا عشر بَدْرِيّاً وقالوا: نشهد أنا سَمِعْنا رَسُولَ الله ﷺ يقولُ يومَ غَدِيرِ خُم: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ»، وروى الطبراني المعجم الكبير [٥/١٤٠]، برقم: (٤٩٨٥): عن زيدِ بنِ أَرْقَم قال: نَاشَدَ عَليٌّ النّاسَ مَن سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول الذي قال له، فقامَ ستة عشر رَجُلاً فشهدوا أنّهم سَمِعُوا، وكنتُ فيمن كَتَمَ فذَهَبَ بَصَرِي؛ لِأنَّ علياً رضي الله عنه كان قد دَعَا على مَنْ كَتَم.
وهذا الحديثُ قد سمعه ثلاثون صحابياً وشهدوا به، وهو أقوى ما تمسكت به الشيعة على أنّ عليًّا كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه أولى بالإمامة مِن كلّ أَحَدٍ، وقالوا: هذا نصٌّ صَريحٌ على خِلَافِته. وقد جعلوا مِن يوم هذا الحديث عيداً، والحديثُ ليسَ فيه التّلْمِيحُ بالخلافَةِ فضلاً عَنِ التّصريحِ؛ لأنّ لَفْظَ المولَى يُطْلَقُ على عشرين معنى، من تلك المعاني: أنه السيد الذي ينبغي محبّته وتَجنّب بغضه، ففي هذا الحديث بيانُ فضْلِ سَيّدنا عَليّ لأنه كان مَبغُوضاً عند المنافقين، ولذلك أَظْهَرَ الحارثُ بنُ النّعمان الفِهْرِي من الغَيظ والبُغْض ما كان سبباً في هلاكِه عندما بلغَه هذا الحديث، فكأنّ النبيَّ ﷺ أعطى بهذا الحديث مِيزاناً للمَرْءِ يَزِنُ به نفسَه؛ فإنْ كانَ مُوالياً لِسَيِّدِنا عَلِيٍّ ومُحبّاً له فهو مُؤْمِنٌ، وإنْ كان غيرَ ذلك فهو منافقٌ، والعياذ بالله تعالى.
وقد قيل في سببِ هذا أيضاً: أنّ أسامةَ بنَ زيدٍ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهما قال لعَليٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه: لسْتَ مَوْلَاي، وإنّما مولاي رَسُوْلُ الله ﷺ، فقال رسُولُ ﷺ ذلك الحديث.
ولما قيل للحَسَنِ المثَنّى ابنِ الحسَن السِّبْطِ: إنّ خبرَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ»، نصٌّ في إمَامَةِ عليٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه، قال: أمَا واللهِ لو يعني النبيُّ ﷺ بذلك الإمارةَ والسُّلطانَ لأفصحَ لهم، ولقالَ لهم: يا أيها الناسُ هذا وَالٍ بعدي والقائم عليكم بعدي فاسمعوا له وأطيعوا. ثمّ قال: ووَ الله لو كان رَسُوْلُ الله ﷺ عَهِدَ إليه في ذلك ثمّ تركه لكان أعظمُ خَطِيئَة!.

الفِهْرِي ، فَقَدِمَ المدينةَ بعد مَقْدَمِه ﷺ من حَجّةِ الوداع ، فأناخَ راحلتَه بباب المسجد ، ودخل والنبيُّ ﷺ جالسٌ فيه وحوله أصحابُه ، فجاءَ حتّى جَثَا بين يديه ، ثم قال: يا محمَّدُ ، إنّك أَمَرْتَنَا أَنْ نشهدَ أنْ لا إله إلا الله وأنكَ رسُولُ الله ، فقبلنا ذلك منك ، وإنّك أمرْتَنا أَنْ نُصَليَ في اليوم واللّيلةِ خمسَ صَلَواتٍ ، وأَنْ نَصُومَ شهرَ رمضان ، وأَنْ نُزَكّيَ أموالَنا ، وأَنْ نَحجَّ البيتَ ، فَقَبلنا ذلك منك ، ثمّ لم تَرْضَ بهذا حتّى رَفَعْتَ ابنَ عمِّك فَفَضَّلْته ، وقُلْتَ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ» ، فهذا شيءٌ مِن الله أو مِنْك ؟ . فاحمرَّتْ عيناً رَسُوْلِ الله ﷺ وقال: «وَاللهِ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِنَّهُ مِنَ اللهِ وَلَيْسَ مِنِّي»(١) ، ثلاثاً ، فقام الحارثُ وهو يقول: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] فما بلغ بابَ المسجد حتّى رَمَاه الله تعالى بحَجَرٍ من السّماءِ فوقع على رَأسِه فخَرَجَ مِنْ دُبُرِه فماتَ وأنزلَ الله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ [المعارج: ١ ـ ٢] .

---

(١) ويدل على أنّ هذه النصوص لا تخصّ الخلافة: أنه قيل لعليٍّ كَرّمَ الله وَجْهَه: هل عهد إليك رَسُوْلُ الله ﷺ بالخلافة ؟ ، فحَدّثنا فأنتَ الموثوقُ به والمأمونُ على ما سَمِعْتَ ، فقال: لا ، والله لئن كنتُ أوّلَ مَن صَدّق به فلا أكونُ أوّلَ مَن كَذَبَ عليه ، ولو كان عندي منه عَهْدٌ ، ما تركتُ القِتَالَ على ذلك ، ولو لم أَجِدْ إلّا بُرْدَتي هذه ، والنّبيُّ ﷺ لم يَمُتْ فَجْأةً بل مكثَ في مرضِه أياماً يأتيه المؤذنُ فيُؤْذِنُه بالصّلاةِ فيأمرُ أبا بكرٍ فيُصَلّي بالنّاسِ وهو يَرَى مكاني ، فلمَّا ماتَ النبيُّ ﷺ اخترْنَا لِدُنْيانَا مَن رَضِيَه النّبيُّ ﷺ لِدِينِنا فبَايَعْنَاه وكان لذلك أَهْلاً ، لم يختلفْ عليه منّا اثنان ، فلمَّا قُبِضَ تَوَلّاها عُمَرُ بمُبايَعَتِه ، وأَقَامَ فيها لم يختلف عليه منّا اثنان ، وأَعطَيتُ ميثاقي لعُثمان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه ، فلمَّا مضوا بَايَعَنِي أهلُ الحرَمين ، فوثَبَ فيها مَن ليسَ مثلي ، ولا قَرَابَتُه كقَرَابَتِي ، ولا عِلْمُه كَعِلْمِي ، ولا سَابِقَتُه كسابقتي ، وكنتُ أحقّ بها منه . ـ يعني معاوية ـ . فهذا تَصْرِيحٌ بأنه ﷺ لم ينص على إمَامَتِه .

ولما وصَلَ النّبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى ذِي الْحُلَيْفَةِ باتَ بها ؛ لأنه كان يكْرَه أَنْ يدخلَ المدينة ليلاً. ولما رأى المدينةَ كبّرَ ثلاثَ مرّات ، وقال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيْرٌ ، آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ سَاجِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ» ، ثُمّ دَخلَ المدينةَ نهاراً.

بَابُ
عُمَرِهِ ﷺ

اعْتَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بعد الهجرة أربع عُمَر، وكُلُّهُنّ في ذي القعدة، مخالفاً للمشركين، فإنّهم كانوا يكرَهونَ العُمرَةَ في أَشْهُرِ الحجِّ، ويقولون: هِيَ مِن أَفْجَرِ الفُجُور!. **وأُولُاها**: عمرة الحُدَيْبِيَة، التي كانت في ذي القعدة، حين صَدّه المشركون عن البيت الحرام. **وثانيتها**: عمرته ﷺ عمرة القضاء في ذي القعدة للعام الذي يلي الحُدَيْبِيَة. **وثالثتها**: عمرته ﷺ بعد قسمة غنائم حنين بالْجِعِرّانَة وكانت في ذي القعدة، دخل ﷺ مَكَّةَ ليلاً، فقضى عمرته، ثم خرج من ليلته، فأصبح بالْجِعِرّانَة كبائت بها، ومن ثم خفيت على كثير من الناس. **ورابعتها**: عمرته ﷺ مع حجّةِ الوداع، وهي التي دخلتْ في الحجِّ بناءً على أنه أَحْرَمَ قَارِناً، أَوَ التي أدخلَها على الحجِّ بناءً على أنه أحرَم بالحجّ خصُوصِيّةً له، أو عينهما بعد أنْ أحرمَ مطلقاً، على ما تقدّم.

قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها: اعتمرَ رَسُوْلُ الله ﷺ ثلاثاً سِوى التي قرنَها بحَجَّةِ الوَداع. وأخرجَ البخاريّ ومسلم: أنه ﷺ اعتمرَ أربعَ عُمَرٍ كلّها في ذي القعدة إلا التي في حَجّتِه. لأنه لم يوقِعْها في ذي القعدة، بل أوقعَها في ذي الحجة تبعاً للحجِّ. وأمّا إحرامُه بها فكان في ذي القعدة في خمس بقينَ منه.

وقال عروةُ بنُ الزّبير: كنتُ أنا وابنُ عمَرَ مستندين إلى حُجْرةِ عائشةَ رضي الله عنها، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، اِعتمرَ رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم في رجب؟ قال: نعم، فقلتُ لعائشةَ: أيْ أمّتاه، ألا تسمعني ما يقول أبو عبد الرحمن؟، فَقَالَتْ: وما يقول؟، قلت: يقول: اعتمرَ رَسُوْلُ الله صلى الله عليه وسلم في رجب، فَقَالَتْ: يغفرُ الله لأبي عبد الرّحمن، ما اعتمرَ الله صلى الله عليه وسلم عُمْرَةً إلّا وهو شَاهِدُها، وهوَ مَعَه، ومَا اعْتَمَرَ في رَجَبٍ قَطّ.

وزادَ بعضُهم: أنه صلى الله عليه وسلم اعتمر في رجب وفي شوال. فيكون اعتمرَ ستّة، ولعلّ مُستنده قول ابنُ عمر المتقدّم، وقد تقدّم رَدّه. وجازَ أنْ يكونَ قولُه: اعتمرَ في شوال، أي: خرجَ للعمرةِ في شوال. واللهُ أعْلَمُ.

بَاب
مُعْجِزَاتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

المُعْجِزَةُ: هيَ الأمرُ الغريبُ، الخارِقُ للعَادَةِ، الموهِنُ للكُفْرِ، الذي تعجزُ عن بلوغِهِ قُوَى البشر، ولا يقدر عليه إلا خالق القوى والبشر، من الأمور الحاصلة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد البعثة إلى وفاتِه. وأمّا الأمورُ الحاصلة له بين يدي أيام مولده وبعثته، فإنها في الاصطلاح يقال لها: إرهاصات للرّسالة ولا تسمى معجزات. وإنّما هيَ لكي إذا تُلِيَتْ على قلبِ المؤمن زادته إيماناً، وإذا تفكر فيها ذو البصيرة واليقين زادته إيقاناً، وكلّ مَن أرسلَه الله ﷻ لم يخل من آية أيده بها مخالفة للعادات، ليستدل بتلك الآية على صدقه فيما يدعيه من الرسالة.

وقد كانت للرّسل معجزات مختلفة، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثرهم معجزةً، وأعظمهم آيةً، وأظهرهم برهاناً، فقد جاءَ أنه قال: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ الله إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فإنه لما غلبَ السِّحْرُ في زَمَنِ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاءَ بجنسِه في مُعْجِزَاتِه، فألقى العصا، وفلقَ البحرَ. ولما غلبَ الطِّبُّ في زَمَنِ عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاءهم بجنسِه، فأحيا الموتى، وأبرأَ الأكمَهَ والأبرصَ. ولما غلبتِ الفصَاحةُ وقولُ الشِّعر في زَمَنِ نبيّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاءَهم بالقرآن. والغرضُ ذِكْرُ نُبْذَةٍ من مُعْجِزَاتِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا فمُعْجِزَاتُه كالبَحر المتَدفّق بالأمواج لا تنْحَصِرُ، وفي كلام بعضِهم: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعْطِيَ ثلاثة آلاف

معجزة من غير القرآن؛ فإنّ فيه سبعين ألف معجزة.

فمِن مُعْجِزَاتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **القرآن**، وهو أعظمها لأنّ الله تعالى أتى به مشتملاً على أخبار الأمم السّالفة، وسِيَرِ الأنبياء الماضية التي عرفها أهل الكتاب، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتبُ، ولا عُرِفَ بمُجالسةِ الكُهَّانِ والأحْبَار، فقد نشَأَ بين أظْهُرِهم، في بلدٍ ليسَ بها عالمٌ يَعرِفُ أخبارَ القرون الماضية ولا الأمم السّالفة التي اشتمل عليها، حتى أنّ من كان مِنَ العرب يكتبُ ويقرأ أو يجالسُ الأحبار لم يدرك عِلْمَ ما أخبرَ به من القرآن، خصوصاً إخباره عن المغيّبات المُسْتَقْبَلَة الدّالة على صِدْقِه، لوقُوعِها على ما أَخْبَرَ به.

وقد أعجزَ الفُصَحَاءَ والبُلغاءَ؛ لحُسْنِ تأليفِه، وَالْتِآم كلماتِه، فبَهَرَتِ العقولَ بلاغتُه، وظَهَرَتْ على كلّ قولٍ فصَاحَتُه، وأُحْكِمَتْ آياتُه وفُصِّلَتْ كَلِماتُه، فحَارَتْ فيه عقولُهم، وهم رجالُ النّظم والنّثرِ، وفُرْسَانُ السَّجْعِ والشِّعْرِ، وقد تَحدّاهم ودعاهم إلى مُعَارَضَتِه والإتيانِ بأَقْصَرِ سُورَةٍ منه وهو دليلٌ قَاطِعٌ على أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُقَلْ لهم ذلك إلا وهو واثقٌ مُسْتَيقِنٌ أنّهم لا يستطيعون ذلك، لكونه مِنْ عندِ الله، إذْ يَسْتَحِيلُ أنْ يقولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك وهو يعلمُ أنه الذي تَوَلّى نظْمَه ولم ينزلْ عليه مِنْ عندِ الله؛ لأنه لا يأمَنُ أنْ يكونَ في قومِه مَنْ يُعَارِضُه، وهم أهل فصَاحَةٍ وشِعْرٍ وخطَابَةٍ قد بلغوا الدّرجَةَ العُلْيا في البَلاغَةِ، وهو مِن جِنْسِ كلامِهم، فيَصِيرُ كَذّاباً، ولو كان في استطاعَةِ أَحَدٍ منهم ذلك لما عَدَلوا عَنْ ذلكَ إلى المُحَارَبَةِ التي فيها قَتْلُ صَنَادِيدِهم ونَهْبُ أموالِهم وسَبْيُ ذَرَارِيهم، لأنّ النّفُوسَ إذا قُرِعَتْ بِمثلِ هذا اِسْتَفْرَغَتِ الوسعَ في المعارَضَةِ، فهو مُمتَنِعٌ في نفْسِه عَنِ المعارضة.

ولما جاءَ الوليدُ بنُ المغيرة، وكان المُقَدَّمَ في قريشٍ بَلَاغَةً وفصَاحَةً، فقال

للنّبيِّ ﷺ: اقْرأْ عليَّ، فقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، فقال: والله إنّ له لحَلَاوَةً، وإنّ عليهِ لطَلَاوَةً، وإنّ أعلاهُ لمثمِرٌ، وإنّ أسفلَه لمُغْدِقٌ، وما يقولُ هذا بشَرٌ، وإنّه ليَعْلُو ولا يُعْلَى عليه. فَقَالَتْ قريشٌ: صَبأَ الوليدُ، والله لتَصْبَأَنَّ قريشٌ كلّها، فقال أبو جهل: أنا أكْفِيكُمُوه، فقعدَ على هَيئَةِ الحزينِ، فمَرَّ بهِ الوليدُ، فقال له: ما لي أَرَاكَ كَئِيباً؟، فقالَ: وما يمنعني أَنْ أَحْزَنَ، وهذه قُرَيشٌ قد جَمَعُوا لك نَفَقَةً ليُعِينُوكَ على أَمْرِك، وزَعَمُوا أنك إنّما زَيّنْتَ قولَ مُحمَّدٍ لتُصِيبَ من فَضْلِ طعَامِه، فغَضِبَ الوَلِيدُ، وقال: أو ليسَ قد علِمَتْ قريشٌ أنّي مِن أكثرِهم مالاً ووَلَداً، وهل يشبعُ محمَّدٌ مِنَ الطعام؟. ثمّ انطلق حتّى أتى مجلِسَهم فقال: تَزْعُمُونَ أنّ محمداً كَذّابٌ، فهل رَأَيتُمُوه كَذَبَكم قَطّ؟، فقالوا: اللَّهُمَّ لا، قال: تَزْعُمُونَ أنه مجنونٌ، فهل رأيتُمُوه أتى بالخرَافاتِ قطّ؟، قالوا: لا، قال: تَزْعُمُونَ أنه كاهِنٌ، هل سمعتموه يخبرُ بما تخبرُ به الكَهَنَةُ؟، ثم قالوا: لا، فما هو يا أبا المغيرة؟، فقال: إنْ هَذَا إلّا سِحْرٌ يُؤثر!.

ولم يَتَحدَّاهُم ﷺ بشَيءٍ من مُعجِزَاتِه إلّا بِالقُرْآنِ، فكلّ جُمْلَةٍ منه مُعْجِزَةٌ، وحُفِظَ من التّبديلِ والتّحريفِ على ممرِّ الدّهورِ، وقارِئُه لا يَمَلّه، وسَامِعُه لا يمُجّه، بل لا يَزَالُ مع تكْرِيرِه وتَرْدِيدِه غَضّاً طريّاً، تَتَزَايدُ حَلاوتُه، وتتعاظمُ محبّتُه، يُؤْنَسُ به في الخلَوَات، ويُسْتَرَاحُ بتِلَاوَتِه مِن شَدَائِد الأَزَمَاتِ، وغيرُه مِنَ الكَلامِ ولو بَلَغَ الغَايَةَ يُمَلّ مِن التَّرْدَادِ ويُعادَى، وقدِ اشتملَ على جميع ما اشْتَمَلَتْ عليه جميعُ الكُتبِ الإلَهيّة وزِيَادَة.

ومن عِظَمِ قَدْرِ القرآنِ أنّ الله خصّه بأنّه دَعْوةٌ وحُجّةٌ، ولم يكُنْ هذا لِنبيٍّ

قطّ، إنّما يكونُ لكلٍّ منهم دَعْوَةً، ثمّ يكونُ له حُجّةٌ غيره، وقد جمعهما الله تعالى لرسولِه ﷺ في القرآنِ، فهو دَعْوَةٌ وحُجَّةٌ، دعْوَةٌ بمَعَانِيه، وحُجَّةٌ بألفَاظِه، وكفى الدّعوة شرفاً أن تكون حجّتها معها، وكفى حجّتها شرفاً أنْ لا تنفصلَ دعوتُها عنها، وقد جمعَ كلَّ شيءٍ خصوصاً الإخبار بالمغيبات، وتوجدُ على طبق ما أخبر به، والإخبار عن القرون السالفة.

وَمِنْهَا: إخبارُه ﷺ عن صفةِ بيتِ المقدس لما أخبرَ قريشاً بأنه أسري به إلى بيت المقدس. **وَمِنْهَا**: إخبارُه ﷺ بموتِ النجاشي يوم موته، وقد صَلَّى عليه معَ أصحابِه. **وَمِنْهَا**: انشقاقُ القمر، وقد تقدّم بيانُه. **وَمِنْهَا**: حمايةُ الله تعالى له من قريش لما تعاقدوا في دار النّدوة على قتلِهِ ﷺ قبل هجرتِه. **وَمِنْهَا**: نَسْجُ العنكبوت عليه ﷺ في الغار. **وَمِنْهَا**: ما وقعَ لسُرَاقَة مِن غَوصِ قَوائمِ فَرَسِه في الأرض. **وَمِنْهَا**: دَرُّ الشَّاةِ في قِصَّةِ شَاةِ أمِّ مَعْبَد. **وَمِنْهَا**: دعوتُه ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه أنْ يذهبَ عنه الحرُّ والبردُ فلم يَشْكُ واحِداً منهما وكان كَرَّمَ الله وَجْهَه يلبسُ ثيابَ الشّتاءِ في الصّيفِ وثيابَ الصّيفِ في الشّتاءِ ولا يتأثَّرُ. **وَمِنْهَا**: دعاؤُه ﷺ لحذيفة في الخنْدَقِ، بأنّ اللهَ يذهبُ عنه البردَ، فذهبَ عنه حتى رجعَ. **وَمِنْهَا**: أنه ﷺ هزمَ القوم في يوم بدرٍ ويوم حنين بقبضَةٍ من تُرابٍ رَمَى بها في وجوهِهم، كما تقدّمَ.

وَمِنْهَا: بَرَكةُ تَفْلِه وبُصَاقِه ونَفْثِه ﷺ: تَفَلَ في عيني عليٍّ كَرَّمَ الله وَجْهَه وهو أرْمَدُ، فعُوفِيَ من ساعته في خَيْبَرَ. وبصَق في نَحْرِ كلثوم بن الحُصَين وقد رُمِيَ فيه بسهم يوم أحدٍ فبَرأَ. وتفَل على أثرِ سَهْمٍ في وجه أبي قتادة في غزوة ذي قرد، فما آلمه ولا قَاحَ. وتفلَ على شُجَّةِ عبدِ الله بن أنيس فلمْ تؤلمه. ونفثَ

على ضربةٍ بساق سَلَمَةَ بنِ الأَكْوَع يومَ خَيْبَرَ فبرئتْ. ونفثَ على ساقِ ابنِ الحكم يوم الخندق وقد انكسَرت، فبرَأَ مكانَه، ولم ينزل عن فرَسِه. ونَفَثَ على يدِ معوّذ ابن عفراء وقد قطعَها عكرِمَةُ بنُ أبي جهل يوم بَدْرٍ، فجاءَ يحملها فألصَقَها رسُولُ الله ﷺ فالتَصقَتْ. ونفثَ على عاتِقِ خُبيبٍ وقد أُصِيبَ يوم بدرٍ بِضَربةٍ على عاتقِه حتّى مالَ شِقُّهُ فردّه رَسُوْلُ الله ﷺ مكانَه، فالْتَصَقَ.

وَمِنْهَا: رَدُّ عينِ قتادةَ بعد أَنْ سَالتْ على خَدِّه، فكانت أحسَنَ عينيه. وَمِنْهَا: أنّ ضريراً شكا إليه ﷺ ذهابَ بصره، وأنه لا قائدَ له، فأمَره ﷺ أنْ يتوضّأ وأنْ يُصَليَ ركعتين، ولقَنّه دعاءً فدعَا به فأبصرَ لوقْتِه. وَمِنْهَا: أنّ رجلاً ابيضّتْ عيناه، فكانَ لا يبصرُ بهما شيئاً، فنفثَ رَسُوْلُ الله ﷺ في عينيه فأبصَرَ. قال بعضُهم: رأيتُه وهو ابنُ ثمانين يُدْخِلُ الخيطَ في الإبرَةِ. وَمِنْهَا: أنّ عُتبةَ بنَ فَرْقَدٍ السُّلَمِيّ كان يُشَمُّ منه رائحةُ الطّيبِ ولا يَمَسُّ طِيباً؛ لكونِه ﷺ نفثَ في يدِه الشّريفةِ ثم مرَّ بها على جسَدِه. وقالت بعضُ نِساءِ عُتْبَة: كنّا أربع نِسْوةٍ ما منّا امرأة إلا وهي تجتهدُ في الطّيبِ لتكونَ أطيبَ من صَاحبتها، وما يمسُّ عتبةُ الطّيبَ، وإذا خرجَ إلى النّاسِ، قالوا له: ما شمَمْنا ريحاً أطيبَ من ريحِ عُتبةَ. وَمِنْهَا: دعاؤُه ﷺ لأنسٍ بطُولِ العُمر، وكثرة المال والولد، فكان كما دعَا. ومعجزاتُه في قبول الدّعاءِ كثيرةٌ جِدّاً إِذْ مَا دعَا ﷺ بدعوةٍ لبرٍّ أو على فاجرٍ إلّا وأَجَابَه ربُّه ﷻ فيها لِكَرَامَتِه عليه ومكانَتِه لدَيه.

وَمِنْهَا: استسقاؤه ﷺ فأمطرَتِ السّماءُ أسبوعاً، ثمّ شُكِيَ له مِن كثرةِ المطرِ، فَاسْتَصْحَى لهم فانْجَابَ السّحَابُ. وَمِنْهَا: شهادةُ الشّجرةِ له ﷺ بالرّسَالة في خَبر الأعرابي الذي دعاه إلى الإسلام، فقال: هَلْ مِن شَاهِدٍ على ما

تقول؟، قال: «نَعَمْ، هَذِهِ الشَّجَرَةُ، ادْعُهَا»، فدعاها، فأقبلتْ، فاسْتَشْهَدَها، فشهدت ثلاثاً أنه كما قالَ، ثم رجعتْ إلى مَنْبَتِها. وَمِنْهَا: أمره ﷺ لشَجَرَتين أَنْ تجتَمِعَا لِيَسْتَتِرَ بهما عند قضاءِ حاجته، فاجتمعتَا حتى قضى حاجته، ثم افترقتا وذهبتَا إلى محلّهما.

وَمِنْهَا: حَنِينُ الجِذْعِ إليه ﷺ. وَمِنْهَا: تسبيحُ الحصا في كفه. وَمِنْهَا: تأمين أَسْكِفَةُ الباب وحَوَائِطُ البيت على دعائه. وَمِنْهَا: تسبيح الطعام بين أصابعِه الشّريفة. وَمِنْهَا: إعلامُ الشّاةِ له بأنّها مَسْمُومةٌ. وَمِنْهَا: شَكْوَى البَعِيرِ له قِلّةَ العَلَفِ وكثرةَ الكلَفِ. وَمِنْهَا: شَكْوَى بعضِ الطّيُورِ له ﷺ بسببِ أَخْذِ بيضِهِ أو فراخِهِ. وَمِنْهَا: شهادة الذّئْب والضّب له ﷺ بالرسالة. وَمِنْهَا: إخبارُه ﷺ عن مصارع المشركين ببدرٍ، فلم يَعْدُ أحَدٌ منهم مِن مَصْرَعِه. وَمِنْهَا: إخبارُه بأنّ طائفةً من أمّته يغزونَ البحرَ، وأنّ أمَّ حَرَام بنتَ مَلْحَان منهم، فكان كذلك. وَمِنْهَا: قوله ﷺ في الحسن رضي الله عنه: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَينَ فِئَتَينِ عَظِيمَتَينِ مِنَ المُسْلِمِينَ»، فلمّا آلتْ إليه الخِلَافِةُ خرجَ في جمْعٍ عَظِيمٍ لِقتَالِ مُعَاوية، ثم صَالَحه، وحقَنَ دِمَاءَ الفِئَتين مِن المُسلمين. وإخبارُه ﷺ بالمغَيّباتِ بابٌ واسعٌ جدّاً. ومنه الإخبارُ بالحوادثِ الكائنة بعده إلى آخرِ الزّمان، والإخبارُ عن أحوالِ يوم القيامة، والقضاءِ، والحشرِ، والحسَابِ، والجنّةِ والنار. وقد صَلّى رَسُوْلُ الله ﷺ الصُّبحَ يوماً، ثمّ صَعَدَ المنبرَ فخَطبَ حتّى حضَرتِ الظهرُ فنزل فصَلّاها، ثمّ صعد فخطبَ حتى حضَرَتِ العصرُ، فنزلَ فصَلّاها، ثمّ صعدَ فخطبَ حتى غرَبَتِ الشّمسُ فأخْبرَ بما كانَ وبما هُوَ كائِنٌ.

وَمِنْهَا: تكثيرُ الطّعام وقد وقعَ له ذلك في مواطن كثيرة. من ذلك: إطعامُ ألفٍ من صاع شعير في حفر الخندق فشبعوا والطّعام أكثر ممّا كان. وإطعامُ أهل الخندق من تمرٍ يسيرٍ، وجَمْعُ ما فضَل مِن الأَزْوَادِ ودعاؤُه ﷺ فيها بالبركة وقسمتها في العسكر، فقامت بهم كما تقدم في الحُدَيْبِيَة وتبوك. وَمِنْهَا: دعاؤه ﷺ لأبي هريرة في تمَرَاتٍ قد صفّهُنَّ في يدِه، وقال: يا رسُولَ الله ادْعُ لي فِيهِنَّ بالبَركةِ، فدعا له ﷺ بذلك، وأمره أن يكونَ التّمرُ في مِزْوَدٍ، وقال له: «إِذَا أَرَدْتَ أَخْذَ شَيءٍ مِنْهُ فَأَدْخِلْ يَدَكَ فِيْهِ فَخُذْهُ وَلَا تَنْثُرْهُ نَثْراً»، قال أبو هُريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان ذلك المِزْوَدُ لَا يُفَارِقُني، ولقد أخرجتُ من ذلك التمر كَذا وكَذا وسقاً في سَبيل الله، وكنّا نأكلُ منه ونُطْعِمُ، في حياتِه ﷺ، وحياةِ أبي بكرٍ وعمرَ، حتّى انقطَع في زَمَن عثمان، بِضَيَاع المِزْوُدِ الذي كانتِ التّمَرَاتُ فيه.

وَمِنْهَا: تكثيرُ الطّعام الذي جاءَ به أنس، فعنه رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه قال: تزَوّجَ رَسُوْلُ الله ﷺ فدخلَ بأهلِه، فصنَعَتْ أُمّي حَيْساً فجعلَتْه في تَوْرٍ، فَقَالَتْ: اذهَبْ به إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فقُلْ: بعثَتْ أمّي بهذا إليك، وهيَ تقرِئُكَ السّلامَ، وتقول: إنّ هذا لك منّا قليلٌ، فذهبْتُ به إليه ﷺ وأخبرْتُه، فقال: «ضَعْهُ، ثُمَّ اذْهَبْ فَادْعُ لِي فُلَاناً وَفُلَاناً وَمَنْ لَقِيْتَ»، فدعوتُ من سمّاهم ومَن لقيتُ، فكانوا زُهَاء ثلاثمائة، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «لِيَأْكُل كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيْهِ»، فأكلوا عشرةً عشرةً، حتى شبعوا كلّهم، ثم قال: «يَا أَنَسُ؛ ارْفَعْ»، فما أدري حين وضعتُ كان أكثر أو حين رَفَعْتُ.

وَمِنْهَا: تكثيرُ الطّعَام الذي صَنعهُ أبو أيوب الأنصَاري، فعنه رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه قال: صنعتُ لرَسُولِ الله ﷺ ولأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه طعاماً

قدرَ ما يكفيهما فأتيتهما به، فقال ﷺ: «اذْهَبْ فَادْعُ لِي ثَلَاثِينَ مِنْ أَشْرَافِ الأَنْصَارِ»، فشَقّ ذلك عليَّ، وما عندي ما أزيدُه، فدعوتُهم، فأكلُوا حتّى صَدَروا، ثم قال: «اذْهَبْ فَادْعُ لِي سِتِّينَ مِنْ أَشْرَافِ الأَنْصَارِ»، فدعوتُهم، فأكلوا حتّى صدروا، ثمّ قال: «اذْهَبْ فَادْعُ لِي تِسْعِينَ مِنْ أَشْرَافِ الأَنْصَارِ»، فدعوتُهم فأكلوا حتّى صَدروا، وشهدوا جميعاً أنه رَسُوْلُ الله ﷺ قبل أنْ يخرجوا، فأكلَ مِن طعامي ذلك مائةٌ وثمانون رجلاً كلّهم من الأنصار.

وَمِنْهَا: أنّ امرأةً أَهْدَتْ له ﷺ سَمناً في عُكّةٍ فقَبِلَه، وترَكَ في العُكّةِ قليلاً ونفثَ فيه ودَعَا بالبركة، فكانَ يأتيها بنُوها يسألونَها الأُدْمَ، فتَعْمِدُ إلى تلك العُكّةِ فتَجِدُ فيها سَمناً، فما زالت تقيمُ بها أُدْمَ بيتها بقيّة حياتِه ﷺ، وأبي بكرٍ، وعمرَ، وعثمانَ.

وَمِنْهَا: نبعُ الماءِ من بين أصابعه الشريفة ﷺ، حتّى شربَ منه القومُ، وتوضؤوا وملؤوا قِرَبَهم، وهم ألفٌ وخمسمائة في الحُدَيْبِيّةِ. وكذا في غَزْوَة تبوك شربوا وسقوا وهم ثلاثون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، مع ما كان معهم من الخيل والإبل التي يركبون عليها وهي خمسة عشر ألف بعير، واثنا عشر ألف فرس، وقد تكرَّر نبعُ الماءِ من بين أصابعِه ﷺ في عدة مَوَاطن، ـ وذلك الماءُ يعتبرُ أشرَفُ المِيَاه على الإطلاق ـ، ولم يُسْمَعْ بمثل هذِه المعجزة عَنْ غيرِ نبيّنا ﷺ، وهيَ أبلغُ مِن نبعِ الماءِ مِنَ الحَجَرِ الذي ضرَبه موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن خروجَ الماءِ من الحجَر مَعْهُودٌ، بخلافِ خروجِه من بينِ اللّحمِ والدّمِ والعَظْمِ والعَصَبِ ـ من غير شقٍّ ولا جَرْحٍ ـ.

وَمِنْهَا: انقلابُ الماءِ المالح عَذباً ببركةِ رِيقِه الشّريفِ. فقد شَكَا قومٌ إليه ﷺ ملوحةً في ماءِ بئرهم، فجاء ﷺ في نفر من أصحابه حتى وقف على ذلك البئر، فتفل فيه، فتفَجّر بالماءُ العذب المعين. وَمِنْهَا: أنه كان باليمن ماء يقال له: زُعَاقٌ، مَن شَرِبَ منه ماتَ، فلمّا بُعِثَ ﷺ، وَجَّهَ إليه: «أَيُّهَا المَاءُ أَسْلِمْ فَقَدْ أَسْلَمَ النَّاسُ»، فكان بعد ذلك مَن شَرِبَ مِنه لا يَمُوتُ.

وَمِنْهَا: إِبْرَاءُ الأَبرَص، فقد شَكَتْ امرَأةٌ إليه ﷺ بَرَصاً كانَ بها، فمسَحَ عليه بعَصاً، فأذهبَه الله. وَمِنْهَا: إبراءُ الرّئَةِ واللّقْوَةِ والقُرْحَةِ واللّسْعَةِ والحَرَارَةِ والاسْتِسْقَاءِ، وإبرَاءُ الجُنُونِ، فقد جاءَت امرأةٌ بابْنٍ لها صَغيرٍ، فَقَالَتْ: يا رسُولَ الله، إنّ بابني هذا جُنُوناً، وإنّه يأخذه عند غذَائِنا وعَشَائِنا فيُفْسِدُه علينا، فمسحَ رَسُوْلُ الله ﷺ رأسَه ودعَا له، فخَرجَ مِن جوفِه مثلُ الجَرْوِ الأَسْوَد، فَشُفِيَ من جُنُونِه.

بَابُ
خَصَائِصِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وفي هذا الباب ذِكْرُ نُبْذَةٍ من خصَائِصِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ممّا اُخْتُصَّ به دونَ سَائر النّاس من الأنبياءِ وغيرِهم، ومَا اختُصَّ به عَن غيرِ الأنبياء، وفيما اختُصَّتْ به أمّتُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن سائر النّاس من الأنبياءِ وغيرهم، وفيما اشترَكَتْ فيه مع الأنبياء دُونَ أُمَمِهم. ولا يخفى أنّ ذِكْرَ خَصَائِصِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرٌ لابُدّ منه لتُعْرَفَ فلا يَتَأسّى به جَاهِلٌ في ذلك. ثمّ لا يخفى أَنَّ الذِي مِن خَصَائِصِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن سَائر النّاس إمَّا أنْ يكونَ اختُصّ بوجوبِه عليه لأنّ الله تعالى عَلِمَ أنه أقْوَى وأَصْبرُ عليه مِن غَيرِه، ولأنّ ثَوَابَ الفَرض أفضلُ من ثوابِ النّفل غالباً. أو اختصَ بتَحْرِيمِه عليه لأنّ الله تعالى عَلِمَ أنه أصْبرُ على تَرْكِه. أو اختُصّ بإِبَاحَتِه له تَسْهِيلاً عليه. أوِ اخْتُصَّ باتّصَافِه بِهِ لمزيدِ فَضْلِه وشَرَفِه.

* فمِنَ القِسْم الأول: صَلاةُ الضّحى، وركعتا الفجر، وصلاة الوتر، والسّواك، وغسل الجمعة، والأضحية، والعقيقة، وأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجبُ عليه أَنْ يُؤَدِّيَ فرضَ الصَّلاةِ كامِلَةً لا خَلَلَ فيها، وأنه يجبُ عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُصَلّيَ في كلّ يوم وليلةٍ خمسينَ صلاة على وِفْقَ ما كان في ليلةِ الإسراء، والمُشَاوَرةُ لذوي الأحلام في أمرِ الدّين والدّنيا من الأمور الاجتهاديّة، وقضاءُ دَين مَن مات معسراً من المسلمين، وأداء الجِنَايَات عمَّن لَزِمَتْهُ وهو مُعْسِرٌ، وتخييرِ نسائِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين زينة الدّنيا ومُفارقَتِه، أو اختيار الآخرة والبقاء في عِصْمَتِه، وأنَّ مَن اختَارت

الدّنيا يُفارقها، ومَنِ اخْتارَتِ الآخرةَ يُمْسِكها.

* **ومِنَ القِسْم الثّاني**: تحريمُ أكْلِ الصّدقة واجبةً كانتْ أو مَندُوبةً، وكَذا الكفّارات والنّذور والوقف عليه؛ إلا على جِهَةٍ عامّة كالآبار الموقوفة على المسلمين، ويُشارِكُه في الصّدقةِ الواجبة آلُهُ دُونَ صَدَقة التّطوع، وأَنْ يُعْطِيَ شيئاً لأَجْلِ أَنْ يأخُذَ شَيئاً أكثرَ منه، وأَنْ يتعلمَ الكِتَابةَ أو الشِّعْرَ، وإِنشاءَه ورِوَايته لا التَّمثّل به.

وأنه ﷺ إذا لبسَ لأَمَتَهُ للقتالِ لا يدعُها حتّى يحكمَ الله بينه وبين عَدُوِّه؛ وهذا مما شاركَه فيه الأنبياءُ عليهم الصلاة والسلام، وأنه لا يكونُ له خَائِنَةُ الأعين؛ وهيَ الإيماءِ إلى مُباح مِن قتل أو ضربٍ على خَلافِ ما يظهرُ، وليسَ له إِمْساكُ مَن كَرِهَتْهُ من النساء، ولا نِكَاحُ الكِتَابيّة، ولا نِكَاحُ الأَمَةِ المُسْلِمَة؛ لأنه لا يخشَى العَنَتَ، أي: الزِّنا.

* **ومِنَ القِسْم الثالث**: القُبْلَةُ في الصّومِ مَع وجُودِ الشّهْوةِ، والخُلْوَةُ بالأَجْنَبِيّة، وإِذَا رَغِبَ في امرأةٍ خَلِيَّةٍ جازَ له أَنْ يَدْخلَ بها من غَيرِ لَفْظِ نِكَاحٍ أو هِبَةٍ، ومِن غيرِ وليٍّ ولا شُهودٍ، وأنه إذا رَغِبَ في امرأةٍ مُتزوِّجَةٍ يَجِبُ على زَوجِهَا أَنْ يُطَلّقَها له ﷺ، وأنه إذا رَغِبَ في أَمَةٍ وجبَ على سيدها أَنْ يَهبَهَا له، وله أَنْ يُزَوِّجَ المرْأَةَ لِمنْ يشَاءُ بغيرِ رِضَاها، وله أَن يَتزَوَّجَ في حَالِ إِحرَامِه، وأَنْ يَصْطَفِي مِن الغَنِيمَةِ ما شاءَ قبل القِسْمَةِ مِن جاريةٍ أو غيرها.

ولهُ ﷺ أَنْ يَتزَوَّجَ امرأةً مِن غَيرِ مَهْرٍ، وأَنْ يدخُلَ مَكَّةَ بغيرِ إِحْرَام، وأَنْ يَقْضِيَ بعِلْمِه ولو في حُدُودِ الله تعالى، وأَنْ يَقْضِيَ لنفْسِه ولِوَلَدِه، وأَنْ يَشْهَدَ

لنفسِه ولِوَلَدِه، وأَنْ يَقْبَلَ الهَدِيّةَ ممّنْ يُرِيدُ الحكُومَةَ عندَه، وَأَنْ يَقْضِيَ في حَالِ غَضَبِه، وَأَنْ يُقْطِعَ الأَرْضَ قبْلَ أَنْ يفتحَها. ومما شَارَكَه فيه الأَنبِيَاءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ في هذا القسم: أنّ له ﷺ أنْ يُصَلّيَ بعدَ نَومِه غير مُتَمَكّن، وإِبَاحَةُ تَرْكِ إِخْرَاجِ زَكَاةِ المال.

* **ومِنَ القِسْم الرّابع**: أنه ﷺ أَوّلُ مَن أُخِذَ عليه الميثاق حين قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وأنه أوّلُ مَن قال: بَلَى، وأنه خُصَّ بفاتحة الكتاب، وبخواتيم سورة البقرة، وبآية الكرسي، وبسورة الكوثر، وبالسَّبع الطّوَال، وبالمُفَصّل، وأنّ دَارَ هِجْرَتِه المَدِينَة آخرُ الدّنيا خَرَاباً، وأنّ جميعَ مَا في الكَونِ خُلِقَ لِأَجْلِهِ، وأنّ الله تعالى كتبَ اسْمَه على العرش وعلى كلّ سَمَاءٍ، وعلى بعضِ الأَحْجَارِ ووَرَقِ الأشجار والحيوانات، وبذِكْرِ اسْمِه في الأذان، وأنه يَحْرُمُ نِكَاحُ أزوَاجِه ﷺ بعد موته حَتى علَى الأنبيَاء، وأنه يَحْرُمُ سُؤَالُ زَوْجَاتِه مشافَهَةً من غيرِ حِجَابٍ، ولا يجوزُ كشْفُ وجُوهِهِنّ للشَّهَادَة.

وأنّ الله ﷻ أخذَ المِيثَاقَ على سَائرِ النّبيّين بأنْ يُؤمنوا به ﷺ وينصرُوه إِنْ أدْرَكُوه، وأَنْ يأخذوا العَهْدَ على أُمَمِهِم بذلك، وأنه ﷺ يُحشَرُ على البُراق، وأَنّه في كلّ يوم يَنزل على قبرِه الشّريفِ ﷺ سبعون ألف ملك يضْرِبونَ بأجْنحَتِهم ويحفّونَ به، ويستغفرونَ له، ويُصَلّونَ عليه إلى أنْ يُمْسوا، فإن أَمسوا عَرَجُوا وهَبَط سبعون ألف مَلَك كذلك حتى يصبِحُون لا يعودون إلى أَنْ تقومَ السَّاعةَ، وأنه شُقَّ صَدْرُه الشّريفُ ﷺ عند ابتداءِ الوَحْي، وأنه تكَرّرَ له شَقُّ الصَّدْرِ عدّة مَرّات، وأنّ خاتمَ النّبوّةِ بظَهْرِه بإزاءِ قلْبه، وأَنّ له ﷺ ألْفُ اسْمٍ، وأنه ﷺ تَسَمَّى مِن أَسْمَاءِ الله تعالى بنَحْوِ سبعين

اسماً، وأنه رَأى جبريلَ على الصُّورَةِ التي خُلِقَ عليها مَرَّتين، وأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحكمُ بالظّاهر والبَاطن، وأنه لمْ تُرَ عورَتُه قطّ، وأنه إذا مشَى في الشّمْس لا يكون له ظِلّ؛ لأنه ﷺ كان نوراً، وأنه إذا وقَعَ شيءٌ من شعرِه في النّار لا يحتَرِقُ، وأَنَّ وطْأَه أثّرَ في الصَّخْرِ، وأَنّ الذُبَابَ لا يَقَعُ على ثِيَابِه فضْلاً عن جَسَدِه الشّريفِ، ولا يمتصُّ البُعُوضُ والقَمْلُ دَمَه.

واخْتُصَّ ﷺ بأَنَّ عرَقَهُ أطيبُ مِنْ رِيحِ المِسْك، وأنه ﷺ إذَا رَكِبَ دَابّةً لا تَبُولُ ولا تَرُوثُ وهو رَاكِبٌ عليها، وأنه يَجِبُ على أُمّته ﷺ أَنْ تُصَلّيَ وتُسَلّمَ عليه في التّشهُّدِ الأخير وعندما يذكر عند بعضِهم، وأَنّ القمرَ شُقَّ له، وأَنّ الحجَرَ والشّجَرَ سَلّما عليه، وأَنّ الجِذْعَ اليَابسَ حَنَّ إليه، وأنه أُرْسِلَ للنَّاسِ كَافّةً، وأنه بُعِثَ رَحْمةً لِلبَرِّ والفَاجِر، ورَحْمَةً لِلكُفَّارِ بتَأخِير العَذَابِ عنهم، وأَنّ اللهَ تعالى لمْ يُخَاطِبْهُ باسْمِه كما خَاطَب غيرَه من الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسّلامُ، وأَنَّ الله تعَالى أَقْسَمَ بِحَيَاتِه ولم يُقْسِمْ بِحَيَاةِ إحدٍ غيره، وأنه ﷺ أكرم الخلق على الله تعالى، وأَنّ فضَلَاته ﷺ طَاهِرةٌ، وأَنّ له ﷺ أَنْ يَخُصَّ مَنْ شَاءَ بِمَا شَاءَ مِنَ الأَحكام؛ كجَعْلِه شَهادةَ خُزَيْمَةَ بنِ ثابت بشهَادَةِ رَجُلين.

واخْتُصَّ ﷺ بأنه أوّل مَن يَنْشَقّ عنه القَبرُ، وأنه أوّل مَن يُكْسَى في المَوْقِفِ أعظَم الحُلَلِ مِن الجنّة، وأنه يقومُ في المقام المحمُودِ على يمين العرش، وأنه الذي يشفعُ في فَصْلِ القضَاءِ في أَهْلِ الموقفِ، وأَنّ له ﷺ شفاعات في يوم القيامة، وهي إحدى عشرة شفاعة، وأنه صَاحِبُ لِوَاءِ الحَمْدِ؛ وآدمُ فمَن دونَه تحتَ لوائِه ﷺ، وأنه خَطِيبُ الأَنبِيَاءِ عليهم الصَّلاةُ

والسَّلامُ وإمامُهم في ذلك اليوم، وأوَّلُ مَن يُؤْذَنُ له في السُّجُودِ، وَأنه يَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ فيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ ﷻ: اِرْفعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَقُلْ تُسْمَعْ، وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَأنه أوّل مَن يَنْظُر إلى الرَّبِّ ﷻ، وَأوّلُ مَنْ يَمُرُّ على الصّراطِ، وأوّلُ مَن يَدْخُلُ الجنّةَ، وأنّ لهُ الوَسِيلةَ؛ وهِيَ أَعْلَى دَرَجَةٍ في الجنّةِ، وأنه لا يُقْرَأ في الجنة إلا كِتابُه ﷺ، ولَا يُتَكَلّمُ في الجنّة إلّا بِلِسَانِه ولُغَتِه.

ومما شَارَكَ فيه غَيرَه من الأنبياءِ في هذا القسم: أنّ مَن دَعَاهُ النّبيُّ ﷺ في الصَّلاةِ تجبُ عليه الإجابة قولاً وفعلاً ولو كثيراً ولا تبطلُ صلاتُه بالنّسْبةِ لنَبيِّنا ﷺ بخلافِ غيره من الأنبياءِ فإنّها تبطلُ، وأنه معصُومٌ مِن الذّنبِ مُطلقاً كبيراً أو صغيراً عمْداً أو سَهْواً، ومِنَ التّثاؤُبِ والاحْتِلَامِ، ولمْ يُرَ أَثرٌ لقَضاءِ حَاجَتِه ﷺ؛ بل كانتِ الأرضُ تَبْتَلِعُه ويُشَمُّ مِن مكانِه رَائِحَةُ المسك، وأنه ينظرُ باللّيلِ في الظّلْمَةِ ويَرَى كمَا يرى بالنّهار في الضَّوءِ، وينظرُ مِنْ خَلْفِه كمَا يَنْظرُ مِنْ أَمَامِه.

وَاخْتُصّتْ هذه الأمّةُ المحَمَّدِيّة بأُمُورٍ لم يشاركْها فيها مَن قبلَهم مِنَ الأمم وهيَ: أنّها خَيرُ الأمم، وأكرَمُ الخلقِ على الله، وأَنّ اللهَ يَنْظُر إليهَا في أوّلِ ليلةٍ مِن رمضان، وَأُعْطِيَتِ الاجْتِهَادَ في الأحكامِ، وأظهرَ الله ذِكْرَها وأثنى عليها في الكُتبِ القديمةِ، وَأُعْطِيَتِ الصّلوات الخمْس، وَأُعْطِيَتِ افْتِتَاحَ الصَّلاةِ بالتكْبِيرِ، وَأُعْطِيَتِ التّأْمِينَ عَقِبَ الدّعاءِ، وَأُعْطِيَتِ الاسْتِنْجَاءَ بالحجَر، وَأُعْطِيَتِ الأذانَ والإقامَةَ والرّكوعَ في الصّلاةِ، وَأُعْطِيَتْ تحريمَ الكلام في الصَّلاةِ دُونَ الصّومِ، وَأُعْطِيَتِ الجماعةَ في الصّلاةِ، والاصْطِفَافَ فيها كصُفُوفِ الملائكة، وَأُعْطِيَتْ صَلاةَ العيدين والكسوفين والاستسقاء والوِتْر، وَأُعْطِيَتْ قصْرَ الصّلاة في السّفر،

والجمعَ بين الصّلاتين فيه وفي المطر، وَأُعْطِيَتْ صَلَاةَ الخوفِ وصَلَاةَ شِدّتِه، وَأُعْطِيَتْ شهرَ رمضان، وَأُعْطِيَتْ فيه أموراً، **مِنْهَا**: تَصْفِيدُ الشَّياطينِ، **وَمِنْهَا**: صَلاةُ الملائكةِ عليهم حين يفطروا، **وَمِنْهَا**: أنّ ريحَ فَمِهِم بعدَ الزّوَال أطيب عند الله من ريح المسك، **وَمِنْهَا**: أنّ الجنة تُزَيَّنُ فيه من رَأسِ الحَوْل إلى رَأسِ الحَوْل، وتفتح أبواب الجنّة، وتغلق أبواب النيران، وتفتح أبواب السماء في أول ليلة منه، **وَمِنْهَا**: أنه يغفر لهم في آخرِ ليلةٍ منه، وَأُعْطِيَتْ فيه ليلةَ القَدْر.

وَأُعْطِيَتْ غُفْرَانَ الذّنوبِ بالاستغفار، وَأُعْطِيَتْ صَلاةَ الجمعةِ، وَأُعْطِيَتْ ساعةَ الإجابةِ في يومها، وَأُعْطِيَتْ الاسْتِرْجَاعَ عندَ المصيبةِ، وَأُعْطِيَتْ رَفْعَ الإِصْرِ عنها، وعدمَ وجُوبِ القِصَاص في الخطَأ، وعدمَ المؤَاخذةِ بحديثِ النّفسِ والنّسْيانِ، ومَا وقع عليهِ الإكْرَاهُ، وأنّ إجماعَها حُجّةٌ، وأنّها لَا تَجْتَمِعُ على ضَلَالةٍ، وَأُعْطِيَتْ أَنّ اخْتِلَافَ عُلمائِها رَحْمةٌ، وكان اختلافُ مَن قَبْلَهم عَذاباً، والمرَادُ بعُلماءِ الأمّةِ هُنَا المجتَهِدُون، وأَنّ الطّاعونَ لهم رَحْمَةٌ، وكانَ على مَن قبلهم عَذاباً، وَأُعْطِيَتِ الإِسْنَادَ للحَدِيثِ، وَأُعْطِيَتْ أنّها أوّلُ مَن يُحَاسَبُ، وأوّلُ أُمّةٍ تنشَقُّ عنها الأرضُ، وأوّلُ مَن يَدْخُل الجنّةَ مِنَ الأُمَم، وأَنّ لكلٍّ منهم نُورَين كالأنبياءِ، وأنّها تمرُّ على الصِّراطِ كالبَرْقِ، وأنّها تُشَفّعُ في بَعْضِها، وأَنّ لهَا مَا سَعَتْ ومَا سُعِيَ لهَا مِن غيرِها، وأنّ منها سبعينَ ألفاً مع كلّ وَاحِدٍ مِن هؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلون الجنّةَ بغيرِ حِسَاب.

بَابُ
ذِكْرِ أَوْلَادِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وُلِدَ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن خديجةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها قبلَ البعثةِ: القَاسِمُ، وهو أوَّلُ أولادِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبه كان يُكَنّى، عاشَ سنتين، وهو أوّل مَن ماتَ من ولدِه قبل البعثة، ثمّ وُلِدَتْ زَيْنَبُ، ثمّ رُقَيَّةُ، ثمّ فَاطِمَةُ، ثمّ أمُّ كلثوم رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهن، وبعد البعثةِ وُلِدَ له عبدُ الله، ويُسَمَّى الطَّيِّبُ الطَّاهرُ، وكانَ آخرَ الأَوْلَادِ من خَدِيجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُقُّ عن الغُلَامِ بشَاتَين وعَنِ الجاريَةِ بشَاةٍ، وكان يَسْتَرْضِعُ لهمُ المراضِعَ. وعند مَوتِ ولَدَيهِ: القَاسِمِ وعَبْدِ الله، قال العَاصُ بنُ وَائِل: قدِ انقطعَ ولَدُ محمّدٍ، فهو أبترٌ. أي: لَا وَلَدَ لَه ذَكَرٌ؛ لأَنّ مَا عدا الذّكَرِ كانَ عند العَرب لَا يُذْكَرُ، فأنزلَ الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، والشَّانِئُ: هو المُبغِضُ.

وفي ذِي الحِجّة سنة ثمانٍ من الهجرة، وَلَدَتْ مَارِيَةُ القِبْطِيّةُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها إِبْرَاهِيمَ، وكانتْ قَابِلَته سَلْمَى مَوْلَاةُ رسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخَرَجَتْ إلى زَوجِها أبي رَافِعٍ مَوْلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبَرَتْه أنّ ماريةَ قد ولَدَتْ غُلاماً، فجاءَ أبو رَافِعٍ إلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبَشَّرَه، فوَهبَ له بِبِشَارَتِه عَبْداً، ثمّ سمَّاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومَ ولادَتِه إبْرَاهِيمَ، وقيل: سمّاه سَابع ولادَتِه، ثم عَقّ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكَبْشَين يَوم سابعِه، وحلقَ رأسَه، وتصدق بِزِنَةِ شعْرِه فِضّةً على المساكين، وأمرَ

بشعره فَدُفِنَ في الأَرْضِ، وغَارَتْ نِسَاؤُهُ ﷺ مِن ذلك، وكانت أَشَدَّهُنَّ غِيْرَةً عائشةُ رضي الله عنها حتّى أنه ﷺ قال لها: «انْظُرِي إِلَى شَبَهِهِ»، فَقَالَتْ: ما أرى شيئاً، فقال: «أَلَا تَرَيْ إِلَى بَيَاضِهِ»؟!، ثمّ دفعه لِأُمِّ بُرْدَةَ خَوْلَةَ بنتِ المُنْذِرِ بنِ زَيدٍ الأَنْصَارِيّ زَوْجَةِ البَراءِ بنِ أوسٍ لِتُرضِعَه، وأعطاهَا قِطْعَةَ نَخْلٍ، فكانَتْ ترضِعُه في بني مَازِن، ثُمّ ترجعُ به إلى المدينةِ، وكان ﷺ يَنْطَلِقُ إليها، فَيدخُلُ البَيتَ ويأخذُه فيُقَبّلُه، ثمّ يرْجعُ.

ولما احْتُضِرَ جاءَه ﷺ فوجدَه في حِجْرِ أُمِّه، فأخذَهُ ﷺ إلى حِجْرِه، وقال: «يَا إِبْرَاهِيمُ، إِنَّا لَنْ نُغْنِيَ عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيئاً»، ثمّ ذرَفَتْ عيناه ﷺ، وقال: «إِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيْمُ لَمَحْزُونُونَ، تَبْكِي العَينُ وَيَحْزَنُ القَلْبُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ»، ثمّ نَهَاهُم عن الصِّياحِ. قالت سِيرِين: لما نزَل بإِبرَاهيمَ الموتُ صِرْتُ كلّما صِحْتُ أنا وأُخْتِي نهَانَا ﷺ عَنِ الصِّيَاح، ولمّا بكَى ﷺ قال عبدُ الرحمن بن عوف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: يا رَسُولَ الله، أوَ لم تكُنْ نَهيتَ عَنِ البُكَاءِ؟، فقال: «لَا، وَلَكِنّي نَهيتُ عَنْ صَوْتَينِ أَحْمَقَينِ: صَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، وَخَمْشِ وُجُوهٍ، وَشَقِّ جِيُوبٍ، وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ، وَصَوْتٍ عِنْدَ نَغْمَةِ لَهْوٍ، وَهَذِهِ رَحْمَةٌ، وَمَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»، وصَرَخَ أُسَامَةُ، فنهاهُ النّبيُّ ﷺ، فقال: رَأيتُك تَبكِي!، قال: «البُكَاءُ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالصُّرَاخُ مِنَ الشَّيْطَانِ».

وكان موتُ إِبرَاهيمَ في السَّنةِ العَاشرة من الهِجرة، وسِنُّه سَنَةٌ وعَشَرةُ أَشْهُرٍ وسِتّةُ أيام، وقيل: ثمانية عشر شهراً، وكان موتُه عند مُرضِعَته أمّ بُرْدَة، فغسلَه الفَضْلُ بنُ العبّاس، وصَلّى عليه النبيُّ ﷺ فكبّر أربعاً، ونزلَ في قبره

الفَضلُ بنُ العبّاس وأُسَامَةُ بنُ زيدٍ، وجلسَ رَسُوْلُ الله ﷺ على شَفِيرِ القَبرِ، وَرَشَّ عَلَى قَبْرِهِ مَاءً، وعَلَّمَ على قَبْرِه بعَلَامَةٍ، وكان دفْنُه بالبَقِيع، وقال له ﷺ وقَدْ دَفَنَه بجانبِ أَخيهِ عُثْمَانَ بْنِ مُظْعَونٍ: «الْحَقْ بِسَلَفِنَا الصَّالِحِ عُثْمَانَ بْنِ مُظْعَونٍ رضي الله عنه».

وَيُرْوَى أنّ النبيَّ ﷺ لَقّنَ ولَدَه إبراهيمَ فقال: «قُلْ: الله رَبِّي، وَرَسُولُ الله أَبِي، وَالإِسْلَامُ دِيْنِي»، فقيل له: يا رَسُولَ الله، أنتَ تُلَقّنُه، فمَن يُلَقّنُنا؟، وبكَى الصَّحَابةُ رضوانُ الله عليهم، وكانَ منهم عمرُ رضي الله عنه، فإنّه بكَى حتّى ارتفعَ صَوتُه، فالتفتَ إليه النبيُّ ﷺ، فقال: «مَا يُبْكِيْكَ يَا عُمَرُ»؟، فقال: يا رسُولَ الله، هذا ولدُك، ومَا بلغَ الحُلُمَ، ولا جرَى عليه القَلمُ، ويحتاجُ إلى تلقينِ مثلك يلقّنُه التّوحِيدَ في مثل هَذا الوَقت، فما حَالُ عمرَ وقد بلغَ الحُلُمَ، وجرَى عليه القَلَمُ، وليسَ له مُلقّنٌ مثلك؟، فبكى رَسُوْلُ الله ﷺ وبكَتِ الصّحَابةُ معه، فنزلَ جبريلُ عليه السلام بقولِه تعَالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وكَسَفَتِ الشَّمْسُ في ذلك اليوم، فقال قائِلٌ: إنّما كسَفَتْ لموتِ إبراهيمَ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله، يُخَوِّفُ الله بِهِمَا عِبَادَهُ، وَلَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ».. الحديث.




بَابُ
ذِكْرِ أَعْمَامِهِ وَعَمّاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أعمَامُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اثنا عشر، وهمُ: الحَارِثُ وهو أكبرُ أولادِ عبدِالمطّلب ويُكَنّى به، وشقيقُه قُثَمُ ماتَ صغيراً، وأبو طالب، والزُّبَير، وعَبدُ الكعبة، وهؤلاءِ الثّلاثة أشِقّاءُ لعبدِ الله والدِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحَمْزَةُ، وشَقِيقَاهُ: المقوَّمُ، وجَحْلٌ واسمُه المغيرةُ، والعَبَّاسُ، وشقيقُه ضِرَارُ، وَأبو لَهَبٍ واسمُه عبدُ العُزّى، والغيْدَاقُ واسمُه مُصْعَبٌ.

وعَمّاتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستٌّ، وهنَّ: أُمُّ حكيم، وعَاتِكَةُ، وبَرَّةُ، وأرْوَى، وأُمَيْمَةُ، وهؤلاءِ الخمسُ شَقيقاتٌ لعَبدِ الله والدِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصَفِيَّة، وهي شَقيقَةُ حمزةَ. ولم يُسْلِمْ من الذين أدركوا البعثةَ مِن أعمَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا حمزةُ والعبّاسُ، وحُكِيَ إسلامُ أبي طالبٍ[1]، ولم يُسْلِمْ مِنْ عمّاتِهِ اللّاتي أدركْنَ البعثةَ من غيرِ

---

(١) لا يخفى أنَّ أبا طالبٍ قام بنصرة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، ودافعَ عنه، ومدحه بمدائح لم يمدحه بمثلها أحد، وأمرَ ولَدَيه جعفرَ وعلياً بأنْ يَثْبُتا على الإسلام، وكان يقول: والله ما كذب ابن أخي قط. لكِنّه لم ينطق بكلمة التوحيد؛ إذ لو قالها لَما نَهى الله نبيَّه عن الاستغفار له. وأما شهادته بصِدْقه في شعره ونثره فهو نظير ما حكى الله تعالى عن الكفار: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فقد كان كفره عناداً مَنْشَؤُهُ الأنفة والكبر، ولذلك لمَّا دعاه النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإسلام، قال: ما بالذي تقول من بأسٍ، ولكِنْ والله لا تعلوني اسْتِي أبداً!. وقال له: لولا أنْ تعيّرني قريش لأقْرَرْتُ عينَك. ومع ذلك فقد اعتقد بعضُ أهل العِلْمِ نجاتَه، وللعَلّامَةِ أحمد زَيني دَحْلَان مُصَنَّفٌ سمَّاه: (أسنى المطالب في نَجَاةِ أبي طالب)، ولبعض الشيعة تصانيف=




خِلَافٍ إلّا صَفِيَّةُ.

= أثبتوا فيها إسلامه، بأحاديث أسانيدها واهية لا يُحْتَجُّ بها، وعلى تقدير ثبوتها فقد عارضها ما هو أصَحّ منها، ولذا فإن عامّة العلماء على أنّه لم يُسْلِمْ. قال ابن حجر: "وَقَفْتُ على جزءٍ جمَعَه بعضُ أهل الرّفْض أكثرَ فيه من الأحاديث الواهية الدّالة على إسلام أبي طالب ولا يثبت منها شيء". وقال ابن عساكر: "قِيلَ إنه أسلمَ، ولا يصحّ إسلامُه". قال المناوي ـ عند إيراده لحديث: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَاباً أَبُو طَالِبٍ» ـ: "هذا يؤذن بموته على الكفر، وهو الحقّ، وزعم بعضُ النّاسِ أنه أَسْلَمَ، وفيه أن عذاب الكفار متفاوت وأن الكافر قد ينفعه عمله الصّالح في الآخرة. قال ابن حجر: لكنّه مخالفٌ لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وأجيب باحتمال أنّ هذا مِن خصائِصِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبأنّ منع التّخفيف إنّما يتعلّقُ بذنبِ الكُفْرِ لا غيره، وبذلك يحصُل التّوفيقُ بينَ هذا الحديث وما أشبهه، وبين قوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [البقرة: ١٦٢].

بَابُ
ذِكْرِ أَزْوَاجِهِ وَسَرَارِيْهِ ﷺ

لا يخفى أنّ أزواجه ﷺ المَدْخُول بِهِنّ اثنتا عشرة امرأة، وأَوّلُهُنّ: **خَدِيجةُ** رضي الله عنها، وكانت قبلَه تحتَ أبي هَالَة بنِ زُرَارَة التّيمِيّ، وجاءَ: أَنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ أُمِرَ أَنْ يُبَشّرَها ببيتٍ في الجنّة من قَصَبٍ لَا صَخَبَ فيه ولَا نَصَبَ، أي: ليسَ فيه رفع صَوتٍ ولا تعَبٍ، وقد جُوزِيَتْ بهذا البيتِ؛ لأنّها أوّلُ مَن بنَى بيتاً في الإسلام بتَزَوُّجِها برَسُوْلِ الله ﷺ. وعَن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ما غِرْتُ على أَحَدٍ ما غِرْتُ على خديجةَ رضي الله عنها، وما رأيتها قط، ولقد هَلَكَتْ قبل أَنْ يَتَزَوَّجَني رَسُوْلُ الله ﷺ، ولكنّه كان يُكثِرُ ذِكْرَها، ولقد قلتُ له يوماً وقد مَدَحَها: مَا تَذْكُرُ من عَجُوزٍ حمرَاء الشّدقين؟، قد أَبْدَلكَ الله خَيراً منها، فغَضِبَ رَسُوْلُ الله ﷺ وقال: «وَالله مَا أَبْدَلَنِي الله خَيْراً مِنْهَا، آمَنَتْ بِي حِينَ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا حِينَ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرُزِقْتُ مِنْهَا الوَلَدَ وَحُرِمْتُهُ مِنْ غَيرِهَا».

ثمّ **سَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ** رضي الله عنها، تَزَوَّجَها ﷺ بعد وفاةِ خَديجة.

ثمَّ **أمُّ عبْدِ الله عَائشة بنت أبي بكر الصديق** رضي الله عنهما، اكْتَنَتْ بابنِ أُخْتِها عبدِ الله بن الزبير بإِذْنٍ مِن رَسُوْلِ الله ﷺ، وتَزَوَّجَها ﷺ بمَكَّةَ في شَوّال وهِيَ بنتُ سَبع سنين، وبنى بها في شَوّال على رأسِ ثمانية أشهرٍ من الهجرة،

وهي بنت تسع سنين[1]، وقُبِضَ ﷺ عنها ورأسُه في حِجْرِها، ودُفِنَ في بيتِهَا، وهِيَ بنتُ ثمان عشرة سنة، ولم يتزَوَّج بِكْراً غيرها، وماتَتْ وقد قاربت سبعاً وستينَ سنة في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين، وصَلّى عليها أبو هريرة ﷺ بالبَقيع، ودُفِنَتْ به ليلاً.

ثمّ **حفصَةُ بنتُ عمرَ بنِ الخطّاب** ﷺ، وهِيَ شَقِيقةُ عبدِ الله بنِ عُمَر وأَسَنّ منه، وكانت قبلَه ﷺ تحتَ خُنَيس بنِ حُذَافَةَ ﷺ، فتُوفّي عنها بجِرَاحَةٍ أصابَتْه ببَدْرٍ، وكانت ولادَتُها قبل النّبوة بخمسِ سنين، وقد كَان النّبيُّ ﷺ هَمَّ بِتَطْلِيقِها، فقَال له جِبرِيلُ ﷺ: إِنَّهَا صَوّامَةٌ قَوّامَةٌ، وإِنّها زَوْجَتُك في الجنة، فلمْ يطلّقْها. وماتت بالمدينة في شعبان سنة خمس وأربعين، وصلى عليها مروان بن الحكم، وكان أميراً على المدينة يومئذٍ، وحمَل سَرِيرَها معَ أبي هريرة، وقد بلغَتْ ثلاثاً وستين سنة.

ثم **زَيْنَبُ بنتُ خُزَيمَةَ** رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها وهِيَ أَخْتُ مَيمُونَةَ لأُمِّها،

---

(١) كانت أمُّ المؤمنين السّيّدةُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ تعالى عنها هيَ الوحِيدةُ التي تزوّجَها النّبيُّ ﷺ بكراً، وهيَ أَصْغَرُ نسائِه عليه الصلاة والسلام، ومِنْ هُنا أَرَادَ أعداءُ الإسْلام ـ من المسْتَشرِقين والنّصارى ـ أَنْ يلمِزُوا وأنْ يعيبوا على النّبيِّ ﷺ في فارقِ السِّنِّ الذي بينه وبينها وهم في ذلك صارفون النّظر عما كانت تتمتّع به البيئة العربيّة في ذلك الزّمن مِن الخصَائص، التي قد لا تجعلُ اعتباراً لفَارِقِ السِّنِّ بين الرَّجل والمرأة، إذْ قد كان مقصُودهم الأكبرُ الحصُول على الذّريّة والأولاد، وكلمَّا كانتِ المرأةُ صغيرةً كانت خصُوبتها أكثرُ، وأنسبُ لحصُولِ هذا المقصُود، كمَا أنّ المرأةَ في سِنّ تسع سَنَوات ذلك الزّمان ليست مثل المرأة التي في نفس ذلك السِّنِّ في يومنا هذا، فبنْيَةُ الأَجْسَادِ وقُوّتُها وضَخَامَتُها تختلفُ بفارقٍ كبير كلمّا تقدّمَ الزّمنُ. والعجيبُ أنّ هؤلاء يرونَ في زواجِه ﷺ مِن عائشةَ ما يستحقّ القَدْحَ، ولا يرونَه في زَوَاجِ إبراهيمَ ﷺ من هَاجَر وعمره خمس وثمانون سنة، وهذا مقرّرٌ عندهم ومقرّرٌ في كتبهم.

وتُدْعَى أم المساكين لرَأفتِها وإحسانِها إليهم ، وكانتْ قبْلَهُ ﷺ تحتَ الطُفَيل بنِ الحَارث ، فطلّقهَا فتزَوّجها أخوه عُبيدَةُ بنُ الحارث واسْتُشْهِدَ يوم بَدْرٍ ، فخطبَها ﷺ ، فجعلَتْ أمرَها إليه ، فتزوَّجَها وأصدقَها اثنتي عشرة أوقية ونَشّاً ، وذلك قبل غَزْوَةِ أُحُدٍ بشهر ، وقِيلَ: كانت تحت عبد الله بن جحش فقُتِلَ عنها يوم أُحُدٍ ، ومكثت عنده ﷺ ثمانية أشهر ، ثم تُوُفِّيَتْ ، وصَلّى عليها ﷺ ، ودُفِنَتْ بالبقيع ، وبلغت ثلاثين سنةً ، ولمْ يَمُتْ مِن أزواجِه ﷺ في حياتِه إلا هِيَ وخديجةُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما .

ثُمّ أمُّ سَلَمَةَ هِنْدُ بنتُ أُمَيّة ، وكانت قبلَه ﷺ عند أبي سلمة عبدِ الله بنِ عبدِ الأسَدِ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه ، وهو ابنُ عمَّتِه ﷺ بَرّةَ بنتِ عبْدِ المطلب ، وأخوه من الرّضَاعةِ ، فلمّا ماتَ أبو سَلَمَة ، قال لها رَسُوْلُ الله ﷺ: «سَلِي الله أَنْ يُؤْجِرَكِ فِي مُصِيبَتِكَ وَيَخْلُفَكِ خَيْراً» ، فَقَالَتْ ذلك ، ثم قالتْ في نفسِها: ومَن يَكنْ خيراً من أبي سلمة ؟! ، فلمّا اعْتَدَّتْ خَطَبَها أَبو بكر فَأَبَتْ ، ثُمّ خَطَبَهَا عمرُ فَأَبتْ ، فأرسَلَ ﷺ يَخْطُبها معَ حَاطِبِ بنِ أَبي بَلْتَعَةَ ، فَقَالَتْ: مرحباً برَسُوْلِ الله ﷺ ، قُلْ له: إنّي امْرَأةٌ مُسِنّة ، وإِنّي أمُّ أَيْتَامٍ ، وَإِنّي شَدِيدةُ الغيرة ، وَلَيْسَ هَهُنَا أحدٌ مِن أوليائي يزوّجُني ، فأرسَلَ ﷺ يقول لها: «أَمّا قَوْلُكِ: إِنّي امْرَأَةٌ مُسِنّة ، فَأَنا أَسَنُّ مِنْكِ ، وَلَا يُعَابُ عَلَى المَرْأَةِ أَنْ تَتَزَوّجَ أَسَنَّ مِنْهَا ، وَأَمّا قَوْلُكِ: إِنّي أمُّ أَيْتَامٍ ، فَإِنّ كَلَّهُمْ عَلَى الله وَعَلَى رَسُولِهِ ، وَأَمّا قَوْلُكِ: إِنّي شَدِيْدَةُ الغَيْرَةِ ، فَإِنّي أَدْعُو الله أَنْ يُذْهِبَ ذَلِكَ عَنْكِ ، وَأَمّا مَا ذَكَرْتِ مِنْ أَوْلِيَائِكِ ، فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَوْلِيَائِكِ يَكْرَهُنِي» . ثم تَزَوّجها رَسُوْلُ الله ﷺ على متاعٍ ؛ منه: رَحَى ، وجَفْنَةٌ ، وفِرَاشٌ حَشْوُه لِيفٌ ، وبلغت قيمة

ذلك المتاع عشرة دراهم. وقالت رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها: تَزَوَّجَني رَسُوْلُ الله ﷺ، وأدخلَني بيتَ زَيْنَب أمّ المساكين رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها بعد أنْ مَاتت، فإذَا جَرَّةٌ فيها شيءٌ مِن شَعيرٍ، وإذا رَحى وبُرْمَةٌ وقِدْرٌ، فأخذتُ ذلك الشعيرَ فطحنتُه وعصَدْتُه في البُرمَة، فكان ذلك طعامُ رَسُوْلِ الله ﷺ وطعامُ أهلِه ليلةَ عُرْسِه. وماتت أمّ سلمة في ولايةِ يزيدِ بنِ مُعاوية، وكان عمْرُها أربعاً وثمانين سنة، وصلّى عليها أبو هريرة، ودُفِنَتْ بالبقيع.

ثُمّ زَيْنَبُ بنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها، وهِيَ بِنْتُ عمَّتِه ﷺ أُمَيْمَةَ بنتِ عبدِ المطلب، وكانت قبلَه ﷺ عند مَوْلَاهُ زيد بن حارثة رضي الله عنه، ثمّ طلّقها، فلمَّا انْقَضَتْ عدّتُها زَوَّجَها الله تعالى له ﷺ، وكانَ اسمُها بَرَّة، فسمَّاها ﷺ زينبُ، وتزَوَّجَها ﷺ في هلالِ ذِي القَعْدَةِ سنَةَ أربع مِنَ الهجرةِ وهيَ بنتُ خمسٍ وثلاثين سنة، ونزلتْ في ذلك اليوم آيةُ الحِجَابِ، وتكلّمَ في ذلك المنافقونَ فقالوا: محمّدٌ حَرّمَ نِسَاءَ الأولادِ، وقد تزَوّجَ امرأَةَ ابنه. لأنّ زيدَ بنَ حارثة كان يُقَالُ له: زيدُ بنُ محمَّدٍ؛ لأنه ﷺ كان تبنّاه كما تقدّمَ فأنزلَ الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وأنزل تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وهي أوّلُ نسائِه ﷺ لحوقاً به، وقد كانتْ نِسَاؤُه قُلْنَ له: أَيّنا أَسرعُ بك لحوقاً؟، فقال: «أَطْوَلُكُنَّ يداً»، قالت عائشةُ: فكُنّا إذا اجتمعنا في بيتِ إحدانا بعد وفاةِ النبيِّ ﷺ نَمدّ أيدِيَنا في الجدارِ نتطَاول فكانت سَودةُ

أَطولنا يداً، فلما ماتت زينبُ، وكانتِ امرأة قصيرة، علمنا أنّ المرادَ بطولِ اليَدِ الصَّدقةُ، لا اليَد الجارِحَة؛ لأنها كانت تعْمَلُ وتَتَصَدّق. ماتت رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها بالمدينةِ سنة عشرين، وصلّى عليها عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ودُفِنَتْ بالبقيع وكان لها من العمر ثلاث وخمسون سنة، وقد كان عمرُ يرسل إليها بالذي لها مِنَ العطاءِ، فتأمرُ بتَفْرِقَتِه، ثمّ قالت: اللَّهُمَّ لا يدركُني عَامٌ لِعُمَرَ بعدَ عامِي هذا، فمَاتت.

ثمّ **جُوَيْرِيةُ بنتُ الحَارِثِ المصْطَلَقية** رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها، سُبِيَتْ في غَزْوَةِ بني المصْطَلَق، ووقعتْ في سهم ثابتِ بنِ قيس، فكَاتبَها على تِسْع أَوَاق، فأدّى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنها ذلك، ثم تزوَّجها، وكانت بنت عشرين سنة، وكان اسمُها بَرَّة فسمّاها رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جويرية، وكانت قبل رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند مُسَافِع بنِ صَفْوَان، توفيّت في المدينةِ سنة ستّ وخمسين، وصلى عليها مروان بن الحكم، وقد بلغت سبعين سنة.

ثمّ **رَيْحانَةُ بنتُ يَزِيدٍ النّضِيرِيَّة** رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها، وكانت قبل رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند رجل من بَنِي قُرَيْظَةَ، يقال له: الحكَمُ، وكانت جميلةً وسِيمَةً، وقعَتْ في سَبي بَنِي قُرَيْظَةَ، فخَيَّرها رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الإسلام وبين دِينها، فاختارتِ الإسلامَ، فأعتقَها وتزوَّجها، وأصدَقَها اثنتي عشرة أوقية ونشّاً، ودخلَ بها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أنْ حاضَتْ حيضةً في بيتِ أمِّ المنذر سلمى بنتِ قيس النّجاريّة سنة سِتٍّ من الهجرة، وقد كانت شديدة الغَيرةِ عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطَلّقها فأَكْثَرتِ البكاءَ، فرَاجَعَها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومَاتت عند مرجعِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حَجّةِ الوَداع، ودفنَها بالبقيع.

ثم **أمّ حَبِيبَةَ رَمْلَةُ بِنتُ أَبي سُفْيَانَ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، هاجرت إلى أرض الحبشة مع

زوجها عُبَيدِ الله بنِ جَحْشٍ، فولدَتْ له حَبيبةَ وبها كانت تُكنّى، تنصَّرَ زوجُها هناك وثبتت هي على الإسلام، فبعثَ رَسُوْلُ الله ﷺ عمرَو بنَ أميّة الضَّمْري إلى النّجَاشي فزوّجَه النّجاشيُّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه إيّاها، وأَصْدَقها عن رَسُوْلِ الله ﷺ أربعمائة دينار، وتولى عقد النكاح لها خالدُ بنُ سعيد بن العاص وَكّلَتْهُ في ذلك، وجهزها النّجَاشيّ من عنده، وأرسلها مع شُرَحْبيل بن حسنة في سنة سبع، وتوفيت سنة أربع وأربعين.

ثم **صَفِيَّةُ بنتُ حُيَيِّ بنِ أَخْطَب** رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها، وكانت عند سَلّام بنِ مُشْكِم، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحُقَيق، فقُتِلَ عنها يوم خَيْبَرَ، ولم تلدْ لأحدٍ منهما، واصطفاها رَسُوْلُ الله ﷺ لنفسِه، فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، ثمّ جهّزتْها له أمُّ سُلَيم رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها، وأهدَتْها له مِنَ اللّيل، وكان عمرُها يومَئِذٍ سبع عشرة سنة، وأولمَ ﷺ عليها بتمرٍ وسَوِيقٍ، وكانت عاقِلَةً فاضِلَةً، ودخلَ عليها ﷺ يوماً وهي تبكي، فسألها عن سَببِ ذلك؟، فَقَالَتْ: قد بلغني أَنّ عائشةَ وحفصةَ تنَالان منّي، وتقولانِ: نحنُ خيرٌ من صَفِيَّة، نحنُ بناتُ عَمِّ رَسُوْلِ الله ﷺ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: قولي لهن: «كَيْفَ تَكُنَّ خَيْراً مِنّي، وَأَبِي هَارُونُ، وَعَمِّي مُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، وَزَوْجِي مُحَمَّدٌ ﷺ». ماتت رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها في رمضان سنة خمسين، ودفنت بالبقيع، وخلّفَتْ ما قيمَتُه مائة ألف درهم؛ من أَرْضٍ وعَرَضٍ، وأوصَتْ لابنِ أُخْتِها بثلثِ ذلك، وكان يَهُودِيّاً.

ثُمّ مَيْمُونَةُ بنتُ الحارث رضي الله عنها، وكَان اسمُها بَرَّة فسمّاها ﷺ ميمونة، زَوّجها له عمُّه العَبّاسُ رضي الله عنه، وهي خالة ابنه عبد الله بن عباس، وكانت في

الجاهليّة عند مسعودِ بن عمرو ففارقَها، فخلف عليها أبو رُهْمٍ فتوفّي عنها، تَزَوَّجَها ﷺ وهو مُحْرِمٌ، في عُمْرَةِ القضاء، وبنى بها بِسَرِف، وماتتْ سنة إحدى وخمسين من الهجرة، وقد بلغت ثمانين سنة، ودُفِنَتْ بِسَرِف في المحلّ الذي هو محلُّ الدّخُولِ بها.

وجملةُ النّساءِ اللّاتي خَطَبَهُنَّ ﷺ ثلاثون امرأةً، مِنْهُنَّ مَنْ لم يعقد عليها، ومِنْهُنَّ مَنْ عقَدَ عليها، ومن عقَدَ عليهِنَّ مِنْهُنَّ مَنْ دخل بها، ومِنْهُنَّ مَنْ لم يدخلْ بها. وجملة من عقدَ عليهِنّ ثلاثٌ وعشرون امرأة، واللّاتي دخَل بِهِنَّ مِنْهُنّ اثنتَا عشرة امرأة.

فمِن غيرِ المَدْخُول بها: أمُّ شُريك غَزِيّةُ العامِريّة، وهذه طَلّقَها ﷺ قبل دخُولِه بها، ولم يُراجِعْها، وهيَ التي وهبَتْ نفسَها للنّبيِّ ﷺ فلمْ يقبلْها، فلم تتزَوّجْ حتى ماتَ عليه الصلاة والسلام. وقد قعَ في قلبِها الإسلامُ وهِيَ بمَكَّةَ فأسْلَمتْ، ثمَ جعَلتْ تدخُلُ على نِساءِ قريش سِرّاً فتدعوهُنّ للإسلام وتُرَغِّبُهنَّ فيه حتّى ظهرَ أمرُها لأهل مَكَّةَ فأخذُوها، وقالوا: لولا قومُك ـ يَعْنُونَ بني عامر ـ لفَعَلْنَا بِكِ وفعَلْنا ـ يُهَدِّدُونَها ـ، ولكِنّا نُسَيِّرُكِ إليهم ـ يَعْنُونَ المسلمين ـ. قالت: فحَملوني على بَعيرٍ ليسَ تحتِي شيءٌ وساروا، وتركوني ثلاثاً لا يُطْعِمُوني ولا يسقوني، وإذا نزَلوا مَنزلاً أوقفوني في الشّمْسِ واسْتَظَلّوا، فبينما هم قد نزلوا منزلاً وأوقفوني في الشَّمْسِ، إذَا أنا بِأَبرَدِ شَيءٍ على صَدْرِي فتَنَاوَلْتُه، فإذا هوَ دَلوٌ مِن مَاءٍ من السَّماءِ، فشَرِبْتُ مِنْهُ حتّى رَوِيتُ، ثمّ أفَضْتُ سَائِرَهُ على جَسَدِي وثِيَابي، فلمَّا استيقظُوا إذَا هُم بأثرِ الماءِ على ثِيَابِي، فقالوا لي: أَخَذْتِ سِقَاءَنا فشَرِبْتِ منه؟، فقلتُ لهم: لا والله، ولكنّه كانَ مِنَ الأمرِ كذا وكذا، فقالوا: لئِنْ

كُنْتِ صَادقةً لَدِينُكِ خَيرٌ مِنْ دِيننا، فلمَّا نظروا إلى أَسْقِيَتِهم وجَدُوهَا كمَا تركوها، فأسلمُوا. ولما أقبلت إلى النبيِّ ﷺ وهَبَتْ نفْسَها له بغيرِ مَهْرٍ، فطَلَّقَها قبل دخُولِه بها. وهُنَاكَ أمُّ شُرَيك خولة السُّلَمِيَّة، لم يدخل بها. وأمُّ شُرَيك الغِفَارِيَّة وهيَ ثالثة. وأمُّ شُرَيك الأنصارية وهي رابعة[١].

ومن جُملةِ اللاّتي لم يدخلْ بهِنّ النبيُّ ﷺ: عَزّةُ[٢] أُخْتُ دِحْيَةَ الكَلْبِيّ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما، ولمّا علمَتْ أنه ﷺ تزوَّجَ بها ماتت من الفَرَح قبل أَنْ يدْخُلَ بها. وسَوْدَةُ القُرَشِيّة خطبَها ﷺ فاعتذرت بسببِ بَنِيهَا، وكانوا سِتّة، فقالَ لها خيراً، وعَذَرَها. وأَسماءُ بنتُ النّعمان بنِ أبي الجُون الكِنْدِيّة، فإنّ نِساءَ النّبيِّ ﷺ خِفْنَ أَنْ تَغْلِبَهُنَّ عليهِ لِجمَالِهَا، فقُلْنَ لها: إنَّه ﷺ يُعْجِبُهُ إذا دنَا منك أَنْ تقُولي لَهُ: أَعُوذُ باللهِ مِنْك، فلمّا دَنَا منها لِيُقَبّلها، قالت: أَعُوذُ باللهِ مِنْكَ، فقال لها: «لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ، وَقَدْ أَعَاذَكِ اللهُ مِنِّي»، فطلقها، ثم متّعهَا بأثوَابٍ، وألحقها بأهلِها[٣].

ومن جُمْلتِهنّ: فاطمةُ بنتُ الضَّحّاك، وهي التي اختارتِ الدّنيا، فكانت

---

(١) قال الحافظ ابنُ حجَر في الإصابة: والذي يظهر في الجمع أنّ أمّ شريك واحدة اختلف في نسبتها.

(٢) وقد اخْتُلِفَ في اسمِها، فقيل: اسمها: عَزَّةُ، وقيل: خِرْنِقُ، وقيل: إِسَافُ، وقيل: شَرَافُ بنتُ خَليفة.

(٣) ورَدَ أنّها كانت تقولُ ـ بعد أنْ طلّقَها النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: إنّما خُدِعْتُ!. وهيَ كذلك، ولكِنْ لم تَعُدْ تصْلُحُ لِمُعاشرة النّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنها ليسَتْ فَطِنةً كَيِّسَةً، إذا لو كانت فَطِنَةً لما خَفِيَ عليها حِيَلُ الضَّرَات وخُدَعُهُنّ، ثمّ تَتقبّلُ الحاذقة العاقلة مِثْل النّصْح من الضَّرّات؟!. قال ابنُ الملقن في خصَائِصِه: وفُهِمَ مِنْ ذَلِكَ أنه يَحرُمُ عليه نِكَاحُ كلّ امرأةٍ كَرِهَتْ صُحْبَتَه، ويَشْهَدُ لذلِكَ إِيجابُ التّخْيير.

تَلْتقِطُ البَعَرَ بعد ذلك، وتقول: أنا الشَّقِيَّةُ اخْتَرْتُ الدّنيا. وقُتَيْلَةُ بنتُ قَيسٍ، أُختُ الأَشْعَثِ بنِ قيس الكِنْدِي، زَوَّجَها أَخُوهَا للنّبيِّ ﷺ وهيَ بحضرموت، ثم مَات ﷺ قبل قُدُومِها عليه، وقد كان أوْصَى ﷺ قبل وفاتِه بأنْ تُخَيَّر، فإنْ شاءَت ضُرِبَ عليها الحِجَابُ وكانت من أمّهَاتِ المُؤْمِنين، وإنْ شاءَتْ الفِرَاق فتَنكِحَ مَن شاءَتْ، فاختارتِ الفِرَاقَ، فتزَوَّجها عكرمةُ بنُ أبي جَهْل رضي الله عنه بحَضَرَموت، فلمَّا بلغ ذلك أبا بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه قال: هممْتُ أَنْ أُحَرِّقَ عليها بيتَها، فقال له عمر رضي الله عنه: ما هيَ مِن أمّهات المؤمنين، وما دخل بها ﷺ ولا ضَرَبَ عليها الحِجَاب.

وأمّا سَرَارِيهِ ﷺ فأَرْبَعٌ وهُنَّ: مَارِيَةُ القِبْطيّة أُمُّ سَيِّدِنا إِبرَاهِيمَ، وجارِيةٌ وهبتها له ﷺ زينبُ بنتُ جحْشٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها، وزُلَيْخَةُ القُرَظِيّة، ورَيْحَانَةُ بنتُ يَزِيدِ النّضيريّة التي تقدّمَ ذِكْرُها في زَوجَاتِه، وذكَرْنَاها هنا على قولِ مَن قال أنّها كانت من سَرَارِيهِ ﷺ، وهُناكَ قَولِ على أنّها مِنْ زَوْجَاتِه.

بَابُ
ذِكْرِ المَشَاهِيرِ مِنْ خَدَمِهِ الأَحْرَارِ

فَمِنَ الرِّجَالِ: أنسُ بنُ مالكٍ الأنصاري رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقد كان مِن أَخَصِّ خُدّامِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خدمَه عشر سنين من حين قَدِمَ المدينةَ إلى وفاتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وعنه رَضِيَ اللهُ تعالى عنه قال: لما قَدِمَ رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ أخذَ أبو طلْحَةَ ـ يعني زَوْجَ أُمِّهِ ـ بيَدِي، فانْطَلَقَ بِي إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا رَسُولَ الله إنَّ أَنساً غُلامٌ كَيِّسٌ، فَلْيَخْدُمْكَ، فخَدَمْتُه في السّفَرِ والحضَرِ. وماتَ وقد جاوزَ المائة.

وعبدُ الله بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وكان صَاحِبَ سواكِه ونعْلِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا قام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلبَسه إيّاهُما، وإذا جلسَ جعلَهُما في ذِرَاعَيهِ حتَّى يقومَ، وكان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يمشي بالعَصَا أَمَامَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتّى يدخلَ الحجْرَةَ.

ومُعَيْقِيبُ الرُّومِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقد كان صَاحبَ خَاتمِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعُقْبَةُ بنُ عامر الجُهَنِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وكان صاحب بغْلَتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقودها في الأسفار، وكانَ عالماً بكتابِ الله عَزَّ وَجَلَّ وبالفرائض، فصيحاً، شاعراً مفهماً.

وأَسْقَعُ بنُ شُرَيكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وكَان عَلَى رَاحِلَتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقد كان يُرَحِّلُ له ناقتَه. وعنه رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: أَنَّ رسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له

ذات يوم: «يَا أَسْقَعُ، قُمْ فَارْحلْ»، فقال: يا رَسُولَ الله أصابتني جنابة ولا ماء، قال: فسكتَ، ثُمّ جاءَه جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بآيَةِ التّيمُّمِ، فقال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُمْ يَا أَسْقَعُ فتَيَمَّمْ»، فأراني التّيمّمَ ضَرْبةً للوَجْهِ وضَرْبَةً لليَدَينِ إلى المرْفَقَينِ، فقُمْتُ وتَيمَّمْتُ، ثمّ رحلت له، ثمَّ سارَ حتّى مَرَّ بماءٍ، فقال لي: «يَا أَسْقَعُ أَمِسْ هَذَا جِلْدَكَ». وقد تقَدَّمَ أَنّ سببَ نُزولِ آيةِ التّيمُّمِ ضَيَاعُ عِقْدِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها في بعض الغزوات.

وبلالٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وقد كان مُؤَذّنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان على نَفَقَاتِه.

ومِنَ النّسَاءِ: أَمَةُ الله بنتُ رُزَينَة، وخَولَةُ، ومَارِيَةُ أمّ الرَّبَاب، ومَارِيَةُ، وَجَدَّةُ المُثَنّى بنِ صَالِح، وقيل: هي التي قبلها.



بَابُ
ذِكْرِ المَشَاهِيرِ مِنْ مَوالِيهِ

فَمِنَ الرِّجَالِ: زيدُ بنُ حارثة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وقد تَقَدَّمَ الكلامُ عنه. وأبو رَافِعٍ، كَانَ قِبْطِيّاً، وكان للعَبَّاس رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، فوهبه للنبيِّ ﷺ. ولما أسلمَ العَبّاسُ وبَشَّرَ أبو رَافِعٍ النَّبيَّ ﷺ بإِسْلَامِ عَمِّهِ العَبّاس أَعْتَقَه. وشُقْرَان، كان حَبَشِيّاً، وكان لعبدِ الرّحمن بنِ عَوف رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، فوهبه للنبيِّ ﷺ. وثَوْبَان. وأَنْجَشَةُ، اشتَرَاهُ ﷺ عند مُنْصَرَفِه من الحُدَيْبِيَة ثم أعتقه، كان يحدو بالنّسَاءِ، وقالَ له ﷺ يوماً وقَدْ حَدَا بِهِنَّ: «رُوَيْداً يَا أَنْجَشَةُ رِفْقاً بِالقَوَارِيرِ»، يعني: النّساء، لأَنّ الحِدَاءَ إِذَا سَمِعَتْه الإبِلُ أَسْرَعَتْ في المشي فَتُزْعِجُ الرّاكِبَ والنّسَاءُ يضْعُفنَ مِنْ شِدّةِ الحرَكةِ، وشبّهَهُنّ ﷺ في ضعْفِهنّ بالقَوارِير؛ الأواني مِن الزّجَاج.

ورَبَاحُ وكان أَسْوَد. ويَسَارُ النّوبي، كان على لِقَاحِ رَسُوْل الله ﷺ، وهو الذي قتَلَهُ العُرَنِيُّونَ. وسَفِينَةُ وكَانَ أَسْوَدَ، وكان لأمِّ سلمة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها فأَعْتَقَتْه، ثُمَّ اشْتَرطَتْ عليه أَنْ يخدمَ رَسُوْلَ الله ﷺ ما عَاش، وكان اسْمُهُ بَهْرَان[1]، وإنّما سمّاهُ رَسُوْلُ الله ﷺ سَفِينَةَ؛ لأنه حمَل أمتعة

---

(١) ولمّا ذكَرَتْ له أُمُّ سَلَمَةَ شَرْطَهَا قال: لو لمْ تَشْتَرِطي عَلَيَّ خِدْمَتَه لمَا فَارَقْتُه!. وذكر ابنُ حَجَر في الإصابة في تسميته واحداً وعشرين قولاً. ونقل الحافظ السيوطي في الخصائص الكبرى قصته الشهيرة مع الأسد، قال: أخرجَ ابنُ سَعْدٍ وأبو يعلى والبزّار وابنُ منْدة والحاكمُ وصحّحه والبيهقي=

للصَّحابة ثقلت عليهم، فقال له رَسُوْلُ الله ﷺ: «احْمِلْ فَإِنَّمَا أَنْتَ سَفِينَةٌ»، قال رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: فلو حملت يومئذٍ وِقْرَ بَعِيرٍ أو بعيرين إلى أَنَّ عَدَّ سبعةً مَا ثَقُلَ عَلَيَّ. وسَلْمَانُ الفارسي رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، لأنه ﷺ هو الذِي أدّى عنه نُجَومَ كِتَابَتِه. وسَنْدَرُ الذِي أَهْدَاه له المُقَوْقِسُ.

ومِن النِّسَاءِ: أمُّ أيمن، وأُمَيْمَةُ. وسِيرِين، وقنْسَر، اللّتَان أَهْدَاهُمَا له المُقَوْقِسُ. وقد قيل: أنه ﷺ أعتقَ في مَرِضِه أرْبَعِينَ رَقَبة.

= وأبو نعيم، عن سفينة مولى رسول الله ﷺ، قال: ركبت سفينة في البحر فانكسرت، فركبت لوحا منها، فأخرجني إلى أَجَمَةٍ فِيهَا أَسَدٌ فلما رأيته قلت: يا أبا الحارث أنا سفينةُ مولَى رسُولِ الله ﷺ، فأقبلَ يُبَصْبِصُ بِذَنَبِهِ حتّى قامَ إلى جَنْبِي، ثمَّ مشَى مَعِي حتَى أقامَني على الطَّرِيق، ثمَّ هَمْهَمَ ساعةً فرَأيتُ أنه يُودّعُني.

بَابُ
ذِكْرِ المَشَاهِيرِ مِن كُتّابِهِ

ذكرَ بعضُهم: أنّ كُتّابه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا ستةً وعشرين كاتباً، على ما ثَبَتَ عن جماعة من ثقات العلماء. وقِيلَ: بل كانوا اثنين وأربعينَ، منهم: أبو بكر الصّديق. وعمرُ بنُ الخطّاب. وعثمانُ بنُ عفّان. وعليُّ بنُ أبي طالب. وعامرُ بنُ فُهَيْرَةَ. وعبدُ الله بن الأرقم، وقد كان يكتب الرّسَائل التي للملوك وغيرِهم، وقال في حقه عمر: مَا رَأيتُ أخشَى لله منه.

وأبيُّ بنُ كعبٍ، وهو أوّل مَن كتبَ له مِن الأنصارِ بالمدينة، كانَ في أغلبِ أحوالِه يكتبُ الوحيَ، وهو أحدُ الفقهاء الذين كانوا يكتبونَ في عهدِه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وثابتُ بنُ قيس. وزيدُ بنُ ثابتٍ، قالَ زيدُ بنُ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ تعَالى عنه: أمرَني رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَتَعلَّمَ السَّرَيَانيّة، وقال: «إِنِّي لَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي»، فمَا مَرَّ بِي نصفُ شَهْرٍ حتّى تعلّمْتُ وحَذَقْتُ فيها، فكُنْتُ أَكْتُبُ له إليهم وأقرَأ له كُتبَهم.

والمغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ. والزّبيرُ بنُ العَوّام. وخَالدُ بنُ الوَليدِ. والعَلاءُ بنُ الحضْرَمِي. وعمرو بنُ العاصِ. وعبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ. ومُحمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ. وعبدُ الله بنُ عَبدِ الله ابنِ سَلُول. ومُعَاوِيَةُ بنُ أَبي سُفْيَان، وقال بعضُهم: كان مُعاويةُ وزيدُ بنُ ثَابتٍ مُلَازِمَينِ لِلكِتَابَةِ بينَ يدي رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوَحْيِ



وغَيرِه، لا عَمَلَ لهما غير ذلك.

ويزيد بن أبي سُفْيَان. وعبد الله بن أبي سرح العامري، وهو أوَّل مَنْ كَتَبَ له مِنْ قُرَيشٍ بِمَكّةَ، ثُمَّ ارْتَدَّ، وصَارَ يَقُولُ: كُنْتُ أُصَرِّفُ محمَّداً حيثُ أُرِيدُ، كَانَ يُمْلي عَلَيَّ: عَزِيزٌ حَكِيمٌ، فأَقولُ: أو عَلِيمٌ حَكِيمٌ، فيقولُ: نَعَمْ، كُلٌّ صَوَابٌ. ونَزَل فيه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف: ٣٧]. ثم لما كان يوم الفتح أُهْدِرَ دَمُهُ، فَفَرَّ إلى عُثْمانَ بنِ عفّان؛ لأنه كان أخاه من الرَّضَاعة، فغَيَّبَه عثمانُ ثمّ جاءَ به بعدما اطمَأنّ الناسُ، واستأمَنَ له رَسُولَ الله ﷺ، فصَمَتَ ﷺ طويلاً، ثم قال: «نَعَمْ»، فلمَّا انصرف به عثمانُ قال النبيُّ ﷺ لمن حوله: «مَا صَمَتُّ عَنْهُ إِلَّا لِتَقْتُلُوهُ»..، إلى آخرِ ما قد تَقَدَّمَ. ثمّ أسلمَ وحَسُنَ إسْلَامُه، ودعا اللهَ أنْ يختمَ عمرَه بالصَّلاةِ، فماتَ ساجداً في صلاةِ الصّبح.



بَابُ
ذِكْرِ حُرّاسِهِ وَسِلَاحِهِ

حَرَسَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعة، منهم: أبو بكر الصديق، وسعدُ بن معاذ، ومحمّدُ بن مَسْلَمَة، والزبيرُ بنُ العَوّام، وأبو أيوب الأنصاري، وبلالٌ، وسعدُ بنُ أبي وقاص، والمغيرةُ بنُ شعبة، وذَكْوَانُ بن عَبْدِ قَيس، وابنُ أبي مَرْثَد الغَنَوي، رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهم.

وكان الذي يضربُ الأعناقَ بين يديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعة، منهم: عليٌّ، والزبيرُ، والمِقْدَادُ، ومحمد بن مَسْلَمَة، وعاصمُ بنُ ثابتٍ، والضَّحَّاكُ بنُ سُفْيَان رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم.

وكان له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السّيوف تسعة، ومن الدّرُوع سبعة، ومن القِسيّ ستة، ومن الأتْرَاس ثلاثة، ومن الرِّمَاح اثنان، ومن الحِرَاب ثلاثة، ومن الخُوَذِ اثنتان.

فأما السّيوفُ: فسيفٌ يُقَالُ لَهُ: مَأْثُورٌ، ورثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبيه، وقدم به المدينةَ، ويُقال: إنّه مِن عمَل الجنِّ. وسيفٌ يُقَالُ لَهُ: العَضْبُ، أرسل به إليه سعدُ بنُ عبادة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه عند توجهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بدرٍ. وسيفٌ يُقَالُ لَهُ: ذو الفقار، كان في وسطه مثل فقَرَات الظّهر، غنمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدرٍ، كان للعَاصِ بنِ وائل فقتل يوم بَدْرٍ كافراً، وكانت قَائِمَتُه وقَبِيعَتُه وحَلَقَتُه وعِلَاقَتُه فِضَّةً، وكانَ لا يفارقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَرْبٍ من الحرُوبِ. يُقَالُ: إنّ أصلَه من

حديدة وُجِدَتْ مدفونة عند الكعبة. وسَيْفٌ يُقَالُ لَهُ: الصَّمْصَامَةُ، وكان مشهوراً عند العرب، وهو سيفُ عمرو بن مَعْدِ يَكْرِب. وسيفٌ يُقَالُ لَهُ: القَلَعِيّ، نسبة إلى بُرْج القَلْعَة، وهو موضع بالبادية. وسَيْفٌ يُقَالُ لَهُ: الحَيْفُ، وهو الموت، وهذه الثلاثة مِن سِلاح بني قَيْنُقَاع. وسَيْفٌ يُقَالُ لَهُ: الرَّسُوبُ، لأنه يَرْسُبُ ويَسْتَقِرّ في الضّربَةِ، وهو أحدُ السُّيوفِ التّسعة التي أهدَتْها بلقيسُ للنّبيِّ سُليمان عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وسَيْفٌ يُقَالُ لَهُ: المِخْذَمُ، أيْ القاطعُ، وهما كانا معلقين على صَنَم طَيْءٍ، الذي يُقَالُ لَهُ: الفُلْسُ. وسَيْفٌ يُقَالُ لَهُ: القَضِيبُ، من قَضَبَ الشّيءَ إذَا قَطَعَه.

وأما الدّرُوع: فَدِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ الفُضُول؛ لطُولِهَا، أرسل بها إليه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ سعدُ بنُ عبادة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه حين سارَ إلى بَدْرٍ، وكانت من حديدٍ، وهِيَ التي رَهنها صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عند أبي الشّحْم اليَهُودِي في ثلاثين صاعاً من الشّعير، وكان الدين إلى سنة. ودِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ الوِشَاحِ. ودِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ الحَوَاشِي. ودِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: السَّفَرِيّة، نسبةً إلى مَوضِعٍ يُصْنَعُ به الدّروع. ودِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: السُّغْديّة. ودِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: الفِضّة، ويُقَال لها: السَّعْدِيّة، وهما من دروع بني قَيْنُقَاع، ويُقَالُ: إنّها دِرْعُ داودَ عَلَيهِ السَّلَامُ التي لبسها لِقتالِ جالُوتَ. ودِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: البَتْرَاءُ؛ لِقِصرِهَا. ودِرْعٌ يُقَالُ لَهَا: الخِرْنِقُ، وذلك لنعومتها.

وأمّا القِسِيّ: فَقَوسٌ يُقَالُ لها: البيضاءُ من شَوْحَطٍ، وهو من شَجَرِ الجِبَال، يُتّخَذُ منه القسيّ، وهو من سلاح بني قَيْنُقَاع. وقَوسٌ يُقَالُ لها: الرّوْحَاء. وقَوسٌ يُقَالُ لها: الصَّفراء من نَبْع، وكُسِرَتْ يوم أُحُدٍ. وقَوسٌ يُقَالُ لها: الزّوْرَاء، ويُقَال لها: الكَتُومُ لِانْخِفَاضِ صَوتِها إذَا رُمِيَ عنها، قيل: وهي التي اندقّتْ سِيّتُها يوم أحد، وقَوسٌ يُقَالُ لها: السَّدَادُ.

وأمَّا الأَتْرَاسُ: فَتِرْسٌ يُقَالُ لهَا: الزَّلُوقُ؛ لأنّ السَّلاحَ يَزْلَقُ عنْهُ. وتِرْسٌ يُقَالُ لهَا: فَتَقٌ. وتِرْسٌ يُقَالُ لهَا: تِمْثَالٌ، كان عليها تِمْثَالُ عُقَابٍ فوضعَ ﷺ يده عليه فذَهبَ.

وأمَّا الرِّمَاحُ: فَرُمْحٌ يُقَالُ لَهُ: المُثْنِي. ورُمْحٌ يُقَالُ لَهُ: المُثْوِي. وقد أصابَ ﷺ ثلاثة رِمَاح من سلاح بني قَيْنُقَاع.

وأمَّا الحِرَابُ: فحَرْبَةٌ يُقَالُ لها: النّبْعَةُ. وحَرْبَةٌ يُقَالُ لها: البَيْضاءُ. وَحَرْبَةٌ يُقَالُ لها: العَنَزَةُ، وكانت صَغيرةً تُشْبِهُ العُكّاز، جاء بها الزبيرُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه من أرض الحبشة، أعطَاها له النّجاشي رحمه الله، وشهد بها الزبيرُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه بدراً وأُحُداً وخَيبَرَ، ثمّ أخذها منه ﷺ عند منصرَفِه من خَيْبَرَ، فكانت تُحْمَلُ بين يديه ﷺ يومَ العيد، فَتُرْكَزُ بينَ يديه ﷺ ويُصَلّي إليها، وكذا يصلي إليها في أسفَاره، وكان ﷺ يمشي بها وهي في يدِه. وحَرْبَةٌ يُقَالُ لها: المهْرُ. وحَرْبَةٌ يُقَالُ لها: النّمِرُ.

وَأمَّا الخُوَذُ: وَهِيَ مَا يُجْعَلُ على الرأس من الزَّرَدِ مِثل القَلَنْسُوَة: فَخَوْذَةٌ يُقَالُ لَهَا: المُوَشَّحُ. وخَوْذَةٌ يُقَالُ لَهَا: السَّبوغُ، أَو ذَاتُ السَّبُوغِ. وقد كان له ﷺ مِحْجَنٌ طوله قدر ذِرَاع أو أكثر بيسير، يمشي به، ويعلق بين يديه على بعيره يسمى الذّقْنُ، وكان له رَأْسٌ مُعَقّفَةٌ كالصَّوْلَجان. كما كان له ﷺ قَضِيبٌ مِن شَوحَطٍ، يُسَمّى: المَمْشُوقَ، وقيل: وهذا القضيب هو الذي كان الخلفاءُ يَتَدَاوَلونه. وله ﷺ مِخْصَرَةٌ: وهي ما يُمْسِكُهُ بيدِه من عصا أو مقرعة تُسَمّى: العُرْجُونَ، ويُقَالُ لها: العَسِيبُ.

بَابُ
ذِكْرِ خَيْلِه وَبِغَالِه وَحُمُرِه

كان له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبعْةُ أَفْرَاس. وكان له من البِغَال سِتٌّ. وكان له من الحُمُرِ اثنان. وكان له من الإبل المُعَدّة للرّكوبِ ثلاثٌ.

فأمَّا أَفْرَاسُه: فَفَرَسٌ يُقَالُ لَه: السَّكْبُ: شُبِّه بِسَكْبِ الماء وانصِبَابه لشِدّةِ جَرْيِهِ، وهو أول فرس ملكَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واشترَاه من أعرابيٍّ بعشرة أَوَاق، وكان أَغَرَّ مُحَجَّلاً أَسوَدَ أَدْهَماً. وفَرَسٌ يُقَالُ لَه: المُرْتَجِزُ، وسُمِّيَ به لحسن صَهِيله، وكان أبيضَ، وهُوَ الذي شهدَ له فيه خزيمة بأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشتراه من صاحبِه بعد أنْ أنكرَ بيعَه له. وفَرَسٌ يُقَالُ لَه: اللُّحَيفُ، أهدَاهُ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرْوَةُ بنُ عمرو مِن أرضِ البلْقَاء. وفَرَسٌ يُقَالُ لَه: اللِّزَّازُ، أهداهُ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُقَوْقِسُ. وفَرَسٌ يُقَالُ لَه: الطِّرْفُ، أي الكَرِيمُ الجيّد مِنَ الخيل. وفَرَسٌ يُقَالُ لَه: الوَرْدُ، أَهْدَاهُ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تمِيمٌ الدَّارِيّ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وأهداه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه. وفَرَسٌ يُقَالُ لَه: سَبْحَةٌ.

وهذا هو المشهور، وعد بعضُهم في خَيلِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرَ ذلك، فأوصلَ جملتَها إلى خمسة عشر، وبعضُهم أوصلَها إلى العشرين، وذكر الحافظُ الدمياطي أسماءَ الخمسة عشر في سيرته، وقال: وقد ذكرناها وشرحناها في كتابنا "كتاب الخيل".

وكان سَرْجُ خيلِه ﷺ دَفّتين مِن لِيْفٍ، ولم يَكُنْ شيءٌ أحبَّ إلى رَسُوْلِ الله ﷺ مِن الخَيل، وقد مسَحَ وجْهَ فرَسه ومَنْخِرَيهِ وعَينَيه بِكُمِّ قميصِه فَقِيلَ له: يا رَسُولَ الله، أتمسَحُه بكُمِّ قميصِكَ؟، فقال ﷺ: «إنَّ جِبْرِيْلَ عليه السلام عاتَبَنِي فِي الخَيْلِ»، وقال: «الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيْهَا الخَيْرُ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، وَأَهْلُهَا مُعَانُونَ عَلَيْهَا، فَخُذُوا بِنَوَاصِيهَا، وَادْعُوا بِالبَرَكَةِ». وكانَ ﷺ يُضَمِّرُ الخيلَ لِلسِّبَاق، ويأمرُ بسَقْيِها غُدْوَةً وعَشِيّاً، ويَأمرُ أَنْ تُقَادَ كلَّ يومٍ مَرّتين، ويُؤْخَذُ منها مِنَ الجَرْيِ شَوْطَان.

وَأَمَّا بِغَالُهُ: فَبَغْلَةٌ شَهْبَاءُ يُقَالُ لَهَا: دُلْدُل، أهداها له المُقَوْقِسُ، وهي أوَّل بغلة رُكِبَتْ في الإسلام. وفي لفظٍ: رُؤيَتْ في الإسلام، وقد كان ﷺ يركبُها في المدينةِ، وفي الأسفار، ورَكِبها عثمانُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه في خِلافَتِه، وقاتلَ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه الخوَارِجَ عليها، ورَكِبَها بعد عَليٍّ ابنُه الحسَنُ ثمَّ الحسينُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهما، ثمّ محمدُ بنُ الحنَفِيّة رحمه الله، وعاشَتْ حتّى ذهَبَتْ أسنَانُها وعَمِيَتْ، فكانوا يَدُقّونَ لهَا الشَّعِيرَ حتّى رَمَاها رَجُلٌ بسَهْمٍ فقَتلها. وبَغْلَةٌ يُقَالُ لهَا: فِضَّةٌ، أهداها له فَرْوَةُ بنُ عمرو الجُذَامِي فوهبَها ﷺ لأبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه. وأَوْصَلَ بعضُهم بِغَالَه ﷺ إلى سبع، وقال مُغْلَطَاي: كان له ﷺ من البغال: دُلْدُل، وفِضَّة، والتي أهداها له ابنُ العَلْمَاءِ في غَزْوَةِ تبوك، والأَيْليّةِ، وأُخْرَى مِن دومَة الجنْدَل، وأخرى من عندِ النّجاشي.

وأَمَّا حُمُرُه: فحِمارٌ يُقَال له: يَعْفُور، وجَدَهُ ﷺ في خَيْبَرَ، وقيل: أَنَّه الذي أهداهُ له فَرْوَةُ بن عمرو الجُذَامِي، وأنه يومَ ماتَ النبيُّ ﷺ طرَحَ نفسَه

في بئرٍ جزعاً على فِرَاقِ رَسُولِ الله ﷺ، فمَات. وحمارٌ يُقال له: عَفِيرٌ، وكانَ أشهَبَ، ومَات في حجةِ الوَداع، وهو الذي أهداه له المُقَوْقِس.

وَأَمَّا إِبلُهُ التِي كَانَ يَرْكَبُهَا: فَنَاقَةٌ يُقَالُ لهَا: القَصْوَاءُ. ونَاقَةٌ يُقَالُ لهَا: الجَدْعَاءُ. ونَاقَةٌ يُقَالُ لهَا: العَضْبَاءُ، وهي التي كانت لا تُسْبَقُ فسُبِقَت مرّةً، فشَقَّ ذلك على المسلمين، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ حَقّاً عَلَى الله أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»، ويقال: إنّها لم تأكل بعدَ وفاةِ رَسُوْلِ الله ﷺ ولم تَشْرَبْ حتّى مَاتَتْ(١). وقيلَ: إنَّ التي كانت لا تُسْبَقُ ثمَّ سُبِقَتْ هِيَ القَصْواءُ. وقيلَ: إنّ هذه الثلاثة اسمٌ لناقةٍ واحدَةٍ.

وأمّا البَقَرُ: فلم ينقل أنه ﷺ ملَك شيئاً منها للقُنْيَةِ، وهذا لا ينافي أنه ﷺ ضَحّى عَن نِسَائِه بالبَقَرِ.

وأمّا غَنَمُه: فقِيلَ: كانت له ﷺ مائة عَنْزَة، وقيل: سبعة أَعْنُز، كانت ترعاها أمُّ أيمنَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها، وجاءَ أنه ﷺ قال: «اتّخِذُوا الغَنَمَ فَإِنّها بَرَكَةٌ»، وقد كان له ﷺ شِيَاهٌ يختَصُّ بِشُرْبِ لبَنِها، وماتَتْ له ﷺ شَاةٌ، فقال: «مَا فَعَلْتُمْ بِإِهَابِهَا»؟، فقالوا: إنّها ميّتةٌ!، فقال: «دِبَاغُهَا طَهُورُهَا».

---

(١) عندما نَقْرَأُ هذا الخبَر، وخبَرَ إلقاءِ الحِمَارِ نفسه في البِئْرِ بعدَ وفاةِ نَبيِّنا ﷺ، علماً أنّ هذا ليسَ بأعجَب من حَنين الجِذْعِ ولا سلام الشجر والحجَرِ عليه ﷺ، فيجبُ أَنْ نتفكّرَ كيفَ حَصّلت على هذا الفِقْه وهي مجرَّدُ حيونات؟!، ثمَّ نعْتَرِفُ بعدَ ذلك بقِلّةِ شَوقِنا لجَنابِهِ ﷺ.




بَابُ
ذِكْرِ صِفَتِهِ الظَّاهِرَة

خلق الله تعالى أجسادَ الأنبياءِ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ سليمةً من العيبِ، صالحةً لحلولِ الأنفُسِ الكَامِلةِ، وهُمْ في ذلك متفاوتونَ، ونبيّنا ﷺ أَصَحُّ الأَنبياءِ مِزَاجاً، وأكمَلُهُم جَسَداً. وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: ما بعَثَ الله نبيّاً إلا حَسَنَ الوَجْهِ، حَسَنَ الصّوتِ، وكان نبيُّنا ﷺ أَحْسَنَهم وَجْهاً وصَوتاً[١].

فوُصِفَ ﷺ بأنه: كانَ ضَخْمَ الهامَةِ، فَخْماً مُفَخّماً، أي عظيماً في الصّدورِ والعيونِ، يتلألأُ وجْهُهُ كالقَمَرِ ليلةَ البدرِ، في وجْهِهِ تَدويرٌ، لم يقمْ ﷺ مع شَمسٍ قطّ إلا غلبَ ضوؤُه ضوءَ الشّمسِ، ولم يقمْ معَ سِراجٍ قَطّ إلّا غَلَبَ ضوؤُه ضوءَ ذاك السِّراجِ، ولم يَكُنْ رَسُوْلُ الله ﷺ بالطّويل المتناهي في الطّولِ، ولا بالقَصِيرِ جِدّاً، ولم يكُنْ يُماشِيه أَحَدٌ مِنَ النّاسِ فيه طولٌ إلا طَالَه رَسُوْلُ الله ﷺ، فإذا فارقَه رَسُوْلُ الله ﷺ عادَ للرَّبْعَةِ، أي: لا طويلٌ ولا قَصِيرٌ.

وكان شَعْرُه ﷺ بين الجُمَّةِ والوَفْرَةِ، يقْصُرُ ويطولُ بحَسَبِ الأوقاتِ، فإذا تَرَكَ تقصيرَه وصَلَ إلى مَنكِبَيه، وإذا قصَّرَهُ فتارةً ينْزِلُ عن شَحْمَةِ أُذْنِه، وتارَةً

---

(١) وهذا أمرٌ مُعْجِزٌ في حَدِّ ذاتِه؛ لأنّ حُسْنَ الخِلْقَةِ يَدلّ على حُسْنِ الخُلُقِ، وهو من قواعد عِلْمِ الفِرَاسَة.

لا ينزلُ عنها، وشَعْرُه ﷺ ليسَ بجَعْدٍ قَطَطٍ بَالغٍ في الجُعُودَةِ، ولا برَجْلٍ سَبْطٍ بالغٍ في السّبُوطَةِ، وكانَ له أَرْبَعُ ضَفَائِرَ، وقيل: إنّه ﷺ لمْ يَحْلِقْ رأسَه إلّا أربعَ مَرّات. وتُوُفِّيَ وليسَ في شَعْرِ رَأسِه ولحيَتِه عشرونَ شعرةً بيضاء.

وكَانَ ﷺ أَزْهَرَ اللّونِ، أَبيضَ مُشَرَّبًا بحُمْرةٍ، ولَيسَ بالأَبيضِ الأَمْهَقِ، والأَمْهَقُ: هو شَديدُ البَياضِ الذِي لا يخالِطُه حُمْرَةٌ كلَونِ الجصِّ، وكَانَ ﷺ وَاسعَ الجَبِين، أَزَجَّ الحاجِبَين، سَوَابغَ مِنْ غيرِ قَرَنٍ، بينَ حَاجِبَيهِ فُرْجَةٌ يَسِيرَةٌ لَا تَبينُ إلا لمنْ دَقَّقَ النّظرَ، وبينهما عِرْقٌ يَدِرُّهُ الغَضَبُ، إذَا غَضِبَ امتلأَ ذلك العِرقُ دماً فيَظْهَرُ ويرتفعُ، أَدْعَجَ العَينَين ـ أي شَدِيدَ سَوَادِ العينين ـ، وأَشْكَلَ العَينَين ـ أي في بَياضِ عَيْنَيهِ حُمْرَةٌ ـ، أَنْجَلَ العَينَين ـ أي واسِعَ العَينَين ـ، أَكْحَلَ العَينَين، وَالكَحَلُ: سَوَادُ هَدَبِ العَين خِلْقَةً، أَهْدَبَ الأَشْفَارِ ـ أي طويلَ هَدَبِ شَعْرِ العينين ـ، سَهْلَ الخَدّين ـ أي ليسَ في خَدَّيهِ نُتُوءٌ ولَا ارْتِفَاعٌ ـ، ضَلِيعَ الفَمِ، أَشْنَبَ ـ أي في رِيْقِه بَرْدٌ وَعُذُوبَةٌ ـ، مُفَلّجَ الأَسْنَانِ، بَرّاقَ الثّنايَا، إذَا تكلّم رُئِيَ كَالنُّورِ يخرُجُ من بَينِ ثَنَايَاه، يَفْتَرُّ عَن مِثْلِ حَبِّ الغَمَام؛ أي إذا ضحك بانَتْ أَسْنَانُه كالبَرَد؛ ـ لِشدَّةِ بَيَاضِ أَسْنَانِه ﷺ ـ.

وكَانَ ﷺ حَسَنَ الثّغْرِ، طَيِّبَ الرَّائِحَةِ، يُكْثِرُ دَهْنَ رَأسِه حتّى كأَنَّ ثيابَه ثِيَابُ زَيّاتٍ، كَثَّ اللِّحْيَةِ، غَاضَّ الطَّرْفِ، نظَرُهُ إلى الأرضِ أَطوَلُ مِنْ نظَرِهِ إلى السَّماءِ، جُلّ نظرِهِ الملَاحَظَةُ، دَقِيقَ المَسْرُبَةِ[1]، كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيْدُ دُمْيَةٍ فِي صَفَاءِ الفِضَّةِ، مُعْتَدِلَ الخَلْقِ، بَادِناً مُتَمَاسِكاً، سَوَاءَ البَطْنِ والصَّدر، عَرِيضَ

---

(١) المَسْرُبَةُ: الشّعْرُ المُمْتَدُّ مِنْ أعلى الصّدْرِ إلى السُّرَّةِ، ودِقّتُها تَدُلّ على الفطَانَةِ، وغِلَظُها يَدُلّ على الحمَاقَةِ.

الصّدْرِ، بعيدَ مَا بين المنكبين، أَشْعَرَ الذِّرَاعَين، أَشْعَرَ المنَاكِبِ وَأَعَالي الصَّدْرِ، عَارِي الثَّدْيَين والبَطْنِ ومَا سِوَى ذلك، ضَخْمَ الكَرَادِيسِ ـ وهِيَ رُؤُوسُ العِظَام ـ، طَوِيلَ الزَّنْدَين، رَحْبَ الرَّاحَةِ، لَيِّنَ الكَفَّين، طَوِيلَ الأَصَابع، شَثْنَ الكَفَّين وَالقَدَمَين، مَنْهُوسَ العَقِبِ، أَخْمَصَ القَدَمَين، يَمْشِي هَوْناً، ذَرِيعَ المشْيَةِ، إِذَا مَشَى كَأَنّما يَنْحَطُ مِنْ صَبَبٍ، يمشي مُنْتَعِلاً، ورُبَّمَا مَشَى حَافِياً، إِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَمِيعاً بِسَائِرِ جَسدِه، وَلَا يَلْوِي عُنُقَهُ، طَوِيلَ الأَنْفِ مَعَ حَدَبٍ فِي وَسَطِه وَدِقَّةٍ في طَرَفِه، ولَيسَ فِي حَدَبَتِه ارْتِفَاعٌ.

وَكَانَ ﷺ يَفْتَحُ الكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِه، ويَتكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ وكَلَامُهُ فَصْلٌ لَا فُضُولَ فَيْهِ وَلَا تَقْصِيرَ، إِذَا أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَّبَهَا، وَإِذَا تَحدَّثَ قَارَبَ يَدَهُ اليُمْنَى مِنَ اليُسْرَى، وضَرَبَ بِإِبْهَام اليُمْنى رَاحَةَ اليُسْرَى، رُبَّما يُسَبِّحُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ ورَبّما حَرّكَ رأسَهُ، وعَضَّ شَفَتَه، وضَرَبَ بِيَدِه عَلَى فخذِه، وربّما نَكَتَ الأَرضَ بعُودٍ، وإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ بِوَجْهِهِ واحْمَرَّ وجْهُهُ الشّرِيفُ، وإذا اشْتَدَّ غَمُّه مَسَحَ بيَدِه على رأسِه ولحيته، وتَنَفَّسَ الصّعَدَاء، وجُلُّ ضَحِكِهِ التَّبسُّمُ، وإِذَا جرَى به الضَّحِكُ وضَعَ يدَه على فِيْهِ.

وَكَانَ ﷺ لَا يَأكُلُ مِنْ هَدِيَّةٍ أُهْدِيَتْ إليه حتّى يأْكُلَ منها صَاحِبُها بعد أَنْ أُهْدِيَتْ إِلَيهِ ﷺ الشَّاةُ المَسْمُومَةُ، وكَانَ ﷺ يَأْكُلُ بثَلَاثِ أَصَابع، ويَلْعَقُهُنَّ إذا فرغَ؛ يَلْعَقُ الوُسْطى، ثمّ التي تليها ثُمَّ الإبهامَ، وكَانَ ﷺ يأمرُ أَصحابَه بِلَعْقِ الصَّحْفَةِ، ويقول: «إِنّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمْ البَرَكَة».

بَابُ
ذِكْرُ صِفَتِهِ البَاطِنَة

كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَهْلَ الخُلُق، لَيِّنَ الجانب، ليس بفَظٍّ ولَا غَليظٍ، ولا صَخَّابٍ، ولا فَحّاشٍ، ولا عَيَّابٍ، ولَا مَزّاحٍ ـ كَثِيرِ المِزَاحِ ـ، وإذا مَازَحَ أَصْحَابه لَا يَقولُ إلا حَقّاً، قال يوماً لعَمَّته صَفِيَّة: «لَا تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَجُوزٌ» فَبَكَتْ، فقال لها وهو يضْحَكُ: «الله تَعَالى يَقُولُ: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]»، وجاءَه رَجُلٌ وطلبَ أنْ يحملَه على بعيرٍ فقال له: «إِنِّي حَامِلُكَ علَى وَلَدِ النَّاقَةِ»، فقال: يا رسُولَ الله، ما أصنعُ بولَدِ النّاقةِ؟، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَهَلْ تَلِدُ الإِبِلَ إِلّا النُّوقُ»؟. وكانَ زَاهِرٌ رجلاً يُهْدِي له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طُرَفاً وهَدَايَا مِنَ البَادِيةِ، وكانَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُهْدِيه كذلك إذَا أَرَادَ أَنْ يخرجَ إلى بَادِيتِهِ، ويقول: «زَاهِرٌ بَادِيَتُنا ونَحْنُ حَاضِرُوهُ»، وجاءَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً وهو يَبيعُ متَاعَه في السّوق، فاحْتَضَنَه مِن خلفِه، فقال: أَرْسِلْني مَن هذا؟، فلمّا عرف أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَارَ يمْسَحُ ظَهْرَه بصَدْرِه الشَّرِيفِ، وجعلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ يَشْتَرِي العَبْدَ»؟، فقال: تَجِدُني كَاسِداً، فقال له: «وَلَكِنَّكَ عِنْدَ الله لَسْت بِكَاسِدٍ».

وَكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتغافلُ عمّا لا يَشْتَهِي، تَرَكَ نفسَه مِنْ ثلاثٍ: الرّيَاء، والإِكْبار، ومَا لَا يَعْنِيه. وتركَ النّاسَ من ثلاثٍ: فكان لا يَذُمُّ أحداً، ولا يُعَيِّرُه، ولا يَطْلُبُ عَورَتَه، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقابلُ السّيئةَ بالحسَنةِ، ولا يَذُمُّ ذَوَاقاً، وَكَانَ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصِلُ مَن قَطَعَه، ويُعطِي مَن حَرَمَه، ويَعْفو عمَّنْ ظَلَمَه، لَا يتكَلَّمُ إلّا فيما يرجُو ثَوَابَه، ويصبرُ للغَرِيبِ على الجَفْوةِ في المنْطِقِ والمسْأَلَةِ، ولا يقطعُ على أَحَدٍ حديثَه، ولا يتكلّمُ في غيرِ حاجَةٍ، يُعَظّمُ النِّعْمةَ وإنْ دَقَّتْ، لا يَغْضَبُ لنفسِه ولا ينتصرُ لها. فإذَا تُعُرِّضَ للحَقِّ بشيءٍ غضبَ له ولا يَثْنِيهِ شَيءٌ عن الانتصَارِ له، يُكرِمُ كرِيمَ كُلّ قومٍ ويُوَلّيهِ عليهم، ويَتفَقَّدُ أصحابَه، ويسْألُ عنهم، فإنْ كانَ غائباً دعَا له، وإنْ كان شَاهداً زَارَه، وإنْ كانَ مَريضاً عَادَهُ، ويسألُ النّاسَ عمَّا النّاسُ فيه، أفضلُ النَّاسِ عندَه أَعَمُّهم نَصِيحةً، وأعْظَمُهم عندَه مَنْزِلةً أحسَنُهم مُوَاسَاةً، لا يجلسُ ولا يقومُ إلا على ذِكْرٍ، وإذا انتهى إلى القَومِ جلسَ حيثُ ينتهي به المجلسُ، ويأمرُ بذلك، ويُعْطِي كلّ وَاحِدٍ من جُلَسَائِه نَصِيبَه حتّى لا يحسَبُ جَلِيسُه أَحَداً أكرَمَ عليهِ مِنْهُ، مَن جالسَه أو نادَمَهُ لحاجَةٍ صَابَرَه حتّى يكونَ هو المُنْصِرفُ عنه، ومَن سَأَلَه حَاجةً لم يَرُدَّه إلّا بها أو بمَيسُورٍ مِنَ القَولِ، عِندَه النّاسُ في الحَقِّ سَوَاءٌ، مجْلِسُه مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ، لا تُرْفَعُ فيه الأَصوَاتُ، ولا يَتَنَازَعُونَ عندَه الحَدِيثَ، إذَا تَكلَّمَ أطرَقَ جُلَسَاؤُه كَأَنّما على رُؤُوسِهُم الطّيرُ، وَإذَا تكَلَّمَ عنده أَحَدٌ أنصتُوا له حَتّى يَفْرُغَ مِن حَدِيثِه، فلا يَقْطَعُ بعضُهم على بعضٍ حَدِيثَه.

وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ ممّا يضْحَكُ منه جُلَسَاؤُه ويَعْجَبُ ممَّا يَعْجبُونَ منه، فقد ذُكِرَ أنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرَجَ تَاجِراً إلى بُصْرَى، ومعَه نُعيمَانُ بنُ عمرو الأنصَاري، وسُوَيطُ بنُ حَرْمَلةَ وكلاهُما بَدْرِيٌّ، وكانَ سُوَيْطٌ على الزَّادِ، فجاءَه نُعيمَانُ وقال له: أطعِمْني، فقال: لا؛ حتّى يأتيَ أبو بكر، وكان نُعيمَانُ رجلاً مِضْحَاكاً مَزّاحاً، فيه دُعَابَةٌ وله أخبَارٌ طَرِيفَةٌ في دُعَابتِه، فقال لسُوَيطٍ: لأُغِيظَنَّكَ،

ثمَّ ذهبَ إلى أُناسٍ، فقال لهم: أتشترونَ مني عَبداً لي؟، فقالوا له: نعم. فقال: إنّه عبدٌ له كَلَامٌ، وهو قائِلٌ لكم: أنا رَجُلٌ حرٌّ، ولسْتُ بعَبدِه، فإنْ كان إذا قال لكم هذه تركتُموه فلا تَشْتَروه ولا تُفسِدُوا عَليَّ عبدِي، قالوا: لا، بل نشتريه ولا نَنْظرُ في قوله، فاشتروه منه بعَشَرةِ قَلَائِصَ، فأقبلَ بها يسُوقُها، وأقبلَ بالقوم، ثمَّ قال: دونكم هو هذا، فجاءَ القومُ له، وقالوا له: قدِ اشْتَرينَاكَ، فقال: هو كاذِبٌ، أنا رَجُلٌ حرٌّ، إنّه يَتَهزَّأُ بي ولسْتُ بعَبدِه، فقالوا له: قد أَخْبَرَنا بخَبَرِكَ، وطرحوا الحبل في عُنُقِه وذهبُوا به، ولم يسمعوا كلامَه، فجاءَ أبو بكرٍ، فأخْبرَه خَبرَه، فذهبَ هو وأصحابُه وأتْبعُوا القومَ، وأخبرُوهم أنه يَمْزَحُ، ورَدّوا عليهمُ القلائصَ ورَدّوا سُوَيطاً منهم، فلمَّا قَدِمُوا على رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرُوه الخبرَ، فضَحِكَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن ذلكَ حَولاً كَامِلاً.

وكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَائِمَ البِشْرِ ضَحُوكَ السِّنِّ، ولا يُنافي هذا ما قِيلَ: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ مُتواصِلَ الأَحْزَان، دَائِمَ الفِكْرَةِ، ليسَتْ له رَاحة، فإنَّ هذا بحسب ما كان عند ذلك المُخْبِرِ عنه، فقَدْ صَانَه الله تعالى عن الحزَنِ في الدُّنيا وأسْبَابِه، ونهاه عَن الحزَن على الكُفّار، وغفرَ له ما تَقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تَأخَّرَ، فمِنْ أينَ يأتِيهِ الحزَنُ؟، بل كانَ الغَالِبُ عليه أنه دَائِمُ البِشْرِوالبَشَاشةِ، وأيضاً ليسَ المرَادُ بالحزَنِ: الحزَنُ الذي هو الأَلَمُ على فَوَاتِ مَطْلوبٍ أو حصُولِ مَكروهٍ، فإنَّ ذلك منهيٌّ عنه، وقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذُ بالله تعالى منه، وإنّما المرادُ به: الاهتمامُ واليَقَظةُ لما يَسْتَقْبِلُه مِنَ الأمورِ.

وكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلُقُه القُرْآنُ، قد تأدَّبَ بآدابِه وتخَلَّقَ بمحَاسِنه، فكانَ مُتَّصِفاً بما فيه، معَ الاجتهادِ في طاعةِ الله والخضُوعِ له، والانقيادِ لأمْرِهِ، والشّدّةِ

على أَعْدَائِه، والتّوَاضُعَ لأوليائِه، ومُوَاسَاةِ عِبَادِه، وإِرَادَةِ الخيرِ لهم، والحِرْصِ على كَمَالِهم، والاحتمالِ لأذاهُم، والقِيامِ بمَصالِحهم، وإرْشَادِهم إلى ما يجمعُ لهم خَيرَي الدّنيا والآخرةِ، مع التَّعَفُّفِ عَن أموالِهم، إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الأَخْلاقِ الفَاضِلَةِ، والصِّفَاتِ الكَامِلَةِ التي اتّصَفَ بها، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشدَّ النّاسِ خَشْيةً وخَوفاً مِنَ الله، وما ضربَ بيدِه الشّريفةِ امرأةً ولا خَادِماً مِن أهلِه. وقد قال خادِمُه أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: خَدَمْتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السّفرِ والحضرِ عشرَ سنين، فوَالله ما قالَ لي في شيءٍ صَنَعْتُه: لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا؟، ولا قال لي في شيءٍ لمْ أَصْنَعْهُ: هَلّا صَنَعْتَ كَذَا وَكَذَا؟. وقد وُصِفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكتبِ القديمة: بأنَّ حلمَه يَسْبِقُ غضَبَه، ولا تَزِيدُه شِدّةُ الجهْلِ عليه إلّا حِلماً. ومَن تأمَّلَ سيرتَه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معَ أهلِه ومع أصحابِه وغيرهم؛ مِنَ الفقراءِ والأيتام والأرامل والضّعفاء والمساكين، علمَ أنه بلغَ الغَايَةَ في التّواضع ورِقّةِ القلبِ وَلِينِ الجانب.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحْسَنَ النّاسِ خُلُقاً، وأرْجَحَ النّاسِ حِلْماً، وأَعْظَمَ النّاسِ عفواً، وأَسْخَى النّاسِ كَفّا، وأَشْجَعَ النّاس قلباً، وأَشَدَّ النّاسِ بأساً، وأَشَدَّ النّاسِ حَيَاءً، وأَوْسَعَ النّاسِ صَدْراً، وأَصْدَقَ النّاسِ لَهْجَةً، وأَلْيَنَ النّاسِ عَرِيْكَةً، وأكرمَ النّاسِ عِشْرَةً، إِذَا فَرِحَ غضَّ طَرْفَهَ، وإذا أَخَذَه العُطَاسُ وضعَ يدَه أو ثوبَه على وجْهِهِ وخَفَضَ به صَوتَه، يُحبُّ الفَألَ الحسَنَ والاسمَ الحسَنَ، ويُغَيِّرُ الاسمَ القبيحَ بالحسَنِ، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرَ المشَاورةِ لأصحَابِه، ويخالطُهم، ويُحَادِثُهم، ويُدَاعِبُ صِبْيانَهم، ويُجْلِسُهم في حِجْرِه الشّريفِ.

وكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُجيبُ دعْوةَ الحرِّ والعَبدِ والأَمَةِ والمسكين، وما دَعَاه أحدٌ من أصحابِه أو أهلِ بيتِه إلا قالَ له: «لَبَّيْكَ»، وكان يَعُودُ المرْضَى بأقصى المدينةِ،

ويشْهَدُ الجنائزَ، ويقبلُ عُذْرَ المُعْتَذِرِ، وما وَضَعَ أحَدٌ فَمَه في أُذنِه إلّا استمَرَّ صَاغِياً له حتّى يفرغَ مِن حديثِه ويذهَبُ، وما أخذَ أَحَدٌ بيدِه فيُرْسِلُ يدَه منْهُ حتَّى يكونَ الآخِذُ هو الذي يرسِلُها، ويَبْدَأُ مَن لَقِيَه بالسّلامِ ويَبْدَأُ أصحَابه بالمُصَافَحَةِ، ولم يُرَ قَطُّ مَادّاً رِجْلَيهِ بين أَصْحَابِه، ويُكْرِمُ مَن دخَلَ عليه، ورُبّما بسطَ له رِدَاءَه وآثرَه بالوِسَادَةِ التي تحتَه، ويعْزِمُ عليه بالجلوسِ عليها إنْ أَبي، ويدعو أصحَابَه بأَحَبِّ أسمائِهم ويُكَنِّيهم، ولا يجلسُ إليه أَحَدٌ وهو يصَلّي إلا خَفَّفَ صَلاتَه وسأَلَه عَنْ حَاجَتِه، وإِذَا سَمِعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ وهو يُصَلّي تَجَوَّزَ في صَلَاتِه، وكان أكثرَ النَّاسِ شَفقةً على خَلْقِ الله تعالى وأرْأَفَهُم بهم وأرْحَمَهُم بهم، وأَوْصَلَ النَّاسِ للرَّحِم.

وكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركَبُ الحمارَ ورُبَّما رَكِبَه وليس عليه شيء وكانَ يُرْدِفُ خَلْفَه ويجلسُ على الأرضِ، وكانَ يُحِبُّ التَّيامُنَ في شَأنِه كُلِّهِ في طُهُورِه وتَرَجُّلِه وتَنَعُّلِه، وكانَ يحبُّ السّوَاكَ حتّى لقَدْ أَحْفَى لَثَّته، وكانَ يَكْتَحِلُ بالإِثْمِدِ عند النّومِ ثلاثاً في كُلّ عَينٍ، وكانَ يَحْلِبُ شَاتَه، ويَخْصِفُ نَعْلَه، ويَرْقَعُ ثوبَه، ويَخْدُمُ نَفْسَه، ويَعْلِفُ نَاضِحَه، ويَقُمُّ البَيْتَ، وكانَ يَعْمَلُ عمَلَ البيتِ، وكانَ لا يُرَى فَارِغاً قَطّ في بيتِه؛ إمّا يَخْصِفُ نَعْلاً لِرَجُلٍ مِسْكين أَو يَخِيطُ ثوباً لِأَرْمَلَةٍ، وكانَ أَكْثَرَ ما يَعْمَلُهُ الخِيَاطَةَ، وكانَ يَأكلُ معَ الخَادِمِ، ويحملُ بِضَاعتَه مِنَ السُّوقِ.

وكَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبُّ الطِّيبَ، ويأمرُ به، ويتَطَيَّبُ بالمسْكِ والغَالِيَةِ، ويَتَبخَّرُ بالعُودِ والعَنْبَرِ والكَافورِ، ويأْمُرُ أصحابَه بالمشي أمامَه، وكانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زاهداً في الدّنيا، وما شَبعَ ثَلاثةَ أيام تِبَاعاً مِنْ خُبْزِ البُرِّ والشّعيرِ حتّى فارَقَ الدّنيا،

وما أَكَلَ على خِوَانٍ ـ أي طَاوِلَة ـ قَطّ، وإنّما كانَ يأكلُ على السُّفْرَةِ ورُبّما وضَعَ طعَامَه على الأَرضِ، وكان يَبِيْتُ الليالي المتتابعة طاوياً، وخَطَبَ ﷺ يوماً فقال: «وَالله مَا أَمْسَى فِي بِيْتِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ وَإِنَّها لَتِسْعَةُ أَبْيَاتٍ»، ومَا قالَ ذلك اسْتِقْلَالاً لِرزْقِ الله، ولَكِنَّه أرادَ أَنْ تَتَأَسَّى بهِ أمّتُه، وكانَ يمُرُّ الشَّهْرَان وما يُوقَدُ في بيتٍ مِن بيوتِه ﷺ نارٌ لَا لِخُبزٍ ولَا لِطَبْخٍ، ولم يكنْ لهم شيءٌ سوى الماءِ والتّمْرِ، وكان ﷺ لا يجمعُ في بطنِه بين طعامين؛ إنْ أكلَ لحماً لمْ يَزِدْ عليه، وإنْ أكلَ تمراً لم يَزِدْ عليه، وإنْ أكَلَ خُبزاً لم يَزِدْ عليه.

ولم يَكُنْ له ﷺ إلّا ثوبٌ واحدٌ مِن قُطْنٍ، قَصيرُ الكُمّين، وكُمُّه إلى الرُّسْغِ، وطَوقُه مُطْلَقٌ مِن غَيرِ أَزْرَارٍ، وكانَ له جُبَّةٌ ضَيِّقَةُ الكُمَّينِ، وكانَ له رِدَاءٌ طولُه أربعةُ أَذْرُعٍ وعرْضُه ذِرَاعَان وشِبْرٌ مِنْ نَسْجِ عُمَان، وكانَ له بُرْدَةٌ يَمانِيّةٌ طولُها سِتّةُ أَذْرُعٍ في عُرْضِ ثلاثةِ أَذْرُع وشِبْرٍ، فكانَ يلبسهما في يوم الجمعة والعِيدين ثمّ يَطْوِيهما، وكان له رِدَاءٌ أَخْضَرُ طولُه أربعَةُ أَذْرُعٍ وعُرْضُه ذِرَاعَانِ وشِبْرٌ، وقد كانت له ﷺ عمامةٌ تُسَمَّى: السَّحَابُ، فكَسَاهَا عَليَّ بنَ أَبي طَالب كَرَّمَ الله وَجْهَه، وكانَ ﷺ إذَا اعْتَمَّ يُرْخِي عِمَامتَه بين كَتِفَيه، وكان يلبسُ القَلَنْسُوَةَ اللّاصِقَةَ بالرّأسِ، وكان يَلْبَسُ ذَاتَ الآذَانِ في الحرُوبِ، وكان ﷺ يَلْبَسُ القَلَانِسَ تحتَ العَمَائِمِ، ويَلْبَسُ القَلَانِسَ بغَيرِ عَمَائِم، ويَقُولُ: «فَرْقُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ المُشْرِكِينَ العَمَائِمُ عَلَى القَلَانِسِ»، وكانَ يَلبسُ السَّرَاوِيلَ.



بَابُ
ذِكْرِ مَرَضِهِ وَوَفَاتِه

عن أَبي مُوَيْهِبَةَ مَوِلى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال له في جَوفِ اللّيل: «إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأَهْلِ البَقِيع فَانْطَلِقْ مَعِي»، قال: فانطلقتُ معه، فلمّا وقف بين أظهُرِهم، قال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ المَقَابِرِ، لِيَهْنَ لَكُمْ مَا أَصْبَحْتُمْ فِيْهِ مِمّا أَصْبحَ النَّاسُ فِيهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمْ اللهُ مِنْهُ، أَقْبَلَتْ الفِتَنُ كَقِطَعِ اللّيْلِ المُظْلِمِ، يَتْبَعُ آخِرُهَا أَوَّلَها، وَالأَخِيْرَةُ شَرٌّ مِنَ الأُوْلَى»، ثُمّ أقبل عليَّ، فقال: «يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ هَلْ عَلِمْتَ أَنّي قَدْ أُوْتِيْتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدَّنْيَا وَالخَلْدَ فِيهَا، ثُمَّ الجَنَّةَ، وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي، فَاخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالجَنَّةَ» فقلتُ له: بأبي أنتَ وأمّي، فخُذْ مفاتيحَ خَزائنِ الأرضِ والخلْدَ فيها، ثمَّ الجنّةَ، فقال: «لَا، وَالله يا أبا مُوَيْهِبَةَ لَقَدْ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالجَنَّةَ»، وذهبَ بعد ذلك إلى قتلى أُحُدٍ فدعا لهم، ثم رجع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهله، فلمّا أصبح ابْتُدِئَ بِوَجَعِه من يومِه ذلك، ابتدَأهُ الصُّدَاعُ، فكان ذلك بدْءُ الوَجعِ الذي مات فيه.

وقالتْ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: لما رجعَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ البقيعِ وجَدَني وأنا أَجِدُ صُداعاً في رأسي، وأنا أقول: وارأْساه، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَلْ أَنا وَارَأْسَاهُ»، ثمّ قال: «وَمَا يَضُرُّكِ لَوْ مُتِّ قَبْلِي فَقُمْتُ عَلَيْكِ، وَكَفَّنْتُكِ وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ،

واسْتَغْفَرْتُ لَكِ ودَعَوتُ لَكِ»، فقلتُ: واثُكْلَاهُ، والله إنَّكَ لَتُحِبُّ موتي، فلو قد كانَ ذلك لظَلَلْتَ يومَك مُعَرِّساً ببعضِ أَزْوَاجِك، فتبَسَّمَ رَسُوْلُ الله ﷺ.

ولما ثَقُلَ به المرضُ قال ﷺ لعَائِشَةَ رضي الله عنها: «ادْعِي لِي أَبَاكِ أَبا بَكْرٍ، وَأَخَاكِ حتَّى أَكْتُبَ كِتَاباً، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ، أَوْ يَقُولَ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى الله وَالمؤْمِنُونَ إِلّا أَبَا بَكْرٍ»[1].

واجتمعَ عندَه ﷺ رِجالٌ، فقال ﷺ: «هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لَا تَضِلّوا بعْدَهُ»، فقال عمرُ رضي الله عنه: إنّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَدْ اشتدَّ عليه الوَجَعُ وعندَكم القرآنُ. وهو إنَّما قالَ ذلك تَخفِيفاً على رَسُوْلِ الله ﷺ، وارْتفعتْ أَصْوَاتُهم، فأمرَهُم بالخرُوجِ مِن عِنْدِه. فقال العبَّاسُ لِعَليٍّ رضي الله عنهما: لا أَرَى رَسُوْلَ الله ﷺ يَصِحُّ مِنْ مَرَضِه هذا بعدَ ثَلَاثٍ إلا مَيّتاً؛ فإنِّي أَعْرِفُ وجوهَ بني عبدِ المطّلب عند الموتِ، فارْجِعْ بنا إلى رَسُوْلِ الله ﷺ، فنَسْأَلُه فيمَن هذا الأمر؟، فإنْ كانَ فينا علِمْنَا ذلك، وإِنْ كانَ في غيرِنا كلّمْنَاه فَأَوصَى بِنَا، فقال عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه: والله لا أَسْأَلُ رَسُوْلَ الله ﷺ عن ذلك.

ثمَّ اشتدَّ برَسُوْلِ الله ﷺ المرَضُ، وصَارَ يدورُ على نِسَائِه مُثْقَلاً، وجعلَ يقولُ: «أَيْنَ أَنَا اليَومُ؟، وَأَيْنَ أَنَا غَداً»؟، فلمَّا كانَ عندَ مَيْمُونَةَ رضي الله عنها، دعَا ﷺ نساءَه فاسْتَأْذَنَهُنَّ أَنْ يُمَرَّضَ في بيتِ عَائشةَ رضي الله عنها وقال: «إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدُورَ بَيْنَكُنَّ فَإِنْ رَأَيْتُنَّ أَنْ تَأْذَنَّ لِي فَأَكُونَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ فَعَلْتُنَّ»، فأذِنَّ لهُ في ذلك، فخرجَ رَسُوْلُ الله ﷺ يَمْشِي بينَ عَلِيِّ بنِ أبي طَالِبٍ والفَضْلِ بنِ العَبَّاس رضي الله عنهما، مُعْتَمِداً عليهما، عاصِباً رَأسَه الشّريفَ تَخُطُّ قدمَاه الأرضَ حتّى

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه، في باب فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، برقم: (٢٣٨٧).




دخلَ بيت عَائشةَ.

ثُمّ قال رَسُوْلُ الله ﷺ وقد اشْتَدَّ به وجعُه: «هَرِيْقُوا عَلَيَّ مِنْ سِبْعِ قِرَبٍ مِنْ آبارٍ شَتَّى حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ فَأَعْهَدَ إِلَيْهِمْ»، فأَقْعَدَه أهلُه في إناءٍ كبيرٍ من حَجَرٍ، ثم صَبُّوا عليه الماءَ حتّى طفقَ يقول: «حَسْبُكُمْ حَسْبُكُمْ»، وكانَ صَبُّ تلك المياه لأنّ لها دَخْلاً في دفعِ ضَرَرِ السُّمِّ، وقال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الذِي أَكَلْتُه بِخَيْبَرَ، وَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ».

ثمَّ خرَجَ النّبيُّ ﷺ عاصِباً رأسَه الشّريفَ حتّى جلسَ على المنبرِ، فكانَ أوّلَ ما تكلمَّ بهِ أنْ صَلّى على أصْحَابِ أُحُدٍ ـ دعَا لهم ـ فأكثرَ الصَّلاةَ عليهم واستغفرَ لهم ثمَّ قالَ: «إِنَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِ الله خَيَّرَهُ الله بَيْنَ الدُّنْيا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فاخْتَارَ ذَلِكَ العَبْدُ مَا عِنْدَ الله»، ففَهِمَهَا أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه، وعرَف أنه يريد بذلك نفسَه، فبكى وقال: نفديكَ بأنفُسِنا وأبنائِنا، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَليَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيْلاً غيرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ ومَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ بَابٌ إِلَّا سُدَّ، إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ»[1]. ورُوِيَ أنه ﷺ لما أمر بسَدِّ الأبوابِ إلّا باب أبي بكرٍ، قال عمرُ: يا رَسُولَ الله دعني أَفتحْ كُوَّةً أنظرُ إليك حيثُ تخرجُ إلى الصّلاةِ، فقال رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَا»، وقال العبّاسُ بنُ عبدِ المطّلب:

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه برقم: (٣٦٥٤)، والإمام مسلم في صحيحه برقم: (٢٣٨٢)، وهذا الحديثُ حديثٌ صحيح جاء عن بضعة عشر صحابيا، ولكثرة طرقه عَدّوه من المتواتر.



يا رَسُولَ الله ، ما بالُكَ فتحتَ أبوابَ رِجالٍ في المسجد ، وسَدَدْتَ أبوابَ رِجالٍ ؟ ، فقال: «يَا عَبَّاسُ مَا فَتَحْتُ عَنْ أَمْرِي وَلَا سَدَدْتُ عَنْ أَمْرِي»[١] .

ثمَّ قالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ ، اسْتَوْصُوا بِالأَنْصَارِ خَيْراً ، إِنَّهُمْ كَانُواْ عَيْبَتِي التِي أَوَيْتُ إِلَيْهِمْ ، فَأَحْسِنُوا إِلَى مُحْسِنِهِمْ ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ» ، ثمَّ قال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً فَلْيَقُمْ أَدْعُ اللهَ لَهُ» ، فقامَ إليه رجلٌ ، فقال: يا رسُولَ الله ، إِنِّي لمُنافِقٌ ، وإِنِّي لَكَذُوبٌ ، وإِنِّي لنَؤُومٌ ، فقال له عمرُ بنُ الخطّاب رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه: وَيْحَكَ أيُّها الرّجلُ لقد سَترَكَ اللهُ لو سَتَرْتَ على نَفْسِك. فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا بْنَ الخَطَّابِ ، فُضُوحُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ فُضُوحِ الآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ صِدْقاً وَإِيمَاناً ، وَأَذْهِبْ عَنْهُ النَّوْمَ إِذَا شَاءَ» ، ثمَّ نزلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ المنبرِ ودخَلَ بيتَه.

ولما حضرت صَلَاةُ العِشَاء أذّنَ بلالٌ ، فقال رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ[٢]» ، فاغْتَسلَ فِيهِ ، ثمَّ أرادَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنْ يقومَ فأغْمِيَ عليه ، ثمَّ أفاقَ ، فقال: «أَصَلَّى النَّاسُ» ؟ ، فقالوا: لَا ، وهُمْ يَنْتَظِرُونَك ، فاغْتَسَلَ ، ثمَّ لما أرَادَ أنْ يخرجَ أُغْمِيَ عليه ، ثمَّ أفاقَ ، فقال «أَصَلَّى النَّاسُ» ؟ ، فقالوا: لَا ، وهم يَنْتَظِرُونَك يا رَسُولَ الله ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ» ، فَقَالَتْ

---

(١) أخذَ بعضُ العلماءِ الإشَارةَ النبَويّةَ إلى خلافةِ أبي بكرٍ الصّديق رَضِيَ اللهُ تعالى عنه من هذا الحديث ؛ فقالوا: أبقاه ؛ لأنه يحتاج إلى بقاء بابه ليخرجَ منه للصَّلاة بالمسلمين بعد النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم .

(٢) المِخْضَبُ: إناءٌ كبيرٌ شِبهُ الإجَّانةِ ، يُغْسَلُ فيه الثِّيابُ. وكان له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِخْضَبَان: أحدهما من حجر ، وهو الذي اغتسل فيه لما خرجَ للخطبة التي قيل: إنّها آخرُ خطبةٍ ، والآخرُ من نُحَاس وهو هذا.



عائشةُ: يا رَسُوْلَ الله، إنَّه رَجُلٌ رقِيقُ القَلبِ إذا قامَ مقامَك لم يَسْتَطِعْ أَنْ يُصلِّيَ بالنَّاسِ، فقال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ»، فعَاوَدَتْهُ، فقال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ»، فَقَالَتْ لحَفْصَةَ: قولي له: إنّ أبا بكرٍ إذا قامَ مقامَك لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ البُكَاءِ، فمُرْ عمرَ فَلْيُصَلِّ بالنّاسِ. فَقَالَتْ حَفْصَةُ له ذلك، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهْ؛ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ، فَإِنّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسَفَ»[1].

فأقبلَ بلالٌ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه وهو يَبْكِي، فقال له المسلمون: ما وراءَك يا بلال؟، فقال لهم: إنّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يستطيعُ الصَّلاةَ خارِجاً، فبكوا بكاءً شديداً، ثم قال لأبي بكرٍ: إنَّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرُكَ أَنْ تُصلِّيَ بالنّاسِ، فصَلّى بالنَّاسِ.

ولما رَأى المسلمونَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهم أنَّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ازْدَادَ وَجَعاً أطافوا بالمسْجدِ، وأَشْفَقُوا مِن مَوتِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدخَلَ عليه الفَضْلُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فأخبرَه بذلك، ثمّ دخلَ عليه عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه وأخبرَه بذلك، ثمَّ دَخَلَ عليه العَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه فأخبره بذلك، فخرجَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَكِّئاً على عَليٍّ والفَضْلِ والعَبَّاسُ أمَامَه، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْصُوبُ الرّأسِ يَخُطُّ برِجْلَيهِ الأَرضَ حتى إذا انتهى إلى المنبرِ، فجلسَ على أسفلِ مِرْقَاةٍ منه، وثارَ النّاسُ إليه، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، وقال: «أيُّها النَّاسُ، بَلَغَنِي أَنّكُمْ تَخافُونَ مِنْ

---

(١) رواه البخاري برقم: (٦٧٨)، ومسلم برقم: (٤٢٠). وهذا الحديث متواتر. وروى البخاري أيضاً برقم: (٤٤٤٥)، عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها، قالت: (راجعتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في ذلك وما حملني على كثرةِ مُراجعته إلا أنه لم يقعْ في قلبي أنْ يحبَّ الناسُ بعدَه رجُلاً قامَ مقامَه أبداً، كنتُ أرَى أنه لن يقومَ أَحَدٌ مقامَه إلا تشاءمَ الناسُ به، فلذلك أردتُ أنْ يَعْدِلَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أبي بكرٍ).

مَوتِ نَبِيِّكُمْ، هَلْ خُلِّدَ نبيٌّ قَبْلي فِيمَنْ بُعِثَ إِلَيْهِم فَأُخَلَّدَ فِيكُم؟، أَلَا وَإِنِّي لَاحِقٌ بِرَبِّي، وَإِنَّكُمْ لَاحِقُونَ بِهِ، فَأُوصِيكُمْ بِالمُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ خَيْراً، وَأُوصِي المُهَاجِرِينَ فِيمَا بَيْنَهُم بخيرٍ، فَإِنّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، وَإِنَّ الأُمُورَ تَجْرِي بِإِذْنِ اللهِ، فَلَا يَحْمِلَكُمْ اسْتِبْطَاءُ أَمْرٍ عَلَى اسْتِعْجَالِهِ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ لَا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدٍ، وَمَنْ غَالَبَ اللهَ غَلَبَهُ، وَمَنْ خَادَعَ اللهَ خَدَعَهُ، وَأُوصِيكُمْ بِالأَنصَارِ خَيراً، فَإِنَّهُم الذِينَ تَبَوَّؤا الدَّارَ وَالإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَاحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، أَلَمْ يُشَاطِرُوكُم في الثِّمَارِ؟، أَلَم يُوَسِّعُوا لَكُم فِي الدِّيَارِ؟، أَلَم يُؤْثِرُوكُم عَلَى أَنْفُسِهِم وَبِهِم الخصَاصَة؟، أَلَا فَمَنْ وُلِّيَ أَنْ يَحكُمَ بينَ رَجُلَينِ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِم، وَلْيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَلَا تَسْتَأْثِرُوا عَلَيهِم، أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُمْ وَأَنْتُمْ لَاحِقُونَ بِي، أَلَا وَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الحَوضُ، أَلَا فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَرِدَهُ عَلَيَّ غداً فَلْيَكْفُفْ يَدَهُ وَلِسَانَهُ إِلَّا فِيمَا يَنْبَغِي، وَإِنَّ الذُّنُوبَ تُغَيِّرُ النِّعَمَ، فَإِذَا بَرَّ النَّاسُ بَرَّتْهُم أَئِمَّتُهُمْ، وَإِذَا فَجَرَ النَّاسُ عَقَّ أَئِمَّتُهُم».

ثُمَّ انْصَرَفَ النّبيُّ ﷺ إِلَى بيتِهِ، ولَازَالَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْه يُصَلِّي بالنَّاسِ مِنْ تلك اللّيلةِ، حتى صَلَّى بهم في حَيَاةِ النّبيِّ ﷺ سبعَ عشرة صَلاة، وخَفَّ مَرضُ النّبيِّ ﷺ يوماً، فخرجَ وصَلّى مُؤْتَمّاً بأبي بكرٍ في الرّكعةِ الثانية من صَلاةِ الصّبح، ثُمّ قضى الرّكعةَ الأُخرَى مُنْفَرِداً، وقالَ ﷺ: «لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتّى يَؤُمَّهُ رَجُلٌ مِنْ قَومِهِ».

ورُوِيَ عَن عائشةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْها: أَنّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ وَجَدَ خِفَّةً

وأبو بكرٍ في صَلاةِ الظّهرِ، فخرَجَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ العبَّاسِ وعليٍّ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهُما، فلما رآه أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه ذَهَبَ لِيتأخّرَ، فَأوماَ إليه أنْ لا يتأخّر، وأمرَهُما فأجلسَاه إلى جنبِ أبي بكرٍ عَن يسَارِه، فجعلَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه يُصَلِّي قائماً كبقِيّةِ الصَّحابةِ، ورَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي قاعداً. وقد قِيلَ: أَنَّ أبا بكرٍ كَان يُصلِّي مُقْتَدِياً بصَلاةِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنَّاس يقتدونَ بصَلاةِ أبي بكرٍ في هذِه الصَّلاة.

وقالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مَرضَهِ ذلك يوماً لعبدِ الله بن زَمْعَةَ بن الأسود: «مُرِ النَّاسَ فَلْيُصَلُّوا»، وكان ذلك في صلاةِ الصَّبحِ، وكانَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد تَأخّرَ، فلمَّا استبطأهُ عبدُ الله بنُ زَمْعَةَ قَدَّمَ عُمرَ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه يُصَلِّي بالنّاسِ، فلمَّا سَمِعَ رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوتَ عمرَ أخرَجَ رَأسَهُ الشَّريفَ من الكُوَّةِ حتّى أطْلَعَهُ للنَّاسِ، ثمَّ قالَ: «لَا لَا، لِيُصَلِّ بِهِمْ ابنُ أَبِي قُحافَةَ»، فانْتَقَضَتْ الصُّفُوفُ، وانصرَفَ عمرُ مِنَ الصَّلاةِ، فمَا برِحَ القَومُ حتّى طلعَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فتقدَّمَ وصَلَّى بالنّاسِ الصُّبحَ.

وقال عمرُ بنُ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه لعبدِ الله بنِ زَمْعَةَ: ويحكَ يا بنَ زَمْعَةَ، ماذَا صنَعْتَ؟، والله ما ظننتُ حينَ أمرْتَني إلّا أنَّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَكَ بهذا، فقال له عبدُ الله بنُ زَمْعَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما أمرَني رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، ولكنّي لم أَرَ أبا بكرٍ، ورأيتُك أحقّ مَن حضرَ بالصَّلاةِ، فقدَّمْتُك.

وفي آخِرِ يوم مِن حياةِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخرَجَ رأسَه مِنَ السِّتَارةِ، والنَّاسُ خلفَ أبي بكر، فأرَادَ النّاسُ أَنْ ينحرِفُوا فأشارَ إليهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنِ

امْكُثُوا، وتَبسَّمَ رَسُوْلُ الله ﷺ لِمَا رَأى مِنْ هَيئَةِ المُسْلِمِينَ في صَلاتِهم؛ سرُوراً منه ﷺ بذلِك، ثمَّ ألقى السِّتارةَ، وكان ذلك يومُ الاثنين، يوم موتِه ﷺ. وقد كادَ المسلمون يفتَتِنُونَ في صلاتِهم برَسُوْلِ الله ﷺ حين رَأوهُ فرحاً به، وانصَرَفوا مِنَ الصَّلاةِ وهُمْ يَرونَ أنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَدْ أفاقَ مِن وَجَعِه، فتفرّقَ الناسُ إلى أشغَالِهم، وقد كانوا ملازمينَ المسجدَ إشفاقاً منهم على رسُولِ الله ﷺ، ورجعَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه إلى أهلِه بالسَّنْحِ، وانْقَلَبَتْ كُلُّ امرأةٍ من نِسَائِه ﷺ إلى بَيتِها، فمَا أنْ انصَرَفْنَ حتّى عاوَدَهُ وجَعُه.

فلمَّا ارتَفعَ الضُّحَى اشْتَدَّ عليه ﷺ وجعُه، فرجعَ إليه مَن كان ذهبَ مِنْ نِسَائِه، وأخذَ في الموتِ، فصَارَ يُغْمَى عليه ثُمَّ يُفِيقُ، ويشْخَصُ بَصَرُه إلى السَّمَاءِ، فيقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»، وكان عنده ﷺ قدَحٌ فيه ماءٌ، فصارَ يُدخِلُ يدَهُ الشّرِيفَةَ في القدَحِ ثمّ يمسحُ وجهَه الشّريفَ بالماءِ، ويقول: «لَا إِلَهَ إلّا الله، إنَّ لِلْمَوتِ لَسَكَرَاتٍ، اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ المَوتِ»، وجعلَ الكرْبُ يغشَاهُ، فَقَالَتْ فاطمةُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْها: وَا كَرْبَ أَبَتَاهُ، فقالَ لها رَسُوْلُ الله ﷺ: «لَيْسَ عَلَى أَبِيْكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَومِ»، ثمّ قال ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ أَشَدُّ بَلاءً مِنَ الأَنْبِيَاءِ، إنْ كَانَ النَّبِيُّ مِنْ أَنْبِيَاءِ الله تَعالَى لَيُسَلَّطُ عَلَيهِ القَمْلُ حَتّى يَقْتُلَه، وإنْ كَانَ النَّبِيُّ مِنْ أَنْبِيَاءِ الله تَعالَى لَيَعْرَى حَتَّى مَا يَجِدُ ثَوْباً يُوَارِي بِهِ عَوْرَتَهُ إلّا عَبَاءَةً يَدَّرِعُهَا، وَإِنْ كَانُوا لَيَفْرَحُونَ بِالبَلَاءِ كَمَا تَفْرَحُونَ بِالرَّخَاءِ».

ودخلَ عليه عبدُ الرَّحمن بنُ أبي بكرٍ رضي الله عنهما ومَعهُ سِوَاكٌ يَسْتَنُّ به. قالتْ

عائِشَةُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْها: فنظَرَ إليه رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فعَرَفْتُ أنّه يُرِيدُه لأنه كانَ يحبُّ السّواكَ ، فقلتُ: آخذُه لكَ؟ ، فأشارَ برأسِه أَنْ نعم ، فتناولْتُه فقَضَمْتُه ، ثمَّ نَاوَلْتُه إيّاه فاشْتدَّ عليه ، فقلتُ: أُلَيِّنُه لك؟ ، فأشارَ برأسِه؛ نَعَم ، فلَيَّنْتُه وأعطَيته رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فاسْتنَّ به وهو مُسْتَنِدٌ إلى صَدْرِي ، وكان مِن نِعَمِ الله عليَّ أَنَّ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُوفّيَ وهو في بيتي وبينَ سَحْرَي ونَحْرِي ، وأَنَّ اللهَ جمعَ بين رِيقي ورِيقه عند وفاتِه.

وأعتقَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضِه هذا أربعين نفساً ، وكانتْ عنده سبعةُ دنانير ، فوضعَها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كَفِّه ثم قالَ: «مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ الله وَهَذِهِ عِنْدَهُ»؟ ، ثمَّ أمرَ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنْ تتصدقَ بها ، فتَصَدَّقتْ بها.

وجاءَ إلى رسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بصُحْبَةِ مَلَكِ الموتِ ، وقال له: يا محمَّدُ إنّ الله أرْسَلني إليك تكريماً لكَ وتشريفاً ، ويسألُك عمّا هو أَعْلمُ به منك ، فيقول لك: كيفَ تَجدُك؟ ، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجِدُنِي يَا جِبْرِيلُ مَغْمُوماً وَأَجِدُني مَكْرُوباً» ، فقال جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هذا مَلَكُ الموتِ يستأذنُ عليك ، وما اسْتَأْذَنَ على أَحَدٍ قبلَك ، ولا يَسْتأذِنُ على آدميٍّ بعدَك ، أَتَاذَنُ له؟ ، فأَذِنَ له النّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فدَخَلَ فسَلَّمَ عليه ، ثمَّ قالَ: يا محمَّدُ ، إنَّ اللهَ أَرْسَلنِي إليك ، فإنْ أمرْتَني أَنْ أَقْبِضَ روحَك قبَضْتُ ، وإنْ أَمرْتَني أَنْ أَتْرُكَه ترَكْتُ ، فقال: «أَوَ تَفْعَلُ»؟ ، قال: نَعَمْ؛ وبذلك أُمِرْتُ ، فنظرَ النّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فقال له: يا محمّدُ إنَّ اللهَ قَدِ اشتَاقَ إِلَى لِقَائِكَ ، فقالَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لملَكِ الموتِ: «امْضِ لِمَا أُمِرتَ بِهِ» فَأَخَذَ في قبضَ رُوحِه الشّريفةِ.

وعند اشتِدَادِ الأمرِ به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسَلَتْ عائشةُ خلْفَ أبي بكر رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْهما، وأَرْسَلَتْ حَفصَةُ خلف عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وأَرْسَلَتْ فاطمةُ خلفَ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فلمْ يَجِئْ أَحَدٌ منهم حتى تُوفِّيَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في صَدْرِ عَائِشَةَ، وذلك يوم الاثنين عند اشْتِدَادِ الضُّحَى، لثلاثَ عَشْرَة ليلة خلَتْ مِنْ شهْرِ ربيع الأوَّل، وكانتْ مُدَّةُ شَكْوَاه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعَ عشرة ليلة، وآخرُ ما تكلَّم به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ قال: «الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، حتى جعلَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَرَغْرَغُ بها في صَدْرِه ولا يفيضُ بها لِسَانُه، وآخرُ ما عَهِدَ به رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ قال: «لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ دِينَانِ».

وقالتْ فاطِمةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لما تُوفِّيَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَا أَبتَاهُ أَجابَ رَبّاً دَعاهُ، يا أَبتَاهُ جَنَّةُ الفِرْدَوسِ مَأْوَاهُ، يا أبتَاهُ إلى جِبْرِيل نَنْعَاه. قالتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كانَ مِنْ سَفَاهَةِ رَأيي وحَدَاثَةِ سِنِّي أَنِّي أَخَذْتُ وِسَادَةً فوَسَّدتُ بِهَا رَأْسَهُ الشَّرِيفَ مِنْ حِجْرِي، ثُمَّ قُمْتُ مَعَ النِّسَاءِ أَبْكِي وأَلْتَدِمُ. وسَمِعُوا قائلاً لا يَرَون شخصَه ويُقَالُ إنّه الخضرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقولُ: السَّلامُ عليكُم يا أهلَ البَيتِ ورَحمةُ الله وبرَكاتُه، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، إنَّ في الله تعالى عَزَاءً مِن كلّ مُصيبةٍ، وخَلَفاً عَنْ كُلِّ هَالِكٍ، ودَرَكاً مِنْ كُلِّ فَائِتٍ، فبالله فثِقُوا، وإِيَّاهُ فَارْجُوا، فإِنَّ المُصَابَ مَنْ حُرِمَ الثَّوَابَ.

وَقَدْ كَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ إليهِ من الرِّجَالِ عمُّه العبَّاسُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه، فأَدرَكَه وهو يُحْتَضَرُ فلمَّا تُوفِّيَ رَسُوْلُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسُجِّيَ بِبُرْدٍ من بُرُودِ اليَمَنِ، خرجَ العبّاسُ إلى النّاسِ فنعَى رَسُوْلَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فَدُهِشُوا وطَاشَتْ

عقولُهم، واخْتَلَفَتْ أحوالُهم: فأمَّا عُمرُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه فخُبِلَ، وطاشَ عقْلُه، وجعلَ يقولُ: واللهِ ما مَاتَ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يَموتُ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنَّه ذهبَ إلَى رَبِّه كمَا ذَهبَ مُوسى بنُ عِمْرانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمَّ رَجَعَ إلى قومِه، ووَاللهِ لَيَرْجِعَنَّ رَسُوْلُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كمَا رَجَعَ مُوسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولَيَقْطَعَنَّ أَيدِي رِجَالٍ وأَرْجُلَهم، ولَا زَالَ يَتوَعَّدُ بضَرْبِ عُنُقِ كُلِّ مَن يَقول: أنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ، ويصيحُ بذَلِك حتَّى أَزْبَدَ شِدْقَاهُ، وأَمَّا عُثمانُ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه فأُخْرِسَ، ولم يَسْتَطع أن يتكلّم، وأمَّا عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَه فأُقْعِدَ، ولم يستَطعْ أَنْ يَتَحَرَّكَ.

ثمّ جَاءَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ تَعالَى عَنْه وعيناهُ تهْمُلَانِ بالدُّمُوعِ، فدخَلَ فقبَّلَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينَ عَينَيهِ، وقال: بأَبِي أنتَ وأُمِّي يا رَسُولَ اللهِ، طِبْتَ حيّاً ومَيّتاً. ثمَّ خرَجَ إلى المسجدِ والمسلمونَ فيه يبكونَ، فصعَدَ المنبرَ، وتكَلَّمَ كلاماً بَلِيغاً، سَكَّنَ به نفوسَهم وثبَّتَ جَأْشَهُم، فقال: أيّها النَّاسُ، مَن كانَ يَعْبدُ محمَّداً فإنَّ محمّداً قد ماتَ، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، صَلَوَاتُ اللهِ وسلامُه على رسُولِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعندَ اللهِ نَحْتَسِبُ رَسُولَه، وقد قالَ اللهُ تَعالَى لمحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. وقد كانَ عمرُ قائِماً في ناحيةِ المسجدِ، فجَعَل يقُول: هذِه الآيةُ في القرآنِ؟!، لَكأنّي لم أَسْمَعْ بها في كتابِ اللهِ تعالى إلّا الآنَ.

ولما تَحقَّقَ مَوتُ النّبيِّ ﷺ، اجتمعَ غَالِبُ المُهَاجرين علَى أبي بكرٍ وعُمَرَ، وتَخلّفَ عَلِيٌّ والزُّبيرُ والعَبَّاسُ وطلْحَةُ بنُ عُبيدِ الله والمقْدَادُ، وجمعٌ مِن بني هاشم في بيتِ فاطمةَ رَضِيَ اللهُ تعَالَى عَنْها، وتخلَّفَ الأَنصَارُ بأجمَعِهم، فاجتمَعُوا في سَقِيفَةِ بني سَاعِدَة، وفي دارِ سَعدِ بن عُبادةَ، وكانَ مَريضاً مُزَّمّلاً بثيابِه بينَهم، فجاءَ رجلٌ إلى أبي بكرٍ وعُمرَ فقال لهما: إنَّ هذا الحيَّ مِنَ الأنصارِ معَ سَعْدِ بنِ عُبادةَ في سَقِيفَةِ بني سَاعِدَة قَدِ انْحَازوا إليه، فإنْ كانَ لكم اهتِمَامٌ بِأمرِ النّاسِ فأدْرِكُوهم قبلَ أنْ يَتَفَاقَمَ أمرُهم. فقال عمرُ لأبي بكرٍ رضي الله عنهما: انطلقْ بنا إلى إخوانِنا من الأنصارِ، قبلَ أنْ يُحدِثُوا أمراً يكونُ فيه تحَزُّبٌ.

قال عمرُ رضي الله عنه: فانطلَقْنا حتّى جِئْناهُم في سَقِيفَةِ بني سَاعِدَة، فإذا هُمْ مجتمعونَ، وإذا بين أَظْهُرِهم رجُلٌ مُزَّمِّلٌ فقلتُ: مَن هذا؟، قالوا: سَعْدُ بنُ عُبادةَ، فقلتُ: ما له؟، قالوا: إنه وَجِعٌ، فلمَّا جلَسْنا، قامَ خَطِيبُهم فأَثنَى على الله بمَا هوَ أهلُه، ثمَّ قال: أما بعدُ: فنَحْنُ أنصارُ الله وكَتِيبَةُ الإسلام، وأنتُم يا مَعْشَرَ المهاجرين رَهْطٌ مِنَّا، وقدْ دَبَّ قومٌ بالاسْتِعْلَاءِ والتَّرفُّعِ علينا، تُريدونَ أَنْ تختزلونَا مِن أهلِنا، وتَسْتَبِدُّوا بالأمْرِ دُونَنا، فلمَّا سكتَ أَرَدْتُ أنْ أتكلَّمَ، فقال أبو بكرٍ: على رِسْلِكَ يا عمرُ، فكَرِهْتُ أنْ أُغْضِبَهُ فسَكَتُّ، وكانَ أعلمَ منِّي والله ما ترَكَ مِنْ كلِمَةٍ أَعْجَبَتْني إلَّا قالَها في بَدِيهَتِه وأَفضَل، فقال: أمَّا بعدُ، فمَا ذكرتُم مِن خَيرٍ فأنتُم له أهلٌ، ولَنْ تَعْرِفَ العرَبُ هذا الأمرَ إلا لهذا الحيِّ مِن قريشٍ، وهُم أوسَطُ العَرَبِ نسَباً ودَاراً، وَلدَتْنَا العَرَبُ كلُّها فليسَ منها قبيلة إلا ولقريشٍ منها ولادَةٌ ودَارٌ، وكنّا معاشر المهاجرين أوّلَ النّاسِ إسلاماً، ونحنُ عشيرتُه ﷺ وأقارِبُه وذوو رَحِمِه.

ولم يتركْ أبو بكرٍ شَيئاً أُنْزِلَ في الكِتَابِ، ولا شيئاً قالَه رَسُوْلُ الله ﷺ في شَأْنِ الأنصارِ إلا ذكَرَه، ثمَّ قالَ: ولقَدْ علمتَ يا سَعْدُ أنّ رَسُوْلَ الله ﷺ قالَ وأنتَ قاعدٌ: «قُرَيْشٌ وُلَاةُ هَذَا الأَمْرِ»، فقال سَعْدٌ رضي الله عنه: صَدَقتَ، فقال له الصِّدِّيقُ: وأنتُم يا معشرَ الأنصار إخوانُنا في كتابِ الله، وشركاؤُنا في الدِّينِ، وأنتُم أحَقُّ بالرِّضَا بقضَاءِ الله، وقد رَضِيتُ لكم أَحَدَ هذين الرّجلين أيّهما شئْتُم. وأخذَ بيدِي ويَدِ أبي عُبيدةَ بنِ الجرَّاح، فلَمْ أكرَه شَيئاً ممَّا قاله غيرَها، والله لأَنْ أُقَدَّمَ فتُضْرَبَ عنُقي ولا يقربُني ذلك مِنْ إِثْمٍ، أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أتأمّرَ على قومٍ فيهم أبو بكرٍ، فلمَّا قال لأبي عُبَيدة: إنّكَ أمينُ هذه الأمَّةِ على لِسَانِ رَسُوْلِ الله ﷺ، قال له أبو عُبَيدة: مَا رَأيتُ بك ضَعْفَ رَأْيٍ قبل هذا مُنْذُ أسلَمْتُ، أَلسْتَ الصّديقُ وثَاني اثنين؟، فقال لي أبو بكرٍ: ابْسُطْ يدَكَ لأُبايِعَك، فقلتُ له: أنتَ أفضَلُ منّي، فقال: أنتَ أقوَى منِّي ثمّ كرَّرَ ذلك، فقلتُ: فأينَ قوَّتي معَ فضْلِك؟.

ثُمَّ قامَ الحُبَابُ بنُ المُنْذِرِ الأنصَاري رضي الله عنه، فقال: منّا أمِيرٌ ومنكُم أميرٌ يا معشرَ المهاجرين، فإنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ كانَ إذا استعمل الرّجُلَ منكم قرَنَ معه رَجُلاً منَّا، فنرَى أَنْ يَلِيَ هذا الأَمرَ رُجلانِ منّا ومنكم، فقامَ زَيدُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه، فقال للأنصَارِ: أتعلمونَ أنَّ رَسُوْلَ الله ﷺ كانَ مِنَ المهاجرينِ وكنَّا نحنُ أنصَارُه، فنحنُ أنصَارُ خَلِيفَتِه كمَا كنَّا أنصارُه، ثمَّ أخذَ بيدِ أبي بكرٍ رضي الله عنه وقال: هذا صاحِبُكم. فقال الحُبُابُ بنُ المنذر: يا معشرَ الأنصَارِ، لا تسمعوا مَقَالتَه فيَذْهَبَ نصيبُكم مِن هذا الأمر. فقامَ بشِيرُ بنُ سَعْدٍ رضي الله عنه فقال: يا معشرَ الأنصار، إنّا كُنّا أوّلَ مَن سبَقَ إلى هذا الدين وجِهَادِ المشركين، ما قَصَدْنَا إلّا



رِضَا الله ورَسُولِه ، فلا ينبغي لنا أَنْ نَسْتَطِيلَ على النّاس ، ولا نطلُبَ عَرَضَ الدُّنيا ، وإِنَّ قُرَيشاً أَوْلى بهذا الأمرِ فلا نُنَازِعُهم.

قال عمرُ ﵁: ولمّا كثُر اللَّغَطُ وارتفعَتِ الأصواتُ خَشيتُ الاختلافَ ، فقلتُ: يا معشرَ الأنصارِ ، ألسْتُم تعلمونَ أَنّ رَسُوْلَ الله ﷺ قَدْ أمَرَ أبا بكرٍ يَؤُمَّ النّاسَ ؟ وأيكُمْ تطِيبُ نفسُه أَنْ يتقدّمَ أبا بكرٍ وأَنْ يُقِيمَه عَن مقَامِه الذي أقامَه فيه رَسُوْلُ الله ﷺ ؟! ، فقالَ معظَمُ الأنصَارِ: نعوذُ بالله أَنْ نَتقَدَّمَ أبا بكرٍ ، ولا تطيبُ أنفُسُنَا. فقلتُ: إِنَّ سَيْفَينِ في غِمْدٍ وَاحِدٍ لا يكُونَانِ ، وقلتُ: ابسُطْ يدَكَ يا أبا بكرٍ ، فبَسَطَ يدَه فبايَعْتُه ، ثمَّ قال له كذلك زيدُ بنُ ثابتٍ ، وأسيدُ بنُ حُضَيرٍ ، وبَشِيرُ بنُ سَعْدٍ ، وسَعْدُ بنُ عُبادَةَ ﵃ ، فبايعوه ، ثُمّ بايعَه سائرُ المهَاجرينَ والأنصارِ ﵃. قال عمرُ ﵁: وإنّما بادَرْتُ إلى مُبايَعَةِ أبي بكرٍ خشيةَ إِنْ فارَقْنا القَومَ ولم تكُنْ بيعةٌ أَنْ يحدِثُوا بعدنا بَيعَةً ، فإِمَّا أَنْ نُبايِعَهم بعدَ ذلك على ما لا نَرْضَى ، وإِمَّا أَنْ نُخالفَهم فيكون فيه فسَادٌ.

وكانتْ هذه البيعةُ في يومِ مَوتِ رَسُوْلِ الله ﷺ وهو يومُ الاثنين ، فلمَّا كانَ الغدُ كانتِ البَيعةُ العَامَّةُ ، صَعدَ أبو بكرٍ ﵁ المنبرَ ، وقامَ عمرُ ﵁ بين يدَيه ، فحَمِدَ الله وأثنى عليه ، ثمَّ قال: إِنّ الله قدْ جمَعَ أمرَكم على خَيرِكم ، صَاحبِ رَسُوْلِ الله ﷺ ، وثاني اثنين إذْ هُما في الغَارِ ، فقوموا فبَايِعُوه. فقامَ النَّاسُ فبَايَعوه بيعةً عَامّةً بعدَ بَيعَةِ السَّقِيفةِ ، وخَطَبَ أبو بكرٍ ﵁ فقال في خُطْبته بعد أَنْ حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه: أيّها الناس ، إِنِّي قدْ وُلِّيتُ عليكُم وَلَسْتُ بِخَيرِكُم ، فَإِنْ أَحْسَنتُ فأعينُوني ، وَإِنْ أَسَأْتُ فقوِّمُوني ، الصِّدقُ أَمَانَةٌ ، والكَذِبُ خِيَانَةٌ ، والضَّعِيفُ فيكم قَوِيٌّ حتّى أَرُدَّ عليه حَقَّهُ إِنْ شَاءَ الله ، والقَوِيُّ فيكم

ضَعِيفٌ حتّى آخُذَ الحقَّ منه إنْ شاءَ الله، لا يَدَعُ قَومٌ الجِهَادَ في سَبيلِ الله إلّا ضَرَبَهم الله بالذّلِّ، ولا أُشِيعَتْ الفَاحِشَةُ في قومٍ قَطّ إلا عَمَّهُم الله بالبَلاءِ، أَطِيعُوني مَا أَطَعْتُ اللهَ ورَسُولَه، فإذَا عصَيتُ اللهَ ورسولَه فلا طاعَةَ لي عليكم. ونزلَ مِن المنبر(١).

ثمّ أقبلوا على جهَازِ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختَلفُوا هلْ يُغْسَل في ثيابِه، أو يُجَرَّدُ منها كمَا تُجَرَّدُ الموتى، فألقَى الله تعالى عليهم النَّومَ وسَمِعُوا مِن نَاحِيَةِ البيتِ قائلاً يقول: لا تغسِلُوه فإنّه كانَ طَاهِراً. فقال أهلُ البيتِ: صَدَقَ فَلَا تغْسِلُوهُ، فقالَ العبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لا نَدعُ سُنّةً لصَوتٍ لا ندري ما هو، فغَشِيَهم النّعاسُ ثانيةً، فنادَاهم مُنادٍ: أَنْ غَسِّلُوهُ وعليه ثيابُه، فإنَّ ذاكَ إبليسُ وأَنا الخَضِر. فقَامُوا الى رَسُوْلِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فغَسَلوهُ وعليه قميصُه، وجعلوا يصُبُّون عليه الماءَ ويَدْلُكُونَه والقميصُ دونَ أيدِيهم، وكان الذي تَوَلّى غسْلَه عليُّ بنُ أبي طَالِب

(١) وقد ذكَرَتْ بعضُ كُتُبِ التاريخ والتراجم: أنّ أبا بَكرٍ الصِّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خرج بعد ذلك، في يوم الجمعة، فصَعدَ المنبر، وخطَبَ، فقال: والله ما كُنْتُ حَرِيصاً على الإمارةِ يوماً ولا ليلةً قطّ، ولا كنتُ رَاغِباً فيها، ولا سألتُها اللهَ في سِرٍّ ولا عَلانيّة، ولكنّي أشفقتُ من الفِتْنةِ، وما لي في الإمارةِ مِن رَاحَةٍ، ولقد قُلِّدتُ أمراً عظيماً مَا لي به مِن طاقةٍ ولا يَدٍ إلا بتَقْوِيَةِ الله. ثمَّ نظرَ في وجوه القوم، وفيهم عليُّ بنُ أبي طالب كَرَّمَ الله وَجْهَه، والنّفرُ الذين كانوا تخَلّفوا عنه، فقال له: ما خلّفك يا عليُّ عَن أمرِ النّاس؟، هل أَرَدْتَ أَنْ تَشُقَّ عَصَا المسلمين؟، فقال له: خلّفنِي عظيمُ المَعْتَبَةِ، ورأيناكم استَقَلَّيتُم برأيكم. فاعتذرَ إليه أبو بكرٍ بخَوفِ الفتنةِ لو تَأخّرَ، ثمّ أقبلَ على الناسِ فقال: أيّها الناسُ هذا عليُّ بنُ أبي طالبٍ لا بَيعَةَ لي في عُنُقِه، وهو بالخيارِ مِن أمْرِه، وأنتُم جميعاً بالخيار في بيعتِكم، فإن رأيتُم لها غيري فأنا أوّلُ مَن يبايِعُه، فلمَّا سَمِعَ عَليٌّ بذلك زَالَ ما كانَ قد دَاخَلَه، فقال: أَجَلْ لا نَرَى لها غيرَك، اُمْدُدْ يَدَكَ. فبايعَه هوَ والنّفرُ الذين كانوا معه. فأقبلَ النّاسُ على عَلِيٍّ، وقالوا: أَصَبْتَ وأَحْسَنْتَ. وفي ذِكرِ هذا بيانٌ لمقام الصّحابة، ودلالةٌ على أنّ البيعةَ لم تكُنْ فلتةً ولا أَثَرَةً.

ومعَه عمُّه العباسُ وولَداه الفَضْلُ وَقُثَمُ رضي الله عنهم، وكانَ غسْلُه في محلّ مَسْتورٍ لم يَدْخُلْه أَحَدٌ غيرهم، وكان أُسامَةُ بن زيدٍ رضي الله عنهما يناولهم الماءَ من وراءِ السِّترِ، وكان الماءُ الذي غُسِّلَ منه صلى الله عليه وسلم مِن ماءِ بئرِ غَرْسٍ، وهيَ بئرٌ بقُبَاء، قال فيها صلى الله عليه وسلم: «نِعْمَ البِئْرُ بِئْرُ غَرْسٍ، هِيَ مِنْ عُيُونِ الجَنَّةِ وَمَاؤُهَا أَطْيَبُ المَاءِ»، وقد كان صلى الله عليه وسلم يُؤْتَى له بالماءِ منها في حياتِه يشرَبُ منها، وغُسِلَ صلى الله عليه وسلم ثلاثَ غسَلاتٍ: واحِدَةٌ بالماءِ القُراح، وواحِدَةٌ بالماءِ والسِّدْرِ، ووَاحِدَةٌ بالماءِ معَ الكافُورِ، ثمّ طَيَّبُوهُ بالكَافورِ في مَوَاضِعِ سُجُودِه ومفاصِلِه، وكُفِّنَ صلى الله عليه وسلم بثلاثَةِ أثوَابٍ سَحُوْلِيَّة، بيض من القُطْن، مِن عَمَل السَّحُولِ ـ قرية من قُرَى اليَمن ـ، وليسَ فيها قميصٌ ولا عمامةٌ. وفي روايةٍ: أنه صلى الله عليه وسلم كفن في سبعةِ أثوابٍ، وبعدَ تكَفِينِه صلى الله عليه وسلم وكان ذلك يَوم الثُّلَاثاء بَخَّرُوهُ بعُودٍ وَنَدٍّ، ثمَّ احتمَلُوه حتّى وضَعُوه على سَرِيرٍ وسَجّوه فيه، وصَلّى عليه النّاسُ أَفْذاذاً لمْ يَؤُمّهُم أَحَدٌ.

فدخل عليه صلى الله عليه وسلم أبو بكرٍ وعمرُ، ومعهما نفرٌ من المهاجرين والأنصار، بقدرِ ما تَسَعُ البَيتُ، فقالا: السَّلامُ عليك أيّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته، وسَلَّم المهاجرون والأنصارُ كمَا سلّم أبو بكرٍ وعمر رضي الله عنهما، ثمّ صَفّوا صُفُوفاً لا يَؤُمّهم أَحَدٌ، ثمَّ صَلّوا عليه بأربع تكبِيرَاتٍ، ثُمّ تَشاوَرُوا كيف يدعُونَ له صلى الله عليه وسلم؟، وكان أبو بكرٍ وعمرُ في الصَّفِّ الأوّلِ الذي حِيَالَ رَسُوْلِ الله صلى الله عليه وسلم، فقالا: اللَّهُمَّ إنّا نَشْهدُ أنه صلى الله عليه وسلم قد بَلّغَ ما أُنْزِلَ إليه، ونصَحَ لأمّتِه وجاهَدَ في سَبيلِ الله حتّى أَعزَّ الله دينَه وتَمّتْ كَلِمَتَه، فاجْعَلنَا إلهنَا ممّنْ تبعَ القَولَ الذي أُنْزِلَ معَه، واجمَعْ بينَنا وبينَه حتّى تُعَرِّفَه بِنَا وتُعَرِّفُنا به، فإنّه كانَ بالمؤمنينَ رؤوفاً رحيماً، لا نبتغي بالإيمانِ به بَدَلاً ولا نَشْتَرِي به ثمناً أبداً، فقال

النّاسُ: آمِين آمِين، ثمّ قالوا جميعاً نحواً من قولِ أبي بكرٍ وعمرَ. فصَلّى عليه أولاً الرّجالُ الأحرارُ، ثم النساءُ الأحرارُ، ثمّ الصِّبيانُ، ثم العبيدُ، ثمّ الإماءُ.

واختلفوا في الموضع الذي يُدفَنُ فيه، فمِن قائل: يُدْفَنُ في البقيع، ومن قائل: يُنقل ويُدْفَنُ عند إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اِدفِنُوه في الموضِع الذِي قُبِضَ فيه، فإنَّ اللهَ لم يقبضْ رُوحَه إلّا في مكانٍ طيّب، وإنّ عندي في هذا خبراً؛ سمعتُ رَسُوْلَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «لَا يُدْفَنُ نَبِيٌّ إلّا حَيْثُ قُبِضَ»، فحُوِّلَ فِراشُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحُفِرَ له في ذلك الموضع الذي تَوَفَّاهُ الله فيه، ثم اخْتَلفُوا: هَل يُجْعَلُ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَحْدٌ أو يُجْعَلُ له شقٌّ؟، وكان في المدينةِ شَخْصَان، أحدهُما يصْنَعُ اللّحْدَ وهو أبو طلحةَ زيدُ بنُ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والآخرُ يصنعُ الشَّقَّ، وهو أبو عُبيدةَ بنُ الجرَّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فقال العَبّاسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أرْسِلُوا لَهُما، ومَن حَضَر منهما قبلَ الآخرِ أنزَلْناه، فأرسلوا إليهما رَجُلين، فسَبَقَ أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فصَنَعَ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَحْداً وأَطْبَقَ عليه بتِسْعِ لَبِناتٍ، ثمّ أُهِيلَ عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التراب.

ووُضِعَ سَريرُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند مُؤَخّرَةِ القبرِ، فكانَ رأسُه الشّريفُ عند المحَلّ الذي يكونُ فيه رِجْلاه إذا كانَ على فِرَاشِه، فلمَّا أُدْخِلَ القبرَ سُلَّ مِن قِبَلِ رَأسِه، ودخَلَ قبرَه العَبّاسُ وعَليٌّ والفضْلُ وقُثَم وشُقْرَانُ مولى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفَرَشَ شُقْرَانُ في اللّحْدِ تحتَه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطِيفةً بيضاءَ كانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجعلها على رَحْلِه إذا سَافرَ، فقال: واللهِ لا يَلْبَسُها أَحَدٌ بعدَكَ، فَدُفِنَتْ معَ رَسُوْلِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان دَفْنُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلةَ الأربعاء، قالتْ أمُّ سَلمَة رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْها:

كنّا مجتمعين، فلمّا سَمِعنا صَوتَ المَساحِي، صِحْنا وصَاح أَهْلُ المسْجِدِ، ثمَّ ارْتَجّتِ المدينةُ صَيحةً واحِدَةً، وبقينا نبكي تلكَ اللّيلة، لمْ نَنَمْ حتّى أَذَّنَ بلالٌ بصَلاةِ الفَجرِ، فلمّا ذكرَ النّبيَّ ﷺ بكَى وانتحبَ فزَادَنا حُزْناً، فيَا لها مِنْ مُصِيبَةٍ ما أَصَابنا بعدَها مُصِيبَةٌ إلّا هَانَتْ إذا ذكَرْنا مُصِيبَتَنا بهِ ﷺ.

ولما دُفِنَ رَسُوْلُ الله ﷺ قالتْ فاطِمَةُ لعليٍّ رضي الله عنهما: يا أبا الحَسَنِ كيفَ طابتْ نفُوسُكم أَنْ تَحثُوا على رَسُولِ الله ﷺ التّرابَ؟، فقال لها: لا رَادَّ لأمرِ الله.

وقد جاءَ: أنَّ الإِنسَانَ يُدفنُ في التربةِ التي خُلِقَ منها، وقَدْ قَامَ الإِجمَاعُ على أنَّ الموضِعَ الذِي ضَمَّ أَعضَاءَه الشّريفَةَ ﷺ أَفضَلُ بقاعِ الأرضِ، وأفضَلُ حتّى مِن مَوضِعِ الكَعْبةِ المشرَّفة. وقال بعضُهم: وأفضَل مِن بقاعِ السَّماءِ أيضاً حتّى مِنَ العَرْشِ.

وقد كانَ السّبَبُ في تَأخّرِ دفْنِه ﷺ لِمَا قَدْ عُلِمَ مِنِ اشْتِغَالِهم ببَيعَةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه حتّى تَمّتْ، ولأنّهم لم يكونوا جَميعاً مُتّفِقينَ على مَوتِه ﷺ[1]، وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: ما نفَضْنَا الأَيْدِي مِن دَفْنِ رَسُوْلِ

---

(١) وذلك لأنّ بعضَهم كان يرجو ويطمع في عودةِ الحيَاة له ﷺ، ولهذا لم يظهرْ منهم النّحِيبُ، ولم تَرْتَج المدينةُ بالبكاءِ إلا عندما فرغوا من دفنِه ﷺ، ويَدُلّ لذلك ما قَدّمَه المصنّفُ من قولِ سيدتنا أم سَلَمَة رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْها: كنا مجتمعين، فلمّا سَمِعنا صَوتَ المسَاحِي، صِحْنا وصَاح أَهْلُ المسجد، ثمّ ارْتَجّتْ المدينةُ صَيحةً واحدةً. ثُمّ لا يخفَى أنّ التأخرَ لم يكُنْ كثيراً بحيثُ يظهرُ منه إهمالٌ لشَخْصِه الشّريف ﷺ، كما أنه لم يَكُنْ عند الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم خَشْيةٌ مِنْ أَنْ يتغيّر جَسَدُه الشّريفُ إذْ قد علموا أنّ ذلك مُستحيلٌ عليه ﷺ=



الله ﷺ حتّى أنكَرْنَا قلوبَنا. وقال بعضُهم: أظْلَمَتِ الدّنيا حتّى لمْ ينظرْ بعضُنا إلى بعضٍ، وكان أحَدُنا يَبْسُطُ يدَه فلَا يَرَاها!. وقد قال رَسُوْلُ الله ﷺ: «أَنَا فَرَطٌ لِأُمَّتِي، وَلَنْ يُصَابُواْ بِمِثْلِي»، وقال ﷺ: «إِنَّ الله ﷻ إِذَا أَرَادَ بِأُمَّةٍ خَيْراً قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطاً وَسَلَفاً بَينَ يَدَيْهَا». فيَا لَه مِن خَطْبٍ جَلّ عَن الخُطُوب، ومُصَابٍ عَلّمَ دمْعَ العُيونِ كيفَ يَصُوب، وطَارِقٍ هَجَمَ هُجُومَ اللّيل، وحَادِثٍ هَدَّ كُلَّ القُوَى والحيْل.

= وهو مدفُونٌ فضْلاً عَن أَنْ يكونَ باقياً بين أظْهُرِهم. ومن أسباب تَأخرِ دفْنِه ﷺ: انتظارُ مجيءِ أصحابِ العوالي وهُم المسلمون الذين يسكنون خارجَ المدينة حتّى أنهم لمْ يكونوا يشهدون الصلاةَ جماعةً معَ النبيِّ ﷺ في حياتِه لبُعدِ المسافة، ولم يكونوا يشهدونَ إلا صلاةَ الجمعةِ والعيدين، ولما اجتمع العيد والجمعة في يوم واحدٍ في بعض السّنواتِ رَخَّصَ لهم النّبيُّ ﷺ في عَدَمِ المجِيءِ إلى الجمعةِ لمن قد حضرَ العيد معَه لكي لا تلْحَقَهم بذلك مَشَقّةٌ وتَعَبٌ، وقد هذه الرخصة خاصة بهم. ومن الأسباب: أنهم رَأوا أنّ المبادرة بالبيعة من أعظم مصَالح المسلمين، لأنّ تأخيرها ربّما لزم عليه اختلاف، فينشأُ عنه مفاسد كثيرة، وربّما حصَل بسببِ الاختلافِ سَفْكٌ للدِّماء وهو أم المفاسد كما لا يخفى، وفي هذا المقام تَجْدُرُ الإشارةُ إلى ما حصَل بعد مقتل عثمان بن عفان مِنَ الاختلاف والخرق الذي لم يُمْكِنْهم تَرْقِيعُه. وقد أَطَلْتُ في البيان لأنّ البعضَ يسْتَنْقِصُ من قدرِ الصّحابةِ ويجعلُ مِنْ مثلِ هذِه المواقفِ ذريعةً للطّعْن!.

بَابُ
سَرْدِ الحَوَادِثِ النّبَوِيَّةِ إِجْمَالاً

ولد رَسُولُ الله ﷺ عند طلوع الفجرِ، في يومِ الاثنينِ، في الثّاني عشر من شهرِ ربيع الأوّل، في عام الفيل، بمَكَّةَ المكرَّمةِ بالدّارِ التي صَارَتْ لمُحمّدِ بنِ يوسفَ الثّقفي.

وَفِي السَّنَةِ الرَّابعةِ مِنْ مَولِدِهِ ﷺ شُقَّ صَدرُه الشّريفُ في بَنِي سَعدٍ.

وَفِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنْ مَولِدِهِ ﷺ كانت وفاةُ أمِّهِ آمنةَ ودُفِنَتْ بالأبواء، وفي هذه السّنةِ اسْتَقَلّ بكَفَالتِه ﷺ جَدُّهُ عبدُ المطّلب بنُ هاشم.

وَفِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنْ مَولِدِهِ ﷺ أصابه رَمَدٌ شديد، وفيها اسْتَسْقَى جَدّه عبد المطلب لأهل مكةَ وكان معه النبي ﷺ، وفيها خرجَ عبدُ المطّلب لتهْنِئةِ سيفِ بن ذِي يَزَن الحميري بالمُلْكِ.

وَفِي السَّنَةِ الثّامنةِ مِنْ مَولِدِهِ ﷺ كانت وفاةُ جدّه عبدِ المطلب، وَاسْتَقَلّ بكَفَالته ﷺ عمُّه أبو طالبٍ.

وَفِي السَّنَةِ التّاسِعَةِ مِنْ مَولِدِهِ ﷺ سافر مع عمّه أبي طالب قاصداً الشّام، ثمّ رجعَ به عمّه أبو طالب من بُصْرى بأرضِ الشّام.

وَفِي السَّنَةِ العاشرة مِنْ مَولِدِهِ ﷺ كانت حربُ الفِجَار الأولى، وفي

هذه السنة كان شَقّ صَدْرِه الشّريفِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمَرّةِ الثانية.

وَفِي السَّنَةِ الثّانيةِ عشرة مِنْ مَولِدِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت حرْبُ الفِجَار الثانية، وفي هذه السنة كان سفرُ عمّه أبي طالب به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الشام على ما عليه الأكثرُ.

وَفِي السَّنَةِ الرّابعة عشرة مِنْ مَولِدِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت حرب الفِجَارِ الثالثة.

وَفِي السَّنَةِ السابعة عشرة مِنْ مَولِدِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان سفرُ عَمَّيْهِ الزّبير والعبّاس ابني عبدِ المطّلب لليمن للتّجارة، وكان بصُحبتِهما النّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَفِي السَّنَةِ الخامسة والعشرين مِنْ مَولِدِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان سفرُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الشّام بتجارة خديجة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وفيها تزوج صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجة.

وفي سنةِ خمْسٍ وثلاثين مِنْ مَولِدِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعادت قريشٌ بناءَ الكعبةِ المشرّفة.

وفي سنة سبع وثلاثين مِنْ مَولِدِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يرى الأنوار ويسمعُ الأصوات.

وفي سنةِ أربعين مِنْ مَولِدِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان نزول الوحي عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليقظة، بعد أن مكثَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستة أشهر يُوحَى إليه في المنام.

وَفِي السَّنَةِ الرّابعة مِنَ النُّبُوَّةِ كان إظْهارُ الدَّعوةِ.

وَفِي السَّنَةِ الخامسة مِنَ النُّبُوَّةِ كانت الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، وفيها ماتت سمية أم عمّار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُم، وهي أوّل شهيدة في الإسلام.

وَفِي السَّنَةِ السّادسة مِنَ النُّبُوَّةِ أسلمَ حمزةُ بنُ عبد المطّلب وعمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَفِي السَّنَةِ السابعة مِنَ النُّبُوَّةِ تقاسمت قريش وتعاهدت على معاداة ومقاطعة بني هاشم وبني المطلب، فحُوصِرُوا جميعاً في شِعْبِ أَبي طالب ثلاثَ سنواتٍ.

وَفِي السَّنَةِ التاسعة مِنَ النُّبُوَّةِ كانَ انشقاقُ القَمرِ له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَفِي السَّنَةِ العاشرة مِنَ النُّبُوَّةِ كانَ خروجُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شعبِ أبي طالبٍ معَ بني هاشم وبني المطّلِب، وفيها ماتَ أبو طالبٍ وخديجةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ولذلك سُمِّيَ: (عَامَ الحُزْنِ)، وفيها أَسْلَمَ جِنُّ نَصِيبين، وفيها تزوج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَودَةَ بنتَ زَمْعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ودخل عليها في مَكَّةَ، وفيها عَقَدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَفِي السَّنَةِ الحادية عشرة مِنَ النُّبُوَّةِ كانَ ابتداءُ إسلام الأنصار رَضِيَ اللهُ تعالى عَنْهم.

وَفِي السَّنَةِ الثانية عشرة مِنَ النُّبُوَّةِ كانَ الإسراءُ والمعراجُ، ووقعَتْ بيعة العقبة الأولى.

وَفِي السَّنَةِ الثالثة عشرة مِنَ النُّبُوَّةِ كانت بيعة العقبة الثانية.

وَفِي السَّنَةِ الرابعة عشرة مِنَ النُّبُوَّةِ وهي السنة الأولى من الهجرة، كانت الهجرة فيها إلى المدينة، في آخرِ صَفَر وغُرَّةِ ربيع الأوّل، وفيها كانَ بناءُ مَسْجدِ قُباء والمسجدِ النّبَويّ ومسَاكِنِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وابتداءُ خِدْمَةِ أنسِ بنِ مالكٍ له.

وَفِي السَّنَةِ الثانية مِنَ الهِجْرَةِ كان الإذْنُ بالجهادِ، وفيها ابتدئت الغزوات

فكانَ فيها غَزْوَة ودّان، وفي هذه السَّنة بنَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وفيها شُرِعَ الأذانُ، وفيها أسلمَ عبدُ الله بنُ سَلَام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان فيها سَرِيَّةُ حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يعترضُ عيراً لقريشٍ، وفيها سَرِيَّةُ عبيدة بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى بطْنِ رَابغ، وفيه سَرِيَّةُ سعدِ بنِ أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى الخرَّار يعترِضُ عيراً لِقُريشٍ. وفيها تزَوَّجَ عليٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَه بفاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وفيها غَزْوَة بواط، وغَزْوَة العشيرة، وسَرِيَّةُ عبد الله بن جحش رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى بطْنِ نخْلَة، وفيها تحويل القبلة وفرض صوم رمضان، وغَزْوَة بدرٍ الكبرى، ووَفاةُ رُقَيَةَ بنتِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضيَ عنها، وفرضُ زكاةِ الفِطْرِ، وزكاةِ الأموَال، ومشروعيةُ صَلاةِ العيدين والأضحية، وغَزْوَةُ قَرْقَرَةِ الكُدْرِ، وسَرِيّة سالم بن عمير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وغَزْوَة بني قينقاع، وغَزْوَة السُّوَيق، وموت عثمان بن مظعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَفِي السَّنَةِ الثالثة مِنَ الهِجْرَةِ سرية محمد بن مسلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لقتلِ كعبِ بنِ الأشرَف، وتزَوّجَ عثمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أمَّ كلثوم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وغَزْوَة غَطَفَان وغَزْوَة بحران، وسرية زيد بن حارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى القَرَدَةِ، وتَزَوُّجُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفصةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وبزينبَ بنتِ خُزيمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وولادةُ الحسَنِ، وغَزْوَةُ أُحُدٍ، وغَزْوَةُ حمراءِ الأسد.

وَفِي السَّنَةِ الرابعة مِنَ الهِجْرَةِ سريّة أبي سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى قَطَن، وفيها سرية عبدِ الله بن أنيس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى عَرَنَةَ لقَتْلِ سِنَان بنِ خالد، وفيها بعثُ القرّاء، ومأساةُ بئر معونة، وبعثُ الرَّجيع، وسريةُ عمرو بن أمية الضمري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى مَكَّةَ لقتل أبي سُفْيَان، وفيها غَزْوَة بني النضير، ووفاةُ زينبَ بنتِ خُزَيمةَ، وغَزْوَة ذات الرِّقاع، وصلاةُ الخوف، وولادةُ الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وغَزْوَةُ بدرٍ الثانية، وتزوجُ أمِّ سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وتحريمُ الخمْرِ.

وَفِي السَّنَةِ الخامسة مِنَ الهِجْرَةِ غَزْوَةُ دومة الجنْدل، وغَزْوَةُ المريسيع، ونزولُ آيةِ التّيمم، وتزوّجُ جُوَيرِيّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقصّةُ الإفكِ، وغَزْوَةُ الخندقِ، وغَزْوَةُ بَنِي قُرَيْظَةَ، وتزوُّجُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينبَ بنتِ جَحْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ونزولُ آيةِ الحجابِ، وفرْضُ الحجِّ.

وَفِي السَّنَةِ السادسة مِنَ الهِجْرَةِ سريةُ محمد بن مَسْلَمة إلى القَرْطَاء، وغَزْوَةُ بني لِحْيَان، وغَزْوَةُ الغابةِ، وفيها سريةُ عُكَّاشَةَ إلى الغَمْرِ، وسريةُ محمّدِ بنِ مَسلَمَةَ إلى ذي القَصّة، وسريةُ أبي عُبَيدةَ إلى مَصَارع أصْحَابِ محمَّدِ بنِ مَسْلَمَةَ، وسرية زيد بن حارثة إلى بني سُلَيم بالجَمُومِ وفيها سريّتُه إلى العَيْصِ، وسَرِيَّتُه إلى الطَّرِفِ، وسريّتُه إلى وادِي القُرَى، وسرِيَّتُه إلى أمِّ قِرْفَةَ، وسريّةُ عبدِ الله بنِ عَتِيك لقتل أبي رَافع، وسريّة عبد الله بن رواحة لقَتلِ أسيرِ بنِ رِزَام، وسريةُ زيدِ بن حارثة إلى حَسْمَى، وغَزْوَة الحُدَيْبِيَة، وتزَوُّجُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمِّ حَبيبة.

وَفِي السَّنَةِ السابعة مِنَ الهِجْرَةِ، كان اتّخاذُ الخاتم، وإرسالُ الرّسل إلى الملوكِ، ووقوع السّحْرِ به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغَزْوَة خَيْبَرَ، وفتحُ وادِي القُرَى، وفيها الدّخول بأمِّ حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وسرِيَّةُ عمرَ بنِ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى طائفةٍ من هَوَازنَ، وعمرةُ القضاء، وتزوّج ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وسرية ابن أبي العَوجَاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني سُلَيم.

وَفِي السَّنَةِ الثامنة مِنَ الهِجْرَةِ، كان إسلامُ خالدِ بنِ الوليدِ، وعمرو بنِ العاص، وعثمانَ بنِ طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وسريّةُ غالب بن عبد الله الليثي إلى بني المُلَوّح، وسريّتُه إلى فَدَك، واتّخاذُ المنبرِ الشريف، وسريّة شُجَاع بنِ وَهْبٍ إلى بني عَامِرٍ، وسرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أَطْلَاح، وغَزْوَةُ مُؤْتَة، وسريةُ عمرو بن العاص ذات السلاسل، وسريةُ أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر،

وسرية أبي قتادة إلى بَطْنِ إِضَم ، وسريّة عبد الله بن أبي حَدْرَدٍ إلى الغابة ، وغَزْوَةُ فتحِ مَكَّةَ شرَّفها الله تعالى ، وسرية خالدِ بن الوليد إلى العُزّى بنخلة ، وسرية عمرو بن العاص إلى سُوَاع صنم هُذَيل ، وسرية سعدِ بن زيد الأشْهَليّ إلى مَنَاة صنم للأوس ، وسرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، وغَزْوَةُ حُنَين ، وسرية أبي عامر إلى أوطاس ، وسرية أبي الطفيل إلى ذي الكفين ، وغَزْوَة الطائف ، ووِلَادَةُ إبراهيمَ ولدِه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وقدوم وفد هَوَازِنَ وهو أوّلُ الوُفود ، ووفاةُ زينبَ بنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورَضِيَ عنها .

وَفِي السَّنَةِ التاسعة مِنَ الهِجْرَةِ ، بعث صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُيينَةَ بنَ حِصْنٍ الفَزَارِيّ إلى تميم ، وبعثَ الوليدَ بنَ عُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ إلى بني المصْطَلِق ، وسريةُ قُطْبَةَ بنِ عامرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى خثعم ، وسرية الضحاك الكلابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى بني كلابٍ ، وسريةُ عَلْقَمَةَ بنِ مُحْرِز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أهلِ الحبَشَةِ ، وبعثُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ كَرَّمَ الله وَجْهَه إلى الفُلْسِ ، وبعثُ عُكّاشَةَ بنِ محصْن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى الحباب ، وإسلامُ كعبِ بنِ زُهَيرٍ ، وغَزْوَةُ تبوكَ ، وسريةُ خالدِ بنِ الوَليدِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِن تبوكَ إلى أُكَيدِر ، وإرْسالُ كِتابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن تبوكَ إلى هرقلَ ، وهدمُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ ، وإسلامُ ثَقِيفٍ ، ووَفَاةُ النّجاشي ، ووفاةُ أمِّ كلثوم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، وموتِ ابنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلول ، وحجُّ أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالناس .

وَفِي السَّنَةِ العاشرة مِنَ الهِجْرَةِ ، قدومُ عَدِيّ بنِ حَاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وبعثُ أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومعاذِ بنِ جبَل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى اليَمن ، وبعثُ خالدِ بنِ الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى بني الحارِث بنَجْران ، وبعثُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ كَرَّمَ الله وَجْهَه إلى اليمن ، وفيها بعثُ جريرِ بنِ عبدِ الله البَجَلي لتخْريبِ ذِي الخَلصَةِ ، وبعثُه أيضاً إلى ذِي

الكلَاع، وبعثُ أبي عبيدةَ بنِ الجرّاح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهل نجران، وقصَّةُ تميم الدّاري، ووفاةُ إبراهيمَ ولدِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخروجُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحجَّةِ الوَداع.

وَفِي السَّنَةِ الحادية عشرة مِنَ الهِجْرَةِ، قُدُومُ وفدِ النَّخْعِ، وسَرِيَّةُ أُسَامَةَ بنِ زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى أَبْنَى، وقصَّة الأَسْوَدِ العَنْسِي ومُسَيلمَةَ الكَذّاب، وما وقعَ في ابتداءِ مَرَضِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وموتِه ودَفْنِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشَرَّفَ وكَرَّمَ، واللهُ أعْلَمُ.

اللَّهُمَّ أعنّا على ذكرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِك، اللَّهُمَّ افتح أقفال قلوبنا بذكرك، وأتمِم علينا نعمتَك من فضلِك، واجعلنا مِن عبادِك الصالحين، اللَّهُمَّ استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، اللَّهُمَّ ألهمنا رُشْدَنا، وأعذنا من شرّ نفوسِنا، اللَّهُمَّ ارزقنا نفوساً مطمئنة تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعطائك، اللَّهُمَّ إنا مقصّرُون في طلب رضاك فأعنّا عليه بحولك وقوتك، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنا مُحمَّدٍ عَبْدِكَ ونَبِيِّكَ ورَسُولِكَ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، وعَلَى آلِ مُحمَّدٍ وأَزْوَاجِه وذُرِّيَاتِه كمَا صَلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على مُحمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ وأَزْوَاجِه وذُرِّيَّتِه كما بارَكْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ في العالمينَ إنّك حَمِيدٌ مجَيدٌ، واخْتِمْ لنَا بِخَيرٍ، وأَصْلِحْ لنَا شَأْننا كُلَّهُ، وافْعَلْ ذَلِكَ بِإِخْوَانِنا وأَحْبَابِنا وسَائِرِ المُسْلِمينَ، وأَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَولٍ بلا عَمَلٍ، وأَسْتَغْفِرُهُ مِنْ كلِّ خَطَأٍ وزَلَلٍ، وأَسْأَلُه عِلْماً نَافِعاً، ورِزْقاً واسِعاً، وقَلْباً خَاشِعاً، وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً، وشِفَاءً مِنْ كلِّ دَاءٍ، وأَنْ يجْعَلَ ذَلك حُجَّةً لنا، ولا يَجْعَلْهُ حُجَّةً علينا إِنَّه جَوادٌ كَرِيمٌ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ لَطِيفٌ خَبِيرٌ، والحمْدُ لله وحْدَه.

اللَّهُمَّ صَلِّ على مَنْ لا نَبِيَّ بعْدَه، عَبْدِكَ ورَسُولِكَ سَيِّدِنا محمَّدٍ، الذّاتِ المكَمَّلَةِ، والرَّحْمَةِ المنزَّلَةِ مِنْ عِنْدِكَ، اللَّهُمَّ احْشُرْنَا في زُمْرَتِه، واجْعَلْنَا مِنْ خُدَّامِ سُنَّتِه آمِين، وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكيل، ولَا حَولَ ولَا قُوَّةَ إلّا بالله العَلِيِّ العَظِيم.




محتويات الكتاب




الموضوع	الصفحة




الموضوع	الصفحة




الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة




الموضوع	الصفحة




الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة




الموضوع	الصفحة

دليل الطالب

لنيل المطالب

تأليف

الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي

(ت ١٠٣٣هـ)

تحقيق

مبارك بن راشد الحثلان

حقق على عشر نسخ خطية

دار الضياء

للنشر والتوزيع

الكويت



في بعض أحكام الصلاة

تأليف الفقيه العلامة

سالم بن عبدالله بن سعد بن عبدالله بن سمير

(ت ١٢٧٠هـ)

مع تكملة للسفينة في أحكام الصوم

للشيخ محمد نووي بن عمر الجاوي التناري

(ت ١٣١٤هـ)

تشرف بخدمته

د. مصطفى بن حامد بن سميط

النسخ المعتمد عليها قريبة من عصر المؤلف

دار الضياء

للنشر والتوزيع

الكويت

فتح الودود

بسلم الصعود على مراقي السعود

تأليف العلامة

محمد يحيى بن محمد المختار الولاتي الشنقيطي

(١٢٥٦-١٣٣٠هـ)

دراسة وتحقيق

أ.د أمين ولد البشير

رئيس جامعة محمد الأمين الشنقيطي - موريتانيا

تصحيح ومراجعة

د. الشيخ التيجاني بن أحمدي — د. التاه بن محمدن بن اجمد

دار الضياء

للنشر والتوزيع

الكويت

جليلة الإفادة

في

شرح وسيلة السعادة

تأليف العلامة

زين العابدين بن اجمد اليدالي

(ت ١٣٥٨هـ)

دراسة وتحقيق

د. التاه بن محمدن اجمد

دار الضياء

للنشر والتوزيع

الكويت

نشر البنود
على مراقي السعود

تأليف العلامة
سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم العلوي
(ت ١٢٣٣هـ)

تقديم وتحقيق
د. الشيخ التيجاني بن أحمدي
د. التاه بن محمدن بن اجمد

الجزء الأول

دار الضياء للنشر والتوزيع
الكويت

نشر البنود
على مراقي السعود

تأليف العلامة
سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم العلوي
(ت ١٢٣٣هـ)

تقديم وتحقيق
د. الشيخ التيجاني بن أحمدي
د. التاه بن محمدن بن اجمد

الجزء الثاني

دار الضياء للنشر والتوزيع
الكويت

فتح القدير وإعانة الفقير
شرح
مختصر أبي فضل الكبير

تأليف الشيخ الإمام العلامة
عفيف الدين محمد بن عبدالله باسودان
(١٢٠٦ - ١٢٨١هـ)

شرح للمختصر الكبير من تحفة المحتاج والمنهج القويم

تقديم فضيلة العلامة
السيد عمر بن حامد بن عبد الهادي الجيلاني

تشرف بخدمته
عرفات بن عبد الرحمن بن عوض المقدي
محاضر بكلية الشريعة والقانون - جامعة الأحقاف

دار الضياء للنشر والتوزيع
الكويت

الفتح الرباني
في حل ألفاظ تصريف عز الملة الزنجاني

تأليف الإمام
شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني
(ت ٩٧٧هـ)

دراسة وتحقيق
د. عبد الحميد السيد دومة
مدرس اللغويات بكلية اللغة العربية بالمنوفية
فرع جامعة الأزهر

دار الضياء للنشر والتوزيع
الكويت

دراسة شهية لمصطلحات المذاهب الأربعة الفقهية

مستخلصة من زهاء مئة وخمسة وسبعين مصنفًا
في الفقه ومتعلقاته لأئمة المذاهب الأربعة

تأليف الفقير
عبد البصير بن سليمان بيلاكل الثقافي الهندي المليباري الشافعي
من أساتذة الفقه الشافعي وقواعده بكلية الشريعة
جامعة المركز كاليكوت - الهند

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت

حديقة الأبرار على بهجة الأنوار وحضرة الأسرار ومجالس الأذكار

تأليف
شيخ الإسلام ومفتي الأنام سراج البلد الحرام
عبد الله بن سعيد بن محمد عبادي اللحجي
الحضرمي الشحاري المراوعي المكي
(١٣٤٤ - ١٤١٠هـ)

بعناية تلميذه
الدكتور أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحداد
عفا الله تعالى عنه

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت

فتاوى العلامة المحدث الفقيه الشيخ

عبد الرحمن بن الشيخ أبي بكر الملا

المسماة

قطف الورود من الأسئلة والردود

جمعها واعتنى بها
د. رائد بن عبد الله بن محمد الملا

تقديم
العلامة الفقيه الشيخ وهبي غاوجي الألباني

تقريظ
العلامة الفقيه المستشار الشيخ السيد علي بن السيد عبد الرحمن الهاشم
العلامة المحدث المسند عبد الشكور هاشم الفياض المظاهري
العلامة الفقيه الشيخ يحيى بن الشيخ محمد بن الشيخ أبي بكر الملا

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت

قواعد التصوف وشواهد التعرف

المسمى أيضًا
تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الوصول
في أمور أعمها التصوف ومافيه من وجوه التعرف

تأليف الشيخ الإمام
أبي العباس أحمد زروق الفاسي
(٨٤٦ - ٨٩٩هـ)

تحقيق
نزار حمادي

دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت



الأنباء
في شرح حقائق الصفات والأسماء
تأليف العلامة الحافظ المحدث
أبي العباس أحمد بن معد الأقليشي الأندلسي المالكي
(ت ٥٥٠ هـ)
دراسة وتحقيق وتعليق
د. أحمد رجب أبو سالم
كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية
١-٢
دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت
إتقان الصنعة
في تحقيق معنى البدعة
تأليف
العلامة المفيد عبد الله بن الصديق الغماري
(١٣٢٨ - ١٤١٣هـ)
ومعه
مختصر كتاب تحقيق البدعة
للإمام محدث حضرموت
علي بن محمد بن طاهر بن يحيى باعلوي الحسيني الحضرمي
اختصره الشيخ
خالد عوض بن طرش
دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت
سلسلة التراث الأزهرية (٢)
شرح
المنظومة الجزائرية
في العقائد
تأليف العلامة الشيخ
أحمد بن تركي المنشليلي المالكي الأزهري
(ت ٩٧٩هـ)
وهو اختصار لشرح الإمام السنوسي
المسمى المنهج السديد في شرح كفاية المريد
تحقيق
محمود عبد الصادق الحساني
دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت
إتمام الدراية لقراء النقاية
خلاصة مختارة من أربعة عشر علمًا
أصول الدين، التفسير، الحديث، أصول الفقه، الفرائض،
النحو، التصريف، الخط، المعاني، البيان،
البديع، التشريح، الطب، التصوف
تأليف
الإمام جلال الدين السيوطي
(ت ٩١١هـ)
دراسة وتحقيق وتعليق
د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان
د. عبد الرقيب صالح الشامي
فضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ
قوبل على خمس نسخ خطية
١-٢
دار الضياء
للنشر والتوزيع
الكويت

إيضاح القواعد الفقهية

تأليف

شيخ الإسلام ومفتي الأنام سراج البلد الحرام

عبد الله بن سعيد بن محمد عبادي اللحجي

الحضرمي الشحاري المراوعي المكي

(١٣٤٤ - ١٤١٠ هـ)

بعناية تلميذه

الدكتور أحمد بن عبد العزيز بن قاسم الحداد

عفا الله تعالى عنه

دار الضياء للنشر والتوزيع الكويت

خلاصة الأقوال في حديث إنما الأعمال

تأليف الإمام العلامة

مُحيي الدين الكافيجي الحنفي

(ت ٨٧٩ هـ)

ويليه للمؤلف أيضاً

- مُختصرٌ في علمِ الإرشادِ والتعليم
- الرَّحمةُ في بيانِ أحوالِ عالمِ البرزخ
- الرُّوحُ في علمِ الرُّوح
- الإحكامُ في معرفةِ الأحكامِ والأيمان
- الكافي الشافي في مسألةِ العقلِ والعِلم
- فرائدُ بحرِ الفوائد

دراسة وتحقيق

د. أحمد رجب أبو سالم

كلية اللغة العربية بالمنوفية

ومركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر الشريف

دار الأصالة للنشر والتوزيع مصر

دار الضياء للنشر والتوزيع الكويت

الأجوبة الفقهية

تأليف

الإمام الفقيه المحدث الأصولي

أحمد بن مبارك السجلماسي اللمطي

(١٠٩٠ - ١١٥٦ هـ)

دراسة وتحقيق

الدكتور إبراهيم بن الشيخ راشد المريخي

دار الضياء للنشر والتوزيع الكويت

رسالة الأخلاق

تأليف الإمام

عضد الدين الإيجي

(ت ٧٥٦ هـ)

وشرحها للعلامة طاشكبري زاده

(ت ٩٦٨ هـ)

دراسة وتحقيق

أ. د. إبراهيم صلاح الهدهد

نائب رئيس جامعة الأزهر الشريف

دار الضياء للنشر والتوزيع الكويت